# تيسير الكريم الرحمن

## في تفسير كلام المنان

الجزء الأول

تأليف

العلامة الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

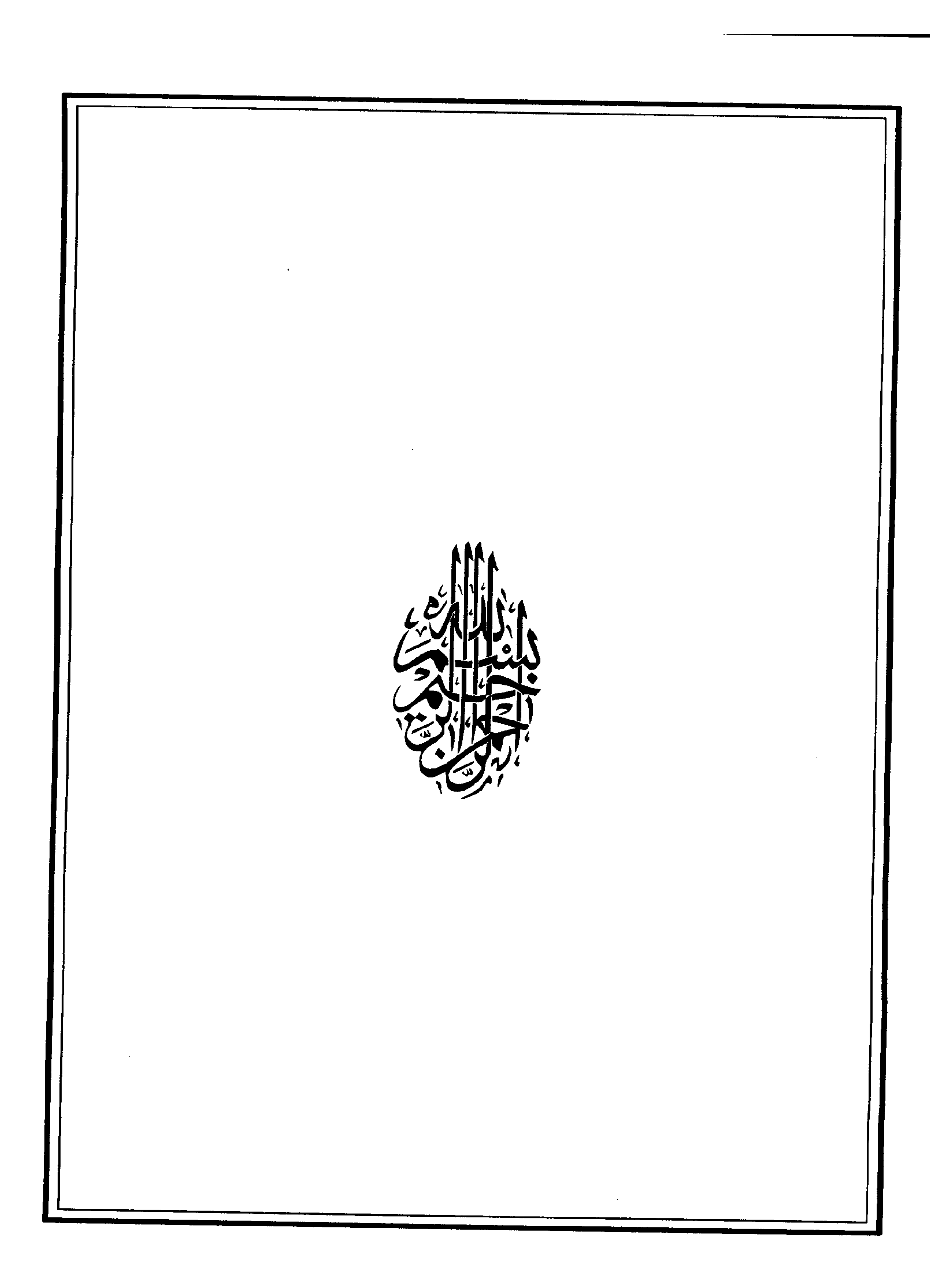
١٣٠٧-١٣٧٦هـ

رحمه الله تعالى

تحقيق

جمال نصر

دار العقيدة



# تيسير الكريم الرحمن

## في

## تفسير كلام المنان



وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا

حقوق الطبع محفوظة

٢٠٠٧م - ١٤٢٨هـ

تيسير الكريم الرحمن

تأليف: السعدي، عبد الرحمن بن ناصر

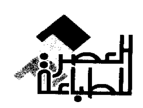
ط ١ - الإسكندرية دار العقيدة، ٢٠٠٧

عدد الصفحات: صفحة

المقاس: ١٧ × ٢٤

رقم إيداع: 2006 / 24790

ترقيم دولي: 977-347-120-9



فاكس: ٢٤٣٣٢٤٩
محمول: ٠١٠١٩٠٠٠٣٨٠




دار العقيدة

الإسكندرية: ١٠١ ش الفتح باكوس ت: ٠٣/٥٧٤٧٣٢١ ف: ٠٠٢٠٣/٥٧٦٥٦٢١

القاهرة: ٢ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر ت: ٠٠٢٠٢/٥١٤٣١٧٤

E-mail: dar_alakida@yahoo.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

## مقدمة التحقيق

إنَّ الحمدَ للَّهِ نحمدُهُ ونستعينُه ونستغفره ، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفُسنا ومن سيئاتِ أعمالِنا ، من يهدِهِ اللهُ فلا مُضلَّ لَهُ ومن يُضلل فلا هاديَ لهُ .

وأشْهَدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ، وأشهدُ أنَّ مُحمَّدًا عبدُه ورسولُه .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [ سورة آل عمران : ١٠٢ ] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [ سورة النّساء ١ ] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [ سورة الأحزاب ٧٠ - ٧١ ] .

أمَّا بعـدُ :

فإنَّ أصدَقَ الحديثِ كتابُ اللهِ تعالى ، وخيرَ الهدي هديُ مُحمَّدٍ ﷺ ، وشرَّ الأمورِ مُحدثاتُها ، وكُلَّ مُحدَثَةٍ بدعةٍ ، وكُلَّ بدعةٍ ضلالةٍ ، وكُلَّ ضلالةٍ في النَّارِ .

بين يديك أخي القارئ واحد من أفضل كُتب التَّفسير المُعاصرة ألا وهو كتاب العلَّامة عبد الرَّحمن ابن ناصر السَّعدي - رحمه اللَّه - المُسمَّى بـ : « تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان » ، الذي كان وما يزال مؤنسًا لي كُلَّما توحَّشت بي الأُمور ، أو سرتُ والليل واحتجتُ إلى رفيق ، فقد جمع فيه - رحمه اللَّه - شوارد ، وفرائد ، وفوائد من علم عُلماء السَّلف أخصُّ ابن تيمية شيخ الإسلام ، العلم ، المنار ، وابن القيِّم طبيب المعاني ، ووريث علم السَّلف .

فقد سار على دربهم واقتفى أثرهم فأبلى بلاءً حسنًا ، فجزاه اللَّه خير الجزاء ، وجعل الفردوس الأعلى مثواه .

فكتابه « تيسير الكريم الرَّحمن » يُعدُّ بحقٍّ موسوعة علميَّة تتناول كافة مناحي العلوم الشَّرعيَّة من تفسير وبيان معاني الآيات القُرآنيَّة ، وتناول - رحمه اللَّه - فيه أدق المسائل العقدية ، ثُمَّ شرح آيات الأحكام واستخلص منها الأحكام الفقهيَّة في نزاهة وحيدة ، وذكر الفوائد العجيبة في آيات التَّنزيل ، ثُمَّ هو - كما لا يخفى - يعرض مسائل علوم الآلات من أصُول ومُصطلح ولُغة في سلاسةٍ ويُسر ، فبين يديك كتابٌ قيم لا تُفرِّط فيه فاتَّخذه سميرًا لك ، فلا تُفارقه ولا يُفارقك .

وقد توسَّعت في بيان فضل هذا الكتاب في مُقدِّمة تحقيقي الموسَّع عليه ، فراجعه إنْ شئت .

أبو أُسامة الأثري

## ترجمةُ العلّامة

## عبد الرَّحمن بن ناصر السَّعدي

هو العلّامة أبو عبد اللّه عبد الرّحمن بن ناصر السّعدي .

من قبيلة تميم .

ولِدَ في بلدة « عُنيزة » في « القصيم » ، بتاريخ ١٢ المُحرَّم عام ألف وثلاثمائة وسبع من الهجرة .

وتوفيت أمُّه وله أربع سنين ، ولحق بها أبوه وهو ابن سبع سنين فنشأ-رحمه الله- يتيمًا ، وكفلته زوجة أبيه ، وآثرته بالرّعاية أكثر من أبنائها - فجزاها اللّه خيرًا .

ولمّاَ شبَّ صار في بيت أخيه الأكبر حَمَد ، وكان رجلًا صالحًا ، فنشأ - رحمه اللّه - نشأةً صالحةً كريمةً ، وعُرف مُنذ حداثته بالحرص على الصّلوات في الجماعة والاجتهاد البالغ في طلب العلم ، وكان مُتوقِّد الذَّكاء ، قوي الحفظ ، فقد أتمّ حفظ القُرآن وهو ابن أحد عشر سنّة .

واشتغل بعد ذلك في التّعلُّم على عُلماء بلده ، وعلى من قدِمَ إليها من العُلماء ، وكان قد استرعى الأنظار منذ حداثة سنه بذكائه ورغبته الشّديدة في العلوم ، وقد قرأ القرآن بعد وفاة والده ثم حفظه عن ظهر قلب ، وأتقنه وعمره أحد عشر سنة ، ثُمّ اشتغل في التّعلم على علماء بلده وعلى من قدم بلده من العلماء ، فاجتهد وجد حتى نال الحظَّ الأوفر من كل فن من فنون العلم ، ولمّا بلغ من العمر ثلاثًا وعشرين سنة جلس للتدريس فكان يتعلم ويُعلّم ، ويقضي جميع أوقاته في ذلك حتى إنه في عام ألف وثلاثمائة وخمسين صار التّدريس ببلده راجعًا إليه ، ومُعوّل جميع الطلبة في التّعلم عليه . فاجتهد حتّى نال نصيبًا وافرًا من العلم الشّرعي ،ولم يقتصر في طلبه للعلم على فنٍ واحد ، بل قرأ في فنونٍ كثيرة ، فقرأ في : التّفسير والحديث والعقائد والفقه والأُصول والمُصطلح وعلوم اللّغة وغيرها .

وجلس للتّدريس لمّا بلغ من العمر ثلاثًا وعشرين عامًا ، حتّى صار إليه التّدريس في بلده عام ألف وثلاثمائة وخمسين .

*** شيوخه :**

تلقي الشّيخ - رحمه الله- العلم على يد ثُلة من العُلماء الأجلاء المشهود لهم بالعلم والدّيانة ، مما كان له أكبر الأثر في شخصيته ، وكتاباته بعد ذلك ، منهم :

- الشّيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر :

وكان الشّيخ السّعدي يصفه بحفظه للحديث ، ويتحدّث عن ورعه ، ومحبته للفقراء والمساكين ومواساته لهم ، وكان كثيرًا ما يأتيه الفقير في اليوم الشّاتي فيخلع أحد ثوبيه ويُلبسه الفقير مع حاجته إليه وقلة ذات اليد .

- الشّيخ مُحمّد بن عبد الكريم الشّبل :

قرأ الشّيخ عليه الفقه ، وعلوم العربية وغيرها .

- الشّيخ صالح بن عُثمان ، قاضي عُنيزة :

وهو أكثر من قرأ عليه الشَّيخ السّعدي ، ولازمه مُلازمة تامة حتى تُوفي .
وقرأ عليه في : التَّوحيد ، والتَّفسير ، والفقه وأصوله وفروعه ،وعلوم العربية .
– الشَّيخ على النَّاصر أبو واداي :
قرأ عليه في : الحديث ، وأخذ عنه الأُمَّهات السّت ، وأجازه في ذلك .
– الشَّيخ محمد ابن الشَّيخ عبد العزيز بن المُحمد المانع :
مُدير المعارف في المملكة السّعودية .
وقد قرأ عليه الشَّيخ في عُنيزة .
– الشَّيخ مُحمَّد الأمين المُختار الشّنقيطي .
وأخذ عليه لمَّا نزل « عُنيزة » وجلس فيها للتَّدريس .
قرأ عليه في : التَّفسير ، والحديث ومُصطلحه ، وعُلوم العربية كالنَّحو والصَّرف .
– الشَّيخ عبد اللَّه بن عايض .
– الشَّيخ صعب التّويجري .
– الشَّيخ علي السناني .
وقد انتفع الشَّيخ السّعدي – رحمه اللَّه – كثيرًا من كُتب شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيِّم – رحمهما اللَّه – .

*** تلاميذه :**

تخرَّج على يديه عددٌ كبير من طُلَّاب العلم النَّابهين الذين نالوا قسطًا كبيرًا من الشُّهرة ، وذيوع الصِّيت ، يكفيك أنْ تعلم أنَّ منهم :

– العلَّامة محمد بن صالح العُثيمين ، الذي خلف الشَّيخ في إمامة الجامع الكبير بـ :« عُنيزة » ، وفي التَّدريس والوعظ والخطابة .
– الشَّيخ عبد العزيز بن مُحمَّد السّلمان .
– الشَّيخ عبد اللَّه بن عبد الرحمن البسّام .
– الشَّيخ سُليمان بن إبراهيم البسّام .
– الشَّيخ محمد بن عبد العزيز المطوع .
– الشَّيخ محمد المنصور الزَّامِل .
– الشَّيخ علي بن محمد الزَّامل .
– الشَّيخ عبد اللَّه بن عبد العزيز بن عقيل .
– الشَّيخ عبد اللَّه المُحمد العُوهلي .
– الشَّيخ عبد اللَّه بن حسن آل بريكان .

* صفاته :

كان على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة ، فقد عُرف - رحمه اللّه - بحُسن الخُلق ، وطيب الكلام ، وبذل النَّصيحة ، والتواضع الجمّ ، وكانت تميّزه دعابة ، وتعلو البسمة وجهه ، بحيث لا يُرى الغضب على وجهه إلَّا قليلًا ، وكان على جانب كبير من الأدب والعفَّة والنَّزاهة والحزم في كل أعماله ، زاهدًا مُتعففًا ، عزيز النَّفس على قلة ذات يده ، ذا شفقة على الفُقراء والمساكين والغُرباء ، ويدفع للفقراء من الطَّلبة الأموال ليتجردوا عن الانشغال بوسائل المعيشة متواضعًا للصَّغير والكبير والغني والفقير ، وكان يقضي بعض وقته في الاجتماع بمن يرغب حضوره فيكون مجلسهم ناديًا علميًا ، حيث إنَّه يحرص أنْ يحتوي على البحوث العلميَّة والاجتماعيَّة ، ويحصل لأهل المجلس فوائد عظمى من هذه البحوث النَّافعة الَّتي يشغل وقتهم فيها ، فتنقلب مجالسهم العاديَّة عبادة ومجالس علمية ، ويتكلم مع كل فرد بما يناسبه ، ويبحث معه في المواضيع النَّافعة له دنيا وأخرى ، وكثيرًا ما يحل المشاكل برضاء الطَّرفين في الصُّلح العادل ، وكان ذا شفقة على الفقراء والمساكين والغرباء مادًّا يد المُساعدة لهم بحسب قدرته ويستعطف لهم المحسنين ممن يعرف عنهم حب الخير في المُناسبات ، وكان على جانب كبير من الأدب والعفة والنزاهة والحزم في كل أعماله ، وكان من أحسن الناس تعليمًا وأبلغهم تفهيمًا ، مُرتّبًا لأوقات التّعليم ، ويعمل المُناظرات بين تلاميذه المحصِّلين لشحذ أفكارهم ، ويجعل الجُعل لمن يحفظ بعض المتون ، وكل من حفظه أُعطى الجعل ولا يحرم منه أحد .

ويتشاور مع تلاميذه في اختيار الأنفع من كتب الدِّراسة ، ويُرجِّح ما عليه رغبة أكثرهم ومع التَّساوي يكون هو الحكم ، ولا يمل التلاميذ من طول وقت الدراسة إذا طال لأنهم يتلذذون من مجالسته ، ولذا حصل له من التَّلاميذ المُحصِّلين عدد كثير .

وكان ملبسه متوسِّط الحُسن مُجانبًا الشُّهرة .

أمَّا صفاته الخَلقيَّة ، فقد كان ذا قامة متوسِّطة ، كثيف الشَّعر ، مُستدير الوجه ممتلئًا ، طلقًا ، كثيف اللحية ، يعلوه النُّور وصفاوة اللون .

وكان ذا معرفة تامة في الفقه ، أصوله وفروعه ، وفي أول أمره مُتمسِّكًا بالمذهب الحنبلي تبعًا لمشائخه ، وحفظ بعض المُتون من ذلك ، وكان له مُصنَّف في أوَّل أمره في الفقه ، نظم رجز نحو أربعمائة بيت وشرحه شرحًا مُختصرًا ، ولكنَّه لم يرغب ظهوره لأنَّه على ما يعتقده أولًا .

وكان أعظم اشتغاله وانتفاعه بكُتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيِّم ، وحصل له خير كثير بسببهما في علم الأصول والتَّوحيد والتَّفسير والفقه وغيرها من العلوم النَّافعة ، وبسبب استنارته بكُتب الشَّيخين المذكورين صار لا يتقيَّد بالمذهب الحنبلي ، بل يُرجِّح ما ترجَّح عنده بالدَّليل الشَّرعي . ولا يطعن في عُلماء المذاهب . وله اليد الطُّولى في التَّفسير ، إذ قرأ عدَّة تفاسير وبرع فيه ، وألَّف تفسيرًا جليلًا في عدَّة مُجلَّدات ، فسَّره بالبديهة من غير أنْ يكون عنده - وقت التَّصنيف - كتاب تفسير ولا غيره ، ودائمًا يقرأ والتَّلاميذ في القُرآن الكريم ويُفسِّره ارتجالًا ، ويستطرد ويُبيِّن من معاني القُرآن وفوائده ، ويستنبط منه الفوائد البديعة والمعاني الجليلة ، حتَّى إنَّ سامعه يود أنْ لا يسكت لفصاحته وجزالة لفظه وتوسُّعه في سياق الأدلَّة

والقصص ، ومن اجتمع به وقرأ عليه وبحث معه عرف مكانته في المعلومات ، كذلك من قرأ مُصنَّفاته وفتاويه .

*** أهم مؤلفاته :**

للشَّيخ مؤلفاتٍ عديدة في كافة علوم الشَّرع ، كُلها نافعة لا يستغني عنها طالب علم ، منها :

*** القرآن وعلومه :**

– « تيسير الكريم الرَّحمن » :

وهو من أعظم كُتب الشَّيخ وأكثرها فائدة ، وقد كتبه الشَّيخ وعمره « ٣٤» عامًا .

وقد يسَّر اللَّه لي تحقيقه على الوجه اللائق به .

– « تيسير اللطيف المنَّان خُلاصة تفسير القرآن » .

واشتمل على فصول مُستقلة من : العقائد ، والأخلاق والتَّزكيَّة ، والأحكام الفقهيَّة ، والقصص القُرآني ، والسِّيرة النبويَّة ، ومجموعة من الفوائد المُنوَّعة .

– « القواعد الحسان لتفسير القُرآن » .

واشتمل على سبعين قاعدة تُعين على فهم القُرآن وتدبُّره ومعرفة تفسيره .

*** العقيدة :**

– « فتح الرَّبِّ الحميد في أصول العقائد والتَّوحيد » .

– القول السَّديد في مقاصد التوحيد :

وهو شرحٌ لطيف على كتاب : « التَّوحيد » لشيخ الإسلام مُحمد بن عبد الوهَّاب .

وقد قمت بتحقيقه ، وتخريج أحاديثه ، وللَّه الحمد والمِنَّة .

– « الأدلة والقواطع والبراهين في إبطال أصول المُلحدين » .

– « التَّوضيح والبيان لشجرة الإيمان » .

– « التَّنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة » .

– « توضيح الكافية الشَّافية » .

وقد نثر فيها نونية العلاَّمة ابن القيم – رحمه اللَّه – ، فقربها إلى القارئ دون أن يُزيد عليها إلَّا القليل .

– « الحقُّ الواضح المُبين في شرح توحيد الأنبياء والمُرسلين » .

وفيه شرح للأبيات التي تتكلم عن التَّوحيد في منظومة : « الكافية الشَّافية » للعلَّامة ابن القيم – رحمه اللَّه – .

– « سؤال وجواب في أهم المُهمات ، تعليم أصول الإيمان ، وبيان موانع الإيمان » .

– « حوار مع علماني مُلحد » .

– « الدرة البهيَّة شرح القصيدة التَّائيَّة في حل المُشكلة القدريَّة » .

*** الفقه وأصوله وقواعده :**

– « القواعد والأصول الجامعة والفروق والتَّقاسيم البديعة النَّافعة » .

- « تُحفة أهل الطّلب في تجريد أصول قواعد ابن رجب » .
- « حاشية على الفقه » .
وضعها استدراكًا على جميع الكُتب المُستعملة في المذهب الحنبلي ، وهي لم تُطبع بعد .
- « منهج السّالكين وتوضيح الفقه في الدِّين » .
- « إرشاد أولي البصائر والألباب لنيل الفقه بأقرب الطُّرق وأيسر الأسباب » .
وهو مُجلَّد لطيف تناول فيه معظم المسائل الفقهيّة على صورة السُّؤال والجواب .
- « نور البصائر والألباب في أحكام العبادات والمُعاملات والحقوق والآداب » .
- « حُكم شرب الدُّخان » .
- « المُناظرات الفقهيّة » .
- « المُختارات الجليّة من المسائل الفقهيّة » .
وهو مُستدرك على كتاب : شرح مختصر المُقنع في الفقه الحنبلي .
- « منظومة في القواعد الفقهية » ، وله شرح لطيف عليها .
- « مُختصر في أصول الفقه » .
ويُطلق عليه : « تيسير أصول الفقه » .
وطُبع غير مرة باسم : « رسالة لطيفة جامعة في أصول الفقه المُهمّة » .
وهو مُختصرٌ نافع جدًّا في بابه ، مزج فيه المؤلِّف - رحمه اللَّه - بين المادة الأُصولية والقواعد الأُصوليّة والفقهية .
ولي شرحٌ عليه سمَّيته : « غاية المأمول في شرح تيسير الأصول » .

*** الحديث ، والسِّير :**

- « بهجة عيون الأبرار ، وقرة عيون الأخيار ، شرح جوامع الأخبار » .
جمع فيه المُصنِّف « ٩٩» حديثًا نبويًّا كُلِّيًا ، وبيان معانيها واستخرج ما فيها من فوائد على سبيل الاختصار .
وقد قمتُ بتحقيقه وتخريج أحاديثه .
- « قصص الأنبياء » .

*** كتب جوامع :**

- « فتح الرّحيم الملك العلّام في علم العقائد والتّوحيد والأخلاق والأحكام المُستنبطة من القُرآن » .
- « نور البصائر والألباب في أحكام العبادات والمُعاملات والحقوق والآداب » .

*** كتب مُتنوعة :**

- « يأجوج ومأجوج وفتنة الدجال » .

- « السّياسة الشّرعيّة » .
- « فوائد مُستنبطة من قصّة يوسف عليه السلام » .
- « محاسن الإسلام » .

المُسمّى : « الدُّرّة المُختصرة في محاسن الإسلام » .

- « الدّين الصّحيح يحُل جميع المشاكل » .
- « الطّريق إلى اللّه والدّار الآخرة » .
- « وجوب التّعاون بين المُسلمين وموضوع الجهاد الدّيني » .
- « الخُطبُ المنبريّة على المُناسبات » .

وهو كُتيب اشتمل على ثلاثين خطبة .

- « الفواكه الشّهيّة في الخُطب المنبريّة » .

وهو مُشتملٌ على إحدى وسبعين خطبة .

وهو مجموعٌ من خُطب الشّيخ لمّا آل إليه أمر الخطابة في عُنيزة .

- « تنزيه الدّين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله » .

*** كُتب القواعد والأصول المتنوعة :**

- « طريق الوصول إلى العلم المأمول ، بمعرفة القواعد والضوابط ، والأصول » .

وهو عبارة عن فوائد مُختارة من كُتب شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم .

- « مجموع الفوائد واقتناص الأوابد » .

وله غير ذلك الكثير من المؤلفات القيّمة التي يُنصح بقراءتها .

وكانت غاية منها هو نشر العلم والدّعوة إلى الحق ، ولهذا يُؤلّف ويكتب ويطبع ما يقدر عليه من مؤلّفاته ، لا ينال منها عرضًا زائلًا ، أو يستفيد منها عرض الدُّنيا ، بل يوزّعها مجّانًا ليعم النّفع بها ، فجزاه اللّه عن الإسلام والمُسلمين خيرًا ، ووفّقنا اللّه إلى ما فيه رضاه .

توفي - رحمه اللّه - في سنة ١٣٧٦، بعد عمر دام قُرابة ٦٩ عامًا في مدينة « عُنيزة » ، من بلاد « القصيم » .

* * *

# تيسير الكريم الرَّحمن
# في تفسير كلام المنَّان

« هذه التَّسميَّة مأخوذة من قوله تعالى :

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [ سورة القمر١٧] .

وقوله : ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾

[ سورة الفُرقان ٣٣] » .

المجلَّد الأول من :

# « تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان »

من مِنن اللَّه على عبده ، وابن عبده ، وابن أمته :

عبد الرَّحمن بن ناصر بن عبد اللَّه بن سعدي :

شرعت في هذا التَّفسير المُبارك في غُرَّة شهر « مُحرَّم »[١] سنة ١٣٤٢ ، وأرجو من اللَّه أن يُتمه .

---

(١) * الكلمة بين القوسين غير واضحة في الأصل ويبدو أنَّها شهر مُحرَّم ؛ لأنَّ الشَّيخ أتمَّ هذا الجُزء في نهاية شهر ربيع الأوَّل . اللويحق .

## تنبيـــه

اعلم أنَّ طريقتي في هذا التَّفسير أنِّي أذكرُ عند كُلِّ آيةٍ ما يحضُرني من معانيها ، ولا اكتفي بذكر ما تعلَّق بالمواضع السَّابقة عن ذكر ما تعلَّق بالمواضع اللَّاحقة ، لأنَّ اللَّه وصفَ هذا الكتاب أنَّه : « مثاني » تُثَنَّى فيه الأخبار والقَصص والأحكام وجميع المواضيع النَّافعة لحكمٍ عظيمةٍ ، وأمرَ بتدبُّرِهِ جميعه لما في ذلك من زيادة المعارف ، وصلاح الظَّاهر والباطن ، وصلاحِ الأمورِ كُلِّها .

* * *

## فوائد مُهمة تتعلق بتفسير القرآن
## من كتاب : « بدائع الفوائد »
## لابن القيم - رحمه اللَّه تعالى-[٢]

قـــال :[٣]

( فصل )

* **النَّكرة في سياقِ النَّفي تعُمُّ** : مُستفادٌ من قوله تعالى : ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [ سُورة الكهف ٤٩ ] . ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [ سُورة السَّجدة ١٧ ] .

* **وفي الاستفهام** : من قوله تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [ سُورة مريم ٦٥ ] .

* **وفي الشَّرطِ** : من قوله :﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [ سُورة مريم ٢٦ ] . ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ [ سُورة التَّوبة ٦ ] .

* **وفي النَّهي** : من قوله تعالى : ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [ سورة هود ٨١ ] .

* **وفي سياق الإثبات** ، بعموم العلَّة والمُقتضى : ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [ سورة التَّكوير ١٤ ] .

* **وإذا أضيف إليها « كُل »** ، نحو : ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ سورة ق ٢١ ] .

* ومن عمومها بعموم المُقتضى :﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [ سُورة الشَّمس ٧ ] .

( فصل )

ويُستفادُ عموم المُفرد المُحلَّى باللَّام من قوله : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [ سُورة العصر٢ ] . وقوله : ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾ [ سورة النَّبأ ٤٠ ] .

وعموم المُفرد المُضاف من قوله : ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ [ سُورة التَّحريم ١٢ ] . ( وكتابه) .[٤]

وقوله : ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [ سُورةالجاثية ٢٩ ] . والمُراد جميع الكُتب التي أحصيت فيها أعمالهم .

وعموم الجمع المُحلَّى باللَّام من قوله : ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ [ سُورة المُرسلات ١١ ] .

وقولـه :﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ [ سُورة الأحزاب ٧ ] . وقوله تعالى :﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ [ سُورة الأحزاب ٣٥ ] .

والمُضاف[٥] من قوله : ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [ سُورة البقرة ٢٨٥ ] .

---

(٢) * جاءت هذه الفوائد في بعض النُّسخ بعد تفسير الفاتحة ، وكان الشَّيخ السَّعدي قد كتب مُعلِّقًا عليها : ( حقُّ هذه المُقدمة أنْ تتقدم على الفاتحة ) .

(٣) * يعني ابن القيم- رحمه اللَّه - .

(٤) * جاء في هامش بعض النُّسخ : ( قرأ أهل البصرة وحفص : ( وكتبه) وقرأ الآخرون : ( وكتابه) على التَّوحيد .

(٥) * يعني : عُموم الجمع المُضاف .

وعموم أدوات الشّرط ، من قوله : ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [ سورة طه ١١٢ ] . وقوله : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [ سورة الزلزلة ٧ ] . وقال : ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [ سورة البقرة ١٩٧ ] . وقوله : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [ سورة النساء ٧٨ ] . و قوله : ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [ سورة البقرة ١٥٠ ] . وقوله : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [ سورة الأنعام ٦٨ ] . وقوله : ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [ سورة الأنعام ٥٤ ] . هذا إذا كان الجوابُ طلبًا مثل هاتين الآيتين ، فإذا كان خبرًا ماضيًا لم يلزم العُموم ، كقوله : ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [ سورة الجمعة ١١ ] . ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [ سورة المنافقون ١ ] .

وإذا كان مُستقبلًا ، فالتزموا ردَّ العُموم ، وكقوله تعالى : ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [ سورة المطففين ٣ ] . وقوله : ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [ سورة المطففين ٣٠ ] . وقوله : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [ سورة الصافات ٣٥ ] .

وقد لا يعُم ، كقوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [ سورة المنافقون ٤ ] .

## ( فصل )

ويُستفاد كون الأمر المُطلق للوجوب ، من ذَمِّه لمن خالفه ، وتسميتُه إيَّاهُ عاصيًا ، وترتيبه عليه العقاب بالعاجلِ والآجلِ .

ويُستفاد كون النَّهي للتَّحريم ، من ذَمِّهِ لمن ارتكبه ، و تسميته عاصيًا ، وترتيبه العقاب على فعله .

ويُستفاد الوجوب بالأمر تارة ، وبالتَّصريحِ بالإيجابِ والفرضِ والكتبِ ، ولفظة : « عليَّ » ، ولفظة : « حقّ على العبادِ ، وعلى المُؤمنين » .

ويُستفاد التَّحريم من النَّهي ، والتَّصريح بالتَّحريم والحظرِ ، والوعيد على الفعلِ ، وذم الفاعل ، وإيجاب الكفَّارة بالفعلِ .

وقوله : « لا ينبغي » فإنَّها في لُغةِ القُرآنِ والرَّسول للمُمتنع عقلًا وشرعًا .

ولفظة : ما كان لهم كذا وكذا ، ولم يكُن لهم ، وترتيب الحد على الفعل ، ولفظة : لا يحل ، لا يصلُح ، ووصف الفعل أنَّه فساد ، وأنَّه من تزيين الشَّيطان وعمله ، وأنَّ اللّه تعالى لا يرضاه لعباده ، ولا يُزكِّي فاعله ولا يُكلِّمه ولا ينظرُ إليه ونحو ذلك .

وتُستفاد الإباحة من الإذنِ والتَّخيير ، والأمر بعد الحَظرِ ، ونفي الجُناح والحرج والإثم والمُؤاخذة ، والإخبار بأنَّه يعفو عنه ، والإقرار على فعله في زمن الوحي ، وبالإنكار على من حرَّم الشيْءَ ، والإخبار بأنَّه خلق لنا كذا وجعله لنا ، وامتنانه علينا به ، وإخباره عن فعل من قبلنا ، غير ذام لهم عليه . فإنْ اقترن بإخباره مدحٌ ، دلَّ على رُجحانه استحبابًا أو وجوبًا .

* * *

## ( فصل )

وكُلُّ فعلٍ عظَّمه اللّه ورسوله ، أو مدحه ، أو مدحَ فاعله لأجلِهِ ، أو فرحَ به ، أو أحبه ، أو أحبَّ فاعله ، أو رضي به ، أو رضي عن فاعله ، أو وصفه بالطِّيب ، أو البركة ، أو الحُسنِ ، أو نصبه سببًا لمحبّتِهِ أو لثوابٍ عاجلٍ أو آجلٍ ، أو نصبه سببًا لذكره لعبده ، أو لشكره له ، أو لهدايته إيَّاه ، أو لإرضاء فاعله ، أو وصف فاعله بالطِّيب ، أو وصف الفعل بأنَّه معروفٌ ، أو نفي الحُزن والخوف عن فاعله ، أو وعده بالأمنِ ، أو نصبه سببًا لولايته ، أو أخبر عن دُعاء الرُّسل بحصوله ، أو وصفه بكونه قُربة ، أو أقسم به أو بفاعله ، كالقسم بخيل المُجاهدين وإغارتها ، أو ضحك الرَّب جل جلاله من فاعله ، أو عجبه منه ، فهو دليلٌ على مشروعيته المُشتركة بين الوجوب والنَّدب .

## ( فصل )

وكُلُّ فعلٍ طلبَ الشارعُ تركَهُ ، أو ذمَّ فاعلَهُ ، أو عِيبَ عليه ، أو مَقتَ فاعلَهُ ، أو لعنَهُ ، أو نفي محبتَهُ إيَّاه ، أو محبة فاعله ، أو نفى الرِّضا به ، أو الرِّضا عن فاعله ، أو شبَّه فاعله بالبهائم أو الشَّياطينِ ، أو جعله مانعًا من الهُدى ، أو وصفه بسوءٍ أو كراهةٍ ، أو استعاذ الأنبياء منه أو أبغضوه ، أو جُعِلَ سببًا لنفي الفلاح ، أو لعذابٍ عاجلٍ أو آجلٍ ، أو لذمٍ أو لومٍ ، أو ضلالةٍ أو معصيةٍ ، أو وصفَ بخُبثٍ أو رجسٍ أو نجسٍ ، أو بكونِهِ فسقًا ، أو إثمًا ، أو سببًا إثمٍ أو رجسٍ ، أو لعنٍ ، أو غضبٍ ، أو زوالِ نعمةٍ ، أو حُلول نقمةٍ ، أو حدِ من الحدودِ ، أو قسوةٍ ، أو خزيٍ ، أو ارتهان نفس ، أو لعداوة اللّه أو مُحاربته ، أو الاستهزاء به وسُخريته ، أو جعله سببًا لنسيانه لفاعله ، أو وصف نفسه بالصَّبرِ عليه ، أو الصَّفح والحلم عنه ، أو دعا إلى التَّوبة منه ، أو وصف فاعله بخُبثٍ أو احتقار ، أو نسبه إلى الشَّيطانِ وتزيينه ، أو تولِّي الشَّيطان لفاعلِهِ ، أو وصفَهُ بصفة ذمٍ مثل : كونه ظُلمًا أو بغيًا ، أو عُدوانًا أو إثمًا ، أو تبرَّأ الأنبياء منه أو من فاعلِهِ ، أو جاهروا فاعله بالعداوةِ ، أو نُصِبَ سببًا لخيبةِ فاعلِهِ عاجلًا أو آجلًا ، أو رُتِّبَ عليه حِرمان الجنَّة ، أو وصِفَ فاعلَهُ بأنَّه عدو للّه أو اللّه عدوُّه ، أو أُعلِمَ فاعلَهُ بحربٍ من اللّه ورسوله ، أو حمل فاعله إثم غيره ، أو قيل فيه : لا ينبغي هذا ، أو لا يصلح ، أو أُمِرَ بالتَّقوى عند السُّؤال عنه ، أو أُمر بفعلٍ يُضاده ، أو هُجِرَ فاعله ، أو تلاعنَ فاعلوه في الآخرة ، أو تبرأ بعضهم من بعض ، أو وصِفَ فاعله بالضَّلالة ، أو أنَّه ليس من اللّه في شيءٍ ، أو أنَّهَ ليس من الرَّسول وأصحابه ، أو قُرِنَ بمُحرمٍ ظاهرُ التَّحريم في الحُكم والخبر عنهُما بخبرٍ واحدٍ ، أو جُعِلَ اجتنابُه سببًا للفلاحِ ، أو جُعِلَ سببًا لإيقاع العداوةِ والبغضاء بين المُسلمينَ ، أو قيل لفاعله : هل أنت مُنتهٍ ، أو نُهِي الأنبياء عن الدُّعاء لفاعله ، أو رُتِبَ عليه إبعاد ، أو طرد ، أو لفظة : قُتِلَ من فعله ، أو قاتل اللّه من فعله ، أو أُخبر أنَّ فاعله لا يُكلمه اللّه يوم القيامة ، ولا ينظرُ إليه ، ولا يُزكيه ، أو أنَّ اللّه لا يُصلحُ عمله ، ولا يهدي كيده ، أو أنَّ فاعله لا يُفلح ، ولا يكون يوم القيامة من الشُّهداء ولا من الشُّفعاء ، أو أنَّ اللّه يغار من فعله ، أو نبَّه على وجه المفسدة فيه ، أو أخبر أنَّه لا يقبل من فاعله صرفًا ولا عدلًا ، أو أخبر أنَّ من فعله قيِّضَ له فهو له قرين ، أو جعل الفعل سببًا لإزاغة اللّه قلب فاعله ، أو صرفه عن آياته وفهم آلائه ، أو سؤال اللّه سُبحانه

عن علةِ الفعلِ «لم فُعِل» نحو: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ [سورة آل عمران ٩٩]. ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [سورة آل عمران ٧١]. ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [سورة ص ٧٥]. ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [سورة الصّف ٢]. ما لم يقترن به جواب المسئول، فإذا قُرِنَ به جواب، كان بحسب جوابه.

فهذا ونحوه يدلُّ على المنعِ من الفعلِ، ودلالته على التّحريمِ أطرد من دلالته على مُجرّدِ الكراهة.

وأمّا لفظة: يكرهُهُ اللّه ورسوله، أو مكروه، فأكثر ما يُستعملُ في المُحرّم، وقد يُستعمل في كراهة التّنزيه. وأمّا لفظة: أمّا أنا فلا أفعل، فالمُتحقّق منه: الكراهة، كقوله: أمّا أنا فلا آكلُ مُتكِئًا.(٦)

وأمّا لفظة: ما يكونُ لك، و ما يكون لنا، فاطرد استعمالها في المُحرّم، نحو: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [سورة الأعراف ١٣]. ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ [سورة الأعراف ٨٩]. ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [سورة المائدة ١١٦].

## (فصل)

وتُستفاد الإباحة من لفظ الإحلال، ورفع الجُناح، والإذن، والعفو، و: إنْ شئت فافعل، وإنْ شئت فلا تفعل، ومن الامتنانِ بما في الأعيانِ من المنافع، وما يتعلق بها من الأفعال، نحو: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [سورة النّحل ٨٠]. ونحو: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [سورة النّحل ١٦]. ومن السّكوت عن التّحريم، ومن الإقرار على الفعل في زمن الوحي.

## (فائدة)

التّعجب كما يدُل على محبة اللّه للفعل على نحو: «عجب ربُّك من شابٍ ليست له صبوة» ونحوه(٧) قد يدل على بُغض الفعل كقوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [سورة الرّعد ٥]. وقوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [سورة الصّافات ١٢]. وقوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ [سورة آل عمران ١٠١].

وقد يدُل على امتناع الحُكم، وعدم حُسنهِ، كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التّوبة ٧].

وقد يدل على حُسن المنع منه قدرًا، وأنّه لا يليق به فعله، كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [سورة آل عمران ٨٦].

## (فائدة)

نفي التّساوي في كتاب اللّه، قد يأتي بين الفعلين، كقوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ

---

(٦) * أخرجه البُخاري في صحيحه: (كتاب الأطعمة / باب: الأكل مُتكئًا/ ح ٥٣٩٨، ٥٣٩٩).

(٧) صحيح. أخرجه أحمد في المسند ١٥١/٤، والطبراني في الكبير ٣٠٩/١٤ ح٨٥٣.
ومداره على ابن لهيعة، وهو وإن كان ضعيفًا إلا أن جُلّ العُلماء يقبلون حديث من أخذ عنه من أصوله، ومنهم عبد اللّه بن وهب راوي هذا الحديث عنه.

ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [سورة التوبة ١٩].

وقد يأتي بين الفاعلين كقوله: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة النساء ٩٥].

وقد يأتي بين الجزاءين، كقوله: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [سورة الحشر ٢٠].

وقد جمع اللّه بين الثّلاثة في آيةٍ واحدةٍ، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ الآيات [سورة فاطر١٩ - ٢١].

**( فائدة )**

في ضربِ الأمثال في القُرآن يُستفاد منه أمور: التّذكير، والوعظ، والحث، والزّجر، والاعتبار، والتّقرير، وتقريب المُراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للعقل، كنسبة المحسوسِ إلى الحسّ.

وتأتي أمثال القُرآن مُشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذّمّ، وعلى الثّواب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وإلى تحقيق أمرٍ، وإبطال أمرٍ.

**( فائدة )**

السّياق يُرشد إلى بيان المُجمل، وتعيين المُحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المُراد، وتخصيص العام، وتقييد المُطلق، وتنوّع الدّلالة، وهو من أعظم القرائن الدّاله على مُراد المُتكلّم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مُناظرته، فانظر إلى قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [سورة الدّخان ٤٩]. كيف تجد سياقه يدلُّ على أنّه الذّليل الحقير.

**( فائدة )**

إخبار الرّب عن المحسوس الواقع، له عدة فوائد: **منها**: أنْ يكونَ توطئةً وتقدمةً لإبطال ما بعده. **ومنها**: أنْ يكونَ موعظةً وتذكرةً. **ومنها**: أنْ يكونَ شاهدًا على ما أخبر به من توحيده، وصدق رسوله، وإحياء الموتى. **ومنها**: أنْ يُذكرَ في معرضِ الامتنانِ. **ومنها**: أنْ يُذكر في معرض اللومِ والتّوبيخِ. **ومنها**: أنْ يُذكر في معرض المدحِ والذّمّ. **ومنها**: أنْ يُذكرَ في معرض الإخبارِ عن اطّلاعِ الرّبّ عليه. وغير ذلك من الفوائد. انتهى كلامه - رحمه اللّه -.[8] وهو في غاية النّفاسةِ، والاشتمالِ على كثيرٍ من القواعِدِ والضّوابطِ المتعلّقة بتفسير القُرآنِ. فجزاه اللّه خيرًا.

**قلت**: وقد اشتمل القُرآن على عدَّةِ علومٍ قد ثُنيت فيه وأُعيدت: **فمنها**: ضرب الأمثالِ، وقد ذكر ابن القيّم فيما تقدّم فوائدها. **ومنها**: ذكرُ صفات أهل السّعادةِ والشّقاوةِ، وفي ذلك فوائدُ عديدة: **منها**: أنّ الأوصافَ الّتي يُوصفُ بها أهلُ الخيرِ تدلُ على محبةِ اللّه ورضاه وأنّها محمُودةٌ، والصّفات التي يُوصفُ بها أهلُ الشّرِ تدلُ على بُغضِ اللّه لها وأنّها مذمومةٌ. **ومنها**: ما يُكرمُ اللّه به أولياءَه من الثّناءِ الحسنِ بينَ عبادِهِ،

(٨) * يقصد الإمام العلّامة ابن قيم الجوزيّة- رحمه الله- حيث كان ينقل من كتابه: «بدائعُ الفوائدِ».

فهو ثوابٌ مُعجّلٌ ، ويُهينُ به أعداءه من الأوصاف القبيحة ، فيكونُ عقابًا مُعجّلًا . **ومنها** : أنَّ فيه حثًّا للنّفوسِ على الاقتداءِ بأهلِ الخيرِ ومنافستهم ، وتنشيط العُمّال على الأعمالِ ببيانِ من عمِلها من أولياءِ اللّٰه . وفيه : التّرهيبُ من أفعالِ أهلِ الشّرّ ، وتبغيضُ المعاصي الّتي أثّرت مع عامليها ما أثّرت . **ومنها** : الاعتبارُ بصفاتِ أهلِ الشّرّ ، وتبغيضُ المعاصي الّتي أثّرت مع عامليها ما أثّرت . **ومنها** : الاعتبار بصفاتِ أهل الخيرِ والشّرّ ، وأنَّ من فعل مثل فعلهم نال مثل ما نالهم . وقد حثَّ تعالى على الاعتبار ، في غير موضعٍ من كتابه . وحقيقته : العبور من شيْ إلى شيْ ، وقياس الشيْ على نظيره . **ومنها** : أنَّ العبدَ إذا رأى أعمال أهل الخير وعجزه عن القيامِ بها ، أوجبَ له ذلك الإزراء على نفسه واحتقارها ، وهذا هو عين صلاحه ، كما أنَّ رؤيته نفسه بعين الإعجابِ والتّكبرِ هو عين فساده ، إلى غير ذلك من الفوائد . **ومنها** : ذكرُ صفات اللّٰه وأسمائه وأفعاله ، وتقديسه عن النّقائص ، وفي ذلك فوائدُ عظيمة : **منها** : أنَّ هذا العلم– وهو العلم المُتعلق بالله تعالى– أشرفُ العلومِ وأجلّها على الإطلاق . فالاشتغال بفهمه والبحث التّام عنه ، اشتغالٌ بأعلى المطالب ، وحصوله للعبدِ من أشرفِ المواهب . **ومنها** : أنَّ معرفة اللّٰه تعالى تدعو إلى محبتِه وخشيتِه ، وخوفِه ورجائِه ، وإخلاص العمل له ، وهذا عينُ سعادة العبد ، ولا سبيل إلى معرفة اللّٰه ، إلا بمعرفة أسمائه وصفاته ، والتّفقه في فهمِ معانيها . وقد اشتمل القُرآن من ذلك على ما لم يشتمل عليه غيره ، من تفاصيل ذلك وتوضيحها ، والتّعرّف بها إلى عباده ، وتعريفهم لنفسه كي يعرفوه . **ومنها** : أنَّ اللّٰه خلقَ الخلقَ ليعبدوه ويعرفوه ، فهذا هو الغاية المطلوبة منهم ، فالاشتغالُ بذلكَ اشتغالٌ بما خُلق له العبد ، وتركه وتضييعه إهمالٌ لما خُلِقَ له ، وقبيحٌ بعبدٍ لم تزَل نعمُ اللّٰه عليه متواترة ، وفضلُه عليه عظيم من كُلِّ وجه ، أن يكونَ جاهلًا بربه مُعرضًا عن معرفته . **ومنها** : أنَّ أحد أركان الإيمان ، بل أفضلها وأصلها : الإيمان باللّٰه ، وليس الإيمان بمُجرّد قوله : آمنت باللّٰه ، من غير معرفةِ بربه ، بل حقيقة الإيمان ، أن يعرف الرّبّ الذي يؤمنُ به ، ويبذلَ جهده في معرفةِ أسمائه وصفاته ، حتّى يبلُغَ اليقينَ ، وبحَسْبِ معرفته بربه يكونُ إيمانه ، فكُلّما ازدادَ معرفةً بربه ازدادَ إيمانه ، وكُلّما نقصَ نقص . وأقربُ طريقٍ يوصله إلى ذلك ، تدبُّر صفاته وأسمائه من القُرآنِ . والطّريق في ذلك : إذا مرَّ به اسم من أسماء اللّٰه ، أثبت له ذلك المعنى وكماله وعمومه ، و نزّهه عمّا يُضاد ذلك . **ومنها** : أنَّ العلمَ به تعالى أصلُ الأشياءِ كُلّها ، حتّى إنَّ العارفَ به حقيقةَ المعرفةِ ، يستدلُ بما عرفَ من صفاته وأفعاله على ما يفعله ، وعلى ما يُشرّعه من الأحكامِ ، لأنّه لا يفعلَ إلا مُقتضى أسمائه وصفاته ، فأفعاله دائرةٌ بينَ العدلِ والفضلِ والحكمة . وكذلك لا يُشرّعَ ما يُشرّعُه من الأحكامِ ، إلّا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله . فأخباره كُلّها حقّ وصدق ، وأوامره ونواهيه عدلٌ وحكمة . وهذا العلم أعظم وأشهرَ من أن يُنبّه عليه لوضوحه .

وكيفَ يصحُ في الأذهانِ شيءٌ إذا احتاجَ النّهارُ إلى دليلِ

**ومنها** : ذِكرُ الأنبياء والمُرسلين ، وما أُرسلوا بِهِ ، وما جرى لهم مع أُممهم ، وفي ذلكَ عدّةُ فوائد : **منها** : أنَّ من تمامِ الإيمان بهم معرفتهم بصفاتهم وسيرهم وأحوالهم ، وكُلّما كان المؤمنُ بذلك أعرف ، كان أعظم إيمانًا بهم ، ومحبّةً لهُم ، وتعظيمًا لهم ، وتعزيزًا وتوقيرًا . **ومنها** : أنَّ من بعض حقوقهم علينا– خصوصًا النّبي ﷺ – معرفتهم ومحبتهم محبةً صادِقةً ، ولا سبيل لذلكَ إلا بمعرفةِ أحوالهم . **ومنها** : أنَّ

معرفةَ الأنبياءِ موجبة لشُكر اللّٰه تعالى على ما منّ به على المؤمنين ، إذ بعث فيهم رسولًا منهم يُزكيهم ويُعلمهم الكتاب والحكمة ، بعدَ أن كانوا في ضلالٍ مُبين . **ومنها** : أنّ الرّسلَ هُم المُربُّون للمُؤمنين ، الّذين ما نالَ المُؤمنونَ مِثقالَ ذرةٍ من الخيرِ ، ولا اندفعَ عنهم مِثقالَ ذرة من الشّرّ إلّا على أيديهم وبسببهم . فقبيحٌ بالمؤمنِ أنْ يجهلَ حالةَ مُربِّيه ، ومُزكّيه ، ومُعلمه . وإذا كان من المُستنكرِ جهل الإنسان بحال أبويه ومُباعدته لذلك ، فكيفَ بحالةِ الرّسول ، الّذي هو أولى بالمؤمنين من أنفُسِهم ، وهو أبوهم الحقيقي ، الّذي حقه مُقدّمٌ على سائرِ الحقوق بعد حقّ اللّٰه تعالى ؟!! . **ومنها** : أنّ في معرفة ما جرى لهم وجرى عليهم ، تحصُل للمؤمنين الأسوة والقُدوة ، وتخف عنه المُقلقات والمُزعجات ، لأنّها مهما بلغت من الثّقل والشّدة ، فلا تصل إلى بعض ما جرى على الأنبياءِ . قال تعالى : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [ سُورة الأحزاب ٢١ ] .

ومن أعظم الاقتداء بهم ، الاقتداء بتعليماتهم ، وكيفية إلقاء العلم على حسب مراتب الخلق ، والصّبر على التّعليم ، والدّعوة إلى اللّٰه بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمُجادلة بالّتي هي أحسن ، وبهذا وأمثاله كان العُلماء ورثة الأنبياء .

ومن فوائدِ معرفةُ الرّسول ﷺ ، معرفةُ الآياتِ القُرآنيةِ المُنَزّلة عليه وفهم المعنى . والمُراد منها موقوفٌ على معرفةِ أحوال الرّسول ، وسيرته مع قومه وأصحابه وغيرهم من النّاس ، فإنّ الأزمنة والأمكنة والأشخاص تختلف اختلافًا كثيرًا .

فلو أرادَ إنسانٌ أنْ يصرفَ همّه لمعرفةِ معاني القُرآنِ من دون معرفةٍ منه لذلك ، لحصَلَ من الغلط على اللّٰه وعلى رسوله ، وعلى مُراد اللّٰه من كلامه ، شيءٌ كثير .

وهذا إنّما يعرفه من عرف ما في أكثر التّفاسير من الأغلاط القبيحة التي يُنزه عنها كلام اللّٰه[٩] ، وغير ذلك من الفوائد المُفيدة والنّتائج السّديدة .

**ومن علوم القُرآن** : الأمر والنّهي المُوجّه لهذه الأُمة وغيرها ، وهذا هو المقصودُ منهم ، وفي معرفةِ ذلكَ عدّةُ فوائد ، **منها** : أنّ اللّٰه تعالى حثّ على معرفةِ حدود ما أنزل اللّٰه على رسوله ، وذمّ من لم يعرف ذلك . ومن أعظم ما يجب معرفة حدوده ؛ الأوامر والنّواهي الّتي كلّفنا بها ، وألزمنا بالقيام بها وتعلّمها وتعليمها . ولا سبيل إلى امتثالها ، أو اجتنابها إلّا بمعرفتها ، ليتأتى فعلها أو تركها وذلك أنّ المُكلّف إذا أُمر بأمرٍ ، وجبَ عليه أوّلًا معرفةُ ما هو الّذي أُمر به ، وما يدخل به وما لا يدخل .

فإذا عرف ذلك استعان باللّٰه ، واجتهدَ في امتثاله بحسبِ القُدرة والإمكان .

كذلك إذا نُهيَ عن أمرٍ من الأمورِ ، وجبَ عليه معرفةُ ذلك المنهي ، وحقيقته ، ثُمّ يبذل جهده مُستعينًا بربه على تركه ، امتثالًا لأمرِ اللّٰه ، واجتنابًا لنهيه ، وامتثال الأمر ، واجتناب النّهي ، كُلٌّ منهُما واجبٌ ، وما لا يتمّ الواجب إلا به فهو واجب . فعرفت أنّ العلمَ بها قبل العمل ، ومُتقدمٌ عليه .

---

(٩) * وفي هامش أحد النّسخ بدلًا من الجُملة السابقة : « كيف كثُر حمل مُراد اللّٰه ورسوله على العُرف الحادث فوقع الخلل الكثير » .اهـ

**ومنها** : أنَّ الدَّعوةَ إلى الخير ، والأمر بالمعروفِ والنَّهي عن المُنكرِ ، لا يُمكن حصولها وتحصليها إلا بعد معرفة الخير ليدعو له ، ومعرفة المعروف ليأمر به ، ومعرفة المُنكر لينهي عنه ، والقُرآن مُشتملٌ على ذلك أعظم اشتمال ، ومُتضمنٌ له أكمل تضمن .

**ومن علوم القُرآن** : أحوال اليوم الآخر ، وهو ما يكون بعد الموت ممَّا أخبر به اللَّه في كتابه ، أو أخبر به رسوله من أهوال الموت ، والقبر والموقف ، والجنَّة والنَّار ، وفي العلمِ بذلك

فوائدُ كثيرة :**منها** : أنَّ الإيمانَ باليوم الآخرِ ، أحد أركان الإيمان السِّتة ، الَّتي لا يصحُ الإيمان بدونها ، وكُلَّما ازدادت معرفته بتفاصيله ، ازداد إيمانه .**ومنها** : أنَّ العلمِ بذلك حقيقة المعرفة ، يفتحُ للإنسان باب الخوف والرَّجاء ، الَّلذين إنْ خلا القلبُ منهُما خربَ كُلَّ الخرابِ ، وإن عمَرَ بهما أوجبَ له الخوف عن الانكفاف عن المعاصي ، والرَّجاء تيسير الطَّاعة وتسهيلها ، ولا يتمُ ذلكَ إلا بمعرفةِ تفاصيل الأمور التي يُخاف منها وتُحذر ؛ كأحوالِ القبرِ وشدَّته ، وأحوال الموقف الهائلة ، وصفات النَّار المُفظعة . وبمعرفةِ تفاصيل الجنَّة وما فيها من النَّعيمِ المُقيم ، والحَبرة والسرور ، ونعيمُ القلب والرَّوح والبدن ، فيحدثُ بسبب ذلك الاشتياق الدَّاعي للاجتهاد في السَّعي للمحبوب المطلوب ، بكُلِ ما يقدر عليه .**ومنها** : أنَّه يعرف بذلك فضل اللَّه وعدله في المُجازاةِ على الأعمالِ الصَّالحةِ ، والسَّيِّئةِ ، الموجبُ لكمالِ حمده والثناء عليه بما هو أهله .

وعلى قدرِ علم العبد بتفاضلِ الثَّواب والعقاب ، يَعرفُ بذلك فضلُ اللَّه وعدله وحكمته .

**ومن علـوم القُـرآن** : مُجادلة المُبطلين ، ودفع شُبه الظَّالمين ، وإقامة البراهين العقليَّة الموافقة للأدلة النقليَّة .

وهذا الفنُّ من علوم القُرآنِ من خواص العُلماء الرَّبانيين ، والجهابذة الرَّاسخين ، والعُقلاء المُستبصرين ، وقد اشتمل القُرآن من الأدلة العقليَّة ، والقواطع البُرهانيَّة ، ما لو جُمع ما عند المُتكلِّمين من حق ، لكان بالنِّسبة إليه كنقرة عصفور بالنِّسبة لماء البحر ؛ ذلك بأنَّ القُرآن هو الحق ، وقد اشتمل على الحقِّ والصدقِ والعدلِ والميزانِ العادلِ والقسطِ والصَّلاحِ والفلاحِ ، فإنْ ذكر التَّوحيدَ والشِّركَ ، وأمرَ بالأوَّلِ ونهى عن الثَّاني ، أقام البراهين القاطعة على صحَّةِ التَّوحيدِ وحُسنِه وتعيُّنه طريقًا للنَّجاةِ ، وقُبح الشِّرك وبُطلانه ، وكونه هو الطَّريق للهلاك ، ما يجعل ذلك للبصيرة كالشَّمسِ في نحرِ الظَّهيرةِ .

وإنْ أمرَ بالأوامرِ الشَّرعيَّة ، وحثَّ على الآدابِ ومكارمِ الأخلاقِ ، رأيته يُنبِّه العقول النَّيِّرة على ما اشتملت عليه من المصالح الضَّروريَّة ، الَّتي يحتاجونها في معاشِهم ومعادِهم ، ما يجزم بأنَّه لا أحسنِ منها ، وأنَّ حكمته تقتضي الأمر بها أشد اقتضاء .

وإنْ نهى عن المحارمِ والقبائحِ والخبائثِ ، أخبر بما في ضمنها من الفسادِ والضَّررِ ، والشَّرِّ الحاصل بتناولها ، وأنَّ نعمةَ اللهِ عليهم بتحريمها عليهم وتنزيههم عنها ، وتكريمهم وتعلية أقدارهم عن التَّلبس بها فوق كُلِّ نعمة ، فالمأمورات مُشتملات على الصَّلاح ، والمُحرَّمات مُشتملات على المفاسدِ .

وإنْ شرعَ في الحِجاجِ للمُبطلين ، وتزييف شُبه المُشبِّهين ، وبُطلان مذاهب الضَّالين ، فقُل ما شئتَ من

إحقاق حقٍّ ، ودمغ باطل ، وإرشاد ضال ، وإقامة الحُجّة على المُعاند ، وبيان أنَّ الباطلَ لا يقوم لأقلِ شيئٍ من الحقّ ، بل هو على اسمه باطلٌ لا حقيقةَ له ، إنْ هي إلّا أسماء يُسمون بها الباطل إذا جُرِّدت ، تبينت هباءً منثورًا .

ورأيتَه يسوقُ البراهينَ العقليّة ، بأوضحِ عبارةٍ وأوجزها وأسلمها من الاعتراضِ والنَّقضِ والخفاء ، فيجمع بين الدَّليل العقلي والنَّقلي في كلمةٍ واحدةٍ ، إيجازًا غير مُخلٍ بالمطلوبِ ، وتارةً يفصل ذلك ، ويسرد من البراهين ما يكفي بعضه بالبيان . فلله الحمد والشُّكر فهذه مُقدّمةٌ نافعة ، إنْ شاء اللّه ، ينبغي استقراؤها في كُلِّ مواردها ، والتنبيه لكُلِّ ما يَرد من هذه المطالب على وجه التّفصيل ، فمن استعملها في كُلِّ ما يرِد عليه من الآيات ، انتفع بهتا نفعًا عظيمًا . وذلك فضلُ اللهِ يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

*** 

## مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى أنزل على عبده الفرقان الفارق بين الحلال والحرام ، والسعداء والأشقياء ، والحق والباطل . وجعله برحمته هُدًى للناس عمومًا ، وللمتقين خصوصًا ، من ضلال الكفر والمعاصي ، والجهل ، إلى نور الإيمان والتقوى والعلم ، وأنزله شفاء للصدور من أمراض الشبهات والشهوات ويحصل به اليقين والعلم في المطالب العاليات ، وشفاء للأبدان من أمراضها وعللها وآلامها وسقمها . وأخبر أنه لا ريب فيه ولا شك بوجه من الوجوه ، وذلك لاشتماله على الحق العظيم ، في أخباره ، وأوامره ، ونواهيه ، وأنزله مباركًا ، فيه الخير الكثير ، والعلم الغزير ، والأسرار البديعة ، والمطالب الرفيعة ، فكل بركة وسعادة تنال في الدنيا والآخرة ، فسببها الاهتداء به واتباعه ، وأخبر أنه مصدق ومهيمن على الكتب السابقة ، فما يشهد له فهو الحق ، وما رده فهو المردود ، لأنه تضمنها وزاد عليها ، وقال تعالى فيه : ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [ سورة المائدة ١٦] ، فهو هاد لدار السلام ، مبين لطريق الوصول إليها ، وحاثٌّ عليها ، كاشف عن الطريق الموصلة إلى دارالآلام ومحذِّر منها ، وقال تعالى مخبرًا عنه : ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [ سورة هود ١] . فبين آياته أكمل تبيين وأتقنها أى إتقان ، وفصلها بتبيين الحق من الباطل والرشد من الضلال ، تفصيلًا كاشفًا للبس ، لكونه صادرًا من حكيم خبير ، فلا يخبر إلا بالصدق والحق واليقين ، ولا يأمر إلا بالعدل والإحسان والبر ، ولا ينهى إلا عن المضار الدينية والدنيوية .

وأقسم تعالى بالقرآن ووصفه بأنه « مجيد » والمجد : سعةُ الأوصاف وعظمتها ، وذلك لسعة معانى القرآن وعظمتها ، ووصفه بأنه « ذو الذكر » أى يتذكر به العلوم الإلهية والأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة ، ويتعظ به من يخشى .

وقال تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [ سورة يوسف ٢] . فأنزله بهذا اللسان لنعقله ونتفهمه ، وأمرنا بتدبره ، والتفكير فيه ، والاستنباط لعلومه ، وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح لكل خير ، محصل للعلوم والأسرار . فلله الحمد والشكر والثناء ، الذى جعل كتابه هدى وشفاء ورحمة ونورًا ، وتبصرة وتذكرة ، وبركة وهدى وبشرى للمسلمين . فإذا علم هذا ، علم افتقار كل مكلف لمعرفة معانيه والإهتداء بها .

وكان حقيقًا بالعبد أن يبذل جهده ، ويستفرغ وسعه في تعلمه وتفهمه بأقرب الطرق الموصلة إلى ذلك . وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله ، فمن مُطَوِّل خارج في أكثر بحوثه عن المقصود ، ومن مُقَصِّر يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية .

وكان الذى ينبغى في ذلك ، أن يجعل المعنى هو المقصود ، واللفظ وسيلة إليه ، فينظر في سياق الكلام ، وما سيق لأجله ، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر ، ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم ،

عالمهم وجاهلهم ، حضريهم وبدويهم ، فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله ، من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه ، خصوصًا إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها فمن وفق لذلك لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتفهمه وكثرة التفكير في ألفاظه ومعانيه ولوازمها ، وما تتضمنه ، وما تدل عليه منطوقًا ومفهومًا ، فإذا بذل وسعه في ذلك ، فالرب أكرم من عبده ، فلابد أن يفتح عليه من علومه أمورًا لا تدخل تحت كسبه .

ولما منَّ الباري عليّ وعلى إخواني بالاشتغال بكتابه العزيز بحسب الحال اللائقة بنا أحببت أن أرسم من تفسير كتاب اللّه ما تيسر ، وما من به اللّه علينا ، ليكون تذكرة للمحصلين ، وآلة للمستبصرين ، ومعونة للسالكين ولأقيده خوفَ الضياع ، ولم يكن قصدي في ذلك إلا أن يكون المعنى هو المقصود ولم أشتغل في حل الألفاظ والعقود ، للمعنى الذي ذكرت ، ولأن المفسرين قد كفوا مَنْ بعدهم ، فجزاهم اللّه عن المسلمين خيرًا .

والله أرجوا ، وعليه أعتمد ، أن ييسر ما قصدت ، ويذلل ما أردت ، فإنه إن لم ييسره اللّه ، فلا سبيل إلى حصوله ، وإن لم يعن عليه ، فلا طريق إلى نيل العبد مأموله .

وأسأله تعالى أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به النفع العميم ، إنه جواد كريم . اللهم صلِّ على محمد وآله وصحبه ، وسلم تسليمًا كثيرًا .

* * *

## (١) تفسير الفاتحة

### وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[ ١ : ٧ – ١ ] ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ .

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ أي : أبتدئ بكل اسم لله تعالى ، لأن لفظ : « اسم » مُفرد مضاف ، فيعم جميع الأسماء الحسنى . « اللَّهِ » هو المألوه المعبود ، المستحق لإفراده بالعبادة ، لما اتصف به من صفات الألوهية وهي صفات الكمال . ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء ، وعمت كل حي ، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله . فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة ، ومن عداهم فلهم نصيب منها .

واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها ، الإيمان بأسماء اللّه وصفاته ، وأحكام الصفات ، فيؤمنون مثلا ، بأنه رحمن رحيم ، ذو الرحمة التي اتصف بها ، المتعلقة بالمرحوم . فالنعم كلها ، أثر من آثار رحمته ، وهكذا في سائر الأسماء . يقال في العليم : إنه عليم ذو علم ، يعلم به كل شيء ، قدير ، ذو قدرة يقدر على كل شيء .

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هو الثناء على اللّه بصفات الكمال ، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل ، فله الحمد الكامل ، بجميع الوجوه . ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الرب هو المربي جميع العالمين –وهم من سوى الله– بخلقه إياهم ، وإعداده لهم الآلات ، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة ، التي لو فقدوها ، لم يمكن لهم البقاء . فما بهم من نعمة ، فمنه تعالى .

وتربيته تعالى لخلقه نوعان : عامة وخاصة .

فالعامة : هي خلقه للمخلوقين ، ورزقهم ، وهدايتهم لما فيه مصالحهم ، التي فيها بقاؤهم في الدنيا .

والخاصة : تربيته لأوليائه ، فيربيهم بالإيمان ، ويوفقهم له ، ويكمله لهم ، ويدفع عنهم الصوارف ، والعوائق الحائلة بينهم وبينه ، وحقيقتها : تربية التوفيق لكل خير ، والعصمة عن كل شر . ولعل هذا المعنى هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب . فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة .

فدل قوله : ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على انفراده بالخلق والتدبير ، والنعم ، وكمال غناه ، وتمام فقر العالمين إليه ، بكل وجه واعتبار .

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ المالك : هو من اتصف بصفة الملك التي من آثارها أنه يأمر وينهى ، ويثيب

ويعاقب ، ويتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات ، وأضاف الملك ليوم الدين ، وهو يوم القيامة ، يوم يدان الناس فيه بأعمالهم ، خيرها وشرها ، لأن في ذلك اليوم ، يظهر للخلق تمام الظهور ، كمال ملكه وعدله وحكمته ، وانقطاع أملاك الخلائق . حتى إنه يستوي في ذلك اليوم ، الملوك والرعايا والعبيد والأحرار . كلهم مذعنون لعظمته ، خاضعون لعزّته ، منتظرون لمجازاته ، راجون ثوابه ، خائفون من عقابه ، فلذلك خصّه بالذكر ، وإلا ، فهو المالك ليوم الدين ولغيره من الأيام .

وقوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي : نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة ، لأن تقديم المعمول يفيد الحصر ، وهو إثبات الحكم للمذكور ، ونفيه عما عداه . فكأنه يقول : نعبدك ، ولا نعبد غيرك ، ونستعين بك ، ولا نستعين بغيرك .

وقدم العبادة على الاستعانة ، من باب تقديم العام على الخاص ، واهتماما بتقديم حقه تعالى على حق عبده .

والعبادة : اسم جامع لكل ما يحبه اللّه ويرضاه من الأعمال ، والأقوال الظاهرة والباطنة .

والاستعانة هي الاعتماد على اللّه تعالى في جلب المنافع ، ودفع المضار ، مع الثقة به في تحصيل ذلك . والقيام بعبادة اللّه والاستعانة به هو الوسيلة للسعادة الأبدية ، والنجاة من جميع الشرور ، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما . وإنما تكون العبادة عبادة ، إذا كانت مأخوذة عن رسول اللّه ﷺ مقصودا بها وجه اللّه . فبهذين الأمرين تكون عبادة ، وذكر « الاستعانة » بعد « العبادة » مع دخولها فيها ، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى . فإنه إن لم يُعِنْهُ اللّه ، لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر ، واجتناب النواهي .

ثم قال تعالى : ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي : دلنا وأرشدنا ، ووفقنا للصراط المستقيم ، وهو الطريق الواضح الموصل إلى اللّه ، وإلى جنته ، وهو معرفة الحق والعمل به ، فاهدنا إلى الصراط واهدنا في الصراط . فالهداية إلى الصراط : لزوم دين الإسلام ، وترك ما سواه من الأديان ، والهداية في الصراط ، تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علما وعملا . فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو اللّه به في كل ركعة من صلاته ، لضرورته إلى ذلك .

وهذا الصراط المستقيم هو : ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . ﴿غَيْرِ﴾ صراط ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم . وغير صراط ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين تركوا الحق على جهل وضلال ، كالنصارى ونحوهم .

فهذه السورة على إيجازها ، قد احتوت على ما لم تحتو عليه سورة من سور القرآن ، فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة : توحيد الربوبية يؤخذ من قوله : ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ . وتوحيد الإلهية وهو إفراد اللّه بالعبادة ، يؤخذ من لفظ : « اللّهِ » ومن قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وتوحيد الأسماء والصفات ، وهو إثبات صفات الكمال للّه تعالى ، التي أثبتها لنفسه ، وأثبتها له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه ، وقد دل على ذلك لفظ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ كما تقدم . وتضمنت إثبات النبوة في قوله : ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ لأن ذلك

ممتنع بدون الرسالة .

وإثبات الجزاء على الأعمال في قوله : ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وأن الجزاء يكون بالعدل ، لأن الدين معناه الجزاء بالعدل .

وتضمنت إثبات القدر ، وأن العبد فاعل حقيقة ، خلافا للقدرية والجبرية . بل تضمنت الرد على جميع أهل البدع والضلال في قوله : ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ لأنه معرفة الحق والعمل به . وكل مبتدع وضال فهو مخالف لذلك . وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى ، عبادة واستعانة في قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ فالحمد لله رب العالمين .

* * *

## ( ٢ ) تفسير سورة البقرة

### وهي مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[ ١ : ٥ - ٢] ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

تقدم الكلام على البسملة. وأما الحروف المقطعة في أوائل السور، فالأسلم فيها، السكوت عن التعرض لمعناها من غير مستند شرعي، مع الجزم بأن الله تعالى لم ينزلها عبثا بل لحكمة لا نعلمها.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي هذا الكتاب العظيم الذي هو الكتاب على الحقيقة، المشتمل على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدمين والمتأخرين من العلم العظيم، والحق المبين. فـ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ولا شك بوجه من الوجوه، ونفي الريب عنه، يستلزم ضده، إذ ضدُّ الريبِ والشكِّ اليقينُ، فهذا الكتاب مُشتمل على علم اليقين المزيل للشك والريب. وهذه قاعدة مفيدة، أن النفي المقصود به المدح، لا بد أن يكون متضمنا لضدة، وهو الكمال، لأن النفي عدم، والعدم المحض، لا مدح فيه.

فلما اشتمل على اليقين وكانت الهداية لا تحصل إلا باليقين قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والهدى: ما تحصل به الهداية من الضلالة والشبه، وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة. وقال ﴿هُدًى﴾ وحذف المعمول، فلم يقل هدى للمصلحة الفلانية، ولا للشيء الفلاني، لإرادة العموم، وأنه هدى لجميع مصالح الدارين، فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفروعية، ومبين للحق من الباطل، والصحيح من الضعيف، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم، في دنياهم وأخراهم.

وقال في موضع آخر: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ فعمَّم. وفي هذا الموضع وغيره ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنه في نفسه هدى لجميع الخلق. فالأشقياء لم يرفعوا به رأسا. ولم يقبلوا هدى الله، فقامت عليهم به الحجة، ولم ينتفعوا به لشقائهم، وأما المتقون الذين أتوا بالسبب الأكبر، لحصول الهداية، وهو التقوى التي حقيقتها: اتخاذ ما يقي سخط الله وعذابه، بامتثال أوامره، واجتناب النواهي، فاهتدوا به، وانتفعوا غاية الانتفاع. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [سورة الأنفال ٢٩]. فالمُتقون هم المُنتفعون بالآيات القرآنية، والآيات الكونية.

ولأن الهداية نوعان: هداية البيان، وهداية التوفيق. فالمُتقون حصلت لهم الهدايتان، وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق، وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها، ليست هداية حقيقية تامة.

ثم وصف المتقين بالعقائد والأعمال الباطنة، والأعمال الظاهرة، لتضمن التقوى لذلك فقال: ﴿ٱلَّذِينَ

يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ حقيقة الإيمان : هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل ، المتضمن لانقياد الجوارح ، وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس ، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر . إنما الشأن في الإيمان بالغيب ، الذي لم نره ولم نشاهده ، وإنما نؤمن به ، لخبر الله وخبر رسوله . فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر ، لأنه تصديق مجرد لله ورسله . فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به ، أو أخبر به رسوله ، سواء شاهده ، أو لم يشاهده وسواء فهمه وعقله ، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه . بخلاف الزنادقة والمكذبين بالأمور الغيبية ، لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تهتد إليها فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ففسدت عقولهم ، ومرجت أحلامهم . وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله .

ويدخل في الإيمان بالغيب ، الإيمان بجميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلة ، وأحوال الآخرة ، وحقائق أوصاف الله وكيفيتها ، وما أخبرت به الرسل من ذلك فيؤمنون بصفات الله ووجودها ، ويتيقنونها ، وإن لم يفهموا كيفيتها .

ثم قال : ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لم يقل : يفعلون الصلاة ، أو يأتون بالصلاة ، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة . فإقامة الصلاة ، إقامتها ظاهرا ، بإتمام أركانها ، وواجباتها ، وشروطها . وإقامتها باطنا بإقامة روحها ، وهو حضور القلب فيها ، وتدبر ما يقوله ويفعله منها ، فهذه الصلاة هي التي قال الله فيها : ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ وهي التي يترتب عليها الثواب . فلا ثواب للإنسان من صلاته ، إلا ما عقل منها ، ويدخل في الصلاة فرائضها ونوافلها .

ثم قال : ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يدخل فيه النفقات الواجبة كالزكاة ، والنفقة على الزوجات والأقارب ، والمماليك ونحو ذلك . والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير . ولم يذكر المنفق عليهم ، لكثرة أسبابه وتنوع أهله ، ولأن النفقة من حيث هي ، قربة إلى الله ، وأتى بـ « من » الدالة على التبعيض ، لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءا يسيرا من أموالهم ، غير ضار لهم ولا مُثقِل ، بل ينتفعون هم بإنفاقه ، وينتفع به إخوانهم .

وفي قوله : ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾ إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم ، ليست حاصلة بقوتكم وملككم ، وإنما هي رزق الله الذي خولكم ، وأنعم به عليكم ، فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده ، فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم به عليكم ، وواسوا إخوانكم المُعدمين .

وكثيرا ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن ، لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود ، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبيده ، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود ، وسعيه في نفع الخلق ، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه ، فلا إخلاص ولا إحسان .

ثم قال : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن والسُّنَّة ، قال تعالى : ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [ سورة النساء ١١٣ ] . فالمتقون يؤمنون بجميع ما جاء به الرسول ، ولا يُفرّقون بين بعض ما أنزل إليه ، فيؤمنون ببعضه ، ولا يؤمنون ببعضه ، إما بجحده أو تأويله ، على غير مراد الله ورسوله ، كما يفعل ذلك من يفعله من المبتدعة ، الذين يؤولون النصوص الدالة على خلاف قولهم ، بما حاصله عدم التصديق

بمعناها ، وإن صدقوا بلفظها ، فلم يؤمنوا بها إيمانا حقيقيا .

وقوله : ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ يشمل الإيمان بالكتب السابقة ، ويتضمَّن الإيمان بالكتب الإيمان بالرسل وبما اشتملت عليه ، خصوصا التوراة والإنجيل والزبور ، وهذه خاصية المؤمنين يؤمنون بجميع الكتب السماوية وبجميع الرسل فلا يفرقون بين أحد منهم .

ثم قال : ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ و « الآخرة » اسم لما يكون بعد الموت ، وخصه بالذكر بعد العموم ، لأن الإيمان باليوم الآخر ، أحد أركان الإيمان ؛ ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل ، و « اليقين » هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك ، الموجب للعمل .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي : الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ أي : على هدى عظيم ، لأن التنكير للتعظيم ، وأي هداية أعظم من تلك الصفات المذكورة المتضمنة للعقيدة الصحيحة والأعمال المستقيمة ، وهل الهداية الحقيقية إلا هدايتهم ، وما سواها مما خالفها ، فهو ضلالة .

وأتى بـ « على » في هذا الموضع ، الدالة على الاستعلاء ، وفي الضلالة يأتي بـ « في » كما في قوله : ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [ سورة سبأ ٢٤] . لأن صاحب الهُدى مُستعلٍ بالهُدى ، مرتفع به ، وصاحب الضلال منغمس فيه مُحْتَقر .

ثم قال : ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ والفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب ، حصر الفلاح فيهم ؛ لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم ، وما عدا تلك السبيل ، فهي سبل الشقاء والهلاك والخسار التي تفضي بسالكها إلى الهلاك .

[ ٦ : ٧ - ٢ ] : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ .

فلهذا لما ذكر صفات المؤمنين حقا ، ذكر صفات الكفار المظهرين لكفرهم ، المعاندين للرسول فقال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ يخبر تعالى أن الذين كفروا ، أي : اتصفوا بالكفر ، وانصبغوا به ، وصار وصفا لهم لازما ، لا يردعهم عنه رادع ، ولا ينجع فيهم وعظ ، إنهم مستمرون على كفرهم ، فسواء عليهم أأنذرتهم ، أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، وحقيقة الكفر : هو الجحود لما جاء به الرسول ، أو جحد بعضه ، فهؤلاء الكفار لا تفيدهم الدعوة إلا إقامة الحجة ، وكأن في هذا قطعا لطمع الرسول ﷺ في إيمانهم ، وأنك لا تأس عليهم ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات .

ثم ذكر الموانع المانعة لهم من الإيمان فقال : ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ أي : طُبِعَ عليها بطابع لا يدخلها الإيمان ، ولا ينفذ فيها ، فلا يعون ما ينفعهم ، ولا يسمعون ما يفيدهم .

﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ أي : غشاء وغطاء وأكنّة تمنعها عن النظر الذي ينفعهم ، وهذه طرق العلم والخير ، قد سُدَّت عليهم ، فلا مطمع فيهم ، ولا خير يرجى عندهم ، وإنما منعوا ذلك ، وسُدَّت عنهم أبواب الإيمان بسبب كفرهم وجحودهم ومعاندتهم بعد ما تبين لهم الحق ، كما قال تعالى : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ

﴿وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [سورة الأنعام ١١٠]. وهذا عقاب عاجل.

ثم ذكر العقاب الآجل، فقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عذاب النار، وسخط الجبار المستمر الدائم. ثم قال تعالى في وصف المنافقين الذين ظاهرهم الإسلام وباطنهم الكفر، فقال:

[٨: ١٠ - ٢]: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾.

واعلم أن النفاق هو: إظهار الخير وإبطان الشر، ويدخل في هذا التعريف النفاق الاعتقادي، والنفاق العملي، كالذي ذكر النبي ﷺ في قوله: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[١٠] وفي رواية: «وإذا خاصم فجر»[١١].

وأما النفاق الاعتقادي المخرج عن دائرة الإسلام، فهو الذي وصف الله به المنافقين في هذه السورة وغيرها، ولم يكن النفاق موجودا قبل هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، وبعد أن هاجر، فلما كانت وقعة «بدر» وأظهر الله المؤمنين وأعزهم، ذل من في المدينة ممن لم يسلم، فأظهر بعضهم الإسلام خوفا ومخادعة، ولتحقن دماؤهم، وتسلم أموالهم، فكانوا بين أظهر المسلمين في الظاهر أنهم منهم، وفي الحقيقة ليسوا منهم.

فمن لطف الله بالمؤمنين، أن جلا أحوالهم ووصفهم بأوصاف يتميزون بها، لئلا يغتر بهم المؤمنون، ولينقمعوا أيضًا عن كثير من فجورهم قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [سورة التوبة ٦٤]. فوصفهم الله بأصل النفاق فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فأكذبهم الله بقوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان الحقيقي، ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما هذا مخادعة لله ولعباده المؤمنين.

والمخادعة: أن يظهر المخادع لمن يخادعه شيئا، ويبطن خلافه لكي يتمكن من مقصوده ممن يخادع، فهؤلاء المنافقون، سلكوا مع الله وعباده هذا المسلك، فعاد خداعهم على أنفسهم، فإن هذا من العجائب؛ لأن المخادع، إما أن ينتج خداعه ويحصل له ما يريد أو يسلم، لا له ولا عليه، وهؤلاء عاد

---

(١٠) * مُتفق عليه. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
أخرجه البُخاري في مواضع من صحيحه منها: (كتاب الإيمان / باب: علامة المُنافق / ح ٣٣). بلفظ: من علامات المنافق.... الحديث.

(١١) * أما قوله: (وفي رواية: وإذا خاصم فجر).
هذه الزيادة متفق عليها من رواية عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنه. ولفظها: أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر. أخرجه البُخاري في غير مواضع من صحيحه، منها: (كتاب الأيمان / باب: علامة المنافق / ح٣٤)، (كتاب المظالم / باب: إذا خاصم فجر / ح ٢٤٥٩)، (كتاب الجزية / باب: إثم من عاهد ثم غدر / ح ٣١٧٨).
وأخرجه مُسلم: (كتاب الأيمان / باب خصال المنافقين / ح ١٠٦).

خداعهم عليهم ، وكأنهم يعملون ما يعملون من المكر لإهلاك أنفسهم وإضرارها وكيدها ؛ لأن الله تعالى لا يتضرر بخداعهم شيئا ، وعباده المؤمنون لا يضرهم كيدهم شيئا ، فلا يضر المؤمنين أن أظهر المنافقون الإيمان ، فسلمت بذلك أموالهم وحقنت دماؤهم ، وصار كيدهم في نحورهم ، وحصل لهم بذلك الخزي والفضيحة في الدنيا ، والحزن المُستمر بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة والنصرة ؛ ثم في الآخرة لهم العذاب الأليم المُوجع المُفجع ؛ بسبب كذبهم وكفرهم وفجورهم ، والحال أنهم من جهلهم وحماقتهم لا يشعرون بذلك .

وقوله : ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ والمراد بالمرض هنا : مرض الشك والشبهات والنفاق ، لأن القلب يعرض له مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله : مرض الشبهات الباطلة ، ومرض الشهوات المردية ، فالكفر والنفاق والشكوك والبدع ، كلها من مرض الشبهات ، والزنا ، ومحبة الفواحش والمعاصي وفعلها ، من مرض الشهوات ، كما قال تعالى : ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [سورة الأحزاب ٣٢] . وهي شهوة الزنا ، والمعافى من عوفي من هذين المرضين ، فحصل له اليقين والإيمان ، والصبر عن كل معصية ، فَرَفَلَ في أثواب العافية .

وفي قوله عن المنافقين : ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصين ، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة ، يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها كما قال تعالى : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [سورة الأنعام ١١٠] . وقال تعالى : ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [سورة الصّف ٥] . وقال تعالى : ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [سورة التّوبة ١٢٥] . فعقوبة المعصية ، المعصية بعدها ، كما أن من ثواب الحسنة ، الحسنة بعدها ، قال تعالى : ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [سورة مريم ٧٦] .

[ ١١ : ١٢ – ٢] : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ .

أي : إذا نهي هؤلاء المنافقون عن الإفساد في الأرض ، وهو العمل بالكفر والمعاصي ، ومنه إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم وموالاتهم للكافرين ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض ، وإظهارهم أنه ليس بإفساد بل هو إصلاح ، قلبا للحقائق ، وجمعا بين فعل الباطل واعتقاده حقا ، وهذا أعظم جناية ممن يعمل بالمعصية ، مع اعتقاد أنها معصية فهذا أقرب للسلامة ، وأرجى لرجوعه .

ولما كان في قولهم : ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ حصر للإصلاح في جانبهم – وفي ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح – قلب الله عليهم دعواهم بقوله : ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ فإنه لا أعظم فسادا ممن كفر بآيات الله ، وصد عن سبيل الله ، وخادع الله وأولياءه ، ووالى المحاربين لله ورسوله ، وزعم مع ذلك أن هذا إصلاح ، فهل بعد هذا الفساد فساد؟ ﴿وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ علما ينفعهم ، وإن كانوا قد علموا بذلك علما تقوم به عليهم حجة الله ، وإنما كان العمل بالمعاصي في الأرض إفسادا ، لأنه يتضمن فساد ما على وجه الأرض من الحبوب والثمار والأشجار ، والنبات ، بما يحصل فيها من الآفات بسبب المعاصي ،

ولأن الإصلاح في الأرض أن تعمر بطاعة الله والإيمان به ، لهذا خلق الله الخلق ، وأسكنهم في الأرض ، وأدرّ لهم الأرزاق ، ليستعينوا بها على طاعته وعبادته ، فإذا عمل فيها بضده ، كان سعيا بالفساد فيها ، وإخرابا لها عما خلقت له .

[١٣ - ٢] : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ .

أي : إذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس ، أي : كإيمان الصحابة رضي الله عنهم ، وهو الإيمان بالقلب واللسان ، قالوا بزعمهم الباطل : أنؤمن كما آمن السفهاء؟ يعنون - قبحهم الله - الصحابة رضي الله عنهم ، بزعمهم أن سفههم أوجب لهم الإيمان ، وترك الأوطان ، ومعاداة الكفار ، والعقل عندهم يقتضي ضد ذلك ، فنسبوهم إلى السفه ؛ وفي ضمنه أنهم هم العقلاء أرباب الحجى والنُّهى . فرد الله ذلك عليهم ، وأخبر أنهم هم السفهاء على الحقيقة ، لأن حقيقة السفه جهل الإنسان بمصالح نفسه ، وسعيه فيما يضرها ، وهذه الصفة منطبقة عليهم وصادقة عليهم ، كما أن العقل والحجا ، معرفة الإنسان بمصالح نفسه ، والسعي فيما ينفعه ، وفي دفع ما يضره ، وهذه الصفة منطبقة على الصحابة والمؤمنين وصادقة عليهم ، فالعبرة بالأوصاف والبرهان ، لا بالدعاوى المجردة ، والأقوال الفارغة .

ثم قال تعالى : [ ١٤ : ١٥ - ٢] : ﴿وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ .

هذا من قولهم بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، وذلك أنهم إذا اجتمعوا بالمؤمنين ، أظهروا أنهم على طريقتهم وأنهم معهم ، فإذا خلوا إلى شياطينهم - أي : رؤسائهم وكبرائهم في الشر - قالوا : إنا معكم في الحقيقة ، وإنما نحن مستهزءون بالمؤمنين بإظهارنا لهم ، أنا على طريقتهم ، فهذه حالهم الباطنة والظاهرة ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله .

قال تعالى : ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وهذا جزاء لهم ، على استهزائهم بعباده ، فمن استهزائه بهم أن زين لهم ما كانوا فيه من الشقاء والحالة الخبيثة ، حتى ظنوا أنهم مع المؤمنين ، لما لم يسلط الله المؤمنين عليهم ، ومن استهزائه بهم يوم القيامة ، أنه يعطيهم مع المؤمنين نورا ظاهرا ، فإذا مشي المؤمنون بنورهم ، طُفِئَ نور المنافقين ، وبقوا في الظلمة بعد النور متحيّرين ، فما أعظم اليأس بعد الطمع ، ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ﴾ [سورة الحديد١٤] الآية .

قوله : ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ أي : يزيدهم ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ أي : فجورهم وكفرهم ، ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي : حائرون مُتردِّدون ، وهذا من استهزائه تعالى بهم .

ثم قال تعالى كاشفا عن حقيقة أحوالهم :

[١٦ - ٢] : ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ .

أولئك ، أي : المنافقون الموصوفون بتلك الصفات ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي : رغبوا في الضلالة ، رغبة المُشتري بالسلعة ، التي من رغبته فيها يبذل فيها الأثمان النَّفيسة . وهذا من أحسن الأمثلة ، فإنه جعل الضلالة ، التي هي غاية الشر ، كالسلعة ، وجعل الهدى الذي هو غاية الصلاح بمنزلة الثمن ، فبذلوا الهدى رغبة عنه بالضلالة رغبة فيها ، فهذه تجارتهم ، فبئس التجارة ، وبئس الصفقة صفقتهم ، وإذا كان من بذل دينارا في مقابلة درهم خاسرا ، فكيف من بذل جوهرة وأخذ عنها درهما؟ فكيف من بذل الهدى في مقابلة الضلالة ، واختار الشقاء على السعادة ، ورغب في سافل الأمور عن عاليها ؟ فما ربحت تجارته ، بل خسر فيها أعظم خسارة .﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [سورة الزُّمر ١٥] .

وقوله : ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ تحقيق لضلالهم ، وأنهم لم يحصل لهم من الهداية شيء ، فهذه أوصافهم القبيحة . ثم ذكر مثلهم الكاشف لها غاية الكشف ، فقال :

[١٧ : ٢٠ - ٢] : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

أي : مثلهم المطابق لما كانوا عليه كمثل الذي استوقد نارا ، أي : كان في ظلمة عظيمة ، وحاجة إلى النار شديدة فاستوقدها من غيره ، ولم تكن عنده مُعدَّة ، بل هي خارجة عنه ، فلما أضاءت النار ما حوله ، ونظر المحل الذي هو فيه ، وما فيه من المخاوف وأمنها ، وانتفع بتلك النار ، وقرّت بها عينه ، وظن أنه قادر عليها ، فبينما هو كذلك ، إذ ذهب اللّه بنوره ، فذهب عنه النور ، وذهب معه السرور ، وبقي في الظلمة العظيمة والنار المُحرقة ، فذهب ما فيها من الإشراق ، وبقي ما فيها من الإحراق ، فبقي في ظلمات متعددة : ظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، وظلمة المطر ، والظلمة الحاصلة بعد النور ، فكيف يكون حال هذا الموصوف؟ فكذلك هؤلاء المنافقون ، استوقدوا نار الإيمان من المؤمنين ، ولم تكن صفة لهم ، فانتفعوا بها وحُقِنت بذلك دماؤهم ، وسلمت أموالهم ، وحصل لهم نوع من الأمن في الدنيا ، فبينما هم على ذلك إذ هجم عليهم الموت ، فسلبهم الانتفاع بذلك النور ، وحصل لهم كل هم وغم وعذاب ، وحصل لهم ظُلمة القبر ، وظُلمة الكفر ، وظُلمة النفاق ، وظُلَم المعاصي على اختلاف أنواعها ، وبعد ذلك ظلمة النار وبئس القرار .

فلهذا قال تعالى عنهم : ﴿صُمٌّ﴾ أي : عن سماع الخير ، ﴿بُكْمٌ﴾ أي : عن النطق به ، ﴿عُمْىٌ﴾ عن رؤية الحق ، ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه ، فلا يرجعون إليه ، بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال ، فإنه لا يعقل ، وهو أقرب رجوعا منهم .

ثم قال تعالى : ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني : أو مثلهم كصيب ، أي : كصاحب صيب من

السماء، وهو المطر الذي يصوب، أي: ينزل بكثرة، ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾ ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمات المطر، ﴿وَرَعْدٌ﴾ وهو الصوت الذي يسمع من السحاب، ﴿وَبَرْقٌ﴾ وهو الضوء اللامع المُشاهَد مع السحاب.

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾ البرق في تلك الظلمات ﴿مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾ أي: وقفوا فهكذا حال المنافقين، إذا سمعوا القرآن وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده، جعلوا أصابعهم في آذانهم، وأعرضوا عن أمره ونهيه ووعده ووعيده، فيروعهم وعيده وتزعجهم وعوده، فهم يعرضون عنها غاية ما يمكنهم، ويكرهونها كراهة صاحب الصيب الذي يسمع الرعد، ويجعل أصابعه في أذنيه خشية الموت، فهذا تمكن له السلامة. وأما المنافقون فأنّى لهم السلامة، وهو تعالى محيط بهم، قدرة وعلما فلا يفوتونه ولا يعجزونه، بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويجازيهم عليها أتم الجزاء.

ولما كانوا مبتلين بالصمم، والبكم، والعمى المعنوي، ومسدودة عليهم طرق الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أي: الحسية، ففيه تحذير لهم وتخويف بالعقوبة الدنيوية، ليحذروا، فيرتدعوا عن بعض شرهم ونفاقهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه شيء، ومن قدرته أنه إذا شاء شيئا فعله من غير مُمانع ولا معارض.

وفي هذه الآية وما أشبهها، رد على القدرية القائلين بأن أفعالهم غير داخلة في قدرة اللّه تعالى، لأن أفعالهم من جملة الأشياء الداخلة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

[ ٢١: ٢٢ - ٢ ]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

هذا أمر عام لكل الناس، بأمر عام، وهو العبادة الجامعة، لامتثال أوامر اللّه، واجتناب نواهيه، وتصديق خبره، فأمرهم تعالى بما خلقهم له، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات ٥٦]؛ ثم استدل على وجوب عبادته وحده، بأنه ربكم الذي ربّاكم بأصناف النعم، فخلقكم بعد العدم، وخلق الذين من قبلكم، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، فجعل لكم الأرض فِراشا تستقرون عليها، وتنتفعون بالأبنية، والزراعة، والحراثة، والسلوك من محل إلى محل، وغير ذلك من أنواع الانتفاع بها، وجعل السماء بناء لمسكنكم، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم، كالشمس، والقمر، والنجوم.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ والسماء: هو كل ما علا فوقك فهو سماء، ولهذا قال المفسرون: المراد بالسماء هاهنا: السحاب، فأنزل منه تعالى ماء، ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ كالحبوب، والثمار، من نخيل، وفواكه، وزروع وغيرها ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ به ترتزقون، وتقوّتون وتعيشون وتفكهون.

﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: نظراء وأشباها من المخلوقين، فتعبدونهم كما تعبدون اللّه، وتحبونهم كما تحبون اللّه، وهم مثلكم، مخلوقون، مرزوقون مُدَبَّرون، لا يملكون مثقال ذرّة في السماء

ولا في الأرض ، ولا ينفعونكم ولا يضرون ، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن الله ليس له شريك ، ولا نظير ، لا في الخلق ، والرزق ، والتدبير ، ولا في العبادة فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟ هذا من أعجب العجب ، وأسفه السفه .

وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده ، والنهي عن عبادة ما سواه ، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته ، وبطلان عبادة من سواه ، وهو ذكر توحيد الربوبية ، المتضمن لانفراده بالخلق والرزق والتدبير ، فإذا كان كل أحد مقرًا بأنه ليس له شريك في ذلك ، فكذلك فليكن إقراره بأن الله لا شريك له في العبادة ، وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري ، وبطلان الشرك .

وقوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يحتمل أن المعنى : إنكم إذا عبدتم الله وحده ، اتقيتم بذلك سخطه وعذابه ، لأنكم أتيتم بالسبب الدافع لذلك ، ويحتمل أن يكون المعنى : أنكم إذا عبدتم الله ، صرتم من المتقين الموصوفين بالتقوى ، وكلا المعنيين صحيح ، وهما متلازمان ، فمن أتى بالعبادة كاملة ، كان من المتقين ، ومن كان من المتقين ، حصلت له النجاة من عذاب الله وسخطه . ثم قال تعالى :

[ ٢٣ : ٢٤ - ٢ ] : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ .

وهذا دليل عقلي على صدق رسول الله ﷺ ، وصحة ما جاء به ، فقال : ﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ معشر المعاندين للرسول ، الرادين دعوته ، الزاعمين كذبه في شك واشتباه ، مما نزلنا على عبدنا ، هل هو حق أو غيره ؟ فهاهنا أمر نصف ، فيه الفيصلة بينكم وبينه ، وهو أنه بشر مثلكم ، ليس بأفصحكم ولا بأعلمكم وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم ، لا يكتب ولا يقرأ ، فأتاكم بكتاب زعم أنه من عند الله ، وقلتم أنتم : إنه تقوّله وافتراه ، فإن كان الأمر كما تقولون ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ واستعينوا بمن تقدرون عليه من أعوانكم وشهدائكم ، فإن هذا أمر يسير عليكم ، خصوصا وأنتم أهل الفصاحة والخطابة ، والعداوة العظيمة للرسول ، فإن جئتم بسورة من مثله ، فهو كما زعمتم ، وإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم غاية العجز ، ولن تأتوا بسورة من مثله ، ولكن هذا التقييم على وجه الإنصاف والتنزل معكم ، فهذا آية كبرى ، ودليل واضح جليّ على صدقه وصدق ما جاء به ، فيتعين عليكم اتّباعه ، واتّقاء النار التي بلغت في الحرارة العظيمة ، والشّدة أن كانت وقودها الناس والحجارة ، ليست كنار الدنيا التي إنما تتقد بالحطب ، وهذه النار الموصوفة مُعدّة ومُهيّأة للكافرين بالله ورسله . فاحذروا الكفر برسوله ، بعد ما تبين لكم أنه رسول الله .

وهذه الآية ونحوها يسمونها آيات التحدي ، وهو تعجيز الخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، قال تعالى : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [ سورة الإسراء ٨٨ ] .

وكيف يقدر المخلوق من تراب ، أن يكون كلامه ككلام رب الأرباب؟ أم كيف يقدر الناقص الفقير من كل الوجوه ، أن يأتي بكلام ككلام الكامل ، الذي له الكمال المُطلق ، والغنى الواسع من كل الوجوه؟

هذا ليس في الإمكان ، ولا في قدرة الإنسان ، وكل من له أدنى ذوق ومعرفة بأنواع الكلام ، إذا وزن هذا القرآن العظيم بغيره من كلام البلغاء ، ظهر له الفرق العظيم .

وفي قوله : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ إلى آخره ، دليل على أن الذي يرجى له الهداية من الضلالة : هو الشاك الحائر الذي لم يعرف الحق من الضلال ، فهذا إذا بين له الحق فهو حري بالتوفيق إن كان صادقا في طلب الحق . وأما المعاند الذي يعرف الحق ويتركه ، فهذا لا يمكن رجوعه ، لأنه ترك الحق بعد ما تبين له ، لم يتركه عن جهل ، فلا حيلة فيه ، وكذلك الشاكُّ غير الصادق في طلب الحق ، بل هو معرض غير مجتهد في طلبه ، فهذا في الغالب أنه لا يوفق .

وفي وصف الرسول بالعبودية في هذا المقام العظيم ، دليل على أن أعظم أوصافه ﷺ ، قيامه بالعبودية ، التي لا يلحقه فيها أحد من الأولين والآخرين . كما وصفه بالعبودية في مقام الإسراء ، فقال : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [سورة الإسراء ١] . وفي مقام الإنزال ، فقال : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [سورة الفرقان ١] .

وفي قوله : ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ونحوها من الآيات ، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة ، أن الجنة والنار مخلوقتان خلافا للمعتزلة ، وفيها أيضا ، أن الموحدين وإن ارتكبوا بعض الكبائر لا يخلدون في النار ، لأنه قال : ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ فلو كان عصاة الموحدين يخلدون فيها ، لم تكن مُعدَّة للكافرين وحدهم ، خلافا للخوارج والمعتزلة .

وفيها دلالة على أن العذاب مستحق بأسبابه ، وهو الكفر ، وأنواع المعاصي على اختلافها .

[٢٥ - ٢] : ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

لما ذكر جزاء الكافرين ، ذكر جزاء المؤمنين ، أهل الأعمال الصالحات ، على طريقته تعالى في القرآن يجمع بين الترغيب والترهيب ، ليكون العبد راغبا راهبا ، خائفا راجيا فقال : ﴿وَبَشِّرِ﴾ أي : يا أيها الرسول ومن قام مقامه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم ، فصدَّقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة ، ووصفت أعمال الخير بالصالحات ، لأن بها تصلح أحوال العبد ، وأمور دينه ودنياه ، وحياته الدنيوية والأخروية ، ويزول بها عنه فساد الأحوال ، فيكون بذلك من الصالحين ، الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته .

فبشرهم ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ أي : بساتين جامعة من الأشجار العجيبة ، والثمار الأنيقة ، والظل المديد والأغصان والأفنان وبذلك صارت جنة يجتن بها داخلها ، وينعم فيها ساكنها .

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي : أنهار الماء ، واللبن ، والعسل ، والخمر ، يفجرونها كيف شاءوا ، ويصرفونها أين أرادوا ، وتشرب منها تلك الأشجار فتنبت أصناف الثمار . ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي : هذا من جنسه ، وعلى وصفه ، كلها متشابهة في الحسن

واللذّة ، ليس فيها ثمرة خاصة ، وليس لهم وقت خال من اللذة ، فهم دائما متلذذون بأكلها .

وقوله : ﴿وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًاۖ﴾ قيل : متشابها في الاسم ، مختلف الطعوم وقيل : متشابها في اللون ، مختلفا في الاسم ، وقيل : يشبه بعضه بعضا ، في الحسن ، واللذة ، والفكاهة ، ولعل هذا الصحيح .

ثم لما ذكر مسكنهم ، وأقواتهم من الطعام والشراب وفواكههم ، ذكر أزواجهم ، فوصفهن بأكمل وصف وأوجزه ، وأوضحه فقال : ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌۖ﴾ فلم يقل « مطهرة من العيب الفلاني » ليشمل جميع أنواع التطهير ، فهن مطهرات الأخلاق ، مطهرات الخلق ، مطهرات اللسان ، مطهرات الأبصار ، فأخلاقهن ، أنهن عرب متحببات إلى أزواجهن بالخلق الحسن ، وحسن التبعل ، والأدب القولي والفعلي ، ومطهر خلقهن من الحيض والنفاس والمني ، والبول والغائط ، والمخاط والبصاق ، والرائحة الكريهة ، ومطهرات الخلق أيضا ، بكمال الجمال ، فليس فيهن عيب ، ولا دمامة خلق ، بل هن خيرات حسان ، مطهرات اللسان والطرف ، قاصرات طرفهن على أزواجهن ، وقاصرات ألسنتهن عن كل كلام قبيح .

ففي هذه الآية الكريمة ، ذكر المبشِّر والمبشَّر ، والمبشَّرُ به ، والسبب الموصِّل لهذه البشارة ، فالمُبشِّر : هو الرسول ﷺ ومن قام مقامه من أمته ، والمُبشَّر : هم المؤمنون العاملون الصالحات ، والمبشَّر به : هي الجنات الموصوفات بتلك الصفات ، والسبب الموصِّل لذلك ، هو الإيمان والعمل الصالح ، فلا سبيل إلى الوصول إلى هذه البشارة ، إلا بهما ، وهذا أعظم بشارة حاصلة ، على يد أفضل الخلق ، بأفضل الأسباب .

وفيه استحباب بشارة المؤمنين ، وتنشيطهم على الأعمال بذكر جزائها وثمراتها ، فإنها بذلك تخف وتسهل ، وأعظم بشرى حاصلة للإنسان ، توفيقه للإيمان والعمل الصالح ، فذلك أول البشارة وأصلها ، ومن بعده البشرى عند الموت ، ومن بعده الوصول إلى هذا النعيم المقيم ، نسأل الله أن يجعلنا منهم .

[ ٢٦ : ٢٧ - ٢ ] : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ أي : أيَّ مثل كان ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَاۚ﴾ لاشتمال الأمثال على الحكمة ، وإيضاح الحق ، والله لا يستحيي من الحق ، وكأن في هذا ، جوابا لمن أنكر ضرب الأمثال في الأشياء الحقيرة ، واعترض على الله في ذلك . فليس في ذلك محل اعتراض . بل هو من تعليم الله لعباده ورحمته بهم . فيجب أن تتلقى بالقبول والشكر ، ولهذا قال : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۖ﴾ فيتفهّمونها ، ويتفكرون فيها ، فإن علموا ما اشتملت عليه على وجه التفصيل ، ازداد بذلك علمهم وإيمانهم ، وإلا علموا أنها حق ، وما اشتملت عليه حق ، وإن خفي عليهم وجه

الحق فيها لعلمهم بأن الله لم يضربها عبثا، بل لحكمة بالغة، ونعمة سابغة. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ فيعترضون ويتحيرون، فيزدادون كفرا إلى كفرهم، كما ازداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم، ولهذا قال: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ فهذه حال المؤمنين والكافرين عند نزول الآيات القرآنية. قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [سورة التوبة ١٢٤، ١٢٥].

فلا أعظم نعمة على العباد من نزول الآيات القرآنية، ومع هذا تكون لقوم محنة وحيرة وضلالةوزيادة شر إلى شرهم، ولقوم منحة ورحمة وزيادة خير إلى خيرهم، فسبحان من فاوت بين عباده، وانفرد بالهداية والإضلال.

ثم ذكر حكمته في إضلال من يضلهم وأن ذلك عدل منه تعالى فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله؛ المعاندين لرسل الله؛ الذين صار الفسق وصفهم؛ فلا يبغون به بدلا، فاقتضت حكمته تعالى إضلالهم لعدم صلاحيتهم للهدى، كما اقتضت حكمته وفضله هداية من اتصف بالإيمان وتحلى بالأعمال الصالحة.

والفسق نوعان: نوع مخرج من الدين، وهو الفسق المقتضي للخروج من الإيمان؛ كالمذكور في هذه الآية ونحوها، ونوع غير مخرج من الإيمان كما في قولـه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [سورة الحجرات ٦] الآية.

ثم وصف الفاسقين فقال: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ وهذا يعم العهد الذي بينهم وبينه والذي بينهم وبين عباده الذي أكده عليهم بالمواثيق الثقيلة والإلزامات، فلا يبالون بتلك المواثيق؛ بل ينقضونها ويتركون أوامره ويرتكبون نواهيه؛ وينقضون العهود التي بينهم وبين الخلق.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ وهذا يدخل فيه أشياء كثيرة، فإن الله أمرنا أن نصل ما بيننا وبينه بالإيمان به والقيام بعبوديته، وما بيننا وبين رسوله بالإيمان به ومحبته وتعزيره والقيام بحقوقه، وما بيننا وبين الوالدين والأقارب والأصحاب؛ وسائر الخلق بالقيام بتلك الحقوق التي أمر الله أن نصلها، فأما المؤمنون فوصلوا ما أمر الله به أن يوصل من هذه الحقوق، وقاموا بها أتم القيام، وأما الفاسقون، فقطعوها، ونبذوها وراء ظهورهم؛ معتاضين عنها بالفسق والقطيعة؛ والعمل بالمعاصي؛ وهو: الإفساد في الأرض. فـ ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ أي: من هذه صفته ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة، فحصر الخسارة فيهم؛ لأن خسرانهم عام في كل أحوالهم؛ ليس لهم نوع من الربح؛ لأن كل عمل صالح شرطه الإيمان؛ فمن لا إيمان له لا عمل له؛ وهذا الخسار هو خسار الكفر، وأما الخسار الذي قد يكون كفرا؛ وقد يكون معصية؛ وقد يكون تفريطا في ترك مستحب، المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ فهذا عام لكل مخلوق؛ إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح؛ والتواصي بالحق؛ والتواصي بالصبر؛ وحقيقة فوات الخير؛ الذي كان العبد بصدد تحصيله وهو تحت إمكانه.

ثم قال تعالى :

[٢٨ – ٢] : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

هذا استفهام بمعنى التعجب والتوبيخ والإنكار ، أي : كيف يحصل منكم الكفر بالله ؛ الذي خلقكم من العدم ؛ وأنعم عليكم بأصناف النعم ؛ ثم يميتكم عند استكمال آجالكم ؛ ويجازيكم في القبور ؛ ثم يحييكم بعد البعث والنشور ؛ ثم إليه ترجعون ؛ فيجازيكم الجزاء الأوفى ، فإذا كنتم في تصرفه ؛ وتدبيره ؛ وبره ؛ وتحت أوامره الدينية ؛ ومن بعد ذلك تحت دينه الجزائي ؛ أفيليق بكم أن تكفروا به ؛ وهل هذا إلا جهل عظيم وسفه وحماقة ؟ بل الذي يليق بكم أن تؤمنوا به وتتقوه وتشكروه وتخافوا عذابه ؛ وترجوا ثوابه .

[٢٩ – ٢] : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي : خلق لكم ، برا بكم ورحمة ، جميع ما على الأرض ، للانتفاع والاستمتاع والاعتبار .

وفي هذه الآية العظيمة دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة ، لأنها سيقت في معرض الامتنان ، يخرج بذلك الخبائث ، فإن تحريمها أيضًا يؤخذ من فحوى الآية ، ومعرفة المقصود منها ، وأنه خلقها لنفعنا ، فما فيه ضرر ، فهو خارج من ذلك ، ومن تمام نعمته ، منعنا من الخبائث ، تنزيها لنا .

وقوله : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

اسْتَوَى : ترد في القرآن على ثلاثة معاني : فتارة لا تُعدى بالحرف ، فيكون معناها ، الكمال والتمام ، كما في قوله عن موسى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [سورة القصص١٤] . وتارة تكون بمعنى « علا » و « ارتفع » وذلك إذا عُدّيت بـ « على » كما في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [سورة الأعراف ٥٤] . ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [سورة الزخرف ١٣] . وتارة تكون بمعنى « قصد » كما إذا عُدّيت بـ « إلى » كما في هذه الآية ، أي : لما خلق تعالى الأرض ، قصد إلى خلق السماوات ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ فخلقها وأحكمها ، وأتقنها ، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فـ ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سورة سبأ ٣] . و ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [سورة النحل ١٩] .

يعلم السر وأخفى . وكثيرا ما يقرن بين خلقه للخلق وإثبات علمه كما في هذه الآية ، وكما في قوله تعالى : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سورة الملك ١٤] . لأن خلقه للمخلوقات ، أدل دليل على علمه ، وحكمته ، وقدرته .

[ ٣٠: ٣٤ – ٢] : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟

سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ .

هذا شروع في ذكر فضل آدم عليه السلام أبي البشر أن الله حين أراد خلقه أخبر الملائكة بذلك ، وأن الله مستخلفه في الأرض . فقالت الملائكة عليهم السلام : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بالمعاصي ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ وهذا تخصيص بعد تعميم ، لبيان شدة مفسدة القتل ، وهذا بحسب ظنهم أن الخليفة المجعول في الأرض سيحدث منه ذلك ، فنزهوا الباري عن ذلك ، وعظموه ، وأخبروا أنهم قائمون بعبادة الله على وجه خال من المفسدة فقالوا : ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ أي : ننزهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك ، ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ يحتمل أن معناها : ونقدسك ، فتكون اللام مفيدة للتخصيص والإخلاص ، ويحتمل أن يكون : ونقدس لك أنفسنا ، أي : نطهرها بالأخلاق الجميلة ، كمحبة الله وخشيته وتعظيمه ، ونطهرها من الأخلاق الرذيلة .

قال الله تعالى للملائكة : ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾ من هذا الخليفة ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ؛ لأن كلامكم بحسب ما ظننتم ، وأنا عالم بالظواهر والسرائر ، وأعلم أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة ، أضعاف أضعاف ما في ضمن ذلك من الشر فلو لم يكن في ذلك ، إلا أن الله تعالى أراد أن يجتبي منهم الأنبياء والصديقين ، والشهداء والصالحين ، ولتظهر آياته للخلق ، ويحصل من العبوديات التي لم تكن تحصل بدون خلق هذا الخليفة ، كالجهاد وغيره ، وليظهر ما كمن في غرائز بني آدم من الخير والشر بالامتحان ، وليتبين عدوه من وليه ، وحزبه من حربه ، وليظهر ما كمن في نفس إبليس من الشر الذي انطوى عليه ، واتصف به ، فهذه حكم عظيمة ، يكفي بعضها في ذلك .

ثم لما كان قول الملائكة عليهم السلام ، فيه إشارة إلى فضلهم على الخليفة الذي يجعله الله في الأرض ، أراد الله تعالى ، أن يبين لهم من فضل آدم ، ما يعرفون به فضله ، وكمال حكمة الله وعلمه فـ ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ أي : أسماء الأشياء ، وما هو مسمى بها ، فعلمه الاسم والمسمى ، أي : الألفاظ والمعاني ، حتى المُكبرَّ من الأسماء كالقصعة ، والمُصَغَّر كالقُصيعة .

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ أي : عرض المُسمَّيات ﴿عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ امتحانا لهم ، هل يعرفونها أم لا؟ ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم وظنكم ، أنكم أفضل من هذا الخليفة ، ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ أي : ننزهك من الاعتراض منا عليك ، ومخالفة أمرك ، ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ بوجه من الوجوه ﴿إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ إياه ، فضلا منك وجودا ، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ العليم الذي أحاط علما بكل شيء ، فلا يغيب عنه ولا يعزب مثقال ذرة في السماوات والأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .

الحكيم : من له الحكمة التامة التي لا يخرج عنها مخلوق ، ولا يشذ عنها مأمور ، فما خلق شيئا إلا لحكمة : ولا أمر بشيء إلا لحكمة ، والحكمة : وضع الشيء في موضعه اللائق به ، فأقروا ، واعترفوا بعلم الله وحكمته ، وقصورهم عن معرفة أدنى شيء ، واعترافهم بفضل الله عليهم ؛ وتعليمه إياهم ما لا يعلمون .

فحينئذ قال الله : ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾ أي : أسماء المسميات التي عرضها الله على الملائكة ؛ فعجزوا عنها ، ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ تبين للملائكة فضل آدم عليهم ؛ وحكمة الباري وعلمه في استخلاف هذا الخليفة ، ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وهو ما غاب عنا ؛ فلم نشاهده ، فإذا كان عالما بالغيب ؛ فالشهادة من باب أولى ، ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾ أي : تظهرون ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ .

ثم أمرهم تعالى بالسجود لآدم ؛ إكراما له وتعظيما ؛ وعُبودية لله تعالى ، فامتثلوا أمر الله ؛ وبادروا كلهم بالسجود ، ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾ امتنع عن السجود ؛ واستكبر عن أمر الله وعلى آدم ، قال : ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾ [ سُورة الإسراء ٦١] . وهذا الإباء منه والاستكبار ؛ نتيجة الكفر الذي هو منطوٍ عليه ؛ فتبينت حينئذ عداوته لله ولآدم وكفره واستكباره .

وفي هذه الآيات من العبر والآيات ؛ إثبات الكلام لله تعالى ؛ وأنه لم يزل مُتكلِّمًا ؛ يقول ما شاء ؛ ويتكلم بما شاء ؛ وأنه عليم حكيم ، وفيه أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في بعض المخلوقات والمأمورات فالوجب عليه ؛ التسليم ؛ واتهام عقله ؛ والإقرار لله بالحكمة ، وفيه اعتناء الله بشأن الملائكة ؛ وإحسانه بهم ؛ بتعليمهم ما جهلوا ؛ وتنبيههم على ما لم يعلموه .

وفيه فضيلة العلم من وجوه ، منها : أن الله تعرف لملائكته ؛ بعلمه وحكمته ، ومنها : أن الله عرفهم فضل آدم بالعلم ؛ وأنه أفضل صفة تكون في العبد ، ومنها : أن الله أمرهم بالسجود لآدم ؛ إكراما له ؛ لمَّا بان فضلُ علمه ، ومنها : أن الامتحان للغير ؛ إذا عجزوا عما امتحنوا به ؛ ثم عرفه صاحب الفضيلة ؛ فهو أكمل مما عرفه ابتداء ، ومنها : الاعتبار بحال أبوي الإنس والجن ؛ وبيان فضل آدم ؛ وأفضال الله عليه ؛ وعداوة إبليس له ؛ إلى غير ذلك من العبر .

[ ٣٥: ٣٦ - ٢] : ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٥ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ .

لما خلق الله آدم وفضَّله ؛ أتم نعمته عليه ؛ بأن خلق منه زوجة ليسكن إليها ؛ ويستأنس بها ؛ وأمرهما بسكنى الجنة ؛ والأكل منها رغدا ؛ أي : واسعا هنيئا ، ﴿حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ أي : من أصناف الثمار والفواكه ؛ وقال الله له : ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ﴾ [ سُورة طه ١١٨ - ١١٩] . ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ نوع من أنواع شجر الجنة ؛ الله أعلم بها ، وإنما نهاهما عنها امتحانا وابتلاء أو لحكمة غير معلومة لنا ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دل على أن النهي للتحريم ؛ لأنه رتَّب عليه الظلم .

فلم يزل عدوهما يوسوس لهما ويزين لهما تناوُل ما نُهيا عنه ؛ حتى أزلهما ، أي : حملهما على الزلل بتزيينه . ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ بالله ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [ سُورة الأعراف ٢١] . فاغترا به وأطاعاه ؛ فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم والرغد ؛ وأُهبطوا إلى دار التعب والنصب والمجاهدة .

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي : آدم وذريته ؛ أعداء لإبليس وذُريته ، ومن المعلوم أن العدو ؛ يجد ويجتهد في ضرر عدوه وإيصال الشر إليه بكل طريق ؛ وحرمانه الخير بكل طريق ، ففي ضمن هذا ، تحذير بني آدم من الشيطان كما قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [ سورة فاطر ٦] . ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [ سورة الكهف ٥٠] .

ثم ذكر منتهى الإهباط إلى الأرض ، فقال : ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي : مسكن وقرار ، ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ انقضاء آجالكم ، ثم تنتقلون منها للدار التي خلقتم لها ، وخُلِقت لكم ، ففيها أن مدة هذه الحياة ، مؤقتة عارضة ، ليست مسكنا حقيقيا ، وإنما هي معبر يتزود منها لتلك الدار ، ولا تعمر للاستقرار .

[٣٧ - ٢] : ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ﴾ .

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ﴾ أي : تلقَّف وتلقَّن ، وألهمه الله ﴿مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ وهي قوله : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [ سورة الأعراف ٢٣] الآية ، فاعترف بذنبه وسأل الله مغفرته ﴿فَتَابَ﴾ الله ﴿عَلَيْهِ﴾ ورحمه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ لمن تاب إليه وأناب .

وتوبته نوعان : توفيقه أولا ، ثم قبوله للتوبة إذا اجتمعت شروطها ثانيا .

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده ، ومن رحمته بهم ، أن وفقهم للتوبة ، وعفا عنهم وصفح .

[ ٣٨: ٣٩ - ٢] : ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ .

كرر الإهباط ، ليرتب عليه ما ذكر وهو قوله : ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ أي : أيُّ وقت وزمان جاءكم مني - يا معشر الثقلين - هدى ، أي : رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني ، ويدنيكم مني ؛ ويدنيكم من رضائي ، ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ منكم ، بأن آمن برسلي وكتبي ، واهتدى بهم ، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب ، والامتثال للأمر والاجتناب للنهي ، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وفي الآية الأخرى : ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [ سورة طه ١٢٣ ] .

فرتَّب على اتِّباع هداه أربعة أشياء : نفي الخوف والحزن والفرق بينهما : أن المكروه إن كان قد مضى أحدث الحزن ، وإن كان منتظرا أحدث الخوف ، فنفاهما عمن اتَّبع هداه وإذا انتفيا ، حصل ضدهما ، وهو الأمن التام ، وكذلك نفي الضلال والشقاء عمن اتبع هداه وإذا انتفيا ثبت ضدهما ، وهو الهدى والسعادة ، فمن اتبع هداه ، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى ، وانتفى عنه كل مكروه ، من الخوف ، والحزن ، والضلال ، والشقاء ، فحصل له المرغوب ، واندفع عنه المرهوب ، وهذا عكس من لم يتَّبع هداه ، فكفر به ، وكذَّب بآياته .

فـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي : الملازمون لها ، ملازمة الصاحب لصاحبه ، والغريم لغريمه ، ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منها ، ولا يفتر عنهم العذاب ولا هم ينصرون .

وفي هذه الآيات وما أشبهها ، انقسام الخلق من الجن والإنس ، إلى أهل السعادة ، وأهل الشقاوة ،

وفيها صفات الفريقين والأعمال الموجبة لذلك، وأن الجن كالإنس في الثواب والعقاب، كما أنهم مثلهم، في الأمر والنهي.

ثم شرع تعالى يذكِّر بني إسرائيل نعمه عليهم وإحسانه فقال:

[٤٠: ٤٣ - ٢]: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ المراد بإسرائيل: يعقوب عليه السلام، والخطاب مع فرق بني إسرائيل، الذين بالمدينة وما حولها، ويدخل فيهم من أتى من بعدهم، فأمرهم بأمر عام، فقال: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وهو يشمل سائر النعم التي سيذكر في هذه السورة بعضها، والمراد بذكرها بالقلب اعترافا، وباللسان ثناء، وبالجوارح باستعمالها فيما يحبه ويرضيه. ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾ وهو ما عهده إليهم من الإيمان به، وبرسله وإقامة شرعه.

﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ وهو المجازاة على ذلك. والمراد بذلك: ما ذكره الله في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ﴿وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى﴾ إلى قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [سورة المائدة ١٢].

ثم أمرهم بالسبب الحامل لهم على الوفاء بعهده، وهو الرهبة منه تعالى، وخشيته وحده، فإن مَنْ خشِيَه أوجبت له خشيته امتثال أمره واجتناب نهيه؛ ثم أمرهم بالأمر الخاص، الذي لا يتم إيمانهم، ولا يصح إلا به فقال: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ وهو القرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ فأمرهم بالإيمان به، واتباعه، ويستلزم ذلك، الإيمان بمن أنزل عليه، وذكر الداعي لإيمانهم به، فقال: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي: موافقا له لا مخالفا ولا مناقضا، فإذا كان موافقا لما معكم من الكتب، غير مخالف لها؛ فلا مانع لكم من الإيمان به، لأنه جاء بما جاءت به المرسلون، فأنتم أولى من آمن به وصدق به، لكونكم أهل الكتب والعلم.

وأيضًا فإن في قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ إشارة إلى أنكم إن لم تؤمنوا به، عاد ذلك عليكم، بتكذيب ما معكم، لأن ما جاء به هو الذي جاء به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء، فتكذيبكم له تكذيب لما معكم. وأيضا، فإن في الكتب التي بأيدكم، صفة هذا النبي الذي جاء بهذا القرآن والبشارة به، فإن لم تؤمنوا به، كذَّبتم ببعض ما أنزل إليكم، ومن كذَّب ببعض ما أنزل إليه، فقد كذَّب بجميعه، كما أن من كفر برسول، فقد كذب الرسل جميعهم.

فلما أمرهم بالإيمان به، نهاهم وحذرهم من ضده وهو الكفر به فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ أي: بالرسول والقرآن.

وفي قوله : ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ﴾ أبلغ من قوله : « ولا تكفروا به » لأنهم إذا كانوا أول كافر به ، كان فيه مبادرتهم إلى الكفر به ، عكس ما ينبغي منهم ، وصار عليهم إثمهم وإثم من اقتدى بهم من بعدهم .

ثم ذكر المانع لهم من الإيمان ، وهو اختيار العرض الأدنى على السعادة الأبدية ، فقال : ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهو ما يحصل لهم من المناصب والمآكل ، التي يتوهمون انقطاعها ، إن آمنوا بالله ورسوله ، فاشتروها بآيات الله واستحبوها ، وآثروها .

﴿وَإِيَّٰيَ﴾ أي : لا غيري ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ فإنكم إذا اتقيتم الله وحده ، أوجبت لكم تقواه ، تقديم الإيمان بآياته على الثمن القليل ، كما أنكم إذا اخترتم الثمن القليل ، فهو دليل على ترحل التقوى من قلوبكم .

ثم قال : ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ﴾ أي : تخلطوا ﴿ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ﴾ فنهاهم عن شيئين ، عن خلط الحق بالباطل ، وكتمان الحق ؛ لأن المقصود من أهل الكتب والعلم ، تمييز الحق ، وإظهار الحق ، ليهتدي بذلك المهتدون ، ويرجع الضالون ، وتقوم الحُجّة على المعاندين ؛ لأن الله فصل آياته وأوضح بيناته ، ليميز الحق من الباطل ، ولتستبين سبيل المهتدين من سبيل المجرمين ، فمَن عمل بهذا من أهل العلم ، فهو من خلفاء الرسل وهداة الأمم . ومن لبس الحق بالباطل ، فلم يميز هذا من هذا ، مع علمه بذلك ، وكتم الحق الذي يعلمه ، وأمر بإظهاره ، فهو من دعاة جهنم ، لأن الناس لا يقتدون في أمر دينهم بغير علمائهم ، فاختاروا لأنفسكم إحدى الحالتين .

ثم قال : ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي : ظاهرًا وباطنًا ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ مستحقيها ، ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي : صلوا مع المصلين ، فإنكم إذا فعلتم ذلك مع الإيمان برسل الله وآيات الله ، فقد جمعتم بين الأعمال الظاهرة والباطنة ، وبين الإخلاص للمعبود ، والإحسان إلى عبيده ، وبين العبادات القلبية والبدنيّة والماليّة .

وقوله : ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي : صلوا مع المُصلّين ، ففيه الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها ، وفيه أن الركوع ركن من أركان الصلاة لأنه عبّر عن الصلاة بالركوع ، والتعبير عن العبادة بجزئها يدل على فرضيته فيها .

[ ٢ - ٤٤ ] : ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ .

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ أي : بالإيمان والخير ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي : تتركونها عن أمرها بذلك ، والحال : ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وأُسمي العقلُ عقلًا لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير ، وينعقل به عما يضره ، وذلك أن العقل يحثُّ صاحبَه أن يكون أولَ فاعلٍ لما يأمر به ، وأول تاركٍ لما ينهى عنه ، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله ، أو نهاه عن الشر فلم يتركه ، دلَّ على عدم عقله وجهله ، خصوصا إذا كان عالمًا بذلك ، قد قامت عليه الحُجّة .

وهذه الآية وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل ، فهي عامة لكل أحد لقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لأنها دلّت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين ، وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين : أمر غيره ونهيه ، وأمر نفسه ونهيها ، فترك

أحدهما ، لا يكون رخصة في ترك الآخر ، فإنَّ الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين ، والنقص الكامل أن يتركهما ، وأمَّا قيامه بأحدهما دون الآخر ، فليس في رتبة الأول ، وهو دون الأخير ، وأيضا فإنَّ النفوسَ مجبولةٌ على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعلَه ، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجرَّدة .

[ ٤٥ : ٤٨ - ٢ ] : ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ .

أمرهم اللّه أن يستعينوا في أمورهم كلها بالصبر بجميع أنواعه ، وهو الصبر على طاعة اللّه حتى يؤديها ، والصبر عن معصية اللّه حتى يتركها ، والصبر على أقدار اللّه المؤلمة فلا يتسخَّطها ، فبالصبر وحبس النفس على ما أمر اللّه بالصبر عليه معونة عظيمة على كل أمر من الأمور ، ومن يتصبر يصبره اللّه ، وكذلك الصلاة التي هي ميزان الإيمان ، وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، يستعان بها على كل أمر من الأمور ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي : الصلاة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ أي : شاقة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ فإنها سهلة عليهم خفيفة ؛ لأنَّ الخشوع ، وخشية اللّه ، ورجاء ما عنده يوجب له فعلها ، منشرحا صدره لترقبه للثواب ، وخشيته من العقاب ، بخلاف من لم يكن كذلك ، فإنه لا داعي له يدعوه إليها ، وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه .

والخشوع هو : خضوع القلب وطمأنينته ، وسكونه للّه تعالى ، وانكساره بين يديه ، ذلا وافتقارا ، وإيمانا به وبلقائه ، ولهذا قال : ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ أي : يستيقنون ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ فيجازيهم بأعمالهم ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ فهذا الذي خفَّف عليهم العبادات وأوجب لهم التسلي في المُصيبات ، ونفس عنهم الكربات ، وزجرهم عن فعل السيئات ، فهؤلاء لهم النعيم المقيم في الغرفات العاليات ، وأمَّا من لم يؤمن بلقاء ربه ، كانت الصلاة وغيرها من العبادات من أشقِّ شيء عليه .

ثم كرَّر على بني إسرائيل التذكير بنعمته ، وعظًا لهم ، وتحذيرًا وحثًّا ، وخوَّفهم بيوم القيامة الذي ﴿لَّا تَجْزِى﴾ فيه ، أي : لا تغني ﴿نَفْسٌ﴾ ولو كانت من الأنفس الكريمة كالأنبياء والصالحين ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ ولو كانت من العشيرة الأقربين ﴿شَيْـًٔا﴾ لا كبيرا - ولا صغيرا - وإنَّما ينفع الإنسانَ عملُه الذي قدمه .

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ أي : النفس ، شفاعة لأحد بدون إذن اللّه ورضاه عن المشفوع له ، ولا يرضى من العمل إلا ما أريد به وجهه ، وكان على السبيل والسنة ، ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي : فداء ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ﴾ ولا يقبل منهم ذلك ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي : يدفع عنهم المكروه ، فنفى الانتفاع من الخلق بوجه من الوجوه ، فقوله : ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ هذا في تحصيل المنافع ، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ هذا في دفع المضار ، فهذا النفي للأمر المستقل به النافع .

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ هذا نفي للنفع الذي يطلب ممن يملكه بعوض ، كالعدل ، أو بغيره ، كالشفاعة ، فهذا يوجب للعبد أن ينقطع قلبه من التعلق بالمخلوقين ، لعلمه أنهم لا

يملكون له مثقال ذرة من النفع ، وأن يعلقه بالله الذي يجلب المنافع ، ويدفع المضار ، فيعبده وحده لا شريك له ويستعينه على عبادته .

[ ٤٩ : ٥٧ – ٢ ] : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

هذا شروع في تعداد نعمه على بني إسرائيل على وجه التفصيل فقال : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي : من فرعون وملئه وجنوده وكانوا قبل ذلك ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ أي : يولونهم ويستعملونهم ، ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي : أشده بأن كانوا ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ خشية نموّكم ، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي : فلا يقتلونهن ، فأنتم بين قتيل ومذلّل بالأعمال الشاقة ، مستحيي على وجه المِنَّة عليه والاستعلاء عليه فهذا غاية الإهانة ، فمنّ الله عليهم بالنجاة التامّة وإغراق عدوهم وهم ينظرون لتقرّ أعينهم .

﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾ أي : الإنجاء ﴿بَلَآءٌ﴾ أي : إحسان ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ فهذا مما يوجب عليكم الشكر والقيام بأوامره .

ثم ذكر مِنّته عليهم بوعده لموسى أربعين ليلة لينزل عليهم التوراة المتضمنة للنعم العظيمة والمصالح العميمة ، ثم إنّهم لم يصبروا قبل استكمال الميعاد حتى عبدوا العجل من بعده ، أي : ذهابه .

﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ عالمون بظلمكم ، قد قامت عليكم الحجة ، فهو أعظم جرمًا وأكبر إثمًا . ثم إنّه أمركم بالتوبة على لسان نبيه موسى بأن يَقْتل بعضكم بعضًا فعفا الله عنكم بسبب ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله .

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ وهذا غاية الظلم والجراءة على الله وعلى رسوله ، ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ إما الموت أو الغشية العظيمة ، ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ وقوع ذلك ، كل ينظر إلى صاحبه ، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

ثم ذكر نعمته عليكم في التّيه والبريّة الخالية من الظلال وسعةِ الأرزاق ، فقال : ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ﴾ وهو اسم جامع لكل رزق حسن يحصل بلا تعب ، ومنه الزنجبيل والكمأة والخبز وغير ذلك ، ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ طائر صغير يقال له السُّماني ، طيب اللحم ، فكان ينزل عليهم من المن

والسلوى ما يكفيهم ويقيتهم ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي: رزقا لا يحصل نظيره لأهل المدن المترفهين، فلم يشكروا هذه النعمة، واستمروا على قساوة القلوب وكثرة الذنوب. ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ يعني بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا لأن الله لا تضره معصية العاصين، كما لا تنفعه طاعات الطائعين، ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فيعود ضرره عليهم.

[٥٨: ٥٩ - ٢]: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

وهذا أيضًا من نعمته عليهم بعد معصيتهم إياه، فأمرهم بدخول قرية تكون لهم عزًا ووطنًا ومسكنًا، ويحصل لهم فيها الرزق الرغد، وأن يكون دخولهم على وجه خاضعين لله فيه بالفعل، وهو دخول الباب ﴿سُجَّدًا﴾ أي: خاضعين ذليلين، وبالقول وهو أن يقولوا: ﴿حِطَّةٌ﴾ أي أن يحط عنهم خطاياهم بسؤالهم إيَّاه مغفرته.

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ بسؤالكم المغفرة، ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ بأعمالهم، أي: جزاء عاجل وآجلا.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ منهم، ولم يقل فبدلوا لأنهم لم يكونوا كلهم بدلوا ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فقالوا بدل حطة: حبة في حنطة، استهانة بأمر الله، واستهزاء وإذا بدلوا القول مع خفته فتبديلهم للفعل من باب أولى وأحرى، ولهذا دخلوا يزحفون على أدبارهم، ولما كان هذا الطغيان أكبر سبب لوقوع عقوبة الله بهم، قال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ منهم ﴿رِجْزًا﴾ أي: عذابا ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ بسبب فسقهم وبغيهم.

[٦٠ - ٢]: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

استسقى، أي: طلب لهم ماءً يشربون منه.

﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ إما حجر مخصوص معلوم عنده، وإما اسم جنس، ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ وقبائل بني إسرائيل اثنتا عشرة قبيلة، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ منهم ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي: محلهم الذي يشربون عليه من هذه الأعين، فلا يزاحم بعضهم بعضا، بل يشربونه متهنئين لا متكدرين، ولهذا قال: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ أي: الذي آتاكم من غير سعي ولا تعب، ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تخربوا على وجه الإفساد.

[٦١ - ٢]: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

أي : واذكروا ، إذ قلتم لموسى ، على وجه التملُّل لنعم الله والاحتقار لها ، ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ أي : جنس من الطعام ، وإن كان كما تقدم أنواعا ، لكنها لا تتغير ، ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا﴾ أي : نباتها الذي ليس بشجر يقوم على ساقه ، ﴿وَقِثَّائِهَا﴾ وهو الخيار ﴿وَفُومِهَا﴾ أي : ثومها ، والعدس والبصل معروف ، قال لهم موسى ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ﴾ وهو الأطعمة المذكورة ، ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ وهو المن والسلوى ، فهذا غير لائق بكم ، فإن هذه الأطعمة التي طلبتم ، أيَّ مصرٍ هبطتموه وجدتموها ، وأما طعامكم الذي مَنَّ اللهُ به عليكم ، فهو خير الأطعمة وأشرفها ، فكيف تطلبون به بدلا؟.

ولمَّا كان الذي جرى منهم فيه أكبر دليل على قلة صبرهم واحتقارهم لأوامر الله ونعمه ، جازاهم من جنس عملهم فقال : ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ التي تشاهد على ظاهر أبدانهم ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ بقلوبهم ، فلم تكن أنفسهم عزيزة ، ولا لهم همم عالية ، بل أنفسهم أنفس مهينة ، وهممهم أردأ الهمم ، ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي : لم تكن غنيمتهم التي رجعوا بها وفازوا ، إلا أن رجعوا بسخطه عليهم ، فبئست الغنيمة غنيمتهم ، وبئست الحالة حالتهم .

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي استحقوا به غضبه ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالات على الحق الموضحة لهم ، فلما كفروا بها عاقبهم بغضبه عليهم ، وبما كانوا ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ . وقوله : ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ زيادة شناعة ، وإلا فمن المعلوم أن قتل النبي لا يكون بحق ، لكن لئلا يُظَن جهلهم وعدم علمهم .

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا﴾ بأن ارتكبوا معاصي الله ﴿وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ على عباد الله ، فإن المعاصي يجر بعضها بعضا ، فالغفلة ينشأ عنها الذنب الصغير ، ثم ينشأ عنه الذنب الكبير ، ثم ينشأ عنها أنواع البدع والكفر وغير ذلك ، فنسأل الله العافية من كل بلاء .

واعلم أن الخطاب في هذه الآيات لأمة بني إسرائيل الذين كانوا موجودين وقت نزول القرآن ، وهذه الأفعال المذكورة خوطبوا بها وهي فعل أسلافهم ، ونسبت لهم لفوائد عديدة ، منها : أنهم كانوا يتمدحون ويزكون أنفسهم ، ويزعمون فضلهم على محمد ومن آمن به ، فبين الله من أحوال سلفهم التي قد تقرَّرت عندهم ، ما يُبيِّن به لكل أحد منهم أنهم ليسوا من أهل الصبر ومكارم الأخلاق ، ومعالي الأعمال ، فإذا كانت هذه حالة سلفهم ، مع أن المظنَّة أنهم أولى وأرفع حالة ممن بعدهم فكيف الظن بالمُخاطبين؟ .

ومنها : أن نعمة الله على المُتقدِّمين منهم ، نعمة واصلة إلى المتأخرين ، والنعمة على الآباء ، نعمة على الأبناء ، فخوطبوا بها ، لأنها نِعم تشملهم وتعمُّهم .

ومنها : أن الخطاب لهم بأفعال غيرهم ، مما يدل على أن الأمَّة المُجتمعة على دين تتكافل وتتساعد على مصالحها ، حتى كان متقدمهم ومتأخرهم في وقت واحد ، وكان الحادث من بعضهم حادثا من الجميع .لأن ما يعمله بعضهم من الخير يعود بمصلحة الجميع ، وما يعمله من الشر يعود بضرر الجميع .

ومنها : أن أفعالهم أكثرها لم ينكروها ، والراضي بالمعصية شريك للعاصي ، إلى غير ذلك من الحِكَم التي لا يعلمها إلا الله .

[٦٢ - ٢] : ثم قال تعالى حاكما بين الفرق الكتابية : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

وهذا الحُكم على أهل الكتاب خاصة ، لأن الصابئين ، الصحيح أنهم من جملة فرق النصارى ، فأخبر الله أن المؤمنين من هذه الأمة ، واليهود والنصارى ، والصابئين من آمنَ بالله واليوم الآخر ، وصدَّقوا رسلهم ، فإنَّ لهم الأجر العظيم والأمن ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وأما من كفر منهم بالله ورسله واليوم الآخر ، فهو بضد هذه الحال ، فعليه الخوف والحزن .

والصحيح أن هذا الحكم بين هذه الطوائف ، من حيث هم ، لا بالنسبة إلى الإيمان بمحمد ، فإن هذا إخبار عنهم قبل بعثة محمد ﷺ وأن هذا مضمون أحوالهم ، وهذه طريقة القرآن إذا وقع في بعض النفوس عند سياق الآيات بعض الأوهام ، فلا بد أن تجد ما يزيل ذلك الوهم ، لأنه تنزيل مَنْ يعلم الأشياء قبل وجودها ، ومَنْ رحمته وسعت كل شيء .

وذلك - والله أعلم - أنه لما ذكر بني إسرائيل وذمهم ، وذكر معاصيهم وقبائحهم ، ربما وقع في بعض النفوس أنهم كلَّهم يشملهم الذمُّ ، فأراد الباري تعالى أن يبين من لم يلحقه الذمّ منهم بوصفه ، ولما كان أيضًا ذِكر بني إسرائيل خاصة يوهم الاختصاص بهم . ذكر تعالى حكما عاما يشمل الطوائف كلها ، ليتضح الحق ، ويزول التوهم والإشكال ، فسبحان من أودع في كتابه ما يبهر عقول العالمين . ثم عاد تبارك وتعالى يوبِّخ بني إسرائيل بما فعل سلفهم :

[ ٦٣: ٦٤ - ٢] : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

أي : واذكروا ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ وهو العهد الثقيل المؤكد بالتخويف لهم ، برفع الطور فوقهم وقيل لهم : ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم﴾ من التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي : بجدٍّ واجتهادٍ ، وصبر على أوامر الله ، ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي : ما في كتابكم بأن تتلوه وتتعلموه ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله وسخطه ، أو لتكونوا من أهل التقوى .فبعد هذا التأكيد البليغ ﴿تَوَلَّيْتُم﴾ وأعرضتم ، وكان ذلك موجبا لأن يحل بكم أعظم العقوبات ، ولكن ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

[ ٦٥: ٦٦ - ٥] : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ .

أي : ولقد تقرَّر عندكم حالة ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ وهم الذين ذكر الله قصتهم مبسوطة في سورة الأعراف في قوله : ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ [سورة الأعراف ١٦٣] الآيات .

فأوجب لهم هذا الذنب العظيم ، أن غَضب الله عليهم وجعلهم ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ حقيرين ذليلين .

وجعل الله هذه العقوبة ﴿نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أي : لمن حضرها من الأمم ، وبلغه خبرها ، ممن هو في وقتهم . ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي : من بعدهم ، فتقوم على العباد حجة الله ، وليرتدعوا عن معاصيه ، ولكنها لا تكون موعظة نافعة إلا للمتقين ، وأما من عداهم فلا ينتفعون بالآيات .

[ ٦٧ : ٧٤ – ٢ ] : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

أي : واذكروا ما جرى لكم مع موسى ، حين قتلتم قتيلا ، وادّارأتم فيه ، أي : تدافعتم واختلفتم في قاتله ، حتى تفاقم الأمر بينكم وكاد – لولا تبيين الله لكم – يحدث بينكم شر كبير ، فقال لكم موسى في تبيين القاتل : اذبحوا بقرة ، وكان من الواجب المُبادرة إلى امتثال أمره ، وعدم الاعتراض عليه ، ولكنهم أبوا إلا الاعتراض ، فقالوا : ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ فقال نبي الله : ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه ، وهو الذي يستهزئ بالناس ، وأما العاقل فيرى أن من أكبر العيوب المُزرية بالدين والعقل ، استهزاءه بمن هو آدمي مثله ، وإن كان قد فُضّل عليه ، فتفضيله يقتضي منه الشكر لربه ، والرحمة لعباده . فلما قال لهم موسى ذلك ، علموا أن ذلك صدق فقالوا : ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ ، أي : ما سنها؟

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ﴾ أي : كبيرة ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ أي : صغيرة ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ واتركوا التشديد والتعنُّت .

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ أي : شديد ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ من حسنها .

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ فلم نهتد إلى ما تريد ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ . ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ أي : مذلّلة بالعمل ، ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ بالحراثة ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ أي : ليست بساقية ، ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من العيوب أو من العمل ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي : لا لون فيها غير لونها الموصوف المتقدّم .

﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أي : بالبيان الواضح ، وهذا من جهلهم ، وإلا فقد جاءهم بالحق أوّل مرّة ، فلو أنهم اعترضوا أي بقرة لحصل المقصود ، ولكنهم شددوا بكثرة الأسئلة فشدد الله عليهم ، ولو لم يقولوا « إن شاء الله » لم يهتدوا أيضًا إليها ، ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ أي : البقرة التي وصفت بتلك الصفات ، ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ بسبب التعنت الذي جرى منهم .

فلما ذبحوها ، قلنا لهم اضربوا القتيل ببعضها ، أي : بعضو منها ، إما معين ، أو أي عضو منها ، فليس في تعيينه فائدة ، فضربوه ببعضها فأحياه الله ، وأخرج ما كانوا يكتمون ، فأخبر بقاتله ، وكان في إحيائه وهم يشاهدون ما يدل على إحياء الله الموتى ، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فتنزجرون عن ما يضركم .

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ أي : اشتدت وغلظت ، فلم تؤثر فيها الموعظة ، ﴿مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي : من بعد ما أنعم عليكم بالنعم العظيمة وأراكم الآيات ، ولم يكن ينبغي أن تقسو قلوبكم ، لأن ما شاهدتم ، مما يوجب رقة القلب وانقياده ، ثم وصف قسوتها بأنها ﴿كَالْحِجَارَةِ﴾ التي هي أشد قسوة من الحديد ، لأن الحديد والرصاص إذا أذيب في النار ، ذاب بخلاف الأحجار .

وقوله : ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي : إنها لا تقصر عن قساوة الأحجار ، وليست « أو » بمعنى « بل » ثم ذكر فضيلة الأحجار على قلوبهم ، فقال : ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ فبهذه الأمور فَضَلَتْ قلوبَكم .

ثم توعدهم تعالى أشد الوعيد فقال : ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل هو عالم بها حافظ لصغيرها وكبيرها ، وسيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه .

واعلم أن كثيرا من المفسرين رحمهم الله ، قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل ، ونزّلوا عليها الآيات القرآنية ، وجعلوها تفسيرا لكتاب الله ، محتجين بقوله ﷺ : « حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج »[١٢] .

والذي أرى أنه وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه تكون مفردة غير مقرونة ، ولا منزّلة على كتاب الله ، فإنه لا يجوز جعلُها تفسيرًا لكتاب الله قَطْعا إذا لم تصحّ عن رسول الله ﷺ ، وذلك أن مرتبتها كما قال ﷺ : « لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم »[١٣] .

---

(١٢) * هذا جزء من حديث . أخرجه البخاري في صحيحه من رواية عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما- قال : قال ﷺ : بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار . أخرجه البخاري : ( كتاب أحاديث الأنبياء / باب : ما ذكر عن بني إسرائيل / ح ٣٤٦١ ) .
وأخرجه أحمد فى المسند : ( ٢ / ٤٧٤ ، ٥٠٢ ) . وأبو داود : (كتاب العلم / باب : الحديث عن بني إسرائيل / ح ٣٦٦٢).
وله طريق أخرى ، من رواية أبى هريرة ، قال ، قال رسول الله ﷺ : حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، وحدثوا عنى ولا تكذبوا على . أخرجه أحمد فى المسند ( ٣ / ١٢ ) .

(١٣) * أخرجه البخاري : ( كتاب التفسير/ باب : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ سورة آل عمران ٨٤ /ح ٤٤٨٥ ) ، ( كتاب الاعتصام / باب : قول النبي ﷺ لا تسألوا أهل الكتاب عن شئ / ح ٧٣٦٢ ) ، ( كتاب التوحيد/ باب : ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كُتب الله بالعربية وغيرها / ح ٧٥٤٢ ) . بألفاظ منها : قال أبو هريرة : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ، فيفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ، ولا تكذبوهم ، ولكن قولوا : =

فإذا كان مرتبتها أن تكون مشكوكا فيها ، وكان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به والقطع بألفاظه ومعانيه ، فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة ، التي يغلب على الظن كذبها أو كذب أكثرها ، معاني لكتاب الله ، مقطوعا بها ولا يستريب بهذا أحد ، ولكن بسبب الغفلة عن هذا حصل ما حصل ، والله الموفق .

[ ٧٥: ٧٨ – ٢] : ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ .

هذا قطعٌ لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب ، أي : فلا تطمعوا في إيمانهم وحالتهم لا تقتضي الطمع فيهم ، فإنهم كانوا يحرفون كلام الله من بعد ما عقَلوه وعلموه ، فيضعون له معاني ما أرادها الله ، ليوهموا الناس أنها من عند الله ، وما هي من عند الله ، فإذا كانت هذه حالهم في كتابهم الذي يرونه شرفهم ودينهم يصدون به الناس عن سبيل الله ، فكيف يُرجى منهم إيمان لكم؟! فهذا من أبعد الأشياء .

ثم ذكر حال منافقي أهل الكتاب فقال : ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ فأظهروا لهم الإيمان قولا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ فلم يكن عندهم أحد من غير أهل دينهم ، قال بعضهم لبعض : ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي : أتظهرون لهم الإيمان وتخبروهم أنكم مثلهم ، فيكون ذلك حجة لهم عليكم؟ ، يقولون : إنهم قد أقروا بأن ما نحن عليه حق ، وما هم عليه باطل ، فيحتجون عليكم بذلك عند ربكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي : أفلا يكون لكم عقل ، فتتركون ما هو حجة عليكم؟ هذا يقوله بعضهم لبعض .

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فهم وإن أسروا ما يعتقدونه فيما بينهم ، وزعموا أنهم بإسرارهم لا يتطرق عليهم حجة للمؤمنين ، فإن هذا غلط منهم وجهل كبير ، فإن الله يعلم سرهم وعلنهم ، فيُظهر لعباده ما أنتم عليه .

﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي : من أهل الكتاب ﴿أُمِّيُّونَ﴾ أي : عوام ، ليسوا من أهل العلم ، ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ أي : ليس لهم حظ من كتاب الله إلا التلاوة فقط ، وليس عندهم خبر بما عند الأولين الذين يعلمون حق المعرفة حالهم ، وهؤلاء إنما معهم ظنون وتقاليد لأهل العلم منهم .

فذكر في هذه الآيات علماءهم ، وعوامهم ، ومُنافقيهم ، ومن لم يُنافق منهم ؛ فالعُلماء منهم متمسِّكون بما هم عليه من الضلال ، والعوام مُقلِّدون لهم ، لا بصيرة عندهم فلا مطمع لكم في الطائفتين .

---

= ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [ سورة آل عمران ٨٤] .

[٧٩ – ٢] : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ .

توعّد تعالى المحرّفين للكتاب ، الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون : ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهذا فيه إظهار الباطل وكتم الحق ، وإنما فعلوا ذلك مع علمهم ﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ والدنيا كلها من أولها إلى آخرها ثمن قليل ، فجعلوا باطلهم شَرَكًا يصطادون به ما في أيدي الناس ، فظلموهم من وجهين : من جهة تلبيس دينهم عليهم ، ومن جهة أخذ أموالهم بغير حق ، بل بأبطل الباطل ، وذلك أعظم ممن يأخذها غصبا وسرقة ونحوهما ، ولهذا توعدهم بهذين الأمرين فقال : ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي : من التحريف والباطل ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من الأموال ، والويل : شدة العذاب والحسرة ، وفي ضمنها الوعيد الشديد .

قال شيخ الإسلام لما ذكر هذه الآيات من قوله : ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ إلى ﴿يَكْسِبُونَ﴾ فإن اللّه ذمّ الذين يُحرّفون الكلم عن مواضعه ، وهو متناول لمن حمل الكتاب والسُّنَّة ، على ما أصله من البدع الباطلة .

وذمّ الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانيّ ، وهو متناول لمن ترك تدبر القرآن ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه ، ومتناول لمن كتب كتابا بيده مخالفا لكتاب اللّه ، لينال به دنيا وقال : إنه من عند اللّه ، مثل أن يقول : هذا هو الشرع والدين ، وهذا معنى الكتاب والسُّنَّة ، وهذا معقول السلف والأئمة ، وهذا هو أصول الدين ، الذي يجب اعتقاده على الأعيان والكفاية ، ومتناول لمن كتم ما عنده من الكتاب والسُّنَّة ، لئلا يحتج به مخالفه في الحق الذي يقوله .

وهذه الأمور كثيرة جدًّا في أهل الأهواء جملة ، كالرافضة ، وتفصيلا مثل كثير من المنتسبين إلى الفقهاء .

[ ٨٠: ٨٢ – ٢] : ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ .

ذكر أفعالهم القبيحة ، ثم ذكر مع هذا أنهم يزكون أنفسهم ، ويشهدون لها بالنجاة من عذاب اللّه ، والفوز بثوابه ، وأنهم ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ ، أي : قليلة تعد بالأصابع ، فجمعوا بين الإساءة والأمن ، ولـمّا كان هذا مجرد دعوى ، رد اللّه تعالى عليهم فقال : ﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ أي بالإيمان به وبرسله وبطاعته ، فهذا الوعد الموجب لنجاة صاحبه الذي لا يتغير ولا يتبدل .

﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ؟ فأخبر تعالى أن صدق دعواهم متوقفة على أحد هذين الأمرين اللذين لا ثالث لهما : إما أن يكونوا قد اتخذوا عند اللّه عهدا ؛ فتكون دعواهم صحيحة ، وإما أن يكونوا مُتقوّلين عليه فتكون كاذبة ، فيكون أبلغ لخزيهم وعذابهم ، وقد عُلم من حالهم أنهم لم يتخذوا عند اللّه

عهدا ، لتكذيبهم كثيرًا من الأنبياء ، حتى وصلت بهم الحال إلى أن قتلوا طائفة منهم ، ولنُكولهم عن طاعة اللَّه ونقضهم المواثيق ، فتعيَّن بذلك أنهم متقوِّلون مختلقون ، قائلون عليه ما لا يعلمون ، والقول عليه بلا علم ، من أعظم المُحرَّمات ، وأشنع القبيحات .

ثم ذكر تعالى حُكما عامًا لكل أحد ، يدخل به بنو إسرائيل وغيرهم ، وهو الحكم الذي لا حكم غيره ، لا أمانيهم ودعاويهم بصفة الهالكين والناجين ، فقال : ﴿بَلَىٰ﴾ أي : ليس الأمر كما ذكرتم ، فإنه قول لا حقيقة له ، ولكن ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ وهو نكرة في سياق الشرط ، فيعم الشرك فما دونه ، والمُراد به هنا الشرك ، بدليل قوله : ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ أي : أحاطت بعاملها ، فلم تدع له منفذًا ، وهذا لا يكون إلا الشرك ، فإن من معه الإيمان لا تحيط به خطيئته .

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وقد احتج بها الخوارج على كفر صاحب المعصية ، وهي حجة عليهم كما ترى ، فإنها ظاهرة في الشرك ، وهكذا كل مُبطِل يحتج بآية ، أو حديث صحيح على قوله الباطل فلا بد أن يكون فيما احتج به حجة عليه .

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولا تكون الأعمال صالحةً إلا بشرطين : أن تكون خالصة لوجه اللَّه ، مُتَّبعا بها سُنَّة رسوله .

فحاصل هاتين الآيتين ، أن أهل النجاة والفوز ، أهل الإيمان والعمل الصالح ، والهالكون أهل النار المُشركون باللَّه ، الكافرون به .

[٨٣ - ٢] : ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ﴾ .

وهذه الشرائع من أصول الدين ، التي أمر اللَّه بها في كل شريعة ، لاشتمالها على المصالح العامة ، في كل زمان ومكان ، فلا يدخلها نسخ ، كأصل الدين ، ولهذا أمرنا اللَّه بها في قوله : ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [سورة النساء ٣٦] إلى آخر الآية .

فقوله : ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ هذا من قسوتهم أن كل أمر أُمروا به ، استعصوا ؛ فلا يقبلونه إلا بالأيمان الغليظة ، والعهود الموثقة ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذا أمر بعبادة اللَّه وحده ، ونهي عن الشرك به ، وهذا أصل الدين ، فلا تُقبل الأعمال كلها إن لم يكن هذا أساسها ، فهذا حق اللَّه تعالى على عباده ، ثم قال : ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا﴾ أي : أحسنوا بالوالدين إحسانا ، وهذا يعمّ كل إحسان قولي وفعلي مما هو إحسان إليهم ، وفيه النهي عن الإساءة إلى الوالدين ، أو عدم الإحسان والإساءة ، لأن الواجب الإحسان ، والأمر بالشيء نهي عن ضده .

وللإحسان ضدان : الإساءة ، وهي أعظم جرما ، وترك الإحسان بدون إساءة ، وهذا مُحرَّم ، لكن لا يجب أن يُلحق بالأول ، وكذا يقال في صلة الأقارب واليتامى ، والمساكين ، وتفاصيل الإحسان لا تنحصر بالعدِّ ، بل تكون بالحدِّ ، كما تقدَّم .

ثم أمر بالإحسان إلى الناس عموما فقال: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة وغير ذلك من كل كلام طيب.

ولما كان الإنسان لا يسع الناس بماله، أُمر بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق، وهو الإحسان بالقول، فيكون في ضمن ذلك النهي عن الكلام القبيح للناس حتى للكفار، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [ سورة العنكبوت ٤٦ ].

ومن أدب الإنسان الذي أدّب الله به عباده، أن يكون الإنسان نزيها في أقواله وأفعاله، غير فاحش ولا بذيء، ولا شاتم، ولا مُخاصِم، بل يكون حسن الخُلق، واسع الحلم، مُجاملا لكل أحد، صبورا على ما يناله من أذى الخلق، امتثالا لأمر الله، ورجاء لثوابه. ثم أمرهم بإقامة الصلاة،.وإيتاء الزكاة، لِما تقدّم أن الصلاة مُتضمِّنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان إلى العبيد.

﴿ثُمَّ﴾ بعد هذا الأمر لكم بهذه الأوامر الحسنة التي إذا نظر إليها البصير العاقل، عرف أن من إحسان الله إلى عباده أن أمرهم بها، ، وتفضل بها عليهم وأخذ المواثيق عليكم ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ على وجه الإعراض، لأن المتولي قد يتولى، وله نية رجوع إلى ما تولى عنه، وهؤلاء ليس لهم رغبة ولا رجوع في هذه الأوامر، فنعوذ بالله من الخذلان.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ هذا استثناء، لئلا يوهم أنهم تولّوا كلهم، فأخبر أن قليلًا منهم، عصمهم الله وثبّتهم.

[ ٢ - ٨٦ :٨٤ ] : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

وهذا الفعل المذكور في هذه الآية، فعل للذين كانوا في زمن الوحي بالمدينة، وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا قبل مبعث النبي ﷺ مُشركين، وكانوا يقتتلون على عادة الجاهلية، فنزلت عليهم الفرق الثلاث من فرق اليهود: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، فكل فرقة منهم حالفت فرقة من أهل المدينة.

فكانوا إذا اقتتلوا أعان اليهودي حليفه على مقاتليه الذين تعينهم الفرقة الأخرى من اليهود، فيقتل اليهودي اليهودي، ويخرجه من دياره إذا حصل جلاء ونهب، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، وكان قد حصل أسارى بين الطائفتين فدى بعضهم بعضا.

والأمور الثلاثة كلها قد فُرضت عليهم، ففُرض عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضا، وإذا وجدوا أسيرا منهم، وجب عليهم فداؤه، فعملوا بالأخير وتركوا الأولين، فأنكر الله

عليهم ذلك فقال : ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو فداء الأسير ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ وهو القتل والإخراج . وفيها أكبر دليل على أن الإيمان يقتضي فعل الأوامر واجتناب النواهي ، وأن المأمورات من الإيمان ، قال تعالى : ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وقد وقع ذلك فأخزاهم الله ، وسلَّط رسوله عليهم ، فقتل من قتل ، وسبى مَنْ سبئ منهم ، وأجلى من أجلى .

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ أي : أعظمه ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

ثم أخبر تعالى عن السبب الذي أوجب لهم الكفر ببعض الكتاب ، والإيمان ببعضه فقال : ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ توهموا أنهم إن لم يعينوا حلفاءهم حصل لهم عار ، فاختاروا النار على العار ، فلهذا قال : ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ بل هو باق على شدته ، ولا يحصل لهم راحة بوقت من الأوقات ، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي : يدفع عنهم مكروه .

[٨٧ – ٢] : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ .

يمتنُّ تعالى على بني إسرائيل أن أرسل لهم كليمه موسى ، وآتاه التوراة ، ثم تابع من بعده بالرسل الذين يحكمون بالتوراة ، إلى أن ختم أنبياءهم بعيسى ابن مريم عليه السلام ، وآتاه من الآيات البينات ما يؤمن على مثله البشر ، ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي : قوّاه الله بروح القدس .

قال أكثر المفسرين : إنه جبريل عليه السلام ، وقيل : إنه الإيمان الذي يؤيِّد الله به عباده .

ثم مع هذه النعم التي لا يقدِّر قدرها ، لما أتوكم ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بهم ، ﴿فَفَرِيقًا﴾ منهم ﴿كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ فقدمتم الهوى على الهدى ، وآثرتم الدنيا على الآخرة ، وفيها من التوبيخ والتشديد ما لا يخفى .

[٨٨ – ٢] : ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ .

أي : اعتذروا عن الإيمان لِمَا دعوتَهم إليه ، يا أيها الرسول ، بأن قلوبهم غلف ، أي : عليها غلاف وأغطية ، فلا تفقه ما تقول ، يعني فيكون لهم – بزعمهم – عذر لعدم العلم ، وهذا كذب منهم ، فلهذا قال تعالى : ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي : أنهم مطرودون ملعونون ، بسبب كفرهم ، فقليلا المؤمن منهم ، أو قليلا إيمانهم ، وكفرهم هو الكثير .

[ ٨٩: ٩٠ – ٢] : ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ .

أي : ولما جاءهم كتاب من عند الله على يد أفضل الخلق وخاتم الأنبياء ، المشتمل على تصديق ما

معهم من التوراة ، وقد علموا به ، وتيقنوه حتى إنهم كانوا إذا وقع بينهم وبين المشركين في الجاهلية حروب ، استنصروا بهذا النبي ، وتوعدوهم بخروجه ، وأنهم يقاتلون المشركين معه ، فلما جاءهم هذا الكتاب والنبي الذي عرفوا ، كفروا به ، بغيا وحسدا ، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، فلعنهم الله ، وغضب عليهم غضبا بعد غضب ، لكثرة كفرهم وتوالي شكهم وشركهم .

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي : مؤلم موجع ، وهو صَلْيُ الجحيم ، وفَوْتُ النعيم المقيم ، فبئس الحال حالهم ، وبئس ما استعاضوا واستبدلوا من الإيمان بالله وكتبه ورسله ، الكفر به ، وبكتبه ، وبرسله ، مع علمهم وتيقنهم ، فيكون أعظم لعذابهم .

[ ٩١: ٩٣ – ٢] : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ .

أي : وإذا أمر اليهود بالإيمان بما أنزل الله على رسوله ، وهو القرآن استكبروا وعتوا ، و ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ أي : بما سواه من الكتب ، مع أن الواجب أن يؤمن بما أنزل الله مُطلقا ، سواء أنزل عليهم ، أو على غيرهم ، وهذا هو الإيمان النافع ، الإيمان بما أنزل الله على جميع رسل الله .

وأما التفريق بين الرسل والكتب ، وزعم الإيمان ببعضها دون بعض ، فهذا ليس بإيمان ، بل هو الكفر بعينه ، ولهذا قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ .

ولهذا رد عليهم تبارك وتعالى هنا ردًّا شافيا ، وألزمهم إلزاما لا محيد لهم عنه ، فرد عليهم بكفرهم بالقرآن بأمرين فقال : ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ فإذا كان هو الحق في جميع ما اشتمل عليه من الإخبارات ، والأوامر والنواهي ، وهو من عند ربهم ، فالكفر به بعد ذلك كفر بالله ، وكفر بالحق الذي أنزله .

ثم قال : ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي : موافقا له في كل ما دل عليه من الحق ومهيمنا عليه . فلم تؤمنون بما أنزل عليكم ، وتكفرون بنظيره ؟، هل هذا إلا تعصُّب واتِّباع للهوى لا للهُدى؟ .

وأيضًا ، فإن كون القرآن مُصدِّقًا لما معهم ، يقتضي أنه حجة لهم على صدق ما في أيديهم من الكتب ، فلا سبيل لهم إلى إثباتها إلا به ، فإذا كفروا به وجحدوه ، صاروا بمنزلة من ادعى دعوى بحجة وبينة ليس له غيرها ، ولا تتم دعواه إلا بسلامة بينته ، ثم يأتي هو لبيِّنته وحجته ، فيقدح فيها ويكذب بها ؛ أليس هذا من الحماقة والجنون ؟ ، فكان كفرهم بالقرآن ، كفرا بما في أيديهم ونقضا له ، ثم نقض عليهم تعالى دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ لهم : ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَلَقَدْ

جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي : بالأدلة الواضحات المبينة للحق ، ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي : بعد مجيئه ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ في ذلك ليس لكم عذر .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟﴾ أي : سماع قبول وطاعة واستجابة ، ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي : صارت هذه حالتهم ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ أي : طُبع حبُّ العجل وحبُّ عبادته في قلوبهم وتسر بها بسبب كفرهم .

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي : أنتم تدعون الإيمان وتتمدحون بالدين الحق ، وأنتم قتلتم أنبياء الله ، واتخذتم العجل إلها من دون الله ، لما غاب عنكم موسى ، نبي الله ، ولم تقبلوا أوامره ونواهيه إلا بعد التهديد ورفع الطور فوقكم ، فالتزمتم بالقول ، ونقضتم بالفعل ، فما هذا الإيمان الذي ادعيتم ، وما هذا الدين؟ .

فإن كان هذا إيمانا على زعمكم ، فبئس الإيمان الداعي صاحبه إلى الطغيان ، والكفر برسل الله ، وكثرة العصيان ، وقد عهد أن الإيمان الصحيح يأمر صاحبه بكل خير ، وينهاه عن كل شر ، فوضح بهذا كذبهم ، وتبين تناقضهم .

[ ٩٤ : ٩٦ - ٢ ] : ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ .

أي : ﴿قُلْ﴾ لهم على وجه تصحيح دعواهم : ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ يعني الجنة ﴿خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ كما زعمتم ، أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هُودا أو نصارى ، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة ، فإن كنتم صادقين بهذه الدعوى ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ وهذا نوع مُباهلة بينهم وبين رسول الله ﷺ .

وليس بعد هذا الإلجاء والمضايقة لهم بعد العناد منهم ، إلا أحد أمرين : إما أن يؤمنوا بالله ورسوله ، وإما أن يباهلوا على ما هم عليه بأمر يسير عليهم ، وهو تمني الموت الذي يوصلهم إلى الدار التي هي خالصة لهم ، فامتنعوا من ذلك .

فعلم كل أحد أنهم في غاية المعاندة والمحادّة لله ولرسوله ، مع علمهم بذلك ، ولهذا قال تعالى ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي ، لأنهم يعلمون أنه طريق لهم إلى المجازاة بأعمالهم الخبيثة ، فالموت أكره شيء إليهم ، وهم أحرص على الحياة من كل أحد من الناس ، حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بأحد من الرسل والكتب .

ثم ذكر شدة محبتهم للدنيا فقال : ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهذا أبلغ ما يكون من الحرص ، تمنوا حالة هي من المحالات ، والحال أنهم لو عمروا العمر المذكور ، لم يُغن عنهم شيئا ولا دفع عنهم من العذاب شيئا . ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ تهديد لهم على المجازاة بأعمالهم .

[ ٩٧ : ٩٨ – ٢ ] : ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ .

أي : قل لهؤلاء اليهود ، الذين زعموا أن الذي منعهم من الإيمان بك ، أن وليك جبريل عليه السلام ، ولو كان غيره من ملائكة الله ، لآمنوا بك وصدقوا ، إن هذا الزعم منكم تناقض وتهافت ، وتكبر على الله ، فإن جبريل عليه السلام هو الذي نزل بالقرآن من عند الله على قلبك ، وهو الذي ينزل على الأنبياء قبلك ، والله هو الذي أمره ، وأرسله بذلك ، فهو رسول محض .

مع أن هذا الكتاب الذي نزل به جبريل مُصدِّقًا لما تقدَّمه من الكتب غير مُخالف لها ولا مناقض ، وفيه الهداية التامة من أنواع الضلالات ، والبشارة بالخير الدنيوي والأخروي ، لمن آمن به ، فالعداوة لجبريل الموصوف بذلك ، كفر بالله وآياته ، وعداوة لله ولرسله وملائكته ، فإن عداوتهم لجبريل ، لا لذاته بل لما ينزل به من عند الله من الحق على رسل الله .فيتضمَّن الكفر والعداوة للذي أنزله وأرسله ، والذي أُرسل به ، والذي أرسل إليه ، فهذا وجه ذلك .

[٩٩ – ٢] : ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ .

يقول لنبيِّه ﷺ : ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ تحصل بها الهداية لمن استهدى ، وإقامة الحُجَّة على من عاند ، وهي في الوضوح والدلالة على الحق ، قد بلغت مبلغا عظيما ووصلت إلى حالة لا يمتنع من قبولها إلا من فسق عن أمر الله ، وخرج عن طاعة الله ، واستكبر غاية التكبر .

[١٠٠ – ٢] : ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

وهذا فيه التعجيب من كثرة معاهداتهم ، وعدم صبرهم على الوفاء بها . فـ « كُلَّمَا » تفيد التكرار ، فكلما وجد العهد ترتَّب عليه النقض ، ما السبب في ذلك ؟ ، السبب أن أكثرهم لا يؤمنون ، فعدم إيمانهم هو الذي أوجب لهم نقض العهود ، ولو صدق إيمانهم ، لكانوا مثل من قال الله فيهم : ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ .

[ ١٠١ : ١٠٣ – ٢ ] : ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾

أي : ولما جاءهم هذا الرسول الكريم بالكتاب العظيم بالحق الموافق لما معهم ، وكانوا يزعمون أنهم متمسكون بكتابهم ، فلما كفروا بهذا الرسول وبما جاء به ، ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ﴾ الذي أنزل إليهم أي : طرحوه رغبة عنه ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ وهذا أبلغ في الإعراض كأنهم في فعلهم هذا من الجاهلين وهم يعلمون صدقه ، وحقيّة ما جاء به .

تبين بهذا أن هذا الفريق من أهل الكتاب لم يبق في أيديهم شيء حيث لم يؤمنوا بهذا الرسول ، فصار كفرهم به كفرا بكتابهم من حيث لا يشعرون .

ولما كان من العوائد القدريَّة والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه ، وأمكنه الانتفاع به فلم ينتفع ، ابتُلي بالاشتغال بما يضره ، فمن ترك عبادة الرحمن ، ابتُلي بعبادة الأوثان ، ومن ترك محبَّة اللّه وخوفه ورجاءه ، ابتلي بمحبة غير اللّه وخوفه ورجائه ، ومن لم ينفق ماله في طاعة اللّه أنفقه في طاعة الشيطان ، ومن ترك الذل لربه ، ابتلي بالذل للعبيد ، ومن ترك الحق ابتلي بالباطل .

كذلك هؤلاء اليهود لما نبذوا كتاب اللّه اتبعوا ما تتلوا الشياطين وتختلق من السحر على مُلك سليمان حيث أخرجت الشياطين للناس السحر ، وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله وبه حصل له الملك العظيم . وهم كذبة في ذلك ، فلم يستعمله سليمان ، بل نزهه الصادق في قيله : ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ﴾ أي : بتعلم السحر ، فلم يتعلمه ، ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ بذلك .

﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ من إضلالهم وحرصهم على إغواء بني آدم ، وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل من أرض العراق ، أنزل عليهما السحر امتحانا وابتلاء من اللّه لعباده فيعلمانهم السحر .

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ﴾ ينصحاه ، و ﴿يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي : لا تتعلم السحر فإنه كفر ، فينهيانه عن السحر ، ويخبرانه عن مرتبته ، فتعليم الشياطين للسحر على وجه التدليس والإضلال ، ونسبته وترويجه إلى من برَّأه اللّه منه وهو سليمان عليه السلام ، وتعليم الملكين امتحانا مع نصحهما لئلا يكون لهم حجة .

فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين ، والسحر الذي يعلمه الملكان ، فتركوا علم الأنبياء والمُرسلين وأقبلوا على علم الشياطين ، وكل يصبو إلى ما يناسبه .

ثم ذكر مفاسد السحر فقال : ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ مع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما ، لأن اللّه قال في حقهما : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [ سورة الروم ٢١ ] . وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة ، وأنه يضر بإذن اللّه ، أي : بإرادة اللّه ، والإذن نوعان : إذن قدري ، وهو المتعلق بمشيئة اللّه ، كما في هذه الآية ، وإذن شرعي كما في قوله تعالى في الآية السابقة : ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير ، فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مُستقلة في التأثير ، ولم يخالف في هذا الأصل أحدٌ من فرق الأمة غير القدرية في أفعال العباد ، زعموا أنها مُستقلّة غير تابعة للمشيئة ، فأخرجوها عن قدرة اللّه ، فخالفوا كتاب اللّه وسُنَّة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين .

ثم ذكر أن علم السحر مضرة محضة، ليس فيه منفعة لا دينية ولا دنيوية كما يوجد بعض المنافع الدنيوية في بعض المعاصي، كما قال تعالى في الخمر والميسر: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [سورة البقرة ٢١٩]. فهذا السحر مضرة محضة، فليس له داع أصلا، فالمنهيات كلها إما مضرة محضة، أو شرها أكبر من خيرها، كما أن المأمورات إما مَصلحة محضة أو خيرها أكثر من شرها.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ﴾ أي: اليهود ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ أي: رغب في السحر رغبة المُشتري في السلعة. ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أي: نصيب، بل هو موجب للعقوبة، فلم يكن فعلهم إياه جهلا، ولكنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة. ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ علما يُثمر العمل ما فعلوه.

[١٠٤: ١٠٥]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

كان المُسلمون يقولون حين خطابهم للرسول عند تعلمهم أمر الدين: ﴿رَٰعِنَا﴾ أي: راع أحوالنا، فيقصدون بها معنى صحيحا، وكان اليهود يريدون بها معنى فاسدا، فانتهزوا الفرصة، فصاروا يخاطبون الرسول بذلك، ويقصدون المعنى الفاسد، فنهى اللّه المؤمنين عن هذه الكلمة، سدا لهذا الباب، ففيه النهي عن الجائز، إذا كان وسيلة إلى محرم، وفيه الأدب، واستعمال الألفاظ، التي لا تحتمل إلا الحسن، وعدم الفحش، وترك الألفاظ القبيحة، أو التي فيها نوع تشويش أو احتمال لأمر غير لائق، فأمرهم بلفظة لا تحتمل إلا الحسن فقال: ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ فإنها كافية يحصل بها المقصود من غير محذور، ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ لم يذكر المسموع، ليعم ما أمر باستماعه، فيدخل فيه سماع القرآن، وسماع السُنّة التي هي الحكمة، لفظا ومعنى واستجابة، ففيه الأدب والطاعة.

ثم توعّد الكافرين بالعذاب المؤلم الموجع، وأخبر عن عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين، أنهم ما يودون ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي: لا قليلا ولا كثيرا ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ حسدا منهم، وبغضا لكم أن يختصكم بفضله فإنه ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ومن فضله عليكم، إنزال الكتاب على رسولكم، ليزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، فله الحمد والمِنّة.

[١٠٦: ١٠٧ - ٢]: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

النسخ: هو النقل، فحقيقة النسخ نقل المُكلفين من حكم مشروع، إلى حكم آخر، أو إلى إسقاطه، وكان اليهود يُنكرون النسخ، ويزعمون أنه لا يجوز، وهو مذكور عندهم في التوراة، فإنكارهم له كفر وهوى محض.

فأخبر الله تعالى عن حكمته في النسخ، وأنه ما ينسخ من آية ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ أي: ننسها العباد، فنزيلها من قلوبهم، ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ وأنفع لكم ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾.

فدل على أن النسخ لا يكون لأقل مصلحة لكم من الأول؛ لأن فضله تعالى يزداد خصوصا على هذه الأمة، التي سهّل عليها دينها غاية التسهيل.

وأخبر أن من قدح في النسخ فقد قدح في مُلكه وقدرته فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

فإذا كان مالكا لكم، مُتصرّفًا فيكم، تصرُّف المالك البر الرحيم في أقداره وأوامره ونواهيه، فكما أنه لا حجر عليه في تقدير ما يقدره على عباده من أنواع التقادير، كذلك لا يعترض عليه فيما يشرعه لعباده من الأحكام. فالعبد مُدبر مُسخّر تحت أوامر ربه الدينيّة والقدريّة، فما له والاعتراض؟، وهو أيضا، ولي عباده، ونصيرهم، فيتولاهم في تحصيل منافعهم، وينصرهم في دفع مضارهم، فمن ولايته لهم، أن يشرع لهم من الأحكام، ما تقتضيه حكمته ورحمته بهم. ومن تأمل ما وقع في القرآن والسنة من النسخ، عرف بذلك حكمة الله ورحمته عباده، وإيصالهم إلى مصالحهم، من حيث لا يشعرون بلطفه.

[١٠٨: ١١٠ - ٢]: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

ينهى الله المؤمنين، أو اليهود، بأن يسألوا رسولهم ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ والمراد بذلك، أسئلة التعنُّت والاعتراض، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [سورة النساء ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [سورة المائدة ١٠١]. فهذه ونحوها، هي المنهي عنها. وأما سؤال الاسترشاد والتعلم، فهذا محمود قد أمر الله به كما قال تعالى ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل ٤٣]. ويقررهم عليه، كما في قوله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [سورة البقرة ٢١٩]. و ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ﴾ [سورة البقرة ٢٢٠] ونحو ذلك.

ولما كانت المسائل المنهي عنها مذمومة، قد تصل بصاحبها إلى الكفر، قال: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

ثم أخبر عن حسد كثير من أهل الكتاب، وأنهم بلغت بهم الحال، أنهم ودوا ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ وسعوا في ذلك، وأعملوا المكايد، وكيدهم راجع عليهم كما قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة آل عمران ٧٢]. وهذا من حسدهم الصادر من عند أنفسهم.

فأمرهم الله بمقابلة من أساء إليهم غاية الإساءة بالعفو عنهم والصفح حتى يأتي الله بأمره ؛ ثم بعد ذلك ، أتى الله بأمره إياهم بالجهاد ، فشفى الله أنفس المؤمنين منهم ، فقتلوا من قتلوا ، واسْتَرَقُّوا من اسْتَرَقُّوا ، وأجلوا من أجلوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

ثم أمرهم الله بالاشتغال في الوقت الحاضر ، بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة وفعل كل القُرُبات ، ووعدهم أنهم مهما فعلوا من خير ، فإنه لا يضيع عند الله ، بل يجدونه عنده وافرا موفرا قد حفظه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

[ ١١١ : ١١٢ - ٢] : ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

أي : قال اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى ، فحكموا لأنفسهم بالجنة وحدهم ، وهذا مجرد أماني غير مقبولة ، إلا بحجة وبرهان ، فأتوا بها إن كنتم صادقين ، وهكذا كل من ادعى دعوى ، لا بد أن يقيم البرهان على صحة دعواه ، وإلا ، فلو قلبت عليه دعواه ، وادعى مدع عكس ما ادعى بلا برهان لكان لا فرق بينهما ، فالبرهان هو الذي يصدق الدعاوى أو يكذبها ، ولما لم يكن بأيديهم برهان ، علم كذبهم بتلك الدعوى .

ثم ذكر تعالى البرهان الجلي العام لكل أحد ، فقال : ﴿بَلَىٰ﴾ أي : ليس بأمانيكم ودعاويكم ، ولكن ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أي : أخلص لله أعماله ، متوجهًا إليه بقلبه ، ﴿وَهُوَ﴾ مع إخلاصه ﴿مُحْسِنٌ﴾ في عبادة ربه ، بأن عبده بشرعه ، فأولئك هم أهل الجنة وحدهم .

﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ وهو الجنة بما اشتملت عليه من النعيم ، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فحصل لهم المرغوب ، ونجوا من المرهوب .

ويُفهم منها ، أن من ليس كذلك ، فهو من أهل النار الهالكين ، فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود ، والمُتابعة للرسول .

[١١٣ - ٢] : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ .

وذلك أنه بلغ بأهل الكتاب الهوى والحسد ، إلى أنَّ بعضَهم ضلَّلَ بعضًا ، وكفَّر بعضُهم بعضًا ، كما فعل الأُمِّيُّون من مُشركي العرب وغيرهم ، فكل فرقة تُضلِّل الفرقة الأخرى ، ويحكم الله في الآخرة بين المُختلفين بحكمه العدل ، الذي أخبر به عبادَه ، فإنه لا فوزَ ولا نجاةَ إلا لمن صدَّق جميع الأنبياء والمُرسلين ، وامتثل أوامر ربه ، واجتنب نواهيه ، ومن عداهم فهو هالك .

[١١٤ - ٢] : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا

كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي : لا أحد أظلم وأشد جرما ، ممن منع مساجد الله ، عن ذكر الله فيها ، وإقامة الصلاة وغيرها من الطاعات .

﴿وَسَعَىٰ﴾ أي : اجتهد وبذل وسْعه ﴿فِي خَرَابِهَآ﴾ الحسيّ والمعنويّ ، فالخراب الحسي : هدمها وتخريبها ، وتقذيرها ، والخراب المعنوي : منع الذاكرين لاسم الله فيها ، وهذا عام ، لكل من اتّصف بهذه الصفة ، فيدخل في ذلك أصحاب الفيل ، وقريش ، حين صدّوا رسول الله عنها عام الحُديبية ، والنصارى حين أخربوا بيت المقدس ، وغيرهم من أنواع الظلمة ، الساعين في خرابها ، محادة لله ، ومشاقة ، فجازاهم الله ، بأن منعهم دخولها شرعًا وقدرًا ، إلا خائفين ذليلين ، فلمّا أخافوا عباد الله ، أخافهم الله ، فالمشركون الذين صدوا رسوله ، لم يلبث رسول الله ﷺ إلا يسيرا ، حتى أذن الله له في فتح مكة ، ومنع المشركين من قربان بيته ، فقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [ سُورة التّوبة ٢٨] .

وأصحاب الفيل ، قد ذكر الله ما جرى عليهم ، والنصارى سلّط الله عليهم المؤمنين ، فأجلوهم عنه .

وهكذا كل من اتّصف بوصفهم ، فلا بد أن يناله قسطه ، وهذا من الآيات العظيمة ، أخبر بها الباري قبل وقوعها ، فوقعت كما أخبر .

واستدل العلماء بالآية الكريمة ، على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد .

﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ أي : فضيحة كما تقدّم ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ . وإذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، فلا أعظم إيمانا ممن سعى في عمارة المساجد بالعمارة الحسيّة والمعنويّة ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [ سُورة التّوبة ١٨] . بل قد أمر الله تعالى برفع بيوته وتعظيمها وتكريمها ، فقال تعالى : ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [ سُورة النّور ٣٦] . وللمساجد أحكام كثيرة ، يرجع حاصلها إلى مضمون هذه الآيات الكريمة .

[١١٥ - ٢] : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ .

أي : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ خصّهُما بالذكر ، لأنهما محل الآيات العظيمة ، فهما مطالع الأنوار ومغاربها ، فإذا كان مالكا لها ، كان مالكا لكل الجهات .

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ﴾ وجوهكم من الجهات ، إذا كان توليكم إيّاها بأمره ، إما أن يأمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم مأمورين باستقبال بيت المقدس ، أو تؤمرون بالصلاة في السفر على الراحلة ونحوها ، فإن القبلة حيثما توجّه العبد أو تشتبه القبلة ، فيتحرّى الصلاة إليها ، ثم يتبيّن له الخطأ ، أو يكون معذورا بصلب أو مرض ونحو ذلك ، فهذه الأمور ، إما أن يكون العبد فيها معذورا أو مأمورا .

وبكل حال ، فما استقبل جهة من الجهات ، خارجة عن ملك ربه .

﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فيه إثبات الوجه لله تعالى ، على الوجه اللائق به تعالى ، وأن

لله وجها لا تشبهه الوجوه ، وهو - تعالى - واسع الفضل والصفات عظيمها ، عليم بسرائركم ونياتكم .فمن سعته وعلمه ، وسع لكم الأمر ، وقبل منكم المأمور ، فله الحمد والشكر .

[ ١١٦ : ١١٧ - ٢ ] : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ۝ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ .

﴿وَقَالُوا﴾ أي : اليهود والنصارى والمشركون ، وكل من قال ذلك : ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فنسبوه إلى ما لا يليق بجلاله ، وأساءوا كل الإساءة ، وظلموا أنفسهم . وهو - تعالى - صابر على ذلك منهم ، قد حلم عليهم ، وعافاهم ، ورزقهم مع تنقصهم إياه .

﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي : تنزّه وتقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما لا يليق بجلاله ، فسبحان مَنْ له الكمال المطلق ، من جميع الوجوه ، الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه .

ومع رده لقولهم ، أقام الحُجة والبُرهان على تنزيهه عن ذلك فقال : ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي : جميعهم ملكه وعبيده ، يتصرّف فيهم تصرف المالك بالمَماليك ، وهم قانتون له مسخرون تحت تدبيره ، فإذا كانوا كلهم عبيده ، مفتقرين إليه ، وهو غني عنهم ، فكيف يكون منهم أحد ، يكون له ولدا ، والولد لا بد أن يكون من جنس والده ، لأنه جزء منه .

والله تعالى المالك القاهر ، وأنتم المملوكون المقهورون ، وهو الغني وأنتم الفقراء ، فكيف مع هذا ، يكون له ولد؟ ، هذا من أبطل الباطل وأسمجه .

والقنوت نوعان : **قنوت عام** : وهو قنوت الخلق كلهم ، تحت تدبير الخالق ، وخاص : وهو **قنوت العبادة** .

فالنوع الأول كما في هذه الآية ، والنوع الثاني : كما في قوله تعالى : ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ .

ثم قال : ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي : خالقهما على وجه قد أتقنهما وأحسنهما على غير مثال سبق . ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ فلا يستعصى عليه ، ولا يمتنع منه .

[ ١١٨ : ١١٩ - ٢ ] : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ .

أي : قال الجهلة من أهل الكتاب وغيرهم : هلا يُكَلّمنا ، كما كلّم الرسل ، ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ يعنون آيات الاقتراح ، التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة ، وآرائهم الكاسدة ، التي تجرأوا بها على الخالق ، واستكبروا على رسله كقولهم : ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [ سورة البقرة ٥٥ ] . ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ الآية [ سورة النساء ١٥٣ ] ، وقالوا : ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ﴾ الآيات [ الفرقان : ٧ ، ٨ ] . وقوله : ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ الآيات [ سورة الإسراء ٩٠ ] .

فهذا دأبهم مع رسلهم ، يطلبون آيات التّعنت ، لا آيات الاسترشاد ، ولم يكن قصدهم تبين الحق ، فإن الرسل ، قد جاءوا من الآيات ، بما يؤمن بمثله البشر ، ولهذا قال تعالى : ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فكل مُوقِن ، فقد عرف من آيات اللّٰه الباهرة ، وبراهينه الظاهرة ، ما حصل له به اليقين ، واندفع عنه كل شك وريب .

ثم ذكر تعالى بعض آية موجزة مختصرة جامعة للآيات الدالة على صدقه ﷺ وصحة ما جاء به فقال : ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها ، وهي ترجع إلى ثلاثة أمور ؛ **الأول** : في نفس إرساله ، **والثاني** : في سيرته وهديه ودله ، **والثالث** : في معرفة ما جاء به من القرآن والسُّنَّة .

فالأول والثاني ، قد دخلا في قوله : ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾ والثالث دخل في قوله : ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ .

وبيان الأمر الأول وهو – نفس إرساله – أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته ﷺ وما كانوا عليه من عبادة الأوثان والنيران ، والصُّلبان ، وتبديلهم للأديان ، حتى كانوا في ظُلمة من الكُفر ، قد عمَّتهم وشملتهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب ، قد انقرضوا قبيل البعثة . وقد عُلم أن اللّٰه تعالى لم يخلق خلقه سُدى ، ولم يتركهم هملا ، لأنه حكيم عليم ، قدير رحيم ، فمن حكمته ورحمته بعباده ، أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم ، يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له ، فبمجرّد رسالته يعرف العاقل صدقه ، وهو آية كبيرة على أنه رسول اللّٰه .

وأما **الثاني** : فمن عرف النبي ﷺ معرفة تامة ، وعرف سيرته وهديه قبل البعثة ، ونشوءه على أكمل الخصال ، ثم من بعد ذلك ، قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة للناظرين ، فمن عرفها ، وسبر أحواله ، عرف أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين ، لأن اللّٰه تعالى جعل الأوصاف أكبر دليل على معرفة أصحابها وصدقهم وكذبهم .

وأما **الثالث** : فهو معرفة ما جاء به ﷺ من الشرع العظيم ، والقرآن الكريم ، المُشتمل على الإخبارات الصادقة ، والأوامر الحسنة ، والنهي عن كل قبيح ، والمعجزات الباهرة ، فجميع الآيات تدخل في هذه الثلاثة . قوله : ﴿بَشِيرًا﴾ أي لمن أطاعك بالسعادة الدنيويّة والأخرويّة ، ﴿نَذِيرًا﴾ لمن عصاك بالشقاوة والهلاك الدنيوي والأخروي .

﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي : لست مسئولا عنهم ، إنما عليك البلاغ ، وعلينا الحساب .

[١٢٠ – ٢] : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ .

يُخبر تعالى رسوله ، أنه لا يرضى منه اليهود ولا النصارى ، إلا باتباعه دينهم ، لأنهم دعاة إلى الدين الذي هم عليه ، ويزعمون أنه الهدى ، فقل لهم : ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الذي أرسلت به ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ . وأما ما أنتم عليه ، فهو الهوى بدليل قوله ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ . فهذا فيه النهي العظيم ، عن اتِّباع أهواء اليهود والنصارى ، والتشبه بهم فيما يختص به دينهم ، والخطاب وإن كان لرسول اللّٰه ﷺ فإن أمّته داخلة في ذلك ، لأن الاعتبار بعُموم المعنى لا بخُصوص

المخاطب ، كما أن العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

ثم قال : [ ١٢١ : ١٢٣ - ٢ ] : ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ .

يخبر تعالى أن الذين آتاهم الكتاب ، ومنَّ عليهم به مِنَّة مُطلقة ، أنهم ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي : يتّبعونه حق اتباعه ، والتلاوة : الاتّباع ، فيحلّون حلاله ، ويُحرّمون حرامه ، ويعملون بمحكمه ، ويؤمنون بمتشابهه ، وهؤلاء هم السعداء من أهل الكتاب ، الذين عرفوا نعمة اللّٰه وشكروها ، وآمنوا بكل الرسل ، ولم يفرقوا بين أحد منهم . فهؤلاء ، هم المؤمنون حقا ، لا من قال منهم : ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ [ سورة البقرة ٩١] .

ولهذا توعّدهم بقوله : ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ وقد تقدّم تفسير الآية التي بعدها .

[ ١٢٤ : ١٢٥ - ٢ ] : ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ .

يُخبر تعالى ، عن عبده وخليله ، إبراهيم عليه السلام ، المتفق على إمامته وجلالته ، الذي كلٌّ من طوائف أهل الكتاب تدعيه ، بل وكذلك المشركون : أن اللّٰه ابتلاه وامتحنه بكلمات ، أي : بأوامر ونواهي ، كما هي عادة اللّٰه في ابتلائه لعباده ، ليتبين الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء والامتحان ، من الصادق الذي ترتفع درجته ، ويزيد قدره ، ويزكو عمله ، ويخلص ذهبه ، وكان من أجلّهم في هذا المقام ، الخليل عليه السلام . فأتم ما ابتلاه اللّٰه به ، وأكمله ووفّاه ، فشكر اللّٰه له ذلك ، ولم يزل اللّٰه شكورا فقال : ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي : يقتدون بك في الهدى ، ويمشون خلفك إلى سعادتهم الأبدية ، ويحصل لك الثناء الدائم ، والأجر الجزيل ، والتعظيم من كل أحد .

وهذه - لعمر اللّٰه - أفضل درجة ، تنافس فيها المُتنافسون ، وأعلى مقام ، شمّر إليه العاملون ، وأكمل حالة حصلها أولو العزم من المُرسلين وأتباعهم ، من كل صِدِّيق مُتّبع لهم ، داع إلى اللّٰه وإلى سبيله . فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام ، وأدرك هذا ، طلب ذلك لذريتّه ، لتعلو درجته ودرجة ذريتّه ، وهذا أيضًا من إمامته ، ونُصحه لعباد اللّٰه ، ومحبّته أن يكثر فيهم المرشدون ، فلله عظمة هذه الهمم العالية ، والمقامات السامية .

فأجابه الرحيم اللطيف ، وأخبر بالمانع من نيل هذا المقام فقال : ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي : لا ينال الإمامة في الدين ، من ظلم نفسه وضرّها ، وحطّ قدرها ، لمُنافاة الظلم لهذا المقام ، فإنه مقام آلته الصبر واليقين ، ونتيجته أن يكون صاحبه على جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة ، والأخلاق الجميلة ، والشمائل السّديدة ، والمحبّة التّامة ، والخشية والإنابة ، فأين الظلم وهذا المقام؟ . ودل مفهوم الآية ، أن غير الظالم ، سينال الإمامة ، ولكن مع إتيانه بأسبابها .

ثم ذكر تعالى ، نموذجا باقيا دالا على إمامة إبراهيم ، وهو هذا البيت الحرام الذي جعل قصده ، ركنا من أركان الإسلام ، حاطًّا للذنوب والآثام . وفيه من آثار الخليل وذريته ، ما عُرف به إمامته ، وتُذكرت به حالته فقال : ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي : مرجعا يثوبون إليه ، لحصول منافعهم الدينية والدنيوية ، يترددون إليه ، ولا يقضون منه وطرا ، ﴿وَ﴾ جعله ﴿ءَامَنًا﴾ يأمن به كل أحد ، حتى الوحش ، وحتى الجمادات كالأشجار . ولهذا كانوا في الجاهلية – على شركهم – يحترمونه أشد الاحترام ، ويجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم ، فلا يهيجه ، فلما جاء الإسلام ، زاده حُرمة وتعظيمًا ، وتشريفًا وتكريمًا .

﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ يحتمل أن يكون المراد بذلك ، المقام المعروف الذي قد جعل الآن مقابل باب الكعبة ، وأن المراد بهذا ركعتا الطواف ، يستحب أن تكونا خلف مقام إبراهيم ، وعليه جمهور المفسّرين ، ويحتمل أن يكون المقام مُفردًا مُضافًا ، فيعم جميع مقامات إبراهيم في الحج ، وهي المشاعر كلها : من الطواف ، والسعي ، والوقوف بعرفة ، ومزدلفة ورمي الجمار والنحر ، وغير ذلك من أفعال الحج . فيكون معنى قوله : ﴿مُصَلًّى﴾ أي : معبدا ، أي : اقتدوا به في شعائر الحج ، ولعل هذا المعنى أولى ، لدخول المعنى الأول فيه ، واحتمال اللفظ له .

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ أي : أوحينا إليهما ، وأمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك ، والكفر والمعاصي ، ومن الرجس والنجاسات والأقذار ، ليكون ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ فيه ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي : المصلين ، قدم الطواف ، لاختصاصه بالمسجد « الحرام » ، ثم الاعتكاف ، لأن من شرطه المسجد مطلقا ، ثم الصلاة ، مع أنها أفضل ، لهذا المعنى .

وأضاف الباري البيت إليه لفوائد ، منها : أن ذلك يقتضي شدة اهتمام إبراهيم وإسماعيل بتطهيره ، لكونه بيت الله ، فيبذلان جهدهما ، ويستفرغان وسعهما في ذلك . ومنها : أن الإضافة تقتضي التشريف والإكرام ، ففي ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكريمه . ومنها : أن هذه الإضافة هي السبب الجاذب للقلوب إليه .

[ ١٢٦ – ٢ ] : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ .

أي : وإذ دعا إبراهيم لهذا البيت ، أن يجعله الله بلدا آمنا ، ويرزق أهله من أنواع الثمرات ، ثم قيّد عليه السلام هذا الدعاء للمؤمنين ، تأدبًا مع الله ، إذ كان دعاؤه الأول ، فيه الإطلاق ، فجاء الجواب فيه مقيّدا بغير الظالم .فلما دعا لهم بالرزق ، وقيده بالمؤمن ، وكان رزق الله شاملا للمؤمن والكافر ، والعاصي والطائع ، قال تعالى : ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي : أرزقهم كلهم ، مسلمهم وكافرهم ، أما المُسلم فيستعين بالرزق على عبادة الله ، ثم ينتقل منه إلى نعيم الجنة ، وأما الكافر ، فيتمتّع فيها قليلا ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ أي : ألجئه وأخرجه مكرها ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ .

[ ١٢٧ : ١٢٩ – ٢ ] : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ

أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: واذكر إبراهيم وإسماعيل، في حالة رفعهما القواعد من البيت الأساس، واستمرارهما على هذا العمل العظيم، وكيف كانت حالهما من الخوف والرجاء، حتى إنهما مع هذا العمل دعوا الله أن يتقبل منهما عملهما، حتى يحصل فيه النفع العميم. ودعوا لأنفسهما، وذريتهما بالإسلام، الذي حقيقته، خضوع القلب، وانقياده لربه المتضمن لانقياد الجوارح.

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي: علّمناها على وجه الإراءة والمشاهدة، ليكون أبلغ. يحتمل أن يكون المراد بالمناسك: أعمال الحج كلها، كما يدل عليه السياق والمقام، ويحتمل أن يكون المراد ما هو أعم من ذلك وهو الدين كله، والعبادات كلها، كما يدل عليه عموم اللفظ، لأن النّسك: التعبّد، ولكن غلب على متعبدات الحج، تغليبا عُرْفيًا، فيكون حاصل دعائهما، يرجع إلى التوفيق للعلم النافع، والعمل الصالح، ولما كان العبد – مهما كان – لا بد أن يعتريه التقصير، ويحتاج إلى التوبة قالا: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾ أي: في ذريتنا ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ ليكون أرفع لدرجتهما، ولينقادوا له، وليعرفوه حقيقة المعرفة. ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ لفظا، وحفظا، وتحفيظا ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ معنى. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بالتربية على الأعمال الصالحة والتبري من الأعمال الردية، التي لا تزكو النفوس معها. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: القاهر لكل شيء، الذي لا يمتنع على قوته شيء. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فبعزتك وحكمتك، ابعث فيهم هذا الرسول. فاستجاب الله لهما، فبعث الله هذا الرسول الكريم، الذي رحم الله به ذريتهما خاصة، وسائر الخلق عامة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «أنا دعوة أبي إبراهيم»[١٤].

ولمّا عظّم الله إبراهيم هذا التعظيم، وأخبر عن صفاته الكاملة. قال تعالى:

---

(١٤) * صحيح بمجموع طُرقه. روي من عدة طُرق لا تخلو من مقال في أسانيدها.

منها: – حديث العرباض بن سارية، أخرجه أحمد: (٤ / ١٢٧، ١٢٨)، والحاكم في المستدرك: (٢ / ٦٠٠). وقال الهيثمي عنه في «المجمع» ٨/ ٢٢٧: (أحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصّحيح، غير سعيد بن سويد، وقد وثّقه ابن حبان). اهـ

– حديث أبي أُمامة: أخرجه أحمد: (٥ / ٢٦٢). وقال الهيثمي في «المجمع» ٨ / ٢٢٧: وله شواهد تقويه.

– حديث: خالد بن معدان، عن أصحاب النّبي ﷺ. أخرجه الحاكم في المستدرك: (٢ / ٦٠٠). وأورده ابن كثير في «البداية والنّهاية» ٢ / ٢٧٥، من طريق ابن إسحاق وقال: «وهذا إسناد جيد».

– حديث عبادة بن الصّامت: أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق»، كما في «الجامع الصّغير» للسّيوطي، وصحّحه العلّامة الألباني – رحمه الله– في «صحيح الجامع» برقم: ١٤٦٣.

– كما ورد من طرق أخرى مُرسلة عن الضحاك وغيره.

[١٣٠: ١٣٤ - ٢]: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: ما يرغب ﴿عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ بعد ما عرف من فضله ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ أي: جهلها وامتهنها، ورضي لها بالدون، وباعها بصفقة المغبون، كما أنه لا أرشد وأكمل، ممن رغب في مِلّة إبراهيم، ثم أخبر عن حالته في الدنيا والآخرة فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: اخترناه ووفقناه للأعمال، التي صار بها من المصطفين الأخيار. ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ الذين لهم أعلى الدرجات.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ﴾ امتثالا لربه ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ إخلاصا وتوحيدا، ومحبة، وإنابة فكان التوحيد للّه نعته. ثم ورثه في ذريته، ووصاهم به، وجعلها كلمة باقية في عقبه، وتوارثت فيهم، حتى وصلت ليعقوب فوصّى بها بنيه.

فأنتم - يا بني يعقوب - قد وصّاكم أبوكم بالخصوص، فيجب عليكم كمال الانقياد، واتّباع خاتم الأنبياء قال: ﴿يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أي: اختاره وتخيّره لكم، رحمة بكم، وإحسانا إليكم، فقوموا به، واتصفوا بشرائعه، وانصبغوا بأخلاقه، حتى تستمروا على ذلك فلا يأتيكم الموت إلا وأنتم عليه، لأن من عاش على شيء، مات عليه، ومن مات على شيء، بعث عليه.

ولما كان اليهود يزعمون أنهم على مِلّة إبراهيم، ومن بعده يعقوب، قال تعالى مُنكرا عليهم: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ أي: حضورا ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: مُقدّماته وأسبابه، فقال لبنيه على وجه الاختبار، ولتقر عينه في حياته بامتثالهم ما وصاهم به: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾؟ فأجابوه بما قرت به عينه فقالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ فلا نشرك به شيئا، ولا نعدل به أحدا، ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ فجمعوا بين التوحيد والعمل.

ومن المعلوم أنهم لم يحضروا يعقوب، لأنهم لم يوجدوا بعد، فإذا لم يحضروا، فقد أخبر اللّه عنه أنه وصى بنيه بالحنيفيّة، لا باليهوديّة.

ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي: كلٌّ له عمله، وكل سيُجازى بما فعله، لا يؤخذ أحد بذنب أحد ولا ينفع أحدًا إلا إيمانُه وتقواه فاشتغالكم بهم وادعاؤكم، أنكم على ملّتهم، والرضا بمُجرّد القول، أمر فارغ لا حقيقة له، بل الواجب عليكم، أن تنظروا حالتكم التي أنتم عليها، هل تصلح للنجاة أم لا؟.

[١٣٥ - ٢]: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

أي : دعا كل من اليهود والنصارى المسلمين إلى الدخول في دينهم ، زاعمين أنهم هم المُهتدون وغيرهم ضال . قل له مجيبا جوابا شافيا : ﴿بَلْ﴾ نتّبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ أي : مُقبلا على الله ، مُعرضا عما سواه ، قائما بالتوحيد ، تاركا للشرك والتنديد . فهذا الذي في اتِّباعه الهداية ، وفي الإعراض عن ملّته الكفر والغواية .

[١٣٦ - ٢] : ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾

هذه الآية الكريمة ، قد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به ، واعلم أن الإيمان الذي هو تصديق القلب التام ، بهذه الأصول ، وإقراره المُتضمّن لأعمال القلوب والجوارح ، وهو بهذا الاعتبار يدخل فيه الإسلام ، وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها ، فهي من الإيمان ، وأثر من آثاره ، فحيث أطلق الإيمان ، دخل فيه ما ذكر ، وكذلك الإسلام ، إذا أُطلق دخل فيه الإيمان ، فإذا قرن بينهما ، كان الإيمان اسما لما في القلب من الإقرار والتصديق ، والإسلام ، اسما للأعمال الظاهرة وكذلك إذا جمع بين الإيمان والأعمال الصالحة ، فقوله تعالى : ﴿قُولُوٓا۟﴾ أي : بألسنتكم ، متواطئة عليها قلوبكم ، وهذا هو القول التام ، المترتب عليه الثواب والجزاء ، فكما أن النطق باللسان ، بدون اعتقاد القلب ، نفاق وكفر ، فالقول الخالي من العمل عمل القلب ، عديم التأثير قليل الفائدة ، وإن كان العبد يؤجر عليه ، إذا كان خيرا ومعه أصل الإيمان ، لكن فرق بين القول المُجرّد ، والمقترن به عمل القلب .

وفي قوله : ﴿قُولُوٓا۟﴾ إشارة إلى الإعلان بالعقيدة ، والصدع بها ، والدعوة لها ، إذ هي أصل الدين وأساسه .

وفي قوله : ﴿ءَامَنَّا﴾ ونحوه مما فيه صدور الفعل ، منسوبا إلى جميع الأمة ، إشارة إلى أنه يجب على الأمة ، الاعتصام بحبل الله جميعا ، والحث على الائتلاف حتى يكون داعيهم واحدا ، وعملهم متحدا ، وفي ضمنه النهي عن الافتراق ، وفيه : أن المؤمنين كالجسد الواحد .

وفي قوله : ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ إلخ دلالة على جواز إضافة الإنسان إلى نفسه الإيمان ، على وجه التقييد ، بل على وجوب ذلك ، بخلاف قوله : «أنا مؤمن» ونحوه ، فإنه لا يقال إلا مقرونا بالاستثناء بالمشيئة ، لما فيه من تزكية النفس ، والشهادة على نفسه بالإيمان .

فقوله : ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي : بأنه موجود ، واحد أحد ، مُتّصف بكل صفة كمال ، مُنزّه عن كل نقص وعيب ، مستحق لإفراده بالعبادة كلها ، وعدم الإشراك به في شيء منها ، بوجه من الوجوه .

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ يشمل القرآن والسُّنّة لقوله تعالى : ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ فيدخل فيه الإيمان بما تضمّنه كتاب الله وسُنّة رسوله ، من صفات الباري ، وصفات رسله ، واليوم الآخر ، والغيوب الماضية والمستقبلة ، والإيمان بما تضمّنه ذلك من الأحكام الشرعية الأمرية ، وأحكام الجزاء وغير ذلك .

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ إلى آخر الآية ، فيه الإيمان بجميع الكُتُب المُنزّلة على جميع الأنبياء ،

والإيمان بالأنبياء عموما – وخُصوصا ما نص عليه في الآية – لشرفهم ولإتيانهم بالشرائع الكبار . فالواجب في الإيمان بالأنبياء والكتب ، أن يؤمن بهم على وجه العموم والشمول ، ثم ما عرف منهم بالتفصيل ، وجب الإيمان به مفصلا .

وقوله : ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي : بل نؤمن بهم كلهم ، هذه خاصية المسلمين ، التي انفردوا بها عن كل من يدعي أنه على دين . فاليهود والنصارى والصابئون وغيرهم – وإن زعموا أنهم يؤمنون بما يؤمنون به من الرسل والكتب – فإنهم يكفرون بغيره ، فيفرقون بين الرسل والكتب ، بعضها يؤمنون به وبعضها يكفرون به ، وينقض تكذيبهم تصديقهم ، فإن الرسول الذي زعموا ، أنهم قد آمنوا به ، قد صدَّق سائر الرسل وخصوصا محمد ﷺ ، فإذا كذَّبوا محمدا ، فقد كذبوا رسولهم فيما أخبرهم به ، فيكون كفرا برسولهم .

وفي قوله : ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ دلالة على أن عَطية الدين ، هي العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية والأخروية . لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتي الأنبياء من الملك والمال ونحو ذلك ، بل أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب والشرائع . وفيه أن الأنبياء مبلِّغون عن اللّه ، ووسائط بين اللّه وبين خلقه في تبليغ دينه ، ليس لهم من الأمر شيء .

وفي قوله : ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ إشارة إلى أنه من كمال ربوبيته لعباده ، أن ينزل عليهم الكتب ، ويرسل إليهم الرسل ، فلا تقتضي ربوبيته ، تركهم سُدى ولا هملا . وإذا كان ما أوتي النبيون إنما هو من ربهم ، ففيه الفرق بين الأنبياء وبين من يدعي النبوة ، وأنه يحصل الفرق بينهم بمُجَرَّد معرفة ما يدعون إليه ، فالرسل لا يدعون إلا لخير ، ولا ينهون إلا عن كل شر ، وكل واحد منهم ، يصدِّق الآخر ، ويشهد له بالحق ، من غير تخالف ولا تناقض لكونه من عند ربهم ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء ٨٢] . وهذا بخلاف من ادَّعى النبوة ، فلا بد أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم ، كما يعلم ذلك من سبر أحوال الجميع ، وعرف ما يدعون إليه .

فلما بيَّن تعالى جميع ما يؤمن به ، عموما وخصوصا ، وكان القول لا يغني عن العمل قال : ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي : خاضعون لعظمته ، منقادون لعبادته ، بباطننا وظاهرنا ، مخلصون له العبادة بدليل تقديم المعمول ، وهو ﴿لَهُۥ﴾ على العامل وهو ﴿مُسْلِمُونَ﴾ .

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة – على إيجازها واختصارها – على أنواع التوحيد الثلاثة : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، واشتملت على الإيمان بجميع الرسل ، وجميع الكتب ، وعلى التخصيص الدال على الفضل بعد التعميم ، وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص للّه في ذلك ، وعلى الفرق بين الرسل الصادقين ، ومن ادعى النبوة من الكاذبين ، وعلى تعليم الباري عباده كيف يقولون ، ورحمته وإحسانه عليهم بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة ، فسبحان من جعل كتابه تبيانا لكل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .

[١٣٧ – ٢] : ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

أي : فإن آمن أهل الكتاب ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ - يا معشر المؤمنين - من جميع الرسل ، وجميع الكتب الذين أول من دخل فيهم وأولى ، خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ والقرآن ، وأسلموا لله وحده ، ولم يفرّقوا بين أحد من رسل الله ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ۖ﴾ للصراط المستقيم ، الموصل لجنات النعيم ، أي : فلا سبيل لهم إلى الهداية ، إلا بهذا الإيمان ، لا كما زعموا بقولهم : ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ۗ﴾ [سورة البقرة ١٣٥] . فزعموا أن الهداية خاصة بما كانوا عليه ، و « الهُدى » هو العلم بالحق ، والعمل به ، وضده الضلال عن العلم والضلال عن العمل بعد العلم ، وهو الشقاق الذي كانوا عليه ، لما تولوا وأعرضوا ، فالمشاق : هو الذي يكون في شق والله ورسوله في شق ، ويلزم من المشاقة المحادة ، والعداوة البليغة ، التي من لوازمها ، بذل ما يقدرون عليه من أذية الرسول ، فلهذا وعد الله رسوله ، أن يكفيه إيّاهم ، لأنه السميع لجميع الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات ، العليم بما بين أيديهم وما خلفهم ، بالغيب والشهادة ، بالظواهر والبواطن ، فإذا كان كذلك ، كفاك الله شرهم . وقد أنجز الله لرسوله وعده ، وسلطه عليهم حتى قتل بعضهم ، وسبى بعضهم ، وأجلى بعضهم ، وشردهم كل مشرد . ففيه معجزة من معجزات القرآن ، وهو الإخبار بالشيء قبل وقوعه ، فوقع طبق ما أخبر .

[١٣٨ - ٢] : ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ .

أي : الزموا صبغة الله ، وهو دينه ، وقوموا به قياما تاما ، بجميع أعماله الظاهرة والباطنة ، وجميع عقائده في جميع الأوقات ، حتى يكون لكم صبغة ، وصفة من صفاتكم ، فإذا كان صفة من صفاتكم ، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره ، طوعا واختيارا ومحبة ، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذي صار له صفة ، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية ، لحث الدين على مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ومعالي الأمور ، فلهذا قال - على سبيل التعجب المُتقرّر للعقول الزكية- : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ﴾ أي : لا أحسن صبغة من صبغته .

وإذا أردت أن تعرف نموذجا يبين لك الفرق بين صبغة الله وبين غيرها من الصبغ ، فقس الشيء بضدّه ، فكيف ترى في عبد آمن بربه إيمانا صحيحا ، أثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح ، فلم يزل يتحلّى بكل وصف حسن ، وفعل جميل ، وخلق كامل ، ونعت جليل ، ويتخلّى من كل وصف قبيح ، ورذيلة وعيب ، فوصفه : الصدق في قوله وفعله ، والصبر والحلم ، والعفّة ، والشجاعة ، والإحسان القولي والفعلي ، ومحبّة الله وخشيته ، وخوفه ، ورجاؤه ، فحاله الإخلاص للمعبود ، والإحسان لعبيده ، فقسه بعبد كفر بربه ، وشرد عنه ، وأقبل على غيره من المخلوقين فاتصف بالصفات القبيحة ، من الكفر ، والشرك والكذب ، والخيانة ، والمكر ، والخداع ، وعدم العفة ، والإساءة إلى الخلق ، في أقواله ، وأفعاله ، فلا إخلاص للمعبود ، ولا إحسان إلى عبيده . فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما ، ويتبيّن لك أنه لا أحسن صبغة من صبغة الله ، وفي ضمنه أنه لا أقبح صبغة ممن انصبغ بغير دينه .

وفي قوله : ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ بيان لهذه الصبغة ، وهي القيام بهذين الأصلين : الإخلاص والمُتابعة ، لأن « العبادة » اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال ، والأقوال الظاهرة والباطنة ، ولا

تكون كذلك ، حتى يشرعها اللّه على لسان رسوله ، والإخلاص : أن يقصد العبد وجه اللّه وحده ، في تلك الأعمال ، فتقديم المعمول ، يؤذن بالحصر .

وقال : ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار ، ليدل على اتّصافهم بذلك وكونه صار صبغة لهم ملازما .

[١٣٩ - ٢] : ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ .

المُحاجة هي : المُجادلة بين اثنين فأكثر ، تتعلّق بالمسائل الخلافية ، حتى يكون كل من الخصمين يريد نُصرة قوله ، وإبطال قول خصمه ، فكل واحد منهما ، يجتهد في إقامة الحجة على ذلك ، والمطلوب منها ، أن تكون بالتي هي أحسن ، بأقرب طريق يرد الضال إلى الحق ، ويقيم الحجة على المعاند ، ويوضح الحق ، ويبين الباطل ، فإن خرجت عن هذه الأمور ، كانت مُماراة ، ومُخاصمة لا خير فيها ، وأحدثت من الشر ما أحدثت ، فكان أهل الكتاب ، يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين ، وهذا مجرد دعوى ، تفتقر إلى بُرهان ودليل . فإذا كان رب الجميع واحدا ، ليس ربا لكم دوننا ، وكل منا ومنكم له عمله ، فاستوينا نحن وإياكم بذلك . فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره ؛ لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء ، من غير فرق مؤثّر دعوى باطلة ، وتفريق بين متماثلين ، ومكابرة ظاهرة .

وإنما يحصل التفضيل بإخلاص الأعمال الصالحة للّه وحده ، وهذه الحالة وصف المؤمنين وحدهم ، فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم ؛ لأن الإخلاص ، هو الطريق إلى الخلاص ، فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، بالأوصاف الحقيقية التي يسلمها أهل العقول ، ولا ينازع فيها إلا كل مُكابِر جهول ، ففي هذه الآية ، إرشاد لطيف لطريق المحاجة ، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المُتماثلين ، والفرق بين المختلفين .

[١٤٠ - ٢] : ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

وهذه دعوى أخرى منهم ، ومُحاجة في رسل اللّه ، زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المُسلمين .

فرد اللّه عليهم بقوله : ﴿أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ﴾ فالله يقول : ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [ سورة آل عمران ٧٣] . وهم يقولون : بل كان يهوديًا أو نصرانيًا . فإما أن يكونوا ، هم الصادقين العالمين ، أو يكون اللّه تعالى هو الصادق العالم بذلك ، فأحد الأمرين متعيّن لا محالة ، وصورة الجواب مبهم ، وهو في غاية الوضوح والبيان ، حتى إنه - من وضوحه - لم يحتج أن يقول بل اللّه أعلم وهو أصدق ، ونحو ذلك ، لانجلائه لكل أحد ، كما إذا قيل : الليل أنور ، أم النهار؟ والنار أحر أم الماء؟ والشرك أحسن أم التوحيد؟ ونحو ذلك .

وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك ، ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء ، لم يكونوا هودا ولا نصارى ، فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة ، فلهذا كان ظلمهم أعظم الظلم .

ولهذا قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ﴾ فهي شهادة عندهم ، مودعة من

الله ، لا من الخلق ، فيقتضي الاهتمام بإقامتها ، فكتموها ، وأظهروا ضدها ، جمعوا بين كتم الحق ، وعدم النطق به ، وإظهار الباطل ، والدعوة إليه ، أليس هذا أعظم الظلم؟ بلى والله ، وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة ، فلهذا قال : ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ بل قد أحصى أعمالهم ، وعدها وادخر لهم جزاءها ، فبئس الجزاء جزاؤهم ، وبئست النار مثوى للظالمين ، وهذه طريقة القرآن في ذكر العلم والقدرة ، عقب الآيات المتضمِّنة للأعمال التي يجازى عليها ، فيفيد ذلك الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، ويفيد أيضًا ذكر الأسماء الحسنى بعد الأحكام ، أن الأمر الديني والجزائي ، أثر من آثارها ، وموجب من موجباتها ، وهي مقتضية له .

[ ١٤١ - ٢ ] : ثم قال تعالى : ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ .

تقدَّم تفسيرها ، وكرَّرها ، لقطع التعلق بالمخلوقين ، وأن المُعوَّل عليه ما اتصف به الإنسان ، لا عمل أسلافه وآبائه ، فالنفع الحقيقي بالأعمال ، لا بالانتساب المُجرَّد للرجال .

[ ١٤٢ : ١٤٣ - ٢ ] : ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ .

قد اشتملت الآية الأولى على معجزة ، وتسلية ، وتطمين قلوب المؤمنين ، واعتراض وجوابه ، من ثلاثة أوجه ، وصفة المعترض ، وصفة المُسَلِّم لحكم الله دينَه . فأخبر تعالى أنه سيعترض السفهاء من الناس ، وهم الذين لا يعرفون مصالح أنفسهم ، بل يضيعونها ويبيعونها بأبخس ثمن ، وهم اليهود والنصارى ، ومن أشبههم من المعترضين على أحكام الله وشرائعه ، وذلك أن المسلمين كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس ، مدة مقامهم بمكة ، ثم بعد الهجرة إلى المدينة ، نحو سنة ونصف - لما لله تعالى في ذلك من الحكم التي سيشير إلى بعضها ، وكانت حكمته تقتضي أمرهم باستقبال الكعبة ، فأخبرهم أنه لا بد أن يقول السفهاء من الناس : ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾ وهي استقبال بيت المقدس ، أي : أيُّ شيء صرفهم عنه؟ وفي ذلك الاعتراض على حكم الله وشرعه ، وفضله وإحسانه ، فسلاهم ، وأخبر بوقوعه ، وأنه إنما يقع ممن اتصف بالسفه ، قليل العقل ، والحلم ، والديانة ، فلا تبالوا بهم ، إذ قد علم مصدر هذا الكلام ، فالعاقل لا يبالي باعتراض السفيه ، ولا يلقي له ذهنه .

ودلَّت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله ، إلا سفيه جاهل معاند ، وأما الرشيد المؤمن العاقل ، فيتلقى أحكام ربه بالقبول ، والانقياد ، والتسليم كما قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾ [ سورة الأحزاب ٣٦ ] . ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ الآية [ سورة النساء ٦٥ ] ، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ

أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ [سورة البقرة ٢٨٥] .

وقد كان في قوله : ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ ما يغني عن رد قولهم ، وعدم المبالاة به ، ولكنه تعالى مع هذا لم يترك هذه الشُّبهة ، حتى أزالها وكشفها مما سيعرض لبعض القلوب من الاعتراض ، فقال تعالى : ﴿قُل﴾ لهم مجيبا : ﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي : فإذا كان المشرق والمغرب ملكا لله ، ليس جهة من الجهات خارجة عن ملكه ، ومع هذا يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، ومنه هدايتكم إلى هذه القبلة التي هي من مِلَّة أبيكم إبراهيم ، فلأي شيء يعترض المعترض بتوليتكم قبلة داخلة تحت ملك الله ، لم تستقبلوا جهة ليست ملكا له ، فهذا يوجب التسليم لأمره بمجرد ذلك ، فكيف وهو من فضل الله عليكم ، وهدايته وإحسانه ، أن هداكم لذلك فالمعترض عليكم ، معترض على فضل الله ، حسدا لكم وبغيا .

ولما كان قوله : ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ والمطلق يحمل على المقيد ، فإن الهداية والضلال ، لهما أسباب أوجبتها حكمة الله وعدله ، وقد أخبر في غير موضع من كتابه بأسباب الهداية ، التي إذا أتى بها العبد حصل له الهدى كما قال تعالى : ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ ذكر في هذه الآية السبب الموجب لهداية هذه الأمة مطلقا بجميع أنواع الهداية ، ومِنَّة الله عليها فقال : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي : عدلا خيارا ، وما عدا الوسط ، فأطراف داخلة تحت الخطر ، فجعل الله هذه الأمة وسطا في كل أمور الدين ، وسطا في الأنبياء بين من غلا فيهم كالنصارى ، وبين من جفاهم كاليهود ، بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك ، ووسطا في الشريعة ، لا تشديدات اليهود وآصارهم ، ولا تهاون النصارى ، وفي باب الطهارة والمطاعم ، لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم ، ولا يطهرهم الماء من النجاسات ، وقد حرمت عليهم طيبات عقوبة لهم ، ولا كالنصارى الذين لا ينجسون شيئا ، ولا يحرمون شيئا ، بل أباحوا ما دب ودرج . بل طهارتهم أكمل طهارة وأتمها ، وأباح الله لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح ، وحرم عليهم الخبائث من ذلك ، فلهذه الأمة من الدين أكمله ، ومن الأخلاق أجلها ، ومن الأعمال أفضلها . ووهبهم الله من العلم والحلم ، والعدل والإحسان ، ما لم يهبه لأمة سواهم ، فلذلك كانوا ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ كاملين ليكونوا ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط ، يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان ، ولا يحكم عليهم غيرهم ، فما شهدت له هذه الأمة بالقبول ، فهو مقبول ، وما شهدت له بالرد ، فهو مردود . فإن قيل : كيف يقبل حكمهم على غيرهم ، والحال أن كل مختصمين غير مقبول قول بعضهم على بعض؟ قيل : إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين ، لوجود التهمة ، فأما إذا انتفت التهمة ، وحصلت العدالة التامة ، كما في هذه الأمة ، فإنما المقصود ، الحكم بالعدل والحق ، وشرط ذلك ، العلم والعدل ، وهما موجودان في هذه الأمة ، فَقُبل قولها .

فإن شك شاك في فضلها ، وطلب مُزكِّيا لها ، فهو أكمل الخلق ، نبيهم ﷺ ، فلهذا قال تعالى : ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ .

ومن شهادة هذه الأمة على غيرهم ، أنه إذا كان يوم القيامة ، وسأل الله المرسلين عن تبليغهم ، والأمم

المُكذِّبة عن ذلك ، وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم ، استشهدت الأنبياء بهذه الأمة ، وزكاها نبيها .

وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة ، حجة قاطعة ، وأنهم معصومون عن الخطأ ، لإطلاق قوله : ﴿وَسَطًا﴾ فلو قدر اتفاقهم على الخطأ ، لم يكونوا وسطا ، إلا في بعض الأمور ، ولقوله : ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يقتضي أنهم إذا شهدوا على حكم أن الله أحلَّه أو حرَّمه أو أوجبه ، فإنها معصومة في ذلك .

وفيها اشتراط العدالة في الحكم ، والشهادة ، والفُتيا ، ونحو ذلك .

يقول تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ وهي استقبال بيت المقدس أولاً ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي : علما يتعلق به الثواب والعقاب ، وإلا فهو تعالى عالم بكل الأمور قبل وجودها . ولكن هذا العلم ، لا يعلِّق عليه ثوابا ولا عقابا ، لتمام عدله ، وإقامة الحُجَّة على عباده ، بل إذا وجدت أعمالهم ، ترتب عليها الثواب والعقاب ، أي : شرعنا تلك القبلة لنعلم ونمتحن ﴿مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ ويؤمن به ، فيتبعه على كل حال ، لأنه عبد مأمور مُدبَّر ، ولأنه قد أخبرت الكتب المُتقدِّمة ، أنه يستقبل الكعبة ، فالمنصف الذي مقصوده الحق ، مما يزيده ذلك إيمانا ، وطاعة للرسول .

وأما من انقلب على عقبيه ، وأعرض عن الحق ، واتبع هواه ، فإنه يزداد كفرا إلى كفره ، وحيرة إلى حيرته ، ويدلي بالحجة الباطلة ، المبنية على شبهة لا حقيقة لها .

﴿وَإِن كَانَتْ﴾ أي : صرفك عنها ﴿لَكَبِيرَةً﴾ أي : شاقة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ فعرفوا بذلك نعمة الله عليهم ، وشكروا ، وأقروا له بالإحسان ، حيث وجههم إلى هذا البيت العظيم ، الذي فضله على سائر بقاع الأرض ، وجعل قصده ركنا من أركان الإسلام ، وهادما للذنوب والآثام ، فلهذا خف عليهم ذلك ، وشق على من سواهم .

ثم قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ أي : ما ينبغي له ولا يليق به تعالى ، بل هي من المُمتنعات عليه ، فأخبر أنه ممتنع عليه ، ومستحيل ، أن يضيع إيمانكم ، وفي هذا بشارة عظيمة لمن مَنَّ الله عليهم بالإسلام والإيمان ، بأن الله سيحفظ عليهم إيمانهم ، فلا يضيعه ، وحفظه نوعان : حفظ عن الضياع والبطلان ، بعصمته لهم عن كل مُفسد ومُزيل له ومنقص من المحن المُقلقة ، والأهواء الصَّادة ، وحفظ له بتنميته لهم ، وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم ، ويتم به إيقانهم ، فكما ابتدأكم ، بأن هداكم للإيمان ، فسيحفظه لكم ، ويتم نعمته بتنميته وتنمية أجره ، وثوابه ، وحفظه من كل مكدِّر ، بل إذا وجدت المحن التي المقصود منها تبيين المؤمن الصادق من الكاذب ، فإنها تمحِّص المؤمنين ، وتظهر صدقهم ، وكأن في هذا احترازا عما قد يقال إن قوله : ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ قد يكون سببا لترك بعض المؤمنين إيمانهم ، فدفع هذا الوهم بقوله : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ بتقديره لهذه المحنة أو غيرها . ودخل في ذلك من مات من المؤمنين قبل تحويل الكعبة ، فإن الله لا يضيع إيمانهم ، لكونهم امتثلوا أمر الله وطاعة رسوله في وقتها ، وطاعة الله امتثال أمره في كل وقت ، بحسب ذلك ، وفي هذه الآية ، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة ، أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح .

وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي : شديد الرحمة بهم عظيمها ، فمن رأفته ورحمته

بهم ، أن يتم عليهم نعمته التي ابتدأهم بها ، وأن ميّز عنهم من دخل في الإيمان بلسانه دون قلبه ، وأن امتحنهم امتحانًا ، زاد به إيمانهم ، وارتفعت به درجتهم ، وأن وجههم إلى أشرف البيوت ، وأجلها .

[١٤٤ - ٢] : ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ .

يقول الله لنبيه : ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي : كثرة تردده في جميع جهاته ، شوقا وانتظارا لنزول الوحي باستقبال الكعبة ، وقال : ﴿وَجْهِكَ﴾ ولم يقل : « بصرك » لزيادة اهتمامه ، ولأن تقليب الوجه مُستلزم لتقليب البصر .

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ أي : نوجهك لولايتنا إياك ، ﴿قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ أي : تحبها ، وهي الكعبة ، وفي هذا بيان لفضله وشرفه ﷺ ، حيث إن الله تعالى يُسارع في رضاه ، ثم صرح له باستقبالها فقال : ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ والوجه : ما أقبل من بدن الإنسان .

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ أي : من بر وبحر ، وشرق وغرب ، جنوب وشمال ، ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ أي : جهته . ففيها اشتراط استقبال الكعبة ، للصلوات كلها ، فرضها ، ونفلها ، وأنه إن أمكن استقبال عينها ، وإلا فيكفي شطرها وجهتها ، وأن الالتفات بالبدن ، مبطل للصلاة ، لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده ، ولما ذكر تعالى فيما تقدم ، المعترضين على ذلك من أهل الكتاب وغيرهم ، وذكر جوابهم ، ذكر هنا ، أن أهل الكتاب والعلم منهم ، يعلمون أنك في ذلك على حق وأمر ، لما يجدونه في كتبهم ، فيعترضون عنادا وبغيا ، فإذا كانوا يعلمون بخطئهم فلا تبالوا بذلك ، فإن الإنسان إنما يغمه اعتراض من اعترض عليه ، إذا كان الأمر مشتبها ، وكان ممكنا أن يكون معه صواب .

فأما إذا تيقن أن الصواب والحق مع المعترض عليه ، وأن المعترض معاند ، عارف ببطلان قوله ، فإنه لا محل للمبالاة ، بل ينتظر بالمعترض العقوبة الدنيوية والأخروية ، فلهذا قال تعالى : ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ بل يحفظ عليهم أعمالهم ، ويجازيهم عليها ، وفيها وعيد للمعترضين ، وتسلية للمؤمنين .

[١٤٥ - ٢] : ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ .

كان النبي ﷺ من كمال حرصه على هداية الخلق يبذل لهم غاية ما يقدر عليه من النصيحة ، ويتلطف بهدايتهم ، ويحزن إذا لم ينقادوا لأمر الله ، فكان من الكفار ، من تمرّد عن أمر الله ، واستكبر على رسل الله ، وترك الهدى ، عمدا وعدوانا ، فمنهم : اليهود والنصارى ، أهل الكتاب الأول ، الذين كفروا بمحمد ﷺ عن يقين ، لا عن جهل ، فلهذا أخبره الله تعالى أنك لو ﴿أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾ أي : بكل برهان ودليل يوضح قولك ويبين ما تدعو إليه ، ﴿مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾ أي : ما تبعوك ، لأن اتباع القبلة ، دليل

على اتباعه ، ولأن السبب هو شأن القبلة ، وإنما كان الأمر كذلك ، لأنهم معاندون ، عرفوا الحق وتركوه ، فالآيات إنما تفيد وينتفع بها من يتطلب الحق ، وهو مشتبه عليه ، فتوضح له الآيات البينات ، وأما من جزم بعدم اتباع الحق ، فلا حيلة فيه . وأيضا فإن اختلافهم فيما بينهم ، حاصل ، وبعضهم ، غير تابع قبلة بعض ، فليس بغريب منهم مع ذلك أن لا يتبعوا قبلتك يا محمد ، وهم الأعداء حقيقة الحسدة ، وقوله : ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ أبلغ من قوله : « وَلَا تَتَّبِعْ » لأن ذلك يتضمن أنه ﷺ اتَّصف بمخالفتهم ، فلا يمكن وقوع ذلك منه ، ولم يقل : « ولو أتوا بكل آية » لأنهم لا دليل لهم على قولهم . وكذلك إذا تبيَّن الحق بأدلته اليقينية ، لم يلزم الإتيان بأجوبة الشبه الواردة عليه ، لأنها لا حد لها ، ولأنه يعلم بطلانها ، للعلم بأن كل ما نافَى الحقَّ الواضح فهو باطل ، فيكون حل الشبه من باب التبرع .

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ إنما قال : « أهواءهم » ولم يقل « دينهم » لأن ما هم عليه مُجرَّد أهوية نفس ، حتى هم في قلوبهم يعلمون أنه ليس بدين ، ومن ترك الدين اتبع الهوى ولا محالة ، قال تعالى : ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [ سُورة الفُرقان ٤٣ ] .

﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بأنك على الحق ، وهم على الباطل ، ﴿إِنَّكَ إِذًا﴾ أي : إن اتبعتهم ، فهذا احتراز ، لئلا تنفصل هذه الجملة عما قبلها ، ولو في الأفهام ، ﴿لَّمِنَ الظَّٰلِمِينَ﴾ أي : داخل فيهم ، ومندرج في جملتهم ، وأي ظلم أعظم ، من ظلم ، من علم الحق والباطل ، فآثر الباطل على الحق ، وهذا ، وإن كان الخطاب له ﷺ ، فإن أمته داخلة في ذلك ، وأيضا ، فإذا كان هو ﷺ لو فعل ذلك — وحاشاه— صار ظالما مع علو مرتبته ، وكثرة حسناته فغيره من باب أولى وأحرى .

ثم قال تعالى :

[ ٢ : ١٤٦ - ١٤٧ ] : ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ .

يخبر تعالى : أن أهل الكتاب قد تقررَّ عندهم ، وعرفوا أن محمدًا رسول اللّه ، وأن ما جاء به حقٌّ وصدقٌ ، وتيقَّنوا ذلك ، كما تيقَّنوا أبناءهم بحيث لا يشتبهون عليهم بغيرهم ، فمعرفتهم بمحمد ﷺ ، وصلت إلى حدٍ لا يشكون فيه ولا يمترون ، ولكنَّ فريقا منهم — وهم أكثرهم — الذين كفروا به ، كتموا هذه الشهادة مع تيقنها ، وهم يعلمون ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ اللَّهِ﴾ [ سُورة البقرة ١٤٠ ] .

وفي ضِمْن ذلك ، تسلية للرسول والمؤمنين ، وتحذيرٍ له من شرهم وشبههم ، وفريقٌ منهم لم يكتموا الحق وهم يعلمون ، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر به جهلًا ، فالعالم عليه إظهار الحق ، وتبيينه وتزيينه ، بكل ما يقدر عليه من عبارة وبرهان ومثال ، وغير ذلك ، وإبطال الباطل وتمييزه عن الحق ، وتشيينه ، وتقبيحه للنفوس ، بكل طريق مؤدٍ لذلك ، فهولاء الكاتمون ، عكسوا الأمر ، فانعكست أحوالُهم .

﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي : هذا الحق الذي هو أحق أن يسمى حقًّا من كل شيء ، لما اشتمل عليه من المطالب العالية ، والأوامر الحسنة ، وتزكية النفوس وحثها على تحصيل مصالحها ، ودفع مفاسدها ، لصدوره من ربك ، الذي من جملة تربيته لك أن أنزل عليك هذا القُرآن الذي فيه تربية

العقول والنفوس، وجميع المصالح.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي: فلا يحصل لك أدنى شك وريبة فيه، بل تفكَّر فيه وتأمل، حتى تصل بذلك إلى اليقين، لأن التفكر فيه لا محالة، دافع للشك، موصل لليقين.

[١٤٨ - ٢]: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: كل أهل دين وملَّة له وجهة يتوجَّه إليها في عبادته، وليس الشأن في استقبال القبلة، فإنه من الشرائع التي تتغيَّر بها الأزمنة والأحوال، ويدخلها النسخ والنقل من جهة إلى جهة، ولكن الشأن كل الشأن، في امتثال طاعة الله، والتقرُّب إليه، وطلب الزُّلفى عنده، فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية، وهو الذي إذا لم تتصف به النفوس، حصلت لها خسارة الدنيا والآخرة، كما أنها إذا اتصفت به فهي الرابحة على الحقيقة، وهذا أمر متفق عليه في جميع الشرائع، وهو الذي خلق الله له الخلق، وأمرهم به.

والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات، فإن الاستباق إليها، يتضمن فعلها، وتكميلها، وإيقاعها على أكمل الأحوال، والمبادرة إليها، ومن سبق في الدنيا إلى الخيرات، فهو السابق في الآخرة إلى الجنات، فالسابقون أعلى الخلق درجة، والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل، من صلاة، وصيام، وزكوات وحج، عمرة، وجهاد، ونفع متعدٍ وقاصرٍ.

ولما كان أقوى ما يحثُّ النفوس على المسارعة إلى الخير، وينشطها، ما رتب الله عليها من الثواب قال: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيجمعكم ليوم القيامة بقدرته، فيجازي كل عامل بعمله ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [سورة النجم ٣١].

ويستدل بهذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلةٍ يتصف بها العمل، كالصلاة في أول وقتها، والمبادرة إلى إبراء الذمة، من الصيام، والحج، والعمرة، وإخراج الزكاة، والإتيان بسنن العبادات وآدابها، فلله ما أجمعَها وأنفعها من آية.

[١٤٩: ١٥٠ - ٢]: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

أي: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ في أسفارك وغيرها، وهذا للعموم، ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: جهته. ثم خاطب الأمة عموما فقال: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أكدّه بـ «إن» واللام، لئلا يقع لأحد فيه أدنى شبهة، ولئلا يظن أنه على سبيل التشهي لا الامتثال.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل هو مُطَّلع عليكم في جميع أحوالكم، فتأدبوا معه، وراقبوه بامتثال أوامره،

واجتناب نواهيه ، فإن أعمالكم غير مغفول عنها ، بل مجازون عليها أتم الجزاء ، إنْ خيرًا فخير ، وإنْ شرًا فشر .

وقال هنا : ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي : شرعنا لكم استقبال الكعبة المشرفة ، لينقطع عنكم احتجاج الناس من أهل الكتاب والمشركين ، فإنه لو بقي مستقبلا بيت المقدس ، لتوجهت عليه الحجة ، فإن أهل الكتاب ، يجدون في كتابهم أن قبلته المستقرة ، هي الكعبة البيت الحرام ، والمشركون يرون أن من مفاخرهم هذا البيت العظيم ، وأنه من مِلَّة إبراهيم ، وأنه إذا لم يستقبله محمد ﷺ ، توجهت نحوه حججهم ، وقالوا : كيف يدعي أنه على مِلَّة إبراهيم ، وهو من ذريته ، وقد ترك استقبال قبلته؟ . فباستقبال الكعبة قامت الحجة على أهل الكتاب والمشركين ، وانقطعت حججهم عليه .

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي : من احتج منهم بحجة هو ظالم فيها ، وليس لها مستند إلا اتباع الهوى والظلم ، فهذا لا سبيل إلى إقناعه والاحتجاج عليه ، وكذلك لا معنى لجَعْل الشبهة التي يوردونها على سبيل الاحتجاج محلا يؤْبَه لها ، ولا يلقى لها بال ، فلهذا قال تعالى : ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ لأن حجتهم باطلة ، والباطل كاسمه مخذول ، مخذول صاحبه ، وهذا بخلاف صاحب الحق ، فإن للحق صولة وعزًّا ، يوجب خشية من هو معه ، وأمر تعالى بخشيته ، التي هي أصل كل خير ، فمن لم يخش اللّٰه ، لم ينْكَفّ عن معصيته ، ولم يمتثل أمره . وكان صرف المسلمين إلى الكعبة ، مما حصلت فيه فتنة كبيرة ، أشاعها أهل الكتاب ، والمُنافقون ، والمُشركون ، وأكثروا فيها من الكلام والشبه ، فلهذا بسطها اللّٰه تعالى ، وبينها أكمل بيان ، وأكدها بأنواع من التأكيدات ، التي تضمَّنتها هذه الآيات ، منها : الأمر بها ، ثلاث مرات ، مع كفاية المرة الواحدة ، ومنها : أن المعهود ، أن الأمر ، إما أن يكون للرسول ، فتدخل فيه الأمة تبعا ، أو للأمة عموما ، وفي هذه الآية أُمر فيها الرسول بالخصوص في قوله : ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ والأمة عموما في قوله : ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ . ومنها : أنه رد فيه جميع الاحتجاجات الباطلة ، التي أوردها أهل العناد وأبطلَها شبهة شبهة ، كما تقدم توضيحها ، ومنها : أنه قطع الأطماع من اتباع الرسول قبلة أهل الكتاب ، ومنها قوله : ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فمجرد إخبار الصادق العظيم كافٍ شافٍ ، ولكن مع هذا قال : ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ . ومنها : أنه أخبر – وهو العالم بالخفيات – أن أهل الكتاب مُتقرِّر عندهم ، صحةُ هذا الأمر ، ولكنهم يكتمون هذه الشهادة مع العلم .

ولما كان توليته لنا إلى استقبال القبلة ، نعمة عظيمة ، وكان لُطفه بهذه الأمة ورحمته ، لم يزل يتزايد ، وكلما شرع لهم شريعة ، فهي نعمةٌ عظيمة قال : ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ فأصل النعمة ، الهداية لدينه ، بإرسال رسوله ، وإنزال كتابه ، ثم بعد ذلك ، النعم المتممات لهذا الأصل ، لا تعد كثرة ، ولا تحصر ، منذ بعث اللّٰه رسوله إلى أنْ قَرُبَ رحيله من الدنيا ، وقد أعطاه اللّٰه من الأحوال والنعم ، وأعطى أمته ، ما أتم به نعمته عليه وعليهم ، وأنزل اللّٰه عليه : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [ سورة المائدة ٣] .

فللّٰه الحمد على فضله ، الذي لا نبلغ له عدًّا ، فضلا عن القيام بشكره ، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي : تعلمون الحق ، وتعملون به ، فالله تبارك وتعالى من رحمته بالعباد ، قد يسر لهم أسباب الهداية غاية التيسير ،

ونبههم على سلوك طرقها ، وبينها لهم أتم تبيين ، حتى إن من جملة ذلك أنه يقيِّض للحق ، المعاندين له فيجادلون فيه ، فيتضح بذلك الحق ، وتظهر آياته وأعلامه ، ويتضح بطلان الباطل ، وأنه لا حقيقة له ، ولولا قيامه في مقابلة الحق ، لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق ، وبضدها تتبين الأشياء ، فلولا الليل ، ما عرف فضل النهار ، ولولا القبيح ، ما عرف فضل الحسن ، ولولا الظلمة ما عرف منفعة النور ، ولولا الباطل ما اتضح الحق اتضاحا ظاهرا ، فلله الحمد على ذلك .

[ ١٥١ : ١٥٢ - ٢ ] : ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ .

يقول تعالى : إن إنعامنا عليكم باستقبال الكعبة وإتمامها بالشرائع والنعم المتممة ، ليس ذلك ببدع من إحساننا ، ولا بأوله ، بل أنعمنا عليكم بأصول النعم ومتمماتها ، فأبلغها إرسالنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم ، تعرفون نسبه وصدقه ، وأمانته وكماله ونصحه .

﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا ﴾ وهذا يعمّ الآيات القرآنية وغيرها ، فهو يتلو عليكم الآيات المبيّنة للحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، التي دلتكم أولا ، على توحيد اللّٰه وكماله ، ثم على صدق رسوله ، ووجوب الإيمان به ، ثم على جميع ما أخبر به من المعاد والغيوب ، حتى حصل لكم الهداية التامة ، والعلم اليقيني .

﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾ أي : يطهر أخلاقكم ونفوسكم ، بتربيتها على الأخلاق الجميلة ، وتنزيهها عن الأخلاق الرذيلة ، وذلك كتزكيتكم من الشرك ، إلى التوحيد ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الكذب إلى الصدق ، ومن الخيانة إلى الأمانة ، ومن الكبر إلى التواضع ، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق ، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع ، إلى التحاب والتواصل والتوادد ، وغير ذلك من أنواع التزكية .

﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ أي : القرآن ، ألفاظه ومعانيه ، ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ قيل : هي السنة ، وقيل : الحكمة ، معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها ، وتنزيل الأمور منازلها . فيكون على هذا تعليم السنة داخلا في تعليم الكتاب ، لأن السنة ، تبين القرآن وتفسره ، وتعبر عنه ، ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ لأنهم كانوا قبل بعثته ، في ضلال مبين ، لا علم ولا عمل ، فكل علم أو عمل ، نالته هذه الأمة فعلى يده ﷺ وبسببه كان ، فهذه النعم هي أصول النعم على الإطلاق ، ولهي أكبر نعم ينعم بها على عباده ، فوظيفتهم شكر اللّٰه عليها والقيام بها ؛ فلهذا قال تعالى : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ فأمر تعالى بذكره ، ووعد عليه أفضل جزاء ، وهو ذكره لمن ذكره ، كما قال تعالى على لسان رسوله : « من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم »[١٥] .

وذكر اللّٰه تعالى ، أفضله ، ما تواطأ عليه القلب واللسان ، وهو الذكر الذي يثمر معرفة اللّٰه ومحبته ،

---

(١٥) * هذا جزء من حديث قدسي ، أوله قوله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني . وهو متفق عليه ، من حديث أبي هريرة . أخرجه البخاري : ( كتاب التوحيد/ باب : قول اللّٰه تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [ سورة آل عمران ٢٨]/ ح٧٤٠٥) . وذكره في مواضع أخرى مختصرة ليس فيها هذا اللفظ . وأخرجه مسلم : ( كتاب الذكر والدُّعاء / باب : الحث على ذكر اللّٰه تعالى/ ح ١، ٢، ٣) . وتفرّد به البخاري عن أبي ذر ، وتفرد به مُسلم عن أنس .

وكثرة ثوابه، والذكر هو رأس الشكر، فلهذا أمر به خصوصا، ثم من بعده أمر بالشكر عموما فقال: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ أي: على ما أنعمت عليكم بهذه النعم، ودفعت عنكم صنوف النقم، والشكر يكون بالقلب، إقرارا بالنعم، واعترافا، وباللسان، ذكرا وثناء، وبالجوارح، طاعة لله وانقيادا لأمره، واجتنابا لنهيه، فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة، وزيادة في النعم المفقودة، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وفي الإتيان بالأمر بالشكر بعد النعم الدينية، من العلم وتزكية الأخلاق والتوفيق للأعمال، بيان أنها أكبر النعم، بل هي النعم الحقيقية، التي تدوم، إذا زال غيرها وأنه ينبغي لمن وفقوا لعلم أو عمل، أن يشكروا الله على ذلك، ليزيدهم من فضله، وليندفع عنهم الإعجاب، فيشتغلوا بالشكر.

ولما كان الشكر ضده الكفر، نهى عن ضده فقال: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ المراد بالكفر هاهنا ما يُقابل الشكر، فهو كفر النعم وجحدها، وعدم القيام بها، ويحتمل أن يكون المعنى عاما، فيكون الكفر أنواعا كثيرة، أعظمه الكفر بالله، ثم أنواع المعاصي، على اختلاف أنواعها وأجناسها، من الشرك، فما دونه.

[١٥٣ - ٢]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

أمر الله تعالى المؤمنين، بالاستعانة على أمورهم الدينية والدنيوية ﴿بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ فالصبر هو: حبس النفس وكفها عما تكره، فهو ثلاثة أقسام: صبرها على طاعة الله حتى تؤديها، وعن معصية الله حتى تتركها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها، فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر، فلا سبيل لغير الصابر، أن يدرك مطلوبه، خصوصا الطاعات الشاقة المستمرة، فإنها مفتقرة أشد الافتقار، إلى تحمل الصبر، وتجرع المرارة الشاقة، فإذا لازم صاحبها الصبرَ، فاز بالنجاح، وإن رده المكروه والمشقة عن الصبر والملازمة عليها، لم يدرك شيئا، وحصل على الحرمان، وكذلك المعصية التي تشتد دواعي النفس ونوازعها إليها وهي في محل قدرة العبد، فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم، وكفٍّ لدواعي قلبه ونوازعها لله تعالى، واستعانة بالله على العصمة منها، فإنها من الفتن الكبار، وكذلك البلاء الشاق، خصوصا إن استمر، فهذا تضعف معه القوى النفسانية والجسدية، ويوجد مقتضاها، وهو التسخط، إن لم يقاومها صاحبها بالصبر لله، والتوكل عليه، واللجأ إليه، والافتقار على الدوام.

فعلمت أن الصبر محتاج إليه العبد، بل مضطر إليه في كل حالة من أحواله، فلهذا أمر الله تعالى به، وأخبر أنه ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: مع من كان الصبر لهم خلقا، وصفة، ومَلَكَةً بمعونته وتوفيقه، وتسديده، فهانت عليهم بذلك، المشاق والمكاره، وسهل عليهم كل عظيم، وزالت عنهم كل صعوبة، وهذه معية خاصة، تقتضي محبته ومعونته، ونصره وقربه، وهذه «منقبة عظيمة» للصابرين، فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا إنهم فازوا بهذه المعية من الله، لكفى بها فضلا وشرفا، وأما المعية العامة، فهي معية العلم والقدرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ وهذه عامة للخلق.

وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة لأن الصلاة هي عماد الدين، ونور المؤمنين، وهي الصلة بين العبد وربه، فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة، مجتمعا فيها ما يلزم فيها، وما يسن، وحصل فيها حضور القلب، الذي هو لبها فصار العبد إذا دخل فيها، استشعر دخوله على ربه، ووقوفه بين يديه، موقف العبد

الخادم المتأدب ، مستحضرا لكل ما يقوله وما يفعله ، مُستغرقا بمناجاة ربه ودعائه لا جرم أن هذه الصلاة ، من أكبر المعونة على جميع الأمور فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولأن هذا الحضور الذي يكون في الصلاة ، يوجب للعبد في قلبه ، وصفا ، وداعيا يدعوه إلى امتثال أوامر ربه ، واجتناب نواهيه ، هذه هي الصلاة التي أمر الله أن نستعين بها على كل شيء .

[١٥٤ - ٢] : ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ .

لما ذكر تبارك وتعالى ، الأمر بالاستعانة بالصبر على جميع الأمور ذكر نموذجا مما يستعان بالصبر عليه ، وهو الجهاد في سبيله ، وهو أفضل الطاعات البدنية ، وأشقها على النفوس ، لمشقته في نفسه ، ولكونه مؤديا للقتل ، وعدم الحياة ، التي إنما يرغب الراغبون في هذه الدنيا لحصول الحياة ولوازمها ، فكل ما يتصرفون به ، فإنه سعي لها ، ودفع لما يضادها . ومن المعلوم أن المحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبوب أعلى منه وأعظم ، فأخبر تعالى : أن من قتل في سبيله ، بأن قاتل في سبيل الله ، لتكون كلمة الله هي العليا ، ودينه الظاهر ، لا لغير ذلك من الأغراض ، فإنه لم تفته الحياة المحبوبة ، بل حصل له حياة أعظم وأكمل ، مما تظنون وتحسبون . فالشهداء : ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران ١٧٠] .

فهل أعظم من هذه الحياة المتضمّنة للقرب من الله تعالى ، وتمتعهم برزقه البدني في المأكولات والمشروبات اللذيذة ، والرزق الروحي ، وهو الفرح ، والاستبشار وزوال كل خوف وحزن ، وهذه حياة برزخية أكمل من الحياة الدنيا ، بل قد أخبر النبي ﷺ :أن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش .[16]

وفي هذه الآية ، أعظم حث على الجهاد في سبيل الله ، وملازمة الصبر عليه ، فلو شعر العباد بما للمقتولين في سبيل الله من الثواب لم يتخلّف عنه أحد ، ولكن عدم العلم اليقيني التام ، هو الذي فتر العزائم ، وزاد نوم النائم ، وأفات الأجور العظيمة والغنائم ، لم لا يكون كذلك والله تعالى قد : ﴿ٱشْتَرَىٰ مِنَ

(١٦) * أخرجه مُسلم : (كتاب الإمارة / باب : بيان أنَّ أرواح الشُّهداء في الجنّة/ح ١٢١ ) .

- عن مسروق قال : سألنا عبد الله ( ابن مسعود ) عن هذه الآية : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [سورة آل عمران ١٦٩] . قال : قد سألنا عن ذلك فقال : أرواحهم في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم إطلاعة فقال : هل تشتهون شيئا ؟ ، قال : أيّ شيء نشتهي ، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا ، قالوا : يا رب نريد أنْ ترد إلينا أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا . وهذا الحديث شبيه بالموقوف ، إلّا أنَّ مثله لا يُقال من قبيل الرأي ، وله حكم الرفع .

كما أخرجه الترمذي : (كتاب فضائل الجهاد / باب : ما جاء في ثواب الشهداء/ ح ١٦٤١ ) .

من طريق كعب بن مالك بلفظ أخصر : إنَّ أرواح الشهداء في طير خضر تلعق من ثمر الجنة أو شجر الجنة .

صحّحه العلامة الألباني - رحمه الله- في : «صحيح الجامع» برقم : ( ١٥٥٩، ١٥٦٠ ) .

ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [ سورة التوبة ١١١] . فوالله لو كان للإنسان ألف نفس ، تذهب نفسا فنفسا في سبيل اللّه ، لم يكن عظيما في جانب هذا الأجر العظيم ، ولهذا لا يتمنى الشهداء بعدما عاينوا من ثواب اللّه وحسن جزائه إلا أن يردوا إلى الدنيا ، حتى يقتلوا في سبيله مرة بعد مرة .(١٧)

وفي الآية دليل على نعيم البرزخ وعذابه ، كما تكاثرت بذلك النصوص .

[١٥٥ - ١٥٧] : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ .

أخبر تعالى أنه لا بد أن يبتلي عباده بالمحن ، ليتبين الصادق من الكاذب ، والجازع من الصابر ، وهذه سنته تعالى في عباده ؛ لأن السراء لو استمرت لأهل الإيمان ، ولم يحصل معها محنة ، لحصل الاختلاط الذي هو فساد ، وحكمة اللّه تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر .

هذه فائدة المحن ، لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان ، ولا ردهم عن دينهم ، فما كان اللّه ليضيع إيمان المؤمنين ، فأخبر في هذه الآية أنه سيبتلي عباده ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾ من الأعداء ﴿وَٱلْجُوعِ﴾ أي : بشيء يسير منهما ؛ لأنه لو ابتلاهم بالخوف كله ، أو الجوع ، لهلكوا ، والمحن تُمَحِّص لا تهلك .

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ وهذا يشمل جميع النقص المعتري للأموال من جوائح سماوية ، وغرق ، وضياع ، وأخذ الظلمة للأموال من الملوك الظلمة ، وقطاع الطريق وغير ذلك .

﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾ أي : ذهاب الأحباب من الأولاد ، والأقارب ، والأصحاب ، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد ، أو بدن من يحبه .

﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي : الحبوب ، وثمار النخيل ، والأشجار كلها ، والخضر ببرد ، أو بَرَدٍ ، أو حرق ، أو آفة سماوية ، من جراد ونحوه . فهذه الأمور ، لا بد أن تقع ، لأن العليم الخبير ، أخبر بها ، فوقعت كما أخبر ، فإذا وقعت انقسم الناس قسمين : جازعين وصابرين ، فالجازع ، حصلت له المصيبتان ، فوات المحبوب ، وهو وجود هذه المُصيبة ، وفوات ما هو أعظم منها ، وهو الأجر بامتثال أمر اللّه بالصبر ، ففاز بالخسارة والحرمان ، ونقص ما معه من الإيمان ، وفاته الصبر والرضا والشكران ، وحصل له السخط الدال على شدة النقصان .

وأما من وفقه اللّه للصبر عند وجود هذه المصائب ، فحبس نفسه عن التسخط ، قولا وفعلا ، واحتسب

---

(١٧) * مُتّفقٌ عليه . من حديث أنس بن مالك . أخرجه البُخاري : ( كتاب الجهاد / باب : الحور العين وصفتهن /ح ٢٧٩٥) ، ( كتاب الجهاد / باب : تمني المجاهد أن يرجع إلى الدنيا / ح ٢٨١٧) ، وأخرجه مُسلم : ( كتاب الإمارة / باب : فضل الشهادة في سبيل اللّه/ ح ١٠٨، ١٠٩) .

ولفظه : ما من نفسٍ تموت . لها عند اللّه خير . يسُرُّها أنّها ترجع إلى الدُّنيا . ولا أنّ لها الدُّنيا وما فيها إلّا الشّهيد . فإنّه يتمنّى أنْ يرجع فيُقتل في الدُّنيا . لما يرى من فضل الشّهيد .

وفي لفظ : فإنّه يتمنّى أن يرجع ويُقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة .

أجرها عند الله ، وعلم أن ما يدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبة التي حصلت له ، بل المصيبة تكون نعمة في حقه ، لأنها صارت طريقا لحصول ما هو خير له وأنفع منها ، فقد امتثل أمر الله ، وفاز بالثواب ، فلهذا قال تعالى : ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ أي : بشرهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب . فالصابرين ، هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة ، والمنحة الجسيمة ، ثم وصفهم بقوله : ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ وهي كل ما يؤلم القلب أو البدن أو كليهما مما تقدّم ذكره .

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ﴾ أي : مملوكون لله ، مُدبرون تحت أمره وتصريفه ، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء ، فإذا ابتلانا بشيء منها ، فقد تصرف أرحم الراحمين ، بمماليكه وأموالهم ، فلا اعتراض عليه ، بل من كمال عبودية العبد ، علمه ، بأن وقوع البلية من المالك الحكيم ، الذي أرحم بعبده من نفسه ، فيوجب له ذلك الرضا عن الله ، والشكر له على تدبيره ، لما هو خير لعبده ، وإن لم يشعر بذلك ، ومع أننا مملوكون لله ، فإنا إليه راجعون يوم المعاد ، فَمُجازٍ كل عامل بعمله ، فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفورا عنده ، وإن جزعنا وسخطنا ، لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر ، فكون العبد لله ، وراجع إليه ، من أقوى أسباب الصبر .

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصبر المذكور ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي : ثناء وتنوية بحالهم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمة ، ومن رحمته إياهم ، أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر ، ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ الذين عرفوا الحق ، وهو في هذا الموضع ، علمهم بأنهم لله ، وأنهم إليه راجعون ، وعملوا به وهو هنا صبرهم لله .

ودلَّت هذه الآية ، على أن من لم يصبر ، فله ضد ما لهم ، فحصل له الذم من الله ، والعقوبة ، والضلال والخسار ، فما أعظم الفرق بين الفريقين وما أقل تعب الصابرين ، وأعظم عناء الجازعين ، فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها ؛ لتخف وتسهل ، إذا وقعت ، وبيان ما تُقابل به ، إذا وقعت ، وهو الصبر ، وبيان ما يعين على الصبر ، وما للصابر من الأجر ، ويعلم حال غير الصابر ، بضد حال الصابر . وأن هذا الابتلاء والامتحان ، سنة الله التي قد خلت ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وبيان أنواع المصائب .

[١٥٨ - ٢] : ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ .

يخبر تعالى أن الصفا والمروة وهما معروفان ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي أعلام دينه الظاهرة ، التي تعبد الله بها عباده ، وإذا كانا من شعائر الله ، فقد أمر الله بتعظيم شعائره فقال : ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ فدل مجموع النصين أنهما من شعائر الله ، وأن تعظيم شعائره ، من تقوى القلوب . والتقوى واجبة على كلِّ مكلَّف ، وذلك يدل على أن السعي بهما فرض لازم للحج والعمرة ، كما عليه الجمهور ، ودلت عليه الأحاديث النبوية وفعله النبي ﷺ وقال : « خُذوا عني مناسككم » .[١٨]

---

(١٨) * جزء من حديث أخرجه مُسلم من طريق جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - .

ولفظه : رأيت رسول ﷺ يرمي الجمرة وهو على بعيره ، وهو يقول : يا أيها الناس ، خُذوا عنى مناسككم ، فإنّي لا أدرى لعلى لا أحج بعد عامي هذا .
=

﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ هذا دفع لوهم من توهّم وتحرّج من المسلمين عن الطواف بينهما ، لكونهما في الجاهلية تُعبد عندهما الأصنام ، فنفى تعالى الجناح لدفع هذا الوهم ، لا لأنه غير لازم .

ودل تقييد نفي الجُناح فيمن تطوف بهما في الحج والعمرة ، أنه لا يتطوع بالسعي مفردا إلا مع انضمامه لحج أو عمرة ، بخلاف الطواف بالبيت ، فإنه يشرع مع العمرة والحج ، وهو عبادة مفردة . فأما السعي والوقوف بعرفة ومزدلفة ، ورمي الجمار فإنها تتبع النسك ، فلو فُعلت غير تابعة للنسك ، كانت بدعة ، لأن البدعة نوعان : نوع يتعبّد للّه بعبادة لم يشرعها أصلا ، ونوع يتعبّد له بعبادة قد شرعها على صفة مخصوصة ، فتفعل على غير تلك الصفة ، وهذا منه .

وقوله : ﴿وَمَن تَطَوَّعَ﴾ أي : فعل طاعة مخلصا بها للّه تعالى ﴿خَيْرًا﴾ من حج وعمرة ، وطواف ، وصلاة ، وصوم وغير ذلك ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ فدل هذا ، على أنه كلّما ازداد العبد من طاعة اللّه ، ازداد خيره وكماله ، ودرجته عند اللّه ، لزيادة إيمانه .

ودل تقييد التطوع بالخير ، أن من تطوع بالبدع ، التي لم يشرعها اللّه ولا رسوله ، أنه لا يحصل له إلا العناء ، وليس بخير له ، بل قد يكون شرا له إن كان مُتعمّدًا عالما بعدم مشروعية العمل .

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ الشاكر والشكور ، من أسماء اللّه تعالى ، الذي يقبل من عباده اليسير من العمل ، ويجازيهم عليه العظيم من الأجر ، الذي إذا قام عبده بأوامره وامتثل طاعته ، أعانه على ذلك ، وأثنى عليه ومدحه ، وجازاه في قلبه نورا وإيمانا ، وسعة ، وفي بدنه قوة ونشاطا ، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء ، وفي أعماله زيادة توفيق . ثم بعد ذلك ، يُقدم على الثواب الآجل عند ربه كاملا موفّرا ، لم تنقصه هذه الأمور .

ومن شكره لعبده ، أن من ترك شيئا للّه أعاضه اللّه خيرا منه[١٩] ، ومن تقرب منه شبرا ، تقرب منه

---

= أخرجه مُسلم : (كتاب الحج / باب : استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا/ ٣١٠) .

(١٩) * صحيح ، بمجموع طرقه . له طُرق مُتعددة : - رجل من أهل البادية له صُحبة : أخرجه أحمد في المُسند : ( ٥ / ٧٨، ٧٩، ٣٥٦) . وأخرجه وكيع في :« الزهد » ٢/ ٦٣٥ ح ٣٥٦.

قال الهيثمي في « المجمع » ١٠/ ٢٩٦: ( رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ) .اهـ

وكذا قال العجلوني في كشف الخفا : « ٢/ ١٨٤» .

وقال العلّامة الألباني - رحمه اللّه - في « الضعيفة » ١/ ٦١: (رجاله على شرط مُسلم ) .اهـ

- أبي بن كعب : واختلف فيه على عُبيد بن عُمير : فأخرجه وكيع في الزهد ٢ / ٦٣٥ ح ٣٥٥. وابن أبي الدنيا في الورع ص ٢٣ح ٤٢، وغيرهما موقوفًا عليه .

قلت : وفي سنده مُسلم بن شداد : مجهول الحال.

وأخرجه الأصبهاني في « الترغيب والترهيب » ١ / ٤٠٩ ح ٧١٥.

قال الألباني في « الضعيفة » ١/ ٦١: ( سنده لا بأس به في الشواهد) .اهـ

قلت : فيه إبراهيم بن العلاء الغنوي : مختلفٌ فيه . قال عنه ابن عدي : هو أقرب إلى الصّدق أقرب .

- عبد اللّه بن عمر : أخرجه أبو نُعيم في « الحلية » ٢/ ١٩٦.

قال العلّامة الألباني- رحمه الله- في « الضعيفة » ١/ ٦١: ( إسناده موضوع ، فإن من دون الزهري لا ذكر لهم في شيء من =

ذراعا ، ومن تقرب منه ذراعا ، تقرّب منه باعا ، ومن أتاه يمشي ، أتاه هرولة[٢٠] ، ومن عامله ، ربح عليه أضعافا مُضاعفة .

ومع أنه شاكر ، فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل ، بحسب نيّته وإيمانه وتقواه ، ممن ليس كذلك ، عليم بأعمال العباد ، فلا يضيعها ، بل يجدونها أوفر ما كانت ، على حسب نياتهم التي اطلع عليها العليم الحكيم .

[١٥٩ - ١٦٢] : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ .

هذه الآية وإن كانت نازلة في أهل الكتاب ، وما كتموا من شأن الرسول ﷺ وصفاته ، فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله ﴿مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الدالات على الحق المظهرات له ، ﴿وَٱلۡهُدَىٰ﴾ وهو العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم ، ويتبين به طريق أهل النعيم ، من طريق أهل الجحيم ، فإن الله أخذ الميثاق على أهل العلم ، بأن يُبيّنوا الناس ما منّ الله به عليهم من علم الكتاب ولا يكتموه ، فمن نبذ ذلك وجمع بين المفسدتين ، كَتْمِ ما أنزل الله ، والغش لعباد الله ، فأولئك ﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي : يبعدهم ويطردهم عن قربه ورحمته .

﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ وهم جميع الخليقة ، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة ، لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم ، وإبعادهم من رحمة الله ، فجوزوا من جنس عملهم ، كما أن معلم الناس الخير ، يصلي الله عليه وملائكته ، حتى الحوت في جوف الماء ، لسعيه في مصلحة الخلق ، وإصلاح أديانهم ، وقربهم من رحمة الله ، فجوزي من جنس عمله ، فالكاتم لما أنزل الله ، مضاد لأمر الله ، مُشاق لله ، يبيّن الله الآيات للناس ويوضحها ، وهذا يطمسها فهذا عليه هذا الوعيد الشديد .

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ أي رجعوا عما هم عليه من الذنوب ، ندما وإقلاعا ، وعزما على عدم المعاودة ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ ما فسد من أعمالهم ، فلا يكفي ترك القبيح حتى يحصل فِعْل الحسن . ولا يكفي ذلك في الكاتم أيضا ، حتى يبين ما كتمه ، ويبدي ضد ما أخفى ، فهذا يتوب الله عليه ، لأن توبة الله غير محجوب

---

= كتب الحديث ، غير عبد الله بن سعد الرّقي فإنّه معروف بالكذب) .اهـ

- الشعبي « مُرسل » : أخرجه ابن أبي الدُّنيا في« الورع » ص ٢٣ ح ٤١.

وروي موقوف عن ابن مسعود وغيره .

(٢٠) * هذا جزءٌ من حديث قدسي ، أوله قوله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني . وهو متفقٌ عليه ، من حديث أبي هريرة . أخرجه البخاري : ( كتاب التوحيد/ باب : قول الله تعالى : ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [ سُورة آل عمران ٢٨]/ ح ٧٤٠٥) . وذكره في مواضع أخرى مختصرة ليس فيها هذا اللفظ . وأخرجه مسلم : ( كتاب الذكر والدُّعاء / باب : الحث على ذكر الله تعالى/ ح ١، ٢، ٣) . وتفرّد به البخاري عن أبي ذر ، وتفرد به مُسلم عن أنس .

عنها ، فمن أتى بسبب التوبة ، تاب الله عليه ، لأنه ﴿التَّوَّابُ﴾ أي : الرجّاع على عباده بالعفو والصفح ، بعد الذنب إذا تابوا ، وبالإحسان والنعم بعد المنع ، إذا رجعوا ، ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي اتصف بالرحمة العظيمة ، التي وسعت كل شيء ومن رحمته أن وفقهم للتوبة والإنابة فتابوا وأنابوا ، ثم رحمهم بأن قبل ذلك منهم ، لطفا وكرما ، هذا حكم التائب من الذنب .

وأما من كفر واستمر على كفره حتى مات ولم يرجع إلى ربه ، ولم يُنِب إليه ، ولم يُتب عن قريب فأولئك ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ لأنه لما صار كفرهم وصفا ثابتا ، صارت اللعنة عليهم وصفا ثابتا لا تزول ، لأن الحكم يدور مع علته ، وجودا وعدما .

و ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي : في اللعنة ، أو في العذاب والمعنيان متلازمان ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ بل عذابهم دائم شديد مستمر ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي : يُمهلون ، لأن وقت الإمهال وهو الدنيا قد مضى ، ولم يبق لهم عذر فيعتذرون .

[١٦٣ – ٢] : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ .

يخبر تعالى – وهو أصدق القائلين – أنه ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي : مُتوحِّد منفرد في ذاته ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، فليس له شريك في ذاته ، ولا سمي له ولا كفو له ، ولا مثل ، ولا نظير ، ولا خالق ، ولا مُدبِّر غيره ، فإذا كان كذلك ، فهو المستحق لأن يُؤلَّه ويعبد بجميع أنواع العبادة ، ولا يُشرَك به أحد من خلقه ، لأنه ﴿الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ المُتَّصف بالرحمة العظيمة ، التي لا يماثلها رحمة أحد ، فقد وسعت كل شيء وعمت كل حي ، فبرحمته وجدت المخلوقات ، وبرحمته حصُلت لها أنواع الكمالات ، وبرحمته اندفع عنها كل نقمة ، وبرحمته عرّف عباده نفسه بصفاته وآلائه ، وبيَّن لهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح دينهم ودنياهم ، بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب .

فإذا عُلم أن ما بالعباد من نعمة ، فمن الله ، وأن أحدا من المخلوقين ، لا ينفع أحدا ، عُلم أن الله هو المستحق لجميع أنواع العبادة ، وأن يُفرد بالمحبّة والخوف ، والرجاء ، والتعظيم ، والتوكل ، وغير ذلك من أنواع الطاعات . وأن من أظلم الظلم ، وأقبح القبيح ، أن يُعدل عن عبادته إلى عبادة العبيد ، وأن يشرك المخلوق من تراب ، برب الأرباب ، أو يعبد المخلوق المدبَّر العاجز من جميع الوجوه ، مع الخالق المدبِّر القادر القوي ، الذي قد قهر كل شيء ودان له كل شيء .

ففي هذه الآية ، إثبات وحدانية الباري وإلهيته ، وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقين وبيان أصل الدليل على ذلك وهو إثبات رحمته التي من آثارها وجود جميع النعم ، واندفاع جميع النقم ، فهذا دليل إجمالي على وحدانيته تعالى . ثم ذكر الأدلة التفصيلية فقال :

[١٦٤ – ٢] : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

أخبر تعالى أن في هذه المخلوقات العظيمة ، آيات أي : أدلة على وحدانية الباري وإلهيته ، وعظيم

سلطانه ورحمته وسائر صفاته ، ولكنها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي : لمن لهم عقول يعملونها فيما خلقت له ، فعلى حسب ما منّ الله على عبده من العقل ، ينتفع بالآيات ويعرفها بعقله وفكره وتدبُّره ، ففي ﴿خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في ارتفاعها واتساعها ، وإحكامها ، وإتقانها ، وما جعل الله فيها من الشمس والقمر ، والنجوم ، وتنظيمها لمصالح العباد ، وفي خلق ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ مهادا للخلق ، يمكنهم القرار عليها والانتفاع بما عليها ، والاعتبار . ما يدل ذلك على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير ، وبيان قدرته العظيمة التي بها خلقها ، وحكمته التي بها أتقنها ، وأحسنها ونظمها ، وعلمه ورحمته التي بها أودع ما أودع ، من منافع الخلق ومصالحهم ، وضروراتهم وحاجاتهم . وفي ذلك أبلغ الدليل على كماله ، واستحقاقه أن يفرد بالعبادة ، لانفراده بالخلق والتدبير ، والقيام بشئون عباده .

﴿وَ﴾ في ﴿ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وهو تعاقبهما على الدوام ، إذا ذهب أحدهما ، خلفه الآخر ، وفي اختلافهما في الحر ، والبرد ، والتوسط ، وفي الطول ، والقصر ، والتوسط ، وما ينشأ عن ذلك من الفصول ، التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم ، وجميع ما على وجه الأرض ، من أشجار ونوابت ، كل ذلك بانتظام وتدبير ، وتسخير ، تنبهر له العقول ، وتعجز عن إدراكه من الرجال الفحول ، ما يدل ذلك على قدرة مصرفها ، وعلمه وحكمته ، ورحمته الواسعة ، ولطفه الشامل ، وتصريفه وتدبيره ، الذي تفرد به ، وعظمته ، وعظمة ملكه وسلطانه ، مما يوجب أن يؤله ويعبد ، ويفرد بالمحبة والتعظيم ، والخوف والرجاء ، وبذل الجهد في محابه ومراضيه .

﴿وَ﴾ في ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾ وهي السفن والمراكب ونحوها ، مما ألهم الله عباده صنعتها ، وخلق لهم من الآلات الداخلية والخارجية ما أقدرهم عليها . ثم سخر لها هذا البحر العظيم والرياح ، التي تحملها بما فيها من الركاب والأموال ، والبضائع التي هي من منافع الناس ، وبما تقوم به مصالحهم وتنتظم معايشهم . فمن الذي ألهمهم صنعتها ، وأقدرهم عليها ، وخلق لهم من الآلات ما به يعملونها ؟ أم من الذي سخر لها البحر ، تجري فيه بإذنه وتسخيره والرياح ؟ ، أم من الذي خلق للمراكب البرية والبحرية ، النار والمعادن المعينة على حملها ، وحمل ما فيها من الأموال ؟ ، فهل هذه الأمور ، حصلت اتفاقا ، أم استقل بعملها هذا المخلوق الضعيف العاجز ، الذي خرج من بطن أمه لا علم له ولا قدرة ، ثم خلق له ربه القدرة ، وعلمه ما يشاء تعليمه ، أم المسخِّر لذلك رب واحد ، حكيم عليم ، لا يعجزه شيء ، ولا يمتنع عليه شيء؟ بل الأشياء قد دانت لربوبيته ، واستكانت لعظمته ، وخضعت لجبروته .

وغاية العبد الضعيف ، أن جعله الله جزءا من أجزاء الأسباب ، التي بها وجدت هذه الأمور العظام ، فهذا يدل على رحمة الله وعنايته بخلقه ، وذلك يوجب أن تكون المحبة كلها له ، والخوف والرجاء ، وجميع الطاعة ، والذل والتعظيم .

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ وهو المطر النازل من السحاب . ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فأظهرت من أنواع الأقوات ، وأصناف النبات ، ما هو من ضرورات الخلائق ، التي لا يعيشون بدونها . أليس ذلك دليلا على قدرة من أنزله ، وأخرج به ما أخرج ورحمته ، ولطفه بعباده ، وقيامه بمصالحهم ، وشدة

افتقارهم وضرورتهم إليه من كل وجه ؟ ، أما يوجب ذلك أن يكون هو معبودهم وإلههم ؟ ، أليس ذلك دليلا على إحياء الموتى ومجازاتهم بأعمالهم ؟

﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ أي : في الأرض ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي : نشر في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة ، ما هو دليل على قدرته وعظمته ، ووحدانيته وسلطانه العظيم ، وسخرها للناس ، ينتفعون بها بجميع وجوه الانتفاع . **فمنها** : ما يأكلون من لحمه ، ويشربون من دره ، **ومنها** : ما يركبون ، **ومنها** : ما هو ساع في مصالحهم وحراستهم ، **ومنها** : ما يعتبر به .

ومع أنه بث فيها من كل دابة ، فإنه سبحانه هو القائم بأرزاقهم ، المتكفّل بأقواتهم ، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها .

وفي ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ باردة وحارة ، وجنوبا وشمالا ، وشرقا ودبورا وبين ذلك ، وتارة تثير السحاب ، وتارة تؤلّف بينه ، وتارة تُلقّحه ، وتارة تدره ، وتارة تمزقه وتزيل ضرره ، وتارة تكون رحمة ، وتارة تُرْسَل بالعذاب .

فمن الذي صرفها هذا التصريف ، وأودع فيها من منافع العباد ، ما لا يستغنون عنه؟ وسخّرها ليعيش فيها جميع الحيوانات ، وتصلح الأبدان والأشجار ، والحبوب والنوابت ، إلا العزيز الحكيم الرحيم ، اللطيف بعباده المستحق لكل ذل وخضوع ، ومحبة وإنابة وعبادة؟ .

وفي تسخير السحاب بين السماء والأرض على خفّته ولطافته يحمل الماء الكثير ، فيسوقه الله إلى حيث شاء ، فيحيي به البلاد والعباد ، ويروي التلول والوهاد ، وينزله على الخلق وقت حاجتهم إليه ، فإذا كان يضرهم كثرته ، أمسكه عنهم ، فينزله رحمة ولطفا ، ويصرفه عناية وعطفا ، فما أعظم سلطانه ، وأغزر إحسانه ، وألطف امتنانه .

أليس من القبيح بالعباد ، أن يتمتعوا برزقه ، ويعيشوا ببرّه وهم يستعينون بذلك على مساخطه ومعاصيه؟ أليس ذلك دليلا على حلمه وصبره ، وعفوه وصفحه ، وعميم لطفه؟ .فله الحمد أولا وآخرا ، وباطنا وظاهرا .

والحاصل ، أنه كلما تدبّر العاقل في هذه المخلوقات ، وتغلغل فكره في بدائع المبتدَعات ، وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة ، علم بذلك ، أنها خلقت للحق وبالحق ، وأنها صحائف آيات وكتب دلالات ، على ما أخبر به الله عن نفسه ووحدانيته ، وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر ، وأنها مسخّرات ، ليس لها تدبير ولا استعصاء على مُدبرّها ومصرفها .

فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون ، وإليه صامدون ، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات ، فلا إله إلا الله ، ولا رب سواه .

[ ٢ - ١٦٥ : ١٦٧ ] : ثم قال تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ

أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ .

ما أحسن اتّصال هذه الآية بما قبلها ، فإنه تعالى ، لما بين وحدانيته وأدلتها القاطعة ، وبراهينها الساطعة الموصّلة إلى علم اليقين ، المُزيلة لكل شك ، ذكر هنا أن ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ مع هذا البيان التام من يتخذ من المخلوقين أندادا للّه أي : نظراء ومثلاء ، يساويهم في اللّه بالعبادة والمحبّة ، والتعظيم والطاعة . ومن كان بهذه الحالة – بعد إقامة الحجة ، وبيان التوحيد – عُلِم أنه معاند للّه ، مشاق له ، أو معرض عن تدبر آياته والتفكر في مخلوقاته ، فليس له أدنى عذر في ذلك ، بل قد حقت عليه كلمة العذاب .

وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد مع اللّه ، لا يسوونهم بالله في الخلق والرزق والتدبير ، وإنما يسوونهم به في العبادة فيعبدونهم ، ليقربوهم إليه ، وفي قوله : ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾ دليل على أنه ليس للّه ندٌّ وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أندادا له ، تسمية مُجرّدة ، ولفظا فارغا من المعنى ، كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [ سورة الرّعد ٣٣] . ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [ سورة النّجم ٢٣] .

فالمخلوق ليس ندًا للّه لأن اللّه هو الخالق ، وغيره مخلوق ، والرب الرازق ومن عداه مرزوق ، والله هو الغني وأنتم الفقراء ، وهو الكامل من كل الوجوه ، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه ، والله هو النافع الضار ، والمخلوق ليس له من النفع والضر والأمر شيء ، فعلم علما يقينا ، بطلان قول من اتخذ من دون اللّه آلهة وأندادا ، سواء كان ملكا أو نبيا ، أو صالحا ، صنما ، أو غير ذلك ، وأن اللّه هو المستحق للمحبة الكاملة ، والذل التام ، فلهذا مدح اللّه المؤمنين بقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ أي : من أهل الأنداد لأندادهم ، لأنهم أخلصوا محبتهم له ، وهؤلاء أشركوا بها ، ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة ، الذي محبّته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه ، والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئا ، ومحبته عين شقاء العبد وفساده ، وتشتت أمره .

فلهذا توعدهم اللّه بقوله : ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ باتخاذ الأنداد والانقياد لغير رب العباد وظلموا الخلق بصدهم عن سبيل اللّه ، وسعيهم فيما يضرهم . ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ أي : يوم القيامة عيانا بأبصارهم ، ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي : لعلموا علما جازما ، أن القوة والقدرة للّه كلها ، وأن أندادهم ليس فيها من القوة شيء ، فتبيّن لهم في ذلك اليوم ضعفها وعجزها ، لا كما اشتبه عليهم في الدنيا ، وظنوا أن لها من الأمر شيئا ، وأنها تقربهم إليه وتوصلهم إليه ، فخاب ظنهم ، وبطل سعيهم ، وحق عليهم شدة العذاب ، ولم تدفع عنهم أندادهم شيئا ، ولم تغن عنهم مثقال ذرّة من النفع ، بل يحصل لهم الضرر منها ، من حيث ظنوا نفعها .

وتبرأ المَتبوعون من التابعين ، وتقطّعت بينهم الوصَل ، التي كانت في الدنيا ؛ لأنها كانت لغير اللّه ، وعلى غير أمر اللّه ، ومُتعلّقة بالباطل الذي لا حقيقة له ، فاضمحلّت أعمالهم ، وتلاشت أحوالهم ، وتبيّن لهم أنهم كانوا كاذبين ، وأن أعمالهم التي يؤملون نفعها وحصول نتيجتها انقلبت عليهم حسرة وندامة ، وأنهم خالدون في النار لا يخرجون منها أبدا ، فهل بعد هذا الخُسران خُسران؟ ذلك بأنهم اتبعوا الباطل ، فعملوا

العمل الباطل ورجوا غير مرجو ، وتعلقوا بغير متعلق ، فبطلت الأعمال ببطلان متعلقها ، ولما بطلت وقعت الحسرة بما فاتهم من الأمل فيها ، فضرتهم غاية الضرر ، وهذا بخلاف من تعلق بالله الملك الحق المبين ، وأخلص العمل لوجهه ، ورجا نفعه ، فهذا قد وضع الحق في موضعه ، فكانت أعماله حقًّا لتعلقها بالحق ، ففاز بنتيجة عمله ، ووجد جزاءه عند ربه ، غير منقطع كما قال تعالى : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ [ سورة محمد ١] .

وحينئذ يتمنَّى التابعون أن يُرَدُّوا إلى الدنيا فيتبرأوا من متبوعيهم ، بأن يتركوا الشرك بالله ، ويقبلوا على إخلاص العمل لله ، وهيهات ، فات الأمر ، وليس الوقت وقت إمهال وإنظار ، ومع هذا ، فهم كذبة ، فلو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنما هو قول يقولونه ، وأماني يتمنونها ، حَنَقًا وغيظا على المتبوعين لما تبرأوا منهم والذنب ذنبهم ، فرأس المتبوعين على الشر إبليس ، ومع هذا يقول لأتباعه لما قُضي الأمر : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ [ سورة إبراهيم ٢٢] .

[ ١٦٨ : ١٧٠ - ٢] : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ .

هذا خطاب للناس كلهم ، مؤمنهم وكافرهم ، فامتن عليهم بأن أمرهم أن يأكلوا من جميع ما في الأرض ، من حبوب ، وثمار ، وفواكه ، وحيوانات ، حالة كونها ﴿حَلَالًا﴾ أي : مُحَلَّلا لكم تناوله ، ليس بغصب ولا سرقة ، ولا محصَّلا بمعاملة محرَّمة أو على وجه محرَّم ، أو معينًا على محرَّم .

﴿طَيِّبًا﴾ أي : ليس بخبيث ، كالميتة والدم ، ولحم الخنزير ، والخبائث كلها ، ففي هذه الآية ، دليل على أن الأصل في الأعيان الإباحة ، أكلا وانتفاعا ، وأن المُحرَّم نوعان : إما مُحرَّم لذاته ، وهو الخبيث الذي هو ضد الطيب ، وإما محرم لما عَرَضَ له ، وهو المحرم لتعلق حق الله ، أو حق عباده به ، وهو ضد الحلال .

وفيه دليل على أن الأكل بقدر ما يُقيم البنية واجب ، يأثم تاركه لظاهر الأمر ، ولما أمرهم باتباع ما أمرهم به - إذ هو عين صلاحهم - نهاهم عن اتباع ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي : طرقه التي يأمر بها ، وهي جميع المعاصي من كفر ، وفسوق ، وظلم ، ويدخل في ذلك تحريم السوائب ، والحام ، ونحو ذلك ، ويدخل فيه أيضًا تناول المأكولات المُحرَّمة .

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي : ظاهر العداوة ، فلا يريد بأمركم إلا غشكم ، وأن تكونوا من أصحاب السعير ، فلم يكتف ربنا بنهينا عن اتباع خطواته ، حتى أخبرنا - وهو أصدق القائلين - بعداوته الداعية للحذر منه ، ثم لم يكتف بذلك ، حتى أخبرنا بتفصيل ما يأمر به وأنه أقبح الأشياء ، وأعظمها مفسدة فقال : ﴿إِنَّمَا

﴿يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ﴾. أي: الشر الذي يسوء صاحبه فيدخل في ذلك، جميع المعاصي، فيكون قوله: ﴿وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ لأن الفحشاء من المعاصي، ما تناهى قبحه كالزنا وشرب الخمر، والقتل، والقذف، والبخل ونحو ذلك، مما يستفحشه مَنْ له عقل، ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيدخل في ذلك، القول على الله بلا علم، في شرعه، وقدره، فمن وصف الله بغير ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسولُه، أو نفى عنه ما أثبته لنفسه، أو أثبت له ما نفاه عن نفسه، فقد قال على الله بلا علم، ومن زعم أن لله ندا، وأوثانا، تُقَرِّب من عَبَدَها من الله، فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: إن الله أحل كذا، أو حرم كذا، أو أمر بكذا، أو نهى عن كذا، بغير بصيرة، فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: الله خلق هذا الصنف من المخلوقات، للعلة الفلانية بلا بُرهان له بذلك، فقد قال على الله بلا علم، ومن أعظم القول على الله بلا علم، أن يتأول المتأول كلامه، أو كلام رسوله، على معان اصطلح عليها طائفة من طوائف الضلال، ثم يقول: إن الله أرادها، فالقول على الله بلا علم، من أكبر المُحَرَّمات، وأشملها، وأكبر طرق الشيطان التي يدعو إليها، فهذه طرق الشيطان التي يدعو إليها هو وجنوده، ويبذلون مكرهم وخداعهم، على إغواء الخلق بما يقدرون عليه.

وأما الله تعالى، فإنه يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، فلينظر العبد نفسه، مع أي الداعيين هو ومن أي الحزبين؟، أتتبع داعي الله الذي يريد لك الخير والسعادة الدنيوية والأخروية، الذي كل الفلاح بطاعته، وكل الفوز في خدمته، وجميع الأرباح في معاملة المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، أم تتبع داعي الشيطان، الذي هو عدو الإنسان، الذي يريد لك الشر، ويسعى بجهده على إهلاكك في الدنيا والآخرة؟ الذي كل الشر في طاعته وكل الخُسران في ولايته الذي لا يأمر إلا بشر، ولا ينهى إلا عن خير.

ثم أخبر تعالى عن حال المشركين إذا أُمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله - مما تقدم وصفه - رغبوا عن ذلك وقالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ فاكتفوا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا فآباؤهم أجهل الناس، وأشدهم ضلالا وهذه شبهة لرد الحق واهية، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق، ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم، فلو هُدُوا لرشدهم، وحسن قصدهم، لكان الحق هو القصد، ومن جعل الحق قصده، ووازن بينه وبين غيره، تبين له الحق قطعا، واتبعه إن كان مُنصفا. ثم قال تعالى:

[١٧١ - ٢]: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

لمَّا بيَّن تعالى عدم انقيادهم لما جاءت به الرسل، وردهم لذلك بالتقليد، علم من ذلك أنهم غير قابلين للحق، ولا مستجيبين له، بل كان معلوما لكل أحد أنهم لن يزولوا عن عنادهم، أخبر تعالى، أن مثلهم عند دعاء الداعي لهم إلى الإيمان كَمَثَلِ البهائم التي ينعق لها راعيها، وليس لها علم بما يقول راعيها ومناديها، فهم يسمعون مجرد الصوت، الذي تقوم به عليهم الحجة، ولكنهم لا يفقهونه فقها ينفعهم، فلهذا كانوا صما، لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول، عميا، لا ينظرون نظر اعتبار، بكما، فلا ينطقون بما فيه خير لهم.

والسبب الموجب لذلك كُلِه ، أنه ليس لهم عقل صحيح ، بل هم أسفه السفهاء ، وأجهل الجهلاء . فهل يستريب العاقل ، أن من دُعِيَ إلى الرشاد ، وذيد عن الفساد ، ونُهِي عن اقتحام العذاب ، وأُمِر بما فيه صلاحه وفلاحه ، وفوزه ، ونعيمه فعصى الناصح ، وتولى عن أمر ربه ، واقتحم النار على بصيرة ، واتبع الباطل ، ونبذ الحق - أن هذا ليس له مسكة من عقل ، وأنه لو اتصف بالمكر والخديعة والدهاء ، فإنه من أسفه السفهاء .

[ ١٧٢ : ١٧٣ - ٢ ] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾

هذا أمر للمؤمنين خاصة ، بعد الأمر العام ، وذلك أنهم هم المنتفعون على الحقيقة بالأوامر والنواهي ، بسبب إيمانهم ، فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق ، والشكر لله على إنعامه ، باستعمالها بطاعته ، والتقوي بها على ما يوصل إليه ، فأمرهم بما أمر به المُرسلين في قوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ [ سُورة المؤمنون ٥١] . فالشكر في هذه الآية ، هو العمل الصالح ، وهنا لم يقل « حلالا » لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق خالصة من التبعة ، ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له .

وقوله : ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ أي : فاشكروه ، فدل على أن من لم يشكر الله لم يعبده وحده ، كما أن من شكره فقد عبده ، وأتى بما أمر به ، ويدل أيضًا على أن أكل الطيب ، سبب للعمل الصالح وقبوله ، والأمر بالشكر ، عقيب النعم ؛ لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة ، ويجلب النعم المفقودة كما أن الكفر ينفر النعم المفقودة ويزيل النعم الموجودة .

ولما ذكر تعالى إباحة الطيبات ذكر تحريم الخبائث فقال : ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ﴾ وهي : ما مات بغير تذكية شرعية ، لأن الميتة خبيثة مضرة لرداءتها في نفسها ، ولأن الأغلب أن تكون عن مرض ، فيكون زيادة ضرر واستثنى الشارع من هذا العموم ، ميتة الجراد ، وسمك البحر ، فإنه حلال طيب .[٢١]

﴿وَٱلدَّمَ﴾ أي : المسفوح كما قُيِّد في الآية الأخرى .

﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ أي : ذبح لغير الله ، كالذي يذبح للأصنام والأوثان من الأحجار ، والقبور ونحوها ، وهذا المذكور غير حاصر للمُحرَّمات ، جيء به لبيان أجناس الخبائث المدلول عليها بمفهوم قوله : ﴿طَيِّبَٰتِ﴾ فعموم المحرمات ، تستفاد من الآية السابقة ، من قوله : ﴿حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ كما تقدَّم .

---

(٢١) * هذا معنى حديث أخرجه ابن ماجه : ( أبواب الصيد ومتعلقاته/ باب : صيد الحيتان/ ح ٣٢١٨ ) ، ( أبواب الأطعمة / باب : الكبد والطحال/ ح ٣٣١٤ ) . وأحمد : (٢ / ٩٧) .

عن عبد الله بن عمر أنّ رسول ﷺ قال : أُحلّت لنا ميتتان و دمان ، فأمّا الميتتان فالحوت والجراد ، وأمّا الدّمان فالكبد والطُّحال .

والحديث لا يصح مرفوعًا ، وإنّما المحفوظ فيه الوقف . قاله : أبو حاتم ، وأبو زُرعة ، والدارقُطني ، والبيهقي .

وإنما حرّم علينا هذه الخبائث ونحوها لُطفا بنا وتنزيها عن المضر ، ومع هذا ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ أي : أُلجئ إلى المحرم ، بجوع وعدم ، أو إكراه ، ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي : غير طالب للمحرم مع قدرته على الحلال أو مع عدم جوعه ، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي : متجاوز الحد في تناول ما أبيح له ، اضطرارا ، فمن اضطر وهو غير قادر على الحلال ، وأكل بقدر الضرورة فلا يزيد عليها ، ﴿فَلَآ إِثْمَ﴾ أي : جناح عليه ، وإذا ارتفع الجناح الإثم رجع الأمر إلى ما كان عليه ، والإنسان بهذه الحالة مأمور بالأكل بل منهي أن يلقي بيده إلى التهلكة وأن يقتل نفسه . فيجب ، إذًا عليه الأكل ، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات ، فيكون قاتلا لنفسه .

وهذه الإباحة والتوسعة من رحمته تعالى بعباده ، فلهذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة فقال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

ولما كان الحل مشروطا بهذين الشرطين ، وكان الإنسان في هذه الحالة ربما لا يستقصي تمام الاستقصاء في تحقيقها – أخبر تعالى أنه غفور ، فيغفر له ما أخطأ فيه في هذه الحال ، خصوصا وقد غلبته الضرورة وأذهبت حواسه المشقة .

وفي هذه الآية دليل على القاعدة المشهورة : « الضرورات تبيح المحظورات » فكل محظور اضْطُر إليه الإنسان فقد أباحه له ، الملك الرحمن . « فله الحمد والشكر ، أولا وآخرا ، وظاهرا وباطنا » .

[ ١٧٤ : ١٧٦ – ٢ ] : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ .

هذا وعيد شديد لمن كتم ما أنزل اللّه على رسله ، من العلم الذي أخذ اللّه الميثاق على أهله ، أن يبينوه للناس ولا يكتموه ، فمن تعوض عنه بالحطام الدنيوي ، ونبذ أمر اللّه ، فأولئك : ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ لأن هذا الثمن الذي اكتسبوه ، إنما حصل لهم بأقبح المكاسب وأعظم المحرمات ، فكان جزاؤهم من جنس عملهم ، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بل قد سخط عليهم وأعرض عنهم ، فهذا أعظم عليهم من عذاب النار ، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي : لا يطهرهم من الأخلاق الرذيلة ، وليس لهم أعمال تصلح للمدح والرضا والجزاء عليها ، وإنما لم يزكهم لأنهم فعلوا أسباب عدم التزكية التي أعظم أسبابها العمل بكتاب اللّه ، والاهتداء به ، والدعوة إليه ، فهؤلاء نبذوا كتاب اللّه وأعرضوا عنه واختاروا الضلالة على الهدى ، والعذاب على المغفرة ، فهؤلاء لا يصلح لهم إلا النار ، فكيف يصبرون عليها ، وأنى لهم الجلد عليها؟ .

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ، وهو مجازاته بالعدل ، ومنعه أسباب الهداية ، ممن أباها واختار سواها .

﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ ومن الحق ، مجازاة المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته . وأيضا ففي قوله : ﴿نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ ما يدل على أن اللّه أنزله لهداية خلقه ، وتبيين الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، فمن صرفه عن مقصوده فهو حقيق بأن يجازى بأعظم العقوبة .

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي : وإن الذين اختلفوا في الكتاب ، فآمنوا ببعضه

وكفروا ببعضه أو الذين حرفوه وصرفوه على أهوائهم ومراداتهم ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ أي : محادة ، ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الحق لأنهم قد خالفوا الكتاب الذي جاء بالحق الموجب للاتفاق وعدم التناقض ، فمرج أمرهم وكثر شقاقهم ، وترتب على ذلك افتراقهم ، بخلاف أهل الكتاب الذين آمنوا به ، وحكّموه في كل شيء ، فإنهم اتّفقوا وارتفقوا بالمحبّة والاجتماع عليه .

وقد تضمّنت هذه الآيات الوعيد للكاتمين لما أنزل الله المؤثرين عليه عرض الدنيا بالعذاب والسخط ، وأن الله لا يطهرهم بالتوفيق ولا بالمغفرة ، وذكر السبب في ذلك بإيثارهم الضلالة على الهدى ، فترتب على ذلك اختيار العذاب على المغفرة ، ثم توجع لهم بشدة صبرهم على النار ، لعملهم بالأسباب التي يعلمون أنها موصلة إليها ، وأن الكتاب مُشتمل على الحق الموجب للاتفاق عليه ، وعدم الافتراق ، وأن كل من خالفه ، فهو في غاية البُعد عن الحق والمُنازعة والمُخاصمة ، والله أعلم .

[١٧٧ - ٢] : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي : ليس هذا هو البر المقصود من العباد ، فيكون كثرة البحث فيه والجدال من العناء الذي ليس تحته إلا الشقاق والخلاف ، وهذا نظير قوله ﷺ : « ليس الشديد بالصُّرَعَةُ ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »[٢٢] ، ونحو ذلك . ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ أي : بأنه إله واحد ، موصوف بكل صفة كمال ، مُنزّه عن كل نقص .

﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وهو كل ما أخبر الله به في كتابه أو أخبر به الرسول ﷺ ، مما يكون بعد الموت .

﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾ الذين وصفهم الله لنا في كتابه ، ووصفهم رسوله ﷺ .

﴿وَالْكِتَابِ﴾ أي : جنس الكتب التي أنزلها الله على رسوله ، وأعظمها القرآن ، فيؤمن بما تضمنه من الأخبار والأحكام ، ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ عموما ، خصوصا خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ .

﴿وَآتَى الْمَالَ﴾ وهو كل ما يتموله الإنسان من مال قليلا كان أو كثيرا ، أي : أعطى المال ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ أي : حب المال ، بيّن به أن المال محبوب للنفوس ، فلا يكاد يخرجه العبد . فمن أخرجه مع حبه له تقربا إلى الله تعالى كان هذا برهانا لإيمانه ، ومن إيتاء المال على حبه أن يتصدق وهو صحيح شحيح ، يأمل الغنى ويخشى الفقر ، وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلة كانت أفضل ، لأنه في هذه الحال ، يحب إمساكه ، لما يتوهّمه من العدم والفقر .

وكذلك إخراج النفيس من المال ، وما يحبه من ماله كما قال تعالى : ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا

---

(٢٢) * متفق عليه . من حديث أبي هُريرة رضي الله عنه . أخرجه البخاري : ( كتاب الأدب/ باب : الحذر من الغضب/ ح ٦١١٤) . ومسلم : ( كتاب البرّ والصّلة / باب : فضل من يملك نفسه عند الغضب/ ح ١٠٧، ١٠٨ ) .

﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [سورة آل عمران ٩٢] . فكل هؤلاء ممّن آتى المال على حبّه .

ثم ذكر المُنْفَق عليهم ، وهم أولى الناس ببرك وإحسانك ، من الأقارب الذين تتوجع لمصابهم وتفرح بسرورهم الذين يتناصرون ويتعاقلون ، فمن أحسن البر وأوفقه تعاهد الأقارب بالإحسان المالي والقولي على حسب قربهم وحاجتهم . ومن اليتامى الذين لا كاسب لهم ، وليس لهم قوة يستغنون بها ، وهذا من رحمته تعالى بالعباد الدالة على أنه تعالى أرحم بهم من الوالد بولده ، فالله قد أوصى العباد وفرض عليهم في أموالهم الإحسان إلى من فقد آباؤهم ليصيروا كمن لم يفقد والديه ، ولأن الجزاء من جنس العمل فمن رحم يتيم غيْره ، رُحِمَ يتيمهُ .

﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ وهم الذين أسكنتهم الحاجة ، وأذلهم الفقر فلهم حق على الأغنياء ، بما يدفع مسكنتهم أو يخففها بما يقدرون عليه ، وبما يتيسر .

﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو الغريب المنقطع به في غير بلده ، فحث الله عباده على إعطائه من المال ، ما يعينه على سفره ، لكونه مظنة الحاجة وكثرة المصارف ، فعلى من أنعم الله عليه بوطنه وراحته ، وخَوَّلَه من نعمته ، أن يرحم أخاه الغريب ، الذي بهذه الصفة ، على حسب استطاعته ، ولو بتزويده أو إعطائه آلةً لسفره ، أو دفع ما ينوبه من المظالم وغيرها .

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ أي : الذين تعرض لهم حاجة من الحوائج ، توجب السؤال ، كمن ابتلي بأرش جناية ، أو ضريبة عليه من ولاة الأمور ، أو يسأل الناس لتعمير المصالح العامة ، كالمساجد ، والمدارس ، والقناطر ، ونحو ذلك ، فهذا له حق وإن كان غنيا .

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ فيدخل فيه العتق والإعانة عليه . وبذل مال للمكاتب ليوفّي سيده ، وفداء الأسرى عند الكفار أو عند الظلمة .

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قد تقدم مرارا ، أن الله تعالى يقرن بين الصلاة والزكاة ، لكونهما أفضل العبادات وأكمل القربات ، عبادات قلبية ، وبدنية ومالية وبهما يوزن الإيمان ، ويعرف ما مع صاحبه من الإيقان .

﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ والعهد : هو الالتزام بإلزام الله أو إلزام العبد لنفسه . فدخل في ذلك حقوق الله كلها لكون الله ألزم بها عباده والتزموها ودخلوا تحت عهدتها ، ووجب عليهم أداؤها وحقوق العباد ، التي أوجبها الله عليهم ، والحقوق التي التزمها العبد كالأيمان والنذور ، ونحو ذلك .

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ﴾ أي : الفقر ، لأن الفقير يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة ، لكونه يحصل له من الآلام القلبيّة والبدنية المستمرة ما لا يحصل لغيره . فإنْ تنعم الأغنياء بما لا يقدر عليه تألّم ، وإن جاع أو جاعت عياله تألّم ، وإن أكل طعاما غير موافق لهواه تألّم ، وإن عرى أو كاد تألم ، وإن نظر إلى ما بين يديه وما يتوهمه من المُستقبل الذي يستعد له تألم ، وإن أصابه البرد الذي لا يقدر على دفعه تألم . فكل هذه ونحوها مصائب يؤمر بالصبر عليها والاحتساب ورجاء الثواب من الله عليها .

﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي : المرض على اختلاف أنواعه ، من حمى وقروح ورياح ووجع عضو حتى الضرس

والإصبع ونحو ذلك ، فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك ؛ لأن النفس تضعف والبدن يألم وذلك في غاية المشقَّة على النفوس خُصوصا مع تطاول ذلك ، فإنه يؤمر بالصبر ، احتسابا لثواب اللَّه تعالى .

﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ أي : وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم ، لأن الجلاد يشق غاية المشقَّة على النفس ، ويجزع الإنسان من القتل أو الجراح أو الأسر فاحتيج إلى الصبر في ذلك احتسابا ورجاء لثواب اللَّه « تعالى » الذي منه النصر والمعونة التي وعدها الصابرين .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي : المُتَّصِفون بما ذكر من العقائد الحسنة والأعمال التي هي آثار الإيمان وبرهانه ونوره والأخلاق التي هي جمال الإنسان وحقيقة الإنسانية ، فأولئك هم ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ في إيمانهم ، لأن أعمالهم صَدَّقت إيمانهم ، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ لأنهم تركوا المحظور ، وفعلوا المأمور ؛ لأن هذه الأُمور مُشتملة على كل خصال الخير ، تضمُّنا ولزوما ، لأن الوفاء بالعهد يدخل فيه الدين كله ، ولأن العبادات المنصوص عليها في هذه الآية أكبر العبادات ومن قام بها كان بما سواها أقوم ، فهؤلاء هم الأبرار الصادقون المُتَّقون .

وقد عُلِم ما رتَّب اللَّه على هذه الأمور الثلاثة من الثواب الدنيوي والأخروي مما لا يمكن تفصيله في مثل هذا الموضع .

[ ١٧٨ : ١٧٩ – ٢ ] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

يمتن تعالى على عباده المؤمنين ، بأنه فرض عليهم ﴿ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾ أي : المساواة فيه ، وأن يُقتل القاتل على الصِّفة التي قتل عليها المقتول ، إقامة للعدل والقسط بين العباد .

وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم ، حتى أولياء القاتل حتى القاتل بنفسه إعانة ولي المقتول إذا طلب القصاص وتمكينه من القاتل ، وأنه لا يجوز لهم أن يحولوا بين هذا الحد ، ويمنعوا الولي من الاقتصاص كما عليه عادة الجاهلية ومن أشبههم من إيواء المحدثين .

ثم بيَّن تفصيل ذلك فقال : ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾ يدخل بمنطقوقها ، الذكر بالذكر ، ﴿وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ والأنثى بالذكر والذكر بالأنثى فيكون منطوقها مقدما على مفهوم قوله : « الأنثى بالأنثى » مع دلالة السُّنَّة على أن الذكر يقتل بالأنثى وخرج من عموم هذا الأبوان وإن علوا فلا يقتلان بالولد لورود السُّنَّة بذلك[٢٣] ، مع أن

(٢٣) * وقد ثبت ذلك فى السُّنَّة من أكثر من وجه :
– عن عمر بن الخطاب . أخرجه أحمد : ( ١ / ١٦، ٢٢، ٤٩ ) . والترمذي : ( كتاب الديات/ باب : ما جاء في الرجل يقتل ابنه يُقاد منه أم لا ؟ /ح ١٤٠٠ ) . وابن ماجه : ( كتاب الديات/ باب : لا يُقتل الوالد بولده/ح ٢٦٦٢ ) . بلفظ : لا يقاد – لا يقتل – الوالد بالولد .
=

في قوله : ﴿ٱلْقِصَاصُ﴾ ما يدل على أنه ليس من العدل أن يقتل الوالد بولده ، ولأن ما في قلب الوالد من الشفقة والرحمة ما يمنعه من القتل لولده إلا بسبب اختلال في عقله أو أذية شديدة جدًّا من الولد له .

وخرج من العموم أيضًا الكافر بالسُّنَّة [٢٤]، مع أن الآية في خطاب المؤمنين خاصة . وأيضا فليس من العدل أن يقتل ولي الله بعدوه ، والعبد بالعبد ذكرا كان أو أنثى ، تساوت قيمتهما أو اختلفت ، ودل بمفهومها على أن الحر لا يقتل بالعبد لكونه غير مساو له ، والأنثى بالأنثى أخذ بمفهومها بعض أهل العلم فلم يجز قتل الرجل بالمرأة ، وتقدم وجه ذلك .

وفي هذه الآية دليل على أن الأصل وجوب القود في القتل ، وأن الدِّية بدل عنه ، فلهذا قال : ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ أي : عفا ولي المقتول عن القاتل إلى الدِّية ، أو عفا بعض الأولياء ، فإنه يسقط القصاص وتجب الدية وتكون الخيرة في القود واختيار الدية إلى الولي . فإذا عفا عنه وجب على الولي ، أي : ولي المقتول أن يتبع القاتل ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ من غير أن يشق عليه ولا يحمله ما لا يطيق ، بل يحسن الاقتضاء والطلب ولا يحرجه .

وعلى القاتل ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ من غير مطل ولا نقص ، ولا إساءة فعليَّة أو قوليَّة ، فهل جزاء الإحسان إليه بالعفو إلا الإحسان بحسن القضاء ، وهذا مأمور به في كل ما ثبت في ذمم الناس للإنسان ، مأمور من له الحق بالاتباع بالمعروف ، ومن عليه الحق بالأداء بإحسان .

وفي قوله : ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ﴾ ترقيق وحث على العفو إلى الدِّية ، وأحسن من ذلك العفو مجانا .

وفي قوله : ﴿أَخِيهِ﴾ دليل على أن القاتل لا يكفر ، لأن المراد بالأخوة هنا أخوة الإيمان فلم يخرج بالقتل منها ، ومن باب أولى أن سائر المعاصي التي هي دون الكفر ، لا يكفر بها فاعلها ، وإنما ينقص بذلك إيمانه . وإذا عفا أولياء المقتول أو عفا بعضهم ، احتقن دم القاتل ، وصار معصوما منهم ومن غيرهم ، ولهذا قال : ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي : بعد العفو ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي : في الآخرة ، وأما قتله وعدمه ، فيؤخذ مما تقدم ، لأنه قتل مكافئا له ، فيجب قتله بذلك . وأما من فسر العذاب الأليم بالقتل فإن الآية تدل على أنه يتعين قتله ، ولا يجوز العفو عنه ، وبذلك قال بعض العلماء والصحيح الأول ، لأن جنايته لا تزيد على جناية غيره .

ثم بيَّن تعالى حكمته العظيمة في مشروعية القصاص فقال : ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ أي : تنحقن

---

= وصحّحه العلامة الألباني – رحمه الله – فى صحيح الجامع برقم ( ٧٧٤٤، ٧٧٤٩) .

– عن ابن عباس . أخرجه الترمذي : ( كتاب الديات / باب : ما جاء في الرجل يقتل ابنه يقاد منه أم لا/ ح ١٤٠١ ) . وابن ماجه : ( كتاب الديات/ باب : لا يقتل الوالد بولده/ح ٢٦٦١) .

بلفظ : لا تُقام الحدود في المساجد ، ولا يُقتل الوالد بالولد .

وصحّحه العلامة الألباني – رحمه الله – فى صحيح الجامع برقم : ( ٧٧٤٩ ) .

(٢٤) * عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ ، قَالَ قُلْتُ لِعَلِيٍّ هَلْ عِنْدَكُمْ كِتَابٌ قَالَ لَا ، إِلَّا كِتَابُ اللَّهِ ، أَوْ فَهْمٌ أُعْطِيَهُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ ، أَوْ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ . قَالَ قُلْتُ فَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ قَالَ الْعَقْلُ ، وَفَكَاكُ الأَسِيرِ ، وَلَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ . أخرجه البُخاري في مواضع كثيرة من صحيحه منها : ( كتاب العلم / باب : كتابة العلم / ح ١١١ ) . وفي الباب عن ابن عباس ، وعبد الله بن عمرو ، وعائشة .

بذلك الدماء وتنقمع به الأشقياء ، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل ، لا يكاد يصدر منه القتل ، وإذا رئي القاتل مقتولا انذعر بذلك غيره وانزجر ، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل ، لم يحصل انكفاف الشر ، الذي يحصل بالقتل ، وهكذا سائر الحدود الشرعية فيها من النكاية والانزجار ما يدل على حكمة الحكيم الغفار ، ونكّر « الحياة » لإفادة التعظيم والتكثير . ولما كان هذا الحكم ، لا يعرف حقيقته ، إلا أهل العقول الكاملة والألباب الثقيلة ، خصهم بالخطاب دون غيرهم وهذا يدل على أن اللّٰه تعالى يحب من عباده أن يعملوا أفكارهم وعقولهم ، في تدبر ما في أحكامه من الحكم والمصالح الدالة على كماله وكمال حكمته وحمده وعدله ورحمته الواسعة ، وأن من كان بهذه المثابة ، فقد استحق المدح بأنه من ذوي الألباب الذين وُجّه إليهم الخطاب ، وناداهم رب الأرباب ، وكفى بذلك فضلا وشرفا لقوم يعقلون .

وقوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وذلك أن من عرف ربه وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة ، أوجب له ذلك أن ينقاد لأمر اللّٰه ، ويُعَظِّم معاصيه فيتركها ، فيستحق بذلك أن يكون من المتقين .

[ ١٨٠ : ١٨٢ - ٢] : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

أي : فرض اللّٰه عليكم ، يا معشر المؤمنين ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي : أسبابه ، كالمرض المشرف على الهلاك ، وحضور أسباب المهالك ، وكان قد ﴿تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي : مالا وهو المال الكثير عرفا ، فعليه أن يوصي لوالديه وأقرب الناس إليه بالمعروف ، على قدر حاله من غير سرف ولا اقتصار على الأبعد ، دون الأقرب بل يرتبهم على القرب والحاجة ولهذا أتى فيه بأفعل التفضيل .

وقوله : ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ دل على وجوب ذلك لأن الحق هو : الثابت ، وقد جعله اللّٰه من موجبات التقوى .

واعلم أن جمهور المفسرين يرون أن هذه الآية منسوخة بآية المواريث ، وبعضهم يرى أنها في الوالدين والأقربين غير الوارثين ، مع أنه لم يدل على التخصيص بذلك دليل ، والأحسن في هذا أن يقال : إن هذه الوصية للوالدين والأقربين مجملة ردها اللّٰه تعالى إلى العرف الجاري .

ثم إن اللّٰه تعالى قَدَّر للوالدين الوارثَين وغيرهما من الأقارب الوارثين هذا المعروف في آيات المواريث ، بعد أن كان مجملا ، وبقي الحكم فيمن لم يرثوا من الوالدين الممنوعين من الإرث وغيرهما ممن حجب بشخص أو وصف ، فإن الإنسان مأمور بالوصية لهؤلاء وهم أحق الناس ببره ، وهذا القول تتفق عليه الأمة ، ويحصل به الجمع بين القولين المتقدمين ، لأن كُلًّا من القائلين بهما كل منهم لحظ ملحظا ، واختلف المورد .

فبهذا الجمع ، يحصل الاتفاق والجمع بين الآيات ، لأنه مهما أمكن الجمع كان أحسن من ادعاء النسخ الذي لم يدل عليه دليل صحيح .

ولما كان الموصي قد يمتنع من الوصية لما يتوهمه أن من بعده قد يبدل ما وصى به قال تعالى : ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُۥ﴾ أي : الإيصاء للمذكورين أو غيرهم ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ﴾ أي : بعدما عقله ، وعرف طرقه وتنفيذه ، ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ وإلا فالموصي وقع أجره على الله ، وإنما الإثم على المُبدِّل المُغيِّر .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع سائر الأصوات ، ومنه سماعه لمقالة الموصي ووصيته ، فينبغي له أن يراقب من يسمعه ويراه ، وأن لا يجور في وصيته ، ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيته ، وعليم بعمل الموصَ إليه ، فإذا اجتهد الموصي ، وعلم الله من نيته ذلك ، أثابه ولو أخطأ ، وفيه التحذير للموصى إليه من التبديل ، فإن الله عليم به ، مطلع على ما فعله ، فليحذر من الله ، هذا حكم الوصية العادلة .

وأما الوصية التي فيها حيف وجنف ، وإثم ، فينبغي لمن حضر الموصِ وقت الوصية بها أن ينصحه بما هو الأحسن والأعدل ، وأن ينهاه عن الجَوْر والجنف ، وهو : الميل بها عن خطأ من غير تعمد ، والإثم : وهو التعمد لذلك . فإن لم يفعل ذلك ، فينبغي له أن يصلح بين الموصى إليهم ، ويتوصل إلى العدل بينهم على وجه التراضي والمصالحة ، ووعظهم بتبرئة ذمة ميتهم فهذا قد فعل معروفا عظيما وليس عليهم إثم ، كما على مُبدِّل الوصية الجائزة ، ولهذا قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ أي : يغفر جميع الزلات ، ويصفح عن التبعات لمن تاب إليه ، ومنه مغفرته لمن غض من نفسه ، وترك بعض حقه لأخيه ، لأن من سامح ، سامحه الله ، غفور لميتهم الجائر في وصيته ، إذا احتسبوا بمسامحة بعضهم بعضا لأجل براءة ذمته ، رحيم بعباده ، حيث شرع لهم كل أمر به يتراحمون ويتعاطفون ، فدلت هذه الآيات على الحث على الوصية ، وعلى بيان من هي له ، وعلى وعيد المبدل للوصية العادلة ، والترغيب في الإصلاح في الوصية الجائرة .

[ ١٨٣ : ١٨٥ - ٢] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

يُخبر تعالى بما منّ به على عباده بأنه فرض عليهم الصيام كما فرضه على الأمم السابقة ، لأنه من الشرائع والأوامر التي هي مصلحة للخلق في كل زمان . وفيه تنشيط لهذه الأمة ، بأنه ينبغي لكم أن تنافسوا غيركم في تكميل الأعمال والمُسارعة إلى صالح الخصال وأنه ليس من الأمور الثقيلة ، التي اختصيتم بها .

ثم ذكر تعالى حكمته في مشروعية الصيام فقال : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه . فمما اشتمل عليه من التقوى : أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها التي تميل إليها نفسه متقربا بذلك إلى الله راجيا بتركها ثوابه فهذا من التقوى .

ومنها : أن الصائم يدرب نفسه على مراقبة الله تعالى ، فيترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه لعلمه باطلاع الله عليه .

ومنها : أن الصيام يضيق مجاري الشيطان فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم فبالصيام يضعف نفوذه وتقل منه المعاصي .

ومنها : أن الصائم في الغالب تكثر طاعته والطاعات من خصال التقوى .

ومنها : أن الغني إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك ، مواساة الفقراء المعدمين ، وهذا من خصال التقوى .

ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام ، أخبر أنه أيام معدودات ، أي : قليلة في غاية السهولة . ثم سهل تسهيلا آخر . فقال : ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وذلك للمشقة في الغالب رخص الله لهما في الفطر . ولما كان لا بد من حصول مصلحة الصيام لكل مؤمن أمرهما أن يقضياه في أيام أخر إذا زال المرض وانقضى السفر وحصلت الراحة .

وفي قوله : ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ﴾ فيه دليل على أنه يقضي عدد أيام رمضان ، كاملا كان ، أو ناقصا ، وعلى أنه يجوز أن يقضي أياما قصيرة باردة ، عن أيام طويلة حارة كالعكس .

وقوله : ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي : يطيقون الصيام ﴿فِدْيَةٌ﴾ عن كل يوم يفطرونه ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ وهذا في ابتداء فرض الصيام لما كانوا غير معتادين للصيام وكان فرضه حتما فيه مشقة عليهم ، درَّجهم الرب الحكيم بأسهل طريق ، وخيَّر المطيق للصوم بين أن يصوم وهو أفضل أو يطعم ، ولهذا قال : ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ . ثم بعد ذلك ، جعل الصيام حتما على المطيق ، وغير المطيق يفطر ويقضيه في أيام أخر وقيل : ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي : يتكلَّفونه ، ويشق عليهم مشقة غير محتملة كالشيخ الكبير فدية عن كل يوم مسكين وهذا هو الصحيح .

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي : الصوم المفروض عليكم هو شهر رمضان الشهر العظيم الذي قد حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم ، وهو القرآن الكريم ، المشتمل على الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية ، وتبيين الحق بأوضح بيان ، والفرقان بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، وأهل السعادة وأهل الشقاوة .

فحقيق بشهر هذا فضله وهذا إحسان الله عليكم فيه ، أن يكون موسما للعباد مفروضا فيه الصيام .

فلما قرَّره ، وبين فضيلته ، وحكمة الله تعالى في تخصيصه قال : ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ هذا فيه تعيين الصيام على القادر الصحيح الحاضر .

ولما كان النسخ للتخيير بين الصيام والفداء خاصة أعاد الرخصة للمريض والمسافر ، لئلا يتوهم أن الرخصة أيضًا منسوخة ، فقال : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ أي : يريد الله تعالى أن ييسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير ويسهلها أشد تسهيل ، ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية السهولة في أصله .

وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله سهَّله تسهيلا آخر ، إما بإسقاطه أو تخفيفه بأنواع التخفيفات .

وهذه جملة لا يمكن تفصيلها لأن تفاصيلها جميع الشرعيات ويدخل فيها جميع الرخص والتخفيفات. ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ وهذا - والله أعلم - لئلا يتوهم متوهم أن صيام رمضان يحصل المقصود منه ببعضه، دفع هذا الوهم بالأمر بتكميل عدته، ويشكر الله تعالى عند إتمامه على توفيقه وتسهيله وتبيينه لعباده وبالتكبير عند انقضائه ويدخل في ذلك التكبير عند رؤية هلال شوال إلى فراغ خطبة العيد.

[١٨٦ - ٢]: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

هذا جواب سؤال، سأل النبيَّ ﷺ بعضُ أصحابه فقالوا: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾[٢٥]، لأنه تعالى الرقيب الشهيد المطلع على السر وأخفى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور فهو قريب أيضًا من داعيه، بالإجابة، ولهذا قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ والدعاء نوعان: دعاء عبادة ودعاء مسألة.

والقرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق.

فمن دعا ربه بقلب حاضر ودعاء مشروع ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصا إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية والإيمان به الموجب للاستجابة، فلهذا قال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي: يحصل لهم الرشد الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة. ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره سبب لحصول العلم كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [سورة الأنفال ٢٩].

ثم قال تعالى: [١٨٧ - ٢]: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

كان في أول فرض الصيام يحرم على المسلمين في الليل بعد النوم الأكل والشرب والجماع فحصلت المشقَّة لبعضهم فخفَّف الله تعالى عنهم ذلك وأباح في ليالي الصيام كلها الأكل والشرب والجماع، سواء نام أو لم ينم، لكونهم يختانون أنفسهم بترك بعض ما أمروا به.

---

(٢٥) * أخرجه الطَّبري في «تفسيره» ٢/ ٩٢، وأبي الشيخ في «العظمة» ص ٧٧ح ١٩٠.
وفي سنده: جرير بن عبد الحميد، ثقة، صحيح الكتاب، كان في آخر عمره يهم من حفظه.
وقال السّيوطي في «لباب النقول»: (أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو الشيخ وغيرهم، من طرق عن جرير بن عبد الحميد، وعبدة السجستاني، عن الصلت بن حكيم بن معاوية بن حيدة، عن أبيه عن جده قال: ... الحديث. وأورده مرسلا عن الحسن البصري، كما في المصنف لعبد الرزاق) .اهـ

﴿فَتَابَ﴾ الله ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بأن وسع لكم أمرا كان – لولا توسعته – موجبا للإثم ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ ما سلف من التخوّن .

﴿فَالْـَٔنَ﴾ بعد هذه الرخصة والسعة من الله ﴿بَٰشِرُوهُنَّ﴾ وطأ وقبلة ولمسا وغير ذلك .

﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي : انووا في مباشرتكم لزوجاتكم التقرب إلى الله تعالى والمقصود الأعظم من الوطء ، وهو حُصُول الذُّرِّيَّة وإعفاف فرجه وفرج زوجته وحصول مقاصد النكاح .

ومما كتب الله لكم ليلة القدر الموافقة لليالي صيام رمضان ، فلا ينبغي لكم أن تشتغلوا بهذه اللذة عنها وتضيعوها ، فاللذة مدركة وليلة القدر إذا فاتت لم تدرك .

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ هذا غاية للأكل والشرب والجماع ، وفيه أنه إذا أكل ونحوه شاكا في طلوع الفجر فلا بأس عليه .

وفيه : دليل على استحباب السحور للأمر ، وأنه يستحب تأخيره أخذا من معنى رخصة الله وتسهيله على العباد .

وفيه أيضًا دليل على أنه يجوز أن يدركه الفجر وهو جنب من الجماع قبل أن يغتسل ويصح صيامه لأن لازم إباحة الجماع إلى طلوع الفجر ، أن يدركه الفجر وهو جنب ، ولازم الحق حق .

﴿ثُمَّ﴾ إذا طلع الفجر ﴿أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ﴾ أي : الإمساك عن المفطرات ﴿إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ وهو غروب الشمس ولما كان إباحة الوطء في ليالي الصيام ليست إباحته عامة لكل أحد فإن المعتكف لا يحل له ذلك ، استثناه بقوله : ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ أي : وأنتم مُتَّصِفون بذلك ، ودلّت الآية على مشروعية الاعتكاف وهو لزوم المسجد لطاعة الله تعالى ، وانقطاعا إليه ، وأن الاعتكاف لا يصح إلا في مسجد .

ويستفاد من تعريف المساجد ، أنها المساجد المعروفة عندهم وهي التي تقام فيها الصلوات الخمس .

وفيه أن الوطء من مفسدات الاعتكاف .

﴿تِلْكَ﴾ المذكورات – وهو تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوه من المفطرات في الصيام وتحريم الفطر على غير المعذور وتحريم الوطء على المعتكف ، ونحو ذلك من المُحرَّمات ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ التي حدَّها لعباده ، ونهاهم عنها ، فقال : ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أبلغ من قوله : « فلا تفعلوها » لأن القربان يشمل النهي عن فعل المُحرَّم بنفسه ، والنهي عن وسائله الموصِّلة إليه . والعبد مأمور بترك المُحرَّمات ، والبعد منها غاية ما يمكنه ، وترك كل سبب يدعو إليها ، وأما الأوامر فيقول الله فيها : ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [ سورة البقرة ٢٢٩] . فينهى عن مجاوزتها .

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي : بيَّن « الله » لعباده الأحكام السابقة أتم تبيين ، وأوضحها لهم أكمل إيضاح . ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فإنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه ، وإذا تبيَّن لهم الباطل اجتنبوه ، فإن الإنسان قد يفعل المُحرَّم على وجه الجهل بأنه مُحرَّم ، ولو علم تحريمه لم يفعله ، فإذا بين الله للناس آياته ، لم يبق لهم عذر ولا حجة ، فكان ذلك سببا للتقوى .

[١٨٨ - ٢] : ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

أي : ولا تأخذوا أموالكم أي : أموال غيركم ، أضافها إليهم ، لأنه ينبغي للمسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويحترم ماله كما يحترم ماله ؛ ولأن أكله لمال غيره يجرئ غيره على أكل ماله عند القدرة . ولما كان أكلها نوعين : نوعا بحق ، ونوعا بباطل ، وكان المُحرم إنّما هو أكلها بالباطل ، قيّده تعالى بذلك ، ويدخل في ذلك أكلها على وجه الغصب والسرقة والخيانة في وديعة أو عارية ، أو نحو ذلك ، ويدخل فيه أيضا ، أخذها على وجه المعاوضة ، بمعاوضة مُحرّمة ، كعقود الربا ، والقمار كلها ، فإنها من أكل المال بالباطل ، لأنه ليس في مقابلة عوض مباح ، ويدخل في ذلك أخذها بسبب غش في البيع والشراء والإجارة ، ونحوها ، ويدخل في ذلك استعمال الأجراء وأكل أجرتهم ، وكذلك أخذهم أجرة على عمل لم يقوموا بواجبه ، ويدخل في ذلك أخذ الأجرة على العبادات والقُربات التي لا تصح حتى يقصد بها وجه الله تعالى ، ويدخل في ذلك الأخذ من الزكوات والصدقات ، والأوقاف ، والوصايا ، لمن ليس له حق منها ، أو فوق حقه . فكل هذا ونحوه ، من أكل المال بالباطل ، فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه ، حتى ولو حصل فيه النزاع وحصل الارتفاع إلى حاكم الشرع ، وأدلى من يريد أكلها بالباطل بحُجّة غلبت حُجّة المُحق ، وحكم له الحاكم بذلك ، فإن حكم الحاكم لا يبيح مُحرّما ، ولا يحلل حراما ، إنما يحكم على نحو مما يسمع ، وإلا فحقائق الأمور باقية ، فليس في حكم الحاكم للمبطل راحة ، ولا شبهة ، ولا استراحة . فمن أدلى إلى الحاكم بحجة باطلة ، وحكم له بذلك ، فإنه لا يحل له ، ويكون آكلا لمال غيره ، بالباطل والإثم ، وهو عالم بذلك ، فيكون أبلغ في عقوبته ، وأشد في نكاله . وعلى هذا فالوكيل إذا علم أن موكله مبطل في دعواه ، لم يحل له أن يخاصم عن الخائن كما قال تعالى : ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [سُورة النّساء ١٠٥] .

[١٨٩ - ٢] : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ جمع - هلال - ما فائدتها وحكمتها؟ أو عن ذاتها ، ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ أي : جعلها الله تعالى بلطفه ورحمته على هذا التدبير يبدو الهلال ضعيفا في أول الشهر ، ثم يتزايد إلى نصفه ، ثم يشرع في النقص إلى كماله ، وهكذا ، ليعرف الناس بذلك ، مواقيت عباداتهم من الصيام ، وأوقات الزكاة ، والكفارات ، وأوقات الحج .

ولما كان الحج يقع في أشهر معلومات ، ويستغرق أوقاتا كثيرة قال : ﴿وَٱلْحَجِّ﴾ وكذلك تعرف بذلك أوقات الديون المؤجلات ، ومدة الإجارات ، ومدة العِدد والحمل ، وغير ذلك مما هو من حاجات الخلق ، فجعله تعالى ، حسابا ، يعرفه كل أحد ، من صغير ، وكبير ، وعالم ، وجاهل ، فلو كان الحساب بالسنة الشمسية ، لم يعرفه إلا النادر من الناس .

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ وهذا كما كان الأنصار وغيرهم من العرب ، إذا أَحرموا ، لم يدخلوا البيوت من أبوابها ، تَعَبُّدًا بذلك ، وظنا أنه بر . فأخبر اللّه أنه ليس ببر لأن اللّه تعالى ، لم يشرعه لهم ، وكل من تَعَبَّد بعبادة لم يشرعها اللّه ولا رسوله ، فهو مُتَعَبِّد ببدعة ، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها لما فيه من السهولة عليهم ، التي هي قاعدة من قواعد الشرع .

ويستفاد من إشارة الآية أنه ينبغي في كل أمر من الأمور ، أن يأتيه الإنسان من الطريق السهل القريب ، الذي قد جعل له موصلا ، فالآمر بالمعروف ، والناهي عن المنكر ، ينبغي أن ينظر في حالة المأمور ، ويستعمل معه الرفق والسياسة ، التي بها يحصل المقصود أو بعضه ، والمتعلم والمعلم ، ينبغي أن يسلك أقرب طريق وأسهله ، يحصل به مقصوده ، وهكذا كل من حاول أمرا من الأمور وأتاه من أبوابه وثابر عليه ، فلا بد أن يحصل له المقصود بعون الملك المعبود .

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ هذا هو البر الذي أمر اللّه به ، وهو لزوم تقواه على الدوام ، بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، فإنه سبب للفلاح ، الذي هو الفوز بالمطلوب ، والنجاة من المرهوب ، فمن لم يتق اللّه تعالى ، لم يكن له سبيل إلى الفلاح ، ومن اتقاه ، فاز بالفلاح والنجاح .

[ ١٩٠ : ١٩٣ - ٢] : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ .

هذه الآيات ، تتضمَّن الأمر بالقتال في سبيل اللّه ، وهذا كان بعد الهجرة إلى المدينة ، لمَّا قوي المسلمون للقتال ، أمرهم اللّه به ، بعد ما كانوا مأمورين بكف أيديهم ، وفي تخصيص القتال ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حثٌّ على الإخلاص ، ونهي عن الاقتتال في الفتن بين المسلمين .

﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ أي : الذين هم مُسْتَعِدُّون لقتالكم ، وهم المُكلَّفون الرجال ، غير الشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال .

والنهي عن الاعتداء يشمل أنواع الاعتداء كلها ، من قتل من لا يقاتل ، من النساء ، والمجانين ، والأطفال ، والرهبان ونحوهم والتمثيل بالقتلى ، وقتل الحيوانات ، وقطع الأشجار ونحوها ، لغير مصلحة تعود للمُسلمين .

ومن الاعتداء ، مقاتلة من تقبل منهم الجزية إذا بذلوها ، فإن ذلك لا يجوز .

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ هذا أمر بقتالهم ، أينما وجدوا في كل وقت ، وفي كل زمان قتال مدافعة ، وقتال مهاجمة ثم استثنى من هذا العموم قتالهم ﴿عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وأنه لا يجوز إلا أن يبدأوا بالقتال ، فإنهم يقاتلون جزاء لهم على اعتدائهم ، وهذا مُستمر في كل وقت ، حتى ينتهوا عن كفرهم فيسلموا ، فإن اللّه يتوب عليهم ، ولو حصل منهم ما حصل من الكفر باللّه ، والشرك في المسجد الحرام ، وصد الرسول

والمؤمنين عنه وهذا من رحمته وكرمه بعباده .

ولما كان القتال عند المسجد الحرام ، يُتوهَّم أنه مفسدة في هذا البلد الحرام ، أخبر تعالى أن المفسدة بالفتنة عنده بالشرك ، والصد عن دينه ، أشد من مفسدة القتل ، فليس عليكم - أيها المسلمون - حرج في قتالهم .

ويُستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة ، وهي : أنه يُرتكب أخف المفسدتين ، لدفع أعلاهما . ثم ذكر تعالى المقصود من القتال في سبيله ، وأنه ليس المقصود به ، سفك دماء الكفار ، وأخذ أموالهم ، ولكن المقصود به أن ﴿يَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ تعالى ، فيظهر دين اللّه تعالى ، على سائر الأديان ، ويدفع كل ما يعارضه ، من الشرك وغيره ، وهو المراد بالفتنة ، فإذا حصل هذا المقصود ، فلا قتل ولا قتال ، ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا﴾ عن قتالكم عند المسجد الحرام ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي : فليس عليهم منكم اعتداء ، إلا من ظلم منهم ، فإنه يستحق المعاقبة ، بقدر ظلمه .

[١٩٤ - ٢] : ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ يحتمل أن يكون المراد به ما وقع من صد المشركين للنبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية ، عن الدخول لمكة ، وقاضوهم على دخولها من قابل[٢٦] ، وكان الصدُّ والقضاء في شهرٍ حرام - وهو ذو القعدة - فيكون هذا بهذا ، فيكون فيه ، تطييب لقلوب الصحابة ، بتمام نسكهم ، وكماله .

ويحتمل أن يكون المعنى : إنكم إن قاتلتموهم في الشهر الحرام فقد قاتلوكم فيه ، وهم المعتدون ، فليس عليكم في ذلك حرج ، وعلى هذا فيكون قوله : ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ من باب عطف العام على الخاص ، أي : كل شيء يحترم من شهر حرام ، أو بلد حرام ، أو إحرام ، أو ما هو أعم من ذلك ، جميع ما أمر الشرع باحترامه ، فمن تجرأ عليها فإنه يقتص منه ، فمن قاتل في الشهر الحرام ، قوتل ، ومن هتك البلد الحرام أخذ منه الحد ، ولم يكن له حرمة ، ومن قتل مكافئا له قتل به ، ومن جرحه أو قطع عضوا ، منه ، اقتص منه ، ومن أخذ مال غيره المحترم ، أخذ منه بدله ، ولكن هل لصاحب الحق أن يأخذ من ماله بقدر حقه أم لا؟ ، خلاف بين العلماء ، الراجح من ذلك ، أنه إن كان سبب الحق ظاهرا كالضيف ، إذا لم يقره غيره ، والزوجة ، والقريب إذا امتنع من تجب عليه النفقة من الإنفاق عليه فإنه يجوز أخذه من ماله . وإن كان السبب خفيًّا ، كمن جحد دين غيره ، أو خانه في وديعة ، أو سرق منه ونحو ذلك ، فإنه لا يجوز له أن يأخذ من ماله مقابلة له ، جمعا بين الأدلة ، ولهذا قال تعالى ، تأكيدا وتقوية لما تقدم : ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا

---

(٢٦) * اتَّفق الشَّيخان على إخراجه في مواضع عديدة من صحيحيهما .

أخرجه البُخاري في مواضع من صحيحه منها : ( كتاب الصلح / باب : كيف يكتب هذا ما صالح فلان بن فلان وفلان بن فلان وإن لم ينسبه إلى قبيلته أو نسبه/ ح ٢٦٩٨، ٢٦٩٩. وأخرجه مُسلم : ( كتاب الجهاد/ باب : صُلح الحُديبية/ ح ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣).

ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ هذا تفسير لصفة المُقاصَّة ، وأنها هي المُماثلة في مُقابلة المُعتدي . ولما كانت النفوس – في الغالب – لا تقف على حدها إذا رخص لها في المعاقبة لطلبها التشفي ، أمر تعالى بلزوم تقواه ، التي هي الوقوف عند حدوده ، وعدم تجاوزها ، وأخبر تعالى أنه ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي : بالعون ، والنصر ، والتأييد ، والتوفيق . ومن كان الله معه ، حصل له السعادة الأبدية ، ومن لم يلزم التقوى تخلى عنه وليه ، وخذله ، فوكله إلى نفسه فصار هلاكه أقرب إليه من حبل الوريد .

[١٩٥ – ٢] : ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ .

يأمر تعالى عباده بالنفقة في سبيله ، وهو إخراج الأموال في الطرق الموصلة إلى الله ، وهي كل طرق الخير ، من صدقة على مسكين ، أو قريب ، أو إنفاق على من تجب مؤنته .

وأعظم ذلك وأول ما دخل في ذلك الإنفاق في الجهاد في سبيل الله ، فإن النفقة فيه جهاد بالمال ، وهو فرض كالجهاد بالبدن ، وفيها من المصالح العظيمة ، الإعانة على تقوية المسلمين ، وعلى توهية الشرك وأهله ، وعلى إقامة دين الله وإعزازه ، فالجهاد في سبيل الله لا يقوم إلا على ساق النفقة ، فالنفقة له كالروح ، لا يمكن وجوده بدونها ، وفي ترك الإنفاق في سبيل الله ، إبطال للجهاد ، وتسليط للأعداء ، وشدة تكالبهم ، فيكون قوله تعالى : ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ كالتعليل لذلك ، والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين : ترك ما أمر به العبد ، إذا كان تركه موجبا أو مقاربا لهلاك البدن أو الروح ، وفعل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح ، فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة ، فمن ذلك ، ترك الجهاد في سبيل الله ، أو النفقة فيه ، الموجب لتسلط الأعداء ، ومن ذلك تغرير الإنسان بنفسه في مقاتلة أو سفر مخوف ، أو محل مسبعة أو حيات ، أو يصعد شجرا أو بنيانا خطرا ، أو يدخل تحت شيء فيه خطر ونحو ذلك ، فهذا ونحوه ، ممن ألقى بيده إلى التهلكة .

ومن الإلقاء باليد إلى التهلكة الإقامة على معاصي الله ، واليأس من التوبة ، ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض ، التي في تركها هلاك للروح والدين . ولما كانت النفقة في سبيل الله نوعا من أنواع الإحسان ، أمر بالإحسان عموما فقال : ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان ، لأنه لم يقيده بشيء دون شيء ، فيدخل فيه الإحسان بالمال كما تقدم ، ويدخل فيه الإحسان بالجاه ، بالشفاعات ونحو ذلك ، ويدخل في ذلك ، الإحسان بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتعليم العلم النافع ، ويدخل في ذلك قضاء حوائج الناس ، من تفريج كرباتهم وإزالة شداتهم ، وعيادة مرضاهم ، وتشييع جنائزهم ، وإرشاد ضالهم ، وإعانة من يعمل عملا ، والعمل لمن لا يحسن العمل ونحو ذلك ، مما هو من الإحسان الذي أمر الله به ، ويدخل في الإحسان أيضا ، الإحسان في عبادة الله تعالى ، وهو كما ذكر النبي ﷺ : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك » .(٢٧) فمن اتَّصف بهذه الصفات ، كان من

(٢٧) * متفق عليه من طريق أبي هريرة ﷺ . أخرجه البخاري : ( كتاب الإيمان/ باب : سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان/ ح ٥٠) ، ( كتاب تفسير القرآن/باب :قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [ سورة لُقمان ٣٤] =

الذين قال الله فيهم : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وكان الله معه يسدده ويرشده ويعينه على كل أموره .

ولما فرغ تعالى من ذكر أحكام الصيام فالجهاد ، ذكر أحكام الحج فقال :

[١٩٦ - ٢] : ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ .

يُستدل بقوله تعالى : ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ﴾ على أمور : أحدها : وجوب الحج والعمرة ، وفرضيتهما . الثاني : وجوب إتمامهما بأركانهما ، وواجباتهما ، التي قد دل عليها فعل النبي ﷺ وقوله : « خذوا عني مناسككم »[٢٨] ، الثالث : أن فيه حجة لمن قال بوجوب العمرة . الرابع : أن الحج والعمرة يجب إتمامهما بالشروع فيهما ، ولو كانا نفلا . الخامس : الأمر بإتقانهما وإحسانهما ، وهذا قدر زائد على فعل ما يلزم لهما .السادس : وفيه الأمر بإخلاصهما لله تعالى . السابع : أنه لا يخرج المُحرِم بهما بشيء من الأشياء حتى يكملهما ، إلا بما استثناه الله ، وهو الحصر ، فلهذا قال : ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي : منعتم من الوصول إلى البيت لتكميلهما ، بمرض ، أو ضلالة ، أو عدوّ ، ونحو ذلك من أنواع الحصر ، الذي هو المنع .

﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي : فاذبحوا ما استيسر من الهدي ، وهو سبْع بدنة ، أو سبْع بقرة ، أو شاة يذبحها المحصر ، ويحلق ويحل من إحرامه بسبب الحصر كما فعل النبي ﷺ وأصحابه ، لما صدهم المشركون عام الحديبية ، فإن لم يجد الهدي ، فليصم بدله عشرة أيام كما في المتمتّع ثم يحل[٢٩] .

ثم قال تعالى : ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ وهذا من محظورات الإحرام ، إزالة الشعر ، بحلق أو غيره ، لأن المعنى واحد من الرأس ، أو من البدن ، لأن المقصود من ذلك ، حصول الشعث والمنع من الترفه بإزالته ، وهو موجود في بقية الشعر . وقاس كثير من العلماء على إزالة الشعر ، تقليم الأظفار بجامع الترفُّه ، ويستمر المنع مما ذكر ، حتى يبلغ الهدي محله ، وهو يوم النحر ، والأفضل أن يكون الحلق بعد النحر ، كما تدل عليه الآية .

ويستدل بهذه الآية على أن المُتمتع إذا ساق الهدي ، لم يتحلل من عمرته قبل يوم النحر ، فإذا طاف وسعى للعمرة ، أحرم بالحج ، ولم يكن له إحلال بسبب سَوق الهدي ، وإنما منع تبارك وتعالى من ذلك ، لما فيه من الذل والخضوع لله والانكسار له ، والتواضع الذي هو عين مصلحة العبد ، وليس عليه في ذلك من ضرر ، فإذا حصل الضرر بأن كان به أذى من مرض ، ينتفع بحلق رأسه له ، أو قروح ، أو قمل ونحو ذلك فإنه يحل له أن يحلق رأسه ، ولكن يكون عليه فدية من صيام ثلاثة أيام ، أو صدقة على ستة مساكين أو نسك ما

---

= / ح ٤٧٧٧) . ومُسلم : ( كتاب الإيمان/ باب : بيان الإيمان والإسلام والإحسان/ ح ٥، ٦، ٧) .

وانفرد مُسلم بإخراجه من طريق ابن عمر وغير واحدٍ من الصحابة .

(٢٨) * جزء من حديث سبق تخريجه في الحاشية رقم ١٨ .

(٢٩) * اتفق الشيخان على إخراجه في مواضع عديدة من صحيحيهما . وسبق تخريجه في الحاشية رقم ٢٦ .

يجزئ في أضحية ، فهو مخير ، والنسك أفضل ، فالصدقة ، فالصيام .

ومثل هذا كل ما كان في معنى ذلك ، من تقليم الأظفار ، أو تغطية الرأس ، أو لبس المخيط ، أو الطيب ، فإنه يجوز عند الضرورة ، مع وجوب الفدية المذكورة لأن القصد من الجميع ، إزالة ما به يترفه .

ثم قال تعالى : ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ أي : بأن قدرتم على البيت من غير مانع عدو وغيره ، ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ بأن توصّل بها إليه ، وانتفع بتمتعه بعد الفراغ منها .

﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ أي : فعليه ما تيسر من الهدي ، وهو ما يجزئ في أضحية ، وهذا دم نسك ، مقابلة لحصول النسكين له في سفرة واحدة ، ولإنعام الله عليه بحصول الانتفاع بالمتعة بعد فراغ العمرة ، وقبل الشروع في الحج ، ومثلها القِران لحصول النسكين له .

ويدل مفهوم الآية ، على أن المُفرِد للحج ، ليس عليه هدي ، ودلت الآية ، على جواز ، بل فضيلة المتعة ، وعلى جواز فعلها في أشهر الحج .

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي الهدي أو ثمنه ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ﴾ أول جوازها من حين الإحرام بالعمرة ، وآخرها ثلاثة أيام بعد النحر ، أيام رمي الجمار ، والمبيت بـ « منى » ولكن الأفضل منها ، أن يصوم السابع ، والثامن ، والتاسع ، ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي : فرغتم من أعمال الحج ، فيجوز فعلها في مكة ، وفي الطريق ، وعند وصوله إلى أهله .

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من وجوب الهدي على المتمتع ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ بأن كان عند مسافة قصر فأكثر ، أو بعيدا عنه عرفًا ، فهذا الذي يجب عليه الهدي ، لحصول النسكين له في سفر واحد ، وأما من كان أهله من حاضري المسجد الحرام ، فليس عليه هدي لعدم الموجب لذلك .

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي : في جميع أموركم ، بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، ومن ذلك ، امتثالكم ، لهذه المأمورات ، واجتناب هذه المحظورات المذكورة في هذه الآية .

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي : لمن عصاه ، وهذا هو الموجب للتقوى ، فإن من خاف عقاب الله ، انكفَّ عما يوجب العقاب ، كما أن من رجا ثواب الله عمل لما يوصله إلى الثواب ، وأما من لم يخف العقاب ، ولم يرج الثواب ، اقتحم المحارم ، وتجرأ على ترك الواجبات .

[١٩٧ - ٢] : ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ .

يخبر تعالى أن ﴿ٱلْحَجُّ﴾ واقع في ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ عند المُخاطبين ، مشهورات ، بحيث لا تحتاج إلى تخصيص ، كما احتاج الصيام إلى تعيين شهره ، وكما بين تعالى أوقات الصلوات الخمس . وأما الحج فقد كان من ملّة إبراهيم ، التي لم تزل مستمرة في ذريته معروفة بينهم .

والمُراد بالأشهر المعلومات عند جمهور العلماء : شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة ، فهي التي يقع فيها الإحرام بالحج غالبا .

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ أي : أحرم به ، لأن الشروع فيه يُصيره فرضا ، ولو كان نفلا .

واستدل بهذه الآية الشافعي ومن تابعه ، على أنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره ، قلت لو قيل : إن فيها دلالة لقول الجمهور ، بصحة الإحرام بالحج قبل أشهره لكان قريبا ، فإن قوله : ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ دليل على أن الفرض قد يقع في الأشهر المذكورة وقد لا يقع فيها ، وإلا لم يُقيّده .

وقوله : ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ أي : يجب أن تعظموا الإحرام بالحج ، وخصوصا الواقع في أشهره ، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه ، من الرَّفث وهو الجماع ومُقدِّماته الفعلية والقولية ، خصوصا عند النساء بحضرتهن ، والفسوق وهو : جميع المعاصي ، ومنها محظورات الإحرام . والجدال وهو : المُماراة والمُنازعة والمُخاصمة ، لكونها تثير الشر ، وتوقع العداوة . والمقصود من الحج ، الذل والانكسار لله ، والتقرب إليه بما أمكن من القربات ، والتنزه عن مقارفة السيئات ، فإنه بذلك يكون مبرورا والمبرور ، ليس له جزاء إلا الجنة ، وهذه الأشياء وإن كانت ممنوعة في كل مكان وزمان ، فإنها يتغلظ المنع عنها في الحج . واعلم أنه لا يتم التقرب إلى الله بترك المعاصي حتى يفعل الأوامر ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ أتى بـ « من » لتنصيص على العموم ، فكل خير وقربة وعبادة ، داخل في ذلك ، أي : فإن الله به عليم ، وهذا يتضمن غاية الحث على أفعال الخير ، وخصوصا في تلك البقاع الشريفة والحرمات المنيفة ، فإنه ينبغي تدارك ما أمكن تداركه فيها ، من صلاة ، وصيام ، وصدقة ، وطواف ، وإحسان قولي وفعلي . ثم أمر تعالى بالتزود لهذا السفر المبارك ، فإن التزود فيه الاستغناء عن المخلوقين ، والكفّ عن أموالهم ، سؤالا واستشرافا ، وفي الإكثار منه نفع وإعانة للمسافرين ، وزيادة قربة لرب العالمين ، وهذا الزاد الذي المراد منه إقامة البنية بلغة ومتاع .

وأما الزاد الحقيقي المستمر نفعه لصاحبه ، في دنياه ، وأخراه ، فهو زاد التقوى الذي هو زاد إلى دار القرار ، وهو الموصل لأكمل لذة ، وأجل نعيم دائم أبدا ، ومن ترك هذا الزاد ، فهو المنقطع به الذي هو عرضة لكل شر ، وممنوع من الوصول إلى دار المتقين . فهذا مدح للتقوى .

ثم أمر بها أولي الألباب فقال : ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي : يا أهل العقول الرزينة ، اتقوا ربكم الذي تقواه أعظم ما تأمر به العقول ، وتركها دليل على الجهل ، وفساد الرأي .

[١٩٨ : ٢٠٢ – ٢] : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ .

لما أمر تعالى بالتقوى ، أخبر تعالى أن ابتغاء فضل الله بالتكسب في مواسم الحج وغيره ، ليس فيه حرج

إذا لم يشغل عما يجب إذا كان المقصود هو الحج ، وكان الكسب حلالا منسوبا إلى فضل الله ، لا منسوبا إلى حذق العبد ، والوقوف مع السبب ، ونسيان المسبب ، فإن هذا هو الحرج بعينه .

وفي قوله : ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ دلالة على أمور : أحدها : الوقوف بعرفة ، وأنه كان معروفا أنه ركن من أركان الحج ، فالإفاضة من عرفات ، لا تكون إلا بعد الوقوف .

الثاني : الأمر بذكر الله عند المشعر الحرام ، وهو المزدلفة ، وذلك أيضًا معروف ، يكون ليلة النحر بائتا بها ، وبعد صلاة الفجر ، يقف في المزدلفة داعيا ، حتى يسفر جدا ، ويدخل في ذكر الله عنده ، إيقاع الفرائض والنوافل فيه .

الثالث : أن الوقوف بمزدلفة ، متأخر عن الوقوف بعرفة ، كما تدل عليه الفاء والترتيب .

الرابع ، والخامس : أن عرفات ومزدلفة ، كلاهما من مشاعر الحج المقصود فعلها ، وإظهارها .

السادس : أن مزدلفة في الحرم ، كما قيّده بالحرام .

السابع : أن عرفة في الحِلّ ، كما هو مفهوم التقييد بـ « مزدلفة » .

﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي : اذكروا الله تعالى كما منّ عليكم بالهداية بعد الضلال ، وكما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ، فهذه من أكبر النعم ، التي يجب شكرها ومقابلتها بذكر المنعم بالقلب واللسان .

﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ أي : ثم أفيضوا من مزدلفة من حيث أفاض الناس ، من لدن إبراهيم عليه السلام إلى الآن ، والمقصود من هذه الإفاضة كان معروفا عندهم ، وهو رمي الجمار ، وذبح الهدايا ، والطواف ، والسعي ، والمبيت بـ « منى » ليالي التشريق وتكميل باقي المناسك .

ولما كانت هذه الإفاضة ، يقصد بها ما ذكر ، والمذكورات آخر المناسك ، أمر تعالى عند الفراغ منها باستغفاره والإكثار من ذكره ، فالاستغفار للخلل الواقع من العبد ، في أداء عبادته وتقصيره فيها ، وذكر الله شكر الله على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة والمنة الجسيمة . وهكذا ينبغي للعبد ، كلما فرغ من عبادة ، أن يستغفر الله عن التقصير ، ويشكره على التوفيق ، لا كمن يرى أنه قد أكمل العبادة ، ومَنَّ بها على ربه ، وجعلت له محلا ومنزلة رفيعة ، فهذا حقيق بالمقت ، ورد الفعل ، كما أن الأول ، حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال أُخر .

ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق ، وأن الجميع يسألونه مطالبهم ، ويستدفعونه ما يضرهم ، ولكن مقاصدهم تختلف ، فمنهم : ﴿مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ أي : يسأله من مطالب الدنيا ما هو من شهواته ، وليس له في الآخرة من نصيب ، لرغبته عنها ، وقصر همته على الدنيا ، ومنهم من يدعو الله لمصلحة الدارين ، ويفتقر إليه في مهمات دينه ودنياه ، وكل من هؤلاء وهؤلاء ، لهم نصيب من كسبهم وعملهم ، وسيجازيهم تعالى على حسب أعمالهم ، وهماتهم ونياتهم ، جزاء دائرا بين العدل والفضل ، يحمد عليه أكمل حمد وأتمه .

وفي هذه الآية دليل على أن اللّٰه يجيب دعوة كل داع ، مسلما أو كافرا ، أو فاسقا ، ولكن ليست إجابته دعاء من دعاه ، دليلا على محبته له وقربه منه ، إلا في مطالب الآخرة ومهمات الدين . والحسنة المطلوبة في الدنيا يدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد ، من رزق هنيء واسع حلال ، وزوجة صالحة ، وولد تقر به العين ، وراحة ، وعلم نافع ، وعمل صالح ، ونحو ذلك ، من المطالب المحبوبة والمباحة .

وحسنة الآخرة ، هي السلامة من العقوبات ، في القبر ، والموقف ، والنار ، وحصول رضا اللّٰه ، والفوز بالنعيم المُقيم ، والقرب من الرب الرحيم ، فصار هذا الدعاء ، أجمع دعاء وأكمله ، وأولاه بالإيثار ، ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء به ، والحث عليه .[٣٠]

[٢٠٣ – ٢] : ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ .

يأمر تعالى بذكره في الأيام المعدودات ، وهي أيام التشريق الثلاثة بعد العيد ، لمزيّتها وشرفها ، وكون بقية أحكام المناسك تفعل بها ، ولكون الناس أضيافا للّٰه فيها ، ولهذا حرم صيامها ، فللذكر فيها مزية ليست لغيرها ، ولهذا قال النبي ﷺ : « أيام التشريق ، أيام أكل وشرب ، وذكر اللّٰه »[٣١] .

ويدخل في ذكر اللّٰه فيها ، ذكره عند رمي الجمار ، وعند الذبح ، والذكر المقيد عقب الفرائض ، بل قال بعض العلماء : إنه يستحب فيها التكبير المطلق ، كالعشر ، وليس ببعيد .

﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ أي : خرج من « مِنَى » ونفر منها قبل غروب شمس اليوم الثاني ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ﴾ بأن بات بها ليلة الثالث ورمى من الغد ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وهذا تخفيف من اللّٰه تعالى على عباده ، في إباحة كلا الأمرين ، ولكن من المعلوم أنه إذا أبيح كلا الأمرين ، فالمتأخر أفضل ، لأنه أكثر عبادة .

ولما كان نفي الحرج قد يُفهم منه نفي الحرج في ذلك المذكور وفي غيره ، والحاصل أن الحرج منفي عن المتقدّم ، والمتأخّر فقط قيّده بقوله : ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي : اتقى اللّٰه في جميع أموره ، وأحوال الحج ، فمن اتقى اللّٰه في كل شيء ، حصل له نفي الحرج في كل شيء ، ومن اتقاه في شيء دون شيء ، كان الجزاء من جنس العمل .

---

(٣٠) * مُتّفقٌ عليه . أخرجه البخاري : ( كتاب تفسير القرآن/ باب : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾/ح ٤٥٢٢ ) ، ( كتاب الدعوات/ باب : قول النبي ﷺ : ربنا آتنا في الدنيا حسنة/ ح ٦٣٨٩) . وأخرجه مُسلم :( كتاب فضل الدُّعاء بـ« اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار »/ ح ٢٦، ٢٧) . من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه . وأخرجه أبو داود وغيره من حديث عبد اللّٰه بن السائب رضي الله عنه .

(٣١) * أخرجوه عن عدد من الصحابة : ١- عن نبيشة الهذلي : أخرجه مسلم : ( ٢ / كتاب الصيام / ١٤٤ ) . أبو داود ( ح ٢٨٣٠، ٣٨١٣ ) ، النّسائي :( ٧ / ١٦٩، ١٧٠ ) . وأحمد : ( ٥ / ٧٥، ٧٦ ) . وبعض ألفاظه مختصرة ، كاللفظ الذي ذكره السّعدي – رحمه اللّٰه – ، وبعضها الأخر مُطوّل لكنها جميعًا متفقة في المعنى المشار إليه . والخلاصة أنَّ بعض طرق هذا الحديث فيها كلام إلا أن تواترها أغنى عن بيان ذلك .

قال السّيوطي في « الجامع الصغير » عن هذا الحديث : صحيح متواتر . راجع « صحيح الجامع » رقم ٢٩٨٩.
ووافقه العلامة الألباني – رحمه الله– على ذلك ، فقاله فى الصحيحة :( ٣ / ٢٧٧ح ١٢٨٢ ) .

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بامتثال أوامره واجتناب معاصيه ، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فمجازيكم بأعمالكم ، فمن اتقاه ، وجد جزاء التقوى عنده ، ومن لم يتّقِه عاقبه أشد العقوبة ، فالعلم بالجزاء من أعظم الدواعي لتقوى اللّه ، فلهذا حث تعالى على العلم بذلك .

[ ٢٠٤: ٢٠٦ – ٢] : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ .

لما أمر تعالى بالإكثار من ذكره ، وخصوصا في الأوقات الفاضلة الذي هو خير ومصلحة وبر ، أخبر تعالى بحال من يتكلم بلسانه ويخالف فعله قوله ، فالكلام إما أن يرفع الإنسان أو يخفضه فقال : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي : إذا تكلم راق كلامه للسامع ، وإذا نطق ظننته يتكلم بكلام نافع ، ويؤكد ما يقول بأنه ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ بأن يخبر أن اللّه يعلم أن ما في قلبه موافق لما نطق به ، وهو كاذب في ذلك ، لأنه يخالف قوله فعله . فلو كان صادقا ، لتوافق القول والفعل ، كحال المؤمن غير المنافق ، فلهذا قال : ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ أي : إذا خاصمته ، وجدت فيه من اللدد والصعوبة والتعصب ، وما يترتب على ذلك ، ما هو من مقابح الصفات ، ليس كأخلاق المؤمنين ، الذين جعلوا السهولة مركبهم ، والانقياد للحق وظيفتهم ، والسماحة سجيّتهم .

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ هذا الذي يعجبك قوله إذا حضر عندك ﴿سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ أي : يجتهد على أعمال المعاصي ، التي هي إفساد في الأرض ﴿وَيُهْلِكَ﴾ بسبب ذلك ﴿ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ فالزروع والثمار والمواشي ، تتلف وتنقص ، وتقل بركتها ، بسبب العمل في المعاصي ، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ وإذا كان لا يحب الفساد ، فهو يبغض العبد المفسد في الأرض غاية البغض ، وإن قال بلسانه قولا حسنا .

ففي هذه الآية دليل على أن الأقوال التي تصدر من الأشخاص ، ليست دليلا على صدق ولا كذب ، ولا بر ولا فجور حتى يوجد العمل المصدِّق لها ، المزكّي لها وأنه ينبغي اختبار أحوال الشهود ، والمحق والمبطل من الناس ، بسبر أعمالهم ، والنظر لقرائن أحوالهم ، وأن لا يغتر بتمويههم وتزكيتهم أنفسهم .

ثم ذكر أن هذا المفسد في الأرض بمعاصي اللّه ، إذا أمر بتقوى اللّه تكبر وأنف ، و ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ فيجمع بين العمل بالمعاصي والكبر على الناصحين .

﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ التي هي دار العاصين والمتكبرين ، ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي : المستقر والمسكن ، عذاب دائم ، وهم لا ينقطع ، ويأس مستمر ، لا يخفف عنهم العذاب ، ولا يرجون الثواب ، جزاء لجناياتهم ومقابلة لأعمالهم ، فعياذا بالله من أحوالهم .

[٢٠٧ – ٢] : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ .

هؤلاء هم الموفّقون الذين باعوا أنفسهم وأرخصوها وبذلوها طلبا لمرضاة اللّه ورجاء لثوابه ، فهم بذلوا الثمن للمليء الوفي الرءوف بالعباد ، الذي من رأفته ورحمته أن وفقهم لذلك ، وقد وعد الوفاء بذلك ، فقال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ إلى آخر الآية .

وفي هذه الآية أخبر أنهم اشتروا أنفسهم وبذلوها ، وأخبر برأفته الموجبة لتحصيل ما طلبوا ، وبذل ما به رغبوا ، فلا تسأل بعد هذا عن ما يحصل لهم من الكريم ، وما ينالهم من الفوز والتكريم .

[٢٠٨ : ٢٠٩ - ٢] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .

هذا أمر من اللّه تعالى للمؤمنين أن يدخلوا ﴿فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ أي : في جميع شرائع الدين ، ولا يتركوا منها شيئا ، وأن لا يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه ، إن وافق الأمر المشروع هواه فعله ، وإن خالفه ، تركه ، بل الواجب أن يكون الهوى ، تبعا للدين ، وأن يفعل كل ما يقدر عليه ، من أفعال الخير ، وما يعجز عنه ، يلتزمه وينويه ، فيدركه بنيته . ولما كان الدخول في السلم كافة ، لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان قال : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي : في العمل بمعاصي اللّه ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ والعدو المبين ، لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء ، وما به الضرر عليكم .

ولما كان العبد لا بد أن يقع منه خلل وزلل ، قال تعالى : ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي : على علم ويقين ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ . وفيه من الوعيد الشديد ، والتخويف ، ما يوجب ترك الزلل ، فإن العزيز القاهر الحكيم ، إذا عصاه العاصي ، قهره بقوته ، وعذبه بمقتضى حكمته فإن من حكمته ، تعذيب العصاة والجناة .

[٢١٠ - ٢] : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ .

وهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ما تنخلع له القلوب ، يقول تعالى : هل ينتظر الساعون في الفساد في الأرض ، المُتَّبِعون لخطوات الشيطان ، النابذون لأمر اللّه إلا يوم الجزاء بالأعمال ، الذي قد حشي من الأهوال والشدائد والفظائع ، ما يقلقل قلوب الظالمين ، ويحق به الجزاء السيئ على المفسدين ، وذلك أن اللّه تعالى يطوي السماوات والأرض ، وتنثر الكواكب ، وتُكَوّر الشمس والقمر ، وتنزل الملائكة الكرام ، فتحيط بالخلائق ، وينزل الباري تبارك وتعالى : ﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ ليفصل بين عباده بالقضاء العدل ، فتوضع الموازين ، وتنشر الدواوين ، وتبيض وجوه أهل السعادة وتسود وجوه أهل الشقاوة ، ويتميّز أهل الخير من أهل الشر ، وكل يجازى بعمله ، فهنالك يعض الظالم على يديه إذا علم حقيقة ما هو عليه .

وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة ، المثبتين للصفات الاختيارية ، كالاستواء ، والنزول ، والمجيء ، ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى ، عن نفسه ، أو أخبر بها عنه رسوله ﷺ ، فيثبتونها على وجه يليق بجلال اللّه وعظمته ، من غير تشبيه ولا تحريف ، خلافا للمُعطِّلة على اختلاف أنواعهم ، من الجهمية ، والمعتزلة ، والأشعرية ونحوهم ، ممن ينفي هذه الصفات ، ويتأوّل لأجلها الآيات بتأويلات ما أنزل اللّه عليها من سلطان ، بل حقيقتها القدح في بيان اللّه وبيان رسوله ، والزعم بأن كلامهم هو

الذي تحصل به الهداية في هذا الباب ، فهؤلاء ليس معهم دليل نقلي ، بل ولا دليل عقلي ، أما النقلي فقد اعترفوا أن النصوص الواردة في الكتاب والسُّنَّة ، ظاهرها بل صريحها ، دال على مذهب أهل السُّنَّة والجماعة ، وأنها تحتاج لدلالتها على مذهبهم الباطل ، أن تخرج عن ظاهرها ويزاد فيها وينقص ، وهذا كما ترى لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة من إيمان .

وأما العقل فليس في العقل ما يدل على نفي هذه الصفات ، بل العقل دل على أن الفاعل أكمل من الذي لا يقدر على الفعل ، وأن فعله تعالى المتعلق بنفسه والمتعلق بخلقه هو كمال ، فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه ، قيل لهم : الكلام على الصفات ، يتبع الكلام على الذات ، فكما أن للَّه ذاتا لا تشبهها الذوات ، فلله صفات لا تشبهها الصفات ، فصفاته تبع لذاته ، وصفات خلقه ، تبع لذواتهم ، فليس في إثباتها ما يقتضي التشبيه بوجه .

ويقال أيضا ، لمن أثبت بعض الصفات ، ونفى بعضا ، أو أثبت الأسماء دون الصفات : إما أن تثبت الجميع كما أثبته اللَّه لنفسه ، وأثبته رسوله ، وإما أن تنفي الجميع ، وتكون منكرا لرب العالمين ، وأما إثباتك بعض ذلك ، ونفيك لبعضه ، فهذا تناقض ، ففرق بين ما أثبته ، وما نفيته ، ولن تجد إلى الفرق سبيلا ، فإن قلت : ما أثبته لا يقتضي تشبيها ، قال لك أهل السُّنَّة : والإثبات لما نفيته لا يقتضي تشبيها ، فإن قلت : لا أعقل من الذي نفيته إلا التشبيه ، قال لك النفاة : ونحن لا نعقل من الذي أثبته إلا التشبيه ، فما أجبت به النفاة ، أجابك به أهل السنة ، لما نفيته . والحاصل أن من نفى شيئا وأثبت شيئا مما دل الكتاب والسُّنَّة على إثباته ، فهو متناقض ، لا يثبت له دليل شرعي ولا عقلي ، بل قد خالف المعقول والمنقول .

[٢١١ - ٢] : ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ .

يقول تعالى : ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ﴾ تدلُّ على الحقِّ ، وعلى صدق الرُّسل ، فتيقَّنوها وعرفوها ، فلم يقوموا بشُكر هذه النِّعمة ، الَّتي تقتضي القيام بها ، بل كفروا بها ، وبدَّلوا نعمة اللَّه كُفرًا ، فلهذا استحقُّوا أنْ ينزل اللَّه عليهم عقابه ويحرمهم من ثوابه . وسمَّى اللَّه تعالى كُفر النِّعمة تبديلًا لها ، لأنَّ من أنْعم اللَّه عليه نعمة دينيَّة أو دُنيويَّة ، لم يشكرها ، ولم يقُم بواجبها ، اضمحلَّت عنه وذهبت ، وتبدَّلت بالكُفر والمعاصي ، فصار الكُفر بدل النِّعمة . وأمَّا من شكر اللَّه تعالى ، وقام بحقِّها ، فإنَّها تثبت وتستمر ، ويزيده اللَّه منها .

[٢١٢ - ٢] : ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .

يُخبر تعالى أنَّ الَّذين كفروا باللَّه وبآياته ورُسُله ، ولم ينقادوا لشرعه ، أنَّهم زُينت لهم الحياة الدُّنيا . فزُيِّنت في أعيُنهم وقلوبهم ، فرضوا بها ، واطمأنوا بها فصارت أهواؤهم وإراداتهم وأعمالهم كُلها لها ، فأقبلوا عليها ، وأكبوا على تحصيلها ، وعظَّموها ، وعظَّموا من شاركهم في صنيعهم ، واحتقروا المؤمنين ، واستهزأوا بهم وقالوا : أهولاء مَنَّ اللَّه عليهم من بيننا؟ ، وهذا من ضعف عقولهم ونظرهم القاصر ، فإنَّ الدُّنيا

دار ابتلاء وامتحان ، وسيحصُل الشّقاء فيها لأهل الإيمان والكُفران .

بل المُؤمن في الدُّنيا ، وإنْ ناله مكروه ، فإنّه يصبر ويحتسب ، فيخفّف اللّه عنه بإيمانه وصبره ، ما لايكون لغيره ، وإنّما الشّأن كُل الشّأن ، والتّفضيل الحقيقي ، في الدّار الباقية ، فلهذا قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾ فيكون المُتّقون في أعلى الدّرجات ، مُتمتعين بأنواع النّعيم والسّرور ، والبهجة والحبور ، والكُفّار تحتهم في أسفل الدّركات ، مُعذّبين بأنواع العذاب والإهانة ، والشّقاء السّرمدي ، الّذي لا مُنتهى له .

ففي هذه الآية تسلية للمُؤمنين ، ونعي على الكافرين . ولمّا كانت الأرزاق الدّنيويّة والأُخرويّة لاتحصُل إلّا بتقدير اللّه ، ولن تُنال إلّا بمشيئة اللّه قال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فالرّزق الدّنيوي ، يحصُل للمُؤمن والكافر .

وأمّا رزق القُلوب من العلم والإيمان ، ومحبّة اللّه ، وخشيته ورجائه ونحو ذلك ، فلا يُعطيها إلّا من يُحبّه .

[٢١٣ – ٢] : ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ .

أي : كانوا مجتمعين على الهدى وذلك عشرة قرون بعد نوح عليه السلام ، فلما اختلفوا في الدين فكفر فريق منهم وبقي الفريق الآخر على الدين ، فحصل النزاع وبعث اللّه الرسل ليفصلوا بين الخلائق ويقيموا الحجة عليهم أو قيس بل كانوا مجتمعين ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ من أطاع اللّه بثمرات الطّاعات ، من الرّزق ، والقوّة في البدن والقلب ، والحياة الطّيّبة ، وأعلى ذلك الفوز برضوان الجنّة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ من عصى اللّه ، بثمرات المعصية ، من حرمان الرّزق ، والضّعف ، والإهانة ، والحياة الضّيّقة ، وأشد ذلك سخط اللّه والنّار .

﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ وهو الإخبارات الصّادقة ، والأوامر العادلة ، فكُل ما اشتملت عليه الكُتب الإلهيّة ، فهو حق ، يفصل بين المُختلفين في الأُصول والفروع .

وهذا هو الواجب عند الاختلاف والتّنازع ، أنْ يُرد الاختلاف والتّنازع إلى اللّه ورسوله ، ولولا أنّ في كتابه ، وسُنّة رسوله فصل النّزاع ، لمّا أمر بالرّدّ إليهما .

ولمّا ذكر نعمته العظيمة بإنزال الكُتب على أهل الكتاب ، وكان هذا يقتضي اتّفاقهم عليها واجتماعهم ، أخبر اللّه أنّهم بَغَى بعضهم على بعض ، وحصل النّزاع والخصام وكثرة الاختلاف . فاختلفوا في الكتاب الّذي ينبغي أنْ يكونوا أولى النّاس بالإجتماع عليه ، وذلك من بعد ما علموه وتيقّنوه بالآيات البيّنات والأدلة القاطعات ، وضلّوا بذلك ضلالًا بعيدًا .

﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من هذه الأُمّة ﴿لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ فكُلّ ما اختلف فيه أهل الكتاب ، وأخطأوا فيه الحق والصّواب ، هدى اللّه للحقّ فيه هذه الأُمّة ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ تعالى وتيسيره لهُم ورحمته ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ .

فعمَّ الخلقَ تعالى ، بالدَّعوة إلى الصِّراط المُستقيم ، عدلًا منه تعالى ، وإقامة حُجَّة على الخلق ، لئلا يقولوا ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ﴾ . وهُدى – بفضله ورحمته ، وإعانته ولُطفه– من شاء من عباده ، فهذا من فضله وإحسانه ، وذاك عدله وحكمته ، تبارك وتعالى .

[٢١٤ – ٢] : ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾

يُخبر تبارك وتعالى أنَّه لا بُدَّ أنْ يمتحن عباده بالسَّراء والضَّراء ، والمشقَّة كما فعل بمن قبلهم ، فهي سُنته الجارية ، الَّتي لا تتغير ولا تتبدَّل ، أنَّ من قام بدينه وشرعه لا بُدَّ أنْ يبتليه ؛ فإنْ صبر على أمر اللَّه ولم يُبال بالمكاره الواقعة في سبيله ، فهو الصَّادق الَّذي نال من السَّعادة كمالها ، ومن السِّيادة آلتها .

ومن جعل فتنة النَّاس كعذاب اللَّه بأنْ صدَّته المكاره عمَّا هو بصدده وثنته المِحَن عن قصده ، فهو الكاذب في دعوى الإيمان ، فإنَّه ليس الإيمان بالتَّحلي والتَّمنِّي ، ومُجرَّد الدَّعاوى ، حتَّى تُصدِّقه الأعمال أو تُكذبه .

فقد جرى على الأُمم الأقدمين ما ذكر اللَّه عنهم ﴿مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ أي : الفقر ، ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ أي : الأمراض في أبدانهم ﴿وَزُلۡزِلُواْ﴾ بأنواع المخاوف من التَّهديد بالقتل ، والنَّفي ، وأخذ الأموال ، وقتل الأحبَّة ، وأنواع المضار حتَّى وصلت بهم الحال وآل بهم الزِّلزال إلى أنْ استبطأوا نصر اللَّه مع يقينهم ، ولكن لشدَّة الأمر وضيقه ﴿يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾ فلمَّا كان الفرج عند الشِّدَّة ، وكُلَّما ضاق الأمر اتَّسع ، قال تعالى : ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ فهكذا كُلُّ من قام بالحقِّ فإنَّه يُمتحن ، فكُلَّما اشتدت عليه وصعبت – إذا صابر وثابر على ما هو عليه– انقلبت المحنة في حقِّه منحة ، والمشقَّات راحات ، وأعقبه ذلك الانتصار علىالأعداء وشفاء ما في قلبه من الدَّاء .

وهذه الآية نظير قوله تعالى : ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [ سورة آل عمران ١٤٢] . وقوله تعالى : ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [ سورة العنكبوت ١ – ٣] . فعند الامتحان يُكرم المرء أو يُهان .

[٢١٥ – ٢] : ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ .

أي : يسألونك عن النَّفقة ، وهذا يعمُّ السُّؤال عن المُنفِق والمُنفَق عليه ، فأجابهم عنها فقال : ﴿قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ أي : مال قليل أو كثير ، فأولى النَّاس به وأحقهم بالتَّقديم ، أعظمهم حقًّا عليك ، وهُم الوالدان الواجب برّهُما ، والمُحرَّم عقوقهما . ومن أعظم برّهما : النَّفقة عليهما ، ومن أعظم العُقوق : ترك الإنفاق عليهما ، ولهذا كانت النَّفقة عليهما واجبة ، على الولد الموسر ، ومن بعد الوالدين الأقربون على اختلاف طبقاتهم ، الأقرب فالأقرب ، على حسب القُرب والحاجة فالإنفاق عليه صدقة وصِلة .

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ وهُم الصِّغار الَّذين لا كاسب لهم ، فهُم في مظنَّة الحاجة ، لعدم قيامهم بمصالح أنفسهم ، وفقد الكاسب ، فوصَّى اللَّه بهم العباد رحمةً منه بهم ولُطفًا ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ وهُم أهل الحاجات ، وأرباب الضَّرورات الَّذين أسكنتهم الحاجة ، فيُنفَق عليهم ، لدفع حاجاتهم وإغنائهم ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي : الغريب المُنقطع به في غير بلده ، فيُعان على سفره بالنَّفقة ، الَّتي توصله إلى مقصده .

ولمَّا خصَّص اللَّه تعالى هولاء الأصناف لشدَّة الحاجة ، عمَّم تعالى فقال : ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ من صدقةٍ على هؤلاء وغيرهم ، بل ومن جميع أنواع الطَّاعات والقُرُبات ، لأنَّها تدخُل في اسم الخير ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ فيُجازيكم عليه ، ويحفظه لكُم ، كُل على حسبِ نيَّته وإخلاصه ، وكثرة نفقته وقلَّتها ، وشدَّة الحاجة إليها ، وعظيم وقعها ونفعها .

[٢١٦ – ٢] : ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ .

هذه الآية ، فيها فرض القتال في سبيل اللَّه ، بعد ما كان المؤمنون مأمورين بتركه ، لضعفهم ، وعدم احتمالهم لذلك ، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ، وكثر المسلمون ، وقووا أمَرهم اللَّه تعالى بالقتال ، وأخبر أنه مكروه للنفوس ، لما فيه من التعب والمشقة ، وحصول أنواع المخاوف والتعرض للمتالف ، ومع هذا ، فهو خير محض ، لما فيه من الثواب العظيم ، والتحرز من العقاب الأليم ، والنصر على الأعداء والظفر بالغنائم ، وغير ذلك ، مما هو مُرْبٍ ، على ما فيه من الكراهة ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ وذلك مثل القعود عن الجهاد لطلب الراحة ، فإنه شر ، لأنه يعقب الخُذلان ، وتسلُّط الأعداء على الإسلام وأهله ، وحصول الذل والهوان ، وفوات الأجر العظيم وحصول العقاب .

وهذه الآيات عامة مُطَّردة ، في أن أفعال الخير التي تكرهها النفوس لما فيها من المشقة أنها خير بلا شك ، وأن أفعال الشر التي تحب النفوس لما تتوهمه فيها من الراحة واللذة فهي شر بلا شك .

وأما أحوال الدنيا ، فليس الأمر مطردا ، ولكن الغالب على العبد المؤمن ، أنه إذا أحب أمرا من الأمور ، فقيض اللَّه له من الأسباب ما يصرفه عنه أنه خير له ، فالأوفق له في ذلك ، أن يشكر اللَّه ، ويجعل الخير في الواقع ، لأنه يعلم أن اللَّه تعالى أرحم بالعبد من نفسه ، وأقدر على مصلحة عبده منه ، وأعلم بمصلحته منه كما قال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فاللائق بكم أن تتمشوا مع أقداره ، سواء سرتكم أو ساءتكم .

ولما كان الأمر بالقتال ، لو لم يُقيَّد ، لشمل الأشهر الحُرُم وغيرها ، استثنى تعالى ، القتال في الأشهر الحرم فقال :

[٢١٧ – ٢] : ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

الجمهور على أن تحريم القتال في الأشهر الحرم ، منسوخ بالأمر بقتال المشركين حيثما وجدوا ، وقال بعض المفسرين : إنه لم ينسخ ، لأن المطلق محمول على المقيّد ، وهذه الآية مقيّدة لعموم الأمر بالقتال مطلقا ؛ ولأن من جملة مَزِيَّة الأشهر الحُرُم ، بل أكبر مزاياها ، تحريم القتال فيها ، وهذا إنما هو في قتال الابتداء ، وأما قتال الدفع فإنه يجوز في الأشهر الحرم ، كما يجوز في البلد الحرام .

ولما كانت هذه الآية نازلة بسبب ما حصل ، لسرية عبد الله بن جحش ، وقتلهم عمرو بن الحضرمي ، وأخذهم أموالهم ، وكان ذلك - على ما قيل - في شهر رجب ، عيَّرهم المُشركون بالقتال بالأشهر الحرم[٣٢] ، وكانوا في تعييرهم ظالمين ، إذ فيهم من القبائح ما بعضه أعظم مما عيَّروا به المُسلمين .

قال تعالى في بيان ما فيهم : ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي : صد المشركين من يريد الإيمان بالله وبرسوله ، وفتنتهم من آمن به ، وسعيهم في ردهم عن دينهم ، وكفرهم الحاصل في الشهر الحرام ، والبلد الحرام ، الذي هو بمجرده ، كاف في الشر ، فكيف وقد كان في شهر حرام وبلد حرام؟! ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ﴾ أي : أهل المسجد الحرام ، وهُم النبي ﷺ وأصحابه ، لأنهم أحق به من المشركين ، وهم عُمّاره على الحقيقة ، فأخرجوهم ﴿مِنْهُ﴾ ولم يمكنوهم من الوصول إليه ، مع أن هذا البيت سواء العاكف فيه والباد ، فهذه الأمور كل واحد منها ﴿أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ في الشهر الحرام ، فكيف وقد اجتمعت فيهم؟! فعلم أنهم فسقة ظلمة ، في تعييرهم المؤمنين .

ثم أخبر تعالى أنهم لن يزالوا يقاتلون المؤمنين ، وليس غرضهم في أموالهم وقتلهم ، وإنما غرضهم أن يرجعوهم عن دينهم ، ويكونوا كفارا بعد إيمانهم حتى يكونوا من أصحاب السعير ، فهم باذلون قدرتهم في ذلك ، ساعون بما أمكنهم ، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ .

وهذا الوصف عام لكل الكفار ، لا يزالون يقاتلون غيرهم ، حتى يردوهم عن دينهم ، وخصوصا أهل الكتاب ، من اليهود والنصارى ، الذين بذلوا الجمعيّات ، ونشروا الدُّعاة ، وبثُّوا الأطباء ، وبنوا المدارس ، لجذب الأمم إلى دينهم ، وتدخيلهم عليهم ، كل ما يمكنهم من الشبه ، التي تشككهم في دينهم .

ولكن المرجو من الله تعالى ، الذي مَنّ على المؤمنين بالإسلام ، واختار لهم دينه القيِّم ، وأكمل لهم دينه ، أن يتم عليهم نعمته بالقيام به أتم القيام ، وأن يخذل كل من أراد أن يطفئ نوره ، ويجعل كيدهم في نحورهم ، وينصر دينه ، ويعلي كلمته . وتكون هذه الآية صادقة على هؤلاء الموجودين من الكفار ، كما صدقت على من قبلهم : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [ سُورة الأنفال ٣٦] .

---

(٣٢) * أخرجه ابن جرير في « التفسير » ٢/ ٢٠٢ : عن جندب بن عبد الله ، أن رسول الله ﷺ بعث رهطا ، وبعث عليهم عبد الله ابن جحش لقوا ابن الحضرمي فقتلوه ، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى ، فقال المشركون للمسلمين : قتلتم فى الشهر الحرام ، فأنزل الله الآية . قلت : وفي إسناده مجهول ، قال سليمان التيمي : حدثني رجل . وأخرجه ابن منده فى الصحابة من طريق عثمان بن عطاء ، عن أبيه ، عن ابن عباس .

وأخرجه الطبري في تفسيره من وجوه أخرى، تنبئ عن صحة هذا الحديث . راجع « تفسير الطبري » : ٢/ ٢٠٤.

ثم أخبر تعالى أن من ارتد عن الإسلام ، بأن اختار عليه الكفر واستمر على ذلك حتى مات كافرا ، ﴿فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لعدم وجود شرطها وهو الإسلام ، ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ . ودلت الآية بمفهومها ، أن من ارتد ثم عاد إلى الإسلام ، أنه يرجع إليه عمله الذي قبل ردّته ، وكذلك من تاب من المعاصي ، فإنها تعود إليه أعماله المُتقدّمة .

[٢١٨ - ٢] : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

هذه الأعمال الثلاثة ، هي عنوان السعادة وقُطب رحى العُبودية ، وبها يعرف ما مع الإنسان ، من الربح والخسران ، فأما الإيمان ، فلا تسأل عن فضيلته ، وكيف تسأل عن شيء هو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاوة ، وأهل الجنة من أهل النار؟ وهو الذي إذا كان مع العبد ، قبلت أعمال الخير منه ، وإذا عدم منه لم يقبل له صرف ولا عدل ، ولا فرض ، ولا نفل .

وأما الهجرة : فهي مفارقة المحبوب المألوف ، لرضا الله تعالى ، فيترك المهاجر وطنه وأمواله ، وأهله ، وخلانه ، تقرُبا إلى الله ونصرة لدينه .

وأما الجهاد : فهو بذل الجهد في مقارعة الأعداء ، والسعي التام في نصرة دين الله ، وقمع دين الشيطان ، وهو ذروة الأعمال الصالحة ، وجزاؤه ، أفضل الجزاء ، وهو السبب الأكبر ، لتوسيع دائرة الإسلام وخُذلان عباد الأصنام ، وأمن المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأولادهم . فمن قام بهذه الأعمال الثلاثة على لأوائها ومشقتها كان لغيرها أشد قياما به وتكميلا .

فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجُون رحمة الله ، لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمة ، وفي هذا دليل على أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة ، وأما الرجاء المقارن للكسل ، وعدم القيام بالأسباب ، فهذا عجز وتمن وغرور ، وهو دال على ضعف همة صاحبه ، ونقص عقله ، بمنزلة من يرجو وجود ولد بلا نكاح ، ووجود الغلة بلا بذر ، وسقي ، ونحو ذلك .

وفي قوله : ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ إشارة إلى أن العبد ولو أتى من الأعمال بما أتى به لا ينبغي له أن يعتمد عليها ، ويعول عليها ، بل يرجو رحمة ربه ، ويرجو قبول أعماله ومغفرة ذنوبه ، وستر عيوبه .

ولهذا قال : ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ أي : لمن تاب توبة نصوحا ﴿رَحِيمٌ﴾ وسعت رحمته كل شيء ، وعم جوده وإحسانه كل حي . وفي هذا دليل على أن من قام بهذه الأعمال المذكورة ، حصل له مغفرة الله ، إذ الحسنات يذهبن السيئات وحصلت له رحمة الله .

وإذا حصلت له المغفرة ، اندفعت عنه عقوبات الدنيا والآخرة ، التي هي آثار الذنوب ، التي قد غفرت واضمحلت آثارها ، وإذا حصلت له الرحمة ، حصل على كل خير في الدنيا والآخرة ؛ بل أعمالهم المذكورة من رحمة الله بهم ، فلولا توفيقه إياهم ، لم يريدوها ، ولولا إقدارهم عليها ، لم يقدروا عليها ، ولولا إحسانه لم يتمها ويقبلها منهم ، فله الفضل أولا وآخرا ، وهو الذي منّ بالسبب والمسبب .

ثم قال تعالى :

[ ٢١٩: ٢٢٠ - ٢] : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .

أي : يسألك - يا أيها الرسول - المؤمنون عن أحكام الخمر والميسر ، وقد كانا مُستعمَلَيْن في الجاهلية وأول الإسلام ، فكأنه وقع فيهما إشكال ، فلهذا سألوا عن حُكمهما ، فأمر اللّه تعالى نبيّه ، أن يبيّن لهم منافعهما ومضارهما ، ليكون ذلك مقدّمة لتحريمهما ، وتحتيم تركهما . فأخبر أن إثمهما ومضارهما ، وما يصدر منهما من ذهاب العقل والمال ، والصد عن ذكر اللّه ، وعن الصلاة ، والعداوة ، والبغضاء - أكبر مما يظنونه من نفعهما ، من كسب المال بالتجارة بالخمر ، وتحصيله بالقمار والطرب للنفوس ، عند تعاطيهما ، وكان هذا البيان زاجرا للنفوس عنهما ، لأن العاقل يرجّح ما ترجّحت مصلحته ، ويجتنب ما ترجحت مضرّته ، ولكن لما كانوا قد ألفوهما ، وصعب التحتيم بتركهما أول وهلة ، قدم هذه الآية مُقدّمة للتحريم ، الذي ذكره في قوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ إلى قوله : ﴿مُّنتَهُونَ﴾ [ سورة المائدة ٩٠-٩١] .

وهذا من لطفه ورحمته وحكمته ، ولهذا لما نزلت ، قال عمر رضي الله عنه : انتهينا انتهينا . فأما الخمر : فهو كل مسكر خامر العقل وغطاه ، من أي نوع كان ، وأما الميسر : فهو كل المُغالبات التي يكون فيها عوض من الطرفين ، من النرد ، والشطرنج ، وكل مُغالبة قوليّة أو فعليّة ، بعوْض سوى مُسابقة الخيل ، والإبل ، والسهام ، فإنها مُباحة ، لكونها مُعينة على الجهاد ، فلهذا رخص فيها الشارع .[٣٣]

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ . وهذا سؤال عن مقدار ما ينفقونه من أموالهم ، فيسّر اللّه لهم الأمر ، وأمرهم أن ينفقوا العفو ، وهو المُتيسّر من أموالهم ، الذي لا تتعلق به حاجتهم وضرورتهم ، وهذا يرجع إلى كل أحد بحسبه ، من غني وفقير ومتوسط ، كل له قدرة على إنفاق ما عفا من ماله ، ولو شق تمرة .

ولهذا أمر اللّه رسوله ﷺ ، أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وصدقاتهم ، ولا يكلفهم ما يشق عليهم . ذلك بأن اللّه تعالى لم يأمرنا بما أمرنا به حاجة منه لنا ، أو تكليفا لنا « بما يشق » بل أمرنا بما فيه سعادتنا ، وما

---

(٣٣) * يعنى فى مسابقة الخيل ، والإبل ، والسهام .

أخرج النّسائي فى « السّنن الكبرى » :( كتاب عشرة النساء/ باب : وملاعبة الرجل زوجته/ ح ٨٩٤٠: عن عطاء بن أبى رباح قال : رأيت جابر بن عبد اللّه ، وجابر بن عمير الأنصاريين يرتميان ، فملَّ أحدهما فجلس ، فقال له الآخر : كسِلت ؟ ، سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : كل شيء ليس من ذكر اللّه فهو لغو ولهو ، إلا أربعة خصال : مشى بين الغرضين ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته أهله ، وتعليم السباحة .

صحّحه العلامة الألباني - رحمه اللّه - فى : « الصّحيحة » ١ / ٥٦٢ ح ٣١٥ .

يسهل علينا، وما به النفع لنا ولإخواننا فيستحق على ذلك أتم الحمد.

ولما بين تعالى هذا البيان الشافي، وأطلع العباد على أسرار شرعه قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: الدالات على الحق، المحصلات للعلم النافع والفرقان، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: لكي تستعملوا أفكاركم في أسرار شرعه، وتعرفوا أن أوامره، فيها مصالح الدنيا والآخرة، وأيضا لكي تتفكروا في الدنيا وسرعة انقضائها فترفضوها، وفي الآخرة وبقائها، وأنها دار الجزاء فتعمروها.

[٢٢٠ – ٢]: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

لما نـزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [سُورة النّساء ١٠]، شق ذلك على المسلمين، وعزلوا طعامهم عن طعام اليتامى، خوفا على أنفسهم من تناولها، ولو في هذه الحالة التي جرت العادة بالمشاركة فيها، وسألوا النبي ﷺ عن ذلك، فأخبرهم تعالى أن المقصود، إصلاح أموال اليتامى، بحفظها وصيانتها، والاتجار فيها وأن خُلطتهم إياهم في طعام أو غيره جائز على وجه لا يضر باليتامى، لأنهم إخوانكم، ومن شأن الأخ مخالطة أخيه، والمرجع في ذلك إلى النية والعمل، فمن علم الله من نيته أنه مصلح لليتيم، وليس له طمع في ماله، فلو دخل عليه شيء من غير قصد لم يكن عليه بأس، ومن علم الله من نيته، أن قصده بالمخالطة، التوصل إلى أكلها وتناولها، فذلك الذي حرج وأثم، و «الوسائل لها أحكام المقاصد».

وفي هذه الآية، دليل على جواز أنواع المخالطات، في المآكل والمشارب، والعقود وغيرها، وهذه الرخصة، لطف من الله تعالى وإحسان، وتوسعة على المؤمنين، وإلا فـ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أي: شق عليكم بعدم الرخصة بذلك، فحرجتم. وشق عليكم وأثمتم، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: له القوّة الكاملة، والقهر لكُلِّ شيء، ولكنه مع ذلك ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته الكاملة وعنايته التامة، فعزته لا تنافي حكمته، فلا يقال: إنه ما شاء فعل، وافق الحكمة أو خالفها، بل يقال: إن أفعاله وكذلك أحكامه، تابعة لحكمته، فلا يخلق شيئا عبثا، بل لا بد له من حكمة، عرفناها، أم لم نعرفها وكذلك لم يشرع لعباده شيئا مُجرّدًا عن الحكمة، فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة، أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، لتمام حِكمته ورحمته.

[٢٢١ – ٢]: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

أي: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟﴾ النساء ﴿ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ ما دُمْنَ على شِركهن ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ لأن المؤمنة ولو بلغت من الدمامة ما بلغت خير من المشركة، ولو بلغت من الحُسن ما بلغت، وهذه عامّة في جميع النساء المُشركات، وخصصتها آية المائدة، في إباحة نساء أهل الكتاب كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [سُورة المائدة ٥]. ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ وهذا عام لا تخصيص فيه.

ثم ذكر تعالى ، الحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة ، لمن خالفهما في الدين فقال : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ أي : في أقوالهم أو أفعالهم وأحوالهم ، فمخالطتهم على خطر منهم ، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية ، إنما هو الشقاء الأبدي .

ويُستفاد من تعليل الآية ، النهي عن مخالطة كل مُشرك ومُبتدع ، لأنه إذا لم يجز التزوج مع أن فيه مصالح كثيرة فالخلطة المُجرّدة من باب أولى ، وخصوصا ، الخلطة التي فيها ارتفاع المشرك ونحوه على المسلم ، كالخدمة ونحوها .

وفي قوله : ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ دليل على اعتبار الولي في النكاح .

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ أي : يدعو عباده لتحصيل الجنّة والمغفرة ، التي من آثارها ، دفع العقوبات وذلك بالدعوة إلى أسبابها من الأعمال الصالحة ، والتوبة النّصُوح ، والعلم النافع ، والعمل الصالح .

﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي : أحكامه وحكمها ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيوجب لهم ذلك التذكر لما نسوه ، وعلم ما جهلوه ، والامتثال لما ضيّعوه . ثم قال تعالى :

[ ٢٢٢: ٢٢٣ - ٢] : ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ .

يُخبر تعالى عن سؤالهم عن المحيض ، وهل تكون المرأة بحالها بعد الحيض ، كما كانت قبل ذلك ، أم تجتنب مُطلقًا كما يفعله اليهود؟ ، فأخبر تعالى أن الحيض أذى ، وإذا كان أذى ، فمن الحكمة أن يمنع اللّه تعالى عباده عن الأذى وحده ، ولهذا قال : ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾ أي : مكان الحيض ، وهو الوطء في الفرج خاصة ، فهذا هو المحرم إجماعا ، وتخصيص الاعتزال في المحيض ، يدل على أن مباشرة الحائض ومُلامستها ، في غير الوطء في الفرج جائز . لكن قوله : ﴿وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَ﴾ يدل على أن المباشرة فيما قرب من الفرج ، وذلك فيما بين السُّرة والرُّكبة ، ينبغي تركه كما كان النبي ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأته وهي حائض ، أمرها أن تتزر ، فيُباشرها .[٣٤]

وحد هذا الاعتزال وعدم القربان للحُيّض ﴿حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَ﴾ أي : ينقطع دمهن ، فإذا انقطع الدم ، زال

---

(٣٤) * هذا حديث متفق عليه من وجهين :

١ - عن ميمونة - رضي اللّه عنها - : ولفظه : كان رسول اللّه ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه ، أمرها فاتزرت وهي حائض . أخرجه البخاري : ( كتاب الحيض/ باب :مُباشرة الحائض/ ح ٣٠٣ ) . ومُسلم : (كتاب الحيض/ باب : مُباشرة الحائض/ ح ٣ ) .

٢- عن عائشة - رضي اللّه عنها - : ولفظه : كنت اغتسل أنا والنبي ﷺ من إناء واحد كلانا جنب ، وكان يأمرني فأتزر ، فيباشرني وأنا حائض . وأخرجه البخاري : ( كتاب الحيض/ باب : مُباشرة الحائض/ ح ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢ ) . ومسلم : (كتاب الحيض/ باب : مباشرة الحائض/ح ١، ٢ ) .

المنع الموجود وقت جريانه ، الذي كان لحلّه شرطان ، انقطاع الدم ، والاغتسال منه . فلما انقطع الدم ، زال الشرط الأول وبقي الثاني ، فلهذا قال : ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أي : اغتسلن ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي : في القُبل لا في الدُّبر ، لأنه محل الحرث .

وفيه دليل على وجوب الاغتسال للحائض ، وأن انقطاع الدم ، شرط لصحته .

ولما كان هذا المنع لُطفًا منه تعالى بعباده ، وصيانة عن الأذى قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ أي : من ذنوبهم على الدوام ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي : المتنزهين عن الآثام وهذا يشمل التطهر الحسي من الأنجاس والأحداث .

ففيه مشروعية الطهارة مطلقا ، لأن الله يحب المُتَّصِف بها ، ولهذا كانت الطهارة مُطلقا ، شرطا لصحة الصلاة والطواف ، وجواز مس المصحف ، ويشمل التطهر المعنوي عن الأخلاق الرذيلة ، والصفات القبيحة ، والأفعال الخسيسة .

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ مُقبلة ومُدبرة غير أنه لا يكون إلا في القُبل ، لكونه موضع الحرث ، وهو الموضع الذي يكون منه الولد . وفيه دليل على تحريم الوطء في الدبر ، لأن الله لم يبح إتيان المرأة إلا في الموضع الذي منه الحرث ، وقد تكاثرت الأحاديث عن النبي ﷺ في تحريم ذلك ، ولعن فاعله .(٣٥)

﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أي : من التقرب إلى الله بفعل الخيرات ، ومن ذلك أن يُباشر الرجل امرأته ، ويُجامعها على وجه القُربة والاحتساب ، وعلى رجاء تحصيل الذُّرِّيَّة الذين ينفع الله بهم . ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي : في جميع أحوالكم ، كونوا مُلازمين لتقوى الله ، مُستعينين بذلك لعلمكم ، ﴿أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾ ومُجازيكم على أعمالكم الصالحة وغيرها .

ثم قال : ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لم يذكر المُبشَر به ليدل على العُموم ، وأن لهم البُشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وكل خير واندفاع كل ضير ، رُتِّب على الإيمان فهو داخل في هذه البشارة . وفيها محبّة الله للمؤمنين ، ومحبة ما يسرهم ، واستحباب تنشيطهم وتشويقهم بما أعد الله لهم من الجزاء الدنيوي والأخروي .

[٢٢٤ - ٢] : ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

المقصود من اليمين ، والقسم تعظيم المُقْسَم به ، وتأكيد المُقْسَم عليه ، وكان الله تعالى قد أمر بحفظ

---

(٣٥) *عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من أتى كاهنا فصدقه بما يقول ، أو أتى امرأة حائضًا ، أو أتى امرأة في دبرها فقد برئ مما أنزل على محمد . أخرجه أحمد :( ٢ / ٤٠٨ ، ٤٧٦ ) . وصححه العلامة الألباني - رحمه الله - في : « صحيح الجامع » برقم : ٥٩٤٢ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ملعون من أتى امرأة في دبرها . أخرجه أحمد :( ٢ / ٢٧٢ ، ٤٤٤ ، ٤٧٩ ) . وصحّحه العلامة الألباني- رحمه الله - في « صحيح الجامع » برقم : ٥٨٦٠ .

الأيمان ، وكان مُقتضى ذلك حفظها في كل شيء ، ولكن اللّه تعالى استثنى من ذلك إذا كان البر باليمين ، يتضمن ترك ما هو أحب إليه(٣٦) ، فنهى عباده أن يجعلوا أيمانهم عُرضة ، أي : مانعة وحائلة عن أن يبرّوا : أن يفعلوا خيرا ، أو يتّقوا شرا ، أو يُصلحوا بين الناس ، فمن حلف على ترك واجب وجب حنثه ، وحَرُمَ إقامته على يمينه ، ومن حلف على ترك مستحب ، استُحِبَّ له الحنث ، ومن حلف على فعل مُحرَّم ، وجب الحنث ، أو على فعل مكروه استحب الحنث ، وأما المباح فينبغي فيه حفظ اليمين عن الحنث . ويُستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة ، أنه « إذا تزاحمت المصالح ، قدم أهمها » فهنا تتميم اليمين مصلحة ، وامتثال أوامر اللّه في هذه الأشياء ، مصلحة أكبر من ذلك ، فقدمت لذلك . ثم ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين فقال : ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي : لجميع الأصوات ﴿عَلِيمٌ﴾ بالمقاصد والنيّات ، ومنه سماعه لأقوال الحالفين ، وعلمه بمقاصدهم هل هي خير أم شر ، وفي ضمن ذلك التحذير من مُجازاته ، وأن أعمالكم ونيّاتكم ، قد استقر علمها عنده .

ثم قال تعالى :

[٢٢٥ - ٢] : ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ .

أي : لا يؤاخذكم بما يجري على ألسنتكم من الأيمان اللاغية ، التي يتكلّم بها العبد ، من غير قصد منه ولا كسب قلب ، ولكنها جرت على لسانه كقول الرجل في عَرَضِ كلامه : « لا واللّه » و « بلى واللّه » وكحلفه على أمر ماض ، يظن صدق نفسه ، وإنما المُؤاخذة على ما قصده القلب .

وفي هذا دليل على اعتبار المقاصد في الأقوال ، كما هي مُعتبرة في الأفعال . ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن تاب إليه ، ﴿حَلِيمٌ﴾ بمن عصاه ، حيث لم يُعاجله بالعقوبة ، بل حلم عنه وستر ، وصفح مع قدرته عليه ، وكونه بين يديه .

[ ٢٢٦ : ٢٢٧ - ٢] : ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

وهذا من الأيمان الخاصة بالزوجة ، في أمر خاص وهو حلف الزوج على ترك وطء زوجته مُطلقًا ، أو مُقيّدًا ، بأقل من أربعة أشهر أو أكثر . فمن آلى من زوجته خاصة ، فإن كان لدون أربعة أشهر ، فهذا مثل سائر الأيمان ، إن حنث كفر ، وإن أتم يمينه ، فلا شيء عليه ، وليس لزوجته عليه سبيل ، لأنه ملكه أربعة أشهر . وإن كان أبدا ، أو مُدّة تزيد على أربعة أشهر ، ضربت له مدة أربعة أشهر من يمينه ، إذا طلبت زوجته ذلك ،

---

(٣٦) * عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأت الذي هو خير ، وكفر عن يمينك .

متفق عليه . أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه ، منها : ( كتاب الأيمان/ باب : قول اللّه تعالى : ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ ...﴾ /ح ٦٦٢٢ ) - ومسلم : ( ٣ / كتاب الأيمان/ باب : من ندب من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها أنْ يأتي الذي هو خير ، ويُكفِّر عن يمينه /ح ١٩ ) .

وفى الباب : عن أبى موسى الأشعري ، وأبي هريرة ، وعدي بن حاتم وكلها فى الصحيحين .

لأنه حق لها ، فإذا تمت أمر بالفيئة وهو الوطء ، فإن وطئ ، فلا شيء عليه إلا كفارة اليمين ، وإن امتنع ، أجبر على الطلاق ، فإن امتنع ، طلق عليه الحاكم . ولكن الفيئة والرجوع إلى زوجته ، أحب إلى الله تعالى ، ولهذا قال : ﴿فَإِن فَآءُو﴾ أي : رجعوا إلى ما حلفوا على تركه ، وهو الوطء . ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يغفر لهم ما حصل منهم من الحلف ، بسبب رجوعهم .

﴿رَّحِيمٌ﴾ حيث جعل لأيمانهم كفارة وتحلة ، ولم يجعلها لازمة لهم غير قابلة للانفكاك ، ورحيم بهم أيضا ، حيث فاءوا إلى زوجاتهم ، وحنوا عليهن ورحموهن .

﴿وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ﴾ أي : امتنعوا من الفيئة ، فكان ذلك دليلا على رغبتهم عنهن ، وعدم إرادتهم لأزواجهم ، وهذا لا يكون إلا عزما على الطلاق ، فإن حصل هذا الحق الواجب منه مباشرة ، وإلا أجبره الحاكم عليه أو قام به .

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فيه وعيد وتهديد ، لمن يحلف هذا الحلف ، ويقصد بذلك المضارة والمشاقة .

ويُستدل بهذه الآية على أن الإيلاء ، خاص بالزوجة ، لقوله : ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ وعلى وجوب الوطء في كل أربعة أشهر مرة ، لأنه بعد الأربعة ، يُجبر إما على الوطء ، أو على الطلاق ، ولا يكون ذلك إلا لتركه واجبا .

[٢٢٨ - ٢] : ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

أي : النساء اللاتي طَلَّقهُنَّ أزواجهن ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ أي : ينتظرن ويعتددن مُدَّة ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ أي : حيض ، أو أطهار على اختلاف العلماء في المُراد بذلك ، مع أن الصحيح أن القُرء ، الحيض . ولهذه العِدَّةِ عِدّةُ حِكَم ، منها : العلم ببراءة الرحم ، إذا تكررت عليها ثلاثة الأقراء ، علم أنه ليس في رحمها حمل ، فلا يُفضي إلى اختلاط الأنساب ، ولهذا أوجب تعالى عليهن الإخبار عن ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ وحرَّم عليهن ، كتمان ذلك ، من حمل أو حيض ، لأن كتمان ذلك ، يُفضي إلى مفاسد كثيرة ، فكتمان الحمل ، موجب أن تلحقه بغير من هو له ، رغبة فيه واستعجالا لانقضاء العِدَّة ، فإذا ألحقته بغير أبيه ، حصل من قطع الرحم والإرث ، واحتجاب محارمه وأقاربه عنه ، وربما تزوج ذوات محارمه ، وحصل في مقابلة ذلك ، إلحاقه بغير أبيه ، وثبوت توابع ذلك ، من الإرث منه وله ، ومن جعل أقارب الملحق به ، أقارب له ، وفي ذلك من الشر والفساد ، ما لا يعلمه إلا رب العباد ، ولو لم يكن في ذلك ، إلا إقامتها مع من نكاحها باطل في حقه ، وفيه الإصرار على الكبيرة العظيمة ، وهي الزنا لكفى بذلك شرا . وأما كتمان الحيض ، بأن استعجلت وأخبرت به وهي كاذبة ، ففيه من انقطاع حق الزوج عنها ، وإباحتها لغيره وما يتفرع عن ذلك من الشر ، كما ذكرنا ، وإن كذبت وأخبرت بعدم وجود الحيض ، لتطول العِدَّة ، فتأخذ منه نفقة غير واجبة عليه ، بل هي سحت عليها مُحرَّمة من جهتين : من كونها لا تستحقه ، ومن كونها نسبته إلى حكم الشرع وهي كاذبة ، وربما راجعها بعد انقضاء العدة ، فيكون ذلك سِفاحا ، لكونها أجنبية عنه ، فلهذا قال تعالى : ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ

أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ .

فصدور الكتمان منهن دليل على عدم إيمانهن بالله واليوم الآخر ، وإلا فلو آمن بالله واليوم الآخر ، وعرفن أنَّهنَّ مُجزيات عن أعمالهن ، لم يصدر منهن شيء من ذلك .

وفي ذلك دليل على قبول خبر المرأة ، عما تخبر به عن نفسها ، من الأمر الذي لا يطلع عليه غيرها ، كالحيض والحمل ونحوه . ثم قال تعالى : ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي : لأزواجهن ما دامت مُتربِّصة في تلك العِدَّة ، أن يردوهن إلى نكاحهن ﴿إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَـٰحًا﴾ أي : رغبة وألفة ومودة .

ومفهوم الآية أنهم إن لم يريدوا الإصلاح ، فليسوا بأحق بردهن ، فلا يحل لهم أن يراجعوهن ، لقصد المضارة لها ، وتطويل العِدَّة عليها ، وهل يملك ذلك ، مع هذا القصد؟ فيه قولان ، الجمهور على أنه يملك ذلك ، مع التحريم ، والصحيح أنه إذا لم يرد الإصلاح ، لا يملك ذلك ، كما هو ظاهر الآية الكريمة ، وهذه حكمة أخرى في هذا التربُّص ، وهي : أنه ربما أن زوجها ندم على فراقه لها ، فجعلت له هذه المُدَّة ، ليتروَّى بها ويقطع نظره . وهذا يدل على محبَّته تعالى ، للألفة بين الزوجين ، وكراهته للفراق ، كما قال النبي ﷺ : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق »[٣٧] ، وهذا خاص في الطلاق الرجعي ، وأما الطلاق البائن ، فليس البعل بأحق برجعتها ، بل إن تراضيا على التراجع ، فلا بد من عقد جديد مجتمع الشروط .

ثم قال تعالى : ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي : وللنساء على بُعولتهن من الحقوق واللوازم مثل الذي عليهن لأزواجهن من الحقوق اللازمة والمستحبَّة .

ومرجع الحقوق بين الزوجين يرجع إلى المعروف ، وهو : العادة الجارية في ذلك البلد وذلك الزمان من مثلها لمثله ، ويختلف ذلك باختلاف الأزمنة والأمكنة ، والأحوال ، والأشخاص والعوائد .

وفي هذا دليل على أن النفقة والكسوة ، والمعاشرة ، والمسكن ، وكذلك الوطء - الكل يرجع إلى المعروف ، فهذا موجب العقد المطلق .وأما مع الشرط ، فعلى شرطهما ، إلا شرطا أحل حراما ، أو حرَّم حلالا[٣٨] .

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي : رفعة ورياسة ، وزيادة حق عليها ، كما قال تعالى : ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ . ومنصب النبُوَّة والقضاء ، والإمامة الصغرى والكبرى ، وسائر الولايات مُختص بالرجال ، وله ضعفا ما لها في كثير من الأمور ، كالميراث ونحوه .

---

(٣٧) * **ضعيف** : أخرجه أبو داود : ( كتاب الطلاق/ باب : في كراهية الطلاق/ح ٢١٧٨ ) . وابن ماجه :( كتاب الطلاق/ باب : حدثنا سويد بن سعيد/ح ٢٠١٨ ) .عن عبد الله بن عمر ، وهو ضعيف .

وله طرق كثيرة عن عدد من الصحابة ، منهم : معاذ بن جبل ، وعبد الله بن عمرو بن العاصي ، وابن عباس ، وكلها ضعيفة . وضعَّفه العلامة الألباني - رحمه الله - في « الإرواء » : ٧ / ١٠٦ ح ٢٠٤٠.

(٣٨) * صحيح . أخرجه أبو داود : ( كتاب الأقضية/ باب : في الصُّلح/ ح ٣٥٩٤) . وأحمد : ( ٢ / ٣٦٦) . من حديث أبي هريرة . وأخرجه التِّرمذي : ( كتاب الأحكام/ باب : ما ذكر عن رسول الله ﷺ في الصُّلح) . من حديث كثير بن عبد الله المُزني ، عن أبيه ، عن جدِّه . وصحَّحه الألباني -رحمه الله - في : « صحيح الجامع » برقم : ٣٨٦٢.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي : له العزة القاهرة والسلطان العظيم ، الذي دانت له جميع الأشياء ، ولكنه مع عزّته حكيم في تصرفه . ويخرج من عُموم هذه الآية ، الحوامل ، فعدَّتهن وضع الحمل ، واللاتي لم يدخل بهن ، فليس لهن عِدَّة ، والإماء ، فعدَّتهن حيضتان ، كما هو قول الصحابة رضي اللّه عنهم ، وسياق الآيات يدل على أن المُراد بها الحُرَّة .

[٢٢٩ - ٢] : ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

كان الطلاق في الجاهلية ، واستمر أول الإسلام ، يُطلّق الرجل زوجته بلا نهاية ، فكان إذا أراد مُضارتها ، طلَّقها ، فإذا شارفت انقضاء عدتها ، راجعها ، ثم طلَّقها وصنع بها مثل ذلك أبدا ، فيحصل عليها من الضرر ما اللّه به عليم ، فأخبر تعالى أن ﴿ٱلطَّلَٰقُ﴾ أي : الذي تحصل به الرجعة ﴿مَرَّتَانِ﴾ ليتمكّن الزوج إن لم يرد المضارة من ارتجاعها ، ويراجع رأيه في هذه المدة ، وأما ما فوقها ، فليس محلا لذلك ، لأن من زاد على الثنتين ، فإما مُتجرّئ على المُحرَّم ، أو ليس له رغبة في إمساكها ، بل قصده المضارة ، فلهذا أمر تعالى الزوج ، أن يمسك زوجته ﴿بِمَعۡرُوفٍ﴾ أي : عشرة حسنة ، ويجري مجرى أمثاله مع زوجاتهم ، وهذا هو الأرجح ، وإلا يُسرِّحها ويفارقها ﴿بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ ومن الإحسان ، أن لا يأخذ على فراقه لها شيئا من مالها ، لأنه ظلم ، وأخذ للمال في غير مقابلة بشيء ، فلهذا قال : ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ وهي المُخالعة بالمعروف ، بأن كرهت الزوجة زوجها ، لخلقه أو خلقه أو نقص دينه ، وخافت أن لا تطيع اللّه فيه ، ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ لأنه عوض لتحصيل مقصودها من الفرقة ، وفي هذا مشروعية الخلع ، إذا وجدت هذه الحكمة .

﴿تِلۡكَ﴾ أي ما تقدَّم من الأحكام الشرعية ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي : أحكامه التي شرعها لكم ، وأمر بالوقوف معها ، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وأي ظلم أعظم ممن اقتحم الحلال ، وتعدَّى منه إلى الحرام ، فلم يسعه ما أحل اللّه؟ .

والظلم ثلاثة أقسام : ظلم العبد فيما بينه وبين اللّه ، وظلم العبد الأكبر الذي هو الشرك ، وظلم العبد فيما بينه وبين الخلق ، فالشرك لا يغفره اللّه إلا بالتوبة ، وحقوق العباد ، لا يترك اللّه منها شيئا ، والظلم الذي بين العبد وربه فيما دون الشرك ، تحت المشيئة والحكمة .

[ ٢٣٠ : ٢٣١ - ٢] : ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾

يقول تعالى : ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أي : الطلقة الثالثة ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ أي : نكاحا صحيحا ويطؤها ، لأن النكاح الشرعي لا يكون إلا صحيحا ، ويدخل فيه العقد والوطء ، وهذا بالاتفاق .

ويشترط أن يكون نكاح الثاني ، نكاح رغبة ، فإن قصد به تحليلها للأول ، فليس بنكاح ، ولا يفيد التحليل ، ولا يفيد وطء السيد ، لأنه ليس بزوج ، فإذا تزوّجها الثاني راغبا ووطئها ، ثم فارقها وانقضت عدّتها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾ أي : على الزوج الأوّل والزوجة ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ أي : يجددا عقدا جديدا بينهما ، لإضافته التراجع إليهما ، فدل على اعتبار التراضي .

ولكن يشترط في التراجع أن يَظُنَّا ﴿أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ بأن يقوم كل منهما ، بحق صاحبه ، وذلك إذا ندما على عشرتهما السابقة الموجبة للفراق ، وعزما أن يبدّلاها بعشرة حسنة ، فهنا لا جناح عليهما في التراجع .

ومفهوم الآية الكريمة ، أنهما إن لم يَظُنَّا أن يقيما حدود الله ، بأن غلب على ظنهما أن الحال السابقة باقية ، والعشرة السيئة غير زائلة أن عليهما في ذلك جناحا ، لأن جميع الأمور ، إن لم يقم فيها أمر الله ، ويسلك بها طاعته ، لم يحل الإقدام عليها .

وفي هذا دلالة على أنه ينبغي للإنسان ، إذا أراد أن يدخل في أمر من الأمور ، خصوصا الولايات ، الصغار ، والكبار ، نظر في نفسه ، فإن رأى من نفسه قوة على ذلك ، ووثق بها ، أقدم ، وإلا أحجم .

ولمّا بيّن تعالى هذه الأحكام العظيمة قال : ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي : شرائعه التي حددها وبيّنها ووضحها .

﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم هم المنتفعون بها ، النافعون لغيرهم . وفي هذا من فضيلة أهل العلم ، ما لا يخفى ، لأن الله تعالى جعل تبيينه لحدوده ، خاصا بهم ، وأنهم المقصودون بذلك ، وفيه أن الله تعالى يحب من عباده ، معرفة حدود ما أنزل على رسوله والتفقه بها .

ثم قال تعالى : ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي : طلاقا رجعيا بواحدة أو ثنتين . ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي : قاربن انقضاء عدتهن . ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي : إما أن تراجعوهن ، ونيّتكم القيام بحقوقهن ، أو تتركوهن بلا رجعة ولا إضرار ، ولهذا قال : ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ أي : مُضارة بهن ﴿لِّتَعْتَدُوا۟﴾ في فعلكم هذا الحلال ، إلى الحرام ، فالحلال : الإمساك بمعروف والحرام : المُضارة ، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ ولو كان الحق يعود للمخلوق فالضرر عائد إلى من أراد الضرار .

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ لمّا بيّن تعالى حدوده غاية التبيين ، وكان المقصود ، العلم بها والعمل ، والوقوف معها ، وعدم مجاوزتها ، لأنه تعالى لم ينزلها عبثا ، بل أنزلها بالحق والصدق والجد ، نهى عن اتّخاذها هزوا ، أي : لعبا بها ، وهو التّجرّؤ عليها ، وعدم الامتثال لواجبها ، مثل استعمال المُضارة في الإمساك ، أو الفراق ، أو كثرة الطلاق ، أو جمع الثلاث ، والله من رحمته جعل له واحدة بعد واحدة ، رفقا به وسعيا في مصلحته .

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ عموما باللسان ثناء وحمدا ، وبالقلب اعترافا وإقرارا ، وبالأركان بصرفها في طاعة الله ، ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ أي : السُّنَّة اللذين بيّن لكم بهما طرق الخير

ورغبكم فيها ، وطرق الشر وحذركم إياها ، وعرفكم نفسه ووقائعه في أوليائه وأعدائه ، وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون .

وقيل : المُراد بالحكمة أسرار الشريعة ، فالكتاب فيه ، الحكم ، والحكمة فيها ، بيان حكمة الله في أوامره ونواهيه ، وكلا المعنيين صحيح ، ولهذا قال ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ أي : بما أنزل عليكم ، وهذا ممَّا يقوِّي أن المراد بالحكمة ، أسرار الشريعة ، لأن الموعظة ببيان الحكم والحكمة ، والترغيب ، أو الترهيب ، فالحكم به ، يزول الجهل ، والحكمة مع الترغيب ، يوجب الرغبة ، والحكمة مع الترهيب يوجب الرهبة .

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في جميع أموركم ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلهذا بيّن لكم هذه الأحكام بغاية الإحكام والإتقان التي هي جارية مع المصالح في كل زمان ومكان ، فله الحمد والمنّة .

[٢٣٢ – ٢] : ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

هذا خطاب لأولياء المرأة المُطلَّقة دون الثلاث إذا خرجت من العِدّة ، وأراد زوجها أن ينكحها ، ورضيت بذلك ، فلا يجوز لوليها ، من أب وغيره ؛ أن يعضلها ؛ أي : يمنعها من التزوج به حنقا عليه ؛ وغضبا ؛ واشمئزازا لما فعل من الطّلاق الأوّل .

وذكر أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإيمانه يمنعه من العضل ، فإن ذلك أزكى لكم وأطهر وأطيب مما يظن الولي أن عدم تزويجه هو الرأي واللائق وأنه يُقابل بطلاقه الأول بعدم التزويج له ، كما هو عادة المترفعين المتكبرين . فإن كان يظن أن المصلحة في عدم تزويجه ، فالله ﴿يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فامتثلوا أمر من هو عالم بمصالحكم ، مريد لها ، قادر عليها ، مُيسِّرٌ لها من الوجه الذي تعرفون وغيره .

وفي هذه الآية ، دليل على أنه لا بد من الولي في النكاح ، لأنه نهى الأولياء عن العضل ، ولا ينهاهم إلا عن أمر هو تحت تدبيرهم ولهم فيه حق . ثم قال تعالى :

[٢٣٣ – ٢] : ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

هذا خبر بمعنى الأمر ، تنزيلا له منزلة المُتقرّر ، الذي لا يحتاج إلى أمر بأن ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ﴾ .

ولمّا كان الحول ، يطلق على الكامل ، وعلى معظم الحول قال : ﴿كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ﴾ فإذا تم للرضيع حولان ، فقد تم رضاعه وصار اللبن بعد ذلك ، بمنزلة سائر الأغذية ، فلهذا كان الرضاع بعد الحولين ، غير مُعتبر ، لا يُحرِّم .

ويؤخذ من هذا النص ، ومن قوله تعالى : ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ﴾ أن أقل مُدَّة الحمل ستة أشهر ،

وأنه يمكن وجود الولد بها .

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ أي : الأب ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ وهذا شامل لما إذا كانت في حباله أو مُطلَّقة ، فإن على الأب رزقها ، أي : نفقتها وكسوتها ، وهي الأجرة للرضاع .

ودل هذا على أنها إذا كانت في حباله ، لا يجب لها أجرة ، غير النفقة والكسوة ، وكل بحسب حاله ، فلهذا قال : ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ فلا يكلف الفقير أن ينفق نفقة الغني ، ولا من لم يجد شيئا بالنفقة حتى يجد ، ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ﴾ أي : لا يحل أن تضار الوالدة بسبب ولدها ، إما أن تمنع من إرضاعه ، أو لا تعطى ما يجب لها من النفقة ، والكسوة أو الأجرة ، ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ﴾ بأن تمتنع من إرضاعه على وجه المضارة له ، أو تطلب زيادة عن الواجب ، ونحو ذلك من أنواع الضرر .

ودل قوله : ﴿مَوْلُودٌ لَّهُۥ﴾ أن الولد لأبيه ، لأنه موهوب له ، ولأنه من كسبه ، فلذلك جاز له الأخذ من ماله ، رضي أو لم يرض ، بخلاف الأم .

وقوله : ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ﴾ أي : على وارث الطفل إذا عدم الأب ، وكان الطفل ليس له مال ، مثل ما على الأب من النفقة للمرضع والكسوة ، فدل على وجوب نفقة الأقارب المُعسرين ، على القريب الوارث الموسِر ، ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ أي : الأبوان ﴿فِصَالًا﴾ أي : فطام الصبي قبل الحولين ، ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا﴾ بأن يكونا راضيين ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾ فيما بينهما ، هل هو مصلحة للصبي أم لا؟ فإن كان مصلحة ورضيا ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في فطامه قبل الحولين ، فدلّت الآية بمفهومها ، على أنه إن رضي أحدهما دون الآخر ، أو لم يكن مصلحة للطفل ، أنه لا يجوز فطامه .

وقوله : ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ أي : تطلبوا لهم المراضع غير أمهاتهم على غير وجه المضارة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ﴾ أي : للمُرضعات ، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فمُجازيكم على ذلك بالخير والشر .

[٢٣٤ - ٢] : ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًاۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ .

أي : إذا تُوفِّي الزوج ، مكثت زوجته ، مُتربِّصة أربعة أشهر وعشرة أيام وجوبًا ، والحكمة في ذلك ، ليتبيَّن الحمل في مُدَّة الأربعة ، ويتحرك في ابتدائه في الشهر الخامس ، وهذا العام مخصوص بالحوامل ، فإن عِدَّتهن بوضع الحمل ، وكذلك الأَمَة ، عِدَّتها على النصف من عِدَّة الحُرَّة ، شهران وخمسة أيام .

وقوله : ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي : انقضت عِدَّتهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ أي : من مراجعتها للزينة والطيب ، ﴿بِٱلْمَعْرُوفِۗ﴾ أي : على وجه غير مُحرَّم ولا مكروه .

وفي هذا وجوب الإحداد مُدَّة العِدَّة ، على المُتوفَّى عنها زوجها ، دون غيرها من المُطلَّقات والمُفارقات ، وهو مجمع عليه بين العلماء .

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي : عالم بأعمالكم ، ظاهرها وباطنها ، جليّها وخفيّها ، فمُجازيكم عليها .

وفي خطابه للأولياء بقوله : ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ دليل على أن الولي ينظر على المرأة ، ويمنعها مما لا يجوز فعله ويُجبرها على ما يجب ، وأنه مُخاطب بذلك ، واجب عليه .

[٢٣٥ – ٢] : ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًاۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ .

هذا حكم المُعتدَّة من وفاة ، أو المُبانة في الحياة ، فيحرُم على غير مبينها أن يصرِّح لها في الخطبة ، وهو المراد بقوله : ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ وأما التعريض ، فقد أسقط تعالى فيه الجناح .

والفرق بينهما : أن التصريح ، لا يحتمل غير النكاح ، فلهذا حُرِّم ، خوفا من استعجالها ، وكذبها في انقضاء عِدَّتها ، رغبة في النكاح ، ففيه دلالة على منع وسائل المُحرَّم ، وقضاء لحق زوجها الأول ، بعدم مواعدتها لغيره مُدَّة عِدَّتها . وأما التعريض ، وهو الذي يحتمل النكاح وغيره ، فهو جائز للبائن كأن يقول لها : إني أريد التزوج ، وإني أحب أن تشاوريني عند انقضاء عِدَّتك ، ونحو ذلك ، فهذا جائز لأنه ليس بمنزلة الصريح ، وفي النفوس داع قوي إليه .

وكذلك إضمار الإنسان في نفسه أن يتزوج من هي في عِدَّتها ، إذا انقضت ، ولهذا قال : ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ هذا التفصيل كله في مُقدِّمات العقد .

وأما عقد النكاح فلا يحل ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ أي : تنقضي العِدَّة .

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي : فانووا الخير ، ولا تنووا الشر ، خوفا من عقابه ورجاء لثوابه .

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن صدرت منه الذنوب ، فتاب منها ، ورجع إلى ربه ﴿حَلِيمٌ﴾ حيث لم يُعاجل العاصين على معاصيهم ، مع قُدرته عليهم .

[٢٣٦ – ٢] : ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةًۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ .

أي : ليس عليكم يا معشر الأزواج جناح وإثم بتطليق النساء قبل المسيس وفرض المهر ، وإن كان في ذلك كسر لها ؛ فإنه ينجبر بالمُتعة ، فعليكم أن تمتعوهن بأن تُعطُوهن شيئا من المال جبرا لخواطرهن .

﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ﴾ أي : المُعسر ﴿قَدَرُهُۥ﴾ وهذا يرجع إلى العرف ، وأنه يختلف باختلاف الأحوال ولهذا قال : ﴿مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِۖ﴾ فهذا حق واجب ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ليس لهم أن يبخسوهن .

فكما تسبَّبوا لتشوفهن واشتياقهن وتعلق قلوبهن ، ثم لم يعطوهن ما رغبن فيه فعليهم في مقابلة ذلك المتعة .

فلله ما أحسن هذا الحكم الإلهي ، وأدلَّه على حكمة شارعه ورحمته ... « ومن أحسن من الله حكما

لقوم يوقنون؟ » فهذا حكم المُطلَّقات قبل المسيس وقبل فرض المهر . ثم ذكر حكم المفروض لهن فقال :

[٢٣٧ - ٢] : ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

أي : إذا طلَّقتم النساء قبل المسيس بعد فرض المهر ، فللمطلَّقات من المهر المفروض نصفه ، ولكم نصفه .هذا هو الواجب ما لم يدخله عفو ومُسامحة بأن تعفو عن نصفها لزوجها إذا كان يصح عفوها ، ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ﴾ وهو الزوج على الصحيح لأنه الذي بيده حل عقدته ؛ ولأن الولي لا يصح أن يعفو عن ما وجب للمرأة لكونه غير مالك ولا وكيل .

ثم رغَّب في العفو وأن من عفا كان أقرب لتقواه لكونه إحسانا موجبا لشرح الصدر ، ولكون الإنسان لا ينبغي أن يهمل نفسه من الإحسان والمعروف وينسى الفضل الذي هو أعلى درجات المُعاملة ؛ لأن مُعاملة الناس فيما بينهم على درجتين : إما عدل وإنصاف واجب ، وهو : أخذ الواجب ، وإعطاء الواجب . وإما فضل وإحسان ، وهو إعطاء ما ليس بواجب والتسامح في الحقوق والغض مما في النفس ، فلا ينبغي للإنسان أن ينسى هذه الدرجة ولو في بعض الأوقات ، وخُصوصًا لمن بينك وبينه معاملة أو مخالطة ؛ فإن اللَّه مُجازٍ المُحسنين بالفضل والكرم ، ولهذا قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

ثم قال تعالى : [ ٢٣٨: ٢٣٩ - ٢] : ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ .

يأمر بالمُحافظة على الصلوات عمومًا وعلى الصلاة الوسطى وهي العصر خصوصًا ، والمُحافظة عليها أداؤهابوقتها وشروطها وأركانها وخشوعها وجميع ما لها من واجب ومستحب ، وبالمحافظة على الصلوات تحصل المُحافظة على سائر العبادات ، وتفيد النهي عن الفحشاء والمنكر خصوصًا إذا أكملها كما أمر بقوله ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ أي : ذليلين خاشعين ، ففيه الأمر بالقيام والقنوت والنهي عن الكلام والأمر بالخشوع ، هذا مع الأمن والطمأنينة .

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ لم يذكر ما يخاف منه ليشمل الخوف من كافر وظالم وسَبُع ، وغير ذلك من أنواع المخاوف ، أي : إن خفتم بصلاتكم على تلك الصفة فصلوها ﴿رِجَالًا﴾ أي : ماشين على أقدامكم ، ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ على الخيل والإبل وغيرها ، ويلزم على ذلك أن يكونوا مُستقبِلي القبلة وغير مستقبليها ، وفي هذا زيادة التأكيد على المحافظة على وقتها حيث أمر بذلك ولو مع الإخلال بكثير من الأركان والشروط ؛ وأنه لا يجوز تأخيرها عن وقتها ولو في هذه الحالة الشديدة ، فصلاتها على تلك الصورة أحسن وأفضل بل أوجب من صلاتها مطمئنا خارج الوقت ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ أي : زال الخوف عنكم ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الذكر ومنه الصلاة على كمالها وتمامها ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ فإنها نعمة عظيمة ومِنَّة جسيمة تقتضي مقابلتها بالذكر والشكر ليبقي نعمته عليكم ويزيدكم عليها . ثم قال تعالى :

[ ٢٤٠ - ٢] : ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .

أي : الأزواج الذين يموتون ويتركون خلفهم أزواجا فعليهم أن يوصوا ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أي : يوصون أن يلزمن بيوتهم مُدَّة سنة لا يخرجن منها ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ من أنفسهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأولياء ﴿فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي : من مُراجعة الزينة والطيب ونحو ذلك وأكثر المفسرين أن هذه الآية منسوخة بما قبلها وهي قوله : ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ وقيل لم تنسخها بل الآية الأولى دلّت على أن أربعة أشهر وعشر واجبة ، وما زاد على ذلك فهي مُستحبّة ينبغي فعلها تكميلا لحق الزوج ، ومُراعاة للزوجة ، والدليل على أن ذلك مُستحب أنه هنا نفى الجُناح عن الأولياء إن خرجن قبل تكميل الحول ، فلو كان لزوم المسكن واجبا لم ينف الحرج عنهم .

[ ٢٤١ : ٢٤٢ - ٢] : ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

أي : لكل مُطلّقة متاع بالمعروف حقًّا على كل مُتّقٍ ، جبرا لخاطرها وأداء لبعض حقوقها ، وهذه المُتعة واجبة على من طُلّقت قبل المسيس ، والفرض سنة في حق غيرها كما تقدّم ، هذا أحسن ما قيل فيها ، وقيل إن المُتعة واجبة على كل مُطلّقة احتجاجا بعموم هذه الآية ، ولكن القاعدة أن المطلق محمول على المقيّد ، وتقدّم أن اللّه فرض المتعة للمُطلّقة قبل الفرض والمسيس خاصة .

ولما بيّن تعالى هذه الأحكام العظيمة المشتملة على الحكمة والرحمة امتن بها على عباده فقال : ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي : حدوده ، وحلاله وحرامه والأحكام النافعة لكم ، لعلكم تعقلونها فتعرفونها وتعرفون المقصود منها ، فإن من عرف ذلك أوجب له العمل بها ، ثم قال تعالى :

[ ٢٤٣ : ٢٤٥ - ٢] : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

يقص تعالى علينا قصّة الذين خرجوا من ديارهم على كثرتهم واتّفاق مقاصدهم ، بأن الذي أخرجهم منها حذر الموت من وباء أو غيره ، يقصدون بهذا الخروج السلامة من الموت ، ولكن لا يغني حذر عن قدر ، ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ فماتوا ﴿ثُمَّ﴾ إن اللّه تعالى ﴿أَحْيَٰهُمْ﴾ إما بدعوة نبي أو بغير ذلك ، رحمة بهم ولُطفا وحلما ، وبيانا لآياته لخلقه بإحياء الموتى ، ولهذا قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ أي : عظيم ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فلا تزيدهم النعمة شكرا ، بل ربما استعانوا بنعم اللّه

على معاصيه ، وقليل منهم الشكور الذي يعرف النعمة ويقر بها ويصرفها في طاعة المُنعم .

ثم أمر تعالى بالقتال في سبيله ، وهو قتال الأعداء الكفار لإعلاء كلمة الله ونصر دينه ، فقال : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي : فأحسنوا نيَّاتكم واقصدوا بذلك وجه الله ، واعلموا أنه لا يفيدكم القعود عن القتال شيئا ، ولو ظننتم أن في القعود حياتكم وبقاءكم ، فليس الأمر كذلك ، ولهذا ذكر القصَّة السابقة توطئة لهذا الأمر ، فكما لم ينفع الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت خروجهم ، بل أتاهم ما حذروا من غير أن يحتسبوا ، فاعلموا أنكم كذلك .

ولما كان القتال في سبيل الله لا يتم إلا بالنفقة وبذل الأموال في ذلك ، أمر تعالى بالإنفاق في سبيله ورغب فيه ، وسماه قرضا فقال : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فينفق ما تيسر من أمواله في طرق الخيرات ، خصوصا في الجهاد ، والحسن هو الحلال المقصود به وجه الله تعالى ، ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، بحسب حالة المنفق ، ونيته ونفع نفقته والحاجة إليها ، ولما كان الإنسان ربما توهَّم أنه إذا أنفق افتقر دفع تعالى هذا الوهم بقوله : ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ أي : يوسِّع الرزق على من يشاء ويقبضه عمن يشاء ، فالتصرف كله بيديه ومدار الأمور راجع إليه ، فالإمساك لا يبسط الرزق ، والإنفاق لا يقبضه ، ومع ذلك فالإنفاق غير ضائع على أهله ، بل لهم يوم يجدون ما قدَّموه كاملا موفرا مُضاعفا ، فلهذا قال : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيُجازيكم بأعمالكم .

ففي هذه الآيات دليل على أن الأسباب لا تنفع مع القضاء والقدر ، وخُصوصًا الأسباب التي تترك بها أوامر الله .

وفيها : الآية العظيمة بإحياء الموتى أعيانا في هذه الدار .

وفيها : الأمر بالقتال والنفقة في سبيل الله ، وذكر الأسباب الداعية لذلك الحاثة عليه ، من تسميته قرضا ، ومضاعفته ، وأن الله يقبض ويبسط وإليه ترجعون .

[ ٢ - ٢٤٦ : ٢٤٨ ] : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ .

يقصُّ تعالى على نبيِّه قصة الملأ من بني إسرائيل وهم الأشراف والرؤساء ، وخصَّ الملأ بالذكر ، لأنهم

في العادة هم الذين يبحثون عن مصالحهم ليتّفقوا فيتبعهم غيرهم على ما يرونه ، وذلك أنهم أتوا إلى نبي لهم بعد موسى عليه السلام فقالوا له : ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ أي : عيِّن لنا ملكا ﴿نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ليجتمع مُتفرقنا ويقاوم بنا عدونا ، ولعلهم في ذلك الوقت ليس لهم رئيس يجمعهم ، كما جرت عادة القبائل أصحاب البيوت ، كل بيت لا يرضى أن يكون من البيت الآخر رئيس ، فالتمسوا من نبيّهم تعيين مَلِك يرضي الطرفين ويكون تعيينه خاصا لعوائدهم ، وكانت أنبياء بني إسرائيل تسوسهم ، كلما مات نبي خلفه نبي آخر ، فلما قالوا لنبيّهم تلك المقالة ﴿قَالَ﴾ لهم نبيهم ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾ أي : لعلكم تطلبون شيئا وهو إذا كُتِبَ عليكم لا تقومون به ، فعرض عليهم العافية فلم يقبلوها ، واعتمدوا على عزمهم ونيتهم ، فقالوا : ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ أي : أي شيء يمنعنا من القتال وقد ألجأنا إليه ، بأن أخرجنا من أوطاننا وسُبيت ذرارينا ، فهذا موجب لكوننا نُقاتل ولو لم يُكتب علينا ، فكيف مع أنه فرض علينا وقد حصل ما حصل ، ولهذا لما لم تكن نياتهم حسنة ولم يقوَ توكلهم على ربّهم ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟﴾ فجبنوا عن قتال الأعداء وضعفوا عن المصادمة ، وزال ما كانوا عزموا عليه ، واستولى على أكثرهم الخور والجبن ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ فعصمهم الله وثبّتهم وقوّى قلوبهم فالتزموا أمر الله ووطّنوا أنفسهم على مُقارعة أعدائه ، فحازوا شرف الدنيا والآخرة ؛ وأما أكثرهم فظلموا أنفسهم وتركوا أمر الله ، فلهذا قال : ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ مُجيبا لطلبتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ فكان هذا تعيينا من الله الواجب عليهم فيه القبول والانقياد وترك الاعتراض ، ولكن أبوا إلا أن يعترضوا ، فقالوا : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ أي : كيف يكون ملكا وهو دوننا في الشرف والنسب ونحن أحق بالملك منه .

ومع هذا فهو فقير ليس عنده ما يقوم به الملك من الأموال ، وهذا بناء منهم على ظن فاسد ، وهو أن الملك ونحوه من الولايات مُستلزم لشرف النسب وكثرة المال ، ولم يعلموا أن الصفات الحقيقية التي توجب التقديم مُقدَّمة عليها ، فلهذا قال لهم نبيهم : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾ فلزمكم الانقياد لذلك ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ أي : فضّله عليكم بالعلم والجسم ، أي : بقوة الرأي والجسم اللذين بهما تتم أمور المُلك ، لأنه إذا تم رأيه وقوي على تنفيذ ما يقتضيه الرأي المُصيب ، حصل بذلك الكمال ، ومتى فاته واحد من الأمرين اختل عليه الأمر ، فلو كان قوي البدن مع ضعف الرأي ، حصل في المُلك خرق وقهر ومخالفة للمشروع ، قوة على غير حكمة ، ولو كان عالما بالأمور وليس له قوة على تنفيذها لم يفده الرأي الذي لا ينفذه شيئا ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ الفضل كثير الكرم ، لا يخص برحمته وبِرّه العام أحدا عن أحد ، ولا شريفا عن وضيع ، ولكنه مع ذلك ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الفضل فيضعه فيه ، فأزال بهذا الكلام ما في قلوبهم من كل ريب وشك وشبهة لتبيينه أن أسباب الملك متوفرة فيه ، وأن فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده ، ليس له راد ، ولا لإحسانه صاد . ثم ذكر لهم نبيهم أيضًا آية حسية يشاهدونها وهي إتيان التابوت الذي قد فقدوه زمانا طويلا وفي ذلك التابوت سكينة تسكن بها قلوبهم ، وتطمئن لها خواطرهم ،

وفيه بقيّة ممّا ترك آل موسى وآل هارون ، فأتت به الملائكة حاملة له وهم يرونه عيانا .

[ ٢٤٩ : ٢٥٢ - ٢ ] : ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

أي : لمّا تملّك طالوت ببني إسرائيل واستقر له المُلك تجهزوا لقتال عدوهم ، فلمّا فصل طالوت بجنود بني إسرائيل وكانوا عددا كثيرا وجما غفيرا ، امتحنهم بأمر الله ليتبيّن الثابت المُطمئن ممن ليس كذلك فقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ فهو عاص ولا يتبعنا لعدم صبره وثباته ولمعصيته ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي : لم يشرب منه فإنه مني ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ فلا جُناح عليه في ذلك ، ولعل الله أن يجعل فيها بركة فتكفيه ، وفي هذا الابتلاء ما يدل على أن الماء قد قل عليهم ليتحقّق الامتحان ، فعصى أكثرهم وشربوا من النهر الشُّرب المنهي عنه ، ورجعوا على أعقابهم ونكصوا عن قتال عدوهم وكان في عدم صبرهم عن الماء ساعة واحدة أكبر دليل على عدم صبرهم على القتال الذي سيتطاول وتحصل فيه المشقّة الكبيرة ، وكان في رجوعهم عن باقي العسكر ما يزداد به الثابتون توكُّلًا على الله ، وتضرُّعًا واستكانة وتبرُّؤا من حولهم وقوّتهم ، وزيادة صبر لقلتهم وكثرة عدوهم .

فلهذا قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ﴾ أي : النهر ﴿هُوَ﴾ أي : طالوت ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وهم الذين أطاعوا أمر الله ولم يشربوا من النهر الشرب المنهي عنه فرأوا قلّتهم وكثرة أعدائهم ، قالوا أي : قال كثير منهم ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ لكثرتهم وعَددهم وعُددهم ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ﴾ أي : يستيقنون ذلك ، وهم أهل الإيمان الثابت واليقين الراسخ ، مُثبّتين لباقيهم ومُطَمْئِنين لخواطرهم ، وآمرين لهم بالصبر ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي : بإرادته ومشيئته فالأمر لله تعالى ، والعزيز من أعزّه الله ، والذليل من أذلّه الله ، فلا تغني الكثرة مع خذلانه ، ولا تضر القلة مع نصره .

﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر والمعونة والتوفيق ، فأعظم جالب لمعونة الله صبر العبد لله ، فوقعت موعظته في قلوبهم وأثرت معهم .

ولهذا لما برزوا لجالوت وجنوده ﴿قَالُوا﴾ جميعهم ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي : قو قلوبنا ،

وأوزعنا الصبر ، وثبت أقدامنا عن التزلزل والفرار ، وانصرنا على القوم الكافرين .

من هاهنا نعلم أن جالوت وجنوده كانوا كُفارًا ، فاستجاب اللّٰه لهم ذلك الدعاء لإتيانهم بالأسباب الموجبة لذلك ، ونصرهم عليهم ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ﴾ عليه السلام ، وكان مع جنود طالوت ﴿جَالُوتَ﴾ أي : باشر قتل ملك الكُفار بيده لشجاعته وقوّته وصبره ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أي : آتى اللّٰه داود ﴿ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي : مَنّ عليه بتملُكِه على بني إسرائيل مع الحكمة ، وهي النُبوة المُشتملة على الشرع العظيم والصراط المُستقيم ، ولهذا قال : ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ من العلوم الشرعيّة والعلوم السياسيّة ، فجمع اللّٰه له المُلك والنُبوة ، وقد كان مَن قبله مِن الأنبياء يكون الملك لغيرهم ، فلما نصرهم اللّٰه تعالى اطمأنوا في ديارهم وعبدوا اللّٰه آمنين مطمئنين لخذلان أعدائهم وتمكينهم من الأرض ، وهذا كله من آثار الجهاد في سبيله ، فلو لم يكن لم يحصل ذلك فلهذا قال تعالى : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي : لولا أنه يدفع بمن يُقاتل في سبيله كيد الفُجّار وتكالب الكُفّار لفسدت الأرض باستيلاء الكُفار عليها وإقامتهم شعائر الكُفر ومنعهم من عبادة اللّٰه تعالى ، وإظهار دينه ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾حيث شرع لهم الجهاد الذي فيه سعادتهم والمُدافعة عنهم ومكّنهم من الأرض بأسباب يعلمونها ، وأسباب لا يعلمونها .

ثم قال تعالى : ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي : بالصدق الذي لا ريب فيها المتضمّن للاعتبار والاستبصار وبيان حقائق الأمور ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فهذه شهادة من اللّٰه لرسوله برسالته التي من جُملة أدلّتها ما قصّه اللّٰه عليه من أخبار الأمم السالفين والأنبياء وأتباعهم وأعدائهم التي لولا خبر اللّٰه إيّاه لما كان عنده بذلك علم بل لم يكن في قومه من عنده شيء مّنْ هذه الأمور ، فدل أنه رسول اللّٰه حقًّا ونبيّه صدقا الذي بعثه بالحق ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

وفي هذه القصّة من الآيات والعبر ما يتذكر به أولو الألباب ، فمنها : أن اجتماع أهل الكلمة والحل والعقد وبحثهم في الطريق الذي تستقيم به أمورهم وفهمه ، ثم العمل به ، أكبر سبب لارتقائهم وحُصول مقصودهم ، كما وقع لهؤلاء الملأ حين راجعوا نبيّهم في تعيين مَلِك تجتمع به كلمتهم ويلم متفرّقهم ، وتحصل له الطاعة منهم ، ومنها : أن الحق كُلما عُورض وأوردت عليه الشُبه ازداد وضوحا وتميّز وحصل به اليقين التام كما جرى لهؤلاء ، لما اعترضوا على استحقاق طالوت للمُلك أجيبوا بأجوبة حصل بها الإقناع وزوال الشبه والريب . ومنها : أن العلم والرأي : مع القوّة المُنفذة بهما كمال الولايات ، وبفقدهما أو فقد أحدهما نقصانها وضررها . ومنها : أن الاتكال على النفس سبب الفشل والخذلان ، والاستعانة بالله والصبر والالتجاء إليه سبب النصر ، فالأوّل كما في قولهم لنبيهم ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ [ سورة البقرة ٢٤٦ ] . فكأنه نتيجة ذلك أنه لما كُتب عليهم القتال تولّوا ، والثاني في قوله : ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ . ومنها : أن من حكمة اللّٰه تعالى تمييز الخبيث من الطيّب ، والصادق من الكاذب ، والصابر من الجبان ، وأنه لم يكن ليذر العباد على ما هم عليه من الاختلاط وعدم

التمييز . ومنها : أن من رحمته وسُننه الجارية أن يدفع ضرر الكُفَّار والمُنافقين بالمُؤمنين المُقاتلين ، وأنه لولا ذلك لفسدت الأرض باستيلاء الكُفر وشعائره عليها ، ثم قال تعالى :

[٢٥٣ - ٢] : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾

يُخبر تعالى أنه فضَّل بعض الرسل على بعض بما خصهم من بين سائر الناس بإيحائه وإرسالهم إلى الناس ، ودعائهم الخلق إلى اللّٰه ، ثم فضل بعضهم على بعض بما أودع فيهم من الأوصاف الحميدة والأفعال السديدة والنفع العام ، فمنهم من كلّمه اللّٰه كموسى بن عمران خصّه بالكلام ، ومنهم من رفعه على سائرهم درجات كنبيّنا ﷺ الذي اجتمع فيه من الفضائل ما تفرّق في غيره ، وجمع اللّٰه له من المناقب ما فاق به الأوّلين والآخرين ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ الدالات على نبوّته وأنه عبد اللّٰه ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي : بالإيمان واليقين الذي أيدّه به اللّٰه وقوّاه على ما أمر به ، وقيل أيدّه بجبريل عليه السلام يلازمه في أحواله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الموجبة للاجتماع على الإيمان ﴿وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ فكان موجب هذا الاختلاف التفرق والمُعاداة والمُقاتلة ، ومع هذا فلو شاء اللّٰه بعد هذا الاختلاف ما اقتتلوا ، فدل ذلك على أن مشيئة اللّٰه نافذة غالبة للأسباب ، وإنما تنفع الأسباب مع عدم مُعارضة المشيئة ، فإذا وجدت اضمحل كل سبب ، وزال كل موجب ، فلهذا قال ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ . فإرادته غالبة ومشيئته نافذة ، وفي هذا ونحوه دلالة على أن اللّٰه تعالى لم يزل يفعل ما اقتضته مشيئته وحكمته ، ومن جملة ما يفعله ما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله ﷺ من الاستواء والنزول والأقوال ، والأفعال التي يُعبرون عنها بالأفعال الاختيارية .

فائدة : كما يجب على المُكلف معرفته بربّه ، فيجب عليه معرفته برسله ، ما يجب لهم ويمتنع عليهم ويجوز في حقهم ، ويؤخذ جميع ذلك مما وصفهم اللّٰه به في آيات مُتعددة ، منها : أنهم رجال لا نساء ، من أهل القرى لا من أهل البوادي ، وأنهم مُصطفون مختارون ، جمع اللّٰه لهم من الصفات الحميدة ما به الاصطفاء والاختيار ، وأنهم سالمون من كل ما يقدح في رسالتهم من كذب وخيانة وكتمان وعيوب مزرية ، وأنهم لا يُقرون على خطأ فيما يتعلّق بالرسالة والتكليف ، وأن اللّٰه تعالى خصّهم بوحيه ، فلهذا وجب الإيمان بهم وطاعتهم ومن لم يؤمن بهم فهو كافر ، ومن قدح في واحد منهم أو سبه فهو كافر يتحتم قتله ، ودلائل هذه الجمل كثيرة ، من تدبرّ القرآن تبيّن له الحق ، ثم قال تعالى :

[٢٥٤ - ٢] : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

وهذا مِن لُطف اللّه بعباده أن أمرهم بتقديم شيء مما رزقهم اللّه ، من صدقة واجبة ومُستحبَّة ، ليكون لهم ذُخرا وأجرا موفرا في يوم يحتاج فيه العاملون إلى مِثقال ذرة من الخير ، فلا بيع فيه ولو افتدى الإنسان نفسه بملء الأرض ذهبا ليفتدي به من عذاب يوم القيامة ما تُقبِّل منه ، ولم ينفعه خليل ولا صديق لا بوجاهة ولا بشفاعة ، وهو اليوم الذي فيه يخسر المبطلون ويحصل الخزي على الظالمين ، وهم الذين وضعوا الشيء في غير موضعه ، فتركوا الواجب من حق اللّه وحق عباده وتعدوا الحلال إلى الحرام ، وأعظم أنواع الظلم الكفر بالله الذي هو وضع العبادة التي يتعين أن تكون للّه فيصرفها الكافر إلى مخلوق مثله ، فلهذا قال تعالى : ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ . وهذا من باب الحصر ، أي : الذين ثبت لهم الظلم التام ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [سُورة لُقمان ١٣] ، ثم قال تعالى :

[٢٥٥ - ٢] : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾

هذه الآية الكريمة أعظم آيات القرآن وأفضلها وأجلّها ، وذلك لما اشتملت عليه من الأمور العظيمة والصفات الكريمة ، فلهذا كثرت الأحاديث في الترغيب في قراءتها وجعلها وِرْدًا للإنسان في أوقاته صباحا ومساء وعند نومه وأدبار الصلوات المكتوبات ، فأخبر تعالى عن نفسه الكريمة بأن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي : لا معبودَ بحق سواه ، فهو الإله الحق الذي تتعيَّن أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتَّأله له تعالى ، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه ، ولكون العبد مُستحقًا أن يكون عبدا لربه ، مُمتثلا أوامره مُجتنبا نواهيه ، وكل ما سوى اللّه تعالى باطل ، فعبادة ما سواه باطلة ، لكون ما سوى اللّه مخلوقًا ناقصًا مُدبرًا فقيرًا من جميع الوجوه ، فلم يستحق شيئا من أنواع العبادة .

وقوله : ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ هذان الاسمان الكريمان يدُلَّان على سائر الأسماء الحسنى دلالة مطابقة وتضمُّنا ولزوما ، فالحي من له الحياة الكاملة المُستلزمة لجميع صفات الذات ، كالسمع والبصر والعلم والقدرة ، ونحو ذلك ، والقيوم : هو الذي قام بنفسه وقام بغيره ، وذلك مُستلزم لجميع الأفعال التي اتصف بها رب العالمين من فعله ما يشاء من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء ، وسائر أنواع التدبير ، كل ذلك داخل في قيومية الباري ، ولهذا قال بعض المُحققين : إنهما الاسم الأعظم الذي إذا دعي اللّه به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ، ومن تمام حياته وقيوميته أنَّه ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ والسِّنَة النعاس ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي : هو المالك وما سواه مملوك وهو الخالق الرازق المدبر وغيره مخلوق مرزوق مُدبَّر لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض فلهذا قال : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أي : لا أحد يشفع عنده بدون إذنه ، فالشفاعة كلها للّه تعالى ، ولكنه تعالى إذا أراد أن يرحم من يشاء من عباده أذن لمن أراد أن يكرمه من عباده أن يشفع فيه ، لا يبتدئ الشافع قبل الإذن ، ثم قال : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ . أي : ما مضى من جميع الأمور ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي : ما يستقبل منها ، فعلمه تعالى محيط بتفاصيل الأمور ، متقدمها ومتأخرها ، بالظواهر والبواطن ، بالغيب

والشهادة ، والعباد ليس لهم من الأمر شيء ولا من العلم مثقال ذرة إلا ما علّمهم تعالى ، ولهذا قال : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وهذا يدل على كمال عظمته وسعة سلطانه ، إذا كان هذه حالة الكرسي أنه يسع السماوات والأرض على عظمتهما وعظمة من فيهما ، والكرسي ليس أكبر مخلوقات اللّه تعالى ، بل هنا ما هو أعظم منه وهو العرش ، وما لا يعلمه إلا هو ، وفي عظمة هذه المخلوقات تحير الأفكار وتكل الأبصار ، وتقلقل الجبال وتكع عنها فحول الرجال ، فكيف بعظمة خالقها ومبدعها ، والذي أودع فيها من الحِكَم والأسرار ما أودع ، والذي قد أمسك السماوات والأرض أن تزولا من غير تعب ولا نصب ، فلهذا قال : ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ أي : يُثقله ﴿حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ بذاته فوق عرشه ، العلي بقهره لجميع المخلوقات ، العلي بقدره لكمال صفاته ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي تتضائل عند عظمته جبروت الجبابرة ، وتصغر في جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة ، فسبحان من له العظمة العظيمة والكبرياء الجسيمة والقهر والغلبة لكل شيء ، فقد اشتملت هذه الآية على توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات ، وعلى إحاطة مُلْكِه وإحاطة علمه وسعة سلطانه وجلاله ومجده ، وعظمته وكبريائه وعلوه على جميع مخلوقاته ، فهذه الآية بمفردها عقيدة في أسماء اللّه وصفاته ، مُتضمّنة لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلا ، ثم قال تعالى :

[ ٢٥٦: ٢٥٧ – ٢] : ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

يُخبر تعالى أنه لا إكراه في الدين لعدم الحاجة إلى الإكراه عليه ، لأن الإكراه لا يكون إلا على أمر خفية أعلامه ، غامضة أثاره ، أو أمر في غاية الكراهة للنفوس ، وأما هذا الدين القويم والصراط المُستقيم فقد تبيَّنت أعلامه للعقول ، وظهرت طرقه ، وتبيَّن أمره ، وعُرِف الرشد من الغي ، فالموفَّق إذا نظر أدنى نظر إليه آثره واختاره ، وأما من كان سيئ القصد فاسد الإرادة ، خبيث النفس يرى الحق فيختار عليه الباطل ، ويبصر الحسن فيميل إلى القبيح ، فهذا ليس للّه حاجة في إكراهه على الدين ، لعدم النتيجة والفائدة فيه ، والمُكره ليس إيمانه صحيحا ، ولا تدل الآية الكريمة على ترك قتال الكُفَّار المُحاربين ، وإنما فيها أن حقيقة الدين من حيث هو موجب لقبوله لكل مُنصِف قصده اتباع الحق ، وأما القتال وعدمه فلم تتعرض له ، وإنما يؤخذ فرض القتال من نصوص أخر ، ولكن يُستدل في الآية الكريمة على قبول الجزية من غير أهل الكتاب ، كما هو قول كثير من العلماء ، فمن يكفر بالطاغوت فيترك عبادة ما سوى اللّه وطاعة الشيطان ، ويؤمن بالله إيمانا تاما أوجب له عبادة ربه وطاعته ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي : بالدين القويم الذي ثبتت قواعده ورسخت أركانه ، وكان المتمسك به على ثقة من أمره ، لكونه استمسك بالعروة الوثقى التي ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ وأما من عكس القضية فكفر بالله وآمن بالطاغوت ، فقد أطلق هذه العروة الوثقى التي بها العصمة والنجاة ، واستمسك بكل باطل مآله إلى الجحيم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فيُجازي كلا منهما بحسب ما علمه

منهم من الخير والشر ، وهذا هو الغاية لمن استمسك بالعروة الوثقى ولمن لم يستمسك بها . ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك فقال : ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهذا يشمل ولايتهم لربهم ، بأن تولوه فلا يبغون عنه بدلا ولا يشركون به أحدا ، قد اتَّخذوه حبيبا ووليا ، ووالوا أولياءه وعادوا أعداءه ، فتولاهم بلُطفه ومنَّ عليهم بإحسانه ، فأخرجهم من ظلمات الكفر والمعاصي والجهل إلى نور الإيمان والطاعة والعلم ، وكان جزاؤهم على هذا أن سلَّمهم من ظلمات القبر والحشر والقيامة إلى النعيم المُقيم والرَّاحة والفُسحة والسُّرور ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ﴾ فتولوا الشيطان وحزبه ، واتَّخذوه من دون اللّه وليا ووالوه وتركوا ولاية ربهم وسيدهم ، فسلطهم عليهم عقوبة لهم فكانوا يؤزونهم إلى المعاصي أزًّا ، ويزعجونهم إلى الشر إزعاجا ، فيخرجونهم من نور الإيمان والعلم والطاعة إلى ظلمة الكفر والجهل والمعاصي ، فكان جزاؤهم على ذلك أن حرموا الخيرات ، وفاتهم النعيم والبهجة والمسرَّات ، وكانوا من حزب الشيطان وأوليائه في دار الحسرة ، فلهذا قال تعالى : ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ .

[٢٥٨ - ٢] : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ أي : إلى جرائته وتجاهله وعناده ومُحاجته فيما لا يقبل التشكيك ، وما حمله على ذلك إلا ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ فطغى وبغى ورأى نفسه مترئِّسا على رعيته ، فحمله ذلك على أن حاج إبراهيم في ربوبية اللّه فزعم أنه يفعل كما يفعل اللّه ، فقال إبراهيم ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي : هو المُنفرد بأنواع التصرف ، وخص منه الإحياء والإماتة لكونهما أعظم أنواع التدابير ، ولأن الإحياء مبدأ الحياة الدنيا والإماتة مبدأ ما يكون في الآخرة ، فقال ذلك المُحاج : ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ ولم يقل أنا الذي أحيي وأميت ، لأنه لم يدع الاستقلال بالتصرُّف ، وإنما زعم أنه يفعل كفعل اللّه ويصنع صنعه ، فزعم أنه يقتل شخصا فيكون قد أماته ، ويستبقي شخصا فيكون قد أحياه ، فلما رآه إبراهيم يُغالط في مُجادلته ويتكلم بشيء لا يصلح أن يكون شبهة فضلا عن كونه حجة ، اطرد معه في الدليل فقال إبراهيم : ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾ أي : عيانا يقر به كل أحد حتى ذلك الكافر ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ وهذا إلزام له بطرد دليله إن كان صادقا في دعواه ، فلما قال له أمرا لا قوة له في شبهة تشوش دليله ، ولا قادحا يقدح في سبيله ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ﴾ أي : تحيَّر فلم يرجع إليه جوابا وانقطعت حجته وسقطت شبهته ، وهذه حالة المبطل المعاند الذي يريد أن يقاوم الحق ويغالبه ، فإنه مغلوب مقهور ، فلذلك قال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ . بل يبقيهم على كفرهم وضلالهم ، وهم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك ، وإلا فلو كان قصدهم الحق والهداية لهداهم إليه ويسر لهم أسباب الوصول إليه ، ففي هذه الآية برهان قاطع على تفرد الرب بالخلق والتدبير ، ويلزم من ذلك أن يُفرد بالعبادة والإنابة والتوكل عليه في جميع الأحوال .

قال ابن القيم رحمه اللّه : وفي هذه المناظرة نكتة لطيفة جدا ، وهي أن شرك العالَم إنما هو مستند إلى

عبادة الكواكب والقبور ، ثم صُوِّرت الأصنام على صورها ، فتضمن الدليلان اللذان استدل بهما إبراهيم إبطال إلهيّة تلك جملة بأن الله وحده هو الذي يُحيي ويُميت ، ولا يصلح الحي الذي يموت للإلهية لا في حال حياته ولا بعد موته ، فإن له ربًا قادرا قاهرا مُتصرفًا فيه إحياء وإماتة ، ومن كان كذلك فكيف يكون إلها حتى يتّخذ الصنم على صورته ، ويعبد من دونه ، وكذلك الكواكب أظهرها وأكبرها للحس هذه الشمس وهي مربوبة مُدبَّرة مُسخَّرة ، لا تصرُّف لها بنفسها بوجه ما ، بل ربها وخالقها سبحانه يأتي بها من مشرقها فتنقاد لأمره ومشيئته ، فهي مربوبة مُسخَّرة مُدبرة ، لا إله يعبد مَن دون الله . « من مفتاح دار السعادة » . ثم قال تعالى :

[٢٥٩ - ٢] : ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

وهذا أيضًا دليل آخر على توحُّد الله بالخلق والتدبير والإماتة والإحياء ، فقال : ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي : قد باد أهلها وفني سكانها وسقطت حيطانها على عروشها ، فلم يبق بها أنيس بل بقيت موحشة من أهلها مُقفرة ، فوقف عليها ذلك الرجل مُتعجبًا و ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ استبعادا لذلك وجهلا بقُدرة الله تعالى ، فلما أراد الله به خيرا أراه آية في نفسه وفي حماره ، وكان معه طعام وشراب ، ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ استقصارا لتلك المُدة التي مات فيها لكونه قد زالت معرفته وحواسه وكان عهد حاله قبل موته ، فقيل له : ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي : لم يتغيَّر بل بقي على حاله على تطاول السنين واختلاف الأوقات عليه ، ففيه أكبر دليل على قدرته حيث أبقاه وحفظه عن التغيُّر والفساد ، مع أن الطعام والشراب من أسرع الأشياء فسادا ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ وكان قد مات وتمزَّق لحمه وجلده وانتثرت عظامه ، وتفرَّقت أوصاله ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ على قُدرة الله وبعثه الأموات من قبورهم ، لتكون أنموذجا محسوسا مشاهدا بالأبصار ، فيعلموا بذلك صحة ما أخبرت به الرسل ﴿لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ أي : ندخل بعضها في بعض ، ونركب بعضها ببعض ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ فنظر إليها عيانا كما وصفها الله تعالى ، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ ذلك وعلم قدرة الله تعالى ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

والظاهر من سياق الآية أن هذا رجل مُنكر للبعث أراد الله به خيرا ، وأن يجعله آية ودليلا للناس لثلاثة أوجه : أحدها قوله : ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ولو كان نبيًا أو عبدًا صالحًا لم يقل ذلك ، والثاني : أن الله أراه آية في طعامه وشرابه وحماره ونفسه ليراه بعينه فيُقر بما أنكره ، ولم يذكر في الآية أن القرية المذكورة عمرت وعادت إلى حالتها ، ولا في السياق ما يدل على ذلك ، ولا في ذلك كثير فائدة ، ما الفائدة

الدالة على إحياء اللّٰه للموتى في قرية خربت ثم رجع إليها أهلها أو غيرهم فعمروها؟! وإنما الدليل الحقيقي في إحيائه وإحياء حماره وإبقاء طعامه وشرابه بحاله ، والثالث : في قوله : ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ أي : تبيّن له أمر كان يجهله ويخفى عليه ، فعلم بذلك صحة ما ذكرناه ، واللّٰه أعلم . ثم قال تعالى :

[٢٦٠ - ٢] : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .

وهذا فيه أيضًا أعظم دلالة حسيّة على قُدرة اللّٰه وإحيائه الموتى للبعث والجزاء ، فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم أنه سأله أن يُريه ببصره كيف يُحيي الموتى ، لأنه قد تيقّن ذلك بخبر اللّٰه تعالى ، ولكنه أحب أن يشاهده عيانًا ليحصل له مرتبة عين اليقين ، فلهذا قال اللّٰه له : ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾ وذلك أنه بتوارد الأدلّة اليقينية مما يزداد به الإيمان ويكمل به الإيقان ويسعى في نيله أولو العرفان ، فقال له ربه ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي : ضُمَّهنّ ليكون ذلك بمرأى منك ومشاهدة وعلى يديك . ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي : مزقهن ، اخلط أجزاءهن بعضها ببعض ، واجعل على كل جبل ، أي : من الجبال التي في القرب منه ، جزء من تلك الأجزاء ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ﴾ أي : تحصل لهن حياة كاملة ، ويأتينك في هذه القوة وسرعة الطيران ، ففعل إبراهيم عليه السلام ذلك وحصل له ما أراد وهذا من ملكوت السماوات والأرض الذي أراه اللّٰه إياه في قوله : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام٧٥] . ثم قال : ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ . أي : ذو قوة عظيمة سخّر بها المخلوقات ، فلم يستعص عليه شيء منها ، بل هي منقادة لعزته خاضعة لجلاله ، ومع ذلك فأفعاله تعالى تابعة لحكمته ، لا يفعل شيئا عبثا ، ثم قال تعالى :

[٢٦١ - ٢] : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾

هذا بيان للمُضاعفة التي ذكرها اللّٰه في قوله ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ﴾ [سُورة البقرة ٢٤٥] . وهنا قال : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي : في طاعته ومرضاته ، وأولاها إنفاقها في الجهاد في سبيله ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ﴾ وهذا إحضار لصورة المضاعفة بهذا المثل ، الذي كان العبد يشاهده ببصره فيشاهد هذه المضاعفة ببصيرته ، فيقوى شاهد الإيمان مع شاهد العيان ، فتنقاد النفس مذعنة للإنفاق سامحة بها مؤملة لهذه المضاعفة الجزيلة والمنّة الجليلة ، ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ﴾ هذه المضاعفة ﴿لِمَن يَشَآءُ ۗ﴾ أي : بحسب حال المنفق وإخلاصه وصدقه وبحسب حال النفقة وحلها ونفعها ووقوعها موقعها ، ويحتمل أن يكون ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ﴾ أكثر من هذه المضاعفة ﴿لِمَن يَشَآءُ ۗ﴾ فيعطيهم أجرهم بغير حساب ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ الفضل ، واسع العطاء ، لا ينقصه نائل ولا يحفيه سائل ، فلا يتوهم المُنفق أن تلك المُضاعفة فيها نوع مُبالَغة ، لأن اللّٰه

تعالى لا يتعاظمه شيء ولا ينقصه العطاء على كثرته ، ومع هذا فهو ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق هذه المُضاعفة ومن لا يستحقَّها ، فيضع المضاعفة في موضعها لكمال علمه وحكمته .

[٢٦٢ – ٢] : ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾ .

أي : الذين ينفقون أموالهم في طاعة اللّه وسبيله ، ولا يُتبعونها بما ينقصها ويفسدها من المَن بها على المنفق عليه بالقلب أو باللسان ، بأن يُعدِّد عليه إحسانه ويطلب منه مُقابلته ، ولا أذيَّة له قوليَّة أو فعليَّة ، فهؤلاء لهم أجرهم اللائق بهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فحصل لهم الخير واندفع عنهم الشر لأنهم عملوا عملا خالصا للّه سالما من المُفسدات .

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي : تعرفه القلوب ولا تُنكره ، ويدخل في ذلك كل قول كريم فيه إدخال السرور على قلب المسلم ، ويدخل فيه رد السائل بالقول الجميل والدعاء له ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لمن أساء إليك بترك مؤاخذته والعفو عنه ، ويدخل فيه العفو عمَّا يصدر من السائل ممَّا لا ينبغي ، فالقول المعروف والمغفرة خير من الصدقة التي يتبعها أذى ، لأن القول المعروف إحسان قولي ، والمغفرة إحسان أيضًا بترك المؤاخذة ، وكلاهما إحسان ما فيه مُفسد ، فهما أفضل من الإحسان بالصدقة التي يتبعها أذى بمنّ أو غيره .

ومفهوم الآية أن الصدقة التي لا يتبعها أذى أفضل من القول المعروف والمغفرة ، وإنما كان المنّ بالصدقة مفسدًا لها مُحرَّمًا ، لأن المنّة للّه تعالى وحده ، والإحسان كله للّه ، فالعبد لا يَمُنّ بنعمة اللّه وإحسانه وفضله وهو ليس منه ، وأيضا فإن المانّ مستعبِدٌ لمن يمنّ عليه ، والذل والاستعباد لا ينبغي إلا للّه ، واللّه غني بذاته عن جميع مخلوقاته ، وكلها مفتقرة إليه بالذات في جميع الحالات والأوقات ، فصدقتكم وإنفاقكم وطاعاتكم يعود مصلحتها إليكم ونفعها إليكم .

﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ عنها ، ومع هذا فهو ﴿حَلِيمٌ﴾ على من عصاه لا يُعاجله بعقوبة مع قدرته عليه ، ولكن رحمته وإحسانه وحلمه يمنعه من مُعاجلته للعاصين ، بل يمهلهم ويصرّف لهم الآيات لعلهم يرجعون إليه وينيبون إليه ، فإذا علم تعالى أنه لا خير فيهم ولا تغني عنهم الآيات ولا تفيد بهم المثلات أنزل بهم عقابه وحرمهم جزيل ثوابه .

[٢٦٤ – ٢] : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ .

ينهى عباده تعالى لُطفا بهم ورحمة عن إبطال صدقاتهم بالمنّ والأذى ففيه أن المنّ والأذى يبطل الصدقة ، ويُستدل بهذا على أن الأعمال السيئة تُبطل الأعمال الحسنة ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [ سورة الحُجرات٢] . فكما أن الحسنات

يُذهبن السيئات فالسيئات تُبطل ما قابلها من الحسنات ، وفي هذه الآية مع قوله تعالى : ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ [ سورة محمد ٣٣] .

حث على تكميل الأعمال وحفظها من كل ما يفسدها لئلا يضيع العمل سُدى ، وقوله : ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي : أنتم وإن قصدتم بذلك وجه الله في ابتداء الأمر ، فإن المنّة والأذى مبطلان لأعمالكم ، فتصير أعمالكم بمنزلة الذي يعمل لمُراءاة الناس ولا يريد به الله والدار الآخرة ، فهذا لا شك أن عمله من أصله مردود ، لأن شرط العمل أن يكون لله وحده وهذا في الحقيقة عمل للناس لا لله ، فأعماله باطلة وسعيه غير مشكور ، فمثله المطابق لحاله ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وهو الحجر الأملس الشديد ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ أي : مطر غزير ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ أي : ليس عليه شيء من التراب ، فكذلك حال هذا المُرائي ، قلبه غليظ قاس بمنزلة الصفوان ، وصدقته ونحوها من أعماله بمنزلة التراب الذي على الصفوان ، إذا رآه الجاهل بحاله ظن أنه أرض زكية قابلة للنبات ، فإذا انكشفت حقيقة حاله زال ذلك التراب وتبيّن أن عمله بمنزلة السراب ، وأن قلبه غير صالح لنبات الزرع وزكائه عليه ، بل الرياء الذي فيه والإرادات الخبيثة تمنع من انتفاعه بشيء من عمله ، فلهذا ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من أعمالهم التي اكتسبوها ، لأنهم وضعوها في غير موضعها وجعلوها لمخلوق مثلهم ، لا يملك لهم ضررا ولا نفعا وانصرفوا عن عبادة من تنفعهم عبادته ، فصرف الله قلوبهم عن الهداية ، فلهذا قال : ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ .

[٢٦٥ - ٢] : ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

هذا مَثَلُ المُنفقين أموالهم على وجه تزكو عليه نفقاتهم وتقبل به صدقاتهم فقال تعالى : ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أي : قصدهم بذلك رضى ربهم والفوز بقُربه ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي : صدر الإنفاق على وجه مُنشرحة له النفس سخيّة به ، لا على وجه التردُّد وضعف النفس في إخراجها وذلك أن النفقة يعرض لها آفتان إما أن يقصد الإنسان بها مَحْمَدَة الناس ومدحهم وهو الرياء ، أو يخرجها على خور وضعف عزيمة وتردُّد ، فهؤلاء سلموا من هاتين الآفتين فأنفقوا ابتغاء مرضات الله لا لغير ذلك من المقاصد ، وتثبيتا من أنفسهم ، فمثل نفقة هؤلاء ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾ أي : كثيرة الأشجار غزيرة الظلال ، من الاجتنان وهو الستر ، لستر أشجارها ما فيها ، وهذه الجنة ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ أي : محل مرتفع ضاح للشمس في أول النهار ووسطه وآخره ، فثماره أكثر الثمار وأحسنها ، ليست بمحل نازل عن الرياح والشمس ، فـ ﴿أَصَابَهَا﴾ أي : تلك الجنة التي بربوة ﴿وَابِلٌ﴾ وهو المطر الغزير ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ أي : تضاعفت ثمراتها لطيب أرضها ووجود الأسباب الموجبة لذلك ، وحصول الماء الكثير الذي ينميها ويكملها ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ أي : مطر قليل يكفيها لطيب منبتها ، فهذه حالة المُنفقين أهل النفقات الكثيرة والقليلة كل على حسب حاله ، وكل ينمى له ما أنفق أتم تنمية وأكملها والمنمي لها هو الذي أرحم بك من نفسك ، الذي يريد مصلحتك حيث لا تريدها ، فيالله لو قُدِّر وجود

بستان في هذه الدار بهذه الصفة لأسرعت إليه الهمم وتزاحم عليه كل أحد ، ولحصل الاقتتال عنده ، مع انقضاء هذه الدار وفنائها وكثرة آفاتها وشدة نصبها وعنائها ، وهذا الثواب الذي ذكره اللّه كأن المؤمن ينظر إليه بعين بصيرة الإيمان ، دائم مستمر فيه أنواع المسرّات والفرحات ، ومع هذا تجد النفوس عنه راقدة ، والعزائم عن طلبه خامدة ، أترى ذلك زهدا في الآخرة ونعيمها ، أم ضعف إيمان بوعد اللّه ورجاء ثوابه؟! وإلا فلو تيقن العبد ذلك حق اليقين وباشر الإيمان به بشاشة قلبه لانبعثت من قلبه مزعجات الشوق إليه ، وتوجهت همم عزائمه إليه ، وطوعت نفسه له بكثرة النفقات رجاء المثوبات ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيعلم عمل كل عامل ومصدر ذلك العمل ، فيجازيه عليه أتم الجزاء ثم قال تعالى :

[٢٦٦ - ٢] : ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ .

وهذا المثل مضروب لمن عمل عملا لوجه اللّه تعالى من صدقة أو غيرها ثم عمل أعمالا تُفسده ، فمثله كمثل صاحب هذا البُستان الذي فيه من كل الثمرات ، وخصَّ منها النخل والعنب لفضلهما وكثرة منافعهما ، لكونهما غذاء وقوتا وفاكهة وحلوى ، وتلك الجنّة فيها الأنهار الجارية التي تسقيها من غير مؤنة ، وكان صاحبها قد اغتبط بها وسرّته ، ثم إنه أصابه الكبر فضعف عن العمل وزاد حرصه ، وكان له ذريّة ضعفاء ما فيهم معاونة له ، بل هم كَلٌّ عليه ، ونفقته ونفقتهم من تلك الجنّة ، فبينما هو كذلك إذ أصاب تلك الجنّة إعصار وهو الريح القوية التي تستدير ثم ترتفع في الجو ، وفي ذلك الإعصار نار فاحترقت تلك الجنة ، فلا تسأل عمّا لقي ذلك الذي أصابه الكبر من الهم والغم والحزن ، فلو قدر أن الحزن يقتل صاحبه لقتله الحزن ، كذلك من عمل عملًا لوجه اللّه فإن أعماله بمنزلة البذر للزروع والثمار ، ولا يزال كذلك حتى يحصل له من عمله جنّة موصوفة بغاية الحسن والبهاء ، وتلك المفسدات التي تفسد الأعمال بمنزلة الإعصار الذي فيه نار ، والعبد أحوج ما يكون لعمله إذا مات وكان بحالة لا يقدر معها على العمل ، فيجد عمله الذي يؤمل نفعه هباء منثورا ، ووجد اللّه عنده فوفّاه حسابه . واللّه سريع الحساب فلو علم الإنسان وتصوّر هذه الحال وكان له أدنى مُسْكة من عقل لم يقدم على ما فيه مضرّته ونهاية حسرته ولكن ضعف الإيمان والعقل وقلّة البصيرة يصير صاحبه إلى هذه الحالة التي لو صدرت من مجنون لا يعقل لكان ذلك عظيما وخطره جسيما ، فلهذا أمر تعالى بالتفكر وحثّ عليه ، فقال : ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ .

[٢٦٧: ٢٦٨ - ٢] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ .

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالنفقة من طيبات ما يسر لهم من المكاسب ، ومما أخرج لهم من الأرض

فكما مَنَّ عليكم بتسهيل تحصيله فأنفقوا منه شكرا لله وأداء لبعض حقوق إخوانكم عليكم ، وتطهيرا لأموالكم ، واقصدوا في تلك النفقة الطيِّب الذي تحبُّونه لأنفسكم ، ولا تيمموا الرديء الذي لا ترغبونه ولا تأخذونه إلا على وجه الإغماض والمُسامحة ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ فهو غني عنكم ونفع صدقاتكم وأعمالكم عائد إليكم ، ومع هذا فهو حميد على ما يأمركم به من الأوامر الحميدة والخصال السديدة ، فعليكم أن تمتثلوا أوامره لأنها قوت القلوب وحياة النفوس ونعيم الأرواح ، وإيَّاكم أن تتَّبعوا عدوكم الشيطان الذي يأمركم بالإمساك ، ويخوِّفكم بالفقر والحاجة إذا أنفقتم ، وليس هذا نُصحا لكم ، بل هذا غاية الغش ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سورة فاطر٦] .

بل أطيعوا ربكم الذي يأمركم بالنفقة على وجه يسهل عليكم ولا يضركم ، ومع هذا فهو ﴿يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً﴾ لذنوبكم وتطهيرا لعيوبكم ﴿وَفَضْلًا﴾ وإحسانا إليكم في الدنيا والآخرة ، من الخلف العاجل ، وانشراح الصدر ونعيم القلب والروح والقبر ، وحُصول ثوابها وتوفيتها يوم القيامة ، وليس هذا عظيما عليه لأنه ﴿وَٰسِعٌ﴾ الفضل عظيم الإحسان ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يصدر منكم من النفقات قليلها وكثيرها ، سرها وعلنها ، فيجازيكم عليها من سعته وفضله وإحسانه ، فلينظر العبد نفسه إلى أي الداعيين يميل .

فقد تضمنت هاتان الآيتان أمورا عظيمة ، منها : الحث على الإنفاق ، ومنها : بيان الأسباب الموجبة لذلك ، ومنها : وجوب الزكاة من النقدين وعروض التجارة كلها ، لأنها داخلة في قوله : ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ ومنها : وجوب الزكاة في الخارج من الأرض من الحبوب والثمار والمعادن ، ومنها : أن الزكاة على من له الزرع والثمر لا على صاحب الأرض ، لقوله : ﴿أَخْرَجْنَا لَكُم﴾ فمن أخرجت له وجبت عليه ومنها : أن الأموال المُعدَّة للاقتناء من العقارات والأواني ونحوها ليس فيها زكاة ، وكذلك الديون والغصوب ونحوهما إذا كانت مجهولة ، أو عند من لا يقدر ربها على استخراجها منه ، ليس فيها زكاة ، لأن الله أوجب النفقة من الأموال التي يحصل فيها النماء الخارج من الأرض ، وأموال التجارة مُواساة من نمائها ، وأما الأموال التي غير مُعدَّة لذلك ولا مقدورا عليها فليس فيها هذا المعنى ، ومنها : أن الرديء يُنهى عن إخراجه ولا يُجزئ في الزكاة . ثم قال تعالى :

[٢٦٩ - ٢] : ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ .

لما أمر تعالى بهذه الأوامر العظيمة المُشتملة على الأسرار والحِكَم وكان ذلك لا يحصل لكل أحد ، بل لمن منَّ عليه وآتاه الله الحكمة ، وهي العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحِكَمها ، وإن من آتاه الله الحكمة فقد آتاه خيرا كثيرا وأي خير أعظم من خير فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتهما!

وفيه التخصيص بهذا الفضل وكونه من ورثة الأنبياء ، فكمال العبد متوقِّف على الحِكمة ، إذ كماله بتكميل قَوتيه العلمية والعملية فتكميل قوته العلمية بمعرفة الحق ومعرفة المقصود به ، وتكميل قوته العملية بالعمل بالخير وترك الشر ، وبذلك يتمكَّن من الإصابة بالقول والعمل وتنزيل الأمور منازلها في نفسه وفي غيره ، وبدون ذلك لا يمكنه ذلك ، ولما كان الله تعالى قد فطر عباده على عبادته ومحبة الخير والقصد

للحق، فبعث الله الرسل مُذَكّرين لهم بما ركز في فطرهم وعقولهم، ومُفصّلين لهم ما لم يعرفوه، انقسم الناس قسمين قسم أجابوا دعوتهم فتذكروا ما ينفعهم ففعلوه، وما يضرهم فتركوه، وهؤلاء هم أولو الألباب الكاملة، والعقول التامة، وقسم لم يستجيبوا لدعوتهم، بل أجابوا ما عرض لفطرهم من الفساد، وتركوا طاعة رب العباد، فهؤلاء ليسوا من أولي الألباب، فلهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

[٢٧٠ - ٢]: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

وهذا فيه المُجازاة على النفقات، واجبها ومُستحبها، قليلها وكثيرها، التي أمر الله بها، والنذور التي ألزمها المكلف نفسه، وإن الله تعالى يعلمها فلا يخفى عليه منها شيء، ويعلم ما صدرت عنه، هل هو الإخلاص أو غيره، فإن صدرت عن إخلاص وطلب لمرضاة الله جازى عليها بالفضل العظيم والثواب الجسيم، وإن لم ينفق العبد ما وجب عليه من النفقات ولم يوف ما أوجبه على نفسه من المنذورات، أو قصد بذلك رضى المخلوقات، فإنه ظالم قد وضع الشيء في غير موضعه، واستحق العقوبة البليغة، ولم ينفعه أحد من الخلق ولم ينصره، فلهذا قال: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

[٢٧١ - ٢]: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

أي: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ فتظهروها وتكون علانية حيث كان القصد بها وجه الله ﴿فَنِعِمَّا هِىَ﴾ أي: فنعم الشيء ﴿هِىَ﴾ لحصول المقصود بها ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾ أي: تُسرُّوها ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ففي هذا أن صدقة السر على الفقير أفضل من صدقة العلانية، وأما إذا لم تؤت الصدقات الفقراء فمفهوم الآية أن السر ليس خيرا من العلانية، فيرجع في ذلك إلى المصلحة، فإن كان في إظهارها إظهار شعائر الدين وحصول الاقتداء ونحوه، فهو أفضل من الإسرار.

ودل قوله: ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾ على أنه ينبغي للمتصدق أن يتحرّى بصدقته المحتاجين، ولا يعطي محتاجا وغيره أحوج منه، ولما ذكر تعالى أن الصدقة خير للمُتصدّق ويتضمن ذلك حصول الثواب قال: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ ففيه دفع العقاب ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ من خير وشر، قليل وكثير والمقصود من ذلك المُجازاة.

[٢٧٢: ٢٧٤ - ٢]: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ ليس عليك هُدى الخلق ، وإنما عليك البلاغ المبين ، والهداية بيد الله تعالى ، ففيها دلالة على أن النفقة كما تكون على المسلم تكون على الكافر ولو لم يهتد ، فلهذا قال : ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي : قليل أو كثير على أي شخص كان من مسلم أو كافر ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ أي : نفعه راجع إليكم ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ هذا إخبار عن نفقات المؤمنين الصادرة عن إيمانهم أنها لا تكون إلا لوجه الله تعالى ، لأن إيمانهم يمنعهم عن المقاصد الرديّة ويوجب لهم الإخلاص ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ يوم القيامة تستوفون أجوركم ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي : تُنقصُون من أعمالكم شيئا ولا مِثقال ذرّة ، كما لا يُزاد في سيئاتكم .

ثم ذكر مصرف النفقات الذين هم أولى الناس بها فوصفهم بست صفات ، **أحدها** : الفقر ، **والثاني** قوله : ﴿أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي : قصروها على طاعة الله من جهاد وغيره ، فهم مُستعدّون لذلك محبوسون له ، **الثالث** : عجزهم عن الأسفار لطلب الرزق فقال : ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي : سفرا للتكسّب ، **الرابع** قوله : ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ وهذا بيان لصدق صبرهم وحسن تعفُّفهم . **الخامس** : أنه قال : ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي : بالعلامة التي ذكرها الله في وصفهم ، وهذا لا يُنافي قوله : ﴿ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ﴾ فإن الجاهل بحالهم ليس له فطنة يتفرّس بها ما هم عليه ، وأما الفطن المُتفرّس فمجرد ما يراهم يعرفهم بعلامتهم ، **السادس** قوله : ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي : لا يسألونهم سؤال إلحاف ، أي : إلحاح ، بل إن صدر منهم سؤال إذا احتاجوا لذلك لم يلحوا على من سألوا ، فهؤلاء أولى الناس وأحقهم بالصدقات لما وصفهم به من جميل الصفات ، وأما النفقة من حيث هي على أي شخص كان ، فهي خير وإحسان وبر يُثاب عليها صاحبها ويؤجر ، فلهذا قال : ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ .

ثم ذكر حالة المُتصدقين في جميع الأوقات على جميع الأحوال فقال : ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة ٢٦٢] . أي : طاعته وطريق مرضاته ، لا في المحرمات والمكروهات وشهوات أنفسهم ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي : أجر عظيم من خير عند الرب الرحيم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ إذا خاف المقصرون ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إذا حزن المفرطون ، ففازوا بحصول المقصود المطلوب ، ونجوا من الشرور والمرهوب ، ولما كمّل تعالى حالة المُحسنين إلى عباده بأنواع النفقات ذكر حالة الظالمين المُسيئين إليهم غاية الإساءة فقال :

[ ٢٧٥ : ٢٨١ - ٢ ] : ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّم

تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

يُخبر تعالى عن أكلة الربا وسوء مآلهم وشدَّة مُنقلبهم ، أنهم لا يقومون من قبورهم ليوم نشورهم ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّۚ﴾ أي : يصرعه الشيطان بالجنون ، فيقومون من قبورهم حيارى شكارى مُضطربين ، متوقعين لعظيم النكال وعسر الوبال ، فكما تقلَّبت عقولهم و ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾ وهذا لا يكون إلا من جاهل عظيم جهله ، أو متجاهل عظيم عناده ، جازاهم اللّٰه من جنس أحوالهم فصارت أحوالهم أحوال المجانين ، ويحتمل أن يكون قوله : ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّۚ﴾ أنه لما انسلبت عقولهم في طلب المكاسب الربويَّة خفَّت أحلامهم وضعفت آراؤهم ، وصاروا في هيئتهم وحركاتهم يُشبهون المجانين في عدم انتظامها وانسلاخ العقل الأدبي عنهم ، قال اللّٰه تعالى رادا عليهم ومبيِّنا حكمته العظيمة ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾ أي : لما فيه من عموم المصلحة وشدة الحاجة وحصول الضرر بتحريمه ، وهذا أصل في حل جميع أنواع التصرفات الكسبية حتى يرد ما يدل على المنع ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ لما فيه من الظلم وسوء العاقبة ، والربا نوعان : ربا نسيئة كبيع الربا بما يشاركه في العلة نسيئة ، ومنه جعل ما في الذمة رأس مال ، سلم ، وربا فضل ، وهو بيع ما يجري فيه الربا بجنسه متفاضلا ، وكلاهما مُحرَّم بالكتاب والسُّنَّة ، والإجماع على ربا النسيئة ، وشذَّ من أباح ربا الفضل وخالف النصوص المستفيضة ، بل الربا من كبائر الذنوب وموبقاتها ﴿مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي : وعظ وتذكير وترهيب عن تعاطي الربا على يد من قيَّضه اللّٰه لموعظته رحمة من اللّٰه بالموعوظ ، وإقامة للحجة عليه ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ عن فعله وانزجر عن تعاطيه ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ أي : ما تقدَّم من المُعاملات التي فعلها قبل أن تبلغه الموعظة جزاء لقبوله للنصيحة .

دل مفهوم الآية أن من لم ينته جُوزي بالأول والآخر ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ في مجازاته وفيما يستقبل من أموره ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى تعاطي الربا ولم تنفعه الموعظة ، بل أصر على ذلك ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ اختلف العلماء رحمهم اللّٰه في نصوص الوعيد التي ظاهرها تخليد أهل الكبائر من الذنوب التي دون الشرك باللّٰه ، والأحسن فيها أن يقال هذه الأمور التي رتَّب اللّٰه عليها الخلود في النار موجبات ومُقتضيات لذلك ، ولكن الموجب إن لم يوجد ما يمنعه ترتَّب عليه مقتضاه ، وقد عُلِمَ بالكتاب والسُّنَّة وإجماع سلف الأمة أن التوحيد والإيمان مانع من الخلود في النار ، فلولا ما مع الإنسان من التوحيد لصار عمله صالحا للخلود فيها بقطع النظر عن كفره .

ثم قال تعالى : ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي : يذهبه ويذهب بركته ذاتا ووصفا ، فيكون سببا لوقوع الآفات فيه ونزع البركة عنه ، وإن أنفق منه لم يؤجر عليه بل يكون زادا له إلى النار ﴿وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ أي : ينميها وينزل البركة في المال الذي أخرجت منه وينمي أجر صاحبها وهذا لأن الجزاء من جنس العمل ، فإن المُرابي قد ظلم الناس وأخذ أموالهم على وجه غير شرعي ، فَجُوزي بذهاب ماله ، والمُحسن إليهم بأنواع الإحسان

ربه أكرم منه ، فيُحسن عليه كما أحسن على عباده .

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ لنعم الله ، لا يؤدي ما أوجب عليه من الصدقات ، ولا يسلم منه ومن شرّه عباد الله ﴿أَثِيمٍ﴾ أي : قد فعل ما هو سبب لإثمه وعقوبته .

لمّا ذكر أَكَلَة الربا وكان من المعلوم أنهم لو كانوا مؤمنين إيمانا ينفعهم لم يصدر منهم ما صدر ذكر حالة المؤمنين وأجرهم ، وخاطبهم بالإيمان ، ونهاهم عن أكل الربا إن كانوا مؤمنين ، وهؤلاء هم الذين يقبلون موعظة ربهم وينقادون لأمره ، وأمرهم أن يتّقوه ، ومن جملة تقواه أن يذروا ما بقي من الربا أي : المعاملات الحاضرة الموجودة ، وأما ما سلف ، فمن اتّعظ عفا الله عنه ما سلف ، وأما من لم ينزجر بموعظة الله ولم يقبل نصيحته فإنه مُشاق لربّه مُحارب له ، وهو عاجز ضعيف ليس له يدان في مُحاربة العزيز الحكيم الذي يُمهل للظالم ولا يُهمله حتّى إذا أخذه ، أخذه أخذ عزيز مقتدر .

﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ عن الربا ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ أي : أنزلوا عليها ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ من عاملتموه بأخذ الزيادة التي هي الربا ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بنقص رءوس أموالكم . ﴿وَإِن كَانَ﴾ المدين ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ لا يجد وفاء ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ وهذا واجب عليه أن ينظره حتى يجد ما يوفي به ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ إما بإسقاطها أو بعضها . ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

وهذه الآية من آخر ما نزل من القرآن ، وجُعلت خاتمة لهذه الأحكام والأوامر والنواهي ، لأن فيها الوعد على الخير ، والوعيد على فعل الشر ، وأن من علم أنه راجع إلى الله فمجازيه على الصغير والكبير والجلي والخفي ، وأن الله لا يظلمه مِثقال ذرّة ، أوجب له الرغبة والرهبة ، وبدون حلول العلم في ذلك في القلب لا سبيل إلى ذلك .

[٢٨٢ - ٢] : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

هذه آية الدَّين ، وهي أطول آيات القرآن ، وقد اشتملت على أحكام عظيمة جليلة المنفعة والمقدار ، أحدها : أنه تُجوّز جميع أنواع المداينات من سَلَم وغيره ، لأن الله أخبر عن المُداينة التي عليها المؤمنون

إخبار مقرّر لها ذاكرا أحكامها ، وذلك يدل على الجواز ، **الثاني والثالث** : أنه لا بد للسَلَم من أجل وأنه لا بد أن يكون معيّنا معلوما فلا يصح حالا ولا إلى أجل مجهول ، **الرابع** : الأمر بكتابة جميع عُقود المُداينات إما وجوبا وإما استحبابا لشدّة الحاجة إلى كتابتها ، لأنها بدون الكتابة يدخلها من الغلط والنسيان والمُنازعة والمُشاجرة شر عظيم ، **الخامس** : أمر الكاتب أن يكتب ، **السادس** : أن يكون عدلا في نفسه لأجل اعتبار كتابته ، لأن الفاسق لا يُعتبر قوله ولا كتابته ، **السابع** : أنه يجب عليه العدل بينهما ، فلا يميل لأحدهما لقرابة أو صداقة أو غير ذلك ، **الثامن** : أن يكون الكاتب عارفا بكتابة الوثائق وما يلزم فيها كل واحد منهما ، وما يحصل به التوثق ، لأنه لا سبيل إلى العدل إلا بذلك ، وهذا مأخوذ من قوله : ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ **التاسع** : أنه إذا وجدت وثيقة بخط المعروف بالعدالة المذكورة يعمل بها ، ولو كان هو والشهود قد ماتوا ، **العاشر** : قوله : ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ﴾ أي : لا يمتنع من مَنّ اللّه عليه بتعليمه الكتابة أن يكتب بين المُتداينين ، فكما أحسن اللّه إليه بتعليمه ، فليُحسن إلى عباد اللّه المُحتاجين إلى كتابته ، ولا يمتنع من الكتابة لهم ، **الحادي عشر** : أمر الكاتب أن لا يكتب إلا ما أملاه من عليه الحق ، **الثاني عشر** : أن الذي يُملي من المُتعاقدين من عليه الدين ، **الثالث عشر** : أمره أن يبيّن جميع الحق الذي عليه ولا يبخس منه شيئا ، **الرابع عشر** : أن إقرار الإنسان على نفسه مقبول ، لأن اللّه أمر من عليه الحق أن يُمل على الكاتب ، فإذا كتب إقراره بذلك ثبت موجبه ومضمونه ، وهو ما أقر به على نفسه ، ولو ادّعى بعد ذلك غلطا أو سهوا ، **الخامس عشر** : أن من عليه حقّا من الحقوق التي البيّنة على مقدارها وصفتها من كثرة وقلة وتعجيل وتأجيل ، أن قوله هو المقبول دون قول من له الحق ، لأنه تعالى لم ينهه عن بخس الحق الذي عليه ، إلا أن قوله مقبول على ما يقوله من مقدار الحق وصفته ، **السادس عشر** : أنه يحرم على من عليه حق من الحقوق أن يبخس وينقص شيئا من مقداره ، أو طيّبه وحسنه ، أو أجله أو غير ذلك من توابعه ولواحقه ، **السابع عشر** : أن من لا يقدر على إملاء الحق لصغره أو سفهه أو خرسه ، أو نحو ذلك ، فإنه ينوب وليه منابه في الإملاء والإقرار ، **الثامن عشر** : أنه يلزم الولي من العدل ما يلزم من عليه الحق من العدل ، وعدم البخس لقوله ﴿بِالْعَدْلِ﴾ ، **التاسع عشر** : أنه يشترط عدالة الولي ، لأن الإملاء بالعدل المذكور لا يكون من فاسق ، **العشرون** : ثبوت الولاية في الأموال ، **الحادي والعشرون** : أن الحق يكون على الصغير والسفيه والمجنون والضعيف ، لا على وليّهم ، **الثاني والعشرون** : أن إقرار الصغير والسفيه والمجنون والمعتوه ونحوهم وتصرّفهم غير صحيح ، لأن اللّه جعل الإملاء لوليهم ، ولم يجعل لهم منه شيئا لُطفا بهم ورحمة ، خوفا من تلاف أموالهم ، **الثالث والعشرون** : صحة تصرف الولي في مال من ذُكر ، **الرابع والعشرون** : فيه مشروعية كون الإنسان يتعلّم الأمور التي يتوثّق بها المتداينون كل واحد من صاحبه ، لأن المقصود من ذلك التوثّق والعدل ، وما لا يتم المشروع إلا به فهو مشروع ، **الخامس والعشرون** : أن تعلم الكتابة مشروع ، بل هو فرض كفاية ، لأن اللّه أمر بكتابة الديون وغيرها ، ولا يحصل ذلك إلا بالتعلّم ، **السادس والعشرون** : أنه مأمور بالإشهاد على العقود ، وذلك على وجه الندب ، لأن المقصود من ذلك الإرشاد إلى ما يحفظ الحقوق ، فهو عائد لمصلحة المكلفين ، نعم إن كان المُتصرّف ولي يتيم أو وقف ونحو ذلك مما يجب حفظه تعين أن يكون الإشهاد

الذي به يحفظ الحق واجبا ، **السابع والعشرون** : أن نِصاب الشهادة في الأموال ونحوها رجلان أو رجل وامرأتان ، ودلَّت السُّنَّة أيضًا أنه يقبل الشاهد مع يمين المدعي[٣٩] ، **الثامن والعشرون** : أن شهادة الصبيان غير مقبولة لمفهوم لفظ الرجل ، **التاسع والعشرون** : أن شهادة النساء منفردات في الأموال ونحوها لا تُقبل ، لأن اللّٰه لم يقبلهن إلا مع الرجل ، وقد يقال إن اللّٰه أقام المرأتين مقام رجل للحكمة التي ذكرها وهي موجودة سواء كن مع رجل أو منفردات والله أعلم . **الثلاثون** : أن شهادة العبد البالغ مقبولة كشهادة الحر لعموم قوله : ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ والعبد البالغ من رجالنا ، **الحادي والثلاثون** : أن شهادة الكُفَّار ذكورا كانوا أو نساء غير مقبولة ، لأنهم ليسوا منَّا ، ولأن مبنى الشهادة على العدالة وهو غير عدل ، **الثاني والثلاثون** : فيه فضيلة الرجل على المرأة ، وأن الواحد في مُقابلة المرأتين لقوة حفظه ونقص حفظها ، **الثالث والثلاثون** : أن من نسي شهادته ثم ذكرها فذكر فشهادته مقبولة لقوله : ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ ، **الرابع والثلاثون** : يؤخذ من المعنى أن الشاهد إذا خاف نسيان شهادته في الحقوق الواجبة وجب عليه كتابتها ، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، **والخامس والثلاثون** : أنه يجب على الشاهد إذا دعي للشهادة وهو غير معذور ، لا يجوز له أن يأبى لقوله : ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ **السادس والثلاثون** : أن من لم يتَّصف بصفة الشهداء المقبولة شهادتهم ، لم يجب عليه الإجابة لعدم الفائدة بها ولأنه ليس من الشهداء ، **السابع والثلاثون** : النهي عن السآمة والضجر من كتابة الديون كلها من صغير وكبير وصفة الأجل وجميع ما احتوى عليه العقد من الشروط والقيود ، **الثامن والثلاثون** : بيان الحكمة في مشروعيَّة الكتابة والإشهاد في العقود ، وأنه ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ فإنها مُتضمنة للعدل الذي به قوام العباد والبلاد ، والشهادة المُقترنة بالكتابة تكون أقوم وأكمل وأبعد من الشك والريب والتنازع والتشاجر ، **التاسع والثلاثون** : يؤخذ من ذلك أن من اشتبه وشك في شهادته لم يجز له الإقدام عليها بل لا بد من اليقين ، **الأربعون** : قوله : ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ فيه الرخصة في ترك الكتابة إذا كانت التجارة حاضرا بحاضر ، لعدم شدة الحاجة إلى الكتابة ، **الحادي والأربعون** : أنه وإن رخّص في ترك الكتابة في التجارة الحاضرة ، فإنه يشرع الإشهاد لقوله : ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ **الثاني والأربعون** : النهي عن مضارة الكاتب بأن يدعى وقت اشتغال وحصول مشقَّة عليه ، **الثالث والأربعون** : النهي عن مُضارة الشهيد أيضًا بأن يدعى إلى تحمل الشهادة أو أدائها في مرض أو شغل يشق عليه ، أو غير ذلك هذا على جعل قوله : ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ مبنيًّا للمجهول ، وأما على جعلها مبنيًّا للفاعل ففيه نهي الشاهد والكاتب أن يُضارا صاحب الحق بالامتناع أو طلب أجرة شاقة ونحو ذلك ، وهذان هما الرابع والأربعون والخامس والأربعون ، **والسادس والأربعون** : أن ارتكاب هذه المُحرَّمات من خصال الفسق لقوله : ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ **السابع**

---

(٣٩) * أخرجه مُسلم : ( كتاب الأقضية/ باب : القضاء باليمين والشَّاهد/ ح ٣ ) . عن ابن عبَّاس أنَّ رسول اللّٰه ﷺ قضى بيمين و شاهد .

**والأربعون** : أن الأوصاف كالفسق والإيمان والنفاق والعداوة والولاية ونحو ذلك تتجزأ في الإنسان ، فتكون فيه مادة فسق وغيرها ، وكذلك مادة إيمان وكفر لقوله : ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْۗ﴾ ولم يقل فأنتم فاسقون أو فُسّاق . **الثامن والأربعون** : – وحقه أن يتقدَّم على ما هنا لتقدم موضعه– اشتراط العدالة في الشاهد لقوله : ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ **التاسع والأربعون** : أن العدالة يشترط فيها العرف في كل مكان وزمان ، فكل من كان مرضيا مُعتبرًا عند الناس قُبِلت شهادته ، **الخمسون** : يؤخذ منها عدم قبول شهادة المجهول حتى يُزكَّى ، فهذه الأحكام مما يستنبط من هذه الآية الكريمة على حسب الحال الحاضرة والفهم القاصر ، ولله في كلامه حِكَم وأسرار يخص بها من يشاء من عباده .

وقوله تعالى :

[٢٨٣ – ٢] : ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ .

أي : إن كنتم مسافرين ﴿وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا﴾ يكتب بينكم ويحصل به التوثُّق ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌۖ﴾ أي : يقبضها صاحب الحق وتكون وثيقة عنده حتى يأتيه حقه ، ودلَّ هذا على أن الرهن غير المقبوضة لا يحصل منها التوثُّق ، ودل أيضًا على أن الراهن والمُرتهن لو اختلفا في قدر ما رُهِنت به ، كان القول قول المُرتهن ، ووجه ذلك أن اللّٰه جعل الرهن عوضا عن الكتابة في توثُّق صاحب الحق ، فلولا أن قول المُرتهن مقبول في قدر الذي رهنت به لم يحصل المعنى المقصود ، ولما كان المقصود بالرهن التوثُّق جاز حضرا وسفرا ، وإنما نص اللّٰه على السفر ، لأنه في مظنَّة الحاجة إليه لعدم الكاتب فيه ، هذا كله إذا كان صاحب الحق يحب أن يتوثَّق لحقِّه ، فما كان صاحب الحق آمنا من غريمه وأحب أن يُعامله من دون رهن فعلى من عليه الحق أن يؤدي إليه كاملا غير ظالم له ولا باخس حقه ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ في أداء الحق ويُجازي من أحسن به الظن بالإحسان ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ﴾ لأن الحق مبني عليها لا يثبت بدونها ، فكتمها من أعظم الذنوب ، لأنه يترك ما وجب عليه من الخبر الصدق ويخبر بضده وهو الكذب ، ويترتَّب على ذلك فوات حق من له الحق ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ .

وقد اشتملت هذه الأحكام الحسنة التي أرشد اللّٰه عباده إليها على حكم عظيمة ومصالح عميمة دلت على أن الخلق لو اهتدوا بإرشاد اللّٰه لصلحت دُنياهم مع صلاح دينهم ، لاشتمالها على العدل والمصلحة ، وحفظ الحقوق وقطع المُشاجرات والمُنازعات ، وانتظام أمر المعاش ، فلله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه لا نحصي ثناء عليه .

[٢٨٤ – ٢] : ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

هذا إخبار من اللّٰه أنه له ما في السماوات وما في الأرض ، الجميع خلقهم ورزقهم ودبَّرهم لمصالحهم

الدينية والدنيوية ، فكانوا مِلكًا له وعبيدا ، لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وهو ربهم ومالكهم الذي يتصرف فيهم بحكمته وعدله وإحسانه ، وقد أمرهم ونهاهم وسيحاسبهم على ما أسروه وأعلنوه ، ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ وهو لمن أتى بأسباب المغفرة ، ويعذب من يشاء بذنبه الذي لم يحصل له ما يكفره ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يُعجزه شيء ، بل كل الخلق طوع قهره ومشيئته وتقديره وجزائه .

[٢٨٥ – ٢] : ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾

يُخبر تعالى عن إيمان الرسول والمُؤمنين معه ، وانقيادهم وطاعتهم وسؤالهم مع ذلك المغفرة ، فأخبر أنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وهذا يتضمن الإيمان بجميع ما أخبر اللّٰه به عن نفسه ، وأخبرت به عنه رُسله من صفات كماله ونعوت جلاله على وجه الإجمال والتفصيل ، وتنزيهه عن التمثيل والتعطيل وعن جميع صفات النقص ، ويتضمّن الإيمان بالملائكة الذين نصّت عليهم الشرائع جُملة وتفصيلا ، وعلى الإيمان بجميع الرُسل والكُتب ، أي : بكل ما أخبرت به الرُسل وتضمنته الكُتب من الأخبار والأوامر والنواهي ، وأنهم لا يُفرّقون بين أحد من رُسله ، بل يؤمنون بجميعهم ، لأنهم وسائط بين اللّٰه وبين عباده ، فالكُفر ببعضهم كُفر بجميعهم بل كُفر بالله ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾ ما أمرتنا به ونهيتنا ﴿وَأَطَعْنَا﴾ لك في ذلك ، ولم يكونوا ممّن قالوا سمعنا وعصينا ، ولما كان العبد لا بد أن يحصل منه تقصير في حقوق اللّٰه تعالى وهو محتاج إلى مغفرته على الدوام ، قالوا ﴿غُفْرَانَكَ﴾ أي : نسألك مغفرة لما صدر منا من التقصير والذنوب ، ومحو ما اتّصفنا به من العيوب ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي : المرجع لجميع الخلائق فتجزيهم بما عملوا من خير وشر .

[٢٨٦ – ٢] : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ .

لما نزل قوله تعالى ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [ سورة البقرة ٢٨٤] . شقّ ذلك على المُسلمين لما توهّموا أن ما يقع في القلب من الأمور اللازمة والعارضة المُستقرة وغيرها مؤاخذون به ، فأخبرهم بهذه الآية أنه لا يُكلّف نفسا إلا وسعها أي : أمرًا تسعه طاقتها ، ولا يكلفها ويشق عليها ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [ سورة الحج ٧٨] . فأصل الأوامر والنواهي ليست من الأُمور التي تشق على النفوس ، بل هي غذاء للأرواح ودواء للأبدان ، وحمية عن الضرر ، فالله تعالى أمر العباد بما أمرهم به رحمة وإحسانا ، ومع هذا إذا حصل بعض الأعذار التي هي مظنّة المشقّة حصل التخفيف والتسهيل ، إما بإسقاطه عن المُكلّف ، أو إسقاط بعضه كما في التخفيف عن المريض والمُسافر وغيرهم ، ثم

أخبر تعالى أن لكل نفس ما كسبت من الخير ، وعليها ما اكتسبت من الشر ، فلا تزر وازرة وزر أخرى ولا تذهب حسنات العبد لغيره ، وفي الإتيان بـ « كسب » في الخير الدال على أن عمل الخير يحصل للإنسان بأدنى سعي منه بل بمُجرَّد نيَّة القلب وأتى بـ « اكتسب » في عمل الشر للدلالة على أن عمل الشر لا يكتب على الإنسان حتى يعمله ويحصل سعيه ، ولما أخبر تعالى عن إيمان الرسول والمُؤمنين معه وأن كل عامل سُيجازى بعمله ، وكان الإنسان عُرضة للتقصير والخطأ والنسيان ، وأخبر أنه لا يكلِّفنا إلا ما نطيق وتسعه قوتنا ، أخبر عن دعاء المؤمنين بذلك ، وقد أخبر النبي ﷺ أن اللّه قال : قد فعلت[٤٠] .

إجابة لهذا الدعاء ، فقال : ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ والفرق بينهما : أن النسيان : ذهول القلب عن ما أمر به فيتركه نسيانا ، والخطأ : أن يقصد شيئا يجوز له قصده ثم يقع فعله على ما لا يجوز له فعله : فهذان قد عفا اللّه عن هذه الأمَّة ما يقع بهما رحمة بهم وإحسانا ، فعلى هذا من صلى في ثوب مغصوب ، أو نجس ، أو قد نسي نجاسة على بدنه ، أو تكلَّم في الصلاة ناسيًا ، أو فعل مفطرًا ناسيًا ، أو فعل محظورا من محظورات الإحرام التي ليس فيها إتلاف ناسيا ، فإنه معفو عنه ، وكذلك لا يحنث من فعل المحلوف عليه ناسيا ، وكذلك لو أخطأ فأتلف نفسا أو مالا فليس عليه إثم ، وإنما الضمان مُرتَّب على مُجرَّد الإتلاف ، وكذلك المواضع التي تجب فيها التسمية إذا تركها الإنسان ناسيًا لم يضر .

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ أي : تكاليف مشقَّة ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ﴾ وقد فعل تعالى فإن اللّه خفَّف عن هذه الأمة في الأوامر من الطهارات وأحوال العبادات ما لم يخففه على غيرها ﴿قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ وقد فعل وله الحمد .

﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ﴾ فالعفو والمغفرة يحصل بهما دفع المكاره والشرور ، والرحمة يحصل بها صلاح الأمور .

﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي : ربنا ومليكنا وإلهنا الذي لم تزل ولايتك إيَّانا منذ أوجدتنا وأنشأتنا فنعمك دارة علينا متَّصلة عدد الأوقات ، ثم أنعمت علينا بالنعمة العظيمة والمنحة الجسيمة ، وهي نعمة الإسلام التي جميع النعم تبع لها ، فنسألك يا ربنا ومولانا تمام نعمتك بأن تنصرنا على القوم الكافرين ، الذين كفروا بك وبرسلك ، وقاوموا أهل دينك ونبذوا أمرك ، فانصرنا عليهم بالحجة والبيان والسيف والسنان ، بأن تُمكِّن لنا في الأرض وتخذلهم وترزقنا الإيمان والأعمال التي يحصل بها النصر ، والحمد للّه رب العالمين .

تم تفسير سورة البقرة بعون اللّه وتوفيقه وصلى اللّه على محمد وسلم .

* * *

(٤٠) * أخرجه مُسلم : ( كتاب الإيمان/ باب : بيان أنَّه سبحانه وتعالى لم يُكلِّف إلَّا ما يُطاق/ ح ١٩٩، ٢٠٠).

## ( ٣ ) تفسير سورة آل عمران

### وهي مدنية

نزل صدرها إلى بضع وثمانين آية في مُخاصمة النصارى وإبطال مذهبهم ودعوتهم إلى الدخول في الدين الحق دين الإسلام كما نزل صدر البقرة في مُحاجة اليهود كما تقدم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[ ١ : ٦ - ٣ ] : ﴿الٓمٓ ۝ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۝ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ ۝ هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

افتتحها تبارك وتعالى بالإخبار بألوهيته ، وأنه الإله الذي لا إله إلا هو الذي لا ينبغي التَّألُّه والتعبد إلا لوجهه ، فكل معبود سواه فهو باطل ، والله هو الإله الحق المُتَّصف بصفات الألوهية التي مرجعها إلى الحياة والقيوميّة ، فالحي من له الحياة العظيمة الكاملة المُستلزمة لجميع الصفات التي لا تتم ولا تكمل الحياة إلا بها كالسمع والبصر والقدرة والقوة والعظمة والبقاء والدوام والعز الذي لا يرام ﴿الْقَيُّومُ﴾ الذي قام بنفسه فاستغنى عن جميع مخلوقاته ، وقام بغيره فافتقرت إليه جميع مخلوقاته في الإيجاد والإعداد والإمداد ، فهو الذي قام بتدبير الخلائق وتصريفهم ، تدبير للأجسام وللقلوب والأرواح . ومن قيامه تعالى بعباده ورحمته بهم أن نزّل على رسوله محمد ﷺ الكتاب ، الذي هو أجل الكتب وأعظمها المشتمل على الحق في إخباره وأوامره ونواهيه ، فما أخبر به صدق ، وما حكم به فهو العدل ، وأنزله بالحق ليقوم الخلق بعبادة ربِّهم ويتعلّموا كتابه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكُتُب السابقة ، فهو المُزكِّي لها ، فما شهد له فهو المقبول ، وما ردَّه فهو المردود ، وهو المطابق لها في جميع المطالب التي اتّفق عليها المُرسلون ، وهي شاهدة له بالصدق ، فأهل الكتاب لا يمكنهم التصديق بكتبهم إن لم يؤمنوا به ، فإن كفرهم به ينقض إيمانهم بكتبهم .

ثم قال تعالى : ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ﴾ أي : على موسى ﴿وَالْإِنجِيلَ﴾ على عيسى .

﴿مِن قَبْلُ﴾ إنزال القرآن ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ الظاهر أن هذا راجع لكل ما تقدم ، أي : أنزل اللّٰه القرآن والتوراة والإنجيل هدى للناس من الضلال ، فمن قبل هدى اللّٰه فهو المهتدي ، ومن لم يقبل ذلك بقي على ضلاله ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أي : الحُجج والبيّنات والبراهين القاطعات الدالة على جميع المقاصد والمطالب ، وكذلك فصَّل وفسَّر ما يحتاج إليه الخلق حتى بقيت الأحكام جلية ظاهرة ، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة لمن لم يؤمن به وبآياته .

فلهذا قال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي : بعد ما بيّنها ووضحها وأزاح العلل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۗ وَٱللَّهُ﴾ لا يُقْدَر قدره ولا يدرك وصفه ﴿عَزِيزٌ﴾ أي : قوي لا يُعجزه شيء ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ممن عصاه .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وهذا فيه تقرير إحاطة علمه بالمعلومات كلها ، جليها وخفيها ، ظاهرها وباطنها ، ومن جملة ذلك الأجنّة في البطون التي لا يدركها بصر المخلوقين ، ولا ينالها علمهم ، وهو تعالى يدبرُّها بألطف تدبير ، ويقدِّرها بكل تقدير .

فلهذا قال : ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُۚ﴾ من كامل الخلق وناقصه ، وحسن وقبيح ، وذكر وأنثى .

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تضمنت هذه الآيات تقرير إلهية اللّه وتعينها ، وإبطال إلهية ما سواه ، وفي ضمن ذلك رد على النصارى الذين يزعمون إلهية عيسى ابن مريم عليه السلام ، وتضمنت إثبات حياته الكاملة وقيُّوميته التامة ، المُتضمِّنتين جميع الصفات المقدَّسة كما تقدم ، وإثبات الشرائع الكبار ، وأنها رحمة وهداية للناس ، وتقسيم الناس إلى مُهتد وغيره ، وعقوبة من لم يهتد بها ، وتقرير سعة علم الباري ونفوذ مشيئته وحكمته .

[ ٧ : ٩ — ٣ ] : ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۞ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۞ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ .

القرآن العظيم كله مُحكم كما قال تعالى : ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [ سُورة هُود ١ ] .

فهو مُشتمل على غاية الإتقان والإحكام والعدل والإحسان ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [ سُورة المائدة ٥٠ ] . وكله مُتشابه في الحُسن والبلاغة وتصديق بعضه لبعضه ومطابقته لفظا ومعنى ، وأما الإحكام والتشابه المذكور في هذه الآية فإن القرآن كما ذكره اللّه ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ أي : واضحات الدلالة ، ليس فيها شبهة ولا إشكال ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي : أصله الذي يرجع إليه كل مُتشابه ، وهي مُعظمه وأكثره ، ﴿وَ﴾ منه آيات ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾ أي : يلتبس معناها على كثير من الأذهان : لكون دلالتها مُجملة ، أو يتبادر إلى بعض الأفهام غير المُراد منها ، فالحاصل أن منها آيات بيّنة واضحة لكل أحد ، وهي الأكثر التي يرجع إليها ، ومنه آيات تشكل على بعض الناس ، فالواجب في هذا أن يُرد المتشابه إلى المحكم والخفي إلى الجلي ، فبهذه الطريق يُصدِّق بعضه بعضا ولا يحصل فيه مُناقضة ولا مُعارضة .

ولكن الناس انقسموا إلى فرقتين ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي : ميل عن الاستقامة بأن فسدت مقاصدهم ، وصار قصدهم الغي والضلال وانحرفت قلوبهم عن طريق الهدى والرشاد ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا

﴿تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ أي : يتركون المُحكم الواضح ويذهبون إلى المُتشابه ، ويعكسون الأمر فيحملون المُحكم على المُتشابه .

﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ لمن يدعونهم لقولهم ، فإن المُتشابه تحصل به الفتنة بسبب الاشتباه الواقع فيه ، وإلا فالمُحكم الصريح ليس محلا للفتنة ، لوضوح الحق فيه لمن قصده اتباعه .

وقوله : ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ للمُفسرين في الوقوف على « اللّٰهُ » من قوله ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ قولان ، جمهورهم يقفون عندها ، وبعضهم يعطف عليها ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ وذلك كله محتمل ، فإن التأويل إن أريد به علم حقيقة الشيء وكنهه كان الصواب الوقوف على ﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ لأن المتشابه الذي استأثر اللّٰه بعلم كُنهه وحقيقته ، نحو حقائق صفات اللّٰه وكيفيتها ، وحقائق أوصاف ما يكون في اليوم الآخر ونحو ذلك ، فهذه لا يعلمها إلا اللّٰه ، ولا يجوز التعرُّض للوقوف عليها ، لأنه تعرّض لما لا يمكن معرفته ، كما سُئل الإمام مالك رحمه اللّٰه عن قوله : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [ سُورة طه ٥ ] . فقال السائل : كيف استوى؟ فقال مالك : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، فهكذا يقال في سائر الصفات لمن سأل عن كيفيّتها أن يقال كما قال الإمام مالك ، تلك الصفة معلومة ، وكيفيتها مجهولة ، والإيمان بها واجب ، والسؤال عنها بدعة ، وقد أخبرنا اللّٰه بها ولم يخبرنا بكيفيّتها ، فيجب علينا الوقوف على ما حد لنا .

فأهل الزيغ يتّبعون هذه الأمور المُشتبهات تعرُّضا لما لا يعني ، وتكلفا لما لا سبيل لهم إلى علمه ، لأنه لا يعلمها إلا اللّٰه .

وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بها ويكِلون المعنى إلى اللّٰه فيسلمون ويسلمون ، وإن أريد بالتأويل التفسير والكشف والإيضاح ، كان الصواب عطف ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ على « اللّٰهُ » فيكون اللّٰه قد أخبر أن تفسير المُتشابه ورده إلى المُحكم وإزالة ما فيه من الشبهة لا يعلمها إلا هو تعالى والراسخون في العلم يعلمون أيضا ، فيؤمنون بها ويردونها للمحكم ويقولون ﴿كُلّٞ﴾ من المُحكم والمُتشابه ﴿مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض بل هو مُتفق يُصدِّق بعضه بعضا ويشهد بعضه لبعض وفيه تنبيه على الأصل الكبير ، وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند اللّٰه ، وأشكل عليهم مجمل المُتشابه ، علموا يقينا أنه مردود إلى المُحكم ، وإن لم يفهموا وجه ذلك .

ولما رغَّب تعالى في التسليم والإيمان بأحكامه وزجر عن اتباع المتشابه قال ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ أي : يتّعظ بمواعظ اللّٰه ويقبل نصحه وتعليمه إلا ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي : أهل العقول الرزينة لب العالم وخلاصة بني آدم يصل التذكير إلى عقولهم ، فيتذكّرون ما ينفعهم فيفعلونه ، وما يضرهم فيتركونه ، وأما من عداهم فهم القشور الذي لا حاصل له ولا نتيجة تحته ، لا ينفعهم الزجر والتذكير لخلوهم من العقول النافعة .

ثم أخبر تعالى عن الراسخين في العلم أنهم يدعون ويقولون ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ أي : لا تُملها عن الحق جهلا وعنادا منا ، بل اجعلنا مستقيمين هادين مهتدين ، فثبتنا على هدايتك وعافنا ممّا ابتليت به الزائغين .

﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي : عظيمة توفقنا بها للخيرات وتعصمنا بها من المنكرات ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ أي : واسع العطايا والهبات ، كثير الإحسان الذي عم جودك جميع البريَّات .

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ فمُجازيهم بأعمالهم حسنها وسيئها ، وقد أثنى اللّه تعالى على الراسخين في العلم بسبع صفات هي عنوان سعادة العبد : **إحداها** : العلم الذي هو الطريق المُوصل إلى اللّه ، المُبين لأحكامه وشرائعه ، **الثانية** : الرسوخ في العلم وهذا قدر زائد على مجرد العلم ، فإن الراسخ في العلم يقتضي أن يكون عالما مُحققًا ، وعارفا مُدققًا ، قد علمه اللّه ظاهر العلم وباطنه ، فرسخ قدمه في أسرار الشريعة علما وحالا وعملا ، **الثالثة** : أنه وصفهم بالإيمان بجميع كتابه ورد لمُتشابهه إلى مُحكمه ، بقوله : ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ **الرابعة** : أنهم سألوا اللّه العفو والعافية مما ابتُلي به الزائغون المنحرفون ، **الخامسة** : اعترافهم بمنة اللّه عليهم بالهداية وذلك قوله ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ **السادسة** : أنهم مع هذا سألوه رحمته المُتضمنة حصول كل خير واندفاع كل شر ، وتوسَّلوا إليه باسمه الوهاب ، **السابعة** : أنه أخبر عن إيمانهم وإيقانهم بيوم القيامة وخوفهم منه ، وهذا هو الموجب للعمل الرادع عن الزلل ، ثم قال تعالى :

[ ١٠ : ١٣ - ٣] : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۝١٠ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝١١ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝١٢ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ .

يُخبر تعالى أن الكُفَّار به وبرسله ، الجاحدين بدينه وكتابه ، قد استحقوا العقاب وشدَّة العذاب بكفرهم وذنوبهم وأنه لا يغني عنهم مالهم ولا أولادهم شيئا ، وإن كانوا في الدنيا يستدفعون بذلك النكبات التي ترد عليهم ، ويقولون ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ٣٥] .

فيوم القيامة يبدو لهم من اللّه ما لم يكونوا يحتسبون ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزمر٤٨] وليس للأولاد والأموال قدر عند اللّه ، إنما ينفع العبد إيمانه باللّه وأعماله الصالحة ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ٣٧] .

وأخبر هنا أن الكُفار هم وقود النار ، أي : حطبها ، الملازمون لها دائما أبدا ، وهذه الحال التي ذكر اللّه تعالى أنها لا تُغني الأموال والأولاد عن الكُفَّار شيئا ، سُنَّته الجارية في الأُمم السابقة . كما جرى لفرعون ومن قبله ومن بعدهم من الفراعنة العتاة الطغاة أرباب الأموال والجنود لما كذبوا بآيات اللّه وجحدوا ما جاءت به الرسل وعاندوا ، أخذهم اللّه بذنوبهم عدلا منه لا ظلما والله شديد العقاب على من أتى بأسباب العقاب وهو الكفر والذنوب على اختلاف أنواعها وتعدد مراتبها .

ثم قال تعالى : ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ وفي هذا إشارة للمؤمنين بالنصر والغلبة وتحذير للكفار ، وقد وقع كما أخبر تعالى ، فنصر الله المؤمنين على أعدائهم من كفار المشركين واليهود والنصارى ، وسيفعل هذا تعالى بعباده وجنده المؤمنين إلى يوم القيامة .

ففي هذا عبرة وآية من آيات القرآن المشاهدة بالحس والعيان ، وأخبر تعالى أن الكفار مع أنهم مغلوبون في الدار أنهم محشورون ومجموعون يوم القيامة لدار البوار ، وهذا هو الذي مهّدوه لأنفسهم فبئس المهاد مهادهم ، وبئس الجزاء جزاؤهم .

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي : عبرة عظيمة ﴿فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ وهذا يوم بدر ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم الرسول ﷺ وأصحابه ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ أي : كفار قريش الذين خرجوا من ديارهم بطرا وفخرا ورئاء الناس ، ويصدون عن سبيل الله ، فجمع الله بين الطائفتين في بدر ، وكان المشركون أضعاف المؤمنين ، فلهذا قال : ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ أي : يرى المؤمنون الكافرين يزيدون عليها زيادة كثيرة ، تبلغ المضاعفة وتزيد عليها ، وأكد هذا بقوله ﴿رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ فنصر الله المؤمنين وأيّدهم بنصره فهزموهم ، وقتلوا صناديدهم ، وأسروا كثيرا منهم ، وما ذاك إلا لأن الله ناصر من نصره ، وخاذل من كفر به .

ففي هذا عبرة لأولي الأبصار ، أي : أصحاب البصائر النافذة والعقول الكاملة ، على أن الطائفة المنصورة معها الحق ، والأخرى مبطلة ، وإلا فلو نظر الناظر إلى مجرد الأسباب الظاهرة والعَدَد والعُدَد لجزم بأن غلبة هذه الفئة القليلة لتلك الفئة الكثيرة من أنواع المُحالات ، ولكن وراء هذا السبب المُشاهد بالأبصار سبب أعظم منه لا يدركه إلا أهل البصائر والإيمان بالله والتوكل على الله والثقة بكفايته ، وهو نصره وإعزازه لعباده المؤمنين على أعدائه الكافرين .

[ ١٤ : ١٧ - ٣ ] : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ .

يُخبر تعالى أنه زُين للناس حب الشهوات الدنيوية ، وخصّ هذه الأمور المذكورة لأنها أعظم شهوات الدنيا وغيرها تبع لها ، قال تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [ سورة الكهف ٧ ] . فلما زُينت لهم هذه المذكورات بما فيها من الدواعي المُثيرات ، تعلّقت بها نفوسهم ومالت إليها قلوبهم ، وانقسموا بحسب الواقع إلى قسمين : قسم : جعلوها هي المقصود ، فصارت أفكارهم وخواطرهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة لها ، فشغلتهم عمّا خُلقوا لأجله ، وصحبوها صحبة البهائم السائمة ، يتمتّعون بلذاتها ويتناولون شهواتها ،

ولا يبالون على أي : وجه حصَّلوها ، ولا فيما أنفقوها وصرفوها ، فهؤلاء كانت زادا لهم إلى دار الشقاء والعناء والعذاب ، والقسم الثاني : عرفوا المقصود منها وأن اللّٰه جعلها ابتلاء وامتحانا لعباده ، ليعلم من يُقدم طاعته ومرضاته على لذَّاته وشهواته ، فجعلوها وسيلة لهم وطريقًا يتزودن منها لآخرتهم ويتمتعون بما يتمتعون به على وجه الاستعانة به على مرضاته ، قد صحبوها بأبدانهم وفارقوها بقلوبهم ، وعلموا أنها كما قال اللّٰه فيها ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فجعلوها معبرا إلى الدار الآخرة ومتجرا يرجون بها الفوائد الفاخرة ، فهؤلاء صارت لهم زادا إلى ربهم .

وفي هذه الآية تسلية للفقراء الذين لا قُدرة لهم على هذه الشهوات التي يقدر عليها الأغنياء ، وتحذير للمُغترين بها وتزهيد لأهل العقول النيِّرة بها ، وتمام ذلك أن اللّٰه تعالى أخبر بعدها عن دار القرار ومصير المُتقين الأبرار ، وأخبر أنها خير من ذلكم المذكور ، ألا وهي الجنَّات العاليات ذات المنازل الأنيقة والغرف العالية ، والأشجار المتنوعة المثمرة بأنواع الثمار ، والأنهار الجارية على حسب مرادهم والأزواج المطهرة من كل قَذَر ودنس وعيب ظاهر وباطن ، مع الخلود الدائم الذي به تمام النعيم ، مع الرضوان من اللّٰه الذي هو أكبر نعيم ، فقس هذه الدار الجليلة بتلك الدار الحقيرة ، ثم اختر لنفسك أحسنهما واعرض على قلبك المفاضلة بينهما .

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي : عالم بما فيهم من الأوصاف الحسنة والأوصاف القبيحة ، وما هو اللائق بأحوالهم ، يوفق من شاء منهم ويخذل من شاء . فالجنة التي ذكر اللّٰه وصفها ونعتها بأكمل نعت وصف أيضًا المُستحقِّين لها وهم الذين اتقوه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه ، وكان من دعائهم أن قالوا : ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ .

توسلوا بمِنَّة اللّٰه عليهم بتوفيقهم للإيمان أن يغفر لهم ذنوبهم ويقيهم شر آثارها وهو عذاب النار ، ثم فصل أوصاف التقوى .

فقال : ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أنفسهم على ما يحبه اللّٰه من طاعته ، وعن معصيته ، وعلى أقداره المؤلمة ، ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في إيمانهم وأقوالهم وأحوالهم ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ مما رزقهم اللّٰه بأنواع النفقات على المحاويج من الأقارب وغيرهم ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ لمَّا بيَّن صفاتهم الحميدة ذكر احتقارهم لأنفسهم وأنهم لا يرون لأنفسهم ، حالا ولا مقاما ، بل يرون أنفسهم مُذنبين مُقصرين فيستغفرون ربهم ، ويتوقَّعون أوقات الإجابة وهي السحر ، قال الحسن : مُدوا الصلاة إلى السحر ، ثم جلسوا يستغفرون ربهم .

فتضمنت هذه الآيات حالة الناس في الدنيا وأنها متاع ينقضي ، ثم وصف الجنة وما فيها من النعيم وفاضل بينهما ، وفضل الآخرة على الدنيا تنبيها على أنه يجب إيثارها والعمل لها ، ووصف أهل الجنة وهم المُتَّقون ، ثم فَّصل خصال التقوى ، فبهذه الخصال يزن العبد نفسه ، هل هو من أهل الجنة أم لا؟ .

[ ١٨ : ٢٠ - ٣] : ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ

فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ .

هذا تقرير من اللّه تعالى للتوحيد بأعظم الطرق المُوجبة له ، وهي شهادته تعالى وشهادة خواص الخلق وهم الملائكة وأهل العلم ، أما شهادته تعالى فيما أقامه من الحجج والبراهين القاطعة على توحيده ، وأنه لا إله إلا هو ، فنوّع الأدلة في الآفاق والأنفس على هذا الأصل العظيم ، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه ما قام أحد بتوحيده إلا ونصره على المُشرك الجاحد المُنكر للتوحيد ، وكذلك إنعامه العظيم الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه ، ولا يدفع النقم إلا هو ، والخلق كلهم عاجزون عن المنافع والمضار لأنفسهم ولغيرهم ، ففي هذا برهان قاطع على وجوب التوحيد وبطلان الشرك .

وأما شهادة الملائكة بذلك فنستفيدها بإخبار اللّه لنا بذلك وإخبار رسله .

وأما شهادة أهل العلم فلأنهم هم المرجع في جميع الأمور الدينية خصوصا في أعظم الأمور وأجلها وأشرفها وهو التوحيد ، فكلهم من أولهم إلى آخرهم قد اتّفقوا على ذلك ودعوا إليه وبيّنوا للناس الطرق الموصلة إليه ، فوجب على الخلق التزام هذا الأمر المشهود عليه والعمل به ، وفي هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد لأن اللّه شهد به بنفسه وأشهد عليه خواص خلقه ، والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين ، بمنزلة المشاهدة للبصر ، ففيه دليل على أن من لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم .

وفي هذه الآية دليل على شرف العلم من وجوه كثيرة ، **منها** : أن اللّه خصهم بالشهادة على أعظم مشهود عليه دون الناس ، **ومنها** : أن اللّه قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته ، وكفى بذلك فضلا ، **ومنها** : أنه جعلهم أولي العلم ، فأضافهم إلى العلم ، إذ هم القائمون به المتصفون بصفته ، **ومنها** : أنه تعالى جعلهم شهداء وحُجّة على الناس ، وألزم الناس العمل بالأمر المشهود به ، فيكونون هم السبب في ذلك ، فيكون كل من عمل بذلك نالهم من أجره ، وذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء ، **ومنها** : أن إشهاده تعالى أهل العلم يتضمن ذلك تزكيتهم وتعديلهم وأنهم أمناء على ما استرعاهم عليه .

ولما قرّر توحيده قرّر عدله ، فقال : ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ أي : لم يزل مُتّصفا بالقسط في أفعاله وتدبيره بين عباده ، فهو على صراط مستقيم في ما أمر به ونهى عنه ، وفيما خلقه وقدره .

ثم أعاد تقرير توحيده فقال ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ واعلم أن هذا الأصل الذي هو توحيد اللّه وإفراده بالعبودية قد دلت عليه الأدلة النقلية والأدلة العقلية ، حتى صار لذوي البصائر أجلى من الشمس ، فأما الأدلة النقلية فكل ما في كتاب اللّه وسُنّة رسوله ، من الأمر به وتقريره ، ومحبة أهله وبغض من لم يقم به وعقوباتهم ، وذم الشرك وأهله ، فهو من الأدلة النقلية على ذلك ، حتى كاد القرآن أن يكون كله أدلة عليه ، وأما الأدلة العقلية التي تدرك بمجرد فكر العقل وتصوره للأمور فقد أرشد القرآن إليها ونبه على كثير منها ، فمن أعظمها : الاعتراف بربوبية اللّه ، فإن من عَرف أنه هو الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور أنتج له ذلك أنه هو المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له ، ولما كان هذا من أوضح الأشياء وأعظمها أكثر اللّه تعالى من الاستدلال به في كتابه .

ومن الأدلة العقلية على أن اللّه هو الذي يؤله دون غيره انفراده بالنعم ودفع النقم ، فإن من عرف أن النعم الظاهرة والباطنة القليلة والكثيرة كلها من اللّه ، وأنه ما من نقمة ولا شدة ولا كربة إلا وهو الذي ينفرد بدفعها وإن أحدا من الخلق لا يملك لنفسه - فضلا عن غيره- جلب نعمة ولا دفع نقمة ، تيقن أن عبودية ما سوى اللّه من أبطل الباطل وأن العُبودية لا تنبغي إلا لمن انفرد بجلب المصالح ودفع المضار ، فلهذا أكثر اللّه في كتابه من التنبيه على هذا الدليل جدًا .

ومن الأدلة العقلية أيضًا على ذلك : ما أخبر به تعالى عن المعبودات التي عُبِدت من دونه ، بأنها لا تملك نفعا ولا ضرا ، ولا تنصر غيرها ولا تنصر نفسها ، وسلبها الأسماع والأبصار ، وأنها على فرض سماعها لا تغني شيئا ، وغير ذلك من الصفات الدالة على نقصها غاية النقص ، وما أخبر به عن نفسه العظيمة من الصفات الجليلة والأفعال الجميلة ، والقدرة والقهر ، وغير ذلك من الصفات التي تعرف بالأدلة السمعية والعقلية ، فمن عرف ذلك حق المعرفة عرف أن العبادة لا تليق ولا تحسن إلا بالرب العظيم الذي له الكمال كله ، والمجد كله ، والحمد كله ، والقدرة كلها ، والكبرياء كلها ، لا بالمخلوقات المُدبَّرات الناقصات الصم البكم الذين لا يعقلون .

ومن الأدلة العقلية على ذلك ما شاهده العباد بأبصارهم من قديم الزمان وحديثه ، من الإكرام لأهل التوحيد ، والإهانة والعقوبة لأهل الشرك ، وما ذاك إلا لأن التوحيد جعله اللّه موصلا إلى كل خير دافعا لكل شر ديني ودنيوي ، وجعل الشرك به والكفر سببا للعقوبات الدينية والدنيوية ، ولهذا إذا ذكر تعالى قصص الرسل مع أمم المطيعين والعاصين ، وأخبر عن عقوبات العاصين ونجاة الرسل ومن تبعهم ، قال عقب كل قصة : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي : لعبرة يعتبر بها المُعتبِرون فيعلمون أن توحيده هو الموجب للنجاة ، وتركه هو الموجب للهلاك .

فهذه من الأدلة الكبار العقلية النقلية الدالة على هذا الأصل العظيم ، وقد أكثر اللّه منها في كتابه وصرفها ونوّعها ليحيى من حي عن بيّنة ، ويهلك من هلك عن بيّنة فله الحمد والشكر والثناء .

ولما قرر أنه الإله الحق المعبود ، بيّن العبادة والدين الذي يتعيَّن أن يُعبد به ويدان له ، وهو الإسلام الذي هو الاستسلام للّه بتوحيده وطاعته التي دعت إليها رسله ، وحثت عليها كتبه ، وهو الذي لا يقبل من أحد دين سواه ، وهو مُتضمن للإخلاص له في الحب والخوف والرجاء والإنابة والدعاء ومُتابعة رسوله في ذلك ، وهذا هو دين الرسل كلهم ، وكل من تابعهم فهو على طريقهم ، وإنما اختلف أهل الكتاب بعد ما جاءتهم كتبهم تحثهم على الاجتماع على دين اللّه ، بغيا بينهم ، وظلما وعدوانا من أنفسهم ، وإلا فقد جاءهم السبب الأكبر الموجب أن يتبعوا الحق ويتركوا الاختلاف ، وهذا من كفرهم ، فلهذا قال تعالى : ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فيُجازي كل عامل بعمله ، وخُصوصًا من ترك الحق بعد معرفته ، فهذا مستحق للوعيد الشديد والعقاب الأليم .

ثم أمر تعالى رسوله ﷺ عند محاجة النصارى وغيرهم ممن يفضل غير دين الإسلام عليه أن يقول لهم :

قد ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ أي : أنا ومن اتبعني قد أقررنا وشهدنا وأسلمنا وجوهنا لربنا ، وتركنا ما سوى دين الإسلام ، وجزمنا ببطلانه ، ففي هذا تأييس لمن طمع فيكم ، وتجديد لدينكم عند ورود الشبهات ، وحُجَّة على من اشتبه عليه الأمر ، لأنه قد تقدَّم أن اللّه استشهد على توحيده بأهل العلم من عباده ليكونوا حُجَّة على غيرهم ، وسيد أهل العلم وأفضلهم وأعلمهم هو نبينا محمد ﷺ ، ثم من بعده أتباعه على اختلاف مراتبهم وتفاوت درجاتهم ، فلهم من العلم الصحيح والعقل الرجيح ما ليس لأحد من الخلق ما يساويهم أو يقاربهم .

فإذا ثبت وتقرر توحيد اللّه ودينه بأدلته الظاهرة ، وقام به أكمل الخلق وأعلمهم ، حصل بذلك اليقين وانتفى كل شك وريب وقادح ، وعُرف أن ما سواه من الأديان باطلة ، فلهذا قال : ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ﴾ من النصارى واليهود ﴿وَالأُمِّيِّينَ﴾ مُشركي العرب وغيرهم ﴿أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ﴾ أي : بمثل ما أمنتم به ﴿فَقَدِ اهْتَدَواْ﴾ كما اهتديتم وصاروا إخوانكم ، لهم ما لكم ، وعليهم ما عليكم ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن الإسلام ورضوا بالأديان التي تخالفه ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ﴾ فقد وجب أجرك على ربك ، وقامت عليهم الحُجَّة ، ولم يبق بعد هذا إلا مُجازاتهم بالعقاب على جرمهم ، فلهذا قال ﴿وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ .

[ ٢١ : ٢٢ – ٣ ] : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الِّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَت أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ .

هؤلاء الذين أخبر اللّه عنهم في هذه الآية ، أشد الناس جرما وأي : جرم أعظم من الكفر بآيات اللّه التي تدل دلالة قاطعة على الحق الذي من كفر بها فهو في غاية الكفر والعناد ويقتلون أنبياء اللّه الذين حقهم أوجب الحقوق على العباد بعد حق اللّه ، الذين أوجب اللّه طاعتهم والإيمان بهم ، وتعزيرهم ، وتوقيرهم ، ونصرهم وهؤلاء قابلوهم بضد ذلك ، ويقتلون أيضًا الذين يأمرون الناس بالقسط الذي هو العدل ، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي حقيقته إحسان إلى المأمور ونصح له ، فقابلوهم شر مُقابلة ، فاستحقوا بهذه الجنايات المُنكرات أشد العقوبات ، وهو العذاب المؤلم البالغ في الشدة إلى غاية لا يمكن وصفها ، ولا يُقدر قدرها المؤلم للأبدان والقلوب والأرواح .

وبطلت أعمالهم بما كسبت أيديهم ، وما لهم أحد ينصرهم من عذاب اللّه ولا يدفع عنهم من نقمته مثقال ذرة ، بل قد أيسوا من كل خير ، وحصل لهم كل شر وضير ، وهذه الحالة صفة اليهود ونحوهم ، قبحهم اللّه ما أجرأهم على اللّه وعلى أنبيائه وعباده الصالحين .

[ ٢٣ : ٢٥ – ٣ ] : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾

يُخبر تعالى عن حال أهل الكتاب الذين أنعم الله عليهم بكتابه ، فكان يجب أن يكونوا أقوم الناس به وأسرعهم انقيادا لأحكامه ، فأخبر الله عنهم أنهم إذا دُعوا إلى حكم الكتاب تولّى فريق منهم وهم يعرضون ، تولوا بأبدانهم ، وأعرضوا بقلوبهم ، وهذا غاية الذم ، وفي ضمنها التحذير لنا أن نفعل كفعلهم ، فيصيبنا من الذم والعقاب ما أصابهم ، بل الواجب على كل أحد إذا دعي إلى كتاب الله أن يسمع ويطيع وينقاد ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور٥١] .

والسبب الذي غرّ أهل الكتاب بتجرئهم على معاصي الله هو قولهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ . افتروا هذا القول فظنوه حقيقة فعملوا على ذلك ولم ينزجروا عن المحارم ، لأن أنفسهم منتهم وغرتهم أن مآلهم إلى الجنة ، وكذبوا في ذلك ، فإن هذا مجرد كذب وافتراء ، وإنما مآلهم شر مآل ، وعاقبتهم عاقبة وخيمة ، فلهذا قال تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ . أي : كيف يكون حالهم ووخيم ما يُقْدِمون عليه ، حالة لا يمكن وصفها ولا يتصور قبحها لأن ذلك اليوم يوم توفية النفوس ما كسبت ومجازاتها بالعدل لا بالظلم ، وقد علم أن ذلك على قدر الأعمال ، وقد تقدم من أعمالهم ما يبين أنهم من أشد الناس عذابا .

[ ٣ – ٢٦ : ٢٧ ] : ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .

يقول الله لنبيه ﷺ : ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ أي : أنت المَلِك المالك لجميع الممالك ، فصفة المُلك المُطلق لك ، والمملكة كلها علويها وسفليها لك والتصريف والتدبير كله لك ، ثم فصّل بعض التصاريف التي انفرد الباري تعالى بها ، فقال : ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ وفيه الإشارة إلى أن الله تعالى سينزع الملك من الأكاسرة والقياصرة ومن تبعهم ويؤتيه أمّة محمد ، وقد فعل ولله الحمد ، فحصول المُلك ونزعه تبع لمشيئة الله تعالى ، ولا ينافي ذلك ما أجرى الله به سُنته من الأسباب الكونيّة والدينيّة التي هي سبب بقاء المُلك وحُصوله وسبب زواله ، فإنها كلها بمشيئة الله لا يوجد سبب يستقل بشيء ، بل الأسباب كلها تابعة للقضاء والقدر ، ومن الأسباب التي جعلها الله سببا لحصول المُلك الإيمان والعمل الصالح ، التي منها اجتماع المسلمين واتفاقهم ، وإعدادهم الآلات التي يقدروا عليها والصبر وعدم التنازع .

قال الله تعالى : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [ سُورة النُّور ٥٥] الآية . فأخبر أن الإيمان والعمل الصالح سبب للاستخلاف المذكور ، وقال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [ سُورة الأنفال ٦٢- ٦٣] الآية . وقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [ سُورة الأنفال ٤٥- ٤٦] .

فأخبر أن ائتلاف قلوب المؤمنين وثباتهم وعدم تنازعهم سبب للنصر على الأعداء، وأنت إذا استقرأت الدول الإسلامية وجدت السبب الأعظم في زوال ملكها ترك الدين والتفرق الذي أطمع فيهم الأعداء وجعل بأسهم بينهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ بطاعتك ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ بمعصيتك.

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يمتنع عليك أمر من الأمور بل الأشياء كلها طوع مشيئتك وقدرتك.

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾أي: تدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، فينشأ عن ذلك من الفصول والضياء والنور والشمس والظل والسكون والانتشار، ما هو من أكبر الأدلة على قُدرة اللّه وعظمته وحكمته ورحمته.

﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كالفرخ من البيضة، وكالشجر من النوى، وكالزرع من بذره، وكالمؤمن من الكافر.

﴿وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ كالبيضة من الطائر وكالنوى من الشجر، وكالحب من الزرع، وكالكافر من المؤمن.

وهذا أعظم دليل على قدرة اللّه، وأن جميع الأشياء مُسخَّرة مُدبَّرة لا تملك من التدبير شيئا، فخلقه تعالى الأضداد، والضد من ضده بيان أنها مقهورة ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: ترزق من تشاء رزقا واسعا من حيث لا يحتسب ولا يكتسب، ثم قال تعالى:

[ ٢٨: ٣٠ - ٣]: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

وهذا نهي من اللّه تعالى للمؤمنين عن مُوالاة الكافرين بالمحبَّة والنُّصرة والاستعانة بهم على أمر من أمور المُسلمين، وتوعَّد على ذلك فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ أي: فقد انقطع عن اللّه، وليس له في دين اللّه نصيب، لأن موالاة الكافرين لا تجتمع مع الإيمان، لأن الإيمان يأمر بموالاة اللّه وموالاة أوليائه المؤمنين المُتعاونين على إقامة دين اللّه وجهاد أعدائه، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [ سورة التوبة ٧١ ]، فمن والى - الكافرين من دون المُؤمنين الذين يريدون أن يطفؤا نور اللّه ويفتنوا أولياءه خرج من حزب المُؤمنين، وصار من حزب الكافرين، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [ سورة المائدة ٥١ ].

وفي هذه الآية دليل على الابتعاد عن الكُفَّار وعن معاشرتهم وصداقتهم، والميل إليهم والركون إليهم، وأنه لا يجوز أن يولى كافر ولاية من ولايات المُسلمين، ولا يُستعان به على الأمور التي هي

مصالح لعموم المُسلمين .

قال الله تعالى : ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ ، أي : تخافوهم على أنفسكم فيحل لكم أن تفعلوا ما تعصمون به دماءكم من التَّقِية باللسان وإظهار ما به تحصل التَّقية .

ثم قال تعالى : ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي : فلا تتعرَّضوا لسخطه بارتكاب معاصيه فيعاقبكم على ذلك ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي : مرجع العباد ليوم التناد ، فيحصي أعمالهم ويحاسبهم عليها ويجازيهم ، فإيَّاكم أن تفعلوا من الأعمال القباح ما تستحقون به العقوبة ، واعملوا ما به يحصل الأجر والمثوبة ، ثم أخبر عن سعة علمه لما في النفوس خصوصا ، ولما في السماء والأرض عموما ، وعن كمال قدرته ، ففيه إرشاد إلى تطهير القلوب واستحضار علم الله كل وقت فيستحي العبد من ربه أن يرى قلبه محلا لكل فكر رديء ، بل يشغل أفكاره فيما يقرب إلى الله من تدبر آية من كتاب ، أو سُنَّة من أحاديث رسول الله ، أو تصوُّر وبحث في علم ينفعه ، أو تفكُّر في مخلوقات الله ونعمه ، أو نصح لعباد الله ، وفي ضمن إخبار الله عن علمه وقدرته الإخبار بما هو لازم ذلك من المُجازاة على الأعمال ، ومحل ذلك يوم القيامة ، فهو الذي تُوفَّى به النفوس بأعمالها فلهذا قال ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ ، أي : كاملا موفرا لم ينقص مِثقال ذرة ، كما قال تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [ سُورة الزَّلزلة ٧ ] .

والخير : اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله من الأعمال الصالحة صغيرها وكبيرها ، كما أن السوء اسم جامع لكل ما يسخط الله من الأعمال السيئة صغيرها وكبيرها ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ أي : مسافة بعيدة ، لعظم أسفها وشدة حزنها ، فليحذر العبد من أعمال السوء التي لا بد أن يحزن عليها أشد الحزن ، وليتركها وقت الإمكان قبل أن يقول : ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [ سُورة الزُّمر ٥٦ ] . ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [ سُورة النِّساء ٤٢ ] . ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [ سُورة الفُرقان ٢٧- ٢٨ ] . ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزُّخرف٣٨] .

فوالله لترك كل شهْوة ولذَّة وان عَسُر تركها على النفس في هذه الدار أيسر من مُعاناة تلك الشدائد واحتمال تلك الفضائح ، ولكن العبد من ظلمه وجهله لا ينظر إلا الأمر الحاضر ، فليس له عقل كامل يُلحظ به عواقب الأمور فيُقدم على ما ينفعه عاجلا وآجلا ، ويحجم عن ما يضره عاجلا وآجلا ، ثم أعاد تعالى تحذيرنا نفسه رأفة بنا ورحمة لئلا يطول علينا الأمد فتقسو قلوبنا ، وليجمع لنا بين الترغيب المُوجب للرجاء والعمل الصالح ، والترهيب الموجب للخوف وترك الذنوب ، فقال : ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ .

فنسأله أن يمُنَّ علينا بالحذر منه على الدوام ، حتى لا نفعل ما يسخطه ويغضبه .

[ ٣١ – ٣ ] : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

وهذه الآية فيها وجوب محبَّة الله ، وعلاماتها ، ونتيجتها ، وثمراتها ، فقال ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ أي : ادَّعيتم هذه المرتبة العالية ، والرتبة التي ليس فوقها رُتبة فلا يكفي فيها مُجرد الدعوى ، بل لابد من

الصدق فيها، وعلامة الصدق اتّباع رسوله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فمن اتّبع الرسول دلّ على صِدق دعواه محبة الله تعالى، وأحبه الله وغفر له ذنبه، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته، ومن لم يتّبع الرسول فليس مُحبًا لله تعالى، لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله، فما لم يوجد ذلك دل على عدمها وأنه كاذب إن ادعاها، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها، وبهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلى حسب حظهم من اتّباع الرسول يكون إيمانهم وحبهم لله، وما نقص من ذلك نقص.

[٣٢ - ٢]: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

وهذا أمر من الله تعالى لعباده بأعم الأوامر، وهو طاعته وطاعة رسوله التي يدخل بها الإيمان والتوحيد، وما هو من فروع ذلك من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، بل يدخل في طاعته وطاعة رسوله اجتناب ما نهى عنه، لأن اجتنابه امتثالا لأمر الله هو من طاعته، فمن أطاع الله ورسوله، فأولئك هم المُفلحون.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن طاعة الله ورسوله فليس ثم أمر يرجعون إليه إلا الكُفر وطاعة كل شيطان مريد ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سورة الحج٤].

فلهذا قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ بل يبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم أشد العقوبة، وكأن في هذه الآية الكريمة بيانا وتفسيرا لاتّباع رسوله، وأن ذلك بطاعة الله وطاعة رسوله، هذا هو الاتباع الحقيقي، ثم قال تعالى:

[٣٣: ٣٧ - ٣]: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

يُخبر تعالى باختيار من اختاره من أوليائه وأصفيائه وأحبابه، فأخبر أنه اصطفى آدم، أي: اختاره على سائر المخلوقات، فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وأسكنه جنّته، وأعطاه من العلم والحلم والفضل ما فاق به سائر المخلوقات، ولهذا فضّل بنيه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء٧٠].

واصطفى نوحا فجعله أول رسول إلى أهل الأرض حين عبدت الأوثان، ووفقه من الصبر والاحتمال والشكر والدعوة إلى الله في جميع الأوقات ما أوجب اصطفاءه واجتباءه، وأغرق الله أهل الأرض بدعوته، ونجاه ومن معه في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين، وترك عليه ثناء يذكر في جميع الأحيان والأزمان.

واصطفى آل إبراهيم وهو إبراهيم خليل الرحمن الذي اختصه الله بخلّته، وبذل نفسه للنيران وولده للقُربان وماله للضِّيفان، ودعا إلى ربه ليلا ونهارا وسرا وجهارا، وجعله الله أسوة يقتدي به من بعده، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، ويدخل في آل إبراهيم جميع الأنبياء الذين بعثوا من بعده لأنهم من ذريته، وقد خصهم بأنواع الفضائل ما كانوا به صفوة على العالمين.

ومنهم سيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ فإن الله تعالى جمع فيه من الكمال ما تفرق في غيره، وفاق ﷺ الأولين والآخرين، فكان سيد المُرسلين المُصطفى من ولد إبراهيم.

واصطفى الله آل عمران وهو والد مريم بنت عمران، أو والد موسى بن عمران عليه السلام، فهذه البيوت التي ذكرها الله هي صفوته من العالمين، وتسلسل الصلاح والتوفيق بذرياتهم، فلهذا قال تعالى ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾.

أي: حصل التناسب والتشابه بينهم في الخلق والأخلاق الجميلة، كما قال تعالى لما ذكر جملة من الأنبياء الداخلين في ضمن هذه البيوت الكبار ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام٨٧].

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعلم من يستحق الاصطفاء فيصطفيه ومن لا يستحق ذلك فيخذله ويرديه، ودل هذا على أن هؤلاء اختارهم لما علم من أحوالهم الموجبة لذلك فضلا منه وكرما.

ومن الفائدة والحكمة في قصّه علينا أخبار هؤلاء الأصفياء أن نحبهم ونقتدي بهم، ونسأل الله أن يوفقنا لما وفقهم، وأن لا نزال نزري أنفسنا بتأخرنا عنهم وعدم اتصافنا بأوصافهم ومزاياهم الجميلة، وهذا أيضًا من لطفه بهم، وإظهاره الثناء عليهم في الأولين والآخرين، والتنويه بشرفهم، فلله ما أعظم جوده وكرمه وأكثر فوائد معاملته، لو لم يكن لهم من الشرف إلا أن أذكارهم مخلدة ومناقبهم مؤبدة لكفى بذلك فضلا.

ولما ذكر فضائل هذه البيوت الكريمة ذكر ما جرى لمريم والدة عيسى وكيف لطف الله بها في تربيتها ونشأتها، فقال: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ أي: والدة مريم لما حملت ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ أي: جعلت ما في بطني خالصا لوجهك، محررا لخدمتك وخدمة بيتك ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ﴾ هذا العمل المبارك ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تسمع دعائي وتعلم نيّتي وقصدي، هذا وهي في البطن قبل وضعها.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ كأنها تشوَّفت أن يكون ذكرا ليكون أقدر على الخدمة وأعظم موقعا، ففي كلامها نوع عذر من ربها.

فقال الله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ أي: لا يحتاج إلى إعلامها، بل علمه متعلق بها قبل أن تعلم أمها ما هي.

﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ فيه دلالة على تفضيل الذكر على الأنثى، وعلى التسمية وقت الولادة، وعلى أن للأم تسمية الولد إذا لم يكره الأب.

﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ دعت لها ولذريّتها أن يعيذهم الله من الشيطان الرجيم.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي : جعلها نذيرة مقبولة ، وأجارها وذريتها من الشيطان ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي : نبتت نباتا حسنا في بدنها وخلقها وأخلاقها ، لأن الله تعالى قيّض لها زكريا عليه السلام ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ إيّاه ، وهذا من رفقه بها ليربيها على أكمل الأحوال ، فنشأت في عبادة ربها وفاقت النساء ، وانقطعت لعبادة ربها ، ولزمت محرابها أي : مصلاها ، فكان ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ أي : من غير كسب ولا تعب ، بل رزق ساقه الله إليها ، وكرامة أكرمها الله بها ، فيقول لها زكريا ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فضلا وإحسانا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي : من غير حسبان من العبد ولا كسب ، قال تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [ سورة الطلاق ٢ – ٣ ] .

وفي هذه الآية دليل على إثبات كرامات الأولياء الخارقة للعادة كما قد تواترت الأخبار بذلك ، خلافا لمن نفى ذلك ، فلما رأى زكريا عليه السلام ما مَنَّ الله به على مريم ، وما أكرمها به من رزقه الهنيء الذي أتاها بغير سعي منها ولا كسب ، طمعت نفسه بالولد ، فلهذا قال تعالى :

[ ٣٨ : ٤١ – ٣ ] : ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ .

أي : دعا زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه ذرية طيبة ، أي : طاهرة الأخلاق ، طيبة الآداب ، لتكمل النعمة الدينية والدنيوية بهم . فاستجاب له دعاءه .

وبينما هو قائم في محرابه يتعبد لربه ويتضرع نادته الملائكة : ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي : بعيسى عليه السلام ، لأنه كان بكلمة الله ﴿وَسَيِّدًا﴾ أي : يحصل له من الصفات الجميلة ما يكون به سيدا يرجع إليه في الأمور ﴿وَحَصُورًا﴾ أي : ممنوعا من إتيان النساء ، فليس في قلبه لهن شهوة ، اشتغالا بخدمة ربه وطاعته ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فأي : بشارة أعظم من هذا الولد الذي حصلت البشارة بوجوده ، وبكمال صفاته ، وبكونه نبيًّا من الصالحين ، فقال زكريا من شدة فرحه ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾ وكل واحد من الأمرين مانع من وجود الولد ، فكيف وقد اجتمعا ، فأخبره الله تعالى أن هذا خارق للعادة ، فقال : ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ فكما أنه تعالى قدَّر وجود الأولاد بالأسباب التي منها التناسل ، فإذا أراد أن يوجدهم من غير ما سبب فعل ، لأنه لا يستعصي عليه شيء ، فقال زكريا عليه السلام استعجالا لهذا الأمر ، وليحصل له كمال الطمأنينة . ﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ أي : علامة على وجود الولد قال ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ أي : ينحبس لسانك عن كلامهم من غير آفة ولا سوء ، فلا تقدر إلا على الإشارة والرمز ، وهذا آية عظيمة أن لا تقدر على الكلام ، وفيه مناسبة عجيبة ، وهي أنه كما يمنع نفوذ الأسباب مع وجودها ، فإنه يوجدها بدون أسبابها ليدل ذلك أن الأسباب كلها مُندرجة في قضائه وقدره ، فامتنع من الكلام ثلاثة أيام ، وأمره الله أن يشكره ويكثر من ذكره بالعشى

والإبكار، حتى إذا خرج على قومه من المحراب ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [سورة مريم١١]. أي: أول النهار وآخره.

[٤٢: ٤٤ - ٣]: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾

ينوّه تعالى بفضيلة مريم وعلو قدرها، وأن الملائكة خاطبتها بذلك فقالت ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ أي: اختارك ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من الآفات المنقصة ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الاصطفاء الأول يرجع إلى الصفات الحميدة والأفعال السديدة، والاصطفاء الثاني يرجع إلى تفضيلها على سائر نساء العالمين، إما على عالمي زمانها، أو مُطلقا، وإن شاركها أفراد من النساء في ذلك كخديجة(٤١) وعائشة(٤٢) وفاطمة(٤٣)، لم يُناف الاصطفاء المذكور، فلما أخبرتها الملائكة باصطفاء الله إياها وتطهيرها، كان في هذا من النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة ما يوجب لها القيام بشكرها، فلهذا قالت لها الملائكة: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾.

﴿ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾ القنوت دوام الطاعة في خضوع وخشوع، ﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ خص السجود والركوع لفضلهما ودلالتهما على غاية الخضوع لله، ففعلت مريم، ما أمرت به شكرا لله تعالى وطاعة، ولما أخبر الله نبيه بما أخبر به عن مريم، وكيف تنقّلت بها الأحوال التي قيّضها الله لها، وكان هذا من الأمور الغيبية التي لا تُعلم إلا بالوحي.

قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: عندهم ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ لما ذهبت بها أمها إلى من لهم الأمر على بيت المقدس، فتشاحوا وتخاصموا أيهم يكفل

---

(٤١) * عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ.
مُتفق عليه. أخرجه البُخاري في صحيحه: (كتاب أحاديث الأنبياء / باب: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ / ح ٣٤٣٢). وفي: (كتاب مناقب الأنصار / باب: تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها / ح ٣٨١٥). وأخرجه مُسلم في صحيحه: (كتاب فضائل الصّحابة / باب: فضائل خديجة أُم المؤمنين رضي الله تعالى عنها / ح ٧٠).

(٤٢) * قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ. متفق عليه. من حديث أبي موسى الأشعري. أخرجه البخاري: (كتاب أحاديث الأنبياء/ باب: قول الله تعالى: (وضرب الله مثلًا للذين آمنوا امرأة فرعون ...) / ح ٣٤١١، ٣٤٣٤)، (كتاب فضائل الصّحابة/ باب: فضل عائشة رضي الله عنها/ ح ٣٧٦٩)، (كتاب الأطعمة/ باب: الثريد / ح ٥٤١٨). وأخرجه مُسلم: (كتاب فضائل الصّحابة / باب: فضائل خديجة أُم المؤمنين رضي الله تعالى عنها/ ح ٧٠).

(٤٣) * عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا فَاطِمَةَ يَوْمَ الْفَتْحِ فَنَاجَاهَا فَبَكَتْ ثُمَّ حَدَّثَهَا فَضَحِكَتْ. قَالَتْ فَلَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلْتُهَا عَنْ بُكَائِهَا وَضَحِكِهَا قَالَتْ أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ يَمُوتُ فَبَكَيْتُ ثُمَّ أَخْبَرَنِي أَنِّي سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَّا مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ فَضَحِكْتُ. صحيح. أخرجه الترّمذي في سُننه: (كتاب المناقب / باب: ما جاء في فضل عائشة بنت مُحمد ﷺ / ح ٣٨٧٣). صحّحه العلامة الألباني في «السّلسلة الصّحيحة» ٢ / ٤٣٩. بينما حسّنه الحافظ ابن حجر - رحمه الله- في غير موضع من الفتح.

مريم ، واقترعوا عليها بأن ألقوا أقلامهم في النهر ، فأيهم لم يجر قلمه مع الماء فله كفالتها ، فوقع ذلك لزكريا نبيهم وأفضلهم ، فلما أخبَرتُهُم يا محمد بهذه الأخبار التي لا علم لك ولا لقومك بها دل على أنك صادق وأنك رسول الله حقا ، فوجب عليهم الانقياد لك وامتثال أوامرك ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ [سورة القصص٤٤] الآيات .

[ ٤٥ : ٥٨ - ٣ ] : ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ .

يُخبر تعالى أن الملائكة بشرت مريم عليها السلام بأعظم بشارة ، وهو كلمة الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم ، سُمّي كلمة الله لأنه كان بالكلمة من الله ، لأن حالته خارجة عن الأسباب ، وجعله الله من آياته وعجائب مخلوقاته ، فأرسل الله جبريل عليه السلام إلى مريم ، فنفخ في جيب درعها فولجت فيها تلك النفخة الذكية من ذلك المَلَك الزكي ، فأنشأ الله منها تلك الروح الزكية ، فكان روحانيا نشأ من مادة روحانية ، فلهذا سمى روح الله ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي : له الوجاهة العظيمة في الدنيا ، جعله الله أحد أولي العزم من المُرسلين أصحاب الشرائع الكبار والأتباع ، ونشر الله له من الذكر ما ملأ ما بين المشرق والمغرب ، وفي الآخرة وجيها عند الله يشفع أسوة إخوانه من النبيّين والمُرسلين ، ويظهر فضله على أكثر العالمين ، فلهذا كان من المقربين إلى الله ، أقرب الخلق إلى ربهم ، بل هو عليه السلام من سادات المقربين .

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ وهذا غير التكليم المُعتاد ، بل المراد يكلم الناس بما فيه صلاحهم وفلاحهم ، وهو تكليم المُرسلين ، ففي هذا إرساله ودعوته الخلق إلى ربهم ، وفي تكليمهم في

المهد آية عظيمة من آيات اللّه ينتفع بها المُؤمنون ، وتكون حُجَّة على المُعاندين ، أنه رسول رب العالمين ، وأنه عبد اللّه ، وليكون نعمة وبراءة لوالدته مما رميت به .

﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي : يَمُن عليه بالصلاح ، مَنْ مَنَّ عليهم ، ويدخله في جملتهم ، وفي هذا عدة بشارات لمريم مع ما تضمن من التنويه بذكر المسيح عليه السلام .

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ والولد في العادة لا يكون إلا من مس البشر ، وهذا استغراب منها ، لا شك في قُدرة اللّه تعالى : ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾فأخبرها أن هذا أمر خارق للعادة ، خلقه من يقول لكل أمر أراده : كن فيكون ، فمن تيقَّن ذلك زال عنه الاستغراب والتعجب ، ومن حكمة الباري تعالى أن تدرَّج بأخبار العباد من الغريب إلى ما هو أغرب منه ، فذكر وجود يحيى بن زكريا بين أبوين أحدهما كبير والآخر عاقر ، ثم ذكر أغرب من ذلك وأعجب ، وهو وجود عيسى عليه السلام من أم بلا أب ليدل عباده أنه الفعال لما يريد وأنه ما شاء كان وما لم يشاء لم يكن .

ثم أخبر تعالى عن مِنتِه العظيمة على عبده ورسوله عيسى عليه السلام ، فقال : ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يحتمل أن يكون المراد جنس الكتاب ، فيكون ذكر التوراة والإنجيل تخصيصا لهما ، لشرفهما وفضلهما واحتوائهما على الأحكام والشرائع التي يحكم بها أنبياء بني إسرائيل والتعليم ، لذلك يدخل فيه تعليم ألفاظه ومعانيه ، ويحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي : الكتابة ، لأن الكتابة من أعظم نعم اللّه على عباده ولهذا امتن تعالى على عباده بتعليمهم بالقلم في أول سورة أنزلها فقال ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [ سورة العلق ١- ٤] .

والمُراد بالحكمة معرفة أسرار الشرع ، ووضع الأشياء مواضعها ، فيكون ذلك امتنانا على عيسى عليه السلام بتعليمه الكتابة والعلم والحكمة ، وهذا هو الكمال للإنسان في نفسه .

ثم ذكر له كمالا آخر وفضلا زائدا على ما أعطاه اللّه من الفضائل ، فقال ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾فأرسله اللّه إلى هذا الشعب الفاضل الذين هم أفضل العالمين في زمانهم يدعوهم إلى اللّه ، وأقام له من الآيات ما دلهم أنه رسول اللّه حقا ونبيه صدقا ولهذا قال ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ﴾ طيرا ، أي : أصوره على شكل الطير ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي : طيرا له روح تطير بإذن اللّه ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ وهو الذي يولد أعمى ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ بإذن اللّه ﴿وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وأي : آية أعظم من جعل الجماد حيوانا ، وإبراء ذوي العاهات التي لا قدرة للأطباء في معالجتها ، وإحياء الموتى ، والإخبار بالأمور الغيبية ، فكل واحدة من هذه الأمور آية عظيمة بمفردها ، فكيف بها إذا اجتمعت وصدق بعضها بعضها؟ فإنها موجبة للإيقان وداعية للإيمان .

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي : أتيت بجنس ما جاءت به التوراة وما جاء به موسى عليه السلام ، وعلامة الصادق أن يكون خبره من جنس خبر الصادقين ، يخبر بالصدق ، ويأمر بالعدل من غير تخالف ولا تناقض ، بخلاف من ادَّعى دعوى كاذبة ، خصوصا أعظم الدعاوى وهي دعوى النُّبوة ،

فالكاذب فيها لابد أن يظهر لكل أحد كذب صاحبها وتناقُضه ومُخالفته لأخبار الصادقين وموافقته لأخبار الكاذبين ، هذا موجب السنن الماضية والحكمة الإلهية والرحمة الربّانية بعباده ، إذ لا يشتبه الصادق بالكاذب في دعوى النُبوة أبدا ، بخلاف بعض الأمور الجُزئية ، فإنه قد يشتبه فيها الصادق بالكاذب ، وأما النبوة فإنه يترتّب عليها هداية الخلق أو ضلالهم وسعادتهم وشقاؤهم ، ومعلوم أن الصادق فيها من أكمل الخلق ، والكاذب فيها من أخس الخلق وأكذبهم وأظلمهم ، فحكمة اللّه ورحمته بعباده أن يكون بينهما من الفروق ما يتبيّن لكل من له عقل ، ثم أخبر عيسى عليه السلام أن شريعة الإنجيل شريعة فيها سهولة ويسرة فقال ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فدل ذلك على أن أكثر أحكام التوراة لم ينسخها الإنجيل بل كان متمما لها ومقررا ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تدل على صدقي ووجوب اتباعي ، وهي ما تقدم من الآيات ، والمقصود من ذلك كله قوله ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه وأطيعوني فإن طاعة الرسول طاعة للّه .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ استدل بتوحيد الربوبيّة الذي يُقر به كل أحد على توحيد الإلهية الذي يُنكره المشركون ، فكما أن اللّه هو الذي خلقنا ورزقنا وأنعم علينا نعما ظاهرة وباطنة ، فليكن هو معبودنا الذي نألهه بالحب والخوف والرجاء والدعاء والاستعانة وجميع أنواع العبادة ، وفي هذا رد على النصارى القائلين بأن عيسى إله أو ابن اللّه ، وهذا إقراره عليه السلام بأنه عبد مُدبَّر مخلوق ، كما قال : ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [ سورة مريم ٣٠] . وقال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ إلى قوله : ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [ سورة المائدة ١١٧ - ١١٧] . وقوله ﴿هَٰذَا﴾ أي : عبادة اللّه وتقواه وطاعة رسوله ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ موصّل إلى اللّه وإلى جنّته ، وما عدا ذلك فهي طرق موصّلة إلى الجحيم .

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ أي : رأى منهم عدم الانقياد له ، وقالوا هذا سحر مبين ، وهمُّوا بقتله وسعوا في ذلك ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ من يعاونني ويقوم معي بنصرة دين اللّه .

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم الأنصار ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي : انتدبوا معه وقاموا بذلك .

وقالوا : ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ ، ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي : الشهادة النافعة ، وهي الشهادة بتوحيد اللّه وتصديق رسوله مع القيام بذلك ، فلما قاموا مع عيسى بنصر دين اللّه وإقامة شرعه آمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة ، فاقتتلت الطائفتان فأيد اللّه الذين آمنوا بنصره على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ، فلهذا قال تعالى هنا ﴿وَمَكَرُوا۟﴾ أي : الكُفّار بإرادة قتل نبي اللّه وإطفاء نوره ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ بهم جزاء لهم على مكرهم ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ رد اللّه كيدهم في نحورهم ، فانقلبوا خاسرين .

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فرفع اللّه عبده ورسوله عيسى إليه ، وألقي شبهه على غيره ، فأخذوا من ألقي شبهه عليه فقتلوه وصلبوه ، وباءوا بالإثم العظيم بنيّتهم أنه رسول اللّه ، قال اللّه : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [ سورة النّساء ١٥٧] .

وفي هذه الآية دليل على علو الله تعالى واستوائه على عرشه حقيقة ، كما دلَّت على ذلك النصوص القُرآنية والأحاديث النبوية التي تلقاها أهل السُّنَّة بالقبول والإيمان والتسليم ، وكان الله عزيزًا قويًا قاهرًا ، ومن عزَّته أن كفَّ بني إسرائيل بعد عزمهم الجازم وعدم المانع لهم عن قتل عيسى عليه السلام ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [ سورة المائدة ١١٠ ] . حكيم يضع الأشياء مواضعها ، وله أعظم حكمة في إلقاء الشبه على بني إسرائيل ، فوقعوا في الشبه كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ [ سورة النساء ١٥٧ ] .

ثم قال تعالى : ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وتقدم أن الله أيد المؤمنين منهم على الكافرين ، ثم إن النصارى المنتسبين لعيسى عليه السلام لم يزالوا قاهرين لليهود لكون النصارى أقرب إلى اتباع عيسى من اليهود ، حتى بعث الله نبينا محمدا ﷺ فكان المُسلمون هم المُتَّبعين لعيسى حقيقة ، فأيَّدهم الله ونصرهم على اليهود والنصارى وسائر الكُفَّار ، وإنما يحصل في بعض الأزمان إدالة الكُفَّار من النصارى وغيرهم على المُسلمين ، حكمة من الله وعقوبة على تركهم لاتباع الرسول ﷺ .

﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي : مصير الخلائق كلها ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ كل يدعي أن الحق معه وأنه المُصيب وغيره مخطئ ، وهذا مُجرَّد دعاوى تحتاج إلى برهان .

ثم أخبر عن حكمه بينهم بالقسط والعدل ، فقال ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي : بالله وآياته ورسله ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أما عذاب الدنيا ، فهو ما أصابهم الله به من القوارع والعُقوبات المُشاهدة والقتل والذل ، وغير ذلك مما هو نموذج من عذاب الآخرة ، وأما عذاب الآخرة فهو الطامة الكبرى والمصيبة العظمى ، ألا وهو عذاب النار وغضب الجبار وحرمانهم ثواب الأبرار ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينصرونهم من عذاب الله ، لا من زعموا أنهم شفعاء لهم عند الله ، ولا ما اتخذوهم أولياء من دونه ، ولا أصدقائهم وأقربائهم ، ولا أنفسهم ينصرون .

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وغير ذلك مما أمر الله بالإيمان به ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ القلبيَّة والقوليَّة والبدنيَّة التي جاءت بشرعها المُرسلون ، وقصدوا بها رضا رب العالمين ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ دل ذلك على أنه يحصل لهم في الدنيا ثواب لأعمالهم من الإكرام والإعزاز والنصر والحياة الطيبة ، وإنما توفية الأجور يوم القيامة ، يجدون ما قدَّموه من الخيرات مُحضرا موفرا ، فيعطي منهم كل عامل أجر عمله ويزيدهم من فضله وكرمه ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بل يبغضهم ويُحل عليهم سخطه وعذابه .

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ وهذا مِنَّة عظيمة على رسوله محمد ﷺ وعلى أمته ، حيث أنزل عليهم هذا الذكر الحكيم ، المُحكم المُتقن ، المُفصل للأحكام والحلال والحرام وإخبار الأنبياء الأقدمين ، وما أجرى الله على أيديهم من الآيات البيِّنات والمُعجزات الباهرات ، فهذا القرآن يقص علينا كل ما ينفعنا من الأخبار والأحكام ، فيحصل فيها العلم والعبرة وتثبيت الفؤاد ما هو من

أعظم رحمة رب العباد ، ثم قال تعالى :

[ ٥٩ : ٦٠ - ٣ ] : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ .

يخبر تعالى مُحتجًا على النصارى الزاعمين بعيسى عليه السلام ما ليس له بحق ، بغير برهان ولا شبهة ، بل بزعمهم أنه ليس له والد استحق بذلك أن يكون ابن اللّه أو شريكا للّه في الربوبية ، وهذا ليس بشُبهة فضلا أن يكون حُجّة ، لأن خلقه كذلك من آيات اللّه الدالة على تفرد اللّه بالخلق والتدبير وأن جميع الأسباب طوع مشيئته وتبع لإرادته ، فهو على نقيض قولهم أدل ، وعلى أن أحدا لا يستحق المشاركة للّه بوجه من الوجوه أولى ، ومع هذا فآدم عليه السلام خلقه اللّه من تراب لا من أب ولا أم ، فإذا كان ذلك لا يوجب لآدم ما زعمه النصارى في المسيح ، فالمسيح المخلوق من أم بلا أب من باب أولى وأحرى ، فإن صح إدعاء البنوة والإلهية في المسيح ، فادعاؤها في آدم من باب أولى وأحرى ، فلهذا قال تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي : هذا الذي أخبرناك به من شأن المسيح عليه السلام هو الحق الذي في أعلى رتب الصدق ، لكونه من ربك الذي من جملة تربيته الخاصة لك ولأمتك أن قص عليكم ما قص من أخبار الأنبياء عليهم السلام .

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي : الشاكين في شيء مما أخبرك به ربك ، وفي هذه الآية وما بعدها دليل على قاعدة شريفة وهو أن ما قامت الأدلة على أنه حق وجزم به العبد من مسائل العقائد وغيرها ، فإنه يجب أن يجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل ، وكل شُبهة تورد عليه فهي فاسدة ، سواء قَدَرَ العبد على حلِّها أم لا ، فلا يوجب له عجزه عن حلها القدح فيما علمه ، لأن ما خالف الحق فهو باطل ، قال تعالى : ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [ سُورة يونس ٣٢ ] .

وبهذه القاعدة الشرعية تنحل عن الإنسان إشكالات كثيرة يوردها المتكلمون ويرتبها المنطقيون ، إن حلها الإنسان فهو تبرع منه ، وإلا فوظيفته أن يبين الحق بأدلته ويدعو إليه .

[ ٦١ : ٦٣ - ٣ ] : ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦١ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٢ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ .

أي : ﴿فَمَنْ﴾ جادلك و ﴿حَآجَّكَ﴾ في عيسى عليه السلام وزعم أنه فوق منزلة العُبودية ، بل رفعه فوق منزلته ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بأنه عبد اللّه ورسوله وبينت لمن جادلك ما عندك من الأدلة الدالة على أنه عبد أنعم اللّه عليه ، دل على عناد من لم يتبعك في هذا العلم اليقيني ، فلم يبق في مُجادلته فائدة تستفيدها ولا يستفيدها هو ، لأن الحق قد تبين ، فجداله فيه جدال مُعاند مُشاق للّه ورسوله ، قصده اتباع هواه ، لا اتباع ما أنزل اللّه ، فهذا ليس فيه حيلة ، فأمر اللّه نبيه أن ينتقل إلى مُباهلته ومُلاعنته ، فيدعون اللّه ويبتهلون إليه أن يجعل لعنته وعقوبته على الكاذب من الفريقين ، هو وأحب الناس إليه من الأولاد والأبناء والنساء ، فدعاهم

النبي ﷺ إلى ذلك فتولَّوا وأعرضوا ونكلوا ، وعلموا أنهم إن لاعنوه رجعوا إلى أهليهم وأولادهم فلم يجدوا أهلا ولا مالا وعوجلوا بالعقوبة ، فرضوا بدينهم مع جزمهم ببطلانه[٤٤] ، وهذا غاية الفساد والعناد ، فلهذا قال تعالى ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة .

وأخبر تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي قصَّه الله على عباده هو ﴿ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ وكل قصص يُقص عليهم مما يخالفه ويناقضه فهو باطل .

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فهو المألوه المعبود حقا الذي لا تنبغي العبادة إلا له ، ولا يستحق غيره مثقال ذرّة من العبادة .

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي قهر كل شيء وخضع له كل شيء ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها ، وله الحكمة التامة في ابتلاء المؤمنين بالكافرين ، يُقاتلونهم ويُجادلونهم ويُجاهدونهم بالقول والفعل

[٦٤ - ٣] : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ .

أي : قُل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي : هلمُّوا نجتمع عليها وهي الكلمة التي اتَّفق عليها الأنبياء والمُرسلون ، ولم يخالفها إلا المعاندون والضالون ، ليست مختصَّة بأحدنا دون الآخر ، بل مُشتركة بيننا وبينكم ، وهذا من العدل في المقال والإنصاف في الجدال ، ثم فسَّرها بقوله : ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ فنُفرِد الله بالعبادة ونخصه بالحب والخوف والرجاء ولا نشرك به نبيًا ولا ملكًا ولا وليًا ولا صنمًا ولا وثنًا ولا حيوانًا ولا جمادًا ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بل تكون الطاعة كلها لله ولرسله ، فلا نطيع المخلوقين في معصية الخالق ، لأن ذلك جعل للمخلوقين في منزلة الربوبية ، فإذا دُعي أهل الكتاب أو غيرهم إلى ذلك ، فإن أجابوا كانوا مثلكم ، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ، وإن تولَّوا فهم مُعاندون مُتبعون أهواءهم فاشهدوهم أنكم مسلمون ، ولعل الفائدة في ذلك أنكم إذا قلتم لهم ذلك وأنتم أهل العلم على الحقيقة ، كان ذلك زيادة على إقامة الحُجة عليهم كما استشهد تعالى بأهل العلم حجة على المُعاندين ، وأيضا فإنكم إذا أسلمتم أنتم وآمنتم فلا يعبأ الله بعدم إسلام غيركم لعدم زكائهم ولخبث طويَّتهم ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [سورة الإسراء١٠٧] الآية .

وأيضا فإن في ورود الشُّبهات على العقيدة الإيمانية مما يوجب للمؤمن أن يُجدد إيمانه ويعلن بإسلامه ، إخبارا بيقينه وشكرا لنعمة ربه .

---

(٤٤) * قصة مُباهلة النَّبي ﷺ انصارى نجران . اتَّفق الشَّيخان على إخراجها . أخرجها البُخاري : ( كتاب المغازي / باب : قصة أهل نجران/ ح ٤٣٨٠ ) . وأخرجها مُسلم بلفظ مُختصر : ( كتاب فضائل الصَّحابة / باب : فضائل أبي عُبيدة بن الجرَّاح رضي الله عنه . ولم يستوفيا اللفظ الذي أورده المُصنِّف والذي هو مجموع من ألفاظ وروايات الحديث المُختلفة .

[ ٦٥: ٦٨ – ٣] : ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

لما ادَّعى اليهود أن إبراهيم كان يهوديًّا ، والنصارى أنه نصراني ، وجادلوا على ذلك ، رد تعالى مُحاجتهم ومُجادلتهم من ثلاثة أوجه :

**أحدها :** أن جدالهم في إبراهيم جدال في أمر ليس لهم به علم ، فلا يُمكن لهم ولا يسمح لهم أن يحتجوا ويُجادلوا في أمر هُم أجانب عنه وهم جادلوا في أحكام التوراة والإنجيل سواء أخطأوا أم أصابوا فليس معهم المُحاجة في شأن إبراهيم .

**الوجه الثاني :** أن اليهود ينتسبون إلى أحكام التوراة ، والنصارى ينتسبون إلى أحكام الإنجيل ، والتوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعد إبراهيم ، فكيف ينسبون إبراهيم إليهم وهو قبلهم مُتقدم عليهم ، فهل هذا يعقل؟!

فلهذا قال : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي : فلو عقلتم ما تقولون لم تقولوا ذلك .

**الوجه الثالث :** أن اللّه تعالى برأ خليله من اليهود والنصارى والمُشركين ، وجعله حنيفًا مسلمًا ، وجعل أولى الناس به من آمن به من أمته ، وهذا النبي وهو محمد ﷺ ومن آمن معه ، فهم الذين اتَّبعوه وهم أولى به من غيرهم ، والله تعالى وليهم وناصرهم ومؤيدهم ، وأما من نبذ ملته وراء ظهره كاليهود والنصارى والمشركين ، فليسوا من إبراهيم وليس منهم ، ولا ينفعهم مُجرَّد الانتساب الخالي من الصواب .

وقد اشتملت هذه الآيات على النهي عن المحاجة والمُجادلة بغير علم ، وأن من تكلَّم بذلك فهو مُتكلم في أمر لا يمكن منه ولا يسمح له فيه ، وفيها أيضًا حث على علم التاريخ ، وأنه طريق لرد كثير من الأقوال الباطلة والدعاوى التي تُخالف ما علُم من التاريخ ، ثم قال تعالى :

[ ٦٩: ٧٤ – ٣] : ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ .

يُحذِّر تعالى عباده المؤمنين عن مكر هذه الطائفة الخبيثة من أهل الكتاب ، وأنهم يودُّون أن يضلوكم ، كما قال تعالى : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ [ سُورة البقرة ١٠٩] .

ومن المعلوم أن من ودَّ شيئًا سعى بجهده على تحصيل مراده ، فهذه الطائفة تسعى وتبذل جهدها في ردِّ المؤمنين وإدخال الشُّبه عليهم بكل طريق يقدرون عليه ، ولكن من لُطف اللّه أنه لا يحيق المكر السيئ إلا

بأهله فلهذا قال تعالى : ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ فسعيهم في إضلال المؤمنين زيادة في ضلال أنفسهم وزيادة عذاب لهم ، قال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [سورة النحل٨٨] . ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك أنهم يسعون في ضرر أنفسهم وأنهم لا يضرونكم شيئًا .

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي : ما الذي دعاكم إلى الكُفر بآيات اللّه مع علمكم بأن ما أنتم عليه باطل ، وأن ما جاءكم به محمد ﷺ هو الحق الذي لا تشكون فيه ، بل تشهدون به ويُسر به بعضكم إلى بعض في بعض الأوقات ، فهذا نهيهم عن ضلالهم .

ثم وبَّخهم على إضلالهم الخلق ، فقال : ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فوبَّخهم على لبس الحق بالباطل وعلى كتمان الحق ، لأنهم بهذين الأمرين يُضلون من انتسب إليهم ، فإن العُلماء إذا لَبسوا الحق بالباطل فلم يُميزوا بينهما ، بل أبقوا الأمر مُبهمًا وكتموا الحق الذي يجب عليهم إظهاره ، ترتب على ذلك من خفاء الحق وظهور الباطل ما ترتَّب ، ولم يهتد العوام الذين يريدون الحق لمعرفته حتى يؤثروه ، والمقصود من أهل العلم أن يظهروا للناس الحق ويعلنوا به ، ويُميِّزوا الحق من الباطل ، ويُظهروا الخبيث من الطيب ، والحلال والحرام ، والعقائد الصحيحة من العقائد الفاسدة ، ليهتدي المهتدون ويرجع الضالون وتقوم الحُجة على المعاندين قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [سورة آل عمران ١٨٧] .

ثم أخبر تعالى عن ما همَّت به هذه الطائفة الخبيثة ، وإرادة المكر بالمؤمنين ، فقال : ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ أي : ادخلوا في دينهم على وجه المكر والكيد أول النهار ، فإذا كان آخر النهار فاخرجوا منه ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن دينهم ، فيقولون لو كان صحيحا لما خرج منه أهل العلم والكتاب ، هذا الذي أرادوه عجبا بأنفهسم وظنا أن الناس سيحسنون ظنهم بهم ويتابعونهم على ما يقولونه ويفعلونه ، ولكن يأبى اللّه إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

﴿وَ﴾ قال بعضهم لبعض ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أي : لا تثقوا ولا تطمئنوا ولا تصدقوا إلا من تبع دينكم ، واكتموا أمركم ، فإنكم إذا أخبرتم غيركم وغير من هو على دينكم حصل لهم من العلم ما حصل لكم فصاروا مثلكم ، أو حاجوكم عند ربكم وشهدوا عليكم أنها قامت عليكم الحُجة وتبيَّن لكم الهدى فلم تتبعوه ، فالحاصل أنهم جعلوا عدم إخبار المؤمنين بما معهم من العلم قاطعا عنهم العلم ، لأن العلم بزعمهم لا يكون إلا عندهم وموجبا للحجة عليهم .

فرد اللّه عليهم بأن ﴿ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ فمادة الهُدى من اللّه تعالى لكل من اهتدى ، فإن الهُدى إما علم الحق ، أو إيثارة ، ولا علم إلا ما جاءت به رسل اللّه ، ولا موفَّق إلا من وفّقه اللّه ، وأهل الكتاب لم يؤتوا من العلم إلا قليلا ، وأما التوفيق فقد انقطع حظهم منه لخُبث نيَّاتهم وسوء مقاصدهم ، وأما هذه الأمة فقد حصل لهم ولله الحمد من هداية اللّه من العلوم والمعارف مع العمل بذلك ما فاقوا به وبرزوا على كل أحد ، فكانوا هم الهُداة الذين يهدون بأمر اللّه ، وهذا من فضل اللّه عليها وإحسانه العظيم ، فلهذا قال تعالى : ﴿قُلْ

﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ أي : الله هو الذي يحسن على عباده بأنواع الإحسان ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ ممن أتى بأسبابه ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ الفضل كثير الإحسان ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يصلح للإحسان فيعطيه ، ومن لا يستحقه فيحرمه إيَّاه .

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي : برحمته المُطلقة التي تكون في الدنيا مُتَّصِلة بالآخرة وهي نعمة الدين ومتمماته ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي لا يصفه الواصفون ولا يخطر بقلب بشر ، بل وصل فضله وإحسانه إلى ما وصل إليه علمه ، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما .

[ ٧٥: ٧٧ - ٣] : ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

يُخبر تعالى عن حال أهل الكتاب في الوفاء والخيانة في الأموال ، لما ذكر خيانتهم في الدين ومكرهم وكتمهم الحق ، فأخبر أن منهم الخائن والأمين ، وأن منهم ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ وهو المال الكثير ﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾ وهو على أداء ما دونه من باب أولى ، ومنهم ﴿مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ وهو على عدم أداء ما فوقه من باب أولى وأحرى .

والذي أوجب لهم الخيانة وعدم الوفاء إليكم بأنهم زعموا أنه ﴿لَيْسَ﴾ عليهم ﴿فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ أي : ليس عليهم إثم في عدم أداء أموالهم إليهم ، لأنهم بزعمهم الفاسد ورأيهم الكاسد قد احتقروهم غاية الاحتقار ، ورأوا أنفسهم في غاية العظمة ، وهم الأذلاء الأحقرون ، فلم يجعلوا للأُمِّيين حُرمة ، وأجازوا ذلك ، فجمعوا بين أكل الحرام واعتقاد حلّه وكان هذا كذبا على الله ، لأن العالم الذي يُحلل الأشياء المُحرمة قد كان عند الناس معلوم أنه يخبر عن حُكم الله ليس يخبر عن نفسه ، وذلك هو الكذب ، فلهذا قال ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا أعظم إثما من القول على الله بلا علم ، ثم رد عليهم زعمهم الفاسد .

فقال : ﴿بَلَىٰ﴾ أي : ليس الأمر كما تزعمون أنه ليس عليكم في الأميين حرج ، بل عليكم في ذلك أعظم الحرج وأشد الإثم .

﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾ والعهد يشمل العهد الذي بين العبد وبين ربه ، وهو جميع ما أوجبه الله على العبد من حقه ، ويشمل العهد الذي بينه وبين العباد ، والتقوى تكون في هذا الموضع ، ترجع إلى اتقاء المعاصي التي بين العبد وبين ربه ، وبينه وبين الخلق ، فمن كان كذلك فإنه من المتقين الذين يحبهم الله تعالى ، سواء كانوا من الأُميين أو غيرهم ، فمن قال ليس علينا في الأميين سبيل ، فلم يوف بعهده ولم يتق الله ، فلم يكن ممن يحبه الله ، بل ممن يبغضه الله ، وإذا كان الأُميّون قد عُرفوا بوفاء العهود وبتقوى الله

وعدم التجرئ على الأموال المحترمة ، كانوا هم المحبوبين لله ، المتقين الذين أعدت لهم الجنة ، وكانوا أفضل خلق الله وأجلهم ، بخلاف الذين يقولون ليس علينا في الأميين سبيل ، فإنهم داخلون في قوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ويدخل في ذلك كل من أخذ شيئا من الدنيا في مقابلة ما تركه من حق الله أو حق عباده ، وكذلك من حلف على يمين يقتطع بها مال معصوم فهو داخل في هذه الآية ، فهؤلاء ﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي : لا نصيب لهم من الخير ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة غضبا عليهم وسخطا ، لتقديمهم هوى أنفسهم على رضا ربهم ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي : يطهرهم من ذنوبهم ، ولا يزيل عيوبهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي : موجع للقلوب والأبدان ، وهو عذاب السخط والحجاب ، وعذاب جهنم ، نسأل الله العافية .

[٧٨ – ٣] : ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ .

يُخبر تعالى أن من أهل الكتاب فريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب ، أي : يميلونه ويُحرفونه عن المقصود به ، وهذا يشمل اللي والتحريف لألفاظه ومعانيه ، وذلك أن المقصود من الكتاب حفظ ألفاظه وعدم تغييرها ، وفهم المراد منها وإفهامه ، وهؤلاء عكسوا القضية وأفهموا غير المراد من الكتاب ، إما تعريضا وإما تصريحا ، فالتعريض في قوله : ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي : يلوون ألسنتهم ويوهمونكم أنه هو المراد من كتاب الله ، وليس هو المراد ، والتصريح في قولهم : ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا أعظم جُرمًا ممن يقول على الله بلا علم ، هؤلاء يقولون على الله الكذب فيجمعون بين نفي المعنى الحق ، وإثبات المعنى الباطل ، وتنزيل اللفظ الدال على الحق على المعنى الفاسد ، مع علمهم بذلك .

[ ٧٩: ٨٠ – ٣] : ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ .

وهذه الآية نزلت ردًا لمن قال من أهل الكتاب للنبي ﷺ لما أمرهم بالإيمان به ودعاهم إلى طاعته : أتريد يا محمد أن نعبدك مع الله .

فقوله : ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي : يمتنع ويستحيل على بشر مَنَّ الله عليه بإنزال الكتاب وتعليمه ما لم يكن يعلم وإرساله للخلق أن ﴿يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فهذا من أمحل المُحال صدوره من أحد من الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام ، لأن هذا أقبح الأوامر على الإطلاق ، والأنبياء أكمل الخلق على الإطلاق ، فأوامرهم تكون مُناسبة لأحوالهم ، فلا يأمرون إلا بمعالي الأمور وهم أعظم الناس نهيا عن الأمور القبيحة .

فلهذا قال : ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي : ولكن

يأمرهم بأن يكونوا ربّانيين ، أي : عُلماء حُكماء حُلماء مُعلمين للناس ومُربيهم ، بصغار العلم قبل كِباره ، عاملين بذلك ، فهم يأمرون بالعلم والعمل والتعليم التي هي مدار السعادة ، وبفوات شيء منها يحصل النقص والخلل ، والباء في قوله ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ﴾ إلخ ، باء السببية ، أي : بسبب تعليمكم لغيركم المُتضمن لعلمكم ودرسكم لكتاب الله وسنة نبيّه ، التي بدرسها يَرْسخ العلم ويبقى ، تكونون ربانيين .

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ وهذا تعميم بعد تخصيص ، أي : لا يأمركم بعبادة نفسه ولا بعبادة أحد من الخلق من الملائكة والنبيّين وغيرهم ﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ هذا ما لا يكون ولا يُتصوَّر أن يصدر من أحد من الله عليه بالنبوة ، فمن قدح في أحد منهم بشيء من ذلك فقد ارتكب إثمًا عظيمًا وكفرًا وخيمًا .

[ ٨١: ٨٢ - ٣] : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ .

يُخبر تعالى أنه أخذ ميثاق النبيّين وعهدهم المؤكد بسبب ما أعطاهم من كتاب الله المنزل ، والحكمة الفاصلة بين الحق والباطل والهدى والضلال ، إنه إن بعث الله رسولا مُصدقًا لما معهم أن يؤمنوا به ويصدقوه ويأخذوا ذلك على أممهم ، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أوجب الله عليهم أن يؤمن بعضهم ببعض ، ويصدق بعضهم بعضا لأن جميع ما عندهم هو من عند الله ، وكل ما من عند الله يجب التصديق به والإيمان ، فهم كالشيء الواحد ، فعلى هذا قد عُلِم أن محمدا ﷺ هو خاتمهم ، فكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لو أدركوه لوجب عليهم الإيمان به واتباعه ونصرته ، وكان هو إمامهم ومقدّمهم ومتبوعهم ، فهذه الآية الكريمة من أعظم الدلائل على علو مرتبته وجلالة قدره ، وأنه أفضل الأنبياء وسيدهم ﷺ لما قررهم تعالى ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾ أي : قبلنا ما أمرتنا به على الرأس والعين ﴿قَالَ﴾ الله لهم : ﴿فَاشْهَدُوا﴾ على أنفسكم وعلى أممكم بذلك ، قال ﴿وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ العهد والميثاق المؤكّد بالشهادة من الله ومن رسله ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فعلى هذا كل من ادَّعى أنه من أتْباع الأنبياء كاليهود والنصارى ومن تبعهم ، فقد تولَّوا عن هذا الميثاق الغليظ ، واستحقُّوا الفسق الموجب للخلود في النار إن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ .

[٨٣ - ٣] : ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ .

أي : أيطلب الطالبون ويرغب الراغبون في غير دين الله؟ لا يحسُن هذا ولا يليق ، لأنه لا أحسن دينا من دين الله ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي : الخلق كلهم مُنقادون بتسخيره مُستسلمون له طوعا واختيارا ، وهم المُؤمنون المُسلمون المُنقادون لعبادة ربهم ، وكرها وهم سائر الخلق ، حتى الكافرون مُستسلمون لقضائه وقدره لا خروج لهم عنه ، ولا امتناع لهم منه ، وإليه مرجع الخلائق كلها ،

فيحكُم بينهم ويُجازيهم بحكمه الدائر بين الفضل والعدل .

[٨٤ – ٣] : ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ .

تقدَّم نظير هذه الآية في سورة البقرة ، ثم قال تعالى :

[٨٥ – ٣]: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ .

أي : من يدين لله بغير دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده ، فعمله مردود غير مقبول ، لأن دين الإسلام هو المُتضمن للاستسلام لله ، إخلاصا وانقيادا لرسله فما لم يأت به العبد لم يأت بسبب النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه ، وكل دين سواه فباطل ، ثم قال تعالى :

[ ٨٦: ٨٨ – ٣]: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ .

هذا من باب الاستبعاد ، أي : من الأمر البعيد أن يهدي الله قوما اختاروا الكُفر والضلال بعدما آمنوا وشهدوا أن الرسول حق بما جاءهم به من الآيات البينات والبراهين القاطعات ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهؤلاء ظلموا وتركوا الحق بعدما عرفوه ، واتبعوا الباطل مع علمهم ببطلانه ظلما وبغيا واتباعا لأهوائهم ، فهؤلاء لا يوفَّقون للهداية ، لأن الذي يرجى أن يهتدي هو الذي لم يعرف الحق وهو حريص على التماسه ، فهذا بالحري أن يُيسّر الله له أسباب الهداية ويصونه من أسباب الغواية .

ثم أخبر عن عقوبة هؤلاء المعاندين الظالمين الدنيوية والأخروية ، فقال : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ . أي : لا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا لحظة ، لا بإزالته أو إزالة بعض شدَّته .

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي : يُمهلون ، لأن زمن الإمهال قد مضى ، وقد أعذر الله منهم وعمرهم ما يتذكر فيه من تذكر ، فلو كان فيهم خير لوجد ، ولو ردوا لعادوا لما نُهوا عنه .

[ ٩٠: ٩١ – ٣] : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ .

يُخبر تعالى أن من كفر بعد إيمانه ، ثم ازداد كُفرًا إلى كُفره بتماديه في الغي والضلال ، واستمراره على ترك الرشد والهدى ، أنه لا تقبل توبتهم ، أي : لا يوفَّقون لتوبة تقبل بل يمدهم الله في طغيانهم يعمهون ، قال تعالى ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [ سورة الأنعام ١١٠] . ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [ سورة الصَّف ٥] .

فالسيئات ينتج بعضها بعضًا ، وخصوصًا لمن أقدم على الكفر العظيم وترك الصراط المستقيم ، وقد

قامت عليه الحُجة ووضّح الله له الآيات والبراهين، فهذا هو الذي سعى في قطع أسباب رحمة ربه عنه، وهو الذي سد على نفسه باب التوبة، ولهذا حصر الضلال في هذا الصنف، فقال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ وأيُّ ضلال أعظم من ضلال من ترك الطريق عن بصيرة، وهؤلاء الكفرة إذا استمروا على كفرهم إلى الممات تعيّن هلاكهم وشقاؤهم الأبدي، ولم ينفعهم شيء، فلو أنفق أحدهم ملء الأرض ذهبا ليفتدي به من عذاب الله ما نفعه ذلك، بل لا يزالون في العذاب الأليم، لا شافع لهم ولا ناصر ولا مُغيث ولا مُجير ينقذهم من عذاب الله فأيسوا من كل خير، وجزموا على الخُلود الدائم في العقاب والسخط، فعياذا بالله من حالهم.

[٩٢ – ٣]: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾.

هذا حث من الله لعباده على الإنفاق في طرق الخيرات، فقال ﴿لَن تَنَالُواْ﴾ أي: تدركوا وتبلغوا البر الذي هو كل خير من أنواع الطاعات وأنواع المثوبات الموصل لصاحبه إلى الجنة، ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ أي: من أموالكم النفيسة التي تحبها نفوسكم، فإنكم إذا قدّمتم محبة الله على محبّة الأموال فبذلتموها في مرضاته، دل ذلك على إيمانكم الصادق وبر قلوبكم ويقين تقواكم، فيدخل في ذلك إنفاق نفائس الأموال، والإنفاق في حال حاجة المُنفق إلى ما أنفقه، والإنفاق في حال الصحة.

ودلَّت الآية أن العبد بحسب إنفاقه للمحبوبات يكون بره، وأنه ينقص من بره بحسب ما نقص من ذلك، ولما كان الإنفاق على أي وجه كان مُثابًا عليه العبد، سواء كان قليلًا أو كثيرًا، محبوبًا للنفس أم لا.

وكان قوله: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ مما يوهم أن إنفاق غير هذا المقيد غير نافع، احترز تعالى عن هذا الوهم بقوله ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ فلا يضيق عليكم، بل يثيبكم عليه على حسب نياتكم ونفعه.

[٩٣: ٩٥ – ٣]: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُۚ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وهذا رد على اليهود بزعمهم الباطل أن النسخ غير جائز، فكفروا بعيسى ومحمد ﷺ، لأنهما قد أتيا بما يُخالف بعض أحكام التوراة بالتحليل والتحريم فمن تمام الإنصاف في المُجادلة إلزامهم بما في كتابهم التوراة من أن جميع أنواع الأطعمة مُحلّلة لبني إسرائيل ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ﴾ وهو يعقوب عليه السلام ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي: من غير تحريم من الله تعالى، بل حرّمه على نفسه لما أصابه عرق النسا نذر لئن شفاه الله تعالى ليُحرّمن أحب الأطعمة عليه، فحرّم فيما يذكرون لحوم الإبل وألبانها وتبعه بنوه على ذلك وكان ذلك قبل نزول التوراة، ثم نزل في التوراة أشياء من المُحرمات غير ما حرّم إسرائيل مما كان حلالا لهم طيبا، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [سورة النساء ١٦٠].

وأمر الله رسوله إن أنكروا ذلك أن يأمرهم بإحضار التوراة، فاستمروا بعد هذا على الظلم والعناد، فلهذا قال تعالى ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وأي: ظلم أعظم من ظلم من يُدعى إلى تحكيم كتابه فيمتنع من ذلك عنادا وتكبرا وتجبرا، وهذا من أعظم الأدلة على صحَّة نُبوة نبيِّنا محمد ﷺ وقيام الآيات البينات المتنوِّعات على صدقه وصدق من نبَّأه وأخبره بما أخبره به من الأمور التي لا يعلمها إلا بإخبار ربه له بها.

فلهذا قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ أي: فيما أخبر به وحكم، وهذا أمر من الله لرسوله ولمن يتبعه أن يقولوا بألسنتهم: صدق الله، مُعتقدين بذلك في قلوبهم عن أدلة يقينية، مُقيمين هذه الشهادة على من أنكرها، ومِنْ هنا تعلم أن أعظم الناس تصديقا لله أعظمهم علما ويقينا بالأدلة التفصيلية السمعية والعقلية، ثم أمرهم باتباع ملة أبيهم إبراهيم عليه السلام بالتوحيد وترك الشرك الذي هو مدار السعادة، وبتركه حصول الشقاوة.

وفي هذا دليل على أن اليهود وغيرهم ممن ليس على ملَّة إبراهيم مشركون غير مُوحِّدين، ولما أمرهم باتِّباع ملَّة إبراهيم في التوحيد وترك الشرك أمرهم باتباعه بتعظيم بيته الحرام بالحج وغيره، فقال:

[ ٣ - ٩٦ : ٩٧ ]: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

يُخبر تعالى عن شرف هذا البيت الحرام، وأنه أوَّل بيت وضعه الله للناس، يتعبَّدون فيه لربِّهم فتُغفر أوزارهم، وتُقال عِثارهم، ويحصل لهم به من الطاعات والقربات ما ينالون به رضى ربهم والفوز بثوابه والنجاة من عقابه، ولهذا قال: ﴿مُبَارَكًا﴾ أي: فيه البركة الكثيرة في المنافع الدينية والدنيوية كما قال تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [سُورة الحج ٢٨].

﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ والهُدى نوعان: هُدى في المعرفة، وهدى في العمل، فالهُدى في العمل ظاهر، وهو ما جعل الله فيه من أنواع التعبُّدات المُختصَّة به، وأما هدى العلم فبما يحصل لهم بسببه من العلم بالحق بسبب الآيات البيِّنات التي ذكر الله تعالى في قوله: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ أي: أدلة واضحات، وبراهين قاطعات على أنواع من العلوم الإلهية والمطالب العالية، كالأدلة على توحيده ورحمته وحكمته وعظمته وجلاله وكمال علمه وسعة جوده، وما مَنَّ به على أوليائه وأنبيائه.

فمن الآيات ﴿مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يُحتمل أن المُراد به المقام المعروف وهو الحجر الذي كان يقوم عليه الخليل لبنيان الكعبة لما ارتفع البنيان، وكان مُلصقًا في جدار الكعبة، فلما كان عمر رضي الله عنه وضعه في مكانه الموجود فيه الآن.

والآية فيه قيل أثر قدمي إبراهيم، قد أثَّرت في الصخرة وبقي ذلك الأثر إلى أوائل هذه الأمَّة، وهذا من خوارق العادات، وقيل إن الآية فيه ما أودعه الله في القلوب من تعظيمه وتكريمه وتشريفه واحترامه، ويحتمل أن المُراد بمقام إبراهيم أنه مُفرد مضاف يراد به مقاماته في مواضع المناسك كلها، فيكون على هذا جميع

أجزاء الحج ومُفرداته آيات بيّنات ، كالطواف والسعي ومواضعها ، والوقوف بعرفة ومزدلفة ، والرمي ، وسائر الشعائر ، والآية في ذلك ما جعله اللّه في القلوب من تعظيمها واحترامها وبذل نفائس النفوس والأموال في الوصول إليها وتحمل كل مشقة لأجلها ، وما في ضمنها من الأسرار البديعة والمعاني الرفيعة ، وما في أفعالها من الحكم والمصالح التي يعجز الخلق عن إحصاء بعضها .

ومن الآيات البينات فيها أن من دخله كان آمنا شرعا وقدرا ، فالشرع قد أمر اللّه رسوله إبراهيم ثم رسوله محمد باحترامه وتأمين من دخله ، وأن لا يهاج ، حتى إن التحريم في ذلك شمل صيودها وأشجارها ونباتها ، وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء أن من جنى جناية خارج الحرم ثم لجأ إليه أنه يأمن ولا يقام عليه الحد حتى يخرج منه ، وأما تأمينها قدرا فلأن اللّه تعالى بقضائه وقدره وضع في النفوس حتى نفوس المُشركين به الكافرين بربهم احترامه ، حتى إن الواحد منهم مع شدة حميتهم ونعرتهم وعدم احتمالهم للضيم يجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يهيجه .

ومن جعله حرما أن كل من أراده بسوء فلا بد أن يعاقبه عقوبة عاجلة ، كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم .

وقد رأيت لابن القيم هاهنا كلاما حسنا أحببت إيراده لشدة الحاجة إليه قال : ( فائدة : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ .

﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ مبتدأ وخبره في أحد المجرورين قبله ، والذي يقتضيه المعنى أن يكون في قوله : ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لأنه وجوب ، والوجوب يقتضي « على » ويجوز أن يكون في قوله : ﴿وَلِلَّهِ﴾ لأنه مُتضمن الوجوب والاستحقاق ، ويرجح هذا التقدير أن الخبر محط الفائدة وموضعها ، وتقديمه في هذا الباب في نية التأخير ، فكان الأحسن أن يكون « ولله على الناس » .

ويرجح الوجه الأول بأن يُقال قوله : « حج البيت على الناس » أكثر استعمالا في باب الوجوب من أن يقال : « حج البيت للّه » أي : حق واجب للّه ، فتأمله .

وعلى هذا ففي تقديم المجرور الأول وليس بخبر فائدتان : **إحداهما** : أنه اسم للموجب للحج ، فكان أحق بالتقديم من ذكر الوجوب ، فتضمّنت الآية ثلاثة أمور مُرتبة بحسب الوقائع : **أحدها** : الموجب لهذا الفرض فبدأ بذكره ، **والثاني** : مؤدي الواجب وهو المفترض عليه وهم الناس ، **والثالث** : النسبة ، والحق المتعلق به إيجابا وبهم وجوبا وأداء ، وهو الحج .

**والفائدة الثانية** : أن الاسم المجرور من حيث كان اسما للّه سبحانه ، وجب الاهتمام بتقديمه تعظيما لحُرمة هذا الواجب الذي أوجبه ، وتخويفا من تضييعه ، إذ ليس ما أوجبه اللّه سبحانه بمثابة ما يوجبه غيره .

وأما قوله : « مَنْ » فهي بدل ، وقد استهوى طائفة من الناس القول بأنها فاعل بالمصدر ، كأنه قال : أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، وهذا القول يضعف من وجوه ، **منها** : أن الحج فرض عين ، ولو كان معنى الآية ما ذكره لأفهم فرض الكفاية ، لأنه إذا حج المُستطيعون برئت ذِمم غيرهم ، لأن المعنى يؤل إلى : ولله على الناس حج البيت مُستطيعهم ، فإذا أدى المُستطيعون الواجب لم يبق واجبا على غير المُستطيعين ،

وليس الأمر كذلك ، بل الحج فرض عين على كل أحد ، حج المستطيعون أو قعدوا ، ولكن اللّٰه سبحانه عذر غير المُستطيع بعجزه عن أداء الواجب ، فلا يؤاخذه به ولا يطالبه بأدائه ، فإذا حج سقط الفرض عن نفسه ، وليس حج المستطيعين بمسقط الفرض عن العاجزين ، وإذا أردت زيادة إيضاح ، فإذا قلت : واجب على أهل هذه الناحية أن يجاهد منهم الطائفة المُستطيعون للجهاد ، فإذا جاهدت تلك الطائفة انقطع تعلق الوجوب في غيرهم ، وإذا قلت واجب على الناس كلهم أن يجاهد منهم المُستطيع ، كان الوجوب مُتعلّقًا بالجميع وعذر العاجز بعجزه ، ففي نظم الآية على هذا الوجه دون أن يقال : ولله حج البيت على المُستطيعين ، هذه النكتة البديعة فتأملها .

الوجه الثاني : أن إضافة المصدر إلى الفاعل إذا وجد أولى من إضافته إلى المفعول ولا يعدل عن هذا الأصل إلا بدليل منقول ، فلو كان من هو الفاعل لأضيف المصدر إليه فكان يقال : « ولله على الناس حج مَنْ استطاع » وحمله على باب : « يعجبني ضرب زيد عمرا » وفيما يفصل فيه بين المصدر وفاعله المضاف إليه بالمفعول والظرف حمل على المكتوب المرجوح ، وهي قراءة ابن عامر : ( قتل أولادهم شركائهم ) ، فلا يُصار إليه .

وإذا ثبت أن « مَنْ » بدل بعض من كل وجب أن يكون في الكلام ضمير يعود إلى « الناس » كأنه قيل : من استطاع منهم ، وحذف هذا الضمير في أكثر الكلام لا يحسن ، وحسنه هاهنا أمور منها : أن « مَنْ » واقعة على من لا يعقل ، كالاسم المُبدل منه فارتبطت به ، ومنها : أنها موصولة بما هو أخص من الاسم الأوّل ، ولو كانت الصلة أعم لقبح حذف الضمير العائد ، ومثال ذلك إذا قلت : رأيت إخوتك من ذهب إلى السوق منهم ، كان قبيحا ، لأن الذاهب إلى السوق أعم من الإخوة ، وكذلك لو قلت : البس الثياب ما حسن وجمل ، يريد منها ، ولم يذكر الضمير كان أبعد في الجواز ، لأن لفظ ما حسن أعم من الثياب . وباب البعض من الكل أن يكون أخص من المبدل منه ، فإذا كان أعم وأضفته إلى ضمير أو قيدته بضمير يعود إلى الأول ارتفع العموم وبقي الخصوص ، ومما حسن حذف المضاف في هذه أيضًا مع ما تقدم طول الكلام بالصلة والموصول .

وأما المجرور من قوله « لله » فيحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون في موضع من سبيل ، كأنه نعت نكرة قُدِّم عليها ، لأنه لو تأخّر لكان في موضع النعت لسبيل ، والثاني : أن يكون مُتعلقًا بسبيل ، فإن قلت : كيف يتعلّق به وليس فيه معنى الفعل؟ قيل : السبيل لما كان عبارة هاهنا عن الموصل إلى البيت من قوت وزاد ونحوهما ، كان فيه رائحة الفعل ، ولم يقصد به السبيل الذي هو الطريق ، فصلح تعلّق المجرور به ، واقتضى حسن النظم وإعجاز اللفظ تقديم المجرور وإن كان موضعه التأخير ، لأنه ضمير يعود على البيت ، والبيت هو المقصود به الاعتناء ، وهم يُقدّمون في كلامهم ما هم به أهم وببيانه أعني هذا تقرير السُّهيلي ، وهذا بعيد جدا بل الصواب في مُتعلّق الجار والمجرور وجه آخر أحسن من هذين ، ولا يليق بالآية سواه ، وهو الوجوب المفهوم من قوله « على الناس » أي : يجب لله على الناس الحج ، فهو حق واجب لله ، وأما تعليقه بالسبيل وجعله حالا منها ، ففي غاية البعد فتأمله ، ولا يكاد يخطر بالبال من الآية ، وهذا كما تقول : لله عليك الصلاة والزكاة والصيام .

ومن فوائد الآية وأسرارها أنه سبحانه إذا ذكر ما يُوجبه ويُحرِّمه يذكره بلفظ الأمر والنهي ، وهو الأكثر ، وبلفظ الإيجاب والكتابة والتحريم نحو : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [ سورة البقرة ١٨٣] . ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [ سورة المائدة ٣] . ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [ سورة الأنعام ١٥١] .

وفي الحج أتى بهذا اللفظ الدال على تأكُّد الوجوب من عشرة أوجه ، **أحدها** : أنَّه قدم اسمه تعالى وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العُموم الداخلة عليها حرف على أبدل منه أهل الاستطاعة ، ثم نكَّر السبيل في سياق الشرط إيذانا بأنه يجب الحج على أي : سبيل تيسَّرت ، من قوت أو مال ، فعلَّق الوجوب بحُصول ما يسمى سبيلًا ، ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال : ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي : لعدم التزامه هذا الواجب وتركه ثم عظَّم الشأن وأكَّد الوعيد بإخباره ما يستغنى به عنه ، والله تعالى هو الغني الحميد ، ولا حاجة به إلى حج أحد ، وإنما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام بمقته له وسخطه عليه وإعراضه بوجهه عنه ما هو أعظم التهديد وأبلغه ، ثم أكد ذلك بذكر اسم « العالمين » عموما ، ولم يقل : فإن الله غني عنه ، لأنه إذا كان غنيًا عن العالمين كلهم فله الغنى الكامل التام من كل وجه بكل اعتبار ، فكان أدل لعظم مقته لتارك حقه الذي أوجبه عليه ، ثم أكَّد هذا المعنى بأداة « إن » الدالة على التأكيد ، فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكد هذا الفرض العظيم .

وتأمل سر البدل في الآية المُقتضي لذكر الإسناد مرتين ، مرة بإسناده إلى عموم الناس ، ومرة بإسناده إلى خُصوص المُستطيعين ، وهذا من فوائد البدل تقوية المعنى وتأكيده بتكرر الإسناد ولهذا كان في نية تكرار العامل وإعادته .

ثم تأمَّل ما في الآية من الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال ، وكيف تضمن ذلك إيراد الكلام في صورتين وخلتين ، اعتناء به وتأكيد لشأنه ، ثم تأمَّل كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت وعظم شأنه بما تدعوا النفوس إلى قصده وحجه وان لم يطلب ذلك منها ، فقال : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ﴾ إلخ ، فوصفه بخمس صفات : **أحدها** : كونه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض ، **الثاني** : أنه مبارك ، والبركة كثرة الخير ودوامه ، وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيرا ولا أدوم ولا أنفع للخلائق ، **الثالث** : أنه هُدى ، ووصفه بالمصدر نفسه مُبالغة ، حتى كأنه نفس الهُدى ، **الرابع** : ما تضمَّن من الآيات البيِّنات التي تزيد على أربعين آية ، **الخامس** : الأمن الحاصل لداخله ، وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس على حجه وإن شطَّت بالزائرين الديار وتناءت بهم الأقطار ، ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المُؤكد بتلك التأكيدات ، وهذا يدل على الاعتناء منه سبحانه لهذا البيت العظيم ، والتنويه بذكره ، والتعظيم لشأنه ، والرفعة من قدره ، ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [ سورة الحج ٢٦] . لكفى بهذه الإضافة فضلا وشرفا ، وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه ، وسلبت نفوسهم حِباله وشوقًا إلى رؤيته ، فهذه المثابة للمُحبين يثوبون إليه ولا يقضون منه وطرا أبدا ، كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حُبًا وإليه اشتياقا ، فلا الوصال يشفيهم ولا البعاد يسليهم ، كما قيل :

**أطوف به والنفس بعد مشوقة إليه وهل بعد الطواف تداني**

وألثم منه الركن أطلب برد ما … بقلبي من شوق ومن هيمان
فوالله ما ازداد إلا صبابة … ولا القلب إلا كثرة الخفقان
فيا جنة المأوى ويا غاية المنى … ويا منيتي من دون كل أمان
أبت غلبات الشوق إلا تقربا … إليك فما لي بالبعاد يدان
وما كان صدى عنك صد ملالة … ولي شاهد من مقلتي ولسان
دعوت اصطباري عنك بعدك والبكا … فلبى البكا والصبر عنك عصاني
وقد زعموا أن المحب إذا نأى … سيبلى هواه بعد طول زمان
ولو كان هذا الزعم حقا لكان ذا … دواء الهوى في الناس كل زمان
بلى إنه يبلى والهوى على … حاله لم يبله الملوان
وهذا محب قاده الشوق والهوى … بغير زمام قائد وعنان
أتاك على بعد المزار ولو ونت … مطيته جاءت به القدمان

انتهى كلامه رحمه اللّٰه تعالى.

[ ٩٨: ١٠١ – ٣] : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

يُوبِّخ تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى على كُفرهم بآيات اللّٰه التي أنزلها اللّٰه على رُسله، التي جعلها رحمة لعباده يهتدون بها إليه، ويستدلُّون بها على جميع المطالب المهمة والعلوم النافعة، فهؤلاء الكَفَرَة جمعوا بين الكُفر بها وصد من آمن بالله عنها وتحريفها وتعويجها عما جُعلت له، وهم شاهدون بذلك عالمون بأن ما فعلوه أعظم الكفر الموجب لأعظم العقوبة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [سُورة النّحل٨٨].

فلهذا توعَّدهم هنا بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل مُحيط بأعمالكم ونيّاتكم ومكركم السيء، فمُجازيكم عليه أشر الجزاء لما توعدهم ووبَّخهم عطف برحمته وجوده وإحسانه وحذَّر عباده المؤمنين منهم لئلا يمكروا بهم من حيث لا يشعرون، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ وذلك لحسدهم وبغيهم عليكم، وشدة حرصهم على ردكم عن دينكم، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾ [سُورة البقرة ١٠٩].

ثم ذكر تعالى السبب الأعظم والموجب الأكبر لثبات المؤمنين على إيمانهم، وعدم تزلزلهم عن إيقانهم، وأن ذلك من أبعد الأشياء، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ

رَسُولُهُۥ﴾ أي : الرسول بين أظهركم يتلو عليكم آيات ربكم كل وقت ، وهي الآيات البينات التي توجب القطع بموجبها والجزم بمقتضاها وعدم الشك فيما دلت عليه بوجه من الوجوه ، خصوصا والمبين لها أفضل الخلق وأعلمهم وأفصحهم وأنصحهم وأرأفهم بالمؤمنين ، الحريص على هداية الخلق وإرشادهم بكل طريق يقدر عليه ، فصلوات الله وسلامه عليه ، فلقد نصح وبلغ البلاغ المبين ، فلم يبق في نفوس القائلين مقالا ولم يترك لجائل في طلب الخير مجالا ، ثم أخبر أن من اعتصم به فتوكل عليه وامتنع بقوته ورحمته عن كل شر ، واستعان به على كل خير ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ موصل له إلى غاية المرغوب ، لأنه جمع بين اتِّباع الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله وبين الاعتصام بالله .

[ ١٠٢ : ١٠٣ – ٣ ] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ .

هذا أمر من الله لعباده المُؤمنين أن يتَّقوه حق تقواه ، وأن يستمروا على ذلك ويثبتوا عليه ويستقيموا إلى الممات ، فإن من عاش على شيء مات عليه ، فمن كان في حال صحَّته ونشاطه وإمكانه مداوما لتقوى ربه وطاعته ، مُنيبا إليه على الدوام ، ثبته الله عند موته ورزقه حسن الخاتمة ، وتقوى الله حق تقواه كما قال ابن مسعود : وهو أن يُطاع فلا يُعصى ، ويُذكر فلا يُنسى ، ويُشكر فلا يُكفر .

وهذه الآية بيان لما يستحقه تعالى من التقوى ، وأما ما يجب على العبد منها ، فكما قال تعالى : ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [ سورة التغابن ١٦ ] . وتفاصيل التقوى المُتعلِّقة بالقلب والجوارح كثيرة جدا ، يجمعها فعل ما أمر الله به وترك كل ما نهى الله عنه ، ثم أمرهم تعالى بما يُعينهم على التقوى وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله ، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مُختلفين ، فإن في اجتماع المُسلمين على دينهم ، وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دُنياهم وبالاجتماع يتمكَّنون من كل أمر من الأمور ، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها ، من التعاون على البر والتقوى ، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم وتنقطع روابطهم ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه ، ولو أدى إلى الضرر العام ، ثم ذكرهم تعالى نعمته وأمرهم بذكرها فقال : ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾ يقتل بعضكم بعضا ، ويأخذ بعضكم مال بعض ، حتى إن القبيلة يعادي بعضهم بعضا ، وأهل البلد الواحد يقع بينهم التعادي والاقتتال ، وكانوا في شر عظيم ، وهذه حالة العرب قبل بعثة النبي ﷺ فلما بعثه الله وآمنوا به واجتمعوا على الإسلام وتآلفت قلوبهم على الإيمان كانوا كالشخص الواحد ، من تآلف قلوبهم وموالاة بعضهم لبعض ، ولهذا قال : ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي : قد استحقيتم النار ولم يبق بينكم وبينها إلا أن تموتوا فتدخلوها ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ بما مَنَّ عليكم من الإيمان بمحمد ﷺ ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي : يوضِّحها ويفسِّرها ، ويبيِّن لكم الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بمعرفة الحق والعمل به .

وفي هذه الآية ما يدل أن الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته بقلوبهم وألسنتهم ليزدادوا شكرا له ومحبة ، وليزيدهم من فضله وإحسانه ، وإن من أعظم ما يذكر من نِعَمِهِ نعمة الهداية إلى الإسلام ، واتِّباع الرسول ﷺ واجتماع كلمة المُسلمين وعدم تفرُّقها .

[ ١٠٤ : ١٠٥ - ٣] : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

أي : وليكن منكم أيُّها المُؤمنون الذين مَنَّ الله عليهم بالإيمان والاعتصام بحبله ﴿أُمَّةٌ﴾ أي : جماعة ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ وهو اسم جامع لكل ما يقرّب إلى الله ويُبعد من سخطه ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهو ما عُرف بالعقل والشرع حسنه ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهو ما عُرف بالشرع والعقل قبحه .

وهذا إرشاد من الله للمُؤمنين أن يكون منهم جماعة مُتصدِّية للدعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى دينه ، ويدخل في ذلك العُلماء المُعلّمون للدين ، والوعّاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام ، ويدعون المُنحرفين إلى الاستقامة ، والمُجاهدون في سبيل الله ، والمُتصدون لتفقد أحوال الناس وإلزامهم بالشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام ، وكتفقُّد المكاييل والموازين وتفقُّد أهل الأسواق ومنعهم من الغش والمعاملات الباطلة .

وكل هذه الأمور من فروض الكفايات كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ إلخ أي : لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة ، ومن المعلوم المُتقرِّر أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به ، كالاستعداد للجهاد بأنواع العِدَد التي يحصل بها نكاية الأعداء وعز الإسلام ، وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير وسائلها ومقاصدها ، وبناء المدارس للإرشاد والعلم ، ومساعدة النواب ومعاونتهم على تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال ، وغير ذلك مما تتوقَّف هذه الأمور عليه ، وهذه الطائفة المُستعدة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر هم خواص المؤمنين ، ولهذا قال تعالى عنهم : ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطلوب ، الناجون من المرهوب ، ثم نهاهم عن التشبُّه بأهل الكتاب في تفرقهم واختلافهم ، فقال : ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ ومن العجائب أن اختلافهم ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ الموجبة لعدم التفرق والاختلاف ، فهم أولى من غيرهم بالاعتصام بالدين ، فعكسوا القضية مع علمهم بمُخالفتهم أمر الله ، فاستحقوا العقاب البليغ ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

[ ١٠٦ : ١٠٨ - ٣] : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ .

يُخبر تعالى عن حال يوم القيامة وما فيه من آثار الجزاء بالعدل والفضل ، ويتضمَّن ذلك الترغيب

والترهيب الموجب للخوف والرجاء فقال : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ وهي وجوه أهل السعادة والخير، أهل الائتلاف والاعتصام بحبل الله ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ وهي وجوه أهل الشقاوة والشر، أهل الفُرقة والاختلاف، هؤلاء اسودت وجوههم بما في قلوبهم من الخزي والهوان والذّلة والفضيحة، وأولئك أبيضت وجوههم، لما في قلوبهم من البهجة والسرور والنعيم والحبور الذي ظهرت آثاره على وجوههم كما قال تعالى : ﴿وَلَقَّنَهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [سورة الإنسان١١] ، نضرة في وجوههم وسرورا في قلوبهم، وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [سورة يونس٢٧] .

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيقال لهم على وجه التوبيخ والتقريع : ﴿أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي : كيف آثرتم الكفر والضلال على الإيمان والهدى؟ وكيف تركتم سبيل الرشاد وسلكتم طريق الغي؟ ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فليس يليق بكم إلا النار، ولا تستحقون إلا الخزي والفضيحة والعار.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيهنئون أكمل تهنئة ويبشرون أعظم بشارة، وذلك أنهم يبشرون بدخول الجنات ورضى ربهم ورحمته ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وإذا كانوا خالدين في الرحمة، فالجنة أثر من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المُقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين.

لما بيّن الله لرسوله ﷺ الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية قال : ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا﴾ أي : نقصها ﴿عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ لأن أوامره ونواهيه مُشتملة على الحِكمة والرحمة وثوابها وعقابها، كذلك مُشتمل على الحكمة والرحمة والعدل الخالي من الظلم، ولهذا قال : ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ نفى إرادته ظلمهم فضلا عن كونه يفعل ذلك فلا ينقص أحدا شيئا من حسناته، ولا يزيد في ظلم الظالمين، بل يُجازيهم بأعمالهم فقط، ثم قال تعالى : .

[١٠٩ - ٣] : ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ .

أي : هو المالك لما في السماوات وما في الأرض، الذي خلقهم ورزقهم ويتصرف فيهم بقدره وقضائه، وفي شرعه وأمره، وإليه يرجعون يوم القيامة فيجازيهم بأعمالهم حسنها وسيئها.

[١١٠: ١١٢ - ٣] : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ .

يمدح تعالى هذه الأُمة ويخبر أنها خير الأُمم التي أخرجها الله للناس، وذلك بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المُستلزم للقيام بكل ما أمر الله به، وبتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المُتضمن

دعوة الخلق إلى الله وجهادهم على ذلك وبذل المُستطاع في ردِّهم عن ضلالهم وغيهم وعصيانهم ، فبهذا كانوا خير أمة أخرجت للناس .

لما كانت الآية السابقة وهي قوله : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [ سورة آل عمران ١٠٤ ] . أمرا منه تعالى لهذه الأُمة ، والأمر قد يمتثله المأمور ويقوم به ، وقد لا يقوم به ، أخبر في هذه الآية أن الأمة قد قامت بما أمرها الله بالقيام به ، وامتثلت أمر ربها واستحقت الفضل على سائر الأمم .

﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ وفي هذا من دعوته بلطف الخطاب ما يدعوهم إلى الإيمان ، ولكن لم يؤمن منهم إلا قليل ، وأكثرهم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله المُعادون لأولياء الله بأنواع العداوة ، ولكن من لُطف الله بعباده المؤمنين أنه ردَّ كيدهم في نحورهم ، فليس على المؤمنين منهم ضرر في أديانهم ولا أبدانهم ، وإنما غاية ما يصلون إليه من الأذى أذيّة الكلام التي لا سبيل إلى السلامة منها من كل مُعادي ، فلو قاتلوا المؤمنين لولّوا الأدبار فرارا ثم تستمر هزيمتهم ويدوم ذلهم ولا هم ينصرون في وقت من الأوقات ، ولهذا أخبر تعالى أنه عاقبهم بالذلة في بواطنهم والمسكنة على ظواهرهم ، فلا يستقرون ولا يطمئنون .

﴿إِلَّا بِحَبْلٍ﴾ أي : عهد ﴿مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ فلا يكون اليهود إلا تحت أحكام المُسلمين وعهدهم ، تؤخذ منهم الجزية ويستذلون ، أو تحت أحكام النصارى .

وقد ﴿وَبَاءُوا﴾ مع ذلك ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ وهذا أعظم العقوبات ، والسبب الذي أوصلهم إلى هذه الحال ذكره الله بقوله : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ التي أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ الموجبة لليقين والإيمان ، فكفروا بها بغيا وعنادا .

﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي : يقابلون أنبياء الله الذين يُحسنون إليهم أعظم إحسان بأشر مُقابلة ، وهو القتل ، فهل بعد هذه الجراءة والجناية شيء أعظم منها ، وذلك كله بسبب عصيانهم واعتدائهم ، فهو الذي جرأهم على الكفر بالله وقتل أنبياء الله ، ثم قال تعالى :

[ ١١٣ : ١١٥ - ٣ ] : ﴿لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ .

لمّا بيّن تعالى الفرقة الفاسقة من أهل الكتاب وبيّن أفعالهم وعقوباتهم ، بيّن هاهنا الأمة المُستقيمة ، وبين أفعالها وثوابها ، فأخبر أنهم لا يستوون عنده ، بل بينهم من الفرق ما لا يمكن وصفه ، فأما تلك الطائفة الفاسقة فقد مضى وصفهم ، وأما هؤلاء المؤمنون ، فقال تعالى منهم ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أي : مُستقيمة على دين الله ، قائمة بما ألزمها الله به من المأمورات ، ومن ذلك قيامها بالصلاة ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ وهذا بيان لصلاتهم في أوقات الليل وطول تهجدهم وتلاوتهم لكتاب ربهم وإيثارهم الخضوع والركوع والسجود له .

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي : كإيمان المؤمنين إيمانا يوجب لهم الإيمان بكل نبي أرسله ، وكل كتاب أنزله الله ، وخص الإيمان باليوم الآخر لأن الإيمان الحقيقي باليوم الآخر يحث المؤمن به على ما يقربه إلى الله ، ويثاب عليه في ذلك اليوم ، وترك كل ما يعاقب عليه في ذلك اليوم .

﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فحصل منهم تكميل أنفسهم بالإيمان ولوازمه ، وتكميل غيرهم بأمرهم بكل خير ، ونهيهم عن كُلِّ شر .

ومن ذلك حثهم أهل دينهم وغيرهم على الإيمان بمحمد ﷺ .

ثم وصفهم بالهمم العالية ﴿وَ﴾ أنهم ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي : يُبادرون إليها فينتهزون الفرصة فيها ، ويفعلونها في أول وقت إمكانها ، وذلك من شدة رغبتهم في الخير ومعرفتهم بفوائده وحسن عوائده ، فهؤلاء الذين وصفهم الله بهذه الصفات الجميلة والأفعال الجليلة ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين يدخلهم الله في رحمته ويتغمّدهم بغفرانه ويُنيلهم من فضله وإحسانه ، وأنهم مهما فعلوا ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ قليلا كان أو كثيرا ﴿فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ أي : لن يحرموه ويفوّتوا أجره ، بل يُثيبهم الله على ذلك أكمل ثواب ، ولكن الأعمال ثوابها تبع لما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان والتقوى ، فلهذا قال ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [ سورة المائدة ٢٧ ] .

[ ١١٦ : ١١٧ - ٣ ] : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ .

يُخبر تعالى أن الذين كفروا لن تُغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، أي : لا تدفع عنهم شيئا من عذاب الله ، ولا تجدي عليهم شيئا من ثواب الله ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [ سورة سبأ ٣٧ ] . بل تكون أموالهم وأولادهم زادا لهم إلى النار ، وحُجّة عليهم في زيادة نِعم الله عليهم ، تقتضي منهم شكرها ، ويُعاقبون على عدم القيام بها وعلى كفرها ، ولهذا قال : ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

ثم ضرب مثلا لما يُنفقه الكُفّار من أموالهم التي يصدون بها عن سبيل الله ويستعينون بها على إطفاء نور الله ، بأنها تبطل وتضمحل ، كمن زرع زرعا يرجو نتيجته ويؤمل إدراك ريعه ، فبينما هو كذلك إذ أصابته ريح فيها صر ، أي : برد شديد مُحرِق ، فأهلكت زرعه ، ولم يحصل له إلا التعب والعناء وزيادة الأسف ، فكذلك هؤلاء الكُفّار الذين قال الله فيهم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [ سورة الأنفال ٣٦ ] .

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بإبطال أعمالهم ﴿وَلَكِنْ﴾ كانوا ﴿أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث كفروا بآيات الله وكذّبوا رسوله وحرصوا على إطفاء نور الله ، هذه الأمور هي التي أحبطت أعمالهم وذهبت بأموالهم ، ثم قال تعالى :

[ ١١٨ : ١٢٠ - ٣ ] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ .

ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يتّخذوا بطانة من المُنافقين من أهل الكتاب وغيرهم يظهرونهم على سرائرهم أو يولّونهم بعض الأعمال الإسلاميّة وذلك أنهم هم الأعداء الذين امتلأت قلوبهم من العداوة والبغضاء فظهرت على أفواههم ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ مما يُسمع منهم فلهذا ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي : لا يقصرون في حصول الضرر عليكم والمشقة وعمل الأسباب التي فيها ضرركم ومُساعدة الأعداء عليكم قال اللّه للمؤمنين :

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي : التي فيها مصالحكم الدينية والدنيوية لعلكم ﴿تَعْقِلُونَ﴾ فتعرفونها وتفرّقون بين الصديق والعدو ، فليس كل أحد يُجعل بطانة ، وإنما العاقل من إذا ابتلي بمُخالطة العدو أن تكون مُخالطة في ظاهره ولا يطلعه من باطنه على شيء ولو تملّق له وأقسم أنه من أوليائه .

قال اللّه مُهيجًا للمؤمنين على الحذر من هؤلاء المُنافقين من أهل الكتاب ، ومبيّنًا شدّة عداوتهم ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أي : جنس الكتب التي أنزلها اللّه على أنبيائه وهم لا يؤمنون بكتابكم ، بل إذا لقوكم أظهروا لكم الإيمان ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ﴾ وهي أطراف الأصابع من شدة غيظهم عليكم ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ .

وهذا فيه بشارة للمؤمنين أن هؤلاء الذين قصدوا ضرركم لا يضرون إلا أنفسهم ، وإن غيظهم لا يقدرون على تنفيذه ، بل لا يزالون مُعذبين به حتى يموتوا فيتنقلوا من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة .

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ كالنصر على الأعداء وحصول الفتح والغنائم ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ أي : تغمهم وتحزنهم ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فإذا أتيتم بالأسباب التي وعد اللّه عليها النصر - وهي الصبر والتقوى- لم يضركم مكرهم ، بل يجعل اللّه مكرهم في نُحورهم لأنه مُحيط بهم علمه وقُدرته فلا منفذ لهم عن ذلك ولا يخفى عليهم منهم شيء .

[ ١٢١ : ١٢٢ - ٣ ] : ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ .

هذه الآيات نزلت في وقعة « أُحد » وقصتها مشهورة في السّير والتواريخ ، ولعل الحكمة في ذكرها في هذا الموضع ، وأدخل في أثنائها وقعة « بدر » لما أن اللّه تعالى قد وعد المُؤمنين أنهم إذا صبروا واتّقوا

نصرهم، ورد كيد الأعداء عنهم، وكان هذا حكما عاما ووعدا صادقا لا يتخلف مع الإتيان بشرطه، فذكر نموذجا من هذا في هاتين القصتين، وأن اللّه نصر المؤمنين في «بدر» لما صبروا واتّقوا، وأدال عليهم العدو لما صدر من بعضهم من الإخلال بالتقوى ما صدر، ومن حِكمة الجمع بين القصّتين أن اللّه يحب من عباده إذا أصابهم ما يكرهون أن يتذكروا ما يحبّون، فيخف عنهم البلاء ويشكروا اللّه على نعمه العظيمة التي إذا قوبلت بما ينالهم من المكروه الذي هو في الحقيقة خير لهم، كان المكروه بالنسبة إلى المحبوب نزرا يسيرا، وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة في قوله: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ [سورة آل عمران ١٦٥]. وحاصل قضية «أحد» وإجمالها أن المشركين لما رجع فَلُّهم من «بدر» إلى مكّة، وذلك في سنة اثنتين من الهجرة، استعدُّوا بكل ما يقدرون عليه من العِدد بالأموال والرجال والعدد، حتى اجتمع عندهم من ذلك ما جزموا بحصول غرضهم وشفاء غيظهم، ثم وجهوا من مكة للمدينة في ثلاثة آلاف مُقاتل، حتى نزلوا قرب المدينة، فخرج النبي ﷺ إليهم هو وأصحابه بعد المُراجعة والمُشاورة حتى استقر رأيهم على الخروج، وخرج في ألف، فلما ساروا قليلا رجع عبد اللّه بن أُبي المُنافق بثلث الجيش ممن هو على مثل طريقته، وهمت طائفتان من المُؤمنين أن يرجعوا وهم بنو سلمة وبنو حارثة فثبتهم اللّه، فلما وصلوا إلى أُحد رتبهم النبي ﷺ في مواضعهم وأسندوا ظهورهم إلى أُحد، ورتَّب النبي ﷺ خمسين رجلا من أصحابه في خَلَّةٍ في جبل «أُحد» وأمرهم أن يلزموا مكانهم ولا يبرحوا منه ليأمنوا أن يأتيهم أحد من ظهورهم، فلما التقى المسلمون والمشركون انهزم المشركون هزيمة قبيحة وخلفوا معسكرهم خلف ظهورهم، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فلما رآهم الرماة الذين جعلهم النبي ﷺ في الجبل، قال بعضهم لبعض: الغنيمة الغنيمة، ما يقعدنا هاهنا والمشركون قد انهزموا، ووعظهم أميرهم عبد اللّه بن جبير عن المعصية فلم يلتفتوا إليه، فلما أخلوا موضعهم فلم يبق فيه إلا نفر يسير، منهم أميرهم عبد اللّه بن جبير، جاءت خيل المشركين من ذلك الموضع واستدبرت المُسلمين وقاتلت ساقتهم، فجال المسلمون جولة ابتلاهم اللّه بها وكفر بها عنهم، وأذاقهم فيها عقوبة المخالفة، فحصل ما حصل من قتل من قتل منهم، ثم إنهم انحازوا إلى رأس جبل «أحد» وكف اللّه عنهم أيدي المشركين وانكفأوا إلى بلادهم، ودخل رسول اللّه ﷺ وأصحابه المدينة قال اللّه تعالى ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ والغدو هاهنا مطلق الخروج، ليس المراد به الخروج في أول النهار، لأن النبي ﷺ وأصحابه لم يخرجوا إلا بعدما صلوا الجمعة.

﴿تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ﴾ أي: تنزلهم وترتبهم كل في مقعده اللائق به، وفيها أعظم مدح للنبي ﷺ حيث هو الذي يُباشر تدبيرهم وإقامتهم في مقاعد القتال، وما ذاك إلا لكمال علمه ورأيه، وسداد نظره وعلو همته، حيث يباشر هذه الأمور بنفسه وشجاعته الكاملة صلوات اللّه وسلامه عليه.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لجميع المسموعات، ومنه أنه يسمع ما يقول المؤمنون والمنافقون كل يتكلم بحسب ما في قلبه.

﴿عَلِيمٌ﴾ بنيّات العبيد، فيجازيهم عليها أتم الجزاء، وأيضا فالله سميع عليم بكم، يكلؤكم، ويتولى

تدبير أموركم، ويؤيدكم بنصره كما قال تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [سورة طه ٤٦].

ومن لُطفه بهم وإحسانه إليهم أنه، لما ﴿هَمَّت طَّائِفَتَانِ﴾ من المؤمنين بالفشل وهم بنو سلمة وبنو حارثة كما تقدم ثبتهما الله تعالى نعمة عليهما وعلى سائر المؤمنين، فلهذا قال ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي: بولايته الخاصة، التي هي لطفه بأوليائه، وتوفيقهم لما فيه صلاحهم وعصمتهم عما فيه مضرتهم، فمن توليه لهما أنهما لما هما بهذه المعصية العظيمة وهي الفشل والفرار عن رسول الله عصمهما، لما معهما من الإيمان كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [سورة البقرة ٢٥٧].

ثم قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ففيها الأمر بالتوكل الذي هو اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة بالله، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله، وأن المؤمنين أولى بالتوكل على الله من غيرهم، وخُصوصا في مواطن الشدَّة والقتال، فإنهم مُضطرون إلى التوكل والاستعانة بربهم والاستنصار له، والتبرِّي من حَوْلِهم وقوَّتِهم، والاعتماد على حول الله وقوته، فبذلك ينصرهم ويدفع عنهم البلايا والمِحن، ثم قال تعالى:

[١٢٣: ١٢٦ – ٣]: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

وهذا امتنان منه على عباده المُؤمنين، وتذكير لهم بما نصرهم به يوم بدر وهم أذلَّة في قلة عَددهم وعُددهم مع كثرة عدد عدوهم وعُددهم.

وكانت وقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة، خرج النبي ﷺ من المدينة بثلاث مئة وبضعة عشر من أصحابه، ولم يكن معهم إلا سبعون بعيرا وفَرَسان لطلب عير لقريش قدمت من الشام، فسمع به المشركون فتجهزوا من مكة لِفِكَاك عيرهم، وخرجوا في زهاء ألف مقاتل مع العُدَّة الكاملة والسلاح العام والخيل الكثيرة، فالتقوا هُمم والمسلمون في ماء يقال له «بدر» بين مكة والمدينة فاقتتلوا، ونصر الله المُسلمين نصرا عظيما، فقتلوا من المشركين سبعين قتيلا من صناديد المشركين وشجعانهم، وأسروا سبعين، واحتووا على معسكرهم ستأتي – إن شاء الله – القصة في سورة الأنفال، فإن ذلك موضعها، ولكن الله تعالى هنا أتى بها ليتذكر بها المؤمنون ليتقوا ربهم ويشكروه، فلهذا قال ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لأن من اتقى ربه فقد شكره، ومن ترك التقوى فلم يشكره، إذ تقول يا محمد للمؤمنين يوم بدر مبشرا لهم بالنصر. ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: من مقصدهم هذا، وهو وقعة بدر ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أي: مُعلَّمين بعلامة الشجعان، فشرط الله لإمدادهم ثلاثة شروط: الصبر، والتقوى، وإتيان المشركين من فورهم هذا،

فهذا الوعد بإنزال الملائكة المذكورين وإمدادهم بهم ، وأما وعد النصر وقمع كيد الأعداء فشرط الله له الشرطين الأولين كما تقدم في قوله : ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ . ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي : إمداده لكم بالملائكة ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ تستبشرون بها وتفرحون ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فلا تعتمدوا على ما معكم من الأسباب ، بل الأسباب فيها طمأنينة لقلوبكم ، وأما النصر الحقيقي الذي لا معارض له ، فهو مشيئة الله لنصر من يشاء من عباده ، فإنه إن شاء نصر من معه الأسباب كما هي سنته في خلقه ، وإن شاء نصر المستضعفين الأذلين ليُبيِّن لعباده أن الأمر كله بيديه ، ومرجع الأمور إليه ، ولهذا قال : ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ فلا يمتنع عليه مخلوق ، بل الخلق كلهم أذلاء مدبرون تحت تدبيره وقهره ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها ، وله الحكمة في إدالة الكُفَّار في بعض الأوقات على المسلمين إدالة غير مُستقِرَّة ، قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [ سُورة مُحمَّد ٤ ] .

[١٢٧ – ٣] : ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ .

يُخبر تعالى أن نصره عباده المُؤمنين لأحد أمرين : إما أن يقطع طرفا من الذين كفروا ، أي : جانبا منهم وركنا من أركانهم ، إما بقتل ، أو أسر ، أو استيلاء على بلد ، أو غنيمة مال ، فيقوى بذلك المؤمنون ويذل الكافرون ، وذلك لأن مُقاومتهم ومُحاربتهم للإسلام تتألف من أشخاصهم وسلاحهم وأموالهم وأرضهم فبهذه الأمور تحصل منهم المقاومة والمقاتلة فقطع شيء من ذلك ذهاب لبعض قوتهم ، الأمر الثاني أن يريد الكُفَّار بقوتهم وكثرتهم ، طمعا في المُسلمين ، ويمنُّوا أنفسهم ذلك ، ويحرصوا عليه غاية الحرص ، ويبذلوا قواهم وأموالهم في ذلك ، فينصر الله المُؤمنين عليهم ويردهم خائبين لم ينالوا مقصودهم ، بل يرجعون بخسارة وغم وحسرة ، وإذا تأمّلت الواقع رأيت نصر الله لعباده المُؤمنين دائرا بين هذين الأمرين ، غير خارج عنهما إما نصر عليهم أو خذل لهم .

[ ١٢٨ : ١٢٩ – ٣] : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ۝١٢٨ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

لمَّا جرى يوم « أحد » ما جرى ، وجرى على النبي ﷺ مصائب ، رفع الله بها درجته ، فشجَّ رأسه وكُسرت رُباعيته ، قال « كيف يفلح قوم شجُّوا نبيهم »[٤٥] ، وجعل يدعو على رؤساء من المشركين مثل :

---

(٤٥) * أخرجه مُسلم بهذا اللفظ عن أنس ، قال : أن رسول الله ﷺ كُسِرت رُباعيته يوم أحد ، وشُجَّ في رأسه ، وهو يدعوهم إلى الله ؟ ، فأنزل الله عز وجل : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [ سورة آل عمران ١٢٨ ] . مُسلم في صحيحه : ( كتاب الجهاد / باب : غزوة أُحد / ح ١٠٤ ) .

واتفق الشيخان على إخراجه من رواية أبي هريرة ، ولفظه : قال رسول الله ﷺ : اشتد غضب الله على قوم فعلوا هذا بنبيه – يشير إلى رباعيته ، اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله في سبيل الله . أخرجه البُخاري في صحيحه : ( كتاب المغازي/ باب : ما أصاب النَّبِي ﷺ من الجراح يوم أُحد / ح ٤٠٧٣ ) . ومُسلم في صحيحه : ( كتاب الجهاد / باب : اشتداد غضب الله على من قتله رسول الله ﷺ / ح ١٠٦ ) .

أبي سفيان بن حرب ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، والحارث بن هشام ، أنزل اللّٰه تعالى على رسوله نهيا له عن الدعاء عليهم باللعنة والطرد عن رحمة اللّٰه ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إنما عليك البلاغ وإرشاد الخلق والحرص على مصالحهم ، وإنما الأمر للّٰه تعالى هو الذي يُدبِّر الأُمور ، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء ، فلا تدع عليهم بل أمرهم راجع إلى ربهم ، إن اقتضت حِكمته ورحمته أن يتوب عليهم ويمن عليهم بالإسلام فعل ، وإن اقتضت حكمته إبقاءهم على كفرهم وعدم هدايتهم ، فإنهم هم الذين ظلموا أنفسهم وضروها وتسببوا بذلك ، فعل ، وقد تاب اللّٰه على هؤلاء المُعينين وغيرهم ، فهداهم للإسلام رضي اللّٰه عنهم .

وفي هذه الآية مما يدل على أن اختيار اللّٰه غالب على اختيار العباد ، وأن العبد وإن ارتفعت درجته وعلا قدره قد يختار شيئا وتكون الخيرة والمصلحة في غيره ، وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء فغيره من باب أولى ففيها أعظم رد على من تَعَلَّق بالأنبياء أو غيرهم من الصالحين وغيرهم ، وأن هذا شرك في العبادة ، نقص في العقل ، يتركون من الأمر كله له ويدعون من لا يملك من الأمر مِثقال ذرّة ، إن هذا لهو الضلال البعيد .

وتأمَّل كيف لما ذكر تعالى توبته عليهم أسند الفعل إليه ، ولم يذكر منهم سببا موجبا لذلك ، ليدل ذلك على أن النعمة محض فضله على عبده ، من غير سبق سبب من العبد ولا وسيلة ، ولما ذكر العذاب ذكر معه ظلمهم ، ورتبه على العذاب بالفاء المفيدة للسببية ، فقال ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ ليدل ذلك على كمال عدل اللّٰه وحكمته ، حيث وضع العقوبة موضعها ، ولم يظلم عبده بل العبد هو الذي ظلم نفسه .

ولما نفى عن رسوله أنه ليس له من الأمر شيء قرر من الأمر له فقال ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الملائكة والإنس والجن والحيوانات والأفلاك والجمادات كلها ، وجميع ما في السماوات والأرض ، الكل ملك للّٰه مخلوقون مُدبَّرون مُتصرَّف فيهم تصرُّف المماليك ، فليس لهم مِثقال ذرّة من المُلك ، وإذا كانوا كذلك فهم دائرون بين مغفرته وتعذيبه فيغفر لمن يشاء بأن يهديه للإسلام فيغفر شركه ويَمُنّ عليه بترك العصيان فيغفر له ذنبه ، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ بأن يكله إلى نفسه الجاهلة الظالمة المقتضية لعمل الشر فيعمل الشر ويعذبه على ذلك .

ثم ختم الآية باسمين كريمين دالَّين على سعة رحمته وعموم مغفرته وسعة إحسانه وعميم إحسانه ، فقال ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ففيها أعظم بشارة بأن رحمته غلبت غضبه ، ومغفرته غلبت مؤاخذته ، فالآية فيها الإخبار عن حالة الخلق وأن منهم من يغفر اللّٰه له ومنهم من يعذبه ، فلم يختمها باسمين أحدهما دال على الرحمة ، والثاني دال على النقمة ، بل ختمها باسمين كليهما يدل على الرحمة ، فله تعالى رحمة وإحسان سيرحم بها عباده لا تخطر ببال بشر ، ولا يدرك لها وصف ، فنسأله تعالى أن يتغمدنا ويدخلنا برحمته في عباده الصالحين .

تمّ السّفر الأول من هذا التفسير المبارك بيُسر من اللّٰه وإعانة ، فله الحمد والشكر والثناء ، وأسأله المزيد من فضله وكرمه وإحسانه . ويليه المجلد الثاني ، أوله قول الباري جل جلاله : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ [سورة آل عمران ١٣٠] الآية .

وذلك في تسع وعشرين من شهر ربيع الأول من سنة ١٣٤٣ ثلاث وأربعين وثلاث مئة وألف من الهجرة النبوية وصلى اللّٰه على مُحمّد وسلم تسليمًا كثيرًا .

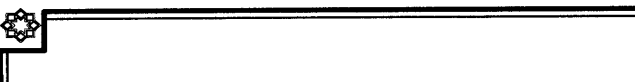
بقلم جامعه :

عبد الرّحمن بن ناصر بن عبد اللّٰه السّعدي

غفر اللّٰه له ولوالديه وإخوانه المسلمين ،

والحمد للّٰه رب العالمين

تم المجلد الأول بحمد اللّٰه





المُجلَّد الثاني من :

# « تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان »

لجامعه الفقير إلى اللَّه :
عبد الرَّحمن بن ناصر بن عبد اللَّه بن سعدي
غفر اللَّه له ولوالديه وللمُسلمين، آمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهدِهِ الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ تسليمًا كثيرًا . قال تعالى :

[ ١٣٠ : ١٣٦ - ٣] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ .

تقدَّم في مُقدِّمة هذا التفسير أن العبد ينبغي له مُراعاة الأوامر والنواهي في نفسه وفي غيره ، وأن الله تعالى إذا أمره بأمر وجب عليه -أولا- أن يعرف حدَّه ، وما هو الذي أمر به ليتمكن بذلك من امتثاله ، فإذا عرف ذلك اجتهد ، واستعان بالله على امتثاله في نفسه وفي غيره ، بحسب قدرته وإمكانه ، وكذلك إذا نُهي عن أمر عرف حده ، وما يدخل فيه وما لا يدخل ، ثم اجتهد واستعان بربِّه في تركه ، وأن هذا ينبغي مراعاته في جميع الأوامر الإلهية والنواهي ، وهذه الآيات الكريمات قد اشتملت عن أوامر وخصال من خصال الخير ، أمر الله بها وحث على فعلها ، وأخبر عن جزاء أهلها ، وعلى نواهي حث على تركها .

ولعل الحكمة - والله أعلم - في إدخال هذه الآيات أثناء قصة « أُحد » أنه قد تقدَّم أن الله تعالى وعد عباده المؤمنين ، أنهم إذا صبروا واتقوا نصرهم على أعدائهم ، وخذل الأعداء عنهم ، كما في قوله تعالى : ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [ سورة آل عمران ٢٠] ، ثم قال : ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم﴾ [ سورة آل عمران ١٢٥] الآيات .

فكأن النفوس اشتاقت إلى معرفة خصال التقوى ، التي يحصل بها النصر والفلاح والسعادة ، فذكر الله في هذه الآيات أهم خصال التقوى التي إذا قام العبد بها فقيامه بغيرها من باب أولى وأحرى ، ويدل على ما قلنا أن الله ذكر لفظ « التقوى » في هذه الآيات ثلاث مرات : مرة مُطلقة وهي قوله : ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ومرَّتين مُقيدتين ، فقال : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ . ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ فقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كل ما في القرآن من قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ افعلوا كذا ، أو اتركوا كذا ، يدل على أن الإيمان هو السبب الداعي والموجب لامتثال ذلك الأمر ، واجتناب ذلك النهي ؛ لأن الإيمان هو التصديق الكامل بما يجب التصديق به ، المُستلزم لأعمال الجوارح ، فنهاهم عن أكل الربا أضعافًا مُضاعفة ، وذلك هو ما اعتاده أهل الجاهلية ، ومن لا يُبالي بالأوامر الشرعية من أنه إذا حل الدَّين على المُعْسِر ولم يحصل منه شيء ، قالوا

له : إما أن تقضي ما عليك من الدين ، وإما أن نزيد في المُدَّة ، ويزيد ما في ذمتك ، فيضطر الفقير ويستدفع غريمه ويلتزم ذلك ، اغتناما لراحته الحاضرة ، ، فيزداد -بذلك- ما في ذمته أضعافا مضاعفة ، من غير نفع وانتفاع . ففي قوله : ﴿أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ تنبيه على شدة شناعته بكثرته ، وتنبيه لحكمة تحريمه ، وأن تحريم الربا حكمته أن الله منع منه لما فيه من الظلم .

وذلك أن الله أوجب إنظار المعسر ، وبقاء ما في ذمّته من غير زيادة ، فإلزامه بما فوق ذلك ظلم مُتضاعِف ، فيتعيَّن على المُؤمن المُتقي تركه وعدم قربانه ، لأن تركه من موجبات التقوى . والفلاح متوقف على التقوى ، فلهذا قال : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ بترك ما يوجب دخولها ، من الكفر والمعاصي ، على اختلاف درجاتها ، فإن المعاصي كلها- وخصوصا المعاصي الكِبار- تجر إلى الكُفر ، بل هي من خصال الكُفر الذي أُعد الله النار لأهله ، فترك المعاصي ينجي من النار ، ويقي من سخط الجبار ، وأفعال الخير والطاعة توجب رضا الرحمن ، ودخول الجنان ، وحصول الرحمة ، ولهذا قال : ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ بفعل الأوامر امتثالا ، واجتناب النواهي ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ .

فطاعة الله وطاعة رسوله ، من أسباب حصول الرحمة كما قال تعالى : ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [سورة الأعراف ١٥٦] الآيات .

ثم أمرهم تعالى بالمُسارعة إلى مغفرته وإدراك جنته التي عرضها السماوات والأرض ، فكيف بطولها ، التي أعدّها الله للمُتقين ، فهم أهلها وأعمال التقوى هي الموصلة إليها ، ثم وصف المتقين وأعمالهم ، فقال : ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي : في حال عسرهم ويسرهم ، إن أيسروا أكثروا من النفقة ، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئا ولو قل .

﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ أي : إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم -وهو امتلاء قلوبهم من الحنق ، الموجب للانتقام بالقول والفعل- ، هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية ، بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ ، ويصبرون عن مقابلة المُسيء إليهم .

﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ يدخل في العفو عن الناس ، العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل ، والعفو أبلغ من الكظم ، لأن العفو ترك المؤاخذة مع السماحة عن المسيء ، وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة ، وتخلى عن الأخلاق الرذيلة ، وممن تاجر مع الله ، وعفا عن عباد الله رحمة بهم ، وإحسانا إليهم ، وكراهة لحصول الشر عليهم ، وليعفو الله عنه ، ويكون أجره على ربه الكريم ، لا على العبد الفقير ، كما قال تعالى : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة الشورى ٤٠] .

ثم ذكر حالة أعم من غيرها ، وأحسن وأعلى وأجل ، وهي الإحسان ، فقال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والإحسان نوعان : الإحسان في عبادة الخالق . والإحسان إلى المخلوق ، فالإحسان في عبادة الخالق . فسرها النبي ﷺ بقوله : «أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك»(٤٦) .

---

(٤٦) * قلت : هذا جزء من حديث جبريل الطويل الذي سأل فيه النَّبي ﷺ عن الإسلام والإيمان ، والإحسان وأمور أخرى . =

وأما الإحسان إلى المخلوق ، فهو إيصال النفع الديني والدُّنيوي إليهم ، ودفع الشر الديني والدُّنيوي عنهم ، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، وتعليم جاهلهم ، ووعظ غافلهم ، والنصيحة لعامَّتهم وخاصَّتهم ، والسعي في جمع كلمتهم ، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمُستحبة إليهم ، على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم ، فيدخل في ذلك بذل الندى وكف الأذى ، واحتمال الأذى ، كما وصف اللّه به المُتَّقين في هذه الآيات ، فمن قام بهذه الأمور ، فقد قام بحق اللّه وحق عبيده .

ثم ذكر اعتذارهم لربهم من جناياتهم وذنوبهم ، فقال : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي : صدر منهم أعمال سيئة كبيرة ، أو ما دون ذلك ، بادروا إلى التوبة والاستغفار ، وذكروا ربهم ، وما توعد به العاصين ووعد به المتقين ، فسألوه المغفرة لذنوبهم ، والستر لعيوبهم ، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها ، فلهذا قال : ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ .

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ تزيل عنهم كل محذور ﴿وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها من النعيم المُقيم ، والبهجة والسرور والبهاء ، والخير والسرور ، والقصور والمنازل الأنيقة العاليات ، والأشجار المُثمرة البهية ، والأنهار الجاريات في تلك المساكن الطيبات ، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يحولون عنها ، ولا يبغون بها بدلا ، ولا يُغيَّر ما هم فيه من النعيم ، ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ عملوا للّه قليلا فأجروا كثيرا فـ « عند الصباح يحمد القوم السرى » وعند الجزاء يجد العامل أجره كاملا موفرا .

وهذه الآيات الكريمات من أدلة أهل السُّنَّة والجماعة ، على أن الأعمال تدخل في الإيمان ، خلافا للمُرجئة ، ووجه الدلالة إنما يتم بذكر الآية ، التي في سورة الحديد ، نظير هذه الآيات ، وهي قوله تعالى : ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [ سورة الحديد ٢١] . فلم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به وبرسله ، وهنا قال : ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ثم وصف المُتقين بهذه الأعمال الماليّة والبدنيّة ، فدل على أن هؤلاء المُتَّقين الموصوفين بهذه الصفات هم أولئك المؤمنون .

ثم قال تعالى :

[ ١٣٧ : ١٣٨ - ٣] : ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ .

وهذه الآيات الكريمات ، وما بعدها في قصة « أحد » يُعزي تعالى عباده المؤمنين ويُسلِّيهم ، ويُخبرهم

---

= وهو متفق عليه . من حديث أبي هريرة . أخرجه البخاري :( كتاب الإيمان/ باب : سؤال جبريل النَّبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان/ ح ٥٠ ) .

( كتاب تفسير القرآن/ باب : قوله : ( إنَّ اللّه عنده علم السَّاعة) / ح ٤٧٧٧ ) . وأخرجه مسلم :( كتاب الإيمان / باب : بيان الإيمان والإسلام والإحسان/ح ٥، ٦، ٧ ) .

أنه مضى قبلهم أجيال وأُمم كثيرة ، امتحنوا ، وابتلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين ، فلم يزالوا في مُداولة ومُجاولة ، حتى جعل الله العاقبة للمُتقين ، والنصر لعباده المؤمنين ، وآخر الأمر حصلت الدولة على المُكذبين ، وخذلهم الله بنصر رُسله وأتباعهم .

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فإنكم لا تجدونهم إلا مُعذَّبين بأنواع العُقوبات الدنيوية ، قد خوت ديارهم ، وتبين لكل أحد خسارهم ، وذهب عزهم وملكهم ، وزال بذخهم وفخرهم .

أفليس في هذا أعظم دليل ، وأكبر شاهد على صدق ما جاءت به الرسل؟ . وحكمة الله التي يمتحن بها عباده ، ليبلوهم ويتبين صادقهم من كاذبهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ أي : دلالة ظاهرة ، تبين للناس الحق من الباطل ، وأهل السعادة من أهل الشقاوة ، وهو الإشارة إلى ما أوقع الله بالمُكذِّبين .

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم هم المُنتفعون بالآيات فتهديهم إلى سبيل الرشاد ، وتعظهم وتزجرهم عن طريق الغي ، وأما باقي الناس فهي بيان لهم ، تقوم به عليهم الحُجّة من الله ، ليهلك من هلك عن بينة .

ويحتمل أن الإشارة في قوله : ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ للقُرآن العظيم ، والذكر الحكيم ، وأنه بيان للناس عُموما ، وهدى وموعظة للمُتقين خُصوصًا ، وكلا المعنيين حق .

[ ١٣٩ : ١٤٣ - ٣ ] : ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ .

يقول تعالى مُشجِّعا لعباده المؤمنين ، ومُقوِّيًا لعزائمهم ومُنهضا لهممهم : ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي : ولا تهنوا وتضعفوا في أبدانكم ، ولا تحزنوا في قلوبكم ، عندما أصابتكم المصيبة ، وابتليتم بهذه البلوى ، فإن الحزن في القلوب ، والوهن على الأبدان ، زيادة مصيبة عليكم ، وعون لعدوكم عليكم ، بل شجعوا قلوبكم وصبرّوها ، وادفعوا عنها الحزن وتصلّبوا على قتال عدوكم ، وذكر تعالى أنه لا ينبغي ولا يليق بهم الوهن والحزن ، وهم الأعلون في الإيمان ، ورجاء نصر الله وثوابه ، فالمؤمن المتيقّن ما وعده الله من الثواب الدنيوي والأخروي لا ينبغي منه ذلك .

ولهذا قال تعالى : ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ، ثم سلّاهم بما حصل لهم من الهزيمة ، وبيّن الحِكم العظيمة المُترتبة على ذلك ، فقال : ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ فأنتم وإيّاهم قد تساويتم في القرح ، ولكنكم ترجون من الله ما لا يرجون كما قال تعالى : ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [ سُورة النّساء ١٠٤ ] .

ومن الحِكم في ذلك أن هذه الدار يعطي الله منها المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، فيُداول الله الأيام بين

الناس ، يوم لهذه الطائفة ، ويوم للطائفة الأخرى ؛ لأن هذه الدار الدنيا منقضية فانية ، وهذا بخلاف الدار الآخرة ، فإنها خالصة للذين آمنوا .

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا أيضًا من الحكم أنه يبتلي اللّه عباده بالهزيمة والابتلاء ، ليتبيّن المؤمن من المنافق ؛ لأنه لو استمر النصر للمؤمنين في جميع الوقائع لدخل في الإسلام من لا يريده ، فإذا حصل في بعض الوقائع بعض أنواع الابتلاء ، تبين المؤمن حقيقة الذي يرغب في الإسلام ، في الضراء والسراء ، واليسر والعسر ، ممن ليس كذلك .

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ وهذا أيضًا من بعض الحكم ، لأن الشهادة عند اللّه من أرفع المنازل ، ولا سبيل لنيلها إلا بما يحصل من وجود أسبابها ، فهذا من رحمته بعباده المؤمنين ، أن قيّض لهم من الأسباب ما تكرهه النفوس ، لينيلهم ما يحبون من المنازل العالية والنعيم المقيم .

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم ، وتقاعدوا عن القتال في سبيله ، وكأن في هذا تعريضا بذم المنافقين ، وأنهم مبغضون للّه ، ولهذا ثبطهم عن القتال في سبيله . ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [ سورة التوبة٤٦] .

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ وهذا أيضًا من الحِكَم أن اللّه يُمحّص بذلك المُؤمنين من ذنوبهم وعيوبهم ، يدل ذلك على أن الشهادة والقتال في سبيل اللّه يُكفّر الذنوب ، ويزيل العيوب ، وليُمحّص اللّه أيضًا المُؤمنين من غيرهم من المُنافقين ، فيتخلّصون منهم ، ويعرفون المُؤمن من المُنافق ، ومن الحكم أيضًا أنه يُقدر ذلك ، ليمحق الكافرين ، أي : ليكون سببا لمحقهم واستئصالهم بالعُقوبة ، فإنهم إذا انتصروا ، بغوا ، وازدادوا طُغيانا إلى طُغيانهم ، يستحقون به المُعاجلة بالعُقوبة ، رحمة بعباده المُؤمنين .

ثم قال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ هذا استفهام إنكاري ، أي : لا تظنّوا ، ولا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنّة من دون مشقّة واحتمال المكاره في سبيل اللّه وابتغاء مرضاته ، فإن الجنّة أعلى المطالب ، وأفضل ما به يتنافس المُتنافِسون ، وكلما عظم المطلوب عظمت وسيلته ، والعمل الموصل إليه ، فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحة ، ولا يدرك النعيم إلا بترك النعيم ، ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل اللّه عند توطين النفس لها ، وتمرينها عليها ومعرفة ما تئول إليه ، تنقلب عند أرباب البصائر مِنحًا يُسرُّون بها ، ولا يبالون بها ، وذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء .

ثم وبّخهم تعالى على عدم صبرهم بأمر كانوا يتمنونه ويودون حصوله ، فقال : ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ . وذلك أن كثيرا من الصحابة رضي اللّه عنهم ممن فاته بدر يتمنون أن يحضرهم اللّه مشهدا يبذلون فيه جهدهم ، قال اللّه تعالى لهم : ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ أي : رأيتم ما تَمنَّيتُم بأعينكم ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ فما بالكم وترك الصبر؟ هذه حالة لا تليق ولا تحسن ، خصوصا لمن تمنى ذلك ، وحصل له ما تمنى ، فإن الواجب عليه بذل الجهد ، واستفراغ الوسع في ذلك .

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يكره تمني الشهادة ، ووجه الدلالة أن اللّه تعالى أقرّهم على أمنيتهم ،

ولم يُنكر عليهم ، وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها ، والله أعلم .

ثم قال تعالى :

[ ١٤٤ : ١٤٥ - ٣] : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي : ليس ببدع من الرسل ، بل هو من جنس الرسل الذين قبله ، وظيفتهم تبليغ رسالات ربهم وتنفيذ أوامره ، ليسوا بمُخلَّدين ، وليس بقاؤهم شرطا في امتثال أوامر الله ، بل الواجب على الأمم عبادة ربهم في كل وقت وبكل حال ، ولهذا قال : ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ بترك ما جاءكم من إيمان أو جهاد ، أو غير ذلك .

قال الله تعالى : ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ إنما يضر نفسه ، وإلا فالله تعالى غني عنه ، وسيُقيم دينه ، ويعز عباده المؤمنين ، فلما وبَّخ تعالى من انقلب على عقبيه ، مدح من ثبت مع رسوله ، وامتثل أمر ربه ، فقال : ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ والشكر لا يكون إلا بالقيام بعُبوديَّة الله تعالى في كل حال .

وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه ، فقدُ رئيس ولو عَظُم ، وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه ، إذا فُقِدَ أحدهم قام به غيره ، وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله ، والجهاد عنه ، بحسب الإمكان ، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس ، فبهذه الحال يستتب لهم أمرهم ، وتستقيم أمورهم .

وفي هذه الآية أيضًا أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر ، وأصحابه الذين قاتلوا المُرتدين بعد رسول الله ﷺ لأنهم هم سادات الشاكرين .

ثم أخبر تعالى أن النفوس جميعها مُتعلِّقة بآجالها بإذن الله وقدره وقضائه ، فمن حتَّم عليه بالقدر أن يموت ، مات ولو بغير سبب ، ومن أراد بقاءه ، فلو أتى من الأسباب كل سبب ، لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله ، وذلك أن الله قضاه وقدره وكتبه إلى أجل مسمَّى : ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [ سورة الأعراف٣٤ ] .

ثم أخبر تعالى أنه يعطي الناس من ثواب الدنيا والآخرة ما تعلَّقت به إراداتهم ، فقال : ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ . قال الله تعالى : ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [ سورة الإسراء ٢٠ - ٢١] .

﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ . ولم يذكر جزاءهم ليدل ذلك على كثرته وعظمته ، وليعلم أن الجزاء على

قدر الشكر، قلّة وكثرة وحسنا.

[١٤٦ : ١٤٨ - ٣]: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

هذا تسلية للمؤمنين، وحث على الاقتداء بهم، والفعل كفعلهم، وأن هذا أمر قد كان متقدمًا، لم تزل سُنّة اللّه جارية بذلك، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾ أي: وكم من نبي ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ أي: جماعات كثيرون من أتباعهم، الذين قد ربّتهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة، فأصابهم قتل وجراح وغير ذلك. ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ﴾ أي: ما ضعفت قلوبهم، ولا وهنت أبدانهم، ولا استكانوا، أي: ذلوا لعدوهم، بل صبروا وثبتوا، وشجّعوا أنفسهم، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

ثم ذكر قولهم واستنصارهم لربّهم، فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ أي: في تلك المواطن الصعبة ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾ والإسراف: هو مجاوزة الحد إلى ما حُرم، علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان، وأن التخلّي منها من أسباب النصر، فسألوا ربهم مغفرتها. ثم إنهم لم يتّكلوا على ما بذلوا جهدهم به من الصبر، بل اعتمدوا على اللّه، وسألوه أن يُثبّت أقدامهم عند مُلاقاة الأعداء الكافرين، وأن ينصرهم عليهم، فجمعوا بين الصبر وترك ضده، والتوبة والاستغفار، والاستنصار بربّهم، لا جرم أن اللّه نصرهم، وجعل لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ من النصر والظفر والغنيمة، ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِۗ﴾ وهو الفوز برضا ربهم، والنعيم المقيم الذي قد سلم من جميع المُنكّدات، وما ذاك إلا أنهم أحسنوا له الأعمال، فجازاهم بأحسن الجزاء، فلهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة الخالق ومُعاملة الخَلق، ومن الإحسان أن يفعل عند جهاد الأعداء، كفعل هؤلاء الموصوفين.

ثم قال تعالى:

[١٤٩ : ١٥١ - ٣]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وهذا نهي من اللّه للمؤمنين أن يُطيعوا الكافرين من المُنافقين والمُشركين، فإنهم إن أطاعوهم لم يريدوا لهم إلا الشر، وهم قصدهم ردهم إلى الكفر الذي عاقبته الخيبة والخسران.

ثم أخبر أنه مولاهم وناصرهم، ففيه إخبار لهم بذلك، وبشارة بأنه سيتولى أمورهم بلطفه،

ويعصمهم من أنواع الشرور .

وفي ضمن ذلك الحث لهم على اتخاذه وحده وليا وناصرا من دون كل أحد ، فمن ولايته ونصره لهم أنه وعدهم أنه سيلقي في قلوب أعدائهم من الكافرين الرعب ، وهو الخوف العظيم الذي يمنعهم من كثير من مقاصدهم ، وقد فعل تعالى .

وذلك أن المُشركين -بعدما انصرفوا من وقعة «أُحد» - تشاوروا بينهم ، وقالوا : كيف ننصرف ، بعد أن قتلنا منهم من قتلنا ، وهزمناهم ولما نستأصلهم؟ فهموا بذلك ، فألقى اللّه الرعب في قلوبهم ، فانصرفوا خائبين ، ولا شك أن هذا من أعظم النصر ، لأنه قد تقدم أن نصر اللّه لعباده المؤمنين لا يخرج عن أحد أمرين : إما أن يقطع طرفا من الذين كفروا ، أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ، وهذا من الثاني . ثم ذكر السبب الموجب لإلقاء الرعب في قلوب الكافرين ، فقال : ﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ﴾ أي : ذلك بسبب ما اتخذوا من دونه من الأنداد والأصنام ، التي اتخذوها على حسب أهوائهم وإرادتهم الفاسدة ، من غير حُجّة ولا برهان ، وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمن ، فمن ثم كان المُشرك مرعوبا من المُؤمنين ، لا يعتمد على ركن وثيق ، وليس له ملجأ عند كل شدّة وضيق ، هذا حاله في الدنيا ، وأما في الآخرة فأشد وأعظم ، ولهذا قال : ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ . أي : مُستقرهم الذي يأوون إليه وليس لهم عنها خروج ، ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بسبب ظلمهم وعدوانهم صارت النار مثواهم .

[١٥٢ - ٣] : ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

اي : ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ بالنصر ، فنصركم عليهم ، حتى ولُّوكم أكتافهم ، وطفقتم فيهم قتلا ، حتى صرتم سببا لأنفسكم ، وعونا لأعدائكم عليكم ، فلما حصل منكم الفشل وهو الضعف والخور ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ الذي فيه ترك أمر اللّه بالائتلاف وعدم الاختلاف ، فاختلفتم ، فمِن قائل نُقيم في مركزنا الذي جعلنا فيه النبي ﷺ ، ومِن قائل : ما مقامنا فيه وقد انهزم العدو ، ولم يبق محذور ، فعصيتم الرسول ، وتركتم أمره من بعد ما أراكم اللّه ما تحبُّون وهو انخذال أعدائكم ؛ لأن الواجب على من أنعم اللّه عليه بما أحب ، أعظم من غيره .فالواجب في هذه الحال خصوصًا ، وفي غيرها عموما ، امتثال أمر اللّه ورسوله .

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ وهم الذين أوجب لهم ذلك ما أوجب ، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَۚ﴾ وهم الذين لزموا أمر رسول اللّه ﷺ وثبتوا حيث أمروا .

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي : بعدما وجدت هذه الأمور منكم ، صرف اللّه وجوهكم عنهم ، فصار الوجه لعدوكم ، ابتلاء من اللّه لكم وامتحانا ، ليتبين المؤمن من الكافر ، والطائع من العاصي ، وليُكفر اللّه عنكم بهذه المصيبة ما صدر منكم .

فلهذا قال : ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي : ذو فضل عظيم عليهم ، حيث منّ عليهم بالإسلام ، وهداهم لشرائعه ، وعفا عنهم سيئاتهم ، وأثابهم على مصيباتهم .ومن فضله على المؤمنين أنه لا يقدر عليهم خيرا ولا مصيبة ، إلا كان خيرا لهم . إن أصابتهم سراء فشكروا جازاهم جزاء الشاكرين ، وإن أصابتهم ضراء فصبروا ، جازاهم جزاء الصابرين .(٤٧)

[ ١٥٣ : ١٥٤ - ٣] : ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ .

يُذكِّرهم تعالى حالهم في وقت انهزامهم عن القتال ، ويُعاتبهم على ذلك ، فقال : إذ تُصعدون أي : تجدون في الهرب ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ أي : لا يلوي أحد منكم على أحد ، ولا ينظر إليه ، بل ليس لكم هم إلا الفرار والنجاء عن القتال .

والحال أنه ليس عليكم خطر كبير ، إذ لستم آخر الناس مما يلي الأعداء ، ويُباشر الهيجاء ، بل ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ أي : مما يلي القوم يقول : « إليَّ عباد الله » فلم تلتفتوا إليه ، ولا عرجتم عليه ، فالفرار نفسه موجب للوم ، ودعوة الرسول الموجبة لتقديمه على النفس ، أعظم لوما بتخلفكم عنها .

﴿فَأَثَابَكُمْ﴾ أي : جازاكم على فعلكم ﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾ أي : غمًّا يتبع غمًّا ، غم بفوات النصر وفوات الغنيمة ، وغم بانهزامكم ، وغم أنساكم كل غم ، وهو سماعكم أن محمدا ﷺ قد قتل .

ولكن الله – بلطفه وحسن نظره لعباده – جعل اجتماع هذه الأمور لعباده المؤمنين خيرا لهم ، فقال : ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من النصر والظفر ، ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ من الهزيمة والقتل والجراح ، إذا تحقَّقتم أن الرسول ﷺ لم يقتل هانت عليكم تلك المصيبات ، واغتبطتم بوجوده المُسَلِّي عن كل مصيبة ومحنة ، فلله ما في ضمن البلايا والمحن من الأسرار والحكم ، وكل هذا صادر عن علمه وكمال خبرته بأعمالكم ، وظواهركم وبواطنكم ، ولهذا قال : ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ .

ويُحتمل أن معنى قوله : ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ يعني : أنه قدَّر ذلك الغم والمصيبة عليكم ، لكي تتوطن نفوسكم ، وتُمرنوا على الصبر على المصيبات ، ويخف عليكم

---

(٤٧) * عن صُهيب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : عجبًا لأمر المؤمن أمره كله له خير ، وليس ذاك لأحدٍ إلَّا للمؤمن ، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له . أخرجه مُسلم في صحيحه : ( كتاب الزُّهد/ باب : المؤمن أمره كله له خير/ ح ٦٤) .

تحمل المشقّات : ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾ الذي أصابكم ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ ، ولا شك أن هذا رحمة بهم ، وإحسان وتثبيت لقلوبهم ، وزيادة طمأنينة ؛ لأن الخائف لا يأتيه النعاس لما في قلبه من الخوف ، فإذا زال الخوف عن القلب أمكن أن يأتيه النعاس .

وهذه الطائفة التي أنعم اللّه عليها بالنعاس هم المؤمنون الذين ليس لهم هم إلا إقامة دين اللّه ، ورضا اللّه ورسوله ، ومصلحة إخوانهم المسلمين .

وأما الطائفة الأخرى الذين ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ فليس لهم هم في غيرها ، لنفاقهم أو ضعف إيمانهم ، فلهذا لم يصبهم من النعاس ما أصاب غيرهم .

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ وهذا استفهام إنكاري ، أي : ما لنا من الأمر – أي : النصر والظهور– شيء ، فأساءوا الظن بربهم وبدينه ونبيّه ، وظنّوا أن اللّه لا يتم أمر رسوله ، وأن هذه الهزيمة هي الفيصلة والقاضية على دين اللّه ، قال اللّه في جوابهم : ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ الأمر يشمل الأمر القدري ، والأمر الشرعي ، فجميع الأشياء بقضاء اللّه وقدره ، وعاقبة النصر والظفر لأوليائه وأهل طاعته ، وإن جرى عليهم ما جرى .

﴿يُخْفُونَ﴾ يعني المُنافقين ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ ثم بيّن الأمر الذي يخفونه ، فقال : ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ أي : لو كان لنا في هذه الواقعة رأي ومشورة ﴿مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ وهذا إنكار منهم وتكذيب بقدر اللّه ، وتسفيه منهم لرأي رسول اللّه ﷺ ، ورأي أصحابه ، وتزكية منهم لأنفسهم ، فرد اللّه عليهم بقوله : ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ التي هي أبعد شيء عن مظان القتل ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ فالأسباب – وإن عظمت – إنّما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء ، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئًا ، بل لا بد أن يُمضي اللّه ما كتب في اللوح المحفوظ من الموت والحياة .

﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي : يختبر ما فيها من نفاق وإيمان وضعف إيمان ، ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ من وساوس الشيطان ، وما تأثر عنها من الصفات غير الحميدة .

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي : بما فيها وما أكنته ، فاقتضى علمه وحكمته أن قدر من الأسباب ، ما به تظهر مخبآت الصدور وسرائر الأمور .ثم قال تعالى :

[١٥٥ – ٣] : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ .

يُخبر تعالى عن حال الذين انهزموا يوم « أُحد » وما الذي أوجب لهم الفرار ، وأنه من تسويل الشيطان ، وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم . فهم الذين أدخلوه على أنفسهم ، ومكّنوه بما فعلوا من المعاصي ، لأنها مركبه ومدخله ، فلو اعتصموا بطاعة ربهم لما كان له عليهم من سلطان .

قال تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [ سورة الحجر ٤٢ ] . ثم أخبر أنه عفا عنهم بعدما فعلوا ما يوجب المؤاخذة ، وإلا فلو واخذهم لاستأصلهم .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للمُذنبين الخطَّائين بما يوفِّقهم له من التوبة والاستغفار، والمصائب المُكفِّرة، ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يُعاجل من عصاه، بل يستأني به، ويدعوه إلى الإنابة إليه، والإقبال عليه. ثم إن تاب وأناب قبِل منه، وصيَّره كأنه لم يجر منه ذنب، ولم يصدر منه عيب، فلله الحمد على إحسانه.

[ ١٥٦: ١٥٨ – ٣]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.

ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يُشابهوا الكافرين، الذين لا يؤمنون بربِّهم، ولا بقضائه وقدره، من المُنافقين وغيرهم. ينهاهم عن مُشابهتهم في كل شيء، وفي هذا الأمر الخاص وهو أنهم يقولون لإخوانهم في الدين أو في النسب: ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سافروا للتجارة ﴿أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾ أي: غُزاة، ثم جرى عليهم قتل أو موت، يعارضون القدر ويقولون: ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ وهذا كذب منهم، فقد قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [سورة آل عمران ١٥٤].

ولكن هذا التكذيب لم يفدهم، إلا أن الله يجعل هذا القول، وهذه العقيدة حسرة في قلوبهم، فتزداد مُصيبتهم، وأما المُؤمنون بالله فإنهم يعلمون أن ذلك بقدر الله، فيُؤمنون ويُسلمون، فيهدي الله قلوبهم ويثبتها، ويخفف بذلك عنهم المصيبة.

قال الله ردًّا عليهم: ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المُنفرد بذلك، فلا يغني حذر عن قدر.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيُجازيكم بأعمالكم وتكذيبكم.

ثم أخبر تعالى أن القتل في سبيله أو الموت فيه، ليس فيه نقص ولا محذور، وإنما هو مما ينبغي أن يتنافس فيه المُتنافسون، لأنه سبب مُفض وموصل إلى مغفرة الله ورحمته، وذلك خير مما يجمع أهل الدنيا من دنياهم، وأن الخلق أيضًا إذا ماتوا أو قتلوا بأي حالة كانت، فإنما مرجعهم إلى الله، ومآلهم إليه، فيُجازي كلًّا بعمله، فأين الفرار إلا إلى الله، وما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله؟.

[١٥٩ – ٣]: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

أي: برحمة الله لك ولأصحابك، منَّ الله عليك أن ألنت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترققت عليهم، وحسَّنت لهم خُلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامتثلوا أمرك.

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ أي: سيئ الخلق ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾أي: قاسيه، ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخُلق السيئ. فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين

تنفر الناس عن الدين ، وتبغضهم إليه ، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص ، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول ، فكيف بغيره؟! أليس من أوجب الواجبات ، وأهم المُهمّات ، الاقتداء بأخلاقه الكريمة ، ومُعاملة الناس بما يعاملهم به ﷺ ، من اللين وحسن الخلق والتأليف ، امتثالا لأمر الله ، وجذبا لعباد الله لدين الله .

ثم أمره الله تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير في حقه ﷺ ، ويستغفر لهم في التقصير في حق الله ، فيجمع بين العفو والإحسان .

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي : الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر ، فإن في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينيّة والدنيويّة ما لا يمكن حصره ، منها : أن المُشاورة من العبادات المُتقرب بها إلى الله . ومنها : أن فيها تسميحا لخواطرهم ، وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث ، فإن من له الأمر على الناس -إذا جمع أهل الرأي : والفضل وشاورهم في حادثة من الحوادث- اطمأنت نفوسهم وأحبوه ، وعلموا أنه ليس بمُستبد عليهم ، وإنما ينظر إلى المصلحة الكُلّيّة العامة للجميع ، فبذلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته ، لعلمهم بسعيه في مصالح العموم ، بخلاف من ليس كذلك ، فإنهم لا يكادون يحبّونه محبّة صادقة ، ولا يطيعونه وإن أطاعوه فطاعة غير تامة . ومنها : أن في الاستشارة تنور الأفكار ، بسبب إعمالها فيما وضعت له ، فصار في ذلك زيادة للعقول . ومنها : ما تنتجه الاستشارة من الرأي : المُصيب ، فإن المُشاور لا يكاد يخطئ في فعله ، وإن أخطأ أو لم يتم له مطلوب ، فليس بملوم ، فإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ وهو أكمل الناس عقلا ، وأغزرهم علما ، وأفضلهم رأيا- : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ فكيف بغيره؟! .

ثم قال تعالى : ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ أي : على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه ، إن كان يحتاج إلى استشارة ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي : اعتمد على حول الله وقوّته ، متبرّئا من حولك وقوتك ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه ، اللاجئين إليه .

[١٦٠ - ٣] : ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ .

أي : إن يُمددكم الله بنصره ومعونته ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلو اجتمع عليكم من في أقطارها وما عندهم من العَدد والعُدد ، لأن الله لا مُغالب له ، وقد قهر العباد وأخذ بنواصيهم ، فلا تتحرك دابة إلا بإذنه ، ولا تسكن إلا بإذنه .

﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ ويكلكم إلى أنفسكم ﴿فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾ فلا بد أن تنخذلوا ولو أعانكم جميع الخلق .

وفي ضمن ذلك الأمر بالاستنصار بالله والاعتماد عليه ، والبراءة من الحول والقوة ، ولهذا قال : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بتقديم المعمول يؤذن بالحصر ، أي : على الله توكلوا لا على غيره ، لأنه قد عُلِمَ أنه هو الناصر وحده ، فالاعتماد عليه توحيد مُحَصِّل للمقصود ، والاعتماد على غيره شرك غير نافع لصاحبه ، بل ضار .

وفي هذه الآية الأمر بالتوكل على الله وحده ، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله .

[ ١٦١ - ٣ ] : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

الغلول هو : الكتمان من الغنيمة ، والخيانة في كل مال يتولّاه الإنسان وهو مُحرّم إجماعا ، بل هو من الكبائر ، كما تدُل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من النصوص[٤٨] ، فأخبر الله تعالى أنه ما ينبغي ولا يليق بنبي أن يغُل ، لأن الغلول -كما علمت- من أعظم الذنوب وأشر العيوب . وقد صان الله تعالى أنبياءه عن كُل ما يُدنسهم ويقدح فيهم ، وجعلهم أفضل العالمين أخلاقا ، وأطهرهم نفوسا ، وأزكاهم وأطيبهم ، ونزّههم عن كُل عيب ، وجعلهم محل رسالته ، ومعدن حكمته ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [ سُورة الأنعام ١٢٤] .

فبمُجرّد علم العبد بالواحد منهم ، يجزم بسلامتهم من كل أمر يقدح فيهم ، ولا يحتاج إلى دليل على ما قيل فيهم من أعدائهم ، لأن معرفته بنبُوتهم ، مُستلزم لدفع ذلك ، ولذلك أتى بصيغة يمتنع معها وجود الفعل منهم .

فقال : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ أي : يمتنع ذلك ويستحيل على من اختارهم الله لنبوته .

ثم ذكر الوعيد على من غَلّ ، فقال : ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي : يأت به حامله على ظهره ، حيوانا كان أو متاعا ، أو غير ذلك ، ليُعذّب به يوم القيامة ، ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ الغال وغيره ، كل يوفى أجره ووزره على مقدار كسبه ، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي : لا يزاد في سيئاتهم ، ولا يهضمون شيئا من حسناتهم ، وتأمل حسن هذا الاحتراز في هذه الآية الكريمة .

لما ذكر عقوبة الغال ، وأنه يأتي يوم القيامة بما غلّه ، ولمّا أراد أن يذكر توفيته وجزاءه ، وكان الاقتصار على الغال يوهم -بالمفهوم- أن غيره من أنواع العاملين قد لا يوفّون - أتى بلفظ عام جامع له ولغيره .

[ ١٦٢ : ١٦٣ - ٣ ] : ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ .

يُخبر تعالى أنه لا يستوي من كان قصده رضوان ربه ، والعمل على ما يرضيه ، كمن ليس كذلك ، ممن هو مُكب على المعاصي ، مُسخط لربه ، هذان لا يستويان في حُكم الله ، وحكمة الله ، وفي فطر عباد الله .

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة ١٨] .

ولهذا قال هنا : ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ﴾ أي : كل هؤلاء متفاوتون في درجاتهم ومنازلهم بحسب تفاوتهم في أعمالهم . فالمُتبعون لرضوان الله يسعون في نيل الدرجات العاليات ، والمنازل والغُرفات ،

---

(٤٨) * ومن هذه النُّصوص ، ما أخرجه مُسلم في صحيحه : ( كتاب الطهارة / باب : وجوب الطهارة للصلاة /ح ٢ ) . عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه دخل على ابن عامر يعوده وهو مريض ، فقال : ألا تدعو لي يا ابن عمر ؟ ، قال : إني سمعت رسول ﷺ يقول : لا تقبل صلاة بغير طهور ، ولا صدقة من غلول .
وكان ابن عامر عاملا على البصرة .

فيعطيهم الله من فضله وجوده على قدر أعمالهم ، والمُتَّبعون لمساخط الله يسعون في النزول في الدركات إلى أسفل سافلين ، كل على حسب عمله ، والله تعالى بصير بأعمالهم ، لا يخفى عليه منها شيء ، بل قد علمها ، وأثبتها في اللوح المحفوظ ، ووكل ملائكته الأمناء الكرام ، أن يكتبوها ويحفظوها ، ويضبطونها .

[١٦٤ – ٣] : ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ .

هذه المِنَّة التي امتن الله بها على عباده ، أكبر النعم ، بل أصلها ، وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم الذي أنقذهم الله به من الضلالة ، وعصمهم به من الهلكة ، فقال : ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعرفون نسبه ، وحاله ، ولسانه ، من قومهم وقبيلتهم ، ناصحا لهم ، مشفقا عليهم ، يتلو عليهم آيات الله ، يعلمهم ألفاظها ومعانيها .

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ من الشرك ، والمعاصي ، والرذائل ، وسائر مساوئ الأخلاق .

و﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ إما جنس الكتاب الذي هو القرآن ، فيكون قوله : ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ المُراد به الآيات الكونية ، أو المُراد بالكتاب – هُنا – الكتابة ، فيكون قد امتنَّ عليهم ، بتعليم الكتاب والكِتابة ، التي بها تُدرك العلوم وتُحفظ .

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ هي : السُّنَّة ، التي هي شقيقة القرآن ، أو وضع الأشياء مواضعها ، ومعرفة أسرار الشريعة .

فجمع لهم بين تعليم الأحكام ، وما به تنفَّذ الأحكام ، وما به تُدرك فوائدها وثمراتها ، ففاقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقين ، وكانوا من العلماء الربَّانيين ، ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ بعثة هذا الرسول ﴿لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم ، ولا ما يزكي النفوس ويطهرها ، بل ما زُين لهم جهلهم فعلوه ، ولو ناقض ذلك عُقول العالمين .

[١٦٥ : ١٦٨ – ٣] : ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾

هذا تسلية من الله تعالى لعباده المؤمنين ، حين أصابهم ما أصابهم يوم « أُحد » وقتل منهم نحو سبعين ، فقال الله : إنكم ﴿قَدْ أَصَبْتُم﴾ من المشركين ﴿مِّثْلَيْهَا﴾ يوم بدر فقتلتم سبعين من كبارهم وأسرتم سبعين ، فليهن الأمر ولتخف المُصيبة عليكم ، مع أنكم لا تستوون أنتم وهُم ، فإن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار .

﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا﴾ أي : من أين أصابنا ما أصابنا وهزمنا؟

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ حين تنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، فعودوا على أنفسكم باللوم ، واحذروا من الأسباب المُرْدِية .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فإياكم وسوء الظن بالله ، فإنه قادر على نصركم ، ولكن له أتم الحكمة في ابتلائكم ومصيبتكم . ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ [ سورة محمد ٤ ] .

ثم أخبر أن ما أصابهم يوم التقى الجمعان ، جمع المسلمين وجمع المشركين في « أُحد » من القتل والهزيمة ، أنه بإذنه وقضائه وقدره ، لا مرد له ولا بد من وقوعه .

والأمر القدري -إذا نفذ ، لم يبق إلا التسليم له ، وأنه قدره لحكم عظيمة وفوائد جسيمة ، وأنه ليتبين بذلك المؤمن من المنافق ، الذين لما أمروا بالقتال .

﴿وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي : ذبًّا عن دين الله ، وحماية له وطلبا لمرضاة الله .

﴿أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾ عن محارمكم وبلدكم ، إن لم يكن لكم نيّة صالحة ، فأبوا ذلك واعتذروا بأن ﴿قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾ أي : لو نعلم أنكم يصير بينكم وبينهم قتال لاتّبعناكم ، وهم كذبة في هذا ، قد علموا وتيقنوا وعلم كل أحد أن هؤلاء المشركين ، قد مُلِئوا من الحنق والغيظ على المُؤمنين بما أصابوا منهم ، وأنهم قد بذلوا أموالهم ، وجمعوا ما يقدرون عليه من الرجال والعُدد ، وأقبلوا في جيش عظيم قاصدين المؤمنين في بلدهم ، مُتحرّقين على قتالهم ، فمن كانت هذه حالهم ، كيف يتصور أنهم لا يصير بينهم وبين المُؤمنين قتال ؟ خُصوصا وقد خرج المُسلمون من المدينة وبرزوا لهم ، هذا من المُستحيل ، ولكن المُنافقين ظنوا أن هذا العذر ، يروج على المؤمنين ، قال تعالى : ﴿قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ﴾ أي : في تلك الحال التي تركوا فيها الخروج مع المُؤمنين ﴿أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ وهذه خاصة المنافقين ، يُظهرون بكلامهم وفعالهم ما يبطنون ضده في قلوبهم وسرائرهم ، ومنه قولهم : ﴿لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾ فإنهم قد علموا وقوع القتال .

ويُستدل بهذه الآية على قاعدة « ارتكاب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما ، وفعل أدنى المصلحتين ، للعجز عن أعلاهما » ؛ لأن المنافقين أُمروا أن يقاتلوا للدين ، فإن لم يفعلوا فللمُدافعة عن العيال والأوطان ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾ فيبديه لعباده المؤمنين ، ويعاقبهم عليه .

ثم قال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾ أي : جمعوا بين التخلف عن الجهاد ، وبين الاعتراض والتكذيب بقضاء الله وقدره ، قال الله ردًّا عليهم : ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ﴾ أي : ادفعوا ﴿عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ إنهم لو أطاعوكم ما قُتلوا ، لا تقدرون على ذلك ولا تستطيعونه .

وفي هذه الآيات دليل على أن العبد قد يكون فيه خصلة كفر وخصلة إيمان ، وقد يكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الأخرى .

[ ١٦٩ : ١٧١ – ٣ ] : ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

هذه الآيات الكريمة فيها فضيلة الشهداء وكرامتهم ، وما مَنّ الله عليهم به من فضله وإحسانه ، وفي ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم ، وتنشيطهم للقتال في سبيل الله والتعرّض للشهادة ، فقال : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي : في جهاد أعداء الدّين ، قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله ﴿أَمْوَٰتًا﴾ أي : لا يخطر ببالك وحسبانك أنهم ماتوا وفقدوا ، وذهبت عنهم لذّة الحياة الدنيا والتمتع بزهرتها ، الذي يُحذر من فواته ، من جُبن عن القتال ، وزُهد في الشهادة .

﴿بَلْ﴾ قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المُتنافسون ، فهم ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في دار كرامته .

ولفظ : ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يقتضي علو درجتهم ، وقربهم من ربهم .

﴿يُرْزَقُونَ﴾ من أنواع النعيم الذي لا يَعلم وصفه ، إلا من أنعم به عليهم ، ومع هذا ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي : مغتبطين بذلك ، قد قرّت به عيونهم ، وفرحت به نفوسهم ، وذلك لحسنه وكثرته ، وعظمته ، وكمال اللذّة في الوصول إليه ، وعدم المُنغّص ، فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق ، ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله : فتم لهم النعيم والسرور ، وجعلوا ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي : يُبشّر بعضهم بعضا ، بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم ، وأنهم سينالون ما نالوا .

﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي : يُستبشّرون بزوال المحذور عنهم وعن إخوانهم المستلزم كمال السرور .

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أي : يُهنّئ بعضهم بعضا ، بأعظم مهنأ به ، وهو : نعمة ربهم ، وفضله ، وإحسانه ، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بل ينميه ويشكره ، ويزيده من فضله ، ما لا يصل إليه سعيهم .

وفي هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم ، وفيه تلاقي أرواح أهل الخير ، وزيارة بعضهم بعضا ، وتبشير بعضهم بعضا .

[ ١٧٢ : ١٧٥ - ٣] : ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ .

لما رجع النبي ﷺ من « أُحد » إلى المدينة ، وسمع أن أبا سفيان ومن معه من المُشركين قد همُّوا بالرجوع إلى المدينة ، ندب أصحابه إلى الخروج ، فخرجوا -على ما بهم من الجراح - استجابة لله ولرسوله ، وطاعة لله ولرسوله ، فوصلوا إلى « حمراء الأسد » وجاءهم من جاءهم وقال لهم : ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ وهمُّوا باستئصالكم ، تخويفا لهم وترهيبا ، فلم يزدهم ذلك إلا إيمانًا بالله واتكالًا عليه .

﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي : كافينا كل ما أهمنا ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ المُفوَّض إليه تدبير عباده ، والقائم بمصالحهم .

﴿فَٱنقَلَبُوا۟﴾ أي : رجعوا ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ .

وجاء الخبر المشركين أن الرسول وأصحابه قد خرجوا إليكم ، وندم من تخلَّف منهم ، فألقى اللّه الرعب في قلوبهم ، واستمرُّوا راجعين إلى مكة ، ورجع المؤمنون بنعمة من اللّه وفضل ، حيث مَنَّ عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة والاتّكال على ربهم ، ثم إنه قد كتب لهم أجر غزاة تامة ، فبسبب إحسانهم بطاعة ربِّهم ، وتقواهم عن معصيته ، لهم أجر عظيم ، وهذا فضل اللّه عليهم .

ثم قال تعالى : ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أي : إن ترهيب من رهب من المشركين ، وقال : إنهم جمعوا لكم ، داع من دُعاة الشيطان ، يخوِّف أولياءه الذين عدم إيمانهم ، أو ضعف .

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي : فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان ، فإن نواصيهم بيد اللّه ، لا يتصرفون إلا بقدره ، بل خافوا اللّه الذي ينصر أولياءه الخائفين منه المُستجيبين لدعوته .

وفي هذه الآية وجوب الخوف من اللّه وحده ، وأنه من لوازم الإيمان ، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من اللّه ، والخوف المحمود : ما حجز العبد عن محارم اللّه .

[ ١٧٦ : ١٧٧ - ٣] : ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

كان النبي ﷺ حريصًا على الخلق ، مجتهدا في هدايتهم ، وكان يحزن إذا لم يهتدوا ، قال اللّه تعالى : ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ من شدَّة رغبتهم فيه ، وحرصهم عليه ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ فالله ناصر دينه ، ومُؤيِّد رسوله ، ومُنفذ أمره من دونهم ، فلا تُبالهم ولا تحفل بهم ، إنَّما يضرّون ويسعون في ضرر أنفسهم ، بفوات الإيمان في الدنيا ، وحصول العذاب الأليم في الأخرى ، من هوانهم على اللّه وسقوطهم من عينه ، وإرادته أن لا يجعل لهم نصيبا في الآخرة من ثوابه ، خذلهم فلم يوفقهم لما وفَّق له أولياءه ومن أراد به خيرا ، عدلا منه وحكمة ، لعلمه بأنهم غير زاكين على الهدى ، ولا قابلين للرشاد ، لفساد أخلاقهم وسوء قصدهم .

ثم أخبر أن الذين اختاروا الكفر على الإيمان ، ورغبوا فيه رغبة من بذل ما يحب من المال ، في شراء ما يحب من السلع ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بل ضرر فعلهم يعود على أنفسهم ، ولهذا قال : ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وكيف يضرون اللّه شيئا ، وهم قد زهدوا أشد الزهد في الإيمان ، ورغبوا كل الرغبة بالكفر بالرحمن؟! فالله غني عنهم ، وقد قيَّض لدينه من عباده الأبرار الأزكياء سواهم ، وأعدَّ له - ممَّن ارتضاه لنصرته- أهل البصائر والعقول ، وذوي الألباب من الرجال الفُحول ، قال اللّه تعالى : ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء ١٠٧] الآيات .

[١٧٨ - ٣] : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ .

أي : ولا يظن الذين كفروا بربِّهم ونابذوا دينه ، وحاربوا رسوله أن تركنا إيَّاهم في هذه الدنيا ، وعدم استئصالنا لهم ، وإملاءنا لهم خير لأنفسهم ، ومحبّة منّا لهم . كلا ، ليس الأمر كما زعموا ، وإنما ذلك لشر يريده الله بهم ، وزيادة عذاب وعقوبة إلى عذابهم ، ولهذا قال : ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ فالله تعالى يُملي للظالم ، حتى يزداد طغيانه ، ويترادف كُفرانه ، حتى إذا أخذه أخذه أخذ عزيز مُقتدر ، فليحذر الظالمون من الإمهال ، ولا يظُنوا أن يفوتوا الكبير المُتعال .

[١٧٩ – ٣] : ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

أي : ما كان في حكمة الله أن يترك المُؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط وعدم التميز حتى يَميز الخبيث من الطيب ، والمُؤمن من المنافق ، والصادق من الكاذب .

ولم يكن في حكمته أيضًا أن يطلع عباده على الغيب الذي يعلمه من عباده ، فاقتضت حكمته الباهرة أن يبتلي عباده ، ويفتنهم بما به يتميز الخبيث من الطيب ، من أنواع الابتلاء والامتحان ، فأرسل الله رسله ، وأمر بطاعتهم ، والانقياد لهم ، والإيمان بهم ، ووعدهم على الإيمان والتقوى الأجر العظيم . فانقسم الناس بحسب اتباعهم للرسل قسمين : مُطيعين وعاصين ، ومُؤمنين ومُنافقين ، ومُسلمين وكافرين ، ليُرتِّب على ذلك الثواب والعقاب ، وليظهر عدله وفضله ، وحكمته لخلقه .

[١٨٠ – ٣] : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ .

أي : ولا يظن الذين يبخلون ، أي : يمنعون ما عندهم ممَّا آتاهم الله من فضله ، من المال والجاه والعلم ، وغير ذلك مما منحهم الله ، وأحسن إليهم به ، وأمرهم ببذل ما لا يضرهم منه لعباده ، فبخلوا بذلك ، وأمسكوه ، وضَنوا به على عباد الله ، وظنُّوا أنه خير لهم ، بل هو شر لهم ، في دينهم ودنياهم ، وعاجلهم وآجلهم .

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ أي : يجعل ما بخلوا به طوقا في أعناقهم ، يعذبون به كما ورد في الحديث الصحيح : « إن البخيل يُمثَّل له ماله يوم القيامة شُجاعا أقرع ، له زبيبتان ، يأخذ بلهزمتيه يقول : أنا مالك ، أنا كنزك » . وتلا رسول الله ﷺ مِصداق ذلك ، هذه الآية[٤٩] .

---

(٤٩) * أخرجه البُخاري : ( كتاب الزَّكاة/ باب : إثم مانع الزَّكاة/ ح ١٤٠٣ ) ، ( كتاب تفسير القُرآن/ باب : ( ولا يحسبنَّ الذين يبخلون بما أتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم/ ح ٤٥٦٥ ) ، ( كتاب تفسير القُرآن/ باب : قوله : ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [ سُورة التوبة٣٤ ]/ ح ٤٦٥٩ ) ، ( كتاب الحيل/ باب : في الزَّكاة وأن لا يُفرِّق بين مُجتمع ولا يجمع بين مُتفرِّق خشية الصَّدقة/ ح ٦٩٥٧ ) . من حديث أبي هُريرة .
واللهزم : عظمٌ ناتئ في اللحى تحت الحنك ، وهما لهزمتان .

فهؤلاء حسبوا أن بخلهم نافعهم، ومجد عليهم، فانقلب عليهم الأمر، وصار من أعظم مضارهم، وسبب عقابهم.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو تعالى مالك الملك، وترد جميع الأملاك إلى مالكها، وينقلب العباد من الدنيا ما معهم درهم ولا دينار، ولا غير ذلك من المال.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [سورة مريم ٤٠]. وتأمَّل كيف ذكر السبب الابتدائي والسبب الغائي، الموجب كل واحد منهما أن لا يبخل العبد بما أعطاه الله، أخبر أولا: أن الذي عنده وفي يده فضل من الله ونعمة، ليس ملكًا للعبد، بل لولا فضل الله عليه وإحسانه، لم يصل إليه منه شيء، فمنعه لذلك منع لفضل الله وإحسانه؛ ولأن إحسانه موجب للإحسان إلى عبيده كما قال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [سورة القصص ٧٧].

فمن تحقَّق أن ما بيده، فضل من الله، لم يمنع الفضل الذي لا يضره، بل ينفعه في قلبه وماله، وزيادة إيمانه، وحفظه من الآفات.

ثم ذكر ثانيا: أن هذا الذي بيد العباد كلها ترجع إلى الله، ويرثها تعالى، وهو خير الوارثين، فلا معنى للبخل بشيء هو زائل عنك منتقل إلى غيرك.

ثم ذكر ثالثا: السبب الجزائي، فقال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾فإذا كان خبيرا بأعمالكم جميعها - ويستلزم ذلك الجزاء الحسن على الخيرات، والعُقوبات على الشر- لم يتخلَّف من في قلبه مثقال ذرة من إيمان عن الإنفاق الذي يجزى به الثواب، ولا يرضى بالإمساك الذي به العقاب.

[١٨١: ١٨٢ - ٣]: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

يُخبر تعالى، عن قول هؤلاء المُتمرِّدين، الذين قالوا أقبح المقالة وأشنعها، وأسمجها، فأخبر أنه قد سمع ما قالوه وأنه سيكتبه ويحفظه، مع أفعالهم الشنيعة، وهو: قتلهم الأنبياء الناصحين، وأنه سيُعاقبهم على ذلك أشد العُقوبة، وأنه يُقال لهم - بدل قولهم إن الله فقير ونحن أغنياء- ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ المحرق النافذ من البدن إلى الأفئدة، وأن عذابهم ليس ظلما من الله لهم، فإنه ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فإنه مُنزه عن ذلك، وإنَّما ذلك بما قدَّمت أيديهم من المخازي والقبائح، التي أوجبت استحقاقهم العذاب، وحرمانهم الثواب.

وقد ذكر المُفسِّرون أن هذه الآية نزلت في قوم من اليهود، تكلموا بذلك، وذكروا منهم «فنحاص بن عازوراء» من رؤساء علماء اليهود في المدينة، وأنه لما سمع قول الله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [سورة البقرة ٢٤٥]، ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [سورة الحديد ١٨]. قال: -على وجه التَّكبر والتجرهم- هذه المقالة قبَّحه الله، فذكرها الله عنهم، وأخبر أنه ليس ببدع من شنائعهم، بل قد سبق لهم من

الشنائع ما هو نظير ذلك ، وهو : ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ هذا القيد يُراد به ، أنهم تجرَّأوا على قتلهم مع علمهم بشناعته ، لا جهلًا وضلالًا ، بل تمردًا وعنادًا .

[ ١٨٣ : ١٨٤ - ٣ ] : ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ .

يُخبر تعالى عن حال هؤلاء المُفترين القائلين : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ أي : تقدم إلينا وأوصى ، ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ فجمعوا بين الكذب على الله ، وحصر آية الرسل بما قالوه ، من هذا الإفك المُبين ، وأنهم إن لم يؤمنوا برسول لم يأتهم بقُربان تأكله النار ، فهم -في ذلك- مُطيعون لربهم ، مُلتزمون عهده ، وقد علم أن كل رسول يرسله الله ، يؤيِّده من الآيات والبراهين ، ما على مثله آمن البشر ، ولم يقصرها على ما قالوه ، ومع هذا فقد قالوا إفكا لم يلتزموه ، وباطلا لم يعملوا به .

ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لهم : ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالات على صدقهم ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ بأن أتاكم بقُربان تأكله النار ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي : في دعواهم الإيمان برسول يأتي بقُربان تأكله النار ، فقد تبيَّن بهذا كذبهم ، وعنادهم وتناقضهم . ثم سلَّى رسوله ﷺ ، فقال : ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي : هذه عادة الظالمين ، ودأبهم الكُفر بالله ، وتكذيب رسل الله وليس تكذيبهم لرسل الله ، عن قصور ما أتوا به ، أو عدم تبين حُجة ، بل قد ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي : الحجج العقليّة ، والبراهين النقليّة ، ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ أي : الكُتب المزبورة المُنزَّلة من السماء ، التي لا يمكن أن يأتي بها غير الرسل ، ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ للأحكام الشرعية ، وبيان ما اشتملت عليه من المحاسن العقليّة ، ومُنير أيضًا للأخبار الصادقة ، فإذا كان هذا عادتهم في عدم الإيمان بالرسل ، الذين هذا وصفهم ، فلا يحزنك أمرهم ، ولا يهمنك شأنهم .

ثم قال تعالى :

[١٨٥ - ٣] : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ .

هذه الآية الكريمة فيها التزهيد في الدنيا بفنائها وعدم بقائها ، وأنها متاع الغرور ، تفتن بزخرفها ، وتخدع بغرورها ، وتغر بمحاسنها ، ثم هي مُنتقلة ، ومُنتقل عنها إلى دار القرار ، التي توفَّى فيها النفوس ما عملت في هذه الدار ، من خير وشر .

﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ أي : أُخرج ، ﴿عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ﴾ أي : حصل له الفوز العظيم من العذاب الأليم ، والوصول إلى جنات النعيم ، التي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ومفهوم الآية ، أن من لم يُزحزح عن النار ويدخل الجنة ، فإنه لم يفز ، بل قد شقي الشقاء الأبدي ،

وابتلي بالعذاب السرمدي . وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى نعيم البرزخ وعذابه ، وأن العاملين يُجزون فيه بعض الجزاء مما عملوه ، ويقدم لهم أنموذج مما أسلفوه ، يفهم هذا من قوله : ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي : توفية الأعمال التامة ، إنما يكون يوم القيامة ، وأما ما دون ذلك فيكون في البرزخ ، بل قد يكون قبل ذلك في الدنيا كقوله تعالى : ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ [ سورة السجدة ٢١ ] .

[ ١٨٦ – ٣ ] : ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ .

يُخبر تعالى ويُخاطب المُؤمنين أنهم سيبتلون في أموالهم من النفقات الواجبة والمُستحبّة ، ومن التعريض لإتلافها في سبيل اللّه ، وفي أنفسهم من التكليف بأعباء التكاليف الثقيلة على كثير من الناس ، كالجهاد في سبيل اللّه ، والتعرض فيه للتعب والقتل والأسر والجراح ، وكالأمراض التي تصيبه في نفسه ، أو فيمن يحب .

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ من الطعن فيكم ، وفي دينكم وكتابكم ورسولكم ، وفي إخباره لعباده المؤمنين بذلك ، عِدَّة فوائد : **منها** : أن حكمته تعالى تقتضي ذلك ، ليتميّز المؤمن الصادق من غيره . **ومنها** : أنه تعالى يُقدّر عليهم هذه الأمور ، لما يريده بهم من الخير ليُعلي درجاتهم ، ويكفر من سيئاتهم ، وليزداد بذلك إيمانهم ، ويتم به إيقانهم ، فإنه إذا أخبرهم بذلك ووقع كما أخبر ﴿قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [ سورة الأحزاب ٢٢ ] . **ومنها** : أنه أخبرهم بذلك لتتوطّن نفوسهم على وقوع ذلك ، والصبر عليه إذا وقع ؛ لأنهم قد استعدُّوا لوقوعه ، فيهون عليهم حمله ، وتخف عليهم مؤنته ، ويلجأون إلى الصبر والتقوى ، ولهذا قال : ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ . أي : إن تصبروا على ما نالكم في أموالكم وأنفسكم ، من الابتلاء والامتحان وعلى أذية الظالمين ، وتتّقوا اللّه في ذلك الصبر بأن تنووا به وجه اللّه والتقرب إليه ، ولم تتعدوا في صبركم الحد الشرعي من الصبر في موضع لا يحل لكم فيه الاحتمال ، بل وظيفتكم فيه الانتقام من أعداء اللّه .

﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي : من الأمور التي يعزم عليها ، وينافس فيها ، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم والهمم العالية كما قال تعالى : ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [ سورة فُصّلت ٣٥ ] .

[ ١٨٧ : ١٨٨ – ٣ ] : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

الميثاق هو العهد الثقيل المؤكّد ، وهذا الميثاق أخذه اللّه تعالى على كل من أعطاه اللّه الكُتب وعلّمه العلم ، أن يبيّن للناس ما يحتاجون إليه مما علمه اللّه ، ولا يكتمهم ذلك ، ويبخل عليهم به ،

خُصوصا إذا سألوه، أو وقع ما يوجب ذلك، فإن كل من عنده علم يجب عليه في تلك الحال أن يبيّنه، ويوضّح الحق من الباطل.

فأما المُوفَّقون، فقاموا بهذا أتم القيام، وعلَّموا الناس ممّا علَّمهم اللّه، ابتغاء مرضاة ربهم، وشفقة على الخلق، وخوفا من إثم الكتمان.

وأمّا الذين أوتوا الكتاب، من اليهود والنصارى ومن شابههم، فنبذوا هذه العُهود والمواثيق وراء ظهورهم، فلم يعبأوا بها، فكتموا الحق، وأظهروا الباطل، تجرَّؤا على محارم اللّه، وتهاونوا بحُقوق اللّه، وحُقوق الخلق، واشتروا بذلك الكتمان ثمنا قليلا، وهو ما يحصل لهم إن حصل من بعض الرياسات، والأموال الحقيرة، من سفَلَتِهم المُتَّبعين أهواءهم، المُقدِّمين شهواتهم على الحق.

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ لأنه أخس العوض، والذي رَغبوا عنه - وهو بيان الحق، الذي فيه السعادة الأبديّة، والمصالح الدينيّة والدنيويّة - أعظم المطالب وأجلها، فلم يختاروا الدنيء الخسيس ويتركوا العالي النفيس، إلا لسوء حظِّهم وهوانهم، وكونهم لا يصلحون لغير ما خُلِقوا له.

ثم قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا﴾ أي: من القبائح والباطل القولي والفعلي.

﴿وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ أي: بالخير الذي لم يفعلوه، والحق الذي لم يقولوه، فجمعوا بين فعل الشر وقوله، والفرح بذلك ومحبّة أن يُحمدوا على فعل الخير الذي ما فعلوه. ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾ أي: بمحل نجوة منه وسلامة، بل قد استحقوه، وسيصيرون إليه، ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ويدخل في هذه الآية الكريمة أهل الكتاب الذين فرحوا بما عندهم من العلم، ولم ينقادوا للرسول، وزعموا أنهم هم المُحقُّون في حالهم ومقالهم، وكذلك كل من ابتدع بدعة قوليّة أو فعليّة، وفرح بها، ودعا إليها، وزعم أنه مُحِقّ وغيره مُبْطِل، كما هو الواقع من أهل البدع.

ودلت الآية بمفهومها على أن من أحب أن يُحمد ويُثنى عليه بما فعله من الخير واتِّباع الحق، إذا لم يكن قصده بذلك الرياء والسمعة، أنه غير مذموم، بل هذا من الأُمور المطلُوبة، التي أخبر اللّه أنه يجزي بها المُحسنين له الأعمال والأقوال، وأنه جازى بها خواص خلقه، وسألوها منه، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [سورة الشعراء ٨٤] وقال: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة الصّافات ٧٩- ٨٠]. وقد قال عباد الرحمن: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [سورة الفُرقان ٧٤]. وهي من نِعم الباري على عبده، ومِنَنِه التي تحتاج إلى الشكر.

[١٨٩ - ٣]: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: هو المالك للسماوات والأرض وما فيهما، من سائر أصناف الخلق، المُتصرِّف فيهم بكمال القدرة، وبديع الصنعة، فلا يمتنع عليه منهم أحد، ولا يُعجزه أحد.

[١٩٠: ١٩٤ - ٣]: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي

ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾

يُخبر تعالى : ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وفي ضمن ذلك حث العباد على التفكُّر فيها ، والتبصّر بآياتها ، وتدبّر خلقها ، وأبهم قوله : آيات ولم يقل : « على المطلب الفلاني » إشارة لكثرتها وعمومها ، وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ما يبهر الناظرين ، ويقنع المتفكرين ، ويجذب أفئدة الصادقين ، ويُنبه العقول النيّرة على جميع المطالب الإلهيّة ، فأما تفصيل ما اشتملت عليه ، فلا يمكن لمخلوق أن يحصره ، ويحيط ببعضه ، وفي الجُملة فما فيها من العظمة والسعة ، وانتظام السير والحركة ، يدل على عظمة خالقها ، وعظمة سلطانه وشمول قدرته .

وما فيها من الإحكام والإتقان ، وبديع الصنع ، ولطائف الفعل ، يدل على حكمة اللّه ووضعه الأشياء مواضعها ، وسعة علمه . وما فيها من المنافع للخلق ، يدل على سعة رحمة اللّه ، وعُموم فضله ، وشمول بره ، ووجوب شكره .

وكل ذلك يدل على تعلق القلب بخالقها ومبدعها ، وبذل الجهد في مرضاته ، وأن لا يشرك به سواه ، ممن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

وخص اللّه بالآيات أولي الألباب ، وهم أهل العقول ؛ لأنهم هم المنتفعون بها ، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم .

ثم وصف أولي الألباب بأنهم ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ في جميع أحوالهم : ﴿وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب ، ويدخل في ذلك الصلاة قائما ، فإن لم يستطع فقاعدا ، فإن لم يستطع فعلى جنب[٥٠] ، وأنهم ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي : ليستدلُّوا بها على المقصود منها ، ودل هذا على أن التفكُّر عبادة من صفات أولياء اللّه العارفين ، فإذا تفكروا بها ، عرفوا أن اللّه لم يخلقها عبثا ، فيقولون : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ عن كل ما لا يليق بجلالك ، بل خلقتها بالحق وللحق ، مُشتملة على الحق .

﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ بأن تعصمنا من السيئات ، وتوفّقنا للأعمال الصالحات ، لننال بذلك النجاة من النار .

---

(٥٠) * عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : كانت بي بواسير فسألت النّبي ﷺ عن الصّلاة ، فقال : صلِّ قائمًا ، فإنْ لم تستطع فقاعدًا ، فإنْ لم تستطع فعلى جنب . أخرجه البُخاري في صحيحه : ( كتاب تقصير الصّلاة/ باب : إذا لم يُطِق قاعدًا صلى على جنب/ ح ١١١٧ ) .

ويتضمن ذلك سؤال الجنة ، لأنهم إذا وقاهم الله عذاب النار حصلت لهم الجنة ، ولكن لما قام الخوف بقلوبهم ، دعوا الله بأهم الأمور عندهم .

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ أي : لحصوله على السخط من الله ، ومن ملائكته ، وأوليائه ، ووقوع الفضيحة التي لا نجاة منها ، ولا منقذ منها ، ولهذا قال : ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ ينقذونهم من عذابه ، وفيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم .

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ وهو محمد ﷺ ، أي : يدعو الناس إليه ، ويرغبهم فيه ، في أصوله وفروعه .

﴿فَـَٔامَنَّا﴾ أي : أجبناه مُبادرة ، وسارعنا إليه ، وفي هذا إخبار منهم بمِنَّة الله عليهم ، وتبجُّح بنعمته ، وتوسُّل إليه بذلك ، أن يغفر ذنوبهم ويكَفر سيئاتهم ، لأن الحسنات يُذهبن السيئات ، والذي مَنَّ عليهم بالإيمان ، سيَمُنّ عليهم بالأمان التام .

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ يتضمَّن هذا الدعاء التوفيق لفعل الخير ، وترك الشر ، الذي به يكون العبد من الأبرار ، والاستمرار عليه ، والثبات إلى الممات . ولما ذكروا توفيق الله إيَّاهم للإيمان ، وتوسُّلهم به إلى تمام النعمة ، سألوه الثواب على ذلك ، وأن ينجز لهم ما وعدهم به على ألسنة رسله من النصر ، والظهور في الدنيا ، ومن الفوز برضوان الله وجنَّته في الآخرة ، فإنه تعالى لا يُخلف الميعاد ، فأجاب الله دعاءهم ، وقَبِل تضرُّعهم ، فلهذا قال :

[١٩٥ – ٣] : ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾

أي : أجاب الله دعاءهم ، دعاء العبادة ، ودعاء الطلب ، وقال : إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر وأنثى ، فالجميع سَيَلْقَون ثواب أعمالهم كاملا موفرا ، ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي : كلكم على حد سواء في الثواب والعقاب .

﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟﴾ فجمعوا بين الإيمان والهجرة ، ومُفارقة المحبوبات من الأوطان والأموال ، طلبا لمرضاة ربهم ، وجاهدوا في سبيل الله ، ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الذي يُعطي عبده الثواب الجزيل على العمل القليل .

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ ممَّا لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فمن أراد ذلك ، فليطلبه من الله بطاعته والتقرب إليه ، بما يقدر عليه العبد .

[١٩٦ : ١٩٨ – ٣] : ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا

مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ .

وهذه الآية المقصود منها التسلية عمّا يحصُل للذين كفروا من متاع الدنيا ، وتنعمهم فيها ، وتقلُّبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات ، وأنواع العز ، والغلبة في بعض الأوقات ، فإن هذا كله ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ ليس له ثبوت ولا بقاء ، بل يتمتّعون به قليلا ، ويُعذّبون عليه طويلا ، هذه أعلى حالة تكون للكافر ، وقد رأيت ما تؤول إليه .

وأما المُتقون لربّهم ، المؤمنون به - فمع ما يحصّل لهم من عز الدنيا ونعيمها ﴿رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ .

فلو قُدّر أنهم في دار الدنيا ، قد حصل لهم كل بؤس وشدة ، وعناء ومشقة ، لكان هذا بالنسبة إلى النعيم المقيم ، والعيش السليم ، والسرور والحبور ، والبهجة نزرا يسيرا ، ومنحة في صورة محنة ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ وهم الذين برّت قلوبهم ، فبرت أقوالهم وأفعالهم ، فأثابهم البّر الرحيم من برّه أجرا عظيما ، وعطاء جسيما ، وفوزا دائما .

[ ١٩٩ : ٢٠٠ - ٣ ] : ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

أي : وإن من أهل الكتاب طائفة موفّقة للخير ، يؤمنون بالله ، ويؤمنون بما أُنزل إليكم وما أُنزل إليهم ، وهذا الإيمان النافع لا كمن يؤمن ببعض الرسل والكُتب ، ويكفر ببعض .

ولهذا - لما كان إيمانهم عاما حقيقيا- صار نافعا ، فأحدث لهم خشية الله ، وخضوعهم لجلاله الموجب للانقياد لأوامره ونواهيه ، والوقوف عند حدوده . وهؤلاء أهل الكتاب والعلم على الحقيقة ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [ سورة فاطر ٢٨ ] ، ومن تمام خشيتهم لله ، أنهم ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فلا يُقدّمون الدنيا على الدين كما فعل أهل الانحراف الذين يكتمون ما أنزل الله ويشترون به ثمنا قليلا ، وأما هؤلاء فعرفوا الأمر على الحقيقة ، وعلموا أن من أعظم الخُسران ، الرضا بالدُّون عن الدِّين ، والوقوف مع بعض حظوظ النفس السُّفلية ، وترك الحق الذي هو : أكبر حظ وفوز في الدنيا والآخرة ، فآثروا الحق وبيّنوه ، ودعوا إليه ، وحذّروا عن الباطل ، فأثابهم الله على ذلك بأن وعدهم الأجر الجزيل ، والثواب الجميل ، وأخبرهم بقُربه ، وأنه سريع الحساب ، فلا يستبطؤون ما وعدهم الله ، لأن ما هو آت مُحقّقٌ حصوله ، فهو قريب .

ثم حضّ المؤمنين على ما يوصّلهم إلى الفلاح - وهو : الفوز والسعادة والنجاح ، وأن الطريق الموصّل إلى ذلك لزوم الصبر ، الذي هو حبس النفس على ما تكرهه ، من ترك المعاصي ، ومن الصبر على المصائب ، وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس ، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك . والمُصابرة أي المُلازمة والاستمرار على

ذلك ، على الدوام ، ومُقاومة الأعداء في جميع الأحوال .

والمُرابطة : وهي لُزوم المحل الذي يخاف من وصول العدو منه ، وأن يراقبوا أعداءهم ، ويمنعوهم من الوصول إلى مقاصدهم ، لعلهم يفلحون : يفوزون بالمحبوب الديني والدنيوي والأخروي ، وينجون من المكروه كذلك .

فعُلِمَ من هذا أنه لا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمُصابرة والمُرابطة المذكورات ، فلم يفلح من أفلح إلا بها ، ولم يفُت أحدا الفلاح إلا بالإخلال بها أو ببعضها . والله الموفِّق ولا حول ولا قوة إلا به .

تم تفسير « سورة آل عمران » والحمد للّه على نعمته ، ونسأله تمام النعمة .

* * *

## ( ٤ ) تفسير سورة النساء

### وهي مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

[١ - ٤] : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

افتتح تعالى هذه السورة بالأمر بتقواه ، والحث على عبادته ، والأمر بصلة الأرحام ، والحث على ذلك ، وبيَّن السبب الدَّاعي الموجب لكل من ذلك ، وأن الموجب لتقواه لأنه ﴿رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ ورزقكم ، وربَّاكم بنعمه العظيمة ، التي من جُملتها خلقكم ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ لِيُناسبها ، فيسكُن إليها ، وتتم بذلك النعمة ، ويحصُل به السرور ، وكذلك من الموجب الداعي لتقواه تساؤلكمْ به وتعظيمكم ، حتى إنكم إذا أردتم قضاء حاجاتكم ومآربكم ، توسَّلتم لها بالسؤال بالله . فيقول من يريد ذلك لغيره : أسألك بالله أن تفعل الأمر الفلاني ؛ لعلمه بما قام في قلبه من تعظيم الله الداعي أن لا يرد من سأله بالله ، فكما عظَّمتُموه بذلك فلتُعَظِّمُوه بعبادته وتقواه .

وكذلك الإخبار بأنه رقيب ، أي : مُطَّلِعٌ على العباد في حال حركاتهم وسكونهم ، وسرِّهم وعلنهم ، وجميع أحوالهم ، مراقبا لهم فيها ممَّا يوجب مُراقبته ، وشدَّة الحياء منه ، بلزوم تقواه .

وفي الإخبار بأنه خلقهم من نفس واحدة ، وأنه بثَّهم في أقطار الأرض ، مع رجوعهم إلى أصل واحد - ليعطف بعضهم على بعض ، ويُرقِّق بعضهم على بعض . وقرن الأمر بتقواه بالأمر ببر الأرحام والنهي عن قطيعتها ، ليؤكد هذا الحق ، وأنه كما يلزم القيام بحق الله ، كذلك يجب القيام بحقوق الخلق ، خصوصا الأقربين منهم ، بل القيام بحقوقهم هو من حق الله الذي أمر به .

وتأمَّل كيف افتتح هذه السورة بالأمر بالتقوى ، وصلة الأرحام والأزواج عموما ، ثم بعد ذلك فصَّل هذه الأمور أتم تفصيل ، من أول السورة إلى آخرها . فكأنها مبنية على هذه الأمور المذكورة ، مُفصِّلة لما أُجمل منها ، موضِّحة لما أبهم .

وفي قوله : ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ تنبيه على مُراعاة حق الأزواج والزوجات والقيام به ، لكون الزوجات مخلوقات من الأزواج ، فبينهم وبينهن أقرب نسب وأشد اتصال ، وأقرب علاقة .

[٢ - ٤] : ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾

وقوله تعالى : ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا

كَبِيرًا﴾ هذا أوّل ما أوصى به من حقوق الخلق في هذه السورة ، وهم اليتامى الذين فقدوا آباءهم الكافلين لهم ، وهم صغار ضعاف لا يقومون بمصالحهم . فأمر الرءوف الرحيم عباده أن يُحسنوا إليهم ، وأن لا يقربوا أموالهم إلا بالتي هي أحسن ، وأن يؤتوهم أموالهم إذا بلغوا ورشدوا ، كاملة موفرة ، وأن لا ﴿تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ﴾ الذي هو أكل مال اليتيم بغير حق ، ﴿بِالطَّيِّبِ﴾ وهو الحلال الذي ما فيه حرج ولا تبعة .

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ أي : مع أموالكم ، ففيه تنبيه لقبح أكل مالهم بهذه الحالة ، التي قد استغنى بها الإنسان بما جعل الله له من الرزق في ماله .

فمن تجرأ على هذه الحالة ، فقد أتى ﴿حُوبًا كَبِيرًا﴾ أي : إثمًا عظيمًا ، ووزرًا جسيمًا .

ومن استبدال الخبيث بالطيب أن يأخذ الولي من مال اليتيم النفيس ، ويجعل بدله من ماله الخسيس .

وفيه الولاية على اليتيم ، لأن مِنْ لازم إيتاء اليتيم ماله ، ثُبوت ولاية المؤتي على ماله .

وفيه الأمر بإصلاح مال اليتيم ، لأن تمام إيتائه ماله حفظه والقيام به بما يُصلحه ويُنميه وعدم تعريضه للمخاوف والأخطار .

[ ٣: ٤ – ٤] : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ۝ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾

أي : وإن خفتم ألا تعدلوا في يتامى النساء اللاتي تحت حجوركم وولايتكم وخفتم أن لا تقوموا بحقّهن لعدم محبّتكم إيّاهن ، فاعدلوا إلى غيرهن ، وانكحوا ﴿مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي : ما وقع عليهن اختياركم من ذوات الدين ، والمال ، والجمال ، والحسب ، والنسب ، وغير ذلك من الصفات الداعية لنكاحهن ، فاختاروا على نظركم ، ومن أحسن ما يُختار من ذلك صفة الدين كما قال النبي ﷺ : « تُنكح المرأة لأربع لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يمينك » .[٥١]

وفي هذه الآية – أنه ينبغي للإنسان أن يختار قبل النكاح ، بل وقد أباح له الشارع النظر إلى مَنْ يُريد تزوجها ليكون على بصيرة من أمره .

ثم ذكر العدد الذي أباحه من النساء فقال : ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ أي : من أحب أن يأخذ اثنتين فليفعل ، أو ثلاثا فليفعل ، أو أربعا فليفعل ، ولا يزيد عليها ، لأن الآية سيقت لبيان الامتنان ، فلا يجوز الزيادة على غير ما سمّى الله تعالى إجماعا . وذلك لأن الرجل قد لا تندفع شهوته بالواحدة ، فأُبيح له واحدة بعد واحدة ، حتى يبلغ أربعا ، لأن في الأربع غنية لكل أحد ، إلا ما ندر ، ومع هذا فإنما يباح له ذلك إذا أمن على نفسه الجور والظلم ، ووثق بالقيام بحقوقهن .

فإن خاف شيئا من هذا فليقتصر على واحدة ، أو على ملك يمينه .

---

(٥١) * مُتّفق عليه . من حديث أبي هريرة . أخرجه البُخاري في صحيحه :( كتاب النكاح/ باب : الأكفاء في الدِّين/ ح ٥٠٩٠ ) . ومُسلم في صحيحه : (كتاب الرّضاع / باب : استحباب نكاح ذات الدِّين /ح ٥٣ ) .

فإنه لا يجب عليه القسم في ملك اليمين ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي : الاقتصار على واحدة أو ما ملكت اليمين ﴿أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ أي : تظلموا . وفي هذا إن تعرض العبد للأمر الذي يُخاف منه الجور والظلم ، وعدم القيام بالواجب -ولو كان مُباحًا- أنه لا ينبغي له أن يتعرّض ، له بل يلزم السعة والعافية ، فإن العافية خير ما أعطي العبد .

ولمّا كان كثير من الناس يظلمون النساء ويهضمونهن حقوقهن ، خصوصا الصداق الذي يكون شيئا كثيرًا ، ودفعة واحدة ، يشق دفعه للزوجة ، أمرهم وحثهم على إيتاء النساء ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ أي : مهورهن ﴿نِحْلَةً﴾ أي : عن طيب نفس ، وحال طمأنينة ، فلا تُمطِلُوهنّ أو تبخسوا منه شيئا . وفيه : أن المهر يدفع إلى المرأة إذا كانت مُكلَّفة ، وأنها تملكه بالعقد ، لأنه أضافه إليها ، والإضافة تقتضي التمليك .

﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ﴾ أي : من الصداق ﴿نَفْسًا﴾ بأن سمحن لكم عن رضا واختيار بإسقاط شيء منه ، أو تأخيره أو المعاوضة عنه ، ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ أي : لا حرج عليكم في ذلك ولا تبعة .

وفيه دليل على أن للمرأة التصرف في مالها -ولو بالتبرع- إذا كانت رشيدة ، فإن لم تكن كذلك فليس لعطيتها حكم ، وأنه ليس لوليها من الصداق شيء ، غير ما طابت به .

وفي قوله : ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ دليل على أن نكاح الخبيثة غير مأمور به ، بل منهي عنه كالمُشركة ، وكالفاجرة ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [ سورة البقرة ٢٢١] . وقال : ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [ سورة النُّور ٣] .

[٥ - ٤] : ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ السفهاء : جمع « سفيه » وهو : من لا يُحسن التصرف في المال ، إما لعدم عقله كالمجنون والمعتوه ، ونحوهما ، وإما لعدم رشده كالصغير وغير الرشيد .

فنهى اللّٰه الأولياء أن يؤتوا هؤلاء أموالهم خشية إفسادها وإتلافها ، لأن اللّٰه جعل الأموال قياما لعباده في مصالح دينهم ودنياهم ، وهؤلاء لا يحسنون القيام عليها وحفظها ، فأمر الولي أن لا يؤتيهم إياها ، بل يرزقهم منها ويكسوهم ، ويبذل منها ما يتعلق بضروراتهم وحاجاتهم الدينية والدنيوية ، وأن يقولوا لهم قولا معروفا ، بأن يعدوهم -إذا طلبوها- أنهم سيدفعونها لهم بعد رشدهم ، ونحو ذلك ، ويلطفوا لهم في الأقوال جبرًا لخواطرهم .

وفي إضافته تعالى الأموال إلى الأولياء ، إشارة إلى أنه يجب عليهم أن يعملوا في أموال السفهاء ما يفعلونه في أموالهم ، من الحفظ والتصرف وعدم التعريض للأخطار .

وفي الآية دليل على أن نفقة المجنون والصغير والسفيه في مالهم ، إذا كان لهم مال ، لقوله : ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾

وفيه دليل على أن قول الولي مقبول فيما يدّعيه من النفقة المُمكنة والكسوة ؛ لأن اللّٰه جعله مؤتمنا على مالهم فلزم قبول قول الأمين .

[٦ - ٤] : ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ .

الابتلاء : هو الاختبار والامتحان ، وذلك بأن يُدفع لليتيم المُقارب للرشد ، الممكن رشده ، شيئا من ماله ، ويتصرف فيه التصرف اللائق بحاله ، فيتبيَّن بذلك رشده من سفهه ، فإن استمر غير مُحسن للتصرف لم يدفع إليه ماله ، بل هو باق على سفهه ، ولو بلغ عمرا كثيرا .

فإن تبيَّن رشده وصلاحه في ماله وبلغ النكاح ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ كاملة موفرة .

﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا﴾ أي : مجاوزة للحد الحلال الذي أباحه الله لكم من أموالكم ، إلى الحرام الذي حرمه الله عليكم من أموالهم .

﴿وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْ﴾ أي : ولا تأكلوها في حال صغرهم التي لا يُمكنهم فيها أخذها منكم ، ولا منعكم من أكلها ، تبادرون بذلك أن يكبروا ، فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها .

وهذا من الأمور الواقعة من كثير من الأولياء ، الذين ليس عندهم خوف من الله ، ولا رحمة ومحبَّة للمولى عليهم ، يرون هذه الحال حال فرصة فيغتنمونها ويتعجَّلون ما حرَّم الله عليهم ، فنهى الله تعالى عن هذه الحالة بخصوصها .

[٧ - ٤] : ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾ .

كان العرب في الجاهليَّة – من جبروتهم وقسوتهم لا يورِّثون الضعفاء كالنساء والصبيان ، ويجعلون الميراث للرجال الأقوياء لأنهم – بزعمهم – أهل الحرب والقتال والنهب والسلب ، فأراد الرب الرحيم الحكيم أن يُشرع لعباده شرعًا ، يستوي فيه رجالهم ونساؤهم ، وأقوياؤهم وضعفاؤهم . وقدم بين يدي ذلك أمرا مجملا لتتوطَّن على ذلك النفوس .

فيأتي التفصيل بعد الإجمال ، قد تشوَّفت له النفوس ، وزالت الوحشة التي منشؤها العادات القبيحة ، فقال : ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ﴾ : أي : قسط وحصة ﴿مِّمَّا تَرَكَ﴾ أي : خلف ﴿ٱلۡوَٰلِدَانِ﴾ أي : الأب والأم ﴿وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ عموم بعد خُصوص ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ .

فكأنه قيل : هل ذلك النصيب راجع إلى العُرف والعادة ، وأن يرضخوا لهم ما يشاءون؟ أو شيئا مُقدرا؟ فقال تعالى : ﴿نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾ : أي : قد قدَّره العليم الحكيم . وسيأتي –إن شاء الله– تقدير ذلك .

وأيضًا فهاهنا توُّهم آخر ، لعل أحدا يتوهم أن النساء والولدان ليس لهم نصيب إلا من المال الكثير ، فأزال ذلك بقوله : ﴿مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ﴾ فتبارك الله أحسن الحاكمين .

[٨ - ٤] : ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾

وهذا من أحكام الله الحسنة الجليلة الجابرة للقلوب فقال : ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ أي : قسمة المواريث ﴿أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي : الأقارب غير الوارثين بقرينة قوله : ﴿ٱلْقِسْمَةَ﴾ لأن الوارثين من المقسوم عليهم ، ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾ أي : المُستحِقُّون من الفقراء .

﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ أي : أعطوهم ما تيسَّر من هذا المال الذي جاءكم بغير كَدٍّ ولا تعب ، ولا عناء ولا نَصَب ، فإن نفوسهم مُتشوفة إليه ، وقلوبهم مُتطلعة ، فاجبروا خواطرهم بما لا يضركم وهو نافعهم .

ويؤخذ من المعنى أن كل من له تطلُّع وتشوُّف إلى ما حضر بين يدي الإنسان ، ينبغي له أن يعطيه منه ما تيسر ، كما كان النبي ﷺ يقول : « إذا جاء أحدَكم خادمُه بطعامه فليُجلسه معه ، فإن لم يُجلسه معه ، فليُناوله لُقمة أو لُقمتين » أو كما قال .[٥٢]

وكان الصحابة رضي الله عنهم -إذا بدأت باكورة أشجارهم- أتوا بها رسول الله ﷺ فبرَّك عليها ، ونظر إلى أصغر وليد عنده فأعطاه ذلك[٥٣] ، علما منه بشدَّة تشوُّفه لذلك ، وهذا كله مع إمكان الإعطاء ، فإن لم يمكن ذلك -لكونه حق سفهاء ، أو ثَم أهم من ذلك- فليقولوا لهم ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ يردوهم ردًّا جميلا ، بقول حسن غير فاحش ولا قبيح .

[ ٩ : ١٠ - ٣] : ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾

قيل : إن هذا خطاب لمن يحضر مَنْ حضره الموت وأجْنَفَ في وصيته ، أن يأمره بالعدل في وصيته والمساواة فيها ، بدليل قوله : ﴿وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي : سدادا ، موافقا للقسط والمعروف .

وأنهم يأمرون من يريد الوصية على أولاده بما يحبون معاملة أولادهم بعدهم .

وقيل : إن المُراد بذلك أولياء السفهاء من المجانين والصِّغار والضِّعاف أن يعاملوهم في مصالحهم الدينية والدنيوية بما يحبون أن يعامل به مَنْ بعدهم من ذريتهم الضِّعاف ﴿فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في ولايتهم لغيرهم ، أي : يعاملونهم بما فيه تقوى الله ، من عدم إهانتهم والقيام عليهم ، وإلزامهم لتقوى الله . ولمَّا أمرهم بذلك ، زجرهم عن أكل أموال اليتامى ، وتوعد على ذلك أشد العذاب فقال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ أي : بغير حق ، وهذا القيد يخرج به ما تقدَّم ، من جواز الأكل للفقير بالمعروف ، ومن جواز خلط طعامهم بطعام اليتامى . فمَنْ أكلها ظلمًا فـ ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ أي : فإن الذي أكلوه نار

---

(٥٢) * مُتفَقٌ عَليهِ . من حديث أبى هريرة بألفاظٍ متقاربة .أخرجه البخاري : ( كتاب العتق/ باب : إذا أتاه خادمه بطعامه/ح ٢٥٥٧) ، ( كتاب الأطعمة/ باب : الأكل مع الخادم/ ح ٥٤٦٠ ) . وأخرجه مسلم :( كتاب الأيمان / باب : إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس ، ولا يُكلفه ما يغلبه ح ٤٢ ) .

(٥٣) * أخرجه ابن ماجه من حديث أبى هريرة : ( كتاب الأطعمة/ باب : إذا أتى بأوَّل الثَّمرة/ ح ٣٣٢٩ ) . وصحَّحه العلامة الألباني- رحمه الله - في « صحيح الجامع » برقم : ٤٦٤٤.

وعزاه أيضا إلى ابن عباس عند الطَّبراني فى الكبير .وإلى أنس عند الحكيم الترمذي « نوادر الأصول » .

تتأجج في أجوافهم وهم الذين أدخلوها في بطونهم . ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ أي : نارًا مُحرقة مُتوقِّدة . وهذا أعظم وعيد ورد في الذنوب ، يدل على شناعة أكل أموال اليتامى وقبحها ، وأنها موجبة لدخول النار ، فدل ذلك أنها من أكبر الكبائر(٥٤) . نسأل اللّه العافية .

[ ١١: ١٢ – ٣] : ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾

هذه الآيات والآية التي هي آخر السورة هن آيات المواريث المُتضمنة لها ؛ فإنها مع حديث عبد اللّه بن عباس الثابت في صحيح البُخاري : « أَلْحِقوا الفرائض بأهلها ، فما بقي فلأولى رجل ذكر »(٥٥) ، مُشتملات على جُلِّ أحكام الفرائض ، بل على جميعها كما سترى ذلك ، إلا ميراث الجدات فإنه غير مذكور في ذلك . لكنه قد ثبت في السنن عن المُغيرة بن شُعبة ومحمد بن مَسلمة أن النبي ﷺ أعطى الجدة السدس(٥٦) ، مع إجماع العُلماء على ذلك .

فقوله تعالى : ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ أي : أولادكم – يا معشر الوالِدين – عندكم ودائع قد

---

(٥٤) * عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ قَالَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ . مُتَّفقٌ عليه . أخرجه البُخاري في غير موضع من صحيحه ، منها : ( كتاب الوصايا / باب : قول اللّه تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [ سُورة النِّساء] . ومُسلم في صحيحه : ( كتاب الإيمان / باب : بيان الكبائر وأكبرها / ح ١٤٥ ) .

(٥٥) * مُتَّفقٌ عَليهِ . من حديث ابن عباس . أخرجه البُخاري :( كتاب الفرائض ح ٦٧٣٢/ باب : ميراث الولد من أبيه وأمه/ح ٦٧٣٥) ، ( باب : ميراث الجد مع الأب والإخوة/ح٦٧٣٧ ) ، ( باب : ابني عم أحدهما أخ للأم والآخر زوج/ ح٦٧٤٦ ) . ومُسلم :( كتاب الفرائض/ باب : ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر/ ح ٢، ٣، ٤، ٥ ) .

(٥٦) * ضعيف . أخرجه أبو داود : ( كتاب الفرائض / باب : في الجدَّة/ ح ٢٧٩٤) . وأخرجه الترمذي : ( كتاب الفرائض / باب : ما جاء في ميراث الجدَّة / ح ٢١٠٠، ٢١٠١) .
وضعفه الألباني- رحمه الله- في :«إرواء الغليل» ٦ / ١٢٤ ح ١٦٨٠.

وصّاكم الله عليهم ، لتقوموا بمصالحهم الدينيّة والدنيويّة ، فتعلمونهم وتؤدّبونهم وتكفونهم عن المفاسد ، وتأمرونهم بطاعة الله ومُلازمة التقوى على الدوام كما قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [ سورة التّحريم ٦] .

فالأولاد عند والديهم موصّى بهم ، فإما أن يقوموا بتلك الوصية ، وإما أن يُضيّعوها فيستحقوا بذلك الوعيد والعقاب .

وهذا مما يدل على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالدين ، حيث أوصى الوالدين مع كمال شفقتهم ، عليهم . ثم ذكر كيفية إرثهم فقال : ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ أي : الأولاد للصلب ، والأولاد للابن ، للذكر مثل حظ الأنثيين ، إن لم يكن معهم صاحب فرض ، أو ما أبقت الفروض يقتسمونه كذلك ، وقد أجمع العلماء على ذلك ، وأنه -مع وجود أولاد الصلب- فالميراث لهم . وليس لأولاد الابن شيء ، حيث كان أولاد الصلب ذكورًا وإناثا ، هذا مع اجتماع الذكور والإناث . وهنا حالتان : انفراد الذكور ، وسيأتي حكمها . وانفراد الإناث ، وقد ذكره بقوله : ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ أي : بنات صلب أو بنات ابن ، ثلاثا فأكثر ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ﴾ أي : بنتا أو بنت ابن ﴿فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ﴾ وهذا إجماع . بقي أن يُقال : من أين يُستفاد أن للابنتين الثنتين الثلثين بعد الإجماع على ذلك؟ .

فالجواب أنه يُستفاد من قوله : ﴿وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ﴾ فمفهوم ذلك أنه إن زادت على الواحدة ، انتقل الفرض عن النصف ، ولا ثَمّ بعده إلا الثلثان .

وأيضًا فقوله : ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ إذا خلّف ابنًا وبنتًا ، فإن الابن له الثلثان ، وقد أخبر الله أنه مثل حظ الأنثيين ، فدل ذلك على أن للبنتين الثلثين . وأيضًا فإن البنت إذا أخذت الثلث مع أخيها – وهو أزيد ضررًا عليها من أختها ، فأخذها له مع أختها من باب أولى وأحرى .

وأيضا فإن قوله تعالى في الأختين : ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ﴾ نصٌّ في الأختين الثنتين ، فإذا كان الأختان الثنتان – مع بُعدهما – يأخذان الثلثين فالابنتان – مع قربهما – من باب أولى وأحرى .

وقد أعطى النبي ﷺ ابنتي سعد الثلثين كما في الصحيح[٥٧] . بقي أن يقال : فما الفائدة في قوله : ﴿فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ ؟ . قيل : الفائدة في ذلك -والله أعلم- أنه ليعلم أن الفرض الذي هو الثّلثان لا يزيد بزيادتهن على الثنتين بل من الثنتين فصاعدًا .

ودلّت الآية الكريمة أنه إذا وجد بنت صلب واحدة ، وبنت ابن أو بنات ابن ، فإن لبنت الصلب النصف ، ويبقى من الثلثين اللذين فرضهما الله للبنات أو بنات الابن السدس ، فيعطى بنت الابن ، أو بنات الابن ، ولهذا يسمى هذا السدس تكملة الثلثين . ومثل ذلك بنت الابن ، مع بنات الابن اللاتي أنزل منها .

---

(٥٧) * مُتّفقٌ عَلَيهِ . أخرجه البُخاري : ( كتاب الوصايا / باب : الوصيّة بالثلث / ح ٢٧٤٤ ) . ومُسلم : ( كتاب الوصيّة/ باب : الوصيّة بالثلث / ح ٥، ٦، ٧، ٨، ٩ ) . من حديث سعد بن أبي وقّاص ﷺ .

وتدل الآية أنه متى استغرق البنات أو بنات الابن الثلثين ، أنه يسقط مَنْ دونهن مِن بنات الابن لأن الله لم يفرض لهُن إلا الثلثين ، وقد تم ، فلو لم يسقطن لزم من ذلك أن يفرض لهن أزيَد من الثلثين ، وهو خلاف النص .

وكل هذه الأحكام مُجمع عليها بين العلماء ولله الحمد .

ودل قوله : ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ أن الوارثين يرثون كل ما خلف الميت من عقار وأثاث وذهب وفضة وغير ذلك ، حتى الدِّية التي لم تجب إلا بعد موته ، وحتى الديون التي في الذِّمم .

ثم ذكر ميراث الأبوين فقال : ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ أي : أبوه وأمه ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي : ولد صلب أو ولد ابن ذكرًا كان أو أنثى ، واحدًا أو مُتعدِّدًا ، فأما الأم فلا تزيد على السدس مع أحد من الأولاد ، وأما الأب فمع الذكور منهم ، لا يستحق أزيد من السدس ، فإن كان الولد أنثى أو إناثًا ولم يبق بعد الفرض شيء -كأبوين وابنتين- لم يبق له تعصيب ، وإن بقي بعد فرض البنت أو البنات شيء أخذ الأب السدس فرضًا ، والباقي تعصيبًا ، لأننا ألحقنا الفروض بأهلها ، فما بقي فلأولى رجل ذكر ، وهو أولى من الأخ والعم وغيرهما .

﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ أي : والباقي للأب لأنه أضاف المال إلى الأب والأُم إضافة واحدة ، ثم قدر نصيب الأم ، فدل ذلك على أن الباقي للأب . وعلم من ذلك أن الأب مع عدم الأولاد لا فرض له ، بل يرث تعصيبا المال كله ، أو ما أبقت الفروض ، لكن لو وجد مع الأبوين أحد الزوجين -ويعبر عنهما بالعُمريَّتين- فإن الزوج أو الزوجة يأخذ فرضه ، ثم تأخذ الأُم ثلث الباقي والأب الباقي .

وقد دل على ذلك قوله : ﴿وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ أي: ثلث ما ورثه الأبوان . وهو في هاتين الصورتين إما سدس في زوج وأم وأب ، وإما ربع في زوجة وأم وأب . فلم تدل الآية على إرث الأُم ثلثَ المال كاملا مع عدم الأولاد حتى يُقال : إن هاتين الصورتين قد استثنيتا من هذا ، ويوضح ذلك أن الذي يأخذه الزوج أو الزوجة بمنزلة ما يأخذه الغرماء ، فيكون من رأس المال ، والباقي بين الأبوين . ولأنا لو أعطينا الأُم ثلث المال ، لزم زيادتها على الأب في مسألة الزوج ، أو أخذ الأب في مسألة الزوجة زيادة عنها نصفَ السدس ، وهذا لا نظير له ، فإن المعهود مساواتها للأب ، أو أخذه ضعف ما تأخذه الأم .

﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ أشقاء ، أو لأب ، أو لأم ، ذُكورًا كانوا أو إناثًا ، وارثين أو محجوبين بالأب أو الجد لكن قد يقال : ليس ظاهرُ قوله : ﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ شاملا لغير الوارثين بدليل عدم تناولها للمحجوب بالنصف ، فعلى هذا لا يحجبها عن الثلث من الإخوة إلا الإخوة الوارثون .

ويؤيده أن الحكمة في حجبهم لها عن الثلث لأجل أن يتوفر لهم شيء من المال ، وهو معدوم ، والله أعلم ، ولكن بشرط كونهم اثنين فأكثر ، ويُشكِّل على ذلك إتيان لفظ « الإخوة » بلفظ الجمع .

وأجيب عن ذلك بأن المقصود مُجرد التعدد ، لا الجمع ، ويصدق ذلك باثنين .

وقد يطلق الجمع ويراد به الاثنان ، كما في قوله تعالى عن داود وسليمان : ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [ سورة الأنبياء ٧٨ ] ، وقال في الإخوة للأُم : ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ

﴿أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ ، فأطلق لفظ الجمع والمُراد به اثنان فأكثر بالإجماع .

فعلى هذا لو خلف أمًّا وأبًا وإخوة ، كان للأُم السدس ، والباقي للأب فحجبوها عن الثلث ، مع حجب الأب إيّاهم إلا على الاحتمال الآخر فإن للأم الثلث والباقي للأب .

ثم قال تعالى : ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ أي : هذه الفروض والأنصباء والمواريث إنما ترد وتستحق بعد نزع الديون التي على الميت للّه أو للآدميين ، وبعد الوصايا التي قد أوصى الميت بها بعد موته ، فالباقي عن ذلك هو التركة الذي يستحقه الورثة .

وقدّم الوصية مع أنها مُؤخّرة عن الدين للاهتمام بشأنها ، لكون إخراجها شاقًّا على الورثة ، وإلا فالديون مُقدمة عليها ، وتكون من رأس المال . وأما الوصية فإنها تصح من الثلث فأقل للأجنبي الذي هو غير وارث ، وأما غير ذلك فلا ينفذ إلا بإجازة الورثة ، قال تعالى : ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ .

فلو رُدَّ تقدير الإرث إلى عقولكم واختياركم لحصل من الضرر ما اللّه به عليم ، لنقص العقول وعدم معرفتها بما هو اللائق الأحسن ، في كل زمان ومكان . فلا يدرون أَيُّ الأولادِ أو الوالِدين أنفع لهم ، وأقرب لحصول مقاصدهم الدينية والدنيوية .

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي : فرضها اللّه الذي قد أحاط بكل شيء علمًا ، وأحكم ما شرعه وقدّر ما قدّره على أحسن تقدير لا تستطيع العُقول أن تقترح مثل أحكامه الصالحة الموافقة لكل زمان ومكان وحال .

ثم قال تعالى : ﴿وَلَكُمْ﴾ أيها الأزواج ﴿نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ .

ويدخل في مُسمّى الولد المشروط وجوده أو عدمه ، ولد الصُّلب أو ولد الابن الذكر والأُنثى ، الواحد والمُتعدِّد ، الذي من الزوج أو من غيره ، ويخرج عنه ولد البنات إجماعًا .

ثم قال تعالى : ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أي : من أم ، كما هي في بعض القراءات . وأجمع العُلماء على أن المُراد بالإخوة هنا الإخوة للأُم ، فإذا كان يورث كلالة أي : ليس للميت والد ولا ولد أي : لا أب ولا جد ولا ابن ولا ابن ابن ولا بنت ولا بنت ابن وإن نزلوا .

وهذه هي الكلالة كما فسّرها بذلك أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه ، وقد حصل على ذلك الاتفاق وللّه الحمد .

﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ أي : من الأخ والأخت ﴿ٱلسُّدُسُ﴾ ، ﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي : من واحد ﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ أي : لا يزيدون على الثلث ولو زادوا عن اثنين . ودل قوله : ﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ أن ذَكَرهم وأنثاهم سواء ، لأن لفظ « التشريك » يقتضي التسوية .

ودل لفظ ﴿ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ على أن الفروع وإن نزلوا ، والأصول الذكور وإن علوا ، يُسقطون أولاد الأُم ، لأن اللّه لم يورثهم إلا في الكلالة ، فلو لم يكن يورث كلالة ، لم يرثوا منه شيئًا اتفاقًا .

ودل قوله : ﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ أن الإخوة الأشقاء يَسقُطون في المسألة المُسمَّاة بـ « الحمارية » .

وهي : زوج ، وأم ، وإخوة لأم ، وإخوة أشقاء . للزوج النصف ، وللأم السدس ، وللأخوة للأم الثلث ، ويسقط الأشقاء ، لأن اللّه أضاف الثلث للإخوة من الأُم ، فلو شاركهم الأشقاء لكان جمعا لما فرّق اللّه حكمه .

وأيضا فإن الإخوة للأم أصحاب فروض ، والأشقاء عصبات . وقد قال النبي ﷺ : – « ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر »[٥٨] – وأهل الفروض هم الذين قدّر اللّه أنصباءهم ، ففي هذه المسألة لا يبقى بعدهم شيء ، فيَسقُط الأشقاء ، وهذا هو الصواب في ذلك .

وأما ميراث الإخوة والأخوات الأشقاء أو لأب ، فمذكور في قوله : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ الآية . فالأخت الواحدة شقيقة أو لأب لها النصف ، والثنتان لهما الثلثان ، والشقيقة الواحدة مع الأخت للأب أو الأخوات تأخذ النصف ، والباقي من الثلثين للأخت أو الأخوات لأب وهو السدس تكملة الثلثين .

وإذ استغرقت الشقيقات الثلثين سقط الأخوات للأب كما تقدم في البنات وبنات الابن .

وإن كان الإخوة رجالًا ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين .

فإن قيل : فهل يستفاد حكم ميراث القاتل ، والرقيق ، والمخالف في الدين ، والمبعض ، والخنثى ، والجد مع الإخوة لغير أم ، والعول ، والرد ، وذوي الأرحام ، وبقية العصبة ، والأخوات لغير أم مع البنات أو بنات الابن من القرآن أم لا؟ . قيل : نعم ، فيه تنبيهات وإشارات دقيقة يعسر فهمها على غير المتأمل تدل على جميع المذكورات .

فأما القاتل والمُخالف في الدين فيعرف أنهما غير وارثين من بيان الحكمة الإلهية في توزيع المال على الورثة بحسب قربهم ونفعهم الديني والدنيوي .

وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة بقوله : ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ وقد عُلم أن القاتل قد سعى لمورثه بأعظم الضرر ، فلا ينتهض ما فيه من موجب الإرث أن يُقاوِم ضرر القتل الذي هو ضد النفع الذي رتّب عليه الإرث .

فعُلم من ذلك أن القتل أكبر مانع يمنع الميراث ، ويقطع الرحم الذي قال اللّهَ فيه : ﴿وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [سُورة الأنفال ٧٥] .

---

(٥٨) * مُتَّفَقٌ عَلَيهِ . من حديث ابن عباس . أخرجه البُخاري في صحيحه : ( كتاب الفرائض ح ٦٧٣٢/ باب : ميراث الولد من أبيه وأمه/ح ٦٧٣٥) ، ( باب : ميراث الجد مع الأب والإخوة/ح٦٧٣٧ ) ، ( باب : ابني عم أحدهما أخ للأم والآخر زوج/ ح٦٧٤٦ ) . ومُسلم في صحيحه : ( كتاب الفرائض/ باب : ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر/ح ٢، ٣، ٤، ٥) .

مع أنه قد استقرّت القاعدة الشرعيّة أن : « من استعجل شيئا قبل أوانه عوقب بحرمانه » .

وبهذا ونحوه يعرف أن المُخالف لدين الموروث لا إرث له ، وذلك أنه قد تعارض المُوجب الذي هو اتصال النسب الموجب للإرث ، والمانعُ الذي هو المُخالفة في الدين الموجبة للمباينة من كل وجه ، فقوي المانع ومنع موجب الإرث الذي هو النسب ، فلم يعمل الموجب لقيام المانع .

يُوضح ذلك أن اللّه تعالى قد جعل حقوق المُسلمين أولى من حقوق الأقارب الكُفّار الدنيوية ، فإذا مات المُسلم انتقل ماله إلى من هو أولى وأحق به .

فيكون قوله تعالى : ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [ سورة الأنفال ٧٥] . إذا اتّفقت أديانهم ، وأما مع تباينهم فالأُخوّة الدينية مُقدّمة على الأُخوّة النسبية المُجرّدة .

قال ابن القيم في « جلاء الأفهام » : ( وتأمّل هذا المعنى في آية المواريث ، وتعليقه سبحانه التوارث فيها بلفظ الزوجة دون المرأة ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ إيذانا بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجيّة المُقتضية للتشاكل والتناسب ، والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما ولا تناسب ، فلا يقع بينهما التوارث . وأسرار مُفردات القُرآن ومُركّباته فوق عقول العالمين ) . انتهى .

وأما الرقيق فإنه لا يرث ولا يورث ، أما كونه لا يورّث فواضح ، لأنه ليس له مال يورّث عنه ، بل كل ما معه فهو لسيده ، وأما كونه لا يرث فلأنه لا يملك ، فإنه لو مُلك لكان لسيده ، وهو أجنبي من الميت فيكون مثل قوله تعالى : ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ ، ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ ، ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ ونحوها لمن يتأتى منه التملك ، وأما الرقيق فلا يتأتى منه ذلك ، فعُلم أنه لا ميراث له .

وأما مَنْ بعضه حر وبعضه رقيق فإنه تتبعض أحكامه ، فما فيه من الحرية يستحق بها ما رتّبه اللّه في المواريث ، لكون ما فيه من الحرية قابلا للتملك ، وما فيه من الرق فليس بقابل لذلك ، فإذا يكون المبعض ، يرث ويُورّث ، ويُحجب بقدر ما فيه من الحرية . وإذا كان العبد يكون محمودا مذموما ، مُثابًا ومُعاقبًا ، بقدر ما فيه من موجبات ذلك ، فهذا كذلك .

وأما الخُنثى فلا يخلو إمّا أن يكون واضحا ذكوريته أو أنوثيته ، أو مُشكلا . فإن كان واضحا فالأمر فيه واضح . إن كان ذكرا فله حكم الذكور ، ويشمله النص الوارد فيهم ، وإن كان أنثى فله حكم الإناث ، ويشملها النص الوارد فيهن . وإن كان مُشكلا ، فإن كان الذكر والأنثى لا يختلف إرثهما -كالإخوة للأم- فالأمر فيه واضح ، وإن كان يختلف إرثه بتقدير ذُكوريّته وبتقدير أُنوثيته ، ولم يبق لنا طريق إلى العلم بذلك ، لم نُعطه أكثر التقديرين ، لاحتمال ظلم من معه من الورثة ، ولم نعطه الأقل ، لاحتمال ظلمنا له . فوجب التوسط بين الأمرين ، وسلوكُ أعدل الطريقين ، قال تعالى : ﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [ سورة المائدة ٨] .

وليس لنا طريق إلى العدل في مثل هذا أكثر من هذا الطريق المذكور ، و ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [ سورة البقرة ٢٨٦] ، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [ سورة التّغابن ١٦] .

وأما ميراث الجد مع الإخوة الأشقاء أو لأب ، وهل يرثون معه أم لا؟ فقد دل كتاب اللّه على قول أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه ، وأن الجد يحجب الإخوة أشقاء أو لأب أو لأم ، كما يحجبهم الأب .

وبيان ذلك : أن الجد أب في غير موضع من القرآن كقوله تعالى : ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [ سُورة البقرة ١٣٣] . الآية . وقال يوسف عليه السلام : ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ سُورة يوسف ٣٨] .

فسمَّى اللَّه الجد وجد الأب أبا ، فدل ذلك على أن الجد بمنزلة الأب ، يرث ما يرثه الأب ، ويحجب من يحجبه . وإذا كان العلماء قد أجمعوا على أن الجد حكمه حكم الأب عند عدمه في ميراثه مع الأولاد وغيرهم من بني الإخوة والأعمام وبنيهم ، وسائر أحكام المواريث ، فينبغي أيضًا أن يكون حكمُه حكمه في حجب الإخوة لغير أم .

وإذا كان ابن الابن بمنزلة ابن الصلب فلم لا يكون الجد بمنزلة الأب؟ وإذا كان جد الأب مع ابن الأخ قد اتَّفق العُلماء على أنه يحجبه . فلم لا يحجب جد الميِّت أخاه؟ فليس مع مَنْ يورِّث الإخوةَ مع الجد ، نص ولا إشارة ولا تنبيه ولا قياس صحيح .

وأما مسائل العول فإنه يُستفاد حُكمها من القُرآن ، وذلك أن اللَّه تعالى قد فرض وقَدر لأهل المواريث أنصباء ، وهم بين حالتين : إما أن يحجب بعضهم بعضًا أو لا . فإن حجب بعضهم بعضا ، فالمحجوب ساقط لا يُزاحِم ولا يستحق شيئا ، وإن لم يحجب بعضهم بعضا فلا يخلو ، إما أن لا تستغرق الفروض التركة ، أو تستغرقها من غير زيادة ولا نقص ، أو تزيد الفروض على التركة ، ففي الحالتين الأوليين كل يأخذ فرضه كاملا .

وفي الحالة الأخيرة وهي ما إذا زادت الفُروض على التركة فلا يخلو من حالين : إما أن ننقص بعضَ الورثة عن فرضه الذي فرضه اللَّه له ، ونكمل للباقين منهم فروضهم ، وهذا ترجيح بغير مرجح ، وليس نقصان أحدهم بأولى من الآخر ، فتعيَّنت الحال الثانية ، وهي : أننا نعطي كل واحد منهم نصيبه بقدر الإمكان ، ونحاصص بينهم كديون الغرماء الزائدة على مال الغريم ، ولا طريق موصل إلى ذلك إلا بالعول ، فعلم من هذا أن العول في الفرائض قد بينه اللَّه في كتابه .

وبعكس هذه الطريقة بعينها يعلم الرد فإن أهل الفروض إذا لم تستغرق فروضهم التركةَ وبقي شيء ليس له مُستحق من عاصب قريب ولا بعيد ، فإن رده على أحدهم ترجيح بغير مُرجِّح ، وإعطاؤه غيرهم ممن ليس بقريب للميت جنف وميل ، ومعارضة لقوله : ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [ سُورة الأنفال ٧٥] .

فتعيَّن أن يُرَدَّ على أهل الفروض بقدر فروضهم . ولما كان الزوجان ليسا من القرابة ، لم يستحقَّا زيادة على فرضهم المُقدر هذا عند من لا يورِّث الزوجين بالرد ، وهم جمهور القائلين بالرد ، فعلى هذا تكون علَّة الرد كونه صاحب فرض قريبا ، وعلى القول الآخر ، أن الزوجين كغيرهما من ذوي الفروض يُرَدُّ عليهما ؛ فكما ينقصان بالعول فإنهما يزادان بالرد كغيرهما ، فالعلة على هذا كونه وارثا صاحب فرض ، فهذا هو الظاهر من دلالة الكتاب والسُّنَّة ، والقياس الصحيح ، والله أعلم .

وبهذا يعلم أيضًا ميراث ذوي الأرحام فإن الميت إذا لم يخلف صاحب فرض ولا عاصبا ، وبقي الأمر

دائرا بين كون ماله يكون لبيت المال لمنافع الأجانب ، وبين كون ماله يرجع إلى أقاربه المدلين بالورثة المجمع عليهم ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [سورة الأنفال ٧٥] .

فصرفه لغيرهم ترك لمن هو أولى من غيره ، فتعين توريث ذوي الأرحام . وإذا تعين توريثهم ، فقد علم أنه ليس لهم نصيب مقدر بأعيانهم في كتاب الله . وأن بينهم وبين الميت وسائط ، صاروا بسببها من الأقارب . فينزلون منزلة من أدلوا به من تلك الوسائط . والله أعلم .

وأما ميراث بقية العصبة كالبنوة والأخوة وبنيهم ، والأعمام وبنيهم إلخ فإن النبي ﷺ قال : « ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولي رجل ذكر »[٥٩] .

وقال تعالى : ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [سورة النساء ٣٣] . فإذا ألحقنا الفروض بأهلها ولم يبق شيء ، لم يستحق العاصب شيئًا ، وإن بقي شيء أخذه أولي العصبة ، وبحسب جهاتهم ودرجاتهم .

فإن جهات العصوبة خمس : البنوة ، ثم الأبوة ، ثم الأخوة وبنوهم ، ثم العمومة وبنوهم ، ثم الولاء ، فيقدم منهم الأقرب جهة . فإن كانوا في جهة واحدة فالأقرب منزلة ، فإن كانوا في منزلة واحدة فالأقوى ، وهو الشقيق ، فإن تساووا من كل وجه اشتركوا . والله أعلم .

وأما كون الأخوات لغير أم مع البنات أو بنات الابن عصبات ، يأخذن ما فضل عن فروضهن ، فلأنه ليس في القرآن ما يدل على أن الأخوات يسقطن بالبنات .

فإذا كان الأمر كذلك ، وبقي شيء بعد أخذ البنات فرضهن ، فإنه يعطى للأخوات ولا يعدل عنهن إلى عصبة أبعد منهن ، كابن الأخ والعم ، ومن هو أبعد منهم . والله أعلم .

[١٣ : ١٤ - ٤] : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ .

أي : تلك التفاصيل التي ذكرها في المواريث حدود الله التي يجب الوقوف معها وعدم مجاوزتها ، ولا القصور عنها ، وفي ذلك دليل على أن الوصية للوارث منسوخة بتقديره تعالى أنصباء الوارثين .

ثم قوله تعالى : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ فالوصية للوارث بزيادة على حقه يدخل في هذا التعدّي ، مع قوله ﷺ : « لا وصية لوارث »[٦٠] ، ثم ذكر طاعة الله ورسوله ومعصيتهما عموما ليدخل في العموم لزوم حدوده

---

(٥٩) * مُتَّفَقٌ عَلَيهِ . من حديث ابن عباس . أخرجه البخاري في صحيحه : ( كتاب الفرائض ح ٦٧٣٢/ باب : ميراث الولد من أبيه وأمه/ح ٦٧٣٥) ، ( باب : ميراث الجد مع الأب والإخوة/ح٦٧٣٧ ) ، ( باب : ابني عم أحدهما أخ للأم والآخر زوج/ ح٦٧٤٦ ) . ومُسلم في صحيحه : ( كتاب الفرائض/ باب : ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر/ح ٢، ٣، ٤، ٥ ) .

(٦٠) * صحيح . وهذا جزء من حديث طويل فيه : إنَّ الله أعطى لكل ذي حق حقَّه فلا وصية لوارث .

أخرجه أحمد : ( ٥ / ٢٦٧ ) . وأبو داود : ( كتاب الوصايا / باب : ما جاء في الوصيّة للوارث/ ح ٢٨٧٠ ) . من حديث =

في الفرائض أو ترك ذلك .

فقال : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بامتثال أمرهما الذي أعظمه طاعتهما في التوحيد ، ثم الأوامر على اختلاف درجاتها واجتناب نهيهما الذي أعظمه الشرك بالله ، ثم المعاصي على اختلاف طبقاتها .

﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ فمن أدى الأوامر واجتنب النواهي فلا بد له من دخول الجنة والنجاة من النار .

﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي حصل به النجاة من سخطه وعذابه ، والفوز بثوابه ورضوانه بالنعيم المقيم الذي لا يصفه الواصفون .

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ويدخل في اسم المعصية الكُفر فما دونه من المعاصي ، فلا يكون فيها شُبهة للخوارج القائلين بكفر أهل المعاصي فإنَّ الله تعالى رتب دخول الجنة على طاعته وطاعة رسوله . ورتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله ، فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنة بلا عذاب . ومن عصى الله ورسوله معصية تامة يدخل فيها الشرك فما دونه ، دخل النار وخلد فيها ، ومن اجتمع فيه معصية وطاعة ، كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية .

وقد دلت النُّصوص المتواترة على أن الموحّدين الذين معهم طاعة التوحيد ، غير مُخلَّدين في النار ، فما معهم من التوحيد مانع لهم من الخلود فيها .[٦١]

[ ١٥ : ١٦ – ٤ ] : ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾

أي : النساء ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي : الزنا ، ووصفها بالفاحشة لشناعتها وقبحها .

﴿فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ أي : من رجالكم المؤمنين العدول .

﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ﴾ أي : احبسوهن عن الخروج الموجب للريبة ، وأيضًا فإن

---

= أبى أمامة . وصحّحه العلامة الألباني – رحمه الله – في : « الإرواء » ٦ / ٨٧ ح ١٦٥٥.
وذكر له وجوهًا أخرى فراجعها هناك .

(٦١) * قال الكتاني في « نظم المتناثر » ص ٢٨: ( حديث : من شهد أن لا إله إلا الله وجبت له الجنة .
أورده في الأزهار ، من حديث : معاذ بن جبل ، وعُتبان بن مالك ، وعدّ من رواه من الصّحابة فبلغوا ٣٥ صحابيًا. ثُمّ قال : ( وقيل : كان في ابتداء الإسلام حين كانت الدّعوة إلى مُجرّد الإقرار بالتوحيد ، فلما فرضت الفرائض ، وحدت الحدود نسخ ذلك. وإلى هذا ذهب الضحاك ، والزهري ، وسفيان الثوري ، وغيرهم . وقيل : لمن قالها تائبًا ، ومات على توبته . وقيل : المُراد به تحريم نار الخلود ، ودخوله الجنّة لا محالة ابتداءً ، أو بعد التطهير بالنار. والله أعلم .
وفي فيض القدير : ( إنّ القدر المشترك من أحاديث أن من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنّة بلغ مبلغ التواتر المعنوي لا اللفظي . فتأمل ذلك ) .اهـ

الحبس من جملة العقوبات ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ أي : هذا منتهى الحبس ، ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ أي : طريقا غير الحبس في البيوت .

وهذه الآية ليست منسوخة ، وإنما هي مغيّاة إلى ذلك الوقت ، فكان الأمر في أوّل الإسلام كذلك حتى جعل اللّه لهن سبيلا ، وهو رجم المُحصن وجلد غير المُحصن . ﴿وَ﴾ كذلك ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا﴾ أي : الفاحشة ﴿مِنكُمْ﴾ من الرجال والنساء ﴿فَآذُوهُمَا﴾ بالقول والتوبيخ والتعيير والضرب الرادع عن هذه الفاحشة ، فعلى هذا يكون الرجال إذا فعلوا الفاحشة يؤذون ، والنساء يحبسن ويؤذين .

فالحبس غايته إلى الموت ، والأذية نهايتها إلى التوبة والإصلاح ، ولهذا قال : ﴿فَإِن تَابَا﴾ أي : رجعا عن الذنب الذي فعلاه وندما عليه ، وعزما على أن لا يعودا ﴿وَأَصْلَحَا﴾ العمل الدال على صدق التوبة ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ أي : عن أذاهما ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ أي : كثير التوبة على المذنبين الخطائين ، عظيم الرحمة والإحسان ، الذي –من إحسانه– وفقهم للتوبة وقبلها منهم ، وسامحهم عن ما صدر منهم .

ويُؤخذ من هاتين الآيتين أن بيّنة الزنا ، لا بد أن تكون أربعة رجال مؤمنين ، ومن باب أولى وأحرى اشتراط عدالتهم ؛ لأن اللّه تعالى شدّد في أمر هذه الفاحشة ، سترًا لعباده ، حتى إنه لا يقبل فيها النساء مُنفردات ، ولا مع الرجال ، ولا ما دون أربعة .

ولا بد من التصريح بالشهادة ، كما دلّت على ذلك الأحاديث الصحيحة [٦٢] ، وتُومئ إليه هذه الآية لما قال : ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ لم يكتف بذلك حتى قال : ﴿فَإِن شَهِدُوا﴾ أي : لا بد من شهادة صريحة عن أمر يُشاهَد عيانًا ، من غير تعريض ولا كناية .

ويؤخذ منهما أن الأذية بالقول والفعل والحبس ، قد شرعه اللّه تعزيرًا لجنس المعصية الذي يحصل به الزجر .

[ ٤ : ١٧ – ١٨ ] : ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ .

توبة اللّه على عباده نوعان : توفيق منه للتوبة ، وقبول لها بعد وجودها من العبد ، فأخبر هنا –أن التوبة

---

(٦٢) * ومنها ما أخرجه أبو داود في سُننه : ( كتاب الحدود / باب : في رجم اليهوديين / ح ٤٤٥٢ ) . عن جابر بن عبد اللّه قال : جاءت اليهود برجل وامرأة منهم قد زنيا فقال : النبي ﷺ : ائتوني بأعلم رجلين منكم فأتوه بابني صوريا فنشدهما : كيف تجدان أمر هذين في التوراة؟ ، قالا : نجد في التوراة إذا شهد أربعة أنهم رأوا ذكره في فرجها مثل الميل في المكحلة رجما . قال : فما يمنعكما أن ترجموهما ؛ قالا : ذهب سلطاننا فكرهنا القتل ؛ فدعا رسول اللّه ﷺ بالشهود ، فجاؤوا فشهدوا أنهم رأوا ذكره في فرجها مثل الميل في المكحلة ؛ فأمر رسول اللّه ﷺ برجمهما .

المُستحقة على الله حق أحقه على نفسه ، كرما منه وجودا ، لمن عمل السوء أي : المعاصي ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي : جهالة منه بعاقبتها وإيجابها لسخط الله وعقابه ، وجهل منه بنظر الله ومراقبته له ، وجهل منه بما تئول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه ، فكل عاص لله ، فهو جاهل بهذا الاعتبار وإن كان عالما بالتحريم ، بل العلم بالتحريم شرط لكونها معصية مُعاقبًا عليها .

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ يحتمل أن يكون المعنى : ثم يتوبون قبل معاينة الموت ، فإن الله يقبل توبة العبد إذا تاب قبل معاينة الموت والعذاب قطعا . وأما بعد حضور الموت فلا يُقبل من العاصين توبة ولا من الكُفَّار رجوع ، كما قال تعالى عن فرعون : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [ سورة يونس ٩٠ ] الآية ، وقال تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾ [ سورة غافر ٨٤ – ٨٥ ] ، وقال هنا : ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي : المعاصي فيما دون الكفر .

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ وذلك أن التوبة في هذه الحال توبة اضطرار لا تنفع صاحبها ، إنما تنفع توبة الاختيار .

ويحتمل أن يكون معنى قوله : ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ أي : قريب من فعلهم للذنب الموجب للتوبة ، فيكون المعنى : أن من بادر إلى الإقلاع من حين صدور الذنب وأناب إلى الله وندم عليه فإن الله يتوب عليه ، بخلاف من استمر على ذنوبه وأصر على عيوبه ، حتى صارت فيه صفاتٍ راسخةً فإنه يعسر عليه إيجاد التوبة التامة .

والغالب أنه لا يوفق للتوبة ولا ييسر لأسبابها ، كالذي يعمل السوء على علم تام ويقين وتهاون بنظر الله إليه ، فإنه سد على نفسه باب الرحمة .

نعم قد يوفِّق الله عبده المُصِر على الذنوب عن عمد ويقين لتوبة تامة التي يمحو بها ما سلف من سيئاته وما تقدم من جناياته ، ولكن الرحمة والتوفيق للأوَّل أقرب ، ولهذا ختم الآية الأولى بقوله : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ . فمِن علمه أنه يعلم صادق التوبة وكاذبها فيُجازي كلا منهما بحسب ما يستحق بحكمته ، ومن حِكمته أن يوفق من اقتضت حكمته ورحمته توفيقَه للتوبة ، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله عدمَ توفيقه . والله أعلم .

[ ١٩ : ٢١ – ٤ ] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ۝١٩ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ۝٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ .

كانوا في الجاهلية إذا مات أحدهم عن زوجته ، رأى قريبُه كأخيه وابن عمه ونحوهما أنه أحق بزوجته من كل أحد ، وحماها عن غيره ، أحبت أو كرهت . فإن أحبها تزوجها على صداق يحبه دونها ، وإن لم يرضها عضلها فلا يزوجها إلا من يختاره هو ، وربما امتنع من تزويجها حتى تبذل له شيئًا من ميراث قريبه أو من صداقها ، وكان الرجل أيضًا يعضل زوجته التي يكون يكرهها ليذهب ببعض ما آتاها ، فنهى اللّه المؤمنين عن جميع هذه الأحوال إلا حالتين : إذا رضيت واختارت نكاح قريب زوجها الأول ، كما هو مفهوم قوله : ﴿ كَرْهًا ﴾ وإذا أتين بفاحشة مُبينة كالزّنا والكلام الفاحش وأذيتها لزوجها فإنه في هذه الحال يجوز له أن يعضلها ، عقوبة لها على فعلها لتفتدي منه إذا كان عضلا بالعدل .

ثم قال : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية ، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف ، من الصحبة الجميلة ، وكف الأذى وبذل الإحسان ، وحُسن المُعاملة ، ويدخل في ذلك النفقة والكسوة ونحوهما ، فيجب على الزوج لزوجته المعروف من مثله لمثلها في ذلك الزمان والمكان ، وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال .

﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ أي : ينبغي لكم – أيها الأزواج – أن تُمسِكُوا زوجاتكم مع الكراهة لهن ، فإن في ذلك خيرًا كثيرًا . من ذلك امتثال أمر اللّه ، وقبول وصيته التي فيها سعادة الدنيا والآخرة .

ومنها أن إجباره نفسَه – مع عدم محبته لها– فيه مجاهدة النفس ، والتخلق بالأخلاق الجميلة . وربما أن الكراهة تزول وتخلفها المحبة ، كما هو الواقع في ذلك ، وربما رُزق منها ولدا صالحا نفع والديه في الدنيا والآخرة ، وهذا كله مع الإمكان في الإمساك وعدم المحذور ، فإن كان لا بد من الفراق ، وليس للإمساك محل ، فليس الإمساك بلازم .

بل متى ﴿ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ ﴾ أي : تطليقَ زوجة وتزوجَ أخرى . أي : فلا جناح عليكم في ذلك ولا حرج . ولكن إذا ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ ﴾ أي : المُفارقة أو التي تزوجها ﴿ قِنطَارًا ﴾ أي : مالا كثيرا . ﴿ فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ بل وفّروه لهنّ ولا تمطلوا بهن .

وفي هذه الآية دلالة على عدم تحريم كثرة المهر ، مع أن الأفضل واللائق الاقتداءُ بالنبي ﷺ في تخفيف المهر .

ووجه الدلالة أن اللّه أخبر عن أمر يقع منهم ، ولم يُنكره عليهم ، فدل على عدم تحريمه ، لكن قد ينهى عن كثرة الصداق إذا تضمن مفسدة دينية وعدم مصلحة تقاوم .

ثم قال : ﴿ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ فإن هذا لا يحل ولو تحيلتم عليه بأنواع الحيل ، فإن إثمه واضح .

وقد بيّن تعالى حكمة ذلك بقوله : ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ وبيان ذلك : أن الزوجة قبل عقد النكاح مُحرّمة على الزوج ولم ترض بحلها له إلا بذلك المهر الذي يدفعه لها ، فإذا دخل بها وأفضى إليها وباشرها المُباشرة التي كانت حراما قبل ذلك ، والتي

لم ترض ببذلها إلا بذلك العوض ، فإنه قد استوفى المعوض فثبت عليه العوض . فكيف يستوفي المعوض ثم بعد ذلك يرجع على العوض؟ هذا من أعظم الظلم والجور ، وكذلك أخذ الله على الأزواج ميثاقا غليظا بالعقد ، والقيام بحقوقها . ثم قال تعالى :

[٢٢ – ٤] : ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾

أي : لا تتزوجوا من النساء ما تزوجهن آباؤكم أي : الأب وإن علا . ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ أي : أمرا قبيحا يفحش ويعظم قبحه ﴿وَمَقْتًا﴾ من الله لكم ومن الخلق بل يمقت بسبب ذلك الابن أباه والأب ابنه ، مع الأمر ببره .

﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي : بئس الطريق طريقا لمن سلكه لأن هذا من عوائد الجاهلية ، التي جاء الإسلام بالتنزه عنها والبراءة منها .

[٢٣ : ٢٤ – ٤] : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ .

هذه الآيات الكريمات مُشتمِلات على المُحرَّمات بالنسب ، والمُحرَّمات بالرضاع ، والمُحرَّمات بالصهر ، والمُحرَّمات بالجمع ، وعلى المُحلَّلات من النساء .

فأمَّا المُحرَّمات في النسب فهُنَّ السبع اللاتي ذكرهن الله . الأم يدخل فيها كل من لها عليك ولادة ، وإن بَعُدَت ، ويدخل في البنت كل من لك عليها ولادة ، والأخوات الشقيقات ، أو لأب أو لأم ، والعمة : كل أخت لأبيك أو لجدك وإن علا ، والخالة : كل أخت لأمك ، أو جدتك وإن علت وارثة أم لا ، وبنات الأخ وبنات الأخت أي : وإن نزلت .

فهؤلاء هُنَّ المُحرَّمات من النسب بإجماع العُلماء كما هو نص الآية الكريمة وما عداهن فيدخل في قوله : ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ ، وذلك كبنت العمة والعم وبنت الخال والخالة .

وأما المُحرَّمات بالرضاع فقد ذكر الله منهن الأم والأخت ، وفي ذلك تحريم الأم مع أن اللبن ليس لها ، إنما هو لصاحب اللبن ، دل بتنبيهه على أن صاحب اللبن يكون أبا للمُرتضع فإذا ثبتت الأبوة والأمومة ثبت ما هو فرع عنهما كإخوتهما وأصولهم وفروعهم وقال النبي ﷺ : « يَحْرُم من الرَّضاع ما يَحْرُم من

النسب »(٦٣)، فينشر التحريم من جهة المُرضعة ومن له اللبن كما ينتشر في الأقارب ، وفي الطفل المُرتضع إلى ذُريَّته فقط ، لكن بشرط أن يكون الرضاع خمس رضعات في الحولين كما بينت السُّنَّة(٦٤) .

وأما المُحرَّمات بالصهر فهن أربع . حلائل الآباء وإن علوا ، وحلائل الأبناء وإن نزلوا ، وارثين أو محجوبين . وأمهات الزوجة وإن علون ، فهؤلاء الثلاث يحرمن بمجرد العقد . والرابعة : الربيبة وهي بنت زوجته وإن نزلت ، فهذه لا تحرم حتى يدخل بزوجته كما قال هنا ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾ الآية .

وقد قال الجمهور : إن قوله : ﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ قيد خرج مخرج الغالب لا مفهوم له ، فإن الربيبة تحرم ولو لم تكن في حجره ولكن للتقييد بذلك فائدتان : **أحداهما** : فيه التنبيه على الحكمة في تحريم الربيبة وأنها كانت بمنزلة البنت فمن المستقبح إباحتها . **الثانية** : فيه دلالة على جواز الخلوة بالربيبة وأنها بمنزلة من هي في حجره من بناته ونحوهن ، والله أعلم .

وأمَّا المُحرَّمات بالجمع فقد ذكر اللَّه الجمع بين الأختين وحرمه وحرَّم النبي ﷺ الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها(٦٥) ، فكل امرأتين بينهما رحم محرم لو قدر إحداهما ذكرًا والأخرى أنثى حرمت عليه فإنه يحرم الجمع بينهما ، وذلك لما في ذلك من أسباب التقاطع بين الأرحام .

﴿وَ﴾ من المُحرَّمات في النكاح ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي : ذوات الأزواج ، فإنه يحرم نكاحهن ما دُمن في ذمَّة الزوج حتى تُطلَّق وتنقضي عدَّتها .

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ أي : بالسبي ، فإذا سبيت الكافرة ذات الزوج حلت للمُسلمين بعد أن تستبرأ(٦٦) .

---

(٦٣) *مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ . من حديث عائشة . أخرجه البُخاري في صحيحه :( كتاب الشهادات / باب : الشهادة على الأنساب والرَّضاع المُستفيض والموت القديم/ح ٢٦٤٦ ) . ومُسلم في صحيحه :( كتاب الرَّضاع / باب : يحرم من الرَّضاعة ما يحرم من الولادة/ ح ١، ٢ ) .

(٦٤) *كما في صحيح مُسلم عن عائشة – رضي اللَّه عنها – قالت : كان فيما أنزل من القرآن : عشر رضعات معلومات يُحرِّمن ، ثم نسخن بخمس رضعات ، فتوفى رسول اللَّه ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن . أخرجه مُسلم في صحيحه : ( كتاب الرَّضاع / باب : التَّحريم بخمس رضعات/ح ٢٤، ٢٥ ) .

(٦٥) *مُتَّفق عليه . من حديث أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : لا يُجمع بين المرأة وعمتها ، ولا بين المرأة وخالتها . أخرجه البُخاري :( كتاب النكاح/ باب : لا تنكح المرأة على عمتها / ح ٥١٠٩، ٥١١٠ ) .
ومُسلم :( ٢ / كتاب النكاح / باب : تحريم الجمع بين المرأة وعمَّتها أو خالتها في النِّكاح/ ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠ ) .

(٦٦) *عن أبي سعيد الخُدري أنَّ رسول اللَّه ﷺ يوم حُنين بعث جيشًا إلى أوطاس فلقوا عدوًّا فقاتلوهم ، فظهروا عليهم ، وأصابوا لهم سبايا ، فكأنَّ ناسًا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ تحرَّجوا من غشيانهم من أجل أزواجهم من المُشركين ، فأنزل اللَّه عز وجل :﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ [ سورة النِّساء ٢٤] .
أخرجه مُسلم في صحيحه : ( كتاب الرَّضاع/ باب : جواز وطء المسبيَّة بعد الاستبراء ، وإنْ كان لها زوج انفسخ نكاحها بالسبي/ ح ٣٣، ٣٤) .

وأما إذا بيعت الأمة المزوجة أو وهبت فإنه لا ينفسخ نكاحها لأن المالك الثاني نزل منزلة الأوّل ولقصة بريرة حين خيّرها النبي ﷺ[٦٧].

وقولـه : ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ أي : الزموه واهتدوا به فإن فيه الشفاء والنور وفيه تفصيل الحلال من الحرام .

ودخل في قوله : ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾ كلُّ ما لم يذكر في هذه الآية ، فإنه حلال طيب ، فالحرام محصور والحلال ليس له حد ولا حصر لطفًا من الله ورحمة وتيسيرًا للعباد .

وقوله : ﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم﴾ أي : تطلبوا من وقع عليه نظركم واختياركم من اللاتي أباحهن الله لكم حالة كونكم ﴿مُّحۡصِنِينَ﴾ أي : مُستعفِّين عن الزنا ، ومُعِفِّين نساءكم .

﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾ والسفح : سفح الماء في الحلال والحرام ، فإن الفاعل لذلك لا يحصن زوجته لكونه وضع شهوته في الحرام فتضعف داعيته للحلال فلا يبقى محصنا لزوجته .

وفيها دلالة على أنه لا يُزوَّج غير العفيف لقوله تعالى : ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ﴾ [سورة النور ٣] .

﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ﴾ أي : ممن تزوجتموها ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي : الأجور في مُقابلة الاستمتاع ، ولهذا إذا دخل الزوج بزوجته تقرَّر عليه صداقها ﴿فَرِيضَةٗۚ﴾ أي : إتيانكم إيَّاهن أجورهن فرض فرضه الله عليكم ، ليس بمنزلة التبرع الذي إن شاء أمضاه وإن شاء رده .

أو معنى قوله فريضة : أي : مُقدَّرة قد قدَّرتموها فوجبت عليكم ، فلا تنقصوا منها شيئًا .

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ﴾ أي : بزيادة من الزوج أو إسقاط من الزوجة عن رضا وطيب نفس ،هذا قول كثير من المفسّرين ، وقال كثير منهم : إنها نزلت في مُتعة النساء التي كانت حلالا في أوّل الإسلام ثم حرّمها النبي ﷺ[٦٨] ، وأنه يؤمر بتوقيتها وأجرها ، ثم إذا انقضى الأمد الذي بينهما فتراضيا بعد الفريضة فلا حرج عليهما ، والله أعلم .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ أي : كامل العلم واسعه ، كامل الحكمة : فمن علمه وحكمته شرع لكم هذه الشرائع وحدَّ لكم هذه الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام .

[٢٥ - ٤] : ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ

---

(٦٧) * أخرجه مُسلم في صحيحه : ( كتاب العتق/ باب : إنَّما الولاء لمن اعتق/ ح ٩، ١٠، ١١) .

(٦٨) * مُتَّفقٌ عليه . أخرجه البُخاري في صحيحه : ( كتاب المغازي/ باب : غزوة خيبر/ ح٤٢١٧) ، ( كتاب النِّكاح / باب : نهي ﷺ عن نكاح المُتعة آخرًا/ ح ٥١١٥) ، (كتاب الذَّبائح والصَّيد/ باب : لحوم الحُمر الإنسيَّة/ ح ٥٥٢٣) ، ( كتاب الحيل/ باب : الحيلة في النِّكاح/ ح ٦٩٦١) . ومسلم : ( كتاب النِّكاح/ باب : نكاح المُتعة وبيان أنَّه أُبيح ثمَّ نُسخ ثُمَّ أبيح ، ثُمَّ نُسخ ، واستقر تحريمه إلى يوم القيامة/ ح ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢) . عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ نهى عن مُتعة النِّساء ، يوم خيبر ، ونهى عن أكل لحوم الحُمر الإنسيَّة .

قلت : وفي الباب عن ابن مسعود ، وجابر ، وسلمة بن الأكوع ، سبرة بن معبد ، وغيرهم رضي الله عنهم .

أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

ثم قال تعالى ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ الآية . أي : ومن لم يستطع الطول الذي هو المهر لنكاح المُحصنات أي : الحرائر المُؤمنات وخاف على نفسه العَنَت أي : الزنا والمشقة الكثيرة ، فيجوز له نكاح الإماء المملوكات المُؤمنات ، وهذا بحسب ما يظهر ، وإلا فالله أعلم بالمؤمن الصادق من غيره ، فأُمور الدنيا مبنيّة على ظواهر الأمور ، وأحكام الآخرة مبنية على ما في البواطن .

﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾ أي : المملوكات ﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أي : سيّدهن واحدا أو متعددا .

﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي : ولو كُن إماء ، فإنه كما يجب المهر للحُرة فكذلك يجب للأمة ، ولكن لا يجوز نكاح الإماء إلا إذا كن ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ أي : عفيفات عن الزنا ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ أي : زانيات علانية . ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ أي : أخِلَّاء في السر . فالحاصل أنه لا يجوز للحر المُسلم نكاح أمة إلا بأربعة شروط ذكرها اللّٰه : الإيمان بهن والعفة ظاهرا وباطنا ، وعدم استطاعة طول الحُرّة ، وخوف العنت ، فإذا تمت هذه الشروط جاز له نكاحهن .

ومع هذا فالصبر عن نكاحهن أفضل لما فيه من تعريض الأولاد للرق ، ولما فيه من الدناءة والعيب . وهذا إذا أمكن الصبر ، فإن لم يمكن الصبر عن المحرم إلا بنكاحهن وجب ذلك .

ولهذا قال : ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقوله : ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ أي : تزوجن أو أسلمن أي : الإماء ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أي : الحرائر ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ .

وذلك الذي يمكن تنصيفه وهو : الجلد فيكون عليهن خمسون جَلْدة . وأما الرجم فليس على الإماء رجم لأنه لا يتنصف ، فعلى القول الأوَّل إذا لم يتزوجن فليس عليهن حد ، إنما عليهن تعزير يردعهن عن فعل الفاحشة ، وعلى القول الثاني : إن الإماء غير المُسلمات ، إذا فعلن فاحشة أيضًا عُزِّرن .

وختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لكون هذه الأحكام رحمةً بالعباد وكرمًا وإحسانًا إليهم فلم يضيق عليهم ، بل وسع غاية السعة .

ولعل في ذكر المغفرة بعد ذكر الحد إشارة إلى أن الحدود كفارات ، يغفر اللّٰه بها ذنوب عباده كما ورد بذلك الحديث[٦٩] . وحكم العبد الذكر في الحد المذكور حكم الأمة لعدم الفارق بينهما .

---

(٦٩) * عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ، قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ فِي مَجْلِسٍ فَقَالَ : تُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللّٰهِ شَيْئًا وَلَا تَزْنُوا وَلَا تَسْرِقُوا وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّٰهُ إِلَّا بِالْحَقِّ فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّٰهِ وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَسَتَرَهُ اللّٰهُ عَلَيْهِ فَأَمْرُهُ إِلَى اللّٰهِ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ . مُتَّفق عليه . أخرجه البُخاري في غير موضع من صحيحه ، منها : ( كتاب الإيمان / باب : ١١ / ح ١٨ ) . ومُسلم في صحيحه : ( كتاب الحدود / باب : الحدود كفَّارات لأهلها / ح ٤١، ٤٢، ٤٣ ) .

[ ٢٦ : ٢٨ - ٤ ] : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ .

يُخبر تعالى بمنته العظيمة ومنحته الجسيمة ، وحسن تربيته لعباده المؤمنين وسهولة دينه فقال : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي : جميع ما تحتاجون إلى بيانه من الحق والباطل ، والحلال والحرام ، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي : الذين أنعم اللّه عليهم من النبيّين وأتباعهم ، في سيرهم الحميدة ، وأفعالهم السديدة ، وشمائلهم الكاملة ، وتوفيقهم التام .

فلذلك نفذ ما أراده ، ووضح لكم وبين بيانا كما بين لمن قبلكم ، وهداكم هداية عظيمة في العلم والعمل .

﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي : يُلطِّف لكم في أحوالكم وما شرعه لكم حتى تمكّنوا من الوقوف على ما حده اللّه ، والاكتفاء بما أحله فتقل ذنوبكم بسبب ما يسر اللّه عليكم فهذا من توبته على عباده .

ومن توبته عليهم أنهم إذا أذنبوا فتح لهم أبواب الرحمة وأوزع قلوبهم الإنابة إليه ، والتذلُّل بين يديه ثم يتوب عليهم بقبول ما وفقهم له ، فله الحمد والشكر على ذلك .

وقوله : ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي : كامل الحكمة ، فمن علمه أن علمكم ما لم تكونوا تعلمون ، ومنها هذه الأشياء والحدود . ومن حكمته أنه يتوب على من اقتضت حكمته ورحمته التوبة عليه ، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله من لا يصلح للتوبة .

وقوله : ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي : توبة تلم شعثكم ، وتجمع مُتفرقكم ، وتُقرب بعيدكم .

﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ أي : يميلون معها حيث مالت ويقدمونها على ما فيه رضا محبوبهم ، ويعبدون أهواءهم ، من أصناف الكفرة والعاصين ، المقدمين لأهوائهم على طاعة ربهم .

فهؤلاء يريدون ﴿أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ أي : أن تنحرفوا عن الصراط المُستقيم إلى صراط المغضوب عليهم والضالين .يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان ، وعن التزام حدود من السعادة كلها في امتثال أوامره ، إلى مَنْ الشقاوةُ كلها في اتباعه . فإذا عرفتم أن اللّه تعالى يأمركم بما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم ، وأن هؤلاء المُتّبعين لشهواتهم يأمرونكم بما فيه غاية الخسار والشقاء ، فاختاروا لأنفسكم أوْلى الداعيين ، وتخيّروا أحسن الطريقتين .

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ أي : بسهولة ما أمركم به و ما نهاكم عنه ، ثم مع حُصُول المشقة في بعض الشرائع أباح لكم ما تقتضيه حاجتكم ، كالميتة والدم ونحوهما للمُضطر ، وكتزوج الأمَة للحر بتلك الشروط السابقة . وذلك لرحمته التامة وإحسانه الشامل ، وعلمه وحكمته بضعف الإنسان من جميع الوجوه ، ضعف البنية ، وضعف الإرادة ، وضعف العزيمة ، وضعف الإيمان ، وضعف الصبر ، فناسب ذلك أن يُخفِّف اللّه عنه ، ما يضعف عنه وما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوّته .

[ ٢٩ : ٣٠ - ٤ ] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ .

ينهى تعالى عباده المُؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل ، وهذا يشمل أكلها بالغُصوب والسرقات ، وأخذها بالقمار والمكاسب الرديئة ؛ بل لعله يدخل في ذلك أكل مال نفسك على وجه البطر والإسراف ، لأن هذا من الباطل وليس من الحق .

ثم إنه – لما حرّم أكلها بالباطل– أباح لهم أكلها بالتجارات والمكاسب الخالية من الموانع ، المُشتملة على الشروط من التراضي وغيره .

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي : لا يقتل بعضكم بعضًا ، ولا يقتل الإنسان نفسه .

ويدخل في ذلك الإلقاءُ بالنفس إلى التهلكة ، وفعلُ الأخطار المُفضية إلى التلف والهلاك .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ومن رحمته أن صان نفوسكم وأموالكم ، ونهاكم عن إضاعتها وإتلافها ، ورتب على ذلك ما رتبه من الحدود .

وتأمّل هذا الإيجاز والجمع في قوله : ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم﴾ ، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ كيف شمل أموال غيرك ومال نفسك وقتل نفسك وقتل غيرك بعبارة أخصر من قوله : « لا يأكل بعضكم مال بعض » و « لا يقتل بعضكم بعضًا » مع قصور هذه العبارة على مال الغير ونفس الغير فقط .

مع أن إضافة الأموال والأنفس إلى عُموم المؤمنين فيه دلالة على أن المُؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ومصالحهم كالجسد الواحد ، حيث كان الإيمان يجمعهم على مصالحهم الدينيّة والدنيويّة .

ولما نهى عن أكل الأموال بالباطل التي فيها غاية الضرر عليهم ، على الآكل ، ومن أخذ ماله ، أباح لهم ما فيه مصلحتهم من أنواع المكاسب والتجارات ، وأنواع الحرف والإجارات ، فقال : ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ أي : فإنها مُباحة لكم .

وشَرط التراضي –مع كونها تجارة– لدلالة أنه يشترط أن يكون العقد غير عقد ربا ، لأن الربا ليس من التجارة ، بل مُخالف لمقصودها ، وأنه لا بد أن يرضى كل من المتعاقدين ويأتي به اختيارًا .

ومن تمام الرضا أن يكون المعقود عليه معلوما ، لأنه إذا لم يكن كذلك لا يُتصور الرضا مقدورًا على تسليمه ، لأن غير المقدور عليه شبيه ببيع القمار ، فبيع الغرر بجميع أنواعه خال من الرضا فلا ينفذ عقده .

وفيها أنه تنعقد العقود بما دل عليها من قول أو فعل ، لأن الله شرط الرضا فبأي طريق حصل الرضا انعقد به العقد .

ثم ختم الآية بقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ومن رحمته أن عصم دماءكم وأموالكم وصانها ونهاكم عن انتهاكها .

[٣٠ - ٤] : ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ .

ثم قال : ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي : أكل الأموال بالباطل وقتل النفوس ﴿عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾ أي : لا جهلا ونسيانا ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ أي : عظيمة كما يفيده التنكير ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ .

[٣١ - ٤] : ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾

وهذا من فضل الله وإحسانه على عباده المؤمنين وعدهم أنهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيات غفر لهم جميع الذنوب والسيئات وأدخلهم مُدخلا كريما كثير الخير وهو الجنة المشتملة على ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ويدخل في اجتناب الكبائر فعل الفرائض التي يكون تاركها مُرتكبا كبيرة ، كالصلوات الخمس ، والجمعة ، وصوم رمضان ، كما قال النبي ﷺ : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مُكفِّرات لما بينهما ما اجتنبت الكبائر »[٧٠] . وأحسن ما حُدَّت به الكبائر ، أن الكبيرة ما فيه حد في الدنيا ، أو وعيد في الآخرة ، أو نفي إيمان ، أو ترتيب لعنة ، أو غضب عليه .

[٣٢ - ٤] : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ .

ينهى تعالى المؤمنين عن أن يتمنَّى بعضهم ما فضل الله به غيره من الأمور الممكنة وغير الممكنة . فلا تتمنى النساء خصائص الرجال التي بها فضلهم على النساء ، ولا صاحب الفقر والنقص حالة الغنى والكمال تمنيا مُجرَّدا لأن هذا هو الحسد بعينه ، تمني نعمة الله على غيرك أن تكون لك ويسلب إياها . ولأنه يقتضي السخط على قدر الله والإخلاد إلى الكسل والأماني الباطلة التي لا يقترن بها عمل ولا كسب .

وإنما المحمود أمران : أن يسعى العبد على حسب قُدرته بما ينفعه من مصالحه الدينية والدنيوية ، ويسأل الله تعالى من فضله ، فلا يتكل على نفسه ولا على غير ربه .

ولهذا قال تعالى : ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ أي : من أعمالهم المُنتجة للمطلوب ، ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ فكل منهم لا يناله غير ما كسبه وتعب فيه

﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي : من جميع مصالحكم في الدين والدنيا ، فهذا كمال العبد وعنوان سعادته لا من يترك العمل ، أو يتكل على نفسه غير مفتقر لربه ، أو يجمع بين الأمرين فإن هذا مخذول خاسر .

وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فيُعطي من يَعْلَمه أهلا لذلك ، ويمنع من يعلمه غير مستحق .

---

(٧٠) * أخرجه مُسلم في صحيحه :( كتاب الطهارة /باب : الصَّلوات الخمس ، والجمعة إلى الجُمعة ورمضان إلى رمضان مُكفِّرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر/ ح ١٤، ١٥، ١٦ )، من حديث أبي هريرة .

[٣٣ - ٤] : ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ .

أي : ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الناس ﴿جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ أي : يتولونه ويتولاهم بالتعزز والنصرة والمعاونة على الأمور .

﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ وهذا يشمل سائر الأقارب من الأُصول والفروع والحواشي ، هؤلاء الموالي من القرابة .

ثم ذكر نوعا آخر من الموالي فقال : ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي : حالفتموهم بما عقدتم معهم من عقد المحالفة على النصرة والمساعدة والاشتراك بالأموال وغير ذلك .

وكل هذا من نعم الله على عباده ، حيث كان الموالي يتعاونون بما لا يقدر عليه بعضهم مُفردا .

قال تعالى : ﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي : آتوا الموالي نصيبهم الذي يجب القيام به من النصرة والمُعاونة والمساعدة على غير معصية الله . والميراث للأقارب الأدنين من الموالي .

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي : مُطَّلِعًا على كل شيء بعلمه لجميع الأمور ، وبصره لحركات عباده ، وسمعه لجميع أصواتهم .

[٣٤ - ٤] : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ .

يُخبر تعالى أن الرِّجال ﴿قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أي : قوّامون عليهن بإلزامهن بحقوق الله تعالى ، من المحافظة على فرائضه وكفِّهن عن المفاسد ، والرجال عليهم أن يلزموهن بذلك ، وقوامون عليهن أيضًا بالإنفاق عليهن ، والكسوة والمسكن ، ثم ذكر السبب الموجب لقيام الرجال على النساء فقال : ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي : بسبب فضل الرجال على النساء وإفضالهم عليهن ، فتفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة : من كون الولايات مُختصة بالرجال ، والنُّبوة ، والرسالة ، واختصاصهم بكثير من العبادات كالجهاد والأعياد والجُمع .

وبما خصَّهم الله به من العقل والرزانة والصبر والجلد الذي ليس للنساء مثله .

وكذلك خصهم بالنفقات على الزوجات بل وكثير من النفقات يختص بها الرجال ويتميزون عن النساء .

ولعل هذا سر قوله : ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا﴾ وحذف المفعول ليدل على عموم النفقة . فعُلم من هذا كله أن الرجل كالوالي والسيد لامرأته ، وهي عنده عانية أسيرة خادمة ، فوظيفته أن يقوم بما استرعاه الله به ، ووظيفتها : القيام بطاعة ربها وطاعة زوجها .

فلهذا قال: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾ أي: مُطيعات لله تعالى ﴿حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ﴾ أي: مُطيعات لأزواجهن حتى في الغيب تحفظ بعلها بنفسها وماله، وذلك بحفظ الله لهن وتوفيقه لهن، لا من أنفسهن، فإن النفس أمارة بالسوء، ولكن من توكل على الله كفاه ما أهمه من أمر دينه ودنياه.

ثم قال: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ أي: ارتفاعهن عن طاعة أزواجهن بأن تعصيه بالقول أو الفعل فإنه يؤدّبها بالأسهل فالأسهل، ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ أي: ببيان حكم الله في طاعة الزوج ومعصيته والترغيب في الطاعة، والترهيب من معصيته، فإن انتهت فذلك المطلوب، وإلا فيهجرها الزوج في المضجع، بأن لا يُضاجعها، ولا يُجامعها بمقدار ما يحصل به المقصود، وإلا ضربها ضربًا غير مُبرّح، فإن حصل المقصود بواحد من هذه الأمور وأطعنكم ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي: فقد حصل لكم ما تحبون فاتركوا معاتبتها على الأمور الماضية، والتنقيب عن العيوب التي يضر ذكرها ويحدث بسببه الشر.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ أي: له العلو المُطلق بجميع الوجوه والاعتبارات، علو الذات وعلو القدر وعلو القهر الكبير الذي لا أكبر منه ولا أجل ولا أعظم، كبير الذات والصّفات.

[٣٥ - ٤]: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.

أي: وإن خفتم الشقاق بين الزوجين والمُباعدة والمُجانبة حتى يكون كل منهما في شق ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ أي: رجلين مُكلّفين مُسلمين عدلين عاقلين يعرفان ما بين الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق.

وهذا مُستفاد من لفظ «الحكم» لأنه لا يصلح حكما إلا من اتّصف بتلك الصفات، فينظران ما ينقم كل منهما على صاحبه، ثم يلزمان كلا منهما ما يجب، فإن لم يستطع أحدهما ذلك، قنعا الزوج الآخر بالرضا بما تيسر من الرزق والخلق، ومهما أمكنهما الجمع والإصلاح فلا يعدلا عنه.

فإن وصلت الحال إلى أنه لا يمكن اجتماعهما وإصلاحهما إلا على وجه المعاداة والمقاطعة ومعصية الله، ورأيا أن التفريق بينهما أصلح، فرقا بينهما.

ولا يُشترط رضا الزوج، كما يدل عليه أن الله سماهما حكمين، والحكم يحكم ولو لم يرض المحكوم عليه.

ولهذا قال: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ أي: بسبب الرأي الميمون والكلام الذي يجذب القلوب ويؤلف بين القرينين.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ أي: عالمًا بجميع الظواهر والبواطن، مُطّلعا على خفايا الأمور وأسرارها. فمِنْ علمه وخبره أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة والشرائع الجميلة.

[٣٦: ٣٨ - ٤]: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا

مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ .

يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له ، وهو الدخول تحت رقِّ عُبوديته ، والانقياد لأوامره ونواهيه ، محبّة وذلًّا وإخلاصا له ، في جميع العبادات الظاهرة والباطنة ، وينهى عن الشرك به شيئا لا شركا أصغر ولا أكبر ، لا مَلَكا ولا نبيًا ولا وليًا ولا غيرهم من المخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، بل الواجب المتعين إخلاص العبادة لمن له الكمال المطلق من جميع الوجوه ، وله التدبير الكامل الذي لا يشركه ولا يعينه عليه أحد .

ثم بعد ما أمر بعبادته والقيام بحقه أمر بالقيام بحقوق العباد الأقرب فالأقرب ، فقال : ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي : أحسنوا إليهم بالقول الكريم والخطاب اللطيف والفعل الجميل بطاعة أمرهما واجتناب نهيهما والإنفاق عليهما وإكرام من له تعلق بهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا بهما . وللإحسان ضدان ، الإساءةُ وعدمُ الإحسان . وكلاهما منهي عنه .

﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أيضًا إحسانا ، ويشمل ذلك جميع الأقارب ، قربوا أو بعدوا ، بأن يُحسن إليهم بالقول والفعل ، وأن لا يقطع برحمه بقوله أو فعله .

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ أي : الذين فقدوا آباءهم وهم صغار ، فلهم حق على المسلمين ، سواء كانوا أقارب أو غيرهم بكفالتهم وبرهم وجبر خواطرهم وتأديبهم ، وتربيتهم أحسن تربية في مصالح دينهم ودنياهم .

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ وهم الذين أسكنتهم الحاجة والفقر ، فلم يحصلوا على كفايتهم ، ولا كفاية من يمونون ، فأمر اللّٰه تعالى بالإحسان إليهم ، بسد خلتهم وبدفع فاقتهم ، والحض على ذلك ، والقيام بما يمكن منه .

﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي : الجار القريب الذي له حقان حق الجوار وحق القرابة ، فله على جاره حق وإحسان راجع إلى العرف .

﴿وَ﴾ كذلك ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ أي : الذي ليس له قرابة .

وكلما كان الجار أقرب بابًا كان آكد حقًّا ، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بالهدية والصدقة والدعوة واللطافة بالأقوال والأفعال وعدم أذيته بقول أو فعل .

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ قيل : الرفيق في السفر ، وقيل : الزوجة ، وقيل الصاحب مطلقا ، ولعله أولى ، فإنه يشمل الصاحب في الحضر والسفر ويشمل الزوجة .

فعلى الصاحب لصاحبه حق زائد على مُجرَّد إسلامه ، من مساعدته على أمور دينه ودنياه ، والنصح له ؛ والوفاء معه في اليسر والعسر ، والمنشط والمكره ، وأن يحب له ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لنفسه ،

وكلما زادت الصحبة تأكد الحق وزاد .

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو : الغريب الذي احتاج في بلد الغربة أو لم يحتج ، فله حق على المسلمين لشدة حاجته وكونه في غير وطنه بتبليغه إلى مقصوده أو بعض مقصوده وبإكرامه وتأنيسه .

﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ﴾ : أي : من الآدميين والبهائم بالقيام بكفايتهم وعدم تحميلهم ما يشق عليهم وإعانتهم على ما يتحملون ، وتأديبهم لما فيه مصلحتهم . فمن قام بهذه المأمورات فهو الخاضع لربه ، المتواضع لعباد الله ، المنقاد لأمر الله وشرعه ، الذي يستحق الثواب الجزيل والثناء الجميل ، ومن لم يقم بذلك فإنه عبد مُعْرِض عن ربه ، غير منقاد لأوامره ، ولا متواضع للخلق ، بل هو مُتكبر على عباد الله معجب بنفسه فخور بقوله ، ولهذا قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا﴾ أي : مُعجبًا بنفسه مُتكبرًا على الخلق ﴿فَخُورًا﴾ يثني على نفسه ويمدحها على وجه الفخر والبطر على عباد الله ، فهؤلاء ما بهم من الاختيال والفخر يمنعهم من القيام بالحقوق .

ولهذا ذمهم بذلك ، بقوله : ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ أي : يمنعون ما عليهم من الحُقوق الواجبة ، ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ بأقوالهم وأفعالهم ﴿وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ أي : من العلم الذي يهتدي به الضالون ويسترشد به الجاهلون فيكتمونه عنهم ، ويظهرون لهم من الباطل ما يَحُول بينهم وبين الحق ، فجمعوا بين البخل بالمال والبخل بالعلم ، وبين السعي في خسارة أنفسهم وخسارة غيرهم ، وهذه هي صفات الكافرين ، فلهذا قال تعالى : ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ أي : كما تكبّروا على عباد الله ومنعوا حقوقه وتسببوا في منع غيرهم من البخل وعدم الاهتداء ، أهانهم بالعذاب الأليم والخزي الدائم ، فعياذًا بك اللهم من كل سوء .

ثم أخبر عن النفقة الصادرة عن رياء وسمعة وعدم إيمان به فقال : ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي : ليروهم ويمدحوهم ويعظموهم ﴿وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ﴾ أي : ليس إنفاقهم صادرا عن إخلاص وإيمان بالله ورجاء ثوابه ، أي : فهذا من خطوات الشيطان وأعماله التي يدعو حزبه إليها ليكونوا من أصحاب السعير . وصدرت منهم بسبب مقارنته لهم وأزهم إليها فلهذا قال : ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾ أي : بئس المقارن والصاحب الذي يريد إهلاك من قارنه ويسعى فيه أشد السعي .

فكما أن من بخل بما آتاه الله ، وكتم ما مَنّ به الله عليه عاص آثم مخالف لربه ، فكذلك من أنفق وتعبد لغير الله فإنه آثم عاص لربه مستوجب للعقوبة ، لأن الله إنما أمر بطاعته وامتثال أمره على وجه الإخلاص ، كما قال تعالى : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [ سورة البيّنة ٥ ] ، فهذا العمل المقبول الذي يستحق صاحبه المدح والثواب فلهذا حث تعالى عليه بقوله :

[٣٩ - ٤] : ﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا﴾ .

أي : أي شيء عليهم وأي حرج ومشقّة تلحقهم لو حصل منهم الإيمان بالله الذي هو الإخلاص ،

وأنفقوا من أموالهم التي رزقهم الله وأنعم بها عليهم فجمعوا بين الإخلاص والإنفاق، ولما كان الإخلاص سرًّا بين العبد وبين ربه، لا يطلع عليه إلا الله أخبر تعالى بعلمه بجميع الأحوال فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾.

[ ٤٠ : ٤٢ - ٤ ]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾.

يخبر تعالى عن كمال عدله وفضله وتنزهه عما يضاد ذلك من الظلم القليل والكثير فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي: يُنقصها من حسنات عبده أو يزيدها في سيئاته، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [سورة الزلزلة ٧ - ٨]، ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ أي: إلى عشرة أمثالها، إلى أكثر من ذلك، بحسب حالها ونفعها وحال صاحبها، إخلاصا ومحبّة وكمالا.

﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: زيادة على ثواب العمل بنفسه من التوفيق لأعمال أخر، وإعطاء البر الكثير والخير الغزير.

ثم قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ أي: كيف تكون تلك الأحوال، وكيف يكون ذلك الحكم العظيم، الذي جمع أن من حكم به كاملُ العلم، كاملُ العدل، كامل الحكمة، بشهادة أزكى الخلق وهم الرسل على أُممهم مع إقرار المحكوم عليه؟!!

فهذا - والله - الحكم الذي هو أعم الأحكام وأعدلها وأعظمها. وهناك يبقى المحكوم عليهم مُقرّين له لكمال الفضل والعدل، والحمد والثناء، وهناك يسعد أقوام بالفوز والفلاح والعز والنجاح، ويشقى أقوام بالخزي والفضيحة والعذاب المهين.

ولهذا قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: جمعوا بين الكُفر بالله وبرسوله، ومعصيةِ الرسول ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: تبتلعهم ويكونون ترابا وعدما، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [سورة النبأ ٤٠].

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ أي: بل يُقرّون له بما عملوا، وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، يومئذ يوفيهم الله جزاءهم الحق، ويعلمون أن الله هو الحق المبين.

فأما ما ورد من أن الكُفّار يكتمون كفرهم وجحودهم، فإن ذلك يكون في بعض مواضع القيامة، حين يظنون أن جحودهم ينفعهم من عذاب الله، فإذا عرفوا الحقائق وشهدت عليهم جوارحهم حينئذ ينجلي الأمر، ولا يبقى للكتمان موضع، ولا نفع ولا فائدة.

[٤٣ - ٤]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ

أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ .

ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يقربوا الصلاة وهم سُكارى ، حتى يعلموا ما يقولون ، وهذا شامل لقربان مواضع الصلاة ، كالمسجد ، فإنه لا يُمكّن السكران من دخوله .

وشامل لنفس الصلاة ، فإنه لا يجوز للسكران صلاة ولا عبادة ، لاختلاط عقله وعدم علمه بما يقول ، ولهذا حدد تعالى ذلك وغياه إلى وجود العلم بما يقول السكران .

وهذه الآية الكريمة منسوخة بتحريم الخمر مطلقا ، فإن الخمر - في أول الأمر - كان غير مُحرم ، ثم إن الله تعالى عرض لعباده بتحريمه بقوله : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [سورة البقرة ٢١٩] .

ثم إنه تعالى نهاهم عن الخمر عند حضور الصلاة كما في هذه الآية ، ثم إنه تعالى حرَّمه على الإطلاق في جميع الأوقات في قوله : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [سورة المائدة ٩٠] . الآية .

ومع هذا فإنه يشتد تحريمه وقت حضور الصلاة لتضمنه هذه المفسدة العظيمة ، بعد حصول مقصود الصلاة الذي هو روحها ولبها وهو الخشوع وحضور القلب ، فإن الخمر يسكر القلب ، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، ويُؤخذ من المعنى منع الدخول في الصلاة في حال النعاس المُفرط ، الذي لا يشعر صاحبه بما يقول ويفعل ، بل لعل فيه إشارة إلى أنه ينبغي لمن أراد الصلاة أن يقطع عنه كل شاغل يشغل فكره ، كمُدافعة الأخبثين والتوق لطعام ونحوه كما ورد في ذلك الحديث الصحيح .(٧١)

ثم قال : ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ أي : لا تقربوا الصلاة حالة كون أحدكم جنبا ، إلا في هذه الحال وهو عابر السبيل أي : تمرون في المسجد ولا تمكثون فيه ، ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ﴾ أي : فإذا اغتسلتم فهو غاية المنع من قُربان الصلاة للجُنب ، فيحل للجُنب المرور في المسجد فقط .

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟﴾ ، فأباح التيمم للمريض مُطلقًا مع وجود الماء وعدمه ، والعلّة المرض الذي يشق معه استعمال الماء ، وكذلك السفر فإنه مظنة فقد الماء ، فإذا فقده المسافر أو وجد ما يتعلق بحاجته من شرب ونحوه ، جاز له التيمم .

وكذلك إذا أحدث الإنسان ببول أو غائط أو مُلامسة النساء ، فإنه يُباح له التيمم إذا لم يجد الماء ، حضرًا وسفرًا كما يدل على ذلك عموم الآية .

---

(٧١) * عن عائشة رضي الله عنها ، ولفظه : لا صلاة بحضرة طعام ولا وهو يُدافعه الأخبثين .

أخرجه مُسلم : ( كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة/ باب : كراهة الصَّلاة بحضرة الطَّعام الَّذي يُريد أكله في الحال ، وكراهة الصَّلاة مع مُدافعة الأخبثين/ ح ٦٧) .

والحاصل : أن اللّه تعالى أباح التيمم في حالتين : حال عدم الماء ، وهذا مُطلقا في الحضر والسفر ، وحال المشقَّة باستعماله بمرض ونحوه .

واختلف المُفسِّرون في معنى قوله : ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ هل المُراد بذلك : الجماع فتكون الآية نصًّا في جواز التيمم للجنب ، كما تكاثرت بذلك الأحاديث الصحيحة؟(٧٢) .

أو المُراد بذلك مُجرَّد اللمس باليد ، ويُقيَّد ذلك بما إذا كان مظنَّة خُروج المذي ، وهو المس الذي يكون لشهوة فتكون الآية دالة على نقض الوضوء بذلك؟ .

واستدل الفُقهاء بقوله : ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾ بوجوب طلب الماء عند دخول الوقت ، قالوا : لأنه لا يقال : « لم يجد » لمن لم يطلب ، بل لا يكون ذلك إلا بعد الطلب ، واستدل بذلك أيضًا على أن الماء المُتغير بشيء من الطاهرات يجوز بل يتعين التطهر به لدخوله في قوله : ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾ وهذا ماء . ونُوزع في ذلك أنه ماء غير مطلق وفي ذلك نظر .

وفي هذه الآية الكريمة مشروعية هذا الحكم العظيم الذي امتن به اللّه على هذه الأمة ، وهو مشروعية التيمم ، وقد أجمع على ذلك العُلماء ولله الحمد ، وأن التيمم يكون بالصعيد الطيب ، وهو كل ما تصاعد على وجه الأرض سواء كان له غبار أم لا ، ويحتمل أن يختص ذلك بذي الغبار لأن اللّه قال : ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ وما لا غبار له لا يمسح به .

وقوله : ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ هذا محل المسح في التيمم : الوجه جميعه واليدان إلى الكوعين ، كما دلَّت على ذلك الأحاديث الصحيحة ، ويستحب أن يكون ذلك بضربة واحدة ، كما دل على ذلك حديث عمار ، وفيه أن تيمم الجنب كتيمم غيره ، بالوجه واليدين .(٧٣)

---

(٧٢) * منها : ما رواه عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ الْخُزَاعِيُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا مُعْتَزِلًا لَمْ يُصَلِّ فِي الْقَوْمِ فَقَالَ يَا فُلَانُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ فِي الْقَوْمِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصَابَتْنِي جَنَابَةٌ وَلَا مَاءَ قَالَ عَلَيْكَ بِالصَّعِيدِ فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ .
مُتَّفقٌ عَلَيْهِ . أخرجه البُخاري في غير موضع من صحيحه ، منها : ( كتاب التَّيمم / باب : التَّيمم ضربة / ح ٣٤٤ ) . ومُسلم في صحيحه : ( كتاب المساجد / باب : قضاء الصَّلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها / ح ٣١٢ ) .
ومنها : عَنْ جَابِرٍ قَالَ خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ فَأَصَابَ رَجُلًا مِنَّا حَجَرٌ فَشَجَّهُ فِي رَأْسِهِ ثُمَّ احْتَلَمَ فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ فَقَالَ هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيَمُّمِ فَقَالُوا مَا نَجِدُ لَكَ رُخْصَةً وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ فَاغْتَسَلَ فَمَاتَ فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أُخْبِرَ بِذَلِكَ فَقَالَ قَتَلُوهُ قَتَلَهُمْ اللَّهُ أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِرَ أَوْ يَعْصِبَ عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ .
أخرجه أبو داود في سُننه : ( كتاب الطَّهارة / باب : في المجروح / ح ٣٣٦ ) .

(٧٣) * مُتَّفقٌ عَلَيْهِ . أخرجه البُخاري في مواضع عديدة من صحيحه ، منها : ( كتاب التَّيمم / باب : المُتيمم هل ينفخ فيهما ؟/ ح ٣٨٨ ) . ومُسلم في مواضع عديدة من صحيحه ، منها : ( كتاب الحيض / باب : التَّيمم / ح ١٢ ) . عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ أَبْزَى عَنْ أَبِيهِ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ إِنِّي أَجْنَبْتُ فَلَمْ أُصِبْ الْمَاءَ فَقَالَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَمَا تَذْكُرُ أَنَّا كُنَّا فِي سَفَرٍ أَنَا وَأَنْتَ فَأَمَّا أَنْتَ فَلَمْ تُصَلِّ وَأَمَّا أَنَا فَتَمَعَّكْتُ فَصَلَّيْتُ فَذَكَرْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ هَكَذَا فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ بِكَفَّيْهِ الْأَرْضَ وَنَفَخَ فِيهِمَا ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ وَكَفَّيْهِ

**فائدة :** اعلم أن قواعد الطب تدور على ثلاث قواعد : حفظ الصحة عن المؤذيات ، والاستفراغ منها ، والحمية عنها . وقد نبّه تعالى عليها في كتابه العزيز .

أما حفظ الصحة والحمية عن المؤذي ، فقد أمر بالأكل والشرب وعدم الإسراف في ذلك ، وأباح للمُسافر والمريض الفطر حفظا لصحتهما ، باستعمال ما يصلح البدن على وجه العدل ، وحماية للمريض عما يضره .

وأما استفراغ المؤذي فقد أباح تعالى للمحْرِم المُتأذّي برأسه أن يحلقه لإزالة الأبخرة المُحتقنة فيه ، ففيه تنبيه على استفراغ ما هو أولى منها من البول والغائط والقيء والمني والدم ، وغير ذلك ، نبّه على ذلك ابن القيم رحمه الله تعالى .

وفي الآية وجوب تعميم مسح الوجه واليدين ، وأنه يجوز التيمم ولو لم يضق الوقت ، وأنه لا يخاطب بطلب الماء إلا بعد وجود سبب الوجوب والله أعلم .

ثم ختم الآية بقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ أي : كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين ، بتيسير ما أمرهم به ، وتسهيله غاية التسهيل ، بحيث لا يشق على العبد امتثاله ، فيحرج بذلك .

ومن عفوه ومغفرته أن رحم هذه الأُمة بشرع طهارة التراب بدل الماء عند تعذر استعماله . ومن عفوه ومغفرته أن فتح للمُذنبين باب التوبة والإنابة ودعاهم إليه ووعدهم بمغفرة ذنوبهم . ومن عفوه ومغفرته أن المُؤمن لو أتاه بقراب الأرض خطايا ثم لقيه لا يشرك به شيئا ، لأتاه بقرابها مغفرة .(٧٤)

[ ٤ : ٤٤ – ٤٦ ] : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

هذا ذم لمن ﴿أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وفي ضمنه تحذير عباده عن الاغترار بهم ، والوقوع في أشْرَاكِهم ، فأخبر أنهم في أنفسهم ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ أي : يحبُّونها محبة عظيمة ويؤثرونها إيثار من يبذل المال الكثير في طلب ما يحبّه . فيؤثرون الضلال على الهُدى ، والكفر على الإيمان ، والشقاء على السعادة ، ومع هذا ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ .

فهم حريصون على إضلالكم غاية الحرص ، باذلون جهدهم في ذلك .

ولكن لما كان الله ولي عباده المؤمنين وناصرهم ، بيّن لهم ما اشتملوا عليه من الضلال والإضلال ،

---

(٧٤) * هذا معنى حديث قدسي . أخرجه الترمذي :( كتاب الدّعوات/ باب : في فضل الاستغفار والتّوبة/ح ٣٥٤٠ ) . عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله : يا ابن آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني ، غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي ، يا ابن آدم ، إنك لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم ، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة .

وحسّنه العلامة الألباني – رحمه الله – في صحيح الجامع برقم (٤٣٣٨) .

ولهذا قال : ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ أي : يتولى أحوال عباده ويلطف بهم في جميع أمورهم ، وييسر لهم ما به سعادتهم وفلاحهم .

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ ينصرهم على أعدائهم ويبين لهم ما يحذرون منهم ويعينهم عليهم . فولايته تعالى فيها حصول الخير ، ونصره فيه زوال الشر .

ثم بين كيفية ضلالهم وعنادهم وإيثارهم الباطل على الحق فقال : ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي : اليهود وهم علماء الضلال منهم ، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ إما بتغيير اللفظ أو المعنى ، أو هما جميعا . فمن تحريفهم تنزيل الصفات التي ذكرت في كتبهم التي لا تنطبق ولا تَصْدُق إلا على محمد ﷺ على أنه غير مراد بها ، ولا مقصود بها بل أريد بها غيره ، وكتمانهم ذلك . فهذا حالهم في العلم أشر حال ، قلبوا فيه الحقائق ، ونزلوا الحق على الباطل ، وجحدوا لذلك الحق ، وأما حالهم في العمل والانقياد فإنهم ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي : سمعنا قولك وعصينا أمرك ، وهذا غاية الكفر والعناد والشرود عن الانقياد .

وكذلك يخاطبون الرسول ﷺ بأقبح خطاب وأبعده عن الأدب فيقولون : ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ قصدهم : اسمع منا غير مسمع ما تحب ، بل مسمع ما تكره ، ﴿وَرَٰعِنَا﴾ قصدهم بذلك الرعونة ، بالعيب القبيح ، ويظنون أن اللفظ –لما كان محتملا لغير ما أرادوا من الأمور– أنه يروج على الله وعلى رسوله ، فتوصلوا بذلك اللفظِ الذي يلوون به ألسنتهم إلى الطعن في الدين والعيب للرسول ، ويصرحون بذلك فيما بينهم ، فلهذا قال : ﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ .

ثم أرشدهم إلى ما هو خير لهم من ذلك فقال : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ وذلك لما تضمَّنه هذا الكلام من حسن الخطاب والأدب اللائق في مُخاطبة الرسول ، والدخول تحت طاعة الله والانقياد لأمره ، وحسن التلطف في طلبهم العلم بسماع سؤالهم ، والاعتناء بأمرهم ، فهذا هو الذي ينبغي لهم سلوكه . ولكن لما كانت طبائعهم غير زكية ، أعرضوا عن ذلك ، وطردهم الله بكفرهم وعنادهم ، ولهذا قال : ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

[٤٧ – ٤] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ .

يأمر تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن يُؤمنوا بالرسول محمد ﷺ وما أنزل الله عليه من القرآن العظيم ، المُهيمن على غيره من الكتب السابقة التي قد صدقها ، فإنها أخبرت به فلما وقع المُخبر به كان تصديقا لذلك الخبر . وأيضا فإنهم إن لم يؤمنوا بهذا القرآن فإنهم لم يؤمنوا بما في أيديهم من الكتب ، لأن كتب الله يصدق بعضها بعضا ، ويوافق بعضها بعضًا . فدعوى الإيمان ببعضها دون بعض دعوى باطلة لا يمكن صدقها .

وفي قوله : ﴿ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ حث لهم وأنهم ينبغي أن يكونوا قبل غيرهم مُبادرين إليه بسبب ما أنعم الله عليهم به من العلم ، والكتاب الذي يوجب أن يكون ما عليهم أعظم من غيرهم ، ولهذا توعدهم على عدم الإيمان فقال : ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ وهذا جزاء من جنس ما

عملوا ، كما تركوا الحق ، وآثروا الباطل وقلبوا الحقائق ، فجعلوا الباطل حقًّا والحق باطلا ، جوزوا من جنس ذلك بطمس وجوههم كما طمسوا الحق ، وردها على أدبارها ، بأن تجعل في أقفائهم وهذا أشنع ما يكون ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ بأن يطردهم من رحمته ، ويعاقبهم بجعلهم قردة ، كما فعل بإخوانهم الذين اعتدوا في السبت ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [ سورة البقرة ٦٥] . ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ كقوله : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [ سورة يس ٨٢] .

[ ٤٨ - ٤] : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ .

يُخبر تعالى : أنه لا يغفر لمن أشرك به أحدا من المخلوقين ، ويغفر ما دون الشرك من الذنوب صغائرها وكبائرها ، وذلك عند مشيئته مغفرة ذلك ، إذا اقتضت حكمته مغفرته . فالذنوب التي دون الشرك قد جعل الله لمغفرتها أسبابا كثيرة ، كالحسنات الماحية والمصائب المكفرة في الدنيا ، والبرزخ ويوم القيامة ، وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض ، وبشفاعة الشافعين .

ومن فوق ذلك كله رحمته التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد .

وهذا بخلاف الشرك فإن المُشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة ، وأغلق دونه أبواب الرحمة ، فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد ، ولا تفيده المصائب شيئا ، وما لهم يوم القيامة ﴿مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [ سورة الشعراء ١٠٠ - ١١٠] .. ولهذا قال تعالى : ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أي : افترى جرما كبيرا ، وأي : ظلم أعظم ممن سوى المخلوق -من تراب ، الناقص من جميع الوجوه ، الفقير بذاته من كل وجه ، الذي لا يملك لنفسه- فضلا عمن عبده -نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا- بالخالق لكل شيء ، الكامل من جميع الوجوه ، الغني بذاته عن جميع مخلوقاته ، الذي بيده النفع والضر والعطاء والمنع ، الذي ما من نعمة بالمخلوقين إلا فمنه تعالى ، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟ .

ولهذا حتَّم على صاحبه بالخلود بالعذاب وحرمان الثواب ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [ سورة المائدة ٧٢] . وهذه الآية الكريمة في حق غير التائب ، وأما التائب ، فإنه يغفر له الشرك فما دونه كما قال تعالى : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [ سورة الزمر ٥٣] . أي : لمن تاب إليه وأناب .

[ ٤٩ : ٥٠ - ٤] : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ .

هذا تعجيب من الله لعباده ، وتوبيخ للذين يزكون أنفسهم من اليهود والنصارى ، ومن نحا نحوهم من كل من زكى نفسه بأمر ليس فيه .

وذلك أن اليهود والنصارى يقولون : ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [ سورة المائدة ١٨] . ويقولون : ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [ سورة البقرة ١١١] . وهذا مُجرد دعوى لا برهان عليها ، وإنما

البرهان ما أخبر به في القرآن في قوله : ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة البقرة ١١٢] . فهؤلاء هم الذين زكاهم الله ولهذا قال هنا : ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [سورة النساء ٤٩] . أي : بالإيمان والعمل الصالح بالتخلي عن الأخلاق الرذيلة ، والتحلي بالصفات الجميلة .

وأما هؤلاء فهم -وإن زكوا أنفسهم بزعمهم أنهم على شيء ، وأن الثواب لهم وحدهم- فإنهم كذبة في ذلك ، ليس لهم من خصال الزاكين نصيب ، بسبب ظلمهم وكفرهم لا بظلم من الله لهم ، ولهذا قال : ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ وهذا لتحقيق العموم أي : لا يظلمون شيئا ولا مقدار الفتيل الذي في شق النواة أو الذي يفتل من وسخ اليد وغيرها .

قال تعالى : ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي : بتزكيتهم أنفسهم ، لأن هذا من أعظم الافتراء على الله ، لأن مضمون تزكيتهم لأنفسهم الإخبار بأن الله جعل ما هم عليه حقًّا وما عليه المؤمنون المسلمون باطلا .

وهذا أعظم الكذب وقلب الحقائق بجعل الحق باطلا ، والباطل حقًّا .

ولهذا قال : ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي : ظاهرًا بينا موجبًا للعقوبة البليغة والعذاب الأليم .

[ ٥١ : ٥٧ - ٤ ] : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ .

وهذا من قبائح اليهود وحسدهم للنبي ﷺ والمؤمنين ، أن أخلاقهم الرذيلة وطبعهم الخبيث ، حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله ، والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت ، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله ، أو حكم بغير شرع الله ، فدخل في ذلك السحر والكهانة ، وعباده غير الله ، وطاعة الشيطان ، كل هذا من الجبت والطاغوت ، وكذلك حملهم الكفر والحسد على أن فضلوا طريقة الكافرين بالله - عبدة الأصنام- على طريق المؤمنين فقال : ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي : لأجلهم تملُّقًا لهم ومداهنة ، وبغضا للإيمان : ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ أي : طريقا .

فما أسمجهم وأشد عنادهم وأقل عقولهم ، كيف سلكوا هذا المسلك الوخيم والوادي الذميم؟ ! هل ظنوا أن هذا يروج على أحد من العقلاء ، أو يدخل عقل أحد من الجهلاء ، فهل يُفَضَّل دين قام على عبادة

الأصنام والأوثان ، واستقام على تحريم الطيبات ، وإباحة الخبائث ، وإحلال كثير من المحرمات ، وإقامة الظلم بين الخلق ، وتسوية الخالق بالمخلوقين ، والكفر بالله ورسله وكتبه ، على دين قام على عبادة الرحمن ، والإخلاص لله في السر والإعلان ، والكفر بما يعبد من دونه من الأوثان والأنداد والكاذبين ، وعلى صلة الأرحام والإحسان إلى جميع الخلق ، حتى البهائم ، وإقامة العدل والقسط بين الناس ، وتحريم كل خبيث وظلم ، والصدق في جميع الأقوال والأعمال ، فهل هذا إلا من الهذيان ، وصاحب هذا القول إما من أجهل الناس وأضعفهم عقلا ، وإما من أعظمهم عنادا وتمردا ومراغمة للحق ، وهذا هو الواقع ، ولهذا قال تعالى عنهم : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ أي : طردهم عن رحمته وأحل عليهم نقمته .

﴿وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ أي : يتولاه ويقوم بمصالحه ويحفظه عن المكاره ، وهذا غاية الخذلان . ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ أي : فيفضّلون من شاءوا على من شاءوا بمُجرّد أهوائهم ، فيكونون شركاء لله في تدبير المملكة ، فلو كانوا كذلك لشحوا وبخلوا أشد البُخل ، ولهذا قال : ﴿فَإِذٗا﴾ أي : لو كان لهم نصيب من المُلك ﴿لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي : شيئًا ولا قليلا .

وهذا وصف لهم بشدة البُخل على تقدير وجود ملكهم المشارك لملك الله . وأخرج هذا مخرج الاستفهام المُتقرّر إنكاره عند كل أحد .

﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ﴾ أي : هل الحامل لهم على قولهم كونهم شركاء لله فيفضلون من شاءوا؟ أم الحامل لهم على ذلك الحسدُ للرسول وللمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله؟ وذلك ليس ببدع ولا غريب على فضل الله .

﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا﴾ وذلك ما أنعم الله به على إبراهيم وذريته من النبوة والكتاب والملك الذي أعطاه من أعطاه من أنبيائه كـ « داود » و « سليمان » . فإنعامه لم يزل مُستمرًا على عباده المؤمنين .

فكيف ينكرون إنعامه بالنبوة والنصر والملك لمحمد ﷺ أفضل الخلق وأجلهم وأعظمهم معرفة بالله وأخشاهم له؟ .

﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ أي : بمحمد ﷺ فنال بذلك السعادة الدنيوية والفلاح الأخروي .

﴿وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ﴾ عنادًا وبغيًا وحسدًا فحصل لهم من شقاء الدنيا ومصائبها ما هو بعض آثار معاصيهم ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ تُسعَّر على من كفر بالله ، وجحد نبوة أنبيائه من اليهود والنصارى وغيرهم من أصناف الكفرة .

ولهذا قال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا﴾ أي : عظيمة الوقود شديدة الحرارة ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم﴾ أي : احترقت ﴿بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ أي : ليبلغ العذاب منهم كل مبلغ . وكما تكرر منهم الكفر والعناد وصار وصفا لهم وسجية ؛ كرر عليهم العذاب جزاء وفاقا ، ولهذا قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ أي : له العزّة العظيمة والحكمة في خلقه وأمره ، وثوابه وعقابه .

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي : بالله وما أوجب الإيمانَ به ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من الواجبات

والمستحبات ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي : من الأخلاق الرذيلة ، والخلق الذميم ، ومما يكون من نساء الدنيا من كل دنس وعيب ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ .

[ ٤ – ٥٨ : ٥٩ ] : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ .

الأمانات كل ما ائتمن عليه الإنسان وأُمر بالقيام به . فأمر اللّه عباده بأدائها أي : كاملة موفَّرة ، لا منقوصة ولا مبخوسة ، ولا ممطولا بها ، ويدخل في ذلك أمانات الولايات والأموال والأسرار ؛ والمأمورات التي لا يطلع عليها إلا اللّه .

وقد ذكر الفقهاء على أن من اؤتمن أمانة وجب عليه حفظها في حرز مثلها . قالوا : لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها ؛ فوجب ذلك .

وفي قوله : ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ دلالة على أنها لا تدفع وتؤدى لغير المؤتمِن ، ووكيلُه بمنزلته ؛ فلو دفعها لغير ربها لم يكن مُؤدِّيا لها .

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأموال والأعراض ، القليل من ذلك والكثير ، على القريب والبعيد ، والبرِّ والفاجر ، والولي والعدو . والمُراد بالعدل الذي أمر اللّه بالحكم به هو ما شرعه اللّه على لسان رسوله من الحدود والأحكام ، وهذا يستلزم معرفة العدل ليحكم به .

ولما كانت هذه أوامر حسنة عادلة قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ وهذا مدح من اللّه لأوامره ونواهيه ، لاشتمالها على مصالح الدارين ودفع مضارهما ، لأن شارعها السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية ، ويعلم بمصالح العباد ما لا يعلمون . ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله وذلك بامتثال أمرهما ، الواجب والمستحب ، واجتناب نهيهما . وأمر بطاعة أولي الأمر وهم : الولاة على الناس ، من الأمراء والحكام والمفتين ، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم ، طاعة للّه ورغبة فيما عنده ، ولكن بشرط ألا يأمروا بمعصية اللّه ، فإن أمروا بذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

ولعل هذا هو السر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم وذكره مع طاعة الرسول ، فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة اللّه ، ومن يطعه فقد أطاع اللّه ، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية .

ثم أمر برد كل ما تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه إلى اللّه وإلى الرسول أي : إلى كتاب اللّه وسنة رسوله ؛ فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية ، إما بصريحهما أو عمومهما ؛ أو إيماء ، أو تنبيه ، أو مفهوم ، أو عموم معنى يقاس عليه ما أشبهه ، لأن كتاب اللّه وسُنَّة رسوله عليهما بناء الدين ، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما .

فالرَّدُّ إليهما شرط في الإيمان فلهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فدل ذلك على أن من لم يَرُد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة، بل مؤمن بالطاغوت، كما ذكر في الآية بعدها ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الرد إلى الله ورسوله ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ فإن حكم الله ورسوله أحسن الأحكام وأعدلها وأصلحها للناس في أمر دينهم ودنياهم وعاقبتهم.

[ ٦٠: ٦٣ – ٤ ]: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾.

يعجب تعالى عباده من حالة المنافقين. ﴿الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ﴾ مؤمنون بما جاء به الرسول وبما قبله، ومع هذا ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ وهو كل من حكم بغير شرع الله فهو طاغوت. والحال أنهم ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ فكيف يجتمع هذا والإيمان؟ فإن الإيمان يقتضي الانقياد لشرع الله وتحكيمه في كل أمر من الأمور، فمَنْ زعم أنه مؤمن واختار حكم الطاغوت على حكم الله، فهو كاذب في ذلك. وهذا من إضلال الشيطان إيّاهم، ولهذا قال: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عن الحق.

﴿فَكَيْفَ﴾ يكون حال هؤلاء الضالين ﴿إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من المعاصي ومنها تحكيم الطاغوت؟!.

﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ مُعتذرين لما صدر منهم، ويقولون: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ أي: ما قصدنا في ذلك إلا الإحسان إلى المُتخاصمين والتوفيق بينهم، وهم كَذَبة في ذلك؛ فإن الإحسان كل الإحسان تحكيم الله ورسوله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [سُورة المائدة ٥٠].

ولهذا قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: من النفاق والقصد السيئ. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تبال بهم ولا تقابلهم على ما فعلوه واقترفوه.

﴿وَعِظْهُمْ﴾ أي: بيِّن لهم حكم الله تعالى مع الترغيب في الانقياد لله، والترهيب من تركه ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي: انصحهم سرًّا بينك وبينهم، فإنه أنجح لحصول المقصود، وبالغ في زجرهم وقمعهم عمّا كانوا عليه، وفي هذا دليل على أن مقترف المعاصي وإن أعرض عنه فإنه ينصح سرًّا، ويبالغ في وعظه بما يُظَنُّ حصول المقصود به.

[ ٦٤: ٦٥ – ٤ ]: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا

يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

يُخبر تعالى خبرا في ضمنه الأمر والحث على طاعة الرسول والانقياد له. وأن الغاية من إرسال الرسل أن يكونوا مُطاعين ينقاد لهم المُرسلُ إليهم في جميع ما أمروا به ونهوا عنه، وأن يكونوا مُعظَّمين تعظيم المُطيع للمُطاع.

وفي هذا إثبات عصمة الرسل فيما يُبلِّغونه عن الله، وفيما يأمرون به وينهون عنه؛ لأن الله أمر بطاعتهم مطلقا، فلولا أنهم معصومون لا يشرعون ما هو خطأ، لما أمر بذلك مطلقا.

وقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: الطاعة من المطيع صادرة بقضاء الله وقدره. ففيه إثبات القضاء والقدر، والحث على الاستعانة بالله، وبيان أنه لا يمكن الإنسان -إن لم يعنه الله- أن يطيع الرسول.

ثم أخبر عن كرمه العظيم وجوده، ودعوته لمن اقترفوا السيئات أن يعترفوا ويتوبوا ويستغفروا الله فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾ أي: معترفين بذنوبهم باخعين بها. ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ أي: لتاب عليهم بمغفرته ظُلْمَهم، ورحمهم بقبول التوبة والتوفيق لها والثواب عليها، وهذا المجيء إلى الرسول ﷺ مختص بحياته؛ لأن السياق يدل على ذلك لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا في حياته، وأما بعد موته فإنه لا يطلب منه شيء بل ذلك شرك.

ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يُحكِّموا رسوله فيما شجر بينهم، أي: في كل شيء يحصل فيه اختلاف، بخلاف مسائل الإجماع، فإنها لا تكون إلا مُستندة للكتاب والسُّنَّة، ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتفي الحرج من قلوبهم والضيق، وكونهم يُحكمونه على وجه الإغماض، ثم لا يكفي ذلك حتى يُسلموا لحكمه تسليمًا بانشراح صدر، وطمأنينة نفس، وانقياد بالظاهر والباطن.

فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان.

فمَن استكمل هذه المراتب وكمَّلها، فقد استكمل مراتب الدين كلها.

فمَن ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له فهو كافر، ومَن تركه، مع التزامه فله حكم أمثاله من العاصين.

[٦٦: ٦٨ - ٤]: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

يُخبر تعالى أنه لو كتب على عباده الأوامر الشاقة على النفوس من قتل النفوس والخروج من الديار لم يفعله إلا القليل منهم والنادر، فليحمدوا ربهم وليشكروه على تيسير ما أمرهم به من الأوامر التي تسهل على كل أحد، ولا يشق فعلها، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي أن يلحظ العبد ضد ما هو فيه من المكروهات، لتخف عليه العبادات، ويزداد حمدًا وشكرًا لربه.

ثم أخبر أنهم لو فعلوا ما يوعظون به أي: ما وَظَّف عليهم في كل وقت بحسبه، فبذلوا هِمَمهم، ووفروا

نفوسهم للقيام به وتكميله ، ولم تطمح نفوسهم لما لم يصلوا إليه ، ولم يكونوا بصدده ، وهذا هو الذي ينبغي للعبد ، أن ينظر إلى الحالة التي يلزمه القيام بها فيكملها ، ثم يتدرج شيئًا فشيئًا حتى يصل إلى ما قُدِّر له من العلم والعمل في أمر الدين والدنيا ، وهذا بخلاف من طمحت نفسه إلى أمر لم يصل إليه ولم يؤمر به بعد ، فإنه لا يكاد يصل إلى ذلك بسبب تفريق الهمة ، وحصول الكسل وعدم النشاط .

ثم رتب ما يحصل لهم على فعل ما يوعظون به ، وهو أربعة أمور :

( أحدها ) : الخيرية في قوله : ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي : لكانوا من الأخيار المُتصفين بأوصافهم من أفعال الخير التي أمروا بها ، أي : وانتفى عنهم بذلك صفة الأشرار ، لأن ثبوت الشيء يستلزم نفي ضده .

( الثاني ) : حصول التثبيت والثبات وزيادته ، فإن اللّٰه يثبت الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان ، الذي هو القيام بما وعظوا به ، فيثبتهم في الحياة الدنيا عند ورود الفتن في الأوامر والنواهي والمصائب ، فيحصل لهم ثبات يوفّقون لفعل الأوامر وترك الزواجر التي تقتضي النفس فعلها ، وعند حلول المصائب التي يكرهها العبد ، فيوفق للتثبيت بالتوفيق للصبر أو للرضا أو للشكر .

فينزل عليه معونة من اللّٰه للقيام بذلك ، ويحصل له الثبات على الدين ، عند الموت وفي القبر ، وأيضًا فإن العبد القائم بما أمر به ، لا يزال يتمرن على الأوامر الشرعية حتى يألفها ويشتاق إليها وإلى أمثالها ، فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات .

( الثالث ) : قوله : ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي : في العاجل والآجل الذي يكون للروح والقلب والبدن ، ومن النعيم المقيم مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

( الرابع ) : الهداية إلى صراط مُستقيم . وهذا عُموم بعد خُصوص ، لشرف الهداية إلى الصراط المُستقيم ، من كونها متضمنة للعلم بالحق ، ومحبّته وإيثاره والعمل به ، وتوقف السعادة والفلاح على ذلك ، فمن هُدِيَ إلى صراط مُستقيم ، فقد وُفِّقَ لكل خير واندفع عنه كل شر وضير .

[ ٦٩ : ٧٠ – ٤ ] : ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ .

أي : كل مَنْ أطاع اللّٰه ورسوله على حسب حاله وقدر الواجب عليه من ذكر وأنثى وصغير وكبير ، ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ أي : النعمة العظيمة التي تقتضي الكمال والفلاح والسعادة ﴿مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ الذين فضلهم اللّٰه بوحيه ، واختصّهم بتفضيلهم بإرسالهم إلى الخلق ، ودعوتهم إلى اللّٰه تعالى ﴿وَالصِّدِّيقِينَ﴾ وهم : الذين كمل تصديقهم بما جاءت به الرسل ، فعلموا الحق وصدقوه بيقينهم ، وبالقيام به قولا وعملا وحالا ودعوة إلى اللّٰه ، ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ الذين قاتلوا في سبيل اللّٰه لإعلاء كلمة اللّٰه فقتلوا ، ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ الذين صلح ظاهرهم وباطنهم فصلحت أعمالهم ، فكل من أطاع اللّٰه تعالى كان مع هؤلاء في صحبتهم ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ بالاجتماع بهم في جنات النعيم والأُنس بقربهم في جوار رب العالمين .

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ﴾ الذي نالوه ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ فهو الذي وفقهم لذلك ، وأعانهم عليه ، وأعطاهم من الثواب ما لا تبلغه أعمالهم . ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ يعلم أحوال عباده ومن يستحق منهم الثواب الجزيل ، بما قام به من الأعمال الصالحة التي تواطأ عليها القلب والجوارح .

[ ٧١ - ٧٤ : ٤ ] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ حذرهم من أعدائهم الكافرين . وهذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب ، التي بها يُستعان بها على قتالهم ويُستدفع مكرهم وقوتهم ، من استعمال الحصون والخنادق ، وتعلُّم الرمي والركوب ، وتعلم الصناعات التي تُعين على ذلك ، وما به يعرف مداخلهم ، ومخارجهم ، ومكرهم ، والنفير في سبيل الله .

ولهذا قال : ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾ أي : متفرّقين بأن تنفر سرية أو جيش ، ويقيم غيرهم ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ وكل هذا تبع للمصلحة والنكاية ، والراحة للمسلمين في دينهم ، وهذه الآية نظير قوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [ سورة الأنفال : ٦٠ ] .

ثم أخبر عن ضعفاء الإيمان المتكاسلين عن الجهاد فقال : ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ﴾ أي : أيها المؤمنون ﴿لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ أي : يتثاقل عن الجهاد في سبيل الله ضعفا وخورا وجبنا ، هذا الصحيح . وقيل معناه : ليبطئن غيره أي : يزهّده عن القتال ، وهؤلاء هم المنافقون ، ولكن الأول أولى لوجهين : أحدهما : قوله : ﴿مِنكُمْ﴾ والخطاب للمؤمنين . والثاني : قوله في آخر الآية : ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ فإن الكفّار من المشركين والمنافقين قد قطع الله بينهم وبين المؤمنين المودّة ، وأيضًا فإن هذا هو الواقع ، فإن المؤمنين على قسمين : صادقون في إيمانهم أوجب لهم ذلك كمال التصديق والجهاد . وضُعفاء دخلوا في الإسلام فصار معهم إيمان ضعيف لا يقوى على الجهاد . كما قال تعالى : ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ [ سورة الحجرات ١٤ ] . إلى آخر الآيات .

ثم ذكر غايات هؤلاء المتثاقلين ونهاية مقاصدهم ، وأن معظم قصدهم الدنيا وحطامها فقال : ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾أي : هزيمة وقتل ، وظفر الأعداء عليكم في بعض الأحوال لما لله في ذلك من الحِكَم .

﴿قَالَ﴾ ذلك المتخلّف ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ رأى من ضعف عقله وإيمانه أن التقاعد عن الجهاد الذي فيه تلك المصيبة نعمة ، ولم يدر أن النعمة الحقيقية هي التوفيق لهذه الطاعة الكبيرة ، التي بها يقوى الإيمان ، ويَسْلَم بها العبد من العقوبة والخسران ، ويحصل له فيها عظيم الثواب ورضا الكريم الوهاب .

وأما القعود فإنه وإن استراح قليلًا ، فإنه يعقبه تعب طويل وآلام عظيمة ، ويفوته ما يحصل للمجاهدين .

ثم قال : ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي : نصر وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي : يتمنَّى أنه حاضر لينال من المغانم ، ليس له رغبة ولا قصد في غير ذلك ، كأنه ليس منكم يا معشر المؤمنين ولا بينكم وبينه المودة الإيمانية التي من مقتضاها أن المؤمنين مشتركون في جميع مصالحهم ودفع مضارهم ، يفرحون بحصولها ولو على يد غيرهم من إخوانهم المؤمنين ويألمون بفقدها ، ويسعون جميعا في كل أمر يصلحون به دينهم ودنياهم ، فهذا الذي يتمنى الدنيا فقط ، ليست معه الروح الإيمانية المذكورة .

ومن لُطف الله بعباده أن لا يقطع عنهم رحمته ، ولا يغلق عنهم أبوابها ، بل من حصل منه غير ما يليق أمره ودعاه إلى جبر نقصه وتكميل نفسه ، فلهذا أمر هؤلاء بالإخلاص والخروج في سبيله فقال : ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ هذا أحد الأقوال في هذه الآية وهو أصحها .

وقيل : إن معناه : فليقاتل في سبيل الله المؤمنون الكاملو الإيمان ، الصادقون في إيمانهم ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي : يبيعون الدنيا رغبة عنها بالآخرة رغبة فيها .

فإن هؤلاء الذين يوجه إليهم الخطاب لأنهم الذين قد أعدوا أنفسهم ووطَّنوها على جهاد الأعداء ، لما معهم من الإيمان التام المُقتضي لذلك .

وأما أولئك المُتثاقلون ، فلا يعبأ بهم خرجوا أو قعدوا ، فيكون هذا نظير قوله تعالى : ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [ سورة الإسراء ١٠٧] إلى آخر الآيات . وقوله : ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [ سورة الأنعام ٨٩] .

وقيل : إن معنى الآية : فليقاتل المُقاتل والمُجاهد للكُفَّار الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، فيكون على هذا الوجه « الذين » في محل نصب على المفعولية .

﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بأن يكون جهادا قد أمر الله به ورسوله ، ويكون العبد مُخلصا لله فيه قاصدا وجه الله ، ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ زيادة في إيمانه ودينه ، وغنيمة ، وثناء حسنا ، وثواب المجاهدين في سبيل الله الذين أعدَّ الله لهم في الجنَّة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

[٧٥ – ٤] : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ .

هذا حث من الله لعباده المؤمنين وتهييج لهم على القتال في سبيله ، وأن ذلك قد تعيَّن عليهم ، وتوجَّه اللوم العظيم عليهم بتركه ، فقال : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والحال أن المُستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا ، ومع هذا فقد نالهم أعظم الظلم من أعدائهم ، فهم يدعون الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها لأنفسهم بالكفر والشرك ، وللمؤمنين بالأذى والصد

عن سبيل اللّه ، ومنعهم من الدعوة لدينهم والهجرة ، ويدعون اللّه أن يجعل لهم وليًا ونصيرًا يستنقذهم من هذه القرية الظالم أهلها ، فصار جهادكم على هذا الوجه من باب القتال والذب عن عيلاتكم وأولادكم ومحارمكم ، لا من باب الجهاد الذي هو الطمع في الكُفَّار ، فإنه وإن كان فيه فضل عظيم ويُلام المتخلف عنه أعظم اللوم ، فالجهاد الذي فيه استنقاذ المستضعفين منكم أعظم أجرًا وأكبر فائدة ، بحيث يكون من باب دفع الأعداء .

[٧٦ - ٤] : ثم قال : ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ .

هذا إخبار من اللّه بأنَّ المُؤمنين يقاتلون في سبيله ، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ الذي هو الشيطان .

في ضمن ذلك عدَّة فوائد ، **منها** : أنه بحسب إيمان العبد يكون جهاده في سبيل اللّه ، وإخلاصه ومتابعته ، فالجهاد في سبيل اللّه من آثار الإيمان ومُقتضياته ولوازمه ، كما أن القتال في سبيل الطاغوت من شعب الكفر ومقتضياته .

**ومنها** : أن الذي يُقاتل في سبيل اللّه ينبغي له ويحسن منه من الصبر والجلد ما لا يقوم به غيره ، فإذا كان أولياء الشيطان يصبرون ويقاتلون وهم على باطل ، فأهل الحق أولى بذلك ، كما قال تعالى في هذا المعنى : ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [سورة النساء ١٠٤] الآية .

**ومنها** : أن الذي يقاتل في سبيل اللّه معتمد على ركن وثيق ، وهو الحق ، والتوكل على اللّه . فصاحب القوة والركن الوثيق يُطلب منه من الصبر والثبات والنشاط ما لا يُطلب ممن يقاتل عن الباطل ، الذي لا حقيقة له ولا عاقبة حميدة . فلهذا قال تعالى : ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ .

والكيد : سلوك الطرق الخفيَّة في ضرر العدو ، فالشيطان وإن بلغ مَكْرهُ مهما بلغ فإنه في غاية الضعف ، الذي لا يقوم لأدنى شيء من الحق ولا لكيد اللّه لعباده المؤمنين .

[٧٧ : ٧٨ - ٤] : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ .

كان المُسلمون - إذ كانوا بمكة - مأمورين بالصلاة والزكاة أي : مواساة الفقراء ، لا الزكاة المعروفة ذات النُّصب والشروط ، فإنها لم تُفرض إلا بالمدينة ، ولم يؤمروا بجهاد الأعداء لعدة فوائد : **منها** : أن من حكمة الباري تعالى أن يُشرع لعباده الشرائع على وجه لا يشق عليهم ؛ ويبدأ بالأهم فالأهم ، والأسهل فالأسهل . **ومنها** : أنه لو فرض عليهم القتال -مع قلة عَدَدِهم وعُدَدِهم وكثرة أعدائهم- لأدى ذلك إلى

اضمحلال الإسلام ، فروعي جانب المصلحة العظمى على ما دونها ولغير ذلك من الحِكَم . وكان بعض المؤمنين يودون أن لو فُرض عليهم القتال في تلك الحال ، غير اللائق فيها ذلك ، وإنما اللائق فيها القيام بما أمروا به في ذلك الوقت من التوحيد والصلاة والزكاة ونحو ذلك كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [سورة النساء ٦٦] .

فلما هاجروا إلى المدينة وقوي الإسلام ، كُتب عليهم القتال في وقته المناسب لذلك ، فقال فريق من الذين يستعجلون القتال قبل ذلك خوفا من الناس وضعفا وخورا : ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ ؟ وفي هذا تضجرهم واعتراضهم على الله ، وكان الذي ينبغي لهم ضد هذه الحال ، التسليم لأمر الله والصبر على أوامره ، فعكسوا الأمر المطلوب منهم فقالوا : ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي : هلَّا أخرت فرض القتال مُدَّة مُتأخرة عن الوقت الحاضر ، وهذه الحال كثيرًا ما تعرض لمن هو غير رزين واستعجل في الأمور قبل وقتها ، فالغالب عليه أنه لا يصبر عليها وقت حلولها ولا ينوء بحملها ، بل يكون قليل الصبر .

ثم إن الله وعظهم عن هذه الحال التي فيها التخلف عن القتال فقال : ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ أي : التمتع بلذات الدنيا وراحتها قليل ، فتحمل الأثقال في طاعة الله في المُدَّة القصيرة مما يُسهِّل على النفوس ويخف عليها ؛ لأنها إذا علمت أن المشقة التي تنالها لا يطول لبثها هان عليها ذلك ، فكيف إذا وازنت بين الدنيا والآخرة ، وأن الآخرة خير منها ، في ذاتها ، ولذاتها وزمانها ، فذاتها -كما ذكر النبي ﷺ في الحديث الثابت عنه -: « أن موضع سوط في الجنَّة خير من الدنيا وما فيها »[٧٥] .

ولذاتها صافية عن المُكدرات ، بل كل ما خطر بالبال أو دار في الفكر من تصور لذة ، فلذة الجنة فوق ذلك ، كما قال تعالى : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [سورة السجدة ١١٧] .

وقال الله على لسان نبيه : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[٧٦] .

وأما لذَّات الدنيا فإنها مشوبة بأنواع التنغيص الذي لو قُوبل بين لذاتها وما يقترن بها من أنواع الآلام والهموم والغُموم ، لم يكن لذلك نسبة بوجه من الوجوه . وأما زمانها ، فإن الدنيا مُنقضية ، وعمر الإنسان بالنسبة إلى الدنيا شيء يسير ، وأما الآخرة فإنها دائمة النعيم وأهلها خالدون فيها ، فإذا فكَّر العاقل في هاتين الدارين وتَّصوَّر حقيقتهما حق التَّصوُّر ، عرف ما هو أحق بالإيثار ، والسعي له والاجتهاد لطلبه ، ولهذا قال : ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ أي : اتقى الشرك ، وسائر المُحرمات .

﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي : فسعيكم للدار الآخرة ستجدونه كاملًا موفرًا غير منقوص منه شيئًا .

---

(٧٥) * أخرجه البُخاري في صحيحه : ( كتاب بدء الخلق / باب : ماجاء في صفة الجنَّة وأنَّها مخلوقة / ح ٣٢٥٠ ) . من حديث سهل بن سعد السَّاعدي .

(٧٦) * مُتَّفقٌ عليه . من حديث أبي هُريرة . أخرجه البُخاري في غير موضع من صحيحه ، منها : ( كتاب بدء الخلق / باب : ما جاء في صفة الجنَّة وأنَّها مخلوقة / ح ٣٢٤٤ ) . ومُسلم في صحيحه : ( كتاب الجنَّة وصفة نعيمها وأهلها / المُقدِّمة / ح ٢، ٣، ٤ ) . وأخرجه مُسلم من حديث سهل بن سعد مرفوعًا عن النَّبي ﷺ .

ثم أخبر أنه لا يغني حذر عن قدر، وأن القاعد لا يدفع عنه قعوده شيئًا، فقال: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: في أي زمان وأي مكان.

﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ أي: قصور منيعة ومنازل رفيعة، وكل هذا حث على الجهاد في سبيل الله تارة بالترغيب في فضله وثوابه، وتارة بالترهيب من عقوبة تركه، وتارة بالإخبار أنه لا ينفع القاعدين قعودُهم، وتارة بتسهيل الطريق في ذلك وقصرها.

[ ٧٨ - ٨٠: ٤ ]: ثم قال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

يُخبر تعالى عن الذين لا يعلمون، المُعرضين عما جاءت به الرسل، المُعارضين لهم أنهم إذا جاءتهم حسنة أي: خصب وكثرة أموال، وتوفر أولاد وصحة، قالوا: ﴿هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وأنهم إن أصابتهم سيئة أي: جدب وفقر، ومرض وموت أولاد وأحباب قالوا: ﴿هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: بسبب ما جئتنا به يا محمد، تطيّروا برسول الله ﷺ كما تطير أمثالهم برُسل الله، كما أخبر الله عن قوم فرعون أنهم قالوا لموسى ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [سورة الأعراف ١٣١].

وقال قوم صالح: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [سورة النمل ٤٧].

وقال قوم يس لرُسُلِهِم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ [سورة يس ١١٨] الآية.

فلما تشابهت قلوبهم بالكفر تشابهت أقوالهم وأعمالهم، وهكذا كل من نسب حصول الشر أو زوال الخير لما جاءت به الرسل أو لبعضه فهو داخل في هذا الذم الوخيم.

قال الله في جوابهم: ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أي: من الحسنة والسيئة والخير والشر ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: بقضائه وقدره وخلقه.

﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: الصادر منهم تلك المقالة الباطلة ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أي: لا يفهمون حديثا بالكلية ولا يقربون من فهمه، أو لا يفهمون منه إلا فهمًا ضعيفًا، وعلى كل فهو ذم لهم وتوبيخ على عدم فهمهم وفقههم عن الله وعن رسوله، وذلك بسبب كفرهم وإعراضهم.

وفي ضمن ذلك مدْح من يفهم عن الله وعن رسوله، والحث على ذلك، وعلى الأسباب المعينة على ذلك، من الإقبال على كلامهما وتدبره، وسلوك الطرق المُوصِّلة إليه.

فلو فقهوا عن الله لعلموا أن الخير والشر والحسنات والسيئات كلها بقضاء الله وقدره، لا يخرج منها شيء عن ذلك. وأن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يكونون سببا لشر يحدث، هم ولا ما جاءوا به لأنهم بعثوا بصلاح الدنيا والآخرة والدين.

ثم قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ أي: في الدّين والدنيا ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ هو الذي مَنّ بها ويسرها

بتيسير أسبابها . ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ في الدين والدّنيا ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أي : بذنوبك وكسبك ، وما يعفو اللّه عنه أكثر .

فالله تعالى قد فتح لعباده أبواب إحسانه وأمرهم بالدخول لبره وفضله ، وأخبرهم أن المعاصي مانعة من فضله ، فإذا فعلها العبد فلا يلومن إلا نفسه فإنه المانع لنفسه عن وصول فضل اللّه وبره .

ثم أخبر عن عموم رسالة رسوله محمد ﷺ فقال : ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أنك رسول اللّه حقًّا بما أيّدك بنصره والمُعجزات الباهرة والبراهين الساطعة ، فهي أكبر شهادة على الإطلاق ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [ سُورة الأنعام ١٩] . فإذا عُلِم أن اللّه تعالى كامل العلم ، تام القدرة عظيم الحِكمة ، وقد أيّد اللّه رسوله بما أيّده ، ونصره نصرا عظيما ، تيقن بذلك أنه رسول اللّه ، وإلا فلو تقوّل عليه بعض الأقاويل لأخذ منه باليمين ، ثم لقطع منه الوتين .

[ ٨٠: ٨١ - ٤] : ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ۖ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ .

أي : كل مَنْ أطاع رسول اللّه في أوامره ونواهيه ﴿فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ تعالى لكونه لا يأمر ولا ينهى إلا بأمر اللّه وشرعه ووحيه وتنزيله ، وفي هذا عصمة الرسول ﷺ لأن اللّه أمر بطاعته مُطلقًا ، فلولا أنه معصوم في كل ما يُبلّغ عن اللّه لم يأمر بطاعته مُطلقًا ، ويمدح على ذلك . وهذا من الحُقوق المُشتركة فإن الحُقوق ثلاثة : حق للّه تعالى لا يكون لأحد من الخلق ، وهو عبادة اللّه والرغبة إليه ، وتوابع ذلك ، وقسم مُختص بالرسول ، وهو التعزير والتوقير والنصرة . وقسم مُشترك ، وهو الإيمان بالله ورسوله ومحبتهما وطاعتهما ، كما جمع اللّه بين هذه الحُقوق في قوله : ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [ سُورة الفتح ٩] .

فمَنْ أطاع الرسول فقد أطاع اللّه ، وله من الثواب والخير ما رُتّب على طاعة اللّه ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ عن طاعة اللّه ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه ، ولا يضر اللّه شيئًا ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي : تحفظ أعمالهم وأحوالهم ، بل أرسلناك مُبلّغًا ومبينًا وناصحًا ، وقد أديت وظيفتك ، ووجب أجرك على اللّه ، سواء اهتدوا أم لم يهتدوا ، كما قال تعالى : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [ سُورة الغاشية ٢١- ٢٢] الآية .

ولا بد أن تكون طاعة اللّه ورسوله ظاهرًا وباطنًا في الحضرة والمغيب ، فأما مَنْ يُظهر في الحضرة الطاعة والالتزام فإذا خلا بنفسه أو أبناء جنسه ترك الطاعة وأقبل على ضدها ، فإن الطاعة التي أظهرها غير نافعة ولا مفيدة ، وقد أشبه من قال اللّه فيهم : ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ أي : يظهرون الطاعة إذا كانوا عندك .

﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ﴾ أي : خرجوا وخلوا في حالة لا يُطّلع فيها عليهم ، ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي : بيتوا ودبروا غير طاعتك ولا ثَمّ إلا المعصية .

وفي قوله : ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ دليل على أن الأمر الذي استقرّوا عليه غير الطاعة ؛ لأن التبييت تدبير الأمر ليلا على وجه يستقر عليه الرأي .

ثم توعّدهم على ما فعلوا فقال : ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ أي : يحفظه عليهم وسيُجازيهم عليه أتم الجزاء ، ففيه وعيد لهم .

ثم أمر رسوله بمُقابلتهم بالإعراض وعدم التعنيف ، فإنهم لا يضرونه شيئا إذا توكل على الله واستعان به في نصر دينه ، وإقامة شرعه . ولهذا قال : ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ .

[٨٢ – ٤] : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ .

يأمر تعالى بتدبرّ كتابه ، وهو التأمّل في معانيه ، وتحديق الفكر فيه ، وفي مبادئه وعواقبه ، ولوازم ذلك فإن تدبرّ كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف ، وبه يستنتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم ، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته . فإنه يُعرّف بالرب المعبود ، وما له من صفات الكمال ؛ وما يُنزّه عنه من سمات النقص ، ويُعرّف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها ، وما لهم عند القدوم عليه ، ويعرّف العدو الذي هو العدو على الحقيقة ، والطريق الموصلة إلى العذاب ، وصفة أهلها ، وما لهم عند وجود أسباب العقاب .

وكلما ازداد العبد تأمّلا فيه ازداد علما وعملا وبصيرة ، لذلك أمر الله بذلك وحث عليه وأخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن ، كما قال تعالى : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ سورة ص ٢٩] . وقال تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [ سورة محمّد ٢٤] .

ومن فوائد التدبرّ لكتاب الله : أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله ، لأنه يراه يُصدّق بعضه بعضا ، ويوافق بعضه بعضا . فترى الحِكم والقصة والإخبارات تُعاد في القرآن في عدّة مواضع ، كلها متوافقة مُتصادقة ، لا ينقض بعضها بعضا ، فبذلك يُعلم كمال القرآن وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور ، فلذلك قال تعالى : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ أي : فلمّا كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلًا .

[٨٣ – ٤] : ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق ، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المُهمّة والمصالح العامة ما يتعلّق بالأمن وسُرور المُؤمنين ، أو بالخوف الذي فيه مُصيبة عليهم أن يتثبّتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر ، بل يردونه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم ، أهلِ الرأي : والعلم والنصح والعقل والرزانة ، الذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضدها .

فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطا للمؤمنين وسرورا لهم وتحرزا من أعدائهم فعلوا ذلك ، وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة أو فيه مصلحة ولكن مضرته تزيد على مصلحته ، لم يذيعوه ، ولهذا قال : ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي : يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة وعلومهم الرشيدة .

وفي هذا دليل لقاعدة أدبيّة وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور ينبغي أن يولّى مَنْ هو أهل لذلك ويُجعل إلى أهله ، ولا يُتقدَّم بين أيديهم ، فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ . وفيه النهي عن العَجلة والتسرُّع لنشر الأمور من حين سماعها ، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه ، هل هو مصلحة ، فيُقْدِم عليه الإنسان؟ أم لا ، فيحجم عنه؟ .

ثم قال تعالى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أي : في توفيقكم وتأديبكم ، وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون ، ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لأن الإنسان بطبعه ظالم جاهل ، فلا تأمره نفسه إلا بالشر ، فإذا لجأ إلى ربه واعتصم به واجتهد في ذلك ، لطف به ربه ووفّقه لكل خير ، وعصمه من الشيطان الرجيم .

[٨٤ – ٤] : ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ .

هذه الحالة أفضل أحوال العبد ، أن يجتهد في نفسه على امتثال أمر الله من الجهاد وغيره ، ويُحرِّض غيره عليه ، وقد يعدم في العبد الأمران أو أحدهما فلهذا قال لرسوله : ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ﴾ أي : ليس لك قدرة على غير نفسك ، فلن تكلَّف بفعل غيرك .

﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾ على القتال ، وهذا يشمل كل أمر يحصُل به نشاط المؤمنين وقوة قلوبهم ، من تقويتهم والإخبار بضعف الأعداء وفشلهم ، وبما أُعد للمقاتلين من الثواب ، وما على المتخلفين من العقاب ، فهذا وأمثاله كله يدخل في التحريض على القتال .

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ﴾ أي : بقتالكم في سبيل الله ، وتحريض بعضكم بعضًا .

﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ أي : قوةً وعزةً ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ بالمُذنب في نفسه ، وتنكيلا لغيره ، فلو شاء تعالى لانتصر من الكُفَّار بقوّته ولم يجعل لهم باقية . ولكن من حكمته يبلو بعض عباده ببعض ليقوم سوق الجهاد ، ويحصل الإيمان النافع ، إيمان الاختيار ، لا إيمان الاضطرار والقهر الذي لا يفيد شيئا .

[٨٥ – ٤] : ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ .

المُراد بالشفاعة هُنا : المُعاونة على أمر من الأمور ، فمن شَفَّع غيره وقام معه على أمر من أمور الخير – ومنه الشفاعة للمظلومين لمن ظلمهم– كان له نصيب من شفاعته بحسب سعيه وعمله ونفعه ، ولا ينقص من أجر الأصيل والمُباشر شيء ، ومَنْ عاون غيره على أمر من الشر كان عليه كفل من الإثم بحسب ما قام به وعاون عليه .

ففي هذا الحث العظيم على التعاون على البر والتقوى ، والزجر العظيم عن التعاون على الإثم والعدوان ، وقرر ذلك بقوله : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ أي : شاهدًا حفيظًا حسيبًا على هذه الأعمال ، فيجازي كُلًّا ما يستحقه .

[٨٦ - ٤] : ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ .

التحية هي : اللفظ الصادر من أحد المُتلاقيين على وجه الإكرام والدعاء ، وما يقترن بذلك اللفظ من البشاشة ونحوها ، وأعلى أنواع التحية ما ورد به الشرع ، من السلام ابتداء وردًّا .

فأمر تعالى المؤمنين أنهم إذا حُيّوا بأي تحية كانت ، أن يردوها بأحسن منها لفظا وبشاشة ، أو مثلها في ذلك ، ومفهوم ذلك النهي عن عدم الرد بالكُلِّية أو ردها بدونها .

ويؤخذ من الآية الكريمة الحث على ابتداء السلام والتحية من وجهين :

أحدهما : أن الله أمر بردها بأحسن منها أو مثلها ، وذلك يستلزم أن التحيّة مطلوبة شرعًا .

الثاني : ما يُستفاد من أفعل التفضيل وهو « أحسن » الدال على مشاركة التحية وردها بالحسن ، كما هو الأصل في ذلك .

ويُستثنى من عُموم الآية الكريمة من حيّا بحال غير مأمور بها ، كـ « على مُشتغلٍ بقراءة ، أو استماع خطبة ، أو مُصلٍّ ونحو ذلك » ، فإنه لا يطلب إجابة تحيته ، وكذلك يستثنى من ذلك من أمر الشارع بهجره وعدم تحيته ، وهو العاصي غير التائب الذي يرتدع بالهجر ، فإنه يُهجر ولا يُحيّا ، ولا تُرد تحيته ، وذلك لمعارضة المصلحة الكبرى .

ويدخل في ردّ التحية كل تحية اعتادها الناس وهي غير محظورة شرعًا ، فإنه مأمور بردّها وبأحسن منها ، ثم أوعد تعالى وتوعّد على فعل الحسنات والسيئات بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ فيحفظ على العباد أعمالهم ، حسنها وسيئها ، صغيرها وكبيرها ، ثم يجازيهم بما اقتضاه فضله وعدله وحكمه المحمود .

[٨٧ - ٤] : ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ .

يُخبر تعالى عن انفراده بالوحدانية وأنه لا معبود ولا مألوه إلا هو ، لكماله في ذاته وأوصافه ولكونه المنفرد بالخلق والتدبير ، والنِّعم الظاهرة والباطنة . وذلك يستلزم الأمر بعبادته والتقرب إليه بجميع أنواع العبودية . لكونه المُستحق لذلك وحده والمُجازي للعباد بما قاموا به من عبوديته أو تركوه منها ، ولذلك أقسم على وقوع محل الجزاء وهو يوم القيامة ، فقال : ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ أي : أوّلكم وآخركم في مقام واحد .

في ﴿يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي : لا شك ولا شُبهة بوجه من الوجوه ، بالدليل العقلي والدليل السمعي ، فالدليل العقلي ما نشاهده من إحياء الأرض بعد موتها ، ومن وجود النشأة الأولى التي وقوع الثانية أَوْلى منها بالإمكان ، ومن الحكمة التي تجزم بأن الله لم يخلق خلقه عبثًا ، يحيون ثم يموتون .

وأما الدليل السمعي فهو إخبار أصدق الصادقين بذلك ، بل إقسامه عليه ولهذا قال : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ كذلك أمر رسوله ﷺ أن يقسم عليه في غير موضع من القرآن ، كقوله تعالى : ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [ سورة التّغابن ٧ ] ، وفي قوله : ﴿وَمَنْ

أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [ سورة النساء ١٢٢] ، إخبار بأن حديثه وأخباره وأقواله في أعلى مراتب الصدق ، بل أعلاها ، فكل ما قيل في العقائد والعُلوم والأعمال مما يناقض ما أخبر اللّٰه به ، فهو باطل لمناقضته للخبر الصادق اليقين ، فلا يُمكن أن يكون حقًّا .

[ ٨٨: ٩١ - ٤] : ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ .

المُراد بالمُنافقين المذكورين في هذه الآيات : المُنافقون المظهرون إسلامهم ، ولم يهاجروا مع كفرهم ، وكان قد وقع بين الصحابة رضوان اللّٰه عليهم فيهم اشتباه ، فبعضهم تحرج عن قتالهم ، وقطع موالاتهم بسبب ما أظهروه من الإيمان ، وبعضهم علم أحوالهم بقرائن أفعالهم فحكم بكفرهم ، فأخبرهم اللّٰه تعالى أنه لا ينبغي لكم أن تشتبهوا فيهم ولا تشكوا ، بل أمرهم واضح غير مشكل ، إنهم منافقون قد تكرر كفرهم ، وودوا مع ذلك كفركم وأن تكونوا مثلهم .

فإذا تحققتم ذلك منهم ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ وهذا يستلزم عدم محبتهم لأن الولاية فرع المحبة .

ويستلزم أيضًا بغضهم وعداوتهم لأن النهي عن الشيء أمر بضده ، وهذا الأمر موقت بهجرتهم فإذا هاجروا جرى عليهم ما جرى على المسلمين ، كما كان النبي ﷺ يجري أحكام الإسلام لكل مَنْ كان معه وهاجر إليه ، وسواء كان مؤمنًا حقيقة أو ظاهره الإيمان . وأنهم إن لم يهاجروا وتولوا عنها ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أي : في أي وقت وأي محل كان ، وهذا من جملة الأدلة الدالة على نسخ القتال في الأشهر الحرم ، كما هو قول جمهور العلماء ، والمُنازعون يقولون : هذه نصوص مطلقة ، محمولة على تقييد التحريم في الأشهر الحُرُم . ثم إن اللّٰه استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ثلاث فِرَق : فرقتين أمر بتركهم وحتَّم على ذلك ، إحداهما : من يصل إلى قوم بينهم وبين المُسلمين عهد وميثاق بترك القتال فينضم إليهم ، فيكون له حكمهم في حقن الدم والمال . والفرقة الثانية : قوم ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾ أي : بقوا ، لا تسمح أنفسهم بقتالكم ، ولا بقتال قومهم ، وأحبوا ترك قتال الفريقين ، فهؤلاء أيضًا أمر بتركهم ، وذكر الحكمة في ذلك في قوله : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ فإن الأمور المُمكنة ثلاثة أقسام : إما أن يكونوا معكم ويُقاتلوا أعداءكم ، وهذا مُتعذِّر من هؤلاء ، فدار الأمر بين قتالكم مع قومهم وبين ترك قتال الفريقين ، وهو أهون الأمرين عليكم ، والله قادر على تسليطهم عليكم ، فاقبلوا

العافية ، واحمدوا ربكم الذي كف أيديهم عنكم مع التمكن من ذلك . فهؤلاء ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ .

الفرقة الثالثة : قوم يُريدون مصلحة أنفسهم بقطع النظر عن احترامكم ، وهم الذين قال اللّه فيهم : ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ﴾ أي : من هؤلاء المنافقين . ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾ أي : خوفا منكم ﴿وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا﴾ أي : لا يزالون مُقيمين على كفرهم ونفاقهم ، وكُلّما عرض لهم عارض من عوارض الفتن أعماهم ونكسهم على رءوسهم ، وازداد كفرهم ونفاقهم ، وهؤلاء في الصورة كالفرقة الثانية ، وفي الحقيقة مخالفة لها . فإن الفرقة الثانية تركوا قتال المؤمنين احترامًا لهم لا خوفا على أنفسهم ، وأما هذه الفرقة فتركوه خوفا لا احتراما ، بل لو وجدوا فرصة في قتال المُؤمنين ، فإنهم مستعدون لانتهازها ، فهؤلاء إن لم يتبين منهم ويتضح اتضاحًا عظيمًا اعتزال المُؤمنين وترك قتالهم ، فإنهم يقاتلون ، ولهذا قال : ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أي : المُسالمة والمُوادعة ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي : حُجّة بينة واضحة ، لكونهم مُعتدين ظالمين لكم تاركين للمُسالمة ، فلا يلوموا إلا أنفسهم .

[٩٢ - ٤] : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ .

هذه الصيغة من صيغ الامتناع ، أي : يمتنع ويستحيل أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن ، أي : مُتعمّدًا ، وفي هذا الإخبارُ بشدَّة تحريمه وأنه مُناف للإيمان أشد مُنافاة ، وإنما يصدر ذلك إما من كافر ، أو من فاسق قد نقص إيمانه نقصا عظيما ، ويخشى عليه ما هو أكبر من ذلك ، فإن الإيمان الصحيح يمنع المؤمن من قتل أخيه الذي قد عقد اللّه بينه وبينه الأخوة الإيمانية التي من مقتضاها محبته وموالاته ، وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذى ، وأي أذى أشد من القتل؟

وهذا يصدقه قوله ﷺ : « لا ترجعوا بعدي كُفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض »[٧٧] .

فَعُلِمَ أن القتل من الكفر العملي وأكبر الكبائر بعد الشرك باللّه .

---

(٧٧) * مُتّفق عليه . من حديث جرير بن عبد اللّه البَجلي ،أخرجه البخاري :( كتاب العلم/ باب : الإنصات للعُلماء/ ح ١٢١ ) ، ( كتاب الديات/ باب : قول اللّه تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ المائدة ٣٢/ ح ٦٨٦٩ ) ، ( كتاب الفتن/ باب : قول النّبي ﷺ : لا ترجعوا بعدي كفارًا / ح ٧٠٨٠ ) . ومسلم : ( كتاب الإيمان / باب : باب معني قول النّبي ﷺ : لا ترجعوا بعدي كفارًا/ح ١١٨ ) .
ومن حديث ابن عمر. أخرجه البخاري : ( كتاب الديات/ باب : قول اللّه تعالى :( ومن أحياها) المائدة ٣٢ ح ٦٨٦٨ ) ، ( كتاب/ باب : قول النّبي ﷺ : لا ترجعوا بعدي كفارًا / الفتن٧٠٧٧) .
وأخرجه مسلم :( كتاب الإيمان/ باب : باب معني قول النّبي ﷺ : لا ترجعوا بعدي كفارًا/ ح ١١٩، ١٢٠ ).

ولما كان قوله : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ لفظا عاما لجميع الأحوال ، وأنه لا يصدر منه قتل أخيه بوجه من الوجوه ، استثنى تعالى قتل الخطأ فقال : ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾ فإن المُخطئ الذي لا يقصد القتل غير آثم ، ولا مجترئ على محارم الله ، ولكنه لما كان قد فعل فعلًا شنيعًا وصورته كافية في قبحه وإن لم يقصده أمر تعالى بالكَفَّارة والدية فقال : ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾ سواء كان القاتل ذكرًا أو أنثى حرًا أو عبدًا ، صغيرًا أو كبيرًا ، عاقلًا أو مجنونًا ، مسلمًا أو كافرًا ، كما يفيده لفظ « مَنْ » الدالة على العموم وهذا من أسرار الإتيان بـ « مَنْ » في هذا الموضع ، فإن سياق الكلام يقتضي أن يقول : فإن قتله ، ولكن هذا لفظ لا يشمل ما تشمله « مَنْ »؟ .

وسواء كان المقتول ذكرًا أو أنثى ، صغيرًا أو كبيرًا ، كما يفيده التنكير في سياق الشرط ، فإن على القاتل ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ كفَّارة لذلك ، تكون في ماله ، ويشمل ذلك الصغير والكبير ، والذكر والأنثى ، والصحيح والمُعيب ، في قول بعض العلماء . ولكن الحكمة تقتضي أن لا يُجزئ عتق المعيب في الكَفَّارة ؛ لأن المقصود بالعتق نفع العتيق ، وملكه منافع نفسه ، فإذا كان يضيع بعتقه ، وبقاؤه في الرق أنفع له فإنه لا يجزئ عتقه ، مع أن في قوله : ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ما يدل على ذلك ؛ فإن التحرير : تخليص من استحقت منافعه لغيره أن تكون له ، فإذا لم يكن فيه منافع لم يتصوَّر وجود التحرير . فتأمل ذلك فإنه واضح .

وأما الدية فإنها تجب على عاقلة القاتل في الخطأ وشبه العمد .

﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ جبرًا لقلوبهم ، والمراد بأهله هنا هم ورثته ، فإن الورثة يرثون ما ترك ، الميت ، فالدية داخلة فيما ترك وللدية تفاصيل كثيرة مذكورة في كتب الفقه .

وقوله : ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ أي : يتصدق ورثة القتيل بالعفو عن الدية ، فإنها تسقط ، وفي ذلك حث لهم على العفو لأن الله سماها صدقة ، والصدقة مطلوبة في كل وقت .

﴿فَإِن كَانَ﴾ المقتول ﴿مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ أي : من كُفَّار حربيين وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة أي : وليس عليكم لأهله دية ، لعدم احترامهم في دمائهم وأموالهم .

﴿وَإِن كَانَ﴾ المقتول ﴿مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق .

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الرقبة ولا ثمنها ، بأن كان مُعسرًا بذلك ، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوائجه الأصلية شيء يفي بالرقبة ، ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي : لا يفطر بينهما من غير عذر ، فإن أفطر لعذر فإن العذر لا يقطع التتابع ، كالمرض والحيض ونحوهما ، وإن كان لغير عذر انقطع التتابع ووجب عليه استئناف الصوم .

﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي : هذه الكَفَّارات التي أوجبها الله على القاتل توبة من الله على عباده ورحمة بهم ، وتكفير لما عساه أن يحصل منهم من تقصير وعدم احتراز ، كما هو واقع كثيرًا للقاتل خطأ .

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي : كامل العلم كامل الحكمة ، لا يخفى عليه مُثقال ذرَّة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، في أي وقت كان وأي محل كان .

ولا يخرج عن حكمته من المخلوقات والشرائع شيء ، بل كل ما خلقه وشرعه فهو متضمن لغاية الحكمة ، ومن علمه وحكمته أن أوجب على القاتل كفارة مُناسبة لما صدر منه ، فإنه تسبب لإعدام نفس محترمة ، وأخرجها من الوجود إلى العدم ، فناسب أن يعتق رقبة ويخرجها من رق العبودية للخلق إلى الحرية التامة ، فإن لم يجد هذه الرقبة صام شهرين مُتتابعين ، فأخرج نفسه من رق الشهوات واللذّات الحسية القاطعة للعبد عن سعادته الأبدية إلى التعبد للّه تعالى بتركها تقربًا إلى اللّه . ومدها تعالى بهذه المُدة الكثيرة الشاقة في عددها ووجوب التتابع فيها ، ولم يشرع الإطعام في هذا الموضع لعدم المناسبة . بخلاف الظهار ، كما سيأتي إن شاء اللّه تعالى .

ومن حكمته أن أوجب في القتل الدية ولو كان خطأ ، لتكون رادعة وكافة عن كثير من القتل باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك . ومن حكمته أن وجبت على العاقلة في قتل الخطأ ، بإجماع العلماء ، لكون القاتل لم يذنب فيشق عليه أن يحمل هذه الدية الباهظة ، فناسب أن يقوم بذلك من بينه وبينهم المعاونة والمناصرة والمساعدة على تحصيل المصالح وكف المفاسد ولعل ذلك من أسباب منعهم لمن يعقلون عنه من القتل حذرًا من تحميلهم ويخف عنهم بسبب توزيعه عليهم بقدر أحوالهم وطاقتهم ، وخففت أيضًا بتأجيلها عليهم ثلاث سنين . ومن حكمته وعلمه أن جبر أهل القتيل عن مصيبتهم ، بالدِّية التي أوجبها على أولياء القاتل .

[٩٣ - ٤] : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ .

تقدَّم أن اللّه أخبر أنه لا يصدر قتل المُؤمن من المُؤمن ، وأن القتل من الكُفر العملي ، وذكر هنا وعيد القاتل عمدا ، وعيدا ترجف له القلوب وتنصدع له الأفئدة ، وتنزعج منه أولو العقول .

فلم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد ، بل ولا مثله ، ألا وهو الإخبار بأن جزاءه جهنم ، أي : فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده أن يُجازى صاحبه بجهنم ، بما فيها من العذاب العظيم ، والخزي المهين ، وسخط الجبار ، وفوات الفوز والفلاح ، وحصول الخيبة والخسار . فعياذًا بالله من كُلِّ سبب يبعد عن رحمته .

وهذا الوعيد له حكم أمثاله من نصوص الوعيد ، على بعض الكبائر والمعاصي بالخلود في النار ، أو حرمان الجنة . وقد اختلف الأئمة رحمهم اللّه في تأويلها مع اتفاقهم على بطلان قول الخوارج والمعتزلة الذين يخلدونهم في النار ولو كانوا موحّدين .

والصواب في تأويلها ما قاله الإمام المحقق : شمس الدين بن القيم رحمه اللّه في « المدارج » فإنه قال - بعدما ذكر تأويلات الأئمة في ذلك وانتقدها فقال : وقالت فِرقَة : هذه النصوص وأمثالها مما ذكر فيه المُقْتضِي للعُقوبة ، ولا يلزم من وجود مُقتضي الحكم وجوده ، فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه .

وغاية هذه النصوص الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتض لها ، وقد قام الدليل على ذكر الموانع فبعضها بالإجماع ، وبعضها بالنص . فالتوبة مانع بالإجماع ، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها ، والحسنات العظيمة الماحية مانعة ، والمصائب الكبار المكفرة مانعة ، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص ، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين .

ومن هنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات ، اعتبارًا بمُقتضي العقاب ومانعه ، وإعمالا لأرجحها ، قالوا : وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما . وعلى هذا بناء الأحكام الشرعية والأحكام القدرية ، وهو مقتضى الحكمة السارية في الوجود ، وبه ارتباط الأسباب ومُسبباتها خلقا وأمرا ، وقد جعل اللّٰه سبحانه لكل ضد ضدا يُدافعه ويُقاومه ، ويكون الحكم للأغلب منهما . فالقوة مُقتضية للصحة والعافية ، وفساد الأخلاط وبغيها مانع من عمل الطبيعة ، وفعل القوة والحكم للغالب منهما ، وكذلك قوى الأدوية والأمراض . والعبد يكون فيه مقتض للصحة ومقتض للعطب ، وأحدهما يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه ، فإذا ترجح عليه وقهره كان التأثير له .

ومِنْ هنا يعلم انقسام الخلق إلى مَنْ يدخل الجنة ولا يدخل النار ، وعكسه ، ومَنْ يدخل النار ثم يخرج منها ويكون مكثه فيها بحسب ما فيه من مقتضى المكث في سرعة الخروج وبطئه . ومن له بصيرة منورة يرى بها كل ما أخبر اللّٰه به في كتابه من أمر المعاد وتفاصيله ، حتى كأنه يشاهده رأي عين .

ويعلم أن هذا هو مقتضي إلهيته سبحانه ، وربوبيته وعزته وحكمته وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك ، ونسبة ذلك إليه نسبة ما لا يليق به إليه ، فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره . وهذا يقين الإيمان ، وهو الذي يحرق السيئات ، كما تحرق النار الحطب ، وصاحب هذا المقام من الإيمان يستحيل إصراره على السيئات ، وإن وقعت منه وكثرت ، فإن ما معه من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل وقت بالرجوع إلى اللّٰه في عدد أنفاسه ، وهذا من أحب الخلق إلى اللّٰه . انتهى كلامه قدّس اللّٰه روحه ، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيرا .

[٩٤ - ٤] : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ .

يأمر تعالى عباده المؤمنين إذا خرجوا جهادًا في سبيله وابتغاء مرضاته أن يتبينوا ويتثبتوا في جميع أمورهم المُشتبهة .

فإن الأمور قسمان : واضحة وغير واضحة . فالواضحة البيّنة لا تحتاج إلى تثبت وتبين ، لأن ذلك تحصيل حاصل . وأما الأمور المشكلة غير الواضحة فإن الإنسان يحتاج إلى التثبت فيها والتبين ، ليعرف هل يقدم عليها أم لا؟ .

فإن التثبت في هذه الأمور يحصل فيه من الفوائد الكثيرة ، والكف لشرور عظيمة ، ما به يعرف دين العبد وعقله ورزانته ، بخلاف المُستعجل للأمور في بدايتها قبل أن يتبيّن له حكمها ، فإن ذلك يؤدي إلى ما لا ينبغي ، كما جرى لهؤلاء الذين عاتبهم الله في الآية لما لم يتثبتوا وقتلوا من سلّم عليهم ، وكان معه غنيمة له أو مال غيره ، ظنًا أنه يستكفي بذلك قتلَهم ، وكان هذا خطأً في نفس الأمر ، فلهذا عاتبهم بقوله : ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ أي : فلا يحملنَّكم العرض الفاني القليل على ارتكاب ما لا ينبغي فيفوتكم ما عند الله من الثواب الجزيل الباقي ، فما عند الله خير وأبقى .

وفي هذا إشارة إلى أن العبد ينبغي له إذا رأى دواعي نفسه مائلة إلى حالة له فيها هوى وهي مُضرّة له ، أن يُذَكّرها ما أعد الله لمن نهى نفسه عن هواها ، وقدّم مرضاة الله على رضا نفسه ، فإن في ذلك ترغيبًا للنفس في امتثال أمر الله ، وإن شق ذلك عليها .

ثم قال تعالى مُذكّرًا لهم بحالهم الأولى ، قبل هدايتهم إلى الإسلام : ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي : فكما هداكم بعد ضلالكم فكذلك يهدي غيركم ، وكما أن الهداية حصلت لكم شيئًا فشيئًا ، فكذلك غيركم . فنظر الكامل لحاله الأولى الناقصة ، ومعاملته لمن كان على مثلها بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى ، ودعاؤه له بالحكمة والموعظة الحسنة - من أكبر الأسباب لنفعه وانتفاعه ، ولهذا أعاد الأمر بالتبين فقال : ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ . فإذا كان من خرج للجهاد في سبيل الله ، ومجاهدة أعداء الله ، وقد استعد بأنواع الاستعداد للإيقاع بهم ، مأمورًا بالتبين لمن ألقى إليه السلام ، وكانت القرينة قوية في أنه إنما سلم تعوذا من القتل وخوفا على نفسه - فإن ذلك يدل على الأمر بالتبين والتثبت في كل الأحوال التي يقع فيها نوع اشتباه ، فيتثبت فيها العبد ، حتى يتضح له الأمر ويتبين الرشد والصواب .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازي كُلًّا ما عمله ونواه ، بحسب ما علمه من أحوال عباده ونياتهم .

[٩٥ : ٩٦ - ٤] : ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ .

أي : لا يستوي من جاهد من المؤمنين بنفسه وماله ومن لم يخرج للجهاد ولم يُقاتل أعداء الله ، ففيه الحث على الخروج للجهاد ، والترغيب في ذلك ، والترهيب من التكاسل والقعود عنه من غير عذر .

وأما أهل الضرر كالمريض والأعمى والأعرج والذي لا يجد ما يتجهز به ، فإنهم ليسوا بمنزلة القاعدين من غير عذر ، فمن كان من أولي الضرر راضيًا بقعوده لا ينوي الخروج في سبيل الله لولا وجود المانع ، ولا يُحدّث نفسه بذلك ، فإنه بمنزلة القاعد لغير عذر .

ومن كان عازمًا على الخروج في سبيل الله لولا وجود المانع يتمنى ذلك ويُحدّث به نفسه ، فإنه بمنزلة

من خرج للجهاد ، لأن النية الجازمة إذا اقترن بها مقدورها من القول أو الفعل ينزل صاحبها منزلة الفاعل .

ثم صرّح تعالى بتفضيل المجاهدين على القاعدين بالدرجة ، أي : الرفعة ، وهذا تفضيل على وجه الإجمال ، ثم صرح بذلك على وجه التفصيل ، ووعدهم بالمغفرة الصادرة من ربهم ، والرحمة التي تشتمل على حصول كل خير ، واندفاع كل شر .

والدرجات التي فصّلها النبي ﷺ بالحديث الثابت عنه في « الصحيحين » أن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، أعدها الله للمجاهدين في سبيله(٧٨) .

وهذا الثواب الذي رتبه الله على الجهاد ، نظير الذي في سورة الصف في قوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [ سورة الصّف ١٠ - ١٢ ] إلى آخر السورة .

وتأمّل حسن هذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها ، فإنه نفى التسوية أولا بين المجاهد وغيره ، ثم صرّح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة ، ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات .

وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل والمدح ، أو النزول من حالة إلى ما دونها ، عند القدح والذم - أحسن لفظا وأوقع في النفس .

وكذلك إذا فضّل تعالى شيئا على شيء ، وكل منهما له فضل ، احترز بذكر الفضل الجامع للأمرين لئلا يتوهم أحد ذم المفضل عليه كما قال هنا : ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ .

وكما قال تعالى في الآيات المذكورة في الصف في قوله : ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وكما في قوله تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ أي : ممن لم يكن كذلك . ثم قال : ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وكما قال تعالى : ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فينبغي لمن بحث في التفضيل بين الأشخاص والطوائف والأعمال أن يتفطن لهذه النكتة .

وكذلك لو تكلم في ذم الأشخاص والمقالات ذكر ما تجتمع فيه عند تفضيل بعضها على بعض ، لئلا يتوهم أن المفضّل قد حصل له الكمال .

كما إذا قيل : النصارى خير من المجوس فليقل مع ذلك : وكل منهما كافر .

والقتل أشنع من الزنا ، وكل منهما معصية كبيرة ، حرمها الله ورسوله وزجر عنها .

ولما وعد المُجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادرَيْن عن اسميه الكريمين : الغفور الرحيم ، ختم هذا الآية بهما فقال : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ .

---

(٧٨) * أخرجه البُخاري : ( كتاب الجهاد والسِّير/ باب : درجات المُجاهدين في سبيل الله/ ح ٢٧٩٠ ) . ( كتاب التَّوحيد/ باب : ( وكان عرشه على الماء ) ، ح ٧٤٢٣ ) . من حديث أبي هُريرة رضي الله عنه . بينما أخرجه مسلم : ( كتاب الإمارة / باب : بيان ما أعدّه الله تعالى للمُجاهد في الجنّة من الدَّرجات/ ح ١١٦ ) . من حديث أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه .

[ ٩٧ : ٩٩ – ٤ ] : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ .

هذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات ، فإن الملائكة الذين يقبضون روحه يوبّخونه بهذا التوبيخ العظيم ، ويقولون لهم : ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي : على أي حال كنتم؟ وبأي شيء تميزتم عن المشركين؟ بل كثرتم سوادهم ، وربما ظاهرتموهم على المُؤمنين ، وفاتكم الخير الكثير ، والجهاد مع رسوله ، والكون مع المُسلمين ، ومعاونتهم على أعدائهم .

﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي : ضعفاء مقهورين مظلومين ، ليس لنا قدرة على الهجرة ، وهم غير صادقين في ذلك لأن الله وبخهم وتوعدهم ، ولا يُكلِّف الله نفسا إلا وسعها ، واستثنى المستضعفين حقيقة . ولهذا قالت لهم الملائكة : ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ﴾ وهذا استفهام تقرير ، أي : قد تقرَّر عند كل أحد أن أرض الله واسعة ، فحيثما كان العبد في محل لا يتمكن فيه من إظهار دينه ، فإن له مُتَّسعًا وفسحة من الأرض يتمكَّن فيها من عبادة الله ، كما قال تعالى : ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [ سُورة العنكبوت ٥٦ ] . قال الله عن هؤلاء الذين لا عذر لهم : ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ وهذا كما تقدَّم ، فيه ذكر بيان السبب الموجِب ، فقد يترتب عليه مقتضاه ، مع اجتماع شروطه وانتفاء موانعه ، وقد يمنع من ذلك مانع .

وفي الآية دليل على أن الهجرة من أكبر الواجبات ، وتركها من المُحرَّمات ، بل من الكبائر ، وفي الآية دليل على أن كل مَن توفي فقد استكمل واستوفى ما قدر له من الرزق والأجل والعمل ، وذلك مأخوذ من لفظ « التوفي » فإنه يدل على ذلك ، لأنه لو بقي عليه شيء من ذلك لم يكن متوفيًا . وفيه الإيمان بالملائكة ومدحهم ، لأن الله ساق ذلك الخطاب لهم على وجه التقرير والاستحسان منهم ، وموافقته لمحله .

ثم استثنى المستضعفين على الحقيقة ، الذين لا قدرة لهم على الهجرة بوجه من الوجوه ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ .

فهؤلاء قال الله فيهم : ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ و « عسى » ونحوها واجب وقوعها من الله تعالى بمقتضى كرمه وإحسانه ، وفي الترجية بالثواب لمن عمل بعض الأعمال فائدة ، وهو أنه قد لا يوفيه حق توفيته ، ولا يعمله على الوجه اللائق الذي ينبغي ، بل يكون مقصرًا فلا يستحق ذلك الثواب . والله أعلم .

وفي الآية الكريمة دليل على أن من عجز عن المأمور من واجب وغيره فإنه معذور ، كما قال تعالى في العاجزين عن الجهاد : ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [ سُورة النّور ٦١ ] . وقال في عموم الأوامر : ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [ سُورة التّغابن ١٦ ] . وقال النبي ﷺ : « إذا أمرتكم بأمر

فأتوا منه ما استطعتم»[٧٩] ، ولكن لا يعذر الإنسان إلا إذا بذل جهده وانسدت عليه أبواب الحيل لقوله : ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ وفي الآية تنبيه على أن الدليل في الحج والعمرة ونحوهما مما يحتاج إلى سفر من شروط الاستطاعة .

[١٠٠ - ٤] : ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ .

هذا في بيان الحث على الهجرة والترغيب ، وبيان ما فيها من المصالح ، فوعد الصادق في وعده أن من هاجر في سبيله ابتغاء مرضاته ، أنه يجد مُراغمًا في الأرض وسعة ، فالمراغم مُشتمل على مصالح الدين ، والسعة على مصالح الدنيا . وذلك أن كثيرًا من الناس يتوهم أن في الهجرة شتاتًا بعد الألفة ، وفقرًا بعد الغنى ، وذلا بعد العز ، وشدة بعد الرخاء . والأمر ليس كذلك ، فإن المؤمن ما دام بين أظهر المُشركين فدينه في غاية النقص ، لا في العبادات القاصرة عليه كالصلاة ونحوها ، ولا في العبادات المتعدية كالجهاد بالقول والفعل ، وتوابع ذلك ، لعدم تمكنه من ذلك ، وهو بصدد أن يُفتن عن دينه ، خصوصا إن كان مستضعفًا . فإذا هاجر في سبيل اللّٰه تمكن من إقامة دين اللّٰه وجهاد أعداء اللّٰه ومُراغمتهم ، فإن المُراغمة اسم جامع لكل ما يحصل به إغاظة لأعداء اللّٰه من قول وفعل ، وكذلك ما يحصل له سعة في رزقه ، وقد وقع كما أخبر اللّٰه تعالى . واعتبر ذلك بالصحابة رضي اللّٰه عنهم فإنهم لما هاجروا في سبيل اللّٰه وتركوا ديارهم وأولادهم وأموالهم للّٰه ، كَمُلَ بذلك إيمانهم وحصل لهم من الإيمان التام والجهاد العظيم والنصر لدين اللّٰه ، ما كانوا به أئمة لمن بعدهم ، وكذلك حصل لهم مما يترتب على ذلك من الفتوحات والغنائم ، ما كانوا به أغنى الناس ، وهكذا كل من فعل فعلهم ، حصل له ما حصل لهم إلى يوم القيامة .

ثم قال : ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي : قاصدا ربه ورضاه ، ومحبة لرسوله ونصرًا لدين اللّٰه ، لا لغير ذلك من المقاصد ، ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ بقتل أو غيره ، ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي : فقد حصل له أجر المهاجر الذي أدرك مقصوده بضمان اللّٰه تعالى ، وذلك لأنه نوى وجزم ، وحصل منه ابتداء وشروع في العمل ، فمن رحمة اللّٰه به وبأمثاله أن أعطاهم أجرهم كاملًا ولو لم يكملوا العمل ، وغفر لهم ما حصل منهم من التقصير في الهجرة وغيرها .

ولهذا ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين فقال : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يغفر للمؤمنين ما اقترفوه من الخطيئات ، خصوصا التائبين المنيبين إلى ربهم .

﴿رَّحِيمًا﴾ بجميع الخلق رحمة أوجدتهم وعافتهم ورزقتهم من المال والبنين والقوة ، وغير ذلك ، رحيمًا بالمُؤمنين حيث وفقهم للإيمان ، وعلمهم من العلم ما يحصل به الإيقان ، ويسر لهم أسباب السعادة والفلاح وما به يدركون غاية الأرباح ، وسيرون من رحمته وكرمه ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فنسأل اللّٰه أن لا يحرمنا خيره بشر ما عندنا .

(٧٩) * مُتَّفق عليه . من حديث أبي هُريرة . أخرجه البُخاري : ( كتاب الاعتصام / باب : الإقتداء بسنن رسول اللّٰه ﷺ / ح ٧٢٨٨) . وأخرجه مُسلم في صحيحه : ( كتاب الحج/ باب : فرض الحج مرة في العمر/ ح ٤١٢) .

[ ١٠١ : ١٠٢ – ٤ ] : ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ .

هاتان الآيتان أصل في رخصة القصر ، وصلاة الخوف ، يقول تعالى : ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي : في السفر ، وظاهر الآية أنه يقتضي الترخص في أي سفر كان ولو كان سفر معصية ، كما هو مذهب أبي حنيفة رحمه الله ، وخالف في ذلك الجمهور ، وهم الأئمة الثلاثة وغيرهم ، فلم يجوّزوا الترخص في سفر المعصية ، تخصيصا للآية بالمعنى والمناسبة ، فإن الرخصة سهولة من الله لعباده إذا سافروا أن يقصروا ويفطروا ، والعاصي بسفره لا يناسب حاله التخفيف .

وقوله : ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ أي : لا حرج ولا إثم عليكم في ذلك ، ولا ينافي ذلك كون القصر هو الأفضل ، لأن نفي الحرج إزالة لبعض الوهم الواقع في كثير من النفوس ، بل ولا ينافي الوجوب كما تقدم ذلك في سورة البقرة في قوله : ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [ سورة البقرة ١٥٨ ] إلى آخر الآية .

وإزالة الوهم في هذا الموضع ظاهرة ، لأن الصلاة قد تقرر عند المسلمين وجوبها على هذه الصفة التامة ، ولا يزيل هذا عن نفوس أكثرهم إلا بذكر ما ينافيه . ويدل على أفضلية القصر على الإتمام أمران :

أحدهما : ملازمة النبي ﷺ على القصر في جميع أسفاره .

والثاني : أن هذا من باب التوسعة والترخيص والرحمة بالعباد ، والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته . (٨٠)

وقوله : ﴿أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ ولم يقل أن تقصروا الصلاة فيه فائدتان : إحداهما : أنه لو قال أن تقصروا الصلاة لكان القصر غير منضبط بحد من الحدود ، فربما ظن أنه لو قصر معظم الصلاة وجعلها ركعة واحدة لأجزأ ، فإتيانه بقوله : ﴿مِنَ الصَّلَاةِ﴾ ليدل ذلك على أن القصر محدود مضبوط ، مرجوع فيه إلى ما تقرر من فعل النبي ﷺ وأصحابه . الثانية : أن « مِن » تفيد التبعيض ليعلم بذلك أن القصر لبعض الصلوات المفروضات لا جميعها ، فإن الفجر والمغرب لا يقصران وإنما الذي يقصر الصلاة الرباعية من أربع إلى ركعتين .

فإذا تقرر أن القصر في السفر رخصة ، فاعلم أن المفسّرين قد اختلفوا في هذا القيد ، وهو قوله : ﴿إِنْ

---

(٨٠) * أخرجه أحمد : (٢/ ١٠٨) . من حديث ابن عمر .
وصحّحه العلامة الألباني – رحمه الله – في صحيح الجامع برقم « ١٨٨٦ » .

خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ﴾ الذي يدل ظاهره أن القصر لا يجوز إلا بوجود الأمرين كليهما ، السفر مع الخوف .

ويرجع حاصل اختلافهم إلى أنه هل المراد بقوله : ﴿أَن تَقۡصُرُواْ﴾ قصر العدد فقط؟ أو قصر العدد والصفة؟ فالإشكال إنما يكون على الوجه الأول .

وقد أشكل هذا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه ، حتى سأل عنه النبي ﷺ فقال : يا رسول اللّٰه ما لنا نقصر الصلاة وقد أمِنّا؟ أي : واللّٰه يقول : ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ﴾ فقال رسول اللّٰه ﷺ : « صدقة تصدق اللّٰه بها عليكم فاقبلوا صدقته »[٨١] ، أو كما قال .

فعلى هذا يكون هذا القيد أتى به نظرا لغالب الحال التي كان النبي ﷺ وأصحابه عليها ، فإن غالب أسفاره أسفار جهاد .

وفيه فائدة أخرى وهي بيان الحكمة والمصلحة في مشروعية رخصة القصر ، فبيَّن في هذه الآية أنهى ما يتصور من المشقَّة المناسبة للرخصة ، وهي اجتماع السفر والخوف ، ولا يستلزم ذلك أن لا يقصر مع السفر وحده ، الذي هو مظنة المشقَّة .

وأما على الوجه الثاني ، وهو أن المُراد بالقصر : قصر العدد والصفة فإن القيد على بابه ، فإذا وجد السفر والخوف ، جاز قصر العدد ، وقصر الصفة ، وإذا وجد السفر وحده جاز قصر العدد فقط ، أو الخوف وحده جاز قصر الصفة .

ولذلك أتى بصفة صلاة الخوف بعدها بقوله : ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي : صليت بهم صلاة تقيمها وتتم ما يجب فيها ويلزم ، فعلمهم ما ينبغي لك ولهم فعله .

ثم فسَّر ذلك بقوله : ﴿فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ﴾ أي : وطائفة قائمة بإزاء العدو كما يدل على ذلك ما يأتي : ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ أي : الذين معك أي : أكملوا صلاتهم وعبر عن الصلاة بالسجود ليدل على فضل السجود ، وأنه ركن من أركانها ، بل هو أعظم أركانها .

﴿فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ﴾ وهم الطائفة الذين قاموا إزاء العدو ﴿فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ ودل ذلك على أن الإمام يبقى بعد انصراف الطائفة الأولى منتظرا للطائفة الثانية ، فإذا حضروا صلى بهم ما بقي من صلاته ثم جلس ينتظرهم حتى يكملوا صلاتهم ، ثم يسلم بهم وهذا أحد الوجوه في صلاة الخوف . فإنها صحَّت عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة كلها جائزة .

وهذه الآية تدل على أن صلاة الجماعة فرض عين من وجهين ، أحدهما : أن اللّٰه تعالى أمر بها في هذه الحالة الشديدة ، وقت اشتداد الخوف من الأعداء وحذر مهاجمتهم ، فإذا أوجبها في هذه الحالة الشديدة فإيجابها في حالة الطمأنينة والأمن من باب أَوْلَى وأحرى .

---

(٨١) * أخرجه مُسلم في صحيحه : ( كتاب صلاة المسافرين / باب : صلاة المُسافرين وقصرها / ح ٤ ) . من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

والثاني : أن المُصلِّين صلاة الخوف يتركون فيها كثيرا من الشروط واللوازم ، ويعفى فيها عن كثير من الأفعال المُبطلة في غيرها ، وما ذاك إلا لتأكد وجوب الجماعة ، لأنه لا تعارض بين واجب ومستحب ، فلولا وجوب الجماعة لم تترك هذه الأمور اللازمة لأجلها .

وتدل الآية الكريمة على أن الأولى والأفضل أن يُصلوا بإمام واحد . ولو تضمن ذلك الإخلال بشيء لا يخل به لو صلوها بعدة أئمة ، وذلك لأجل اجتماع كلمة المُسلمين واتفاقهم وعدم تفرق كلمتهم ، وليكون ذلك أوقع هيبة في قلوب أعدائهم .

وأمر تعالى بأخذ السلاح والحذر في صلاة الخوف ، وهذا وإن كان فيه حركة واشتغال عن بعض أحوال الصلاة فإن فيه مصلحة راجحة وهو الجمع بين الصلاة والجهاد ، والحذر من الأعداء الحريصين غاية الحرص على الإيقاع بالمسلمين والميل عليهم وعلى أمتعتهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ ، ثم إن الله عذر من له عُذر من مرض أو مطر أن يضع سلاحه ، ولكن مع أخذ الحذر فقال : ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ ومن العذاب المهين ما أمر الله به حزبه المؤمنين وأنصار دينه المُوحِّدين من قتلهم وقتالهم حيثما ثقفوهم ، ويأخذوهم ويحصروهم ، ويقعدوا لهم كل مرصد ، ويحذروهم في جميع الأحوال ، ولا يغفلوا عنهم ، خشية أن ينال الكُفّار بعض مطلوبهم فيهم .

فللّه أعظم حمد وثناء على ما مَنَّ به على المؤمنين ، وأيّدهم بمعونته وتعاليمه التي لو سلكوها على وجه الكمال لم تهزم لهم راية ، ولم يظهر عليهم عدو في وقت من الأوقات .

وفي قوله : ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ يدل على أن هذه الطائفة تكمل جميع صلاتها قبل ذهابهم إلى موضع الحارسين .

وأن الرسول ﷺ يثبت منتظرا للطائفة الأخرى قبل السلام ، لأنه أولا ذكر أن الطائفة تقوم معه ، فأخبر عن مُصاحبتهم له .

ثم أضاف الفعل بعْدُ إليهم دون الرسول ، فدل ذلك على ما ذكرناه .

وفي قوله : ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ دليل على أن الطائفة الأولى قد صلُّوا ، وأن جميع صلاة الطائفة الثانية تكون مع الإمام حقيقة في ركعتهم الأولى ، وحكما في ركعتهم الأخيرة ، فيستلزم ذلك انتظار الإمام إياهم حتى يكملوا صلاتهم ، ثم يسلم بهم ، وهذا ظاهر للمتأمل .

[١٠٣ - ٤] : ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ .

أي : فإذا فرغتم من صلاتكم ، صلاة الخوف وغيرها ، فاذكروا الله في جميع أحوالكم وهيئاتكم ، ولكن خُصَّت صلاة الخوف بذلك لفوائد . منها : أن القلب صلاحه وفلاحه وسعادته بالإنابة إلى الله تعالى في المحبّة وامتلاء القلب من ذكره والثناء عليه .

وأعظم ما يحصل به هذا المقصود الصلاة ، التي حقيقتها أنها صلة بين العبد وبين ربه . ومنها : أن فيها من حقائق الإيمان ومعارف الإيقان ما أوجب أن يفرضها اللّٰه على عباده كل يوم وليلة .

ومن المعلوم أن صلاة الخوف لا تحصل فيها هذه المقاصد الحميدة بسبب اشتغال القلب والبدن والخوف فأمر بجبرها بالذكر بعدها .

ومنها : أن الخوف يوجب من قلق القلب وخوفه ما هو مظنة لضعفه ، وإذا ضعف القلب ضعف البدن عن مقاومة العدو ، والذكر للّٰه والإكثار منه من أعظم مقويات القلب .

ومنها : أن الذكر للّٰه تعالى مع الصبر والثبات سبب للفلاح والظفر بالأعداء ، كما قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة الأنفال ٤٥] . فأمر بالإكثار منه في هذه الحال إلى غير ذلك من الحِكَم .

وقوله : ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي : إذا أمنتم من الخوف واطمأنت قلوبكم وأبدانكم فأتموا صلاتكم على الوجه الأكمل ظاهرا وباطنا ، بأركانها وشروطها وخشوعها وسائر مكملاتها .

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ أي : مفروضا في وقته ، فدل ذلك على فرضيتها ، وأن لها وقتا لا تصح إلا به ، وهو هذه الأوقات التي قد تقررت عند المسلمين صغيرهم وكبيرهم ، عالمهم وجاهلهم ، وأخذوا ذلك عن نبيهم محمد ﷺ بقوله : « صلوا كما رأيتموني أصلي »[٨٢] .

ودلّ قوله : ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ على أن الصلاة ميزان الإيمان وعلى حسب إيمان العبد تكون صلاته وتتم وتكمل ، ويدل ذلك على أن الكُفّار وإن كانوا ملتزمين لأحكام المسلمين كأهل الذمة – أنهم لا يخاطبون بفروع الدين كالصلاة ، ولا يؤمرون بها ، بل ولا تصح منهم ما داموا على كفرهم ، وإن كانوا يعاقبون عليها وعلى سائر الأحكام في الآخرة .

[٤ – ١٠٤] : ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ .

أي : لا تضعفوا ولا تكسلوا في ابتغاء عدوكم من الكُفّار ، أي : في جهادهم والمرابطة على ذلك ، فإن وَهَن القلب مستدع لوَهَن البدن ، وذلك يضعف عن مقاومة الأعداء .

بل كونوا أقوياء نشيطين في قتالهم . ثم ذكر ما يقوي قلوب المؤمنين ، فذكر شيئين :

الأول : أن ما يصيبكم من الألم والتعب والجراح ونحو ذلك فإنه يصيب أعداءكم ، فليس من المروءة الإنسانية والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم ، وأنتم وإياهم قد تساويتم فيما يوجب ذلك ، لأن العادة الجارية لا يضعف إلا من توالت عليه الآلام وانتصر عليه الأعداء على الدوام ، لا من يدال مرة ، ويدال عليه أخرى .

---

(٨٢) * أخرجه البخاري : ( كتاب الأذان / باب : الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة/ ح ٦٣١) . من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه .

الأمر الثاني : أنكم ترجون من الله ما لا يرجون ، فترجون الفوز بثوابه والنجاة من عقابه ، بل خواص المؤمنين لهم مقاصد عالية وآمال رفيعة من نصر دين الله ، وإقامة شرعه ، واتساع دائرة الإسلام ، وهداية الضالين ، وقمع أعداء الدين ، فهذه الأمور تُوجِب للمؤمن المصدق زيادة القوة ، وتضاعف النشاط والشجاعة التامة ؛ لأن من يقاتل ويصبر على نيل عزه الدنيوي إن ناله ، ليس كمن يُقاتل لنيل السعادة الدنيوية والأخروية ، والفوز برضوان الله وجنته ، فسبحان من فاوت بين العباد وفرق بينهم بعلمه وحكمته ، ولهذا قال : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ كامل العلم كامل الحكمة

[ ١٠٥ : ١١٣ - ٤ ] : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ .

يُخبر تعالى أنه أنزل على عبده ورسوله الكتاب بالحق ، أي : محفوظًا في إنزاله من الشياطين ، أن يتطرق إليه منهم باطل ، بل نزل بالحق ، ومشتملا أيضًا على الحق ، فأخباره صدق ، وأوامره ونواهيه عدل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [ سورة الأنعام ١١٥ ] .

وأخبر أنه أنزله ليحكم بين الناس . وفي الآية الأخرى : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [ سورة النحل ٤٤ ] .

فيحتمل أن هذه الآية في الحُكم بين الناس في مسائل النزاع والاختلاف ، وتلك في تبيين جميع الدين وأصوله وفروعه ، ويحتمل أن الآيتين كلتيهما معناهما واحد ، فيكون الحكم بين الناس هنا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأعراض والأموال وسائر الحقوق وفي العقائد وفي جميع مسائل الأحكام .

وقوله : ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ أي : لا بهواك بل بما علَّمك الله وألهمك ، كقوله تعالى : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [ سورة النجم ٣ - ٤ ] .

وفي هذا دليل على عصمته ﷺ فيما يُبلِّغ عن الله من جميع الأحكام وغيرها ، وأنه يُشترط في الحاكم العلم والعدل لقوله : ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل : بما رأيت .

ورتب أيضًا الحُكم بين الناس على معرفة الكتاب ، ولما أمر الله بالحكم بين الناس المُتضمِّن للعدل

والقسط نهاه عن الجور والظلم الذي هو ضد العدل فقال: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ أي: لا تخاصم عن مَن عرفت خيانته، من مدع ما ليس له، أو منكرٍ حقًّا عليه، سواء علم ذلك أو ظنه.

ففي هذا دليل على تحريم الخصومة في باطل، والنيابة عن المبطل في الخصومات الدينية والحقوق الدنيوية.

ويدل مفهوم الآية على جواز الدخول في نيابة الخُصومة لمن لم يُعرف منه ظلم.

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ مما صَدر منك إن صدر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: يغفر الذنب العظيم لمن استغفره، وتاب إليه وأناب ويوفقه للعمل الصالح بعد ذلك الموجِب لثوابه وزوال عقابه.

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ «الاختيان» و «الخيانة» بمعنى الجناية والظلم والإثم، وهذا يشمل النهي عن المُجادلة، عن من أذنب وتوجه عليه عقوبة من حد أو تعزير، فإنه لا يجادل عنه بدفع ما صدر منه من الخيانة، أو بدفع ما ترتب على ذلك من العقوبة الشرعية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ أي: كثير الخيانة والإثم، وإذا انتفى الحب ثبت ضده وهو البُغض، وهذا كالتعليل، للنهي المُتقدم.

ثم ذكر عن هؤلاء الخائنين أنهم ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وهذا من ضعف الإيمان، ونقصان اليقين، أن تكون مخافة الخلق عندهم أعظم من مخافة الله، فيحرصون بالطرق المباحة والمُحرَّمة على عدم الفضيحة عند الناس، وهم مع ذلك قد بارزوا الله بالعظائم، ولم يبالوا بنظره واطلاعه عليهم. وهو معهم بالعلم في جميع أحوالهم، خصوصًا في حال تبييتهم ما لا يرضيه من القول، من تبرئة الجاني، ورمي البريء بالجناية، والسعي في ذلك للرسول ﷺ ليفعل ما بيتوه.

فقد جمعوا بين عدَّة جنايات، ولم يراقبوا رب الأرض والسماوات، المطلع على سرائرهم وضمائرهم، ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ أي: قد أحاط بذلك علما، ومع هذا لم يعاجلهم بالعقوبة بل استأنى بهم، وعرض عليهم التوبة وحذرهم من الإصرار على ذنبهم الموجب للعقوبة البليغة.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: هبكم جادلتم عنهم في هذه الحياة الدنيا، ودفع عنهم جدالُكم بعض ما تحذرون من العار والفضيحة عند الخَلْق، فماذا يغني عنهم وينفعهم؟ ومن يجادل الله عنهم يوم القيامة حين تتوجه عليهم الحُجَّة، وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون؟ ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [سورة النور ٢٥].

فمن يُجادل عنهم من يعلم السر وأخفى ومن أقام عليهم من الشهود ما لا يمكن معه الإنكار؟

وفي هذه الآية إرشاد إلى المقابلة بين ما يتوهم من مصالح الدنيا المترتبة على ترك أوامر الله أو فعل

مناهيه ، وبين ما يفوت من ثواب الآخرة أو يحصل من عقوباتها ، فيقول من أمرته نفسه بترك أمر اللَّه ها أنت تركت أمره كسلا وتفريطا فما النفع الذي انتفعت به؟ ، وماذا فاتك من ثواب الآخرة؟ وماذا ترتب على هذا الترك من الشقاء والحرمان والخيبة والخسران؟ .

وكذلك إذا دعته نفسه إلى ما تشتهيه من الشهوات المحرمة قال لها : هبك فعلت ما اشتهيت فإن لذته تنقضي ويعقبها من الهموم والغموم والحسرات ، وفوات الثواب وحصول العقاب – ما بعضه يكفي العاقل في الإحجام عنها .

وهذا من أعظم ما ينفع العبد تدبره ، وهو خاصة العقل الحقيقي . بخلاف الذي يدعي العقل ، وليس كذلك ، فإنه بجهله وظلمه يؤثر اللذة الحاضرة والراحة الراهنة ، ولو ترتَّب عليها ما ترتب . والله المُستعان .

ثم قال تعالى : ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي : من تجرأ على المعاصي واقتحم على الإثم ثم استغفر اللَّه استغفارا تاما يستلزم الإقرار بالذنب والندم عليه والإقلاع والعزم على أن لا يعود ، فهذا قد وعده من لا يخلف الميعاد بالمغفرة والرحمة . فيغفر له ما صدر منه من الذنب ، ويزيل عنه ما ترتب عليه من النقص والعيب ، ويعيد إليه ما تقدم من الأعمال الصالحة ، ويوفقه فيما يستقبله من عمره ، ولا يجعل ذنبه حائلا عن توفيقه ، لأنه قد غفره ، وإذا غفره غفر ما يترتب عليه .

واعلم أن عمل السوء عند الإطلاق يشمل سائر المعاصي ، الصغيرة والكبيرة ، وسُمّي « سوءًا » لكونه يسوء عامله بعقوبته ، ولكونه في نفسه سيئًا غير حسن ، وكذلك ظلم النفس عند الإطلاق يشمل ظلمها بالشرك فما دونه .

ولكن عند اقتران أحدهما بالآخر قد يُفسَّر كل واحد منهما بما يناسبه ، فيفسر عمل السوء هنا بالظلم الذي يسوء الناس ، وهو ظلمهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم . ويفسر ظلم النفس بالظلم والمعاصي التي بين اللَّه وبين عبده ، وسُمّي ظلم النفس « ظلما » لأن نفس العبد ليست ملكا له يتصرف فيها بما يشاء ، وإنما هي ملك للَّه تعالى قد جعلها أمانة عند العبد وأمره أن يقيمها على طريق العدل ، بإلزامها للصراط المستقيم علمًا وعملًا ، فيسعى في تعليمها ما أمر به ويسعى في العمل بما يجب ، فسعيه في غير هذا الطريق ظلم لنفسه وخيانة وعدول بها عن العدل ، الذي ضده الجور والظلم .

ثم قال : ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ وهذا يشمل كل ما يؤثم من صغير وكبير ، فمن كسب سيئة فإن عقوبتها الدنيوية والأخروية على نفسه ، لا تتعداها إلى غيرها ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [ سورة الأنعام ١٦٤] .

لكن إذا ظهرت السيئات فلم تنكر عمت عقوبتها وشمل إثمها ، فلا تخرج أيضًا عن حكم هذه الآية الكريمة ، لأن من ترك الإنكار الواجب فقد كسب سيئة .

وفي هذا بيان عدل اللَّه وحكمته ، أنه لا يعاقب أحدا بذنب أحد ، ولا يعاقب أحدا أكثر من العقوبة الناشئة عن ذنبه ، ولهذا قال : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي : له العلم الكامل والحكمة التامة . ومن علمه وحكمته أنه يعلم الذنب وما صدر منه ، والسبب الداعي لفعله ، والعقوبة المترتبة على فعله ، ويعلم حالة

المذنب ، أنه إن صدر منه الذنب بغلبة دواعي نفسه الأمارة بالسوء مع إنابته إلى ربه في كثير من أوقاته ، أنه سيغفر له ويوفقه للتوبة . وإن صدر منه بتجرئه على المحارم استخفافا بنظر ربه ، وتهاونا بعقابه ، فإن هذا بعيد من المغفرة بعيد من التوفيق للتوبة .

ثم قال : ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً﴾ أي : ذنبًا كبيرًا ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ ما دون ذلك ، ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ﴾ أي يتَّهم بذنبه ﴿بَرِيٓـًٔا﴾ من ذلك الذنب ، وإن كان مُذنبًا . ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي : فقد حمل فوق ظهره بهتا للبريء وإثمًا ظاهرًا بينًا ، وهذا يدل على أن ذلك من كبائر الذنوب وموبقاتها ، فإنه قد جمع عدة مفاسد : كسب الخطيئة والإثم ، ثم رَمْي مَن لم يفعلها بفعلها ، ثم الكذب الشنيع بتبرئة نفسه واتِّهام البريء ، ثم ما يترتب على ذلك من العقوبة الدنيوية ، تندفع عمن وجبت عليه ، وتقام على من لا يستحقها . ثم ما يترتب على ذلك أيضًا من كلام الناس في البريء إلى غير ذلك من المفاسد التي نسأل الله العافية منها ومن كل شر .

ثم ذكر مِنَّته على رسوله بحفظه وعصمته ممن أراد أن يضله فقال : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ وذلك أن هذه الآيات الكريمات قد ذكر المُفسِّرون أن سبب نزولها : أن أهل بيت سرقوا في المدينة ، فلما اطلع على سرقتهم خافوا الفضيحة ، وأخذوا سرقتهم فرموها ببيت من هو بريء من ذلك .

واستعان السارق بقومه أن يأتوا رسول الله ﷺ ويطلبوا منه أن يبرئ صاحبهم على رءوس الناس ، وقالوا : إنه لم يسرق وإنما الذي سرق من وجدت السرقة ببيته وهو البريء . فهَمَّ رسول الله ﷺ أن يُبرئ صاحبهم ، فأنزل الله هذه الآيات تذكيرا وتبيينا لتلك الواقعة وتحذيرا للرسول ﷺ من المُخاصمة عن الخائنين[٨٣] .

فإن المُخاصمة عن المُبطل من الضلال ، فإن الضلال نوعان : ضلال في العلم ، وهو الجهل بالحق . وضلال في العمل ، وهو العمل بغير ما يجب ، فحفظ الله رسوله عن هذا النوع من الضلال كما حفظه عن الضلال في الأعمال .

وأخبر أن كيدهم ومكرهم يعود على أنفسهم ، كحالة كل ماكر ، فقال : ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ لكون ذلك المكر وذلك التَّحيُّل لم يحصل لهم فيه مقصودهم ، ولم يحصل لهم إلا الخيبة والحرمان والإثم والخسران .

وهذه نعمة كبيرة على رسوله ﷺ تتضمن النعمة بالعمل ، وهو التوفيق لفعل ما يجب ، والعصمة له عن كل مُحرَّم .

ثم ذكر نعمته عليه بالعلم فقال : ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي : أنزل عليك هذا القرآن العظيم والذكر الحكيم الذي فيه تبيان كل شيء وعلم الأولين والآخِرين .

(٨٣) * سبب النزول الَّذي أشار إليه المُصنف - رحمه الله - أخرجه التِّرمذي في سُننه : ( كتاب تفسير القُرآن / باب : ٢٢- ت تابع ٥ / ح ٣٠٣٦ ) . وحسَّنه العلاَّمة الألباني - رحمه الله - في « صحيح سُنن التِّرمذي » .

والحكمة : إما السُّنَّة التي قد قال فيها بعض السلف : إن السُّنَّة تنزل عليه كما ينزل القرآن . وإما معرفة أسرار الشريعة الزائدة على معرفة أحكامها ، وتنزيل الأشياء منازلها وترتيب كل شيء بحسبه .

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ وهذا يشمل جميع ما علَّمه الله تعالى . فإنه ﷺ كما وصفه الله قبل النبوة بقوله : ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [ سورة الشورى ٥٢ ] ، ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [ سورة الضحى ٧ ] .

ثم لم يزل يوحي الله إليه ويعلمه ويكمله حتى ارتقى مقاما من العلم يتعذر وصوله على الأولين والآخرين ، فكان أعلم الخلق على الإطلاق ، وأجمعهم لصفات الكمال ، وأكملهم فيها ، ولهذا قال : ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ ففضله على الرسول محمد ﷺ أعظم من فضله على كُلِّ مخلوق ، وأجناس الفضل الذي قد فضله الله به لا يمكن استقصاؤها ولا يتيسر إحصاؤها .

[١١٤ – ٤] : ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

أي : لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ويتخاطبون ، وإذا لم يكن فيه خير ، فإمَّا لا فائدة فيه كفضول الكلام المباح ، وإمَّا شر ومضرَّة محضة كالكلام المُحرَّم بجميع أنواعه . ثم استثنى تعالى فقال : ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ من مال أو علم أو أي نفع كان ، بل لعله يدخل فيه العبادات القاصرة كالتسبيح والتحميد ونحوه ، كما قال النبي ﷺ : « إن بِكُلِّ تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، وفي بضع أحدكم صدقة » الحديث[٨٤] .

﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ وهو الإحسان والطاعة وكل ما عُرِفَ في الشرع والعقل حُسنه ، وإذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يقرن بالنهي عن المُنكر دخل فيه النهي عن المُنكر ، وذلك لأن ترك المنهيات من المعروف ، وأيضًا لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر .

وأما عند الاقتران فيُفسر المعروف بفعل المأمور ، والمنكر بترك المنهي .

﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين مُتخاصِمين ، والنزاع والخصام والتغاضب يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره ، فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض ، بل وفي الأديان كما قال تعالى : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [ سورة آل عمران ١٠٣ ] ، وقال تعالى : ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى

---

(٨٤) * أخرجه مُسلمٌ عن أبي ذرٍ بلفظ المُصنف –رحمه الله– : ( كتاب الزَّكاة / باب : بيان أنَّ اسم الصَّدقة يقع على كل نوعٍ من المعروف/ ح ٥٣) . وفي الباب أحاديث أخرى مُتفقٌ عليها منها : حديث أبي هُريرة قال : قال رسول الله ﷺ : كُلُّ سُلامى من النَّاس عليه صدقة كل يوم تطلع الشَّمس ، قال : تعدل بين اثنين صدقة ، وتُعين الرَّجل في دابته فتحمِّله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، قال : والكلمة الطَّيِّبة صدقة ، وكل خطوة تمشيها إلى الصَّلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطَّريق صدقة . أخرجه البُخاري في صحيحه : ( كتاب الجهاد والسِّير/ باب : فضل من حمل متاع صاحبه في السَّفر/ ح ٢٨٩١) . ومُسلم في صحيحه : (كتاب الزَّكاة / باب : بيان أنَّ اسم الصَّدقة يقع على كل نوعٍ من المعروف/ ح ٥٦ ) . وفي الباب عن عائشة ، وعن أبي موسى وغيرهم .

﴿ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الحجرات ٩] الآية . وقال تعالى : ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [سورة النساء ١٢٨] .

والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القانت بالصلاة والصيام والصدقة ، والمصلح لا بد أن يصلح الله سعيه وعمله ، كما أن الساعي في الإفساد لا يصلح الله عمله ولا يتم له مقصوده كما قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة يونس ٨١] .

فهذه الأشياء حيثما فُعلت فهي خير ، كما دل على ذلك الاستثناء . ولكن كمال الأجر وتمامه بحسب النية والإخلاص ، ولهذا قال : ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فلهذا ينبغي للعبد أن يقصد وجه الله تعالى ويخلص العمل لله في كل وقت وفي كل جزء من أجزاء الخير ، ليحصل له بذلك الأجر العظيم ، وليتعود الإخلاص فيكون من المخلصين ، وليتم له الأجر ، سواء تم مقصوده أم لا ، لأن النية حصلت واقترن بها ما يمكن من العمل .

[ ١١٥: ١١٦ - ٤] : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾

أي : ومن يُخالف الرسول ﷺ ويُعانده فيما جاء به ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ بالدلائل القرآنية والبراهين النبوية ، ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وسبيلهم هو طريقهم في عقائدهم وأعمالهم ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أي : نتركه وما اختاره لنفسه ، ونخذله فلا نوفقه للخير ، لكونه رأى الحق وعلمه وتركه ، فجزاؤه من الله عدلًا أن يبقيه في ضلاله حائرا ويزداد ضلالا إلى ضلاله ، كما قال تعالى : ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [سورة الصف ٥] ، وقال تعالى : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [سورة الأنعام ١١٠] .

ويدل مفهومها على أن من لم يشاقق الرسول ، ويتبع سبيل المؤمنين ، بأن كان قصده وجه الله واتباع رسوله ولزوم جماعة المسلمين ، ثم صدر منه من الذنوب أو الهَم بها ما هو من مقتضيات النفوس ، وغلبات الطباع ، فإن الله لا يوليه نفسه وشيطانه بل يتداركه بلطفه ، ويمن عليه بحفظه ويعصمه من السوء ، كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام : ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة يوسف ٢٤] أي : بسبب إخلاصه صرفنا عنه السوء ، وكذلك كل مُخلص ، كما يدل عليه عموم التعليل .

وقوله : ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ أي : نعذبه فيها عذابًا عظيمًا ، ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أي : مرجعا له ومآلًا .

وهذا الوعيد المُرتب على الشقاق ومخالفة المؤمنين مراتب لا يحصيها إلا الله بحسب حالة الذنب صغرا وكبرا ، فمنه ما يخلد في النار ويوجب جميع الخذلان ، ومنه ما هو دون ذلك ، فلعل الآية الثانية كالتفصيل لهذا المُطلق ، وهو : أن الشرك لا يغفره الله تعالى لتضمنه القدح في رب العالمين وفي وحدانيته وتسوية المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا بمن هو مالك النفع والضر ، الذي ما من نعمة إلا منه ، ولا يدفع النقم إلا هو ، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه ، والغنى التام بجميع وجوه الاعتبارات .

فمن أعظم الظلم وأبعد الضلال عدم إخلاص العبادة لمن هذا شأنه وعظمته ، وصرف شيء منها للمخلوق الذي ليس له من صفات الكمال شيء ، ولا له من صفات الغنى شيء بل ليس له إلا العدم ، عدم الوجود وعدم الكمال وعدم الغنى ، والفقر من جميع الوجوه .

وأما ما دون الشرك من الذنوب والمعاصي فهو تحت المشيئة ، إن شاء الله غفره برحمته وحكمته ، وإن شاء عذب عليه وعاقب بعدله وحكمته .

وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أن إجماع هذه الأمة حجة وأنها معصومة من الخطأ . ووجه ذلك : أن الله توعد من خالف سبيل المؤمنين بالخُذلان والنار ، و﴿غَيْرَ سَبِيلِ﴾ مفرد مضاف يشمل سائر ما المؤمنون عليه من العقائد والأعمال ، فإذا اتفقوا على إيجاب شيء أو استحبابه ، أو تحريمه أو كراهته ، أو إباحته – فهذا سبيلهم ، فمن خالفهم في شيء من ذلك بعد انعقاد إجماعهم عليه ، فقد اتبع غير سبيلهم . ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [ سورة آل عمران ١١٠ ] .

ووجه الدلالة منها : أن الله تعالى أخبر أن المؤمنين من هذه الأمة لا يأمرون إلا بالمعروف ، فإذا اتفقوا على إيجاب شيء أو استحبابه فهو مما أمروا به ، فيتعين بنص الآية أن يكون معروفا ولا شيء بعد المعروف غير المنكر ، وكذلك إذا اتفقوا على النهي عن شيء فهو مما نهوا عنه فلا يكون إلا مُنكرا .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [ سورة البقرة ١٤٣ ] ، فأخبر تعالى أن هذه الأمة جعلها الله وسطا أي : عدلا خيارا ليكونوا شُهداء على الناس أي : في كل شيء ، فإذا شهدوا على حكم بأن الله أمر به أو نهى عنه أو أباحه ، فإن شهادتهم معصومة لكونهم عالمين بما شهدوا به عادلين في شهادتهم ، فلو كان الأمر بخلاف ذلك لم يكونوا عادلين في شهادتهم ولا عالمين بها .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [ سورة النساء ٥٩ ] ، يُفهم منها أن ما لم يتنازعوا فيه بل اتّفقوا عليه أنهم غير مأمورين برده إلى الكتاب والسُّنّة ، وذلك لا يكون إلا موافقا للكتاب والسُّنّة فلا يكون مُخالفا .

فهذه الأدلة ونحوها تفيد القطع أن إجماع هذه الأمة حُجّة قاطعة ، ولهذا بيّن الله قُبح ضلال المُشركين بقوله :

[ ١١٧ : ١٢١ – ٤ ] : ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ .

أي : ما يدعو هؤلاء المُشركون من دون الله إلا إناثا ، أي : أوثانا وأصناما مُسمّيات بأسماء الإناث

كـ « العُزى » و « مَناة » ونحوهما ، ومن المعلوم أن الاسم دال على المُسمَّى . فإذا كانت أسماؤها أسماء مؤنثة ناقصة ، دل ذلك على نقص المُسمَّيات بتلك الأسماء ، وفقدها لصفات الكمال ، كما أخبر اللّه تعالى في غير موضع من كتابه ، أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تدفع عن عابديها بل ولا عن نفسها ؛ نفعا ولا ضرا ولا تنصر أنفسها ممن يريدها بسوء ، وليس لها أسماع ولا أبصار ولا أفئدة ، فكيف يُعبد من هذا وصفه ويترك الإخلاص لمن له الأسماء الحسنى والصفات العليا والحمد والكمال ، والمجد والجلال ، والعز والجمال ، والرحمة والبر والإحسان ، والانفراد بالخلق والتدبير ، والحكمة العظيمة في الأمر والتقدير؟ ، هل هذا إلا من أقبح القبيح الدال على نقص صاحبه ، وبلوغه من الخسة والدناءة أدنى ما يتصوره متصور ، أو يصفه واصف؟ .

ومع ذلك فعبادتهم إنما صورتها فقط لهذه الأوثان الناقصة ، وبالحقيقة ما عبدوا غير الشيطان الذي هو عدوهم الذي يريد إهلاكهم ويسعى في ذلك بكل ما يقدر عليه ، الذي هو في غاية البعد من اللّه ، لعنه اللّه وأبعده عن رحمته ، فكما أبعده اللّه من رحمته يسعى في إبعاد العباد عن رحمة اللّه ، ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [ سورة فاطر ٦] .

ولهذا أخبر اللّه عن سعيه في إغواء العباد ، وتزيين الشر لهم والفساد وأنه قال لربه مُقْسِمًا : ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي : مُقدَّرًا ، عَلِمَ اللعين أنه لا يقدر على إغواء جميع عباد اللّه ، وأن عباد اللّه المخلصين ليس له عليهم سلطان ، وإنما سلطانه على من تولاه ، وآثر طاعته على طاعة مولاه .

وأقسم في موضع آخر ليغوينهم ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فهذا الذي ظنه الخبيث وجزم به ، أخبر اللّه تعالى بوقوعه بقوله : ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [ سورة الحجر ٣٩ - ٤٠] .

وهذا النصيب المفروض الذي أقسم للّه إنه يتخذهم ذكر ما يريد بهم وما يقصده لهم بقوله : ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ أي : عن الصراط المستقيم ضلالا في العلم ، وضلالا في العمل .

﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ أي : مع الإضلال ، لأمنينهم أن ينالوا ما ناله المهتدون . وهذا هو الغرور بعينه ، فلم يقتصر على مُجرد إضلالهم حتى زين لهم ما هم فيه من الضلال .

وهذا زيادة شر إلى شرهم حيث عملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة وحسبوا أنها موجبة للجنة ، واعتبر ذلك باليهود والنصارى ونحوهم فإنهم كما حكى اللّه عنهم ، ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [سورة البقرة ١١١] . ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [ سورة الأنعام ١٠٨] ، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [ سورة الكهف ١٠٣] الآية .

وقال تعالى عن المُنافقين إنهم يقولون يوم القيامة للمؤمنين : ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [سورة الحديد ١٤] .

وقوله : ﴿وَلَأَمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي : بتقطيع آذانها ، وذلك كالبحيرة والسائبة

والوصيلة والحام فنبه ببعض ذلك على جميعه ، وهذا نوع من الإضلال يقتضي تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله ، ويلتحق بذلك من الاعتقادات الفاسدة والأحكام الجائرة ما هو من أكبر الإضلال .

﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ وهذا يتناول تغيير الخلقة الظاهرة بالوشم ، والوشر والنمص والتفلج للحسن ، ونحو ذلك مما أغواهم به الشيطان فغيروا خلقة الرحمن .

وذلك يتضمن التسخط من خلقته والقدح في حكمته ، واعتقاد أن ما يصنعون بأيديهم أحسن من خلقة الرحمن ، وعدم الرضا بتقديره وتدبيره ، ويتناول أيضًا تغيير الخلقة الباطنة ، فإن الله تعالى خلق عباده حنفاء مفطورين على قبول الحق وإيثاره ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن هذا الخلق الجميل(٨٥) ، وزينت لهم الشر والشرك والكفر والفسوق والعصيان . فإن كل مولود يولد على الفطرة ولكن أبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه(٨٦) ، ونحو ذلك مما يُغيّرون به ما فطر الله عليه العباد من توحيده وحبه ومعرفته ، فافترستهم الشياطين في هذا الموضع افتراس السبع والذئاب للغنم المُنفردة .

لولا لطف الله وكرمه بعباده المُخلصين لجرى عليهم ما جرى على هؤلاء المفتونين ، وهذا الذي جرى عليهم من توليهم عن ربهم وفاطرهم وتوليهم لعدوهم المريد لهم الشر من كل وجه ، فخسروا الدنيا والآخرة ، ورجعوا بالخيبة والصفقة الخاسرة ، ولهذا قال : ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ وأي خسار أبين وأعظم ممن خسر دينه ودنياه وأوبقته معاصيه وخطاياه؟!! فحصل له الشقاء الأبدي ، وفاته النعيم السرمدي .

كما أن من تولى مولاه وآثر رضاه ، ربح كل الربح ، وأفلح كل الفلاح ، وفاز بسعادة الدارين ، وأصبح قرير العين ، فلا مانع لما أعطيت ، ولا مُعطي لما منعت ، اللهم تولَّنا فيمن توليت ، وعافنا فيمن عافيت .

ثم قال : ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ أي : يَعِدُ الشيطان من يسعى في إضلالهم ، والوعد يشمل حتى الوعيد كما قال تعالى : ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ فإنه يعدهم إذا أنفقوا في سبيل الله افتقروا ، ويخوفهم إذا جاهدوا بالقتل وغيره ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [سورة آل عمران ١٧٥] الآية .

ويخوفهم عند إيثار مرضاة الله بكل ما يمكن وما لا يمكن مما يدخله في عقولهم حتى يكسلوا عن فعل

---

(٨٥) * هذا معنى حديث أخرجه مسلم : ( كتاب الجنة / باب : الصِّفات التي يُعرف بها في الدُّنيا أهل الجنة وأهل النّار/ ح ٦٣ ) .
عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته : ألا إنَّ ربي أمرني أنْ أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا ، كل مال نحلته عبدًا حلال ، وإنِّي خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا .... الحديث .

(٨٦) * هذا معنى حديث أخرجه البخاري في صحيحه : ( كتاب الجنائز/ باب : إذا أسلم الصَّبي فمات هل يُصلى عليه وهل يُعرض على الصَّبي الإسلام / ح ١٣٥٨، ١٣٥٩ ) ،( كتاب التفسير/ باب : لا تبديل لخلق الله/ ح ٤٧٧٥ ) ، ( كتاب القدر/ باب : الله أعلم بما كانوا عاملين/ ح ٦٥٩٩ ) . ومسلم : ( كتاب القدر/ باب : معنى كل مولود يولد على الفطرة ، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المُسلمين/ ح ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥ ) .
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يُمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء .

الخير ، وكذلك يمنيهم الأماني الباطلة التي هي عند التحقيق كالسراب الذي لا حقيقة له ، ولهذا قال : ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ أي : من انقاد للشيطان وأعرض عن ربه ، وصار من أتباع إبليس وحزبه ، مستقرهم النار ، ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا﴾ أي : مخلصا ولا ملجأ بل هم خالدون فيها أبد الآباد .

ولما بيّن مآل الأشقياء أولياء الشيطان ذكر مآل السعداء أوليائه فقال :

[١٢٢ - ٤] : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ .

أي : ﴿ءَامَنُواْ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والقَدَر خيره وشره على الوجه الذي أمروا به علما وتصديقًا وإقرارًا .

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الناشئة عن الإيمان؟ ، وهذا يشمل سائر المأمورات من واجب ومستحب ، الذي على القلب ، والذي على اللسان ، والذي على بقية الجوارح . كل له من الثواب المرتب على ذلك بحسب حاله ومقامه ، وتكميله للإيمان والعمل الصالح . ويفوته ما رتب على ذلك بحسب ما أخل به من الإيمان والعمل ، وذلك بحسب ما علم من حكمة اللّٰه ورحمته ، وكذلك وعده الصادق الذي يعرف من تتبع كتاب اللّٰه وسنة رسوله ، ولهذا ذكر الثواب المرتب على ذلك بقوله : ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، من أنواع المآكل والمشارب اللذيذة ، والمناظر العجيبة ، والأزواج الحسنة ، والقصور ، والغرف المزخرفة ، والأشجار المُتدلية ، والفواكه المُستغربة ، والأصوات الشجية ، والنعم السابغة ، وتزاور الإخوان ، وتذكرهم ما كان منهم في رياض الجنان ، وأعلى من ذلك كله وأجلّ رضوان اللّٰه عليهم وتمتع الأرواح بقربه ، والعيون برؤيته ، والأسماع بخطابه الذي ينسيهم كل نعيم وسرور ، ولولا الثبات من اللّٰه لهم لطاروا وماتوا من الفرح والحبور ، فلله ما أحلى ذلك النعيم وما أعلى ما أنالهم الرب الكريم ، وماذا حصل لهم من كل خير وبهجة لا يصفه الواصفون ، وتمام ذلك وكماله الخلود الدائم في تلك المنازل العاليات ، ولهذا قال : ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ .

فصدق اللّٰه العظيم الذي بلغ قولُه وحديثُه في الصدق أعلى ما يكون ، ولهذا لما كان كلامه صدقًا وخبره حقًّا ، كان ما يدل عليه مطابقةً وتضمنًا وملازمةً كل ذلك مراد من كلامه ، وكذلك كلام رسوله ﷺ لكونه لا يخبر إلا بأمره ولا ينطق إلا عن وحيه .

[١٢٣ : ١٢٤ - ٤] : ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ۝ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾

أي : ﴿لَّيۡسَ﴾ الأمر والنجاة والتزكية ﴿بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ والأماني : أحاديث

النفس المجردة عن العمل، المُقترن بها دعوى مجردة لو عورضت بمثلها لكانت من جنسها.

وهذا عامّ في كل أمر، فكيف بأمر الإيمان والسعادة الأبدية؟! ، فإن أماني أهل الكتاب قد أخبر الله بها أنهم قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ وغيرهم ممَّن ليس ينتسب لكتاب ولا رسول من باب أولى وأحرى.

وكذلك أدخل الله في ذلك من ينتسب إلى الإسلام لكمال العدل والإنصاف، فإن مجرد الانتساب إلى أي دين كان، لا يفيد شيئا إن لم يأت الإنسان ببرهان على صحة دعواه، فالأعمال تصدق الدعوى أو تكذبها ولهذا قال تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ وهذا شامل لجميع العاملين، لأن السوء شامل لأي ذنب كان من صغائر الذنوب وكبائرها، وشامل أيضًا لكل جزاء قليل أو كثير، دنيوي أو أخروي.

والناس في هذا المقام درجات لا يعلمها إلا الله، فمستقل ومستكثر، فمن كان عمله كله سوءا وذلك لا يكون إلا كافرا. فإذا مات من دون توبة جُوزي بالخلود في العذاب الأليم. ومن كان عمله صالحا، وهو مستقيم في غالب أحواله، وإنما يصدر منه بعض الأحيان بعض الذنوب الصغار فما يصيبه من الهم والغم والأذى و بعض الآلام في بدنه أو قلبه أو حبيبه أو ماله ونحو ذلك – فإنها مُكفِّرات للذنوب، وهي مما يجزى به على عمله، قيّضها الله لُطفًا بعباده، وبين هذين الحالين مراتب كثيرة.

وهذا الجزاء على عمل السوء العام مخصوص في غير التائبين، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، كما دلت على ذلك النصوص.

وقوله: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ لإزالة بعض ما لعله يتوهم أن من استحق المجازاة على عمله قد يكون له ولي أو ناصر أو شافع يدفع عنه ما استحقه، فأخبر تعالى بانتفاء ذلك، فليس له ولي يحصل له المطلوب، ولا نصير يدفع عنه المرهوب، إلا ربه ومليكه.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دخل في ذلك سائر الأعمال القلبيّة والبدنيّة، ودخل أيضًا كل عامل من إنس أو جن، صغير أو كبير، ذكر أو أنثى.

ولهذا قال: ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهذا شرط لجميع الأعمال، لا تكون صالحة ولا تقبل ولا يترتب عليها الثواب ولا يندفع بها العقاب إلا بالإيمان، فالأعمال بدون الإيمان كأغصان شجرة قُطِعَ أصلها وكبناء بني على موج الماء، فالإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة التي يُبنى عليه كل شيء، وهذا القيد ينبغي التفطن له في كل عمل أطلق، فإنه مُقيد به.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ المُشتملة على ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ أي: لا قليلا ولا كثيرا مما عملوه من الخير، بل يجدونه كاملا موفرا، مضاعفا أضعافا كثيرة.

[١٢٥ – ٤]: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾.

أي: لا أحد أحسن من دين من جمع بين الإخلاص للمعبود، وهو إسلام الوجه لله الدال على استسلام

القلب وتوجهه وإنابته وإخلاصه، وتوجه الوجه وسائر الأعضاء لله.

﴿وَهُوَ﴾ مع هذا الإخلاص والاستسلام ﴿مُحْسِنٌ﴾ أي: مُتبع لشريعة الله التي أرسل بها رسله، وأنزل كتبه، وجعلها طريقا لخواص خلقه وأتباعهم.

﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: دينه وشرعه ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلا عن الشرك إلى التوحيد، وعن التوجُّه للخلق إلى الإقبال على الخالق، ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ والخُلَّة أعلى أنواع المحبّة، وهذه المرتبة حصلت للخليلين محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأما المحبة من الله فهي لعموم المؤمنين، وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلا لأنه وفَّى بما أُمر به وقام بما ابْتُلي به، فجعله الله إماما للناس، واتخذه خليلا، ونوه بذكره في العالمين.

[١٢٦ - ٤]: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾.

وهذه الآية الكريمة فيها بيان إحاطة الله تعالى بجميع الأشياء، فأخبر أنه له ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملكه وعبيده، فهم المملوكون وهو المالك المُتفرِّد بتدبيرهم، وقد أحاط علمه بجميع المعلومات، وبصره بجميع المُبصرات، وسمعه بجميع المسموعات، ونفذت مشيئته وقدرته بجميع الموجودات، ووسعت رحمته أهل الأرض والسماوات، وقهر بعزه وقهره كل مخلوق، ودانت له جميع الأشياء.

[١٢٧ - ٤]: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾.

الاستفتاء: طلب السائل من المسئول بيان الحكم الشرعي في ذلك المسئول عنه.

فأخبر عن المؤمنين أنهم يستفتون الرسول ﷺ في حكم النّساء المُتعلق بهم، فتولى الله هذه الفتوى بنفسه فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ فاعملوا على ما أفتاكم به في جميع شئون النساء، من القيام بحقوقهن وترك ظلمهن عمومًا وخصوصًا.

وهذا أمر عام يشمل جميع ما شرع الله أمرا ونهيا في حق النّساء الزوجات وغيرهن، الصغار والكبار، ثم خص - بعد التعميم - الوصية بالضعاف من اليتامى والولدان اهتماما بهم وزجرا عن التفريط في حقوقهم فقال: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ أي: ويُفتيكم أيضًا بما يتلى عليكم في الكتاب في شأن اليتامى من النساء، ﴿اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ وهذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة في ذلك الوقت، فإن اليتيمة إذا كانت تحت ولاية الرجل بخسها حقَّها وظلمها، إما بأكل مالها الذي لها أو بعضه، أو منعها من التزوج لينتفع بمالها، خوفا من استخراجه من يده إنْ زوّجها، أو يأخذ من مهرها الذي تتزوج به بشرط أو غيره، هذا إذا كان راغبا عنها، أو يرغب فيها وهي ذات جمال ومال ولا يقسط في مهرها، بل يعطيها دون ما تستحق، فكل هذا ظلم يدخل تحت هذا النص ولهذا قال: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن

﴿تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي : ترغبون عن نكاحهن أو في نكاحهن كما ذكرنا تمثيله .

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ أي : ويفتيكم في المستضعفين من الولدان الصغار ، أن تعطوهم حقهم من الميراث وغيره وأن لا تستولوا على أموالهم على وجه الظلم والاستبداد .

﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي : بالعدل التام ، وهذا يشمل القيام عليهم بإلزامهم أمر اللّٰه وما أوجبه على عباده ، فيكون الأولياء مُكلفين بذلك ، يلزمونهم بما أوجبه اللّٰه ، ويشمل القيام عليهم في مصالحهم الدنيوية بتنمية أموالهم وطلب الأحظ لهم فيها ، وأن لا يقربوها إلا بالتي هي أحسن ، وكذلك لا يُحابون فيهم صديقا ولا غيره ، في تزوج وغيره ، على وجه الهضم لحقوقهم . وهذا من رحمته تعالى بعباده ، حيث حثّ غاية الحث على القيام بمصالح من لا يقوم بمصلحة نفسه لضعفه وفقد أبيه ، ثم حثّ على الإحسان عمومًا فقال : ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ لليتامى ولغيرهم سواء كان الخير مُتعديًا أو لازمًا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ أي : قد أحاط علمه بعمل العاملين للخير ، قلّة وكثرة ، حُسنًا وضده ، فيُجازي كُلًّا بحسب عمله .

[١٢٨ – ٤] : ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ .

أي : إذا خافت المرأة نُشوز زوجها أي : ترفعه عنها وعدم رغبته فيها وإعراضه عنها ، فالأحسن في هذه الحالة أن يُصلحا بينهما صلحا بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها على وجه تبقى مع زوجها ، إما أن ترضى بأقل من الواجب لها من النفقة أو الكسوة أو المسكن ، أو القسم بأن تسقط حقَّها منه ، أو تهب يومها وليلتها لزوجها أو ضرّتها . فإذا اتفقا على هذه الحالة فلا جناح ولا بأس عليهما فيها ، لا عليها ولا على الزوج ، فيجوز حينئذ لزوجها البقاء معها على هذه الحال ، وهي خير من الفرقة ، ولهذا قال : ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ .

ويؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى أن الصلح بين مَن بينهما حق أو منازعة في جميع الأشياء أنه خير من استقصاء كل منهما على كل حقه ، لما فيها من الإصلاح وبقاء الألفة والاتصاف بصفة السماح ، وهو جائز في جميع الأشياء إلا إذا أحلّ حراما أو حرّم حلالا ، فإنه لا يكون صلحا وإنما يكون جورًا .

واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل إلا بوجود مُقتضيه وانتفاء موانعه ، فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح ، فذكر تعالى المقتضي لذلك ونبّه على أنه خير ، والخير كل عاقل يطلبه ويرغب فيه ، فإن كان –مع ذلك– قد أمر اللّٰه به وحثّ عليه ازداد المؤمن طلبا له ورغبة فيه .

وذكر المانع بقوله : ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ أي : جُبِلَت النفوس على الشح ، وهو : عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان ، والحرص على الحق الذي له ، فالنفوس مجبولة على ذلك طبعا ، أي : فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخُلُق الدنيء من نفوسكم ، وتستبدلوا به ضده وهو السماحة ، وهو بذل الحق الذي عليك ؛ والاقتناع ببعض الحق الذي لك ، فمتى وفق الإنسان لهذا الخُلُق الحسن سهل حينئذ عليه

الصلح بينه وبين خصمه ومعامله ، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب ، بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه ، فإنه يعسُر عليه الصلح والموافقة ، لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله ، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه ، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر .

ثم قال : ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ أي : تُحسنوا في عبادة الخالق بأن يعبد العبد ربه كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه ، وتحسنوا إلى المخلوقين بجميع طرق الإحسان ، من نفع بمال ، أو علم ، أو جاه ، أو غير ذلك ، ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ الله بفعل جميع المأمورات ، وترك جميع المحظورات . أو تُحسِنوا بفعل المأمور ، وتتقوا بترك المحظور ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ، قد أحاط به علما وخبرا ، بظاهره وباطنه ، فيحفظه لكم ، ويُجازيكم عليه أتم الجزاء .

[١٢٩ - ٤] : ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ .

يُخبر تعالى : أن الأزواج لا يستطيعون وليس في قدرتهم العدل التام بين النساء ، وذلك لأن العدل يستلزم وجود المحبة على السواء ، والداعي على السواء ، والميل في القلب إليهن على السواء ، ثم العمل بمُقتضى ذلك . وهذا متعذّر غير ممكن ، فلذلك عفا الله عما لا يستطاع ، ونهى عما هو ممكن بقوله : ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ﴾ أي : لا تميلوا ميلا كثيرا بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة ، بل افعلوا ما هو باستطاعتكم من العدل .

فالنفقة والكسوة والقِسم ونحوها عليكم أن تعدلوا بينهن فيها ، بخلاف الحب والوطء ونحو ذلك ، فإن الزوجة إذا ترك زوجها ما يجب لها ، صارت كالمُعلَّقة التي لا زوج لها فتستريح وتستعد للتزوج ، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها .

﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟﴾ ما بينكم وبين زوجاتكم ، بإجبار أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس ، احتسابا وقياما بحق الزوجة ، وتصلحوا أيضًا فيما بينكم وبين الناس ، وتصلحوا أيضًا بين الناس فيما تنازعوا فيه ، وهذا يستلزم الحث على كل طريق يوصل إلى الصلح مطلقا كما تقدم .

﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ الله بفعل المأمور وترك المحظور ، والصبر على المقدور . ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يغفر ما صدر منكم من الذنوب والتقصير في الحق الواجب ، ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمتموهن .

[١٣٠ - ٤] : ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾

هذه الحالة الثالثة بين الزوجين ، إذا تعذَّر الاتفاق فإنه لا بأس بالفراق ، فقال : ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ أي : بطلاق أو فسخ أو خلع أو غير ذلك ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا﴾ من الزوجين ﴿مِّن سَعَتِهِۦ ۚ﴾ أي : من فضله وإحسانه الواسع الشامل .

فيغني الزوج بزوجة خير له منها ، ويغنيها من فضله وإن انقطع نصيبها من زوجها ، فإن رزقها على

المتكفّل بأرزاق جميع الخلق ، القائم بمصالحهم ، ولعل اللّٰه يرزقها زوجا خيرا منه .

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا﴾ أي : كثير الفضل واسع الرحمة ، وصلت رحمته وإحسانه إلى حيث وصل إليه علمه . ولكنه مع ذلك ﴿حَكِيمًا﴾ أي : يعطي بحكمة ، ويمنع لحكمة . فإذا اقتضت حكمته منع بعض عباده من إحسانه ، بسبب من العبد لا يستحق معه الإحسان ، حرمه عدلا وحكمة .

[ ١٣١ : ١٣٢ - ٤ ] : ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ .

يُخبر تعالى عن عموم ملكه العظيم الواسع المُستلزم تدبيره بجميع أنواع التدبير ، وتصرفه بأنواع التصريف قدرا وشرعا ، فتصرفه الشرعي أن وصى الأولين والآخرين أهل الكتب السابقة واللاحقة بالتقوى المتضمنة للأمر والنهي ، وتشريع الأحكام ، والمُجازاة لمن قام بهذه الوصية بالثواب ، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها بأليم العذاب .

ولهذا قال : ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟﴾ بأن تتركوا تقوى اللّٰه ، وتشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ، فإنكم لا تضرون بذلك إلا أنفسكم ، ولا تضرون اللّٰه شيئا ولا تنقصون ملكه ، وله عبيد خير منكم وأعظم وأكثر ، مطيعون له خاضعون لأمره .

ولهذا رتّب على ذلك قوله : ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ له الجود الكامل والإحسان الشامل الصادر من خزائن رحمته التي لا ينقصها الإنفاق ولا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، لو اجتمع أهل السماوات وأهل الأرض أولهم وآخرهم ، فسأل كل « واحد » منهم ما بلغت أمانيه ما نقص من ملكه شيئا ، ذلك بأنه جواد واجد ماجد ، عطاؤه كلام وعذابه كلام ، إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون .

ومن تمام غناه أنه كامل الأوصاف ، إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه ، لكان فيه نوع افتقار إلى ذلك الكمال ، بل له كل صفة كمال ، ومن تلك الصفة كمالها ، ومن تمام غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، ولا شريكا في ملكه ولا ظهيرا ، ولا معاونا له على شيء من تدابير ملكه .

ومن كمال غناه افتقار العالم العلوي والسفلي في جميع أحوالهم وشئونهم إليه وسؤالهم إياه جميع حوائجهم الدقيقة والجليلة ، فقام تعالى بتلك المطالب والأسئلة وأغناهم وأقناهم ، ومَنّ عليهم بلطفه وهداهم . وأما الحميد فهو من أسماء اللّٰه تعالى الجليلة الدال على أنه « هو » المُستحق لكل حمد ومحبة وثناء وإكرام ، وذلك لما اتّصف به من صفات الحمد ، التي هي صفة الجمال والجلال ، ولما أنعم به على خلقه من النّعم الجزال ، فهو المحمود على كل حال .

وما أحسن اقتران هذين الاسمين الكريمين ﴿ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾!! فإنه غني محمود ، فله كمال من غناه ، وكمال من حمده ، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر .

ثم كرَّر إحاطة ملكه لما في السماوات وما في الأرض ، وأنه على كل شيء وكيل ، أي : عالم قائم بتدبير الأشياء على وجه الحكمة ، فإن ذلك من تمام الوكالة ، فإن الوكالة تستلزم العلم بما هو وكيل عليه ، والقوة والقدرة على تنفيذه وتدبيره ، وكون ذلك التدبير على وجه الحكمة والمصلحة ، فما نقص من ذلك فهو لنقص بالوكيل ، والله تعالى مُنزه عن كل نقص .

[ ١٣٣ : ١٣٤ - ٤ ] : ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ۝ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ .

أي : هو الغني الحميد الذي له القدرة الكاملة والمشيئة النافذة فيكم ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ غيركم هم أطوع للّٰه منكم وخير منكم ، وفي هذا تهديد للناس على إقامتهم على كفرهم وإعراضهم عن ربهم ، فإن اللّٰه لا يعبأ بهم شيئا إن لم يطيعوه ، ولكنه يُمهل ويُملي ولا يُهمل .

ثم أخبر أن مَن كانت همَّته وإرادته دنيَّة غير مُتجاوزة ثواب الدنيا ، وليس له إرادة في الآخرة فإنه قد قصر سعيه ونظره ، ومع ذلك فلا يحصل له من ثواب الدنيا سوى ما كتب اللّٰه له منها ، فإنه تعالى هو المالك لكل شيء الذي عنده ثواب الدنيا والآخرة ، فليطلبا منه ويستعان به عليهما ، فإنه لا ينال ما عنده إلا بطاعته ، ولا تُدرك الأمور الدينية والدنيوية إلا بالاستعانة به ، والافتقار إليه على الدوام . وله الحكمة تعالى في توفيق من يوفقُه ، وخذلان من يخذله وفي عطائه ومنعه ، ولهذا قال : ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ .

[١٣٥ - ٤] : ثم قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ .

يأمر تعالى عباده المُؤمنين أن يكونوا ﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ والقوَّام صيغة مبالغة ، أي : كونوا في كل أحوالكم قائمين بالقسط الذي هو العدل في حقوق اللّٰه وحقوق عباده ، فالقسط في حقوق اللّٰه أن لا يُستعان بنعمه على معصيته ، بل تصرف في طاعته .

القسط في حقوق الآدميين أن تؤدِّي جميع الحقوق التي عليك كما تطلب حقوقك ، فتؤدي النفقات الواجبة ، والديون ، وتُعامِل الناس بما تحب أن يعاملوك به ، من الأخلاق والمُكافأة وغير ذلك .ومن أعظم أنواع القسط القسط في المقالات والقائلين ، فلا يحكم لأحد القولين أو أحد المتنازعين لانتسابه أو ميله لأحدهما ، بل يجعل وجهته العدل بينهما ، ومن القسط أداء الشهادة التي عندك على أي وجه كان ، حتى على الأحباب بل على النفس ، ولهذا قال : ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أي : فلا تراعوا الغني لغناه ، ولا الفقير بزعمكم رحمة له ، بل اشهدوا بالحق على من كان .

والقيام بالقسط من أعظم الأمور وأدل على دين القائم به ، وورعه ومقامه في الإسلام ، فيتعين على من نصح نفسه وأراد نجاتها أن يهتم له غاية الاهتمام ، وأن يجعله نِصْب عينيه ، ومحل إرادته ، وأن يزيل عن

نفسه كل مانع وعائق يعوقه عن إرادة القسط أو العمل به . وأعظم عائق لذلك اتباع الهوى ، ولهذا نبّه تعالى على إزالة هذا المانع بقوله : ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ أي : فلا تتبعوا شهوات أنفسكم المُعارضة للحق ، فإنكم إن اتبعتموها عدلتم عن الصواب ، ولم توفقوا للعدل ، فإن الهوى إما أن يعمي بصيرة صاحبه حتى يرى الحق باطلا والباطل حقا ، وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه ، فمن سلم من هوى نفسه وفق للحق وهدي إلى الصراط المستقيم .

ولما بيّن أن الواجب القيام بالقسط نهى عن ما يضاد ذلك ، وهو لي اللسان عن الحق في الشهادات وغيرها ، وتحريف النطق عن الصواب المقصود من كل وجه ، أو من بعض الوجوه ، ويدخل في ذلك تحريف الشهادة وعدم تكميلها ، أو تأويل الشاهد على أمر آخر ، فإن هذا من اللي لأنه الانحراف عن الحق .

﴿أَوْ تُعْرِضُوا۟﴾ أي : تتركوا القسط المنوط بكم ، كترك الشاهد لشهادته ، وترك الحاكم لحكمه الذي يجب عليه القيام به .

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي : محيط بما فعلتم ، يعلم أعمالكم خفيها وجليها ، وفي هذا تهديد شديد للذي يلوي أو يعرض ، ومن باب أولى وأحرى الذي يحكم بالباطل أو يشهد بالزور ، لأنه أعظم جرما ، لأن الأولين تركا الحق ، وهذا ترك الحق وقام بالباطل .

[١٣٦ - ٤] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ .

اعلم أن الأمر إمّا أن يوجه إلى من لم يدخل في الشيء ولم يتّصف بشيء منه ، فهذا يكون أمرا له في الدخول فيه ، وذلك كأمر من ليس بمُؤمن بالإيمان ، كقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ الآية .

وإما أن يوجه إلى من دخل في الشيء فهذا يكون أمره ليصحح ما وجد منه ويحصل ما لم يوجد ، ومنه ما ذكره الله في هذه الآية من أمر المؤمنين بالإيمان ، فإن ذلك يقتضي أمرهم بما يصحح إيمانهم من الإخلاص والصدق ، وتجنب المفسدات والتوبة من جميع المنقصات .

ويقتضي أيضًا الأمر بما لم يوجد من المؤمن من علوم الإيمان وأعماله ، فإنه كلما وصل إليه نص وفهم معناه واعتقده فإن ذلك من الإيمان المأمور به ، وكذلك سائر الأعمال الظاهرة والباطنة ، كلها من الإيمان كما دلت على ذلك النصوص الكثيرة ، وأجمع عليه سلف الأمة ؛ ثم الاستمرار على ذلك والثبات عليه إلى الممات كما قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [ سورة آل عمران ١٠٢] .

وأمر هنا بالإيمان به وبرسوله ، وبالقرآن وبالكتب المتقدّمة ، فهذا كله من الإيمان الواجب الذي لا يكون العبد مؤمنا إلا به ، إجمالا فيما لم يصل إليه تفصيله وتفصيلا فيما علم من ذلك بالتفصيل ، فمن آمن هذا الإيمان المأمور به ، فقد اهتدى وأنجح .

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ وأي ضلال أبعد من ضلال من ترك طريق الهدى المُستقيم ، وسلك الطريق الموصِّلة له إلى العذاب الأليم؟ .

واعلم أن الكُفر بشيء من هذه المذكورات كالكفر بجميعها ، لتلازمها وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض ، ثم قال :

[١٣٧ - ٤] : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾

أي : من تكرّر منه الكُفر بعد الإيمان فاهتدى ثم ضل ، وأبصر ثم عمي ، وآمن ثم كفر واستمر على كفره وازداد منه ، فإنه بعيد من التوفيق والهداية لأقوم الطريق ، وبعيد من المغفرة لكونه أتى بأعظم مانع يمنعه من حصولها ؛ فإن كفره يكون عقوبة وطبعًا لا يزول كما قال تعالى : ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [سُورة الصّف ٥] ، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [سُورة الأنعام ١٠] .

ودلَّت الآية : أنهم إن لم يزدادوا كفرا بل رجعوا إلى الإيمان ، وتركوا ما هم عليه من الكفران ، فإن اللّٰه يغفر لهم ، ولو تكرّرت منهم الرِّدة .

وإذا كان هذا الحُكم في الكُفر فغيره من المعاصي التي دونه من باب أولى أن العبد لو تكرّرت منه ثم عاد إلى التوبة ، عاد اللّٰه له بالمغفرة .

[ ١٣٨ : ١٣٩ - ٤] : ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ .

البشارة تُستعمل في الخير ، وتستعمل في الشر بقيد كما في هذه الآية ، يقول تعالى : ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي : الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر ، بأقبح بشارة وأسوئها ، وهو العذاب الأليم ، وذلك بسبب محبّتهم الكُفَّار وموالاتهم ونصرتهم ، وتركهم لموالاة المُؤمنين ، فأي شيء حملهم على ذلك؟ أيبتغون عندهم العزّة؟ .

وهذا هو الواقع من أحوال المُنافقين ، ساء ظنهم بالله وضعف يقينهم بنصر اللّٰه لعباده المُؤمنين ، ولحظوا بعض الأسباب التي عند الكافرين ، وقصر نظرهم عمّا وراء ذلك ، فاتخذوا الكافرين أولياء يتعززون بهم ويستنصرون .

والحال أن العزة للّٰه جميعا ، فإن نواصي العباد بيده ، ومشيئته نافذة فيهم . وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين ، ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المُؤمنين ، وإدالة العدو عليهم إدالة غير مُستمرة ، فإن العاقبة والاستقرار للمُؤمنين ، وفي هذه الآية الترهيب العظيم من موالاة الكافرين ؛ وترك موالاة المُؤمنين ، وأن ذلك من صفات المُنافقين ، وأن الإيمان يقتضي محبّة المُؤمنين وموالاتهم ، وبغض الكافرين وعداوتهم .

[ ١٤٠ : ١٤١ - ٤] : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى

جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ .

أي : وقد بيَّن اللّه لكم فيما أنزل عليكم حكمه الشرعي عند حضور مجالس الكفر والمعاصي ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ أي : يستهان بها .

وذلك أن الواجب على كل مُكلف في آيات اللّه الإيمان بها وتعظيمها وإجلالها وتفخيمها ، وهذا المقصود بإنزالها ، وهو الذي خَلَق اللّه الخَلْق لأجله ، فضد الإيمان الكفر بها ، وضد تعظيمها الاستهزاء بها واحتقارها ، ويدخل في ذلك مُجادلة الكُفَّار والمُنافقين لإبطال آيات اللّه ونصر كفرهم ، وكذلك المُبتدعون على اختلاف أنواعهم ، فإن احتجاجهم على باطلهم يتضمن الاستهانة بآيات اللّه لأنها لا تدل إلا على حق ، ولا تستلزم إلا صدقا ، بل وكذلك يدخل فيه حضور مجالس المعاصي والفسوق التي يستهان فيها بأوامر اللّه ونواهيه ، وتقتحم حدوده التي حدها لعباده ومنتهى هذا النهي عن القعود معهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ أي : غير الكفر بآيات اللّه والاستهزاء بها .

﴿إِنَّكُمْ إِذًا﴾ أي : إن قعدتم معهم في الحال المذكورة ﴿مِّثْلُهُمْ﴾ لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم ، والراضي بالمعصية كالفاعل لها ، والحاصل أن من حضر مجلسًا يُعصى اللّه به ، فإنه يتعين عليه الإنكار عليهم مع القدرة ، أو القيام مع عدمها .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ كما اجتمعوا على الكفر والموالاة ولا ينفع الكافرين مُجرَّد كونهم في الظاهر مع المؤمنين كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [ سُورة الحديد ١٣] إلى آخر الآيات .

ثم ذكر تحقيق موالاة المُنافقين للكافرين ومُعاداتهم للمُؤمنين فقال : ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ أي : ينتظرون الحالة التي تصيرون عليها ، وتنتهون إليها من خير أو شر ، قد أعدُّوا لكل حالة جوابا بحسب نفاقهم .

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ فيظهرون أنهم مع المُؤمنين ظاهرا وباطنا ليسلموا من القدح والطعن عليهم ، وليشركوهم في الغنيمة والفيء ولينتصروا بهم .

﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ ولم يقل فتح ؛ لأنه لا يحصل لهم فتح ، يكون مبدأ لنصرتهم المُستمرة ، بل غاية ما يكون أن يكون لهم نصيب غير مُستقر ، حكمة من اللّه .

فإذا كان ذلك ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي : نستولي عليكم ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي : يتصنعون عندهم بكف أيديهم عنهم مع القدرة ، ومنعهم من المُؤمنين بجميع وجوه المنع في تفنيدهم

وتزهيدهم في القتال، ومظاهرة الأعداء عليهم، وغير ذلك مما هو معروف منهم.

﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فيجازي المؤمنين ظاهرا وباطنا بالجنة، ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي: تسلُّطا واستيلاء عليهم، بل لا تزال طائفة من المُؤمنين على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، ولا يزال الله يحدث من أسباب النصر للمُؤمنين، ودفعٍ لتسلط الكافرين، ما هو مشهود بالعيان.

حتى إن بعض المُسلمين الذين تحكمهم الطوائف الكافرة، قد بقوا محترمين لا يتعرضون لأديانهم ولا يكونون مُستصغَرين عندهم، بل لهم العز التام من الله، فله الحمد أوّلًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا.

[١٤٢: ١٤٣ - ٤]: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾.

يخبر تعالى عن المُنافقين بما كانوا عليه، من قبيح الصفات وشنائع السمات، وأن طريقتهم مُخادعة الله تعالى، أي: بما أظهروه من الإيمان وأبطنوه من الكُفران، ظنُّوا أنه يروج على الله ولا يعلمه ولا يبديه لعباده، والحال أن الله خادعهم، فمجرد وجود هذه الحال منهم ومشيهم عليها، خداع لأنفسهم. وأي: خداع أعظم ممن يسعى سعيًا يعود عليه بالهوان والذل والحرمان؟.

ويدل بمجرده على نقص عقل صاحبه، حيث جمع بين المعصية، ورآها حسنة، وظنها من العقل والمكر، فلله ما يصنع الجهل والخذلان بصاحبه.

ومن خداعه لهم يوم القيامة ما ذكره الله في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [سورة الحديد ١٣] إلى آخر الآيات.

﴿وَ﴾ من صفاتهم أنهم ﴿إِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ -إن قاموا- التي هي أكبر الطاعات العملية ﴿قَامُوا۟ كُسَالَىٰ﴾ مُتثاقلين لها مُتبرِّمين من فعلها، والكسل لا يكون إلا من فقد الرغبة من قلوبهم، فلولا أن قلوبهم فارغة من الرغبة إلى الله وإلى ما عنده، عادمة للإيمان، لم يصدر منهم الكسل، ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: هذا الذي انطوت عليه سرائرهم وهذا مصدر أعمالهم، مراءاة الناس، يقصدون رؤية الناس وتعظيمهم واحترامهم ولا يخلصون لله، فلهذا ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لامتلاء قلوبهم من الرياء، فإن ذكر الله تعالى وملازمته لا يكون إلا من مُؤمن مُمتلئ قلبه بمحبّة الله وعظمته.

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: مُتردِّين بين فريق المُؤمنين وفريق الكافرين. فلا من المُؤمنين ظاهرا وباطنا، ولا من الكافرين ظاهرا وباطنا، أعطوا باطنهم للكافرين وظاهرهم للمُؤمنين، وهذا أعظم ضلال يقدر. ولهذا قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ أي: لن تجد طريقا لهدايته ولا وسيلة لترك غوايته، لأنه انغلق عنه باب الرحمة، وصار بدله كل نقمة.

فهذه الأوصاف المذمومة تدل بتنبيهها على أن المؤمنين مُتصفون بضدها ، من الصدق ظاهرا وباطنا ، والإخلاص ، وأنهم لا يجهل ما عندهم ، ونشاطهم في صلاتهم وعباداتهم ، وكثرة ذكرهم للّه تعالى . وأنهم قد هداهم اللّه ووفَّقهم للصراط المستقيم ، فليعرض العاقل نفسه على هذين الأمرين وليختر أيُّهما أولى به ، وبالله المُستعان .

[١٤٤-٤] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ .

لما ذكر أن من صفات المُنافقين اتخاذ الكافرين أولياء من دون المُؤمنين ، نهى عباده المُؤمنين أن يتَّصفوا بهذه الحالة القبيحة ، وأن يُشابهوا المُنافقين ، فإن ذلك موجب لأن ﴿تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي : حجة واضحة على عقوبتكم ، فإنه قد أنذرنا وحذرنا منها ، وأخبرنا بما فيها من المفاسد ، فسلوكها بعد هذا موجِب للعقاب .

وفي هذه الآية دليل على كمال عدل اللّه ، وأن اللّه لا يُعَذِّب أحدا قبل قيام الحُجَّة عليه ، وفيه التحذير من المعاصي ؛ فإن فاعلها يجعل للّه عليه سلطانا مبينا .

[١٤٥ : ١٤٧ - ٤] : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ .

يُخبر تعالى عن مآل المُنافقين أنهم في أسفل الدركات من العذاب ، وأشر الحالات من العقاب ، فهم تحت سائر الكُفَّار لأنهم شاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله ، وزادوا عليهم المكر والخديعة والتمكُّن من كثير من أنواع العداوة للمُؤمنين ، على وجه لا يشعر به ولا يحس . ورتَّبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم ، واستحقاق ما لا يستحقونه ، فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب ، وليس لهم منقذ من عذابه ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه ، وهذا عام لكل منافق إلا مَنْ مَنَّ اللّه عليهم بالتوبة من السيئات .

﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ له الظواهر والبواطن ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ والتجأوا إليه في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم . ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ﴾ الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان ﴿لِلَّهِ﴾ .

فقصدوا وجه اللّه بأعمالهم الظاهرة والباطنة وسلِمُوا من الرياء والنفاق ، فمن اتَّصف بهذه الصفات ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي : في الدنيا ، والبرزخ ، ويوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم كنهه إلا اللّه ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وتأمَّل كيف خص الاعتصام والإخلاص بالذكر ، مع دخولهما في قوله : ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح ، لشدة الحاجة إليهما خصوصا في هذا المقام الحرج الذي يمكن من القلوب النفاق ، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام باللّه ، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه ، وكون الإخلاص منافيا كل

المنافاة للنفاق ، فذكرهما لفضلهما وتوقفِ الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما ، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما .

وتأمَّل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل : وسوف يؤتيهم أجرا عظيما ، مع أن السياق فيهم . بل قال : ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لأن هذه القاعدة الشريفة -لم يزل اللَّه يبدئ فيها ويعيد ، إذا كان السياق في بعض الجزئيات ، وأراد أن يرتب عليه ثوابًا أو عقابا وكان ذلك مشتركًا بينه وبين الجنس الداخل فيه ، رتب الثواب في مقابلة الحكم العام الذي تندرج تحته تلك القضية وغيرها ، ولئلا يتوهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئي ، فهذا من أسرار القرآن البديعة ، فالتائب من المُنافقين مع المُؤمنين وله ثوابهم .

ثم أخبر تعالى عن كمال غناه وسعة حلمه ورحمته وإحسانه فقال : ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ والحال أن اللَّه شاكر عليم . يعطي المُتحمّلين لأجله الأثقال ، الدائبين في الأعمال ، جزيل الثواب وواسع الإحسان . ومن ترك شيئًا للَّه أعطاه اللَّه خيرًا منه . ومع هذا يعلم ظاهركم وباطنكم ، وأعمالكم وما تصدر عنه من إخلاص وصدق ، وضد ذلك . وهو يريد منكم التوبة والإنابة والرجوع إليه ، فإذا أنبتم إليه ، فأي شيء يفعل بعذابكم؟ فإنه لا يتشفى بعذابكم ، ولا ينتفع بعقابكم ، بل العاصي لا يضر إلا نفسه ، كما أن عمل المطيع لنفسه .

والشكر هو : خُضوع القلب واعترافه بنعمة اللَّه ، وثناء اللسان على المشكور ، وعمل الجوارح بطاعته وأن لا يستعين بنعمه على معاصيه .

[ ٤ - ١٤٨ : ١٤٩ ] : ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ .

يُخبر تعالى أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول ، أي : يبغض ذلك ويمقته ويُعاقب عليه ، ويشمل ذلك جميع الأقوال السيئة التي تسوء وتحزن ، كالشتم والقذف والسب ونحو ذلك فإن ذلك كله من المنهي عنه الذي يبغضه اللَّه . ويدل مفهومها أنه يحب الحسن من القول كالذكر والكلام الطيب اللين .

وقوله : ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ أي : فإنه يجوز له أن يدعو على من ظلمه ويتشكى منه ، ويجهر بالسوء لمن جهر له به ، من غير أن يُكذّب عليه ولا يزيد على مظلمته ، ولا يتعدّى بشتمه غير ظالمه ، ومع ذلك فعفوه وعدم مُقابلته أولى ، كما قال تعالى : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [ سورة الشّورى ٤٠ ] .

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ ولما كانت الآية قد اشتملت على الكلام السيئ والحسن والمُباح ، أخبر تعالى أنه « سميع » فيسمع أقوالكم ، فاحذروا أن تتكلّموا بما يغضب ربكم فيعاقبكم على ذلك . وفيه أيضًا ترغيب على القول الحسن . « عليم » بنياتكم ومصدر أقوالكم .

ثم قال تعالى : ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ وهذا يشمل كل خير قوليّ وفعليّ ، ظاهر وباطن ، من واجب ومستحب . ﴿أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ﴾ أي : عمن ساءكم في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم ، فتسمحوا عنه ، فإن الجزاء من جنس العمل . فمن عفا للَّه عفا اللَّه عنه ، ومن أحسن أحسن اللَّه إليه ، فلهذا قال : ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي : يعفو عن زلات عباده وذنوبهم العظيمة فيسدل عليهم

ستره ، ثم يعاملهم بعفوه التام الصادر عن قدرته .

وفي هذه الآية إرشاد إلى التفقُّه في معاني أسماء اللّه وصفاته ، وأن الخلق والأمر صادر عنها ، وهي مقتضية له ، ولهذا يعلل الأحكام بالأسماء الحسنى ، كما في هذه الآية . لما ذكر عمل الخير والعفو عن المُسيء رتَّب على ذلك ، بأن أحالنا على معرفة أسمائه وأن ذلك يُغنينا عن ذكر ثوابها الخاص .

[ ١٥٠ : ١٥٢ - ٤] : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ .

هنا قسمان قد وضحا لكل أحد : مُؤمنٌ بالله وبرسله كلِّهم وكتبه ، وكافرٌ بذلك كله . وبقي قسم ثالث : وهو الذي يزعم أنه يؤمن ببعض الرسل دون بعض ، وأن هذا سبيل ينجيه من عذاب اللّه ، إنْ هذا إلا مُجرَّد أماني . فإن هؤلاء يُريدون التفريق بين اللّه وبين رسله .

فإن من تولى اللّه حقيقة تولَّى جميع رُسله لأن ذلك من تمام توليه ، ومن عادى أحدا من رسله فقد عادى اللّه وعادى جميع رسله ، كما قال تعالى : ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ﴾ [سورة البقرة ٩٨] الآيات .

وكذلك مَنْ كفر برسول فقد كفر بجميع الرسل ، بل بالرسول الذي يزعم أنه به مؤمن ، ولهذا قال : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ وذلك لئلا يتوهَّم أن مرتبتهم متوسطة بين الإيمان والكفر . ووجه كونهم كافرين - حتى بما زعموا الإيمان به- أن كل دليل دلهم على الإيمان بمن آمنوا به موجود هو أو مثله أو ما فوقه للنبي الذي كفروا به ، وكل شبهة يزعمون أنهم يقدحون بها في النبي الذي كفروا به موجود مثلها أو أعظم منها فيمن آمنوا به .

فلم يبق بعد ذلك إلا التشهِّي والهوى ومُجرَّد الدعوى التي يمكن كل أحد أن يُقابلها بمثلها ، ولما ذكر أن هؤلاء هم الكافرون حقًّا ذكر عقابًا شاملًا لهم ولكل كافر فقال : ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ كما تكبروا عن الإيمان باللّه ، أهانهم بالعذاب الأليم المُخزي .

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ وهذا يتضمَّن الإيمان بكل ما أخبر اللّه به عن نفسه وبكل ما جاءت به الرسل من الأخبار والأحكام . ﴿وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ﴾ من رسله ، بل آمنوا بهم كلهم ، فهذا هو الإيمان الحقيقي ، واليقين المبني على البرهان .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ﴾ أي : جزاء إيمانهم وما ترتَّب عليه من عمل صالح ، وقول حسن ، وخلق جميل ، كُلٌّ على حسب حاله . ولعل هذا هو السر في إضافة الأُجور إليهم ، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ يغفر السيئات ويتقبَّل الحسنات .

[ ١٥٣ : ١٦١ - ٤] : ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا

جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ .

هذا السؤال الصادر من أهل الكتاب للرسول محمد ﷺ على وجه العناد والاقتراح ، وجعلهم هذا السؤال يتوقف عليه تصديقهم أو تكذيبهم . وهو أنهم سألوه أن ينزل عليهم القرآن جملة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل ، وهذا غاية الظلم منهم والجهل ، فإن الرسول بشر عبد مُدبَّر ، ليس في يده من الأمر شيء ، بل الأمر كله لله ، وهو الذي يرسل وينزل ما يشاء على عباده كما قال تعالى عن الرسول ، لما ذكر الآيات التي فيها اقتراح المُشركين على محمد ﷺ ، ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [ سورة الإسراء ٩٣ ] .

وكذلك جعلهم الفارق بين الحق والباطل مجرد إنزال الكتاب جُملة أو مُفرّقا ، مُجرّد دعوى لا دليل عليها ولا مُناسبة ، بل ولا شُبهة ، فمن أين يوجد في نبوّة أحد من الأنبياء أن الرسول الذي يأتيكم بكتاب نزل مُفرّقا فلا تؤمنوا به ولا تصدقوه؟ .

بل نزول هذا القُرآن مُفرّقا بحسب الأحوال مما يدل على عظمته واعتناء الله بمن أنزل عليه ، كما قال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [ سورة الفُرقان ٣٢ - ٣٣ ] .

فلما ذكر اعتراضهم الفاسد أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم ، بل سبق لهم من المُقدّمات القبيحة ما هو أعظم مما سلكوه مع الرسول الذي يزعمون أنهم آمنوا به ، من سؤالهم له رؤية الله عيانا ، واتّخاذهم العجل إلهًا يعبدونه ، من بعد ما رأوا من الآيات بأبصارهم ما لم يره غيرهم .

ومن امتناعهم من قبول أحكام كتابهم وهو التوراة ، حتى رفع الطور من فوق رءوسهم وهددوا أنهم إن لم يؤمنوا أسقط عليهم ، فقبلوا ذلك على وجه الإغماض والإيمان الشبيه بالإيمان الضروري . ومن امتناعهم من دخول أبواب القرية التي أمروا بدخولها سجدا مستغفرين ، فخالفوا القول والفعل . ومن اعتداء من اعتدى منهم في السبت فعاقبهم الله تلك العقوبة الشنيعة ، وبأخذ الميثاق الغليظ عليهم فنبذوه وراء ظهورهم وكفروا بآيات الله وقتلوا رسله بغير حق ، ومن قولهم : إنهم قتلوا المسيح عيسى وصلبوه ، والحال أنهم ما قتلوه وما صلبوه بل شُبّه لهم غيره ، فقتلوا غيره وصلبوه ، وادعائهم أن قلوبهم غلف لا تفقه ما تقول لهم ولا تفهمه ،

وبصدهم الناس عن سبيل الله ، فصدوهم عن الحق ، ودعوهم إلى ما هم عليه من الضلال والغي ، وبأخذهم السحت والربا مع نهي الله لهم عنه والتشديد فيه .

فالذين فعلوا هذه الأفاعيل لا يستنكر عليهم أن يسألوا الرسول محمدا أن ينزل عليهم كتابا من السماء ، وهذه الطريقة من أحسن الطرق لمحاجة الخصم المبطل ، وهو أنه إذا صدر منه من الاعتراض الباطل ما جعله شبهة له ولغيره في رد الحق أن يبيّن من حاله الخبيثة وأفعاله الشنيعة ما هو من أقبح ما صدر منه ، ليعلم كل أحد أن هذا الاعتراض من ذلك الوادي الخسيس ، وأن له مقدمات يُجعل هذا معها . وكذلك كل اعتراض يعترضون به على نبوة محمد ﷺ يُمكن أن يُقابل بمثله أو ما هو أقوى منه في نبوة من يدعون إيمانهم به ليكتفى بذلك شرهم وينقمع باطلهم ، وكل حجة سلكوها في تقريرهم لنبوة من آمنوا به فإنها ونظيرها وما هو أقوى منها ، دالة ومقررة لنبوة محمد ﷺ .

ولما كان المراد من تعديد ما عدد الله من قبائحهم هذه المقابلة لم يبسطها في هذا الموضع ، بل أشار إليها ، وأحال على مواضعها وقد بسطها في غير هذا الموضع في المحل اللائق ببسطها .

وقوله : ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ يحتمل أن الضمير هنا في قوله : ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ يعود إلى أهل الكتاب ، فيكون على هذا كل كتابي يحضره الموت ويعاين الأمر حقيقة ، فإنه يؤمن بعيسى عليه السلام ولكنه إيمان لا ينفع ، إيمان اضطرار ، فيكون مضمون هذا التهديد لهم والوعيد ، وأن لا يستمروا على هذه الحال التي سيندمون عليها قبل مماتهم ، فكيف يكون حالهم يوم حشرهم وقيامهم؟ .

ويحتمل أن الضمير في قوله : ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ راجع إلى عيسى عليه السلام ، فيكون المعنى : وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بالمسيح عليه السلام قبل موت المسيح ، وذلك يكون عند اقتراب الساعة وظهور علاماتها الكبار . فإنه تكاثرت الأحاديث الصحيحة في نزوله عليه السلام في آخر هذه الأمة . يقتل الدجال ، ويضع الجزية ، ويؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين . ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيدا ، يشهد عليهم بأعمالهم ، وهل هي موافقة لشرع الله أم لا؟[٨٧] . وحينئذ لا يشهد إلا ببطلان كل ما هم عليه ، مما هو مخالف لشريعة القرآن وَلِمَا دعاهم إليه محمد ﷺ ، علمنا بذلك ، لِعِلْمِنَا بكمال عدالة المسيح عليه السلام وصدقه ، وأنه لا يشهد إلا بالحق ، إلا أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق وما عداه فهو ضلال وباطل .

ثم أخبر تعالى أنه حرّم على أهل الكتاب كثيرا من الطيبات التي كانت حلالا عليهم ، وهذا تحريم عقوبة بسبب ظلمهم واعتدائهم ، وصدهم الناس عن سبيل الله ، ومنعهم إياهم من الهدى ، وبأخذهم الربا وقد نهوا عنه ، فمنعوا المحتاجين ممن يبايعونه عن العدل ، فعاقبهم الله من جنس فعلهم فمنعهم من كثير من

---

(٨٧) * قال الكتاني في « نظم المتناثر » ص ١٤٧ : ( وقد ذكروا أنَّ نزوله ثابت بالكتاب والسُّنَّة والإجماع . والأحاديث فى نزوله كثيرة ، ذكر الشَّوكاني منها فى « التَّوضيح » تسعة وعشرون حديثًا ما بين صحيح ، وحسن ، وضعيف مُنجبر ، منها ما هو مذكور في أحاديث الدَّجال ، ومنها ما هو مذكور في أحاديث المهدي المُنتظر ، وتنضم إلى ذلك الآثار الواردة عن الصَّحابة ، فلها حُكم الرَّفع إذ لا مجال للاجتهاد في ذلك ، والحاصل أنَّ الأحاديث الواردة في المهدي المُنتظر متواترة ، وكذا الواردة في الدَّجال ، وفي نزول سيدنا عيسى بن مريم عليهما السلام )اهـ .

الطيبات التي كانوا بصدد حلها ، لكونها طيبة ، وأما التحريم الذي على هذه الأمة فإنه تحريم تنزيه لهم عن الخبائث التي تضرهم في دينهم ودنياهم .

[١٦٢ - ٤] : ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ .

لما ذكر معايب أهل الكتاب ، ذكر الممدوحين منهم فقال : ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي : الذين ثبت العلم في قلوبهم ورسخ الإيقان في أفئدتهم فأثمر لهم الإيمان التام العام ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ ، وأثمر لهم الأعمال الصالحة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة اللذين هما أفضل الأعمال ، وقد اشتملتا على الإخلاص للمعبود والإحسان إلى العبيد ، وآمنوا باليوم الآخر فخافوا الوعيد ورجوا الوعد .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ لأنهم جمعوا بين العلم والإيمان والعمل الصالح ، والإيمان بالكتب والرسل السابقة واللاحقة .

[١٦٣: ١٦٥ - ٤] : ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ .

يُخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله من الشرع العظيم والأخبار الصادقة ما أوحى إلى هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وفي هذا عدة فوائد :

**منها** : أن ﷺ ليس ببدع من الرسل ، بل أرسل اللّٰه قبله من المرسلين العدد الكثير والجم الغفير فاستغراب رسالته لا وجه له إلا الجهل والعناد .

**ومنها** : أنه أوحى إليه كما أوحى إليهم من الأصول والعدل الذي اتفقوا عليه ، وأن بعضهم يصدق بعضا ويوافق بعضهم بعضا .

**ومنها** : أنه من جنس هؤلاء الرسل ، فليعتبره المُعتبر بإخوانه المُرسلين ، فدعوته دعوتهم ؛ وأخلاقهم مُتَّفقة ؛ ومصدرهم واحد ؛ وغايتهم واحدة ، فلم يقرنه بالمجهولين ؛ ولا بالكذَّابين ولا بالمُلوك الظالمين .

**ومنها** : أن في ذكر هؤلاء الرُسل وتعدادهم من التنويه بهم ، والثناء الصادق عليهم ، وشرح أحوالهم مما يزداد به المُؤمن إيمانا بهم ومحبَّة لهم ، واقتداء بهديهم ، واستنانا بسنَّتهم ومعرفة بحقوقهم ، ويكون ذلك مصداقا لقوله : ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [ سُورة الصَّافات ٧٩] ، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [ سُورة الصَّافات ١٠٩] ، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [ سُورة الصَّافات ١٢٠] ، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [ سُورة الصَّافات ١٣٠، ١٣١] .

فكل مُحسن له من الثناء الحسن بين الأنام بحسب إحسانه . والرُسل - خُصوصا هؤلاء المُسمُّون-

في المرتبة العليا من الإحسان .

ولما ذكر اشتراكهم بوحيه ذكر تخصيص بعضهم ، فذكر أنه آتى داود الزبور ، وهو الكتاب المعروف المزبور الذي خص اللّه به داود عليه السلام لفضله وشرفه ، وأنه كلّم موسى تكليما ، أي : مُشافهة منه إليه لا بواسطة حتى اشتهر بهذا عند العالمين فيُقال : « موسى كليم الرّحمن » .

وذكر أن الرُسل منهم من قصّه اللّه على رسوله ، ومنهم من لم يقصصه عليه ، وهذا يدل على كثرتهم وأن اللّه أرسلهم مُبشرين لمن أطاع اللّه واتّبعهم ، بالسعادة الدنيوية والأخروية ، ومُنذرين من عصى اللّه وخالفهم بشقاوة الدارين ، لئلا يكون للناس على اللّه حُجّة بعد الرسل فيقولوا : ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير .

فلم يبق للخَلْق على اللّه حُجّة لإرساله الرُسل تترى يبينون لهم أمر دينهم ، ومراضي ربهم ومساخطه وطُرق الجنة وطُرق النار ، فمن كفر منهم بعد ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه .

وهذا من كمال عزّته تعالى وحكمته أن أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب ، وذلك أيضًا من فضله وإحسانه ، حيث كان الناس مضطرين إلى الأنبياء أعظم ضرورة تقدر فأزال هذا الاضطرار ، فله الحمد وله الشكر .

ونسأله كما ابتدأ علينا نعمته بإرسالهم ، أن يتمها بالتوفيق لسلوك طريقهم ، إنه جواد كريم .

[١٦٦ - ٤] : ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ .

لما ذكر أن اللّه أوحى إلى رسوله محمد ﷺ كما أوحى إلى إخوانه من المُرسلين ، أخبر هنا بشهادته تعالى على رسالته وصحة ما جاء به ، وأنه ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ يحتمل أن يكون المُراد أنزله مُشتملا على علمه ، أي : فيه من العلوم الإلهية والأحكام الشرعية والأخبار الغيبية ما هو من علم اللّه تعالى الذي علم به عباده .

ويُحتمل أن يكون المُراد : أنزله صادرا عن علمه ، ويكون في ذلك إشارة وتنبيه على وجه شهادته ، وأن المعنى : إذا كان تعالى أنزل هذا القرآن المُشتمل على الأوامر والنواهي ، وهو يعلم ذلك ويعلم حالة الذي أنزله عليه ، وأنه دعا الناس إليه ، فمن أجابه وصدقه كان وليه ، ومن كذبه وعاداه كان عدوه واستباح ماله ودمه ، والله تعالى يمكنه ويوالي نصره ويجيب دعواته ، ويخذل أعداءه وينصر أولياءه ، فهل توجد شهادة أعظم من هذه الشهادة وأكبر؟ » ولا يمكن القدح في هذه الشهادة إلا بعد القدح بعلم اللّه وقدرته وحكمته وإخباره تعالى بشهادة الملائكة على ما أنزل على رسوله ، لكمال إيمانهم ولجلالة هذا المشهود عليه .

فإن الأمور العظيمة لا يستشهد عليها إلا الخواص ، كما قال تعالى في الشهادة على التوحيد : ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [ سُورة آل عمران ١٨] . وكفى بالله شهيدا .

[ ٤ - ١٦٧: ١٦٩ ] : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ .

لما أخبر عن رسالة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وأخبر برسالة خاتمهم محمد ، وشهد بها وشهدت ملائكته - لزم من ذلك ثبوت الأمر المُقرَّر والمشهود به ، فوجب تصديقهم ، والإيمان بهم واتباعهم .

ثم توعد من كفر بهم فقال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي : جمعوا بين الكفر بأنفسهم وصدِّهم الناس عن سبيل الله ، وهؤلاء هم أئمة الكفر ودعاة الضلال ﴿قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ وأي ضلال أعظم من ضلال من ضل بنفسه وأضل غيره ، فباء بالإثمين ورجع بالخسارتين وفاتته الهدايتان ، ولهذا قال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ﴾ وهذا الظلم هو زيادة على كفرهم ، وإلا فالكفر عند إطلاق الظلم يدخل فيه .

والمراد بالظلم هنا أعمال الكفر والاستغراق فيه ، فهؤلاء بعيدون من المغفرة والهداية للصراط المُستقيم ، ولهذا قال : ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ .

وإنما تعذرت المغفرة لهم والهداية لأنهم استمروا في طغيانهم ، وازدادوا في كفرانهم فطبع على قلوبهم وانسدت عليهم طرق الهداية بما كسبوا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [سورة فُصلت ٤٦] .

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي : لا يبالي الله بهم ولا يعبأ ، لأنهم لا يصلحون للخير ، ولا يليق بهم إلا الحالة التي اختاروها لأنفسهم .

[ ٤ - ١٧٠ ] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ .

يأمر تعالى جميع الناس أن يؤمنوا بعبده ورسوله محمد ﷺ ، وذكر السبب الموجب للإيمان به ، والفائدة في الإيمان به ، والمَضرَّة من عدم الإيمان به ، فالسبب الموجب هو إخباره بأنه جاءهم بالحق .أي : فمجيئه نفسه حق ، وما جاء به من الشرع حق ، فإن العاقل يعرف أن بقاء الخلق في جهلهم يعمهون ، وفي كفرهم يترددون ، والرسالة قد انقطعت عنهم غير لائق بحكمة الله ورحمته ، فمن حكمته ورحمته العظيمة نفس إرسال الرسول إليهم ، ليعرفهم الهدى من الضلال ، والغي من الرشد ، فمجرد النظر في رسالته دليل قاطع على صحة نبوته ، وكذلك النظر إلى ما جاء به من الشرع العظيم والصراط المُستقيم . فإن فيه من الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلة ، والخبر عن الله وعن اليوم الآخر -ما لا يعرف إلا بالوحي والرسالة . وما فيه من الأمر بكل خير وصلاح ، ورشد وعدل وإحسان ، وصدق وبر وصلة وحسن خلق ، ومن النهي عن الشر والفساد والبغي والظلم وسوء الخلق ، والكذب والعقوق ، مما يقطع به أنه من عند الله . وكلما ازداد به العبد بصيرة ، ازداد إيمانه ويقينه ، فهذا السبب الداعي للإيمان .

وأما الفائدة في الإيمان فأخبر أنه خير لكم والخير ضد الشر، فالإيمان خير للمؤمنين في أبدانهم وقلوبهم وأرواحهم ودنياهم وأخراهم، وذلك لما يترتَّب عليه من المصالح والفوائد، فكل ثواب عاجل وآجل فمن ثمرات الإيمان، فالنصر والهدى والعلم والعمل الصالح والسرور والأفراح، والجنة وما اشتملت عليه من النعيم كل ذلك مسبب عن الإيمان. كما أن الشقاء الدنيوي والأخروي من عدم الإيمان أو نقصه. وأما مُضرَّة عدم الإيمان به ﷺ فيعرف بضد ما يترتب على الإيمان به. وأن العبد لا يضر إلا نفسه، والله تعالى غني عنه لا تضره معصية العاصين، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [سورة النساء ١٣١ - ١٧٠]. أي: الجميع خلقه وملكه، وتحت تدبيره وتصريفه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بكل شيء ﴿حَكِيمًا﴾ في خلقه وأمره. فهو العليم بمن يستحق الهداية والغواية، الحكيم في وضع الهداية والغواية موضعهما.

[١٧١ - ٤]: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾.

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو في الدين وهو مُجاوزة الحد والقدر المشروع إلى ما ليس بمشروع. وذلك كقول النصارى في غلوهم بعيسى عليه السلام، ورفعه عن مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية الذي لا يليق بغير الله، فكما أن التقصير والتفريط من المنهيات، فالغلو كذلك، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ وهذا الكلام يتضمن ثلاثة أشياء: أمرين منهي عنهما، وهما قول الكذب على الله، والقول بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه ورسله، والثالث: مأمور به وهو قول الحق في هذه الأمور. ولما كانت هذه قاعدة عامة كُليَّة، وكان السياق في شأن عيسى عليه السلام نصَّ على قول الحق فيه، المُخالف لطريقة اليهودية والنصرانية فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: غاية المسيح عليه السلام ومنتهى ما يصل إليه من مراتب الكمال أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهي درجة الرسالة التي هي أعلى الدرجات وأجلّ المثوبات.

وأنه ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ التي ﴿أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾ أي: كلمة تكلم الله بها فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة، وإنما كان بها، وهذا من باب إضافة التشريف والتكريم. وكذلك قوله: ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ أي: من الأرواح التي خلقها وكملها بالصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة، أرسل الله روحه جبريل عليه السلام فنفخ في فرج مريم عليها السلام، فحملت بإذن الله بعيسى عليه السلام.

فلما بيَّن حقيقة عيسى عليه السلام، أمر أهل الكتاب بالإيمان به وبرسله، ونهاهم أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة أحدهم عيسى، والثاني مريم، فهذه مقالة النصارى قبحهم الله. فأمرهم أن ينتهوا، وأخبر أن ذلك خير لهم، لأنه الذي يتعين أنه سبيل النجاة، وما سواه فهو طريق الهلاك، ثم نزَّه نفسه عن الشريك والولد فقال: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ أي: هو المنفرد بالألوهية، الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ أي : تنزه وتقدس ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ لأن ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فالكل مملوكون له مفتقرون إليه ، فمحال أن يكون له شريك منهم أو ولد .

ولما أخبر أنه المالك للعالم العلوي والسفلي أخبر أنه قائم بمصالحهم الدنيوية والأخروية وحافظها ، ومجازيهم عليها تعالى .

[ ١٧٢ : ١٧٣ - ٤ ] : ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ .

لما ذكر تعالى غلو النصارى في عيسى عليه السلام ، وذكر أنه عبده ورسوله ، ذكر هنا أنه لا يستنكف عن عبادة ربه ، أي : لا يمتنع عنها رغبة عنها ، لا هو ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ فنزَّههم عن الاستنكاف وتنزيههم عن الاستكبار من باب أولى ، ونفي الشيء فيه إثبات ضده .

أي : فعيسى والملائكة المُقرَّبون قد رغبوا في عبادة ربِّهم ، وأحبوها وسعوا فيها بما يليق بأحوالهم ، فأوجب لهم ذلك الشرف العظيم والفوز العظيم ، فلم يستنكفوا أن يكونوا عبيدا لربوبيَّته ولا لإلهيته ، بل يرون افتقارهم لذلك فوق كل افتقار .

ولا يظن أن رفع عيسى أو غيره من الخلق فوق مرتبته التي أنزله اللّه فيها وترفعه عن العبادة كمالا ، بل هو النقص بعينه ، وهو محل الذم والعقاب ، ولهذا قال : ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ أي : فسيحشر الخلق كلهم إليه ، المستنكفين والمستكبرين وعباده المؤمنين ، فيحكم بينهم بحكمه العدل ، وجزائه الفصل .

ثم فصَّل حكمه فيهم فقال : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي : جمعوا بين الإيمان المأمور به ، وعمل الصالحات من واجبات ومُستحبات ، من حُقوق اللّه وحقوق عباده .

﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي : الأجور التي رتبها على الأعمال ، كُلٌّ بحسب إيمانه وعمله .

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ من الثواب الذي لم تنله أعمالهم ولم تصل إليه أفعالهم ، ولم يخطر على قلوبهم ، ودخل في ذلك كل ما في الجنة من المآكل والمشارب ، والمناكح ، والمناظر والسرور ، ونعيم القلب والروح ، ونعيم البدن ، بل يدخل في ذلك كل خير ديني ودنيوي رتب على الإيمان والعمل الصالح .

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي : عن عبادة اللّه تعالى ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو سخط اللّه وغضبه ، والنار الموقدة التي تطَّلع على الأفئدة ، ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي : لا يجدون أحدا من الخلق يتولاهم فيحصل لهم المطلوب ، ولا مَن ينصرهم فيدفع عنهم المرهوب ، بل قد تخلى عنهم أرحم الراحمين ، وتركهم في عذابهم خالدين ، وما حكم به تعالى فلا رادّ لحكمه ولا مُغيِّر لقضائه .

[ ٤: ١٧٤ - ١٧٥ ]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ .

يمتن تعالى على سائر الناس بما أوصل إليهم من البراهين القاطعة والأنوار الساطعة ، ويقيم عليهم الحجة ، ويوضح لهم المحجّة ، فقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي : حجج قاطعة على الحق تبينه وتوضحه ، وتبين ضده .

وهذا يشمل الأدلة العقلية والنقلية ، الآيات الأفقية والنفسية ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ .

وفي قوله : ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ما يدل على شرف هذا البرهان وعظمته ، حيث كان من ربكم الذي ربَّاكم التربية الدينية والدنيوية ، فمن تربيته لكم التي يحمد عليها ويشكر ، أن أوصل إليكم البينات ، ليهديكم بها إلى الصراط المستقيم ، والوصول إلى جنات النعيم .

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ وهو هذا القرآن العظيم ، الذي قد اشتمل على علوم الأوّلين والآخرين والأخبار الصادقة النافعة ، والأمر بكل عدل وإحسان وخير ، والنهي عن كل ظلم وشر ، فالناس في ظلمة إن لم يستضيئوا بأنواره ، وفي شقاء عظيم إن لم يقتبسوا من خيره . ولكن انقسم الناس -بحسب الإيمان بالقرآن والانتفاع به- قسمين : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي : اعترفوا بوجوده واتصافه بكل وصف كامل ، وتنزيهه من كل نقص وعيب . ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾ أي : لجأوا إلى الله واعتمدوا عليه وتبرأوا من حولهم وقوتهم واستعانوا بربهم .

﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ أي : فسيتغمدهم بالرحمة الخاصة ، فيوفقهم للخيرات ويجزل لهم المثوبات ، ويدفع عنهم البليات والمكروهات .

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي : يوفّقهم للعلم والعمل ، معرفة الحق والعمل به .أي : ومن لم يؤمن بالله ويعتصم به ويتمسَّك بكتابه ، منعهم من رحمته ، وحرمهم من فضله ، وخلى بينهم وبين أنفسهم ، فلم يهتدوا ، بل ضلوا ضلالا مبينا ، عقوبة لهم على تركهم الإيمان فحصلت لهم الخيبة والحرمان ، نسأله تعالى العفو والعافية والمعافاة .

[١٧٦ - ٤] : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ .

أخبر تعالى أن الناس استفتوا رسوله ﷺ أي : في الكلالة بدليل قوله : ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ وهي الميت يموت وليس له ولد صلب ولا ولد ابن ، ولا أب ، ولا جد ، ولهذا قال : ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي : لا ذكر ولا أنثى ، لا ولد صلب ولا ولد ابن .

وكذلك ليس له والد ، بدليل أنه ورث فيه الإخوة ، والأخوات بالإجماع لا يرثون مع الوالد ، فإذا هلك وليس له ولد ولا والد ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾ أي : شقيقة أو لأب ، لا لأم ، فإنه قد تقدم حكمها ، ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أي نصف متروكات أخيها ، من نقود وعقار وأثاث وغير ذلك ، وذلك من بعد الدين والوصية كما تقدَّم .

﴿وَهُوَ﴾ أي : أخوها الشقيق أو الذي للأب ﴿يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ ولم يقدر له إرثا لأنه عاصب فيأخذ مالها كله ، إن لم يكن صاحب فرض ولا عاصب يشاركه ، أو ما أبقت الفروض .

﴿فَإِن كَانَتَا﴾ أي : الأختان ﴿ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي : فما فوق ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً﴾ أي : اجتمع الذكور من الإخوة لغير أم مع الإناث ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ فيسقط فرض الإناث ويعصبهن إخوتهن .

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ أي : يُبين لكم أحكامه التي تحتاجونها ، ويوضحها ويشرحها لكم فضلا منه وإحسانا لكي تهتدوا ببيانه ، وتعملوا بأحكامه ، ولئلا تضلوا عن الصراط المُستقيم بسبب جهلكم وعدم علمكم .

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ أي : عالم بالغيب والشهادة والأمور الماضية والمُستقبلة ، ويعلم حاجتكم إلى بيانه وتعليمه ، فيعلمكم من علمه الذي ينفعكم على الدوام في جميع الأزمنة والأمكنة .

آخر تفسير سورة النساء فلله الحمد والشكر .

* * *

## ( ٥ ) تفسير سورة المائدة

### وهي مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

[١ - ٥] : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود ، أي : بإكمالها ، وإتمامها ، وعدم نقضها ونقصها . وهذا شامل للعقود التي بين العبد وبين ربه ، من التزام عُبوديّته ، والقيام بها أتم قيام ، وعدم الانتقاص من حُقوقها شيئا ، والتي بينه وبين الرسول بطاعته واتباعه ، والتي بينه وبين الوالدين والأقارب ، ببرهم وصلتهم ، وعدم قطيعتهم .

والتي بينه وبين أصحابه من القيام بحقوق الصحبة في الغنى والفقر ، واليسر والعسر ، والتي بينه وبين الخلق من عُقود المُعاملات ، كالبيع والإجارة ، ونحوهما ، وعقود التبرعات كالهبة ونحوها ، بل والقيام بحقوق المُسلمين التي عقدها الله بينهم في قوله : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [ سورة الحُجرات ١١٠] . بالتناصر على الحق ، والتعاون عليه والتآلف بين المسلمين وعدم التقاطع .

فهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه ، فكلها داخلة في العقود التي أمر الله بالقيام بها .

ثم قال مُمتنًّا على عباده : ﴿أُحِلَّتْ لَكُم﴾ أي : لأجلكم ، رحمة بكم ﴿بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ من الإبل والبقر والغنم ، بل ربما دخل في ذلك الوحشي منها ، والظباء وحُمر الوحش ، ونحوها من الصيود .

واستدل بعض الصحابة بهذه الآية على إباحة الجنين الذي يموت في بطن أمه بعدما تذبح .

﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ تحريمه منها في قوله : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ إلى آخر الآية . فإن هذه المذكورات وإن كانت من بهيمة الأنعام فإنها محرمة .

ولما كانت إباحة بهيمة الأنعام عامة في جميع الأحوال والأوقات ، استثنى منها الصيد في حال الإحرام فقال : ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي : أحلت لكم بهيمة الأنعام في كل حال ، إلا حيث كنتم متصفين بأنكم غير محلي الصيد وأنتم حرم ، أي : مُتجرّئون على قتله في حال الإحرام ، وفي الحرم ، فإن ذلك لا يحل لكم إذا كان صيدا ، كالظباء ونحوه ، والصيد هو الحيوان المأكول المتوحش .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ أي : فمهما أراده تعالى حكم به حكما موافقا لحكمته ، كما أمركم بالوفاء بالعقود لحصول مصالحكم ودفع المضار عنكم . وأحل لكم بهيمة الأنعام رحمة بكم ، وحرم عليكم ما استثنى منها من ذوات العوارض ، من الميتة ونحوها ، صونا لكم واحتراما ، ومن صيد الإحرام

احتراما للإحرام وإعظاما .

[٢ - ٥] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ .

يقول تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي : مُحرَّماته التي أمركم بتعظيمها ، وعدم فعلها ، والنهي يشمل النهي عن فعلها ، والنهي عن اعتقاد حلها ؛ فهو يشمل النهي ، عن فعل القبيح ، وعن اعتقاده .

ويدخل في ذلك النهي عن مُحرَّمات الإحرام ، ومُحرَّمات الحرم . ويدخل في ذلك ما نص عليه بقوله : ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي : لا تنتهكوه بالقتال فيه وغيره من أنواع الظلم كما قال تعالى : ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [ سورة التوبة ٣٦ ] .

والجمهور من العُلماء على أن القتال في الأشهر الحرم منسوخ بقوله تعالى : ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [ سورة التوبة ٥ ] . وغير ذلك من العمومات التي فيها الأمر بقتال الكُفَّار مطلقا ، والوعيد في التخلف عن قتالهم مطلقًا .

وبأن النبي ﷺ قاتل أهل الطائف في ذي القعدة ، وهو من الأشهر الحُرُم . وقال آخرون : إن النهي عن القتال في الأشهر الحُرُم غير منسوخ لهذه الآية وغيرها ، مما فيه النهي عن ذلك بخُصوصه ، وحملوا النصوص المطلقة الواردة على ذلك ، وقالوا : المُطلق يُحمل على المُقيَّد .

وفصَّل بعضهم فقال : لا يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحُرُم ، وأما استدامته وتكميله إذا كان أوله في غيرها ، فإنه يجوز ، وحملوا قتال النبي ﷺ لأهل الطائف على ذلك ، لأن أول قتالهم في « حُنين » في « شوَّال » .

وكل هذا في القتال الذي ليس المقصود منه الدفع . فأما قتال الدفع إذا ابتدأ الكُفَّار المُسلمين بالقتال ، فإنه يجوز للمُسلمين القتال ، دفعا عن أنفسهم في الشهر الحرام وغيره بإجماع العُلماء .

وقوله : ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ أي : ولا تحلوا الهدي الذي يهدى إلى بيت الله في حج أو عمرة ، أو غيرهما ، من نعم وغيرها ، فلا تصدوه عن الوصول إلى محله ، ولا تأخذوه بسرقة أو غيرها ، ولا تقصروا به ، أو تحملوه ما لا يطيق ، خوفا من تلفه قبل وصوله إلى محله ، بل عظموه وعظموا من جاء به .

﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ هذا نوع خاص من أنواع الهدي ، وهو الهدي الذي يفتل له قلائد أو عرى ، فيجعل في أعناقه إظهارا لشعائر الله ، وحملا للناس على الاقتداء ، وتعليما لهم للسنة ، وليعرف أنه هدي فيحترم ، ولهذا كان تقليد الهدي من السنن والشعائر المسنونة .

﴿وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ أي : قاصدين له ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ أي : من قصد هذا البيت الحرام ، وقصده فضل اللّه بالتجارة والمكاسب المباحة ، أو قصده رضوان اللّه بحجّه وعُمرته والطواف به ، والصلاة ، وغيرها من أنواع العبادات ، فلا تتعرضوا له بسوء ، ولا تهينوه ، بل أكرموه ، وعظموا الوافدين الزائرين لبيت ربكم .

ودخل في هذا الأمرِ الأمر بتأمين الطرق الموصلة إلى بيت اللّه وجعل القاصدين له مُطمئنين مُستريحين ، غير خائفين على أنفسهم من القتل فما دونه ، ولا على أموالهم من المكس والنهب ونحو ذلك .

وهذه الآية الكريمة مخصوصة بقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ ، فالمُشرك لا يُمكَّن من الدخول إلى الحرم . والتخصيص في هذه الآية بالنهي عن التعرض لمن قصد البيت ابتغاء فضل اللّه أو رضوانه -يدل على أن من قصده ليلحد فيه بالمعاصي ، فإن من تمام احترام الحرم صد من هذه حاله عن الإفساد ببيت اللّه ، كما قال تعالى : ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [ سورة الحج ٢٥] .

ولما نهاهم عن الصيد في حال الإحرام قال : ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أي : إذا حللتم من الإحرام بالحج والعمرة ، وخرجتم من الحرم حل لكم الاصطياد ، وزال ذلك التحريم ، والأمر بعد التحريم يرد الأشياء إلى ما كانت عليه من قبل .

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ أي : لا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم واعتداؤهم عليكم ، حيث صدوكم عن المسجد ، على الاعتداء عليهم ، طلبا للاشتفاء منهم ، فإن العبد عليه أن يلتزم أمر اللّه ، ويسلك طريق العدل ، ولو جُني عليه أو ظلم واعتدي عليه ، فلا يحل له أن يكذب على من كذب عليه ، أو يخون من خانه .

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ أي : ليعن بعضكم بعضا على البر ، وهو : اسم جامع لكل ما يحبه اللّه ويرضاه ، من الأعمال الظاهرة والباطنة ، من حقوق اللّه وحقوق الآدميين ، والتقوى في هذا الموضع : اسم جامع لترك كل ما يكرهه اللّه ورسوله ، من الأعمال الظاهرة والباطنة .

وكلُّ خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها ، أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها ، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه ، وبمعاونة غيره من إخوانه المؤمنين عليها ، بكل قول يبعث عليها وينشط لها ، وبكل فعل كذلك .

﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ﴾ وهو التجرؤ على المعاصي التي يأثم صاحبها ، ويحرج . ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ وهو التعدي على الخَلْق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، فكل معصية وظلم يجب على العبد كف نفسه عنه ، ثم إعانة غيره على تركه .

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على من عصاه وتجرأ على محارمه ، فاحذروا المحارم لئلا يحل بكم عقابه العاجل والآجل .

[٣ – ٥] : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ

﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

هذا الذي حولنا اللَّه عليه في قوله : ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ واعلم أن اللَّه تبارك وتعالى لا يُحرِّم ما يُحرِّم إلا صيانة لعباده ، وحماية لهم من الضرر الموجود في المُحرَّمات ، وقد يبيِّن للعباد ذلك وقد لا يبيِّن . فأخبر أنه حرَّم ﴿الْمَيْتَةَ﴾ والمُراد بالميتة : ما فُقِدَت حياتُهُ بغير ذكاة شرعية ، فإنها تحرم لضررها ، وهو احتقان الدم في جوفها ولحمها المُضر بآكلها .

وكثيرًا ما تموت بعلة تكون سببا لهلاكها ، فتضر بالآكل ، ويستثنى من ذلك ميتة الجراد والسمك ، فإنه حلال[٨٨] .

﴿وَالدَّمَ﴾ أي : المسفوح ، كما قُيِّد في الآية الأخرى .

﴿وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ وذلك شامل لجميع أجزائه ، وإنما نص اللَّه عليه من بين سائر الخبائث من السباع ، لأن طائفة من أهل الكتاب من النصارى يزعمون أن اللَّه أحلَّه لهم . أي : فلا تغتروا بهم ، بل هو مُحرَّم من جملة الخبائث .

﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي : ذُكر عليه اسم غير اللَّه تعالى ، من الأصنام والأولياء والكواكب وغير ذلك من المخلوقين .

فكما أن ذكر اللَّه تعالى يطيب الذبيحة ، فذكر اسم غيره عليها ، يفيدها خبثا معنويا ، لأنه شرك بالله تعالى .

﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ أي : الميتة بخنق ، بيد أو حبل ، أو إدخالها رأسها بشيء ضيق ، فتعجز عن إخراجه حتى تموت .

﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ أي : الميتة بسبب الضرب بعصا أو حصى أو خشبة ، أو هدم شيء عليها ، بقصد أو بغير قصد .

﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ أي : الساقطة من علو ، كجبل أو جدار أو سطح ونحوه ، فتموت بذلك .

﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ وهي التي تنطحها غيرها فتموت .

﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ من ذئب أو أسد أو نمر ، أو من الطيور التي تفترس الصيود ، فإنها إذا ماتت بسبب أكل السبع ، فإنها لا تحل .

---

(٨٨) * هذا معنى حديث أخرجه ابن ماجه : ( أبواب الصيد ومُتعلقاته/ باب : صيد الحيتان/ ح ٣٢١٨ ) ، ( أبواب الأطعمة / باب : الكبد والطحال/ ح ٣٣١٤ ) . وأحمد : (٢ / ٩٧) .

عن عبد اللَّه بن عمر أنَّ رسول ﷺ قال : أُحلَّت لنا ميتتان و دمان ، فأمَّا الميتتان فالحوت والجراد ، وأمَّا الدَّمان فالكبد والطِّحال .

والحديث لا يصح مرفوعًا ، وإنَّما المحفوظ فيه الوقف . قاله : أبو حاتم ، وأبو زُرعة ، والدارقُطني ، والبيهقي .

وقوله : ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ راجع لهذه المسائل ، من منخنقة ، وموقوذة ، ومتردية ، ونطيحة ، وأكيلة سبع ، إذا ذُكيّت وفيها حياة مُستقرّة لتتحقق الذّكاة فيها ، ولهذا قال الفُقهاء : لو أبان السبع أو غيره حشوتها ، أو قطع حلقومها ، كان وجود حياتها كعدمه ، لعدم فائدة الذّكاة فيها .

وبعضهم لم يعتبر فيها إلا وجود الحياة فإذا ذكاها وفيها حياة حلت ولو كانت مبانة الحشوة وهو ظاهر الآية الكريمة .

﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ أي : وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام ، ومعنى الاستقسام : طلب ما يقسم لكم ويقدر بها ، وهي قداح ثلاثة كانت تستعمل في الجاهلية ، مكتوب على أحدها « افعل » وعلى الثاني « لا تفعل » والثالث غفل لا كتابة فيه ؛ فإذا هَمّ أحدهم بسفر أو عرس أو نحوهما ، أجال تلك القداح المتساوية في الجرم ، ثم أخرج واحدا منها ، فإن خرج المكتوب عليه « افعل » مضى في أمره ، وإن ظهر المكتوب عليه « لا تفعل » لم يفعل ولم يمض في شأنه ، وإن ظهر الآخر الذي لا شيء عليه ، أعادها حتى يخرج أحد القدحين فيعمل به .

فحرّمه اللّه عليهم ، الذي في هذه الصورة وما يشبهه ، وعوضهم عنه بالاستخارة لربهم في جميع أمورهم .

﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ الإشارة لكل ما تقدم من المـُحرّمات ، التي حرّمها اللّه صيانة لعباده ، وأنها فسق ، أي : خروج عن طاعته إلى طاعة الشيطان .

ثم امتن على عباده بقوله : ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ . واليوم المشار إليه يوم عرفة ، إذ أتم اللّه دينه ، ونصر عبده ورسوله ، وانخذل أهل الشرك انخذالا بليغا ، بعد ما كانوا حريصين على رد المُؤمنين عن دينهم ، طامعين في ذلك .

فلما رأوا عز الإسلام وانتصاره وظهوره ، يئسوا كل اليأس من المُؤمنين ، أن يرجعوا إلى دينهم ، وصاروا يخافون منهم ويخشون ، ولهذا في هذه السّنة التي حج فيها النبي ﷺ سنة عشر حجة الوداع – لم يحج فيها مُشْرِك ، ولم يطف بالبيت عريان .

ولهذا قال : ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ أي : فلا تخشوا المشركين ، واخشوا اللّه الذي نصركم عليهم وخذلهم ، ورد كيدهم في نحورهم .

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بتمام النصر ، وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة ، الأصول والفروع ، ولهذا كان الكتاب والسُّنّة كافيين كل الكفاية ، في أحكام الدين أصوله وفروعه . فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسُّنّة ، من علم الكلام وغيره ، فهو جاهل ، مبطل في دعواه ، قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه ، وهذا من أعظم الظلم والتجهيل للّه ولرسوله .

﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ الظاهرة والباطنة ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أي: اخترته واصطفيته لكم دينا، كما ارتضيتكم له، فقوموا به شكرا لربكم، واحمدوا الذي مَنَّ عليكم بأفضل الأديان وأشرفها وأكملها.

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أي: ألجأته الضرورة إلى أكل شيء من المُحرَّمات السابقة، في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ أي: مجاعة ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ﴾ أي: مائل ﴿لِإِثْمٍ﴾ بأن لا يأكل حتى يضطر، ولا يزيد في الأكل على كفايته ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ حيث أباح له الأكل في هذه الحال، ورحمه بما يقيم به بنيته من غير نقص يلحقه في دينه.

[٤ - ٥]: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ من الأطعمة؟! ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ وهي كل ما فيه نفع أو لذة، من غير ضرر بالبدن ولا بالعقل، فدخل في ذلك جميع الحبوب والثمار التي في القرى والبراري، ودخل في ذلك جميع حيوانات البحر وجميع حيوانات البر، إلا ما استثناه الشارع، كالسِّباع(٨٩) والخبائث منها.

ولهذا دلَّت الآية بمفهومها على تحريم الخبائث، كما صرَّح به في قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾.

﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ أي: أحل لكم ما علمتم من الجُوارح إلى آخر الآية. دلت هذه الآية على أمور:

**أحدها**: لُطف اللَّه بعباده ورحمته لهم، حيث وسع عليهم طرق الحلال، وأباح لهم ما لم يذكوه مما صادته الجُوارح، والمُراد بالجُوارح: الكلاب، والفهود، والصقر، ونحو ذلك، مما يصيد بنابه أو بمخلبه.

**الثاني**: أنه يشترط أن تكون مُعلَّمة، بما يعد في العرف تعليما، بأن يسترسل إذا أرسل، وينزجر إذا زجر، وإذا أمسك لم يأكل، ولهذا قال: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أمسكن من الصيد لأجلكم. وما أكل منه الجارح فإنه لا يعلم أنه أمسكه على صاحبه، ولعله أن يكون أمسكه على نفسه.

**الثالث**: اشتراط أن يجرحه الكلب أو الطير ونحوهما، لقوله: ﴿مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ مع ما تقدَّم من تحريم المُنخنقة. فلو خنقه الكلب أو غيره، أو قتله بثقله لم يبح هذا بناء على أن الجوارح اللاتي يجرحن الصيد

(٨٩) * عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ أَكْلِ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ.

مُتَّفقٌ عليه. أخرجه البُخاري في غير موضع من صحيحه، منها: (كتاب الذَّبائح / باب: أكل كل ذي ناب من السِّباع / ح ٥٥٣٠). ومُسلم في صحيحه: (كتاب الصَّيد والذَّبائح / باب: تحريم أكل كل ذي ناب من السِّباع، وكل ذي مخلب / ح ١٢، ١٣، ١٤).

بأنيابها أو مخالبها ، والمشهور أن الجوارح بمعنى الكواسب أي : المُحصِّلات للصيد والمُدركات لها فلا يكون فيها على هذا دلالة - والله أعلم- .

**الرابع :** جواز اقتناء كلب الصيد ، كما ورد في الحديث الصحيح(٩٠) ، مع أن اقتناء الكلب مُحرَّم ، لأن من لازم إباحة صيده وتعليمه جواز اقتنائه .

**الخامس :** طهارة ما أصابه فم الكلب من الصيد ، لأن اللّه أباحه ولم يذكر له غسلا ، فدل على طهارته .

**السادس :** فيه فضيلة العلم ، وأن الجارح المُعلَّم - بسبب العلم - يباح صيده ، والجاهل بالتعليم لا يباح صيده .

**السابع :** أن الاشتغال بتعليم الكلب أو الطير أو نحوهما ، ليس مذموما ، وليس من العبث والباطل . بل هو أمر مقصود ، لأنه وسيلة لحل صيده والانتفاع به .

**الثامن :** فيه حُجَّة لمن أباح بيع كلب الصيد ، قال : لأنه قد لا يحصل له إلا بذلك .

**التاسع :** فيه اشتراط التسمية عند إرسال الجارح ، وأنه إن لم يسم اللّه مُتعمِّدا ، لم يبح ما قتل الجارح .

**العاشر :** أنه يجوز أكل ما صاده الجارح ، سواء قتله الجارح أم لا ، وأنه إن أدركه صاحبه ، وفيه حياة مستقرة فإنه لا يباح إلا بها . ثم حث تعالى على تقواه ، وحذر من إتيان الحساب في يوم القيامة ، وأن ذلك أمر قد دنا واقترب ، فقال : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ .

[٥ - ٥] : ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ .

كرَّر تعالى إحلال الطيِّبات لبيان الامتنان ، ودعوة للعباد إلى شكره والإكثار من ذكره ، حيث أباح لهم ما تدعوهم الحاجة إليه ، ويحصل لهم الانتفاع به من الطيبات .

﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ﴾ أي : ذبائح اليهود والنصارى حلال لكم -يا معشر المسلمين- دون باقي الكُفَّار ، فإن ذبائحهم لا تحل للمسلمين ، وذلك لأن أهل الكتاب ينتسبون إلى الأنبياء والكتب . وقد اتَّفق الرُّسل كلهم على تحريم الذبح لغير اللّه ، لأنه شرك ، فاليهود والنصارى يتديَّنون بتحريم الذبح لغير اللّه ، فلذلك أبيحت ذبائحهم دون غيرهم .

والدليل على أن المراد بطعامهم ذبائحهم ، أن الطعام الذي ليس من الذبائح كالحبوب والثمار ليس لأهل الكتاب فيه خصوصية ، بل يباح ذلك ولو كان من طعام غيرهم ، وأيضا فإنه أضاف الطعام إليهم فدل ذلك ، على أنه كان طعاما ، بسبب ذبحهم . ولا يقال : إن ذلك للتمليك ، وأن المُراد : الطعام الذي

---

(٩٠) * هذا الحديث أخرجه مُسلم في صحيحه : (كتاب الطهارة / باب : حُكم ولوغ الكلب/ ح ٩٣ ) .
عن عبد اللّه بن مغفل ﷺ . قال : أمر رسول اللّه ﷺ بقتل الكلاب ، ثم قال : ما بالهم وبال الكلاب ؟ ، ثم رخص في كلب الصيد ، وكلب الغنم ، وقال : إذا ولغ الكلب في الإناء فاغسلوه سبع مرات ، وعفروه الثامنة في التراب .

يملكون ؛ لأن هذا ، لا يباح على وجه الغصب ، ولا من المُسلمين .

﴿وَطَعَامُكُمْ﴾ أيُّها المُسلمون ﴿حِلٌّ لَّهُمْ﴾ أي : يحل لكم أن تطعموهم إياه «وَ» أحل لكم ﴿الْمُحْصَنَاتُ﴾ أي : الحرائر العفيفات ﴿مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ والحرائر العفيفات ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي : من اليهود والنصارى ، وهذا مخصص لقوله تعالى : ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ ومفهوم الآية ، أن الأرقاء من المؤمنات لا يباح نكاحهن للأحرار ، وهو كذلك .

وأما الكتابيات فعلى كل حال لا يحن ، ولا يجوز نكاحهن للأحرار مطلقا ، لقوله تعالى : ﴿مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ وأما المُسلمات إذا كن رقيقات فإنه لا يجوز للأحرار نكاحهن إلا بشرطين ، عدم الطول وخوف العنت .

وأما الفاجرات غير العفيفات عن الزنا فلا يُباح نكاحهن ، سواء كنَّ مُسلمات أو كتابيات ، حتى يتُبْنَ لقوله تعالى : ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ الآية .

وقوله : ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي : أبحنا لكم نكاحهن ، إذا أعطيتموهن مهورهن ، فمن عزم على أن لا يؤتيها مهرها فإنها لا تحل له . وأمر بإيتائها إذا كانت رشيدة تصلح للإيتاء ، وإلا أعطاه الزوج لوليها .

وإضافة الأجور إليهن دليل على أن المرأة تملك جميع مهرها ، وليس لأحد منه شيء ، إلا ما سمحت به لزوجها أو وليها أو غيرهما .

﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ أي : حالة كونكم - أيها الأزواج - محصنين لنسائكم ، بسبب حفظكم لفروجكم عن غيرهن ، ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ أي : زانين مع كل أحد ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ وهو : الزنا مع العشيقات ، لأن الزُّناة في الجاهلية ، منهم من يزني مع من كان ، فهذا المُسافح . ومنهم من يزني مع خدنه ومحبه ، فأخبر اللّه تعالى أن ذلك كله ينافي العفة ، وأن شرط التزوج أن يكون الرجل عفيفا عن الزنا .

وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ أي : ومن كفر بالله تعالى ، وما يجب الإيمان به من كتبه ورسله أو شيء من الشرائع ، فقد حبط عمله ، بشرط أن يموت على كفره ، كما قال تعالى : ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [سورة البقرة ٢١٧] . ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي : الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم يوم القيامة ، وحصلوا على الشقاوة الأبدية .

[٦ - ٥] : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

هذه آية عظيمة قد اشتملت على أحكام كثيرة ، نذكر منها ما يسره اللّه وسهله :

**أحدها :** أن هذه المذكورات فيها امتثالها والعمل بها من لوازم الإيمان الذي لا يتم إلا به ، لأنه صدرها بقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إلى آخرها . أي : يا أيها الذين آمنوا ، اعملوا بمُقتضى إيمانكم بما شرعناه لكم .

**الثاني :** الأمر بالقيام بالصلاة لقوله : ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ .

**الثالث :** الأمر بالنية للصلاة ، لقوله : ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي : بقصدها ونيّتها .

**الرابع :** اشتراط الطهارة لصحة الصلاة ، لأن اللّه أمر بها عند القيام إليها ، والأصل في الأمر الوجوب

**الخامس :** أن الطهارة لا تجب بدخول الوقت ، وإنما تجب عند إرادة الصلاة .

**السادس :** أن كل ما يطلق عليه اسم الصلاة ، من الفرض والنفل ، وفرض الكفاية ، وصلاة الجنازة ، تشترط له الطهارة ، حتى السجود المُجرّد عند كثير من العلماء ، كسجود التلاوة والشكر .

**السابع :** الأمر بغسل الوجه ، وهو : ما تحصل به المواجهة من منابت شعر الرأس المُعتاد ، إلى ما انحدر من اللحيين والذقن طولا . ومن الأذن إلى الأذن عرضا . ويدخل فيه المضمضة والاستنشاق ، بالسنة ، ويدخل فيه الشعور التي فيه . لكن إن كانت خفيفة فلا بد من إيصال الماء إلى البشرة ، وإن كانت كثيفة اكتفي بظاهرها .

**الثامن :** الأمر بغسل اليدين ، وأن حدهما إلى المرفقين و « إلى » كما قال جمهور المُفسّرين بمعنى « مع » كقوله تعالى : ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ ولأن الواجب لا يتم إلا بغسل جميع المرفق

**التاسع :** الأمر بمسح الرأس .

**العاشر :** أنه يجب مسح جميعه ، لأن الباء ليست للتبعيض ، وإنما هي للملاصقة ، وأنه يعم المسح بجميع الرأس .

**الحادي عشر :** أنه يكفي المسح كيفما كان ، بيديه أو إحداهما ، أو خرقة أو خشبة أو نحوهما ، لأن اللّه أطلق المسح ولم يقيده بصفة ، فدل ذلك على إطلاقه .

**الثاني عشر :** أن الواجب المسح . فلو غسل رأسه ولم يمر يده عليه لم يكف ، لأنه لم يأت بما أمر اللّه به .

**الثالث عشر :** الأمر بغسل الرجلين إلى الكعبين ، ويقال فيهما ما يقال في اليدين .

**الرابع عشر :** فيها الرّد على الرافضة ، على قراءة الجمهور بالنصب ، وأنه لا يجوز مسحهما ما دامتا مكشوفتين .

**الخامس عشر :** فيه الإشارة إلى مسح الخفين ، على قراءة الجر في : « وأرجلكم » وتكون كل من القراءتين ، محمولة على معنى ، فعلى قراءة النصب فيها ، غسلهما إن كانتا مكشوفتين ، وعلى قراءة الجر فيها ، مسحهما إذا كانتا مستورتين بالخف .

**السادس عشر :** الأمر بالترتيب في الوضوء ، لأن اللّه تعالى ذكرها مرتبة . ولأنه أدخل ممسوحا – وهو

الرأس- بين مغسولين ، ولا يعلم لذلك فائدة غير الترتيب .

**السابع عشر** : أن الترتيب مخصوص بالأعضاء الأربعة المُسَمّيات في هذه الآية ، وأما الترتيب بين المضمضة والاستنشاق والوجه ، أو بين اليمنى واليسرى من اليدين والرجلين ، فإن ذلك غير واجب ، بل يستحب تقديم المضمضة والاستنشاق على غسل الوجه ، وتقديم اليمنى على اليسرى من اليدين والرجلين ، وتقديم مسح الرأس على مسح الأذنين .

**الثامن عشر** : الأمر بتجديد الوضوء عند كل صلاة ، لتوجد صورة المأمور به .

**التاسع عشر** : الأمر بالغسل من الجنابة .

**العشرون** : أنه يجب تعميم الغسل للبدن ، لأن اللّه أضاف التطهر للبدن ، ولم يخصصه بشيء دون شيء .

**الحادي والعشرون** : الأمر بغسل ظاهر الشعر وباطنه في الجنابة .

**الثاني والعشرون** : أنه يندرج الحدث الأصغر في الحدث الأكبر ، ويكفي من هما عليه أن ينوي ، ثم يعمم بدنه ، لأن اللّه لم يذكر إلا التطهر ، ولم يذكر أنه يعيد الوضوء .

**الثالث والعشرون** : أن الجنب يصدق على من أنزل المني يقظة أو مناما ، أو جامع ولو لم ينزل

**الرابع والعشرون** : أن من ذكر أنه احتلم ولم يجد بللا ، فإنه لا غسل عليه ، لأنه لم تتحقق منه الجنابة

**الخامس والعشرون** : ذكر مِنّة اللّه تعالى على العباد ، بمشروعية التيمم .

**السادس والعشرون** : أن من أسباب جواز التيمم وجود المرض الذي يضره غسله بالماء ، فيجوز له التيمم .

**السابع والعشرون** : أن من جملة أسباب جوازه ، السفر والإتيان من البول والغائط إذا عدم الماء ، فالمرض يجوز التيمم مع وجود الماء لحصول التضرر به ، وباقيها يجوزه العدم للماء ولو كان في الحضر

**الثامن والعشرون** : أن الخارج من السبيلين من بول وغائط ، ينقض الوضوء .

**التاسع والعشرون** : استدل بها من قال : لا ينقض الوضوء إلا هذان الأمران ، فلا ينتقض بلمس الفرج ولا بغيره .

**الثلاثون** : استحباب التكنية عمّا يُستقذر التلفظ به لقوله تعالى : ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾

**الحادي والثلاثون** : أن لمس المرأة بلذة وشهوة ناقض للوضوء .

**الثاني والثلاثون** : اشتراط عدم الماء لصحة التيمم .

**الثالث والثلاثون** : أن مع وجود الماء ولو في الصلاة ، يبطل التّيمم لأن اللّه إنما أباحه مع عدم الماء

**الرابع والثلاثون** : أنه إذا دخل الوقت وليس معه ماء ، فإنه يلزمه طلبه في رحله وفيما قرب منه ، لأنه لا يقال « لم يجد » لمن لم يطلب .

**الخامس والثلاثون** : أن من وجد ماء لا يكفي بعض طهارته ، فإنه يلزمه استعماله ، ثم يتيمم بعد ذلك

**السادس والثلاثون** : أن الماء المتغير بالطاهرات ، مقدم على التيمم ، أي : يكون طهورا ، لأن الماء المُتغيِّر ماء ، فيدخل في قوله : ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ .

**السابع والثلاثون** : أنه لا بد من نية التيمم لقوله : ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾ أي : اقصدوا .

**الثامن والثلاثون** : أنه يكفي التيمم بكل ما تصاعد على وجه الأرض من تراب وغيره . فيكون على هذا ، قوله : ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ﴾ إما من باب التغليب ، وأن الغالب أن يكون له غبار يمسح منه ويعلق بالوجه واليدين ، وإما أن يكون إرشادا للأفضل ، وأنه إذا أمكن التراب الذي فيه غبار فهو أولى .

**التاسع والثلاثون** : أنه لا يصح التيمم بالتراب النجس ، لأنه لا يكون طيبا بل خبيثا .

**الأربعون** : أنه يمسح في التيمم الوجه واليدان فقط ، دون بقية الأعضاء .

**الحادي والأربعون** : أن قوله : ﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾ شامل لجميع الوجه وأنه يعممه بالمسح ، إلا أنه معفو عن إدخال التراب في الفم والأنف ، وفيما تحت الشعور ، ولو خفيفة .

**الثاني والأربعون** : أن اليدين تمسحان إلى الكوعين فقط ، لأن اليدين عند الإطلاق كذلك . فلو كان يشترط إيصال المسح إلى الذراعين لقيده الله بذلك ، كما قيده في الوضوء .

**الثالث والأربعون** : أن الآية عامة في جواز التيمم ، لجميع الأحداث كلها ، الحدث الأكبر والأصغر ، بل ولنجاسة البدن ، لأن الله جعلها بدلا عن طهارة الماء ، وأطلق في الآية فلم يقيد وقد يقال أن نجاسة البدن لا تدخل في حكم التيمم لأن السياق في الأحداث وهو قول جمهور العلماء .

**الرابع والأربعون** : أن محل التيمم في الحدث الأصغر والأكبر واحد ، وهو الوجه واليدان .

**الخامس والأربعون** : أنه لو نوى مَنْ عليه حدثان التيمم عنهما ، فإنه يجزئ أخذا من عموم الآية وإطلاقها .

**السادس والأربعون** : أنه يكفي المسح بأي شيء كان ، بيده أو غيرها ، لأن الله قال ﴿فَٱمْسَحُواْ﴾ ولم يذكر الممسوح به ، فدل على جوازه بكل شيء .

**السابع والأربعون** : اشتراط الترتيب في طهارة التيمم ، كما يشترط ذلك في الوضوء ، ولأن الله بدأ بمسح الوجه قبل مسح اليدين .

**الثامن والأربعون** : أن الله تعالى -فيما شرعه لنا من الأحكام- لم يجعل علينا في ذلك من حرج ولا مشقة ولا عسر ، وإنما هو رحمة منه بعباده ليطهرهم ، وليتم نعمته عليهم .

**وهذا هو التاسع والأربعون** : أن طهارة الظاهر بالماء والتراب ، تكميل لطهارة الباطن بالتوحيد ، والتوبة النصوح .

**الخمسون** : أن طهارة التيمم ، وإن لم يكن فيها نظافة وطهارة تدرك بالحس والمشاهدة ، فإن فيها طهارة معنوية ناشئة عن امتثال أمر الله تعالى .

**الحادي والخمسون :** أنه ينبغي للعبد أن يتدبر الحِكَم والأسرار في شرائع اللّه ، في الطهارة وغيرها ليزداد معرفة وعلما ، ويزداد شُكرا للّه ومحبّة له ، على ما شرع من الأحكام التي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة .

[٧ - ٥] : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ .

يأمر تعالى عباده بذكر نعمه الدينية والدنيوية ، بقلوبهم وألسنتهم ؛ فإن في استدامة ذكرها داعيا لشكر اللّه تعالى ومحبته ، وامتلاء القلب من إحسانه ، وفيه زوال للعجب من النفس بالنعم الدينية ، وزيادة لفضل اللّه وإحسانه .

و ﴿مِيثَاقَهُ﴾ أي : واذكروا ميثاقه ﴿الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ﴾ أي : عهده الذي أخذه عليكم .

وليس المراد بذلك أنهم لفظوا ونطقوا بالعهد والميثاق ، وإنما المراد بذلك أنهم بإيمانهم بالله ورسوله قد التزموا طاعتهما ، ولهذا قال : ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي : سمعنا ما دعوتنا به من آياتك القرآنية والكونية ، سمع فهم وإذعان وانقياد ، وأطعنا ما أمرتنا به بالامتثال ، وما نهيتنا عنه بالاجتناب .

وهذا شامل لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة . وأن المُؤمنين يذكرون في ذلك عهد اللّه وميثاقه عليهم ، وتكون منهم على بال ، ويحرصون على أداء ما أُمِرُوا به كاملا غير ناقص .

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع أحوالكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي : بما تنطوي عليه من الأفكار والأسرار والخواطر . فاحذروا أن يطلع من قلوبكم على أمر لا يرضاه ، أو يصدر منكم ما يكرهه ، واعمروا قلوبكم بمعرفته ومحبّته والنصح لعباده . فإنكم - إن كنتم كذلك - غفر لكم السيئات ، وضاعف لكم الحسنات ، لعلمه بصلاح قلوبكم .

[٨ - ٥] : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ .

أي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما أُمِرُوا بالإيمان به ، قوموا بلازم إيمانكم ، بأن تكونوا ﴿قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ بأن تنشط للقيام بالقسط حركاتكم الظاهرة والباطنة ، وأن يكون ذلك القيام للّه وحده ، لا لغرض من الأغراض الدنيوية ، وأن تكونوا قاصدين للقسط ، الذي هو العدل ، لا الإفراط ولا التفريط ، في أقوالكم ولا أفعالكم ، وقوموا بذلك على القريب والبعيد ، والصديق والعدو .

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي : لا يحملنكم بغض ﴿قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ كما يفعله من لا عدل عنده ولا قسط ، بل كما تشهدون لوليكم ، فاشهدوا عليه ، وكما تشهدون على عدوكم فاشهدوا له ، ولو كان كافرا أو مبتدعا ، فإنه يجب العدل فيه ، وقبول ما يأتي به من الحق ، لأنه حق لا لأنه قاله ، ولا يرد الحق لأجل قوله ، فإن هذا ظلم للحق .

﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي : كلما حرصتم على العدل واجتهدتم في العمل به ، كان ذلك

أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل كملت التقوى. ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فمُجازيكم بأعمالكم، خيرها وشرها، صغيرها وكبيرها، جزاء عاجلا، وآجلا.

[٩: ١٠ – ٥]: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

أي ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ الذي لا يخلف الميعاد وهو أصدق القائلين –المُؤمنين به وبكُتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من واجبات ومستحبات– بالمغفرة لذنوبهم، بالعفو عنها وعن عواقبها، وبالأجر العظيم الذي لا يعلم عظمه إلا اللّه تعالى. ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على الحق المُبين، فكذبوا بها بعد ما أبانت الحقائق. ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه.

[١١ – ٥]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

يُذَكِّر تعالى عباده المُؤمنين بنعمه العظيمة، ويحثُّهم على تذكُرها بالقلب واللسان، وأنهم –كما أنهم يَعُدُّون قتلهم لأعدائهم، وأخذ أموالهم وبلادهم وسبيهم نعمةً – فليعدُّوا أيضًا إنعامه عليهم بكف أيديهم عنهم، ورد كيدهم في نحورهم نعمة؛ فإنهم الأعداء، قد همُّوا بأمر، وظنوا أنهم قادرون عليه، فإذا لم يدركوا بالمُؤمنين مقصودهم، فهو نصر من اللّه لعباده المؤمنين ينبغي لهم أن يشكروا اللّه على ذلك، ويعبدوه ويذكروه، وهذا يشمل كل من هَمَّ بالمؤمنين بشر، من كافر ومنافق وباغ، كف اللّه شره عن المسلمين، فإنه داخل في هذه الآية.

ثم أمرهم بما يستعينون به على الانتصار على عدوهم، وعلى جميع أمورهم، فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، وتبرؤوا من حولهم وقوتهم، ويثقوا بالله تعالى في حصول ما يحبون.

وعلى حسب إيمان العبد يكون توكله، وهو من واجبات القلب المتفق عليها.

[١٢: ١٣ – ٥] ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝١٢ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

يُخبر تعالى أنه أخذ على بني إسرائيل الميثاق الثقيل المؤكَّد، وذكر صفة الميثاق وأجرهم إن قاموا به، وإثمهم إن لم يقوموا به، ثم ذكر أنهم ما قاموا به، وذكر ما عاقبهم به، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ

بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي : عهدهم المؤكَّد الغليظ ، ﴿وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ﴾ أي : رئيسا وعريفا على من تحته ، ليكون ناظرا عليهم ، حاثا لهم على القيام بما أُمِرُوا به ، مطالبا يدعوهم .

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ للنقباء الذين تحملوا من الأعباء ما تحمَّلوا : ﴿إِنِّي مَعَكُمۡۖ﴾ أي : بالعون والنصر ، فإن المعونة بقدر المؤنة ؛ ثم ذكر ما واثقهم عليه فقال : ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ظاهرا وباطنا ، بالإتيان بما يلزم وينبغي فيها ، والمُداومة على ذلك ﴿وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لمستحقيها ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾ جميعهم ، الذين أفضلهم وأكملهم محمد ﷺ ، ﴿وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ﴾ أي : عظمتموهم ، وأديتم ما يجب لهم من الاحترام والطاعة ﴿وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ وهو الصدقة والإحسان ، الصادر عن الصدق والإخلاص وطيب المكسب ، فإذا قمتم بذلك ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ فجمع لهم بين حصول المحبوب بالجنة وما فيها من النعيم ، واندفاع المكروه بتكفير السيئات ، ودفع ما يترتب عليها من العقوبات .

﴿فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ العهد والميثاق المؤكَّد بالأيمان والالتزامات ، المقرون بالترغيب بذكر ثوابه ، ﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي : عن عمد وعلم ، فيستحق ما يستحقه الضالون من حرمان الثواب ، وحصول العقاب . فكأنه قيل : ليت شعري ماذا فعلوا؟ وهل وفوا بما عاهدوا اللّٰه عليه أم نكثوا ؟ ، فبين أنهم نقضوا ذلك فقال : ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ﴾ أي : بسببه عاقبناهم بعدة عُقوبات :

**الأولى** : أنا ﴿لَعَنَّٰهُمۡ﴾ أي : طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا ، حيث أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة ، ولم يقوموا بالعهد الذي أخذ عليهم ، الذي هو سببها الأعظم .

**الثانية** : قوله : ﴿وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ﴾ أي : غليظة لا تجدي فيها المواعظ ، ولا تنفعها الآيات والنذر ، فلا يُرغِّبهم تشويق ، ولا يُزعجهم تخويف ، وهذا من أعظم العقوبات على العبد ، أن يكون قلبه بهذه الصفة التي لا يفيده الهدى ، والخير إلا شرا .

**الثالثة** : أنهم ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي : ابتلوا بالتغيير والتبديل ، فيجعلون للكلم الذي أراد اللّٰه معنى غير ما أراده اللّٰه ولا رسوله .

**الرابعة** : أنهم ﴿وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ فإنهم ذكروا بالتوراة ، وبما أنزل اللّٰه على موسى ، فنسوا حظا منه ، وهذا شامل لنسيان علمه ، وأنهم نسوه وضاع عنهم ، ولم يوجد كثير مما أنساهم اللّٰه إياه عقوبة منه لهم . وشامل لنسيان العمل الذي هو الترك ، فلم يوفقوا للقيام بما أمروا به ، ويستدل بهذا على أهل الكتاب بإنكارهم بعض الذي قد ذكر في كتابهم ، أو وقع في زمانهم ، أنه مما نسوه .

**الخامسة** : الخيانة المُستمرة التي ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي : خيانة للّٰه ولعباده المُؤمنين . ومن أعظم الخيانة منهم ، كتمهم عن من يعظهم ويحسن فيهم الظن الحق ، وإبقاؤهم على كفرهم ، فهذه خيانة عظيمة ، وهذه الخصال الذميمة ، حاصلة لكل من اتَّصف بصفاتهم . فكل من لم يقم بما أمر اللّٰه به ، وأخذ به عليه الالتزام ، كان له نصيب من اللعنة وقسوة القلب ، والابتلاء بتحريف الكلم ، وأنه لا يوفق للصواب ، ونسيان حظ مما ذُكِّر به ، وأنه لا بد أن يبتلى بالخيانة ، نسأل اللّٰه العافية .

وسمّى اللّه تعالى ما ذكروا به حظا ، لأنه هو أعظم الحظوظ ، وما عداه فإنما هي حظوظ دنيوية ، كما قال تعالى : ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [ سُورة القصص ٧٩ ] . وقال في الحظ النافع : ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [ سُورة فُصِّلت ٣٥ ] .

وقوله : ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي : فإنهم وفوا بما عاهدوا اللّه عليه فوفقهم وهداهم للصراط المُستقيم . ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ أي : لا تؤاخذهم بما يصدر منهم من الأذى ، الذي يقتضي أن يعفى عنهم ، واصفح ، فإن ذلك من الإحسان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والإحسان : هو أن تعبد اللّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك . وفي حق المخلوقين : بذل النفع الديني والدنيوي لهم .

[ ١٤ - ٥ ] : ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ .

أي : وكما أخذنا على اليهود العهد والميثاق ، فكذلك أخذنا على ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ لعيسى ابن مريم ، وزكوا أنفسهم بالإيمان بالله ورسله وما جاءوا به ، فنقضوا العهد ، ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ نسيانًا علميًا ، ونسيانًا عمليًا .

﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي : سلطنا بعضهم على بعض ، وصار بينهم من الشرور والإحن ما يقتضي بغض بعضهم بعضا ومعاداة بعضهم بعضا إلى يوم القيامة ، وهذا أمر مشاهد ، فإن النصارى لم يزالوا ولا يزالون في بغض وعداوة وشقاق . ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ . فيعاقبهم عليه .

[ ١٥ : ١٦ - ٥ ] : ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ .

لما ذكر تعالى ما أخذه اللّه على أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وأنهم نقضوا ذلك إلا قليلا منهم ، أمرهم جميعا أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ، واحتج عليهم بآية قاطعة دالة على صحّة نبوته ، وهي : أنه بين لهم كثيرا مما يُخفُون عن الناس ، حتى عن العوام من أهل ملّتهم ، فإذا كانوا هم المشار إليهم في العلم ولا علم عند أحد في ذلك الوقت إلا ما عندهم ، فالحريص على العلم لا سبيل له إلى إدراكه إلا منهم ، فإتيان الرسول ﷺ بهذا القرآن العظيم الذي بيَّن به ما كانوا يتكاتمونه بينهم ، وهو أُمِّيّ لا يقرأ ولا يكتب - من أدل الدلائل على القطع برسالته ، وذلك مثل صفة محمد في كتبهم ، ووجود البشائر به في كتبهم ، وبيان آية الرجم ونحو ذلك .

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أي : يترك بيان ما لا تقتضيه الحكمة .

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾ وهو القرآن ، يُستضاء به في ظلمات الجهالة وعماية الضلالة .
﴿وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ لكل ما يحتاج الخلق إليه من أمور دينهم ودنياهم ، من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله ، ومن العلم بأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية .

ثم ذكر مَنْ الذي يهتدي بهذا القرآن ، وما هو السبب الذي من العبد لحصول ذلك ، فقال : ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ﴾ أي : يهدي به من اجتهد وحرص على بلوغ مرضاة الله ، وصار قصده حسنا – سبل السلام التي تسلم صاحبها من العذاب ، وتوصله إلى دار السلام ، وهو العلم بالحق والعمل به ، إجمالًا وتفصيلًا .

﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ﴾ ظُلمات الكفر والبدعة والمعصية ، والجهل والغفلة ، إلى نور الإيمان والسُّنَّة والطاعة والعلم ، والذِّكر ، وكل هذه الهداية بإذن الله ، الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن . ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ .

[ ١٧ : ١٨ – ٥] : ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ .

لما ذكر تعالى أخذ الميثاق على أهل الكتابين ، وأنهم لم يقوموا به بل نقضوه ، ذكر أقوالهم الشنيعة .
فذكر قول النصارى ، القول الذي ما قاله أحد غيرهم ، بأن الله هو المسيح ابن مريم ، ووجه شبهتهم أنه ولد من غير أب ، فاعتقدوا فيه هذا الاعتقاد الباطل مع أن حواء نظيره ، خُلِقَت بلا أم ، وآدم أولى منه ، خلق بلا أب ولا أم ، فهلا ادعوا فيهما الإلهية كما ادعوها في المسيح؟ . فدل على أن قولهم اتباع هوى من غير برهان ولا شبهة . فرد الله عليهم بأدلة عقلية واضحة فقال : ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ ، فإذا كان المذكورون لا امتناع عندهم يمنعهم لو أراد الله أن يهلكهم ، ولا قدرة لهم على ذلك – دل على بُطلان إلهية من لا يمتنع من الإهلاك ، ولا في قوته شيء من الفكاك .

ومن الأدلة أن ﴿لِلَّهِ﴾ وحده ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يتصرف فيهم بحكمه الكوني والشرعي والجزائي ، وهم مملوكون مُدبرون ، فهل يليق أن يكون المملوك العبد الفقير ، إلها معبودا غنيا من كل وجه ؟ ، هذا من أعظم المحال ، ولا وجه لاستغرابهم لخلق المسيح عيسى ابن مريم من غير أب ، فإن الله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ إن شاء من أب وأم ، كسائر بني آدم ، وإن شاء من أب بلا أم ، كحواء . وإن شاء من أم بلا

أب ، كعيسى ، وإن شاء من غير أب ولا أم كآدم ، فنوع خليقته تعالى بمشيئته النافذة ، التي لا يستعصي عليها شيء ، ولهذا قال : ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

ومن مقالات اليهود والنصارى أن كلا منهما ادعى دعوى باطلة ، يزكون بها أنفسهم ، بأن قال كل منهما : ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ ، والابن في لغتهم هو الحبيب ، ولم يريدوا البُنوّة الحقيقية ، فإن هذا ليس من مذهبهم إلا مذهب النصارى في المسيح .

قال اللّه ردًّا عليهم حيث ادعوا بلا برهان : ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ ؟ ، فلو كنتم أحبابه ما عذبكم لكون اللّه لا يحب إلا من قام بمراضيه ، ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ تجري عليكم أحكام العدل والفضل ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ إذا أتوا بأسباب المغفرة أو أسباب العذاب .

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي : فأي شيء خصكم بهذه الفضيلة ، وأنتم من جملة المماليك ومن جملة من يرجع إلى اللّه في الدار الآخرة ، فيجازيكم بأعمالكم .

[١٩ – ٥] : ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

يدعو تبارك وتعالى أهل الكتاب – بسبب ما مَنَّ عليهم من كتابه– أن يؤمنوا برسوله محمد ﷺ ، ويشكروا اللّه تعالى الذي أرسله إليهم على حين ﴿فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ وشدة حاجة إليه . وهذا مما يدعو إلى الإيمان به ، وأنه يبيِّن لهم جميع المطالب الإلهية والأحكام الشرعية ، وقد قطع اللّه بذلك حجتهم ، لئلا يقولوا : ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ يبشر بالثواب العاجل والآجل ، وبالأعمال الموجبة لذلك ، وصفة العاملين بها . وينذر بالعقاب العاجل والآجل ، وبالأعمال الموجبة لذلك ، وصفة العاملين بها .

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ انقادت الأشياء طوعا وإذعانا لقدرته ، فلا يستعصي عليه شيء منها ، ومن قدرته أن أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، وأنه يُثيب من أطاعهم ويُعاقب من عصاهم .

[ ٢٠ : ٢٦ – ٥] : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ إلى آخر القصة .

لما امتنَّ اللّه على موسى وقومه بنجاتهم من فرعون وقومه وأسرهم واستبعادهم ، ذهبوا قاصدين لأوطانهم ومساكنهم ، وهي بيت المقدس وما حواليه ، وقاربوا وصول بيت المقدس ، وكان اللّه قد فرض عليهم جهاد عدوهم ليخرجوه من ديارهم .

فوعظهم موسى عليه السلام ؛ وذكرهم ليقدموا على الجهاد فقال لهم : ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بقلوبكم وألسنتكم . فإن ذكرها داع إلى محبته تعالى ومنشط على العبادة ، ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ يدعونكم إلى الهدى ، ويحذرونكم من الردى ، ويحثونكم على سعادتكم الأبدية ، ويعلمونكم ما لم تكونوا

تعلمون ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ تملكون أمركم ، بحيث إنه زال عنكم استعباد عدوكم لكم ، فكنتم تملكون أمركم ، وتتمكنون من إقامة دينكم .

﴿وَءَاتَىٰكُم﴾ من النعم الدينية والدنيوية ﴿مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنهم في ذلك الزمان خيرة الخلق ، وأكرمهم على اللّه تعالى . وقد أنعم عليهم بنعم ما كانت لغيرهم . فذكرهم بالنعم الدينية والدنيوية ، الداعي ذلك لإيمانهم وثباته ، وثباتهم على الجهاد ، وإقدامهم عليه ، ولهذا قال : ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ أي : المطهرة ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فأخبرهم خبرا تطمئن به أنفسهم ، إن كانوا مؤمنين مُصدِّقين بخبر اللّه ، وأنه قد كتب اللّه لهم دخولها ، وانتصارهم على عدوهم .

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟﴾ أي : ترجعوا ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ قد خسرتم دنياكم بما فاتكم من النصر على الأعداء وفتح بلادكم ، وآخرتكم بما فاتكم من الثواب ، وما استحققتم -بمعصيتكم- من العقاب ، فقالوا قولا يدل على ضعف قلوبهم ، وخور نفوسهم ، وعدم اهتمامهم بأمر اللّه ورسوله .

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ شديدي القوة والشجاعة ، أي : فهذا من الموانع لنا من دخولها . ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ وهذا من الجبن وقلة اليقين ، وإلا فلو كان معهم رشدهم ، لعلموا أنهم كلهم من بني آدم ، وأن القوي من أعانه اللّه بقوة من عنده ، فإنه لا حول ولا قوة إلا باللّه ، ولعلموا أنهم سينصرون عليهم ، إذ وعدهم اللّه بذلك ، وعدا خاصا .

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ اللّه تعالى ، مُشجِّعين لقومهم ، مُنهضين لهم على قتال عدوهم واحتلال بلادهم . ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالتوفيق ، وكلمة الحق في هذا الموطن المحتاج إلى مثل كلامهم ، وأنعم عليهم بالصبر واليقين .

﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ أي : ليس بينكم وبين نصركم عليهم إلا أن تجزموا عليهم ، وتدخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه عليهم فإنهم سينهزمون ، ثم أمَرَاهم بعدة هي أقوى العدد ، فقالا : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن في التوكل على اللّه -وخصوصا في هذا الموطن- تيسيرا للأمر ، ونصرا على الأعداء .

ودل هذا على وجوب التوكل ، وعلى أنه بحسب إيمان العبد يكون توكله ، فلم ينجع فيهم هذا الكلام ، ولا نفع فيهم الملام ، فقالوا قول الأذلِّين : ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ .

فما أشنع هذا الكلام منهم ، ومواجهتهم لنبيّهم في هذا المقام الحرج الضيق ، الذي قد دعت الحاجة والضرورة إلى نصرة نبيهم ، وإعزاز أنفسهم . وبهذا وأمثاله يظهر التفاوت بين سائر الأمم ، وأمّة محمد ﷺ حيث قال الصحابة لرسول اللّه ﷺ - حين شاورهم في القتال يوم « بدر » مع أنه لم يحتم عليهم : يا رسول اللّه ، لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، ولو بلغت بنا برك الغماد ما تخلف عنك أحد ، ولا نقول كما قال قوم موسى لموسى : ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك

فقاتلا إنا معكما مُقاتلون ، من بين يديك ومن خلفك ، وعن يمينك وعن يسارك .[٩١]

فلما رأى موسى عليه السلام عُتوّهم عليه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾ أي : فلا يدان لنا بقتالهم ، ولست بجبار على هؤلاء . ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي : احكم بيننا وبينهم ، بأن تنزل فيهم من العقوبة ما اقتضته حكمتك ، ودل ذلك على أن قولهم وفعلهم من الكبائر العظيمة الموجبة للفسق .

﴿قَالَ﴾ اللّٰه مجيبا لدعوة موسى : ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي : إن من عقوبتهم أن نُحرِّم عليهم دخول هذه القرية التي كتبها اللّٰه لهم ، مُدَّة أربعين سنة ، وتلك المُدَّة أيضًا يتيهون في الأرض ، لا يهتدون إلى طريق ولا يبقون مُطمئنّين ، وهذه عقوبة دنيوية ، لعل اللّٰه تعالى كَفَّر بها عنهم ، ودفع عنهم عقوبة أعظم منها .

وفي هذا دليل على أن العقوبة على الذنب قد تكون بزوال نعمة موجودة ، أو دفع نقمة قد انعقد سبب وجودها أو تأخرها إلى وقت آخر ، ولعل الحكمة في هذه المدة أن يموت أكثر هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة ، الصادرة عن قلوب لا صبر فيها ولا ثبات ، بل قد ألفت الاستعباد لعدّوها ، ولم تكن لها همم ترقيها إلى ما فيه ارتقاؤها وعلوها ، ولتظهر ناشئة جديدة تتربى عقولهم على طلب قهر الأعداء ، وعدم الاستعباد ، والذل المانع من السعادة .

ولما علم اللّٰه تعالى أن عبده موسى في غاية الرحمة على الخلق ، خُصوصا قومه ، وأنه ربما رق لهم ، واحتملته الشفقة على الحزن عليهم في هذه العُقوبة ، أو الدعاء لهم بزوالها ، مع أن اللّٰه قد حتمها ، قال : ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي : لا تأسف عليهم ولا تحزن ، فإنهم قد فسقوا ، وفسقهم اقتضى وقوع ما نزل بهم لا ظُلما منا .

[ ٢٧: ٣١ – ٥] : ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ﴾ إلى آخر القصة .

أي : قُص على الناس وأخبرهم بالقضية التي جرت على ابني آدم بالحق ، تلاوة يعتبر بها المعتبرون ، صدقا لا كذبا ، وجدا لا لعبا ، والظاهر أن ابني آدم هما ابناه لصلبه ، كما يدل عليه ظاهر الآية والسياق ، وهو قول جمهور المُفسّرين . أي : اتل عليهم نبأهما في حال تقريبهما للقربان ، الذي أداهما إلى الحال المذكورة .

﴿إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا﴾ أي : أخرج كل منهما شيئا من ماله لقصد التقرب إلى اللّٰه ، ﴿فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ﴾ بأن علم ذلك بخبر من السماء ، أو بالعادة السابقة في الأمم ، أن علامة تقبل اللّٰه لقربان ، أن تنزل نار من السماء فتحرقه .

---

(٩١) * مُتَّفقٌ عليه . أخرجه البُخاري : ( كتاب المغازي/ باب : قول اللّٰه تعالى : ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ [ سورة الأنفال ٩ ] ١٣/ ح ٣٩٥٢) . ( كتاب تفسير القُرآن/ باب : قوله : ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾ [ سُورة المائدة ٢٤] / ح ٤٦٠٩) . ومُسلم : ( كتاب الجهاد والسِّير/ باب : غزوة بدر/ ح ٨٣ ) .

﴿قَالَ﴾ الابن ، الذي لم يُتقبل منه للآخر حسدا وبغيا ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ فقال له الآخر - مُترفّقا له في ذلك - ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فأي ذنب لي وجناية توجب لك أن تقتلني ؟ ، إلا أني اتقيت اللّه تعالى ، الذي تقواه واجبة عليّ وعليك ، وعلى كل أحد ، وأصح الأقوال في تفسير المتقين هنا ، أي : المُتّقين للّه في ذلك العمل ، بأن يكون عملهم خالصا لوجه اللّه ، مُتّبعين فيه لسُنّة رسول اللّه ﷺ .

ثم قال له مخبرا أنه لا يريد أن يتعرض لقتله ، لا ابتداء ولا مدافعة فقال : ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ وليس ذلك جبنا مني ولا عجزا ، وإنما ذلك لأني ﴿أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ والخائف للّه لا يقدم على الذنوب ، خصوصا الذنوب الكبار ، وفي هذا تخويف لمن يريد القتل ، وأنه ينبغي لك أن تتقي اللّه وتخافه .

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ﴾ أي : ترجع ﴿بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أي : إنه إذا دار الأمر بين أن أكون قاتلا أو تقتلني فإني أوثر أن تقتلني ، فتبوء بالوزرين ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ .

دل هذا على أن القتل من كبائر الذنوب ، وأنه موجب لدخول النار ، فلم يرتدع ذلك الجاني ولم ينزجر ، ولم يزل يعزم نفسه ويجزمها ، حتى طوّعت له قتل أخيه الذي يقتضي الشرع والطبع احترامه ، ﴿فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دنياهم وآخرتهم ، وأصبح قد سنّ هذه السُنّة لكل قاتل : « ومن سن سنة سيئة ، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة »[٩٢] .

ولهذا ورد في الحديث الصحيح أنه « ما من نفس تقتل إلا كان على ابن آدم الأول شطر من دمها ، لأنه أوّل من سن القتل »[٩٣] . فلما قتل أخاه لم يدر كيف يصنع به ؛ لأنه أول ميت مات من بني آدم ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي : يُثيرها ليدفن غرابا آخر ميتا ، ﴿لِيُرِيَهُ﴾ بذلك ﴿كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ أي : بدنه ، لأن بدن الميت يكون عورة ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ وهكذا عاقبة المعاصي الندامة والخسارة .

[٣٢ - ٥] : ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ الذي ذكرناه في قصة ابني آدم ، وقتل أحدهما أخاه ، وسُنّه القتل

---

(٩٢) * أخرجه مُسلم في صحيحه : (كتاب الزكاة / باب : الحث على الصّدقة ولو بشق تمرة/ ح ٦٩ ) . (كتاب العلم / باب : من سنّ سنة حسنة أو سيئة/ ح ١٥ ) . من حديث جرير بن عبد اللّه رضي الله عنه .

وهو حديث طويل ، فيه : ( من سن في الإسلام سنة حسنة ، فعمل بها بعده ، كتب له مثل أجر من عمل بها ، ولا ينقص من أجورهم شئ ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة ، فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ، ولا ينقص من أوزارهم شيء) .

(٩٣) * مُتّفق عليه . من حديث ابن مسعود رضي الله عنه . أخرجه البُخاري : ( كتاب أحاديث الأنبياء/ باب : خلق آدم عليه السلام وذريته/ ح ٣٣٣٦) . ( كتاب الدِّيَات/ باب : قول اللّه تعالى : ( ومن أحياها) المائدة ٣٢/ ح ٦٨٦٧) . ( كتاب الاعتصام/ باب : أثم من دعا إلى ضلالة أو سنّ سُنّة سيئة/ ح ٧٣٢١) . ومُسلم : ( كتاب القسامة/ باب : بيان أثم من سنّ القتل/ ح ٢٧) .

لمن بعده، وأن القتل عاقبته وخيمة وخسارة في الدنيا والآخرة، ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أهل الكتب السماوية ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بغير حق ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾؛ لأنه ليس معه داع يدعوه إلى التبيين، وأنه لا يقدم على القتل إلا بحق، فلما تجرأ على قتل النفس التي لم تستحق القتل علم أنه لا فرق عنده بين هذا المقتول وبين غيره، وإنما ذلك بحسب ما تدعوه إليه نفسه الأمارة بالسوء.

فتجرؤه على قتله، كأنه قتل الناس جميعا. وكذلك من أحيا نفسا أي: استبقى أحدا، فلم يقتله مع دعاء نفسه له إلى قتله، فمنعه خوف الله تعالى من قتله، فهذا كأنه أحيا الناس جميعا، لأن ما معه من الخوف يمنعه من قتل من لا يستحق القتل.

ودلَّت الآية على أن القتل يجوز بأحد أمرين: إما أن يقتل نفسا بغير حق متعمدا في ذلك، فإنه يحل قتله، إن كان مكلفا مكافئا، ليس بوالد للمقتول. وإما أن يكون مفسدا في الأرض، بإفساده لأديان الناس أو أبدانهم أو أموالهم، كالكُفَّار المُرتدِّين والمُحاربين، والدعاة إلى البدع الذين لا ينكف شرهم إلا بالقتل، وكذلك قطاع الطريق ونحوهم، ممن يصول على الناس لقتلهم، أو أخذ أموالهم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ التي لا يبقى معها حُجَّة لأحد. ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ أي: من الناس ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ البيان القاطع للحجة، الموجب للاستقامة في الأرض ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾ في العمل بالمعاصي، ومخالفة الرسل الذين جاءوا بالبينات والحجج.

[٣٣: ٣٤ - ٥]: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

المُحاربون لله ولرسوله، هم الذين بارزوه بالعداوة، وأفسدوا في الأرض بالكفر والقتل، وأخذ الأموال، وإخافة السبل.

والمشهور أن هذه الآية الكريمة في أحكام قطاع الطريق، الذين يعرضون للناس في القرى والبوادي، فيغصبونهم أموالهم، ويقتلونهم، ويخيفونهم، فيمتنع الناس من سلوك الطريق التي هم بها، فتنقطع بذلك، فأخبر الله أن جزاءهم ونكالهم -عند إقامة الحد عليهم- أن يفعل بهم واحد من هذه الأمور.

واختلف المُفسِّرون: هل ذلك على التخيير، وأن كل قاطع طريق يفعل به الإمام أو نائبه ما رآه المصلحة من هذه الأمور المذكورة؟، وهذا ظاهر اللفظ، أو أن عقوبتهم تكون بحسب جرائمهم، فكل جريمة لها قسط يقابلها، كما تدل عليه الآية بحكمتها وموافقتها لحكمة الله تعالى.

وأنهم إن قتلوا وأخذوا مالاً تحتَّم قتلُهم وصلبهم، حتى يشتهروا ويختزوا ويرتدع غيرهم. وإن قتلوا ولم يأخذوا مالا تحتم قتلهم فقط. وإن أخذوا مالا ولم يقتلوا تحتم أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، اليد

اليمنى والرجل اليسرى .

وإن أخافوا الناس ولم يقتلوا ، ولا أخذوا مالا ، نفوا من الأرض ، فلا يتركون يأوون في بلد حتى تظهر توبتهم . وهذا قول ابن عباس رضي اللّه عنه وكثير من الأئمة ، على اختلاف في بعض التفاصيل .

﴿ذَٰلِكَ﴾ النكال ﴿لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أي : فضيحة وعار ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فدل هذا أن قطع الطريق من أعظم الذنوب ، موجب لفضيحة الدنيا وعذاب الآخرة ، وأن فاعله مُحارِب للّه ولرسوله .

وإذا كان هذا شأن عظم هذه الجريمة ، علم أن تطهير الأرض من المُفسدين ، وتأمين السبل والطرق ، عن القتل ، وأخذ الأموال ، وإخافة الناس ، من أعظم الحسنات وأجل الطاعات ، وأنه إصلاح في الأرض ، كما أن ضده إفساد في الأرض .

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي : من هؤلاء المحاربين ، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي : فيسقط عنه ما كان للّه ، من تحتُّم القتل والصلب والقطع والنفي ، ومن حق الآدمي أيضا ، إن كان المُحارب كافرا ثم أسلم ، فإن كان المُحارب مُسلما فإن حق الآدمي ، لا يسقط عنه من القتل وأخذ المال .

ودل مفهوم الآية على أن توبة المُحارب – بعد القدرة عليه – أنها لا تسقط عنه شيئا ، والحكمة في ذلك ظاهرة .وإذا كانت التوبة قبل القدرة عليه تمنع من إقامة الحد في الحرابة ، فغيرها من الحدود –إذا تاب من فعلها ، قبل القدرة عليه– من باب أولى .

[٣٥ – ٥] : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

هذا أمر من اللّه لعباده المُؤمنين ، بما يقتضيه الإيمان من تقوى اللّه والحذر من سخطه وغضبه ، وذلك بأن يجتهد العبد ، ويبذل غاية ما يمكنه من المقدور في اجتناب ما يَسخطه اللّه ، من معاصي القلب واللسان والجوارح ، الظاهرة والباطنة ، ويستعين بالله على تركها ، لينجو بذلك من سخط اللّه وعذابه .

﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي : القرب منه ، والحظوة لديه ، والحب له ، وذلك بأداء فرائضه القلبية ، كالحب له وفيه ، والخوف والرجاء ، والإنابة والتوكل ، والبدنية : كالزكاة والحج . والمركبة من ذلك كالصلاة ونحوها ، من أنواع القراءة والذكر ، ومن أنواع الإحسان إلى الخلق بالمال والعلم والجاه ، والبدن ، والنصح لعباد اللّه ، فكل هذه الأعمال تُقرِّب إلى اللّه . ولا يزال العبد يتقرَّب بها إلى اللّه حتى يُحبّه اللّه ، فإذا أحبّه كان سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يُبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ويستجيب اللّه له الدعاء[٩٤] .

ثم خصَّ تبارك وتعالى من العبادات المُقرِّبة إليه ، الجهاد في سبيله ، وهو : بذل الجهد في قتال الكافرين

(٩٤) * أخرجه البخاري في صحيحه : ( كتاب الرّقاق / باب : التّواضع/ ح ٦٥٠٢ ) . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

بالمال ، والنفس ، والرأي ، واللسان ، والسعي في نصر دين الله بكل ما يقدر عليه العبد ، لأن هذا النوع من أجل الطاعات وأفضل القربات . ولأن من قام به ، فهو على القيام بغيره أحرى وأولى ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إذا اتقيتم الله بترك المعاصي ، وابتغيتم الوسيلة إلى الله ، بفعل الطاعات ، وجاهدتم في سبيله ابتغاء مرضاته . والفلاح هو الفوز والظفر بكل مطلوب مرغوب ، والنجاة من كل مرهوب ، فحقيقته السعادة الأبدية والنعيم المقيم .

[ ٣٦: ٣٧ - ٥] : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ .

يُخبر تعالى عن شناعة حال الكافرين بالله يوم القيامة ومآلهم الفظيع ، وأنهم لو افتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهبا ومثله معه ما تقبل منهم ، ولا أفاد ، لأن محل الافتداء قد فات ، ولم يبق إلا العذاب الأليم ، الموجع الدائم الذي لا يخرجون منه أبدا ، بل هم ماكثون فيه سرمدا .

[ ٣٨: ٤٠ - ٥] : ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

السارق : هو من أخذ مال غيره المُحترم خفية ، بغير رضاه . وهو من كبائر الذنوب الموجبة لترتب العقوبة الشنيعة ، وهو قطع اليد اليمنى ، كما هو في قراءة بعض الصحابة . وحد اليد عند الإطلاق من الكوع ، فإذا سرق قطعت يده من الكوع ، وحسمت في زيت لتنسد العروق فيقف الدم ، ولكن السُّنَّة قيّدت عُموم هذه الآية من عدة أوجه :

**منها** : الحرز ، فإنه لابد أن تكون السرقة من حرز ، وحرز كل مال : ما يحفظ به عادة . فلو سرق من غير حرز فلا قطع عليه .

**ومنها** : أنه لابد أن يكون المسروق نصابا ، وهو ربع دينار ، أو ثلاثة دراهم ، أو ما يساوي أحدهما ، فلو سرق دون ذلك فلا قطع عليه . ولعل هذا يؤخذ من لفظ السرقة ومعناها ، فإن لفظ « السرقة » أخذ الشيء على وجه لا يمكن الاحتراز منه ، وذلك أن يكون المال محرزا ، فلو كان غير محرز لم يكن ذلك سرقة شرعية . ومن الحكمة أيضًا أن لا تقطع اليد في الشيء النزر التافه ، فلما كان لابد من التقدير ، كان التقدير الشرعي مخصصا للكتاب . والحكمة في قطع اليد في السرقة ، أن ذلك حفظ للأموال ، واحتياط لها ، وليقطع العضو الذي صدرت منه الجناية ، فإن عاد السارق قطعت رجله اليسرى ، فإن عاد ، فقيل : تقطع يده اليسرى ، ثم رجله اليمنى ، وقيل : يحبس حتى يموت . وقوله : ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾ أي : ذلك القطع جزاء للسارق بما سرقه من أموال الناس . ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي : تنكيلا وترهيبا للسارق ولغيره ، ليرتدع السُّرّاق -إذا علموا-

أنهم سيقطعون إذا سرقوا .

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي : عزَّ وحكم فقطع السارق . ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيغفر لمن تاب فترك الذنوب ، وأصلح الأعمال والعيوب .

وذلك أن لله ملك السماوات والأرض ، يتصرف فيهما بما شاء من التصاريف القدرية والشرعية ، والمغفرة والعقوبة ، بحسب ما اقتضته حكمته ورحمته الواسعة ومغفرته .

[ ٤١ : ٤٤ - ٥ ] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ .

كان الرسول ﷺ من شدة حرصه على الخلق يشتد حزنه لمن يظهر الإيمان ، ثم يرجع إلى الكفر ، فأرشده الله تعالى ، إلى أنه لا يأسى ولا يحزن على أمثال هؤلاء . فإن هؤلاء لا في العير ولا في النفير . إن حضروا لم ينفعوا ، وإن غابوا لم يفقدوا ، ولهذا قال مبينا للسبب الموجب لعدم الحزن عليهم - فقال : ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ فإن الذين يؤسى ويحزن عليهم ، من كان معدودا من المؤمنين ، وهم المؤمنون ظاهرا وباطنا ، وحاشا لله أن يرجع هؤلاء عن دينهم ويرتدوا ، فإن الإيمان -إذا خالطت بشاشته القلوب- لم يعدل به صاحبه غيره ، ولم يبغ به بدلا .

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي : اليهود ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي : مُستجيبون ومُقلِّدون لرؤسائهم ، المبني أمرهم على الكذب والضلال والغي . وهؤلاء الرؤساء المتبعون ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ بل أعرضوا عنك ، وفرحوا بما عندهم من الباطل وهو تحريف الكلم عن مواضعه ، أي : جلب معان للألفاظ ما أرادها الله ولا قصدها ، لإضلال الخلق ولدفع الحق ، فهؤلاء المنقادون للدعاة إلى الضلال ، المُتَّبعين للمحال ، الذين يأتون بكل كذب ، لا عقول لهم ولا همم . فلا تبال أيضًا إذا لم يتبعوك ، لأنهم في غاية النقص ، والناقص لا يؤبه له ولا يبالى به . ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ﴾ أي : هذا قولهم عند محاكمتهم إليك ، لا قصد لهم إلا اتباع الهوى .

يقول بعضهم لبعض : إن حكم لكم محمد بهذا الحُكم الذي يوافق أهواءكم ، فاقبلوا حكمه ، وإن لم يحكم لكم به ، فاحذروا أن تتابعوه على ذلك ، وهذا فتنة واتباع ما تهوى الأنفس .

﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [سورة القصص ٥٦] ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ أي : فلذلك صدر منهم ما صدر . فدل ذلك على أن من كان مقصوده بالتحاكم إلى الحكم الشرعي اتباع هواه ، وأنه إن حكم له رضي ، وإن لم يحكم له سخط ، فإن ذلك من عدم طهارة قلبه ، كما أن من حاكم وتحاكم إلى الشرع ورضي به ، وافق هواه أو خالفه ، فإنه من طهارة القلب ، ودل على أن طهارة القلب ، سبب لكل خير ، وهو أكبر داع إلى كل قول رشيد وعمل سديد .

﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ أي : فضيحة وعار ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هو : النار وسخط الجبار .

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ والسمع هاهنا سمع استجابة ، أي : من قلة دينهم وعقلهم ، أن استجابوا لمن دعاهم إلى القول الكذب ، ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ أي : المال الحرام ، بما يأخذونه على سفلتهم وعوامهم من المعلومات والرواتب ، التي بغير الحق ، فجمعوا بين اتّباع الكذب وأكل الحرام .

﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فأنت مُخيّر في ذلك .

وليست هذه منسوخة ، فإنه – عند تحاكم هذا الصنف إليه– يُخير بين أن يحكم بينهم ، أو يعرض عن الحكم بينهم ، بسبب أنه لا قصد لهم في الحكم الشرعي إلا أن يكون موافقا لأهوائهم ، وعلى هذا فكل مستفت ومتحاكم إلى عالم ، يعلم من حاله أنه إن حكم عليه لم يرض ، لم يجب الحكم ولا الإفتاء لهم ، فإن حكم بينهم وجب أن يحكم بالقسط ، ولهذا قال : ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ حتى ولو كانوا ظلمة وأعداء ، فلا يمنعك ذلك من العدل في الحكم بينهم .

وفي هذا بيان فضيلة العدل والقسط في الحُكم بين الناس ، وأن الله تعالى يحبه .

ثم قال مُتعجّبا لهم : ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم –لو كانوا مؤمنين عاملين بما يقتضيه الإيمان ويوجبه– لم يصدفوا عن حكم الله الذي في التوراة التي بين أيديهم ، لعلهم أن يجدوا عندك ما يوافق أهواءهم .وحين حكمت بينهم بحكم الله الموافق لما عندهم أيضا ، لم يرضوا بذلك بل أعرضوا عنه ، فلم يرتضوه أيضا . قال تعالى : ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين هذا صنيعهم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي : ليس هذا دأب المُؤمنين ، وليسوا حريين بالإيمان . لأنهم جعلوا آلهتهم أهواءهم ، وجعلوا أحكام الإيمان تابعة لأهوائهم .

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ على موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام . ﴿فِيهَا هُدًى﴾ يهدي إلى الإيمان والحق ، ويعصم من الضلالة ﴿وَنُورٌ﴾ يُستضاء به في ظلم الجهل والحيرة والشكوك ، والشبهات والشهوات ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ، ﴿يَحْكُمُ

بِهَا﴾ بين الذين هادوا، أي: اليهود في القضايا والفتاوى ﴿ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ لله وانقادوا لأوامره، الذين إسلامهم أعظم من إسلام غيرهم، وهم صفوة الله من العباد.

فإذا كان هؤلاء النبيون الكرام والسادة للأنام قد اقتدوا بها وائتموا ومشوا خلفها، فما الذي منع هؤلاء الأراذل من اليهود من الاقتداء بها؟، وما الذي أوجب لهم أن ينبذوا أشرف ما فيها من الإيمان بمحمد ﷺ، الذي لا يقبل عمل ظاهر وباطن، إلا بتلك العقيدة؟ هل لهم إمام في ذلك؟ نعم لهم أئمة دأبهم التحريف، وإقامة رياستهم ومناصبهم بين الناس، والتأكل بكتمان الحق، وإظهار الباطل، أولئك أئمة الضُّلال الذين يدعون إلى النار.

وقوله: ﴿وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ أي: وكذلك يحكم بالتوراة للذين هادوا أئمة الدين من الربّانيين، أي: العلماء العاملين المعلمين الذين يربون الناس بأحسن تربية، ويسلكون معهم مسلك الأنبياء المُشفقين، والأحبار أي: العلماء الكبار الذين يقتدى بأقوالهم، وترمق آثارهم، ولهم لسان الصدق بين أممهم.

وذلك الحكم الصادر منهم الموافق للحق ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ أي: بسبب أن الله استحفظهم على كتابه، وجعلهم أمناء عليه، وهو أمانة عندهم، أوجب عليهم حفظه من الزيادة والنقصان والكتمان، وتعليمه لمن لا يعلمه، وهم شهداء عليه، بحيث أنهم المرجوع إليهم فيه، وفيما اشتبه على الناس منه، فالله تعالى قد حمل أهل العلم، ما لم يحمله الجهال، فيجب عليهم القيام بأعباء ما حملوا. وأن لا يقتدوا بالجهال، بالإخلاد إلى البطالة والكسل، وأن لا يقتصروا على مُجرد العبادات القاصرة، من أنواع الذكر، والصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، ونحو ذلك من الأمور، التي إذا قام بها غير أهل العلم سلموا ونجوا.

وأما أهل العلم فكما أنهم مطالبون بالقيام بما عليهم أنفسهم، فإنهم مطالبون أن يعلموا الناس وينبهوهم على ما يحتاجون إليه من أمور دينهم، خصوصا الأمور الأصولية والتي يكثر وقوعها وأن لا يخشوا الناس بل يخشون ربهم، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فتكتمون الحق، وتظهرون الباطل، لأجل متاع الدنيا القليل، وهذه الآفات إذا سلم منها العالم فهو من توفيقه وسعادته، بأن يكون همه الاجتهاد في العلم والتعليم، ويعلم أن الله قد استحفظه ما أودعه من العلم واستشهده عليه، وأن يكون خائفا من ربه، ولا يمنعه خوف الناس وخشيتهم من القيام بما هو لازم له، وأن لا يؤثر الدنيا على الدين.

كما أن علامة شقاوة العالم أن يكون مخلدا للبطالة، غير قائم بما أمر به، ولا مبال بما استحفظ عليه، قد أهمله وأضاعه، قد باع الدين بالدنيا، قد ارتشى في أحكامه، وأخذ المال على فتاويه، ولم يعلم عباد الله إلا بأجرة وجعالة. فهذا قد مَنَّ الله عليه بمِنَّة عظيمة، كفرها ودفع حظا جسيما، محروما منه غيره، فنسألك اللهم علما نافعا، وعملا مُتقبّلا، وأن ترزقنا العفو والعافية من كل بلاء يا كريم.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من الحق المُبين، وحكم بالباطل الذي يعلمه، لغرض من أغراضه الفاسدة ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ فالحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر، وقد يكون كفرا ينقل عن

الملة ، وذلك إذا اعتقد حله وجوازه ، وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب ، ومن أعمال الكفر قد استحق من فعله العذاب الشديد .

[٤٥ – ٥] : ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ .

هذه الأحكام من جملة الأحكام التي في التوراة ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار . إن الله أوجب عليهم فيها أن النفس –إذا قتلت– تقتل بالنفس بشرط العمد والمكافأة ، والعين تقلع بالعين ، والأذن تؤخذ بالأذن ، والسن ينزع بالسن ، ومثل هذه ما أشبهها من الأطراف التي يمكن الاقتصاص منها بدون حيف .

﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ والاقتصاص : أن يفعل به كما فعل . فمن جرح غيره عمدا اقتص من الجارح جرحا مثل جرحه للمجروح ، حدا ، وموضعا ، وطولا ، وعرضا وعمقا ، وليعلم أن شرع من قبلنا شرع لنا ، ما لم يرد شرعنا بخلافه .

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ أي : بالقصاص في النفس ، وما دونها من الأطراف والجروح ، بأن عفا عمن جنى ، وثبت له الحق قبله . ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ أي : كفارة للجاني ، لأن الآدمي عفا عن حقه ، والله تعالى أحق وأولى بالعفو عن حقه ، وكفّارة أيضًا عن العافي ، فإنه كما عفا عمن جنى عليه ، أو على من يتعلّق به ، فإن الله يعفو عن زلاته وجناياته .

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قال ابن عباس : كُفر دون كُفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق ، فهو ظلم أكبر ، عند استحلاله ، وعظيمة كبيرة عند فعله غير مُستحِل له .

[٤٦ : ٤٧ – ٥] : ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ .

أي : وأتبعنا هؤلاء الأنبياء والمُرسلين ، الذين يحكمون بالتوراة ، بعبدنا ورسولنا عيسى ابن مريم ، روحِ الله وكلمتِه التي ألقاها إلى مريم ، بعثه الله مصدقا لما بين يديه من التوراة ، فهو شاهد لموسى ولما جاء به من التوراة بالحق والصدق ، ومؤيد لدعوته ، وحاكم بشريعته ، وموافق له في أكثر الأمور الشرعية ، وقد يكون عيسى عليه السلام أخف في بعض الأحكام ، كما قال تعالى عنه أنه قال لبني إسرائيل : ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة آل عمران ٥٠] .

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ الكتاب العظيم المُتمم للتوراة ، ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ يهدي إلى الصراط المُستقيم ، ويبين الحق من الباطل .

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ بتثبيتها والشهادة لها والموافقة .

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فإنهم الذين ينتفعون بالهدى، ويتعظون بالمواعظ، ويرتدعون عما لا يليق.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ أي: يلزمهم التقيد بكتابهم، ولا يجوز لهم العدول عنه، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

[٤٨: ٥٠ – ٥]: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الذي هو القُرآن العظيم، أفضل الكُتُب وأجلها، ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: إنزالا بالحق، ومشتملا على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ لأنه شهد لها ووافقها، وطابقت أخباره أخبارها، وشرائعه الكبار شرائعها، وأخبرت به، فصار وجوده مصداقا لخبرها.

﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أي: مُشتملا على ما اشتملت عليه الكُتُب السابقة، وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية، فهو الكتاب الذي تتبع كل حق جاءت به الكتب فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه، وهو الكتاب الذي فيه نبأ السابقين واللاحقين، وهو الكتاب الذي فيه الحكم والحكمة، والأحكام الذي عرضت عليه الكُتُب السابقة، فما شهد له بالصدق فهو المقبول، وما شهد له بالرد فهو مردود، قد دخله التحريف والتبديل، وإلا فلو كان من عند اللّه، لم يخالفه.

﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من الحكم الشرعي الذي أنزله اللّه عليك. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: لا تجعل اتباع أهوائهم الفاسدة المعارضة للحق بدلا عما جاءك من الحق فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ﴾ أيها الأمم جعلنا ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أي: سبيلا وسُنَّة، وهذه الشرائع التي تختلف باختلاف الأمم، هي التي تتغير بحسب تغير الأزمنة والأحوال، وكلها ترجع إلى العدل في وقت شرعتها، وأما الأصول الكبار التي هي مصلحة وحكمة في كل زمان، فإنها لا تختلف، فتشرع في جميع الشرائع.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ تبعا لشريعة واحدة، لا يختلف متأخرها ولا متقدمها. ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ فيختبركم وينظر كيف تعملون، ويبتلي كل أمة بحسب ما تقتضيه حكمته، ويؤتي كل أحد ما يليق به، وليحصل التنافس بين الأمم فكل أمة تحرص على سبق غيرها، ولهذا قال: ﴿فَاسْتَبِقُوا

﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي : بادروا إليها وأكملوها ، فإن الخيرات الشاملة لكل فرض ومُستحب ، من حقوق الله وحقوق عباده ، لا يصير فاعلها سابقا لغيره مستوليا على الأمر ، إلا بأمرين : المُبادرة إليها ، وانتهاز الفرصة حين يجيء وقتها ويعرض عارضها ، والاجتهاد في أدائها كاملة على الوجه المأمور به . ويستدل بهذه الآية ، على المبادرة لأداء الصلاة وغيرها في أول وقتها ، وعلى أنه ينبغي أن لا يقتصر العبد على مُجرَّد ما يجزئ في الصلاة وغيرها من العبادات من الأمور الواجبة ، بل ينبغي أن يأتي بالمُستحبات ، التي يقدر عليها لتتم وتكمل ، ويحصل بها السبق .

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ الأُمم السابقة واللاحقة ، كلهم سيجمعهم الله ليوم لا ريب فيه . ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من الشرائع والأعمال ، فيثيب أهل الحق والعمل الصالح ، ويعاقب أهل الباطل والعمل السيئ .

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ هذه الآية هي التي قيل : إنها ناسخة لقوله : ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ . والصحيح : أنها ليست بناسخة ، وأن تلك الآية تدل على أنه ﷺ مُخيَّر بين الحكم بينهم وبين عدمه ، وذلك لعدم قصدهم بالتحاكم للحق .

وهذه الآية تدل على أنه إذا حكم ، فإنه يحكم بينهم بما أنزل الله من الكتاب والسُّنَّة ، وهو القسط الذي تقدم أن الله قال : ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ ودل هذا على بيان القسط ، وأن مادته هو ما شرعه الله من الأحكام ، فإنها المُشتملة على غاية العدل والقسط ، وما خالف ذلك فهو جور وظلم .

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ كرَّر النَّهي عن اتباع أهوائهم لشدة التحذير منها ؛ ولأن ذلك في مقام الحكم والفتوى ، وهو أوسع ، وهذا في مقام الحكم وحده ، وكلاهما يلزم فيه أن لا يتبع أهواءهم المخالفة للحق ، ولهذا قال : ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي : إياك والاغترار بهم ، وأن يفتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، فصار اتباع أهوائهم سببا موصلا إلى ترك الحق الواجب ، والفرض اتباعه .

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن اتباعك واتباع الحق ﴿فَٱعْلَمْ﴾ أن ذلك عقوبة عليهم وأن الله يريد ﴿أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ فإن للذنوب عقوبات عاجلة وآجلة ، ومن أعظم العقوبات أن يبتلى العبد ويزين له ترك اتباع الرسول ، وذلك لفسقه .

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ أي : طبيعتهم الفسق والخروج عن طاعة الله واتِّباع رسوله .

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أي : أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية ، وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله ، فلا ثم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية .

فمن أعرض عن الأوَّل ابتلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغي ، ولهذا أضافه الله للجاهلية ، وأما حكم الله تعالى فمبني على العلم ، والعدل والقسط ، والنور والهدى .

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فالموقن هو الذي يعرف الفرق بين الحُكمين ويميز – بإيقانه– ما في حكم الله من الحسن والبهاء ، وأنه يتعيَّن – عقلًا وشرعًا – اتباعه .

واليقين ، هو العلم التام الموجب للعمل .

[ ٥١: ٥٣ - ٥]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ۝٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾

يُرشد تعالى عباده المؤمنين حين بيَّن لهم أحوال اليهود والنصارى وصفاتهم غير الحسنة، أن لا يتَّخذوهم أولياء. فإن ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ يتناصرون فيما بينهم ويكونون يدا على من سواهم، فأنتم لا تتخذوهم أولياء، فإنهم الأعداء على الحقيقة ولا يبالون بضركم، بل لا يدخرون من مجهودهم شيئا على إضلالكم، فلا يتولاهم إلا من هو مثلهم، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ لأن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم. والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرج شيئا فشيئا، حتى يكون العبد منهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الذين وصْفُهم الظلم، وإليه يَرجعون، وعليه يعوِّلون، فلو جئتهم بكل آية ما تبعوك، ولا انقادوا لك.

ولما نهى اللّه المؤمنين عن توليهم، أخبر أن ممَّن يدعي الإيمان طائفةً تواليهم، فقال: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك ونفاق، وضعف إيمان، يقولون: إن تولينا إياهم للحاجة، فإننا ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ أي: تكون الدائرة لليهود والنصارى، فإذا كانت الدائرة لهم، فإذا لنا معهم يد يكافؤننا عنها، وهذا سوء ظن منهم بالإسلام، قال تعالى - رادًّا لظنّهم السيئ -: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ﴾ الذي يعز اللّه به الإسلام على اليهود والنصارى، ويقهرهم المُسلمون ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ ييأس به المنافقون من ظفر الكافرين من اليهود وغيرهم ﴿فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ﴾ أي: أضمروا ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ على ما كان منهم وضرهم بلا نفع حصل لهم، فحصل الفتح الذي نصر اللّه به الإسلام والمُسلمين، وأذل به الكفر والكافرين، فندموا وحصل لهم من الغم ما اللّه به عليم.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مُتعجبين من حال هؤلاء الذين في قلوبهم مرض: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أي: حلفوا وأكَّدوا حلفهم، وغلظوه بأنواع التأكيدات: إنهم لمعكم في الإيمان، وما يلزمه من النصرة والمحبة والموالاة، ظهر ما أضمروه، وتبين ما أسروه، وصار كيدهم الذي كادوه، وظنهم الذي ظنوه بالإسلام وأهله -باطلا، فبطل كيدهم وبطلت ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ في الدنيا ﴿فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ حيث فاتهم مقصودهم، وحضرهم الشقاء والعذاب.

[٥٤ - ٥]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

يُخبر تعالى أنه الغني عن العالمين، وأنه من يرتد عن دينه فلن يضر اللّه شيئا، وإنما يضر نفسه، وأن للّه عبادًا مُخلصين، ورجالا صادقين، قد تكفل الرحمن الرحيم بهدايتهم، ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل

الخلق أوصافا ، وأقواهم نفوسا ، وأحسنهم أخلاقا ، أجلُّ صفاتهم أن الله ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ فإن محبّة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه ، وأفضل فضيلة ، تفضل الله بها عليه ، وإذا أحب الله عبدا يسّر له الأسباب ، وهون عليه كل عسير ، ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات ، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد . ومن لوازم محبة العبد لربه ، أنه لابد أن يتصف بمُتابعة الرسول ﷺ ظاهرا وباطنا ، في أقواله وأعماله وجميع أحواله ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [ سورة آل عمران ٣١ ] ، كما أن من لازم محبّة الله للعبد ، أن يكثر العبد من التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن الله : « وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أُحبه ، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه »[٩٥] .

ومن لوازم محبة الله معرفته تعالى ، والإكثار من ذكره ، فإن المحبة بدون معرفة بالله ناقصة جدا ، بل غير موجودة وإن وجدت دعواها ، ومن أحب الله أكثر من ذكره ، وإذا أحب الله عبدا قبل منه اليسير من العمل ، وغفر له الكثير من الزلل . ومن صفاتهم أنهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم ، ونصحهم لهم ، ولينهم ورفقهم ورأفتهم ، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم ، وقرب الشيء الذي يطلب منهم وعلى الكافرين بالله ، المعاندين لآياته ، المُكذِّبين لرسله – أعزة ، قد اجتمعت هممهم وعزائمهم على معاداتهم ، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم ، قال تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [ سورة الأنفال ٦٠ ] .

وقال تعالى : ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [ سورة الفتح ٢٩ ] ، فالغلظة والشدة على أعداء الله ممّا يُقرب العبد إلى الله ، ويوافق العبد ربه في سخطه عليهم ، ولا تمنع الغلظة عليهم والشِّدَّة دعوتهم إلى الدين الإسلامي بالتي هي أحسن ، فتجتمع الغلظة عليهم ، واللين في دعوتهم ، وكلا الأمرين من مصلحتهم ونفعه عائد إليهم .

﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بأموالهم وأنفسهم ، بأقوالهم وأفعالهم . ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ بل يقدمون رضا ربهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين ، وهذا يدل على قوة هممهم وعزائمهم ، فإن ضعيف القلب ضعيف الهمة ، تنتقض عزيمته عند لوم اللائمين ، وتفتر قوته عند عذل العاذلين ، وفي قلوبهم تَعَبُّد لغير الله بحسب ما فيها من مراعاة الخلق وتقديم رضاهم ولومهم على أمر الله ، فلا يسلم القلب من التَّعَبُّد لغير الله ، حتى لا يخاف في الله لومة لائم .

ولما مدحهم تعالى بما مَنَّ به عليهم من الصفات الجليلة والمناقب العالية ، المُستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير –أخبر أن هذا من فضله عليهم وإحسانه لئلا يعجبوا بأنفسهم ، وليشكروا الذي مَنَّ عليهم بذلك ليزيدهم من فضله ، وليعلم غيرُهم أن فضل الله تعالى ليس عليه حجاب ، فقال : ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن

---

(٩٥) * أخرجه البُخاري في صحيحه : ( كتاب الرِّقاق / باب : التواضع/ ح ٦٥٠٢ ) . من حديث أبي هريرة ﷺ .

﴿يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي : واسع الفضل والإحسان ، جزيل المنن ، قد عمت رحمته كل شيء ، ويوسع على أوليائه من فضله ، ما لا يكون لغيرهم ، ولكنه عليم بمن يستحق الفضل فيعطيه ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته أصلا وفرعا .

[ ٥٥ : ٥٦ - ٥ ] : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ .

لما نهى عن ولاية الكُفَّار من اليهود والنصارى وغيرهم ، وذكر مآل توليهم أنه الخُسران المُبين ، أخبر تعالى مَن يجب ويتعين توليه ، وذكر فائدة ذلك ومصلحته فقال : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فولاية الله تدرك بالإيمان والتقوى . فكل من كان مؤمنًا تقيًّا كان لله وليًّا ، ومن كان وليًّا لله فهو ولي لرسوله ، ومن تولى الله ورسوله كان تمام ذلك تولي من تولاه ، وهم المؤمنون الذين قاموا بالإيمان ظاهرا وباطنا ، وأخلصوا للمعبود ، بإقامتهم الصلاة بشروطها وفروضها ومُكملاتها ، وأحسنوا للخلق ، وبذلوا الزكاة من أموالهم لمُستحقيها منهم .

وقوله : ﴿وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ أي : خاضعون لله ذليلون ، فأداة الحصر في قوله ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تدل على أنه يجب قصر الولاية على المذكورين ، والتبري من ولاية غيرهم .

ثم ذكر فائدة هذه الولاية فقال : ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ أي : فإنه من الحزب المُضافين إلى الله إضافة عبودية وولاية ، وحزبه هم الغالبون الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [ سُورة الصَّافات ١٧٣ ] ، وهذه بشارة عظيمة ، لمن قام بأمر الله وصار من حزبه وجنده ، أن له الغلبة ، وإن أديل عليه في بعض الأحيان لحكمة يريدها الله تعالى ، فآخر أمره الغلبة والانتصار ، ومن أصدق من الله قيلا .

[ ٥٧ : ٥٨ - ٥ ] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾

ينهى عباده المؤمنين عن اتِّخاذ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن سائر الكُفَّار أولياء يحبونهم ويتولونهم ، ويبدون لهم أسرار المُؤمنين ، ويعاونونهم على بعض أمورهم التي تضر الإسلام والمسلمين ، وأن ما معهم من الإيمان يوجب عليهم ترك موالاتهم ، ويحثهم على معاداتهم ، وكذلك التزامهم لتقوى الله التي هي امتثال أوامره واجتناب زواجره مما تدعوهم إلى مُعاداتهم ، وكذلك ما كان عليه المُشركون والكُفَّار المُخالفون للمُسلمين ، من قدحهم في دين المُسلمين ، واتخاذهم إياه هزوا ولعبا ، واحتقاره واستصغاره ، خصوصا الصلاة التي هي أظهر شعائر المُسلمين ، وأجلُّ عباداتهم ، إنهم إذا نادوا إليها اتخذوها هزوا ولعبا ، وذلك لعدم عقلهم ولجهلهم العظيم ، وإلا فلو كان لهم عقول لخضعوا لها ، ولعلموا أنها أكبر من جميع الفضائل التي تتصف بها النفوس .

فإذا علمتم – أيها المؤمنون – حال الكُفّار وشدة معاداتهم لكم ولدينكم ، فمن لم يعادهم بعد هذا دل على أن الإسلام عنده رخيص ، وأنه لا يبالي بمن قدح فيه أو قدح بالكفر والضلال، وأنه ليس عنده من المروءة والإنسانية شيء .

فكيف تدعي لنفسك دينا قيما ، وأنه الدين الحق وما سواه باطل ، وترضى بموالاة من اتخذه هزوا ولعبا ، وسخر به وبأهله ، من أهل الجهل والحمق؟! ، وهذا فيه من التهييج على عداوتهم ما هو معلوم لكل من له أدنى مفهوم .

[ ٥٩ : ٦٣ – ٥ ] : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ .

أي : ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مُلزما لهم ، إن دين الإسلام هو الدين الحق ، وإن قدحهم فيه قدح بأمر ينبغي المدح عليه : ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي : هل لنا عندكم من العيب إلا إيماننا بالله ، وبكتبه السابقة واللاحقة ، وبأنبيائه المُتقدِّمين والمُتأخِّرين ، وبأننا نجزم أن من لم يُؤمن كهذا الإيمان فإنه كافر فاسق؟ ، فهل تنقمون منا بهذا الذي هو أوجب الواجبات على جميع المُكلَّفين؟ ، ومع هذا فأكثركم فاسقون ، أي : خارجون عن طاعة الله ، متجرئون على معاصيه ، فأولى لكم –أيها الفاسقون– السكوت ، فلو كان عيبكم وأنتم سالمون من الفسق ، وهيهات ذلك – لكان الشر أخف من قدحكم فينا مع فسقكم .

ولما كان قدحهم في المُؤمنين يقتضي أنهم يعتقدون أنهم على شر ، قال تعالى : ﴿قُلْ﴾ لهم مخبرا عن شناعة ما كانوا عليه : ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ الذي نقمتم فيه علينا ، مع التنزل معكم . ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي : أبعده عن رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ وعاقبه في الدنيا والآخرة ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ وهو الشيطان ، وكل ما عبد من دون الله فهو طاغوت .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكورون بهذه الخصال القبيحة ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ من المؤمنين الذين رحمة الله قريب منهم ، ورضي الله عنهم وأثابهم في الدنيا والآخرة ، لأنهم أخلصوا له الدين . وهذا النوع من باب استعمال أفعل التفضيل في غير بابه وكذلك قوله : ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي : وأبعد عن قصد السبيل .

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ نفاقا ومكرا ﴿وَ﴾ هم ﴿وَقَد دَّخَلُوا۟﴾ مشتملين على الكفر ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ﴾ فمدخلهم ومخرجهم بالكُفر –وهم يزعمون أنهم مُؤمنون ، فهل أشر من هؤلاء وأقبح حالا منهم؟ . ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ﴾ فيُجازيهم بأعمالهم خيرها وشرها .

ثم استمر تعالى يعدد معايبهم ، انتصارا لقدحهم في عباده المؤمنين ، فقال : ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي : من اليهود ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أي : يحرصون ، ويُبادرون المعاصي المُتعلِّقة في حق الخالق والعدوان على المخلوقين .

﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ الذي هو الحرام . فلم يكتف بمجرد الإخبار أنهم يفعلون ذلك ، حتى أخبر أنهم يسارعون فيه ، وهذا يدل على خبثهم وشرهم ، وأن أنفسهم مجبولة على حُبِّ المعاصي والظلم ، هذا وهم يدعون لأنفسهم المقامات العالية ، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهذا في غاية الذم لهم والقدح فيهم .

﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ أي : هلَّا ينهاهم العُلماء المُتصدُّون لنفع الناس ، الذين من اللّه عليهم بالعلم والحكمة -عن المعاصي التي تصدر منهم ، ليزول ما عندهم من الجهل ، وتقوم حُجَّة اللّه عليهم ، فإن العُلماء عليهم أمر الناس ونهيهم ، وأن يُبيِّنوا لهم الطريق الشرعي ، ويُرغِّبونهم في الخير ويُرهِّبونهم من الشر ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ .

[ ٦٤ : ٦٦ - ٥] : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ .

يُخبر تعالى عن مقالة اليهود الشنيعة ، وعقيدتهم الفظيعة ، فقال : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي : عن الخير والإحسان والبر . ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ وهذا دعاء عليهم بجنس مقالتهم ؛ فإن كلامهم مُتضمِّن لوصف اللّه الكريم ، بالبخل وعدم الإحسان .

فجازاهم بأن كان هذا الوصف مُنطبقا عليهم . فكانوا أبخل الناس وأقلهم إحسانا ، وأسوأهم ظنا باللّه ، وأبعدهم اللّه عن رحمته التي وسعت كل شيء ، وملأت أقطار العالم العلوي والسُّفلي .

ولهذا قال : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ لا حجر عليه ، ولا مانع يمنعه مما أراد ، فإنه تعالى قد بسط فضله وإحسانه الديني والدنيوي ، وأمر العباد أن يتعرضوا لنفحات جوده ، وأن لا يسدوا على أنفسهم أبواب إحسانه بمعاصيهم . فيداه سحاء الليل والنهار ، وخيره في جميع الأوقات مدرارا ، يفرج كربًا ، ويزيل غمًّا ، ويغني فقيرا ، ويفك أسيرا ويجبر كسيرا ، ويُجيب سائلا ، ويُعطي فقيرا عائلا ، ويُجيب المُضْطرين ، ويستجيب للسائلين ، وينعم على من لم يسأله ، ويُعافي من طلب العافية ، ولا يحرم من خيره عاصيا ، بل خيره يرتع فيه البر والفاجر ، ويجود على أوليائه بالتوفيق لصالح الأعمال ثم يحمدهم عليها ، ويضيفها إليهم ، وهي من جوده ويثيبهم عليها من الثواب العاجل والآجل ما لا يدركه الوصف ، ولا يخطر على بال العبد ، ويلطف بهم في جميع أمورهم ، ويوصل إليهم من الإحسان ، ويدفع عنهم من النقم ما لا يشعرون بكثير منه ،

فسبحان من كل النعم التي بالعباد فمنه ، وإليه يجأرون في دفع المكاره ، وتبارك من لا يحصي أحد ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وتعالى من لا يخلو العباد من كرمه طرفة عين ، بل لا وجود لهم ولا بقاء إلا بجوده .

وقبّح اللّه من استغنى بجهله عن ربه ، ونسبه إلى ما لا يليق بجلاله ، بل لو عامل اللّه اليهود القائلين تلك المقالة ، ونحوهم ممن حاله كحالهم ببعض قولهم ، لهلكوا ، وشقوا في دنياهم ، ولكنهم يقولون تلك الأقوال ، وهو تعالى ، يحلم عنهم ، ويصفح ، ويمهلهم ولا يهملهم .

وقوله : ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ وهذا أعظم العقوبات على العبد ، أن يكون الذكر الذي أنزله اللّه على رسوله ، الذي فيه حياة القلب والروح ، وسعادة الدنيا والآخرة ، وفلاح الدارين ، الذي هو أكبر مِنّة امتن اللّه بها على عباده ، توجب عليهم المبادرة إلى قبولها ، والاستسلام للّه بها ، وشكرا للّه عليها ، أن تكون لمثل هذا زيادة غي إلى غيه ، وطغيان إلى طغيانه ، وكفر إلى كفره ، وذلك بسبب إعراضه عنها ، ورده لها ، ومعاندته إياها ، ومعارضته لها بالشبه الباطلة .

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فلا يتآلفون ، ولا يتناصرون ، ولا يتفقون على حالة فيها مصلحتهم ، بل لم يزالوا متباغضين في قلوبهم ، متعادين بأفعالهم ، إلى يوم القيامة ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ﴾ ليكيدوا بها الإسلام وأهله ، وأبدوا وأعادوا ، وأجلبوا بخيلهم ورجلهم ﴿أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ بخذلانهم وتفرق جنودهم ، وانتصار المسلمين عليهم . ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي : يجتهدون ويجدون ، ولكن بالفساد في الأرض ، بعمل المعاصي ، والدعوة إلى دينهم الباطل ، والتعويق عن الدخول في الإسلام .

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ بل يبغضهم أشد البغض ، وسيُجازيهم على ذلك .

ثم قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وهذا من كرمه وجوده ، حيث ذكر قبائح أهل الكتاب ومعايبهم وأقوالهم الباطلة ، دعاهم إلى التوبة ، وأنهم لو آمنوا بالله وملائكته ، وجميع كتبه ، وجميع رسله ، واتقوا المعاصي ، لكفر عنهم سيئاتهم ولو كانت ما كانت ، ولأُدخلهم جنات النعيم التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي : قاموا بأوامرهما ونواهيهما ، كما ندبهم اللّه وحثهم . ومن إقامتهما الإيمان بما دعيا إليه ، من الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن ، فلو قاموا بهذه النعمة العظيمة التي أنزلها ربهم إليهم ، أي : لأجلهم وللاعتناء بهم ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ أي : لأدر اللّه عليهم الرزق ، ولأمطر عليهم السماء ، وأنبت لهم الأرض كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [ سورة الأعراف ٩٦ ] . ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي : من أهل الكتاب ﴿أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ أي : عاملة بالتوراة والإنجيل ، عملا غير قوي ولا نشيط ، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ . أي : والمُسيء منهم الكثير . وأما السابقون منهم فقليل ما هم .

[٦٧ – ٥] : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

هذا أمر من اللّٰه لرسوله محمد ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها ، وهو التبليغ لما أنزل اللّٰه إليه ، ويدخل في هذا كل أمر تلقّته الأمّة عنه ﷺ من العقائد والأعمال والأقوال ، والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية .

فبلّغ ﷺ أكمل تبليغ ، ودعا وأنذر ، وبشّر ويسّر ، وعلّم الجُهّال الأُميّين حتى صاروا من العُلماء الربّانيين ، وبلغ بقوله وفعله وكتبه ورسله ، فلم يبق خير إلا دل أمته عليه ، ولا شر إلا حذرها عنه ، وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة من الصحابة ، فمن بعدهم من أئمة الدين ورجال المُسلمين .

﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ أي : لم تبلغ ما أنزل إليك من ربك ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي : فما امتثلت أمره .

﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ هذه حماية وعصمة من اللّٰه لرسوله من الناس ، وأنه ينبغي أن يكون حرصك على التعليم والتبليغ ، ولا يثنيك عنه خوف من المخلوقين فإن نواصيهم بيد اللّٰه وقد تكفّل بعصمتك ، فأنت إنما عليك البلاغ المُبين ، فمن اهتدى فلنفسه ، وأما الكافرون الذين لا قصد لهم إلا اتباع أهوائهم فإن اللّٰه لا يهديهم ولا يوفقهم للخير ، بسبب كفرهم .

[٦٨ — ٥] : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ .

أي : قُل لأهل الكتاب ، مُناديا على ضلالهم ، ومُعلنا بباطلهم : ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من الأمور الدينية ، فإنكم لا بالقُرآن ومحمد آمنتم ، ولا بنبيّكم وكتابكم صدّقتم ، ولا بحق تمسّكتم ، ولا على أصل اعتمدتم ، ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ أي : تجعلوهما قائمين بالإيمان بهما واتباعهما ، والتمسك بكل ما يدعوان إليه . «وَ» تقيموا ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي ربّاكم ، وأنعم عليكم ، وجعل أجلَّ إنعامه إنزالَ الكتب إليكم ، فالواجب عليكم ، أن تقوموا بشكر اللّٰه ، وتلتزموا أحكام اللّٰه ، وتقوموا بما حملتم من أمانة اللّٰه وعهده .

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

[٦٩ — ٥] : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

يُخبر تعالى عن أهل الكتب من أهل القُرآن والتوراة والإنجيل ، أن سعادتهم ونجاتهم في طريق واحد ، وأصل واحد ، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح فمن آمن منهم بالله واليوم الآخر ، فله النجاة ، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه من الأمور المُخوّفة ، ولا هُم يحزنون على ما خلفوا منها ، وهذا الحكم المذكور يشمل سائر الأزمنة .

[ ٧٠ : ٧١ — ٥] : ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

يقول تعالى : ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي : عهدهم الثقيل بالإيمان باللّٰه ، والقيام

بواجباته التي تقدَّم الكلام عليها في قوله : ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [ سورة المائدة ١٢ ] . إلى آخر الآيات .

﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ يتوالون عليهم بالدعوة ، ويتعاهدونهم بالإرشاد ، ولكن ذلك لم ينجع فيهم ، ولم يفد ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ من الحق كذبوه وعاندوه ، وعاملوه أقبح المُعاملة ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ .

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي : ظنُّوا أن معصيتهم وتكذيبهم لا يجر عليهم عذابا ولا عقوبة ، فاستمروا على باطلهم ، ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ عن الحق ﴿ثُمَّ﴾ نعشهم و ﴿تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ﴾ حين تابوا إليه وأنابوا ﴿ثُمَّ﴾ لم يستمروا على ذلك حتى انقلب أكثرهم إلى الحال القبيحة ، ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ بهذا الوصف ، والقليل استمروا على توبتهم وإيمانهم .

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيجازي كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

[ ٧٢ : ٧٥ – ٥ ] : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾

يُخبر تعالى عن كفر النصارى بقولهم : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ بشبهة أنه خرج من أم بلا أب ، وخالف المعهود من الخلقة الإلهية ، والحال أنه عليه الصلاة والسلام قد كذبهم في هذه الدعوى ، وقال لهم : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ فأثبت لنفسه العبودية التامة ، ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق . ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أحدا من المخلوقين ، لا عيسى ولا غيره .

﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ وذلك لأنه سوى الخلق بالخالق ، وصرف ما خلقه اللّه له – وهو العبادة الخالصة – لغير من هي له ، فاستحق أن يُخلَّد في النار .

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ينقذونهم من عذاب اللّه ، أو يدفعون عنهم بعض ما نزل بهم .

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ وهذا من أقوال النصارى المنصورة عندهم ، زعموا أن اللّه ثالث ثلاثة : اللّه ، وعيسى ، ومريم ، تعالى اللّه عن قولهم علوًا كبيرًا .

وهذا أكبر دليل على قلَّة عُقول النصارى ، كيف قبلوا هذه المقالة الشنعاء ، والعقيدة القبيحة؟! كيف اشتبه عليهم الخالق بالمخلوقين ؟! ، كيف خفي عليهم رب العالمين؟! قال تعالى – رادًا عليهم وعلى أشباههم – : ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ مُتَّصف بكل صفة كمال ، مُنزه عن كل نقص ، منفرد بالخلق

والتدبير ، ما بالخلق من نعمة إلا منه . فكيف يجعل معه إله غيره؟ ، تعالى اللّٰه عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا .

ثم توعدهم بقوله : ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

ثم دعاهم إلى التوبة عما صدر منهم ، وبين أنه يقبل التوبة عن عباده فقال : ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ﴾ أي : يرجعون إلى ما يحبه ويرضاه من الإقرار للّٰه بالتوحيد ، وبأن عيسى عبد اللّٰه ورسوله ، عما كانوا يقولونه ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ عن ما صدر منهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي : يغفر ذنوب التائبين ، ولو بلغت عنان السماء ، ويرحمهم بقبول توبتهم ، وتبديل سيئاتهم حسنات .

وصدَّر دعوتهم إلى التوبة بالعرض الذي هو غاية اللطف واللين في قوله : ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ﴾ . ثم ذكر حقيقة المسيح وأُمه ، الذي هو الحق ، فقال : ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي : هذا غايته ومنتهى أمره ، أنه من عباد اللّٰه المرسلين ، الذين ليس لهم من الأمر ولا من التشريع ، إلا ما أرسلهم به اللّٰه ، وهو من جنس الرسل قبله ، لا مزية له عليهم تخرجه عن البشرية إلى مرتبة الربوبية .

﴿وَأُمُّهُ﴾ مريم ﴿صِدِّيقَةٌ﴾ أي : هذا أيضًا غايتها ، أن كانت من الصديقين الذين هم أعلى الخلق رتبة بعد الأنبياء .

والصديقية ؛ هي العلم النافع المثمر لليقين ، والعمل الصالح .

وهذا دليل على أن مريم لم تكن نبية ، بل أعلى أحوالها الصديقية ، وكفى بذلك فضلا وشرفا . وكذلك سائر النساء لم يكن منهن نبية ، لأن اللّٰه تعالى جعل النبوة في أكمل الصنفين ، في الرجال كما قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم﴾ فإذا كان عيسى عليه السلام من جنس الأنبياء والرسل من قبله ، وأمه صديقة ، فلأي شيء اتخذهما النصارى إلهين مع اللّٰه؟ .

وقوله : ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ دليل ظاهر على أنهما عبدان فقيران ، محتاجان كما يحتاج بنو آدم إلى الطعام والشراب ، فلو كانا إلهين لاستغنيا عن الطعام والشراب ، ولم يحتاجا إلى شيء ، فإن الإله هو الغني الحميد .

ولما بيَّن تعالى البُرهان قال : ﴿انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ الموضِّحة للحق ، الكاشفة لليقين ، ومع هذا لا تفيد فيهم شيئا ، بل لا يزالون على إفكهم وكذبهم وافترائهم ، وذلك ظلم وعناد منهم .

[٧٦ – ٥] : ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

أي : ﴿قُلْ﴾ لهم أيُّها الرسول : ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من المخلوقين الفقراء المُحتاجين ، ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ وتدعون من انفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع ، ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات .

﴿الْعَلِيمُ﴾ بالظواهر والبواطن ، والغيب والشهادة ، والأمور الماضية والمُستقبلة ، فالكامل تعالى الذي

هذه أوصافه هو الذي يستحق أن يُفرد بجميع أنواع العبادة، ويُخلص له الدين.

[ ٥ - ٧٧ : ٨١ ] : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾

يقول تعالى لنبيّه ﷺ : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أي : لا تتجاوزوا وتتعدوا الحق إلى الباطل، وذلك كقولهم في المسيح، ما تقدّم حكايته عنهم. وكغلوهم في بعض المشايخ، اتباعا لـ ﴿أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي : تقدم ضلالهم. ﴿وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ من الناس بدعوتهم إيّاهم إلى الدين، الذي هم عليه.

﴿وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي : قصد الطريق، فجمعوا بين الضلال والإضلال، وهؤلاء هم أئمة الضلال الذين حذر الله عنهم وعن اتباع أهوائهم المُردية، وآرائهم المُضلّة.

ثم قال تعالى : ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي : طُردوا وأُبعدوا عن رحمة الله ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي : بشهادتهما وإقرارهما، بأن الحُجّة قد قامت عليهم، وعاندوها. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الكفر واللعن ﴿بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ أي : بعصيانهم لله، وظُلمهم لعباد الله، صار سببا لكفرهم وبعدهم عن رحمة الله، فإن للذنوب والظلم عقوبات.

ومن معاصيهم التي أحلت بهم المَثُلات، وأوقعت بهم العقوبات أنهم : ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي : كانوا يفعلون المنكر، ولا ينهى بعضهم بعضا، فيشترك بذلك المباشر، وغيره الذي سكت عن النهي عن المنكر مع قدرته على ذلك. وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله، وأن معصيته خفيفة عليهم، فلو كان لديهم تعظيم لربّهم لغاروا لمحارمه، ولغضبوا لغضبه، وإنما كان السكوت عن المنكر - مع القدرة - موجبا للعقوبة، لما فيه من المفاسد العظيمة :

منها : أن مُجرّد السكوت، فعل معصية، وإن لم يباشرها الساكت، فإنه -كما يجب اجتناب المعصية- فإنه يجب الإنكار على من فعل المعصية.

ومنها : ما تقدّم أنه يدل على التهاون بالمعاصي، وقلة الاكتراث بها.

ومنها : أن ذلك يُجرّئ العُصاة والفسقة على الإكثار من المعاصي إذا لم يردعوا عنها، فيزداد الشر، وتعظم المصيبة الدينية والدنيوية، ويكون لهم الشوكة والظهور، ثم بعد ذلك يضعف أهل الخير عن مقاومة أهل الشر، حتى لا يقدرون على ما كانوا يقدرون عليه أوّلًا.

ومنها : أن - في ترك الإنكار للمنكر- يندرس العلم ، ويكثر الجهل ، فإن المعصية- مع تكررها وصدورها من كثير من الأشخاص ، وعدم إنكار أهل الدين والعلم لها - يظن أنها ليست بمعصية ، وربما ظن الجاهل أنها عبادة مُستحسنة ، وأي مفسدة أعظم من اعتقاد ما حرَّم اللّٰه حلالا؟ وانقلاب الحقائق على النفوس ورؤية الباطل حقا؟ .

ومنها : أن السكوت على معصية العاصين ، ربما تزيَّنت المعصية في صدور الناس ، واقتدى بعضهم ببعض ، فالإنسان مولع بالاقتداء بأضرابه وبني جنسه ، ومنها ومنها .

فلما كان السكوت عن الإنكار بهذه المثابة ، نصَّ اللّٰه تعالى أن بني إسرائيل الكُفَّار منهم لعنهم بمعاصيهم واعتدائهم ، وخصَّ من ذلك هذا المنكر العظيم .

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ، ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالمحبّة والموالاة والنصرة .

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ هذه البضاعة الكاسدة ، والصفقة الخاسرة ، وهي سخط اللّٰه الذي يسخط لسخطه كل شيء ، والخلود الدائم في العذاب العظيم ، فقد ظلمتهم أنفسهم حيث قدمت لهم هذا النزل غير الكريم ، وقد ظلموا أنفسهم إذ فوتوها النعيم المُقيم . ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ فإن الإيمان بالله وبالنبي وما أنزل إليه ، يوجب على العبد موالاة ربه ، وموالاة أوليائه ، ومُعاداة من كفر به وعاداه ، وأوضع في معاصيه ، فشرط ولاية اللّٰه والإيمان به ، أن لا يتخذ أعداء اللّٰه أولياء ، وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط ، فدل على انتفاء المشروط .

﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي : خارجون عن طاعة اللّٰه والإيمان به وبالنبي . ومن فسقهم موالاةُ أعداء اللّٰه .

[ ٨٢ : ٨٦ - ٥ ] : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾

يقول تعالى في بيان أقرب الطائفتين إلى المُسلمين ، وإلى ولايتهم ومحبّتهم ، وأبعدهم من ذلك : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ فهؤلاء الطائفتان على الإطلاق أعظم الناس معاداة للإسلام والمسلمين ، وأكثرهم سعيا في إيصال الضرر إليهم ، وذلك لشدة بغضهم لهم ، بغيا وحسدا وعنادا وكفرا .

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ وذكر تعالى لذلك عدة أسباب :

منها : أن ﴿مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ أي : علماء مُتزهّدين ، وعُبّادًا في الصوامع مُتعبدين ، والعلم مع الزهد وكذلك العبادة مما يُلطّف القلب ويُرقّقه ، ويُزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة ، فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود ، وشدّة المُشركين .

ومنها : ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي : ليس فيهم تكبر ولا عتو عن الانقياد للحق ، وذلك موجب لقربهم من المسلمين ومن محبّتهم ، فإن المتواضع أقرب إلى الخير من المُستكبر .

ومنها : أنهم ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ ، أثر ذلك في قلوبهم وخشعوا له ، وفاضت أعينهم بسبب ما سمعوا من الحق الذي تيقّنوه ، فلذلك آمنوا وأقروا به فقالوا : ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وهم أُمّة محمد ﷺ ، يشهدون لله بالتوحيد ، ولرسله بالرسالة وصحة ما جاءوا به ، ويشهدون على الأمم السابقة بالتصديق والتكذيب .

وهم عدول ، شهادتهم مقبولة ، كما قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [ سُورة البقرة ١٤٣ ] .

فكأنهم ليموا على إيمانهم ومسارعتهم فيه ، فقالوا : ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي : وما الذي يمنعنا من الإيمان بالله ، والحال أنه قد جاءنا الحق من ربنا ، الذي لا يقبل الشك والريب ، ونحن إذا آمنا واتبعنا الحق طمعنا أن يدخلنا الله الجنة مع القوم الصالحين ، فأي مانع يمنعنا ؟ ، أليس ذلك موجبا للمُسارعة والانقياد للإيمان وعدم التخلّف عنه .

قال الله تعالى : ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟﴾ أي : بما تفوهوا به من الإيمان ونطقوا به من التصديق بالحق ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهذه الآيات نزلت في النصارى الذين آمنوا بمحمد ﷺ ، كالنجاشي وغيره ممن آمن منهم .

وكذلك لا يزال يوجد فيهم من يختار دين الإسلام ، ويتبيّن له بطلان ما كانوا عليه ، وهم أقرب من اليهود والمشركين إلى دين الإسلام .

ولما ذكر ثواب المُحسنين ، ذكر عقاب المُسيئين قال : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ لأنهم كفروا بالله ، وكذبوا بآياته المبينة للحق .

[ ٥ : ٨٧ - ٨٨ ] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ .

يقول تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ من المطاعم والمشارب ، فإنها نعم أنعم الله بها عليكم ، فاحمدوه إذ أحلها لكم ، واشكروه ولا تردوا نعمته بكفرها أو عدم قبولها ، أو اعتقاد تحريمها ، فتجمعون بذلك بين القول على الله الكذب ، وكفر النعمة ، واعتقاد الحلال الطيب حراما خبيثا ، فإن هذا من الاعتداء .

والله قد نهى عن الاعتداء فقال : ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ بل يبغضهم ويمقتهم ويُعاقبهم على ذلك .

ثم أمر بضد ما عليه المُشركون ، الذين يُحرِّمون ما أحل الله فقال : ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أي : كلوا من رزقه الذي ساقه إليكم ، بما يسره من الأسباب ، إذا كان حلالًا لا سرقة ولا غصبا ولا غير ذلك من أنواع الأموال التي تؤخذ بغير حق ، وكان أيضًا طيبا ، وهو الذي لا خبث فيه ، فخرج بذلك الخبيث من السباع والخبائث .

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه . ﴿ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ . فإن إيمانكم بالله يوجب عليكم تقواه ومراعاة حقه ، فإنه لا يتم إلا بذلك .

ودلَّت الآية الكريمة على أنه إذا حرم حلالا عليه من طعام وشراب ، وسرية وأمة ، ونحو ذلك ، فإنه لا يكون حراما بتحريمه ، لكن لو فعله فعليه كفارة يمين ، كما قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [ سُورة التّحريم ١] الآية .

إلا أن تحريم الزوجة فيه كفارة ظهار ، ويدخل في هذه الآية أنه لا ينبغي للإنسان أن يتجنَّب الطيبات ويحرمها على نفسه ، بل يتناولها مستعينا بها على طاعة ربه .

[٨٩ — ٥] : ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ .

أي : في أيمانكم التي صدرت على وجه اللغو ، وهي الأيمان التي حلف بها المقسم من غير نية ولا قصد ، أو عقدها يظن صدق نفسه ، فبان بخلاف ذلك .

﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ﴾ أي : بما عزمتم عليه ، وعقدت عليه قلوبكم ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ﴾ ، ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾ أي : كفارة اليمين الذي عقدتموها بقصدكم ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ ، وذلك الإطعام ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ أي : كسوة عشرة مساكين ، والكسوة هي التي تُجزئ في الصلاة . ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ﴾ أي : عتق رقبة مؤمنة كما قيدت في غير هذا الموضع ، فمتى فعل واحدا من هذه الثلاثة فقد انحلت يمينه .

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ واحدا من هذه الثلاثة ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ﴾ تكفرها وتمحوها وتمنع من الإثم .

﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ﴾ عن الحلف بالله كاذبا ، وعن كثرة الأيمان ، واحفظوها إذا حلفتم عن الحنث فيها ، إلا إذا كان الحنث خيرا ، فتمام الحفظ : أن يفعل الخير ، ولا يكون يمينه عرضة لذلك الخير

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ المبينة للحلال من الحرام ، الموضِّحة للأحكام .

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [ سُورة المائدة ٨٩] . الله حيث علمكم ما لم تكونوا تعلمون . فعلى العباد شكر الله تعالى على ما منَّ به عليهم ، من معرفة الأحكام الشرعية وتبيينها .

[ ٥ : ٩٠ – ٩١ ] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ .

يذم تعالى هذه الأشياء القبيحة ، ويُخبر أنها من عمل الشيطان ، وأنها رجس ، ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ أي : اتركوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فإن الفلاح لا يتم إلا بترك ما حرّم اللّه ، خصوصا هذه الفواحش المذكورة ، وهي الخمر وهي : كل ما خامر العقل أي : غطاه بسكره ، والميسر ، وهو : جميع المُغالبات التي فيها عوض من الجانبين ، كالمراهنة ونحوها ، والأنصاب التي هي : الأصنام والأنداد ونحوها ، مما يُنصب ويُعبد من دون اللّه ، والأزلام التي يستقسمون بها ، فهذه الأربعة نهى اللّه عنها وزجر ، وأخبر عن مفاسدها الداعية إلى تركها واجتنابها .

فمنها : أنها رجس ، أي : خبث ، نجس معنى ، وإن لم تكن نجسة حسًا ، والأمور الخبيثة مما ينبغي اجتنابها وعدم التدنس بأوضارها .

ومنها : أنها من عمل الشيطان ، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان . ومن المعلوم أن العدو يحذر منه ، وتحذر مصايده وأعماله ، خصوصا الأعمال التي يعملها ليوقع فيها عدوه ، فإنها فيها هلاكه ، فالحزم كل الحزم البعد عن عمل العدو المبين ، والحذر منها ، والخوف من الوقوع فيها .

ومنها : أنه لا يمكن الفلاح للعبد إلا باجتنابها ، فإن الفلاح هو : الفوز بالمطلوب المحبوب ، والنجاة من المرهوب ، وهذه الأمور مانعة من الفلاح ومعوقة له .

ومنها : أن هذه موجبة للعداوة والبغضاء بين الناس ، والشيطان حريص على بثها ، خصوصا الخمر والميسر ، ليوقع بين المُؤمنين العداوة والبغضاء . فإن في الخمر من انغلاب العقل وذهاب حجاه ، ما يدعو إلى البغضاء بينه وبين إخوانه المُؤمنين ، خُصوصا إذا اقترن بذلك من السباب ما هو من لوازم شارب الخمر ، فإنه ربما أوصل إلى القتل . وما في الميسر من غلبة أحدهما للآخر ، وأخذ ماله الكثير في غير مقابلة ، ما هو من أكبر الأسباب للعداوة والبغضاء .

ومنها : أن هذه الأشياء تصد القلب ، ويتبعه البدن عن ذكر اللّه وعن الصلاة ، اللذين خلق لهما العبد ، وبهما سعادته ، فالخمر والميسر ، يصدانه عن ذلك أعظم صد ، ويشتغل قلبه ، ويذهل لبه في الاشتغال بهما ، حتى يمضي عليه مدة طويلة وهو لا يدري أين هو .

فأي معصية أعظم وأقبح من معصية تدنس صاحبها ، وتجعله من أهل الخبث ، وتوقعه في أعمال الشيطان وشباكه ، فينقاد له كما تنقاد البهيمة الذليلة لراعيها ، وتحول بين العبد وبين فلاحه ، وتوقع العداوة والبغضاء بين المُؤمنين ، وتصد عن ذكر اللّه وعن الصلاة؟« فهل فوق هذه المفاسد شيء أكبر منها؟ » .

ولهذا عرض تعالى على العقول السليمة النهي عنها ، عرضا بقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ لأن العاقل –إذا نظر إلى بعض تلك المفاسد– انزجر عنها وكفت نفسه ، ولم يحتج إلى وعظ كثير ولا زجر بليغ .

[٩٢ - ٥] : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ .

طاعة اللّٰه وطاعة رسوله واحدة ، فمن أطاع اللّٰه ، فقد أطاع الرسول ، ومن أطاع الرسول فقد أطاع اللّٰه ، وذلك شامل للقيام بما أمر اللّٰه به ورسوله من الأعمال ، والأقوال الظاهرة والباطنة ، الواجبة والمستحبّة ، المُتعلِّقة بحقوق اللّٰه وحقوق خلقه والانتهاء عما نهى اللّٰه ورسوله عنه كذلك .

وهذا الأمر أعم الأوامر ، فإنه كما ترى يدخل فيه كل أمر ونهي ، ظاهر وباطن ، وقوله : ﴿وَاحْذَرُوا﴾ أي : من معصية اللّٰه ومعصية رسوله ، فإن في ذلك الشر والخسران المبين . ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عما أمرتم به ونهيتم عنه ، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وقد أدى ذلك .

فإن اهتديتم فلأنفسكم ، وإن أسأتم فعليها ، والله هو الذي يحاسبكم ، والرسول قد أدى ما عليه وما حمل به .

[٩٣ - ٥] : ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

لما نزل تحريم الخمر والنهي الأكيد والتشديد فيه ، تمنى أناس من المؤمنين أن يعلموا حال إخوانهم الذين ماتوا على الإسلام قبل تحريم الخمر وهم يشربونها ، فأنزل اللّٰه هذه الآية .

وأخبر تعالى أنه ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾ أي : حرج وإثم ﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾ من الخمر والميسر قبل تحريمهما .ولما كان نفي الجناح يشمل المذكورات وغيرها ، قيد ذلك بقوله : ﴿إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي : بشرط أنهم تاركون للمعاصي ، مؤمنون بالله إيمانا صحيحا ، موجبا لهم عمل الصالحات ، ثم استمروا على ذلك .

وإلا فقد يتصف العبد بذلك في وقت دون آخر ، فلا يكفي حتى يكون كذلك حتى يأتيه أجله ، ويدوم على إحسانه ، فإن اللّٰه يحب المحسنين في عبادة الخالق ، المحسنين في نفع العبيد ، ويدخل في هذه الآية الكريمة ، من طعم المحرم ، أو فعل غيره بعد التحريم ، ثم اعترف بذنبه وتاب إلى اللّٰه ، واتّقى وآمن وعمل صالحا ، فإن اللّٰه يغفر له ، ويرتفع عنه الإثم في ذلك .

[ ٩٤: ٩٦ - ٥] : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ .

هذا من مِنن اللّٰه على عباده ، أن أخبرهم بما سيفعل قضاء وقدرا ، ليطيعوه ويقدموا على بصيرة ، ويهلك

من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لابد أن يختبر الله إيمانكم.

﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ أي: بشيء غير كثير، فتكون محنة يسيرة، تخفيفا منه تعالى ولطفا، وذلك الصيد الذي يبتليكم الله به ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ أي: تتمكّنون من صيده، ليتم بذلك الابتلاء، لا غير مقدور عليه بيد ولا رمح، فلا يبقى للابتلاء فائدة.

ثم ذكر الحكمة في ذلك الابتلاء، فقال: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ علما ظاهرا للخلق يترتّب عليه الثواب والعقاب ﴿مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ فيكُف عما نهى الله عنه مع قدرته عليه وتمكنه، فيثيبه الثواب الجزيل، ممن لا يخافه بالغيب، فلا يرتدع عن معصية تعرّض له فيصطاد ما تمكّن منه ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ﴾ منكم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ البيان، الذي قطع الحجج، وأوضح السبيل.

﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم موجع، لا يقدر على وصفه إلا الله، لأنه لا عذر لذلك المُعتدي، والاعتبار بمن يخافه بالغيب، وعدم حضور الناس عنده، وأما إظهار مخافة الله عند الناس، فقد يكون ذلك لأجل مخافة الناس، فلا يثاب على ذلك.

ثم صرح بالنهي عن قتل الصيد في حال الإحرام، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي: مُحْرِمون في الحج والعمرة، والنهي عن قتله يشمل النهي عن مقدّمات القتل، وعن المُشاركة في القتل، والدلالة عليه، والإعانة على قتله، حتى إن من تمام ذلك أنه ينهى المُحْرِم عن أكل ما قُتل أو صيد لأجله، وهذا كله تعظيم لهذا النسك العظيم، أنه يَحرُم على المُحرم قتل وصيد ما كان حلالا له قبل الإحرام.

وقوله: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ أي: قتل صيدا عمدا ﴿فَـ﴾ عليه ﴿جَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ أي: الإبل، أو البقر، أو الغنم، فينظر ما يشبه شيئا من ذلك، فيجب عليه مثله، يذبحه ويتصدق به. والاعتبار بالمُماثلة أن ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: عدلان يعرفان الحكم، ووجه الشبه، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم، حيث قضوا بالحمامة شاة، وفي النعامة بدنة، وفي بقر الوحش –على اختلاف أنواعه– بقرة، وهكذا كل ما يشبه شيئا من النعم، ففيه مثله، فإن لم يشبه شيئا ففيه قيمته، كما هو القاعدة في المتلفات، وذلك الهدي لا بد أن يكون ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ أي: يذبح في الحرم.

﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ أي: كفارة ذلك الجزاء طعام مساكين، أي: يجعل مقابلة المثل من النعم، طعام يطعم المساكين. قال كثير من العُلماء: يقوم الجزاء، فيشترى بقيمته طعام، فيطعم كل مسكين مُدّ بُرّ أو نصفَ صاع من غيره، ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ﴾ الطعام ﴿صِيَامًا﴾ أي: يصوم عن إطعام كل مسكين يوما. ﴿لِّيَذُوقَ﴾ بإيجاب الجزاء المذكور عليه ﴿وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾، ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ بعد ذلك ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ وإنما نص الله على المُتعمّد لقتل الصيد، مع أن الجزاء يلزم المُتعمّد والمُخطيء، كما هو القاعدة الشرعية –أن المُتلف للنفوس والأموال المُحترمة، فإنه يضمنها على أي حال كان، إذا كان إتلافه بغير حق، لأن الله رتّب عليه الجزاء والعُقوبة والانتقام، وهذا للمُتعمّد.

وأما المُخطئ فليس عليه عقوبة ، إنما عليه الجزاء ، هذا جواب الجُمهور من هذا القيد الذي ذكره الله .

وطائفة من أهل العلم يرون تخصيص الجزاء بالمتعمد وهو ظاهر الآية . والفرق بين هذا وبين التضمين في الخطأ في النفوس والأموال في هذا الموضع الحق فيه لله ، فكما لا إثم لا جزاء لإتلافه نفوس الآدميين وأموالهم .

ولما كان الصيد يشمل الصيد البري والبحري ، استثنى تعالى الصيد البحري فقال : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ أي : أحل لكم -في حال إحرامكم- صيد البحر ، وهو الحي من حيواناته ، وطعامه ، وهو الميت منها ، فدل ذلك على حل ميتة البحر . ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي : الفائدة في إباحته لكم أنه لأجل انتفاعكم وانتفاع رفقتكم الذين يسيرون معكم .

﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ ويؤخذ من لفظ « الصيد » أنه لا بد أن يكون وحشيا ، لأن الإنسي ليس بصيد . ومأكولا ، فإن غير المأكول لا يصاد ولا يطلق عليه اسم الصيد .

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي : اتقوه بفعل ما أمر به ، وترك ما نهى عنه ، واستعينوا على تقواه بعلمكم أنكم إليه تحشرون . فيجازيكم ، هل قمتم بتقواه فيثيبكم الثواب الجزيل ، أم لم تقوموا بها فيعاقبكم؟ .

[ ٧٩: ٩٩ - ٥ ] : ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۞ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾

يُخبر تعالى أنه جعل ﴿ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ يقوم بالقيام بتعظيمه دينُهم ودنياهم ، فبذلك يتم إسلامهم ، وبه تحط أوزارهم ، وتحصل لهم - بقصده - العطايا الجزيلة ، والإحسان الكثير ، وبسببه تنفق الأموال ، وتتقحم - من أجله - الأهوال .ويجتمع فيه من كل فج عميق جميع أجناس المُسلمين ، فيتعارفون ويستعين بعضهم ببعض ، ويتشاورون على المصالح العامة ، وتنعقد بينهم الروابط في مصالحهم الدينية والدنيوية .

قال تعالى : ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [ سورة الحج ٢٨ ] . ومن أجل كون البيت قياما للناس قال من قال من العُلماء : إن حج بيت الله فرض كفاية في كل سنة . فلو ترك الناس حجه لأثم كل قادر ، بل لو ترك الناس حجه لزال ما به قوامهم ، وقامت القيامة .

وقوله : ﴿وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ أي : وكذلك جعل الهدي والقلائد -التي هي أشرف أنواع الهدي- قياما للناس ، ينتفعون بهما ويثابون عليهما . ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فمن علمه أن جعل لكم هذا البيت الحرام ، لما يعلمه من مصالحكم الدينية والدنيوية .

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي : ليكن هذان العلمان موجودين في قلوبكم على وجه الجزم واليقين ، تعلمون أنه شديد العقاب العاجل والآجل على من عصاه ، وأنه غفور رحيم لمن تاب إليه وأطاعه .

فيثمر لكم هذا العلمُ الخوفَ من عقابه ، والرجاءَ لمغفرته وثوابه ، وتعملون على ما يقتضيه الخوف والرجاء .

ثم قال تعالى : ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ وقد بلَّغ كما أُمِر ، وقام بوظيفته ، وما سوى ذلك فليس له من الأمر شيء . ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ فيجازيكم بما يعلمه تعالى منكم .

[ ١٠٠ – ٥ ] : ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

أي : ﴿قُلْ﴾ للناس مُحذِّرا عن الشر ومُرغِّبا في الخير : ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ من كل شيء ، فلا يستوي الإيمان والكفر ، ولا الطاعة والمعصية ، ولا أهل الجنة وأهل النار ، ولا الأعمال الخبيثة والأعمال الطيبة ، ولا المال الحرام بالمال الحلال . ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ فإنه لا ينفع صاحبه شيئا ، بل يضره في دينه ودنياه .

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فأمر أُولي الألباب ، أي : أهل العقول الوافية ، والآراء الكاملة ، فإن اللّه تعالى يوجه إليهم الخطاب . وهم الذين يؤبه لهم ، ويرجى أن يكون فيهم خير . ثم أخبر أن الفلاح متوقف على التقوى التي هي موافقة اللّه في أمره ونهيه ، فمن اتقاه أفلح كل الفلاح ، ومن ترك تقواه حصل له الخسران وفاتته الأرباح .

[ ١٠١ : ١٠٢ – ٥ ] : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾

ينهى عباده المؤمنين عن سؤال الأشياء التي إذا بينت لهم ساءتهم وأحزنتهم ، وذلك كسؤال بعض المُسلمين لرسول اللّه ﷺ عن آبائهم ، وعن حالهم في الجنة أو النار[٩٦] ، فهذا ربما أنه لو بين للسائل لم يكن

---

(٩٦) * عن أنس رضي الله عنه أنّ رسول اللّه ﷺ خرج حين حين زاغت الشّمس ، فصلّى الظُهر ، فلمّا سَلمَ قام على المنبر ، فذكر الساعة ، وذكر أنّ بين يديها أمورًا عظامًا ، ثُمّ قال : من أحبَّ أن يسأل عن شيءٍ فليسأل عنه ، فوالله لا تسألوني عن شيءٍ إلّا أخبرتكم به ما دُمت في مقامي هذا ، قال أنس : فأكثر النّاس البُكاء ، وأكثر رسول اللّه ﷺ أن يقول لهم سلوني ، فقال أنس : فقام رجل وقال : أين مدْخلي يا رسول اللّه ؟ ، قال : النّار ، فقام عبد اللّه بن حُذافة ، فقال : من أبي يا رسول اللّه ؟ ، قال : أبوك حُذافة ، قال : ثمّ أكثر أنْ يقول : سلوني ، سلوني ، فبرك عُمر على ركبتيه وقال : رضينا بالله ربًا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمّد ﷺ رسولًا ، قال : فسكت رسول اللّه ﷺ حين قال عمر ذلك ، ثُمّ قال رسول اللّه ﷺ : والذي نفسي بيده ، لقد عُرضت عليّ الجنّة والنّار آنفًا في عُرض هذا الحائط وأنا أُصلي ، فلم أر كاليوم في الخير والشّرّ . أخرجه البُخاري في صحيحه : ( كتاب العلم / باب : من برك على ركبتيه عند الإمام أو المُحدّث/ ح ٩٣) . ( كتاب الاعتصام/ باب : ما يُكره من كثرة السُّؤال وتكلف ما لا يُعنيه /=

له فيه خير ، وكسؤالهم للأمور غير الواقعة . وكالسؤال الذي يترتب عليه تشديدات في الشرع ربما أحرجت الأمة ، وكالسؤال عما لا يعني ، فهذه الأسئلة ، وما أشبهها هي المنهي عنها ، وأما السؤال الذي لا يترتب عليه شيء من ذلك فهذا مأمور به ، كما قال تعالى : ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ أي : وإذا وافق سؤالكم محله فسألتم عنها حين ينزل عليكم القرآن ، فتسألون عن آية أشكلت ، أو حكم خفي وجهه عليكم ، في وقت يمكن فيه نزول الوحي من السماء ، تبد لكم ، أي : تبين لكم وتظهر ، وإلا فاسكتوا عمّا سكت اللّه عنه(٩٧) .

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ أي : سكت معافيا لعباده منها ، فكل ما سكت اللّه عنه فهو مما أباحه وعفا عنه . ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي : لم يزل بالمغفرة موصوفا ، وبالحلم والإحسان معروفا ، فتعرضوا لمغفرته وإحسانه ، واطلبوه من رحمته ورضوانه . وهذه المسائل التي نهيتم عنها ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ أي : جنسها وشبهها ، سؤال تعنت لا استرشاد .

فلما بينت لهم وجاءتهم ﴿أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم ، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم ، واختلافهم على أنبيائهم » .(٩٨)

[ ١٠٣ : ١٠٤ – ٥] : ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾

هذا ذم للمُشركين الذين شرعوا في الدين ما لم يأذن به اللّه ، وحرّموا ما أحله اللّه ، فجعلوا بآرائهم الفاسدة شيئا من مواشيهم مُحرّما ، على حسب اصطلاحاتهم التي عارضت ما أنزل اللّه فقال : ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ وهي : ناقة يشقون أذنها ، ثم يُحرّمون ركوبها ويرونها مُحترمة .

﴿وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ وهي : ناقة ، أو بقرة ، أو شاة ، إذا بلغت شيئا اصطلحوا عليه ، سيبوها فلا تركب ولا يحمل عليها ولا تؤكل ، وبعضهم ينذر شيئا من ماله يجعله سائبة .

﴿وَلَا حَامٍ﴾ أي : جمل يحمى ظهره عن الركوب والحمل ، إذا وصل إلى حالة معروفة بينهم .

---

= ح ٧٢٩٤، ٧٢٩٥) . وأخرجه مُسلم في صحيحه : ( كتاب الفضائل / باب : توقيره ﷺ ، وترك إكثار سؤاله عمّا لا ضرورة فيه/ ح ١٣٤، ١٣٥، ،١٣٧، ١٣٦، ١٣٧) .

(٩٧) * هذا معنى حديث حسن . أخرجه الترمذي :( كتاب اللباس/ باب : ما جاء في لبس الفراء/ ح ١٧٢٦ ) . من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه .
ولفظه : الحلال ما أحل اللّه في كتابه ، والحرام ما حرم اللّه في كتابه ، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه .
وحسّنه العلامة الألباني – رحمه اللّه – في « صحيح الجامع » برقم ٣١٩٥ .

(٩٨) * مُتّفق عليه . من حديث أبي هُريرة . أخرجه البُخاري في صحيحه : ( كتاب الاعتصام / باب : الإقتداء بسنن رسول اللّه ﷺ / ح ٧٢٨٨) . وأخرجه مُسلم في صحيحه : ( كتاب الحج/ باب : فرض الحج مرة في العمر/ ح ٤١٢) .

فكل هذه مما جعلها المُشركون مُحرّمة بغير دليل ولا برهان . وإنما ذلك افتراء على الله ، وصادرة من جهلهم وعدم عقلهم ، ولهذا قال : ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فلا نقل فيها ولا عقل ، ومع هذا فقد أعجبوا بآرائهم التي بُنيت على الجهالة والظلم ، فإذا دعوا ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أعرضوا فلم يقبلوا ، و ﴿قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ من الدين ، ولو كان غير سديد ، ولا دينًا ينجي من عذاب الله .

ولو كان في آبائهم كفاية ومعرفة ودراية لهان الأمر ، ولكن آباءهم لا يعقلون شيئا ، أي : ليس عندهم من المعقول شيء ، ولا من العلم والهدى شيء ، فتبا لمن قلد من لا علم عنده صحيح ، ولا عقل رجيح ، وترك اتباع ما أنزل الله ، واتباع رسله الذي يملأ القلوب علما وإيمانا ، وهدى ، وإيقانا .

[١٠٥ – ٥] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي : اجتهدوا في إصلاحها وكمالها وإلزامها سلوك الصراط المُستقيم ، فإنكم إذا صلحتم لا يضركم من ضل عن الصراط المستقيم ، ولم يهتد إلى الدين القويم ، وإنما يضر نفسه . ولا يدل هذا على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر ، لا يضر العبدَ تركُهما وإهمالُهما ، فإنه لا يتم هداه ، إلا بالإتيان بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . نعم ، إذا كان عاجزا عن إنكار المنكر بيده ولسانه وأنكره بقلبه ، فإنه لا يضره ضلال غيره .

وقوله : ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي : مآلكم يوم القيامة ، واجتماعكم بين يدي الله تعالى . ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر .

[ ١٠٦ : ١٠٨ – ٥] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾

يُخبر تعالى خبرا مُتضمّنا للأمر بإشهاد اثنين على الوصية ، إذا حضر الإنسان مقدماتُ الموت وعلائمه . فينبغي له أن يكتب وصيته ، ويشهد عليها اثنين ذوي عدل ممن تعتبر شهادتهما . ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي : من غير أهل دينكم ، من اليهود أو النصارى أو غيرهم ، وذلك عند الحاجة والضرورة وعدم غيرهما من المُسلمين .

﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي : سافرتم فيها ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي : فأشهدوهما ، ولم

يأمر بشهادتهما إلا لأن قولهما في تلك الحال مقبول ، ويؤكد عليهما ، بأن يحبسا ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ التي يعظمونها . ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ أنهما صدقا ، وما غيرا ولا بدلا ، هذا ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ في شهادتهما ، فإن صدقتموهما ، فلا حاجة إلى القسم بذلك .

ويقولان : ﴿لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ﴾ أي : بأيماننا ﴿ثَمَنٗا﴾ بأن نكذب فيها ، لأجل عرض من الدنيا . ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ فلا نراعيه لأجل قربه منا ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ بل نؤديها على ما سمعناها ﴿إِنَّآ إِذٗا﴾ أي : إن كتمناها ﴿لمن الآثمين﴾ .

﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا﴾ أي : الشاهدين ﴿ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ بأن وجد من القرائن ما يدل على كذبهما وأنهما خانا ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ أي : فليقم رجلان من أولياء الميت ، وليكونا من أقرب الأولياء إليه . ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ أي : أنهما كذبا ، وغيرا وخانا . ﴿وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي : إن ظلمنا واعتدينا ، وشهدنا بغير الحق .

قال الله تعالى في بيان حكمة تلك الشهادة وتأكيدها ، وردها على أولياء الميت حين تظهر من الشاهدين الخيانة : ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ﴾ أي : أقرب ﴿أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾ حين تؤكد عليهما تلك التأكيدات . ﴿أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ﴾ أي : أن لا تقبل أيمانهم ، ثم ترد على أولياء الميت .

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي : الذين وصْفُهم الفسق ، فلا يريدون الهدى والقصد إلى الصراط المُستقيم .

وحاصل هذا ، أن الميت – إذا حضره الموت في سفر ونحوه ، مما هو مظنة قلة الشهود المعتبرين– أنه ينبغي أن يوصي شاهدين مسلمين عدلين . فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين ، جاز أن يوصي إليهما ، ولكن لأجل كفرهما فإن الأولياء إذا ارتابوا بهما فإنهم يحلفونهما بعد الصلاة ، أنهما ما خانا ، ولا كذبا ، ولا غيرا ، ولا بدلا ، فيبرآن بذلك من حق يتوجه إليهما . فإن لم يصدقوهما ووجدوا قرينة تدل على كذب الشاهدين ، فإن شاء أولياء الميت ، فليقم منهم اثنان ، فيقسمان بالله : لشهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين ، وأنهما خانا وكذبا ، فيستحقون منهما ما يدعون .

وهذه الآيات الكريمة نزلت في قصة « تميم الدَّاري » و « عدي بن بداء » المشهورة حين أوصى لهما العدوي ، والله أعلم .[٩٩]

ويُستدل بالآيات الكريمات على عدة أحكام :

منها : أن الوصية مشروعة ، وأنه ينبغي لمن حضره الموت أن يوصي .

ومنها : أنها مُعتبرة ، ولو كان الإنسان وصل إلى مقدمات الموت وعلاماته ، ما دام عقله ثابتا .

(٩٩) * ضعيف . أخرجه الترمذي في « سننه » ، وضعفه ، من حديث ابن عباس ، عن تميم الدَّاري .

قال السّيوطي في « لباب النقول » : ( جزم الذهبي بأن تميم الدَّاري النّازل فيه غير تميم الدَّاري ، وعزاه لمقاتل بن حيان . قال الحافظ : ليس بجيد للتصريح في هذا الحديث بأنه تميم الدَّاري ) . اهـ

قلت : و كلام الحافظ – رحمه الله – مُجاب عليه بأن سند الحديث ضعيف فلا يثبت به مثل هذا .

ومنها : أن شهادة الوصية لابد فيها من اثنين عدلين .

ومنها : أن شهادة الكافرين في هذه الوصية ونحوها مقبولة لوجود الضرورة ، وهذا مذهب الإمام أحمد . وزعم كثير من أهل العلم : أن هذا الحكم منسوخ ، وهذه دعوى لا دليل عليها .

ومنها : أنه ربما استفيد من تلميح الحكم ومعناه ، أن شهادة الكُفّار -عند عدم غيرهم ، حتى في غير هذه المسألة- مقبولة ، كما ذهب إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية .

ومنها : جواز سفر المسلم مع الكافر إذا لم يكن محذور .

ومنها : جواز السفر للتجارة .

ومنها : أن الشاهدين -إذا ارتيب منهما ، ولم تبد قرينة تدل على خيانتهما ، وأراد الأولياء- أن يؤكدوا عليهم اليمين ، ويحبسوهما من بعد الصلاة ، فيقسمان بصفة ما ذكر الله تعالى .

ومنها : أنه إذا لم تحصل تهمة ولا ريب لم يكن حاجة إلى حبسهما ، وتأكيد اليمين عليهما .

ومنها : تعظيم أمر الشهادة حيث أضافها تعالى إلى نفسه ، وأنه يجب الاعتناء بها والقيام بها بالقسط .

ومنها : أنه يجوز امتحان الشاهدين عند الريبة منهما ، وتفريقهما لينظر عن شهادتهما .

ومنها : أنه إذا وجدت القرائن الدالة على كذب الوصيين في هذه المسألة - قام اثنان من أولياء الميت فأقسما بالله : أن أيماننا أصدق من أيمانهما ، ولقد خانا وكذبا . ثم يدفع إليهما ما ادعياه ، فتكون القرينة - مع أيمانهما- قائمة مقام البيّنة .

[ ١٠٩ : ١١٠ - ٥ ] : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

يُخبر تعالى عن يوم القيامة وما فيه من الأهوال العظام ، وأن الله يجمع به جميع الرسل فيسألهم : ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ أي : ماذا أجابتكم به أممكم ، فـ ﴿قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ وإنما العلم لك يا ربنا ، فأنت أعلم منا ، ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ أي : تعلم الأمور الغائبة والحاضرة .

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ أي : اذكرها بقلبك ولسانك ، وقم بواجبها شكرا لربك ، حيث أنعم عليك نعما ما أنعم بها على غيرك ، ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي : إذ قويتك بالروح والوحي ، الذي طهرك وزكاك ، وصار لك قوة على القيام بأمر الله والدعوة إلى سبيله .

وقيل : إن المراد « بروح القدس » جبريل عليه السلام ، وأن الله أعانه به وبمُلازمته له ، وتثبيته في المواطن المشقة . ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ المراد بالتكليم هنا ، غير التكليم المعهود الذي هو مجرد

الكلام ، وإنما المراد بذلك التكليم الذي ينتفع به المُتكلّم والمُخاطب ، وهو الدعوة إلى الله ، ولعيسى عليه السلام من ذلك ، ما لإخوانه من أولي العزم من المرسلين ، من التكليم في حال الكهولة ، بالرسالة والدعوة إلى الخير ، والنهي عن الشر ، وامتاز عنهم بأنه كلّم الناس في المهد ، فقال : ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [سورة مريم ٣١] الآية .

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فالكتاب يشمل الكتب السابقة ، وخصوصا التوراة ، فإنه من أعلم أنبياء بني إسرائيل -بعد موسى- بها . ويشمل الإنجيل الذي أنزله الله عليه ، والحكمة هي : معرفة أسرار الشرع وفوائده وحكمه ، وحسن الدعوة والتعليم ، ومُراعاة ما ينبغي ، على الوجه الذي ينبغي .

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي : طيرا مصورا لا روح فيه . فتنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، وتبرئ الأكمه الذي لا بصر له ولا عين ، ﴿وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ فهذه آيات بيّنات ، ومُعجزات باهرات ، يعجز عنها الأطباء وغيرهم ، أيد الله بها عيسى وقوى بها دعوته .

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ لما جاءهم الحق مؤيدا بالبينات الموجبة للإيمان به . ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وهمُّوا بعيسى أن يقتلوه ، وسعوا في ذلك ، فكفّ الله أيديهم عنه ، وحفظه منهم وعصمه .

فهذه مِنَنٌ امتنَّ الله بها على عبده ورسوله عيسى ابن مريم ، ودعاه إلى شكرها والقيام بها ، فقام بها عليه السلام أتم القيام ، وصبر كما صبر إخوانه من أولي العزم .

[ ١١١ : ١٢٠ - ٥ ] : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا﴾ إلى آخر الآيات .

أي : واذكر نعمتي عليك إذ يسرت لك أتباعا وأعوانا . فأوحيت إلى الحواريين أي : ألهمتهم ، وأوزعت قلوبهم الإيمان بي وبرسولي ، أو أوحيت إليهم على لسانك ، أي : أمرتهم بالوحي الذي جاءك من عند الله ، فأجابوا لذلك وانقادوا ، وقالوا : آمنا بالله ، واشهد بأننا مُسلمون ، فجمعوا بين الإسلام الظاهر ، والانقياد بالأعمال الصالحة ، والإيمان الباطن المخرج لصاحبه من النفاق ومن ضعف الإيمان .

والحواريون هم : الأنصار ، كما قال تعالى كما قال عيسى ابن مريم للحواريين : ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ [سورة آل عمران ٥٢] .

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي : مائدة فيها طعام ، وهذا ليس منهم عن شك في قدرة الله ، واستطاعته على ذلك .

وإنما ذلك من باب العرض والأدب منهم .

ولما كان سؤال آيات الاقتراح منافيا للانقياد للحق ، وكان هذا الكلام الصادر من الحواريين ربما أوهم ذلك ، وعظهم عيسى عليه السلام فقال : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن المؤمن يحمله ما معه من الإيمان على ملازمة التقوى ، وأن ينقاد لأمر الله ، ولا يطلب من آيات الاقتراح التي لا يدري ما يكون بعدها شيئا . فأخبر الحواريون أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى ، وإنما لهم مقاصد صالحة ، ولأجل الحاجة إلى ذلك فـ

﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ وهذا دليل على أنهم محتاجون لها ، ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بالإيمان حين نرى الآيات العيانية ، فيكون الإيمان عين اليقين ، كما كان قبل ذلك علم اليقين .

كما سأل الخليل عليه الصلاة والسلام ربه أن يُريَه كيف يُحيي الموتى ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ﴾ فالعبد مُحتاج إلى زيادة العلم واليقين والإيمان كل وقت ، ولهذا قال : ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي : نعلم صدق ما جئت به ، أنه حق وصدق ، ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ فتكون مصلحة لمن بعدنا ، نشهدها لك ، فتقوم الحجة ، ويحصل زيادة البرهان بذلك .

فلما سمع عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك ، وعلم مقصودهم ، أجابهم إلى طلبهم في ذلك ، فقال : ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ﴾ أي : يكون وقت نزولها عيدا وموسما ، يتذكر به هذه الآية العظيمة ، فتحفظ ولا تنسى على مرور الأوقات وتكرر السنين .

كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم مذكرا لآياته ، ومنبها على سنن المرسلين وطرقهم القويمة ، وفضله وإحسانه عليهم . ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي : اجعلها لنا رزقا ، فسأل عيسى عليه السلام نُزولها وأن تكون لهاتين المصلحتين ، مصلحة الدين بأن تكون آية باقية ، ومصلحة الدنيا ، وهي أن تكون رزقا .

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لأنه شاهد الآية الباهرة وكفر عنادا وظلما ، فاستحق العذاب الأليم والعقاب الشديد . واعلم أن الله تعالى وعد أنه سينزلها ، وتوعدهم -إن كفروا- بهذا الوعيد ، ولم يذكر أنه أنزلها ، فيحتمل أنه لم ينزلها بسبب أنهم لم يختاروا ذلك ، ويدل على ذلك ، أنه لم يذكر في الإنجيل الذي بأيدي النصارى ، ولا له وجود .

ويحتمل أنها نزلت كما وعد الله ، والله لا يُخلف الميعاد ، ويكون عدم ذكرها في الأناجيل التي بأيديهم من الحظ الذي ذكروا به فنسوه . أو أنه لم يذكر في الإنجيل أصلا ، وإنما ذلك كان متوارثا بينهم ، ينقله الخلف عن السلف ، فاكتفى الله بذلك عن ذكره في الإنجيل ، ويدل على هذا المعنى قوله : ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ والله أعلم بحقيقة الحال .

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾ وهذا توبيخ للنصارى الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، فيقول الله هذا الكلام لعيسى ، فيتبرأ عيسى ويقول : ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ عن هذا الكلام القبيح ، وعمّا لا يليق بك . ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ﴾ أي : ما ينبغي لي ، ولا يليق أن أقول شيئا ليس من أوصافي ولا من حقوقي ، فإنه ليس أحد من المخلوقين ، لا الملائكة المُقرَّبون ولا الأنبياء المُرسلون ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية وإنما الجميع عباد ، مُدبَّرون ، وخلق مُسخَّرون ، وفُقراء عاجزون .

﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ﴾ فأنت أعلم بما صدر مني و ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام في خطابه لربه ، فلم يقل عليه السلام : « لم أقل شيئا من ذلك » وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تُنافي منصبه الشريف ،

وأن هذا من الأمور المحالة ، ونزّه ربه عن ذلك أتم تنزيه ، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة . ثم صرح بذكر ما أمر به بني إسرائيل ، فقال : ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ فأنا عبد متبع لأمرك ، لا متجرئ على عظمتك ، ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي : ما أمرتهم إلا بعبادة اللّه وحده وإخلاص الدين له ، المتضمن للنهي عن اتخاذي وأمي إلهين من دون اللّه ، وبيان أني عبد مربوب ، فكما أنه ربكم فهو ربي .

﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أشهد على من قام بهذا الأمر ، ممن لم يقم به . ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي : المطلع على سرائرهم وضمائرهم . ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ علما وسمعا وبصرا ، فعلمك قد أحاط بالمعلومات ، وسمعك بالمسموعات ، وبصرك بالمبصرات ، فأنت الذي تجازي عبادك بما تعلمه فيهم من خير وشر .

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وأنت أرحم بهم من أنفسهم وأعلم بأحوالهم ، فلولا أنهم عباد متمردون لم تعذبهم ، ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي : فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدرة ، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة ، الحكيم حيث كان من مقتضى حكمتك أن تغفر لمن أتى بأسباب المغفرة .

﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ مبينا لحال عباده يوم القيامة ، ومَن الفائز منهم ومَن الهالك ، ومَن الشقي ومَن السعيد ، ﴿هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ والصادقون هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم على الصراط المستقيم والهدْي القويم ، فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق ، إذا أحلهم اللّه في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ولهذا قال : ﴿لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ والكاذبون بضدهم ، سيجدون ضرر كذبهم وافترائهم ، وثمرة أعمالهم الفاسدة .

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأنه الخالق لهما والمدبر لذلك بحكمه القدري ، وحكمه الشرعي ، وحكمه الجزائي ، ولهذا قال : ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ فلا يعجزه شيء ، بل جميع الأشياء منقادة لمشيئته ، ومُسخَّرة بأمره .

تم تفسير سورة المائدة بفضل من اللّه وإحسان ، والحمد للّه رب العالمين .

❊ ❊ ❊

## ( ٦ ) تفسير سورة الأنعام

### وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

[ ١ : ٢ – ٦ ] : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ① هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾

هذا إخبار عن حمده والثناء عليه بصفات الكمال ، ونعوت العظمة والجلال عموما ، وعلى هذه المذكورات خصوصا . فحمد نفسه على خلقه السماوات والأرض ، الدالة على كمال قدرته ، وسعة علمه ورحمته ، وعموم حكمته ، وانفراده بالخلق والتدبير ، وعلى جعله الظلمات والنور ، وذلك شامل للحسي من ذلك ، كالليل والنهار ، والشمس والقمر . والمعنوي ، كظلمات الجهل ، والشك ، والشرك ، والمعصية ، والغفلة ، ونور العلم والإيمان ، واليقين ، والطاعة ، وهذا كله ، يدل دلالة قاطعة أنه تعالى ، هو المستحق للعبادة ، وإخلاص الدين له ، ومع هذا الدليل ووضوح البرهان ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي يعدلون به سواه ، يسوونهم به في العبادة والتعظيم ، مع أنهم لم يساووا الله في شيء من الكمال ، وهم فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه .

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ وذلك بخلق مادتكم وأبيكم آدم عليه السلام . ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ أي : ضرب لمدة إقامتكم في هذه الدار أجلا ، تتمتعون به وتمتحنون ، وتبتلون بما يرسل إليكم به رسله ، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [ سورة الملك ٢ ] . ويعمركم ما يتذكر فيه من تذكر .

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ وهي : الدار الآخرة ، التي ينتقل العباد إليها من هذه الدار ، فيجازيهم بأعمالهم من خير وشر . ﴿ثُمَّ﴾ مع هذا البيان التام وقطع الحجة ﴿أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي : تشكون في وعد الله ووعيده ، ووقوع الجزاء يوم القيامة .

وذكر الله الظلمات بالجمع ، لكثرة موادها وتنوع طرقها . ووحد النور لكون الصراط الموصلة إلى الله واحدة لا تعدد فيها ، وهي : الصراط المتضمنة للعلم بالحق والعمل به ، كما قال تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [ سورة الأنعام ١٥٣ ] .

[٣ – ٦] : ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾

أي : وهو المألوه المعبود في السماوات وفي الأرض ، فأهل السماء والأرض ، متعبدون لربهم ، خاضعون لعظمته ، مستكينون لعزه وجلاله ، الملائكة المقربون ، والأنبياء والمرسلون ، والصديقون ، والشهداء والصالحون .

وهو تعالى يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ، فاحذروا معاصيه وارغبوا في الأعمال التي تقربكم

منه ، وتدنيكم من رحمته ، واحذروا من كل عمل يُبعدكم منه ومن رحمته .

[ ٤ : ٦ - ٦ ] : ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ .

هذا إخبار منه تعالى عن إعراض المُشركين ، وشدة تكذيبهم وعداوتهم ، وأنهم لا تنفع فيهم الآيات حتى تحل بهم المَثُلات ، فقال : ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ الدالة على الحق دلالة قاطعة ، الداعية لهم إلى اتباعه وقبوله ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ لا يلقون لها بالا ، ولا يصغون لها سمعا ، قد انصرفت قلوبهم إلى غيرها ، وولوها أدبارَهم .

﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ والحق حقه أن يتبع ، ويشكر الله على تيسيره لهم ، وإتيانهم به ، فقابلوه بضد ما يجب مقابلته به فاستحقوا العقاب الشديد .

﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي : فسوف يرون ما استهزأوا به ، أنه الحق والصدق ، ويبين الله للمكذبين كذبهم وافتراءهم ، وكانوا يستهزئون بالبعث والجنة والنار ، فإذا كان يوم القيامة قيل للمُكذِّبين : ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [ سورة الطُّور ١٤ ] .

وقال تعالى : ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ [ سُورة ٣٨ - ٣٩ ] .

ثم أمرهم أن يعتبروا بالأُمم السالفة فقال : ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ . أي : كم تتابع إهلاكنا للأمم المُكذِّبين ، وأمهلناهم قبل ذلك الإهلاك ، بأن ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن﴾ لهؤلاء من الأموال والبنين والرفاهية .

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ فينبت لهم بذلك ما شاء الله ، من زروع وثمار ، يتمتعون بها ، ويتناولون منها ما يشتهون ، فلم يشكروا الله على نعمه ، بل أقبلوا على الشهوات ، وألهتهم أنواع اللذات ، فجاءتهم رسلهم بالبينات ، فلم يصدقوها ، بل ردوها وكذبوها فأهلكهم الله بذنوبهم وأنشأ ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ ، فهذه سنة الله ودأبه ، في الأمم السابقين واللاحقين ، فاعتبروا بمن قص الله عليكم نبأهم .

[ ٧ : ٩ - ٦ ] : ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ .

هذا إخبار من الله لرسوله عن شدة عناد الكافرين ، وأنه ليس تكذيبهم لقصور فيما جئتهم به ، ولا لجهل

منهم بذلك، وإنما ذلك ظلم وبغي، لا حيلة لكم فيه، فقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ وتيقَّنوه ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ ظلما وعلوا ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فأي بينة أعظم من هذه البينة، وهذا قولهم الشنيع فيها، حيث كابروا المحسوس الذي لا يمكن مَن له أدنى مسكة مِن عقل دفعه؟.

﴿وَقَالُوا۟﴾ أيضًا تعنتا مبنيا على الجهل، وعدم العلم بالمعقول.

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي: هلا أنزل مع محمد مَلَك، يعاونه ويساعده على ما هو عليه بزعمهم أنه بشر، وأن رسالة الله، لا تكون إلا على أيدي الملائكة. قال الله في بيان رحمته ولطفه بعباده، حيث أرسل إليهم بشرا منهم يكون الإيمان بما جاء به، عن علم وبصيرة، وغيب.

﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ برسالتنا، لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق، ولكان إيمانا بالشهادة، الذي لا ينفع شيئا وحده، هذا إن آمنوا، والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة، فإذا لم يؤمنوا قضي الأمر بتعجيل الهلاك عليهم وعدم إنظارهم، لأن هذه سُنَّة الله، فيمن طلب الآيات المُقترحة فلم يُؤمن بها، فإرسال الرسول البشري إليهم بالآيات البيِّنات، التي يعلم الله أنها أصلح للعباد، وأرفق بهم، مع إمهال الله للكافرين والمُكذِّبين خير لهم وأنفع، فطلبُهم لإنزال الملك شر لهم لو كانوا يعلمون، ومع ذلك، فالملك لو أُنزل عليهم، وأرسل، لم يطيقوا التلقي عنه، ولا احتملوا ذلك، ولا أطاقته قواهم الفانية.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ لأن الحكمة لا تقتضي سوى ذلك.

﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي: ولكان الأمر، مختلطا عليهم، وملبوسا وذلك بسبب ما لبسوه على أنفسهم، فإنهم بنوا أمرهم على هذه القاعدة التي فيها اللبس، وبها عدم بيان الحق، فلما جاءهم الحق، بطرقه الصحيحة، وقواعده التي هي قواعده، لم يكن ذلك هداية لهم، إذا اهتدى بذلك غيرهم، والذنب ذنبهم، حيث أغلقوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا أبواب الضلال.

[١٠: ١١ - ٦]: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾

يقول تعالى مُسلِّيًا لرسوله ومُصبِّرا، ومُتهدِّدا أعداءه ومُتوعِّدا. ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ لما جاءوا أممهم بالبينات، كذبوهم واستهزأوا بهم وبما جاءوا به. فأهلكهم الله بذلك الكفر والتكذيب، ووفى لهم من العذاب أكمل نصيب. ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فاحذروا - أيُّها المُكذِّبون- أن تستمروا على تكذيبكم، فيصيبكم ما أصابهم.

فإن شككتم في ذلك، أو ارتبتم، فسيروا في الأرض، ثم انظروا، كيف كان عاقبة المُكذِّبين، فلن تجدوا إلا قوما مُهلكين، وأُمما في المَثُلات تالفين، قد أوحشت منهم المنازل، وعدم من تلك الربوع كل متمتع بالسرور نازل، أبادهم الملك الجبار، وكان بناؤهم عبرة لأولي الأبصار. وهذا السير المأمور به، سير القلوب والأبدان، الذي يتولَّد منه الاعتبار. وأما مُجرَّد النظر من غير اعتبار، فإن ذلك لا يُفيد شيئا.

[١٢ - ٦]: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ

يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿قُل﴾ لهؤلاء المشركين بالله ، مقررا لهم وملزما بالتوحيد : ﴿لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ أي : مَن الخالق لذلك ، المالك له ، المُتصرّف فيه؟ .

﴿قُل﴾ لهم : ﴿لِّلَّهِ﴾ وهم مُقرّون بذلك لا يُنكرونه ، أفلا حين اعترفوا بانفراد الله بالملك والتدبير ، أن يعترفوا له بالإخلاص والتوحيد؟ .

وقوله : ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ﴾ أي : العالم العلوي والسفلي تحت ملكه وتدبيره ، وهو تعالى قد بسط عليهم رحمته وإحسانه ، وتغمدهم برحمته وامتنانه ، وكتب على نفسه كتابا أن رحمته تغلب غضبه(١٠٠) ، وأن العطاء أحب إليه من المنع ، وأن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة ، إن لم يغلقوا عليهم أبوابها بذنوبهم ، ودعاهم إليها ، إن لم تمنعهم من طلبها معاصيهم وعيوبهم ، وقوله ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ﴾ وهذا قسم منه ، وهو أصدق المخبرين ، وقد أقام على ذلك من الحجج والبراهين ، ما يجعله حق اليقين ، ولكن أبى الظالمون إلا جحودا ، وأنكروا قدرة الله على بعث الخلائق ، فأوضعوا في معاصيه ، وتجرءوا على الكفر به ، فخسروا دنياهم وأخراهم ، ولهذا قال : ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

[ ١٣ : ٢٠ - ٦ ] : ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

اعلم أن هذه السورة الكريمة ، قد اشتملت على تقرير التوحيد ، بكل دليل عقلي ونقلي ، بل كادت أن تكون كلها في شأن التوحيد ومجادلة المشركين بالله المُكذبين لرسوله ، فهذه الآيات ، ذكر الله فيها ما يتبيّن

---

(١٠٠) * مُتّفق عَليه . من حديث أبي هُريرة ، ولفظه : كتب ربكم على نفسه بيده قبل أن يخلق الخلق : رحمتي سبقت غضبي . وفي لفظ : غلبت غضبي . أخرجه البُخاري في صحيحه : ( كتاب بدء الخلق/ باب : ما جاء في قول الله تعالى :﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ﴾ [ سُورة الرُوم ٢٧] / ح ٣١٩٤) . ( كتاب التوحيد / باب : قول الله تعالى : ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [ سُورة آل عمران ٢٨] /ح ٧٤٠٤، وباب : وكان عرشه على الماء/ ح ٧٤٥٣، وباب : قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [ سُورة الصّافات١٧١] / ٧٤٥٣، وباب : قول الله تعالى : ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ [ سُورة البروج٢١]/ ح٧٥٥٣، ٧٥٥٤) . وأخرجه مُسلم في صحيحه : ( كتاب التّوبة / باب : سعة رحمة الله تعالى ، وأنّها سابقة غضبه/ ح ١٤، ١٥، ١٦) .

به الهدى ، وينقمع به الشرك ، فذكر أن ﴿لَهُۥ﴾ تعالى ﴿مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ وذلك هو المخلوقات كلها ، من آدميها ، وجِنِّها ، وملائكتها ، وحيواناتها وجماداتها ، فالكل خلق مُدبرون ، وعبيد مُسخَّرون لربهم العظيم ، القاهر المالك ، فهل يصح في عقل ونقل ، أن يعبد مِن هؤلاء المماليك ، الذي لا نفع عنده ولا ضر؟ ويترك الإخلاص للخالق ، المدبر المالك ، الضار النافع؟! ، أم العقول السليمة ، والفطر المستقيمة ، تدعو إلى إخلاص العبادة ، والحب ، والخوف ، والرجاء للّه رب العالمين؟! .

﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات ، على اختلاف اللغات ، بتفنن الحاجات .

﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما كان ، وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، المطلع على الظواهر والبواطن؟! .

﴿قُلۡ﴾ لهؤلاء المشركين باللّه : ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾ من هؤلاء المخلوقات العاجزة يتولاني ، وينْصرني؟! . فلا أتخذ من دونه تعالى وليا ، لأنه فاطر السماوات والأرض ، أي : خالقهما ومدبرهما . ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾ أي : وهو الرزاق لجميع الخلق ، من غير حاجة منه تعالى إليهم ، فكيف يليق أن أتخذ وليا غير الخالق الرزاق ، الغني الحميد؟« ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ﴾ للّه بالتوحيد ، وانقاد له بالطاعة ، لأني أولى من غيري بامتثال أوامر ربي .

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي : ونهيت أيضا ، عن أن أكون من المُشركين ، لا في اعتقادهم ، ولا في مجالستهم ، ولا في الاجتماع بهم ، فهذا أفرض الفروض عليَّ ، وأوجب الواجبات .

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ فإن المعصية في الشرك توجب الخُلود في النار ، وسخطَ الجبار . وذلك اليوم هو اليوم الذي يُخاف عذابه ، ويُحذر عقابه ؛ لأنه مَن صُرف عنه العذاب يومئذ فهو المرحوم ، ومن نجا فيه فهو الفائز حقا ، كما أن من لم ينج منه فهو الهالك الشقي .

ومن أدلَّة توحيده ، أنه تعالى المنفرد بكشف الضراء ، وجلب الخير والسراء . ولهذا قال : ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ من فقر ، أو مرض ، أو عسر ، أو غم ، أو هم أو نحوه . ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فإذا كان وحده النافع الضار ، فهو الذي يستحق أن يُفرد بالعبودية والإلهية . ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ فلا يتصرف منهم متصرف ، ولا يتحرك متحرك ، ولا يسكن ساكن ، إلا بمشيئته ، وليس للملوك وغيرهم الخروج عن ملكه وسلطانه ، بل هم مُدبَّرون مقهورون ، فإذا كان هو القاهر وغيره مقهورا ، كان هو المُستحق للعبادة .

﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فيما أمر به ونهى ، وأثاب ، وعاقب ، وفيما خلق وقدر .

﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾ المُطَّلع على السرائر والضمائر وخفايا الأُمور ، وهذا كله من أدلة التوحيد .

﴿قُلۡ﴾ لهم – لما بيّنا لهم الهدى ، وأوضحنا لهم المسالك– : ﴿أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾ على هذا الأصل العظيم . ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ أكبر شهادة ، فهو ﴿شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ فلا أعظم منه شهادة ، ولا أكبر ، وهو يشهد لي بإقراره وفعله ، فيقرني على ما قلت لكم ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾ [ سورة الحاقة ٤٤ – ٤٦] .

فالله حكيم قدير ، فلا يليق بحكمته وقدرته أن يقر كاذبا عليه ، زاعما أن الله أرسله ولم يرسله ، وأن الله أمره بدعوة الخلق ولم يأمره ، وأن الله أباح له دماء من خالفه ، وأموالهم ونساءهم ، وهو مع ذلك يصدقه بإقراره وبفعله ، فيؤيّده على ما قال بالمعجزات الباهرة ، والآيات الظاهرة ، وينصره ، ويخذل من خالفه وعاداه ، فأي : شهادة أكبر من هذه الشهادة؟ .

وقوله : ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ أي وأوحى الله إليَّ هذا القرآن الكريم لمنفعتكم ومصلحتكم ، لأنذركم به من العقاب الأليم ، والنذارة إنما تكون بذكر ما ينذرهم به ، من الترغيب ، والترهيب ، وببيان الأعمال ، والأقوال ، الظاهرة والباطنة ، التي مَن قام بها ، فقد قبل النذارة ، فهذا القرآن ، فيه النذارة لكم أيها المخاطبون ، وكل من بلغه القرآن إلى يوم القيامة ، فإن فيه بيان كل ما يحتاج إليه من المطالب الإلهية .

لما بيّن تعالى شهادته التي هي أكبر الشهادات على توحيده ، قال : قل لهؤلاء المعارضين لخبر الله ، والمكذّبين لرسله ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّا أَشْهَدُ﴾ أي : إن شهدوا ، فلا تشهد معهم . فوازِنْ بين شهادة أصدق القائلين ، ورب العالمين ، وشهادة أزكى الخلق المؤيدة بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة ، على توحيد الله وحده لا شريك له ، وشهادة أهل الشرك ، الذين مرجت عقولهم وأديانهم ، وفسدت آراؤهم وأخلاقهم ، وأضحكوا على أنفسهم العقلاء ، بل خالفوا بشهادة فطرهم ، وتناقضت أقوالهم على إثبات أن مع الله آلهة أخرى ، مع أنه لا يقوم على ما قالوه أدنى شبهة ، فضلا عن الحُجج ، واختر لنفسك أي : الشهادتين ، إن كنت تعقل ، ونحن نختار لأنفسنا ما اختاره الله لنبيه ، الذي أمرنا الله بالاقتداء به ، فقال : ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي : منفرد ، لا يستحق العبودية والإلهية سواه ، كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير ، ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ به ، من الأوثان ، والأنداد ، وكل ما أشرك به مع الله . فهذا حقيقة التوحيد ، إثبات الإلهية لله ونفيها عما عداه .

لما بيّن شهادته وشهادة رسوله على التوحيد ، وشهادة المشركين الذين لا علم لديهم على ضده ، ذكر أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أي : يعرفون صحة التوحيد ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ أي : لا شك عندهم فيه بوجه ، كما أنهم لا يشتبهون بأولادهم ، خصوصا البنين الملازمين في الغالب لآبائهم .

ويحتمل أن الضمير عائد إلى الرسول محمد ﷺ ، وأن أهل الكتاب لا يشتبهون بصحة رسالته ولا يمترون بها ، لما عندهم من البشارات به ، ونعوته التي تنطبق عليه ولا تصلح لغيره ، والمعنيان مُتلازمان .

قوله : ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي : فوتوها ما خلقت له ، من الإيمان والتوحيد ، وحرموها الفضل من الملك المجيد ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فإذا لم يوجد الإيمان منهم ، فلا تسأل عن الخسار والشر ، الذي يحصل لهم .

[٢١ - ٦] : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

أي : لا أعظم ظلما وعنادا ، ممن كان فيه أحد الوصفين ، فكيف لو اجتمعا ، افتراء الكذب على الله ، أو التكذيب بآياته ، التي جاءت بها المُرسلون ، فإن هذا أظلم الناس ، والظالم لا يفلح أبدا .

ويدخل في هذا ، كل من كذب على الله ، بادعاء الشريك له والعوين ، أو زعم أنه ينبغي أن يعبد غيره أو اتخذ له صاحبة أو ولدا ، وكل من رد الحق الذي جاءت به الرسل أو مَنْ قام مقامهم .

[ ٢٢ : ٢٤ - ٦] : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ .

يُخبر تعالى عن مآل أهل الشرك يوم القيامة ، وأنهم يُسألون ويُوبَّخون فيقال لهم ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي إن الله ليس له شريك ، وإنما ذلك على وجه الزعم منهم والافتراء . ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ أي : لم يكن جوابهم حين يفتنون ويختبرون بذلك السؤال ، إلا إنكارهم لشركهم وحلفهم أنهم ما كانوا مشركين .

﴿ٱنظُرْ﴾ متعجبا منهم ومن أحوالهم ﴿كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ﴾ أي : كذبوا كذبا عاد بالخسار على أنفسهم وضرهم -والله- غاية الضرر ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ من الشركاء الذين زعموهم مع الله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرًا .

[٢٥ - ٦] : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ .

أي : ومن هؤلاء المُشركين ، قوم يحملهم بعضَ الأوقات ، بعضُ الدواعي إلى الاستماع لما تقول ، ولكنه استماع خال من قصد الحق واتباعه ، ولهذا لا ينتفعون بذلك الاستماع ، لعدم إرادتهم للخير ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي : أغطية وأغشية ، لئلا يفقهوا كلام الله ، فصان كلامه عن أمثال هؤلاء ، ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ جعلنا ﴿وَقْرًا ۚ﴾ أي : صمما ، فلا يستمعون ما ينفعهم .

﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ﴾ وهذا غاية الظلم والعناد ، أن الآيات البيِّنات الدالة على الحق ، لا ينقادون لها ، ولا يصدقون بها ، بل يجادلون بالباطل الحقَّ ليدحضوه .

ولهذا قال : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي : مأخوذ من صُحف الأولين المسطورة ، التي ليست عن الله ، ولا عن رسله . وهذا من كُفرهم ، وإلا فكيف يكون هذا الكتاب الحاوي لأنباءالسابقين واللاحقين ، والحقائق التي جاءت بها الأنبياء والمرسلون ، والحق ، والقسط ، والعدل التام من كل وجه ، أساطير الأولين؟ .

[٢٦ - ٦] : ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ .

وهم : أي المُشركون بالله ، المُكذِّبون لرسوله ، يجمعون بين الضلال والإضلال ، ينهون الناس عن اتِّباع الحق ، ويحذرونهم منه ، ويُبعدون بأنفسهم عنه ، ولن يضرُّوا الله ولا عباده المُؤمنين ، بفعلهم هذا ، شيئا . ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك .

[ ٢٧ : ٢٩ - ٦] : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ .

يقول تعالى – مُخبرا عن حال المُشركين يوم القيامة ، وإحضارهم النار –: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ ليوبَّخوا ويُقرَّعوا ، لرأيت أمرا هائلا ، وحالا مُفظعة . ولرأيتهم كيف أقروا على أنفسهم بالكُفر والفسوق ، وتمنَّوا أن لو يُردُّون إلى الدنيا .

﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ فإنهم كانوا يخفون في أنفسهم ، أنهم كانوا كاذبين ، ويَبدو في قلوبهم في كثير من الأوقات . ولكن الأغراض الفاسدة ، صدتهم عن ذلك ، وصرفت قلوبهم عن الخير ، وهم كذبة في هذه الأمنية ، وإنما قصدهم ، أن يدفعوا بها عن أنفسهم العذاب .

﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ منكرين للبعث ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أي : ما حقيقة الحال والأمر وما المقصود من إيجادنا ، إلا الحياة الدنيا وحدها ، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ .

[٣٠ – ٦] : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ .

أي : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ الكافرين ﴿إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ﴾ لرأيت أمرا عظيما ، وهَوْلًا جسيما ، ﴿قَالَ﴾ لهم مُوبِّخا ومُقرِّعا : ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ الذي ترون من العذاب ﴿بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ﴾ فأقروا ، واعترفوا حيث لا ينفعهم ذلك ، ﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ .

[٣١ – ٦] : ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ .

أي : قد خاب وخسر ، وحُرِم الخير كله ، من كذَّب بلقاء اللّٰه ، فأوجب له هذا التكذيب ، الاجتراء على المُحرَّمات ، واقتراف المُوبقات ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ وهم على أقبح حال وأسوئه ، فأظهروا غاية الندم ، و ﴿قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ ولكن هذا تحسُّر ذهب وقته ، ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ فإن وزرهم وزر يُثقلهم ، ولا يقدرون على التخلص منه ، ولهذا خلدوا في النار ، واستحقُّوا التأبيد في غضب الجبار .

[٣٢ – ٦] : ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ .

هذه حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة ، أما حقيقة الدنيا فإنها لعب ولهو ، لعب في الأبدان ولهو في القلوب ، فالقلوب لها والهة ، والنفوس لها عاشقة ، والهموم فيها متعلقة ، والاشتغال بها كلعب الصبيان . وأما الآخرة ، فإنها ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ﴾ في ذاتها وصفاتها ، وبقائها ودوامها ، وفيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، من نعيم القلوب والأرواح ، وكثرة السرور والأفراح ، ولكنها ليست لكل أحد ، وإنما هي للمُتَّقين الذين يفعلون

أوامر الله ، ويتركون نواهيه وزواجره ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي : أفلا يكون لكم عقول ، بها تدركون ، أيّ الدارين أحق بالإيثار .

[ ٣٣: ٣٥ - ٦] : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

أي : قد نعلم أن الذي يقول المكذبون فيك يحزنك ويسوءك ، ولم نأمرك بما أمرناك به من الصبر إلا لتحصل لك المنازل العالية والأحوال الغالية ، فلا تظن أن قولهم صادر عن اشتباه في أمرك ، وشك فيك . ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ لأنهم يعرفون صدقك ، ومدخلك ومخرجك ، وجميع أحوالك ، حتى إنهم كانوا يسمونه -قبل البعثة- الأمين .

﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي : فإن تكذيبهم لآيات الله التي جعلها الله على يديك . ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ فاصبر كما صبروا ، تظفر كما ظفروا .

﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ما به يثبت فؤادك ، ويطمئن به قلبك . ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي : شق عليك ، من حرصك عليهم ، ومحبتك لإيمانهم ، فابذل وسعك في ذلك ، فليس في مقدورك ، أن تهدي من لم يرد الله هدايته .

﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أي : فافعل ذلك ، فإنه لا يفيدهم شيئا ، وهذا قطع لطمعه في هدايته أشباه هؤلاء المُعاندين .

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ ولكن حكمته تعالى ، اقتضت أنهم يبقون على الضلال .

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الذين لا يعرفون حقائق الأمور ، ولا ينزلونها على منازلها .

[ ٣٦: ٣٧ - ٦] : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ لدعوتك ، ويلبي رسالتك ، وينقاد لأمرك ونهيك ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ بقلوبهم ما ينفعهم ، وهم أولو الألباب والأسماع ، والمُراد بالسّماع هُنا : سماع القلب والاستجابة ، وإلا فمجرد سماع الأذن ، يشترك فيه البر والفاجر ، فكل المكلفين قد قامت عليهم حُجّة الله تعالى ، باستماع آياته ، فلم يبق لهم عذر ، في عدم القبول .

﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ يحتمل أن المعنى ، مُقابل للمعنى المذكور . أي : إنما يستجيب لك أحياء القلوب ، وأما أموات القلوب ، الذين لا يشعرون بسعادتهم ، ولا يحسون بما ينجيهم ، فإنهم لا

يستجيبون لك ، ولا ينقادون ، وموعدهم القيامة ، يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ، ويحتمل أن المراد بالآية ، على ظاهرها ، وأن الله تعالى يقرر المعاد ، وأنه سيبعث الأموات يوم القيامة ثم ينبئهم بما كانوا يعملون . ويكون هذا ، متضمنا للترغيب في الاستجابة لله ورسوله ، والترهيب من عدم ذلك .

﴿وَقَالُوا۟﴾ أي : المُكذِّبون بالرسول ، تعنُّتًا وعنادا : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يعنون بذلك آيات الاقتراح ، التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة ، كقولهم : ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [ سورة الإسراء ٩٠ - ٩٢] الآيات .

﴿قُلْ﴾ مُجيبا لقولهم : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ فليس في قدرته قصور عن ذلك ، كيف ، وجميع الأشياء منقادة لعزته ، مذعنة لسُلطانه؟! ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون فهم لجهلهم وعدم علمهم يطلبون ما هو شر لهم من الآيات ، التي لو جاءتهم ، فلم يؤمنوا بها لعوجلوا بالعقاب ، كما هي سُنَّة الله ، التي لا تبديل لها ، ومع هذا ، فإن كان قصدهم الآيات التي تبين لهم الحق ، وتوضح السبيل ، فقد أتى محمد ﷺ ، بكل آية قاطعة ، وحُجَّة ساطعة ، دالة على ما جاء به من الحق ، بحيث يتمكن العبد في كل مسألة من مسائل الدين ، أن يجد فيما جاء به عدة أدلة عقلية ونقلية ، بحيث لا تبقي في القلوب أدنى شك وارتياب ، فتبارك الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، وأيده بالآيات البينات ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حي عن بيِّنة ، وإن الله لسميع عليم .

[٣٨ - ٦] : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ .

أي : جميع الحيوانات ، الأرضية والهوائية ، من البهائم والوحوش والطيور ، كلها أمم أمثالكم خلقناها . كما خلقناكم ، ورزقناها كما رزقناكم ، ونفذت فيها مشيئتنا وقدرتنا ، كما كانت نافذة فيكم .

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ أي : ما أهملنا ولا أغفلنا ، في اللوح المحفوظ شيئا من الأشياء ، بل جميع الأشياء ، صغيرها وكبيرها ، مُثبتة في اللوح المحفوظ ، على ما هي عليه ، فتقع جميع الحوادث طبق ما جرى به القلم .

وفي هذه الآية ، دليل على أن الكتاب الأول ، قد حوى جميع الكائنات ، وهذا أحد مراتب القضاء والقدر ، فإنها أربع مراتب : علم الله الشامل لجميع الأشياء ، وكتابه المحيط بجميع الموجودات ، ومشيئته وقدرته النافذة العامة لكل شيء ، وخلقه لجميع المخلوقات ، حتى أفعال العباد .

ويحتمل أن المُراد بالكتاب ، هذا القرآن ، وأن المعنى كالمعنى في قوله تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [ سُورة النّحل ٨٩] .

وقوله ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي : جميع الأمم تحشر وتجمع إلى الله في موقف القيامة ، في ذلك الموقف العظيم الهائل ، فيُجازيهم بعدله وإحسانه ، ويمضي عليهم حكمه الذي يحمده عليه الأولون والآخرون ، أهل السماء وأهل الأرض .

[٣٩ - ٦] : ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ .

هذا بيان لحال المُكذِّبين بآيات اللّه ، المُكذِّبين لرُسله ، أنهم قد سدُّوا على أنفسهم باب الهُدى ، وفتحوا باب الردى ، وأنهم ﴿صُمٌّ﴾ عن سماع الحق ﴿وَبُكْمٌ﴾ عن النطق به ، فلا ينطقون إلا بباطل . ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي : مُنغمسون في ظُلمات الجهل ، والكفر ، والظلم ، والعناد ، والمعاصي . وهذا من إضلال اللّه إياهم ، فـ ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لأنه المُنفرد بالهداية والإضلال ، بحسب ما اقتضاه فضله وحكمته .

[ ٤٠ : ٤١ - ٦] : ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ .

يقول تعالى لرسوله : ﴿قُلْ﴾ للمشركين باللّه ، العادلين به غيره : ﴿أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي : إذا حصلت هذه المشقَّات ، وهذه الكُروب ، التي يضطر إلى دفعها ، هل تدعون آلهتكم وأصنامكم ، أم تدعون ربكم الملك الحق المُبين .

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ فإذا كانت هذه حالكم مع أندادكم عند الشدائد ، تنسونهم ، لعلمكم أنهم لا يملكون لكم ضرا ولا نفعا ، ولا موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا ، وتُخلِصونَ للّه الدعاء ، لعلمكم أنه هو النافع الضار ، المجيب لدعوة المضطر ، فما بالكم في الرخاء تشركون به ، وتجعلون له شركاء؟ ، هل دلكم على ذلك ، عقل أو نقل ، أم عندكم من سلطان بهذا؟ بل تفترون على اللّه الكذب؟

[ ٤٢ : ٤٥ - ٦] : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ من الأُمم السالفين ، والقُرون المُتقدِّمين ، فكذَّبوا رُسلنا ، وجحدوا بآياتنا .

﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي : بالفقر والمرض والآفات ، والمصائب ، رحمة منا بهم . ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ إلينا ، ويلجأون عند الشدة إلينا .

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي : استحجرت فلا تلين للحق . ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فظنوا أن ما هم عليه دين الحق ، فتمتعوا في باطلهم برهة من الزمان ، ولعب بعقولهم الشيطان .

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الدنيا ولذاتها وغفلاتها . ﴿حَتَّىٰ

إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ أي : آيسون من كل خير ، وهذا أشد ما يكون من العذاب ، أن يؤخذوا على غرة ، وغفلة وطمأنينة ، ليكون أشد لعقوبتهم ، وأعظم لمصيبتهم .

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي اصطلموا بالعذاب ، وتقطَّعت بهم الأسباب .

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على ما قضاه وقدره ، من هلاك المُكذِّبين ؛ فإن بذلك ، تتبين آياته ، وإكرامه لأوليائه ، وإهانته لأعدائه ، وصدق ما جاءت به المُرسلون .

[ ٦ : ٤٦ – ٤٧ ] : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

يُخبر تعالى أنه كما أنه هو المتفرد بخلق الأشياء وتدبيرها ، فإنه المنفرد بالوحدانية والإلهية فقال : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ فبقيتم بلا سمع ولا بصر ولا عقل ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ فإذا لم يكن غير الله يأتي بذلك ، فلم عبدتم معه من لا قدرة له على شيء إلا إذا شاءه الله .

وهذا من أدلة التوحيد وبطلان الشرك ، ولهذا قال : ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أي : ننوعها ، ونأتي بها في كل فن ، ولتنير الحق ، وتتبين سبيل المجرمين ، ﴿ثُمَّ هُمْ﴾ مع هذا البيان التام ﴿يَصْدِفُونَ﴾ عن آيات الله ، ويعرضون عنها .

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ أي : أخبروني ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ أي : مُفاجأة أو قد تُقدَّم أمامه مُقدِّمات ، تعلمون بها وقوعه . ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ الذين صاروا سببا لوقوع العذاب بهم ، بظلمهم وعنادهم . فاحذروا أن تقيموا على الظلم ، فإنه الهلاك الأبدي ، والشقاء السرمدي .

[ ٦ : ٤٨ – ٤٩ ] : ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ .

يذكر تعالى ، زبدة ما أرسل به المُرسلين ؛ أنه البشارة والنذارة ، وذلك مُستلزم لبيان المُبشر والمُبشَّر به ، والأعمال التي إذا عملها العبد ، حصلت له البشارة . والمنذر والمنذر به ، والأعمال التي من عملها ، حقت عليه النذارة . ولكن الناس انقسموا –بحسب إجابتهم لدعوتهم وعدمها – إلى قسمين : ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾ أي : آمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله واليوم الآخر ، وأصلح إيمانه وأعماله ونيته ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبل ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى . ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي : ينالهم ، ويذوقونه ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ .

[ ٦ – ٥٠ ] : ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ .

يقول تعالى لنبيه ﷺ ؛ المقترحين عليه الآيات ، أو القائلين له : إنما تدعونا لنتخذك إلها مع الله . ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أي : مفاتيح رزقه ورحمته ، ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ وإنما ذلك كله عند الله فهو

الذي ما يفتح للناس من رحمة فلا مُمسك لها وما يُمسك فلا مُرسل له من بعده ، وهو وحده عالم الغيب والشهادة . فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول .

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فأكون نافذ التصرف قويا ، فلست أدَّعي فوق منزلتي ، التي أنزلني الله بها ، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي : هذا غايتي ومنتهى أمري وأعلاه ، إن أتبع إلا ما يوحى إلي ، فأعمل به في نفسي ، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك . فإذا عرفت منزلتي ، فلأي شيء يبحث الباحث معي ، أو يطلب مني أمرا لست أدعيه ، وهل يلزم الإنسان ، بغير ما هو بصدده؟ . ولأي شيء إذا دعوتكم ، بما أوحي إلي أن تلزموني أني أدعي لنفسي غير مرتبتي . وهل هذا إلا ظلم منكم ، وعناد ، وتمرد؟ قل لهم في بيان الفرق ، بين من قبل دعوتي ، وانقاد لما أوحي إلي ، وبين من لم يكن كذلك ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فتنزلون الأشياء منازلها ، وتختارون ما هو أولى بالاختيار والإيثار ؟.

[ ٥١ : ٥٥ - ٦ ] : ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ .

هذا القرآن نذارة للخلق كلهم ، ولكن إنما ينتفع به ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فهم متيقنون للانتقال ، من هذه الدار ، إلى دار القرار ، فلذلك يستصحبون ما ينفعهم ويدَعُون ما يضرهم .

﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أي : لا من دون الله ﴿وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي : من يتولى أمرهم فيحصّل لهم المطلوب ، ويدفع عنهم المحذور ، ولا من يشفع لهم ، لأن الخلق كلهم ، ليس لهم من الأمر شيء .

﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله ، بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، فإن الإنذار موجب لذلك ، وسبب من أسبابه .

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي : لا تطرد عنك ، وعن مجالستك ، أهل العبادة والإخلاص ، رغبة في مجالسة غيرهم ، من المُلازمين لدُعاء ربهم ، دُعاء العبادة بالذِّكر والصَّلاة ونحوها ، ودُعاء المسألة ، في أوَّل النهار وآخره ، وهم قاصدون بذلك وجه الله ، ليس لهم من الأغراض سوى ذلك الغرض الجليل ، فهؤلاء ليسوا مستحقين للطرد والإعراض عنهم ، بل مستحقون لموالاتهم ومحبتهم ، وإدنائهم ، وتقريبهم ، لأنهم الصفوة من الخلق وإن كانوا فقراء ، والأعزاء في الحقيقة وإن كانوا عند الناس أذلاء .

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي : كلٌّ له حسابه ، وله عمله الحسن ، وعمله القبيح .

﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وقد امتثل ﷺ هذا الأمر، أشد امتثال، فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين صبر نفسه معهم، وأحسن معاملتهم، وألان لهم جانبه، وحسن خلقه، وقربهم منه، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه رضي الله عنهم.

وكان سبب نزول هذه الآيات، أن أُناسا من قريش، أو من أجلاف العرب قالوا للنبي ﷺ: إن أردت أن نؤمن لك ونتبعك، فاطرد فلانا وفلانا، أناسا من فقراء الصحابة، فإنا نستحيي أن ترانا العرب جالسين مع هؤلاء الفقراء، فحمله حبه لإسلامهم، واتباعهم له، فحدثته نفسه بذلك، فعاتبه الله بهذه الآية ونحوها.[١٠١]

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ أي: هذا من ابتلاء الله لعباده، حيث جعل بعضهم غنيا؛ وبعضهم فقيرا، وبعضهم شريفا، وبعضهم وضيعا، فإذا مَنَّ الله بالإيمان على الفقير أو الوضيع؛ كان ذلك محل محنة للغني والشريف فإن كان قصده الحق واتباعه، آمن وأسلم، ولم يمنعه من ذلك مشاركه الذي يراه دونه بالغنى أو الشرف، وإن لم يكن صادقا في طلب الحق، كانت هذه عقبة ترده عن اتباع الحق، وقالوا محتقرين لمن يرونهم دونهم: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ فمنعهم هذا من اتباع الحق، لعدم زكائهم، قال الله مجيبا لكلامهم المتضمن الاعتراض على الله في هداية هؤلاء، وعدم هدايتهم هم. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ الذين يعرفون النعمة، ويقرون بها، ويقومون بما تقتضيه من العمل الصالح، فيضع فضله ومنَّته عليهم، دون من ليس بشاكر، فإن الله تعالى حكيم، لا يضع فضله عند من ليس له بأهل، وهؤلاء المعترضون بهذا الوصف، بخلاف من مَنَّ الله عليهم بالإيمان، من الفقراء وغيرهم فإنهم هم الشاكرون.

ولما نهى الله رسولَه، عن طرد المؤمنين القانتين، أمَره بمقابلتهم بالإكرام والإعظام، والتبجيل والاحترام، فقال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: وإذا جاءك المؤمنون، فحَيِّهم ورحِّب بهم ولَقِّهم منك تحية وسلاما، وبشرهم بما ينشط عزائمهم وهممهم، من رحمة الله، وسعة جوده وإحسانه، وحثهم على كل سبب وطريق، يوصل لذلك. ورَهِّبْهم من الإقامة على الذنوب، وأْمُرْهم بالتوبة من المعاصي، لينالوا مغفرة ربهم وجوده، ولهذا قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ أي: فلا بد مع ترك الذنوب والإقلاع، والندم عليها، من إصلاح العمل، وأداء ما أوجب الله، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة. فإذا وجد ذلك كله ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: صب عليهم من مغفرته ورحمته، بحسب ما قاموا به، مما أمرهم به.

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: نوضحها ونبينها، ونميز بين طريق الهدى من الضلال، والغي والرشاد، ليهتدي بذلك المهتدون، ويتبين الحق الذي ينبغي سلوكه، ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾

---

(١٠١) * أخرجه مُسلم في صحيحه: (كتاب فضائل الصَّحابة/ باب: في فضل سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه / ح ٤٦). من حديث سعد بن أبي وقَّاص، وسمَّاهم فقال سعد: كُنتُ أنا، وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان لست أسميهما.

الموصلة إلى سخط الله وعذابه ، فإن سبيل المجرمين إذا استبانت واتضحت ، أمكن اجتنابها ، والبعد منها ، بخلاف ما لو كانت مُشتبهة مُلتبسة ، فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل .

[ ٥٦ : ٥٨ - ٦ ] : ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ .

يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين الذين يدعون مع الله آلهة أخرى : ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأنداد والأوثان ، التي لا تملك نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، فإن هذا باطل ، وليس لكم فيه حجة بل ولا شبهة ، ولا اتباع الهوى الذي اتباعه أعظم الضلال ، ولهذا قال ﴿قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي : إن اتبعت أهواءكم ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ بوجه من الوجوه ، وأما ما أنا عليه ، من توحيد الله وإخلاص العمل له ، فإنه هو الحق الذي تقوم عليه البراهين والأدلة القاطعة ، وأنا ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي : على يقين مبين ، بصحته ، وبطلان ما عداه ، وهذه شهادة من الرسول جازمة ، لا تقبل التردد ، وهو أعدل الشهود على الإطلاق ، فصدق بها المؤمنون ، وتبيَّن لهم من صحتها وصدقها ، بحسب ما مَنَّ الله به عليهم .

﴿وَ﴾ لكنكم أيها المشركون - ﴿كَذَّبْتُم بِهِ﴾ وهو لا يستحق هذا منكم ، ولا يليق به إلا التصديق ، وإذا استمررتم على تكذيبكم ، فاعلموا أن العذاب واقع بكم لا محالة ، وهو عند الله ، هو الذي ينزله عليكم ، إذا شاء ، وكيف شاء ، وإن استعجلتم به ، فليس بيدي من الأمر شيء ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فكما أنه هو الذي حكم بالحكم الشرعي ، فأمر ونهى ، فإنه سيحكم بالحكم الجزائي ، فيثيب ويعاقب ، بحسب ما تقتضيه حكمته .

فالاعتراض على حكمه مطلقا مدفوع ، وقد أوضح السبيل ، وقص على عباده الحق قصا ، قطع به معاذيرهم ، وانقطعت له حجتهم ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حي عن بينة ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ بين عباده ، في الدنيا والآخرة ، فيفصل بينهم فصلا ، يحمده عليه ، حتى من قضى عليه ، ووجه الحق نحوه .

﴿قُل﴾ للمُستعجلين بالعذاب ، جهلا وعنادا وظُلما ، ﴿لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فأوقعته بكم ولا خير لكم في ذلك ، ولكن الأمر ، عند الحليم الصبور ، الذي يعصيه العاصون ، ويتجرأ عليه المتجرئون ، وهو يعافيهم ، ويرزقهم ، ويُسدي عليهم نعمه ، الظاهرة والباطنة .

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ لا يخفى عليه من أحوالهم شيء ، فيُمهلهم ولا يُهملهم .

[٥٩ - ٦] : ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ .

هذه الآية العظيمة ، من أعظم الآيات تفصيلا لعلمه المحيط ، وأنه شامل للغيوب كلها ، التي يطلع منها

ما شاء من خلقه . وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المُقرَّبين ، والأنبياء المُرسلين ، فضلا عن غيرهم من العالمين ، وأنه يعلم ما في البراري والقفار ، من الحيوانات ، والأشجار ، والرمال والحصى ، والتراب ، وما في البحار من حيواناتها ، ومعادنها ، وصيدها ، وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها ، ويشتمل عليه ماؤها .

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ من أشجار البر والبحر ، والبلدان والقفر ، والدنيا والآخرة ، إلا يعلمها ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ من حبوب الثمار والزروع ، وحبوب البذور التي يبذرها الخلق ؛ وبذور النوابت البرية التي ينشئ منها أصناف النباتات ، ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ هذا عُموم بعد خصوص ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ ، قد حواها ، واشتمل عليها ، وبعض هذا المذكور ، يبهر عقول العقلاء ، ويذهل أفئدة النبلاء ، فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته ، في أوصافه كلها .

وأن الخلق – من أولهم إلى آخرهم– لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته ، لم يكن لهم قدرة ولا وسع في ذلك ، فتبارك الرب العظيم ، الواسع العليم ، الحميد المجيد ، الشهيد ، المُحيط . وجل مِنْ إله ، لا يحصي أحد ثناء عليه ، بل كما أثنى على نفسه ، وفوق ما يثني عليه عباده ، فهذه الآية ، دلَّت على علمه المُحيط بجميع الأشياء ، وكتابه المُحيط بجميع الحوادث .

[ ٦٠: ٦٢ – ٦] : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ .

هذا كله ، تقرير لألوهيته ، واحتجاج على المُشركين به ، وبيان أنه تعالى المُستحق للحُبِّ والتعظيم ، والإجلال والإكرام ، فأخبر أنه وحده ، المتفرد بتدبير عباده ، في يقظتهم ومنامهم ، وأنه يتوفاهم بالليل ، وفاة النوم ، فتهدأ حركاتهم ، وتستريح أبدانهم ، ويبعثهم في اليقظة من نومهم ، ليتصرفوا في مصالحهم الدينية والدنيوية وهو –تعالى– يعلم ما جرحوا وما كسبوا من تلك الأعمال ؛ ثم لا يزال تعالى هكذا ، يتصرف فيهم ، حتى يستوفوا آجالهم . فيقضى بهذا التدبير ، أجل مسمى ، وهو : أجل الحياة ، وأجل آخر فيما بعد ذلك ، وهو البعث بعد الموت ، ولهذا قال : ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ لا إلى غيره ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر .

﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ينفذ فيهم إرادته الشاملة ، ومشيئته العامة ، فليسوا يملكون من الأمر شيئا ، ولا يتحرَّكون ولا يسكنون إلا بإذنه ، ومع ذلك ، فقد وكل بالعباد حفظةً من الملائكة ، يحفظون العبد ويحفظون عليه ما عمل ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [ سُورة الانفطار ١٠ – ١٢] ؛ ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ سُورة ق ١٧ – ١٨] ، فهذا حفظه لهم في حال الحياة .

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي الملائكة الموكَّلون بقبض الأرواح ، ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ في ذلك ، فلا يزيدون ساعة مما قدره الله وقضاه ولا ينقصون ، ولا ينفذون من ذلك ، إلا بحسب

المراسيم الإلهية والتقادير الربانية.

﴿ثُمَّ﴾ بعد الموت والحياة البرزخية، وما فيها من الخير والشر ﴿رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ أي: الذي تولاهم بحكمه القدري، فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التدبير، ثم تولاهم بأمره ونهيه، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، ثم ردوا إليه ليتولى الحكم فيهم بالجزاء، ويثيبهم على ما عملوا من الخيرات، ويعاقبهم على الشرور والسيئات، وَلهذا قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ وحده لا شريك له ﴿وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ لكمال علمه وحفظه لأعمالهم، بما أثبتته في اللوح المحفوظ، ثم أثبته ملائكته في الكتاب، الذي بأيديهم، فإذا كان تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير، وهو القاهر فوق عباده، وقد اعتنى بهم كل الاعتناء، في جميع أحوالهم، وهو الذي له الحكم القدري، والحُكم الشرعي، والحُكم الجزائي، فأين للمُشركين العدولُ عن من هذا وصفه ونعته، إلى عبادة من ليس له من الأمر شيء، ولا عنده مثقال ذرة من النفع، ولا له قدرة وإرادة؟!.

أما والله لو علموا حلم الله عليهم، وعفوه ورحمته بهم، وهم يبارزونه بالشرك والكفران، ويتجرؤون على عظمته بالإفك والبهتان، وهو يعافيهم ويرزقهم لانجذبت، دواعيهم إلى معرفته، وذهلت عقولهم في حبه. ولمقتوا أنفسهم أشد المقت، حيث انقادوا لداعي الشيطان، الموجب للخزي والخُسران، ولكنهم قوم لا يعقلون.

[٦٣: ٦٤ - ٦]: ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾.

أي ﴿قُلۡ﴾ للمُشركين بالله، الداعين معه آلهة أخرى، ملزما لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية، على ما أنكروا من توحيد الإلهية ﴿مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ أي: شدائدهما ومشقاتهما، وحين يتعذر أو يتعسر عليكم وجه الحيلة، فتدعون ربكم تضرعا بقلب خاضع، ولسان لا يزال يلهج بحاجته في الدعاء، وتقولون وأنتم في تلك الحال: ﴿لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ﴾ الشدة التي وقعنا فيها ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لله، أي المعترفين بنعمته، الواضعين لها في طاعة ربهم، الذين حفظوها عن أن يبذلوها في معصيته.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ﴾ أي: من هذه الشدَّة الخاصة، ومن جميع الكروب العامَّة. ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾ لا تُفون لله بما قُلتم، وتنسون نعمه عليكم، فأي برهان أوضح من هذا على بُطلان الشرك، وصحة التوحيد؟.

[٦٥: ٦٧ - ٦]: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾.

أي: هو تعالى قادر على إرسال العذاب إليكم من كل جهة. ﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ﴾ أي: يخلطكم ﴿شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ﴾ أي: في الفتنة، وقتل بعضكم بعضا. فهو قادر على

ذلك كله ، فاحذروا من الإقامة على معاصيه ، فيصيبكم من العذاب ما يتلفكم ويمحقكم ، ومع هذا فقد أخبر أنه قادر على ذلك ، ولكن من رحمته ، أن رفع عن هذه الأُمَّة العذاب من فوقهم بالرجم والحصب ، ونحوه ، ومن تحت أرجلهم بالخسف . ولكن عاقب من عاقب منهم ، بأن أذاق بعضهم بأس بعض ، وسلَّط بعضهم على بعض ، عقوبة عاجلة يراها المعتبرون ، ويشعر بها العالمون ، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي : ننوعها ، ونأتي بها على أوجه كثيرة وكلها دالة على الحق ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أي : يفهمون ما خلقوا من أجله ، ويفقهون الحقائق الشرعية ، والمطالب الإلهية .

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾ أي : بالقرآن ﴿قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا مرية فيه ، ولا شك يعتريه ، ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أحفظ أعمالكم ، وأجازيكم عليها ، وإنما أنا منذر ومبلغ ، ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي : وقت يستقر فيه ، وزمان لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما توعدون به من العذاب .

[ ٦٨ : ٦٩ – ٦ ] : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَـٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ .

المُراد بالخوض في آيات اللّٰه : التّكلُّم بما يخالف الحق ، من تحسين المقالات الباطلة ، والدعوة إليها ، ومدح أهلها ، والإعراض عن الحق ، والقدح فيه وفي أهله ، فأمر اللّٰه رسوله أصلا ، وأمته تبعا ، إذا رأوا من يخوض بآيات اللّٰه بشيء مما ذكر ، بالإعراض عنهم ، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل ، والاستمرار على ذلك ، حتى يكون البحث والخوض في كلام غيره ، فإذا كان في كلام غيره ، زال النهي المذكور . فإن كان مصلحة كان مأمورا به ، وإن كان غير ذلك ، كان غير مفيد ولا مأمور به ، وفي ذم الخوض بالباطل ، حث على البحث ، والنظر ، والمناظرة بالحق .

ثم قال : ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ أي : بأن جلست معهم ، على وجه النسيان والغفلة . ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ يشمل الخائضين بالباطل ، وكل مُتكلِّم بمُحرَّم ، أو فاعل لمُحرَّم ، فإنه يَحْرُم الجلوس والحضور عند حضور المُنكر ، الذي لا يُقدر على إزالته . هذا النهي والتحريم ، لمن جلس معهم ، ولم يستعمل تقوى اللّٰه ، بأن كان يشاركهم في القول والعمل المُحرَّم ، أو يسكت عنهم ، وعن الإنكار ، فإن استعمل تقوى اللّٰه تعالى ، بأن كان يأمرهم بالخير ، وينهاهم عن الشر والكلام الذي يصدر منهم ، فيترتَّب على ذلك زوال الشر أو تخفيفه ، فهذا ليس عليه حرج ولا إثم ، ولهذا قال : ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَـٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي : ولكن ليُذكِّرهم ، ويعظهم ، لعلَّهم يتَّقون اللّٰه تعالى .

وفي هذا دليل على أنه ينبغي أن يُستعمل المذكِّرُ من الكلام ، ما يكون أقرب إلى حصول مقصود التقوى . وفيه دليل على أنه إذا كان التذكير والوعظ ، مما يزيد الموعوظ شرا إلى شره ، إلى أن تركه هو الواجب لأنه إذا ناقض المقصود ، كان تركه مقصودا .

[ ٧٠ - ٦ ] : ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ .

المقصود من العباد ، أن يخلصوا للّه الدين ، بأن يعبدوه وحده لا شريك له ، ويبذلوا مقدورهم في مرضاته ومحابه . وذلك متضمن لإقبال القلب على اللّه وتوجهه إليه ، وكون سعي العبد نافعا ، وجدًا ، لا هزلا ، وإخلاصا لوجه اللّه ، لا رياء وسمعة ، هذا هو الدين الحقيقي ، الذي يقال له دين ، فأما من زعم أنه على الحق ، وأنه صاحب دين وتقوى ، وقد اتخذ دينَه لعبا ولهوا . بأن لَهَا قلبه عن محبة اللّه ومعرفته ، وأقبل على كل ما يضره ، ولَهَا في باطله ، ولعب فيه ببدنه ، لأن العمل والسعي إذا كان لغير اللّه ، فهو لعب ، فهذا أَمَر اللّه تعالى أن يترك ويحذر ، ولا يغتر به ، وتنظر حاله ، ويحذر من أفعاله ، ولا يغتر بتعويقه عمّا يُقرّب إلى اللّه .

﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾ أي : ذكر بالقرآن ، ما ينفع العباد ، أمرا ، وتفصيلا ، وتحسينا له ، بذكر ما فيه من أوصاف الحسن ، وما يضر العباد نهيا عنه ، وتفصيلا لأنواعه ، وبيان ما فيه ، من الأوصاف القبيحة الشنيعة ، الداعية لتركه ، وكل هذا لئلا تبسل نفس بما كسبت ، أي : قبل اقتحام العبد للذنوب وتجرّئه على علام الغيوب ، واستمرارها على ذلك المرهوب ، فذكرها ، وعظها ، لترتدع وتنزجر ، وتكف عن فعلها .

وقوله : ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي : قبل أن تحيط بها ذنوبها ، ثم لا ينفعها أحد من الخلق ، لا قريب ولا صديق ، ولا يتولاها من دون اللّه أحد ، ولا يشفع لها شافع ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ أي : تفتدي بكُلِّ فداء ، ولو بملء الأرض ذهبا ﴿لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ أي : لا يُقبل ولا يفيد . ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿الَّذِينَ أُبْسِلُوا﴾ أي : أهلكوا وأيسوا من الخير ، وذلك ﴿بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي : ماء حار قد انتهى حره ، يشوي وجوههم ، ويقطع أمعاءهم ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ .

[ ٧١ : ٧٣ - ٦ ] : ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ .

﴿قُلْ﴾ يا أيُّها الرسول للمُشركين باللّه ، الداعين معه غيره ، الذين يدعونكم إلى دينهم ، مُبيّنًا وشارحًا لوصف آلهتهم ، التي يكتفي العاقل بذكر وصفها ، عن النهي عنها ، فإن كل عاقل إذا تصوّر مذهب المُشركين جزم ببطلانه ، قبل أن تُقام البراهين على ذلك ، فقال : ﴿أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ وهذا وصف ، يدخل فيه كل مَن عُبِد مِنْ دون اللّه ، فإنه لا ينفع ولا يضر ،

ولـيس له من الأمر شيء ، إن الأمر إلا لله .

﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي : وننقلب بعد هداية الله لنا إلى الضلال ، ومن الرشد إلى الغي ، ومن الصراط الموصل إلى جنات النعيم ، إلى الطرق التي تفضي بسالكها إلى العذاب الأليم . فهذه حال لا يرتضيها ذو رشد ، وصاحبها ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي : أضلته وتيهته عن طريقه ومنهجه له الموصل إلى مقصده ، فبقي ﴿حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى﴾ والشياطين يدعونه إلى الردى ، فبقي بين الداعيين حائرا وهذه حال الناس كلهم ، إلا من عصمه الله تعالى ، فإنهم يجدون فيهم جواذب ودواعي مُتعارضة ، دواعي الرسالة والعقل الصحيح ، والفطرة المستقيمة ﴿يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى﴾ والصعود إلى أعلى عليين ، ودواعي الشيطان ، ومن سلك مسلكه ، والنفس الأمارة بالسوء ، يدعونه إلى الضلال ، والنزول إلى أسفل سافلين ، فمن الناس من يكون مع داعي الهدى ، في أموره كلها أو أغلبها ، ومنهم من بالعكس من ذلك . ومنهم من يتساوى لديه الداعيان ، ويتعارض عنده الجاذبان ، وفي هذا الموضع ، تعرف أهل السعادة من أهل الشقاوة .

وقوله : ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي : ليس الهدى إلا الطريق التي شرعها الله على لسان رسوله ، وما عداه ، فهو ضلال وردى وهلاك .

﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ بأن ننقاد لتوحيده ، ونستسلم لأوامره ونواهيه ، وندخل تحت عبوديته ، فإن هذا أفضل نعمة أنعم الله بها على العباد ، وأكمل تربية أوصلها إليهم .

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي : وأمرنا أن نقيم الصلاة بأركانها وشروطها وسننها ومكملاتها .

﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ بفعل ما أمر به ، واجتناب ما عنه نهى .

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي : تُجمَعون ليوم القيامة ، فيجازيكم بأعمالكم ، خيرها وشرها .

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ ليأمر العباد وينهاهم ، ويثيبهم ويعاقبهم ، ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا مرية فيه ولا مثنوية ، ولا يقول شيئا عبثا ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ أي : يوم القيامة ، خصه بالذكر -مع أنه مالك كل شيء- لأنه تنقطع فيه الأملاك ، فلا يبقى ملك إلا الله الواحد القهار .

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الذي له الحكمة التامة ، والنعمة السابغة ، والإحسان العظيم ، والعلم المحيط بالسرائر والبواطن والخفايا ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

[ ٧٤: ٨٣ – ٦] : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾

يقول تعالى : واذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، مُثنيًا عليه ومُعظِّما في حال دعوته إلى التوحيد ، ونهيه عن الشرك ، وإذ قال لأبيه ﴿ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً﴾ أي : لا تنفع ولا تضر وليس لها من الأمر شيء ، ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ حيث عبدتم من لا يستحق من العبادة شيئا ، وتركتم عبادة خالقكم ، ورازقكم ، ومدبركم .

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ حين وفقناه للتوحيد والدعوة إليه ﴿نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي : ليرى ببصيرته ، ما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ فإنه بحسب قيام الأدلة ، يحصل له الإيقان والعلم التام بجميع المطالب .

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ أي : أظلم ﴿رَءَا كَوۡكَبٗاۖ﴾ لعله من الكواكب المضيئة ، لأن تخصيصه بالذكر ، يدل على زيادته عن غيره ، ولهذا -والله أعلم- قال من قال : إنه الزهرة ، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ أي : على وجه التنزل مع الخصم أي : هذا ربي ، فهلم ننظر ، هل يستحق الربوبية؟ ، وهل يقوم لنا دليل على ذلك؟ ، فإنه لا ينبغي لعاقل أن يتَّخذ إلهه هواه ، بغير حجة ولا برهان .

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي : غاب ذلك الكوكب ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ أي : الذي يغيب ويختفي عمَّن عبده ، فإن المعبود لا بد أن يكون قائما بمصالح من عبده ، ومُدبِّرًا له في جميع شئونه ، فأما الذي يمضي وقت كثير وهو غائب ، فمن أين يستحق العبادة؟! ، وهل اتخاذه إلها إلا من أسفه السفه ، وأبطل الباطل؟! .

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا﴾ أي : طالعا ، رأى زيادته على نور الكواكب ومخالفته لها ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ تنزلا ، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ فافتقر غاية الافتقار إلى هداية ربه ، وعلم أنه إن لم يهده الله فلا هادي له ، وإن لم يعنه على طاعته ، فلا معين له .

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾ من الكوكب ومن القمر ، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ﴾ تقرَّر حينئذ الهدى ، واضمحل الردى فـ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ حيث قام البرهان الصادق الواضح ، على بطلانه ، ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ﴾ أي : لله وحده ، مُقبلا عليه ، معرضا عن من سواه .

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ فتبرأ من الشرك ، وأذعن بالتوحيد ، وأقام على ذلك البرهان ، وهذا الذي ذكرنا في تفسير هذه الآيات ، هو الصواب ، وهو أن المقام مقام مناظرة ، من إبراهيم لقومه ، وبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها . وأما من قال : إنه مقام نظر في حال طفوليته ، فليس عليه دليل .

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ أيُّ فائدة لمُحاجة من لم يتبيَّن له الهُدى؟ ، فأما من هداه الله ، ووصل إلى أعلى درجات اليقين ، فإنه -هو بنفسه- يدعو الناس إلى ما هو عليه . ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ فإنها لن تضرني ، ولن تمنع عني من النفع شيئا ، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أنه وحده المعبود المستحق للعبودية .

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ وحالها حال العجز ، وعدم النفع ، ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ﴾ أي : إلا بمُجرَّد اتِّباع الهوى ، ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

قال الله تعالى فاصلًا بين الفريقين : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟﴾ أي : يخلطوا ﴿إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الأمن من المخاوف والعذاب والشقاء ، والهدايةُ إلى الصراط المُستقيم ، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظُلم مُطلقا ، لا بشرك ، ولا بمعاص ، حصل لهم الأمن التام ، والهداية التامة . وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده ، ولكنهم يعملون السيئات ، حصل لهم أصل الهداية ، وأصل الأمن ، وإن لم يحصل لهم كمالها .

ومفهوم الآية الكريمة ، أن الذين لم يحصل لهم الأمران ، لم يحصل لهم هداية ، ولا أمن ، بل حظهم الضلال والشقاء .

ولما حكم لإبراهيم عليه السلام ، بما بيَّن به من البراهين القاطعة قال : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ﴾ أي : علا بها عليهم ، وفلجهم بها . ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ﴾ كما رفعنا درجات إبراهيم عليه السلام في الدنيا والآخرة ، فإن العلم يرفع الله به صاحبه فوق العباد درجات ، خُصوصا العالم العامل المُعلِّم ، فإنه يجعله الله إماما للناس ، بحسب حاله ترمق أفعاله ، وتقتفى آثاره ، ويُستضاء بنوره ، ويمشى بعلمه في ظُلمة ديجوره . قال تعالى : ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [ سورة المجادلة ١١ ] . ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فلا يضع العلم والحكمة ، إلا في المحل اللائق بها ، وهو أعلم بذلك المحل ، وبما ينبغي له .

[ ٨٤ : ٩٠ – ٦ ] : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾

لما ذكر الله تعالى عبده وخليله ، إبراهيم عليه السلام ، وذكر ما مَنَّ الله عليه به ، من العلم والدعوة ، والصبر ،

ذكر ما أكرمه الله به من الذرية الصالحة ، والنسل الطيب ، وأن الله جعل صفوة الخلق من نسله ، وأعظم بهذه المنقبة والكرامة الجسيمة ، التي لا يدرك لها نظير فقال : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ابنه ، الذي هو إسرائيل ، أبو الشعب الذي فضّله الله على العالمين ، ﴿كُلًّا﴾ منهما ﴿هَدَيْنَا﴾ الصراط المُستقيم ، في علمه وعمله .

﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ وهدايته من أنواع الهدايات الخاصة التي لم تحصل إلا لأفراد من العالم ؛ وهم أولو العزم من الرسل ، الذي هو أحدهم ، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ يُحتمل أن الضمير عائد إلى نوح ، لأنه أقرب مذكور ، ولأن الله ذكر مع من ذكر لوطا ، وهو من ذرية نوح ، لا من ذرية إبراهيم لأنه ابن أخيه ، ويحتمل أن الضمير يعود إلى إبراهيم لأن السياق في مدحه والثناء عليه ، ولوط –وإن لم يكن من ذريته– فإنه ممن آمن على يده ، فكان منقبة الخليل وفضيلته بذلك ، أبلغ من كونه مُجرّد ابن له .

﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ بن داود ﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾ بن يعقوب ، ﴿وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ ابني عمران ، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما أصلحنا ذرية إبراهيم الخليل ، لأنه أحسن في عبادة ربه ، وأحسن في نفع الخلق ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بأن نجعل لهم من الثناء الصدق ، والذرية الصالحة ، بحسب إحسانهم .

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ﴾ ابنه ﴿وَعِيسَىٰ﴾ ابن مريم ، ﴿وَإِلْيَاسَ كُلٌّ﴾ هؤلاء ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في أخلاقهم وأعمالهم وعلومهم ، بل هم سادة الصالحين وقادتهم وأئمتهم ، ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ بن إبراهيم أبو الشعب الذي هو أفضل الشعوب ، وهو الشعب العربي ، ووالد سيد ولد آدم ، محمد ﷺ ، ﴿وَيُونُسَ﴾ بن متى ﴿وَلُوطًا﴾ بن هاران ، أخي إبراهيم . ﴿وَكُلًّا﴾ من هؤلاء الأنبياء والمرسلين ﴿فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لأن درجات الفضائل أربع – وهي التي ذكرها الله بقوله : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [ سورة النساء ٦٩ ] فهؤلاء من الدرجة العليا ، بل هم أفضل الرسل على الإطلاق ، فالرسل الذين قصهم الله في كتابه ، أفضل ممن لم يقص علينا نبأهم بلا شك

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ أي : آباء هؤلاء المذكورين ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ أي : وهدينا من آباء هؤلاء وذرياتهم وإخوانهم . ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ أي : اخترناهم ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ .

﴿ذَٰلِكَ﴾ الهدى المذكور ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ الذي لا هدى إلا هداه . ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ فاطلبوا منه الهدى فإنه إن لم يهدكم فلا هادي لكم غيره ، وممن شاء هدايته هؤلاء المذكورون . ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾ على الفرض والتقدير ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فإن الشرك محبط للعمل ، موجب للخلود في النار ، فإذا كان هؤلاء الصفوة الأخيار ، لو أشركوا –وحاشاهم– لحبطت أعمالهم فغيرهم أولى .

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المذكورون ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ أي : امش –أيها الرسول الكريم– خلف هؤلاء الأنبياء الأخيار ، واتبع ملتهم وقد امتثل ﷺ ، فاهتدى بهدي الرسل قبله ، وجمع كل كمال فيهم ، فاجتمعت لديه فضائل وخصائص ، فاق بها جميع العالمين ، وكان سيد المرسلين ، وإمام المُتّقين ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، وبهذا الملحظ ، استدل بهذه من استدل من الصحابة ، أن رسول الله ﷺ أفضل الرسل كلهم .

﴿قُلْ﴾ للذين أعرضوا عن دعوتك : ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي : لا أطلب منكم مغرما ومالا ، جزاء عن إبلاغي إياكم ، ودعوتي لكم فيكون من أسباب امتناعكم ، إن أجري إلا على الله ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ يتذكرون به ما ينفعهم ، فيفعلونه ، وما يضرهم ، فيذرونه ، ويتذكرون به معرفة ربهم بأسمائه وأوصافه . ويتذكرون به الأخلاق الحميدة ، والطرق الموصلة إليها ، والأخلاق الرذيلة ، والطرق المُفضية إليها ، فإذا كان ذكرى للعالمين ، كان أعظم نعمة أنعم الله بها عليهم ، فعليهم قبولها والشكر عليها .

[٩١ - ٦] : ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾

هذا تشنيع على من نفى الرسالة ، من اليهود والمُشركين وزعم أن الله ما أنزل على بشر من شيء ، فمن قال هذا ، فما قَدَرَ الله حق قدره ، ولا عَظَّمَه حق عظمته ، إذ هذا قدح في حكمته ، وزعم أنه يترك عباده هملا ، لا يأمرهم ولا ينهاهم ، ونفي لأعظم منة ، امتن الله بها على عباده ، وهي الرسالة ، التي لا طريق للعباد إلى نيل السعادة ، والكرامة ، والفلاح ، إلا بها ، فأي قدح في الله أعظم من هذا؟ .

﴿قُلْ﴾ لهم -ملزما بفساد قولهم ، وقرّرهم ، بما به يقرون- : ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ وهو التوراة العظيمة ﴿نُورًا﴾ في ظلمات الجهل ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ، وهاديا إلى الصراط المُستقيم علما وعملا ، وهو الكتاب الذي شاع وذاع ، وملأ ذكره القلوب والأسماع ، حتى أنهم جعلوا يتناسخونه في القراطيس ، ويتصرّفون فيه بما شاءوا ، فما وافق أهواءهم منه ، أبدوه وأظهروه ، وما خالف ذلك ، أخفوه وكتموه ، وذلك كثير .

﴿وَعُلِّمْتُم﴾ من العلوم التي بسبب ذلك الكتاب الجليل ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ فإذا سألتهم عمن أنزل هذا الكتاب الموصوف بتلك الصفات ، فأجب عن هذا السؤال ، و ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ الذي أنزله ، فحينئذ يتضح الحق وينجلي مثل الشمس ، وتقوم عليهم الحجة ، ثم إذا ألزمتهم بهذا الإلزام ﴿ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي : اتركهم يخوضوا في الباطل ، ويلعبوا بما لا فائدة فيه ، حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون .

[٩٢ - ٦] : ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ .

أي : ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن الذي ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ إليك ﴿مُبَارَكٌ﴾ أي : وَصْفُه البركة ، وذلك لكثرة خيراته ، وسعة مبراته . ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي : موافق للكتب السابقة ، وشاهد لها بالصدق .

﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي : وأنزلناه أيضًا لتنذر أم القرى ، وهي : مكة المكرمة ، ومن حولها ، من ديار العرب ، بل ، ومن سائر البلدان ، فتحذر الناس عقوبة الله ، وأخذه الأمم ، وتحذرهم مما يوجب ذلك .

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ لأن الخوف إذا كان في القلب عمرت أركانه ، وانقاد لمراضي الله ، ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي : يُداومون عليها ، ويحفظون أركانها وحدودها وشروطها وآدابها ، ومُكملاتها . جعلنا الله منهم .

[ ٩٣ : ٩٤ - ٦ ] : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾

يقول تعالى : لا أحد أعظم ظلما ، ولا أكبر جرما ، ممَّن كذب على الله بأن نسب إلى الله قولا أو حكما وهو تعالى بريء منه ، وإنما كان هذا أظلم الخلق ، لأن فيه من الكذب ، وتغيير الأديان أصولها ، وفروعها ، ونسبة ذلك إلى الله -ما هو من أكبر المفاسد . ويدخل في ذلك ، ادِّعاء النبوة ، وأن الله يوحي إليه ، وهو كاذب في ذلك ، فإنه - مع كذبه على الله ، وجرأته على عظمته وسلطانه- يوجب على الخلق أن يتَّبعوه ، ويجاهدهم على ذلك ، ويستحل دماء من خالفه وأموالهم .

ويدخل في هذه الآية ، كل من ادعى النبوة ، كمُسيلمة الكذاب ، والأسود العنسي ، والمُختار ، وغيرهم ممن اتَّصف بهذا الوصف .

﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي : ومن أظلم ممن زعم . أنه يقدر على ما يقدر الله عليه ويُجاري الله في أحكامه ، ويشرع من الشرائع ، كما شرعه الله ، ويدخل في هذا ، كل من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن ، وأنه في إمكانه أن يأتي بمثله ، وأي : ظلم أعظم من دعوى الفقير العاجز بالذات ، الناقص من كل وجه ، مشاركةَ القوي الغني ، الذي له الكمال المُطلق ، من جميع الوجوه ، في ذاته وأسمائه وصفاته؟ .

ولما ذم الظالمين ، ذكر ما أعد لهم من العقوبة في حال الاحتضار ، ويوم القيامة فقال : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أي : شدائده وأهواله الفظيعة ، وكُربه الشنيعة -لرأيت أمرا هائلا ، وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها . ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾ إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب ، يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلقها ، وتعصيها للخروج من الأبدان : ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي : العذاب الشديد ، الذي يهينكم ويذلكم والجزاء من جنس العمل ، فإن هذا العذاب ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ من كذبكم عليه ، وردكم للحق ، الذي جاءت به الرسل ، ﴿وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي : تَرَفَّعون عن الانقياد لها ، والاستسلام لأحكامها .

وفي هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه ، فإن هذا الخطاب ، والعذاب الموجه إليهم ، إنما هو عند الاحتضار وقبيل الموت وبعده . وفيه دليل ، على أن الروح جسم ، يدخل ويخرج ، ويُخاطب ، ويُساكن الجسد ، ويفارقه ، فهذه حالهم في البرزخ .

وأما يوم القيامة ، فإنهم إذا وردوها ، وردوها مفلسين فرادى بلا أهل ولا مال ، ولا أولاد ولا جنود ، ولا أنصار ، كما خلقهم الله أول مرة ، عارين من كل شيء ؛ فإن الأشياء ، إنما تتموّل وتحصل بعد ذلك ، بأسبابها ، التي هي أسبابها ، وفي ذلك اليوم تنقطع جميع الأمور ، التي كانت مع العبد في الدنيا ، سوى العمل الصالح والعمل السيء ، الذي هو مادة الدار الآخرة ، الذي تنشأ عنه ، ويكون حُسنها وقُبحها ، وسُرورها وغُمومها ، وعذابها ونعيمها ، بحسب الأعمال ، فهي التي تنفع أو تضر ، وتسوء أو تسر ، وما سواها من الأهل والولد ، والمال والأنصار ، فعواري خارجية ، وأوصاف زائلة ، وأحوال حائلة ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ أي : أعطيناكم ، وأنعمنا به عليكم ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ لا يغنون عنكم شيئا ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ ، فإن المُشركين يُشركون بالله ، ويعبدون معه الملائكة ، والأنبياء ، والصالحين ، وغيرهم ، وهم كلهم لله ، ولكنهم يجعلون لهذه المخلوقات نصيبا من أنفسهم ، وشركة في عبادتهم ، وهذا زعم منهم وظلم ، فإن الجميع عبيد لله ، والله مالكهم ، والمستحق لعبادتهم ، فشركهم في العبادة ، وصرفها لبعض العبيد ، تنزيل لهم منزلة الخالق المالك ، فيوبخون يوم القيامة ويقال لهم هذه المقالة .

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي : تقطعت الوصل والأسباب بينكم وبين شركائكم ، من الشفاعة وغيرها فلم تنفع ولم تُجد شيئا .

﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من الربح ، والأمن والسعادة ، والنجاة ، التي زينها لكم الشيطان ، وحسنها في قلوبكم ، فنطقت بها ألسنتكم . واغتررتم بهذا الزعم الباطل ، الذي لا حقيقة له ، حين تبين لكم نقيض ما كنتم تزعمون ، وظهر أنكم الخاسرون لأنفسكم وأهليكم وأموالكم .

[ ٩٥ : ٩٨ - ٦ ] : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾

يُخبر تعالى عن كماله ، وعظمة سلطانه ، وقوة اقتداره ، وسعة رحمته ، وعموم كرمه ، وشدة عنايته بخلقه ، فقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ﴾ شامل لسائر الحبوب ، التى يباشر الناس زرعها ، والتي لا يباشرونها ، كالحبوب التي يبثها الله في البراري والقفار ، فيفلق الحبوب عن الزروع والنوابت ، على اختلاف أنواعها ، وأشكالها ، ومنافعها ، ويفلق النوى عن الأشجار ، من النخيل والفواكه ، وغير ذلك ، فينتفع الخلق ، من الآدميين والأنعام ، والدواب ، ويرتعون فيما فلق الله من الحب والنوى ، ويقتاتون ، وينتفعون بجميع أنواع المنافع التي جعلها الله في ذلك ، ويريهم الله من بره وإحسانه ما يبهر العقول ، ويذهل الفحول ، ويريهم من بدائع صنعته ، وكمال حكمته ، ما به يعرفونه ويُوحدونه ، ويعلمون أنه هو الحق ، وأن عبادة ما سواه باطلة .

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كما يخرج من المَنِي حيوانا ، ومن البيضة فرخا ، ومن الحب والنوى زرعا وشجرا . ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ﴾ وهو الذي لا نمو فيه ، أو لا روح ﴿مِنَ الْحَيِّ﴾ كما يخرج من الأشجار والزروع

النوى والحب ، ويخرج من الطائر بيضا ونحو ذلك .

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي فعل ما فعل ، وانفرد بخلق هذه الأشياء وتدبيرها « اللَّهُ » رَبُّكُمْ أي : الذي له الألوهية والعبادة على خلقه أجمعين ، وهو الذي ربَّى جميع العالمين بنعمه ، وغذاهم بكرمه .

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي : فأنى تصرفون ، وتصدون عن عبادة من هذا شأنه ، إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا؟ .

ولما ذكر تعالى مادة خلق الأقوات ، ذكر مِنَّته بتهيئة المساكن ، وخلقه كل ما يحتاج إليه العباد ، من الضياء والظلمة ، وما يترتب على ذلك من أنواع المنافع والمصالح فقال : ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ أي : كما أنه فالق الحب والنوى ، كذلك هو فالق ظلمة الليل الداجي ، الشامل لما على وجه الأرض ، بضياء الصبح الذي يفلقه شيئا فشيئا ، حتى تذهب ظلمة الليل كلها ، ويخلفها الضياء والنور العام ، الذي يتصرف به الخلق في مصالحهم ، ومعايشهم ، ومنافع دينهم ودنياهم .

ولما كان الخلق محتاجين إلى السكون والاستقرار والراحة ، التي لا تتم بوجود النهار والنور ﴿جَعَلَ﴾ اللّه ﴿اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ يسكن فيه الآدميون إلى دورهم ومنامهم ، والأنعام إلى مأواها ، والطيور إلى أوكارها ، فتأخذ نصيبها من الراحة ، ثم يزيل اللّه ذلك بالضياء ، وهكذا أبدا إلى يوم القيامة .

﴿وَ﴾ جعل تعالى ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ بهما تعرف الأزمنة والأوقات ، فتنضبط بذلك أوقات العبادات ، وآجال المعاملات ، ويعرف بها مدة ما مضى من الأوقات التي لولا وجود الشمس والقمر ، وتناوبهما واختلافهما - لما عرف ذلك عامة الناس ، واشتركوا في علمه ، بل كان لا يعرفه إلا أفراد من الناس ، بعد الاجتهاد ، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ما يفوت .

﴿ذَٰلِكَ﴾ التقدير المذكور ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ الذي من عزته انقادت له هذه المخلوقات العظيمة ، فجرت مذللة مسخرة بأمره ، بحيث لا تتعدى ما حده اللّه لها ، ولا تتقدم عنه ولا تتأخر ﴿الْعَلِيمُ﴾ الذي أحاط علمه ، بالظواهر والبواطن ، والأوائل والأواخر .

ومن الأدلة العقلية على إحاطة علمه ، تسخير هذه المخلوقات العظيمة ، على تقدير ، ونظام بديع ، تحيِّر العقول في حسنه وكماله ، وموافقته للمصالح والحكم ، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ حين تشتبه عليكم المسالك ، ويتحير في سيره السالك ، فجعل اللّه النجوم هداية للخلق إلى السبل ، التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم ، وتجاراتهم ، وأسفارهم . منها : نجوم لا تزال ترى ، ولا تسير عن محلها ، ومنها : ما هو مُستمر السير ، يعرف سيرَه أهل المعرفة بذلك ، ويعرفون به الجهات والأوقات .

ودلت هذه الآية ونحوها ، على مشروعية تَعَلُّم سير الكواكب ومحالّها الذي يسمى علم التسيير ، فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن إلا بذلك .

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أي بيناها ، ووضحناها ، وميَّزنا كل جنس ونوع منها عن الآخر ، بحيث صارت آيات اللّه بادية ظاهرة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي : لأهل العلم والمعرفة ، فإنهم الذين يوجه إليهم الخطاب ،

ويطلب منهم الجواب ، بخلاف أهل الجهل والجفاء ، المعرضين عن آيات الله ، وعن العلم الذي جاءت به الرسل ، فإن البيان لا يفيدهم شيئا ، والتفصيل لا يزيل عنهم ملتبسا ، والإيضاح لا يكشف لهم مشكلا .

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وهو آدم عليه السلام . أنشأ الله منه هذا العنصر الآدمي ؛ الذي قد ملأ الأرض ولم يزل في زيادة ونمو ، الذي قد تفاوت في أخلاقه وخلقه ، وأوصافه تفاوتا لا يُمكن ضبطه ، ولا يدرك وصفه ، وجعل الله لهم مستقرا ، أي منتهى ينتهون إليه ، وغاية يساقون إليها ، وهي دار القرار ، التي لا مستقر وراءها ، ولا نهاية فوقها ، فهذه الدار ، هي التي خلق الخلق لسكناها ، وأوجدوا في الدنيا ليسعوا في أسبابها ، التي تنشأ عليها وتعمر بها ، وأودعهم الله في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم ، ثم في دار الدنيا ، ثم في البرزخ ، كل ذلك ، على وجه الوديعة ، التي لا تستقر ولا تثبت ، بل ينتقل منها حتى يوصل إلى الدار التي هي المستقر ، وأما هذه الدار ، فإنها مُستودع وممر ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾ عن الله آياته ، ويفهمون عنه حُججه ، وبيِّناته .

[٩٩ – ٦] : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾

وهذا من أعظم مِنَنِهِ العظيمة ، التي يضطر إليها الخلق ، من الآدميين وغيرهم ، وهو أنه أنزل من السماء ماء متتابعا وقت حاجة الناس إليه ، فأنبت الله به كل شيء ، مما يأكل الناس والأنعام ، فرتع الخلق بفضل الله ، وانبسطوا برزقه ، وفرحوا بإحسانه ، وزال عنهم الجدب واليأس والقحط ، ففرحت القلوب ، وأسفرت الوجوه ، وحصل للعباد من رحمة الرَّحمن الرَّحيم ، ما به يتمتعون وبه يرتعون ، مما يوجب لهم ، أن يبذلوا جهدهم في شكر من أسدى النعم ، وعبادته والإنابة إليه ، والمحبة له .

ولما ذكر عموم ما ينبت بالماء ، من أنواع الأشجار والنبات ، ذكر الزرع والنخل ، لكثرة نفعهما وكونهما قوتا لأكثر الناس فقال : ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ﴾ أي : من ذلك النبات الخضر ، ﴿حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا﴾ بعضه فوق بعض ، من بر ، وشعير ، وذرة ، وأرز ، وغير ذلك ، من أصناف الزروع ، وفي وصفه بأنه متراكب ، إشارة إلى أن حبوبه مُتعدِّدة ، وجميعها تستمد من مادة واحدة ، وهي لا تختلط ، بل هي متفرقة الحبوب ، مجتمعة الأصول ، وإشارة أيضًا إلى كثرتها ، وشمول ريعها وغلتها ، ليبقى أصل البذر ، ويبقى بقية كثيرة للأكل والادخار .

﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ﴾ أخرج الله ﴿مِن طَلۡعِهَا﴾ وهو الكفرى ، والوعاء قبل ظهور القنو منه ، فيُخرج من ذلك الوعاء ﴿قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾ أي : قريبة سهلة التناول ، مُتدلية على من أرادها ، بحيث لا يعسر التناول من النخل وإن طالت ، فإنه يوجد فيها كرب ومراقي ، يسهل صعودها .

﴿وَ﴾ أخرج تعالى بالماء ﴿جَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ فهذه من الأشجار الكثيرة النفع ، العظيمة الوقع ، فلذلك خصَّصها الله بالذكر بعد أن عم جميع الأشجار والنوابت .

وقوله ﴿مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾ يحتمل أن يرجع إلى الرمان والزيتون ، أي : مشتبها في شجره وورقه ،

غير متشابه في ثمره . ويحتمل أن يرجع ذلك ، إلى سائر الأشجار والفواكه ، وأن بعضها مُشتبه ، يشبه بعضه بعضا ، ويتقارب في بعض أوصافه ، وبعضها لا مشابهة بينه وبين غيره ، والكل ينتفع به العباد ، ويتفكهون ، ويقتاتون ، ويعتبرون ، ولهذا أمر تعالى بالاعتبار به ، فقال : ﴿ٱنظُرُوٓاْ﴾ نظر فكر واعتبار ﴿إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ أي : الأشجار كلها ، خصوصا : النخل ﴿إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ .﴿وَيَنۡعِهِۦٓۚ﴾ أي : انظروا إليه ، وقت إطلاعه ، ووقت نضجه وإيناعه ، فإن في ذلك عبرا وآيات ، يستدل بها على رحمة الله ، وسعة إحسانه وجوده ، وكمال اقتداره وعنايته بعباده ، ولكن ليس كل أحد يعتبر ويتفكر وليس كل من تفكر ، أدرك المعنى المقصود ، ولهذا قيد تعالى الانتفاع بالآيات بالمؤمنين فقال : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ فإن المُؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان ، على العمل بمُقتضياته ولوازمه ، التي منها التفكر في آيات الله ، والاستنتاج منها ما يراد منها ، وما تدل عليه ، عقلا ، وفطرة ، وشرعا .

[ ١٠٠ : ١٠٤ – ٦] : ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣ قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ .

يخبر تعالى : أنه مع إحسانه لعباده وتعرفه إليهم ، بآياته البينات ، وحججه الواضحات –أن المشركين به ، من قريش وغيرهم ، جعلوا له شركاء ، يدعونهم ، ويعبدونهم ، من الجن والملائكة ، الذين هم خلق من خلق الله ، ليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء ، فجعلوها شركاء لمن له الخلق والأمر ، وهو المنعم بسائر أصناف النعم ، الدافع لجميع النقم ، وكذلك « خرق المشركون » أي : ائتفكوا ، وافتروا من تلقاء أنفسهم لله ، بنين وبنات بغير علم منهم ، ومن أظلم ممن قال على الله بلا علم ، وافترى عليه أشنع النقص ، الذي يجب تنزيه الله عنه؟!! .

ولهذا نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون فقال : ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فإنه تعالى ، الموصوف بكل كمال ، المنزه عن كل نقص ، وآفة وعيب . ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي : خالقهما ، ومتقن صنعتهما ، على غير مثال سبق ، بأحسن خلق ، ونظام وبهاء ، لا تقترح عقول أولي الألباب مثله ، وليس له في خلقهما مشارك .

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ﴾ أي : كيف يكون لله الولد ، وهو الإله السيد الصمد ، الذي لا صاحبة له أي : لا زوجة له ، وهو الغني عن مخلوقاته ، وكلها فقيرة إليه ، مضطرة في جميع أحوالها إليه ، والولد لا بد أن يكون من جنس والده ؛ والله خالق كل شيء وليس شيء من المخلوقات مشابها لله بوجه من الوجوه .

ولما ذكر عُموم خلقه للأشياء ، ذكر إحاطة علمه بها فقال : ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ وفي ذكر العلم بعد

الخلق ، إشارة إلى الدليل العقلي إلى ثبوت علمه ، وهو هذه المخلوقات ، وما اشتملت عليه من النظام التام ، والخلق الباهر ، فإن في ذلك دلالة على سعة علم الخالق ، وكمال حكمته ، كما قال تعالى : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وكما قال تعالى : ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ ذلكم الذي خلق ما خلق ، وقدر ما قدر . ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾أي : المألوه المعبود ، الذي يستحق نهاية الذل ، ونهاية الحب ، الرب ، الذي ربى جميع الخلق بالنعم ، وصرف عنهم صنوف النقم .

﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ أي : إذا استقر وثبت ، أنه اللّٰه الذي لا إله إلا هو ، فاصرفوا له جميع أنواع العبادة ، وأخلصوها للّٰه ، واقصدوا بها وجهه . فإن هذا هو المقصود من الخلق ، الذي خلقوا لأجله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [ سورة الذاريات ٥٦] .

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي : جميع الأشياء ، تحت وكالة اللّٰه وتدبيره ، خلقا ، وتدبيرا ، وتصريفا . ومن المعلوم ، أن الأمر المتصرف فيه يكون استقامته وتمامه ، وكمال انتظامه ، بحسب حال الوكيل عليه .

ووكالته تعالى على الأشياء ، ليست من جنس وكالة الخلق ، فإن وكالتهم ، وكالة نيابة ، والوكيل فيها تابع لموكله ، وأما الباري ، تبارك وتعالى فوكالته من نفسه لنفسه ، متضمنة لكمال العلم ، وحسن التدبير والإحسان فيه ، والعدل ، فلا يمكن لأحد أن يستدرك على اللّٰه ، ولا يرى في خلقه خللا ولا فطورا ، ولا في تدبيره نقصا وعيبا .

ومن وكالته : أنه تعالى ، توكّل ببيان دينه ، وحفظه عن المزيلات والمغيرات ، وأنه تولى حفظ المؤمنين وعصمتهم عما يزيل إيمانهم ودينهم .

﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ لعظمته ، وجلاله وكماله ، أي : لا تحيط به الأبصار ، وإن كانت تراه ، وتفرح بالنظر إلى وجهه الكريم ، فنفي الإدراك لا ينفي الرؤية ، بل يثبتها بالمفهوم . فإنه إذا نفى الإدراك ، الذي هو أخص أوصاف الرؤية ، دل على أن الرؤية ثابتة . فإنه لو أراد نفي الرؤية ، لقال : « لا تراه الأبصار » ونحو ذلك ، فعلم أنه ليس في الآية حجة لمذهب المعطِّلة ، الذين ينفون رؤية ربهم في الآخرة ، بل فيها ما يدل على نقيض قولهم . ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ أي : هو الذي أحاط علمه ، بالظواهر والبواطن ، وسمعه بجميع الأصوات الظاهرة ، والخفية ، وبصره بجميع المبصرات ، صغارها ، وكبارها ، ولهذا قال : ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الذي لطف علمه وخبرته ، ودق حتى أدرك السرائر والخفايا ، والخبايا والبواطن .

ومن لطفه ، أنه يسوق عبده إلى مصالح دينه ، ويوصلها إليه بالطرق التي لا يشعر بها العبد ، ولا يسعى فيها ، ويوصله إلى السعادة الأبدية ، والفلاح السرمدي ، من حيث لا يحتسب ، حتى أنه يقدر عليه الأمور ، التي يكرهها العبد ، ويتألم منها ، ويدعو اللّٰه أن يزيلها ، لعلمه أن دينه أصلح ، وأن كماله متوقف عليها ، فسبحان اللطيف لما يشاء ، الرحيم بالمؤمنين .

﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ لما بين تعالى من الآيات البينات ، والأدلة الواضحات ، الدالة على الحق في جميع المطالب والمقاصد ، نبه العباد

عليها ، وأخبر أن هدايتهم وضدها لأنفسهم ، فقال : ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي : آيات تبين الحق ، وتجعله للقلب بمنزلة الشمس للأبصار ، لما اشتملت عليه من فصاحة اللفظ ، وبيانه ، ووضوحه ، ومطابقته للمعاني الجليلة ، والحقائق الجميلة ، لأنها صادرة من الرب ، الذي ربَّى خلقه ، بصنوف نعمه الظاهرة والباطنة ، التي من أفضلها وأجلها ، تبيين الآيات ، وتوضيح المشكلات .

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ بتلك الآيات ، مواقع العبرة ، وعمل بمقتضاها ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ فإن الله هو الغني الحميد .

﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ بأن بُصِّر فلم يتبصر ، وزُجِر فلم ينزجر ، وبين له الحق ، فما انقاد له ولا تواضع ، فإنما عماه مضرته عليه .

﴿وَمَا أَنَا﴾ أي الرسول ﴿عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أحفظ أعمالكم وأرقبها على الدوام إنما عليَّ البلاغ المبين وقد أديته ، وبلغت ما أنزل الله إليَّ ، فهذه وظيفتي ، وما عدا ذلك فلست موظفا فيه

[١٠٨ - ٦] : ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

ينهى الله المؤمنين عن أمر كان جائزا ، بل مشروعا في الأصل ، وهو سب آلهة المشركين ، التي اتخذت أوثانا وآلهة مع الله ، التي يتقرب إلى الله بإهانتها وسبها ، ولكن لما كان هذا السب طريقا إلى سب المشركين لرب العالمين ، الذي يجب تنزيه جنابه العظيم عن كل عيب ، وآفة ، وسب ، وقدح -نهى الله عن سب آلهة المشركين ، لأنهم يحمون لدينهم ، ويتعصبون له ، لأن كل أمة ، زين الله لهم عملهم ، فرأوه حسنا ، وذبوا عنه ، ودافعوا بكل طريق ، حتى إنهم ، ليسبون الله رب العالمين ، الذي رسخت عظمته في قلوب الأبرار والفجار ، إذا سب المسلمون آلهتهم ، ولكن الخلق كلهم ، مرجعهم ومآلهم ، إلى الله يوم القيامة ، يعرضون عليه ، وتعرض أعمالهم ، فينبئهم بما كانوا يعملون ، من خير وشر .

وفي هذه الآية الكريمة ، دليل للقاعدة الشرعية وهو : « أن الوسائل تعتبر بالأمور التي توصل إليها ، وأن وسائل المحرَّم ، ولو كانت جائزة تكون مُحرَّمة ، إذا كانت تفضي إلى الشر » .

[ ١٠٩ : ١١١ - ٦] : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ .

أي : وأقسم المشركون المكذِّبون للرسول محمد ﷺ ، ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي : قسما اجتهدوا فيه وأكدوه . ﴿لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ تدل على صدق محمد ﷺ ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ وهذا الكلام الذي صدر منهم ، لم يكن قصدهم فيه الرشاد ، وإنما قصدهم دفع الاعتراض عليهم ، ورد ما جاء به الرسول قطعا ، فإن الله أيد رسوله ﷺ ، بالآيات البينات ، والأدلة الواضحات ، التي -عند الالتفات لها- لا تبقي أدنى شبهة ولا إشكال في صحة ما جاء به ، فطلبهم -بعد ذلك- للآيات من باب التعنُّت ، الذي لا يلزم إجابته ، بل قد

يكون المنع من إجابتهم أصلح لهم ، فإن الله جرت سنته في عباده ، أن المقترحين للآيات على رسلهم ، إذا جاءتهم ، فلم يؤمنوا بها -أنه يعاجلهم بالعقوبة ، ولهذا قال : ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي : هو الذي يرسلها إذا شاء ، ويمنعها إذا شاء ، ليس لي من الأمر شيء ، فطلبكم مني الآيات ظلم ، وطلب لما لا أملك ، وإنما توجهون إلي توضيح ما جئتكم به ، وتصديقه ، وقد حصل ، ومع ذلك ، فليس معلوما ، أنهم إذا جاءتهم الآيات يؤمنون ويصدقون ، بل الغالب ممن هذه حاله ، أنه لا يؤمن ، ولهذا قال : ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي : ونعاقبهم ، إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيها الداعي ، وتقوم عليهم الحُجَّة ، بتقليب القلوب ، والحيلولة بينهم وبين الإيمان ، وعدم التوفيق لسلوك الصراط المُستقيم . وهذا من عدل الله ، وحكمته بعباده ، فإنهم الذين جنوا على أنفسهم ، وفتح لهم الباب فلم يدخلوا ، وبين لهم الطريق فلم يسلكوا ، فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق ، كان مناسبا لأحوالهم .

وكذلك تعليقهم الإيمان بإرادتهم ، ومشيئتهم وحدهم ، وعدم الاعتماد على الله من أكبر الغلط ، فإنهم لو جاءتهم الآيات العظيمة ، من تنزيل الملائكة إليهم ، يشهدون للرسول بالرسالة ، وتكليم الموتى وبعثهم بعد موتهم ، وحشر كل شيء إليهم حتى يكلمهم ﴿قُبُلًا﴾ ومُشاهدة ، ومُباشرة ، بصدق ما جاء به الرسول ما حصل منهم الإيمان ، إذا لم يشأ الله إيمانهم ، ولكن أكثرهم يجهلون . فلذلك رتبوا إيمانهم ، على مُجرّد إتيان الآيات ، وإنما العقل والعلم ، أن يكون العبد مقصوده اتباع الحق ، ويطلبه بالطرق التي بينها الله ، ويعمل بذلك ، ويستعين ربه في اتباعه ، ولا يتكل على نفسه وحوله وقوته ، ولا يطلب من الآيات الاقتراحية ما لا فائدة فيه .

[ ١١٢ : ١١٣ - ٦] : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ .

يقول تعالى -مُسلّيا لرسوله محمد ﷺ - وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك ، ويحاربونك ، ويحسدونك ، فهذه سنتنا ، أن نجعل لكل نبي نرسله إلى الخلق أعداء ، من شياطين الإنس والجن ، يقومون بضد ما جاءت به الرسل . ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي : يزين بعضهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل ، ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة ، ليغتر به السفهاء ، وينقاد له الأغبياء ، الذين لا يفهمون الحقائق ، ولا يفقهون المعاني ، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة ، والعبارات المُموّهة ، فيعتقدون الحق باطلا والباطل حقا ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ أي : ولتميل إلى ذلك الكلام المزخرف ﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة ، يحملهم على ذلك ، ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ بعد أن يصغوا إليه ، فيصغون إليه أولا ، فإذا مالوا إليه ورأوا تلك العبارات المُستحسنة ، رضوه ، وزين في قلوبهم ، وصار عقيدة راسخة ، وصفة لازمة ، ثم ينتج من ذلك ، أن

يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم مُقترفون ، أي : يأتون من الكذب بالقول والفعل ، ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة ، فهذه حال المغترين بشياطين الإنس والجن ، المُستجيبين لدعوتهم ، وأما أهل الإيمان بالآخرة ، وأولو العقول الوافية والألباب الرزينة ، فإنهم لا يغترون بتلك العبارات ، ولا تخلبهم تلك التمويهات ، بل همتهم مصروفة إلى معرفة الحقائق ، فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعاة ، فإن كانت حقا قبلوها ، وانقادوا لها ، ولو كسيت عبارات ردية ، وألفاظا غير وافية ، وإن كانت باطلا ردوها على من قالها ، كائنا من كان ، ولو ألبست من العبارات المُستحسنة ، ما هو أرق من الحرير .

ومن حكمة اللّٰه تعالى ، في جعله للأنبياء أعداء ، وللباطل أنصارا قائمين بالدعوة إليه ، أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان ، ليتميز الصادق من الكاذب ، والعاقل من الجاهل ، والبصير من الأعمى . ومن حكمته أن في ذلك بيانا للحق ، وتوضيحا له ، فإن الحق يستنير ويتضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه ، فإنه -حينئذ- يتبين من أدلة الحق ، وشواهده الدالة على صدقه وحقيقته ، ومن فساد الباطل وبطلانه ، ما هو من أكبر المطالب ، التي يتنافس فيها المتنافسون .

[ ١١٤ : ١١٥ - ٦] : ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

أي : قل يا أيُّها الرسول ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ أحاكم إليه وأتقيد بأوامره ونواهيه . فإن غير اللّٰه محكوم عليه لا حاكم . وكل تدبير وحكم للمخلوق فإنه مُشتمل على النقص ، والعيب ، والجور ، وإنما الذي يجب أن يتخذ حاكما ، فهو اللّٰه وحده لا شريك له ، الذي له الخلق والأمر .

﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ أي : موضَّحا فيه الحلال والحرام ، والأحكام الشرعية ، وأصول الدين وفروعه ، الذي لا بيان فوق بيانه ، ولا برهان أجلى من برهانه ، ولا أحسن منه حكما ولا أقوم قيلا ، لأن أحكامه مشتملة على الحكمة والرحمة . وأهل الكتب السابقة ، من اليهود والنصارى ، يعترفون بذلك و﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ ولهذا ، تواطأت الإخبارات ﴿فَلَا﴾ تشُكَّنَّ في ذلك ولا ﴿تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ . ثم وصف تفصيلها فقال : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أي : صدقا في الأخبار ، وعدلا في الأمر والنهي . فلا أصدق من أخبار اللّٰه التي أودعها هذا الكتاب العزيز ، ولا أعدل من أوامره ونواهيه ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ حيث حفظها وأحكمها بأعلى أنواع الصدق ، وبغاية الحق ، فلا يمكن تغييرها ، ولا اقتراح أحسن منها . ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لسائر الأصوات ، باختلاف اللغات على تفنن الحاجات . ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن ، والماضي والمستقبل .

[ ١١٦ : ١١٧ - ٦] : ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾

يقول تعالى ، لنبيه محمد ﷺ ، محذرا عن طاعة أكثر الناس : ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ

﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فإن أكثرهم قد انحرفوا في أديانهم وأعمالهم، وعلومهم . فأديانهم فاسدة، وأعمالهم تبع لأهوائهم، وعلومهم ليس فيها تحقيق، ولا إيصال لسواء الطريق . بل غايتهم أنهم يتبعون الظن، الذي لا يغني من الحق شيئا، ويتخرصون في القول على الله ما لا يعلمون، ومن كان بهذه المثابة، فحرى أن يحذّر الله منه عباده، ويصف لهم أحوالهم ؛ لأن هذا -وإن كان خطابا للنبي ﷺ - فإن أمته أسوة له في سائر الأحكام، التي ليست من خصائصه . والله تعالى أصدق قيلا، وأصدق حديثا، و ﴿هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وأعلم بمن يهتدي، ويهدي .

فيجب عليكم -أيها المؤمنون- أن تتبعوا نصائحه وأوامره ونواهيه لأنه أعلم بمصالحكم، وأرحم بكم من أنفسكم .

ودلت هذه الآية، على أنه لا يستدل على الحق، بكثرة أهله، ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور أن يكون غير حق، بل الواقع بخلاف ذلك، فإن أهل الحق هم الأقلون عددا، الأعظمون -عند الله- قدرا وأجرا، بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل، بالطرق الموصلة إليه .

[ ١١٨: ١١٩ - ٦] : ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ .

يأمر تعالى عباده المؤمنين، بمقتضى الإيمان، وأنهم إن كانوا مؤمنين، فليأكلوا مما ذكر اسم الله عليه من بهيمة الأنعام، وغيرها من الحيوانات المحللة، ويعتقدوا حلها، ولا يفعلوا كما يفعل أهل الجاهلية من تحريم كثير من الحلال، ابتداعا من عند أنفسهم، وإضلالا من شياطينهم، فذكر الله أن علامة المؤمن مخالفة أهل الجاهلية، في هذه العادة الذميمة، المتضمنة لتغيير شرع الله، وأنه، أي شيء يمنعهم من أكل ما ذكر اسم الله عليه، وقد فصل الله لعباده ما حرم عليهم، وبينه، ووضحه؟ فلم يبق فيه إشكال ولا شبهة، توجب أن يمتنع من أكل بعض الحلال، خوفا من الوقوع في الحرام .

ودلّت الآية الكريمة، على أن الأصل في الأشياء والأطعمة الإباحة، وأنه إذا لم يرد الشرع بتحريم شيء منها، فإنه باق على الإباحة، فما سكت الله عنه فهو حلال، لأن الحرام قد فصّله الله، فما لم يُفصّله الله فليس بحرام، ومع ذلك، فالحرام الذي قد فصله الله وأوضحه، قد أباحه عند الضرورة والمخمصة، كما قال تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ إلى أن قال : ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [ سورة المائدة ٣] .

ثم حذر عن كثير من الناس، فقال : ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم﴾ أي : بمُجرد ما تهوى أنفسهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ولا حجة، فليحذر العبد من أمثال هؤلاء، وعلامتُهم -كما وصفهم الله لعباده- أن دعوتهم غير مبنية على برهان، ولا لهم حجة شرعية، وإنما يوجد لهم شبه بحسب أهوائهم الفاسدة، وآرائهم القاصرة، فهؤلاء معتدون على شرع الله وعلى عباد الله، والله لا يحب المعتدين، بخلاف الهادين المُهتدين، فإنهم يدعون إلى الحق والهدى، ويؤيدون دعوتهم بالحجج العقلية والنقلية، ولا يتبعون في

دعوتهم إلا رضا ربهم والقرب منه .

[١٢٠ - ٦] : ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾

المُراد بالإثم : جميع المعاصي ، التي تؤثم العبد ، أي : توقعه في الإثم ، والحرج ، من الأشياء المُتعلّقة بحقوق اللّه ، وحقوق عباده . فنهى اللّه عباده ، عن اقتراف الإثم الظاهر والباطن ، أي : السر والعلانية ، المتعلقة بالبدن والجوارح ، والمُتعلّقة بالقلب ، ولا يتم للعبد ، ترك المعاصي الظاهرة والباطنة ، إلا بعد معرفتها ، والبحث عنها ، فيكون البحث عنها ومعرفة معاصي القلب والبدن ، والعلمُ بذلك واجبا متعينا على المكلف . وكثير من الناس ، تخفى عليه كثير من المعاصي ، خصوصا معاصي القلب ، كالكبر والعجب والرياء ، ونحو ذلك ، حتى إنه يكون به كثير منها ، وهو لا يحس به ولا يشعر ، وهذا من الإعراض عن العلم ، وعدم البصيرة .

ثم أخبر تعالى ، أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن ، سيجزون على حسب كسبهم ، وعلى قدر ذنوبهم ، قلّت أو كثرت ، وهذا الجزاء يكون في الآخرة ، وقد يكون في الدنيا ، يعاقب العبد ، فيخفف عنه بذلك من سيئاته .

[١٢١ - ٦] : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ .

ويدخل تحت هذا المنهي عنه ، ما ذكر عليه اسم غير اللّه كالذي يذبح للأصنام ، وآلهتهم ، فإن هذا مما أهل لغير اللّه به ، المُحرّم بالنص عليه خصوصا .

ويدخل في ذلك ، متروك التسمية ، مما ذبح للّه ، كالضحايا ، والهدايا ، أو للحم والأكل ، إذا كان الذابح متعمدا ترك التسمية ، عند كثير من العلماء .

ويخرج من هذا العموم ، الناسي بالنصوص الأخر ، الدالة على رفع الحرج عنه ، ويدخل في هذه الآية ، ما مات بغير ذكاة من الميتات ، فإنها مما لم يذكر اسم اللّه عليه . ونص اللّه عليها بخصوصها ، في قوله : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [سُورة المائدة ٣] ولعلها سبب نزول الآية ، لقوله ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ بغير علم . فإن المشركين -حين سمعوا تحريم اللّه ورسوله الميتة ، وتحليله للمُذكّاة ، وكانوا يستحلون أكل الميتة- قالوا - مُعاندة للّه ورسوله ، ومجادلة بغير حجة ولا برهان- أتأكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون ما قتل الله؟ يعنون بذلك : الميتة .

وهذا رأي فاسد ، لا يستند على حجة ولا دليل بل يستند إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعا لها لفسدت السماوات والأرض ، ومن فيهن ، فتبا لمن قدم هذه العقول على شرع اللّه وأحكامه ، الموافقة للمصالح العامة والمنافع الخاصة ، ولا يستغرب هذا منهم ، فإن هذه الآراء وأشباهها ، صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين ، الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم ، ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير .

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في شركهم وتحليلهم الحرام، وتحريمهم الحلال ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله، ووافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين، فلذلك كان طريقكم، طريقهم.

ودلت هذه الآية الكريمة على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف، التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم، لا تدل -بمجردها على أنها حق، ولا تصدق حتى تعرض على كتاب الله وسُنَّة رسوله. فإن شهدا لها بالقبول قبلت، وإن ناقضتهما ردت، وإن لم يعلم شيء من ذلك، توقف فيها ولم تصدق ولم تكذب، لأن الوحي والإلهام، يكون الرحمن ويكون من الشيطان، فلا بد من التمييز بينهما والفرقان، وبعدم التفريق بين الأمرين، حصل من الغلط والضلال، ما لا يحصيه إلا الله.

[ ١٢٢ - ١٢٤ : ٦] : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾.

يقول تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ﴾ من قبل هداية الله له ﴿مَيْتًا﴾ في ظلمات الكفر، والجهل، والمعاصي، ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بنور العلم والإيمان والطاعة، فصار يمشي بين الناس في النور، متبصرا في أموره، مهتديا لسبيله، عارفا للخير مؤثرا له، مجتهدا في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفا بالشر مبغضا له، مجتهدا في تركه وإزالته عن نفسه وعن غيره.

أفيستوي هذا بمن هو في الظلمات، ظلمات الجهل والغي، والكفر والمعاصي.

﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ قد التبست عليه الطرق، وأظلمت عليه المسالك، فحضره الهم والغم والحزن والشقاء. فنبه تعالى العقول بما تدركه وتعرفه، أنه لا يستوي هذا ولا هذا كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، والأحياء والأموات. فكأنه قيل: فكيف يؤثر من له أدنى مُسْكَة من عقل، أن يكون بهذه الحالة، وأن يبقى في الظلمات متحيرا: فأجاب بأنه ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فلم يزل الشيطان يحسن لهم أعمالهم، ويزينها في قلوبهم، حتى استحسنوها ورأوها حقًّا. وصار ذلك عقيدة في قلوبهم، وصفة راسخة ملازمة لهم، فلذلك رضوا بما هم عليه من الشر والقبائح.

وهؤلاء الذين في الظلمات يعمهون، وفي باطلهم يترددون، غير متساوين. فمنهم: القادة، والرؤساء، والمتبوعون، ومنهم: التابعون المرءوسون، والأولون، منهم الذين فازوا بأشقى الأحوال، ولهذا قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ أي: الرؤساء الذين قد كبر جرمهم، واشتد طغيانهم ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ بالخديعة والدعوة إلى سبيل الشيطان، ومحاربة الرسل وأتباعهم، بالقول والفعل، وإنما مكرهم وكيدهم يعود على أنفسهم، لأنهم يمكرون، ويمكر الله والله خير الماكرين.

وكذلك يجعل الله كبار أئمة الهدى وأفاضلهم، يناضلون هؤلاء المجرمين، ويردون عليهم أقوالهم

ويجاهدونهم في سبيل اللّه ، ويسلكون بذلك السبل الموصلة إلى ذلك ، ويعينهم اللّه ويسدد رأيهم ، ويثبت أقدامهم ، ويداول الأيام بينهم وبين أعدائهم ، حتى يدول الأمر في عاقبته بنصرهم وظهورهم ، والعاقبة للمتقين ؛ وإنما ثبت أكابر المجرمين على باطلهم ، وقاموا برد الحق الذي جاءت به الرسل ، حسدا منهم وبغيا ، فقالوا : ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ من النبوة والرسالة ، وفي هذا اعتراض منهم على اللّه ، وعجب بأنفسهم ، وتكبر على الحق الذي أنزله على أيدي رسله ، وتحجر على فضل اللّه وإحسانه ، فرد اللّه عليهم اعتراضهم الفاسد ، وأخبر أنهم لا يصلحون للخير ، ولا فيهم ما يوجب أن يكونوا من عباد اللّه الصالحين ، فضلا أن يكونوا من النبيّين والمرسلين ، فقال : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فيمن علمه يصلح لها ، ويقوم بأعبائها ، وهو متصف بكل خلق جميل ، ومتبرئ من كل خلق دنيء ، أعطاه اللّه ما تقتضيه حكمته أصلا وتبعا ، ومن لم يكن كذلك ، لم يضع أفضل مواهبه ، عند من لا يستأهله ، ولا يزكو عنده .

وفي هذه الآية ، دليل على كمال حكمة اللّه تعالى ، لأنه ، وإن كان تعالى رحيما واسع الجود ، كثير الإحسان ، فإنه حكيم لا يضع جوده إلا عند أهله ، ثم توعد المجرمين فقال : ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ﴾ أي : إهانة وذل ، كما تكبروا على الحق ، أذلهم اللّه . ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ أي : بسبب مكرهم ، لا ظلما منه تعالى .

[١٢٥ - ٦] : ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

يقول تعالى -مبينا لعباده علامة سعادة العبد وهدايته ، وعلامة شقاوته وضلاله- : إن من انشرح صدره للإسلام ، أي : اتسع وانفسح ، فاستنار بنور الإيمان ، وحيي بضوء اليقين ، فاطمأنت بذلك نفسه ، وأحب الخير ، وطوعت له نفسه فعله ، متلذذا به غير مستثقل ، فإن هذا علامة على أن اللّه قد هداه ، ومَنَّ عليه بالتوفيق ، وسلوك أقوم الطريق . وأن علامة من يرد اللّه أن يضله ، أن يجعل صدره ضيقا حرجا . أي : في غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين ، قد انغمس قلبه في الشبهات والشهوات ، فلا يصل إليه خير ، لا ينشرح قلبه لفعل الخير كأنه من ضيقه وشدته يكاد يصعد في السماء ، أي : كأنه يكلف الصعود إلى السماء ، الذي لا حيلة له فيه . وهذا سببه ، عدم إيمانهم ، هو الذي أوجب أن يجعل اللّه الرجس عليهم ، لأنهم سدوا على أنفسهم باب الرحمة والإحسان ، وهذا ميزان لا يعول ، وطريق لا يتغير ، فإن من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، يسره اللّه لليسرى ، ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، فسييسره للعسرى .

[١٢٦ : ١٢٧ - ٦] : ﴿وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

أي : معتدلا ، موصلا إلى اللّه ، وإلى دار كرامته ، قد بينت أحكامه ، وفصلت شرائعه ، وميز الخير من

الشر . ولكن هذا التفصيل والبيان ، ليس لكل أحد ، إنما هو ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ فإنهم الذين علموا ، فانتفعوا بعلمهم ، وأعد الله لهم الجزاء الجزيل ، والأجر الجميل ، فلهذا قال : ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وسميت الجنة دار السلام ، لسلامتها من كل عيب وآفة وكدر ، وهم وغم ، وغير ذلك من المنغصات ، ويلزم من ذلك ، أن يكون نعيمها في غاية الكمال ، ونهاية التمام ، بحيث لا يقدر على وصفه الواصفون ، ولا يتمنى فوقه المتمنون ، من نعيم الروح والقلب والبدن ، ولهم فيها ، ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، وهم فيها خالدون .

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ الذي يتولى تدبيرهم وتربيتهم ، ولطف بهم في جميع أمورهم ، وأعانهم على طاعته ، ويسر لهم كل سبب موصل إلى محبته ، وإنما تولاهم ، بسبب أعمالهم الصالحة ، ومقدماتهم التي قصدوا بها رضا مولاهم ، بخلاف من أعرض عن مولاه ، واتبع هواه ، فإنه سلط عليه الشيطان فتولاه ، فأفسد عليه دينه ودنياه .

[ ١٢٨: ١٣٥ - ٦] : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ .

يقول تعالى ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي : جميع الثقلين ، من الإنس والجن ، من ضل منهم ، ومن أضل غيره ، فيقول موبخا للجن الذين أضلوا الإنس ، وزينوا لهم الشر ، وأزُّوهم إلى المعاصي : ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أي : من إضلالهم ، وصدهم عن سبيل الله ، فكيف أقدمتم على محارمي ، وتجرأتم على معاندة رُسلي؟ وقمتم محاربين لله ، ساعين في صد عباد الله عن سبيله إلى سبيل الجحيم؟ .

فاليوم حقَّت عليكم لعنتي ، ووجبت لكم نقمتي وسنزيدكم من العذاب بحسب كفركم ، وإضلالكم لغيركم ، وليس لكم عذر به تعتذرون ، ولا ملجأ إليه تلجأون ، ولا شافع يشفع ولا دعاء يسمع ، فلا تسأل حينئذ عما يحل بهم من النكال ، والخزي والوبال ، ولهذا لم يذكر الله لهم اعتذارا ، وأما أولياؤهم من الإنس ، فأبدوا عذرا غير مقبول فقالوا : ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي : تمتع كل من الجنّي والإنسي بصاحبه ، وانتفع به ، فالجنّي يستمتع بطاعة الإنسي له وعبادته ، وتعظيمه ، واستعاذته به ، والإنسي يستمتع

بنيل أغراضه ، وبلوغه بسبب خدمة الجنّي له بعض شهواته ، فإن الإنسي يعبد الجنّي ، فيخدمه الجنّي ، ويحصل له منه بعض الحوائج الدنيوية ، أي : حصل منا من الذنوب ما حصل ، ولا يمكن رد ذلك .

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ أي : وقد وصلنا المحل الذي نجازي فيه بالأعمال ، فافعل بنا الآن ما تشاء ، واحكم فينا بما تريد ، فقد انقطعت حجتنا ولم يبق لنا عذر ، والأمر أمرك ، والحكم حكمك . وكأن في هذا الكلام منهم نوع تضرع وترقق ، ولكن في غير أوانه . ولهذا حكم فيهم بحكمه العادل ، الذي لا جور فيه ، فقال : ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ . ولما كان هذا الحكم من مقتضى حكمته وعلمه ، ختم الآية بقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فكما أن علمه وسع الأشياء كلها وعمّها ، فحكمته الغائية شملت الأشياء وعمتها ووسعتها .

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي : وكما ولّينا الجن المردة وسلطناهم على إضلال أوليائهم من الإنس وعقدنا بينهم عقد الموالاة والموافقة ، بسبب كسبهم وسعيهم بذلك . كذلك من سنتنا أن نولي كل ظالم ظالما مثله ، يؤزه إلى الشر ويحثه عليه ، ويزهده في الخير وينفره عنه ، وذلك من عقوبات اللّه العظيمة الشنيع أثرها ، البليغ خطرها .

والذنب ذنب الظالم ، فهو الذي أدخل الضرر على نفسه ، وعلى نفسه جنى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ سورة فُصّلت ٤٦] ، ومن ذلك ، أن العباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم ، ومنْعهم الحقوق الواجبة ، ولّى عليهم ظلمة ، يسومونهم سوء العذاب ، ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا من حقوق اللّه ، وحقوق عباده ، على وجه غير مأجورين فيه ولا محتسبين . كما أن العباد إذا صلحوا واستقاموا ، أصلح اللّه رعاتهم ، وجعلهم أئمة عدل وإنصاف ، لا ولاة ظلم واعتساف . ثم وبخ اللّه جميع من أعرض عن الحق ورده ، من الجن والإنس ، وبين خطأهم ، فاعترفوا بذلك ، فقال : ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ الواضحات البينات ، التي فيها تفاصيل الأمر والنهي ، والخير والشر ، والوعد والوعيد .

﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ ويعلمونكم أن النجاة فيه ، والفوز إنما هو بامتثال أوامر اللّه واجتناب نواهيه ، وأن الشقاء والخسران في تضييع ذلك ، فأقروا بذلك واعترفوا ، فـ ﴿قَالُوا۟﴾ بلى ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزينتها وزخرفها ، ونعيمها فاطمأنوا بها ورضوا ، وألهتهم عن الآخرة ، ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ فقامت عليهم حجة اللّه ، وعلم حينئذ كل أحد ، حتى هم بأنفسهم عدل اللّه فيهم ، فقال لهم : حاكما عليهم بالعذاب الأليم : ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ﴾ جملة ﴿أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ صنعوا كصنيعكم ، واستمتعوا بخلاقهم كما استمتعتم ، وخاضوا بالباطل كما خضتم ، إنهم كانوا خاسرين ، أي : الأولون من هؤلاء والآخرون ، وأي خسران أعظم من خسران جنات النعيم ، وحرمان جوار أكرم الأكرمين؟! ولكنهم وإن اشتركوا في الخسران ، فإنهم يتفاوتون في مقداره تفاوتا عظيمًا .

﴿وَلِكُلٍّ﴾ منهم ﴿دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ بحسب أعمالهم ، لا يجعل قليل الشر منهم ككثيره ، ولا التابع كالمتبوع ، ولا المرءوس كالرئيس ، كما أن أهل الثواب والجنة وإن اشتركوا في الربح والفلاح ودخول

الجنة ، فإن بينهم من الفرق ما لا يعلمه إلا اللّه ، مع أنهم كلهم ، قد رضوا بما آتاهم مولاهم ، وقنعوا بما حباهم ، فنسأله تعالى أن يجعلنا من أهل الفردوس الأعلى ، التي أعدها اللّه للمُقرَّبين من عباده ، والمصطفين من خلقه ، وأهل الصفوة من أهل وداده .

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ فيجازي كلا بحسب علمه ، وبما يعلمه من مقصده ، وإنما أمر اللّه العباد بالأعمال الصالحة ، ونهاهم عن الأعمال السيئة ، رحمة بهم ، وقصدا لمصالحهم ، وإلا فهو الغني بذاته ، عن جميع مخلوقاته ، فلا تنفعه طاعة الطائعين ، كما لا تضره معصية العاصين .

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ بالإهلاك ﴿وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ فإذا عرفتم بأنكم لا بد أن تنتقلوا من هذه الدار ، كما انتقل غيركم ، وترحلون منها وتخلونها لمن بعدكم ، كما رحل عنها من قبلكم وخلوها لكم ، فلم اتخذتموها قرارا ؟، وتوطنتم بها ونسيتم ، أنها دار ممر لا دار مقر . وأن أمامكم دارًا ، هي الدار التي جمعت كل نعيم وسلمت من كل آفة ونقص؟ وهي الدار التي يسعى إليها الأولون والآخرون ، ويرتحل نحوها السابقون واللاحقون ، التي إذا وصلوها ، فثَمَّ الخلود الدائم ، والإقامة اللازمة ، والغاية التي لا غاية وراءها ، والمطلوب الذي ينتهي إليه كل مطلوب ، والمرغوب الذي يضمحل دونه كل مرغوب ، هنالك واللّه ، ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، ويتنافس فيه المتنافسون ، من لذة الأرواح ، وكثرة الأفراح ، ونعيم الأبدان والقلوب ، والقرب من علام الغيوب ، فلله همة تعلقت بتلك الكرامات ، وإرادة سمت إلى أعلى الدرجات ، « وما أبخس حظ من رضي بالدون ، وأدنى همة من اختار صفقة المغبون » ، ولا يستبعد المعرض الغافل ، سرعة الوصول إلى هذه الدار .

فـ ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ للّه ، فارين من عقابه ، فإن نواصيكم تحت قبضته ، وأنتم تحت تدبيره وتصرفه .

﴿قُلۡ﴾ يا أيها الرسول لقومك إذا دعوتهم إلى اللّه ، وبينت لهم ما لهم وما عليهم من حقوقه ، فامتنعوا من الانقياد لأمره ، واتبعوا أهواءهم ، واستمروا على شركهم : ﴿يَـٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ أي : على حالتكم التي أنتم عليها ، ورضيتموها لأنفسكم .

﴿إِنِّي عَامِلٞۖ﴾ على أمر اللّه ، ومتبع لمراضي اللّه ، ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ أنا أو أنتم ، وهذا من الإنصاف بموضع عظيم ، حيث بيَّن الأعمال وعامليها ، وجعل الجزاء مقرونا بنظر البصير ، ضاربا فيه صفحا عن التصريح الذي يغني عنه التلويح . وقد علم أن العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة للمتقين ، وأن المؤمنين لهم عقبى الدار ، وأن كل معرض عما جاءت به الرسل ، عاقبته سوء وشر ، ولهذا قال : ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ فكل ظالم ، وإن تمتع في الدنيا بما تمتع به ، فنهايته فيه الاضمحلال والتلف ، « إن اللّه ليمُلي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يُفْلِته » .(١٠٢)

---

(١٠٢) * مُتَّفقٌ عليه . من حديث أبي موسى الأشعري . أخرجه البُخاري : ( كتاب تفسير القُرآن/ باب : قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَـٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [ سُورة هود١٠٢] / ح ٤٦٨٦) . وأخرجه مُسلم : ( كتاب البر والصِّلة/ باب : تحريم الظُّلم/ ح ٦١) .

[١٣٦ - ١٤٠] ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

يخبر تعالى عمّا عليه المشركون المكذّبون للنبي ﷺ، من سفاهة العقل، وخفة الأحلام، والجهل البليغ، وعدَّد تبارك وتعالى شيئا من خرافاتهم، لينبه بذلك على ضلالهم والحذر منهم، وأن معارضة أمثال هؤلاء السفهاء للحق الذي جاء به الرسول، لا تقدح فيه أصلا، فإنهم لا أهلية لهم في مقابلة الحق، فذكر من ذلك أنهم ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ ولشركائهم من ذلك نصيبا، والحال أن اللّه تعالى هو الذي ذرأه للعباد، وأوجده رزقا، فجمعوا بين محذورين محظورين، بل ثلاثة محاذير، منَّتهم على اللّه، في جعلهم له نصيبا، مع اعتقادهم أن ذلك منهم تبرع، وإشراك الشركاء الذين لم يرزقوهم، ولم يوجدوا لهم شيئا في ذلك، وحكمهم الجائر في أن ما كان للّه لم يبالوا به، ولم يهتموا، ولو كان واصلا إلى الشركاء، وما كان لشركائهم اعتنوا به واحتفظوا به ولم يصل إلى اللّه منه شيء، وذلك أنهم إذا حصل لهم -من زروعهم وثمارهم وأنعامهم، التي أوجدها اللّه لهم- شيء، جعلوه قسمين: قسمًا قالوا: هذا للّه بقولهم وزعمهم، وإلا فالله لا يقبل إلا ما كان خالصا لوجهه، ولا يقبل عمل مَن أشرك به.

وقسمًا جعلوه حِصَّة شركائهم من الأوثان والأنداد. فإن وصل شيء مما جعلوه للّه، واختلط بما جعلوه لغيره، لم يبالوا بذلك، وقالوا: اللّه غني عنه، فلا يردونه، وإن وصل شيء مما جعلوه لآلهتهم إلى ما جعلوه للّه، ردوه إلى محله، وقالوا: إنها فقيرة، لا بد من رد نصيبها. فهل أسوأ من هذا الحكم، وأظلم؟ حيث جعلوا ما للمخلوق، يجتهد فيه وينصح ويحفظ، أكثر مما يفعل بحق اللّه.

ويحتمل أن تأويل الآية الكريمة، ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال عن اللّه تعالى أنه قال: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من أشرك معي شيئا تركته وشركه». (١٠٣)

وأن معنى الآية أن ما جعلوه وتقربوا به لأوثانهم، فهو تقرب خالص لغير اللّه، ليس للّه منه شيء، وما جعلوه للّه -على زعمهم- فإنه لا يصل إليه لكونه شركًا، بل يكون حظ الشركاء والأنداد، لأن اللّه غني

(١٠٣) * أخرجه مُسلم: ( كتاب الزهد / باب: من أشرك في عمله غير الله/ ح ٤٦ ). من حديث أبي هريرة.

عنه ، لا يقبل العمل الذي أُشرِك به معه أحد من الخلق ، ومن سفه المشركين وضلالهم ، أنه زيَّن لكثير من المشركين شركاؤهم -أي : رؤساؤهم وشياطينهم- قتل أولادهم ، وهو : الوأد ، الذين يدفنون أولادهم الذكور خشية الافتقار ، والإناث خشية العار ، وكل هذا من خدع الشياطين ، الذين يريدون أن يُرْدُوهم بالهلاك ، ويلبسوا عليهم دينهم ، فيفعلون الأفعال التي في غاية القبح ، ولا يزال شركاؤهم يزينونها لهم ، حتى تكون عندهم من الأمور الحسنة والخصال المستحسنة ، ولو شاء اللَّه أن يمنعهم ويحول بينهم وبين هذه الأفعال ، ويمنع أولادهم عن قتل الأبوين لهم ، ما فعلوه ، ولكن اقتضت حكمته التخلية بينهم وبين أفعالهم ، استدراجا منه لهم ، وإمهالا لهم ، وعدم مبالاة بما هم عليه ، ولهذا قال : ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي : دعهم مع كذبهم وافترائهم ، ولا تحزن عليهم ، فإنهم لن يضروا اللَّه شيئا .

ومن أنواع سفاهتهم أن الأنعام التي أحلها اللَّه لهم عموما ، وجعلها رزقا ورحمة ، يتمتعون بها وينتفعون ، قد اخترعوا فيها بِدعًا وأقوالا من تلقاء أنفسهم ، فعندهم اصطلاح في بعض الأنعام « والحرث » أنهم يقولون فيها : ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ أي : مُحرَّم ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ أي : لا يجوز أن يطعمه أحد ، إلا من أردنا أن يطعمه ، أو وصفناه بوصف -من عندهم- . وكل هذا بزعمهم لا مستند لهم ولا حجة إلا أهويتهم ، وآراؤهم الفاسدة ، وأنعام ليست محرمة من كل وجه ، بل يحرمون ظهورها ، أي : بالركوب والحمل عليها ، ويحمون ظهرها ، ويسمونها الحام ، وأنعام لا يذكرون اسم اللَّه عليها ، بل يذكرون اسم أصنامهم وما كانوا يعبدون من دون اللَّه عليها ، وينسبون تلك الأفعال إلى اللَّه ، وهم كذبة فُجّار في ذلك .

﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ على اللَّه ، من إحلال الشرك ، وتحريم الحلال من الأكل ، والمنافع .

ومن آرائهم السخيفة أنهم يجعلون بعض الأنعام ، ويعينونها - محرمًا ما في بطنها على الإناث دون الذكور ، فيقولون : ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ أي : حلال لهم ، لا يشاركهم فيها النساء ، ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ أي : نسائنا ، هذا إذا ولد حيا ، وإن يكن ما « في » بطنها يولد ميتا ، فهم فيه شركاء ، أي : فهو حلال للذكور والإناث .

﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾ اللَّه ﴿وَصْفَهُمْ﴾ حين وصفوا ما أحله اللَّه بأنه حرام ، ووصفوا الحرام بالحلال ، فناقضوا شرع اللَّه وخالفوه ، ونسبوا ذلك إلى اللَّه ، ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ حيث أمهل لهم ، ومكنهم مما هم فيه من الضلال ، ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم ، لا تخفى عليه خافية ، وهو تعالى يعلم بهم وبما قالوه عليه وافتروه ، وهو يعافيهم ويرزقهم جل جلاله .

ثم بين خسرانهم وسفاهة عقولهم فقال : ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي : خسروا دينهم وأولادهم وعقولهم ، وصار وصْفُهم -بعد العقول الرزينة- السفه المردي ، والضلال . ﴿وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي : ما جعله رحمة لهم ، وساقه رزقا لهم ، فردوا كرامة ربهم ، ولم يكتفوا بذلك ، بل وصفوها بأنها حرام ، وهي من أَحَلِّ الحلال .

وكل هذا ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ أي: كذبا يكذب به كل معاند كفّار. ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أي: قد ضلوا ضلالا بعيدا، ولم يكونوا مهتدين في شيء من أمورهم.

[١٤١ - ٦]: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.

لما ذكر تعالى تصرُّف المشركين في كثير مما أحله الله لهم من الحروث والأنعام، ذكر تبارك وتعالى نعمته عليهم بذلك، ووظيفتهم اللازمة عليهم في الحروث والأنعام فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين، فيها أنواع الأشجار المتنوعة، والنباتات المختلفة، ﴿مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ أي: بعض تلك الجنات، مجعول لها عرش، تنتشر عليه الأشجار، ويعاونها في النهوض عن الأرض، وبعضها خال من العروش، تنبت على ساق، أو تنفرش في الأرض، وفي هذا تنبيه على كثرة منافعها، وخيراتها، وأنه تعالى، علم العباد كيف يعرشونها، وينمونها.

﴿وَ﴾ أنشأ تعالى ﴿النَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾ أي: كله في محل واحد، ويشرب من ماء واحد، ويفضل الله بعضه على بعض في الأكل. وخص تعالى النخل والزرع على اختلاف أنواعه لكثرة منافعها، ولكونها هي القوت لأكثر الخلق.

﴿وَ﴾ أنشأ تعالى ﴿الزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا﴾ في شجره ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ في ثمره وطعمه، كأنه قيل: لأي شيء أنشأ الله هذه الجنات، وما عطف عليها؟، فأخبر أنه أنشأها لمنافع العباد فقال: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ أي: النخل والزرع ﴿إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ أي: أعطوا حق الزرع، وهو الزكاة ذات الأنصباء المقدرة في الشرع، أمرهم أن يعطوها يوم حصادها، وذلك لأن حصاد الزرع بمنزلة حولان الحول، لأنه الوقت الذي تتشوف إليه نفوس الفقراء، ويسهل حينئذ إخراجه على أهل الزرع، ويكون الأمر فيها ظاهرا لمن أخرجها، حتى يتميز المخرج ممن لا يخرج.

وقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ يعم النهي عن الإسراف في الأكل، وهو مجاوزة الحد والعادة، وأن يأكل صاحب الزرع أكلا يضر بالزكاة، والإسراف في إخراج حق الزرع بحيث يخرج فوق الواجب عليه، ويضر نفسه أو عائلته أو غرماءه، فكل هذا من الإسراف الذي نهى الله عنه، الذي لا يحبه الله بل يبغضه ويمقت عليه.

وفي هذه الآية دليل على وجوب الزكاة في الثمار، وأنه لا حول لها، بل حولها حصادها في الزروع، وجذاذ النخيل، وأنه لا تتكرر فها الزكاة، لو مكثت عند العبد أحوالا كثيرة، إذا كانت لغير التجارة، لأن الله لم يأمر بالإخراج منه إلا وقت حصاده. وأنه لو أصابها آفة قبل ذلك بغير تفريط من صاحب الزرع والثمر، أنه لا يضمنها، وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يحسب ذلك من الزكاة، بل يزكي المال الذي يبقى بعده.

وقد كان النبي ﷺ، يبعث خارصا، يخرص للناس ثمارهم، ويأمره أن يدع لأهلها الثلث، أو الربع،

بحسب ما يعتريها من الأكل وغيره ، من أهلها ، وغيرهم .[١٠٤]

[ ١٤٢: ٤٤ ١ – ٦] : ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

أي : ﴿وَ﴾ خلق وأنشأ ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ﴾ أي : بعضها تحملون عليه وتركبونه ، وبعضها لا تصلح للحمل والركوب عليها لصغرها كالفصلان ونحوها ، وهي الفرش ، فهي من جهة الحمل والركوب ، تنقسم إلى هذين القسمين ، وأما من جهة الأكل وأنواع الانتفاع ، فإنها كلها تؤكل وينتفع بها . ولهذا قال : ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ﴾ أي : طرقه وأعماله التي من جملتها أن تحرموا بعض ما رزقكم اللّٰه .

﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فلا يأمركم إلا بما فيه مضرتكم وشقاؤكم الأبدي .

وهذه الأنعام التي امتن اللّٰه بها على عباده ، وجعلها كلها حلالا طيبا ، فصلها بأنها : ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكر وأنثى ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ﴾ كذلك ، فهذه أربعة ، كلها داخلة فيما أحل اللّٰه ، لا فرق بين شيء منها ، فقل لهؤلاء المتكلفين ، الذين يحرمون منها شيئا دون شيء ، أو يحرمون بعضها على الإناث دون الذكور ، ملزما لهم بعدم وجود الفرق بين ما أباحوا منها وحرموا : ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ من الضأن والمعز ﴿حَرَّمَ﴾ اللّٰه ، فلستم تقولون بذلك وتطردونه ، ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ حرم اللّٰه من الضأن والمعز ، فليس هذا قولكم ، لا تحريم الذكور الخلص ، ولا الإناث الخلص من الصنفين . بقي إذا كان الرحم مشتملا على ذكر وأنثى ، أو على مجهول فقال : ﴿أَمَّ﴾ تحرمون ﴿مَا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ﴾ أي : أنثى الضأن وأنثى المعز ، من غير فرق بين ذكر وأنثى ، فلستم تقولون أيضًا بهذا القول ، فإذا كنتم لا تقولون بأحد هذه الأقوال الثلاثة ، التي حصرت الأقسام الممكنة في ذلك ، فإلى أي شيء تذهبون؟ .

﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم ودعواكم ، ومن المعلوم أنهم لا يمكنهم أن يقولوا قولا سائغا في العقل ، إلا واحدا من هذه الأمور الثلاثة ، وهم لا يقولون بشيء منها ، إنما يقولون : إن بعض

---

(١٠٤) * حسن بطُرقه . أخرجه أبو داود : ( كتاب الزّكاة/ باب : في الخرص/ ح ١٦٠٥) .

قال الحافظ في « بلوغ المرام » ح ٥٧٧: ( رواه الخمسة إلّا ابن ماجه ، وصححه ابن حبّان والحاكم ) .اهـ

قال الصّنعاني في « سُبل السّلام » ٢/ ١٩٠ح ٥٧٧: ( وفي إسناده مجهول الحال كما قال ابن القطّان ، لكن الحاكم قال : له شاهدٌ مُتفقٌ على صحته ، أنّ عمر أمر به ) .اهـ

قلتُ : وفي الباب غيره .

الأنعام التي يصطلحون عليها اصطلاحات من عند أنفسهم ، حرام على الإناث دون الذكور ، أو مُحرَّمة في وقت من الأوقات ، أو نحو ذلك من الأقوال ، التي يعلم علما لا شك فيه أن مصدرها من الجهل المركب ، والعقول المختلة المنحرفة ، والآراء الفاسدة ، وأن الله ، ما أنزل -بما قالوه- من سلطان ، ولا لهم عليه حجة ولا برهان .

ثم ذكر في الإبل والبقر مثل ذلك . فلما بين بطلان قولهم وفساده ، قال لهم قولًا لا حيلة لهم في الخروج من تبعته ، إلا في اتباع شرع الله .

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي : لم يبق عليكم إلا دعوى ، لا سبيل لكم إلى صدقها وصحتها . وهي أن تقولوا : إن الله وصَّانا بذلك ، وأوحى إلينا كما أوحى إلى رسله ، بل أوحى إلينا وحيا مخالفا لما دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب ، وهذا افتراء لا يجهله أحد ، ولهذا قال : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي : مع كذبه وافترائه على الله ، قصده بذلك إضلال عباد الله عن سبيل الله ، بغير بينة منه ولا برهان ، ولا عقل ولا نقل .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين لا إرادة لهم في غير الظلم والجور ، والافتراء على الله .

[ ١٤٥ : ١٤٦ - ٦ ] : ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ .

لما ذكر تعالى ذم المشركين على ما حرموا من الحلال ونسبوه إلى الله ، وأبطل قولهم ، أمر تعالى رسوله أن يبين للناس ما حرَّمه الله عليهم ، ليعلموا أن ما عدا ذلك حلال ، مَنْ نسب تحريمه إلى الله فهو كاذب مبطل ، لأن التحريم لا يكون إلا من عند الله على لسان رسوله ، وقد قال لرسوله : ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ﴾ أي : مُحرَّمًا أكله ، بقطع النظر عن تحريم الانتفاع بغير الأكل وعدمه .

﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ والميتة : ما مات بغير ذكاة شرعية ، فإن ذلك لا يحل ، كما قال تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [ سورة المائدة ٣ ] .

﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ وهو الدم الذي يخرج من الذبيحة عند ذكاتها ، فإنه الدم الذي يضر احتباسه في البدن ، فإذا خرج من البدن زال الضرر بأكل اللحم ، ومفهوم هذا اللفظ ، أن الدم الذي يبقى في اللحم والعروق بعد الذبح ، أنه حلال طاهر .

﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ أي : فإن هذه الأشياء الثلاثة ، رجس ، أي : خبث نجس مضر ، حرمه الله لطفا بكم ، ونزاهة لكم عن مقاربة الخبائث .

﴿أَوْ﴾ إلا أن يكون ﴿فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي : إلا أن تكون الذبيحة مذبوحة لغير الله ، من

الأوثان والآلهة التي يعبدها المشركون ، فإن هذا من الفسق الذي هو الخروج عن طاعة اللّٰه إلى معصيته ، أي : ومع هذا ، فهذه الأشياء المحرمات ، من اضطر إليها ، أي : حملته الحاجة والضرورة إلى أكل شيء منها ، بأن لم يكن عنده شيء وخاف على نفسه التلف .

﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي : ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي : مريدٍ لأكلها من غير اضطرار وَلَا متعد ، أي : متجاوز للحد ، بأن يأكل زيادة عن حاجته .

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي : فالله قد سامح من كان بهذه الحال .

واختلف العلماء رحمهم اللّٰه في هذا الحصر المذكور في هذه الآية ، مع أن ثَمَّ مُحرّمات لم تذكر فيها ، كالسباع وكل ذي مخلب من الطير ونحو ذلك ، فقال بعضهم : إن هذه الآية نازلة قبل تحريم ما زاد على ما ذكر فيها ، فلا ينافي هذا الحصر المذكور فيها التحريم المتأخر بعد ذلك ؛ لأنه لم يجده فيما أوحي إليه في ذلك الوقت ، وقال بعضهم : إن هذه الآية مشتملة على سائر المُحرّمات ، بعضها صريحا ، وبعضها يؤخذ من المعنى وعموم العلة . فإن قوله تعالى في تعليل الميتة والدم ولحم الخنزير ، أو الأخير منها فقط : ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ وصف شامل لكل محرم ، فإن المحرمات كلها رجس وخبث ، وهي من الخبائث المستقذرة التي حرمها اللّٰه على عباده ، صيانة لهم ، وتكرمة عن مباشرة الخبيث الرجس .

ويؤخذ تفاصيل الرجس المحرم من السنّة ، فإنها تفسر القرآن ، وتبين المقصود منه ، فإذا كان اللّٰه تعالى لم يحرّقم من المطاعم إلا ما ذكر ، والتحريم لا يكون مصدره ، إلا شرع اللّٰه –دل ذلك على أن المشركين ، الذين حرموا ما رزقهم اللّٰه مفترون على اللّٰه ، متقولون عليه ما لم يقل ، وفي الآية احتمال قوي ، لولا أن اللّٰه ذكر فيها الخنزير ، وهو : أن السياق في نقض أقوال المشركين المُتقدّمة ، في تحريمهم لما أحله اللّٰه وخوضهم بذلك ، بحسب ما سولت لهم أنفسهم ، وذلك في بهيمة الأنعام خاصة ، وليس منها مُحرّم إلا ما ذكر في الآية : الميتة منها ، وما أهل لغير اللّٰه به ، وما سوى ذلك فحلال . ولعل مناسبة ذكر الخنزير هنا على هذا الاحتمال ، أن بعض الجهال قد يدخله في بهيمة الأنعام ، وأنه نوع من أنواع الغنم ، كما قد يتوهمه جهلة النصارى وأشباههم ، فينمونها كما ينمون المواشي ، ويستحلونها ، ولا يفرقون بينها وبين الأنعام ، فهذا المحرم على هذه الأمة كله من باب التنزيه لهم والصيانة . وأما ما حرم على أهل الكتاب ، فبعضه طيب ولكنه حرم عليهم عقوبة لهم ، ولهذا قال : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ وذلك كالإبل ، وما أشبهها ﴿وَ﴾ حرمنا عليهم . ﴿مِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ﴾ بعض أجزائها ، وهو : ﴿شُحُومَهُمَا﴾ وليس المحرم جميع الشحوم منها ، بل شحم الألية والثرب ، ولهذا استثنى الشحم الحلال من ذلك فقال : ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا﴾ أي : الشحم المخالط للأمعاء ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ .

﴿ذَٰلِكَ﴾ التحريم على اليهود ﴿جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ أي : ظلمهم وتعديهم في حقوق اللّٰه وحقوق عباده ، فحرم اللّٰه عليهم هذه الأشياء عقوبة لهم ونكالا . ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في كل ما نقول ونفعل ونحكم به ، ومن أصدق من اللّٰه حديثا ، ومن أحسن من اللّٰه حكما لقوم يوقنون .

[١٤٧ - ٦] : ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ .

أي : فإن كذبك هؤلاء المشركون ، فاستمر على دعوتهم ، بالترغيب والترهيب ، وأخبرهم بأن الله ﴿ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ أي : عامة شاملة « لجميع » للمخلوقات كلها ، فسارعوا إلى رحمته بأسبابها ، التي رأسها وأسها ومادتها ، تصديق محمد ﷺ فيما جاء به .

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي : الذين كثر إجرامهم وذنوبهم .فاحذروا الجرائم الموصلة لبأس الله ، التي أعظمها ورأسها تكذيب محمد ﷺ .

[ ١٤٨ : ١٤٩ - ٦] : ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

هذا إخبار من الله أن المشركين سيحتجون على شركهم وتحريمهم ما أحل الله ، بالقضاء والقدر ، ويجعلون مشيئة الله الشاملة لكل شيء من الخير والشر حجة لهم في دفع اللوم عنهم . وقد قالوا ما أخبر الله أنهم سيقولونه ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [ سورة النحل ٣٥] الآية .

فأخبر تعالى أن هذه الحجة ، لم تزل الأمم المُكذِّبة تدفع بها عنهم دعوة الرسل ، ويحتجون بها ، فلم تجد فيهم شيئا ولم تنفعهم ، فلم يزل هذا دأبهم حتى أهلكهم الله ، وأذاقهم بأسه . فلو كانت حجة صحيحة ، لدفعت عنهم العقاب ، ولما أحل الله بهم العذاب ، لأنه لا يحل بأسه إلا بمن استحقه ، فعلم أنها حجة فاسدة ، وشبهة كاسدة ، من عدة أوجه .

منها : ما ذكر الله من أنها لو كانت صحيحة ، لم تحل بهم العقوبة .

ومنها : أن الحجة ، لا بد أن تكون حجة مستندة إلى العلم والبرهان ، فأما إذا كانت مستندة إلى مجرد الظن والخرص ، الذي لا يغني من الحق شيئا ، فإنها باطلة ، ولهذا قال : ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ فلو كان لهم علم - وهم خصوم ألداء- لأخرجوه ، فلما لم يخرجوه علم أنه لا علم عندهم . ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ ومَنْ بنى حججه على الخرص والظن ، فهو مبطل خاسر ، فكيف إذا بناها على البغي والعناد والشر والفساد؟ .

ومنها : أن الحجة لله البالغة ، التي لم تبق لأحد عذرا ، التي اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون ، والكتب الإلهية ، والآثار النبوية ، والعقول الصحيحة ، والفطر المستقيمة ، والأخلاق القويمة ، فعلم بذلك أن كل ما خالف هذه الأدلة القاطعة باطل ، لأن نقيض الحق ، لا يكون إلا باطلا .

ومنها : أن الله تعالى أعطى كل مخلوق ، قدرة ، وإرادة ، يتمكن بها من فعل ما كلف به ، فلا أوجب الله على أحد ما لا يقدر على فعله ، ولا حرم على أحد ما لا يتمكن من تركه ، فالاحتجاج بعد هذا بالقضاء

والقدر، ظلم محض وعناد صرف .

**ومنها** : أن الله تعالى لم يجبر العباد على أفعالهم ، بل جعل أفعالهم تبعا لاختيارهم ، فإن شاءوا فعلوا ، وإن شاءوا كفوا . وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا من كابر ، وأنكر المحسوسات ، فإن كل أحد يفرق بين الحركة الاختيارية والحركة القسرية ، وإن كان الجميع داخلا في مشيئة الله ، ومندرجا تحت إرادته .

**ومنها** : أن المحتجين على المعاصي بالقضاء والقدر يتناقضون في ذلك . فإنهم لا يمكنهم أن يطردوا ذلك ، بل لو أساء إليهم مسيء بضرب أو أخذ مال أو نحو ذلك ، واحتج بالقضاء والقدر لما قبلوا منه هذا الاحتجاج ، ولغضبوا من ذلك أشد الغضب . فيا عجبا كيف يحتجون به على معاصي الله ومساخطه . ولا يرضون من أحد أن يحتج به في مقابلة مساخطهم؟ .

**ومنها** : أن احتجاجهم بالقضاء والقدر ليس مقصودا ، ويعلمون أنه ليس بحجة ، وإنما المقصود منه دفع الحق ، ويرون أن الحق بمنزلة الصائل ، فهم يدفعونه بكل ما يخطر ببالهم من الكلام وإن كانوا يعتقدونه خطأ .

[ ١٥٠ - ٦] : ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ .

أي : قل لمن حرّم ما أحل الله ، ونسب ذلك إلى الله : أحضِروا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا ، فإذا قيل لهم هذا الكلام ، فهم بين أمرين : إما : أن لا يحضروا أحدا يشهد بهذا ، فتكون دعواهم إذًا باطلة ، خلية من الشهود والبرهان ، وإما : أن يحضروا أحدا يشهد لهم بذلك ، ولا يمكن أن يشهد بهذا إلا كل أفاك أثيم غير مقبول الشهادة ، وليس هذا من الأمور التي يصح أن يشهد بها العدول ؛ ولهذا قال تعالى - ناهيا نبيه ، وأتباعه عن هذه الشهادة- : ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي : يسوون به غيره من الأنداد والأوثان .

فإذا كانوا كافرين باليوم الآخر غير موحّدين لله ، كانت أهويتهم مناسبة لعقيدتهم ، وكانت دائرة بين الشرك والتكذيب بالحق ، فحري بهوى هذا شأنه ، أن ينهى الله خيار خلقه عن اتباعه ، وعن الشهادة مع أربابه ، وعلم حينئذ أن تحريمهم لما أحل الله صادر عن تلك الأهواء المضلة .

[ ١٥١: ١٥٣ - ٦] : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين حرموا ما أحل الله . ﴿تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ تحريما عاما شاملا لكل أحد ، محتويا على سائر المحرمات ، من المآكل والمشارب والأقوال والأفعال . ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ أي : لا قليلا ولا كثيرا ، وحقيقة الشرك بالله : أن يُعبد المخلوق كما يُعبد الله ، أو يُعظَّم كما يُعظَّم الله ، أو يُصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية ، وإذا ترك العبد الشرك كله صار مُوحِّدا ، مخلصا لله في جميع أحواله ، فهذا حق الله على عباده ، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا . ثم بدأ بآكد الحقوق بعد حقه فقال : ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ من الأقوال الكريمة الحسنة ، والأفعال الجميلة المستحسنة ، فكل قول وفعل يحصل به منفعة للوالدين أو سرور لهما ، فإن ذلك من الإحسان ، وإذا وجد الإحسان انتفى العقوق .

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ من ذكور وإناث ﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ أي : بسبب الفقر وضيقكم من رزقهم ، كما كان ذلك موجودا في الجاهلية القاسية الظالمة ، وإذا كانوا منهيين عن قتلهم في هذه الحال ، وهم أولادهم ، فنهيهم عن قتلهم لغير موجب ، أو قتل أولاد غيرهم ، من باب أولى وأحرى .

﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ أي : قد تكفلنا برزق الجميع ، فلستم الذين ترزقون أولادكم ، بل ولا أنفسكم ، فليس عليكم منهم ضيق .

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ وهي : الذنوب العظام المستفحشة ، ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي : لا تقربوا الظاهر منها والخفي ، أو المتعلق منها بالظاهر ، والمتعلق بالقلب والباطن . والنهي عن قربان الفواحش أبلغ من النهي عن مجرد فعلها ، فإنه يتناول النهي عن مُقدّماتها ووسائلها الموصّلة إليها .

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ وهي : النفس المُسلمة ، من ذكر وأنثى ، صغير وكبير ، بر وفاجر ، والكافرة التي قد عصمت بالعهد والميثاق . ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالزاني المُحصن ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المُفارق للجماعة .(١٠٥)

﴿ذَلِكُمْ﴾ المذكور ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عن الله وصيته ، ثم تحفظونها ، ثم تراعونها وتقومون بها .

ودلت الآية على أنه بحسب عقل العبد يكون قيامه بما أمر الله به . ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ بأكل ، أو مُعاوضة على وجه المُحاباة لأنفسكم ، أو أخذ من غير سبب . ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي : إلا بالحال التي تصلح بها أموالهم ، وينتفعون بها ، فدل هذا على أنه لا يجوز قُربانها ، والتصرف بها على وجه يضر اليتامى ، أو على وجه لا مضرّة فيه ولا مصلحة ، ﴿حَتَّى يَبْلُغَ﴾ اليتيم ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي : حتى يبلغ ويرشد ،

---

(١٠٥) * عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالثَّيِّبُ الزَّانِي وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ . أخرجه البُخاري في صحيحه : ( كتاب الديّات / باب : قول الله تعالى : ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [ سُورة المائدة ٤٥]/ ح ٦٨٧٨ ) . ومُسلم في صحيحه : ( كتاب القسامة / باب : مايُباح به دم المُسلم / ح ٢٥ ٢٦ ) .

ويعرف التصرف ، فإذا بلغ أشده ، أُعطي حينئذ ماله ، وتصرف فيه على نظره .

وفي هذا دلالة على أن اليتيم -قبل بلوغ الأشد- محجور عليه ، وأن وليه يتصرف في ماله بالأحظ ، وأن هذا الحجر ينتهي ببلوغ الأشد .

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي : بالعدل والوفاء التام ، فإذا اجتهدتم في ذلك ، فـ ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي : بقدر ما تسعه ، ولا تضيق عنه . فمَن حرَص على الإيفاء في الكيل والوزن ، ثم حصل منه تقصير لم يفرط فيه ، ولم يعلمه ، فإن اللّه عفو غفور .

وبهذه الآية ونحوها استدل الأصوليون ، بأن اللّه لا يكلّف أحدا ما لا يطيق ، وعلى أن من اتقى اللّه فيما أمر ، وفعل ما يمكنه من ذلك ، فلا حرج عليه فيما سوى ذلك .

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ قولا تحكمون به بين الناس ، وتفصلون بينهم الخطاب ، وتتكلمون به على المقالات والأحوال ﴿فَاعْدِلُوا﴾ في قولكم ، بمراعاة الصدق فيمن تحبون ومن تكرهون ، والإنصاف ، وعدم كتمان ما يلزم بيانه ، فإن الميل على من تكره بالكلام فيه أو في مقالته من الظلم المُحرَّم .

بل إذا تكلّم العالم على مقالات أهل البدع ، فالواجب عليه أن يعطي كل ذي حق حقه ، وأن يبين ما فيها من الحق والباطل ، ويعتبر قربها من الحق وبُعدها منه .

وذكر الفقهاء أن القاضي يجب عليه العدل بين الخصمين ، في لحظه ولفظه .

﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ وهذا يشمل العهد الذي عاهده عليه العباد من القيام بحقوقه والوفاء بها ، ومن العهد الذي يقع التعاقد به بين الخلق . فالجميع يجب الوفاء به ، ويحرم نقضه والإخلال به .

﴿ذَلِكُمْ﴾ الأحكام المذكورة ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما بينه لكم من الأحكام ، وتقومون بوصية اللّه لكم حق القيام ، وتعرفون ما فيها ، من الحكم والأحكام .

ولما بيّن كثيرا من الأوامر الكبار ، والشرائع المُهمّة ، أشار إليها وإلى ما هو أعم منها فقال : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ أي : هذه الأحكام وما أشبهها ، مما بينه اللّه في كتابه ، ووضحه لعباده ، صراط اللّه الموصِّل إليه ، وإلى دار كرامته ، المُعتدل السهل المُختصر . ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ لتنالوا الفوز والفلاح ، وتدركوا الآمال والأفراح .

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ أي : الطرق المخالفة لهذا الطريق ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي : تضلكم عنه وتفرقكم يمينا وشمالا ، فإذا ضللتم عن الصراط المُستقيم ، فليس ثم إلا طرق توصل إلى الجحيم .

﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فإنكم إذا قمتم بما بينه اللّه لكم علما وعملا صرتم من المُتَّقين ، وعباد اللّه المفلحين ، ووحد الصراط وأضافه إليه لأنه سبيل واحد موصل إليه ، والله هو المعين للسالكين على سلوكه .

[ ١٥٤ – ١٥٧ : ٦٧] : ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ

تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ .

﴿ثُمَّ﴾ في هذا الموضع ، ليس المُراد منها الترتيب الزماني ، فإن زمن موسى عليه السلام ، مُتقدِّم على تلاوة الرسول محمد ﷺ هذا الكتاب ، وإنما المُراد الترتيب الإخباري ، فأخبر أنه آتى ﴿مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو التوراة ﴿تَمَامًا﴾ لنعمته ، وكمالا لإحسانه . ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ من أُمة موسى ، فإن اللّٰه أنعم على المحسنين منهم بنِعَم لا تحصى ، من جملتها وتمامها إنزال التوراة عليهم . فتمت عليهم نعمة اللّٰه ، ووجب عليهم القيام بشكرها

﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ يحتاجون إلى تفصيله ، من الحلال والحرام ، والأمر والنهي ، والعقائد ونحوها .

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي : يهديهم إلى الخير ، ويعرفهم بالشر ، في الأصول والفروع ، ﴿وَرَحْمَةً﴾ يحصل به لهم السعادة والرحمة والخير الكثير .

﴿لَّعَلَّهُم﴾ بسبب إنزالنا الكتاب والبيِّنات عليهم ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنه اشتمل من الأدلة القاطعة على البعث والجزاء بالأعمال ، ما يوجب لهم الإيمان بلقاء ربهم والاستعداد له .

﴿وَهَٰذَا﴾ القُرآن العظيم ، والذكر الحكيم ، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ أي : فيه الخير الكثير والعلم الغزير ، وهو الذي تُستمد منه سائر العلوم ، وتستخرج منه البركات ، فما من خير إلا وقد دعا إليه ورغب فيه ، وذكر الحكم والمصالح التي تحث عليه ، وما من شر إلا وقد نهى عنه وحذر منه ، وذكر الأسباب المُنفِّرة عن فعله وعواقبها الوخيمة ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ فيما يأمر به وينهى ، وابنوا أصول دينكم وفروعه عليه ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ اللّٰه تعالى أن تخالفوا له أمرا ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إن اتبعتموه ﴿تُرْحَمُونَ﴾ فأكبر سبب لنيل رحمة اللّٰه اتباع هذا الكتاب ، علمًا وعملًا .

﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ أي : أنزلنا إليكم هذا الكتاب المبارك قطعا لحجتكم ، وخشية أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، أي : اليهود والنصارى . ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ أي : تقولون لَم تنزل علينا كتابا ، والكتب التي أنزلتها على الطائفتين ليس لنا بها علم ولا معرفة ، فأنزلنا إليكم كتابا ، لم ينزل من السماء كتاب أجمع ولا أوضح ولا أبين منه .

﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ أي : إما أن تعتذروا بعدم وصول أصل الهداية إليكم ، وإما أن تعتذروا ، بـ « عدم » كمالها وتمامها ، فحصل لكم بكتابكم أصل الهداية وكمالها ، ولهذا قال : ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهذا اسم جنس ، يدخل فيه كل ما يبين الحق ﴿وَهُدًى﴾ من

الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي: سعادة لكم في دينكم ودنياكم، فهذا يوجب لكم الانقياد لأحكامه والإيمان بأخباره، وأن من لم يرفع به رأسا وكذب به، فإنه أظلم الظالمين، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أي: أعرض ونأى بجانبه.

﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: العذاب الذي يسوء صاحبه ويشق عليه، ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ لأنفسهم ولغيرهم، جزاء لهم على عملهم السيء ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [سورة فصلت ٤٦].

وفي هذه الآيات دليل على أن علم القرآن أجل العلوم وأبركها وأوسعها، وأنه به تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم، هداية تامة لا يحتاج معها إلى تخرص المتكلّمين، ولا إلى أفكار المتفلسفين، ولا لغير ذلك من علوم الأولين والآخرين.

وأن المعروف أنه لم ينزل جنس الكتاب إلا على الطائفتين، من اليهود والنصارى، فهم أهل الكتاب عند الإطلاق، لا يدخل فيهم سائر الطوائف، لا المجوس ولا غيرهم. وفيه: ما كان عليه الجاهلية قبل نزول القرآن، من الجهل العظيم وعدم العلم بما عند أهل الكتاب، الذين عندهم مادة العلم، وغفلتهم عن دراسة كتبهم.

[١٥٨ - ٦]: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

يقول تعالى: هل ينظر هؤلاء الذين استمر ظُلمهم وعنادهم، ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ﴾ مقدمات العذاب، ومقدمات الآخرة بأن تأتيهم ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم، فإنهم إذا وصلوا إلى تلك الحال، لم ينفعهم الإيمان ولا صالح الأعمال. ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ لفصل القضاء بين العباد، ومجازاة المحسنين والمسيئين. ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الدالة على قُرب الساعة.

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الخارقة للعادة، التي يعلم بها أن الساعة قد دنت، وأن القيامة قد اقتربت. ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ أي: إذا وجد بعض آيات الله لم ينفع الكافر إيمانه أن آمن، ولا المؤمنَ المقصر أن يزداد خيرُه بعد ذلك، بل ينفعه ما كان معه من الإيمان قبل ذلك، وما كان له من الخير المرجوّ قبل أن يأتي بعض الآيات. والحكمة في هذا ظاهرة، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيمانا بالغيب، وكان اختيارا من العبد، فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة، لأنه يشبه الإيمان الضروري، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت، أقلع عما هو فيه كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [سورة غافر ٨٤ - ٨٥].

وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن المُراد ببعض آيات الله، طلوع الشمس من

مغربها ، وأن الناس إذا رأوها ، آمنوا ، فلم ينفعهم إيمانهم ، ويُغلق حينئذ بابُ التوبة .(١٠٦)

ولما كان هذا وعيدا للمُكذِّبين بالرسول ﷺ ، مُنتظرا ، وهم ينتظرون بالنبي ﷺ وأتباعه قوارع الدهر ومصائب الأمور ، قال : ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ فستعلمون أيُّنا أحق بالأمن .

وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الأفعال الاختيارية للّه تعالى ، كالاستواء والنزول ، والإتيان للّه تبارك وتعالى ، من غير تشبيه له بصفات المخلوقين . وفي الكتاب والسنة من هذا شيء كثير ، وفيه أن من جملة أشراط الساعة طلوع الشمس من مغربها ، وأن اللّه تعالى حكيم قد جرت عادته وسنته ، أن الإيمان إنما ينفع إذا كان اختياريا لا اضطراريا ، كما تقدَّم .

وأن الإنسان يكتسب الخير بإيمانه . فالطاعة والبر والتقوى إنما تنفع وتنمو إذا كان مع العبد الإيمان . فإذا خلا القلب من الإيمان لم ينفعه شيء من ذلك .

[ ١٥٩ : ١٦٠ - ٦ ] : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

يتوعَّد تعالى الذين فرَّقوا دينهم ، أي : شتَّتوه وتفرَّقوا فيه ، وكلٌّ أخذ لنفسه نصيبا من الأسماء التي لا تفيد الإنسان في دينه شيئا ، كاليهودية والنصرانية والمجوسية . أو لا يكمل بها إيمانه ، بأن يأخذ من الشريعة شيئا ويجعله دينه ، ويدع مثله ، أو ما هو أولى منه ، كما هو حال أهل الفرقة من أهل البدع والضلال والمُفرِّقين للأُمة .

ودلَّت الآية الكريمة أن الدين يأمر بالاجتماع والائتلاف ، وينهى عن التفرق والاختلاف في أهل الدين ، وفي سائر مسائله الأصولية والفروعية . وأمره أن يتبرأ ممن فرقوا دينهم فقال : ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ أي لست منهم وليسوا منك ، لأنهم خالفوك وعاندوك . ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يردون إليه فيجازيهم بأعمالهم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ .

ثم ذكر صفة الجزاء فقال : ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ القولية والفعلية ، الظاهرة والباطنة ، المُتعلِّقة بحق اللّه أو حق خلقه ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ هذا أقل ما يكون من التضعيف .

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهذا من تمام عدله تعالى وإحسانه ، وأنه لا يظلم مثقال ذرة ، ولهذا قال : ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

[ ١٦١ : ١٦٥ - ٦ ] : ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا

---

(١٠٦) * عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِهَا آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا .

مُتَّفق عليه . أخرجه البُخاري في غير موضع من صحيحه ، منها : ( كتاب الإيمان / باب : ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ [ سورة الأنعام ١٥٨] / ح ٢٤٨، ٢٤٩ ) .

﴿كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

يأمر تعالى نبيه ﷺ، أن يقول ويعلن بما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم : الدين المعتدل المتضمن للعقائد النافعة ، والأعمال الصالحة ، والأمر بكل حسن ، والنهي عن كل قبيح ، الذي عليه الأنبياء والمُرسلون ، خُصوصا إمام الحنفاء ، ووالد من بعث من بعد موته من الأنبياء ، خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وهو الدين الحنيف المائل عن كل دين غير مستقيم ، من أديان أهل الانحراف ، كاليهود والنصارى والمشركين . وهذا عموم ، ثم خصص من ذلك أشرف العبادات فقال : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ أي : ذبحي ، وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما ، ودلالتهما على محبة اللّه تعالى ، وإخلاص الدين له ، والتقرب إليه بالقلب واللسان ، والجوارح وبالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال ، لما هو أحب إليها وهو اللّه تعالى . ومن أخلص في صلاته ونسكه ، استلزم ذلك إخلاصه للّه في سائر أعماله . وقوله : ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ أي : ما آتيه في حياتي ، وما يجريه اللّه عليَّ ، وما يقدر عليَّ في مماتي ، الجميع ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ في العبادة ، كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير ، وليس هذا الإخلاص للّه ابتداعا مني ، وبدعا أتيته من تلقاء نفسي ، بل ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ أمرا حتما ، لا أخرج من التبعة إلا بامتثاله ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأُمَّة . ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ﴾ من المخلوقين ﴿أَبْغِي رَبًّا﴾ أي : يحسن ذلك ويليق بي ، أن أتخذ غيره ، مُربِّيا ومُدبِّرا والله رب كل شيء ، فالخلق كلهم داخلون تحت ربوبيته ، منقادون لأمره؟ . فتعين علي وعلى غيري ، أن يتخذ اللّه ربا ، ويرضى به ، وألا يتعلق بأحد من المربوبين الفقراء العاجزين . ثم رغَّب ورهَّب بذكر الجزاء فقال : ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر ﴿إِلَّا عَلَيْهَا﴾ كما قال تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [ سُورة فُصِّلت ٤٦ ] . ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ بل كل عليه وزر نفسه ، وإن كان أحد قد تسبب في ضلال غيره ووزره ، فإن عليه وزر التسبب من غير أن ينقص من وزر المباشر شيء . ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من خير وشر ، ويجازيكم على ذلك ، أوفى الجزاء .

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ أي : يخلف بعضكم بعضا ، واستخلفكم اللّه في الأرض ، وسخَّر لكم جميع ما فيها ، وابتلاكم ، لينظر كيف تعملون . ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ في القوة والعافية ، والرزق والخَلْق والخُلُق . ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ فتفاوتت أعمالكم . ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه وكذَّب بآياته ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن آمن به وعمل صالحًا ، وتاب من المُوبقات .

آخر تفسير سورة الأنعام فللّه الحمد والثناء وصلى اللّه وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين .

المُجلَّد الثالث من :

# « تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان »

لجامعه الفقير إلى اللَّه :
عبد الرَّحمن بن ناصر بن عبد اللَّه بن سعدي
غفر اللَّه له ولوالديه وللمُسلمين، آمين

## ( ٧ ) تفسير سورة الأعراف

### مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[ ١ : ٧ - ٧ ] : ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ .

يقول تعالى لرسولِهِ مُحمَّد ﷺ مُبيِّنا له عظمة القُرآن : ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي : كتاب جليل حوى كل ما يحتاج إليه العِباد ، وجميع المطالب الإلهية ، والمقاصد الشرعيَّة ، مُحْكما مُفصَّلا ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي : ضيق وشك واشتباه ، بل لتعلم أنَّه تنزيل من حكيم حميد ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وأنَّه أصدق الكلام فلينشرح له صدرك ، ولتطمئن به نفسك ، ولتصدع بأوامره ونواهيه ، ولا تخش لائما ومُعارضا .

﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ الخلق ، فتعظهم وتُذكِّرهم ، فتقوم الحُجَّة على المُعانِدين .

﴿وَ﴾ ليكون ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ كما قال تعالى : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [ سُورة الذَّاريات ٥٥ ] ، يتذكَّرون به الصِّراط المُستقيم ، وأعماله الظاهرة والباطنة ، وما يحُول بين العبد ، وبين سُلوكه .

ثُمَّ خاطب اللّه العِباد ، وألْفتَهُم إلى الكتاب فقال : ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي : الكتاب الَّذي أُريد إنزاله لأجلكم ، وهو : ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الَّذي يُريد أن يتم تربيته لكم ، فأنزل عليكم هذا الكتاب الَّذي ، إن اتَّبعتُموه ، كَمُلَت تربيتكم ، وتمَّت عليكم النِّعمة ، وهُدِيتُم لأحسنِ الأعمال والأخلاق ومعاليها ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي : تتولَّونهم ، وتتَّبِعون أهواءهم ، وتتركون لأجلها الحق .

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فلو تذكَّرتم وعرفتم المصلحة ، لما آثرتم الضار على النافع ، والعدو على الوليِّ .

ثُمَّ حذَّرهم عُقوباته للأُمم الَّذين كذَّبوا ما جاءتهم به رسلهم ، لئلا يُشابِهوهم فقال : ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ أي : عذابُنا الشديد ﴿بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ أي : في حين غفلتهم ، وعلى غِرَّتهم غافلون ، لم يخطر الهلاك على قلوبهم . فحين جاءهم العذاب لم يدفعوه عن أنفسهم ، ولا أغنت عنهم آلهتهم التي كانوا يرجونهم ، ولا أنكروا ما كانوا يفعلونه من الظُّلم والمعاصي .

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ كما قال تعالى : ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُوا۟

وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [ سورة الأنبياء ١١- ١٥] .

وقوله : ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي : لنسألنَّ الأُمم الَّذين أرْسَل الله إليهم المرسلين ، عمَّا أجابوا به رُسُلهم ، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [ سورة القصص ٦٥] الآيات .

﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ عن تبليغهم لرسالات ربهم ، وعمَّا أجابتهم به أممهم .

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ أي : على الخلق كلهم ما عملوا ﴿بِعِلْمٍ﴾ منه تعالى لأعمالهم ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ في وقت من الأوقات ، كما قال تعالى : ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [ سورة المجادلة ٦] ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [ سورة المؤمنون ١٧] .

[ ٨:٩ - ٧] : ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ .

ثُمَّ ذكر الجزاء على الأعمال ، فقال : ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ أي : والوزن يوم القيامة يكون بالعَدل والقِسط ، الَّذي لا جوْر فيه ولا ظُلم بوجه .

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن رجحت كِفَّة حسناته على سيئاته ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي : النَّاجون من المكروه ، المُدْرِكون للمحبوب ، الَّذين حصل لهم الربح العظيم ، والسعادة الدائمة .

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن رجحت سيئاته ، وصار الحُكم لها ، ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم﴾ إذ فاتهم النعيم المُقِيم ، وحصل لهم العذاب الأليم ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ فلم ينقادوا لها كما يجب عليهم ذلك .

[ ١٠ : ٧] : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ .

يقول تعالى مُمتنًّا على عباده بذكر المسكن والمعيشة : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي : هيَّأناها لكُم ، بحيث تتمكَّنون من البناء عليها وحرثها ، ووجوه الانتفاع بها ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ ممَّا يخرج من الأشجار والنبات ، ومعادن الأرض ، وأنواع الصنائع والتجارات ، فإنه هو الذي هيَّأها ، وسخَّر أسبابها .

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الله ، الذي أنعم عليكم بأصناف النِّعم ، وصَرَف عنكم النِّقم .

[ ١١ : ١٥ - ٧] : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ .

يقول تعالى مُخاطِبا لبني آدم : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ بخلق أصلكم ومادتكم الَّتي منها خرجتم : أبيكم آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ في أحسن صورة ، وأحسن تقويم ، وعلَّمه الله تعالى ما به تكمُل صورته الباطنة ، أسماء كل شيء .

ثُمَّ أمر الملائكة الكِرام أن يسجدوا لآدم، إكراما واحتراما، وإظهارا لفضله، فامتثلوا أمر ربهم، ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ كلهم أجمعون ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ أبى أن يسجد له، تكبُّرا عليه وإعجابا بنفسه.

فوبَّخه اللّه على ذلك وقال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ لِمَا خلقت بيديَّ، أي: شرَّفته وفضَّلته بهذه الفضيلة، التي لم تكُن لغيره، فعصيت أمري وتهاونت بي؟.

﴿قَالَ﴾ إبليس مُعارِضا لربِّه: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ ثُمَّ برْهَن على هذه الدَّعوى الباطلة بقوله: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾.

وموجب هذا أنَّ المخلوق من نار أفضل من المخلوق من طين لعُلوِّ النَّار على الطين وصُعودها، وهذا القياس من أفسد الأقيسة، فإنَّه باطل من عِدَّة أوجه، منها: أنَّه في مُقابلة أمر اللّه له بالسجود، والقياس إذا عارض النَّص، فإنه قياس باطل، لأن المقصود بالقياس، أن يكون الحُكم الذي لم يأت فيه نص، يُقارب الأُمور المنصوص عليها، ويكون تابعا لها.

فأمَّا قياس يُعارضها، ويلزَم من اعتباره إلغاءُ النُّصوص، فهذا القياس من أشنع الأقيسة.

ومنها: أنَّ قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ بمُجرَّدِها كافية لنقص إبليس الخبيث. فإنَّه برْهَن على نقصه بإعجابه بنفسه وتكبُّره، والقول على اللّه بلا علم. وأي نقص أعظم من هذا؟.

ومنها: أنَّه كذَب في تفضيل مادة النَّار على مادة الطين والتُّراب، فإنَّ مادة الطين فيها الخُشوع والسكون والرَّزانة، ومنها تظهر بركات الأرض من الأشجار وأنواع النبات، على اختلاف أجناسه وأنواعه، وأمَّا النار ففيها الخفَّة والطيْش والإحراق.

ولهذا لمَّا جرى من إبليس ما جرى، انحطَّ من مرتبته العالية إلى أسفل السافِلين.

فقال اللّه له: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنَّة ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ لأنَّها دار الطيِّبين الطاهرين، فلا تليق بأخبث خلق اللّه وأشرِّهم.

﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ﴾ أي: المُهانين الأذلِّين، جزاءً على كِبْرِهِ وعُجْبِهِ بالإهانة والذُّل.

فلمَّا أعلن عدو اللّه بعداوة اللّه، وعداوة آدم وذُريَّته، سأل اللّهَ النَّظِرَةَ والإمهال إلى يوم البعث، ليتمكَّن من إغواء ما يقدر عليه من بني آدم.

ولمَّا كانت حكمة اللّه مُقتضية لابتلاء العِباد واختبارهم، ليتبيَّن الصادق من الكاذب، ومن يُطيعه ومن يطيع عدوه، أجابه لِمَا سأل، فقال: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾.

[ ١٦: ١٧ - ٧ ]: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ﴾.

أي: قال إبليس – لمَّا أُبْلِسَ وأيس من رحمة اللّه – ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ أي: للخلق ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: لألْزَمَنَّ الصراط ولأسعى غاية جهدي على صد الناس عنه وعدم سلوكهم إيَّاه.

﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ﴾ أي: من جميع الجهات والجوانب، ومن كُلِّ طريق يتمكَّن فيه من إدراك بعض مقصوده فيهم.

ولمَّا علم الخبيث أنَّهم ضُعفاء قد تغْلُب الغفلة على كثير منهم ، وكان جازما ببذل مجهوده على إغوائهم ، ظن وصدق ظنه فقال : ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ فإن القيام بالشكر من سلوك الصراط المُستقيم ، وهو يُريد صدهم عنه ، وعدم قيامهم به ، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [ سُورة فاطر ٦ ] .

وإنَّما نبَّهنا اللّه على ما قال وعزم على فعله ، لنأخذ منه حذرنا ونستعد لعدوِّنا ، ونحترز منه بعِلمِنا ، بالطريق التي يأتي منها ، ومداخله التي ينفذ منها ، فله تعالى علينا بذلك ، أكمل نعمة .

[١٨ – ٧] : ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

أي : قال اللّه لإبليس لمَّا قال ما قال : ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ خروج صَغار واحتقار ، لا خروج إكرام بل ﴿مَذْءُومًا﴾ أي : مذموما ﴿مَّدْحُورًا﴾ مُبْعدا عن اللّه وعن رحمته وعن كُلِّ خير .

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ منك وممَّن تبِعك منهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ وهذا قَسَمٌ منه تعالى ، أنَّ النار دار العُصاة ، لا بدَّ أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس .

ثُمَّ حذَّر آدم شره وفتنته فقال :

[ ١٩ : ٢٣ – ٧ ] : ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ .

أي : أمر اللّه تعالى آدم وزوجته حواء ، التي أنعم اللّه بها عليه ليسكُن إليها ، أن يأكُلا من الجنَّة حيث شاءا ويتمتَّعا فيها بما أرادا ، إلَّا أنَّه عَيَّن لهُما شجرة ، ونهاهما عن أكلها ، واللّه أعلم ما هي ، وليس في تعيينها فائدة لنا . وحرَّم عليهما أكلها ، بدليل قوله : ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

فلم يزالا مُمتثِلَين لأمر اللّه ، حتَّى تغلغل إليهما عدوهما إبليس بمكرهِ ، فوسوس لهُما وسوسة خدعهما بها ، وموَّه عليهما وقال : ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ أي : من جنس الملائكة ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ كما قال في الآية الأخرى : ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [ سُورة طه ١٢٠ ] .

ومع قوله هذا أقسم لهُما باللّه ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي : من جُملة الناصِحين حيث قلت لكُما ما قلت ، فاغترا بذلك ، وغلبت الشهوة في تلك الحال على العقل .

﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ أي : نزَّلهما عن رُتبتهما العالية ، التي هي البُعد عن الذنوب والمعاصي إلى التلوّث بأوضارها ، فأقدما على أكلها .

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أي : ظهرت عورة كل منهما بعد ما كانت مستورة ، فصار

للعُري الباطن من التقوى في هذه الحال أثر في اللباس الظاهر ، حتَّى انخلع فظهرت عوراتهما ، ولمَّا ظهرت عوراتهما خَجِلا وجَعَلا يخصفان على عوراتهما من أوراق شجر الجنَّة ، ليستترا بذلك .

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ وهُما بتلك الحال موبِّخا ومُعاتِبا : ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فلم اقترفتما المنهي ، وأطعتما عدوَّكُما ؟ .

فحينئذ ، مَنَّ اللّه عليهما بالتوبة وقبولها ، فاعترفا بالذنب ، وسألا من اللّه مغفرته فقالا : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي : قد فعلنا الذنب ، الذي نهيتنا عنه ، وضربنا بأنفسنا باقتراف الذنب ، وقد فعلنا سبب الخَسَار إن لم تغفر لنا ، بمحو أثر الذنب وعُقوبته ، وترحمنا بقبول التوبة والمُعافاة من أمثال هذه الخطايا .

فغفر اللّه لهُما ذلك ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ .

هذا وإبليس مُستمِر على طُغيانه ، غير مُقلِع عن عِصيانه ، فمن أشبه آدم بالاعتراف وسؤال المغفرة والندم والإقلاع – إذا صدرت منه الذنوب – اجتباه ربه وهداه .

ومن أشبه إبليس – إذا صدر منه الذنب ، لا يزال يزداد من المعاصي – فإنَّه لا يزداد من اللّه إلَّا بُعدا .

[ ٢٥ : ٢٦ – ٧ ] : ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۝٢٥ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ .

أي : لمَّا أَهْبَطَ اللّه آدم وزوجته وذريَّتهما إلى الأرض ، أخبرهما بحال إقامتهم فيها ، وأنه جعل لهم فيها حياة يتلوها الموت ، مشحونة بالامتحان والابتلاء ، وأنهم لا يزالون فيها ، يُرْسِل إليهم رُسُله ، ويُنزِّل عليهم كُتُبه ، حتَّى يأتيهم الموت ، فيُدْفنون فيها ، ثُمَّ إذا استكملوا بَعَثَهُم اللّه وأخرجهم منها إلى الدار الَّتي هي الدار حقيقة ، الَّتي هي دار المُقامَة .

ثُمَّ امتنَّ عليهم بما يسَّر لهم من اللباس الضروري ، واللباس الذي المقصود منه الجَمَال ، وهكذا سائر الأشياء ، كالطعام والشراب والمراكب ، والمناكح ونحوها ، قد يسَّر اللّه للعباد ضروريَّها ، ومُكمِّل ذلك ، وبيَّن لهم أنَّ هذا ليس مقصودا بالذات ، وإنَّما أنزله اللّه ليكون معونة لهم على عبادته وطاعته ، ولهذا قال : ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ من اللباس الحِسِّي ، فإن لباس التقوى يستمر مع العبد ، ولا يَبْلى ولا يَبِيد ، وهو جمال القلب والرُّوح .

وأمَّا اللباس الظاهري ، فغايته أن يستر العورة الظاهرة ، في وقت من الأوقات ، أو يكون جَمَالا للإنسان ، وليس وراء ذلك منه نفع .

وأيضا ، فبتقدير عدم هذا اللباس ، تنكشف عورته الظاهرة ، التي لا يضره كشفها ، مع الضرورة ، وأمَّا بتقدير عدم لباس التقوى ، فإنَّها تنكشف عورته الباطنة ، وينال الخِزي والفضيحة .

وقوله : ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي : ذلك المذكور لكُم من اللباس ، ممَّا تذكَّرون به ما ينفعكم ويضركم وتشبهون باللباس الظاهر على الباطن .

[٢٧ – ٧] : ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا

لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

يقول تعالى ، مُحذِّرا لبني آدم أن يفعل بهم الشيطان كما فعل بأبيهم : ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بأن يُزيِّن لكم العِصيان ، ويدعوكم إليه ، ويُرغِّبكم فيه ، فتنقادون له ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ وأنزلهما من المَحِل العالي إلى أُنزِل منه ، فأنتم يُريد أن يفعل بكم كذلك ، ولا يألو جهده عنكم ، حتَّى يفتنكم ، إن استطاع ، فعليكم أن تجعلوا الحذر منه في بالكم ، وأن تلبسوا لأْمَةَ الحرب بينكم وبينه ، وأن لا تغفُلوا عن المواضع التي يدخل منها إليكم .

فـ ﴿إِنَّهُۥ﴾ يُراقِبكم على الدوام ، و ﴿يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ من شياطين الجن ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فعدم الإيمان هو الموجب لعقد الولاية بين الإنسان والشيطان .

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [ سورة النَّحل ٩٩ - ١٠٠ ] .

[ ٢٨ : ٣٠ - ٧ ] : ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

يقول تعالى مُبيِّنا لقُبْح حال المُشركين الذين يفعلون الذنوب ، وينسبون أنَّ الله أمرهم بها ، ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ وهي : كل ما يُستفحَش ويُستقبَح ، ومن ذلك طوافهم بالبيت عُراة ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ وصدقوا في هذا ، ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ وكَذَبوا في هذا ، ولهذا ردَّ الله عليهم هذه النِّسبة فقال : ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي : لا يليق بكماله وحِكمته أن يأمر عباده بتعاطي الفواحش لا هذا الذي يفعله المُشركون ولا غيره ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأي : افتراء أعظم من هذا .

ثُمَّ ذكر ما يأمر به ، فقال : ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ أي : بالعدل في العِبادات والمُعامَلات ، لا بالظُّلم والجوْر .

﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي : توجَّهوا لله ، واجتهدوا في تكميل العِبادات ، خُصوصا الصلاة أقيموها ، ظاهرا وباطنا ، ونقُّوها من كُلِّ نقص ومُفْسِد .

﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي : قاصدين بذلك وجهه وحده لا شريك له . والدعاء يشمل دعاء المسألة ، ودعاء العبادة ، أي : لا تُراءوا ولا تقصدوا من الأغراض في دُعائكم سوى عُبودِّية الله ورِضاه .

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ أوَّل مرَّة ﴿تَعُودُونَ﴾ للبعث ، فالقادر على بدء خلقكم ، قادر على إعادته ، بل الإعادة ، أهون من البداءة .

﴿فَرِيقًا﴾ منكم ﴿هَدَىٰ﴾ الله ، أي : وفَّقهم للهداية ، ويسَّر لهم أسبابها ، وصَرَفَ عنهم موانعها ، ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أي : وجبت عليهم الضلالة بما تسبَّبوا لأنفسهم وعملوا بأسباب الغُواية .

فـ ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ، ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ

﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [ سُورة النِّساء ١١٩ ] ، فحين انسلخوا من ولاية الرَّحمن ، واستحبُّوا ولاية الشيطان ، حصل لهم النصيب الوافر من الخُذْلان ، ووكِّلوا إلى أنفسهم فخسروا أشد الخُسْران .

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ لأنَّهم انقلبت عليهم الحقائق ، فظنُّوا الباطل حقًّا والحق باطلا .

وفي هذه الآيات دليل على أن الأوامر والنواهي تابعة للحِكمة والمصلحة ، حيث ذكر تعالى أنَّه لا يُتصوَّر أن يأمر بما تستفحشه وتُنكره العُقول ، وأنَّه لا يأمر إلَّا بالعدل والإخلاص ، وفيه دليل على أن الهِداية بفضل اللّه ومَنِّه ، وأن الضلالة بخُذلانه للعبد ، إذا تولَّى - بجهله وظُلْمه - الشيطانَ ، وتسبَّب لنفسه بالضلال ، وأن من حسِبَ أنه مُهتدٍ وهو ضالٌّ ، أنَّه لا عُذر له ، لأنَّه مُتمكِّن من الهُدى ، وإنَّما أتاه حُسبانه من ظُلمه بترك الطريق المُوصِّل إلى الهُدى .

[ ٣١ - ٧ ] : ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ .

يقول تعالى - بعد ما أنزل على بني آدم لِباسا يواري سوءاتهم وريشا : ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي : استروا عوراتكم عند الصلاة كُلِّها ، فرضها ونفلها ، فإنَّ سِترها زينة للبدن ، كما أن كشفها يدع البدن قبيحا مُشوَّها .

ويُحتمل أنَّ المُراد بالزِّينة هُنا ما فوق ذلك من اللباس النظيف الحَسَن ، ففي هذا الأمر بستر العورة في الصلاة ، وباستعمال التجميل فيها ونظافة السترة من الأدناس والأنجاس .

ثُمَّ قال : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي : ممَّا رزقكم اللّه من الطَّيِّبات ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ في ذلك ، والإسراف إمَّا أن يكون بالزيادة على القدر الكافي والشَّرَه في المأكولات الَّذي يضر بالجسم ، وإمَّا أن يكون بزيادة التَّرفُّه والتنوق في المآكل والمشارب واللباس ، وإمَّا بتجاوز الحلال إلى الحرام .

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ فإنَّ السَّرف يبغضه اللّه ، ويضر بدن الإنسان ومعيشته ، حتَّى إنَّه رُبَّما أدَّت به الحال إلى أن يعجز عمَّا يجب عليه من النفقات ، ففي هذه الآية الكريمة الأمر بتناول الأكل والشرب ، والنهي عن تركهما ، وعن الإسراف فيهما .

[ ٣٢ : ٣٣ - ٧ ] : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

يقول تعالى مُنكِرا على من تعنَّت ، وحرَّم ما أحلَّ اللّه من الطيِّبات ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ من أنواع اللباس على اختلاف أصنافه ، والطيِّبات من الرِّزق ، من مأكل ومَشْرب بجميع أنواعه ، أي : مَنْ هذا الذي يَقْدم على تحريم ما أنعم اللّه بها على العِباد ، ومن ذا الذي يُضيِّق عليهم ما وسَّعه اللّه ؟ .

وهذا التوسيع من اللّه لِعباده بالطيِّبات ، جعله لهم ليستعينوا به على عِبادته ، فلم يُبحه إلَّا لعباده المؤمنين ، ولهذا قال : ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي : لا تبعة عليهم فيها .

ومفهوم الآية أنَّ من لم يؤمن باللّه ، بل استعان بها على معاصيه ، فإنَّها غير خالصة له ولا مُباحة ، بل

يُعاقب عليها وعلى التنعُّم بها، ويُسأل عن النعيم يوم القيامة.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: نوضِّحها ونُبيِّنها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأنَّهم الذين ينتفعون بما فصَّله الله من الآيات، ويعلمون أنَّها من عِند الله، فيعقلونها ويفهمونها.

ثُمَّ ذكر المُحرَّمات الَّتي حرَّمها الله في كُلِّ شريعة من الشرائع فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ أي: الذنوب الكِبار الَّتي تُستفْحش وتُستقْبح لشناعتها وقُبحها، وذلك كالزنا واللواط ونحوهما.

وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي: الفواحش الَّتي تتعلَّق بحركات البدن، والَّتي تتعلَّق بحركات القُلوب، كالكِبْر والعُجب والرِّياء والنِّفاق، ونحو ذلك، ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الذنوب الَّتي تُؤثِّم وتوجب العُقوبة في حُقوق الله، والبغي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، فدخل في هذا الذنوبُ المُتعلِّقه بحقِّ الله، والمُتعلِّقة بحق العباد.

﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي: حُجَّة، بل أنزل الحُجَّة والبُرهان على التوحيد. والشِّركُ هو أن يُشرك مع الله في عبادته أحد من الخلق، ورُبَّما دخل في هذا الشِّرك الأصغر كالرِّياء والحَلِف بغير الله، ونحو ذلك.

﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه، فكل هذه قد حرَّمها الله، ونهى العِباد عن تعاطيها، لِمَا فيها من المفاسد الخاصَّة والعامَّة، ولِمَا فيها من الظُّلم والتَّجرِّي على الله، والاستطالة على عِباد الله، وتغيير دين الله وشرعه.

[٣٤ – ٧]: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

أي: وقد أخرج الله بني آدم إلى الأرض، وأسكنهم فيها، وجعل لهم أجلا مُسمَّى لا تتقدَّم أُمَّة من الأُمم على وقتها المُسمَّى، ولا تتأخَّر، لا الأُمم المُجتمِعة ولا أفرادها.

[٣٥: ٣٦ – ٧]: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

لمَّا أخرج الله بني آدم من الجنَّة، ابتلاهم بإرسال الرُّسُل وإنزال الكُتُب عليهم يقصُّون عليهم آيات الله ويُبيِّنون لهم أحكامه، ثُمَّ ذكر فضل من استجاب لهم، وخسار من لم يستجب لهم فقال: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ ما حرَّم الله، من الشِّرك والكبائر والصَّغائر، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أعماله الظاهرة والباطنة ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من الشَّرِّ الَّذي قد يخافه غيرهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى، وإذا انتفى الخوف والحزن حصل الأمن التام، والسعادة، والفلاح الأبدي.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ﴾ أي: لا آمنت بها قلوبهم، ولا انقادت لها جوارحهم، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ كما استهانوا بآياته، ولازموا التكذيب بها، أُهينوا بالعذاب الدائم المُلازِم.

[٣٧ – ٧]: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ

أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ .

أي : لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك له ، أو النقص له ، أو التقوّل عليه ما لم يقل ، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ الواضحة المُبيِّنة للحقّ المُبين ، الهادية إلى الصِّراط المُستقيم ، فهؤلاء وإن تمتَّعوا بالدُّنيا ، ونالهم نصيبهم ممَّا كان مكتوبا لهم في اللوح المحفوظ ، فليس ذلك بمُغنٍ عنهم شيئا ، يتمتَّعون قليلا ، ثُمَّ يُعذَّبون طويلا ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ أي : الملائكة الموكَّلون بقبض أرواحهم واستيفاء آجالهم .

﴿قَالُوٓا۟﴾ لهم في تلك الحالة توبيخا وعتابا ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان ، فقد جاء وقت الحاجة إن كان فيها منفعة لكم أو دفع مضرَّة . ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ أي : اضمحلوا وبطلوا ، وليسوا مُغنين عنَّا من عذاب الله من شيء .

﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ مُستحقِّين للعذاب المهين الدائم .

[٣٨ - ٧] : ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ .

فقالت لهم الملائكة ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي : في جُملة أُمم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي : مضوا على ما مضيتم عليه من الكُفْر والاستكبار ، فاستحقَّ الجميع الخزي والبوار ، كُلَّما دخلت أُمَّة من الأُمم العاتية النَّار ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ كما قال تعالى : ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [ سُورة العنكبوت ٢٥] .

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي : اجتمع في النَّار جميع أهلها ، من الأوَّلين والآخرين ، والقادة والرُّؤساء والمُقلِّدين الأتباع .

﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾ أي : مُتأخِّروهم ، المُتَّبِعون للرُّؤساء ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ أي : لرؤسائهم ، شاكين إلى الله إضلالهم إيَّاهم : ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي : عذِّبهم عذابا مُضاعفا لأنَّهم أضلُّونا ، وزيَّنوا لنا الأعمال الخبيثة .

﴿قَالَ﴾ الله ﴿لِكُلٍّ﴾ منكم ﴿ضِعْفٌ﴾ ونصيب من العذاب .

[٣٩ - ٧] : ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ .

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ أي : الرُّؤساء ، قالوا لأتباعهم : ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي : قد اشتركنا جميعا في الغي والضلال ، وفي فعل أسباب العذاب ، فأي : فضل لكم علينا ؟ ، ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ولكنَّه من المعلوم أنَّ عذاب الرُّؤساء وأئمَّة الضلال أبلغ وأشنع من عذاب الأتباع ، كما أنَّ نعيم أئمَّة الهُدى ورؤسائه أعظم من ثواب الأتباع ، قال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [ سُورة النَّحل ٨٨] ، فهذه الآيات ونحوها ، دلَّت على

أنَّ سائر أنواع المُكذِّبين بآيات اللّه ، مُخلَّدون في العذاب ، مُشترِكون فيه وفي أصله ، وإنْ كانوا مُتفاوتين في مقداره ، بحسب أعمالهم وعنادهم وظُلمهم وافترائهم ، وأنَّ مودَّتهم التي كانت بينهم في الدُّنيا تنقلب يوم القيامة عداوة ومُلاعنة .

[ ٤٠ : ٤١ - ٧ ] : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

يُخبر تعالى عن عقاب من كذَّب بآياته فلم يؤمن بها ، مع أنَّها آيات بيِّنات ، واستكبر عنها فلم يَنْقَد لأحكامها ، بل كذَّب وتولَّى ، أنَّهم آيسون من كُلِّ خير ، فلا تُفتَّح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا وصعدت تُريد العُروج إلى اللّه ، فتستأذن فلا يُؤذن لها ، كما لم تصعد في الدنيا إلى الإيمان باللّه ومعرفته ومحبّته كذلك لا تصعد بعد الموت ، فإن الجزاء من جنس العمل .

ومفهوم الآية أنَّ أرواح المُؤمنين المُنقادِين لأمر اللّه المُصدِّقين بآياته ، تُفتَّح لها أبواب السماء حتَّى تعرج إلى اللّه ، وتصل إلى حيث أراد اللّه من العالم العُلوي ، وتبتهج بالقُرب من ربِّها والحظوة برضوانه .

وقوله عن أهل النار : ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ﴾ وهو البعير المعروف ﴿فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ أي : حتَّى يدخل البعير الَّذي هو من أكبر الحيوانات جسما ، في خرق الإبرة ، الَّذي هو من أضيق الأشياء ، وهذا من باب تعليق الشيء بالمُحال ، أي : فكما أنَّه مُحال دُخول الجمل في سَمِّ الخِياط ، فكذلك المُكذِّبون بآيات اللّه مُحال دخولهم الجنَّة ، قال تعالى : ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ [ سُورة المائدة ٧٢ ] ، وقال هُنا ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي : الذين كثر إجرامهم واشتد طغيانهم .

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ﴾ أي: فِراش من تحتهم ﴿وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ﴾ أي : ظُلل من العذاب ، تغشاهم .

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم ، جزاء وِفاقا ، وما ربُّك بظلَّام للعبيد .

[ ٤٢ : ٤٣ - ٧ ] : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ .

لمَّا ذكر اللّه تعالى عِقاب العاصين الظالمين ، ذكر ثواب المُطيعين فقال : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بقُلوبهم ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بجوارحهم ، فجمعوا بين الإيمان والعمل ، بين الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة ، بين فِعل الواجبات وترك المُحرَّمات ، ولمَّا كان قوله : ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لفظا عاما يشمل جميع الصالحات الواجبة والمُستحبَّة ، وقد يكون بعضها غير مقدور للعبد ، قال تعالى : ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾ أي : بمقدار ما تسعه طاقتها ، ولا يعسر على قُدرتها ، فعليها في هذه الحال أن تتقي اللّه بحسب

استطاعتها ، وإذا عجزت عن بعض الواجبات الَّتي يقدر عليها غيرها سقطت عنها كما قال تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [ سُورة البقرة ٢٨٦ ] ، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [ سُورة الطَّلاق ٧ ] ، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [ سُورة الحج ٧٨ ] ، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [ سُورة التغابُن ١٦ ] ، فلا واجب مع العجز ، ولا مُحرَّم مع الضرورة .

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي : المُتَّصِفون بالإيمان والعمل الصالح ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي : لا يحوِّلون عنها ولا يبغون بها بدلا ، لأنَّهم يرون فيها من أنواع اللذَّات وأصناف المُشتهيات ما تقف عنده الغايات ، ولا يُطلب أعلى منه .

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ وهذا من كرمه وإحسانه على أهل الجنَّة ، أنَّ الغل الذي كان موجودا في قلوبهم ، والتنافُس الَّذي بينهم ، أنَّ اللّه يقلعه ويزيله حتَّى يكونوا إخوانا مُتحابين ، وأخلَّاء مُتصافِين .

قال تعالى : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ ويخلق اللّه لهم من الكرامة ما به يحصل لكُلٍّ واحد منهم الغبطة والسرور ، ويرى أنه لا فوق ما هو فيه من النعيم نعيم . فبهذا يأمنون من التحاُد والتباغض ، لأنَّه قد فُقِدت أسبابه .

وقوله : ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي : يُفجِّرونها تفجيرا ، حيث شاءوا ، وأين أرادوا ، إن شاءوا في خلال القُصور ، أو في تلك الغُرف العاليات ، أو في رياض الجنَّات ، من تحت تلك الحدائق الزَّاهِرات .

أنهار تجري في غير أخدود ، وخيرات ليس لها حد محدود ﴿وَ﴾ لهذا لمَّا رأوا ما أنعم اللّه عليهم وأكرمهم به ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ بأن مَنَّ علينا وأوحى إلى قلوبنا ، فآمنت به ، وانقادت للأعمال المُوصِّلة إلى هذه الدار ، وحفظ اللّه علينا إيماننا وأعمالنا ، حتَّى أوصلنا بها إلى هذه الدار ، فنعم الرَّب الكريم ، الذي ابتدأنا بالنِّعم ، وأسدى من النِّعم الظاهرة والباطنة ما لا يُحصيه المُحْصُون ، ولا يعده العادُّون .

﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي : ليس في نفوسنا قابليَّة للهُدى ، لولا أنَّه تعالى مَنَّ بهدايته واتِّباع رُسُله .

﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي : حين كانوا يتمتَّعون بالنعيم الذي أخبرت به الرُّسُل ، وصار حق يقين لهم بعد أن كان علم يقين لهم ، قالوا لقد تحقَّقنا ، ورأينا ما وعدتنا به الرُّسُل ، وأنَّ جميع ما جاءوا به حق اليقين ، لا مِرْيَة فيه ولا إشكال .

﴿وَنُودُوٓا۟﴾ تهنئة لهم ، وإكراما ، وتحيَّة واحتراما ، ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾ أي : كنتم الوارثين لها ، وصارت إقطاعا لكُم ، إذ كان إقطاع الكُفَّار النَّار ، أورثتموها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

قال بعض السَّلف : أهل الجنَّة نجوا من النَّار بعفو اللّه ، وأُدخِلوا الجنَّة برحمة اللّه ، واقتسموا المنازل وورثوها بالأعمال الصالحة وهي من رحمته ، بل من أعلى أنواع رحمته .

[ **٤٤ : ٤٥ – ٧** ] : ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم

بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ .

يقول تعالى لمَّا ذكر استقرار كل من الفريقين في الدارين ، ووجدوا ما أخبرت به الرُّسُل ونطقت به الكُتُب من الثواب والعقاب : أنَّ أهل الجنَّة نادوا أصحاب النَّار بأن قالوا : ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾ حين وعدنا على الإيمان والعمل الصالح الجنَّة فأدخلناها وأرانا ما وصفه لنا ﴿فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ﴾ على الكُفْرِ والمعاصي ﴿حَقّٗاۖ﴾ ، ﴿قَالُواْ نَعَمۡۚ﴾ قد وجدناه حقًّا ، فبيَّن للخلق كلهم ، بيانا لا شكَّ فيه ، صِدق وعد اللّه ، ومن أصدق من اللّه قيلا ، وذهبت عنهم الشكوك والشُّبه ، وصار الأمر حق اليقين ، وفرِح المؤمنون بوعد اللّه واغتبطوا ، وأيس الكفار من الخير ، وأقروا على أنفسهم بأنَّهم مُستحقُّون للعذاب .

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي : بين أهل النَّار وأهل الجنَّة ، بأن قال : ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾ أي : بُعْدُه وإقصاؤه عن كُلِّ خير ﴿عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إذ فتح اللّه لهم أبواب رحمته ، فصدفوا أنفسهم عنها ظُلما ، وصدُّوا عن سبيل اللّه بأنفسهم ، وصدُّوا غيرهم ، فضَلُّوا وأضَلُّوا .

واللّه تعالى يُريد أن تكون مُستقيمة ، ويعتدل سير السالكين إليه ، ﴿وَ﴾ هؤلاء يريدونها ﴿عِوَجٗا﴾ مُنْحرِفة صادة عن سواء السَّبيل ، ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ وهذا الذي أوجب لهم الانحراف عن الصراط ، والإقبال على شهوات النُّفوس المُحرَّمة ، عدم إيمانهم بالبعث ، وعدم خوفهم من العِقاب ورجائهم للثواب ، ومفهوم هذا النداء أنَّ رحمة اللّه على المؤمنين ، وبرَّه شامل لهم ، وإحسانَه متواتر عليهم .

[ ٤٦ : ٤٩ – ٧ ] : ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ .

أي : وبين أصحاب الجنَّة وأصحاب النَّار حِجاب يُقال له : ﴿ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ لا من الجنَّة ولا من النَّار ، يُشْرِف على الدارين ، ويُنْظُر مِنْ عليه حالُ الفريقين ، وعلى هذا الحجاب رجال يعرفون كُلًّا من أهل الجنَّة والنَّار بسيماهم ، أي : علاماتهم ، الَّتي بها يُعرَفون ويُميَّزون ، فإذا نظروا إلى أهل الجنَّة نَادَوْهم ﴿أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ أي : يُحيُّونهم ويُسلِّمون عليهم ، وهُم – إلى الآن – لم يدخلوا الجنَّة ، ولكنَّهم يطمعون في دخولها ، ولم يجعل اللّه الطمع في قلوبهم إلَّا لِمَا يُريد بهم من كرامته .

﴿وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ ورأوا منظرا شنيعا ، وهَوْلًا فظيعا ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فأهل الجنَّة إذا رآهم أهل الأعراف يطمعون أن يكونوا معهم في الجنَّة ، ويُحيُّونهم ويُسلِّمون عليهم ، وعند انصراف أبصارهم بغير اختيارهم لأهل النَّار ، يستجيرون باللّه من حالهم هذا على وجـه العُموم .

ثُمَّ ذكر الخُصوص بعد العُموم فقال : ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ وهُم من أهل النَّار ، وقد كانوا في الدُّنيا لهم أُبَّهة وشرف ، وأموال وأولاد ، فقال لهم أصحاب الأعراف ، حين رأوهم مُنفرِدين في العذاب ، بلا ناصر ولا مُغيث : ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ في الدُّنيا ، الذي تستدْفِعون به

المكاره ، وتتوسَّلون به إلى مطالبكم في الدُّنيا ، فاليوم اضمَحلَّ ، ولا أغني عنكم شيئا ، وكذلك ، أي شيء نفعكم استكباركم على الحق وعلى من جاء به وعلى من اتَّبعه .

ثُمَّ أشاروا لهم إلى أُناس من أهل الجنَّة كانوا في الدُّنيا فُقراء ضُعفاء يَستهزئ بهم أهل النَّار ، فقالوا لأهل النَّار : ﴿أَهَٰؤُلَآءِ﴾ الذين أدخلهم اللّه الجنَّة ﴿ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ احتقارا لهم وازدراء وإعجابا بأنفسكم ، قد حنثتم في أيْمَانِكم ، وبدا لكم من اللّه ما لم يكن لكم في حساب ، ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ بما كُنتم تعملون ، أي : قيل لهؤلاء الضُّعفاء إكراما واحتراما : ادخلوا الجنَّة بأعمالكم الصالحة ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ فيما يستقبل من المكاره ﴿وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ على ما مضى ، بل آمنون مُطمئنُّون فَرِحون بكُلِّ خير .

وهذا كقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ﴾ إلى أن قال ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [ سُورة المُطفِّفين ٢٩ - ٣٥] ، واختلف أهل العلم والمُفسِّرون ، من هُم أصحاب الأعراف ، وما أعمالهم ؟ .

والصحيح من ذلك ، أنَّهُم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فلا رجحت سيئاتهم فدخلوا النَّار ، ولا رجحت حسناتهم فدخلوا الجنَّة ، فصاروا في الأعراف ما شاء اللّه ، ثُمَّ إن اللّه تعالى يُدخلهم برحمته الجنَّة ، فإنَّ رحمته تسبق وتغلب غضبه ، ورحمته وسِعت كُلَّ شيء .

[ ٧ - ٥٠ : ٥٣ ] : ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝٥١ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾

أي : يُنادي أصحاب النَّار أصحاب الجنَّة ، حين يبلغ منهم العذاب كُلَّ مبلغ ، وحين يمسهم الجوع المُفرط والظمأ الموجِع ، يستغيثون بهم ، فيقولون : ﴿أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ من الطعام ، فأجابهم أهل الجنَّة بقولهم : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾ أي : ماء الجنَّة وطعامها ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وذلك جزاء لهم على كُفْرهم بآيات اللّه ، واتَّخاذهم دينهم الَّذي أُمِروا أن يستقيموا عليه ، ووعِدوا بالجزاء الجزيل عليه ، ﴿لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ أي : لهت قلوبهم وأعرضت عنه ، ولعبوا واتَّخذوه سِخْرِيًّا ، أو أنهم جعلوا بدل دينهم اللهو واللعب ، واستعاضوا بذلك عن الدين القيم .

﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ بزينتها وزخرفها وكثرة دُعاتها ، فاطمأنوا إليها ورضوا بها وفرحوا ، وأعرضوا عن الآخرة ونسوها .

﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ أي : نتركهم في العذاب ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ فكأنهم لم يخلقوا إلَّا للدُّنيا ، وليس أمامهم عَوَضٌ ولا جزاء .

﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ والحال أنَّ جحودهم هذا ، لا عن قصور في آيات الله وبيِّناته . بل قد ﴿جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ﴾ أي : بيّنا فيه جميع المطالب الَّتي يحتاج إليها الخلق ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ من الله بأحوال العِباد في كُلِّ زمان ومكان ، وما يصلح لهم وما لا يصلح ، ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمور ، فتجهله بعض الأحوال ، فيحكم حُكما غير مُناسِب ، بل تفصيل من أحاط علمه بكُلِّ شيء ، ووسعت رحمته كُلَّ شيء .

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي : تحصل للمؤمنين بهذا الكتاب الهداية من الضلال ، وبيان الحق والباطل ، والغيّ والرُّشد ، ويحصل أيضا لهم به الرحمة ، وهي : الخير والسعادة في الدنيا والآخرة ، فينتفي عنهم بذلك الضلال والشقاء .

وهؤلاء الَّذين حقَّ عليهم العذاب ، لم يؤمنوا بهذا الكتاب العظيم ، ولا انقادوا لأوامره ونواهيه ، فلم يبق فيهم حيلة إلَّا استحقاقهم أن يحل بهم ما أخبر به القُرآن .

ولهذا قال : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي : وقوع ما أخبر به كما قال يوسف عليه السلام حين وقعت رؤياه : ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ .

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ مُتندِّمين مُتأسِّفين على ما مضى منهم ، مُتشفِّعين في مغفرة ذنوبهم . مُقرِّين بما أخبرت به الرُّسُل : ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الدُّنيا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ وقد فات الوقت عن الرجوع إلى الدُّنيا . ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ .

وسؤالهم الرجوع إلى الدُّنيا ، ليعملوا غير عملهم كذب منهم ، مقصودهم به ، دفع ما حل بهم ، قال تعالى : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [ سُورة الأنعام ٢٨] .

﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ حين فوَّتوها الأرباح ، وسلكوا بها سبيل الهلاك ، وليس ذلك كخُسران الأموال والأثاث أو الأولاد ، إنَّما هذا خُسران لا جُبران لمُصابه ، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ في الدُّنيا ممَّا تُمنِّيهم أنفسهم به ، ويعدُهم به الشيطان ، قَدِموا على ما لم يكُن لهم في حساب ، وتبيَّن لهم باطلهم وضلالهم ، وصِدْق ما جاءتهم به الرُّسُل .

[٥٤ - ٧] : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ .

يقول تعالى مُبيِّنا أنَّه الرَّب المعبود وحده لا شريك له : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وما فيهما على عِظَمِهما وسعتهما ، وإحكامهما ، وإتقانهما ، وبديع خلقهما . ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أوَّلها يوم الأحد ، وآخرها يوم الجُمعة ، فلمَّا قضاهما وأودع فيهما من أمره ما أودع ، ﴿اسْتَوَىٰ﴾ تبارك وتعالى ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ العظيم الذي يسع السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما ، استوى استواء يليق بجلاله وعظمته وسلطانه ، فاستوى على العرش ، واحتوى على المُلْكِ ، ودبَّر الممالك ، وأجرى عليهم

أحكامه الكونيّة ، وأحكامه الدينيّة ، ولهذا قال : ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ﴾ المُظْلِم ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ المُضِيء ، فيظلم ما على وجه الأرض ، ويسكُن الآدميُّون ، وتأوي المخلوقات إلى مساكنها ، ويستريحون من التعب ، والذهاب والإياب الَّذي حصل لهم في النهار .

﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ كُلَّما جاء الليل ذهب النهار ، وكُلَّما جاء النهار ذهب الليل ، وهكذا أبدا على الدوام ، حتَّى يطوي اللّه هذا العالم ، وينتقل العباد إلى دار غير هذه الدار .

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي : بتسخيره وتدبيره ، الدال على ما له من أوصاف الكمال ، فخلقُها وعظَمُها دالٌّ على كمال قُدرته ، وما فيها من الإحكَام والانتظام والإتقان دال على كمال حِكمته ، وما فيها من المنافع والمصالح الضروريَّة وما دونها دال على سِعة رحمته وذلك دال على سِعة عِلمه ، وأنَّه الإله الحق الذي لا تنبغي العِبادة إلَّا له .

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ أي : له الخلق الَّذي صدرت عنه جميع المخلوقات عُلويها وسُفليها ، أعيانها وأوصافها وأفعالها والأمر المُتضمِّن للشرائع والنُّبوَّات ، فالخلق : يتضمَّن أحكامه الكونيَّة القدريَّة ، والأمر : يتضمَّن أحكامه الدينيَّة الشرعيَّة ، وثم أحكام الجزاء ، وذلك يكون في دار البقاء ، ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ أي : عظُم وتعالى وكثر خيره وإحسانه ، فتبارك في نفسه لعظمة أوصافه وكمالها ، وبارك في غيره بإحلال الخير الجزيل والبرِّ الكثير ، فكُلُّ بركة في الكون ، فمن آثار رحمته ، ولهذا قال : ف ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

ولمَّا ذكر من عظمته وجلاله ما يدل ذوي الألباب على أنَّه وحده ، المعبود المقصود في الحوائج كلها أمر بما يترتَّب على ذلك ، فقال :

[ ٥٥ : ٥٦ – ٧] : ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ .

الدعاء يدخل فيه دعاء المسألة ، ودعاء العبادة ، فأمر بدعائه ﴿تَضَرُّعًا﴾ أي : إلحاحا في المسألة ، ودُءُوبا في العبادة ، ﴿وَخُفْيَةً﴾ أي : لا جهرا وعلانية ، يخاف منه الرياء ، بل خفية وإخلاصا للّه تعالى .

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي : المُتجاوزين للحدِّ في كُلِّ الأمور ، ومن الاعتداء كون العبد يسأل اللّه مسائل لا تصلح له ، أو يتنطع في السؤال ، أو يبالغ في رفع صوته بالدعاء ، فكل هذا داخل في الاعتداء المنهي عنه .

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بعمل المعاصي ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ بالطاعات ، فإنَّ المعاصي تُفسِد الأخلاق والأعمال والأرزاق ، كما قال تعالى : ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [ سُورة الرُّوم ٤١ ] ، كما أنَّ الطاعات تَصْلُح بها الأخلاق ، والأعمال ، والأرزاق ، وأحوال الدُّنيا والآخرة .

﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي : خوفا من عقابه ، وطمعا في ثوابه ، طمعا في قبولها ، وخوفا من ردِّها ، لا دعاء عبد مدل على ربِّه قد أعجبته نفسه ، ونزَّل نفسه فوق منزلته ، أو دُعاء من هو غافل لاَهٍ .

وحاصل ما ذكر اللّه من آداب الدعاء : الإخلاص فيه للّه وحده ، لأنَّ ذلك يتضمَّنه الخفية ، وإخفاؤه وإسراره ، وأن يكون القلب خائفا طامعا لا غافلا ، ولا آمنا ولا غير مُبالٍ بالإجابة ، وهذا من إحسان الدعاء ،

فإنَّ الإحسان في كُلِّ عبادة بذل الجهد فيها ، وأداؤها كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه ، ولهذا قال : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في عِبادة اللّه ، المُحسِنين إلى عِباد اللّه ، فكُلَّما كان العبد أكثر إحسانا ، كان أقرب إلى رحمة ربه ، وكان ربه قريبا منه برحمته ، وفي هذا من الحث على الإحسان ما لا يخفى .

[٥٧ : ٥٨ – ٧] : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ .

يُبيِّن تعالى أثرا من آثار قُدرته ، ونفحة من نفحات رحمته فقال : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي : الرياح المُبشِّرات بالغيث ، التي تُثيره بإذن اللّه من الأرض ، فيستبشر الخلق برحمة اللّه ، وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله .

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾ الرِّياح ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ قد أثاره بعضها ، وألفه ريح أخرى ، وألحقه ريح أخرى ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ قد كادت تهلك حيواناته ، وكاد أهله أن ييأسوا من رحمة اللّه ، ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ أي : بذلك البلد الميِّت ﴿ٱلْمَآءَ﴾ الغزير من ذلك السحاب وسخَّر اللّه له ريحا تُدرّه وتُفرّقه بإذن اللّه .

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ فأصبحوا مُستبشِرين برحمة اللّه ، راتعين بخير اللّه ، وقوله : ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي : كما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات ، كذلك نُخرِج الموتى من قبورهم ، بعد ما كانوا رُفاتا مُتمزِّقين ، وهذا استدلال واضح ، فإنه لا فرق بين الأمرين ، فمُنكر البعث استبعادا له – مع أنه يرى ما هو نظيره – من باب العِناد ، وإنكار المحسوسات .

وفي هذا الحث على التذكُّر والتفكُّر في آلاء اللّه والنظر إليها بعين الاعتبار والاستدلال ، لا بعين الغفلة والإهمال .

ثُمَّ ذكر تفاوت الأراضي ، الَّتي ينزل عليها المطر ، فقال : ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ أي : طيِّب التربة والمادة ، إذا نزل عليه مطر ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾ الذي هو مُستعد له ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي : بإرادة اللّه ومشيئته ، فليست الأسباب مُستقلَّة بوجود الأشياء ، حتَّى يأذن اللّه بذلك .

﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ من الأراضي ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ أي : إلَّا نباتا خاسًّا لا نفع فيه ولا بركة .

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ أي : نُنوِّعها ونُبيِّنها ونضرب فيها الأمثال ونسوقها لقوم يشكرون اللّه بالاعتراف بنعمه ، والإقرار بها ، وصرفها في مرضاة اللّه ، فهُم الَّذين ينتفعون بما فصَّل اللّه في كتابه من الأحكام والمطالب الإلهيَّة ، لأنَّهم يرونها من أكبر النِّعم الواصلة إليهم من ربِّهم ، فيتلقَّونها مُفتقِرين إليها فرِحين بها ، فيتدبَّرونها ويتأمَّلونها ، فيُبيِّن لهم من معانيها بحسب استعدادهم ، وهذا مثال للقلوب حين ينزل عليها الوحي الذي هو مادة الحياة ، كما أنَّ الغيث مادة الحياة ، فإنَّ القُلوب الطيِّبة حين يجيئها الوحي ، تقبله وتعلمه وتنْبُت بحسب طيب أصلها ، وحُسْنِ عُنصرها .

وأمَّا القُلوب الخبيثة الَّتي لا خير فيها ، فإذا جاءها الوحي لم يجد محِلًّا قابلا ، بل يجدها غافلة مُعرِضة ، أو مُعارِضة ، فيكون كالمطر الَّذي يمر على السباخ والرمال والصخور ، فلا يؤثِّر فيها شيئا ، وهذا كقوله تعالى : ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ [ سُورة الرَّعد ١٧] الآيات .

[ ٥٩ : ٦٤ - ٧] : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾

لمَّا ذكر تعالى من أدلَّة توحيده جُملة صالحة ، أيَّد ذلك بذكر ما جرى للأنبياء الدَّاعين إلى توحيده مع أُمَمِهم المُنكِرين لذلك ، وكيف أيَّد اللَّه أهل التوحيد ، وأهلك من عاندهم ولم يَنْقَدْ لهم ، وكيف اتَّفقت دعوة المُرْسلين على دين واحد ومُعتقد واحد ، فقال عن نوح - أوَّل المُرْسلين - : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ يدعوهم إلى عبادة اللَّه وحده ، حين كانوا يعبدون الأوثان ﴿فَقَالَ﴾ لهم : ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي : وحده ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ لأنَّه الخالق الرَّازق المُدبِّر لجميع الأُمور ، وما سواه مخلوق مُدبَّر ، ليس له من الأمر شيء ، ثُمَّ خوَّفهم إنْ لم يُطيعوه عذاب اللَّه ، فقال : ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهذا من نُصحِهِ عليه الصَّلاة والسَّلام وشفقته عليهم ، حيث خاف عليهم العذاب الأبدي ، والشقاء السَّرْمَدي ، كإخوانه من المُرْسلين الَّذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأُمَّهاتهم ، فلمَّا قال لهم هذه المقالة ، ردوا عليه أقبح رد .

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ﴾ أي : الرؤساء الأغنياء المُتَّبَعون الَّذين قد جرت العادة باستكبارهم على الحق ، وعدم انقيادهم للرُّسُل ، ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ فلم يكفهم - قبَّحهم اللَّه - أنَّهم لم ينقادوا له ، بل استكبروا عن الانقياد له ، وقَدَحوا فيه أعظم قدح ، ونسبوه إلى الضلال ، ولم يكتفوا بمُجرَّد الضلال حتَّى جعلوه ضلالا مُبينا واضحًا لكُلِّ أحد .

وهذا من أعظم أنواع المُكابَرة ، الَّتي لا تروج على أضعف الناس عقلا ، وإنَّما هذا الوصف مُنطبِق على قوم نوح ، الذين جاءوا إلى أصنام قد صوَّروها ونحتوها بأيديهم ، من الجمادات الَّتي لا تسمع ولا تُبصِر ، ولا تغني عنهم شيئا ، فنزَّلوها منزلة فاطر السماوات ، وصرفوا لها ما أمكنهم من أنواع القُرُبات ، فلولا أنَّ لهم أذهانا تقوم بها حُجَّة اللَّه عليهم لحُكِم عليهم بأنَّ المجانين أهدى منهم ، بل هُم أهدى منهم وأعقل ، فردَّ نوح عليهم ردًّا لطيفا ، وتَرَقَّق لهم لعلَّهُم ينقادون له فقال : ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ .

﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ أي : لست ضالا في مسألة من المسائل بوجه من الوجوه ، وإنَّما أنا هاد مُهْتَد ، بل هدايته عليه الصَّلاة والسَّلام من جِنس هداية إخوانه ، أُولي العزم من المُرْسلين ، أعلى أنواع الهدايات وأكملها وأتمها ، وهي هداية الرسالة التامَّة الكاملة ، ولهذا قال : ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي : ربي وربكم ورب جميع الخلق ، الَّذي ربَّى جميع الخلق بأنواع التربية ، الَّذي من أعظم

تربيته أن أرسل إلى عباده رُسُلا تأمرهم بالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والعقائد الحسنة وتنهاهم عن أضدادها ، ولهذا قال : ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ أي : وظيفتي تبليغكم ، ببيان توحيده وأوامره ونواهيه ، على وجه النصيحة لكم والشفقة عليكم ، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فالَّذي يتعيَّن أن تُطيعوني وتنقادوا لأمري إن كُنتم تعلمون .

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ أي : كيف تعجبون من حالة لا ينبغي العجب منها ، وهو أنْ جاءكم التذكير والموعظة والنصيحة ، على يد رجل منكم ، تعرفون حقيقته وصدقه وحاله ؟ ، فهذه الحال من عناية اللّه بكم وبرّه وإحسانه الَّذي يُتلقَّى بالقَبول والشكر .

وقوله : ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي : لينذركم العذاب الأليم ، وتفعلوا الأسباب المُنجية من استعمال تقوى اللّه ظاهرا وباطنا ، وبذلك تحصل عليهم وتنزل رحمة اللّه الواسعة .

فلم يفد فيهم ، ولا نجح ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ أي : السفينة التي أمر اللّه نوحا عليه الصَّلاة والسَّلام بصنْعتها ، وأوحى إليه أن يحمل من كُلِّ صنف من الحيوانات ، زوجين اثنين وأهله ومن آمن معه ، فحملهم فيها ونجّاهُم اللّه بها .

﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ عن الهُدى ، أبصروا الحق ، وأراهم اللّه – على يد نوح – من الآيات البيّنات ، ما بهم يؤمن أولوا الألباب ، فسَخروا منه ، واستهزءوا به وكفروا .

[ ٦٥ : ٧٢ – ٧ ] : ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ .

أي : ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ عَادٍ﴾ الأُولى ، الَّذين كانوا في أرض اليمن ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النَّسب ﴿هُودًا﴾ عليه السلام ، يدعوهم إلى التوحيد وينهاهم عن الشِّرك والطغيان في الأرض .

فـ ﴿قَالَ﴾ لهم : ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ سخطه وعذابه ، إنْ أقمتم على ما أنتُم عليه ، فلم يستجيبوا ولا انقادوا .

فـ ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ رادِّين لدعوته ، قادحين في رأيه : ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي : ما نراك إلَّا سفيها غير رشيد ، ويغلب على ظنِّنا أنَّك من جُملة الكاذِبين ، وقد انقلبت عليهم الحقيقة ، واستحكم عماهم حيث رموا نبيَّهم عليه السلام بما هُم مُتَّصِفون به ، وهو

أبعد الناس عنه ، فإنَّهم السفهاء حقًّا الكاذبون .

وأي سفه أعظم ممَّن قابل أحق الحق بالرَّد والإنكار ، وتكبَّر عن الانقياد للمُرْشِدين والنُّصحاء ، وانقاد قلبه وقالبه لكُلِّ شيطان مريد ، ووضع العبادة في غير موضعها ، فعبد من لا يغني عنه شيئًا من الأشجار والأحجار ؟ ، وأي : كذب أبلغ من كَذِب من نسب هذه الأُمور إلى اللّه تعالى ؟ .

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ﴾ بوجه من الوجوه ، بل هو الرسول المُرْشِد الرَّشيد ، ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ .

فالواجب عليكم أن تتلقُّوا ذلك بالقبول والانقياد وطاعة رب العباد .

﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ﴾ أي : كيف تعجبون من أمر لا يُتعجَّب منه ، وهو أنَّ اللّه أرسل إليكم رجلا منكم تعرفون أمره ، يُذكِّركم بما فيه مصالحكم ، ويحثّكم على ما فيه النفع لكم ، فتعجَّبتم من ذلك تعجُّب المُنْكِرين .

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ أي : واحمدوا ربَّكم واشكروه ، إذ مكَّن لكم في الأرض ، وجعلكم تخلفون الأُمم الهالكة الَّذين كذَّبُوا الرُّسُل ، فأهلكهم اللّه وأبقاكم ، لينظر كيف تعملون ، واحذروا أن تُقيموا على التكذيب كما أقاموا ، فيُصيبكم ما أصابهم ، ﴿وَ﴾ اذكروا نعمة اللّه عليكم الَّتي خصَّكم بها ، وهي أن ﴿وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ﴾ في القوَّة وكِبَر الأجسام ، وشدَّة البطش ، ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي : نِعَمه الواسعة ، وأياديه المُتكرِّرة ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ إذا ذكرتموها بشكرها وأداء حقها ﴿تُفۡلِحُونَ﴾ أي : تفوزون بالمطلوب ، وتنجون من المرهوب ، فوعظهم وذكَّرهم ، وأمرهم بالتوحيد ، وذكر لهم وصف نفسه ، وأنَّه ناصح أمين ، وحذَّرهم أن يأخذهم اللّه كما أخذ مَنْ قبلهم ، وذكَّرهم نِعم اللّه عليهم وإدرار الأرزاق إليهم ، فلم ينقادوا ولا استجابوا .

ف ﴿قَالُوٓاْ﴾ مُتعجِّبين من دعوته ، ومُخبِرين له أنَّهم من المُحال أن يطيعوه : ﴿أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ قبَّحهم اللّه ، جعلوا الأمر الذي هو أوجب الواجبات وأكمل الأُمور ، من الأُمور التي لا يُعارِضون بها ما وجدوا عليه آباءهم ، فقدَّموا ما عليه الآباء الضالُّون من الشِّرْك وعبادة الأصنام ، على ما دعت إليه الرُّسُل من توحيد اللّه وحده لا شريك له ، وكذَّبوا نبيَّهم ، وقالوا : ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهذا استفتاح منهم على أنفسهم .

فقَالَ لهم هود عليه السلام : ﴿قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ﴾ أي : لا بد من وقوعه ، فإنه قد انعقدت أسبابه ، وحان وقت الهلاك .

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي : كيف تُجادِلون على أُمور ، لا حقائق لها ، وعلى أصنام سمَّيتوها آلهة ، وهي لا شيء من الآلهة فيها ، ولا مِثقال ذرَّة و ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ﴾ فإنَّها لو كانت صحيحة لأنزل اللّه بها سُلطانا ، فعدم إنزاله له دليل على بُطلانِها ، فإنَّه ما من مطلوب ومقصود - وخُصوصا الأُمور الكِبار - إلَّا وقد بيَّن اللّه فيها من الحُجج ، ما يدل عليها ، ومن السلطان ، ما لا تخفى معه .

﴿فَانْتَظِرُوا﴾ ما يقع بكم من العقاب ، الَّذي وعدتكم به ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ وفرّق بين الانتظارين ، انتظار من يخشى وقوع العقاب ، ومن يرجو من اللّه النصر والثواب ، ولهذا فتح اللّه بين الفريقين فقال : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ أي : هودا ﴿وَالَّذِينَ﴾ آمنوا ﴿مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ فإنّه الَّذي هداهم للإيمان ، وجعل إيمانهم سببا ينالون به رحمته فأنجاهم برحمته ، ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي : استأصلناهم بالعذاب الشديد الَّذي لم يبق منهم أحدا ، وسلَّط اللّه عليهم الريح العقيم ، ما تذر من شيء أتت عليه إلَّا جعلته كالرَّميم ، فأُهلكوا فأصبحوا لا يُرى إلَّا مساكنهم ، فانظر كيف كان عاقبة المُنْذَرين الَّذين أُقيمت عليهم الحُجج ، فلم ينقادوا لها ، وأُمروا بالإيمان فلم يؤمنوا فكان عاقبتهم الهلاك ، والخزي والفضيحة ، ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [ سورة هود ٦٠ ] .

وقال هنا : ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ بوجه من الوجوه ، بل وصفهم التكذيب والعناد ، ونعتهم الكِبْر والفساد .

[ ٧٣ - ٧٩ : ٧ ] : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ .

أي ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ القبيلة المعروفة الذين كانوا يسكنون الحجر وما حوله ، من أرض الحجاز وجزيرة العرب ، أرسل اللّه إليهم ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ نبيًّا يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد ، وينهاهم عن الشّرك والتنديد ، ف ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ دعوته عليه الصَّلاة والسَّلام من جنس دعوة إخوانه من المُرْسلين ، الأمر بعبادة اللّه ، وبيان أنّه ليس للعباد إله غير اللّه ، ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي : خارق من خوارق العادات ، الَّتي لا تكون إلَّا آية سماويَّة لا يقدر الناس عليها ، ثُمَّ فسَّرها بقوله : ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ أي : هذه ناقة شريفة فاضلة لإضافتها إلى اللّه تعالى إضافة تشريف ، لكم فيها آية عظيمة . وقد ذكر وجه الآية في قوله : ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [ سورة الشّعراء ١٥٥ ] .

وكان عندهم بئر كبيرة ، وهي المعروفة ببئر الناقة ، يتناوبونها هُم والناقة ، للناقة يوم تشربها ويشربون اللبن من ضرعها ، ولهم يوم يردونها ، وتصدر الناقة عنهم .

وقال لهم نبيّهم صالح عليه السلام ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ فلا عليكم من مئونتها شيء ، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ أي : بعقر أو غيره ، ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾ في الأرض تتمتّعون بها وتُدركون مطالبكم ﴿مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ الّذين أهلكهم اللّه ، وجعلكم خُلفاء من بعدهم ، ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي : مكّن لكم فيها ، وسهّل لكم الأسباب المُوصّلة إلى ما تريدون وتبتغون ، ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي : من الأراضي السّهلة التي ليست بجبال ، تتّخذون فيها القصور العالية والأبنية الحصينة ، ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ كما هو مُشاهَد إلى الآن من أعمالهم الّتي في الجبال ، من المساكن والحجر ونحوها ، وهي باقية ما بقيت الجبال ، ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أي : نِعَمه ، وما خوّلكم من الفضل والرزق والقوّة ، ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي : لا تُخرّبوا الأرض بالفساد والمعاصي ، فإنّ المعاصي تدع الديار العامرة بلاقع ، وقد أخلت ديارهم منهم ، وأبقت مساكنهم موحشة بعدهم .

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي : الرؤساء والأشراف الّذين تكبّروا عن الحق ، ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ ولمّا كان المُستضعفون ليسوا كلهم مؤمنين ، قالوا ﴿لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي : أهو صادق أم كاذب ؟ .

فقال المُستضعفون : ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ من توحيد اللّه والخبر عنه وأمره ونهيه .

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ حملهم الكِبْر أن لا ينقادوا للحق الّذي انقاد له الضعفاء .

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ الّتي توعّدهم إنْ مسُّوها بسُوء أن يُصيبهم عذاب أليم ، ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي : قسوا عنه ، واستكبروا عن أمره الذي من عتا عنه أذاقه العذاب الشديد . لا جرم أحلّ اللّه بهم من النّكال ما لم يحل بغيرهم ﴿وَقَالُوا﴾ مع هذه الأفعال مُتجرّئين على اللّه ، مُعجزين له ، غير مُبالين بما فعلوا ، بل مُفتخرين بها : ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ إن كنت من الصادقين من العذاب فقال : ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ .

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ على رُكبهم ، قد أبادهم اللّه ، وقطع دابرهم .

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ صالح عليه السلام حين أحلّ اللّه بهم العذاب ، ﴿وَقَالَ﴾ مُخاطِبا لهم توبيخا وعتابا بعدما أهلكهم اللّه : ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي : جميع ما أرسلني اللّه به إليكم ، قد أبلغتكم به وحرصت على هدايتكم ، واجتهدت في سلوككم الصِّراط المُستقيم والدِّين القويم . ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ بل رددتم قول النُّصحاء ، وأطعتم كُلَّ شيطان رجيم .

واعلم أنّ كثيرا من المُفسّرين يذكرون في هذه القِصّة أنّ النّاقة قد خرجت من صخرة صمّاء ملساء اقترحوها على صالح وأنّها تمخّضت تمخُّض الحامل فخرجت الناقة وهُم ينظرون وأنّ لها فصيلا حين عقروها رغى ثلاث رغيات وانفلق له الجبل ودخل فيه وأنّ صالحا عليه السلام قال لهم : آية نزول العذاب بكم ، أن تُصبِحوا في اليوم الأوّل من الأيام الثلاثة ووجوهكم مُصْفرّة ، واليوم الثّاني : محمرّة ، والثّالث : مسودّة ، فكان كما قال .

وكل هذا من الإسرائيليات الّتي لا ينبغي نقلها في تفسير كتاب اللّه ، وليس في القُرآن ما يدل على شيء

منها بوجه من الوجوه ، بل لو كانت صحيحة لذكرها اللّه تعالى ، لأنَّ فيها من العجائب والعِبر والآيات ما لا يُهمله تعالى ويدع ذكره ، حتَّى يأتي من طريق من لا يوثق بنقله ، بل القُرآن يُكذِّب بعض هذه المذكورات ، فإنَّ صالحا قال لهم : ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ أي : تنعَّموا وتلذَّذوا بهذا الوقت القصير جدًّا ، فإنَّه ليس لكم من المتاع واللذَّة سُوى هذا ، وأي لذَّة وتمتُّع لمن وعدهم نبيهم وقوع العذاب ، وذكر لهم وقوع مُقدِّماته ، فوقعت يوما فيوما ، على وجه يعمهم ويشملهم احمرار وجوههم ، واصفرارها واسودادها من العذاب ، هل هذا إلَّا مُناقِض للقُرآن ، ومُضاد له ؟ . فالقُرآن فيه الكفاية والهداية عن ما سواه .

نعم لو صحَّ شيء عن رسول اللّه ﷺ ممَّا لا يُناقِض كتاب اللّه ، فعلى الرأس والعين ، وهو ممَّا أمر القُرآن باتِّباعه ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [ سُورة الحشر ٧] ، وقد تقدَّم أنَّه لا يجوز تفسير كتاب اللّه بالأخبار الإسرائيليَّة ، ولو على تجويز الرواية عنهم بالأُمور الَّتي لا يجزم بكذبها ، فإنَّ معاني كتاب اللّه يقينيَّة ، وتلك أُمور لا تُصدَّق ولا تُكذَّب ، فلا يُمكِن اتِّفاقهما .

[ ٨٠ : ٨٤ - ٧] : ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ .

أي : ﴿وَ﴾ اذكر عبدنا ﴿لُوطًا﴾ عليه الصَّلاة والسَّلام ، إذ أرسلناه إلى قومه يأمرهم بعبادة اللّه وحده ، وينهاهم عن الفاحشة الَّتي ما سبقهم بها أحد من العالمين ، فقال : ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي : الخصلة الَّتي بلغت - في العِظم والشناعة - إلى أن استغرقت أنواع الفُحش ، ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فكونها فاحشة من أشنع الأشياء ، وكونهم ابتدعوها وابتكروها ، وسنُّوها لمن بعدهم ، من أشنع ما يكون أيضا .

ثُمَّ بيَّنها بقوله : ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي : كيف تذرون النِّساء اللاتي خلقهُنَّ اللّه لكم ، وفيهن المُستمْتَع الموافِق للشهوة والفِطرة ، وتُقْبِلون على أدبار الرِّجال ، الَّتي هي غاية ما يكون في الشناعة والخُبث ، ومحل تخرج منه الأنتان والأخباث ، الَّتي يُستحيي من ذكرها فضلا عن مُلامستها وقُربها ، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي : مُتجاوزون لِمَا حدَّه اللّه مُتجرِّئون على محارمه .

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي : يتنزَّهون عن فِعل الفاحشة ، ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [ سُورة البروج ٨] .

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي : الباقين المُعذَّبين ، أمره اللّه أن يسري بأهله ليلا ، فإنَّ العذاب مُصبِّح قومه فسرى بهم ، إلَّا امرأته أصابها ما أصابهم .

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي : حجارة حارة شديدة ، من سجِّيل ، وجعل اللّه عاليها سافلها ، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الهلاك والخزي الدائم .

[ ٨٥ : ٨٧ - ٧] : ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ

قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ .

أي : ﴿و﴾ أرسلنا إلى القبيلة المعروفة بـ « مدين » ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النَّسب ﴿شُعَيْبًا﴾ يدعوهم إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له ، ويأمرهم بإيفاء المِكيال والميزان ، وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم ، وأن لا يعثوا في الأرض مُفْسِدين ، بالإكثار من عمل المعاصي ، ولهذا قال : ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإنَّ ترك المعاصي امتثالا لأمر اللّه وتقرُّبا إليه خير ، وأنفع للعبد من ارتكابها الموجب لسخط الجبَّار ، وعذاب النَّار .

﴿وَلَا تَقْعُدُوا﴾ للناس ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ أي : طريق من الطرق الَّتي يكثر سلوكها ، تحذِّرون الناس منها و ﴿تُوعِدُونَ﴾ من سَلكها ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ من أراد الاهتداء به ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي : تبغون سبيل اللّه تكون معوجَّة ، وتميلونها اتِّباعا لأهوائكم ، وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتعظيم للسبيل الَّتي نصبها اللّه لعباده ليسلكوها إلى مرضاته ودار كرامته ، ورحمهم بها أعظم رحمة ، وتصدون لنصرتها والدعوة إليها والذَّب عنها ، لا أن تكونوا أنتم قُطَّاع طريقها ، الصادِّين الناس عنها ، فإنَّ هذا كُفر لنعمة اللّه ومُحادة للّه ، وجعل أقوم الطرق وأعدلها مائلة ، وتشنِّعون على من سلكها .

﴿وَاذْكُرُوا﴾ نعمة اللّه عليكم ﴿إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ أي : نمَّاكم بما أنعم عليكم من الزوجات والنسل ، والصحَّة ، وأنَّه ما ابتلاكم بوباء أو أمراض من الأمراض المُقلِّلة لكم ، ولا سلَّط عليكم عدوًّا يجتاحكم ولا فرَّقكم في الأرض ، بل أنعم عليكم باجتماعكم ، وإدرار الأرزاق وكثرة النسل .

﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ فإنَّكم لا تجدون في جموعهم إلَّا الشتات ، ولا في ربوعهم إلا الوحشة والانبتات ولم يورِّثوا ذِكرًا حَسَنا ، بل أُتْبِعوا في هذه الدُّنيا لعنة ، ويوم القيامة أشد خزيا وفضيحة .

﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ وهم الجمهور منهم . ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فينصر المُحق ، ويوقع العُقوبة على المُبْطِل .

[ ٨٨ : ٩٣ - ٧ ] : ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ .

وهم الأشراف والكُبراء منهم الَّذين اتَّبعوا أهواءهم ولهوا بلذَّاتهم ، فلمَّا أتاهم الحق ورأوه غير مُوافِق لأهوائهم الرَّديئة ، ردُّوه واستكبروا عنه ، فقالوا لنبيِّهم شُعيب ومن معه من المؤمنين المُستضعفين : ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ استعملوا قوَّتهم السَّبعيَّة ، في مُقابلة الحق ، ولم يُراعوا دينا ولا ذمَّة ولا حقًّا ، وإنَّما راعوا واتَّبعوا آهواءهم وعقولهم السفيهة الَّتي دلَّتهم على هذا القول الفاسد ، فقالوا : إمَّا أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا أو لنخرجنَّكم من قريتنا .

فـ ﴿شُعَيْبُ﴾ عليه الصَّلاة والسَّلام كان يدعوهم طامعا في إيمانهم ، والآن لم يسلم من شرِّهم ، حتَّى توعَّدوه إنْ لم يُتابِعهم ، بالجلاء عن وطنه ، الَّذي هو ومن معه أحق به منهم .

فـ ﴿قَالَ﴾ لهم شُعيب عليه الصَّلاة والسَّلام مُتعجِّبا من قولهم : ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ أي : أنُتابعكم على دينكم وملَّتكم الباطلة ، ولو كُنَّا كارهين لها لعلمنا ببُطلانها ، فإنَّما يُدْعَى إليها من له نوع رغبة فيها ، أمَّا من يُعلِن بالنهي عنها ، والتشنيع على من اتَّبعها فكيف يُدْعى إليها ؟ .

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ أي : اشهدوا علينا أنَّنا إنْ عُدنا إليها بعد ما نجَّانا اللّه منها وأنقذنا من شرِّها ، أننا كاذبون مُفترون على اللّه الكذب ، فإننا نعلم أنه لا أعظم افتراء ممَّن جعل للّه شريكا ، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد ، الَّذي لم يتَّخِذ ولدا ولا صاحبة ، ولا شريكا في المُلْكِ .

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ أي : يمتنع على مثلنا أن نعود فيها ، فإنَّ هذا من المُحال ، فآيسهم عليه الصَّلاة والسَّلام من كونه يوافقهم من وجوه مُتعدِّدة ، من جهة أنَّهم كارهون لها مُبْغِضون لِمَا هُم عليه من الشِّرْك . ومن جهة أنَّه جعل ما هُم عليه كذبا ، وأشهدهم أنَّه إن اتَّبعهم ومن معه فإنَّهم كاذبون .

ومنها : اعترافهم بمِنَّة اللّه عليهم إذ أنقذهم اللّه منها .

ومنها : أنَّ عَوْدهم فيها – بعد ما هداهم اللّه – من المُحالات ، بالنظر إلى حالتهم الراهنة ، وما في قلوبهم من تعظيم اللّه تعالى والاعتراف له بالعبوديَّة ، وأنَّه الإله وحده الَّذي لا تنبغي العبادة إلَّا له وحده لا شريك له ، وأنَّ آلهة المُشركين أبطل الباطل ، وأمحل المُحال .

وحيث إنَّ اللّه مَنَّ عليهم بعُقول يعرفون بها الحق والباطل ، والهُدى والضلال .

وأمَّا من حيث النظر إلى مشيئة اللّه وإرادته النافذة في خلقه ، الَّتي لا خروج لأحد عنها ، ولو تواترت الأسباب وتوافقت القوى ، فإنَّهم لا يحكمون على أنفسهم أنَّهم سيفعلون شيئا أو يتركونه ، ولهذا استثنى ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ أي : فلا يُمكننا ولا غيرنا ، الخروج عن مشيئته التابعة لعلمه وحِكمته ، وقد ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ فيعلم ما يصلح للعباد وما يُدبِّرهم عليه .

﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي : اعتمدنا أنَّه سيُثبتنا على الصِّراط المُستقيم ، وأن يعصمنا من جميع طُرق الجحيم ، فإنَّ من توكَّل على اللّه ، كفاه ، ويسَّر له أمر دينه ودُنياه .

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي : انصر المظلوم ، وصاحب الحق ، على الظالم المُعانِد للحق ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ ، وفتحه تعالى لعباده نوعان : فتح العلم ، بتبيين الحق من الباطل ، والهُدى من

الضلال ، ومن هو من المُستقيمين على الصِّراط ، ممَّن هو مُنحرف عنه .

والنوع الثَّاني : فتحه بالجزاء وإيقاع العُقوبة على الظالمين ، والنجاة والإكرام للصالحين ، فسألوا اللّه أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق والعدل ، وأن يُريهم من آياته وعِبَره ما يكون فاصلا بين الفريقين .

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ مُحذِّرين عن اتِّباع شُعيب ، ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ هذا ما سوَّلت لهم أنفسهم أنَّ الخسارة والشقاء في اتِّباع الرُّشد والهُدى ، ولم يدروا أنَّ الخسارة كُلَّ الخسارة في لزوم ما هُم عليه من الضلال والإضلال ، وقد علموا ذلك حين وقع بهم النَّكال .

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي : الزلزلة الشديدة ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي : صرعى ميِّتين هامدين .

قال تعالى ناعيا حالهم ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ أي : كأنَّهم ما أقاموا في ديارهم ، وكأنَّهم ما تمتَّعوا في عرصاتها ، ولا تفيَّئوا في ظلالها ، ولا غنوا في مسارح أنهارها ، ولا أكلوا من ثمار أشجارها ، حين فاجأهم العذاب ، فنقلهم من مورد اللهو واللعب واللذَّات ، إلى مُستقر الحُزن والشقاء والعِقاب والدَّركات ولهذا قال : ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي : الخسار محصور فيهم ، لأنَّهم خسروا دينهم وأنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخُسران المُبين ، لا من قالوا لهم : ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ .

فحين هلكوا تولَّى عنهم نبيهم شُعيب عليه الصَّلاة والسَّلام ﴿وَقَالَ﴾ مُعاتِبا وموبِّخا ومُخاطِبا بعد موتهم : ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ أي : أوصلتها إليكم ، وبيَّنتها حتَّى بلغت منكم أقصى ما يُمكِن أن تصل إليه ، وخالطت أفئدتكم ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ فلم تقبلوا نُصحي ، ولا انقدتُم لإرشادي ، بل فسقتم وطغيتم .

﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ أي : فكيف أحزن على قوم لا خير فيهم ، أتاهم الخير فرَدُّوه ولم يقبلوه ولا يليق بهم إلَّا الشر ، فهؤلاء غير حَقِيقين أنْ يُحزَن عليهم ، بل يُفْرَح بإهلاكهم ومَحْقِهم . فعياذا بك اللهم من الخزي والفضيحة ، وأي : شقاء وعُقوبة أبلغ من أن يصلوا إلى حالة يتبرأ منهم أنصح الخلق لهم ؟ .

[ ٧ - ٩٤: ٩٥ ] : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ يدعوهم إلى عبادة اللّه ، وينهاهم عن ما هُم فيه من الشَّرِّ ، فلم ينقادوا له : إلَّا ابتلاهم الله ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي : بالفقر والمرض وأنواع البلايا ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ إذا أصابتهم ، أخضعت نفوسهم فتضرَّعوا إلى الله واستكانوا للحق .

﴿ثُمَّ﴾ إذا لم يفد فيهم ، واستمر استكبارهم ، وازداد طغيانهم . ﴿بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ فأدَرَّ عليهم الأرزاق ، وعافى أبدانهم ، ورفع عنهم البلاء ، ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ أي : كثروا ، وكثرت أرزاقهم وانبسطوا في نعمة اللّه وفضله ، ونسوا ما مر عليهم من البلاء ، ﴿وَقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ أي : هذه

عادة جارية لم تزل موجودة في الأوَّلين واللاحقين ، تارة يكونون في سرَّاء وتارة في ضرَّاء ، وتارة في فرح ، ومرَّة في ترَح ، على حسب تقلُّبات الزمان وتداول الأيام ، وحسبوا أنَّها ليست للموعظة والتذكير ، ولا للاستدراج والنكير حتَّى إذا اغتبطوا ، وفرحوا بما أوتوا ، وكانت الدنيا ، أسرّ ما كانت إليهم ، أخذناهم بالعذاب ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي : لا يخطر لهم الهلاك على بال ، وظنُّوا أنَّهم قادرون على ما آتاهم الله ، وأنَّهم غير زائلين ولا مُنتقِلين عنه .

[ ٩٦: ٩٩ – ٧] : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ .

لمَّا ذكر تعالى أنَّ المُكذِّبين للرُّسُل يبتلون بالضرَّاء موعظة وإنذارا ، وبالسرَّاء استدراجا ومكرا ، ذكر أنَّ أهل القُرى ، لو آمنوا بقلوبهم إيمانا صادقا صدَّقته الأعمال ، واستعملوا تقوى الله تعالى ظاهرا وباطنا بترك جميع ما حرَّم الله ، لفتح عليهم بركات السماء والأرض ، فأرسل السماء عليهم مِدْرارا ، وأنبت لهم من الأرض ما به يعيشون وتعيش بهائمهم ، في أخصب عيش وأغزر رزق ، من غير عناء ولا تعب ، ولا كدٍّ ولا نصب ، ولكنَّهم لم يؤمنوا ويتَّقوا ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بالعُقوبات والبلايا ونزع البركات ، وكثرة الآفات ، وهي بعض جزاء أعمالهم ، وإلَّا فلو آخذهم بجميع ما كسبوا ، ما ترك عليها من دابة . ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [ سُورة الرُّوم ٤١] .

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ أي : المُكذِّبة ، بقرينة السياق ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ أي : عذابنا الشديد ﴿بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أي : في غفلتهم ، وغُرَّتهم وراحتهم .

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي : أي شيء يؤمِّنهم من ذلك ، وهُم قد فعلوا أسبابه ، وارتكبوا من الجرائم العظيمة ، ما يوجب بعضه الهلاك ؟ ! .

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ حيث يستدرجهم من حيث لا يعلمون ، ويُمْلي لهم ، إنَّ كيده متين ، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فإنَّ من أمِنَ من عذاب الله ، فهو لم يُصدِّق بالجزاء على الأعمال ، ولا آمن بالرُّسُل حقيقة الإيمان .

وهذه الآية الكريمة فيها من التَّخويف البليغ ، على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمنا على ما معه من الإيمان ، بل لا يزال خائفا وَجِلا أن يُبتلى ببليَّة تسلب ما معه من الإيمان ، وأن لا يزال داعيا بقوله : « يا مُقلِّب القُلوب ثبِّت قلبي على دينك » ، وأن يعمل ويسعى ، في كُلِّ سبب يُخلِّصه من الشَّرِّ ، عند وقوع الفتن ، فإنَّ العبد – ولو بلغت به الحال ما بلغت – فليس على يقين من السلامة .

[ ١٠٠: ١٠٢ – ٧] : ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم

بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ .

يقول تعالى مُنبِّهًا للأُمم الغابرين بعد هلاك الأُمم الغابرين ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ﴾ أي : أَوَ لم يتبيَّن ويتَّضح للأُمم الَّذين ورثوا الأرض ، بعد إهلاك من قبلهم بذنوبهم ، ثُمَّ عملوا كأعمال أولئك المُهلكين ؟ .

أَوَ لم يهتدوا أنَّ اللّه ، لو شاء لأصابهم بذنوبهم ، فإنَّ هذه سُنَّته في الأوَّلين والآخرين .

وقوله : ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي : إذا نبَّههم اللّه فلم ينتبهوا ، وذكَّرهم فلم يتذكَّروا ، وهداهم بالآيات والعِبر فلم يهتدوا ، فإن اللّه تعالى يُعاقبهم ويطبع على قلوبهم ، فيعلوها الرَّان والدنس ، حتَّى يُختم عليها ، فلا يدخلها حق ، ولا يصل إليها خير ، ولا يسمعون ما ينفعهم ، وإنَّما يسمعون ما به تقوم الحُجَّة عليهم .

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ الَّذين تقدَّم ذكرهم ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ﴾ ما يحصل به عِبْرة للمُعتبرين ، وازدجار للظالمين ، وموعظة للمُتَّقين .

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي : ولقد جاءت هؤلاء المُكذِّبين رُسُلهم تدعوهم إلى ما فيه سعادتهم ، وأيَّدهم اللّه بالمُعجزات الظاهرة ، والبيِّنات المُبيِّنات للحقِّ بيانا كاملا ، ولكنَّهم لم يفدهم هذا ، ولا أغنى عنهم شيئا ، ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُۚ﴾ أي : بسبب تكذيبهم وردهم الحق أوَّل مرَّة ، ما كان ليهديهم للإيمان ، جزاء لهم على ردِّهم الحق ، كما قال تعالى : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [ سورة الأنعام ١١٠ ] ، ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ عُقوبة منه ، وما ظلمهم اللّه ولكنَّهم ظلموا أنفسهم .

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ﴾ أي : وما وجدنا لأكثر الأُمم الَّذين أرسل اللّه إليهم الرُّسُل من عهد ، أي : من ثبات والتزام لوصيَّة اللّه الَّتي أوصى بها جميع العالمين ، ولا انقادوا لأوامره الَّتي ساقها إليهم على ألسنة رُسُله .

﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ أي : خارجين عن طاعة اللّه ، مُتَّبعين لأهوائهم بغير هُدى من اللّه ، فاللّه تعالى امتحن العباد بإرسال الرُّسُل وإنزال الكُتُب ، وأمرهم باتِّباع عهده وهُداه ، فلم يمتثل لأمره إلَّا القليل من الناس ، الَّذين سبقت لهم من اللّه ، سابقة السعادة .

وأمَّا أكثر الخلق فأعرضوا عن الهُدى ، واستكبروا عمَّا جاءت به الرُّسُل ، فأحلَّ اللّه بهم من عُقوباته المُتنوِّعة ما أحلَّ .

[ ١٠٣ : ١٧١ - ٧ ] : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ

لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ
﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ
قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن
تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ
عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ
مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ
﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ
مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ
وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ
مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن
يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ
وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَـٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟
بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ
لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ
فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن
كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ
﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ
ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾
وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ
ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ
أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ
يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ
لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ
وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى
وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ
صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ
بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً

وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ

رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

أي : ثُمَّ بعثنا من بعد أولئك الرُّسُل موسى الكليم ، الإمام العظيم ، والرسول الكريم ، إلى قوم عُتاة جبابرة ، وهُم فِرعون وملؤه ، من أشرافهم وكبرائهم ، فأراهم من آيات اللّه العظيمة ما لم يُشاهَد له نظير ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ بأن لم ينقادوا لحقِّها الَّذي من لم ينقد له فهو ظالم ، بل استكبروا عنها .

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ كيف أهلكهم اللّه ، وأتبعهم الذَّمَّ واللعنة في الدُّنيا ويوم القيامة ، بئس الرِّفْد المرْفود ، وهذا مُجمل فصَّله بقوله : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ حين جاء إلى فرعون يدعوه إلى الإيمان ، ﴿يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي : إنِّي رسول من مُرْسِل عظيم ، وهو رب العالمين ، الشامل للعالم العُلوي والسُّفلي ، مُربِّي جميع خلقه بأنواع التدابير الإلهية ، الَّتي من جُملتها أنَّه لا يترُكهم سُدى ، بل يُرسِل إليهم الرُّسُل مُبشِّرين ومُنْذِرين ، وهو الذي لا يقدر أحد أن يتجرأ عليه ، ويدَّعِي أنَّه أرسله ولم يُرْسله .

فإذا كان هذا شأنه ، وأنا قد اختارني واصطفاني لرسالته ، فحقيق عليَّ أن لا أكذب عليه ، ولا أقول عليه إلَّا الحق . فإنِّي لو قلت غير ذلك لعاجلني بالعُقوبة ، وأخذني أخذ عزيز مُقتدر .

فهذا موجب لأن ينقادوا له ويتَّبعوه ، خُصوصا وقد جاءهم ببيِّنة من اللّه واضحة على صحَّة ما جاء به من الحق ، فوجب عليهم أن يعملوا بمقصود رسالته ، ولها مقصودان عظيمان . إيمانهم به ، واتِّباعهم له ، وإرسال بني إسرائيل الشعب الَّذي فضَّله اللّه على العالمين ، أولاد الأنبياء ، وسلسلة يعقوب عليه السلام ، الَّذي موسى عليه الصَّلاة والسَّلام واحد منهم .

فقال له فِرعون : ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ . ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ﴾ في الأرض ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي : حيَّة ظاهرة تسعى ، وهم يُشاهِدونها .

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ من غير سُوء ، فهاتان آيتان كبيرتان دالَّتان على صحَّة ما جاء به موسى وصِدْقه ، وأنَّه رسول رب العالمين ، ولكن الَّذين لا يؤمنون لو جاءتهم كل آية لا يُؤمنون حتَّى يرَوا العذاب الأليم .

فلهذا ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ حين بهرهم ما رأوا من الآيات ، ولم يؤمنوا ، وطلبوا لها التأويلات الفاسدة : ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي : ماهر في سحره .

ثُمَّ خوَّفوا ضُعَفَاء الأحلام وسُفَهاء العُقول، بأنَّه ﴿يُرِيدُ﴾موسى بفعله هذا ﴿أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾أي: يُريد أن يُجليكم عن أوطانكم ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾أي: إنَّهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى، وما يندفع به ضرره بزعمهم عنهم، فإنَّ ما جاء به إنْ لم يُقابَل بما يُبْطِله ويدحضه، وإلَّا دخل في عُقول أكثر الناس.

فحينئذ انعقد رأيهم إلى أن قالوا لفرعون: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي: احبسهما وأمهلهما، وابعث في المدائن أُناسا يحشرون أهل المملكة ويأتون بكُلِّ سَحَّارٍ عليم، أي: يجيئون بالسَّحَرَةِ المَهَرَة، ليُقابلوا ما جاء به موسى، فقالوا: يا موسى اجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى، ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [سُورة طه ٥٩ - ٦٠].

وقال هُنا: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ طالبين منه الجزاء إن غَلَبوا فـ ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾؟.

فـ ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿نَعَمْ﴾ لكم أجر ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ فوعدهم الأجر والتقريب، وعُلو المنزلة عنده، ليجتهدوا ويبذلوا وسعهم وطاقتهم في مُغالبة موسى.

فلمَّا حضروا مع موسى بحضرة الخلق العظيم ﴿قَالُوا﴾على وجه التَّألي وعدم المُبالاة بما جاء به موسى: ﴿يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ﴾ ما معك ﴿وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾.

فـ ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿أَلْقُوا﴾ لأجل أن يرى الناس ما معهم وما مع موسى.

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ حبالهم وعصيَّهم، إذا هي من سحرهم كأنها حيَّات تسعى، فـ ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ لم يوجد له نظير من السِّحر.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ﴾ حَيَّة تسعى، فـ ﴿تَلْقَفُ﴾ جميع ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: يكذبون به ويُموِّهون.

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ أي: تبيَّن وظهر، واستعلن في ذلك المَجْمَع، ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك المقام ﴿وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ أي: حقيرين قد اضمحلَّ باطلهم، وتلاشى سحرهم، ولم يحصل لهم المقصود الَّذي ظنُّوا حُصوله.

وأعظم من تبيَّن له الحق العظيم أهل الصنف والسحر، الَّذين يعرفون من أنواع السحر وجُزئيَّاته، ما لا يعرفه غيرهم، فعرفوا أنَّ هذه آية عظيمة من آيات الله لا يدان لأحد بها.

﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ أي: وصدَّقنا بما بُعِثَ به موسى من الآيات البيِّنات.

فـ ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿فِرْعَوْنُ﴾ مُتهدِّدًا على الإيمان ﴿آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ كان الخبيث حاكما مُستبدًّا على الأبدان والأقوال، قد تقرَّر عنده وعندهم أنَّ قوله هو المُطاع، وأمره نافذ فيهم، ولا خُروج لأحد عن قوله وحُكمه، وبهذه الحالة تنحطُّ الأُمم، وتضعف عُقولها ونُفوذها، وتعجز عن المُدافعة عن حُقوقها، ولهذا قال الله عنه: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [سُورة الزُّخرف ٥٤]، وقال هُنا: ﴿آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ

ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي : فهذا سُوء أدب منكُم وتجرُؤ عليَّ .

ثُمَّ موَّه على قومه وقال : ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أي : إنَّ موسى كبيركم الَّذي علَّمكم السِّحر ، فتواطأتم أنتم وهو على أن تنغلبوا له ، فيظهر فتتَّبعوه ، ثُمَّ يتبعكم الناس أو جمهورهم ، فتُخرِجوا منها أهلها .

وهذا كذبٌ يعلم هو ومن سَبر الأحوال أنَّ موسى عليه الصَّلاة والسَّلام لم يجتمع بأحد منهم ، وأنَّهم جُمِعوا على نظر فرعون ورُسُله ، وأنَّ ما جاء به موسى آية إلهيَّة ، وأنَّ السَّحرة قد بذلوا مجهودهم في مُغالبة موسى ، حتَّى عجزوا وتبيَّن لهم الحق ، فاتَّبعوه .

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما أُحِل بكُم من العُقوبة ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ زعم الخبيث أنَّهم مُفسدون في الأرض ، وسيصنع بهم ما يصنع بالمُفسدين ، من تقطيع الأيدي ، والأرجُل من خِلاف ، أي : اليد اليُمنى والرِّجل اليُسرى .

﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ في جذوع النَّخل ، لتختزوا بزعمه ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أي : لا أفعل هذا الفِعل بأحدٍ دون أحد ، بل كُلّكم سيذوق هذا العذاب .

فقال السَّحرة الَّذين آمنوا لفرعون حين تهدَّدهم ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي : فلا نُبالي بعُقوبتك ، فالله خير وأبقى ، فأقض ما أنت قاض .

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ أي : وما تعيب منَّا على إنكارك علينا وتوعُّدك لنا ؟ ، فليس لنا ذنب ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ فإن كان هذا ذنبًا يُعاب عليه ، ويستحق صاحبه العُقوبة ، فهو ذنبنا .

ثُمَّ دعوا الله أن يُثبِّتهم ، ويُصبِّرهم فقالوا : ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ﴾ أي : أَفِض ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي : عظيمًا ، كما يدُل عليه التنكير ، لأنَّ هذه مِحْنة عظيمة ، تؤدِّي إلى ذِهاب النَّفْس ، فيحتاج فيها من الصَّبر إلى شئ كثير ، ليَثبُت الفؤاد ، ويُطمئِن المؤمن على إيمانه ، ويزول عنه الانزعاج الكثير .

﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أي : مُنقادين لأمرك ، مُتَّبِعين لرسولك ، والظاهر أنَّه أوقع بهم ما توعَّدهُم عليه ، وأنَّ الله تعالى ثبَّتهم على الإيمان .

وهذا فرعون وملأه وعامَّتهم المُتَّبِعون للملأ ، قد استكبروا عن آيات الله ، وجحدوا بها ظُلما وعُلوًّا ، وقالوا لفرعون مُهيِّجين له على الإيقاع بموسى ، وزاعمين أنَّ ما جاء به باطل وفساد ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالدَّعوة إلى الله ، وإلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، الَّتي هي الصَّلاح في الأرض ، وما هُم عليه من الفساد ، ولكن الظالمين لا يُبالون بما يقولون .

﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ أي : يدعك أنت وآلهتك ، وينهى عنك ، ويصُدُّ الناس عن اتِّباعك .

فـ ﴿قَالَ﴾ فرعون مُجيبا لهُم ، بأنَّه سيدع بني إسرائيل مع موسى بحالة لا ينمون فيها ، ويأمن فرعون وقومه – بزعمه – من ضررهم : ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أي : نستبقيهن ولا نقتلهن ، فإذا فعلنا ذلك أمِنَّا من كثرتهم ، وكُنَّا مُستخدمين لباقيهم ، ومُسخِّرين لهم على ما نشاء من الأعمال ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ ، لاخروج لهُم عن حُكمنا ولا قُدرة ، وهذا نهاية الجبروت من فرعون والعُتو والقسوة .

فـ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ موصيا لهُم في هذه الحالة ، - الَّتي لا يقدرون معها على شئ ، ولا مُقاومة- بالمُقاومة الإلهيَّة ، والاستعانة الرَّبَّانيَّة : ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي : اعتمدوا عليه في جلب ما ينفعكم ، ودفع ما يضرّكم ، وثِقوا بالله أنَّه سيُتِم أمركم ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ۖ﴾ أي : الزموا الصبر على ما يحل بكُم ، مُنتظرين للفرج .

﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ ليست لفرعون ولا لقومه حتَّى يتحكَّموا فيها ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ﴾ أي : يُدَوالها بين الناس على حسب مشيئته وحِكمته ، ولكنَّ العاقبة للمُتَّقين ، فإنَّهُم وإن امتحنوا مُدَّة ابتلاء من الله وحِكمة ، فإنَّ النصر لهم ، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ الحميدة لهم على قومهم وهذه وظيفة العبد ، أنَّه عند القُدرة ، أن يفعل من الأسباب الدَّافِعة عنه أذى الغير ، ما يقدر عليه وعند العجز ، أن يصبر ويستعين الله ، وينتظر الفرج .

﴿قَالُوٓا۟﴾ لموسى مُتضجِّرين من طول ما مكثوا في عذاب فرعون ، وأذيَّته : ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ فإنَّهُم يسومونَنا سُوء العذاب ، يُذبِّحون أبناءنا ويستحيون نساءنا ، ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ﴾ كذلك .

فـ ﴿قَالَ﴾ لهُم موسى مرجيا لهم الفرج والخلاص من شرِّهم : ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي : يُمكِّنكم فيها ، ويجعل لكُم التدبير فيها ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ هل تشكرون أم تكفرون ؟ . وهذا وعد أنجزه الله لمَّا جاء الوقت الَّذي أراده الله .

قال الله تعالى في بيان ما عامل به آل فرلاعون في هذه المُدَّة الأخيرة ، أنَّها على عادته وسُنَّته في الأُمم ، أن يأخُذهم بالباساء والضَّرَّاء لعلهم يضرَّعون . الآيات : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي : يتَّعِظون أنَّ ما حَلَّ بهم وأصابهم مُعاتبة من الله لهم ، لعلهم يرجعون عن كُفرهم ، فلم ينجع فيهم ولا أفاد ، بل استمروا على الظُّلم والفساد .

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ أي : الخصب وإدْرار الرزق ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦۖ﴾ أي : نحن مُستحقُّون لها ، فلم يشكروا اللّه عليها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ أي : قحط وجدب ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ أي : يقولوا : إنما جاءنا بسبب مجيء موسى ، واتِّباع بني إسرائيل له .

قال اللّه تعالى : ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي : بقضائه وقُدرته ، ليس كما قالوا ، بل إنَّ ذنوبهم وكُفرهم هو السبب في ذلك ، بل ﴿أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي : فلذلك قالوا ما قالوا .

﴿وَقَالُوا۟﴾ مُبيِّنين لموسى أنَّهُم لا يزالون ، ولا يزولون عن باطلهم : ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي : قد تقرَّر عندنا أنَّك ساحر ، فمهما جئت بآية ، جزمنا أنَّها سِحر ، فلا نُؤمِن لك ولا نُصدِّق ، وهذا غاية ما يكون من العِناد ، أن يبلغ بالكافرين إلى أن تستوي عندهم الحالات ، سواء نزلت عليهم الآيات أم لم تنزل .

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ أي : الماء الكثير الَّذي أغرق أشجارهم وزروعهم ، وأضر بهم ضررا كثيرا ﴿وَٱلْجَرَادَ﴾ فأكل ثمارهم وزروعهم ، ونباتهم ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾ قيل : إنَّه الدباء ، أي : صِغار الجراد ، والظاهر أنه القمل المعروف ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ فملأت أوعيتهم ، وأقلقتهم ، وآذتهُم أذيَّة شديدة ﴿وَٱلدَّمَ﴾ إمَّا أن يكون الرَّعاف ، أو كما قال كثير من المُفسِّرين ، أنَّ ماءهم الَّذي يشربون انقلب دما ، فكانوا لا يشربون إلَّا دما ، ولا

يطبخون إلَّا بدم .

﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ أي : أدلَّة وبيِّنات على أنَّهم كانوا كاذبين ظالمين ، وعلى أنَّ ما جاء به موسى ، حقٌّ وصدق ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ لمَّا رأوا الآيات ﴿وَكَانُواْ﴾ في سابق أمرهم ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ فلذلك عاقبهم الله تعالى ، بأن أبقاهم على الغيِّ والضلال .

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ أي : العذاب ، يُحتمَل أنَّ المُراد به : الطاعون ، كما قاله كثير من المُفسِّرين ، ويُحتمل أن يُراد به ما تقدَّم من الآيات : الطُّوفان ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدم ، فإنَّها رجز وعذاب ، وأنَّهم كُلمَّا أصابهم واحد منها ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي : تشفَّعوا بموسى بما عَهِد الله عنده من الوحي والشرع ، ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وهُم في ذلك كَذَبَة ، لا قصد لهم إلا زوال ما حلَّ بهم من العذاب ، وظنُّوا إذا رُفِعَ لا يُصيبهم غيره .

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ أي : إلى مُدَّة قَدَّرَ الله بقاءهم إليها ، وليس كشفا مُؤبَّدًا ، وإنَّما هو مؤقَّت ، ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ العهد الَّذي عاهدوا عليه موسى ، ووعدوه بالإيمان به ، وإرسال بني إسرائيل ، فلا آمنوا به ولا أرسلوا معه بني إسرائيل ، بل استمرُّوا على كُفرِهم يعمهون ، وعلى تعذيب بني إسرائيل دائبين .

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي : حين جاء الوقت المؤقَّت لهلاكهم ، أمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلا وأخبره أنَّ فرعون سيتبعهم هو وجنوده ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ يجمعون الناس ليتبعوا بني إسرائيل ، وقالوا لهم : ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ .

وقال هُنا : ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ أي : بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عمَّا دلَّت عليه من الحق .

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ في الأرض ، أي : بني إسرائيل الذين كانوا خَدَمَةً لآل فرعون ، يسومونهم سُوء العذاب أورثهم الله ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ والمُراد بالأرض هاهُنا ، أرض مِصر ، الَّتي كانوا فيها مُستضعفين ، أذلِّين ، أي : ملكهم الله جميعا ، ومكَّنهم فيها الَّتي بَارَكْنَا فِيهَا ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ﴾ حين قال لهم موسى : ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ من الأبنية الهائلة ، والمساكن المُزخرفة ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ ، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ .

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي : اخترتك واجتبيتك وفضَّلتك وخصَّصتك بفضائل عظيمة ، ومناقب جليلة ، ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ التي لا أجعلها ، ولا أخصُّ بها إلَّا أفضل الخلق .

﴿وَبِكَلَٰمِي﴾ إيَّاك من غير واسطة ، وهذه فضيلة اختُصَّ بها موسى الكليم ، وعُرِفَ بها من بين إخوانه من المُرسلين ، ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ من النِّعم ، وخُذ ما آتيتك من الأمر والنَّهي بانشراح صدر ، وتلقه بالقَبول والانقياد ، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لله على ما خصَّك وفضَّلك .

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه العِباد ﴿مَّوْعِظَةً﴾ تُرغِّب النُّفوس في أفعال الخير ، وتُرهِّبهم من أفعال الشَّرِّ ، ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأحكام الشرعيَّة ، والعقائد والأخلاق والآداب ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي : بجدٍّ واجتهاد على إقامتها ، ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ وهي الأوامر الواجبة والمُستحبَّة ، فإنَّها أحسنها ، وفي هذا دليل على أنَّ أوامر الله - في كُلِّ شريعة - كاملة عادلة حسنة .

﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ بعد ما أهلكهم الله ، وأبقى ديارهم عِبْرة بعدهم ، يَعتَبِرُ بها المؤمنون المُوفَّقون المتواضِعون .

وأمَّا غيرهم ، فقال عنهم : ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ أي : عن الاعتبار في الآيات الأُفقيَّة والنَّفسيَّة ، والفَهم لآيات الكتاب ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي : يتكبَّرون على عِباد الله وعلى الحقِّ ، وعلى من جاء به ، فمَنْ كان بهذه الصِّفة ، حَرَمَه الله خيرا كثيرا وخذله ، ولم يفقه من آيات الله ما ينتفع به ، بل رُبَّما انقلبت عليه الحقائق ، واستحسن القبيح .

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ لإعراضهم واعتراضهم ، ومُحادتهم لله ورسوله ، ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾ أي : الهُدى والاستقامة ، وهو الصِّراط المُوصِّل إلى الله ، وإلى دار كرامته ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ﴾ أي : لا يسلكوه ولا يرغبوا فيه ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ﴾ أي : الغواية المُوصِّل لصاحبه إلى دار الشقاء ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ والسبب في انحرافهم هذا الانحراف ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ فردُّهم لآيات الله ، وغفلتهم عمَّا يُراد بها واحتقارهم لها - هو الذي أوجب لهم من سُلُوك طريق الغي ، وترك طريق الرُّشد ما أوجب .

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ العظيمة الدَّالَّة على صحَّة ما أرسلنا به رُسُلنا .

﴿وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ لأنَّها على غير أساس ، وقد فقد شرطها وهو الإيمان بآيات الله ، والتصديق بجزائه ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ في بُطلان أعمالهم وحُصول ضد مقصودهم ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فإنَّ أعمال من لا يؤمن باليوم الآخر ، لا يرجو فيها ثوابا ، وليس لها غاية تنتهي إليه ، فلذلك اضمحلَّت وبَطُلَت .

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ صَاغَه السامري وألقى عليه قبضة من أثر الرسول فصار ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ وصوت ، فعبدوه واتَّخذوه إلها .

وقال ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ موسى ، وذهب يطلبه ، وهذا من سفههم ، وقِلَّة بصيرتهم ، كيف اشتبه عليهم رب الأرض والسماوات ، بعجل من أنقص المخلوقات ؟ .

ولهذا قال مُبيِّنا أنَّه ليس فيه من الصِّفات الذَّاتيَّة ولا الفِعليَّة ، ما يوجب أن يكون إلها ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ أي : وعدم الكلام نقص عظيم ، فهم أكمل حالة من هذا الحيوان أو الجماد ، الَّذي لا يتكلَّم ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ أي : لا يدلهم طريقا دينيًا ، ولا يحصل لهم مصلحة دُنيويَّة ، لأنَّ من المُتقرِّر في العُقول والفِطر ، أنَّ اتِّخاذ إله لا يتكلَّم ولا ينفع ولا يضر من أبطل الباطل ، وأسمج السَّفَه ، ولهذا قال : ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ حيث وضعوا العبادة في غير موضعها ، وأشركوا باللّه ما لم يُنزِّل به سُلطانا ، وفيها دليل على أن من أنكر كلام اللّه ، فقد أنكر خصائص إلهيَّة اللّه تعالى ، لأنَّ اللّه ذكر أن عدم الكلام دليل على عدم صلاحية الَّذي لا يتكلَّم للإلهيَّة .

﴿وَلَمَّا﴾ رجع موسى إلى قومه ، فوجدهم على هذه الحال ، وأخبرهم بضلالهم ندموا و ﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي : من الهمِّ والنَّدمِ على فعلهم ، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ فتنصَّلوا ، إلى اللّه وتضرَّعوا و ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ فيدلنا عليه ، ويرزقنا عبادته ، ويوفِّقنا لصالح الأعمال ، ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ ما صدر مِنَّا من عِبادة العجل ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الَّذين خسروا الدُّنيا والآخرة .

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أي : مُمتلِئا غضبا وغيظا عليهم ، لتمام غيرته عليه الصَّلاة السَّلام ، وكمال نُصحه وشفقته ، ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي﴾ أي : بئس الحالة الَّتي خلفتموني بها من بعد ذهابي عنكم ، فإنَّها حالة تُفضِي إلى الهلاك الأبدي ، والشقاء السَّرمدي .

﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ حيث وعدكم بإنزال الكتاب . فبادرتم – برأيكم الفاسد – إلى هذه الخصلة القبيحة ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ أي : رماها من الغضب ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ هارون ولحيته ﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ وقال له : ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ لك بقولي : ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ف ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ و ﴿قَالَ﴾ هُنا ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ هذا ترقيق لأخيه ، بذكر الأم وحدها ، وإلَّا فهو شقيقه لأمه وأبيه : ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي﴾ أي : احتقروني حين قلت لهم : ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [ سُورة طه ٩٠] ، ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ أي : فلا تظن بي تقصيرا ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ بنهرك لي ، ومَسِّك إيَّاي بسوء ، فإنَّ الأعداء حريصون على أن يجدوا عليَّ عَثرة ، أو يطَّلِعوا لي على زَلَّة ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فتُعاملني مُعاملتهم .

فندم موسى عليه السلام على ما استعجل من صُنعه بأخيه قبل أن يعلم براءته ، ممَّا ظنَّه فيه من التقصير ، و﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ هارون ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ أي : في وسطها ، واجعل رحمتك تُحيط بنا من كُلِّ جانب ، فإنَّها حصن حصين ، من جميع الشرور ، وثَمَّ كل خير وسرور ، ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي : أرحم بنا من كُلِّ راحم ، أرحم بنا من آبائنا ، وأمَّهاتنا وأولادنا وأنفسنا .

قال اللّه تعالى مُبيِّنا حال أهل العجل الَّذين عبدوه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ أي : إلها ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كما أغضبوا ربَّهم واستهانوا بأمره .

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ فكل مُفترٍ على اللّه ، كاذب على شرعه ، مُتقوِّل عليه ما لم يقُل ، فإنَّ له

نصيبا من الغضب من الله ، والذُّل في الحياة الدُّنيا ، وقد نالهم غضب الله ، حيث أمرهم أن يقتلوا أنفسهم ، وأنَّه لا يرضى الله عنهم إلَّا بذلك ، فقتل بعضهم بعضا ، وانجلت المعركة عن كثير من القتلى ثُمَّ تاب الله عليهم بعد ذلك .

ولهذا ذكر حُكما عاما يدخلون فيه هُم وغيرهم ، فقال : ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من شرك وكبائر ، وصغائر ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ بأن ندموا على ما مضى ، وأقلعوا عنها ، وعزموا على أن لا يعودوا ﴿وَءَامَنُوٓاْ﴾ بالله وبما أوجب الله من الإيمان به ، ولا يتم الإيمان إلَّا بأعمال القلوب ، وأعمال الجوارح المُترتِّبة على الإيمان ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ أي : بعد هذه الحالة ، حالة التوبة من السّيئات والرُّجوع إلى الطاعات ، ﴿لَغَفُورٞ﴾ يغفر السيئات ويمحوها ، ولو كانت قِراب الأرض ﴿رَّحِيمٞ﴾ بقبول التوبة ، والتوفيق لأفعال الخير وقبولها .

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ﴾ أي : سكن غضبه ، وتراجعت نفسه ، وعرف ما هو فيه ، اشتغل بأهم الأشياء عنده ، فـ ﴿أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ﴾ الَّتي ألقاها ، وهي ألواح عظيمة المقدار ، جليلة ﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا﴾ أي : مُشتمِلة ومُتضمِّنة ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾ أي : فيها الهُدى من الضلالة ، وبيان الحق من الباطل ، وأعمال الخير وأعمال الشر ، والهُدى لأحسن الأعمال ، والأخلاق ، والآداب ، ورحمة وسعادة لمن عمل بها ، وعَلِمَ أحكامها ومعانيها ، ولكن ليس كل أحد يقبل هُدى الله ورحمته ، وإنَّما يقبل ذلك وينقاد له ، ويتلقَّاه بالقَبول الَّذين هُم ﴿لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾ أي : يخافون منه ويخشونه ، وأمَّا من لم يخف الله ولا المقام بين يديه ، فإنَّه لا يزداد بها إلَّا عُتوًّا ونُفورا وتقوم عليه حُجَّة الله فيها .

﴿وَ﴾ لمَّا تاب بنو إسرائيل وتراجعوا إلى رُشْدهم ﴿ٱخۡتَارَ مُوسَىٰ﴾ منهم ﴿سَبۡعِينَ رَجُلٗا﴾ من خيارهم ، ليعتذروا لقومهم عند ربِّهم ، ووعدهم الله ميقاتا يحضرون فيه ، فلمَّا حضروه ، قالوا : ياموسى ، ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ فتجرَّأوا على الله جراءة كبيرة ، وأساءوا الأدب معه ، فـ ﴿أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ فصُعِقوا وهلكوا .

فلم يزل موسى عليه الصَّلاة والسَّلام ، يتضرَّع إلى الله ويتبتَّل ويقول ﴿رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ﴾ أن يحضروا ويكونون في حالة يعتذرون فيها لقومهم ، فصاروا هم الظالمين ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ أي : ضُعفاء العُقول ، سُفهاء الأحلام ، فتضرَّع إلى الله واعتذر بأنَّ المُتجرِّئين على الله ليس لهم عُقول كاملة ، تردعهم عمَّا قالوا وفعلوا ، وبأنَّهم حصل لهم فتنة يخطر بها الإنسان ، ويخاف من ذهاب دينه فقال : ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾ أي : أنت خير من غفر ، وأولى من رحم ، وأكرم من أعطى وتفضَّل ، فكأن موسى عليه الصَّلاة والسَّلام ، قال : المقصود يارب بالقصد الأوَّل لنا كلنَّا ، هو التزام طاعتك والإيمان بك ، وأنَّ من حضره عقله ورُشده ، وتمَّ على ما وهبته من التوفيق ، فإنَّه لم يزل مُستقيما ، وأمَّا من ضعف عقله ، وسفه رأيه ، وصرفته الفتنة ، فهو الَّذي فعل ما فعل ، لذينك السببين ، ومع هذا فأنت أرحم الراحمين ، وخير الغافرين ، فاغفر لنا وارحمنا .

فأجاب الله سؤاله ، وأحياهم من بعد موتهم ، وغفر لهم ذنوبهم .

وقال موسى في تمام دُعائه ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾ من علم نافع ، ورزق واسع ، وعمل صالح ، ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٌ﴾ :وهي ما أعدَّ الله لأوليائه الصالحين من الثواب ، ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ أي :

رجعنا مُقرِّين بتقصيرنا ، مُنيبين في جميع أُمورنا .

﴿قَالَ﴾ اللّه تعالى ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ﴾ ممَّن كان شقيًّا ، مُتعرِّضا لأسبابه ، ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ من العالم العُلوي والسُّفلي ، البَرّ والفاجر ، المُؤمن والكافر ، فلا مخلوق إلَّا وقد وصلت إليه رحمة اللّه ، وغمره فضله وإحسانه ، ولكن الرحمة الخاصة المُقتضية لسعادة الدُّنيا والآخرة ، ليست لكُلّ أحد ، ولهذا قال عنها : ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي ، صغارها وكبارها ، ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبة مُستحقِّيها ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ ومن تمام الإيمان بآيات اللّه معرفة معناها ، والعمل بمُقتضاها ، ومن ذلك اتِّباع النبي ﷺ ظاهرا وباطنا ، في أُصول الدين وفروعه .

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾ احتراز عن سائر الأنبياء ، فإن المقصود بهذا مُحمَّد بن عبد اللّه بن عبد المُطَّلِب ﷺ ، والسِّياق في أحوال بني إسرائيل وأنَّ الإيمان بالنَّبي مُحمَّد ﷺ شرط في دخولهم في الإيمان ، وأنَّ المؤمنين به المُتَّبِعين ، هُم أهل الرحمة المُطلقة ، الَّتي كتبها اللّه لهم ، ووصفه بالأُمّي لأنَّه من العرب الأُمَّة الأُمِّيَّة ، الَّتي لا تقرأ ولا تكتُب ، وليس عندها قبل القُرآن كتاب .

﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ باسمه وصفته ، الَّتي من أعظمها وأجلها ، ما يدعو إليه ، وينهى عنه . وأنَّه ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ وهو كل ما عُرِف حسنه وصلاحه ونفعه ، ﴿وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ وهو : كل ما عُرِف قُبحه في العُقول والفِطر .

فيأمرهم بالصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، وصِلة الأرحام ، وبر الوالدين ، والإحسان إلى الجار والمملوك ، وبذل النفع لسائر الخلق ، والصدق ، والعفاف ، والبِرّ ، والنصيحة ، وما أشبه ذلك ، وينهى عن الشِّرْك باللّه ، وقتل النفوس بغير حق ، والزِّنا ، وشُرب ما يُسكِر العَقل ، والظلم لسائر الخلق ، والكذب ، والفُجور ، ونحو ذلك .

فأعظم دليل يدل على أنَّه رسول اللّه ، ما دعا إليه وأمر به ، ونهى عنه ، وأحلَّه وحرَّمه ، فإنَّه ﴿يُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من المطاعِم والمشارِب ، والمناكِح ، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ من المطاعِم والمشارِب والمناكِح ، والأقوال والأفعال .

﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي : ومن وصفه أنَّ دينه سهل سمح مُيسَّر ، لا إصر فيه ، ولا أغلال ، ولا مشقَّات ولا تكاليف ثِقَال .

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ أي : عظَّموه وبجَّلوه ﴿وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ وهو القُرآن ، الَّذي يُستضاء به في ظُلُمات الشك والجهالات ، ويُقتدى به إذا تعارضت المقالات ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الظافرون بخير الدُّنيا والآخرة ، والناجون من شرّهما ، لأنَّهم أتوا بأكبر أسباب الفلاح .

وأمَّا من لم يُؤمِن بهذا النَّبي الأُمِّي ، ويُعزِّره ، وينصره ، ولم يتَّبِع النور الَّذي أُنزِل معه ، فأولئك هم الخاسرون .

ولمَّا دعا أهل التوراة من بني إسرائيل ، إلى اتِّباعه ، وكان رُبَّما توهَّم مُتوهِّم ، أنَّ الحُكم مقصور عليهم ، أتى بما يدل على العُموم فقال : ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ أي : عربيكم ، وعجميكم ، أهل الكتاب منكم ، وغيرهم .

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يتصرَّف فيهما بأحكامه الكونيَّة والتدابير السُّلطانيَّة، وبأحكامه الشرعيَّة الدِّينيَّة الَّتي من جُملتها: أن أرسل إليكم رسولا عظيما يدعوكم إلى اللّه وإلى دار كرامته، ويُحذِّركم من كُلِّ ما يُباعدكم منه، ومن دار كرامته.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق، إلَّا اللّه وحده لا شريك له، ولا تُعرَف عبادته إلَّا من طريق رُسُله، ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: من جُملة تدابيره: الإحياء والإماتة، الَّتي لا يُشاركه فيها أحد، الَّذي جعل الموت جسرا ومعبرا يُعبَر منه إلى دار البقاء، الَّتي مَنْ آمن بها صدَّق الرسول مُحمَّدا ﷺ قطعا.

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ إيمانا في القلب، مُتضمِّنا لأعمال القُلوب والجوارح. ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: آمنوا بهذا الرسول المُستقيم في عقائده وأعماله، ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ في مصالحكم الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، فإنَّكُم إذا لم تتَّبعوه ضللتم ضلالا بعيدا.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ﴾ أي: جماعة ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يهدون به الناس في تعليمهم إيَّاهم وفتواهم لهم، ويعدلون به بينهم في الحُكم بينهم، بقضاياهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [سُورة السَّجدة ٢٤]، وفي هذا فضيلة لأُمَّة موسى عليه الصَّلاة والسَّلام، وأنَّ اللّه تعالى جعل منهم هُداة يهدون بأمره.

وكأن الإتيان بهذه الآية الكريمة فيه نوع احتراز ممَّا تقدَّم، فإنَّه تعالى ذكر فيما تقدَّم جُملة من معايب بني إسرائيل، المُنافية للكمال، المُناقِضة للهداية، فرُبَّما توهَّم مُتوهِّم أنَّ هذا يعم جميعهم، فذكر تعالى أن منهم طائفة مُستقيمة هادية مهديَّة.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ أي: قسَّمناهم ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ﴾ أي: اثنتي عشرة قبيلة مُتعارِفة متوالِفة، كل بني رجل من أولاد يعقوب قبيلة.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ أي: طلبوا منه أن يدعو اللّه تعالى، أن يسقيهم ماء يشربون منه وتشرب منه مواشيهم، وذلك لأنَّهم - واللّه أعلم - في محلٍّ قليل الماء. فأوحى اللّه لموسى إجابة لطلبتهم ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ﴾ يحتمل أنَّه حجر مُعيَّن، ويحتمل أنَّه اسم جنس، يشمل أي حجر كان، فضربه ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ أي: انفجرت من ذلك الحجر ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ﴾ جارية سارحة.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ﴾ أي: قد قسَّم على كُلِّ قبيلة من تلك القبائل الاثنتي عشرة، وجعل لكُلٍّ منهم عينا، فعلموها، واطمأنوا، واستراحوا من التعب والمُزاحمة، والمُخاصمة، وهذا من تمام نعمة اللّه عليهم.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ فكان يسترهم من حر الشمس ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ﴾ وهو الحلوى، ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ﴾ وهو لحم طير من أنواع الطيور وألذها، فجمع اللّه لهم بين الظلال، والشراب، والطعام الطيِّب، من الحلوى واللحوم، على وجه الراحة والطُّمأنينة.

وقيل لهم: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا﴾ حين لم يشكروا اللّه، ولم يقوموا بما أوجب اللّه عليهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث فوَّتوها كل خير، وعرَّضوها للشَّرِّ والنِّقمة، وهذا كان

مُدَّة لبثهم في التيه .

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أي : ادخلوها لتكون وطنا لكم ومسكنا ، وهي « إيلياء » ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي : قرية كانت كثيرة الأشجار ، غزيرة الثمار ، رغيدة العيش ، فلذلك أمرهم الله أن يأكلوا منها حيث شاءوا .

﴿وَقُولُوا﴾ حين تدخلون الباب : ﴿حِطَّةٌ﴾ أي : احطط عنَّا خطايانا ، واعف عنَّا .

﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي : خاضعين لربِّكم مُستكينين لعزَّته ، شاكرين لنعمته ، فأمرهم بالخضوع ، وسؤال المغفرة ، ووعدهم على ذلك مغفرة ذنوبهم والثواب العاجل والآجل فقال : ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ من خير الدُّنيا والآخرة ، فلم يمتثلوا هذا الأمر الإلهي ، بل ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي : عصوا الله واستهانوا بأمره ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فقالوا بدل طلب المغفرة ، وقولهم : ﴿حِطَّةٌ﴾ « حبَّة في شُعيْرة » ، وإذا بدَّلوا القول - مع يُسْره وسُهولته - فتبديلهم للفعل من باب أولى ، ولهذا دخلوا وهُم يزحفون على أستاهِهم .

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ حين خالفوا أمر الله وعصوه ﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي : عذابا شديدا ، إمَّا الطاعون وإمَّا غيره من العُقوبات السماويَّة .

وما ظلمهم الله بعقابه وإنَّما كان ذلك ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أي : يخرجون من طاعة الله إلى معصيته ، من غير ضرورة ألجأتهم ولا داع دعاهُم سُوى الخُبث والشر الَّذي كان كامنا في نُفوسِهم .

﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾ أي : اسأل بني إسرائيل ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ أي : على ساحله في حال تعدِّيهم وعقاب الله إيَّاهم .

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ وكان الله تعالى قد أمرهم أن يُعظِّموه ويحترموه ولا يصيدوا فيه صيدا ، فابتلاهم الله وامتحنهم ، فكانت الحيتان تأتيهم ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ أي : كثيرة طافية على وجه البحر .

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أي : إذا ذهب يوم السبت ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ أي : تذهب في البحر فلا يرون منها شيئا ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ففسقهم هو الَّذي أوجب أن يبتليهم الله ، وأن تكون لهم هذه المحنة ، وإلَّا فلو لم يفسقوا ، لعافاهم الله ، ولما عرَّضهم للبلاء والشر ، فتحيَّلوا على الصيد ، فكانوا يحفرون لها حُفرا ، وينصبون لها الشِّباك ، فإذا جاء يوم السبت ووقعت في تلك الحفر والشباك ، لم يأخذوها في ذلك اليوم ، فإذا جاء يوم الأحد أخذوها ، وكثر فيهم ذلك ، وانقسموا ثلاث فرق : معظمهم اعتدوا وتجرَّؤوا ، وأعلنوا بذلك .

وفرقة أعلنت بنهيهم والإنكار عليهم ، وفرقة اكتفت بإنكار أولئك عليهم ، ونهيهم لهم ، وقالوا لهم : ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ كأنَّهم يقولون : لا فائدة في وعظ من اقتحم محارم الله ، ولم يصغ للنصيح ، بل استمر على اعتدائه وطُغيانه ، فإنَّه لا بُدَّ أن يُعاقبهم الله ، إمَّا بهلاكٍ أو عذابٍ شديد .

فقال الواعظون : نعِظُهم وننهاهم ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي : لنُعذَر فيهم .

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي : يتركون ما هُم فيه من المعصية ، فلا نيأس من هِدايتهم ، فرُبَّما نجع فيهم

الوعظ ، وأثر فيهم اللوم .

وهذا المقصود الأعظم من إنكار المُنكر ليكون معذرة ، وإقامة حُجَّة على المأمور المنهي ، ولعل اللّه أن يهديه ، فيعمل بمُقتضى ذلك الأمر ، والنهي .

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أي : تركوا ما ذكروا به ، واستمروا على غيِّهم واعتدائهم ، ﴿أَنجَيْنَا﴾ من العذاب ﴿ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ وهكذا سُنَّة اللّه في عِباده ، أنَّ العُقوبة إذا نزلت نجا منها الآمرون بالمعروف والناهون عن المُنكر .

﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وهُم الَّذين اعتدوا في السبت ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ أي : شديد ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ .

وأمَّا الفِرقة الأُخرى الَّتي قالت للنَّاهين : ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ فاختلف المُفسِّرون في نجاتهم وهلاكهم ، والظاهر أنَّهم كانوا من الناجين ، لأنَّ اللّه خصَّ الهلاك بالظالمين ، وهو لم يذكر أنَّهم ظالِمون .

فدلَّ على أنَّ العُقوبة خاصة بالمُعتدين في السبت ، ولأنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر فرض كفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين ، فاكتفوا بإنكار أولئك ، ولأنَّهم أنكروا عليهم بقولهم : ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فأبْدوا من غضبهم عليهم ، ما يقتضي أنَّهُم كارهون أشد الكَراهة لفِعْلِهم ، وأنَّ اللّه سيُعاقبهم أشد العُقوبة .

﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ أي : قَسَوا فلم يلينوا ، ولا اتَّعَظوا ، ﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾ قولا قدريًّا : ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ فانقلبوا بإذن اللّه قِرَدة ، وأبعدهم اللّه من رحمته ، ثُمَّ ذكر ضرب الذِّلَّة والصَّغار على من بقي منهم فقال : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي : أعلم إعْلاما صريحا : ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي : يهينهم ، ويذلهم .

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن عصاه ، حتَّى إنَّه يُعجِّل له العُقوبة في الدُّنيا . ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب إليه وأناب ، يغفر له الذنوب ، ويستُر عليه العُيوب ، ويرحمه بأن يتقبَّل منه الطاعات ، ويُثيبه عليها بأنواع المَثُوبات ، وقد فعل اللّه بهم ما أوعدهم به ، فلا يزالون في ذُلٍّ وإهانة ، تحت حُكم غيرهم ، لا تقوم لهم راية ، ولا يُنْصَر لهم عَلَمٌ .

﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ أي : فرَّقناهم ومزَّقناهم في الأرض بعد ما كانوا مُجتمعين ، ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ القائمون بحُقوق اللّه ، وحُقوق عِباده ، ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي : دون الصلاح ، إمَّا مُقتصِدون ، وإمَّا ظالِمون لأنفسهم ، ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم﴾ على عادتنا وسُنَّتِنا ، ﴿بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي : بالعُسْرِ واليُسْرِ .

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عمَّا هُم عليه مُقيمون من الرَّدى ، يُراجِعون ما خُلِقوا له من الهُدى ، فلم يزالوا بين صالح وطالح ومُقْتصِد ، حتَّى خَلَفَ من بعدهم خلف ، زاد شرهم ﴿وَرِثُوا۟﴾ بعدهم ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ وصار المرجع فيه إليهم ، وصاروا يتصرَّفون فيه بأهوائهم ، وتُبْذل لهم الأموال ، ليفتوا ويحْكُموا بغير الحق ، وفَشَت فيهم الرِّشوة .

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ﴾ مقرّين بأنّه ذنب وأنّهم ظَلَمَة : ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وهذا قولٌ خالٍ من الحقيقة ، فإنّه ليس استغفارا وطلبا للمغفرة على الحقيقة ، فلو كان ذلك لندموا على ما فعلوا ، وعزموا على أن لا يعودوا ، ولكنّهم - إذا أتاهم عَرَضٌ آخر ، ورشوة أُخرى - يأخذوه .

فاشتروا بآيات اللّه ثمنا قليلا واستبدلوا الّذي هو أدنى بالّذي هو خير ، قال اللّه تعالى في الإنكار عليهم ، وبيان جراءتهم : ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ فما بالهم يقولون عليه غير الحق اتّباعا لأهوائهم ، وميلا مع مطامعهم .

﴿و﴾ الحال أنّهم قد ﴿دَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾ فليس عليهم فيه إشكال ، بل قد أَتَوْا أمرهم مُتعمّدين ، وكانوا في أمرهم مُستبْصِرين ، وهذا أعظم للذنب ، وأشد للوم ، وأشنع للعُقوبة ، وهذا من نقص عقولهم ، وسفاهة رأيهم ، بإيثار الحياة الدُّنيا على الآخرة ، ولهذا قال : ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ما حرّم اللّه عليهم ، من المآكل الّتي تُصاب ، وتؤكل رشوة على الحُكم بغير ما أنزل اللّه ، وغير ذلك من أنواع المُحرّمات .

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي : أفلا يكون لكم عُقول توازن بين ما ينبغي إيثاره ، وما ينبغي الإيثار عليه ، وما هو أولى بالسعي إليه ، والتقديم له على غيره . فخاصية العقل النظر للعواقب .

وأمّا من نظر إلى عاجل طفيف مُنقطع ، يُفوّت نعيما عظيما باقيا فأنّى له العقل والرَّأي ؟ .

وإنّما العُقلاء حقيقة من وصفهم اللّه بقوله ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ أي : يتَمسَّكون به عِلما وعملا فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار ، الّتي عِلمها أشرف العُلوم ، ويعلمون بما فيها من الأوامر الّتي هي قُرّة العُيون وسُرور القُلوب ، وأفراح الأرواح ، وصلاح الدُّنيا والآخرة .

ومن أعظم ما يجب التمسُّك به من المأمورات ، إقامة الصلاة ، ظاهرا وباطنا ، ولهذا خصَّها الله بالذّكر لفضلها ، وشرفها ، وكونها ميزان الإيمان ، وإقامتها داعية لإقامة غيرها من العبادات .

ولمّا كان عملهم كله إصلاحا ، قال تعالى : ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ في أقوالهم وأعمالهم ونيّاتهم ، مُصلِحين لأنفسهم ولغيرهم .

وهذه الآية وما أشبهها دلّت على أنّ اللّه بَعَثَ رُسُله عليهم الصّلاة والسّلام بالصلاح لا بالفساد ، وبالمنافع لا بالمضار ، وأنّهم بُعِثوا بصلاح الدارين ، فكُلُّ من كان أصلح ، كان أقرب إلى اتّباعهم .

ثُمّ قال تعالى : ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ حين امتنعوا من قَبول ما في التوراة ، فألزمهم اللّه العمل ونتق فوق رءوسهم الجبل ، فصار فوقهم ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ وقيل لهم : ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي : بجد واجتهاد ، ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ دراسة ومُباحثة ، واتّصافا بالعمل به ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إذا فعلتم ذلك .

[١٧٢ - ٧] : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي : أخرج من أصلابهم ذُريَّتهم ، وجعلهم يتناسلون ويتوالدون قرنا بعد قرن .

﴿و﴾ حين أخرجهم من بُطون أمَّهاتهم وأصلاب آبائهم ﴿أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أي : قرَّرهم بإثبات ربوبيَّته ، بما أودعه في فِطرهم من الإقرار ، بأنَّه ربهم وخالقهم ومليكهم .

قالوا : بلى قد أقررنا بذلك ، فإنَّ اللّه تعالى فَطَر عباده على الدين الحنيف القيِّم ، فكل أحد فهو مفطور على ذلك ، ولكن الفطرة قد تُغيَّر وتُبدَّل بما يطرأ عليها من العقائد الفاسدة ، ولهذا ﴿قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ أي : إنَّما امتحنَّاكُم حتَّى أقررتم بما تقرَّر عندكم ، من أن اللّه تعالى ربكم ، خشية أن تُنكِروا يوم القيامة ، فلا تُقرُّوا بشيء من ذلك ، وتزعمون أنَّ حُجَّة اللّه ما قامت عليكم ، ولا عندكم بها علم ، بل أنتم غافلون عنها لاهون ، فاليوم قد انقطعت حُجَّتكم ، وثبتت الحُجَّة البالغة للّه عليكم .

أو تحتجون أيضا بحُجَّة أُخرى ، فتقولون : ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ فحذونا حذوهم ، وتبعناهم في باطلهم ، ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ فقد أودع اللّه في فطركم ، ما يدلكم على أن ما مع آبائكم باطل ، وأنَّ الحق ما جاءت به الرُّسُل ، وهذا يُقاوم ما وجدتم عليه آباءكم ، ويعلو عليه .

نعم قد يَعرِض للعبد من أقوال آبائه الضالِّين ، ومذاهبهم الفاسدة ما يظنُّه هو الحق ، وما ذاك إلَّا لإعراضه ، عن حُجج اللّه وبيِّناته ، وآياته الأُفقيَّة والنَّفسيَّة ، فإعراضه عن ذلك ، وإقباله على ما قاله المُبطلون ، رُبَّما صيَّره بحالة يُفضِّل بها الباطل على الحق ، هذا هو الصواب في تفسير هذه الآيات .

وقد قيل : إنَّ هذا يوم أخذ اللّه الميثاق على ذُريَّة آدم ، حين استخرجهم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم ، فشهدوا بذلك ، فاحتجَّ عليهم بما أقرُّوا به في ذلك الوقت على ظُلمهم في كُفْرهم ، وعِنادهم في الدُّنيا والآخرة ، ولكن ليس في الآية ما يدل على هذا ، ولا له مُناسبة ، ولا تقتضيه حِكمة اللّه تعالى ، والواقع شاهد بذلك ، فإنَّ هذا العهد والميثاق ، الَّذي ذكروا ، أنَّه حين أخرج اللّه ذُريَّة آدم من ظهره ، حين كانوا في عالم كالذَّرِّ ، لا يذكره أحد ، ولا يخطر ببال آدمي ، فكيف يحتج اللّه عليهم بأمر ليس عندهم به خبر ، ولا له عين ولا أثر ؟ .

ولهذا لمَّا كان هذا أمرا واضحا جليًّا ، قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي : نُبيِّنها ونوضِّحها ، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى ما أودع اللّه في فِطرهم ، وإلى ما عاهدوا اللّه عليه ، فيرتدعون عن القبائح .

[ ٧ - ١٧٥ : ١٧٨ ] : ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ .

يقول تعالى لنبيِّه ﷺ : ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ أي : علمناه كتاب اللّه ، فصار العالم

الكبير والحَبْر النِّحْري ، ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي : انسلخ من الاتِّصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله ، فإنَّ العلم بذلك ، يُصيِّر صاحبه مُتَّصِفا بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ويَرْقى إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات ، فترك هذا كتاب الله وراء ظهره ، ونبذ الأخلاق الَّتي يأمر بها الكتاب ، وخلعها كما يخلع اللباس .

فلمَّا انسلخ منها أتبعه الشيطان ، أي : تسلَّط عليه حين خرج من الحصن الحصين ، وصار إلى أسفل سافلين ، فأزَّه إلى المعاصي أزًّا .

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ بعد أن كان من الرَّاشِدين المُرْشِدين ، وهذا لأنَّ الله تعالى خذله ووكله إلى نفسه ، فلهذا قال تعالى : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ بأن نوفِّقه للعمل بها ، فيرتفع في الدُّنيا والآخرة ، فيتحصَّن من أعدائه .

﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ﴾ فعل ما يقتضي الخُذلان ، فَأَخْلَدَ إِلَى الأرْضِ ، أي : إلى الشَّهوات السّفليَّة ، والمقاصد الدُّنيويَّة ، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ وترك طاعة مولاه ، ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ في شدَّة حرصه على الدُّنيا وانقطاع قلبه إليها ، ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ أي : لا يزال لاهثا في كُلِّ حال ، وهذا لا يزال حريصا ، حرصا قاطعا قلبه ، لا يسد فاقته شيء من الدُّنيا ، ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بعد أن ساقها الله إليهم ، فلم ينقادوا لها ، بل كذَّبوا بها وردُّوها ، لهوانهم على الله ، واتِّباعهم لأهوائهم ، بغير هُدى من الله .

﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ضرب الأمثال ، وفي العِبر والآيات ، فإذا تفكَّروا عَلِموا ، وإذا عَلِموا عَمِلوا .

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ أي : ساء وقَبُح ، مثل من كذَّب بآيات الله ، وظلم نفسه بأنواع المعاصي ، فإن مثلهم مثل السوء ، وهذا الذي آتاه الله آياته ، يُحتمل أنَّ المُراد به شخص مُعيَّن ، قد كان منه ما ذكره الله ، فقصَّ الله قصَّته تنبيها للعباد . ويحتمل أن المراد بذلك أنه اسم جنس ، وأنه شامل لكل من آتاه الله آياته فانسلخ منها .

وفي هذه الآيات الترغيب في العمل بالعلم ، وأنَّ ذلك رفعة من الله لصاحبه ، وعصمة من الشيطان ، والترهيب من عدم العمل به ، وأنَّه نزول إلى أسفل سافلين ، وتسليط للشيطان عليه ، وفيه أنَّ اتِّباع الهوى ، وإخلاد العبد إلى الشهوات ، يكون سببا للخُذلان .

ثُمَّ قال تعالى مُبيِّنا أنَّه المُنفرد بالهداية والإضلال : ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ بأن يوفِّقه للخيرات ، ويعصمه من المكروهات ، ويُعلِّمه ما لم يكُن يعلم ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ حقًّا لأنَّه آثر هدايته تعالى ، ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ فيخذله ولا يوفِّقه للخير ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخُسران المُبين .

[١٧٩ – ٧] : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ .

يقول تعالى مُبيّنا كثرة الغاوين الضالّين، المُتّبعين إبليس اللعين: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أي: أنشأنا وبثثنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ صارت البهائم أحسن حالة منهم.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي: لا يصل إليها فقه ولا علم، إلّا مُجرّد قيام الحُجّة.

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ ما ينفعهم، بل فقدوا منفعتها وفائدتها.

﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ سماعا يصل معناه إلى قلوبهم.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿كَالْأَنْعَامِ﴾ أي: البهائم، الّتي فقدت العُقول، وهؤلاء آثروا ما يفنى على ما يبقى، فسُلِبوا خاصيّة العقل.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من البهائم، فإنّ الأنعام مُستعملة فيما خُلِقت له، ولها أذهان، تُدرك بها، مضرّتها من منفعتها، فلذلك كانت أحسن حالا منهم.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الّذين غفلوا عن أنفع الأشياء، غفلوا عن الإيمان باللّه وطاعته وذكره، خُلِقت لهم الأفئدة والأسماع والأبصار، لتكون عونا لهم على القيام بأوامر اللّه وحُقوقه، فاستعانوا بها على ضد هذا المقصود، فهؤلاء حقيقون بأن يكونوا ممّن ذرأ اللّه لجهنّم وخلقهم لها، فخلقهم للنّار، وبأعمال أهلها يعملون.

وأما من استعمل هذه الجوارح في عبادة اللّه، وانصبغ قلبه بالإيمان باللّه ومحبّته، ولم يغفل عن اللّه، فهؤلاء، أهل الجنّة، وبأعمال أهل الجنّة يعملون.

[١٨٠ – ٧]: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

هذا بيان لعظيم جلاله وسِعَة أوصافه، بأنّ له الأسماء الحُسنى، أي: له كل اسم حسن، وضابطه: أنّه كل اسم دال على صفة كمال عظيمة، وبذلك كانت حُسنى، فإنّها لو دلّت على غير صفة، بل كانت علما محضا لم تكُن حُسنى، وكذلك لو دلّت على صفة ليست بصفة كمال، بل إمّا صفة نقص أو صفة مُنقسِمة إلى المدح والقدح، لم تكُن حُسنى، فكُلُّ اسم من أسمائه دال على جميع الصِّفة الّتي اشتق منها، مُستغرق لجميع معناها، وذلك نحو «العليم» الدّال على أنّ له عِلما مُحيطا عامًّا لجميع الأشياء، فلا يخرج عن علمه مِثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء، وكـ «الرّحيم» الدّال على أنّ له رحمة عظيمة، واسعة لكُلّ شيء، وكـ «القدير» الدّال على أنّ له قُدرة عامّة، لا يُعجزها شيء، ونحو ذلك.

ومن تمام كونها «حُسنى» أنّه لا يُدعى إلّا بِها، ولذلك قال: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وهذا شامل لدُعاء العبادة، ودُعاء المسألة، فيُدعى في كُلّ مطلوب بما يُناسِب ذلك المطلوب، فيقول الدّاعي مثلا: اللّهُمّ اغفر لي وارحمني، إنّك أنت الغفور الرّحيم، وتُبْ عَلَيّ يا توّاب، وارزُقني يا رزّاق، والطُف بي يا لطيف ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: عُقوبة وعذابا على إلحادهم في أسمائه، وحقيقة الإلحاد الميل بها عمّا جُعِلت له، إمّا بأن يُسمّى بها من لا يستحقّها، كتسمية

المُشركين بها لآلهتهم ، وإمَّا بنفي معانيها وتحريفها ، وأن يجعل لها معنى ما أراده اللّه ولا رسوله ، وإمَّا أن يُشبَّه بها غيرها ، فالواجب أن يُحْذَر الإلحاد فيها ، ويُحْذَر المُلحِدون فيها ، وقد ثبت في الصَّحيح عن النَّبي ﷺ : أنَّ للّه تسعة وتسعين اسمًا ، من أحصاها دخل الجنَّة .(١٠٧)

[ ١٨١ – ٧ ] : وقوله : ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ .

أي : ومن جُملة من خلقنا أُمَّة فاضلة كاملة في نفسها ، مُكمِّلة لغيرها ، يهدون أنفسهم وغيرهم بالحقِّ ، فيعلمون الحق ويعملون به ، ويُعلِّمونه ، ويدعون إليه وإلى العمل به .

﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ بين النَّاس في أحكامهم إذا حكموا في الأموال والدِّماء والحُقوق والمقالات ، وغير ذلك ، وهؤلاء هُم أئمَّة الهُدى ، ومصابيح الدُّجى ، وهُم الَّذين أنعم اللّه عليهم بالإيمان والعمل الصالح ، والتَّواصي بالحق والتَّواصي بالصبر ، وهم الصدِّيقون الَّذين مرتبتهم تلي مرتبة الرِّسالة ، وهُم في أنفسهم مراتب مُتفاوتة كُلٌّ بحسب حاله وعلو منزلته ، فسُبحان من يختص برحمته من يشاء ، واللّه ذو الفضل العظيم .

[ ١٨٢ : ١٨٦ – ٧ ] : ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ .

أي : والَّذين كذَّبوا بآيات اللّه الدَّالَّة على صحَّة ما جاء به مُحمَّد ﷺ ، من الهُدى فردُّوها ولم يقبلوها ، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بأن يدر لهم الأرزاق .

﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ أي : أُمهِلُهُم حتَّى يظنُّوا أنَّهُم لا يؤخذون ولا يُعاقبون ، فيزدادون كُفرًا وطُغيانا ، وشرًّا إلى شرِّهم ، وبذلك تزيد عُقوبتهم ، ويتضاعف عذابهم ، فيضرون أنفسهم من حيث لا يشعرون ، ولهذا قال : ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أي : قوي بليغ .

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم﴾ مُحمَّد ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ أي : أَوَ لَمْ يُعمِلُوا أفكارهم ، وينظروا : هل في صاحبهم الَّذي يعرفونه ولا يخفى عليهم من حاله شيء ، هل هو مجنون ؟ ، فلينظروا في أخلاقه وهَدْيه ، ودَلِّه وصفاته ، وينظروا في ما دعا إليه ، فلا يجدون فيه من الصِّفات إلَّا أكملها ، ولا من الأخلاق إلَّا أتمّها ، ولا من العقل والرَّأي إلَّا ما فاق به العالمين ، ولا يدعو إلَّا لكُلِّ خير ، ولا ينهى إلَّا عن كُلِّ شرٍّ .

أفبهذا يا أولي الألباب من جِنَّة ؟ ، أم هو الإمام العظيم والنَّاصح المُبين ، والماجد الكريم ، والرَّءوف الرَّحيم ؟ .

---

(١٠٧) * مُتَّفقٌ عليه . أخرجه البُخاري في غير موضع من صحيحه ، منها : ( كتاب الشُّروط / باب : ما يجوز من الشَّرط / ح ٢٧٣٦ ) .
ومُسلِم في صحيحه : ( كتاب الذِّكر و الدُّعاء / باب : في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها / ح ٥، ٦ ) .
وأمَّا ذكر الأسماء في آخره فهو ضعيف ، مُدرج من كلام بعض رواته .
لذا ضعَّفه العلامة الألباني – رحمه الله – ، بتمام ذكر الأسماء في آخره كما في « ضعيف الجامع » برقم ١٩٤٥، ١٩٤٦.

ولهذا قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: يدعو الخلق إلى ما يُنجيهم من العذاب، ويحصُل لهم الثّواب.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنَّهم إذا نظروا إليها، وجدوها أدلَّة دالَّة على توحيد ربِّها، وعلى ما له من صفات الكمال.

﴿وَ﴾ كذلك لينظروا إلى جميع ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ فإنَّ جميع أجزاء العالم، يدل أعظم دلالة على الله وقُدرته وحِكمته وسِعَة رحمته، وإحسانه، ونُفوذ مشيئته، وغير ذلك من صفاته العظيمة، الدَّالة على تفرُّده بالخلق والتدبير، الموجبة لأن يكون هو المعبود المحمود، المُسبَّح المُوحَّد المحبوب.

وقوله: ﴿وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: لينظروا في خُصوص حالهم، وينظروا لأنفسهم قبل أن يقترب أجلهم، ويُفجأهم الموت وهم في غفلة مُعْرِضون، فلا يتمكَّنون حينئذ، من استدراك الفارط.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الجليل، فبأي حديث يؤمنون به؟، أبكُتُب الكذب والضَّلال؟ أم بحديث كُل مُفترٍ دجَّال؟، ولكن الضَّال لا حيلة فيه، ولا سبيل إلى هدايته، ولهذا قال تعالى ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: مُتحيِّرين يتردَّدون، لا يخرجون منه ولا يهتدون إلى حق.

[ ٧ – ١٨٨ : ١٨٧ ]: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

يقول تعالى لرسوله مُحمَّد ﷺ: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أي: المُكذِّبون لك، المُتعنِّتون ﴿عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي: متى وقتها الَّذي تجيء به، ومتى تحل بالخلق؟.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ أي: إنَّه تعالى مُختصٌّ بعلمها، ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يُظهرها لوقتها الَّذي قدَّر أن تقوم فيه إلَّا هو.

﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خفي علمها على أهل السَّماوات والأرض، واشتدَّ أمرها أيضا عليهم، فهُم من الساعة مُشفِقون.

﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي: فجأة من حيث لا تشعرون، لم يستعدوا لها، ولم يتهيَّأوا لقيامها.

﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي: هُم حريصون على سؤالك عن السَّاعة، كأنَّك مُستحف عن السؤال عنها، ولم يعلموا أنَّك – لكمال علمك بربِّك، وما ينفع السُّؤال عنه – غير مُبالٍ بالسُّؤالِ عنها، ولا حريص على ذلك، فلم لا يقتدون بك، ويكفُّون عن الاستحفاء عن هذا السُّؤال الخالي من المصلحة المُتعذِّر علمه، فإنَّه لا يعلمها نبيٌّ مُرْسَل، ولا مَلَكٌ مُقرَّب، وهي من الأُمور الَّتي أخفاها الله عن الخلق، لكمال حكمته وسِعة علمه.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك حرصوا على ما لا ينبغي الحرص عليه،

وخُصوصا مثل حال هؤلاء الَّذين يتركون السُّؤال عن الأهم ، ويَدَعون ما يجب عليهم من العلم ، ثُمَّ يذهبون إلى ما لا سبيل لأحد أن يُدْرِكه ، ولا هُم مُطالَبون بعِلْمِه .

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ فإنِّي فقير مُدبَّر ، لا يأتيني خير إلَّا من اللّه ، ولا يدفع عنِّي الشَّر إلَّا هو ، وليس لي من العلم إلَّا ما علَّمني اللّه تعالى .

﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي : لفعلت الأسباب الَّتي أعلم أنَّها تُنْتِج لي المصالح والمنافع ، ولحذَّرت من كُلِّ ما يُفْضِي إلى سُوءٍ ومكروه ، لعلمي بالأشياء قبل كونها ، وعلمي بما تُفْضِي إليه .

ولكنِّي - لعدم علمي - قد ينالني ما ينالني من السُّوء ، وقد يفوتني ما يفوتني من مصالح الدُّنيا ومنافعها ، فهذا أدلُّ دليل على أنِّي لا علم لي بالغيب .

﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أُنذِر العُقُوبات الدِّينيَّة والدُّنيويَّة والأُخرويَّة ، وأُبيِّن الأعمال المُفضية إلى ذلك ، وأُحذِّر منها ، ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بالثَّواب العاجل والآجل ، ببيان الأعمال المُوصِّلة إليه والترغيب فيها ، ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البِشارة والنِّذارة ، وإنَّما ينتفع بذلك ويقبله المُؤمِنون ، وهذه الآيات الكريمات ، مُبيِّنة جهل من يقصد النَّبي ﷺ ويدعوه لحُصول نفع أو دفع ضُر ، فإنَّه ليس بيده شيء من الأمر ، ولا ينفع من لم ينفعه اللّه ، ولا يدفع الضر عمَّن لم يدفعه اللّه عنه ، ولا له من العلم إلَّا ما علَّمه اللّه تعالى ، وإنَّما ينفع من قَبِل ما أُرسِل به من البِشارة والنِّذارة ، وعمل بذلك ، فهذا نفعه ﷺ الَّذي فاق نفع الآباء والأُمَّهات ، والأخلَّاء والإخوان بما حثَّ العباد على كُلِّ خير ، وحذَّرهم عن كُلِّ شر ، وبيَّنه لهم غاية البيان والإيضاح .

[ ١٨٩ : ١٩٣ - ٧ ] : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ .

أي : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ أيُّها الرِّجال والنِّساء ، المُنتشِرون في الأرض على كثرتكم وتفرُّقكم ، ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وهو آدم أبو البشر ﷺ ، ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي : خلق من آدم زوجته حوَّاء لأجل أن يسكُن إليها لأنَّها إذا كانت منه حصل بينهما من المُناسبة والموافقة ما يقتضي سُكون أحدهما إلى الآخر ، فانقاد كل منهما إلى صاحبه بزمام الشَّهوة .

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي : تجلَّلها مُجامِعا لها قدَّر الباري أن يوجد من تلك الشَّهوة وذلك الجماع النَّسل ، وحينئذ ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ ، وذلك في ابتداء الحمل ، لا تحس به الأُنثى ، ولا يُثقلها .

﴿فَلَمَّآ﴾ استمرَّت به و﴿أَثْقَلَت﴾ به حين كبر في بطنها ، فحينئذ صار في قلوبهما الشَّفقة على الولد ، وعلى خروجه حيًّا ، صحيحا ، سالما لا آفة فيه كذلك ، فدعوا ﴿ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا﴾ ولدا ﴿صَٰلِحًا﴾ أي : صالح الخلقة تامًّا ، لا نقص فيه ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ .

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ على وفق ما طلبا ، وتمَّت عليهما النعمة فيه ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي : جعلا للّه شُركاء في ذلك الولد الَّذي انفرد اللّه بإيجاده والنعمة به ، وأقرَّ به أعين والديه ، فَعَبَّدَاه لغير اللّه ، إمَّا أن يُسمِّياه بعبد غير اللّه كـ « عبد الحارث » و « عبد العُزَيْر »(١٠٨) و « عبد الكعبة » ونحو ذلك ، أو يُشرِكا باللّه في العِبادة ، بعدما مَنَّ اللّه عليهما بما مَنَّ من النِّعم الَّتي لا يُحصيها أحد من العباد .

وهذا انتقال من النَّوع إلى الجنس ، فإنَّ أوَّل الكلام في آدم وحواء ، ثُمَّ انتقل إلى الكلام في الجنس ، ولا شكَّ أنَّ هذا موجود في الذُّريَّة كثيرا ، فلذلك قرَّرهم اللّه على بُطلان الشِّرك ، وأنَّهم في ذلك ظالمون أشد الظُّلم ، سواء كان الشِّرك في الأقوال ، أم في الأفعال ، فإنَّ الخالق لهُم من نفس واحدة ، الَّذي خلق منها زوجها وجعل لهم من أنفسهم أزواجا ، ثُم جعل بينهم من المودَّة والرَّحمة ما يُسْكِن بعضهم إلى بعض ، ويألفه ويلتذَّ به ، ثُمَّ هداهم إلى ما به تحصُل الشَّهوة واللذَّة والأولاد والنَّسل .

ثُمَّ أوجد الذُّريَّة في بُطون الأُمَّهات ، وقتا موقوتا ، تتشوَّف إليه نفوسهم ، ويدعون اللّه أن يُخرجه سويًّا صحيحا ، فأتمَّ اللّه عليهم النِّعمة وأنالهم مطلوبهم ، أفلا يستحق أن يعبدوه ، ولا يُشرِكوا به في عبادته أحدا ، ويُخلِصوا له الدِّين ، ولكن الأمر جاء على العكس ، فأشركوا باللّه من لا ﴿يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾ أي : لعابديها ﴿نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ .

فإذا كانت لا تخْلُق شيئا ، ولا مِثقال ذرَّة ، بل هي مخلوقة ، ولا تستطيع أن تدفع المكروه عن من يعبدها ، بل ولا عن أنفسها ، فكيف تُتَّخذ مع اللّه آلهة ؟ إن هذا إلَّا أظلم الظُّلم ، وأسفه السَّفه .

وإن تدعوا ، أيُّها المُشرِكون هذه الأصنام ، الَّتي عبدتم من دون اللّه ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ .

فصار الإنسان أحسن حالة منها ، لأنَّها لا تسمع ، ولا تُبْصِر ، ولا تَهْدِي ولا تُهْدَى ، وكل هذا إذا تصوَّره اللبيب العاقل تصوُّرا مُجرَّدا ، جزم ببُطلان إلهيتها ، وسفاهة من عبدها .

[ ١٩٤ : ١٩٦ - ٧] : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ .

وهذا من نوع التحدِّي للمُشركين العابدين للأوثان ، يقول تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أي : لا فرق بينكم وبينهم ، فكلكم عبيد للّه مملوكون ، فإنْ كنتم كما تزعمون صادقين في أنَّها تستحق من العبادة شيئا ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ فإن استجابوا لكم وحصلوا مطلوبكم ، وإلَّا

---

(١٠٨) * الموجود في المطبوع من الكتاب : « عبد العزيز » حتَّى في طبعة اللويحق المُتقنة ، وهذا لا يقبله سياق الكلام ، ولا يُراد لقول المؤلِّف : ( فَعَبَّدَاه لغير اللّه ، إمَّا أن يُسمِّياه بعبد غير اللّه كـ « عبد الحارث » و « عبد العزيز » و « عبد الكعبة » ) . اهـ والتَّسمية بـ : « عبد العزيز » ليس فيها تعبيد لغير الله ، والغالب أنَّ تصحيفًا وقع ، فتحوَّل معه « عبد العزيز » إلى « عبد العُزير » فتنبَّه .

تبيَّن أنَّكُم كاذبون في هذه الدَّعوى ، مُفترون على اللّه أعظم الفِرية ، وهذا لا يحتاج إلى التبيين فيه ، فإنَّكُم إذا نظرتم إليها وجدتم صورتها دالَّة على أنَّه ليس لديها من النَّفع شيء ، فليس لها أرجُل تمشي بها ، ولا أيدٍ تبطش بها ، ولا أعين تُبْصِر بها ، ولا آذان تسمع بها ، فهي عادمة لجميع الآلات والقوى الموجودة في الإنسان .

فإذا كانت لا تُجيبكم إذا دعوتموها ، وهي عباد أمثالكم ، بل أنتم أكمل منها وأقوى على كثير من الأشياء ، فلأي شيء عبدتموها .

﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي : اجتمعوا أنتم وشركاؤكم على إيقاع السُّوء والمكروه بي ، من غير إمهال ولا إنظار فإنَّكم غير بالغين لشيء من المكروه بي ، ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ﴾ الَّذي يتولَّاني فيجلب لي المنافع ويدفع عنِّي المضار .

﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الَّذي فيه الهُدى والشِّفاء والنُّور ، وهو من توليته وتربيته لعباده الخاصَّة الدِّينيَّة ، ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الَّذين صلحت نيَّاتهم وأعمالهم وأقوالهم ، كما قال تعالى : ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [ سُورة البقرة ٢٥٧ ] ، فالمؤمنون الصالحون - لمَّا تولَّوا ربَّهم بالإيمان والتقوى ، ولم يتولَّوا غيره ممَّن لا ينفع ولا يضُر - تولَّاهم اللّه ولَطَف بهم وأعانهم على ما فيه الخير والمصلحة لهم ، في دينهم ودُنياهم ، ودفع عنهم بإيمانهم كل مكروه ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [ سُورة الحج ٣٨ ] .

[ ١٩٧ : ١٩٨ - ٧ ] : ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ .

وهذا أيضا في بيان عدم استحقاق هذه الأصنام الَّتي يعبدونها من دون اللّه لشيء من العبادة ، لأنَّها ليس لها استطاعة ولا اقتدار في نصر أنفسهم ، ولا في نصر عابديها ، وليس لها قوَّة العقل والاستجابة .

فلو دعوتها إلى الهدى لم تهتد ، وهي صور لا حياة فيها ، فتراهم ينظرون إليك ، وهم لا يبصرون حقيقة ، لأنَّهم صوَّروها على صور الحيوانات من الآدميين أو غيرهم ، وجعلوا لها أبصارا وأعضاء ، فإذا رأيتها قلت : هذه حيَّة ، فإذا تأمَّلتها عرفت أنَّها جمادات لا حراك بها ، ولا حياة ، فبأي رأي اتَّخذها المُشرِكون آلهة مع اللّه ؟ ولأي مصلحة أو نفع عكفوا عندها وتقرَّبُوا لها بأنواع العبادات ؟ .

فإذا عُرِفَ هذا ، عُرِفَ أنَّ المُشركين وآلهتهم الَّتي عبدوها ، لو اجتمعوا ، وأرادوا أن يكيدوا من تولَّاه فاطر الأرض والسماوات ، مُتولِّي أحوال عباده الصالحين ، لم يقدروا على كيده بمِثقال ذرَّة من الشَّرّ ، لكمال عجزهم وعجزها ، وكمال قوَّة اللّه واقتداره ، وقوَّة من احتمى بجلاله وتوكَّل عليه .

وقيل : إنَّ معنى قوله ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أنَّ الضَّمير يعود إلى المُشركين المُكذِّبين لرسول اللّه ﷺ ، فتحسبهم ينظرون إليك يا رسول اللّه نظر اعتبار يتبيَّن به الصَّادق من الكاذب ، ولكنَّهم لا يُبْصِرون حقيقتك وما يتوسَّمه المتوسِّمون فيك من الجمال والكمال والصِّدق .

[ ١٩٩ - ٧ ] : ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ .

هذه الآية جامعة لحُسنِ الخُلق مع النَّاس ، وما ينبغي في مُعاملتهم ، فالَّذي ينبغي أن يُعامل به النَّاس ، أن يأخذ العفو ، أي : ما سمحت به أنفسهم ، وما سَهُل عليهم من الأعمال والأخلاق ، فلا يُكلِّفهم ما لا تسمح به طبائعهم ، بل يشكر من كُلِّ أحد ما قابله به ، من قول وفعل جميل أو ما هو دون ذلك ، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم ، ولا يتكبَّر على الصغير لصِغَره ، ولا ناقص العقل لنقصه ، ولا الفقير لفقره ، بل يُعامِل الجميع باللطف والمُقابلة بما تقتضيه الحال وتنشرح له صدورهم .

﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي : بكُلِّ قول حسن وفعل جميل ، وخُلُقٍ كامل للقريب والبعيد ، فاجعل ما يأتي إلى النَّاس منك ، إمَّا تعليم علم ، أو حث على خير ، من صلة رحم ، أو برِّ والدين ، أو إصلاح بين النَّاس ، أو نصيحة نافعة ، أو رأي مُصيب ، أو مُعاونة على برٍّ وتقوى ، أو زجر عن قبيح ، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينيَّة أو دنيويَّة ، ولـمَّا كان لا بدَّ من أذيَّة الجاهل ، أمر اللّه تعالى أن يُقابَل الجاهل بالإعراض عنه وعدم مُقابلته بجهله ، فمَنْ آذاك بقوله أو فعله لا تُؤذه ، ومن حَرَمَك لا تَحْرِمه ، ومن قطعك فَصِلْهُ ، ومن ظلمك فاعـدل فيه .

وأمَّا ما ينبغي أن يُعامِل به العبد شياطين الإنس والجن ، فقال تعالى :

[ ٢٠٠ : ٢٠٢ - ٧ ] : ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ .

أي : أي وقت ، وفي أي حال ﴿يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ أي : تحس منه بوسوسة ، وتثبيط عن الخير ، أو حثٍّ على الشَّرِّ ، وإيعاز إليه ، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي : التجئ واعتصم باللّه ، واحتم بحماه فإنَّه ﴿سَمِيعٌ﴾ لما تقول ، ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيَّتك وضعفك ، وقوَّة التجائك له ، فسيحميك من فتنته ، ويقيك من وسوسته ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ إلى آخر السورة [ سُورة النَّاس ] .

ولـمَّا كان العبد لا بدَّ أن يغفل وينال منه الشيطان ، الَّذي لا يزال مُرابطا ينتظر غرته وغفلته ، ذكر تعالى علامة المُتَّقين من الغاوين ، وأنَّ المُتَّقي إذا أحس بذنب ، ومسَّه طائف من الشَّيطان ، فأذنب بفعل مُحرَّم أو ترك واجب - تذكَّر من أي باب أُتِيَ ، ومن أي مدخل دخل الشَّيطان عليه ، وتذكَّر ما أوجب اللّه عليه ، وما عليه من لوازم الإيمان ، فأبصر واستغفر اللّه تعالى ، واستدرك ما فرط منه بالتَّوبة النَّصُوح والحسنات الكثيرة ، فردَّ شيطانه خاسئا حسيرا ، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه .

وأمَّا إخوان الشَّياطين وأولياؤهم ، فإنَّهم إذا وقعوا في الذنوب ، لا يزالون يمدُّونهم في الغي ذنبا بعد ذنب ، ولا يقصرون عن ذلك ، فالشياطين لا تقصر عنهم بالإغواء ، لأنَّها طمعت فيهم ، حين رأتهم سَلِسِي القياد لها ، وهم لا يقصرون عن فعل الشَّر .

[٢٠٣ - ٧] : ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

أي لا يزال هؤلاء المُكذِّبون لك في تعنُّت وعناد ، ولو جاءتهم الآيات الدَّالَّة على الهُدى والرَّشاد ، فإذا

جئتهم بشيء من الآيات الدَّالَّة على صدقك لم ينقادوا .

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ من آيات الاقتراح الَّتي يعينونها ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ أي : هلا اخترت الآية ، فصارت الآية الفُلانيَّة ، أو المُعجزة الفُلانيَّة كأنَّك أنت المُنزِّل للآيات ، المُدبِّر لجميع المخلوقات ، ولم يعلموا أنَّه ليس لك من الأمر شيء ، أو أنَّ المعنى : لولا اخترعتها من نفسك .

﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ فأنا عبد مُتَّبِع مُدبَّر ، والله تعالى هو الَّذي يُنزِّل الآيات ويُرسلها على حسب ما اقتضاه حمده ، وطلبته حكمته البالغة ، فإن أردتم آية لا تضمحل على تعاقُب الأوقات ، وحُجَّة لا تبطل في جميع الآنات ، فـ ﴿هَٰذَا﴾ القُرآن العظيم ، والذِّكر الحكيم ﴿بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ يُستبصر به في جميع المطالب الإلهيَّة والمقاصد الإنسانيَّة ، وهو الدَّليل والمدلول فمن تفكَّر فيه وتدبَّره ، عَلِمَ أنَّه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وبه قامت الحُجَّة على كُلِّ من بلغه ، ولكنَّ أكثر النَّاس لا يُؤمِنون ، وإلَّا فمن آمن ، فهو ﴿هُدًى﴾ له من الضَّلال ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ له من الشَّقاء ، فالمُؤمِن مُهتد بالقُرآن ، مُتَّبِع له ، سعيد في دُنياه وأُخراه ، وأمَّا من لم يُؤمن به ، فإنَّه ضال شقي ، في الدُّنيا والآخرة .

[٢٠٤ – ٧] : ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ .

هذا الأمر عام في كُلِّ من سمع كتاب الله يُتلى ، فإنَّه مأمور بالاستماع له والإنصات ، والفرق بين الاستماع والإنصات ، أنَّ الإنصات في الظَّاهر بترك التَّحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه .

وأمَّا الاستماع له ، فهو أن يلقي سمعه ، ويحضر قلبه ويتدبَّر ما يستمع ، فإنَّ مَنْ لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله ، فإنَّه ينال خيرا كثيرا وعلما غزيرا ، وإيمانا مُستمرًّا مُتجدِّدا ، وهُدى مُتزايدا ، وبصيرة في دينه ، ولهذا رتَّب الله حُصول الرَّحمة عليهما ، فدلَّ ذلك على أنَّ من تُلِيَ عليه الكتاب ، فلم يستمع له وينصت ، أنَّه محْروم الحظ من الرَّحمة ، قد فاته خير كثير .

ومِنْ أوكد ما يؤمر به مُستمِع القُرآن ، أن يستمع له وينصت في الصَّلاة الجهريَّة إذا قرأ إمَامه ، فإنَّه مأمور بالإنصات ، حتَّى إنَّ أكثر العلماء يقولون : إن اشتغاله بالإنصات ، أولى من قراءته الفاتحة ، وغيرها .

[٢٠٥ : ٢٠٦ – ٧] : ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾

الذِّكر لله تعالى يكون بالقلب ، ويكون باللسان ، ويكون بهما ، وهو أكمل أنواع الذِّكر وأحواله ، فأمر الله عبده ورسوله مُحمَّدا أصلا وغيره تبعا ، بذكر ربه في نفسه ، أي : مُخْلِصا خاليا .

﴿تَضَرُّعًا﴾ أي : مُتضرِّعا بلسانك ، مُكرِّرا لأنواع الذِّكر ، ﴿وَخِيفَةً﴾ في قلبك بأن تكون خائفا من الله ، وَجِلَ القلب منه ، خوفا أن يكون عملك غير مقبول ، وعلامة الخوف أن يسعى ويجتهد في تكميل العمل وإصلاحه ، والنُّصح به .

﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي : كُنْ متوسِّطا ، لا تجهر بصلاتك ، ولا تُخافِت بها ، وابتغ بين ذلك سبيلا .

﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ أوّل النّهار ﴿وَٱلْآصَالِ﴾ آخره ، وهذان الوقتان لذكر الله فيهما مَزِيَّة وفضيلة على غيرهما .

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ الّذين نسوا اللّه فأنساهم أنفسهم ، فإنَّهُم حُرِموا خير الدُّنيا والآخرة ، وأعرضوا عمَّن كل السّعادة والفوز في ذكره وعُبوديّته ، وأقبلوا على من كل الشّقاوة والخيبة في الاشتغال به ، وهذه من الآداب الّتي ينبغي للعبد أن يُراعيها حق رعايتها ، وهي الإكثار من ذكر اللّه آناء الليل والنّهار ، خُصوصا طَرَفَي النّهار ، مُخْلِصا خاشعا مُتضرّعا ، مُتذلّلا ساكنا ، وتواطئا عليه قلبه ولسانه ، بأدب ووقار ، وإقبال على الدُّعاء والذِّكر ، وإحضار له بقلبه وعدم غفلة ، فإنَّ اللّه لا يستجيب دُعاء من قلب غافل لاه .

ثُمَّ ذكر تعالى أنَّ له عِبادا مُستديمين لعبادته ، مُلازِمين لخدمته وهُم الملائكة ، فلتعلموا أنَّ اللّه لا يُريد أن يتكثّر بعِبادتِكم من قلّة ، ولا ليتعزّز بها من ذِلّة ، وإنّما يُريد نفع أنفسكم ، وأن تربحوا عليه أضعاف أضعاف ما عملتم ، فقال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة المُقرَّبين ، وحملة العرش والكُروبيين ، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ بل يذعنون لها وينقادون لأوامر ربهم ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ الليل والنّهار لا يفترون ، ﴿وَلَهُۥ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَسْجُدُونَ﴾ فليقتد العباد بهؤلاء الملائكة الكِرام ، وليداوموا على عبادة المَلِك العَلّام .

**تمّ تفسير سُورة الأعراف**

وللّه الحمد والشُّكر والثّناء . وصلّى اللّه على مُحمَّد وآله وصحبه وسلم .

## ( ٨ ) تفسير سورة الأنفال

### وهي مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[ ١ : ٤ – ٨] : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ .

الأنفال هي الغنائم الّتي ينفلها اللّه لهذه الأُمّة من أموال الكُفّار ، وكانت هذه الآيات في هذه السُّورة قد نزلت في قصّة بدر أوّل غنيمة كبيرة غنمها المُسلمون من المُشركين ، .فحصل بين بعض المُسلمين فيها نزاع ، فسألوا رسول اللّه ﷺ عنها ، فأنزل اللّه ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ كيف تقسم وعلى من تقسم ؟ .

﴿قُلِ﴾ لهم : الأنفال لله ورسوله يضعانها حيث شاءا ، فلا اعتراض لكُم على حُكم اللّه ورسوله ، بل عليكم إذا حَكَمَ اللّه ورسوله أن ترضوا بحُكمهما ، وتسلّموا الأمر لهُما ، وذلك داخل في قوله ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾

بامتثال أوامره واجتناب نواهيه .

﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي : أصلحوا ما بينكم من التّشاحُن والتّقاطُع والتّدابُر ، بالتّوادُد والتّحاب والتّواصُل ، فبذلك تجتمع كلمتكم ، ويزول ما يحصل - بسبب التّقاطع -من التّخاصُم ، والتّشاجر والتّنازُع .

ويدخل في إصلاح ذات البين تحسين الخُلُق لهم ، والعفو عن المُسيئين منهم فإنّه بذلك يزوْل كثير ممّا يكون في القُلوب من البغضاء والتّدابُر ، والأمر الجامع لذلك كله قوله : ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإنّ الإيمان يدعو إلى طاعة اللّه ورسوله ، كما أنّ من لم يُطِع اللّه ورسوله فليس بمُؤمن .

ومن نقصت طاعته للّه ورسوله ، فذلك لنقص إيمانه ، ولمّا كان الإيمان قسمين : إيمانا كاملا يترتّب عليه المدح والثّناء ، والفوز التّام ، وإيمانا دون ذلك ذكر الإيمان الكامل فقال : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان ، ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي : خافت ورهبت ، فأوجبت لهم خشية اللّه تعالى الانكفاف عن المحارِم ، فإنّ خوف اللّه تعالى أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب .

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ ووجه ذلك أنّهم يلقون له السّمع ويحضرون قلوبهم لتدبُّره فعند ذلك يزيد إيمانهم ، لأنّ التّدبُّر من أعمال القلوب ، ولأنّه لا بدّ أن يُبيِّن لهم معنى كانوا يجهلونه ، أو يتذكّرون ما كانوا نسوه ، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير ، واشتياقا إلى كرامة ربِّهم ، أو وجلا من العُقوبات ، وازدجارا عن المعاصي ، وكل هذا ممّا يزداد به الإيمان .

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي : يعتمدون في قلوبهم على ربِّهم في جلب مصالحهم ودفع مضارهم الدِّينيّة والدُّنيويّة ، ويثقون بأنّ اللّه تعالى سيفعل ذلك ، والتّوكُّل هو الحامل للأعمال كلها ، فلا توجد ولا تكمل إلّا به .

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ من فرائض ونوافل ، بأعمالها الظّاهرة والباطنة ، كحُضور القلب فيها ، الّذي هو روح الصّلاة ولُبُّها ، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ النّفقات الواجبة ، كالزّكوات ، والكفّارات ، والنّفقة على الزّوجات والأقارب ، وما ملكت أيمانهم ، .والمُستحبّة كالصّدقة في جميع طُرُق الخير .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذّين اتّصفوا بتلك الصّفات ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنّهم جمعوا بين الإسلام والإيمان ، بين الأعمال الباطنة والأعمال الظّاهرة ، بين العلم والعمل ، بين أداء حُقوق اللّه وحُقوق عباده . وقدّم تعالى أعمال القُلوب ، لأنّها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها ، وفيها دليل على أنّ الإيمان ، يزيد وينقص ، فيزيد بفعل الطاعة وينقص بضدِّها .

وأنّه ينبغي للعبد أن يتعاهد إيمانه ويُنميه ، وأنّ أولى ما يحصل به ذلك تدبُّر كتاب اللّه تعالى والتّأمُّل لمعانيه .

ثُمّ ذكر ثواب المُؤمنين حقًّا فقال : ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي : عالية بحسب علو أعمالهم ، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهو ما أعدّ اللّه لهم في دار كرامته ، ممّا لا عين رأت ، ولا أُذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ودلَّ هذا على أنَّ من يصل إلى درجتهم في الإيمان – وإنْ دخل الجنّة – فلن ينال ما نالوا من كرامة الله التّامّة .

[ ٥:٨ – ٨] : ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ .

قدَّم تعالى – أمام هذه الغزوة الكُبرى المُباركة – الصّفات الّتي على المؤمنين أن يقوموا بها ، لأنَّ من قام بها استقامت أحواله وصلُحت أعماله ، الّتي من أكبرها الجهاد في سبيله ، فكما أنَّ إيمانهم هو الإيمان الحقيقي ، وجزاءهم هو الحق الّذي وعدهم الله به ، كذلك أخرج الله رسوله ﷺ من بيته إلى لقاء المُشركين في : « بدر » بالحقِّ الّذي يُحبُّه الله تعالى ، وقد قدَّره وقضاه ، وإن كان المؤمنون لم يخطر ببالهم في ذلك الخروج أنّه يكون بينهم وبين عدوهم قتال .

فحين تبيَّن لهم أنَّ ذلك واقع ، جعل فريق من المؤمنين يُجادِلون النّبي ﷺ في ذلك ، ويكرهون لقاء عدوهم ، كأنّما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون .

والحال أنَّ هذا لا ينبغي منهم ، خُصوصا بعد ما تبيَّن لهم أنَّ خروجهم بالحق ، وممَّا أمر الله به ورضيه ، فبهذه الحال ليس للجدال محل فيها لأنَّ الجدال محله وفائدته عند اشتباه الحق والتِباس الأمر ، فأمَّا إذا وضح وبان ، فليس إلَّا الانقياد والإذعان .

هذا وكثير من المؤمنين لم يجر منهم من هذه المُجادَلة شيء ، ولا كرهوا لقاء عدوهم ، وكذلك الّذين عاتبهم الله ، انقادوا للجهاد أشد الانقياد ، وثبّتهُم الله ، وقيَّض لهُم من الأسباب ما تطمئن به قلوبهم كما سيأتي ذكر بعضها .

وكان أصل خروجهم يتعرَّضون لعيرٍ خرجت مع أبي سُفيان بن حرب لقُريش إلى الشّام ، قافلة كبيرة ، فلمّا سمعوا برجوعها من الشّام ، ندب النّبي ﷺ النّاس ، فخرج معه ثلاثمائة ، وبضعة عشر رجُلا معهم سبعون بعيرا ، يعتقبون عليها ، ويحملون عليها متاعهم ، فسمعت بخبرهم قُريش ، فخرجوا لمنع عيرهم ، في عَدَدٍ كثير وعُدَّةٍ وافرة من السّلاح والخيل والرِّجال ، يبلُغ عددهم قريبا من الألف .

فوعد الله المؤمنين إحدى الطّائفتين ، إمّا أن يظفروا بالعير ، أو بالنّفير ، فأحبوا العير لقلَّة ذات يد المُسلمين ، ولأنّها غير ذات شوكة ، ولكنَّ الله تعالى أحبَّ لهُم وأراد أمرا أعلى ممَّا أحبّوا .

أراد أن يظفروا بالنّفير الّذي خرج فيه كُبَرَاء المُشْركين وصَنَاديدهم .

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ فينصر أهله ﴿وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي : يستأصِل أهل الباطل ، ويُرِيَ عباده من نصره للحق أمرا لم يكن يخطُر ببالِهم .

﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ بما يظهر من الشّواهد والبراهين على صحّته وصدقه ، ﴿وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ بما يُقيم من الأدلّة والشّواهِد على بُطلانه ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ فلا يُبالي الله بهم .

[ ٩ : ١٤ - ٨ ] : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾

أي : اذكروا نعمة الله عليكم ، لمَّا قارب التقاؤكم بعدوِّكم ، استغثتم بربِّكم ، وطلبتم منه أن يُعينكم وينصُركم ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ وأغاثكم بعدَّة أُمور .

منها : أنَّ الله أمدَّكم ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ أي : يردف بعضهم بعضا .

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي : إنزال الملائكة ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أي : لتستبشر بذلك نفوسكم ، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ وإلَّا فالنَّصر بيد الله ، ليس بكثرة عَدَدٍ ولا عُدَدٍ .

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُغالبه مُغالِب ، بل هو القهَّار ، الَّذي يخذل من بلغوا من الكثرة وقوَّة العَدَد والآلات ما بلغوا .

﴿حَكِيمٌ﴾ حيث قدَّر الأُمور بأسبابها ، ووضع الأشياء مواضعها .

ومن نصره واستجابته لدُعائكم أن أنزل عليكم نعاسا ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ أي فيذهب ما في قلوبكم من الخوف والوجل ، ويكون ﴿أَمَنَةً﴾ لكُم وعلامة على النَّصر والطُّمأنينة .

ومن ذلك : أنَّه أنزل عليكم من السَّماء مطرا ليُطهِّركم به من الحدث والخبث ، وليُطهِّركم به من وساوس الشَّيطان ورجزه .

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي : يُثبِّتها فإنَّ ثبات القلب ، أصل ثبات البدن ، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ فإنَّ الأرض كانت سهلة دهسة فلمَّا نزل عليها المطر تلبَّدت ، وثبتت به الأقدام .

ومن ذلك أن الله أوحى إلى الملائكة ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ بالعون والنَّصر والتَّأييد ، ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي : ألقوا في قلوبهم ، وألهموهم الجراءة على عدوِّهم ، ورغِّبوهم في الجهاد وفضله ، ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ الَّذي هو أعظم جُند لكم عليهم ، فإنَّ الله إذا ثبَّت المُؤمنين وألقى الرُّعب في قُلوب الكافرين ، لم يقدر الكافرون على الثَّبات لهم ومنحهم الله أكتافهم .

﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أي : على الرِّقاب ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي : مِفْصَل .

وهذا خطاب ، إمَّا للملائكة الَّذين أوحى الله إليهم أن يُثبِّتوا الَّذين آمنوا فيكون في ذلك دليل أنَّهم باشروا القتال يوم بدر ،أو للمؤمنين يُشجعهم الله ، ويُعلمهم كيف يقتلون المُشركين ، وأنَّهم لا يرحمونهم ، وذلك لأنَّهم شاقوا الله ورسوله أي : حاربوهما وبارزوهما بالعداوة ، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ومن عقابه تسليط أوليائه على أعدائه وتقتيلهم .

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ العذاب المذكور ﴿فَذُوقُوهُ﴾ أيها المُشاقون لله ورسوله عذابا مُعجّلا ، ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ .

وفي هذه القصّة من آيات الله العظيمة ما يدل على أنّ ما جاء به مُحمّد ﷺ رسول الله حقًّا .

**منها** : أنّ الله وعدهم وعدا ، فأنجزهموه .

**ومنها** : ما قال الله تعالى : ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ...﴾ الآية [ سُورة آل عمران ١٣ ] .

**ومنها** : إجابة دعوة الله للمؤمنين لمّا استغاثوه بما ذكره من الأسباب .

وفيها : الاعتناء العظيم بحال عباده المؤمنين ، وتقييض الأسباب الّتي بها ثبت إيمانهم ، وثبتت أقدامهم ، وزال عنهم المكروه والوساوس الشيطانية .

**ومنها** : أنّ من لُطف الله بعبده أن يُسهّل عليه طاعته ، ويُيسّرها بأسباب داخليّة وخارجيّة .

[ ٨ - ١٦ : ١٥ ] : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ .

يأمر الله تعالى عباده المُؤمنين بالشّجاعة الإيمانية ، والقوّة في أمره ، والسّعي في جلب الأسباب المُقويّة للقُلوب والأبدان ، ونهاهم عن الفرار إذا التقى الزّحفان ، فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا﴾ أي : في صفّ القِتال ، وتزاحُف الرّجال ، واقتراب بعضهم من بعض ، ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ بل اثْبُتوا لقتالهم ، واصبروا على جلادهم ، فإنّ في ذلك نُصرَة لدين الله ، وقوّة لقُلوب المؤمنين ، وإرهابا للكافرين .

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ﴾ أي : رجع ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ﴾ أي : مقرّه ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ .

وهذا يدل على أنّ الفرار من الزّحف من غير عُذر من أكبر الكبائر ، كما وردت بذلك الأحاديث الصّحيحة(١٠٩) ، وكما نصّ هُنا على وعيده بهذا الوعيد الشّديد .

ومفهوم الآية : أنّ المُتحرّف للقتال ، وهو الّذي ينحرف من جهة إلى أُخرى ، ليكون أمكن له في القتال ، وأنكى لعدوّه ، فإنّه لا بأس بذلك ، لأنّه لم يُول دُبُره فارًّا ، وإنّما ولّى دُبُره ليستعلي على عدوّه ، أو

(١٠٩) * ومنها ما أخرجه البُخاري في مواضع عديدة من صحيحه ، منها : ( كتاب الوصايا / باب : قول الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ / ح ٢٧٦٧) .

وأخرجه مُسلم في صحيحه : ( كتاب الإيمان / باب : بيان الكبائر وأكبرها / ح ١٤٥) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ : الشِّرْكُ بِاللَّهِ ، وَالسِّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ .

يأتيه من محل يُصيب فيه غرته ، أو ليخدعه بذلك ، أو غير ذلك من مقاصد المُحارِبين ، وأنَّ المُتحيِّز إلى فئة تمنعه وتُعينه على قتال الكُفَّار ، فإنَّ ذلك جائز ، فإنْ كانت الفئة في العسكر ، فالأمر في هذا واضح ، وإنْ كانت الفئة في غير محل المعركة كانهزام المُسلمين بين يدي الكافرين والتجائهم إلى بلد من بُلدان المُسلمين أو إلى عسكر آخر من عسكر المُسلِمين ، فقد ورد من آثار الصَّحابة ما يدل على أن هذا جائز ، ولعل هذا يقيد بما إذا ظنَّ المُسلِمون أنَّ الانهزام أحمد عاقبة ، وأبقى عليهم .

أمَّا إذا ظنُّوا غلبتهم للكُفَّار في ثباتهم لقتالهم ، فيبعد – في هذه الحال –أن تكون من الأحوال المُرخَّص فيها ، لأنَّه – على هذا – لا يُتصوَّر الفرار المنهي عنه ، وهذه الآية مُطلقة ، وسيأتي في آخر السُّورة تقييدها بالعَدَد .

[ ١٧ : ١٩ – ٨ ] : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

يقول تعالى – لمَّا انهزم المُشرِكون يوم بدر ، وقتلهم المُسلِمون – ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ بحوْلِكم وقوَّتِكم ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ حيث أعانكم على ذلك بما تقدَّم ذكره .

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ وذلك أنَّ النَّبي ﷺ وقت القتال دخل العريش وجعل يدعو اللّه ، ويُناشده في نُصرته ، ثُمَّ خرج منه ، فأخذ حفنة من تُراب ، فرماها في وجوه المُشرِكين ، فأوصلها اللّه إلى وجوههم ، فما بقي منهم واحد إلَّا وقد أصاب وجهه وفمه وعينيه منها ، فحينئذ انكسر حدُّهم ، وفتر زندهم ، وبان فيهم الفشل والضَّعف ، فانهزموا .

يقول تعالى لنبيِّه : لست بقوَّتك – حين رميت التُّراب – أوصلته إلى أعينهم ، وإنَّما أوصلناه إليهم بقوَّتنا واقتدارنا ، ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ أي : إن اللّه تعالى قادر على انتصار المُؤمنين من الكافرين ، من دون مُباشرة قتال ، ولكن اللّه أراد أن يمتحن المؤمنين ، ويوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدَّرجات ، وأرفع المقامات ، ويُعطيهم أجرا حسنا وثوابا جزيلا .

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع تعالى ما أسرَّ به العبد وما أعلن ، ويعلم ما في قلبه من النيَّات الصَّالحة وضدِّها ، فيُقدِّر على العباد أقدارا موافِقة لعلمه وحِكمته ومصلحة عباده ، ويجزي كُلًّا بحسب نيَّته وعمله .

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ النَّصر من اللّه لكُم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ أي : مُضْعِف كل مكر وكيد يكيدون به الإسلام وأهله ، وجاعل مكرهم مُحيقا بهم .

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا﴾ أيُّها المُشرِكون ، أي : تطلبوا من اللّه أن يوقع بأسه وعذابه على المُعتدين الظَّالِمين .

﴿فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ حين أوقع اللّه بكم من عقابه ، ما كان نكالا لكم وعبرة للمُتَّقين ﴿وَإِن تَنتَهُوا﴾ عن الاستفتاح ﴿فَهُوَ خَيْرٌ﴾ لأنَّه رُبَّما أمهلتم ، ولم يُعجِّل لكم النِّقمة ، ﴿وَإِن تَعُودُوا﴾ إلى الاستفتاح وقتال حزب الله المؤمنين ﴿نَعُدْ﴾ في نصرهم عليكم .

﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ أي : أعوانكم وأنصاركم ، الَّذين تُحاربون وتُقاتِلون ، مُعتمدين عليهم ، شَيْئا وأنَّ الله مع المؤمنين .

ومن كان اللّه معه فهو المنصور وإن كان ضعيفا قليلا عَدَده ، وهذه المَعيَّة الَّتي أخبر اللّه أنَّه يُؤيِّد بها المُؤمنين ، تكون بحسب ما قاموا به من أعمال الإيمان .

فإذا أُديل العدو على المؤمنين في بعض الأوقات ، فليس ذلك إلَّا تفريطا من المؤمنين وعدم قيام بواجب الإيمان ومُقتضاه ، وإلَّا فلو قاموا بما أمر اللّه به من كُلِّ وجه ، لما انهزم لهم راية انهزاما مُستقرًّا ولا أُديل عليهم عدوهم أبدا .

[ ٢٠ : ٢١ – ٨] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ .

لمَّا أخبر تعالى أنَّه مع المُؤمنين ، أمرهم أن يقوموا بمُقتضى الإيمان الَّذي يُدرِكون به مَعيَّته ، فقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بامتثال أمرهما واجتناب نهيهما .

﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ أي : عن هذا الأمر الَّذي هو طاعة اللّه ، وطاعة رسوله . ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ ما يُتلى عليكم من كتاب اللّه ، وأوامره ، ووصاياه ، ونصائحه ، فتولِّيكم في هذه الحال من أقبح الأحوال .

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي : لا تكتفوا بمُجرَّد الدَّعوى الخالية الَّتي لا حقيقة لها ، فإنَّها حالة لا يرضاها اللّه ولا رسوله ، فليس الإيمان بالتَّمنِّي والتَّحلِّي ، ولكنَّه ما وقر في القُلوب وصدَّقته الأعمال .

[ ٢٢ : ٢٣ – ٨] : ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ من لم تفد فيهم الآيات والنُّذُر ، وهُم ﴿ٱلصُّمُّ﴾ عن استماع الحق ﴿ٱلْبُكْمُ﴾ عن النُّطق به ، ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ما ينفعهم ، ويُؤثِرونه على ما يضرهم ، فهؤلاء شر عند اللّه من جميع الدَّواب ، لأنَّ اللّه أعطاهم أسماعا وأبصارا وأفئدة ، ليستعملوها في طاعة اللّه ، فاستعملوها في معاصيه وعُدِموا بذلك الخير الكثير ، فإنَّهُم كانوا بصدد أن يكونوا من خيار البريَّة .

فأبوا هذا الطَّريق ، واختاروا لأنفسهم أن يكونوا من شرِّ البريَّة ، والسَّمع الَّذي نفاه اللّه عنهم ، سمع المعنى المُؤثِّر في القلب ، وأمَّا سمع الحُجَّة ، فقد قامت حُجَّة اللّه تعالى عليهم بما سمعوه من آياته ، وإنَّما لم يُسْمِعهم السَّماع النَّافع ، لأنَّه لم يعلم فيهم خيرا يصلحون به لسماع آياته .

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ على الفرض والتقدير ﴿لَتَوَلَّواْ﴾ عن الطَّاعة ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ لا التفات لهم إلى الحق بوجه من الوجوه ، وهذا دليل على أنَّ اللّه تعالى لا يمنع الإيمان والخير ، إلَّا لمن لا خير فيه ، الَّذي لا يزكو لديه ولا يُثمر عنده وله الحمد تعالى والحِكمة في هذا .

[ ٢٤ : ٢٥ – ٨] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٤ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ

خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم وهو الاستجابة للّه وللرّسول ، أي : الانقياد لما أمرا به والمُبادرة إلى ذلك والدّعوة إليه ، والاجتناب لما نهيا عنه ، والانكفاف عنه والنّهي عنه .

وقوله : ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وصف مُلازم لكُلّ ما دعا اللّه ورسوله إليه ، وبيان لفائدته وحِكمته ، فإنّ حياة القلب والرّوح بعُبوديّة اللّه تعالى ولُزوم طاعته وطاعة رسوله على الدّوام .

ثُمّ حذّر عن عدم الاستجابة للّه وللرّسول فقال : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فإيّاكم أن تردُّوا أمر اللّه أوّل ما يأتيكم ، فيُحال بينكم وبينه إذا أردتُّموه بعد ذلك ، وتختلف قلوبكم ، فإنّ اللّه يحول بين المرء وقلبه ، يُقلّب القُلوب حيث شاء ويُصرّفها أنّى شاء .

فليُكثر العبد من قول : يا مُقلّب القُلوب ثبّت قلبي على دينك ، يا مُصرّف القُلوب ، اصرف قلبي إلى طاعتك .

﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي : تُجمعون ليوم لا ريب فيه ، فيُجازي المُحْسِن بإحسانه ، والمُسيء بعصيانه .

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ بل تُصيب فاعل الظُّلم وغيره ، وذلك إذا ظهر الظُّلم فلم يُغيّر ، فإنّ عُقوبته تعمّ الفاعل وغيره ، وتقوى هذه الفتنة بالنّهي عن المنكر ، وقمع أهل الشّر والفساد ، وأن لا يُمكّنوا من المعاصي والظُّلم مهما أمكن .

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن تعرض لمساخطه ، وجانب رضاه .

[٢٦ - ٨] : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

يقول تعالى مُمتنًّا على عِباده في نصرهم بعد الذّلة ، وتكثيرهم بعد القِلّة ، وإغنائهم بعد العَيْلة .

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي : مقهورون تحت حُكم غيركم ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ أي : يأخذونكم .

﴿فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ فجعل لكم بلدا تأوون إليه ، وانتصر من أعدائكم على أيديكم ، وغنمتم من أموالهم ما كُنتم به أغنياء .

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ اللّه على مِنّته العظيمة وإحسانه التّام ، بأن تعبُدوه ولا تُشرِكوا به شيئا .

[٢٧ : ٢٨ - ٨] : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

يأمر تعالى عباده المُؤمنين أن يُؤدّوا ما ائتمنهم اللّه عليه من أوامره ونواهيه ، فإنّ الأمانة قد عرضها اللّه على السّماوات والأرض والجبال ، فأبينَ أن يحمِلْنَها وأشفقنَ منها وحملها الإنسان إنّه كان ظلوما جهولا فمن أدّى الأمانة استحقّ من اللّه الثّواب الجزيل ، ومن لم يؤدِّها بل خانها استحق العقاب الوبيل ، وصار خائنا للّه وللرّسول ولأمانته ، مُنقِصا لنفسه بكونه اتّصفت نفسه بأخسّ الصّفات ، وأقبح الشّيات ، وهي الخيانة

مُفوّتا لها أكمل الصّفات وأتمّها ، وهي الأمانة .

ولمّا كان العبد مُمتحنا بأمواله وأولاده ، فرُبّما حمله محبّة ذلك على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته ، أخبر اللّه تعالى أنّ الأموال والأولاد فتنة يبتلي اللّه بهما عباده ، وأنّها عارية ستؤدّى لمن أعطاها ، وتُردُّ لمن استودَعَها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ .

فإنْ كان لكم عقل ورأْيٌ ، فآثروا فضله العظيم على لذّةٍ صغيرة فانية مُضمحلّة ، فالعاقل يوازن بين الأشياء ، ويُؤثِر أولاها بالإيثار ، وأحقَّها بالتّقديم .

[٢٩ – ٨] : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ .

امتثال العبد لتقوى ربه عنوان السّعادة ، وعلامة الفلاح ، وقد رتّب اللّه على التقوى من خير الدُّنيا والآخرة شيئا كثيرا ، فذكر هُنا أنّ من اتّقى اللّه حصل له أربعة أشياء ، كل واحد منها خير من الدُّنيا وما فيها :

الأوّل : الفُرقان : وهو العِلم والهُدى الّذي يُفرّق به صاحبه بين الهُدى والضّلال ، والحق والباطل ، والحلال والحرام ، وأهل السّعادة من أهل الشّقاوة .

الثّاني والثّالِث : تكفير السّيّئات ، ومغفرة الذنوب ،وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق وعند الاجتماع يُفسّر تكفير السّيّئات بالذنوب الصّغائر ، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر .

الرّابع : الأجر العظيم والثّواب الجزيل لمن اتّقاه وآثر رضاه على هوى نفسه ، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ .

[٣٠ – ٨] : ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ .

أي : ﴿وَ﴾ أذكُر أيُّها الرّسول ، ما منّ اللّه به عليك ، ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ حين تشاور المُشركون في دار النّدوة فيما يصنعون بالنّبي ﷺ ، إمّا أن يُثبّتوه عندهم بالحبس ويُوثّقوه ، وإمّا أن يقتلوه فيستريحوا – بزعمهم – من شرّه ، وإمّا أن يُخرجوه ويُجلوه من ديارهم .

فكلٌّ أبْدَى من هذه الآراء رأيا رآه ، فاتّفق رأيهم على رأي : رآه شريرهم أبو جهل لعنه اللّه ، وهو أن يأخذوا من كُلِّ قبيلة من قبائل قُريش فتى ويُعطوه سيفا صارما ، ويقتله الجميع قتلة رجل واحد ، ليتفرّق دمه في القبائل . فيرضى بنو هاشم ثَمّ بديّته ، فلا يقدرون على مُقاومة سائر قُريش ، فترصّدوا للنّبي ﷺ في الليل ليوقعوا به إذا قام من فراشه .

فجاءه الوحي من السّماء ، وخرج عليهم ، فذرّ على رءوسهم التُّراب وخرج ، وأعمى اللّه أبصارهم عنه ، حتّى إذا استبطؤوه جاءهم آت وقال : خيّبكم اللّه ، قد خرج مُحمّد وذَرّ على رءوسكم التُّراب .

فنفض كُلٌّ منهم التُّراب عن رأسه ، ومنع اللّه رسوله منهم ، وأذن له في الهجرة إلى المدينة ، فهاجر إليها ، وأيّده اللّه بأصحابه المُهاجرين والأنصار ،ولم يزل أمره يعلو حتّى دخل مكة عُنْوة ، وقهر أهلها ، فأذعنوا له وصاروا تحت حُكمه ، بعد أن خرج مُستخفيا منهم ، خائفا على نفسه ، فسُبحان

اللطيف بعبده الَّذي لا يُغالبه مُغالب .

[ ٣١ : ٣٤ - ٨ ] : وقوله : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

يقول تعالى في بيان عِناد المُكذِّبين للرَّسول ﷺ : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ الدَّالَّة على صدق ما جاء به الرَّسول ، ﴿قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهذا من عنادهم وظُلمهم ، وإلَّا فقد تحدَّاهم اللّٰه أن يأتوا بسُورة من مثله ، ويدعوا من استطاعوا من دون اللّٰه ، فلم يقدروا على ذلك ، وتبيَّن عجزهم .

فهذا القول الصَّادر من هذا القائل مُجرَّد دعوى ، كذَّبه الواقع ، وقد عُلِمَ أنَّه ﷺ أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتُب ، ولا رحل ليدرس من أخبار الأوَّلين ، فأتى بهذا الكتاب الجليل الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا﴾ الَّذي يدعو إليه مُحمَّد ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قالوه على وجه الجزم منهم بباطلهم ، والجهل بما ينبغي من الخطاب .

فلو أنَّهم إذ أقاموا على باطلهم من الشُّبَه والتمويهات ما أوجب لهم أن يكونوا على بصيرة ويقين منه ، قالوا لمن ناظرهم وادَّعى أنَّ الحق معه : إنْ كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ، لكان أولى لهم وأستر لظُلمِهم .

فمنذ قالوا : ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية ، عُلِمَ بمُجرَّد قولهم أنَّهم السُّفهاء الأغبياء ، الجهلة الظَّالِمون ، فلو عاجلهم اللّٰه بالعقاب لما أبقى منهم باقية ، ولكنَّه تعالى دفع عنهم العذاب بسبب وجود الرَّسول بين أظهرهم ، فقال : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ﴾ فوجوده ﷺ بين أظهرهم أمنة لهم من العذاب .

وكانوا مع قولهم هذه المقالة الَّتي يظهرونها على رءوس الأشهاد ، يدرون بقُبحها ، فكانوا يخافون من وقوعها فيهم ، فيستغفرون اللّٰه تعالى فلهذا قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ .

فهذا مانع يمنع من وقوع العذاب بهم ، بعد ما انعقدت أسبابه ثُمَّ قال : ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي : أي شيء يمنعهم من عذاب اللّٰه ، وقد فعلوا ما يوجب ذلك ، وهو صد النَّاس عن المسجد الحرام ، خُصوصا صدُّهم النَّبِي ﷺ وأصحابه ، الَّذين هُم أولى به منهم ، ولهذا قال : ﴿وَمَا كَانُوٓا۟﴾ أي : المُشرِكون ﴿أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ﴾ يَحتمل أنَّ الضَّمير يعود إلى اللّٰه ، أي : أولياء اللّٰه ، ويَحتمل أن يعود إلى المسجد الحرام ، أي : وما كانوا أولى به من غيرهم ، ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ وهُم الَّذين آمنوا باللّٰه ورسوله ، وأفردوا اللّٰه

بالتّوحيد والعِبادة ، وأخلصوا له الدِّين ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك ادَّعَوْا لأنفسهم أمرا غيرهم أولى به .

[٣٥ – ٨] : ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ .

يعني أنَّ الله تعالى إنَّما جعل بيته الحرام ليُقام فيه دينه ، وتُخْلِص له فيه العبادة ، فالمُؤمنون هُم الَّذين قاموا بهذا الأمر ، وأمَّا هؤلاء المُشركون الَّذين يصدُّون عنه ، فما كان صلاتهم فيه الَّتي هي أكبر أنواع العبادات ﴿إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ أي : صفيرا وتصفيقا ، فعل الجهلة الأغبياء ، الَّذين ليس في قلوبهم تعظيم لربِّهم ، ولا معرفة بحُقوقه ، ولا احترام لأفضل البقاع وأشرفها ، فإذا كانت هذه صلاتهم فيه ، فكيف ببقية العبادات ؟ .

فبأي : شيء كانوا أولى بهذا البيت من المُؤمنين الَّذين هُم في صلاتهم خاشعون ، والَّذين هُم عن اللغو مُعرِضون ، إلى آخر ما وصفهم الله به من الصِّفات الحميدة ، والأفعال السَّديدة .

لا جرم أورثهم الله بيته الحرام ، ومكَّنهم منه ،وقال لهم بعد ما مكَّن لهم فيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [سُورة التَّوبة ٢٨] ، وقال هُنا ﴿فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

[ ٣٦ : ٣٧ – ٨] : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ .

يقول تعالى مُبيِّنا لعداوة المُشركين وكيدهم ومكرهم ، ومُبارزتهم لله ولرسوله ، وسعيهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته ، وأنَّ وبال مكرهم سيعود عليهم ، ولا يحيق المكر السَّيئ إلَّا بأهله ، فقال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي : ليُبطلوا الحق وينصروا الباطل ، ويُبطل توحيد الرَّحمن ، ويقوم دين عبادة الأوثان .

﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ أي : فسيصدرون هذه النَّفقة ، وتخف عليهم لتمسُّكهم بالباطل ، وشدَّة بغضهم للحق ، ولكنَّها ستكون عليهم حسرة ، أي : ندامة وخزيا وذُلًّا ويغلبون فتذهب أموالهم وما أملوا ، ويُعذَّبون في الآخرة أشد العذاب . ولهذا قال : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ أي : يُجمعون إليها ، ليذوقوا عذابها ، وذلك لأنَّها دار الخُبث والخُبثاء ، والله تعالى يُريد أن يَميزَ الخبيث من الطَّيِّب ، ويجعل كل واحدة على حدة ، وفي دار تخصه ، فيجعل الخبيث بعضه على بعض ، من الأعمال والأموال والأشخاص ، ﴿فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الَّذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخُسران المُبين .

[ ٣٨ : ٤٠ – ٨] : ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَإِنَّ

﴿ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣٩ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ .

هذا من لُطفه تعالى بعباده لا يمنعه كُفر العباد ولا استمرارهم في العِناد ، من أن يدعوهم إلى طريق الرَّشاد والهُدى ، وينهاهم عمَّا يهلكهم من أسباب الغي والرَّدى ، فقال : ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟﴾ عن كُفرهم وذلك بالإسلام للّه وحده لا شريك له .

﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ منهم من الجرائم ﴿وَإِن يَعُودُوا۟﴾ إلى كُفرهم وعنادهم ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بإهلاك الأُمم المُكذِّبة ، فلينتظروا ما حلَّ بالمُعانِدين ، فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ، فهذا خطابه للمُكذِّبين ، وأمَّا خطابه للمُؤمنين عندما أمرهم بمُعاملة الكافرين ، فقال : ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي : شرك وصد عن سبيل اللّه ، ويذعنوا لأحكام الإسلام ، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ فهذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدِّين ، أن يدفع شرهم عن الدِّين ، وأن يذب عن دين اللّه الَّذي خَلَقَ الخَلْقَ له ، حتَّى يكون هو العالي على سائر الأديان .

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن ما هُم عليه من الظُّلم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا تخفى عليه منهم خافية . ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن الطَّاعة وأوضعوا في الإضاعة ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ الَّذي يتولَّى عباده المُؤمنين ، ويوصل إليهم مصالحهم ، ويُيسِّر لهم منافعهم الدِّينيَّة والدُّنيويَّة . ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ الَّذي ينصرهم ، فيدفع عنهم كيد الفُجَّار ، وتكالُب الأشرار .

ومن كان اللّه مولاه وناصره فلا خوف عليه ، ومن كان اللّه عليه فلا عِزَّ له ولا قائمة له .

[ ٤١ : ٤٢ – ٨ ] : ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤١ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ أي : أخذتم من مال الكُفَّار قهرا بحق ، قليلا كان أو كثيرا ، ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ أي : وباقيه لكم أيُّها الغانمون ، لأنَّه أضاف الغنيمة إليهم ، وأخرج منها خُمُسها . فدلَّ على أن الباقي لهم ، يُقسَّم على ما قسَّمه رسول اللّه ﷺ : للرَّاجل سهم ، وللفارس سهمان لفرسه ، وسهم له .

وأمَّا هذا الخُمس ، فيُقسَّم خمسة أسهم ، سهم للّه ولرسوله ، يُصرف في مصالح المُسلمين العامَّة ، من غير تعيين لمصلحة ، لأنَّ اللّه جعله له ولرسوله ، واللّه ورسوله غنيَّان عنه ، فعُلِمَ أنَّه لعباد اللّه . فإذا لم يُعيِّن اللّه له مصرفا ، دلَّ على أنَّ مصرفه للمصالح العامَّة .

والخُمُس الثَّاني : لذي القُربى ، وهُم قرابة النَّبي ﷺ من بني هاشم وبني المطلب . وأضافه اللّه إلى القرابة دليلا على أنَّ العلَّة فيه مُجرَّد القرابة ، فيستوي فيه غنيهم وفقيرهم ، ذكرهم وإناثهم .

والخُمس الثَّالث لليتامى ، وهُم الَّذين فُقِدت آباؤهم وهم صغار ، جعل اللّه لهم خُمس الخُمس رحمة

بهم ، حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم ، وقد فُقِدَ من يقوم بمصالحهم .

والخُمس الرَّابع للمساكين ، أي : المُحتاجين الفُقراء من صغار وكبار ، ذُكور وإناث .

والخُمس الخامس لابن السَّبيل ، وهو الغريب المُنقطِع به في غير بلده ، وبعض المُفسِّرين يقول : إنَّ خمس الغنيمة لا يخرج عن هذه الأصناف ولا يلزم أن يكونوا فيه على السَّواء بل ذلك تبعٌ للمصلحة وهذا هو الأولى ، وجعل اللّه أداء الخُمس على وجهه شرطاً للإيمان فقال : ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ وهو يوم « بدر » الَّذي فَرَقَ اللّه به بين الحق والباطل ، وأظهر الحق وأبطل الباطل .

﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمع المُسلمين ، وجمع الكافرين ،أي : إن كان إيمانكم باللّه ، وبالحق الَّذي أنزله اللّه على رسوله يوم الفُرقان ، الَّذي حصل فيه من الآيات والبراهين ، ما دلَّ على أنَّ ما جاء به هو الحق ، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يُغالبه أحد إلَّا غلبه .

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي : بعُدوة الوادي القريبة من المدينة ، وهُم بعُدوته أي : جانبه البعيدة من المدينة ، فقد جمعكم واد واحد .

﴿وَٱلرَّكْبُ﴾ الَّذي خرجتم لطلبه ، وأراد اللّه غيره ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ ممَّا يلي ساحل البحر .

﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أنتم وإيَّاهُم على هذا الوصف وبهذه الحال ﴿لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ﴾ أي : لابُدَّ من تقدُّم أو تأخُّر أو اختيار منزل ، أو غير ذلك ، ممَّا يعرض لكم أو لهم ، يصدفكم عن ميعادكم .

﴿وَلَٰكِن﴾ اللّه جمعكم على هذه الحال ﴿لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي : مُقدَّرا في الأزل ، لابُدَّ من وقوعه .

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ أي : ليكون حُجَّة وبيِّنة للمُعاند ، فيختار الكُفر على بصيرة وجزم ببُطلانه ، فلا يبقى له عُذر عند اللّه .

﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ أي : يزداد المُؤمن بصيرة ويقينا ، بما أرى اللّه الطَّائفتين من أدلَّة الحق وبراهينه ، ما هو تذكرة لأُولي الألباب .

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لجميع الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات ، عليم بالظَّواهر والضَّمائر والسَّرائر ، والغيب والشَّهادة .

[ ٨- ٤٣ : ٤٤ ] : ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾

وكان اللّه قد أرى رسوله المُشركين في الرُّؤيا عددا قليلا ، فبشَّر بذلك أصحابه ، فاطمأنت قلوبهم وتثبَّتت أفئدتهم .

ولو أراكهم الله إيَّاهم كَثِيرًا فأخبرت بذلك أصحابك ﴿لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ فمنكُم من يرى الإقدام على قتالهم ، ومنكُم من لا يرى ذلك فوقع من الاختلاف والتَّنازُع ما يُوجب الفشل .

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ فلطف بكم .

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي : بما فيها من ثبات وجزع ، وصدق وكذب ، فعلم اللّه من قلوبكم ما صار سببا للُطفه وإحسانه بكم وصدق رؤيا رسوله ، فأرى اللّه المؤمنين عدوهم قليلا في أعينهم ، ويُقلِّلكم – يا معشر المؤمنين – في أعينهم ، فكُلٌّ من الطَّائفتين ترى الأُخرى قليلة ، لتقدم كل منهما على الأُخرى .

﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ من نصر المؤمنين وخُذلان الكافرين وقتل قادتهم ورؤساء الضَّلال منهم ، ولم يبق منهم أحد له اسم يُذكر ، فيتيسَّر بعد ذلك انقيادهم إذا دُعوا إلى الإسلام ، فصار أيضا لُطفا بالباقين ، الَّذين مَنَّ اللّه عليهم بالإسلام .

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي : جميع أُمور الخلائق ترجع إلى اللّه ، فيَميز الخبيث من الطَّيِّب ، ويحكُم في الخلائق بحُكمه العادل ، الَّذي لا جور فيه ولا ظُلم .

[ ٤٥ : ٤٩ – ٨ ] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

يقول تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي : طائفة من الكُفَّار تُقاتلكم ، ﴿فَٱثْبُتُوا۟﴾ لقتالها ، واستعملوا الصَّبر وحبس النَّفس على هذه الطَّاعة الكبيرة ، الَّتي عاقبتها العز والنَّصر .

واستعينوا على ذلك بالإكثار من ذكر اللّه ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي : تُدْرِكُون ما تطلبون من الانتصار على أعدائكم ، فالصَّبر والثَّبات والإكثار من ذكر اللّه من أكبر الأسباب للنَّصر .

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في استعمال ما أمرا به ، والمشي خلف ذلك في جميع الأحوال ، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟﴾ تنازُعا يوجب تشتُّت القُلوب وتفرقها ، ﴿فَتَفْشَلُوا۟﴾ أي : تجبنوا ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي : تنحل عزائمكم ، وتُفرَّق قوَّتكم ، ويرفع ما وعدتم به من النَّصر على طاعة اللّه ورسوله .

﴿وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ نفوسكم على طاعة اللّه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالعون والنَّصر والتَّأييد ، واخشعوا لرَبِّكم واخضعوا له .

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي : هذا مقصدهم الَّذي خرجوا إليه ، وهذا الَّذي أبرزهم من ديارهم لقصد الأشر والبطر في الأرض ، وليراهم النَّاس ويفخروا لديهم .

والمقصود الأعظم أنَّهم خرجوا ليصُدُّوا عن سبيل اللّه من أراد سُلوكه ، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فلذلك أخبركم بمقاصدهم ، وحذَّركم أن تشبَّهوا بهم ، فإنَّه سيُعاقبهم على ذلك أشد العُقوبة .

فليكن قصدكم في خروجكم وجه اللّه تعالى وإعلاء دين اللّه ، والصَّد عن الطُّرق المُوصِّلة إلى سخط

اللّه وعقابه ، وجذب النّاس إلى سبيل اللّه القويم المُوّصل لجنّات النّعيم .

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ حسَّنها في قلوبهم وخدعهم .

﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فإنّكم في عَدَدٍ وعُدَدٍ وهيئة لا يُقاومكم فيها مُحمَّد ومن معه ، ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ من أن يأتيكم أحد ممَّن تخشون غائلته ، لأنَّ إبليس قد تبدَّى لقُريش في صُورة سُراقة بن مالك بن جُعْشُم المُدْلِجي ، وكانوا يخافون من بني مُدلج لعداوة كانت بينهم ، فقال لهم الشّيطان : أنا جارٌ لكُم ، فاطمأنّت نفوسهم وأتوا على حَرْدٍ قادرين .

﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ المُسْلِمون والكافرون ، فرأى الشّيطان جبريل عليه السلام يزع الملائكة خاف خوفا شديدا و ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي : ولّى مُدْبِرا ، ﴿وَقَالَ﴾ لمن خدعهم وغرَّهم : ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أي : أرى الملائكة الّذين لا يدان لأحد بقتالهم .

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ أي : أخاف أن يُعاجلني بالعُقوبة في الدُّنيا ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ .

ومن المُحتَمل أن يكون الشّيطان ، قد سوَّل لهُم ، ووسوس في صُدورهم أنَّه لا غالب لهم اليوم من النّاس ، وأنَّه جارٌ لهم ، فلمّا أوردهم مواردهم ، نكص عنهم ، وتبرّأ منهم ، كما قال تعالى : ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [ سُورة الحشر ١٦ - ١٧] .

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي : شك وشبهة ، من ضُعفاء الإيمان ، للمُؤمنين حين أقدموا - مع قِلَّتهم - على قتال المُشركين مع كثرتهم .

﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ أي : أوردهم الدِّين الّذي هُم عليه هذه الموارد الّتي لا يدان لهم بها ، ولا استطاعة لهم بها ، يقولونه احتقارا لهم واستخفافا لعُقولهم ، وهم - واللّه - الأخِفَّاءُ عُقولا ، الضُّعفاء أحلاما .

وإنَّ الإيمان يُوجب لصاحبه الإقدام على الأُمور الهائلة الّتي لا يُقدم عليها الجيوش العِظام ، فإنَّ المُؤمن المُتوكِّل على اللّه ، الّذي يعلم أنّه ما من حول ولا قوّة ولا استطاعة لأحد إلّا باللّه تعالى ، وأنَّ الخلق لو اجتمعوا كلهم على نفع شخص بمِثقال ذَرَّة لم ينفعوه ، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوه لم يضرُّوه إلّا بشيء قد كتبه اللّه عليه ، وعلم أنّه على الحق ، وأنَّ اللّه تعالى حكيم رحيم في كُلِّ ما قدَّره وقضاه ، فإنّه لا يُبالي بما أقدم عليه من قوّة وكثرة ، وكان واثقا بربِّه ، مُطمئن القلب لا فَزِعا ولا جبانا ، ولهذا قال ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُغالِب قوَّته قوّة . ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قضاه وأجراه .

[ ٥٠ : ٥٢ - ٨] : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

يقول تعالى : ولو ترى الّذين كفروا بآيات اللّه حين توفَّاهُم الملائكة المُوكّلون بقبض أرواحهم وقد اشتد بهم القلق وعظُم كربهم ، و ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ يقولون لهم : أخرجوا أنفسكم ، ونفوسهم مُتمنعة مُستعصية على الخروج ، لعلمها ما أمامها من العذاب الأليم .

ولهذا قال : ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي : العذاب الشَّديد المُحرق ، ذلك العذاب حصل لكم ، غير ظُلم ولا جور من ربِّكم ، وإنَّما هو بما قدَّمت أيديكم من المعاصي الَّتي أثرت لكُم ما أثرت ، وهذه سُنَّة الله في الأوَّلين والآخرين ، فإنَّ دأب هؤلاء المُكذِّبين أي : سُنَّتهم وما أجرى الله عليهم من الهلاك بذنوبهم .

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأُمم المُكذِّبة ، ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ بالعقاب﴿ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا يُعجزه أحد يُريد أخذه ﴿مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾

[ ٥٣ : ٥٤ – ٨] : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٥٣ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ .

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الَّذي أوقعه الله بالأُمم المُكذِّبين وأزال عنهم ما هُم فيه من النِّعم والنَّعيم ، بسبب ذُنوبهم وتغييرهم ما بأنفسهم ، فإنَّ الله لم يك مُغيِّرًا نعمةً أنعمها على قوم من نِعَم الدِّين والدُّنيا ، بل يُبقيها ويزيدهم منها ، إن ازدادوا له شكرا ، ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الطَّاعة إلى المعصية فيكفروا نعمة الله ويُبدِّلوها كُفرا ، فيسلبهم إيَّاها ويُغيرها عليهم كما غيَّروا ما بأنفُسهم .

ولله الحكمة في ذلك والعدل والإحسان إلى عباده ، حيث لم يُعاقبهم إلَّا بظُلمهم ، وحيث جذب قلوب أوليائه إليه ، بما يذيق العباد من النَّكال إذا خالفوا أمره .

﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع جميع ما نَطَق به النَّاطِقون ، سواء من أسرَّ القول ومن جهر به ، ويعلم ما تنطوي عليه الضَّمائر ، وتخفيه السَّرائر ، فيُجري على عباده من الأقدار ما اقتضاه علمه وجرت به مشيئته .

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي : فرعون وقومه ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ حين جاءتهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ كُلٌّ بحسب جُرمه ، ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ﴾ من المُهلكين المُعذَّبين ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ لأنفسهم ، ساعين في هلاكها ، لم يظلمهم الله ، ولا أخذهم بغير جرم اقترفوه ، فليحذر المُخاطبون أن يُشابهوهم في الظُّلم ، فيحل الله بهم من عقابه ما أحلَّ بأولئك الفاسقين .

[ ٥٥ : ٥٧ – ٨] : ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ .

هؤلاء الَّذين جمعوا هذه الخِصال الثَّلاث : الكُفر ، وعدم الإيمان ، والخيانة ، بحيث لا يَثْبُتون على عهد عاهدوه ولا قول قالوه ، هُم شرُّ الدَّواب عند الله فهُم شرٌّ من الحمير والكلاب وغيرها ، لأنَّ الخير معدوم منهم ، والشَّر مُتوقَّع فيهم ، فإذهاب هؤلاء ومَحْقِهم هو المُتعيَّن ، لئلا يسري داؤهم لغيرهم ، ولهذا قال : ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أي : تجدنهم في حال المُحاربة ، بحيث لا يكون لهم عهد وميثاق .

﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي : نَكِّل بهم غيرهم ، وأوقع بهم من العُقوبة ما يصيرون به عِبْرة لمن بعدهم ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي من خلفهم ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ صنيعهم ، لئلا يُصيبهم ما أصابهم ، وهذه من فوائد العُقوبات

والحُدود المُرتَّبة على المعاصي ، أنَّها سبب لازدجار من لم يعمل المعاصي ، بل وزجرًا لمن عملها أن لا يُعاودها .

ودلَّ تقييد هذه العُقوبة في الحرب أنَّ الكافر - ولو كان كثير الخيانة سريع الغدر - أنَّه إذا أُعْطِيَ عهدا لا يجوز خيانته وعُقوبته .

[٥٨ - ٨] : ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ .

أي : وإذا كان بينك وبين قوم عهد وميثاق على ترك القتال فخِفت منهم خيانة ، بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدُل على خيانتهم من غير تصريح منهم بالخيانة ، ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ عهدهم ، أي : ارمه عليهم ، وأخبرهم أنَّه لا عهد بينك وبينهم ، ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي : حتَّى يستوي علمك وعلمهم بذلك ، ولا يحل لك أن تغدُرهم ، أو تسعى في شيء ممَّا منعه موجب العهد ، حتَّى تُخبرهم بذلك ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ بل يبغضهم أشد البغض ، فلا بد من أمر بيِّن يُبرِّئكم من الخيانة .

ودلَّت الآية على أنَّه إذا وجدت الخيانة المُحقَّقة منهم لم يحتج أن ينبذ إليهم عهدهم ، لأنَّه لم يخف منهم ، بل علم ذلك ، ولعدم الفائدة ولقوله : ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ وهُنا قد كان معلوما عند الجميع غدرهم .

ودلَّ مفهومها أيضا أنَّه إذا لم يُخَفْ منهم خيانة ، بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك ، أنَّه لا يجوز نبذ العهد إليهم ، بل يجب الوفاء إلى أن تتم مُدَّته .

[٥٩ - ٨] : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ .

أي : لا يحسب الكافرون بربِّهم المُكذِّبون بآياته ، أنَّهم سبقوا اللّه وفاتوه ، فإنَّهم لا يُعجزونه ، واللّه لهم بالمِرْصاد .

وله تعالى الحكمة البالغة في إمهالهم وعدم مُعاجلتهم بالعُقوبة ، الَّتي من جُملتها ابتلاء عباده المُؤمنين وامتحانهم ، وتزوّدهم من طاعته ومراضيه ، ما يصلون به المنازل العالية ، واتِّصافهم بأخلاق وصفات لم يكونوا بغيره بالغيها ، فلهذا قال لعباده المُؤمنين :

[٦٠ - ٦٨] ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

أي ﴿وَأَعِدُّوا۟﴾ لأعدائكم الكُفَّار السَّاعين في هلاككم وإبطال دينكم ، ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أي : كل ما تقدرون عليه من القُوَّة العقليَّة والبدنيَّة وأنواع الأسلحة ونحو ذلك ممَّا يُعين على قتالهم ، فدخل في ذلك أنواع الصِّناعات الَّتي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرَّشَّاشات ، والبنادق ، والطيَّارات الجويَّة ، والمراكب البريَّة والبحريَّة ، والحُصون والقِلاع والخنادق ، وآلات الدِّفاع ، والرَّأي : والسِّياسة الَّتي بها يتقدَّم المُسلِمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم ، وتَعَلُّم الرَّمْي ، والشَّجاعة والتَّدبير .

ولهذا قال النَّبي ﷺ : ألا إن القوة الرَّمْيُ[١١٠] ، ومن ذلك : الاستعداد بالمراكب المُحتاج إليها عند

---

(١١٠) * أخرجه مُسلم في صحيحه : ( كتاب الإمارة / باب : فضل الرَّمي والحث عليه / ح ١٦٧ ) .
من حديث عقبة بن عامر .

القتال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهذه العلَّة موجودة فيها في ذلك الزّمان، وهي إرهاب الأعداء، والحُكم يدور مع علّته.

فإذا كان شيء موجود أكثر إرهابا منها، كالسَّيَّارات البريَّة والهوائيَّة، المُعدَّة للقتال الَّتي تكون النّكاية فيها أشد، كانت مأمورا بالاستعداد بها، والسَّعي لتحصيلها، حتَّى إنَّها إذا لم توجد إلَّا بتعلُّم الصِّناعة، وجب ذلك، لأنَّ ما لا يتم الواجب إلَّا به، فهو واجب.

وقوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ممَّن تعلمون أنَّهم أعداؤكم ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ ممَّن سيُقاتلونكم بعد هذا الوقت الَّذي يُخاطبهم الله به ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم، ومن أعظم ما يُعين على قتالهم بذلك النّفقات الماليّة في جهاد الكُفَّار.

ولهذا قال تعالى مُرغّبا في ذلك: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قليلا كان أو كثيرا ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أجره يوم القيامة مُضاعفا أضعافا كثيرة، حتَّى إنَّ النَّفقة في سبيل الله، تُضاعف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: لا تُنقصون من أجرها وثوابها شيئا.

[ ٦١: ٦٤ – ٨]: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

يقول تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟﴾ أي: الكُفَّار المُحاربون، أي: مالوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾ أي: الصُّلح وترك القتال ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: أجبهم إلى ما طلبوا مُتوكّلا على ربّك، فإنَّ في ذلك فوائد كثيرة، منها: أنَّ طلب العافية مطلوب كُلَّ وقت، فإذا كانوا هم المُبتدئين في ذلك، كان أولى لإجابتهم.

ومنها: أنَّ في ذلك إجماما لقواكم، واستعدادا منكم لقتالهم في وقت آخر، إن احتيج لذلك.

ومنها: أنَّكم إذا أصلحتم وأمن بعضكم بعضا، وتمكّن كُلٌّ من معرفة ما عليه الآخر، فإنَّ الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه، فكُلٌّ من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف فلا بدَّ أن يؤثره على غيره من الأديان، لحُسنه في أوامره ونواهيه، وحُسنه في مُعاملته للخلق والعدل فيهم، وأنَّه لا جور فيه ولا ظُلم بوجه، فحينئذ يكثُر الرَّاغبون فيه والمُتَّبعون له، فصار هذا السّلم عونا للمُسلمين على الكافرين، ولا يخاف من السّلم إلَّا خصلة واحدة، وهي أن يكون الكُفَّار قصدهم بذلك خدع المُسلمين، وانتهاز الفرصة فيهم، فأخبرهم الله أنَّه حسبهم وكافيهم خداعهم، وأنَّ ذلك يعود عليهم ضرره، فقال: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: كافيك ما يُؤذيك، وهو القائم بمصالحك ومُهمَّاتك، فقد سبق لك من كفايته لك ونصره ما يطمئن به قلبك.

فلـ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أعانك بمعونة سماويَّة، وهو النَّصر منه الَّذي لا يُقاومه شيء، ومعونة بالمُؤمنين بأن قيَّضهم لنصرك.

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ فاجتمعوا وائتلفوا، وازدادت قوَّتهم بسبب اجتماعهم، ولم يكن هذا بسعي أحد، ولا بقوَّة غير قوَّة الله، فلو أنفقت ما في الأرض جميعا من ذهب وفضة وغيرهما لتأليفهم بعد تلك

النُّفرة والفُرقة الشَّديدة ﴿مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لأنَّه لا يقدر على تقليب القُلوب إلَّا اللّه تعالى .

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ومن عزَّته أنْ ألَّف بين قُلوبهم ، وجمعها بعد الفُرقة كما قال تعالى : ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [ سُورة آل عمران ١٠٣ ] .

ثُمَّ قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ أي : كافيك ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي : وكافي أتباعك من المُؤمنين ، وهذا وعد من اللّه لعباده المُؤمنين المُتَّبعين لرسوله ، بالكفاية والنُّصرة على الأعداء ، فإذا أتوا بالسَّبب الَّذي هو الإيمان والاتِّباع ، فلابدَّ أن يكفيهم ما أهمهم من أُمور الدِّين والدُّنيا ، وإنَّما تتخلَّف الكفاية بتخلُّف شرطها .

[ ٦٥ : ٦٦ - ٨] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ .

يقول تعالى لنبيِّه ﷺ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ أي : حثهم وأنهضهم إليه بكل ما يقوِّي عزائمهم ويُنشِّط هممهم ، من التَّرغيب في الجهاد ومُقارعة الأعداء ، والتَّرهيب من ضدِّ ذلك ، وذكر فضائل الشَّجاعة والصَّبر ، وما يترتَّب على ذلك من خير في الدُّنيا والآخرة ، وذكر مضار الجُبن ، وأنَّه من الأخلاق الرَّذيلة المُنقِصة للدِّين والمَروءة ، وأنَّ الشَّجاعة بالمُؤمنين أولى من غيرهم ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ [ سُورة النِّساء ١٠٤ ] .

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ﴾ أيُّها المُؤمنون ﴿عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يكون الواحد بنسبة عشرة من الكُفَّار ، وذلك بأنَّ الكُفَّار ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي : لا علم عندهم بما أعدَّ اللّه للمُجاهدين في سبيله ، فهم يُقاتِلون لأجل العُلو في الأرض والفساد فيها ، وأنتُم تفقهون المقصود من القتال ، أنَّه لإعلاء كلمة اللّه وإظهار دينه ، والذَّب عن كتاب اللّه ، وحُصول الفوز الأكبر عند اللّه ، وهذه كلها دواع للشَّجاعة والصَّبر والإقدام على القتال .

ثُمَّ إن هذا الحُكم خفَّفه اللّه على العباد فقال : ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ﴾ فلذلك اقتضت رحمته وحكمته التخفيف ، ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بعونه وتأييده .

وهذه الآيات صورتها صورة الإخبار عن المُؤمنين ، بأنَّهم إذا بلغوا هذا المقدار المُعيَّن يغلبون ذلك المقدار المُعيَّن في مُقابلته من الكُفَّار ، وأنَّ اللّه يمتن عليهم بما جعل فيهم من الشَّجاعة الإيمانيَّة .

ولكن معناها وحقيقتها الأمر وأنَّ اللّه أمر المُؤمنين - في أوَّل الأمر - أنَّ الواحد لا يجوز له أن يفر من العشرة ، والعشرة من المائة ، والمائة من الألف ؛ ثُمَّ إنَّ اللّه خفَّف ذلك ، فصار لا يجوز فرار المُسلمين من مثليهم من الكفار ، فإن زادوا على مثليهم جاز لهم الفرار ، ولكن يرد على هذا أمران ، أحدهما : أنَّها بصُورة

الخبر ، والأصل في الخبر أن يكون على بابه ، وأن المقصود بذلك الامتنان والإخبار بالواقع .

والثَّاني : تقييد ذلك العدد أن يكونوا صابرين بأن يكونوا مُتدرِّبين على الصَّبر .

ومفهوم هذا أنَّهُم إذا لم يكونوا صابرين ، فإنَّه يجوز لهم الفرار ، ولو أقل من مثليهم إذا غلب على ظنِّهم الضَّرر كما تقتضيه الحكمة الإلهيَّة .

ويُجاب عن الأوَّل بأنَّ قوله : ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ إلى آخرها ، دليل على أنَّ هذا أمر لازم وأمر مُحتَّم ، ثُمَّ إنَّ اللّه خفَّفه إلى ذلك العدد ، فهذا ظاهر في أنَّه أمر ، وإن كان في صيغة الخبر .

وقد يُقال : إنَّ في إتيانه بلفظ الخبر ، نُكتة بديعة لا توجد فيه إذا كان بلفظ الأمر ، وهي تقوية قُلوب المُؤمنين ، والبِشارة بأنَّهم سيغلبون الكافرين .

ويُجاب عن الثَّاني : أنَّ المقصود بتقييد ذلك بالصَّابرين ، أنَّه حثٌّ على الصَّبر ، وأنَّه ينبغي منكم أن تفعلوا الأسباب المُوجبة لذلك فإذا فعلوها صارت الأسباب الإيمانيَّة والأسباب الماديَّة مُبشِّرة بحُصُول ما أخبر اللّه به من النَّصر لهذا العدد القليل .

[ ٦٧ : ٦٩ – ٨] : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

هذه مُعاتبة من اللّه لرسوله وللمُؤمنين يوم « بدر » إذ أسروا المُشركين وأبقوهم لأجل الفداء ، وكان رأي أمير المُؤمنين عُمر بن الخطَّاب في هذه الحال ، قتلهم واستئصالهم .

فقال تعالى : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي : ما ينبغي ولا يليق به إذا قاتل الكُفَّار الَّذين يُريدون أن يُطفِئوا نور اللّه ويسعوا لإخماد دينه ، وأن لا يبقى على وجه الأرض من يعبُد اللّه ، أن يتسرَّع إلى أسرهم وإبقائهم لأجل الفداء الَّذي يحصُل منهم ، وهو عرض قليل بالنِّسبة إلى المصلحة المُقتضية لإبادتهم وإبطال شرهم ، فما دام لهم شر وصَوْلة ، فالأوفق أن لا يؤسروا .

فإذا أثخنوا ، وبطل شرهم ، واضمحلَّ أمرهم ، فحينئذ لا بأس بأخذ الأسرى منهم وإبقائهم .

يقول تعالى : ﴿تُرِيدُونَ﴾ بأخذكم الفداء وإبقائهم ﴿عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي : لا لمصلحة تعود إلى دينكم ، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ﴾ بإعزاز دينه ، ونصر أوليائه ، وجعل كلمتهم عالية فوق غيرهم ، فيأمركم بما يوصِّل إلى ذلك .

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي : كامل العزَّة ، ولو شاء أن ينتصر من الكُفَّار من دون قتال لفعل ، لكنَّه حكيم ، يبتلي بعضكم ببعض .

﴿لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ به القضاء والقدر ، أنَّه قد أحلَّ لكُم الغنائم ، وأنَّ اللّه رفع عنكم – أيُّها الأُمَّة – العذاب ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وفي الحديث : لو نزل عذاب يوم بدر ما نجا منه إلا عمر .[111]

---

(١١١) * أورده الواقدي في « المغازي » ، ولم يُسنده .

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ وهذا من لُطفه تعالى بهذه الأُمَّة ، أن أحلَّ لها الغنائم ولم يُحلَّها لأُمَّة قبلها .

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في جميع أُموركم ولازموها ، شُكرا لنِعم اللّه عليكم ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يغفر لمن تاب إليه جميع الذنوب ، ويغفر لمن لم يُشرك به شيئا جميع المعاصي ، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم ، حيث أباح لكُم الغنائم وجعلها حلالا طيِّبا .

[ ٧٠ : ٧١ – ٨] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

وهذه نزلت في أُسارى يوم « بدر » ، وكان في جُملتهم العبَّاس عم رسول اللّه ﷺ ، فلمَّا طلب منه الفداء ، ادَّعى أنَّه مُسلِم قبل ذلك ، فلم يسقطوا عنه الفداء ، فأنزل اللّه تعالى جبرا لخاطره ومن كان على مثل حاله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ أي : من المال ، بأن يُيسِّر لكُم من فضله ، خيرا وأكثر ممَّا أخذ منكم ، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم ، ويُدخلكم الجنَّة وقد أنجز اللّه وعده للعبَّاس وغيره ، فحصل له – بعد ذلك – من المال شيء كثير ، حتَّى إنَّه مرَّة لمَّا قَدم على النَّبي ﷺ مال كثير ، أتاه العبَّاس فأمره أن يأخذ منه بثوبه ما يطيق حمله ، فأخذ منه ما كاد أن يعجز عن حمله .

﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ﴾ في السَّعي لحربك ومُنابذتك ، ﴿فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ﴾ فليحذروا خيانتك ، فإنَّه تعالى قادر عليهم وهم تحت قبضته ، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي : عليم بكلِّ شيء ، حكيم يضع الأشياء مواضعها ، ومن علمه وحكمته أن شرع لكُم هذه الأحكام الجليلة الجميلة ، وأن تكفَّل بكفايتكم شأن الأسرى وشرهم إنْ أرادوا خيانة .

[٧٢ – ٨] : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

هذا عقد موالاة ومحبَّة ، عقدها اللّه بين المُهاجرين الَّذين آمنوا وهاجروا في سبيل اللّه ، وتركوا أوطانهم للّه لأجل الجهاد في سبيل اللّه ، وبين الأنصار الَّذين آووا رسول اللّه ﷺ وأصحابه وأعانوهم في ديارهم وأموالهم وأنفسهم ، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض ، لكمال إيمانهمَ وتمام اتِّصال بعضهم ببعض .

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ﴾ فإنَّهُم قطعوا ولايتكم بانفصالهم عنكم في وقت شدَّة الحاجة إلى الرِّجال ، فلمَّا لم يُهاجروا لم يكن لهم من ولاية المؤمنين شيء لكنهم ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي : لأجل قتال من قاتلهم لأجل دينهم ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ والقتال معهم ، وأمَّا من قاتلوهم لغير ذلك من المقاصد فليس عليكم نصرهم .

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ﴾ أي : عهد بترك القتال ، فإنهم إذا أراد المُؤمنون

المُتميِّزون الَّذين لم يُهاجِروا قتالهم ، فلا تُعينوهم عليهم ، لأجل ما بينكم وبينهم من الميثاق .

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعلم ما أنتم عليه من الأحوال ، فيُشرِّع لكم من الأحكام ما يليق بكم .

[٧٣ - ٨] : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ .

لمَّا عقد الولاية بين المُؤمنين ، أخبر أنَّ الكُفَّار حيث جمعهم الكُفْر فبعضهم أولياء لبعض فلا يواليهم إلَّا كافر مثلهم .

وقوله : ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي : مُوالاة المُؤمنين ومُعاداة الكافرين ، بأن واليتموهم كلهم أو عاديتموهم كلهم ، أو واليتم الكافرين وعاديتم المُؤمنين ، ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ فإنَّه يحصُل بذلك من الشَّرِّ ما لا ينحصر من اختلاط الحق بالباطل ، والمُؤمن بالكافر ، وعُدِمَ كثير من العبادات الكِبار ، كالجهاد والهجرة ، وغير ذلك من مقاصد الشَّرع والدِّين الَّتي تُفَوَّت إذا لم يتَّخذ المُؤمنون وحدهم أولياء بعضهم لبعض .

[ ٧٤ : ٧٥ - ٨] : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ .

الآيات السَّابقات في ذكر عقد المُوالاة بين المُؤمنين من المُهاجرين والأنصار .

وهذه الآيات في بيان مدحهم وثوابهم ، فقال : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي : المُؤمنون من المُهاجرين والأنصار ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنَّهم صدقوا إيمانهم بما قاموا به من الهجرة والنُّصرة والمُوالاة بعضهم لبعض ، وجهادهم لأعدائهم من الكُفَّار والمُنافقين .

﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ من الله تُمحى بها سيِّئاتهم ، وتضمحل بها زلَّاتهم ، ﴿وَ﴾ لهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي : خير كثير من الرَّب الكريم في جنَّات النَّعيم .

ورُبَّما حصل لهم من الثَّواب المُعَجَّل ما تقر به أعينهم ، وتطمئن به قُلوبهم ، وكذلك من جاء بعد هؤلاء المُهاجرين والأنصار ، ممَّن اتَّبعهم بإحسان فآمن وهاجر وجاهد في سبيل الله ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم . فهذه المُوالاة الإيمانيَّة - وقد كانت في أوَّل الإسلام - لها وقع كبير وشأن عظيم ، حتَّى إن النَّبِي ﷺ آخى بين المُهاجرين والأنصار أُخوَّة خاصة ، غير الأُخوَّة الإيمانيَّة العامَّة ، وحتَّى كانوا يتوارثون بها ، فأنزل الله : ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فلا يرثه إلَّا أقاربه من العصبات ، وأصحاب الفروض ، فإن لم يكونوا ، فأقرب قُراباته من ذوي الأرحام ، كما دلَّ عليه عُموم هذه الآية الكريمة ، وقوله : ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي : في حُكمه وشرعه .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ ومنه ما يعلمه من أحوالكم الَّتي يجري من شرائعه الدِّينيَّة عليكم ما يُناسبها .

**تم تفسير سورة الأنفال ولله الحمد**

## (٩) تفسير سورة براءة ، ويقال : سورة « التوبة »

### وهي مدنية

[ ١ : ٢ – ٩] : ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ .

أي : هذه براءة من اللّه ومن رسوله إلى جميع المُشركين المُعاهِدين ، أنَّ لهم أربعة أشهر يسيحون في الأرض على اختيارهم ، آمنين من المُؤمنين ، وبعد الأربعة الأشهر فلا عهد لهم ، ولا ميثاق .

وهذا لمن كان له عهد مُطلق غير مُقدَّر ، أو مُقدَّر بأربعة أشهر فأقل ، أمَّا من كان له عهد مُقدَّر بزيادة على أربعة أشهر ، فإنَّ الله يتعيَّن أن يُتمم له عهده إذا لم يخف منه خيانة ، ولم يبدأ بنقض العهد .

ثُمَّ أنذر المُعاهدين في مُدَّة عهدهم ، أنَّهم وإن كانوا آمنين ، فإنَّهم لن يُعجزوا اللّه ولن يُفوتوه ، وأنَّه من استمر منهم على شركه فإنَّه لا بُدَّ أن يخزيه ، فكان هذا ممَّا يجلبهم إلى الدُّخول في الإسلام ، إلَّا من عاند وأصرَّ ولم يُبال بوعيد اللّه له .

[٣ – ٩] : ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

هذا ما وعد اللّه به المُؤمنين ، من نَصْرِ دينه وإعلاء كلمته ، وخُذْلان أعدائهم من المُشركين الَّذين أخرجوا الرَّسول ومن معه من مكَّة ، من بيت اللّه الحرام ، وأجلوهم ، ممَّا لهم التَّسلُّط عليه من أرض الحجاز .

نَصَرَ اللّه رسوله والمُؤمنين حتَّى افتتح مكَّة ، وأذلَّ المُشركين ، وصار للمُؤمنين الحُكم والغلبة على تلك الدِّيار ، فأمر النَّبي مُؤذِّنه أن يُؤذِّن يوم الحج الأكبر ، وهو يوم النَّحر ، وقت اجتماع النَّاس مُسلمهم وكافرهم ، من جميع جزيرة العرب ، أن يُؤذِّن بأنَّ اللّه بريء ورسوله من المُشركين ، فليس لهم عنده عهد وميثاق ، فأينما وجدوا قُتِلوا ، وقيل لهم : لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا ، وكان ذلك سنة تسع من الهجرة .

وحجَّ بالنَّاس أبو بكر الصِّديق رضي اللّه عنه ، وأذن ببراءة –يوم النحر– ابن عم رسول اللّه ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ثُمَّ رغَّب تعالى المُشركين بالتَّوبة ، ورهَّبهم من الاستمرار على الشِّرك فقال : ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ أي : فائتيه ، بل أنتُم في قبضته ، قادر أن يُسلِّط عليكم عباده المُؤمنين .

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي : مُؤلم مُفْظِع في الدُّنيا بالقتل والأسر ، والجلاء ، وفي الآخرة ، بالنَّار ، وبئس القرار .

[٤ – ٩] : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ .

أي هذه البراءة التَّامَّة المُطلقة من جميع المُشركين . ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ واستمروا

على عهدهم ، ولم يجر منهم ما يوجب النَّقض ، فلا نقصوكم شيئا ، ولا عاونوا عليكم أحدا ، فهؤلاء أتمُّوا لهم عهدهم إلى مُدَّتهم ، قلَّتْ ، أو كثُرت ، لأنَّ الإسلام لا يأمر بالخيانة وإنَّما يأمر بالوفاء .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الَّذين أدُّوا ما أُمِروا به ، واتَّقوا الشِّرك والخيانة ، وغير ذلك من المعاصي .

[٥ – ٩] : ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

يقول تعالى ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ أي : الَّتي حُرِّم فيها قتال المُشركين المُعاهدين ، وهي أشهر التسيير الأربعة ، وتمام المُدَّة لمن له مُدَّة أكثر منها ، فقد برئت منهُم الذِّمَّة .

﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ في أي مكان وزمان ، ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أسرى ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ أي : ضيِّقوا عليهم ، فلا تدعوهم يتوسَّعون في بلاد الله وأرضه ، الَّتي جعلها الله معبدا لعباده .

فهؤلاء ليسوا أهلا لسُكناها ، ولا يستحقُّون منها شبرا ، لأنَّ الأرض أرض الله ، وهُم أعداؤه المُنابذون له ولرُسُلِهِ ، المُحارِبون الَّذين يُريدون أن يُخلو الأرض من دينه ، ويأبى الله إلَّا أن يُتمَّ نوره ولو كره الكافرون .

﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي : كل ثَنِيَّة وموضع يمُرُّون عليه ، ورابطوا في جهادهم وابذلوا غاية مجهودكم في ذلك ، ولا تزالوا على هذا الأمر حتَّى يتوبوا من شِرْكِهم .

ولهذا قال : ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ من شركهم ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي : أدُّوها بحُقوقِها ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لمُستحقِّيها ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ أي : اتركوهم ، وليكونوا مثلكم ، لهم ما لكُم ، وعليهم ما عليكم .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر الشِّرك فما دُونه ، للتَّائبين ، ويرحمهم بتوفيقهم للتَّوبة ، ثُمَّ قبولها منهم .

وفي هذه الآية ، دليل على أنَّ من امتنع من أداء الصَّلاة أو الزَّكاة ، فإنَّه يُقاتَل حتَّى يُؤديهما ، كما استدل بذلك أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه .

[٦ – ٩] : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ .

لمَّا كان ما تقدَّم من قوله ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [سُورة التَّوبة ٥] ، أمرا عاما في جميع الأحوال ، وفي كُلِّ الأشخاص منهم ، ذكر تعالى أنَّ المصلحة إذا اقتضت تقريب بعضهم جاز ، بل وجب ذلك فقال : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ أي : طلب منك أن تجيره ، وتمنعه من الضَّرر ، لأجل أن يسمع كلام الله ، وينظر حالة الإسلام ، ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ ثُمَّ إن أسلم ، فذاك ، وإلَّا فأبلغه مأمنه ، أي : المَحِل الَّذي يأمن فيه ، والسَّبب في ذلك أنَّ الكُفَّار قوم لا يعلمون ، فرُبَّما كان استمرارهم على كُفرهم لجهل منهم ، إذا زال اختاروا عليه الإسلام ، فلذلك أمر الله رسوله ، وأُمَّته أُسوته في الأحكام ، أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام الله .

وفي هذا حُجَّة صريحة لمذهب أهل السُّنَّة والجماعة ، القائلين بأنَّ القُرآن كلام الله غير مخلوق ، لأنَّه تعالى هو المُتكلِّم به ، وأضافه إلى نفسه إضافة الصِّفة إلى موصوفها ، وبُطلان مذهب المُعتزِلة ومن أخذ

بقولهم : أنَّ القرآن مخلوق ، وكم من الأدلَّة الدَّالَّة على بُطلان هذا القول ، ليس هذا محل ذكرها .

[٧ - ٩] : ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ .

هذا بيان للحكمة الموجبة لأن يتبرَّأ اللّه ورسوله من المُشركين ، فقال : ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾ هل قاموا بواجب الإيمان ، أم تركوا رسول اللّه والمُؤمنين من أذيَّتهم ؟ أمَا حاربوا الحق ونصروا الباطل ؟ ، أمَا سعوا في الأرض فسادا ؟ ، فيحق عليهم أن يتبرَّأ اللّه منهم ، وأن لا يكون لهم عهد عنده ولا عند رسوله .

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ﴾ من المُشركين ﴿عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فإنَّ لهم في العهد وخُصوصا في هذا المكان الفاضل حرمة ، أوجب أن يراعوا فيها .

﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ولهذا قال :

[٨ : ١١ - ٩] : ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۝٨ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ۝١٠ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ .

أي : ﴿كَيْفَ﴾ يكون للمُشركين عند اللّه عهد وميثاق ﴿وَ﴾ الحال أنَّهم ﴿وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ بالقُدرة والسُّلطة ، لا يرحموكم ، و ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي : لا ذمَّة ولا قَرابة ، ولا يخافون اللّه فيكم ، بل يسُومونكم سُوء العذاب ، فهذه حالكم معهم لو ظَهَروا .

ولا يغُرنَّكم منهم ما يُعاملونكم به وقت الخوف منكم ، فإنهم ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ الميل والمحبَّة لكُم ، بل هُم الأعداء حقًّا ، المُبغضون لكُم صِدقا ، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ لا ديانة لهم ولا مروءة .

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي : اختاروا الحظَّ العاجل الخسيس في الدُّنيا على الإيمان باللّه ورسوله ، والانقياد لآيات اللّه ، ﴿فَصَدُّوا﴾ بأنفسهم ، وصدُّوا غيرهم ﴿عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي : لأجل عداوتهم للإيمان ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي : لأجل عداوتهم للإيمان وأهله .

فالوصف الَّذي جعلهم يُعادونكم لأجله ويبغضونكم ، هو الإيمان ، فذُبُّوا عن دينكم ، وانصروه واتَّخِذوا من عاداه لكُم عدوًّا ومن نصره لكم وليًّا ، واجعلوا الحُكم يدور معه وجودا وعدما ، لا تجعلوا الولاية والعداوة ، طبيعيَّة تميلون بهما حيثما مال الهوى ، وتتبعون فيهما النَّفس الأمَّارة بالسُّوء ، ولهذا : ﴿فَإِن تَابُوا﴾ عن شِركهم ، ورجعوا إلى الإيمان ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ وتناسَوا تلك العداوة إذ كانوا مُشركين لتكونوا عباد اللّه المُخْلَصِين ، وبهذا يكون العبد عبدا حقيقة .

لمَّا بين من أحكامه العظيمة ما بيَّن ، ووضَّح منها ما وضَّح ، أحكاما وحِكَمًا ، وحُكْمًا ، وحِكْمَة قال :

﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ﴾ أي: نوضِّحها ونُميِّزها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فإليهم سياق الكلام، وبهم تُعرف الآيات والأحكام، وبهم عُرِفَ دين الإسلام وشرائع الدِّين.

اللهم اجعلنا من القوم الَّذين يعلمون، ويعملون بما يعلمون، برحمتك وجُودِكَ وكرمك وإحسانك يا رب العالمين.

[١٢ - ١٥: ٩]: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

يقول تعالى بعدما ذكر أنَّ المُعاهِدين من المُشركين إن استقاموا على عهدهم فاستقيموا لهم على الوفاء: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أي: نقضوها وحلُّوها، فقاتَلوكم أو أعانوا على قتالكم، أو نقصوكم، ﴿وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ أي: عابوه، وسخروا منه.

ويدخل في هذا جميع أنواع الطَّعن المُوجَّهة إلى الدِّين، أو إلى القُرآن، ﴿فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ أي: القادة فيه، الرُّؤساء الطَّاعنين في دين الرَّحمن، النَّاصرين لدين الشَّيطان، وخصَّهم بالذِّكر لِعِظم جنايتهم، ولأنَّ غيرهم تبعٌ لهم، وليدل على أنَّ من طعن في الدِّين وتصدَّى للرَّدِ عليه، فإنَّه من أئمَّة الكُفر، ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ﴾ أي: لا عُهود ولا مواثيق يُلازِمون على الوفاء بها، بل لا يزالون خائنين، ناكثين للعهد، لا يُوثق منهم.

﴿لَعَلَّهُمْ﴾ في قتالكم إيَّاهم ﴿يَنتَهُونَ﴾ عن الطَّعن في دينكم، ورُبَّما دخلوا فيه، ثُمَّ حثَّ على قتالهم، وهيَّج المُؤمنين بذكر الأوصاف، الَّتي صدرت من هؤلاء الأعداء، والَّتي هُم موصوفون بها، المُقتضية لقتالهم فقال: ﴿أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ الَّذي يجب احترامه وتوقيره وتعظيمه؟، وهُم هَمُّوا أن يُجلوه ويُخرجوه من وطنه وسَعَوا في ذلك ما أمكنهم، ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ حيث نقضوا العهد وأعانوا عليكم، وذلك حيث عاونت قريش -وهم مُعاهدون- بني بكر حُلفاءهم على خُزاعة حُلفاء رسول اللّه ﷺ، وقاتلوا معهم كما هو مذكور مبسوط في السِّيرة.

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ في ترك قتالهم ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإنَّه أمركم بقتالهم، وأكَّد ذلك عليكم غاية التَّأكيد، فإن كُنتُم مُؤمنين فامتثلوا لأمر اللّه، ولا تخشوهم فتترُكوا أمر اللّه، ثُمَّ أمر بقتالهم وذكر ما يترتَّب على قتالهم من الفوائد.

وكُلُّ هذا حثٌّ وإنهاضٌ للمُؤمنين على قتالهم، فقال: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ بالقتل ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ إذا نصركم اللّه عليهم، وهُم الأعداء الَّذين يطلب خزيهم ويحرص عليه، ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ هذا وعد من اللّه وبشارة قد أنجزها.

﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ فإنَّ في قُلوبهم من الحنق والغيظ عليهم

ما يكون قتالهم وقتلهم شفاء لِمَا في قُلوب المُؤمنين من الغمّ والهمّ ، إذ يرون هؤلاء الأعداء مُحاربين لله ولرسوله ، ساعين في إطفاء نُور اللّه ، وزوالا للغيظ الَّذي في قُلوبهم ، وهذا يدل على محبَّة اللّه لعباده المُؤمنين ، واعتنائه بأحوالهم ، حتَّى إنَّه جعل – من جُملة المقاصد الشَّرعيَّة– شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم .

ثُمَّ قال : ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ من هؤلاء المُحاربين ، بأن يوفِّقهم للدُّخول في الإسلام ، ويُزينه في قلوبهم ، ويُكرِّه إليهم الكُفر والفُسوق والعِصيان .

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها ، ويعلم من يصلح للإيمان فيهديه ، ومن لا يصلح ، فيبقيه في غيِّه وطُغيانه .

[٩ – ١٦] : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ .

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد ما أمرهم بالجهاد : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟﴾ من دون ابتلاء وامتحان ، وأمر بما يُبيِّن به الصَّادق والكاذب .

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ أي : علما يظهر ممَّا في القوَّة إلى الخارج ، ليترتَّب عليه الثَّواب والعقاب ، فيعلم الَّذين يُجاهِدون في سبيله : لإعلاء كلمته ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي : وليًّا من الكافرين ، بل يتَّخِذون اللّه ورسوله والمُؤمنين أولياء .

فشرع اللّه الجهاد ليحصُل به هذا المقصود الأعظم ، وهو أن يتميَّز الصَّادقون الَّذين لا يتحيَّزون إلَّا لدين اللّه ، من الكاذبين الَّذين يزعمون الإيمان وهُم يتَّخذون الولائج والأولياء من دون اللّه ولا رسوله ولا المُؤمنين .

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي : يعلم ما يصير منكم ويصدر ، فيبتليكم بما يظهر به حقيقة ما أنتم عليه ، ويُجازيكم على أعمالكم خيرها وشرها .

[٩ – ١٧ : ١٨] : ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿مَا كَانَ﴾ أي : ما ينبغي ولا يليق ﴿لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ بالعبادة ، والصَّلاة ، وغيرها من أنواع الطَّاعات ، والحال أنَّهم شاهدون ومُقرُّون على أنفسهم بالكُفر بشهادة حالهم وفِطرهم ، وعلم كثير منهم أنَّهم على الكُفر والباطل .

فإذا كانوا ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ وعدم الإيمان ، الَّذي هو شرط لقبول الأعمال ، فكيف يزعمون أنَّهم عُمَّارُ مساجد اللّه ، والأصل منهم مفقود ، والأعمال منهم باطلة ؟ » .

ولهذا قال : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي : بطُلت وضلَّت ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ .

ثُمَّ ذكر من هُم عُمَّار مساجد اللّه فقال : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الواجبة والمُستحبّة ، بالقيام بالظّاهر منها والباطن .

﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لأهلها ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي قَصَرَ خشيته على ربّه ، فكفّ عمّا حرّم الله ، ولم يُقصّر بحُقوق الله الواجبة .

فوصفهم بالإيمان النّافع ، وبالقيام بالأعمال الصّالحة الّتي أُمُّها الصّلاة والزّكاة ، وبخشية الله الّتي هي أصل كل خير ، فهؤلاء عُمّار المساجد على الحقيقة وأهلها ، الّذين هُم أهلها .

﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ و« عسى » من الله واجبة .

وأمّا من لم يُؤمِن بالله ولا باليوم الآخر ، ولا عنده خشية لله ، فهذا ليس من عُمّار مساجد الله ، ولا من أهلها الّذين هُم أهلها ، وإن زعم ذلك وادّعاه .

[ ٩ - ٢٢ : ١٩ ] : ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ .

لمّا اختلف بعض المُسلِمين ، أو بعض المُسلمين وبعض المُشركين ، في تفضيل عمارة المسجد الحرام ، بالبناء والصّلاة والعبادة فيه وسِقاية الحاج ، على الإيمان بالله والجهاد في سبيله ، أخبر الله تعالى بالتّفاوت بينهما ، فقال : ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ أي : سقيهم الماء من زمزم كما هو المعروف إذا أطلق هذا الاسم ، أنّه المُراد ﴿وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ .

فالجهاد والإيمان بالله أفضل من سِقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بدرجات كثيرة ، لأنّ الإيمان أصل الدّين ، وبه تُقبل الأعمال ، وتزكو الخِصال .

وأمّا الجهاد في سبيل الله فهو ذُروة سَنام الدّين ، الّذي به يُحفَظ الدّين الإسلامي ويتّسِع ، ويُنصر الحق ، ويُخذَل الباطل .

وأمّا عمارة المسجد الحرام وسِقاية الحاج ، فهي وإن كانت أعمالا صالحة ، فهي مُتوقّفة على الإيمان ، وليس فيها من المصالح ما في الإيمان والجهاد ، فلذلك قال : ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي : الّذين وصفهم الظُّلم ، الّذين لا يصلحون لقبول شيء من الخير ، بل لا يليق بهم إلّا الشّر .

ثُمّ صرّح بالفضل فقال : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ بالنّفقة في الجهاد وتجهيز الغُزاة ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ بالخروج بالنّفس ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي : لا يفوز بالمطلوب ولا ينجو من المرهوب ، إلّا من اتّصف بصفاتهم ، وتخلّق بأخلاقهم .

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ جودا منه ، وكرما وبرًّا بهم ، واعتناء ومحبّة لهم ، ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ أزال بها عنهم الشُّرور ، وأوصل إليهم بها كل خير ، ﴿وَرِضْوَٰنٍ﴾ منه تعالى عليهم ، الّذي هو أكبر نعيم الجنّة وأجلّه ، فيحل عليهم رُضوانه ، فلا يسخط عليهم أبدا .

﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ من كُلّ ما اشتهته الأنفس ، وتلذ الأعين ، ممّا لا يعلم وصفه ومقداره

إلَّا اللّه تعالى ، الَّذي منه أنَّ اللّه أعدَّ للمُجاهدين في سبيله مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السَّماء والأرض ، ولو اجتمع الخلق في درجة واحدة منها لوسعتهم .

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا ينتقلون عنها ، ولا يبغون عنها حِوَلًا ، ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا تستغرب كثرته على فضل اللّه ، ولا يتعجب من عِظمه وحُسنه على من يقول للشيء كُن فيكون .

[ ٢٣ : ٢٤ - ٩ ] : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ اعملوا بمُقتضى الإيمان ، بأن توالوا من قام به ، وتُعادوا من لم يقُم به ، و ﴿لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ﴾ الَّذين هُم أقرب النَّاس إليكم ، وغيرهم من باب أولى وأحرى ، فلا تتخذوهم ﴿أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا﴾ أي : اختاروا على وجه الرِّضا والمحبَّة ﴿الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ .

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنَّهم تجرَّؤوا على معاصي اللّه ، واتَّخذوا أعداء اللّه أولياء ، وأصل الولاية : المحبَّة والنُّصرة ، وذلك أنَّ اتِّخاذهم أولياء ، موجب لتقديم طاعتهم على طاعة اللّه ، ومحبَّتهم على محبَّة اللّه ورسوله .

ولهذا ذكر السَّبب المُوجِب لذلك ، وهو أنَّ محبَّة اللّه ورسوله ، يتعيَّن تقديمهما على محبَّة كل شيء ، وجعل جميع الأشياء تابعة لهما فقال : ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾ ومثلهم الأُمَّهات ﴿وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ﴾ في النَّسب والعشيرة ﴿وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أي : قراباتكم عُموما ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي : اكتسبتموها وتعبتم في تحصيلها ، خصَّها بالذِّكر ، لأنَّها أرغب عند أهلها ، وصاحبها أشد حرصا عليها ممَّن تأتيه الأموال من غير تعب ولا كَدّ .

﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ أي : رخصها ونقصها ، وهذا شامل لجميع أنواع التِّجارات والمكاسب من عروض التِّجارات ، من الأثمان ، والأواني ، والأسلحة ، والأمتعة ، والحُبوب ، والحُروث ، والأنعام ، وغير ذلك .

﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ من حُسنها وزخرفتها وموافقتها لأهوائكم ، فإن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ فأنتم فَسَقَة ظَلَمة .

﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أي : انتظروا ما يحل بكم من العقاب ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ الَّذي لا مردَّ له .

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي : الخارجين عن طاعة اللّه ، المُقدِّمين على محبَّة اللّه شيئا من المذكورات .

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبَّة اللّه ورسوله ، وعلى تقديمها على محبَّة كل شيء ، وعلى الوعيد الشَّديد والمقت الأكيد ، على من كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من اللّه ورسوله ، وجهاد في سبيله .

وعلامة ذلك أنَّه إذا عرض عليه أمران ، أحدهما يحبُّه اللّه ورسوله ، وليس لنفسه فيها هوى ، والآخر

تُحبُّه نفسه وتشتهيه ، ولكنه يُفوِّتُ عليه محبوبًا للّه ورسوله ، أو ينقصه ، فإنَّه إن قدَّم ما تهواه نفسه ، على ما يحبُّه اللّه ، دلَّ ذلك على أنَّه ظالم تارك لما يجب عليه .

[ ٩ – ٢٧ : ٢٥ ] : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

يمتن تعالى على عباده المُؤمنين ، بنصره إيَّاهم في مواطن كثيرة من مواطن اللقاء ، ومواضع الحروب والهيجاء ، حتَّى في يوم « حُنَين » الَّذي اشتدت عليهم فيه الأزمة ، ورأوا من التَّخاذل والفرار ، ما ضاقت عليهم به الأرض على رحبها وسعتها .

وذلك أنَّ النَّبي ﷺ لمَّا فتح مكَّة ، سمع أنَّ هَوَازن اجتمعوا لحربه ، فسار إليهم ﷺ في أصحابه الَّذين فتحوا مكة ، وممَّن أسلم من الطُّلقاء أهل مكَّة ، فكانوا اثني عشر ألفا ، والمُشركون أربعة آلاف ، فأُعجِب بعض المُسلِمين بكثرتهم ، وقال بعضهم : لن نُغلب اليوم من قلَّة .

فلمَّا التقوا هُم وهَوَازن ، حملوا على المُسلِمين حملة واحدة ، فانهزموا لا يلوي أحد على أحد ، ولم يبق مع رسول اللّه ﷺ ، إلَّا نحو مائة رجل ، ثبتوا معه ، وجعلوا يُقاتِلون المُشرِكين ، وجعل النَّبي ﷺ ، يركض بغلته نحو المُشرِكين ويقول :

أنا النَّبي لا كذب أنا ابن عبد المُطَّلِب .[١١٢]

ولمَّا رأى من المُسلِمين ما رأى ، أمر العبَّاس بن عبد المُطَّلِب أن يُنادي في الأنصار وبقيَّة المُسلمين ، وكان رفيع الصَّوت ، فناداهم : يا أصحاب السمرة ، يا أهل سُورة البقرة ، فلمَّا سمعوا صوته ، عطفوا عطفة رجل واحد ، فاجتلدوا مع المُشرِكين ، فهزم اللّه المُشرِكين ، هزيمة شنيعة ، واستولوا على معسكرهم ونسائهم وأموالهم .

وذلك قوله تعالى ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وهو اسم للمكان الَّذي كانت فيه الوقعة بين مكَّة والطَّائف ، ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ أي : لم تفدكم شيئا ، قليلا ولا كثيرا ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ﴾ بما أصابكم من الهمِّ والغمِّ حين انهزمتم ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي : على رحبها وسعتها ، ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ أي : مُنهزمين .

﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ والسَّكينة ما يجعله اللّه في القُلوب وقت القلاقل

---

(١١٢) * مُتَّفقٌ عَلَيْهِ . من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه .
أخرجه البُخاري في مواضع من صحيحه ، منها : ( كتاب الجهاد / باب : من قاد دابة غيره في الحرب / ح ٢٨٦٤ ) ، وفي : ( كتاب المغازي / باب : قول الله تعالى : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [ سُورة التَّوبة ٢٥ – ٢٧ ] ، ح ٤٣١٥ ، ٤٣١٦ ، ٤٣١٧ ) . وأخرجه مُسلم في صحيحه : ( كتاب الجهاد / باب : في غزوة حُنين / ح ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ) .

والزّلازل والمُقْظعات ، ممّا يُثبتها ، ويُسكنها ويجعلها مُطمئنة ، وهي من نِعم اللّه العظيمة على العباد .

﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة ، أنزلهم اللّه معونة للمُسلمين يوم حُنَين ، يثبتونهم ، ويُبشرونهم بالنّصر .

﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالهزيمة والقتل ، واستيلاء المُسلِمين على نسائهم وأولادهم وأموالهم .

﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ يُعذِّبهم اللّه في الدُّنيا ، ثُمَّ يردّهم في الآخرة إلى عذاب غليظ .

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ فتاب اللّه على كثير ممّن كانت الوقعة عليهم ، وأتوا إلى النّبي ﷺ مُسلِمين تائبين ، فردَّ عليهم نساءهم وأولادهم .

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي : ذو مغفرة واسعة ، ورحمة عامّة ، يعفو عن الذنوب العظيمة للتّائبين ، ويرحمهم بتوفيقهم للتّوبة والطّاعة ، والصّفح عن جرائمهم ، وقَبول توباتهم ، فلا ييأسنَّ أحد من مغفرته ورحمته ، ولو فعل من الذنوب والإجرام ما فعل .

[٢٨ – ٩] : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ﴾ باللّه الّذين عبدوا معه غيره ﴿نَجَسٌ﴾ أي : خُبثاء في عقائدهم وأعمالهم ، وأي نجاسة أبلغ ممّن كان يعبد مع اللّه آلهة لا تنفع ولا تضر ، ولا تُغني عنه شيئا ؟ ، وأعمالهم ما بين مُحاربة للّه ، وصدّ عن سبيل اللّه ونصر للباطل ، ورد للحقّ ، وعمل بالفساد في الأرض لا في الصّلاح ، فعليكم أن تُطهِّروا أشرف البيوت وأطهرها عنهم .

﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ وهو سنة تسع من الهجرة ، حين حجَّ بالنّاس أبو بكر الصّديق ، وبعث النّبي ﷺ ابن عمه عليًا ، أن يؤذِّن يوم الحج الأكبر بـ « براءة » فنادى أن لا يحج بعد العام مُشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .(١١٣)

وليس المُراد هُنا ، نجاسة البدن ، فإنَّ الكافر كغيره طاهر البدن ، بدليل أنَّ اللّه تعالى أباح وطء الكتابية ومُباشرتها ، ولم يأمر بغسل ما أصاب منها .

والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار ، ولم يُنقل عنهم أنَّهم تقذّروا منها ، تَقَذُّرَهُم من النّجاسات ، وإنّما المُراد كما تقدّم نجاستهم المعنويّة ، بالشِّرك ، فكما أنَّ التّوحيد والإيمان طهارة ، فالشِّرك نجاسة .

وقوله : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيُّها المُسلمون ﴿عَيْلَةً﴾ أي : فقرا وحاجة ، من منع المُشرِكين من قُربان المسجد الحرام ، بأن تنقطع الأسباب الّتي بينكم وبينهم من الأُمور الدُّنيويّة ، ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ فليس الرِّزق مقصورا على باب واحد ، ومحل واحد ، بل لا ينغلق باب إلّا وفتح غيره أبواب

---

(١١٣) * أخرجه البخاري في صحيحه : ( كتاب الصلاة / باب : ما يستر من العورة / ح ٣٦٩ ) ، ( كتاب المغازي / باب : حج أبي بكر بالناس في سنة تسع / ح ٤٣٦٣ ) .
من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

كثيرة ، فإنَّ فضل اللّه واسع ، وجُوده عظيم ، خُصوصا لمن ترك شيئا لوجهه الكريم ، فإنَّ اللّه أكرم الأكرمين .

وقد أنجز اللّه وعده ، فإنَّ اللّه قد أغنى المُسلِمين من فضله ، وبسط لهم من الأرزاق ما كانوا به من أكبر الأغنياء والمُلوك .

وقوله : ﴿إِن شَآءَ﴾ تعليق للإغناء بالمشيئة ، لأنَّ الغِنى في الدُّنيا ، ليس من لوازم الإيمان ، ولا يدل على محبَّة اللّه ، فلهذا علَّقه اللّه بالمشيئة ، فإنَّ اللّه يُعطي الدُّنيا من يُحب ومن لا يُحب ، ولا يعطي الإيمان والدِّين إلَّا من يُحب .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي : علمه واسع ، يعلم من يليق به الغنى ، ومن لا يليق ، ويضع الأشياء مواضعها ويُنزلها منازلها .

وتدل الآية الكريمة ، وهي قوله ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ أن المُشركين بعد ما كانوا ، هُم المُلوك والرُّؤساء بالبيت ، ثُمَّ صار بعد الفتح الحُكم لرسول اللّه والمُؤمنين ، مع إقامتهم في البيت ، ومكَّة المُكرَّمة ، ثُمَّ نزلت هذه الآية .

ولما مات النَّبي ﷺ أمر أن يُجلوا من الحجاز ، فلا يبقى فيها دينان[١١٤] ، وكل هذا لأجل بُعْدِ كل كافر عن المسجد الحرام ، فيدخل في قوله ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾

[٢٩ - ٩] : ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ .

هذه الآية أمر بقتال الكُفَّار من اليهود والنَّصارى من ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ إيمانا صحيحا يُصدِّقونه بأفعالهم وأعمالهم ، ولا يُحرِّمون ما حرَّم الله ، فلا يتَّبعون شرعه في تحريم المُحرَّمات ، ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ أي : لا يدينون بالدِّين الصَّحيح ، وإن زعموا أنَّهُم على دين ، فإنَّه دين غير الحق ، لأنَّه إمَّا بين دين مُبدَّل ، وهو الَّذي لم يُشرِّعه اللّه أصلا ، وإمَّا دين منسوخ قد شَرَعه اللّه ، ثم غيَّره بشريعة مُحمَّد ﷺ ، فيبقى التَّمسُّك به بعد النَّسخ غير جائز .

فأمره بقتال هؤلاء وحثَّ على ذلك ، لأنَّهُم يدعون إلى ما هُم عليه ، ويحصل الضَّرر الكثير منهم للنَّاس ، بسبب أنَّهم أهل كتاب .

وغيَّى ذلك القتال ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ أي : المال الَّذي يكون جزاء لترك المُسلِمين قتالهم ، وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم ، بين أظهر المُسلِمين ، يؤخذ منهم كل عام ، كلٌّ على حسب حاله ، من غني وفقير ومتوسِّط ، كما فعل ذلك أمير المُؤمنين عُمر بن الخطَّاب وغيره ، من أُمراء المُؤمنين .

وقوله : ﴿عَن يَدٍ﴾ أي : حتَّى يبذلوها في حال ذُلِّهم ، وعدم اقتدارهم ، ويُعطونها بأيديهم ، فلا

---

(١١٤) * أخرجه مُسلِم في صحيحه : ( كتاب الجهاد / باب : إخراج اليهود والنَّصارى من جزيرة العرب / ح ٦٣ ) . من حديث عُمر بن الخطَّاب رضي الله عنه .

يرسلون بها خادما ولا غيره ، بل لا تُقبل إلَّا من أيديهم ، ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ .

فإذا كانوا بهذه الحال ، وسألوا المُسلِمين أن يقروهم بالجزية ، وهم تحت أحكام المسلمين وقهرهم ، وحال الأمن من شرِّهم وفتنتهم ، واستسلموا للشروط الَّتي أجراها عليهم المُسلِمون ممَّا ينفي عزهم وتكبرهم ، ويوجب ذُلَّهم وصَغَارهم ، وجب على الإمام أو نائبه أن يعقدها لهم .

وإلَّا بأن لم يُفوا ، ولم يُعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، لم يجز إقرارهم بالجزية ، بل يُقاتَلون حتَّى يُسلِموا .

واستدل بهذه الآية الجُمهور الَّذين يقولون : لا تؤخذ الجزية إلَّا من أهل الكتاب ، لأنَّ اللّه لم يذكر أخذ الجزية إلَّا منهم ، وأما غيرهم فلم يذكر إلَّا قتالهم حتَّى يُسلِموا ، وأُلحِق بأهل الكتاب في أخذ الجزية وإقرارهم في ديار المُسلِمين المجوس ، فإنَّ النَّبِي ﷺ ، أخذ الجزية من مجوس « هَجَر » ، ثُمَّ أخذها أمير المُؤمنين عُمر من الفُرس المَجُوس .

وقيل : إنَّ الجزية تُؤخذ من سائر الكُفَّار من أهل الكتاب وغيرهم ، لأنَّ هذه الآية نزلت بعد الفراغ من قتال العرب المُشرِكين ، والشُّروع في قتال أهل الكتاب ونحوهم ، فيكون هذا القيد إخبارا بالواقع ، لا مفهوما له .

ويدل على هذا أنَّ المجوس أُخِذَت منهم الجزية وليسوا أهل كتاب ، ولأنَّه قد تواتر عن المُسلِمين من الصَّحابة ومن بعدهم أنَّهم يدعون من يُقاتِلونهم إلى إحدى ثلاث : إمَّا الإسلام ، أو أداء الجزية ، أو السَّيف ، من غير فرق بين كِتَابِيٍّ وغيره .

[ ٣٠ - ٣٣ : ٩] : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ .

لمَّا أمر تعالى بقتال أهل الكتاب ، ذكر من أقوالهم الخبيثة ، ما يُهيِّج المُؤمنين الَّذين يَغارون لربِّهم ولدينه على قتالهم ، والاجتهاد وبذل الوسع فيه فقال : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وهذه المقالة وإن لم تكُن مقالة لعامَّتهم فقد قالها فرقة منهم ، فيدل ذلك على أنَّ في اليهود من الخُبث والشَّرِّ ما أوصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة الَّتي تجرَّأوا فيها على اللّه ، وتنقَّصوا عظمته وجلاله .

وقد قيل : إنَّ سبب ادِّعائهم في « عُزَير » أنَّه ابن اللّه ، أنَّه لمَّا سلَّط الله المُلوك على بني إسرائيل ، ومزَّقوهم كُلَّ مُمزَّق ، وقتلوا حَمَلَةَ التَّوراة ، وجدوا عُزيرا بعد ذلك حافظا لها أو لأكثرها ، فأملاها عليهم من حفظه ، واستنسخوها ، فادَّعوا فيه هذه الدَّعوى الشَّنيعة .

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ﴾ عيسى ابن مريم ﴿ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ قال اللّه تعالى ﴿ذَٰلِكَ﴾ القول الَّذي

قالوه ﴿قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ﴾ لم يقيموا عليه حُجَّة ولا بُرهانا .

ومن كان لا يُبالي بما يقول ، لا يُستغرب عليه أي قول يقوله ، فإنَّه لا دين ولا عقل ، يحجزه ، عمَّا يُريد من الكلام .

ولهذا قال : ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ أي : يُشابِهون في قولهم هذا ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ﴾ أي : قول المُشرِكين الَّذين يقولون : الملائكة بنات اللّه ، تشابهت قلوبهم ، فتشابهت أقوالهم في البُطلان ، ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي : كيف يُصرفون على الحق ، الصَّرف الواضح المُبين ، إلى القول الباطل المُبين .

وهذا –وإن كان يُستغرب على أُمَّة كبيرة كثيرة ، أن تتَّفق على قول– يدل على بُطلانه أدنى تفكُّر وتسليط للعقل عليه ، فإنَّ لذلك سببا وهو أنَّهم : ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ﴾ وهم عُلماؤهم ﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾ أي : العُبَّاد المُتجرِّدين للعبادة ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يُحِلُّون لهم ما حرَّم اللّه فيُحلُّونه ، ويُحرِّمون لهم ما أحلَّ اللّه فيُحرِّمونه ، ويُشرِّعون لهم من الشَّرائع والأقوال المُنافية لدين الرُّسل فيتبعونهم عليها .

وكانوا أيضا يغلون في مشايخهم وعُبَّادِهم ويُعظِّمونهم ، ويتَّخِذون قُبورهم أوثانا تُعبد من دون اللّه ، وتُقصد بالذَّبائح ، والدُّعاء والاستغاثة .

﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ اتَّخذوه إلها من دُون اللّه ، والحال أنَّهم خالفوا في ذلك أمر اللّه لهم على ألسنة رُسُله فما ﴿أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ فيُخلِصون له العِبادة والطَّاعة ، ويخصُّونه بالمحبَّة والدُّعاء ، فنبذوا أمر اللّه وأشركوا به ما لم يُنزل به سُلطانا .

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ وتعالى ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي : تنزَّه وتقدَّس ، وتعالت عظمته عن شِركهم وافترائهم ، فإنَّهم ينتقصونه في ذلك ، ويصفونه بما لا يليق بجلاله ، واللّه تعالى العالي في أوصافه وأفعاله عن كُلِّ ما نُسِب إليه ، ممَّا يُنافي كماله المُقدَّس .

فلمَّا تبيَّن أنَّه لا حُجَّة لهم على ما قالوه ، ولا بُرهان لمَا أصَّلوه ، وإنَّما هو مُجرَّد قول قالوه وافتراء افتروه أخبر أنَّهم ﴿يُرِيدُونَ﴾ بهذا ﴿أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ .

ونُور اللّه : دينه الَّذي أرسل به الرُّسُل ، وأنزل به الكُتُب ، وسمَّاه اللّه نورا ، لأنَّه يُستنار به في ظُلُمات الجهل والأديان الباطلة ، فإنَّه علم بالحق ، وعمل بالحق ، وما عداه فإنَّه بضدِّه ، فهؤلاء اليهود والنَّصارى ومن ضاهوه من المُشرِكين ، يُريدون أن يُطفئوا نور اللّه بمُجرَّد أقوالهم ، الَّتي ليس عليها دليل أصلا .

﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ لأنَّه النُّور الباهر ، الَّذي لا يُمكِن لجميع الخلق لو اجتمعوا على إطفائه أن يُطفِئوه ، والَّذي أنزله جميع نواصي العباد بيده ، وقد تكفَّل بحفظه من كُلِّ من يُريده بسُوء ، ولهذا قال : ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وسَعَوا ما أمكنهم في ردِّه وإبطاله ، فإنَّ سعيهم لا يضر الحق شيئا .

ثُمَّ بيَّن تعالى هذا النُّور الَّذي قد تكفَّل بإتمامه وحفظه فقال : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ الَّذي هو العلم النَّافع ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ الَّذي هو العمل الصَّالح فكان ما بعث اللّه به مُحمَّدا ﷺ مُشتمِلا على

بيان الحق من الباطل في أسماء اللّه وأوصافه وأفعاله ، وفي أحكامه وأخباره ، والأمر بكُلِّ مصلحة نافعة للقُلوب ، والأرواح والأبدان من إخلاص الدِّين للّه وحده ، ومحبّة اللّه وعبادته ، والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الشِّيم ، والأعمال الصَّالحة والآداب النَّافعة ، والنَّهي عن كُلِّ ما يُضاد ذلك ويُناقضه من الأخلاق والأعمال السيّئة المُضرّة للقُلوب والأبدان والدُّنيا والآخرة .

فأرسله اللّه بالهُدى ودين الحق ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ أي : ليُعليه على سائر الأديان ، بالحُجّة والبُرهان ، والسَّيف والسِّنان ، وإن كره المُشرِكون ذلك ، وبَغَوا له الغَوائِل ، ومكروا مكرهم ، فإنَّ المكر السَّيئ لا يضر إلَّا صاحبه ، فوعد اللّه لابُدَّ أن يُنجزه ، وما ضمنه لابُدَّ أن يقوم به .

[ ٩ – ٣٥ : ٣٤ ] : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ .

هذا تحذير من اللّه تعالى لعباده المُؤمنين عن كثير من الأحبار والرُّهبان ، أي : العُلماء والعُبّاد الَّذين يأكلون أموال النَّاس بالباطل ، أي : بغير حق ، ويصُدُّون عن سبيل اللّه ، فإنَّهم إذا كانت لهم رواتب من أموال النَّاس ، أو بذل النَّاس لهم من أموالهم فإنَّه لأجل علمهم وعبادتهم ، ولأجل هُداهم وهِدايتهم ، وهؤلاء يأخذونها ويصُدُّون النَّاس عن سبيل اللّه ، فيكون أخذهم لها على هذا الوجه سُحتا وظُلما ، فإنَّ النَّاس ما بذلوا لهم من أموالهم إلَّا ليدلُّوهم إلى الطَّريق المُستقيم .

ومِنْ أخذهم لأموال النَّاس بغير حق ، أن يُعطوهم ليُفتوهم أو يحكموا لهم بغير ما أنزل اللّه ، فهؤلاء الأحبار والرُّهبان ، ليحذر منهم هاتان الحالتان : أخذهم لأموال النَّاس بغير حق ، وصدُّهم النَّاس عن سبيل اللّه .

﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ أي : يمسكونها ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي : طُرُق الخير المُوصِّلة إلى اللّه ، وهذا هو الكنز المُحرَّم ، أن يُمسكها عن النَّفقة الواجبة ، كأن يمنع منها الزَّكاة أو النَّفقات الواجبة للزَّوجات ، أو الأقارب ، أو النَّفقة في سبيل اللّه إذا وجبت .

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ثُمَّ فسَّره بقوله : ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ أي : على أموالهم ، ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فيُحمى كل دينار أو درهم على حدته ، ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ في يوم القيامة كُلَّما بردت أُعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ويُقال لهم توبيخا ولوما : ﴿هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ فما ظَلمكم ولكنَّكُم ظلمتم أنفسكم وعذبتموها بهذا الكنز .

وذكر اللّه في هاتين الآيتين ، انحراف الإنسان في ماله ، وذلك بأحد أمرين : إمَّا أن يُنفقه في الباطل الَّذي لا يجدي عليه نفعا ، بل لا يناله منه إلَّا الضَّرر المحض ، وذلك كإخراج الأموال في المعاصي والشَّهوات الَّتي لا تُعين على طاعة اللّه ، وإخراجها للصَّدِّ عن سبيل اللّه ، وإمَّا أن يُمسك ماله عن إخراجه في

الواجبات ، النّهي عن الشّيء أمر بضدّه .

[٣٦ – ٩] : وقوله : ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

يقول تعالى : ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي : في قضائه وقدره ، ﴿ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ وهي هذه الشُّهور المعروفة ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي في حُكمه القدري ، ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وأجرى ليلها ونهارها ، وقدَّر أوقاتها فقسَّمها على هذه الشُّهور الاثني عشر شهرا .

﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ وهي : رجب الفرد ، وذو القعدة ، وذو الحجّة ، والمُحرَّم ، وسُمِّيت حُرُما لزيادة حُرمتها ، وتحريم القتال فيها .

﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ يُحتمل أنَّ الضَّمير يعود إلى الاثنى عشر شهرا ، وأنَّ اللّه تعالى بيَّن أنَّه جعلها مقادير للعباد ، وأن تعمر بطاعته ، ويشكر اللّه تعالى على مِنَّتِهِ بها ، وتقييضها لمصالح العباد ، فلتحذروا من ظُلم أنفسكم فيها .

ويُحتمل أنَّ الضَّمير يعود إلى الأربعة الحُرُم ، وأنَّ هذا نهي لهم عن الظُّلم فيها ، خُصوصا مع النَّهي عن الظُّلم كل وقت ، لزيادة تحريمها ، وكون الظُّلم فيها أشد منه في غيرها .

ومن ذلك النَّهي عن القتال فيها ، على قول من قال : إنَّ القتال في الأشهر الحرام لم يُنسخ تحريمه عملا بالنُّصوص العامَّة في تحريم القتال فيها .

ومنهم من قال : إنَّ تحريم القتال فيها منسوخ ، أخذا بعُموم نحو قوله تعالى : ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [ سُورة التَّوبة ٣٦] ، أي : قاتلوا جميع أنواع المُشركين والكافرين بربِّ العالمين ، ولا تخصُّوا أحدا منهم بالقتال دون أحد ، بل اجعلوهم كلهم لكُم أعداء كما كانوا هُم معكم كذلك ، قد اتَّخذوا أهل الإيمان أعداء لهم ، لا يألونهم من الشَّرِّ شيئا .

ويُحتمل أنَّ ﴿كَآفَّةً﴾ حال من الواو فيكون معنى هذا : وقاتلوا جميعكم المُشركين ، فيكون فيها وجوب النَّفير على جميع المُؤمنين .

وقد نُسِخَت على هذا الاحتمال بقوله : ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ الآية [ سُورة التَّوبة ١٢٢] .

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بعونه ونصره وتأييده ، فلتحرصوا على استعمال تقوى اللّه في سرِّكم وعلنكم والقيام بطاعته ، خُصوصا عند قتال الكُفَّار ، فإنَّه في هذه الحال ، رُبَّما ترك المؤمن العمل بالتقوى في مُعاملة الكُفَّار الأعداء المُحاربين .

[٣٧ – ٩] : ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

النَّسيء : هو ما كان أهل الجاهلية يستعملونه في الأشهر الحُرُم ، وكان من جملة بدعهم الباطلة ، أنَّهُم لمَّا رأوا احتياجهم للقتال ، في بعض أوقات الأشهر الحُرُم ، رأوا – بآرائهم الفاسدة – أن يُحافِظوا على عِدَّة الأشهر الحُرُم ، الَّتي حرَّم اللّه القتال فيها ، وأن يؤخِّروا بعض الأشهر الحُرُم ، أو يُقدِّموه ، ويجعلوا مكانه من أشهر الحل ما أرادوا ، فإذا جعلوه مكانه أحلُّوا القتال فيه ، وجعلوا الشَّهر الحلال حراما ، فهذا –كما أخبر اللّه عنهم– أنَّه زيادة في كُفرهم وضلالهم ، لما فيه من المحاذير ، منها : أنَّهُم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم ، وجعلوه بمنزلة شرع اللّه ودينه ، واللّه ورسوله بريئان منه .

ومنها : أنَّهُم قلبوا الدِّين ، فجعلوا الحلال حراما ، والحرام حلالا .

ومنها : أنَّهُم مَوَّهوا على اللّه بزعمهم وعلى عباده ، ولبَّسوا عليهم دينهم ، واستعملوا الخداع والحيلة في دين اللّه .

ومنها : أنَّ العوائد المُخالِفة للشَّرع مع الاستمرار عليها ، يزول قُبحها عن النفوس ، ورُبَّما ظنَّ أنَّها عوائد حسنة ، فحصل من الغلط والضَّلال ما حصل ، ولهذا قال : ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي : ليوافقوها في العَدَد ، فيُحلُّوا ما حرَّم اللّه .

﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ أي : زيَّنت لهم الشَّياطين الأعمال السَّيِّئة ، فرأوها حسنة ، بسبب العقيدة المُزيِّنة في قُلوبهم .

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي : الَّذين انصبغ الكُفر والتَّكذيب في قُلوبهم ، فلو جاءتهم كُلَّ آية ، لم يُؤمِنوا .

[ ٣٨ : ٣٩ – ٩ ] : قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

اعلم أنَّ كثيرا من هذه السُّورة الكريمة ، نزلت في غزوة « تبوك » ، إذ ندب النَّبي ﷺ المُسلِمين إلى غزو الرُّوم ، وكان الوقت حارا ، والزَّاد قليلا ، والمعيشة عَسِرة ، فحصل من بعض المُسلِمين من التَّثاقُل ما أوجب أن يُعاتِبهم اللّه تعالى عليه ويستنهضهم ، فقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ألا تعملون بمُقتضى الإيمان ، وداعي اليقين من المُبادرة لأمر اللّه ، والمُسارعة إلى رضاه ، وجهاد أعدائه والنُّصرة لدينكم ، فـ ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي : تكاسلتم ، ومِلْتُم إلى الأرض والدِّعة والسكون فيها .

﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي : ما حالكم إلَّا حال من رضي بالدُّنيا وسعى لها ولم يُبال بالآخرة ، فكأنَّه ما آمن بها ، ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الَّتي مالت بكم ، وقدمتموها على الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أفليس قد جعل اللّه لكم عُقولا تَزِنُون بها الأُمور ، وأيُّها أحق بالإيثار ؟ .

أفليست الدُّنيا –من أوَّلها إلى آخرها– لا نسبة لها في الآخرة . فما مقدار عُمر الإنسان القصير جدا من

الدُّنيا حتَّى يجعله الغاية الَّتي لا غاية وراءها ، فيجعل سعيه وكدَّه وهمَّه وإرادته لا يتعدَّى حياته الدُّنيا القصيرة المملوءة بالأكدار ، المشحونة بالأخطار .

فبأي رأي رأيتم إيثارها على الدَّار الآخرة الجامعة لكُلِّ نعيم ، الَّتي فيها ما تشتهيه الأنفُس وتلذ الأعين ، وأنتم فيها خالدون ، فواللّه ما آثر الدُّنيا على الآخرة من وقر الإيمان في قلبه ، ولا من جزل رأيه ، ولا من عُدَّ من أولي الألباب ، ثُمَّ توعَّدهم على عدم النَّفير فقال : ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدُّنيا والآخرة ، فإنَّ عدم النَّفير في حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب ، لما فيها من المضار الشَّديدة ، فإنَّ المُتخلِّف ، قد عصى اللّه تعالى وارتكب لنهيه ، ولم يُساعد على نصر دين اللّه ، ولا ذبَّ عن كتاب اللّه وشرعه ، ولا أعان إخوانه المُسلمين على عدوهم الَّذي يُريد أن يستأصلهم ويمحق دينهم ، ورُبَّما اقتدى به غيره من ضُعفاء الإيمان ، بل رُبَّما فَتَّ في أعضاد من قاموا بجهاد أعداء اللّه ، فحقيق بمن هذا حاله أن يتوعَّده اللّه بالوعيد الشَّديد ، فقال : ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ثُمَّ لا يكونوا أمثالكم ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ فإنَّه تعالى مُتكفِّل بنصر دينه وإعلاء كلمته ، فسواء امتثلتم لأمر اللّه ، أو ألقيتموه ، وراءكم ظهريا .

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يُعجزه شيء أراده ، ولا يُغالبه أحد .

[٤٠ – ٩] : ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .

أي : إلَّا تنصروا رسوله مُحمَّدا ﷺ ، فاللّه غني عنكم ، لا تضرونه شيئا ، فقد نصره في أقل ما يكون وأذلَّة ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مكَّة لمَّا همُّوا بقتله ، وسعوا في ذلك ، وحرصوا أشد الحرص ، فألجؤوه إلى أن يخرج .

﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ أي : هو وأبو بكر الصِّديق رضي اللّه عنه ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ أي : لمَّا هربا من مكَّة ، لجآ إلى غار ثور في أسفل مكَّة ، فمكثا فيه ليبرُد عنهُما الطَّلب .

فهُما في تلك الحالة الحَرِجَة الشَّديدة المَشَقَّة ، حين انتشر الأعداء من كُلِّ جانب يطلبونهما ليقتلوهما ، فأنزل اللّه عليهما من نصره ما لا يخطُر على البال .

﴿إِذْ يَقُولُ﴾ النَّبي ﷺ ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ أبي بكر لمَّا حزن واشتد قلقه ، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بعونه ونصره وتأييده ، ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أي : الثَّبات والطُّمأنينة ، والسكون المُثبِّتة للفؤاد ، ولهذا لمَّا قلق صاحبه سَكَّنه وقال : « لا تحزن إن اللّه معنا » .

﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهي الملائكة الكِرام ، الَّذين جعلهم اللّه حرسا له ، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ﴾ أي : السَّاقطة المخذولة ، فإنَّ الَّذين كفروا قد كانوا على حرد قادرين ، في ظنِّهم على قتل الرسول ﷺ ، وأخذه ، حنقين عليه ، فعملوا غاية مجهودهم في ذلك ، فخذلهم

الله ولم يتم لهم مقصودهم، بل ولا أدركوا شيئا منه.

ونصر الله رسوله بدفعه عنه، وهذا هو النّصر المذكور في هذا الموضع، فإنَّ النّصر على قسمين: نصر المُسلمين إذا طمعوا في عدوهم بأن يُتمّ الله لهم ما طلبوا، وقصدوا، ويستولوا على عدوهم ويظهروا عليهم.

والثّاني: نصر المُستضعف الّذي طمع فيه عدوه القادر، فنصر الله إيّاه، أن يردَّ عنه عدوه، ويدافع عنه، ولعل هذا النّصر أنفع النّصرين، ونصر الله رسوله إذ أخرجه الّذين كفروا ثاني اثنين من هذا النّوع.

وقوله: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ أي كلماته القدريّة وكلماته الدّينيّة، هي العالية على كلمة غيره، الّتي من جُملتها قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الرّوم ٤٧]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [سُورة غافر ٥١]، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [سُورة الصّافّات ١٧٣]، فدين الله هو الظّاهر العالي على سائر الأديان، بالحُجج الواضحة، والآيات الباهرة والسّلطان النّاصر.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يُغالبه مُغالِب، ولا يفوته هارب، ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وقد يؤخّر نصر حزبه إلى وقت آخر، اقتضته الحِكمة الإلهيّة.

وفي هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصة لم تكُن لغيره من هذه الأُمّة، وهي الفوز بهذه المنقبة الجليلة، والصُّحبة الجميلة، وقد أجمع المُسلمون على أنّه هو المُراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدُّوا من أنكر صُحبة أبي بكر للنّبي ﷺ، كافرا، لأنّه مُنكرٌ للقُرآن الّذي صرّح بها.

وفيها: فضيلة السّكينة، وأنّها من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشّدائد والمخاوف الّتي تطيش بها الأفئدة، وأنّها تكون على حسب معرفة العبد بربّه، وثقته بوعده الصّادق، وبحسب إيمانه وشجاعته.

وفيها: أنَّ الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصّدّيقين، مع أنَّ الأولى -إذا نزل بالعبد- أن يسعى في ذهابه عنه، فإنّه مُضعف للقلب، مُوهِن للعزيمة.

[٤١: ٤٢ - ٩]: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

يقول تعالى لعباده المُؤمنين -مُهيّجا لهم على النّفير في سبيله فقال: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: في العُسر واليُسر، والمَنْشط والمَكْرَه، والحر والبرد، وفي جميع الأحوال.

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ابذلوا جهدكم في ذلك، واستفرغوا وسعكم في المال والنّفس، وفي هذا دليل على أنّه -كما يجب الجهاد في النّفس- يجب الجهاد في المال، حيث اقتضت الحاجة ودعت لذلك.

ثُمّ قال: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: الجهاد في النّفس والمال، خير لكم من التّقاعد عن ذلك، لأنَّ فيه رضا الله تعالى، والفوز بالدّرجات العاليات عنده، والنّصر لدين الله، والدُّخول في جُملة جُنده وحِزبه.

لو كان خروجهم لطَلَبِ العَرَض القريب ، أي : منفعة دُنيويَّة سهلة التَّناول ﴿و﴾ كان السَّفر ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي : قريبا سهلا ، ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ لعدم المشقَّة الكثيرة ، ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ أي : طالت عليهم المسافة ، وصعُب عليهم السَّفر ، فلذلك تثاقلوا عنك ، وليس هذا من أمارات العُبوديَّة ، بل العبد حقيقة هو المُتعبِّد لربِّه في كُلِّ حال ، القائم بالعبادة السَّهلة والشَّاقة ، فهذا العبد للّه على كُلِّ حال .

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي : سيحلفون أنَّ تخلُّفهم عن الخروج أنَّ لهم أعذرا وأنَّهم لا يستطيعون ذلك ، ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بالقُعود والكذب والإخبار بغير الواقع ، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ .

وهذا العتاب إنَّما هو للمُنافقين ، الَّذين تخلَّفوا عن النَّبِي ﷺ في «غزوة تبوك» وأبدوا من الأعذار الكاذبة ما أبدوا ، فعفا النَّبي ﷺ عنهم بمُجرَّد اعتذارهم ، من غير أن يمتحنهم ، فيتبيَّن له الصَّادق من الكاذب ، ولهذا عاتبه اللّه على هذه المُسارعة إلى عُذرهم فقال :

[ ٩ – ٤٥ : ٤٣ ] : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ أي : سامحك وغفر لك ما أجريت ، ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ في التَّخلُّف ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ بأن تمتحنهم ، ليتبيَّن لك الصَّادق من الكاذب ، فتعذُر من يستحق العُذر ممَّن لا يستحق ذلك .

ثُمَّ أخبر أنَّ المُؤمنين باللّه واليوم الآخر ، لا يستأذنون في ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم ، لأنَّ ما معهم من الرَّغبة في الخير والإيمان ، يحملهم على الجهاد من غير أن يحثهم عليه حاث ، فضلا عن كونهم يستأذنون في تركه من غير عُذر .

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ فيُجازيهم على ما قاموا به من تقواه ، ومن علمه بالمُتَّقين ، أنَّه أخبر ، أنَّ من علاماتهم ، أنَّهُم لا يستأذنون في ترك الجهاد ، ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي : ليس لهم إيمان تام ، ولا يقين صادق ، فلذلك قلَّت رغبتهم في الخير ، وجبُنوا عن القتال ، واحتاجوا أن يستأذنوا في ترك القتال ، ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي : لا يزالون في الشَّك والحيرة .

[ ٩ – ٤٨ : ٤٦ ] : ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ .

يقول تعالى مُبيِّنا أنَّ المُتخلِّفين من المُنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يُبيِّن أنَّهُم ما قصدوا الخُروج

للجهاد بالكُليَّة ، وأنَّ أعذارهم الَّتي اعتذروها باطلة ، فإنَّ العُذر هو المانع الَّذي يمنع إذا بذل العبد وسعه ، وسعى في أسباب الخروج ، ثُمَّ منعه مانع شرعي ، فهذا الَّذي يُعذر .

﴿و﴾ أمَّا هؤلاء المُنافِقون فـ ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ أي : لاستعدوا وعملوا ما يُمكِّنهم من الأسباب ، ولكن لمَّا لم يَعُدُّوا له عُدَّة ، علم أنَّهم ما أرادوا الخُروج .

﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ معكم في الخُروج للغزو ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ قدرا وقضاء ، وإن كان قد أمرهم وحثَّهم على الخُروج ، وجعلهم مُقتدرين عليه ، ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم ، بل خذلهم وثبَّطهم ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ من النِّساء والمَعْذورين .

ثُمَّ ذكر الحِكمة في ذلك فقال : ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي : نقصا .

﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ أي : ولسَعَوا في الفِتنة والشَّرِّ بينكم ، وفرَّقوا جماعتكم المُجتمعين ، ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي : هم حريصون على فتنتكم وإلقاء العداوة بينكم .

﴿وَفِيكُمْ﴾ أُناس ضُعفاء العُقول ﴿سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي : مُستجيبون لدعوتهم يغترُّون بهم ، فإذا كانوا هُم حريصين على خُذلانكم ، وإلقاء الشَّر بينكم ، وتثبيطكم عن أعدائكم ، وفيكم من يقبل منهم ويستنصحهم ، فما ظنُّك بالشَّر الحاصل من خُروجهم مع المُؤمنين ، والنَّقص الكثير منهم ، فللّه أتم الحِكمة حيث ثبَّطهم ومنعهم من الخروج مع عباده المُؤمنين رحمة بهم ، ولُطفا من أن يُداخِلهم ما لا ينفعهم ، بل يضرهم .

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيُعلم عباده كيف يحذرونهم ، ويُبيِّن لهم من المفاسد النَّاشئة من مُخالطتهم .

ثُمَّ ذكر أنَّه قد سبق لهم سوابق في الشَّرِّ فقال : ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ أي : حين هاجرتم إلى المدينة ، بذلوا الجهد ، ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ أي : أداروا الأفكار ، وأعملوا الحيل في إبطال دعوتكم وخُذلان دينكم ، ولم يُقصِّروا في ذلك ، ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ فبطُل كيدهم واضمحل باطلهم ، فحقيق بمثل هؤلاء أن يُحذِّر اللّه عباده المُؤمنين منهم ، وأن لا يُبالي المُؤمنين ، بتخلُّفهم عنهم .

[٤٩ - ٩] : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ .

أي : ومن هؤلاء المُنافِقين من يستأذن في التَّخلُّف ، ويعتذر بعُذر آخر عجيب ، فيقول : ﴿ٱئْذَن لِّى﴾ في التَّخلُّف ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ في الخروج ، فإنِّي إذا خرجت ، فرأيت نساء بني الأصفر لا أصبر عنهُن ، كما قال ذلك « الجد بن قيس » .

ومقصوده - قبَّحه اللّه- الرِّياء والنِّفاق بأنَّ مقصودي مقصود حسن ، فإنَّ في خروجي فتنة وتعرُّضا للشَّرِّ ، وفي عدم خروجي عافية وكفًّا عن الشَّر .

قال اللّه تعالى مُبيِّنا كذب هذا القول : ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ﴾ فإنَّه على تقدير صدق هذا القائل في قصده ، فإن في التَّخُلف مَفسدة كُبرى وفتنة عُظمى مُحقَّقة ، وهي معصية اللّه ومعصية رسوله ، والتَّجرُّؤ على

الإثم الكبير ، والوزر العظيم ، وأمَّا الخُروج فمفسدة قليلة بالنِّسبة للتَّخلف ، وهي مُتوهَّمة ، مع أنَّ هذا القائل قصده التَّخلُّف لا غير ، ولهذا توعَّدهُم اللّه بقوله : ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ليس لهُم عنها مفر ولا مناص ، ولا فِكاك ، ولا خلاص .

[ ٥٠: ٥١ – ٩] : ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ۝٥٠ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾

يقول تعالى مُبيِّنا أنَّ المُنافِقين هُم الأعداء حقًّا ، المُبغِضون للدِّين صرفا : ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ﴾ كنصر وإدالة على العدو ﴿تَسُؤۡهُمۡۖ﴾ أي : تُحزنهم وتغُمهم ، ﴿وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ﴾ كإدالة العدو عليك ﴿يَقُولُواْ﴾ مُتبجِّحين بسلامتهم من الحُضور معك ،﴿قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ﴾ أي : قد حذرنا وعملنا بما يُنجينا من الوقوع في مثل هذه المُصيبة .

﴿وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾ فيفرحون بمُصيبتك ، وبعدم مُشاركتهم إيَّاك فيها ، قال تعالى رادا عليهم في ذلك : ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ أي : ما قدَّره وأجراه في اللوح المحفوظ .

﴿هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ﴾ أي : مُتولِّي أُمورنا الدِّينيَّة والدُّنيويَّة ، فعلينا الرِّضا بأقداره وليس في أيدينا من الأمر شيء ،﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وحده ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي : يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم ودفع المضار عنهم ، ويثقوا به في تحصيل مطلوبهم ، فلا خاب من توكَّل عليه ، وأمَّا من توكَّل على غيره ، فإنَّه مخذول غير مُدرِك لِمَا أمِل .

[٥٢ – ٩] : ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ .

أي : قُل للمُنافِقين الَّذين يتربَّصون بكم الدَّوائر : أيُّ شيء تربَّصون بنا ؟ ، فإنَّكم لا تربَّصون بنا إلَّا أمرا فيه غاية نفعنا ، وهو إحدى الحُسنيين ، إمَّا الظفر بالأعداء والنَّصر عليهم ونيل الثَّواب الأُخروي والدُّنيوي ، وإمَّا الشَّهادة الَّتي هي من أعلى درجات الخلق ، وأرفع المنازل عند اللّه .

وأمَّا تربُّصنا بكم – يا معشر المُنافقين– فنحن نتربَّص بكم ، أن يُصيبكم اللّه بعذاب من عنده ، لا سبب لنا فيه ، أو بأيدينا ، بأن يُسلِّطنا عليكم فنقتلكم ، ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ بنا الخير ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ بكم الشَّر .

[ ٥٣: ٥٤ – ٩] : ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ۝٥٣ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾

يقول تعالى مُبيِّنا بُطلان نفقات المُنافِقين ، وذاكرا السَّبب في ذلك ﴿قُلۡ﴾ لهم ﴿أَنفِقُواْ طَوۡعًا﴾ من أنفسكم ﴿أَوۡ كَرۡهٗا﴾ على ذلك ، بغير اختياركم ، ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ﴾ شيء من أعمالكم ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ خارجين عن طاعة اللّه ، ثُمَّ بيَّن صفة فِسقهم وأعمالهم ، فقال : ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن

تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ والأعمال كلها شرط قبولها الإيمان ، فهؤلاء لا إيمان لهم ولا عمل صالح ، حتّى إنَّ الصَّلاة الَّتي هي أفضل أعمال البدن ، إذا قاموا إليها قاموا كُسالى ، قال : ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ أي : مُتثاقِلون ، لا يكادون يفعلونها من ثقلها عليهم .

﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ من غير انشراح صدر وثبات نفس ، ففي هذا غاية الذَّم لمن فعل مثل فعلهم ، وأنَّه ينبغي للعبد أن لا يأتي الصَّلاة إلَّا وهو نشيط البدن والقلب إليها ، ولا يُنفق إلَّا وهو مُنشرِح الصَّدر ثابت القلب ، يرجو ذُخرها وثوابها من الله وحده ، ولا يتشبَّه بالمُنافِقين .

[ ٥٥ : ٥٧ - ٩] : ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ .

يقول تعالى : فلا تُعجبك أموال هؤلاء المُنافقين ولا أولادهم ، فإنَّه لا غِبطة فيها ، وأوَّل بركاتها عليهم أن قدَّموها على مراضي ربِّهم ، وعصوا الله لأجلها ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ والمُراد بالعذاب هُنا ، ما ينالهم من المشقَّة في تحصيلها ، والسَّعي الشَّديد في ذلك ، وهَمُّ القلب فيها ، وتعب البدن .

فلو قابلت لذَّاتهم فيها بمشقاتهم ، لم يكُن لها نسبة إليها ، فهي - لمَّا ألهتهم عن الله وذكره- صارت وبالا عليهم حتَّى في الدُّنيا .

ومن وبالها العظيم الخطر ، أنَّ قلوبهم تتعلَّق بها ، وإرادتهم لا تتعدَّاها ، فتكون مُنتهى مطلوبهم وغاية مرغوبهم ولا يبقى في قلوبهم للآخرة نصيب ، فيوجب ذلك أن ينتقلوا من الدُّنيا ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ ، فأي عُقُوبة أعظم من هذه العُقوبة المُوجِبة للشَّقاء الدَّائم والحسرة المُلازِمة .

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ﴾ قصدهم في حلفهم هذا أنَّهم ﴿قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي : يخافون الدَّوائر ، وليس في قلوبهم شجاعة تحملهم على أن يُبيِّنوا أحوالهم . فيخافون إن أظهروا حالهم منكم ، ويخافون أن تتبرَّأوا منهم ، فيتخطَّفهم الأعداء من كُلِّ جانب .

وأمَّا حال قوي القلب ثابت الجَنَان ، فإنَّه يحمله ذلك على بيان حاله ، حسنة كانت أو سيئة ، ولكن المُنافِقين خلع عليهم خلعة الجُبْن ، وحُلُّوا بحلية الكذب ..

ثُمَّ ذكر شدَّة جُبنهم فقال : ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ يلجأون إليه عندما تنزل بهم الشَّدائد ، ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ يدخلونها فيستقرُّون فيها ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ أي : محلا يدخلونه فيتحصَّنون فيه ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي : يُسرِعون ويهرعون ، فليس لهم مَلَكَة ، يقتدرون بها على الثَّبات .

[ ٥٨ : ٥٩ - ٩] : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾

أي : ومِنْ هؤلاء المُنافقين من يعيبك في قسمة الصَّدقات ، وينتقد عليك فيها ، وليس انتقادهم فيها

وعيبهم لقصد صحيح ، ولا لرأي رجيح ، وإنَّما مقصودهم أن يُعطَوا منها ، ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ وهذه حالة لا تنبغي للعبد أن يكون رضاه وغضبه ، تابعا لهوى نفسه الدُّنيوي وغرضه الفاسد ، بل الَّذي ينبغي أن يكون هواه تبعا لمرضاة ربِّه ، كما قال النَّبي ﷺ : لا يُؤمِن أحدكم حتَّى يكون هواه تبعا لِمَا جئت به .(١١٥)

وقال هُنا : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَآ ءَاتَىٰهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي : أعطاهم من قليل وكثير ، ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ ، أي : كافينا الله ، فنرضى بما قسمه لنا ، وليؤملوا فضله وإحسانه إليهم بأن يقولوا : ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى اللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ أي : مُتضرِّعون في جلب منافعنا ، ودفع مضارنا ، لسلموا من النِّفاق ولهُدُوا إلى الإيمان والأحوال العالية ، ثُمَّ بيَّن تعالى كيفية قسمة الصَّدقات الواجبة فقال :

[٦٠ - ٩] : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَالْمَسَٰكِينِ وَالْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

يقول تعالى : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَٰتُ﴾ أي : الزَّكوات الواجبة ، بدليل أنَّ الصَّدقة المُستحبَّة لكُلِّ أحد ، لا يُخصُّ بها أحد دون أحد .

أي : إنَّما الصَّدقات لهؤلاء المذكورين دُون من عداهم ، لأنَّه حصرها فيهم ، وهُم ثمانية أصناف .

الأوَّل والثَّاني : الفُقراء والمساكين ، وهُم في هذا الموضع ، صِنفان متفاوتان ، فالفقير أشد حاجة من المسكين ، لأنَّ الله بدأ بهم ، ولا يبدأ إلَّا بالأهم فالأهم ، ففسَّر الفقير بأنَّه الَّذي لا يجد شيئا ، أو يجد بعض كفايته دون نصفها .

والمِسكين : الَّذي يجد نصفها فأكثر ، ولا يجد تمام كفايته ، لأنَّه لو وجدها لكان غنيًّا ، فيُعطون من الزَّكاة ما يزول به فقرهم ومسكنتهم .

والثَّالث : العاملون على الزَّكاة ، وهُم كل من له عمل وشغل فيها ، من حافظ لها ، أو جاب لها من أهلها ، أو راع ، أو حامل لها ، أو كاتب ، أو نحو ذلك ، فيُعطَون لأجل عمالتهم ، وهي أُجرة لأعمالهم فيها .

والرَّابع : المُؤلَّفة قُلوبهم ، والمُؤلَّف قلبه : هو السَّيِّد المُطاع في قومه ، ممَّن يُرجى إسلامه ، أو يُخشى شرَّه أو يُرجى بعطيَّته قُوَّة إيمانه ، أو إسلام نظيره ، أو جبايتها ممَّن لا يعطيها ، فيُعطى ما يحصُل به التَّأليف والمصلحة .

الخامس : الرِّقاب ، وهم المُكاتِبون الَّذين قد اشتروا أنفسهم من ساداتهم ، فهُم يسْعَون في تحصيل ما يفك رقابهم ، فيُعانون على ذلك من الزَّكاة ، وفك الرَّقبة المُسلِمة الَّتي في حبس الكُفَّار داخل في هذا ، بل

---

(١١٥) * ضعيف . أخرجه ابن أبي عاصم في « السُّنَّة » : (١ / ١٢ ح ١٥) . وابن بطة في « الإبانة الكُبرى » : (١ / ١١٠ ح ٢٧٩) . والخطيب في « تاريخ بغداد » ٤ / ٣٦٩) .

وفيه علَّتان : - تفرُّد نُعيم بن حمَّاد به وهو صدوق يُخطئ كثيرًا ، كما قال الحافظ في « التَّقريب » . - والثَّانية : الاختلاف فيه على نُعيم بن حمَّاد .

أولى ، ويدخل في هذا أنَّه يجوز أن يُعتق منها الرِّقاب استقلالا ، لدخوله في قوله : ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾

السَّادس : الغارمون ، وهُم قسمان : أحدهما : الغارمون لإصلاح ذات البين ، وهو أن يكون بين طائفتين من النَّاس شر وفتنة ، فيتوسَّط الرَّجُل للإصلاح بينهم بمال يبذله لأحدهم أو لهم كلهم ، فجعل له نصيب من الزَّكاة ، ليكون أنشط له وأقوى لعزمه ، فيُعطى ولو كان غنيًّا ، والثَّاني : من غرم لنفسه ثُمّ أعسر ، فإنَّه يُعطَى ما يُوَفِّي به دينه .

والسَّابع : الغازي في سبيل اللّه ، وهم : الغُزَاة المُتطوِّعة ، الَّذين لا ديوان لهم ، فيُعطون من الزَّكاة ما يُعينهم على غزوهم ، من ثمن سلاح ، أو دابَّة ، أو نفقة له ولعياله ، ليتوفَّر على الجهاد ويطمئن قلبه .

وقال كثير من الفُقهاء : إنْ تفرَّغ القادر على الكسب لطلب العلم ، أُعطي من الزَّكاة ، لأنَّ العلم داخل في الجهاد في سبيل اللّه .

وقالوا أيضا : يجوز أن يُعطى منها الفقير لحج فرضه ، وفيه نظر .

والثَّامِن : ابن السَّبيل ، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده ، فيُعطى من الزَّكاة ما يوصِّله إلى بلده ، فهؤلاء الأصناف الثَّمانية الَّذين تُدفع إليهم الزَّكاة وحدهم .

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ فرضها وقدَّرها ، تابعة لعلمه وحُكْمِه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ واعلم أنَّ هذه الأصناف الثَّمانية ، ترجع إلى أمرين : أحدهما : من يُعطى لحاجته ونفعه ، كالفقير ، والمسكين ، ونحوهما .

والثَّاني : من يُعطى للحاجة إليه وانتفاع الإسلام به ، فأوجب اللّه هذه الحِصَّة في أموال الأغنياء ، لسدِّ الحاجات الخاصَّة والعامَّة للإسلام والمُسلمين ، فلو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم على الوجه الشَّرْعي ، لم يبق فقير من المُسلمين ، ولحصُل من الأموال ما يسُد الثُّغور ، ويُجاهَد به الكُفَّار وتحصُل به جميع المصالح الدِّينيَّة .

[ ٦١ : ٦٣ - ٩] : ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ .

أي : ومن هؤلاء المُنافِقين ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ بالأقوال الرَّديَّة ، والعيب له ولدينه ، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾ أي : لا يُبالون بما يقولون من الأذيَّة للنَّبِي ، ويقولون : إذا بلغه عنَّا بعض ذلك ، جئنا نعتذر إليه ، فيقبل منَّا ، لأنَّه أُذن ، أي : يقبل كل ما يُقال له ، لا يُميِّز بين صادق وكاذب ، وقصدهم - قبَّحهم اللّه- فيما بينهم ، أنَّهُم غير مُكترِثين بذلك ، ولا مُهتمِّين به ، لأنَّه إذا لم يبلغه فهذا مطلوبهم ، وإن بلغه اكتفوا بمُجرَّد الاعتذار الباطل ، فأساءوا كل الإساءة من أوجه كثيرة ، أعظمها أذيَّة نبيهم الَّذي جاء لهدايتهم ، وإخراجهم من الشَّقاء والهلاك إلى الهُدى والسَّعادة .

ومنها : عدم اهتمامهم أيضا بذلك ، وهو قدرٌ زائد على مُجرَّد الأذيَّة .

ومنها : قدحهم في عقل النَّبِي ﷺ ، وعدم إدراكه وتفريقه بين الصَّادق والكاذب ، وهو أكمل الخَلْق

عقلا ، وأتمهم إدراكا ، وأثقبهم رأيا وبصيرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي : يقبل من قال له خيرا وصدقا .

وأما إعراضه وعدم تعنيفه لكثير من المُنافِقين المُعتذرين بالأعذار الكذب ، فلِسعة خُلُقه ، وعدم اهتمامه بشأنهم ، وامتثاله لأمر اللّه في قوله : ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ [ سُورة التَّوبة ٩٥] .

وأمّا حقيقة ما في قلبه ورأيه ، فقال عنه : ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الصَّادقين المُصدِّقين ، ويعلم الصَّادق من الكاذب ، وإنْ كان كثيرا ما يُعرِض عن الَّذين يعرف كذبهم وعدم صدقهم ، ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ فإنَّهم به يهتدون ، وبأخلاقه يقتدون .

وأمّا غير المُؤمنين فإنَّهم لم يقبلوا هذه الرَّحمة بل ردُّوها ، فخسروا دُنياهم وآخرتهم ، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ بالقول أو الفعل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدُّنيا والآخرة ، ومن العذاب الأليم أنَّه يتحتَّم قتل مُؤذيه وشاتمه .

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ فيتبرَّأوا ممَّا صدر منهم من الأذيَّة وغيرها ، فغايتهم أن ترضوا عليهم ، ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ لأنَّ المُؤمن لا يُقدِّم شيئا على رضا ربه ورضا رسوله ، فدلَّ هذا على انتفاء إيمانهم حيث قدَّموا رضا غير اللّه ورسوله .

وهذا مُحادة للّه ومُشاقة له ، وقد توعَّد من حادَّه بقوله : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي : يكون في حد وشق مُبعد عن اللّه ورسوله بأن تهاون بأوامر اللّه ، وتجرَّأ على محارمه .

﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ الَّذي لا خزي أشنع ولا أفظع منه ، حيث فاتهم النَّعيم المُقيم ، وحصَلوا على عذاب الجحيم عياذا باللّه من أحوالهم .

[ ٦٤ : ٦٦ – ٩] : ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ .

كانت هذه السُّورة الكريمة تُسمَّى « الفاضحة » لأنَّها بيَّنت أسرار المُنافِقين ، وهتكت أستارهم ، فما زال اللّه يقول : ومنهم ومنهم ، ويذكر أوصافهم ، إلَّا أنَّه لم يُعيِّن أشخاصهم لفائدتين : إحداهما : أن اللّه ستِّير يحب السَّتر على عباده .

والثَّانية : أنَّ الذَّم على من اتَّصف بذلك الوصف من المُنافِقين ، الَّذين توجه إليهم الخطاب وغيرهم إلي يوم القيامة ، فكان ذكر الوصف أعم وأنسب ، حتَّى خافوا غاية الخوف .

قال اللّه تعالى : ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ [ سُورة الأحزاب ٦٠] .

وقال هُنا : ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي : تخبرهم

وتفضحهم ، وتُبيِّن أسرارهم ، حتَّى تكون علانية لعباده ، ويكونوا عبرة للمُعتبرين .

﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾ أي : استمرُّوا على ما أنتم عليه من الاستهزاء والسُّخرية ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ وقد وفَّى تعالى بوعده ، فأنزل هذه السُّورة الَّتي بيَّنتهم وفضحتهم ، وهتكت أستارهم .

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ عمَّا قالوه من الطَّعن في المُسلِمين وفي دينهم ، يقول طائفة منهم في غزوة تبوك : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء -يعنون النبي ﷺ وأصحابه- أرغب بطونا ، وأكذب ألسنا وأجبن عند اللقاء ونحو ذلك .[١١٦]

ولمَّا بلغهم أنَّ النَّبي ﷺ ، قد علم بكلامهم ، جاءوا يعتذرون إليه ويقولون : ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أي : نتكلَّم بكلام لا قصد لنا به ، ولا قصدنا الطَّعن والعيب .

قال اللّه تعالى - مُبيِّنا عدم عُذرهم وكذبهم في ذلك- : ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ فإن الاستهزاء باللّه وآياته ورسوله كُفر مُخرِج عن الدِّين لأنَّ أصل الدِّين مبني على تعظيم اللّه ، وتعظيم دينه ورُسُله ، والاستهزاء بشيء من ذلك مُنافٍ لهذا الأصل ، ومُناقِض له أشد المُناقضة .

ولهذا لمَّا جاءوا إلى الرَّسُول يعتذرون بهذه المقالة ، والرَّسول لا يزيدهم على قوله : ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ .

وقوله ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ لتوبتهم واستغفارهم وندمهم ، ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ منكم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنَّهم ﴿كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ مُقيمين على كُفرهم ونفاقهم .

وفي هذه الآيات دليل على أنَّ من أسرَّ سريرة ، خُصوصا السَّريرة الَّتي يمكر فيها بدينه ، ويستهزئ به وبآياته ورسوله ، فإنَّ اللّه تعالى يُظهرها ويفضح صاحبها ، ويُعاقبه أشدَّ العُقوبة .

وأنَّ من استهزأ بشيء من كتاب اللّه أو سُنَّة رسوله الثَّابتة عنه ، أو سخر بذلك ، أو تنقَّصه ، أو استهزأ بالرَّسُول أو تنقَّصه ، فإنَّه كافر باللّه العظيم ، وأنَّ التَّوبة مقبولة من كُلِّ ذنب ، وإن كان عظيما .

[٦٧ - ٦٨ : ٩] : ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾

---

(١١٦) * حسن . أخرجه ابن جرير في « تفسيره » : (١٠ / ١١٩) .
عن مُحمَّد بن كعب ، وزيد بن اسلم ، وقتادة وكلها مُرسلة .
بينما أخرجه ابن جرير « تفسيره » : (١٠ / ١١٩) . وابن أبي حاتم في « تفسيره » : (٤ / ٦٤) .
عن ابن عُمر .
قال العلاَّمة مُقبل بن هادي الوادعي في « الصَّحيح المُسند من أسباب النُّزول » ص ١٠٩:
( الحديث رجاله رجال الصَّحيح إلَّا هشام بن سعد ، فلم يُخرج له مُسلم إلَّا في الشَّواهد ، كما في الميزان . وله شاهد بسند حسن عند ابن أبي حاتم ٤ / ٦٤ من حديث كعب بن مالك ) .اهـ

يقول تعالى : ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ لأنَّهم اشتركوا في النِّفاق ، فاشتركوا في تولِّي بعضهم بعضا ، وفي هذا قطع للمُؤمنين من ولايتهم .

ثُمَّ ذكر وصف المُنافِقين العام ، الَّذي لا يخرج منه صغير منهم ولا كبير ، فقال : ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ وهو الكُفر والفُسوق والعِصيان ، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهو الإيمان ، والأخلاق الفاضلة ، والأعمال الصَّالحة ، والآداب الحسنة ، ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الصَّدقة وطُرُق الإحسان ، فوصفهم البُخل .

﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فلا يذكرونه إلَّا قليلا ، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ من رحمته ، فلا يوفِّقهم لخير ، ولا يُدخلهم الجنَّة ، بل يتركهم في الدَّرك الأسفل من النَّار ، خالدين فيها مُخلَّدين .

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ حصر الفِسق فيهم ، لأنَّ فسقهم أعظم من فِسق غيرهم ، بدليل أنَّ عذابهم أشد من عذاب غيرهم ، وأنَّ المُؤمنين قد ابتُلوا بهم ، إذ كانوا بين أظهرهم ، والاحتراز منهم شديد .

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ جمع المُنافِقين والكُفَّار في النَّار ، واللعنة والخُلود في ذلك ، لاجتماعهم في الدُّنيا على الكُفر ، والمُعاداة للّه ورسوله ، والكُفر بآياته .

[ ٦٩ : ٧٠ — ٩ ] : ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ .

يقول تعالى مُحذِّرا المُنافِقين أن يُصيبهم ما أصاب من قبلهم من الأُمم المُكذِّبة ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ أي : قُرى قوم لوط ، فكلهم ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي : بالحقِّ الواضح الجلي ، المُبيِّن لحقائق الأشياء ، فكذَّبوا بها ، فجرى عليهم ما قصَّ اللّه علينا ، فأنتم أعمالكم شبيهة بأعمالهم ، استمتعتم بخلاقكم ، أي : بنصيبكم من الدُّنيا فتناولتموه على وجه اللذَّة والشَّهوة مُعرِضين عن المُراد منه ، واستعنتُم به على معاصي اللّه ، ولم تتعد همتكم وإرادتكم ما خُولتم من النِّعم كما فعل الَّذين من قبلكم وخُضتُم كالَّذي خاضوا ، أي : وخُضتم بالباطل والزُّور وجادلتم بالباطل لتدحضوا به الحق ، فهذه أعمالهم وعلومهم ، استمتاع بالخلاق وخوض بالباطل ، فاستحقُّوا من العُقوبة والإهلاك ما استحق من قبلهم ممَّن فعلوا كفعلهم ، وأمَّا المؤمنون فهُم وإن استمتعوا بنصيبهم وما خولوا من الدُّنيا ، فإنَّه على وجه الاستعانة به على طاعة اللّه ، وأمَّا علومهم فهي علوم الرُّسُل ، وهي الوصول إلى اليقين في جميع المطالب العالية ، والمُجادلة بالحق لإدحاض الباطل .

قوله ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ إذ أوقع بهم من عُقوبته ما أوقع ، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث تجرَّأوا على معاصيه ، وعصوا رُسلهم ، واتَّبعوا أمر كل جبار عنيد .

[ ٧١: ٧٢ – ٩] : ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ .

لمَّا ذكر أنَّ المُنافِقين بعضهم أولياء بعض ذكر أنَّ المُؤمنين بعضهم أولياء بعض ، ووصفهم بضدِّ ما وصف به المُنافِقين ، فقال : ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ أي : ذكورهم وإناثهم ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ في المحبَّة والموالاة ، والانتماء والنُّصرة .

﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهو : اسم جامع ، لكُلِّ ما عُرِفَ حُسنه ، من العقائد الحسنة ، والأعمال الصَّالحة ، والأخلاق الفاضلة ، وأوَّل من يدخل في أمرهم أنفسهم ، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ﴾ وهو كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة ، والأعمال الخبيثة ، والأخلاق الرَّذيلة .

﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾ أي : لا يزالون مُلازمين لطاعة الله ورسوله على الدَّوام .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ أي : يدخلهم في رحمته ، ويشملهم بإحسانه .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي : قوي قاهر ، ومع قوَّته فهو حكيم ، يضع كل شيء موضعه اللائق به الَّذي يُحمد على ما خلقه وأمر به .

ثُمَّ ذكر ما أعدَّ الله لهم من الثَّواب فقال : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ جامعة لكلِّ نعيم وفرح ، خالية من كُلِّ أذى وترح ، تجري من تحت قصورها ودورها وأشجارها الأنهار الغزيرة ، المرويَّة للبساتين الأنيقة ، الَّتي لا يعلم ما فيها من الخيرات والبركات إلَّا الله تعالى .

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يبغون عنها حِوَلًا ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾ قد زُخرفت وحُسِّنت وأُعدَّت لعباد الله المُتَّقين ، قد طاب مرآها ، وطاب منزلها ومقيلها ، وجمعت من آلات المساكن العالية ما لا يتمنَّى فوقه المُتمنُّون ، حتَّى إنَّ الله تعالى قد أعدَّ لهُم غُرفا في غاية الصَّفاء والحُسن ، يُرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها .

فهذه المساكن الأنيقة ، الَّتي حقيق بأن تَسكُن إليها النُّفوس ، وتُنزَع إليها القُلوب ، وتشتاق لها الأرواح ، لأنَّها في جنَّات عدن ، أي : إقامة لا يظعنون عنها ، ولا يتحوَّلون منها .

﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يحله على أهل الجنَّة ﴿أَكْبَرُ﴾ ممَّا هُم فيه من النَّعيم ، فإنَّ نعيمهم لم يطب إلَّا برؤية ربهم ورضوانه عليهم ، ولأنَّه الغاية التي أمَّها العابدون ، والنِّهاية الَّتي سعى نحوها المُحبُّون ، فرضا رب الأرض والسماوات ، أكبر من نعيم الجنَّات .

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ حيث حصلوا على كُلِّ مطلوب ، وانتفى عنهم كُل محذور ، وحسُنت وطابت منهم جميع الأُمور ، فنسأل الله أن يجعلنا معهم بجُوده .

[ ٧٣: ٧٤ – ٩] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ وَمَا

نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

يقول تعالى لنبيّه ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي : بالغ في جهادهم والغلظة عليهم حيث اقتضت الحال الغلظة عليهم .

وهذا الجهاد يدخل فيه الجهاد باليد ، والجهاد بالحُجّة واللسان ، فمن بارز منهم بالمحاربة فيجاهد باليد ، واللسان والسيف والبيان ، ومن كان مُذعِنا للإسلام بذمّة أو عهد ، فإنَّه يُجاهَد بالحُجّة والبرهان ويُبيّن له محاسن الإسلام ، ومساوئ الشرك والكفر ، فهذا ما لهم في الدنيا .

﴿و﴾ أمّا في الآخرة ، فـ ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ﴾ أي : مقرهم الذي لا يخرجون منها ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ أي : إذا قالوا قولا كقول من قال منهم ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ﴾ [ سُورة المُنافقون ٨ ] ، والكلام الذي يتكلّم به الواحد بعد الواحد ، في الاستهزاء بالدين ، وبالرسول ، فإذا بلغهم أن النبي ﷺ قد بلغه شيء من ذلك ، جاءوا إليه يحلفون باللّه ما قالوا .

قال تعالى مُكذّبا لهم ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ فإسلامهم السابق –وإن كان ظاهره أنه أخرجهم من دائرة الكفر – فكلامهم الأخير ينقض إسلامهم ، ويدخلهم بالكفر .

﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ۚ﴾ وذلك حين همُّوا بالفتك برسول اللّه ﷺ في غزوة « تَبُوك » ، فقص اللّه عليه نبأهم ، فأمر من يصدهم عن قصدهم .

﴿و﴾ الحال أنهم ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ﴾ وعابوا من رسول اللّه ﷺ ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ﴾ بعد أن كانوا فقراء مُعْوِزين ، وهذا من أعجب الأشياء ، أن يستهينوا بمن كان سببا لإخراجهم من الظلمات إلى النور ، ومغنيا لهم بعد الفقر ، وهل حقّه عليهم إلا أن يُعظّموه ، ويؤمنوا به ويُجلّوه ؟ ، فاجتمع الداعي الديني وداعي المُروءة الإنسانية ، ثم عرض عليهم التوبة فقال : ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ﴾ لأن التوبة ، أصل لسعادة الدنيا والآخرة .

﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ﴾ عن التوبة والإنابة ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ في الدنيا بما ينالهم من الهم والغم والحزن على نصرة اللّه لدينه ، وإعزاز نبيه ، وعدم حصولهم على مطلوبهم ، وفي الآخرة ، في عذاب السعير .

﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ﴾ يتولّى أمورهم ، ويحصل لهم المطلوب ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنهم المكروه ، وإذا انقطعوا من ولاية اللّه تعالى ، فَثَمَّ أصناف الشر والخُسران ، والشقاء والحرمان .

[ ٧٥ : ٧٨ – ٩ ] : ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ .

أي : ومن هؤلاء المُنافقين من أعطى اللّه عهده وميثاقه ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ من الدنيا فبسطها

لنا ووسَّعها ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فنصل الرحم ، ونُقري الضيف ، ونُعين على نوائب الحق ، ونفعل الأفعال الحسنة الصالحة .

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ لم يفوا بما قالوا ، بل ﴿بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ﴾ عن الطاعة والانقياد ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي : غير مُلتفتين إلى الخير .

فلما لم يَفوا بما عاهدوا الله عليه ، عاقبهم ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ مُستمرًّا ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ .

فليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع ، أن يُعاهِد ربه ، إن حصل مقصوده الفلاني ليفعلن كذا وكذا ، ثم لا يفي بذلك ، فإنه ربما عاقبه الله بالنفاق كما عاقب هؤلاء .

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الثابت في الصحيحين : آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف .(١١٧)

فهذا المنافق الذي وعد الله وعاهده ، لئن أعطاه الله من فضله ، ليَصَّدَّقنَّ وليَكُوننَّ من الصالحين ، حدَّث فكذب ، وعاهد فغدر ، ووعد فأخلف .

ولهذا توعد من صدر منهم هذا الصنيع ، بقوله : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ وسيجازيهم على ما عملوا من الأعمال التي يعلمها الله تعالى ، وهذه الآيات نزلت في رجل من المنافقين يقال له « ثعلبة »(١١٨) جاء إلى النبي ﷺ ، وسأله أن يدعو الله له ، أن يعطيه الله من فضله ، وأنه إن أعطاه ، ليتصدقن ، ويصل الرحم ، ويعين على النوائب ، فدعا له النبي ﷺ ، فكان له غنم ، فلم تزل تتنامى ، حتى خرج بها عن المدينة ، فكان لا يحضر إلا بعض الصلوات الخمس ، ثم أبعد ، فكان لا يحضر إلا صلاة الجمعة ، ثم كثرت فأبعد بها ، فكان لا يحضر جمعة ولا جماعة .

ففقده النبي ﷺ ، فأُخبِرَ بحاله ، فبعث من يأخذ الصدقات من أهلها ، فمروا على ثعلبة ، فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية ، فلما لم يعطهم جاءوا فأخبروا بذلك النبي ﷺ فقال : يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة ثلاثا .

فلما نزلت هذه الآية فيه ، وفي أمثاله ، ذهب بها بعض أهله فبلغه إياها ، فجاء بزكاته ، فلم يقبلها النبي ﷺ ، ثم جاء بها لأبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ فلم يقبلها ، ثم جاء بها بعد أبي بكر لعمر فلم يقبلها ، فيقال : إنه هلك في زمن عثمان .(١١٩)

[ ٧٩ : ٨٠ - ٩ ] : ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن

(١١٧) * مُتَّفقٌ عليه . وقد سبق تخريجه في الحاشية رقم : « » .

(١١٨) يعني ابن حاطِب .

(١١٩) * هذه القصة ضعيفة . وللشَّيخ سليم الهلالي - حفظه الله - جزء حديثي قيم في تضعيفها .

تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾

وهذا أيضا من مخازي المنافقين ، فكانوا – قبّحهم الله- لا يدعون شيئا من أمور الإسلام والمسلمين يرون لهم مقالا ، إلا قالوا وطعنوا بغيا وعدوانا ، فلما حثَّ الله ورسوله على الصدقة ، بادر المسلمون إلى ذلك ، وبذلوا من أموالهم كل على حسب حاله ، منهم المكثر ، ومنهم المقل ، فيلمزون المكثر منهم ، بأن قصده بنفقته الرياء والسمعة ، وقالوا للمقل الفقير : إن الله غني عن صدقة هذا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ أي : يعيبون ويطعنون ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ فيقولون : مراءون ، قصدهم الفخر والرياء .

﴿و﴾ يلمزون ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ فيخرجون ما استطاعوا ويقولون : الله غني عن صدقاتهم ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ .

فقابلهم الله على صنيعهم بأن ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فإنهم جمعوا في كلامهم هذا بين عدة محاذير : منها : تتبعهم لأحوال المؤمنين ، وحرصهم على أن يجدوا مقالا يقولونه فيهم ، والله يقول : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

ومنها : طعنهم بالمؤمنين لأجل إيمانهم ، كفر بالله تعالى وبغض للدين .

ومنها : أن اللمز مُحرَّم ، بل هو من كبائر الذنوب في أمور الدنيا ، وأما اللمز في أمر الطاعة ، فأقبح وأقبح .

ومنها : أن من أطاع الله وتطوع بخصلة من خصال الخير ، فإن الذي ينبغي هو إعانته ، وتنشيطه على عمله ، وهؤلاء قصدوا تثبيطهم بما قالوا فيهم ، وعابوهم عليه .

ومنها : أن حكمهم على من أنفق مالا كثيرا بأنه مُرَاء ، غلط فاحش ، وحكم على الغيب ، ورجم بالظن ، وأي شر أكبر من هذا ؟ !!

ومنها : أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة : « الله غني عن صدقة هذا » كلام مقصوده باطل ، فإن الله غني عن صدقة المُتصدِّق بالقليل والكثير ، بل وغني عن أهل السماوات والأرض ، ولكنه تعالى أمر العباد بما هم مُفتقِرون إليه ، فالله -وإن كان غنيا عنهم- فهم فقراء إليه ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [ الزَّلزلة ٨] ، وفي هذا القول من التثبيط عن الخير ما هو ظاهر بين ، ولهذا كان جزاؤهم أن سخر الله منهم ، ولهم عذاب أليم .

[ ٨٠ – ٩] : ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ .

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ على وجه المبالغة ، وإلا ، فلا مفهوم لها .

﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ

﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ ثم ذكر السبب المانع لمغفرة الله لهم فقال : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ والكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل ما دام كافرا .

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي : الذين صار الفسق لهم وصفا ، بحيث لا يختارون عليه سواه ولا يبغون به بدلا ، يأتيهم الحق الواضح فيردونه ، فيعاقبهم الله تعالى بأن لا يوفقهم له بعد ذلك .

[ ٨١: ٨٣ – ٩] : ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ .

يقول تعالى مُبيِّنا تبجح المنافقين بتخلفهم وعدم مبالاتهم بذلك ، الدال على عدم الإيمان ، واختيار الكفر على الإيمان .

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ وهذا قدر زائد على مُجرَّد التخلف ، فإن هذا تخلف مُحرَّم ، وزيادة رضا بفعل المعصية ، وتبجح به .

﴿وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهذا بخلاف المؤمنين الذين إذا تخلفوا –ولو لعذر– حزنوا على تخلفهم وتأسَّفوا غاية الأسف ، ويحبون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، لما في قلوبهم من الإيمان ، ولما يرجون من فضل الله وإحسانه وبره وامتنانه .

﴿وَقَالُوا۟﴾ أي : المنافقون ﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ أي : قالوا إن النفير مشقَّة علينا بسبب الحر ، فقدموا راحة قصيرة منقضية على الراحة الأبدية التامة ، وحذَّروا من الحر الذي يقي منه الظلال ، ويذهبه البكر والآصال ، على الحر الشديد الذي لا يقادر قدره ، وهو النار الحامية .

ولهذا قال : ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ لما آثروا ما يفنى على ما يبقى ، ولما فروا من المشقة الخفيفة المنقضية ، إلى المشقة الشديدة الدائمة .

قال الله تعالى : ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ أي : فليتمتعوا في هذه الدار المنقضية ، ويفرحوا بلذاتها ، ويلهوا بلعبها ، فسيبكون كثيرا في عذاب أليم ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والنفاق ، وعدم الانقياد لأوامر ربهم .

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ وهم الذين تخلَّفوا من غير عذر ، ولم يحزنوا على تخلفهم ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ لغير هذه الغزوة ، إذا رأوا السهولة . ﴿فَقُل﴾ لهم عقوبة ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ فسيغني الله عنكم .

﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ وهذا كما قال تعالى ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإن المُتثاقِل المُتخلِّف عن المأمور به عند انتهاز الفرصة ، لا يوفق له بعد ذلك ، ويحال بينه وبينه .

وفيه أيضا تعزير لهم ، فإنه إذا تقرر عند المسلمين أن هؤلاء من الممنوعين من الخروج إلى الجهاد

لمعصيتهم ، كان ذلك توبيخا لهم ، وعارا عليهم ونكالا أن يفعل أحد كفعلهم .

[٨٤ – ٩] : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾

يقول تعالى : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ من المنافقين ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ بعد الدفن لتدعو له ، فإن صلاته ووقوفه على قبورهم شفاعة منه لهم ، وهم لا تنفع فيهم الشفاعة .

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ ومن كان كافرا ومات على ذلك ، فما تنفعه شفاعة الشافعين ، وفي ذلك عبرة لغيرهم ، وزجر ونكال لهم ، وهكذا كل من علم منه الكفر والنفاق ، فإنه لا يصلى عليه .

وفي هذه الآية دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين ، والوقوف عند قبورهم للدعاء لهم ، كما كان النبي ﷺ ، يفعل ذلك في المؤمنين ، فإن تقييد النهي بالمنافقين يدل على أنه قد كان مُتقرّرا في المؤمنين .

[٨٥ – ٩] : ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ .

أي : لا تغتر بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال والأولاد ، فليس ذلك لكرامتهم عليه ، وإنما ذلك إهانة منه لهم ، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ فيتعبون في تحصيلها ، ويخافون من زوالها ، ولا يتهنئون بها ؛ بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاق فيها ، وتلهيهم عن الله والدار الآخرة ، حتى ينتقلوا من الدنيا ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ قد سلبهم حبها عن كل شيء ، فماتوا وقلوبهم بها متعلقة ، وأفئدتهم عليها مُتحرّقة .

[٨٦: ٨٧ – ٩] : ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾

يقول تعالى في بيان استمرار المنافقين على التثاقل عن الطاعات ، وأنها لا تؤثر فيهم السور والآيات : ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ يؤمرون فيها بالإيمان بالله والجهاد في سبيل الله ، ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ يعني : أولي الغنى والأموال ، الذين لا عذر لهم ، وقد أمدهم الله بأموال وبنين ، أفلا يشكرون الله ويحمدونه ، ويقومون بما أوجبه عليهم ، وسهّل عليهم أمره ، ولكن أبوا إلا التكاسل والاستئذان في القعود ﴿وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ .

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ أي : كيف رضوا لأنفسهم أن يكونوا مع النساء المتخلفات عن الجهاد ، هل معهم فقه أو عقل دلهم على ذلك ؟ أم طبع الله على قلوبهم فلا تعي الخير ، ولا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخير والفلاح ؟ فهم لا يفقهون مصالحهم ، فلو فقهوا حقيقة الفقه ، لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال التي تحطهم عن منازل الرجال .

[٨٨: ٨٩ – ٩] : ﴿لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ .

يقول تعالى : إذا تخلّف هؤلاء المنافقون عن الجهاد ، فاللّه سيغني عنهم ، وللّه عباد وخواص من خلقه اختصهم بفضله يقومون بهذا الأمر ، وهم ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ محمد ﷺ ، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ﴾ غير مُتثاقلين ولا كسلين ، بل هم فرحون مستبشرون ، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾ الكثيرة في الدنيا والآخرة ، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الذين ظفروا بأعلى المطالب وأكمل الرغائب .

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ فتبًا لمن لم يرغب بما رغبوا فيه ، وخسر دينه ودنياه وأخراه ، وهذا نظير قوله تعالى ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا﴾ وقوله : ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ .

[ ٩٠: ٩٣ — ٩] : ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٠﴾ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ﴾ أي : جاء الذين تهاونوا ، وقصروا منهم في الخروج لأجل أن يؤذن لهم في ترك الجهاد ، غير مبالين في الاعتذار لجفائهم وعدم حيائهم ، وإتيانهم بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف .

وأما الذين كذبوا اللّه ورسوله منهم ، فقعدوا وتركوا الاعتذار بالكلية ، ويحتمل أن معنى قوله : ﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ أي : الذين لهم عذر ، أتوا إلى رسول الله ﷺ ليعذرهم ، ومن عادته أن يعذر من له عذر .

﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ في دعواهم الإيمان ، المقتضي للخروج ، وعدم عملهم بذلك ، ثم توعّدهم بقوله : ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ في الدنيا والآخرة .

لما ذكر المعتذرين ، وكانوا على قسمين ، قسم معذور في الشرع ، وقسم غير معذور ، ذكر ذلك بقوله : ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ في أبدانهم وأبصارهم ، الذين لا قوة لهم على الخروج والقتال .

﴿وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ﴾ وهذا شامل لجميع أنواع المرض الذي لا يقدر صاحبه معه على الخروج والجهاد ، من عرج ، وعمى ، وحمى ، وذات الجنب ، والفالج ، وغير ذلك .

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ أي : لا يجدون زادا ، ولا راحلة يتبلغون بها في سفرهم ، فهؤلاء ليس عليهم حرج ، بشرط أن ينصحوا للّه ورسوله ، بأن يكونوا صادقي الإيمان ، وأن يكون من نيتهم وعزمهم أنهم لو قدروا لجاهدوا ، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع على الجهاد .

﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ أي : من سبيل يكون عليهم فيه تبعة ، فإنهم -بإحسانهم فيما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد- أسقطوا توجه اللوم عليهم ، وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه ، سقط عنه ما لا يقدر عليه .

ويستدل بهذه الآية على قاعدة وهي : أن من أحسن على غيره ، في نفسه أو في ماله ، ونحو ذلك ، ثم ترتب على إحسانه نقص أو تلف ، أنه غير ضامن لأنه محسن ، ولا سبيل على المحسنين ، كما أنه يدل على أن غير المحسن -وهو المسيء- كالمُفرِّط ، أن عليه الضمان .

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ومن مغفرته ورحمته ، عفا عن العاجزين ، وأثابهم بنيّتهم الجازمة ثواب القادرين الفاعلين .

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ فلم يصادفوا عندك شيئا ﴿قُلْتَ﴾ لهم معتذرا : ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ فإنهم عاجزون باذلون لأنفسهم ، وقد صدر منهم من الحزن والمشقّة ما ذكره الله عنهم .

فهؤلاء لا حرج عليهم ، وإذا سقط الحرج عنهم ، عاد الأمر إلى أصله ، وهو أن من نوى الخير ، واقترن بنيته الجازمة سَعْيٌ فيما يقدر عليه ، ثم لم يقدر ، فإنه ينزل منزلة الفاعل التام .

ر ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ يتوجه واللوم يتناول الذين يستأذنوك وهم أغنياء قادرون على الخروج لا عذر لهم ، فهؤلاء ﴿رَضُواْ﴾ لأنفسهم ومن دينهم ﴿بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ كالنساء والأطفال ونحوهم .

﴿و﴾ إنما رضوا بهذه الحال لأن الله طبع على قلوبهم أي : ختم عليها ، فلا يدخلها خير ، ولا يحسون بمصالحهم الدينية والدنيوية ، ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عقوبة لهم ، على ما اقترفوا .

[ ٩٤ : ٩٦ – ٩ ] : ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ .

لمّا ذكر تخلُّف المنافقين الأغنياء ، وأنهم لا عذر لهم ، أخبر أنهم سـ ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من غزاتكم .

﴿قُل﴾ لهم ﴿لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي : لن نصدقكم في اعتذاركم الكاذب .

﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ وهو الصادق في قيله ، فلم يبق للاعتذار فائدة ، لأنهم يعتذرون بخلاف ما أخبر الله عنهم ، ومحال أن يكونوا صادقين فيما يخالف خبر الله الذي هو أعلى مراتب الصدق .

﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ في الدنيا ، لأن العمل هو ميزان الصدق من الكذب ، وأما مُجرَّد الأقوال ، فلا دلالة فيها على شيء من ذلك .

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية ، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

﴿تَعۡمَلُونَ﴾ من خير وشر، ويجازيكم بعدله أو بفضله، من غير أن يظلمكم مثقال ذرة.

وأعلم أن المسيء المذنب له ثلاث حالات: إما [ أن ] يقبل قوله وعذره، ظاهرا وباطنا، ويعفى عنه بحيث يبقى كأنه لم يذنب. فهذه الحالة هي المذكورة هنا في حق المنافقين، أن عذرهم غير مقبول، وأنه قد تقررت أحوالهم الخبيثة وأعمالهم السيئة، وإما أن يعاقبوا بالعقوبة والتعزير الفعلي على ذنبهم، وإما أن يعرض عنهم، ولا يقابلوا بما فعلوا بالعقوبة الفعلية، وهذه الحال الثالثة هي التي أمر الله بها في حق المنافقين، ولهذا قال: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡ﴾ أي: لا توبخوهم، ولا تجلدوهم أو تقتلوهم.

﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ﴾ أي: إنهم قذر خبثاء، ليسوا بأهل لأن يُبالَى بهم، وليس التوبيخ والعقوبة مفيدا فيهم، ﴿وَ﴾ تكفيهم عقوبة جهنم جزاء بما كانوا يكسبون.

وقوله: ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ﴾ أي: ولهم أيضا هذا المقصد الآخر منكم، غير مُجرَّد الإعراض، بل يحبون أن ترضوا عنهم، كأنهم ما فعلوا شيئا.

﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي: فلا ينبغي لكم -أيها المؤمنون- أن ترضوا عن من لم يرض الله عنه، بل عليكم أن توافقوا ربكم في رضاه وغضبه.

وتأمل كيف قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ ولم يقل: « فإن الله لا يرضى عنهم »، ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم، فإن الله يتوب عليهم، ويرضى عنهم.

وأما ما داموا فاسقين، فإن الله لا يرضى عليهم، لوجود المانع من رضاه، وهو خروجهم عن ما رضيه الله لهم من الإيمان والطاعة، إلى ما يغضبه من الشرك، والنفاق، والمعاصي.

وحاصل ما ذكره الله أن المنافقين المُتخلِّفين عن الجهاد من غير عذر، إذا اعتذروا للمؤمنين، وزعموا أن لهم أعذارا في تخلفهم، فإن المنافقين يريدون بذلك أن تعرضوا عنهم، وترضوا وتقبلوا عذرهم، فأما قبول العذر منهم والرضا عنهم، فلا حبا ولا كرامة لهم.

وأما الإعراض عنهم، فيعرض المؤمنون عنهم، إعراضهم عن الأمور الردية والرجس، وفي هذه الآيات، إثبات الكلام لله تعالى في قوله: ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ وإثبات الأفعال الاختيارية لله، الواقعة بمشيئته تعالى وقدرته في هذا، وفي قوله: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ أخبر أنه سيراه بعد وقوعه، وفيها إثبات الرضا لله عن المحسنين، والغضب والسخط على الفاسقين.

[ ٩٧ : ٩٩ - ٩ ]: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

يقول تعالى: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ﴾ وهم سُكَّان البادية والبراري ﴿أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾ من الحاضرة الذين فيهم كفر ونفاق، وذلك لأسباب كثيرة: منها: أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية والأعمال والأحكام،

فهم أحرى ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ من أصول الإيمان وأحكام الأوامر والنواهي ، بخلاف الحاضرة ، فإنهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، فيحدث لهم -بسبب هذا العلم- تصورات حسنة ، وإرادات للخير ، الذي يعلمون ، ما لا يكون في البادية ، وفيهم من لطافة الطبع والانقياد للداعي ما ليس في البادية ، ويجالسون أهل الإيمان ، ويخالطونهم أكثر من أهل البادية ، فلذلك كانوا أحرى للخير من أهل البادية ، وإن كان في البادية والحاضرة ، كفار ومنافقون ، ففي البادية أشد وأغلظ مما في الحاضرة . ومن ذلك أن الأعراب أحرص على الأموال ، وأشح فيها .

فمنهم : ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ من الزكاة والنفقة في سبيل الله وغير ذلك ، ﴿مَغْرَمًا﴾ أي : يراها خسارة ونقصا ، لا يحتسب فيها ، ولا يريد بها وجه الله ، ولا يكاد يؤديها إلا كرها .

﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ أي : من عداوتهم للمؤمنين وبغضهم لهم ، أنهم يودون وينتظرون فيهم دوائر الدهر ، وفجائع الزمان ، وهذا سينعكس عليهم فعليهم دائرة السوء .

وأما المؤمنون فلهم الدائرة الحسنة على أعدائهم ، ولهم العقبى الحسنة ، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعلم نيات العباد ، وما صدرت عنه الأعمال ، من إخلاص وغيره .

وليس الأعراب كلهم مذمومين ، بل منهم ﴿مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فيسلم بذلك من الكفر والنفاق ويعمل بمقتضى الإيمان .

﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ﴾ أي : يحتسب نفقته ، ويقصد بها وجه الله تعالى والقرب منه و يجعلها وسيلة لـ ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ أي : دعائه لهم ، وتبريكه عليهم ، قال تعالى مبينا لنفع صلوات الرسول : ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ تقربهم إلى الله ، وتنمي أموالهم وتحل فيها البركة .

﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ في جملة عباده الصالحين إنه غفور رحيم ، فيغفر السيئات العظيمة لمن تاب إليه ، ويعم عباده برحمته ، التي وسعت كل شيء ، ويخص عباده المؤمنين برحمة يوفقهم فيها إلى الخيرات ، ويحميهم فيها من المخالفات ، ويجزل لهم فيها أنواع المثوبات .

وفي هذه الآية دليل على أن الأعراب كأهل الحاضرة ، منهم الممدوح ومنهم المذموم ، فلم يذمهم الله على مُجرَّد تعربهم وباديتهم ، إنما ذمهم على ترك أوامر الله ، وأنهم في مظنة ذلك .

ومنها : أن الكفر والنفاق يزيد وينقص ويغلظ ويخف بحسب الأحوال .

ومنها : فضيلة العلم ، وأن فاقده أقرب إلى الشر ممن يعرفه ، لأن الله ذم الأعراب ، وأخبر أنهم أشد كفرا ونفاقا ، وذكر السبب الموجب لذلك ، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله .

ومنها : أن العلم النافع الذي هو أنفع العلوم ، معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله ، من أصول الدين وفروعه ، كمعرفة حدود الإيمان ، والإسلام ، والإحسان ، والتقوى ، والفلاح ، والطاعة ، والبر ، والصلة ، والإحسان ، والكفر ، والنفاق ، والفسوق ، والعصيان ، والزنا ، والخمر ، والربا ، ونحو ذلك . فإن في معرفتها يتمكن من فعلها -إن كانت مأمور بها ، أو تركها إن كانت محظورة- ومن الأمر بها أو النهي عنها .

ومنها : أنه ينبغي للمؤمن أن يؤدي ما عليه من الحقوق ، منشرح الصدر ، مطمئن النفس ، ويحرص أن

تكون مغنما ، ولا تكون مغرما .

[١٠٠ – ٩] : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

السابقون هم الذين سبقوا هذه الأمة وبدروها إلى الإيمان والهجرة ، والجهاد ، وإقامة دين اللّه .

﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾ ، ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [ سورة الحشر ٨] .

ومن ﴿وَالْأَنصَارِ﴾ ، ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [ سورة الحشر ٩] .

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ بالاعتقادات والأقوال والأعمال ، فهؤلاء ، هم الذين سلموا من الذم ، وحصل لهم نهاية المدح ، وأفضل الكرامات من اللّه .

﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ ورضاه تعالى أكبر من نعيم الجنة ، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ الجارية التي تساق إلى سَقْيِ الجنان ، والحدائق الزاهية الزاهرة ، والرياض الناضرة .

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا يبغون عنها حولا ، ولا يطلبون منها بدلا ، لأنهم مهما تمنوه ، أدركوه ، ومهما أرادوه ، وجدوه .

﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي حصل لهم فيه ، كل محبوب للنفوس ، ولذة للأرواح ، ونعيم للقلوب ، وشهوة للأبدان ، واندفع عنهم كل محذور .

[١٠١] ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ﴾ أيضا منافقون ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أي : تمرَّنوا عليه ، واستمروا وازدادوا فيه طغيانا .

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ﴾ بأعيانهم فتعاقبهم ، أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم ، لما للّه في ذلك من الحكمة الباهرة .

﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ يحتمل أن التثنية على بابها ، وأن عذابهم عذاب في الدنيا ، وعذاب في الآخرة .

ففي الدنيا ما ينالهم من الهم والحزن ، والكراهة لما يصيب المؤمنين من الفتح والنصر ، وفي الآخرة عذاب النار وبئس القرار .

ويُحتمل أن المراد سنغلظ عليهم العذاب ، ونضاعفه عليهم ونكرره .

[١٠٢ – ١٠٣] ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

يقول تعالى : ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ ممَّن بالمدينة ومن حولها ، بل ومن سائر البلاد الإسلامية ، ﴿ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي : أقروا بها ، وندموا عليها ، وسعوا في التوبة منها ، والتطهر من أدْرَانها .

﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ ولا يكون العمل صالحا إلا إذا كان مع العبد أصل التوحيد والإيمان ، المُخرج عن الكفر والشرك ، الذي هو شرط لكل عمل صالح ، فهؤلاء خلطوا الأعمال الصالحة ، بالأعمال السيئة ، من التجرؤ على بعض المُحرَّمات ، والتقصير في بعض الواجبات ، مع الاعتراف بذلك والرجاء ، بأن يغفر اللّه لهم ، فهؤلاء ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وتوبته على عبده نوعان ، الأول : التوفيق للتوبة ، والثاني : قبولها بعد وقوعها منهم .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي : وصفه المغفرة والرحمة اللتان لا يخلو مخلوق منهما ، بل لا بقاء للعالم العلوي والسفلي إلا بهما ، فلو يؤاخذ اللّه الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [ سُورة فاطر ٤١ ] .

ومن مغفرته أن المسرفين على أنفسهم الذين قطعوا أعمارهم بالأعمال السيئة ، إذا تابوا إليه وأنابوا ولو قبيل موتهم بأقل القليل ، فإنه يعفو عنهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم ، فهذه الآية ، دلت على أن المخلط المعترف النادم ، الذي لم يَتُبْ توبة نصوحا ، أنه تحت الخوف والرجاء ، وهو إلى السلامة أقرب .

وأما المُخلِّط الذي لم يعترف ويندم على ما مضى منه ، بل لا يزال مصرا على الذنوب ، فإنه يخاف عليه أشد الخوف .

قال تعالى لرسوله ومن قام مقامه ، آمرا له بما يطهر المؤمنين ، ويتمم إيمانهم : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ وهي الزكاة المفروضة ، ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أي : تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة .

﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ أي : تنميهم ، وتزيد في أخلاقهم الحسنة ، وأعمالهم الصالحة ، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والأخروي ، وتنمي أموالهم .

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي : ادع لهم ، أي : للمؤمنين عموما وخصوصا عندما يدفعون إليك زكاة أموالهم ، ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ أي : طمأنينة لقلوبهم ، واستبشار لهم ، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائك ، سمع إجابة وقبول .

﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال العباد ونيَّاتهم ، فيجازي كل عامل بعمله ، وعلى قدر نيته ، فكان النبي ﷺ يمتثل لأمر اللّه ، ويأمرهم بالصدقة ، ويبعث عماله لجبايتها ، فإذا أتاه أحد بصدقته دعا له وبرَّك .

ففي هذه الآية ، دلالة على وجوب الزكاة ، في جميع الأموال ، وهذا إذا كانت للتجارة ظاهرة ، فإنها أموال تنمى ويكتسب بها ، فمن العدل أن يواسى منها الفقراء ، بأداء ما أوجب اللّه فيها من الزكاة .

وما عدا أموال التجارة ، فإن كان المال ينمى ، كالحبوب ، والثمار ، والماشية المتخذة للنماء والدر والنسل ، فإنها تجب فيها الزكاة ، وإلا لم تجب فيها ، لأنها إذا كانت للقنية ، لم تكن بمنزلة الأموال التي يتخذها الإنسان في العادة ، مالا يتمول ، ويطلب منه المقاصد المالية ، وإنما صرف عن المالية بالقنية

ونحوها .

وفيها : أن العبد لا يمكنه أن يتطهَّر ويتزكَّى حتى يخرج زكاة ماله ، وأنه لا يُكفِّرها شيء سوى أدائها ، لأن الزكاة والتطهير متوقف على إخراجها .

وفيها : استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه لمن أدى زكاته بالبركة ، وأن ذلك ينبغي ، أن يكون جهرا ، بحيث يسمعه المتصدق فيسكن إليه .

ويؤخذ من المعنى ، أنه ينبغي إدخال السرور على المؤمن بالكلام اللين ، والدعاء له ، ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة ، وسكون لقلبه . وأنه ينبغي تنشيط من أنفق نفقة وعمل عملا صالحا بالدعاء له والثناء ، ونحو ذلك .

[٩ - ١٠٤] : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ .

أي : أمَا علموا سعة رحمة الله وعموم كرمه وأنه ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ التائبين من أي ذنب كان ، بل يفرح تعالى بتوبة عبده ، إذا تاب أعظم فرح يقدر ، ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ منهم أي : يقبلها ، ويأخذها بيمينه ، فيُربِّيها لأحدهم كما يُربِّي الرجل فِلْوه ، حتى تكون التمرة الواحدة كالجبل العظيم ، فكيف بما هو أكبر وأكثر من ذلك .

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ أي : كثير التوبة على التائبين ، فمن تاب إليه تاب عليه ، ولو تكررَّت منه المعصية مرارا ، ولا يَمَل الله من التوبة على عباده ، حتى يَملوا هم ، ويأبوا إلا النفار والشرود عن بابه ، وموالاتهم عدوهم .

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء ، وكتبها للذين يتَّقون ، ويؤتون الزكاة ، ويؤمنون بآياته ، ويتبعون رسوله .

[٩ - ١٠٥] : ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَقُلِ﴾ لهؤلاء المنافقين : ﴿ٱعْمَلُواْ﴾ ما ترون من الأعمال ، واستمروا على باطلكم ، فلا تحسبوا أن ذلك سيخفى ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ﴾ أي : لا بد أن يتبين عملكم ويتضح ، ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر ، ففي هذا التهديد والوعيد الشديد على من استمر على باطله وطغيانه وغيه وعصيانه .

ويحتمل أن المعنى : أنكم مهما عملتم من خير أوشر ، فإن الله مُطَّلِع عليكم ، وسيطَّلِع رسوله وعباده المؤمنين على أعمالكم ولو كانت باطنة .

[٩ - ١٠٦] : ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

أي : ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ من المُخلَّفين مؤخَّرون ﴿لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ﴾ ففي هذا التخويف الشديد للمتخلفين ، والحث لهم على التوبة والندم .

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال العباد ونيّاتهم ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها ، فإن اقتضت حكمته أن يغفر لهم ويتوب عليهم غفر لهم وتاب عليهم ، وإن اقتضت حكمته أن يخذلهم ولا يوفّقهم للتوبة ، فعل ذلك .

[ ١٠٧ : ١١٠ - ٩ ] : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

كان أناس من المُنافِقين من أهل « قُبَاء » اتخذوا مسجدا إلى جنب مسجد قباء ، يريدون به المُضارة والمُشاقة بين المؤمنين ، ويعدونه لمن يرجونه من المحاربين للّه ورسوله ، يكون لهم حصنا عند الاحتياج إليه ، فبين تعالى خزيهم ، وأظهر سرهم فقال : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ أي : مُضارة للمؤمنين ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه ﴿وَكُفْرًا﴾ أي : قصدهم فيه الكفر ، إذا قصد غيرهم الإيمان .

﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي : ليتشعبوا ويتفرقوا ويختلفوا ، ﴿وَإِرْصَادًا﴾ أي : إعدادا ﴿لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أي : إعانة للمحاربين للّه ورسوله ، الذين تقدم حرابهم واشتدت عداوتهم ، وذلك كأبي عامر الراهب ، الذي كان من أهل المدينة ، فلما قدم النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة ، كفر به ، وكان مُتعبّدا في الجاهلية ، فذهب إلى المشركين يستعين بهم على حرب رسول اللّه ﷺ .

فلما لم يدرك مطلوبه عندهم ذهب إلى قيصر بزعمه أنه ينصره ، فهلك اللعين في الطريق ، وكان على وعد وممالأة ، هو والمنافقون ، فكان مما أعدوا له مسجد الضرار ، فنزل الوحي بذلك ، فبعث إليه النبي ﷺ من يهدمه ويحرقه ، فهدم وحرق ، وصار بعد ذلك مزبلة .

قال تعالى بعدما بين من مقاصدهم الفاسدة في ذلك المسجد ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ﴾ في بنائنا إياه ﴿إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي : الإحسان إلى الضعيف ، والعاجز والضرير .

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فشهادة اللّه عليهم أصدق من حلفهم .

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي : لا تصل في ذلك المسجد الذي بني ضرارا أبدا . فاللّه يغنيك عنه ، ولست بمضطر إليه .

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ ظهر فيه الإسلام في « قُبَاء » وهو مسجد « قُبَاء » أُسّس على إخلاص الدين للّه ، وإقامة ذكره وشعائر دينه ، وكان قديما في هذا عريقا فيه ، فهذا المسجد الفاضل ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ وتتعبد ، وتذكر اللّه تعالى فهو فاضل ، وأهله فضلاء ، ولهذا مدحهم اللّه بقوله : ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ من الذنوب ، ويتطهروا من الأوساخ ، والنجاسات والأحداث .

ومن المعلوم أن من أحب شيئا لا بد أن يسعى له ويجتهد فيما يحب ، فلا بد أنهم كانوا حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ والأحداث ، ولهذا كانوا ممن سبق إسلامه ، وكانوا مقيمين للصلاة ، محافظين على الجهاد ، مع رسول الله ﷺ ، وإقامة شرائع الدين ، وممن كانوا يتحرزون من مخالفة الله ورسوله .

وسألهم النبي ﷺ بعد ما نزلت هذه الآية في مدحهم عن طهارتهم ، فأخبروه أنهم يُتْبِعون الحجارة الماء ، فحمدهم على صنيعهم .(١٢٠)

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ الطهارة المعنوية ، كالتنزه من الشرك والأخلاق الرذيلة ، والطهارة الحسية كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث .

ثم فاضل بين المساجد بحسب مقاصد أهلها وموافقتها لرضاه فقال : ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي : على نية صالحة وإخلاص ﴿وَرِضْوَٰنٍ﴾ بأن كان موافقا لأمره ، فجمع في عمله بين الإخلاص والمتابعة ، ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا﴾ أي : على طرف ﴿جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي : بال ، قد تداعى للانهدام ، ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ لما فيه مصالح دينهم ودنياهم .

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي : شكا ، وريبا ماكثا في قلوبهم ، ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ بأن يندموا غاية الندم ويتوبوا إلى ربهم ، ويخافوه غاية الخوف ، فبذلك يعفو الله عنهم ، وإلا فبنيانهم لا يزيدهم إلا ريبا إلى ريبهم ، ونفاقا إلى نفاقهم .

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بجميع الأشياء ، ظاهرها ، وباطنها ، خفيها وجليها ، وبما أسره العباد ، وأعلنوه .

﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل ولا يخلق ولا يأمر ولا ينهى إلا ما اقتضته الحكمة وأمر به فلله الحمد .

وفي هذه الآيات فوائد عدة ، منها : أن اتخاذ المسجد الذي يقصد به الضرار لمسجد آخر بقربه ، أنه مُحرَّم ، وأنه يجب هدم مسجد الضرار ، الذي اطلع على مقصود أصحابه .

ومنها : أن العمل وإن كان فاضلا تُغيِّره النية ، فينقلب منهيا عنه ، كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم إلى ما ترى .

ومنها : أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين ، فإنها من المعاصي التي يتعين تركها وإزالتها .

كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين وائتلافهم ، يتعيَّن اتباعها والأمر بها والحث عليها ، لأن الله علل اتخاذهم لمسجد الضرار بهذا المقصد الموجب للنهي عنه ، كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله .

ومنها : النهي عن الصلاة في أماكن المعصية ، والبعد عنها ، وعن قربها .

ومنها : أن المعصية تؤثِّر في البقاع ، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار ، ونهي عن القيام

---

(١٢٠) * رواية الجمع بين الماء والحجارة ضعيفة ، أمَّا الصَّحيح فرواية الماء فقط .

قال الحافظ في « التَّلخيص » : ( والصَّحيح أن الآية نزلت في استعمالهم الماء فقط ) .اهـ

فيه ، وكذلك الطاعة تؤثر في الأماكن كما أثرت في مسجد « قباء » حتى قال الله فيه : ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ .

ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره ، حتى كان ﷺ يزور قباء كل سبت يصلي فيه ، وحث على الصلاة فيه .(١٢١)

ومنها : أنه يستفاد من هذه التعاليل المذكورة في الآية ، أربع قواعد مهمة ، وهي : كل عمل فيه مُضارة لمسلم ، أو فيه معصية لله ، فإن المعاصي من فروع الكفر ، أو فيه تفريق بين المؤمنين ، أو فيه معاونة لمن عادى الله ورسوله ، فإنه مُحرَّم ممنوع منه ، وعكسه بعكسه .

ومنها : أن الأعمال الحسية الناشئة عن معصية الله لا تزال مبعدة لفاعلها عن الله بمنزلة الإصرار على المعصية حتى يزيلها ويتوب منها توبة تامة بحيث يتقطع قلبه من الندم والحسرات .

ومنها : أنه إذا كان مسجد قباء مسجدا أسس على التقوى ، فمسجد النبي ﷺ الذي أسسه بيده المباركة وعمل فيه واختاره الله له من باب أولى وأحرى .

ومنها : أن العمل المبني على الإخلاص والمتابعة ، هو العمل المؤسس على التقوى ، الموصل لعامله إلى جنات النعيم ، والعمل المبني على سوء القصد وعلى البدع والضلال ، هو العمل المؤسس على شفا جرف هار ، فانهار به في نار جهنم ، والله لا يهدي القوم الظالمين .

[ ١١١ - ٩ ] : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ .

يخبر تعالى خبرا صدقا ، ويعد وعدا حقا بمبايعة عظيمة ، ومعاوضة جسيمة ، وهو أنه ﴿ٱشْتَرَىٰ﴾ بنفسه الكريمة ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ فهي المُثمَّن والسلعة المبيعة .

﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ التي فيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين من أنواع اللذَّت والأفراح ، والمسرَّات ، والحور الحسان ، والمنازل الأنيقات .

وصفة العقد والمبايعة ، بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه ، لإعلاء كلمته وإظهار دينه فـ ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ فهذا العقد والمبايعة ، قد صدرت من الله مؤكَّدة بأنواع التأكيدات .

---

(١٢١) * مُتَّفقٌ عليه . من حديث عبد الله بن عُمر .
أخرجه البُخاري في مواضع عديدة من صحيحه ، منها : ( كتاب فضل الصَّلاة في ميجد مكَّة والمدينة / باب : مسجد قُباء / ح ١١٩١) . وفي : (كتاب فضل الصَّلاة في ميجد مكَّة والمدينة / باب : من أتى مسجد قُباء كل سبت / ح ١١٩٣) . ومُسلم في صحيحه : ( كتاب الحج / باب : فضل مسجد قُباء وفضل الصَّلاة فيه وزيارته / ح ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢).

﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ التي هي أشرف الكتب التي طرقت العالم ، وأعلاها ، وأكملها ، وجاء بها أكمل الرسل أولو العزم ، وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق .

﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ﴾ أيها المؤمنون القائمون بما وعدكم الله ، ﴿بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ أي : لتفرحوا بذلك ، وليبشر بعضكم بعضا ، ويحث بعضكم بعضا .

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز أكبر منه ، ولا أجل ، لأنه يتضمن السعادة الأبدية ، والنعيم المقيم ، والرضا من الله الذي هو أكبر من نعيم الجنات ، وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة ، فانظر إلى المشتري من هو ؟ وهو الله جل جلاله ، وإلى العوض ، وهو أكبر الأعواض وأجلها ، جنات النعيم ، وإلى الثمن المبذول فيها ، وهو النفس ، والمال ، الذي هو أحب الأشياء للإنسان .

وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع ، وهو أشرف الرسل ، وبأي كتاب رقم ، وهي كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق .

[٩ - ١١٢] : ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ .

كأنه قيل : من هم المؤمنون الذين لهم البشارة من الله بدخول الجنات ونيل الكرامات ؟ ، فقال : هم ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ أي : الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات .

﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ أي : المُتَّصِفون بالعبودية لله ، والاستمرار على طاعته من أداء الواجبات والمُستحبَّات في كل وقت ، فبذلك يكون العبد من العابدين .

﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ لله في السراء والضراء ، واليسر والعسر ، المعترفون بما لله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة ، المثنون على الله بذكرها وبذكره في آناء الليل وآناء النهار .

﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ فسرت السياحة بالصيام ، أو السياحة في طلب العلم ، وفسرت بسياحة القلب في معرفة الله ومحبته ، والإنابة إليه على الدوام ، والصحيح أن المراد بالسياحة : السفر في القربات ، كالحج ، والعمرة ، والجهاد ، وطلب العلم ، وصلة الأقارب ، ونحو ذلك .

﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ﴾ أي : المكثرون من الصلاة ، المشتملة على الركوع والسجود .

﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ ويدخل فيه جميع الواجبات والمستحبات .

﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ وهي جميع ما نهى الله ورسوله عنه .

﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾ بتعلمهم حدود ما أنزل الله على رسوله ، وما يدخل في الأوامر والنواهي والأحكام ، وما لا يدخل ، الملازمون لها فعلا وتركا .

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لم يذكر ما يبشرهم به ، ليعم جميع ما رتب على الإيمان من ثواب الدنيا والدين والآخرة ، فالبشارة متناولة لكل مؤمن .

وأما مقدارها وصفتها فإنها بحسب حال المؤمنين ، وإيمانهم ، قوة ، وضعفا ، وعملا بمقتضاه .

[١١٣ - ١١٤] ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾

يعني : ما يليق ولا يحسن للنبي وللمؤمنين به ﴿أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أي : لمن كفر به ، وعبد معه غيره ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ فإن الاستغفار لهم في هذه الحال غلط غير مفيد ، فلا يليق بالنبي والمؤمنين ، لأنهم إذا ماتوا على الشرك ، أو علم أنهم يموتون عليه ، فقد حقت عليهم كلمة العذاب ، ووجب عليهم الخلود في النار ، ولم تنفع فيهم شفاعة الشافعين ، ولا استغفار المستغفرين .

وأيضا فإن النبي والذين آمنوا معه ، عليهم أن يوافقوا ربهم في رضاه وغضبه ، ويوالوا من والاه الله ، ويعادوا من عاداه الله ، والاستغفار منهم لمن تبين أنه من أصحاب النار مناف لذلك ، مناقض له ، ولئن وجد الاستغفار من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لأبيه فإنه ﴿عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ في قوله ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه .

فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله ، سيموت على الكفر ، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ موافقة لربه وتأدُّبا معه .

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ أي : رجّاع إلى الله في جميع الأمور ، كثير الذكر والدعاء ، والاستغفار والإنابة إلى ربه .

﴿حَلِيمٌ﴾ أي : ذو رحمة بالخلق ، وصفح عما يصدر منهم إليه ، من الزلّات ، لا يستفزه جهل الجاهلين ، ولا يقابل الجاني عليه بجرمه ، فأبوه قال له : ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ وهو يقول له : ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾

فعليكم أن تقتدوا به ، وتتبعوا ملّة إبراهيم في كل شيء ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ كما نبهكم الله عليها وعلى غيرها ، ولهذا قال :

[ ١١٥ - ١١٦ : ٩] : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ .

يعني أن الله تعالى إذا منَّ على قوم بالهداية ، وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم ، فإنه تعالى يتمم عليهم إحسانه ، ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه ، وتدعو إليه ضرورتهم ، فلا يتركهم ضالين ، جاهلين بأمور دينهم ، ففي هذا دليل على كمال رحمته ، وأن شريعته وافية بجميع ما يحتاجه العباد ، في أصول الدين وفروعه .

ويُحتمَل أن المُراد بذلك ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ فإذا بيّن لهم ما يتّقون فلم ينقادوا له ، عاقبهم بالإضلال جزاءً لهم على ردِّهم الحق المُبيَّن ،

والأول أولى .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلكمال علمه وعمومه علمكم ما لم تكونوا تعلمون ، وبيَّن لكم ما به تنتفعون .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي : هو المالك لذلك ، المدبر لعباده بالإحياء والإماتة وأنواع التدابير الإلهية ، فإذا كان لا يخل بتدبيره القدري فكيف يخل بتدبيره الديني المتعلق بإلهيته ، ويترك عباده سدى مهملين ، أو يدعهم ضالين جاهلين ، وهو أعظم توليه لعباده ؟ » .

فلهذا قال : ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي : ولي يتولاكم بجلب المنافع لكم ، أو ﴿نَصِيرٍ﴾ يدفع عنكم المضار .

[ ٩ - ١١٧ : ١١٨ ] : ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ .

يُخبر تعالى أنه من لطفه وإحسانه تَابَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ فغفر لهم الزلات ، ووفر لهم الحسنات ، ورقاهم إلى أعلى الدرجات ، وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقات ، ولهذا قال : ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ أي : خرجوا معه لقتال الأعداء في وقعة « تَبُوك » وكانت في حر شديد ، وضيق من الزاد والركوب ، وكثرة عدو ، مما يدعو إلى التخلف .

فاستعانوا اللّه تعالى ، وقاموا بذلك ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أي : تنقلب قلوبهم ، ويميلوا إلى الدعة والسكون ، ولكن اللّه ثبتهم وأيدهم وقواهم . وزَيْغُ القلب هو انحرافه عن الصراط المستقيم ، فإن كان الانحراف في أصل الدين ، كان كفرا ، وإن كان في شرائعه ، كان بحسب تلك الشريعة ، التي زاغ عنها ، إما قصر عن فعلها ، أو فعلها على غير الوجه الشرعي .

وقوله ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي : قبل توبتهم ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ومن رأفته ورحمته أن مَنَّ عليهم بالتوبة ، وقبلها منهم وثبتهم عليها .

﴿وَ﴾ كذلك لقد تاب الله ﴿عَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ عن الخروج مع المسلمين ، في تلك الغزوة ، وهم : « كعب بن مالك » وصاحباه ، وقصتهم مشهورة معروفة ، في الصحاح والسنن.[١٢٢]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ حزنوا حزنا عظيما ، و﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي : على سعتها ورحبها ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ التي هي أحب إليهم من كل شيء ، فضاق عليهم الفضاء الواسع ، والمحبوب

---

(١٢٢) * مُتفقٌ عليه . من حديث كعب بن مالك .

أخرجه البُخاري في صحيحه ، في مواضع عديدة من صحيحه ، منها : ( كتاب المغازي / باب : حديث كعب بن مالك / ح ٤٤١٨ ) . ومُسلم في صحيحه : ( كتاب التَّوبة / باب : حديث توبة كعب بن مالك / ح ٥٣، ٥٤، ٥٥ ) .

الذي لم تجر العادة بالضيق منه ، وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج ، بلغ من الشدة والمشقة ما لا يمكن التعبير عنه ، وذلك لأنهم قدموا رضا الله ورضا رسوله على كل شيء .

﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ أي : تيقنوا وعرفوا بحالهم ، أنه لا ينجي من الشدائد ، ويلجأ إليه ، إلا الله وحده لا شريك له ، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين ، وتعلَّقوا بالله ربهم ، وفروا منه إليه ، فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة .

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي : أذن في توبتهم ووفقهم لها ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ أي : لتقع منهم ، فيتوب الله عليهم ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ أي : كثير التوبة والعفو ، والغفران عن الزلَّات والعصيان ، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين ، في جميع اللحظات ، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية .

وفي هذه الآيات دليل على أن توبة الله على العبد أجل الغايات ، وأعلى النهايات ، فإن الله جعلها نهاية خواص عباده ، وامتن عليهم بها ، حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها . ومنها : لُطف الله بهم وتثبيتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة .

ومنها : أن العبادة الشاقة على النفس ، لها فضل ومزية ليست لغيرها ، وكلما عظمت المشقَّة عظم الأجر .

ومنها : أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد ، وأن من لا يبالي بالذنب ولا يحرج إذا فعله ، فإن توبته مدخولة ، وإن زعم أنها مقبولة .

ومنها : أن علامة الخير وزوال الشدَّة ، إذا تَعلَّق القلب بالله تعالى تعلُّقا تاما ، وانقطع عن المخلوقين .

ومنها : أن من لُطف الله بالثلاثة ، أن وسمهم بوسم ، ليس بعار عليهم فقال : ﴿خُلِّفُواْ﴾ إشارة إلى أن المؤمنين خلفوهم ، أو خلفوا عن من بُتّ في قبول عذرهم ، أو في رده وأنهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير ، ولهذا لم يقل : « تَخَلَّفُوا » .

ومنها : أن الله تعالى من عليهم بالصدق ، ولهذا أمر بالاقتداء بهم فقال :

[١١٩ - ٩] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ .

أي : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ، وبما أمر الله بالإيمان به ، قوموا بما يقتضيه الإيمان ، وهو القيام بتقوى الله تعالى ، باجتناب ما نهى الله عنه والبعد عنه .

﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، الذين أقوالهم صدق ، وأعمالهم ، وأحوالهم لا تكون إلا صدقا خلية من الكسل والفتور ، سالمة من المقاصد السيئة ، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة .

قال الله تعالى : ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ الآية [ سورة المائدة ١١٩ ] .

[ ١٢٠ : ١٢١ - ٩ ] : ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا

يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

يقول تعالى – حاثا لأهل المدينة المُنوَّرة من المهاجرين ، والأنصار ، ومن حولهم من الأعراب ، الذين أسلموا فحسن إسلامهم– : ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ أي : ما ينبغي لهم ذلك ، ولا يليق بأحوالهم .

﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ﴾ في بقائها وراحتها ، وسكونه ﴿عَن نَّفْسِهِ﴾ الكريمة الزكية ، بل النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فعلى كل مسلم أن يفدي النبي ﷺ ، بنفسه ويقدمه عليها ، فعلامة تعظيم الرسول ﷺ ومحبته والإيمان التام به ، أن لا يتخلَّفوا عنه ، ثم ذكر الثواب الحامل على الخروج فقال : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي : المجاهدين في سبيل الله ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾ أي : تعب ومشقَّة ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي : مجاعة .

﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ من الخوض لديارهم ، والاستيلاء على أوطانهم ، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ كالظفر بجيش أو سرية أو الغنيمة لمال ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر الله ، وقيامهم بما عليهم من حقه وحق خلقه ، فهذه الأعمال آثار من آثار عملهم .

ثم قال : ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ في ذهابهم إلى عدوهم ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

ومن ذلك هذه الأعمال ، إذا أخلصوا فيها للّه ، ونصحوا فيها ، ففي هذه الآيات أشد ترغيب وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد في سبيل اللّه ، والاحتساب لما يصيبهم فيه من المشقَّات ، وأن ذلك لهم رفعة درجات ، وأن الآثار المُترتِّبة على عمل العبد له فيها أجر كبير .

[١٢٢ – ٩] : ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ .

يقول تعالى : – مُنبِّها لعباده المؤمنين على ما ينبغي لهم– ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ أي : جميعا لقتال عدوهم ، فإنه يحصل عليهم المشقَّة بذلك ، وتفوت به كثير من المصالح الأخرى ، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي : من البلدان ، والقبائل ، والأفخاذ ﴿طَائِفَةٌ﴾ تحصل بها الكفاية والمقصود لكان أولى .

ثم نبَّه على أن في إقامة المُقيمين منهم وعدم خروجهم مصالح لو خرجوا لفاتتهم ، فقال : ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا﴾ أي : القاعدون ﴿فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي ليتعلموا العلم الشرعي ، ويعلموا معانيه ، ويفقهوا أسراره ، وليُعلِّموا غيرهم ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم .

ففي هذا فضيلة العلم ، وخصوصا الفقه في الدين ، وأنه أهم الأمور ، وأن من تعلم علما ، فعليه نشره وبثه في العباد ، ونصيحتهم فيه فإن انتشار العلم عن العالم ، من بركته وأجره ، الذي ينمى له .

وأما اقتصار العالم على نفسه ، وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وترك تعليم الجهال ما لا يعلمون ، فأي منفعة حصلت للمسلمين منه ؟ ، وأي نتيجة نتجت من علمه ؟ وغايته أن يموت ، فيموت علمه وثمرته ، وهذا غاية الحرمان ، لمن آتاه الله علما ومنحه فهما .

وفي هذه الآية أيضا دليل وإرشاد وتنبيه لطيف ، لفائدة مهمة ، وهي : أن المسلمين ينبغي لهم أن يَعُدُّوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها ، ويوفِّر وقته عليها ، ويجتهد فيها ، ولا يلتفت إلى غيرها ، لتقوم مصالحهم ، وتتم منافعهم ، ولتكون وجهة جميعهم ، ونهاية ما يقصدون قصدا واحدا ، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم ، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب ، فالأعمال متباينة ، والقصد واحد ، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور .

[١٢٣ - ٩] : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ .

وهذا أيضا إرشاد آخر ، بعدما أرشدهم إلى التدبير فيمن يباشر القتال ، أرشدهم إلى أنهم يبدأون بالأقرب فالأقرب من الكفار ، والغلظة عليهم ، والشدة في القتال ، والشجاعة والثبات .

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي : وليكن لديكم علم أن المعونة من الله تنزل بحسب التقوى ، فلازموا على تقوى الله ، يعنكم وينصركم على عدوكم .

وهذا العموم في قوله : ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ مخصوص بما إذا كانت المصلحة في قتال غير الذين يلوننا ، وأنواع المصالح كثيرة جدا .

[ ١٢٤ : ١٢٦ - ٩] : ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ .

يقول تعالى : مُبيِّنا حال المُنافقين ، وحال المؤمنين عند نزول القرآن ، وتفاوت ما بين الفريقين ، فقال : ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها الأمر ، والنهي ، والخبر عن نفسه الكريمة ، وعن الأمور الغائبة ، والحث على الجهاد .

﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا﴾ أي : حصل الاستفهام ، لمن حصل له الإيمان بها من الطائفتين .

قال تعالى - مبينا الحال الواقعة- : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ بالعلم بها ، وفهمها ، واعتقادها ، والعمل بها ، والرغبة في فعل الخير ، والانكفاف عن فعل الشر .

﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي : يبشر بعضهم بعضا بما من الله عليهم من آياته ، والتوفيق لفهمها والعمل بها .

وهذا دال على انشراح صدورهم لآيات اللّٰه ، وطمأنينة قلوبهم ، وسرعة انقيادهم لما تحثهم عليه .

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي : شك ونفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أي : مرضا إلى مرضهم ، وشكا إلى شكهم ، من حيث إنهم كفروا بها ، وعاندوها وأعرضوا عنها ، فازداد لذلك مرضهم ، وترامى بهم إلى الهلاك ﴿وَ﴾ الطبع على قلوبهم ، حتى ﴿مَاتُوا وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ .

وهذا عقوبة لهم ، لأنهم كفروا بآيات اللّٰه وعصوا رسوله ، فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه .

قال تعالى -موبخا لهم على إقامتهم على ما هم عليه من الكفر والنفاق- : ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ بما يصيبهم من البلايا والأمراض ، وبما يبتلون من الأوامر الإلهية التي يراد بها اختبارهم .

﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عما هم عليه من الشر ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ما ينفعهم ، فيفعلونه ، وما يضرهم ، فيتركونه ، فالله تعالى يبتليهم -كما هي سُنَّته في سائر الأمم- بالسراء والضراء وبالأوامر والنواهي ليرجعوا إليه ، ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون .

وفي هذه الآيات دليل على أن الإيمان يزيد وينقص ، وأنه ينبغي للمؤمن ، أن يتفقد إيمانه ويتعاهده ، فيجدده وينميه ، ليكون دائما في صعود .

[١٢٧ - ٩] : وقوله : ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾

يعني : أن المنافقين الذين يحذرون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم ، إذا نزلت سورة ليؤمنوا بها ، ويعملوا بمضمونها ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ جازمين على ترك العمل بها ، ينتظرون الفرصة في الاختفاء عن أعين المؤمنين ، ويقولون : ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ متسللين ، وانقلبوا معرضين ، فجازاهم اللّٰه بعقوبة من جنس عملهم ، فكما انصرفوا عن العمل ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ أي : صدها عن الحق وخذلها .

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ فقها ينفعهم ، فإنهم لو فقهوا ، لكانوا إذا نزلت سورة آمنوا بها ، وانقادوا لأمرها .

والمقصود من هذا بيان شدة نفورهم عن الجهاد وغيره ، من شرائع الإيمان ، كما قال تعالى عنهم : ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [ سُورة مُحمّد ٢٠] .

[١٢٨ - ١٢٩] ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ .

يمتن تعالى على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم ، يعرفون حاله ، ويتمكّنون من الأخذ عنه ، ولا يأنفون عن الانقياد له ، وهو ﷺ في غاية النصح لهم ، والسعي في مصالحهم .

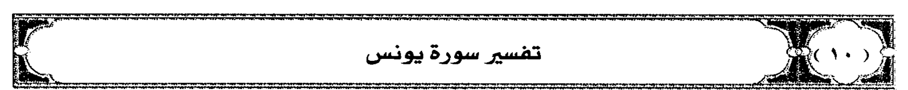
﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي : يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعنتكم .

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ فيحب لكم الخير ، ويسعى جهده في إيصاله إليكم ، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان ، ويكره لكم الشر ، ويسعى جهده في تنفيركم عنه . ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي : شديد الرأفة والرحمة بهم ، أرحم بهم من والديهم .

ولهذا كان حقه مُقدّما على سائر حقوق الخلق ، وواجب على الأمة الإيمان به ، وتعظيمه ، وتعزيره ، وتوقيره ﴿فَإِن﴾ آمنوا ، فذلك حظهم وتوفيقهم ، وإن ﴿تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان والعمل ، فامض على سبيلك ، ولا تزل في دعوتك ، وقل ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي : الله كافيَّ في جميع ما أهمني ، ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي : لا معبود بحق سواه .

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي : اعتمدت ووثقت به ، في جلب ما ينفع ، ودفع ما يضر ، ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي هو أعظم المخلوقات . وإذا كان رب العرش العظيم ، الذي وسع المخلوقات ، كان ربا لما دونه من باب أولى وأحرى .

**تم تفسير سورة التوبة بعون الله ومنه فلله الحمد أولا وآخرا وظاهرا وباطنا .**



## ( ١٠ ) تفسير سورة يونس

### مكيّة

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[ ١ : ٢ - ١٠ ] : ﴿الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ .

يقول تعالى : ﴿الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ وهو هذا القرآن ، المشتمل على الحكمة والأحكام ، الدالة آياته على الحقائق الإيمانية والأوامر والنواهي الشرعية ، الذي على جميع الأمة تلقيه بالرضا والقبول والانقياد .

ومع هذا فأعرض أكثرهم ، فهم لا يعلمون ، فتعجبوا ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ عذاب الله ، وخوفهم نقم الله ، وذكرهم بآيات الله .

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إيمانا صادقا ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي : لهم جزاء موفور وثواب مذخور عند ربهم بما قدموه وأسلفوه من الأعمال الصالحة الصادقة .

فتعجّب الكافرون من هذا الرجل العظيم تعجبا حملهم على الكفر به ، ف ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ﴾ عنه : ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي : بين السحر ، لا يخفى بزعمهم على أحد ، وهذا من سفههم وعنادهم ، فإنهم

تعجبوا من أمر ليس مما يتعجب منه ويستغرب ، وإنما يتعجَّب من جهالتهم وعدم معرفتهم بمصالحهم .

كيف لم يؤمنوا بهذا الرسول الكريم ، الذي بعثه الله من أنفسهم ، يعرفونه حق المعرفة ، فردوا دعوته ، وحرصوا على إبطال دينه ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

[ ٣ : ٤ - ١٠ ] : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

يقول تعالى مُبيِّنا لربوبيَّته وإلهيَّته وعظمته : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مع أنه قادر على خلقها في لحظة واحدة ، ولكن لما له في ذلك من الحكمة الإلهية ، ولأنه رفيق في أفعاله .

ومن جملة حكمته فيها ، أنه خلقها بالحق وللحق ، ليُعرف بأسمائه وصفاته ويُفرد بالعبادة .

﴿ثُمَّ﴾ بعد خلق السماوات والأرض ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواء يليق بعظمته ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ في العالم العُلوي والسُّفلي من الإماتة والإحياء ، وإنزال الأرزاق ، ومُداولة الأيام بين الناس ، وكشف الضُّر عن المضرورين ، وإجابة سؤال السائلين .

فأنواع التدابير نازلة منه وصاعدة إليه ، وجميع الخلق مُذْعِنون لعزِّه خاضعون لعظمته وسلطانه .

﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة ، ولو كان أفضل الخلق ، حتى يأذن الله ولا يأذن ، إلا لمن ارتضى ، ولا يرتضي إلا أهل الإخلاص والتوحيد له .

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي هذا شأنه ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي : هو الله الذي له وصف الإلهية الجامعة لصفات الكمال ، ووصف الربوبية الجامع لصفات الأفعال .

﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ أي : أفردوه بجميع ما تقدرون عليه من أنواع العبودية ، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الأدلة الدالة على أنه وحده المعبود المحمود ، ذو الجلال والإكرام .

فلما ذكر حُكمه القدري وهو التدبير العام ، وحكمه الديني وهو شرعه ، الذي مضمونه ومقصوده عبادته وحده لا شريك له ، ذكر الحكم الجزائي ، وهو مجازاته على الأعمال بعد الموت ، فقال : ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي : سيجمعكم بعد موتكم ، لميقات يوم معلوم .

﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فالقادر على ابتداء الخلق قادر على إعادته ، والذي يرى ابتداءه بالخلق ، ثم ينكر إعادته للخلق ، فهو فاقد العقل منكر لأحد المثلين مع إثبات ما هو أولى منه ، فهذا دليل عقلي واضح على المعاد ، وقد ذكر الدليل النقلي فقال : ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ أي : وعده صادق لا بد من إتمامه ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم بما أمرهم الله بالإيمان به .

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم ، من واجبات ، ومستحبات ، ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي : بإيمانهم وأعمالهم ، جزاء قد بينه لعباده ، وأخبر أنه لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بآيات

الله وكذبوا رسل الله .

﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي : ماء حار ، يشوي الوجوه ، ويقطع الأمعاء . ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من سائر أصناف العذاب ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي : بسبب كفرهم وظلمهم ، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون .

[ ٥ : ٦ - ١٠ ] : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ .

لما قرّر ربوبيّته وإلهيّته ، ذكر الأدلة العقلية الأفقية الدالة على ذلك وعلى كماله ، في أسمائه وصفاته ، من الشمس والقمر ، والسماوات والأرض وجميع ما خلق فيهما من سائر أصناف المخلوقات ، وأخبر أنها آيات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ و ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ .

فإن العلم يهدي إلى معرفة الدلالة فيها ، وكيفية استنباط الدليل على أقرب وجه ، والتقوى تحدث في القلب الرغبة في الخير ، والرهبة من الشر ، الناشئين عن الأدلة والبراهين ، وعن العلم واليقين .

وحاصل ذلك أن مُجرّد خلق هذه المخلوقات بهذه الصفة ، دال على كمال قدرة الله تعالى ، وعلمه ، وحياته ، وقيوميته ، وما فيها من الأحكام والإتقان والإبداع والحسن ، دال على كمال حكمة الله ، وحسن خلقه وسعة علمه . وما فيها من أنواع المنافع والمصالح -كجعل الشمس ضياء ، والقمر نورا ، يحصل بهما من النفع الضروري وغيره ما يحصل- يدل ذلك على رحمة الله تعالى واعتنائه بعباده وسعة بره وإحسانه ، وما فيها من التخصيصات دال على مشيئة الله وإرادته النافذة .

وذلك دال على أنه وحده المعبود والمحبوب المحمود ، ذو الجلال والإكرام والأوصاف العظام ، الذي لا تنبغي الرغبة والرهبة إلا إليه ، ولا يصرف خالص الدعاء إلا له ، لا لغيره من المخلوقات المربوبات ، المفتقرات إلى الله في جميع شئونها .

وفي هذه الآيات الحث والترغيب على التفكر في مخلوقات الله ، والنظر فيها بعين الاعتبار ، فإن بذلك تنفتح البصيرة ، ويزداد الإيمان والعقل ، وتقوى القريحة ، وفي إهمال ذلك ، تهاون بما أمر الله به ، وإغلاق لزيادة الإيمان ، وجمود للذهن والقريحة .

[ ٧ : ٨ - ١٠ ] : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۝ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ .

يقول تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي : لا يطمعون بلقاء الله ، الذي هو أكبر ما طمع فيه الطامعون ، وأعلى ما أَمَلَهُ المؤمّلون ، بل أعرضوا عن ذلك ، وربما كذّبوا به ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بدلا عن الآخرة .

﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ أي : ركنوا إليها ، وجعلوها غاية مرامهم ونهاية قصدهم ، فسعوا لها وأكبوا على لذاتها وشهواتها ، بأي طريق حصلت حصلوها ، ومن أي وجه لاحت ابتدروها ، قد صرفوا إرادتهم ونياتهم

وأفكارهم وأعمالهم إليها .

فكأنهم خُلقوا للبقاء فيها ، وكأنها ليست دار ممر ، يتزوَّد منها المسافرون إلى الدار الباقية التي إليها يرحل الأولون والآخرون ، وإلى نعيمها ولذاتها شمر الموفقون .

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ فلا ينتفعون بالآيات القرآنية ، ولا بالآيات الأفقية والنفسية ، والإعراض عن الدليل مُستلزم للإعراض والغفلة ، عن المدلول المقصود .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين هذا وصفهم ﴿مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي : مقرهم ومسكنهم التي لا يرحلون عنها ، ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والشرك وأنواع المعاصي ، فلما ذكر عقابهم ذكر ثواب المطيعين فقال :

[ ٩ : ١٠ - ١٠ ] : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

يقول تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي : جمعوا بين الإيمان ، والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة ، المشتملة على أعمال القلوب وأعمال الجوارح ، على وجه الإخلاص والمتابعة .

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ أي : بسبب ما معهم من الإيمان ، يثيبهم الله أعظم الثواب ، وهو الهداية ، فيعلمهم ما ينفعهم ، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية ، ويهديهم للنظر في آياته ، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم ، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم ، . ولهذا قال : ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الجارية على الدوام ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أضافها الله إلى النعيم ، لاشتمالها على النعيم التام ، نعيم القلب بالفرح والسرور ، والبهجة والحُبُور ، ورؤية الرحمن وسماع كلامه ، والاغتباط برضاه وقربه ، ولقاء الأحبة والإخوان ، والتمتع بالاجتماع بهم ، وسماع الأصوات المطربات ، والنغمات المشجيات ، والمناظر المفرحات . ونعيم البدن بأنواع المآكل والمشارب ، والمناكح ونحو ذلك ، مما لا تعلمه النفوس ، ولا خطر ببال أحد ، أو قدر أن يصفه الواصفون .

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أي عبادتهم فيها لله ، أولها تسبيح لله وتنزيه له عن النقائض ، وآخرها تحميد لله ، فالتكاليف سقطت عنهم في دار الجزاء ، وإنما بقي لهم أكمل اللذات ، الذي هو ألذ عليهم من المآكل اللذيذة ، ألا وهو ذكر الله الذي تطمئن به القلوب ، وتفرح به الأرواح ، وهو لهم بمنزلة النَّفَس ، من دون كلفة ومشقة .

﴿و﴾ أما ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ فيما بينهم عند التلاقي والتزاور ، فهو السلام ، أي : كلام سالم من اللغو والإثم ، موصوف بأنه ﴿سَلَٰمٌ﴾ وقد قيل في تفسير قوله ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ﴾ إلى آخر الآية ، أن أهل الجنة -إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوهما- قالوا سبحانك اللهم ، فأحضر لهم في الحال .

فإذا فرغوا قالوا : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

[ ١١ ] ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا

يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ .

وهذا من لُطفه وإحسانه بعباده ، أنه لو عجل لهم الشر إذا أتوا بأسبابه ، وبادرهم بالعقوبة على ذلك ، كما يعجل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أي : لمحقتهم العقوبة ، ولكنه تعالى يمهلهم ولا يهملهم ، ويعفو عن كثير من حقوقه ، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة .

ويدخل في هذا ، أن العبد إذا غضب على أولاده أو أهله أو ماله ، ربما دعا عليهم دعوة لو قبلت منه لهلكوا ، ولأضره ذلك غاية الضرر ، ولكنه تعالى حليم حكيم .

وقوله : ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي : لا يؤمنون بالآخرة ، فلذلك لا يستعدون لها ، ولا يعلمون ما ينجيهم من عذاب الله ، ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ أي : باطلهم ، الذي جاوزوا به الحق والحد .

﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون حائرين ، لا يهتدون السبيل ، ولا يوفقون لأقوم دليل ، وذلك عقوبة لهم على ظلمهم ، وكفرهم بآيات الله .

[١٢ - ١٠] : ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

وهذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو ، وأنه إذا مسه ضر ، من مرض أو مصيبة اجتهد في الدعاء ، وسأل الله في جميع أحواله ، قائما وقاعدا ومُضطجعا ، وألح في الدعاء ليكشف الله عنه ضره .

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ أي : استمر في غفلته معرضا عن ربه ، كأنه ما جاءه ضره ، فكشفه الله عنه ، فأي ظلم أعظم من هذا الظلم ؟! يطلب من الله قضاء غرضه ، فإذا أناله إياه لم ينظر إلى حق ربه ، وكأنه ليس عليه لله حق . وهذا تزيين من الشيطان ، زيَّن له ما كان مُستهجنا مُستقبحا في العقول والفِطَر .

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي : المُتجاوزين للحد ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ .

[١٣ : ١٤ - ١٠] : ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ .

يُخبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية بظلمهم وكفرهم ، بعد ما جاءتهم البينات على أيدي الرسل وتبين الحق فلم ينقادوا لها ولم يؤمنوا ، فأحل بهم عقابه الذي لا يرد عن كل مجرم متجرئ على محارم الله ، وهذه سنته في جميع الأمم .

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ﴾ أيها المُخاطَبون ﴿خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فإن أنتم اعتبرتم واتعظتم بمن قبلكم واتبعتم آيات الله وصدقتم رسله ، نجوتم في الدنيا والآخرة .

وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم ، أحل بكم ما أحل بهم ، ومن أنذر فقد أعذر .

[١٥ : ١٧ - ١٠] : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ

عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ .

يذكر تعالى تعنُّت المُكذِّبين لرسوله محمد ﷺ ، وأنهم إذا تتلى عليهم آيات الله القرآنية المُبيِّنة للحق ، أعرضوا عنها ، وطلبوا وجوه التعنت فقالوا ، جراءة منهم وظلما : ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ فقبحهم الله ، ما أجرأهم على الله ، وأشدهم ظلما وردا لآياته .

فإذا كان الرسول العظيم يأمره الله ، أن يقول لهم : ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي﴾ أي : ما ينبغي ولا يليق ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ فإني رسول محض ، ليس لي من الأمر شيء ، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي : ليس لي غير ذلك ، فإني عبد مأمور ، ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فهذا قول خير الخلق وأدبه مع أوامر ربه ووحيه ، فكيف بهؤلاء السفهاء الضالين ، الذين جمعوا بين الجهل والضلال ، والظلم والعناد ، والتعنُّت والتعجيز لرب العالمين ، أفلا يخافون عذاب يوم عظيم ؟ .

فإن زعموا أن قصدهم أن يتبيَّن لهم الحق بالآيات التي طلبوا فهم كذبة في ذلك ، فإن الله قد بيَّن من الآيات ما يؤمن على مثله البشر ، وهو الذي يصرفها كيف يشاء ، تابعا لحكمته الربانية ، ورحمته بعباده .

﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ طويلا ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾ أي : قبل تلاوته ، وقبل درايتكم به ، وأنا ما خطر على بالي ، ولا وقع في ظنِّي .

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أني حيث لم أتقوله في مدة عمري ، ولا صدر مني ما يدل على ذلك ، فكيف أتقوله بعد ذلك ، وقد لبثت فيكم عمرا طويلا تعرفون حقيقة حالي ، بأني أمي لا أقرأ ولا أكتب ، ولا أدرس ولا أتعلم من أحد ؟ ، فأتيتكم بكتاب عظيم أعجز الفصحاء ، وأعيا العلماء ، فهل يمكن -مع هذا- أن يكون من تلقاء نفسي ، أم هذا دليل قاطع أنه تنزيل من حكيم حميد ؟

فلو أعملتم أفكاركم وعقولكم ، وتدبرتم حالي وحال هذا الكتاب ، لجزمتم جزما لا يقبل الريب بصدقه ، وأنه الحق الذي ليس بعده إلا الضلال ، ولكن إذ أبيتم إلا التكذيب والعناد ، فأنتم لا شك أنكم ظالمون .

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ ؟ !!

فلو كنت متقولا لكنت أظلم الناس ، وفاتني الفلاح ، ولم تخف عليكم حالي ، ولكني جئتكم بآيات الله ، فكذبتم بها ، فتعين فيكم الظلم ، ولا بد أن أمركم سيضمحل ، ولن تنالوا الفلاح ، ما دُمتم كذلك .

ودل قوله : ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ الآية ، أن الذي حملهم على هذا التعنُّت الذي صدر منهم هو عدم إيمانهم بلقاء الله وعدم رجائه ، وأن من آمن بلقاء الله فلا بد أن ينقاد لهذا الكتاب ويؤمن به ، لأنه حسن القصد .

[١٨ - ١٠] : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

يقول تعالى : ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ أي : المشركون المُكذِّبون لرسول الله ﷺ .

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ أي : لا تملك لهم مثقال ذرَّة من النفع ولا تدفع عنهم شيئا .

﴿وَيَقُولُونَ﴾ قولا خاليا من البُرهان : ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ أي : يعبدونهم ليُقربوهم إلى الله ، ويشفعوا لهم عنده ، وهذا قول من تلقاء أنفسهم ، وكلام ابتكروه هم ، ولهذا قال تعالى – مبطلا لهذا القول – : ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي : الله تعالى هو العالم ، الذي أحاط علما بجميع ما في السماوات والأرض ، وقد أخبركم بأنه ليس له شريك ولا إله معه ، أفأنتم– يا معشر المشركين– تزعمون أنه يوجد له فيها شركاء ؟ ، أفتخبرونه بأمر خفي عليه ، وعلمتوه ؟ ، أأنتم أعلم أم الله ؟ فهل يوجد قول أبطل من هذا القول ، المُتضمّن أن هؤلاء الضلال الجهال السفهاء أعلم من رب العالمين ؟ ، فليكتف العاقل بمُجرَّد تصور هذا القول ، فإنه يجزم بفساده وبطلانه : ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي : تقدَّس وتنزَّه أن يكون له شريك أو نظير ، بل هو الله الأحد الفرد الصمد الذي لا إله في السماوات والأرض إلا هو ، وكل معبود في العالم العلوي والسفلي سواه ، فإنه باطل عقلا وشرعا وفطرة .

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [ سُورة الحج ٦٢] .

[ ١٩ : ٢٠ – ١٠ ] : ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ۝ وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ .

أي : ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ متفقين على الدين الصحيح ، ولكنهم اختلفوا ، فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه .

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ بإمهال العاصين وعدم معاجلتهم بذنوبهم ، ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ بأن ننجي المؤمنين ، ونهلك الكافرين المكذبين ، وصار هذا فارقا بينهم ﴿فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ ولكنه أراد امتحانهم وابتلاء بعضهم ببعض ، ليتبيَّن الصادق من الكاذب .

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي : المُكذِّبون المُتعنِّتون ، ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يعنون : آيات الاقتراح التي يعينونها كقولهم : ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [ سُورة الفُرقان ٧] الآيات .

وكقولهم : ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾ [ سُورة الإسراء ٩٠] الآيات .

﴿فَقُلۡ﴾ لهم إذا طلبوا منك آية ﴿إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾ أي : هو المحيط علما بأحوال العباد ، فيدبرهم بما يقتضيه علمه فيهم وحكمته البديعة ، وليس لأحد تدبير في حكم ولا دليل ، ولا غاية ولا تعليل .

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ أي : كل ينتظر بصاحبه ما هو أهل له ، فانظروا لمن تكون العاقبة .

[ ٢١ – ١٠ ] : ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ

إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ كالصحة بعد المرض ، والغنى بعد الفقر ، والأمن بعد الخوف ، نسوا ما أصابهم من الضراء ، ولم يشكروا الله على الرخاء والرحمة ، بل استمروا في طغيانهم ومكرهم .

ولهذا قال : ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ أي يسعون بالباطل ، ليبطلوا به الحق .

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ فإن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله ، فمقصودهم منعكس عليهم ، ولم يسلموا من التبعة ، بل تكتب الملائكة عليهم ما يعملون ، ويحصيه الله عليهم ، ثم يجازيهم [ الله ] عليه أوفر الجزاء .

[ ٢٢ : ٢٣ - ١٠ ] : ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

لما ذكر تعالى القاعدة العامة في أحوال الناس عند إصابة الرحمة لهم بعد الضراء ، واليسر بعد العسر ، ذكر حالة ، تؤيد ذلك ، وهي حالهم في البحر عند اشتداده ، والخوف من عواقبه ، فقال : ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ بما يسر لكم من الأسباب المسيرة لكم فيها ، وهداكم إليها .

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي : السفن البحرية ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ موافقة لما يهوونه ، من غير انزعاج ولا مشقة .

﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ واطمأنوا إليها ، فبينما هم كذلك ، إذ ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ شديدة الهبوب ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي : عرفوا أنه الهلاك ، فانقطع حينئذ تعلقهم بالمخلوقين ، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده ، فدَعَوْه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ووعدوا من أنفسهم على وجه الإلزام ، فقالوا : ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ ، ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي : نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء ، وما ألزموه أنفسهم ، فأشركوا بالله ، من اعترفوا بأنه لا ينجيهم من الشدائد ، ولا يدفع عنهم المضايق ، فهلا أخلصوا لله العبادة في الرخاء ، كما أخلصوها في الشدَّة ؟ !! .

ولكن هذا البغي يعود وباله عليهم ، ولهذا قال : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي : غاية ما تؤملون ببغيكم ، وشرودكم عن الإخلاص لله ، أن تنالوا شيئًا من حطام الدنيا وجاهها النزر اليسير الذي سينقضي سريعًا ، ويمضي جميعًا ، ثم تنتقلون عنه بالرغم .

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ في يوم القيامة ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وفي هذا غاية التحذير لهم عن الاستمرار على عملهم .

[ ٢٤ - ١٠ ] : ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ

﴿نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

وهذا المثل من أحسن الأمثلة ، وهو مطابق لحالة الدنيا ، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك يزهو لصاحبه إن زها وقتًا قصيرًا ، فإذا استكمل وتم اضمحل ، وزال عن صاحبه ، أو زال صاحبه عنه ، فأصبح صفر اليدين منها ، ممتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها .

فذلك ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أي : نبت فيها من كل صنف ، وزوج بهيج ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ كالحبوب والثمار ﴿وَ﴾ مما تأكل ﴿الْأَنْعَامُ﴾ كأنواع العشب ، والكلأ المختلف الأصناف .

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ أي : تزخرفت في منظرها ، واكتست في زينتها ، فصارت بهجة للناظرين ، ونزهة للمُتفرّجين ، وآية للمُتبصِّرين ، فصرت ترى لها منظرًا عجيبًا ما بين أخضر ، وأصفر ، وأبيض وغيره .

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ أي : حصل معهم طمع ، بأن ذلك سيستمر ويدوم ، لوقوف إرادتهم عنده ، وانتهاء مطالبهم فيه .

فبينما هم في تلك الحالة ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ أي : كأنها ما كانت فهذه حالة الدنيا ، سواء بسواء .

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي : نبينها ونوضحها ، بتقريب المعاني إلى الأذهان ، وضرب الأمثال ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي : يعملون أفكارهم فيما ينفعهم .

وأما الغافل المعرض ، فهذا لا تنفعه الآيات ، ولا يزيل عنه الشك البيان .

ولما ذكر الله حال الدنيا ، وحاصل نعيمها ، شوق إلى الدار الباقية فقال :

[ ١٠ : ٢٥ - ٢٦ ] : ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

عمَّ تعالى عباده بالدعوة إلى دار السلام ، والحث على ذلك ، والترغيب ، وخص بالهداية من شاء استخلاصه واصطفاءه ، فهذا فضله وإحسانه ، والله يختص برحمته من يشاء ، وذلك عدله وحكمته ، وليس لأحد عليه حجة بعد البيان والرسل ، وسمى الله الجنة « دار السلام » لسلامتها من جميع الآفات والنقائص ، وذلك لكمال نعيمها وتمامه وبقائه ، وحسنه من كل وجه .

ولما دعا إلى دار السلام ، كأن النفوس تشوقت إلى الأعمال الموجبة لها الموصلة إليها ، فأخبر عنها بقوله : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ أي : للذين أحسنوا في عبادة الخالق ، بأن عبدوه على وجه المراقبة والنصيحة في عبوديته ، وقاموا بما قدروا عليه منها ، وأحسنوا إلى عباد الله بما يقدرون عليه من الإحسان القولي والفعلي ، من بذل الإحسان المالي ، والإحسان البدني ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتعليم الجاهلين . ونصيحة المعرضين ، وغير ذلك من وجوه البر والإحسان .

فهؤلاء الذين أحسنوا ، لهم « الحُسنى » وهي الجنة الكاملة في حسنها و « زيادة » وهي النظر إلى وجه

الله الكريم، وسماع كلامه، والفوز برضاه والبهجة بقربه، فبهذا حصل لهم أعلى ما يتمناه المتمنون، ويسأله السائلون.

ثم ذكر اندفاع المحذور عنهم فقال: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: لا ينالهم مكروه، بوجه من الوجوه، لأن المكروه، إذا وقع بالإنسان، تبين ذلك في وجهه، وتغير وتكدر.

وأما هؤلاء - فهم كما قال الله عنهم - ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [سورة المطففين ٢٤]، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ الملازمون لها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يُحوَّلون ولا يزولون، ولا يتغيَّرون.

[٢٧ - ١٠]: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

لما ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار، فذكر أن بضاعتهم التي اكتسبوها في الدنيا هي الأعمال السيئة المسخطة لله، من أنواع الكفر والتكذيب، وأصناف المعاصي، فجزاؤهم سيئة مثلها أي: جزاء يسوؤهم بحسب ما عملوا من السيئات على اختلاف أحوالهم.

﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾ أي: تغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ في قلوبهم وخوف من عذاب الله، لا يدفعه عنهم دافع ولا يعصمهم منه عاصم، وتسري تلك الذلة الباطنة إلى ظاهرهم، فتكون سوادًا في الوجوه.

﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فكم بين الفريقين من الفرق، ويا بعد ما بينهما من التفاوت؟!

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [سورة القيامة ٢٢ - ٢٥]، ﴿تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [سورة عبس ٣٨ - ٤٢].

[٢٨: ٣٠ - ١٠]: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ۝ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ۝ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: نجمع جميع الخلائق، لميعاد يوم معلوم، ونحضر المشركين، وما كانوا يعبدون من دون الله.

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ أي: الزموا مكانكم ليقع التحاكم والفصل بينكم وبينهم.

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: فرّقنا بينهم، بالبُعد البدني والقلبي، وحصلت بينهم العداوة الشديدة، بعد أن بذلوا لهم في الدنيا خالص المحبّة وصفو الوداد، فانقلبت تلك المحبّة والولاية بغضًا وعداوة.

وتبرأ شُرَكَاؤُهُمْ منهم وقالوا: ﴿مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ فإننا ننزه الله أن يكون له شريك، أو نديد.

﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ ما أمرناكم بها، ولا دعوناكم لذلك، وإنما عبدتم من دعاكم إلى ذلك، وهو الشيطان كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا

تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [ سورة يس ٦٠ ] .

وقال : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [ سورة سبأ ٤٠ - ٤١ ] .

فالملائكة الكرام والأنبياء والأولياء ونحوهم يتبرؤون ممن عبدهم يوم القيامة ويتنصّلون من دعائهم إياهم إلى عبادتهم وهم الصادقون البارون في ذلك ، فحينئذ يتحسّر المشركون حسرة لا يمكن وصفها ، ويعلمون مقدار ما قدموا من الأعمال ، وما أسلفوا من رديء الخصال ، ويتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين ، وأنهم مفترون على الله ، قد ضلت عبادتهم ، واضمحلت معبوداتهم ، وتقطعت بهم الأسباب والوسائل .

ولهذا قال تعالى : ﴿هُنَالِكَ﴾ أي : في ذلك اليوم ﴿تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ أي : تتفقد أعمالها وكسبها ، وتتبعه بالجزاء ، وتجازي بحسبه ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر ، وضل عنهم ما كانوا يفترون من قولهم بصحّة ما هم عليه من الشرك وأن ما يعبدون من دون الله تنفعهم وتدفع عنهم العذاب .

[ ٣١ - ٣٣ : ١٠ ] : ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ۝ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

أي : ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين أشركوا بالله ، ما لم ينزل به سلطانًا - مُحتجًا عليهم بما أقروا به من توحيد الربوبية ، على ما أنكروه من توحيد الألوهية- ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بإنزال الأرزاق من السماء ، وإخراج أنواعها من الأرض ، وتيسير أسبابها فيها ؟

﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ أي : من هو الذي خلقهما وهو مالكهما ؟ ، وخصَّهما بالذكر من باب التنبيه على المفضول بالفاضل ، ولكمال شرفهما ونفعهما .

﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كإخراج أنواع الأشجار والنبات من الحُبوب والنوى ، وإخراج المؤمن من الكافر ، والطائر من البيضة ، ونحو ذلك ، ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ عكس هذه المذكورات ، ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ في العالم العلوي والسفلي ، وهذا شامل لجميع أنواع التدابير الإلهية ، فإنك إذا سألتهم عن ذلك ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ لأنهم يعترفون بجميع ذلك ، وأن الله لا شريك له في شيء من المذكورات .

﴿فَقُلْ﴾ لهم إلزامًا بالحجة ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله فتُخلِصون له العبادة وحده لا شريك له ، وتخلعون ما تعبدون من دونه من الأنداد والأوثان .

﴿فَذَلِكُمُ﴾ الذي وصف نفسه بما وصفها به ﴿اللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ أي : المألوه المعبود المحمود ، المُربِّي جميع الخلق بالنعم وهو : ﴿الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ .

فإنه تعالى المُنفرِد بالخلق والتدبير لجميع الأشياء ، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه ، ولا يأتي بالحسنات إلا هو ، ولا يدفع السيئات إلا هو ، ذو الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العظيمة والجلال والإكرام .

﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ عن عبادة من هذا وصفه ، إلى عبادة الذي ليس له من وجوده إلا العدم ، ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا .

فليس له من الملك مثقال ذرّة ، ولا شركة له بوجه من الوجوه ، ولا يشفع عند الله إلا بإذنه ، فتبا لمن أشرك به ، وويحًا لمن كفر به ، لقد عدموا عقولهم ، بعد أن عدموا أديانهم ، بل فقدوا دنياهم وأخراهم .

ولهذا قال تعالى عنهم : ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بعد ما أراهم الله من الآيات البيّنات والبراهين النيّرات ، ما فيه عبرة لأولي الألباب ، وموعظة للمتّقين وهدى للعالمين .

[ ٣٤: ٣٦ – ١٠ ] : ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ .

يقول تعالى – مُبيِّنًا عجز آلهة المشركين ، وعدم اتصافها بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله– ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ أي : يبتديه ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي والتقرير ، أي : ما منهم أحد يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهي أضعف من ذلك وأعجز ، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ من غير مشارك ولا معاون له على ذلك .

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي : تُصرَفون ، وتنحرفون عن عبادة المنفرد بالابتداء ، والإعادة إلى عبادة من لا يخلق شيئًا وهم يخلقون .

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ ببيانه وإرشاده ، أو بإلهامه وتوفيقه .

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ وحده ﴿يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ بالأدلة والبراهين ، وبالإلهام والتوفيق ، والإعانة إلى سلوك أقوم طريق .

﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾ أي : لا يهتدي ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ لعدم علمه ، ولضلاله ، وهي شركاؤهم ، التي لا تهدي ولا تهتدي إلا أن تهدى ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي : أيّ شيء جعلكم تحكمون هذا الحكم الباطل ، بصحة عبادة أحد مع الله ، بعد ظهور الحُجّة والبُرهان ، أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده .

فإذا تبيّن أنه ليس في آلهتهم التي يعبدون مع الله أوصافا معنوية ، ولا أوصافا فعلية ، تقتضي أن تعبد مع الله ، بل هي متصفة بالنقائص الموجبة لبطلان إلهيتها ، فلأي شيء جعلت مع الله آلهة ؟

فالجواب : أن هذا من تزيين الشيطان للإنسان ، أقبح البهتان ، وأضل الضلال ، حتى اعتقد ذلك وألفه ، وظنه حقًّا ، وهو لا شيء .

ولهذا قال : وما يتّبع الذين يدعون من دون الله شركاء أي : ما يتّبعون في الحقيقة شركاء لله ، فإنه ليس لله شريك أصلا عقلًا ولا نقلاً ، وإنما يتبعون الظن و﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ فسموها آلهة ، وعبدوها مع الله ، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وسيُجازيهم على ذلك بالعقوبة البليغة .

[ ٣٧: ٤١ – ١٠ ] : ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم

مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي : غير ممكن ولا متصور ، أن يفترى هذا القرآن على الله تعالى ، لأنه الكتاب العظيم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وهو الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا ، وهو كتاب الله الذي تكلَّم به رب العالمين ، فكيف يقدر أحد من الخلق ، أن يتكلَّم بمثله ، أو بما يُقاربه ، والكلام تابع لعظمة المُتكلِّم ووصفه ؟ .

فإن كان أحد يُماثِل الله في عظمته ، وأوصاف كماله ، أمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن ، ولو تنزلنا على الفرض والتقدير ، فتقوله أحد على رب العالمين ، لعاجله بالعقوبة ، وبادره بالنكال .

﴿وَلَـٰكِن﴾ الله أنزل هذا الكتاب ، رحمة للعالمين ، وحُجَّة على العباد أجمعين ، أنزله ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من كُتُب الله السماوية ، بأن وافقها ، وصدقها بما شهدت به ، وبشرت بنزوله ، فوقع كما أخبرت .

﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ للحلال والحرام ، والأحكام الدينية والقدرية ، والإخبارات الصادقة .

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي : لا شك ولا مُرْيَة فيه بوجه من الوجوه ، بل هو الحق اليقين : تنزيل من رب العالمين الذي ربَّى جميع الخلق بنعمه .

ومن أعظم أنواع تربيته أن أنزل عليهم هذا الكتاب الذي فيه مصالحهم الدينية والدنيوية ، المشتمل على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال .

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أي : المُكذِّبون به عنادًا وبغيًا : ﴿ٱفْتَرَىٰهُ ۖ﴾ محمد على الله واختلقه ، ﴿قُلْ﴾ لهم – مُلْزِمًا لهم بشيء– إن قدروا عليه ، أمكن ما ادعوه ، وإلا كان قولهم باطلًا .

﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ يعاونكم على الإتيان بسورة مثله ، وهذا محال ، ولو كان ممكنًا لادعوا قدرتهم على ذلك ، ولأتوا بمثله .

ولكن لما بان عجزهم تبيَّن أن ما قالوه باطل ، لا حظ له من الحُجَّة ، والذي حملهم على التكذيب بالقرآن المشتمل على الحق الذي لا حق فوقه ، أنهم لم يحيطوا به علمًا .

فلو أحاطوا به علمًا وفهموه حق فهمه ، لأذعنوا بالتصديق به ، وكذلك إلى الآن لم يأتهم تأويله الذي وعدهم أن ينزل بهم العذاب ويحل بهم النكال ، وهذا التكذيب الصادر منهم ، من جنس تكذيب من قبلهم ، ولهذا قال : ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ وهو الهلاك الذي لم يبق منهم أحدًا .

فليحذر هؤلاء ، أن يستمروا على تكذيبهم ، فيحل بهم ما أحل بالأُمم المُكذِّبين والقرون المُهْلَكِين .

وفي هذا دليل على التَّثبُّت في الأمور ، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يبادر بقبول شيء أو رده ، قبل أن يحيط

به علمًا .

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي : بالقرآن وما جاء به ، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وهم الذين لا يؤمنون به على وجه العناد والظلم والفساد ، فسيجازيهم على فسادهم بأشد العذاب .

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ فاستمر على دعوتك ، وليس عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ، لكل عمله . ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

كما قال تعالى : ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [ سورة فُصلت ٤٦ ] .

[ ٤٢ : ٤٤ – ١٠ ] : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

يخبر تعالى عن بعض المُكذِّبين للرسول ، ولما جاء به ، وأن ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ﴾ إلى النبي ﷺ ، وقت قراءته للوحي ، لا على وجه الاسترشاد ، بل على وجه التفرج والتكذيب وتطلب العثرات ، وهذا استماع غير نافع ، ولا مُجدٍ على أهله خيرًا ، لا جرم انسد عليهم باب التوفيق ، وحرموا من فائدة الاستماع ، ولهذا قال : ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وهذا الاستفهام ، بمعنى النفي المُتقرِّر ، أي : لا تسمع الصم الذين لا يستمعون القول ولو جهرت به ، وخصوصًا إذا كان عقلهم معدومًا .

فإذا كان من المحال إسماع الأصم الذي لا يعقل للكلام ، فهؤلاء المُكذِّبون ، كذلك ممتنع إسماعك إياهم ، إسماعًا ينتفعون به .

وأما سماع الحُجَّة ، فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حُجَّة الله البالغة ، فهذا طريق عظيم من طرق العلم قد انسد عليهم ، وهو طريق المسموعات المُتعلِّقة بالخير .

ثم ذكر انسداد الطريق الثاني ، وهو : طريق النظر فقال : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ فلا يفيده نظره إليك ، ولا سبر أحوالك شيئًا ، فكما أنك لا تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون ، فكذلك لا تهدي هؤلاء .

فإذا فسدت عقولهم وأسماعهم وأبصارهم التي هي الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق ، فأين الطريق الموصِّل لهم إلى الحق ؟ .

ودلَّ قوله : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ الآية ، أن النظر إلى حالة النبي ﷺ ، وهديه وأخلاقه وأعماله وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه وصحة ما جاء به ، وأنه يكفي البصير عن غيره من الأدلة .

وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ فلا يزيد في سيئاتهم ، ولا ينقص من حسناتهم .

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يجيئهم الحق فلا يقبلونه ، فيعاقبهم الله بعد ذلك بالطبع على قلوبهم ، والختم على أسماعهم وأبصارهم .

[٤٥ – ١٠] : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ .

يُخبر تعالى ، عن سرعة انقضاء الدنيا ، وأن الله تعالى إذا حشر الناس وجمعهم ليوم لا ريب فيه ، كأنهم ما لبثوا إلا ساعة من نهار ، وكأنه ما مر عليهم نعيم ولا بؤس ، وهم يتعارفون بينهم ، كحالهم في الدنيا ، ففي هذا اليوم يربح المُتَّقون ، ويخسر الذين كذَّبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين إلى الصراط المستقيم والدين القويم ، حيث فاتهم النعيم ، واستحقُّوا دخول النار .

[ ٤٦ - ١٠ ] : ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ .

أي : لا تحزن أيُّها الرسول على هؤلاء المُكذِّبين ، ولا تستعجل لهم ، فإنهم لا بد أن يصيبهم الذي نعدهم من العذاب ، إما في الدنيا فتراه بعينك ، وتقر به نفسك .

وإما في الآخرة بعد الوفاة ، فإن مرجعهم إلى الله ، وسينبئهم بما كانوا يعملون ، أحصاه ونسوه ، والله على كل شيء شهيد ، ففيه الوعيد الشديد لهم ، والتسلية للرسول الذي كذبه قومه وعاندوه .

[ ٤٧ : ٤٩ - ١٠ ] : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٤٧ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأُمم الماضية ﴿رَّسُولٌ﴾ يدعوهم إلى توحيد الله ودينه .

﴿فَإِذَا جَآءَ﴾ هم ﴿رَسُولُهُمْ﴾ بالآيات ، صدقه بعضهم ، وكذبه آخرون ، فيقضي الله بينهم بالقسط بنجاة المؤمنين ، وإهلاك المُكذِّبين ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بأن يُعذَّبوا قبل إرسال الرسول وبيان الحُجَّة ، أو يعذبوا بغير جرمهم ، فليحذر المُكذِّبون لك من مُشابهة الأُمم المُهلَكِين ، فيحل بهم ما حل بأولئك .

ولا يستبطئوا العقوبة ويقولوا : ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فإن هذا ظلم منهم ، حيث طلبوه من النبي ﷺ ، فإنه ليس له من الأمر شيء ، وإنما عليه البلاغ والبيان للناس ، وأما حسابهم وإنزال العذاب عليهم ، فمن الله تعالى ، ينزله عليهم إذا جاء الأجل الذي أجله فيه ، والوقت الذي قدره فيه ، الموافق لحكمته الإلهية .

فإذا جاء ذلك الوقت لا يستأخِّرون ساعة ولا يستقدمون ، فليحذر المُكذِّبون من الاستعجال بالعذاب ، فإنهم مُستعجلون بعذاب الله الذي إذا نزل لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، ولهذا قال :

[ ٥٠ : ٥٢ - ١٠ ] : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝٥١ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا﴾ وقت نومكم بالليل ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ في وقت غفلتكم ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي : أي بشارة استعجلوا بها ؟ ، وأي عقاب ابتدروه ؟ .

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ فإنه لا ينفع الإيمان حين حلول عذاب الله ، ويقال لهم توبيخًا وعتابًا في تلك الحال التي زعموا أنهم يؤمنون ، ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ تؤمنون في حال الشدة والمشقة ؟ ، ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ فإن سُنَّة الله في عباده أنه يعتبهم إذا استعتبوه قبل وقوع العذاب ، فإذا وقع العذاب لا ينفع نفسًا

إيمانها ، كما قال تعالى عن فرعون ، لما أدركه الغرق ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [ سورة يُونُس ٩٠ ] ، وأنه يقال له : ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ .

وقال تعالى : ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾ وقال هنا : ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ﴾ تدعون الإيمان ﴿وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ فهذا ما عملت أيديكم ، وهذا ما استعجلتم به .

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ حين يوفون أعمالهم يوم القيامة : ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ أي : العذاب الذي تخلدون فيه ، ولا يفتر عنكم ساعة . ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ من الكفر والتكذيب والمعاصي .

[ ١٠ - ٥٦ : ٥٥ ] : ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ۝٥٣ وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٥٤ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٥ هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ .

يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ﴾ أي : يستخبرك المُكذِّبون على وجه التعنُّت والعناد ، لا على وجه التبين والرشاد ، ﴿أَحَقٌّ هُوَۖ﴾ أي : أصحيح حشر العباد ، وبعثهم بعد موتهم ليوم المعاد ، وجزاء العباد بأعمالهم ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر ؟

﴿قُلۡ﴾ لهم مقسمًا على صحته ، مستدلا عليه بالدليل الواضح والبرهان : ﴿إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ﴾ لا مِرْيَة فيه ولا شبهة تعتريه .

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ لله أن يبعثكم ، فكما ابتدأ خلقكم ولم تكونوا شيئًا ، كذلك يعيدكم مرة أخرى ليجازيكم بأعمالكم .

﴿وَ﴾ إذا كانت القيامة فـ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ﴾ بالكفر والمعاصي جميع﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من ذهب وفضة وغيرهما ، لتفتدي به من عذاب الله ﴿لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ ولما نفعها ذلك ، وإنما النفع والضر والثواب والعقاب ، على الأعمال الصالحة والسيئة .

﴿وَأَسَرُّواْ﴾ أي الذين ظلموا ﴿ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ﴾ ندموا على ما قدموا ، ولات حين مناص ، ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ أي : العدل التام الذي لا ظلم ولا جور فيه بوجه من الوجوه .

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ يحكم فيهم بحكمه الديني والقدري ، وسيحكم فيهم بحكمه الجزائي . ولهذا قال : ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فلذلك لا يستعدون للقاء الله ، بل ربما لم يؤمنوا به ، وقد تواترت عليه الأدلَّة القطعية والبراهين النقلية والعقلية .

﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي : هو المتصرف بالإحياء والإماتة ، وسائر أنواع التدبير ، لا شريك له في ذلك ، ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ يوم القيامة ، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها .

[ ١٠ - ٥٨ : ٥٧ ] : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ .

يقول تعالى – مرغبًا للخلق في الإقبال على هذا الكتاب الكريم ، بذكر أوصافه الحسنة الضرورية للعباد فقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي : تعظكم ، وتنذركم عن الأعمال الموجبة لسخط الله ، المقتضية لعقابه وتحذركم عنها ببيان آثارها ومفاسدها .

﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ وهو هذا القرآن ، شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادة عن الانقياد للشرع وأمراض الشبهات ، القادحة في العلم اليقيني ، فإن ما فيه من المواعظ والترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، مما يوجب للعبد الرغبة والرهبة .

وإذا وجدت فيه الرغبة في الخير ، والرهبة من الشر ، ونمتا على تكرر ما يرد إليها من معاني القرآن ، أوجب ذلك تقديم مراد الله على مراد النفس ، وصار ما يرضي الله أحب إلى العبد من شهوة نفسه .

وكذلك ما فيه من البراهين والأدلة التي صرفها الله غاية التصريف ، وبينها أحسن بيان ، مما يزيل الشبه القادحة في الحق ، ويصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين .

وإذا صح القلب من مرضه ، ورفل بأثواب العافية ، تبعته الجوارح كلها ، فإنها تصلح بصلاحه ، وتفسد بفساده . ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالهدى هو العلم بالحق والعمل به .

والرحمة هي ما يحصل من الخير والإحسان ، والثواب العاجل والآجل ، لمن اهتدى به ، فالهدى أجل الوسائل ، والرحمة أكمل المقاصد والرغائب ، ولكن لا يهتدي به ، ولا يكون رحمة إلا في حق المؤمنين .

وإذا حصل الهدى ، وحلَّت الرحمة الناشئة عنه ، حصلت السعادة والفلاح ، والربح والنجاح ، والفرح والسرور .

ولذلك أمر تعالى بالفرح بذلك فقال : ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾ الذي هو القرآن ، الذي هو أعظم نعمة ومنة ، وفضل تفضل الله به على عباده ﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ الدين والإيمان ، وعبادة الله ومحبته ومعرفته . ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من متاع الدنيا ولذاتها ، فنعمة الدين المُتَّصِلة بسعادة الدارين ، لا نسبة بينها ، وبين جميع ما في الدنيا ، مما هو مُضْمَحِل زائل عن قريب .

وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضله ورحمته ، لأن ذلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها ، وشكرها لله تعالى ، وقوتها ، وشدَّة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للازدياد منهما ، وهذا فرح محمود ، بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها ، أو الفرح بالباطل ، فإن هذا مذموم كما قال تعالى عن قوم قارون له : ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [ سُورة القصص ٧٦ ] .

وكما قال تعالى في الذين فرحوا بما عندهم من الباطل المناقض لما جاءت به الرسل : ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [ سُورة غافر ٨٣ ] .

[ ٥٩ : ٦٠ – ١٠ ] : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ .

يقول تعالى - مُنكرًا على المشركين، الذين ابتدعوا تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرمه -: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ يعني أنواع الحيوانات المحللة، التي جعلها الله رزقا لهم ورحمة في حقهم. ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ قل لهم - موبخا على هذا القول الفاسد-: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ ومن المعلوم أن الله لم يأذن لهم، فعلم أنهم مفترون.

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أن يفعل الله بهم من النكال، ويحل بهم من العقاب، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ كثير، وذو إحسان جزيل، وَلَكِنَّ أكثر الناس لا يشكرون، إما أن لا يقوموا بشكرها، وإما أن يستعينوا بها على معاصيه، وإما أن يُحرَموا منها، ويردوا ما منَّ الله به على عباده، وقليل منهم الشاكر الذي يعترف بالنعمة، ويُثني بها على الله، ويستعين بها على طاعته.

ويُستدل بهذه الآية على أن الأصل في جميع الأطعمة الحل، إلا ما ورد الشرع بتحريمه، لأن الله أنكر على من حرم الرزق الذي أنزله لعباده.

[٦١ - ١٠]: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

يخبر تعالى، عن عموم مشاهدته، واطلاعه على جميع أحوال العباد في حركاتهم، وسكناتهم، وفي ضمن هذا، الدعوة لمراقبته على الدوام فقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ أي: حال من أحوالك الدينية والدنيوية، ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ أي: وما تتلو من القرآن الذي أوحاه الله إليك.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ صغير أو كبير ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: وقت شروعكم فيه، واستمراركم على العمل به.

فراقبوا الله في أعمالكم، وأدوها على وجه النصيحة، والاجتهاد فيها، وإيَّاكم، وما يكره الله تعالى، فإنه مُطَّلع عليكم، عالم بظواهركم وبواطنكم.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ أي: ما يغيب عن علمه، وسمعه، وبصره ومشاهدته ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي: قد أحاط به علمه، وجرى به قلمه.

وهاتان المرتبتان من مراتب القضاء والقدر، كثيرًا ما يقرن الله بينهما، وهما: العلم المُحيط بجميع الأشياء، وكتابته المُحيطة بجميع الحوادث، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [سورة الحج ٧٠].

[٦٢: ٦٤ - ١٠]: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

يُخبر تعالى عن أوليائه وأحبائه ، ويذكر أعمالهم وأوصافهم ، وثوابهم فقال : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه مما أمامهم من المخاوف والأهوال ، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما أسلفوا ، لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال ، وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ثبت لهم الأمن والسعادة ، والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى .

ثم ذكر وصفهم فقال : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، وصدقوا إيمانهم ، باستعمال التقوى ، بامتثال الأوامر ، واجتناب النواهي ، فكل من كان مؤمنًا تقيًا كان لله تعالى وليًا ، و﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾

أما البشارة في الدنيا ، فهي : الثناء الحسن ، والمودَّة في قلوب المؤمنين ، والرؤيا الصالحة ، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق ، وصرفه عن مساوئ الأخلاق .

وأما في الآخرة ، فأولها البشارة عند قبض أرواحهم ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [ سُورة فُصلت ٣٠] .

وفي القبر ما يُبشَّر به من رضا الله تعالى والنعيم المُقيم ، وفي الآخرة تمام البُشرى بدخول جنَّات النعيم ، والنجاة من العذاب الأليم .

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بل ما وعد الله فهو حق ، لا يمكن تغييره ولا تبديله ، لأنه الصادق في قيله ، الذي لا يقدر أحد أن يخالفه فيما قدره وقضاه .

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور ، والظفر بكل مطلوب محبوب ، وحصر الفوز فيه ، لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى .

والحاصل أن البُشرى شاملة لكل خير وثواب ، رتبه الله في الدنيا والآخرة ، على الإيمان والتقوى ، ولهذا أطلق ذلك ، فلم يُقيِّده .

[٦٥ – ١٠] : ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ .

أي : ولا يُحزنك قول المُكذِّبين فيك من الأقوال التي يتوصَّلون بها إلى القدح فيك ، وفي دينك فإن أقوالهم لا تعزهم ، ولا تضرك شيئًا ، ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ يؤتيها من يشاء ، ويمنعها ممن يشاء .

قال تعالى : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [ سُورة فاطر ١٠] ، أي : فليطلبها بطاعته ، بدليل قوله بعده : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [ سُورة فاطر ١٠] .

ومن المعلوم ، أنك على طاعة الله ، وأن العزة لك ولأتباعك من الله ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

وقوله : ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي : سمعه قد أحاط بجميع الأصوات ، فلا يخفى عليه شيء منها ، وعلمه قد أحاط بجميع الظواهر والبواطن ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة ، في السماوات والأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، وهو تعالى يسمع قولك ، وقول أعدائك فيك ، ويعلم ذلك تفصيلا ، فاكتف بعلم الله

وكفايته ، فمن يتق الله ، فهو حسبه .

[ ١٠ : ٦٦ - ٦٧ ] : ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ .

يُخبر تعالى : أن له ما في السماوات والأرض ، خلقًا وملكًا وعبيدًا ، يتصرَّف فيهم بما شاء من أحكامه ، فالجميع مماليك لله ، مسخرون ، مدبرون ، لا يستحقون شيئًا من العبادة ، وليسوا شركاء لله بوجه الوجوه ، ولهذا قال : ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الذي لا يغني من الحق شيئًا ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ في ذلك ، خرص كذب وإفك وبهتان .

فإن كانوا صادقين في أنها شركاء لله ، فليظهروا من أوصافها ما تستحق به مثقال ذرة من العبادة ، فلن يستطيعوا ، فهل منهم أحد يخلق شيئًا أو يرزق ، أو يملك شيئًا من المخلوقات ، أو يدبر الليل والنهار ، الذي جعله الله قياما للناس ؟ .

و ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ في النوم والراحة بسبب الظلمة ، التي تغشى وجه الأرض ، فلو استمر الضياء ، لما قروا ، ولما سكنوا .

﴿وَ﴾ جعل الله ﴿ٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ﴾ أي : مضيئًا ، يبصر به الخلق ، فيتصرَّفون في معايشهم ، ومصالح دينهم ودنياهم .

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ عن الله ، سمع فهم ، وقبول ، واسترشاد ، لا سمع تعنت وعناد ، فإن في ذلك لآيات ، لقوم يسمعون ، يستدلون بها على أنه وحده المعبود وأنه الإله الحق ، وأن إلهية ما سواه باطلة ، وأنه الرءوف الرحيم العليم الحكيم .

[ ١٠ : ٦٨ - ٧٠ ] : ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن بَهْت المُشركين لرب العالمين ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ﴾ فنزَّه نفسه عن ذلك بقوله : ﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۖ﴾ أي : تنزَّه عما يقول الظالمون في نسبة النقائص إليه علوًا كبيرًا ، ثم برهن على ذلك ، بعدة براهين : أحدها : قوله : ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ﴾ أي : الغنى منحصر فيه ، وأنواع الغنى مستغرقة فيه ، فهو الغني الذي له الغنى التام بكل وجه واعتبار من جميع الوجوه ، فإذا كان غنيًا من كل وجه ، فلأي شيء يتَّخذ الولد ؟ . ألحاجة منه إلى الولد ، فهذا مناف لغناه فلا يتخذ أحد ولدًا إلا لنقص في غناه .

البُرهان الثاني ، قوله : ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ وهذه كلمة جامعة عامة لا يخرج عنها موجود من أهل السماوات والأرض ، الجميع مخلوقون عبيد مماليك .

ومن المعلوم أن هذا الوصف العام يُنافي أن يكون له منهم ولد ، فإن الولد من جنس والده ، لا يكون

مخلوقًا ولا مملوكًا . فملكيته لما في السماوات والأرض عمومًا ، تُنافي الولادة .

البرهان الثالث ، قوله : ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ أي : هل عندكم من حجة وبرهان يدل على أن لله ولدًا ، فلو كان لهم دليل لأبدوه ، فلما تحداهم وعجزهم عن إقامة الدليل ، علم بطلان ما قالوه . وأن ذلك قول بلا علم ، ولهذا قال : ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فإن هذا من أعظم المحرَّمات .

﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي : لا ينالون مطلوبهم ، ولا يحصل لهم مقصودهم ، وإنما يتمتعون في كفرهم وكذبهم ، في الدنيا ، قليلاً ، ثم ينتقلون إلى الله ، ويرجعون إليه ، فيذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون . ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

[ ١٠ : ٧١ – ٧٣ ] : ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ .

يقول تعالى لنبيِّه : واتل على قومك ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ في دعوته لقومه ، حين دعاهم إلى الله مُدَّة طويلة ، فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، فلم يزدهم دعاؤه إيَّاهم إلا طُغيانًا ، فتملَّلوا منه وسئموا ، وهو عليه الصلاة والسلام غير مُتكاسِل ، ولا مُتوان في دعوتهم ، فقال لهم : ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي : إن كان مقامي عندكم ، وتذكيري إياكم ما ينفعكم ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الأدلة الواضحة البيِّنة ، قد شق عليكم وعظم لديكم ، وأردتم أن تنالوني بسوء أو تردوا الحق . ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي : اعتمدت على الله ، في دفع كل شر يُراد بي ، وبما أدعو إليه ، فهذا جندي ، وعدتي . وأنتم ، فأتوا بما قدرتم عليه ، من أنواع العَدَدَ والعُددَ .

﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾ كلكم ، بحيث لا يتخلَّف منكم أحد ، ولا تدَّخِروا من مجهودكم شيئًا ، ﴿وَ﴾ أحضروا ﴿شُرَكَآءَكُمْ﴾ الذي كنتم تعبدونهم وتوالونهم من دون الله رب العالمين .

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي : مُشتبهًا خفيًّا ، بل ليكُن ذلك ظاهرًا علانية .

﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ﴾ أي : اقضوا علي بالعُقوبة والسوء ، الذي في إمكانكم ، ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي : لا تُمهلوني ساعة من نهار . فهذا برهان قاطع ، وآية عظيمة على صحة رسالته ، وصدق ما جاء به ، حيث كان وحده لا عشيرة تحميه ، ولا جنود تؤويه .

وقد بادأ قومه بتسفيه آرائهم ، وفساد دينهم ، وعيب آلهتهم . وقد حملوا من بغضه ، وعداوته ما هو أعظم من الجبال الرواسي ، وهم أهل القدرة والسطوة ، وهو يقول لهم : اجتمعوا أنتم وشركاؤكم ومن استطعتم ، وأبدوا كل ما تقدرون عليه من الكيد ، فأوقعوا بي إن قدرتم على ذلك ، فلم يقدروا على شيء من ذلك .

فعُلِمَ أنه الصادق حقًّا ، وهم الكاذبون فيما يدَّعون ، ولهذا قال : ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن ما دعوتكم إليه ،

فلا موجب لتوليكم ، لأنه تبيَّن أنكم لا تولون عن باطل إلى حق ، وإنما تولون عن حق قامت الأدلة على صحته ، إلى باطل قامت الأدلة على فساده .

ومع هذا ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ على دعوتي ، وعلى إجابتكم ، فتقولوا : هذا جاءنا ليأخذ أموالنا ، فتمتنعون لأجل ذلك .

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي : لا أريد الثواب والجزاء إلا منه ، ﴿وَ﴾ أيضا فإني ما أمرتكم بأمر وأخالفكم إلى ضده ، بل ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فأنا أول داخل ، وأول فاعل لما أمرتكم به .

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بعد ما دعاهم ليلاً ونهارًا ، سرًا وجهارًا ، فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا ، ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ الذي أمرناه أن يصنعه بأعيننا ، وقلنا له إذا فار التنور : ف ﴿احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ﴾ [ سورة هود ٤٠ ] ، ففعل ذلك .

فأمر الله السماء أن تُمطِر بماء مُنهمر وفجر الأرض عيونًا ، فالتقى الماء على أمر قد قُدِر : ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ تجري بأعيننا ، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ في الأرض بعد إهلاك المُكذِّبين .

ثم بارك الله في ذُريَّته ، وجعل ذُريَّته ، هم الباقين ، ونشرهم في أقطار الأرض ، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بعد ذلك البيان ، وإقامة البُرهان ، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ وهو : الهلاك المخزي ، واللعنة المُتتابعة عليهم في كل قرن يأتي بعدهم ، لا تسمع فيهم إلا لوما ، ولا ترى إلا قدحًا وذمًّا .

فليحذر هؤلاء المُكذِّبون ، أن يحل بهم ما حل بأولئك الأقوام المُكذِّبين من الهلاك ، والخزي ، والنكال .

[ ١٠ - ٧٤ ] : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ .

أي : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد نوح عليه السلام ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ المُكذِّبين ، يدعونهم إلى الهدى ، ويُحذرونهم من أسباب الردى .

﴿فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي : كل نبي أيَّد دعوته ، بالآيات الدالة على صحة ما جاء به .

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ يعني : أن الله تعالى عاقبهم حيث جاءهم الرسول ، فبادروا بتكذيبه ، طبع الله على قلوبهم ، وحال بينهم وبين الإيمان بعد أن كانوا مُتمكِّنين منه ، كما قال تعالى : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [ سورة الأنعام ١١٠ ] .

ولهذا قال هنا : ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي : نختم عليها ، فلا يدخلها خير ، وما ظلمهم الله ، ولكنهم ظلموا أنفسهم بردهم الحق لما جاءهم ، وتكذيبهم الأوَّل .

[ ١٠ - ٩٣ : ٧٥ ] : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ

أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ .

أي : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد هؤلاء الرسل ، الذين أرسلهم الله إلى القوم المُكذِّبين المُهلكين ، ﴿مُوسَىٰ﴾ بن عمران ، كليم الرحمن ، أحد أولي العزم من المرسلين ، وأحد الكبار المقتدى بهم ، المنزل عليهم الشرائع المعظمة الواسعة .

﴿و﴾ جعلنا معه أخاه ﴿هَارُونَ﴾ وزيرًا بعثناهما ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي : كبار دولته ورؤسائهم ، لأن عامتهم ، تبع للرؤساء .

﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على صدق ما جاءا به من توحيد الله ، والنهي عن عبادة ما سوى الله تعالى ، ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عنها ظلمًا وعلوًا ، بعد ما استيقنوها ، ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي : وصفهم الإجرام والتكذيب .

[٧٦] : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ .

الذي هو أكبر أنواع الحق وأعظمها ، وهو من عند الله الذي خضعت لعظمته الرقاب ، وهو رب العالمين ، المُربِّي جميع خلقه بالنعم .

فلما جاءهم الحق من عند الله على يد موسى ، ردُّوه فلم يقبلوه ، و ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ لم يكفهم – قبّحهم الله – إعراضهم ولا ردهم إياه ، حتى جعلوه أبطل الباطل ، وهو السحر : الذي حقيقته التمويه ، بل جعلوه سحرًا مبينًا ، ظاهرًا ، وهو الحق المبين . ولهذا ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰ﴾ – موبِّخا لهم عن ردهم الحق ، الذي لا يرده إلا أظلم الناس :– ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ أي : أتقولون إنه سحر مبين .

﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ أي : فانظروا وصفه وما اشتمل عليه ، فبمجرَّد ذلك يجزم بأنه الحق . ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ لا في الدنيا ، ولا في الآخرة ، فانظروا لمن تكون له العاقبة ، ولمن له الفلاح ، وعلى يديه

النجاح . وقد علموا بعد ذلك وظهر لكل أحد أن موسى عليه السلام هو الذي أفلح ، وفاز بظفر الدنيا والآخرة .

[٧٨] : ﴿قَالُوٓاْ﴾ لموسى رادين لقوله بما لا يرده : ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ أي : أجئتنا لتصدنا عما وجدنا عليه آباءنا ، من الشرك وعبادة غير الله ، وتأمرنا بأن نعبد الله وحده لا شريك له ؟ ، فجعلوا قول آبائهم الضالين حجة ، يردون بها الحق الذي جاءهم به موسى عليه السلام .

وقولهم : ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي : وجئتمونا لتكونوا أنتم الرؤساء ، ولتخرجونا من أرضنا . وهذا تمويه منهم ، وترويج على جهالهم ، وتهييج لعوامهم على مُعاداة موسى ، وعدم الإيمان به .

وهذا لا يحتج به ، من عرف الحقائق ، وميَّز بين الأمور ، فإن الحجج لا تُدفع إلا بالحجج والبراهين .

وأما من جاء بالحق ، فرد قوله بأمثال هذه الأمور ، فإنها تدل على عجز موردها ، عن الإتيان بما يرد القول الذي جاء خصمه ، لأنه لو كان له حجة لأوردها ، ولم يلجأ إلى قوله : قصدك كذا ، أو مرادك كذا ، سواء كان صادقًا في قوله وإخباره عن قصد خصمه ، أم كاذبًا ، مع أن موسى عليه الصلاة والسلام كل من عرف حاله ، وما يدعو إليه ، عرف أنه ليس له قصد في العلو في الأرض ، وإنما قصده كقصد إخوانه المُرسلين ، هداية الخلق ، وإرشادهم لما فيه نفعهم .

ولكن حقيقة الأمر ، كما نطقوا به بقولهم : ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾ أي : تكبُّرا وعنادًا ، لا لبطلان ما جاء به موسى وهارون ، ولا لاشتباه فيه ، ولا لغير ذلك من المعاني ، سوى الظلم والعدوان ، وإرادة العلو الذي رموا به موسى وهارون .

[٧٩] : ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ مُعارضًا للحق ، الذي جاء به موسى ، ومُغالطًا لملئه وقومه : ﴿ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾ أي : ماهر بالسحر ، متقن له . فأرسل في مدائن مصر ، من أتاه بأنواع السحرة ، على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم .

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ للمغالبة مع موسى ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾ أي : أي شيء أردتم ، لا أعين لكم شيئًا ، وذلك لأنه جازم بغلبته ، غير مبال بهم ، وبما جاءوا به .

﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ﴾ حبالهم وعصيهم ، إذا هي كأنها حيات تسعى ، فـ ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ﴾ أي : هذا السحر الحقيقي العظيم ، ولكن مع عظمته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ فإنهم يريدون بذلك نصر الباطل على الحق ، وأي فساد أعظم من هذا ؟ !! .

وهكذا كل مفسد عمل عملًا ، واحتال كيدًا ، أو أتى بمكر ، فإن عمله سيبْطُل ويضمحل ، وإن حصل لعمله روجان في وقت ما ، فإن مآله الاضمحلال والمَحْق .

وأما المصلحون الذين قصدهم بأعمالهم وجه الله تعالى ، وهي أعمال ووسائل نافعة ، مأمور بها ، فإن الله يصلح أعمالهم ويرقيها ، وينميها على الدوام ، فألقى موسى عصاه ، فتلقفَّت جميع ما صنعوا ، فبطل سحرهم ، واضمحل باطلهم .

[٨٢] : ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ فأُلقي السحرة سُجَّدًا حين تبيَّن لهم الحق ، فتوعَّدهم فرعون بالصلب ، وتقطيع الأيدي والأرْجُل ، فلم يُبالوا بذلك وثبتوا على إيمانهم .

وأما فرعون وملؤه، وأتباعهم، فلم يؤمن منهم أحد، بل استمرُّوا في طغيانهم يعمهون.

ولهذا قال: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ أي: شباب من بني إسرائيل، صبروا على الخوف، لما ثبت في قلوبهم الإيمان.

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ عن دينهم ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: له القهر والغلبة فيها، فحقيق بهم أن يخافوا من بطشته.

﴿و﴾ خصوصًا ﴿إِنَّهُۥ﴾ كان ﴿لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: المتجاوزين للحد، في البغي والعدوان.

والحكمة -والله أعلم- بكونه ما آمن لموسى إلا ذُرِّيَّة من قومه، أن الذُّرِّيَّة والشباب، أقبل للحق، وأسرع له انقيادًا، بخلاف الشيوخ ونحوهم، ممَّن تربَّى على الكفر فإنهم - بسبب ما مكث في قلوبهم من العقائد الفاسدة - أبعد من الحق من غيرهم.

[٨٤]: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ موصّيًا لقومه بالصبر، ومُذكّرًا لهم ما يستعينون به على ذلك فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ فقوموا بوظيفة الإيمان.

﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ أي: اعتمدوا عليه، والجؤوا إليه واستنصروه.

[٨٥]: ﴿فَقَالُواْ﴾ ممتثلين لذلك ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا تسلِّطهم علينا، فيفتنونا، أو يغلبونا، فيفتتنون بذلك، ويقولون: لو كانوا على حق لما غلبوا.

[٨٦]: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لنسلم من شرهم، ولنقيم على ديننا على وجه نتمكن به من إقامة شرائعه، وإظهاره من غير مُعارِض، ولا مُنازِع.

[٨٧]: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ حين اشتد الأمر على قومهما، من فرعون وقومه، وحرصوا على فتنتهم عن دينهم.

﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ أي: مروهم أن يجعلوا لهم بيوتًا، يتمكّنون به من الاستخفاء فيها.

﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: اجعلوها محلًّا، تُصلُّون فيها، حيث عجزتم عن إقامة الصلاة في الكنائس، والبيع العامة.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فإنها معونة على جميع الأمور، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر والتأييد، وإظهار دينهم، فإن مع العسر يسرًا، إن مع العسر يسرًا، وحين اشتد الكرب، وضاق الأمر، فرجه الله ووسعه.

فلما رأى موسى، القسوة والإعراض من فرعون وملئه، دعا عليهم وأمن هارون على دعائه، فقال:

[٨٨]: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ يتزيَّنون بها من أنواع الحلي والثياب، والبيوت المُزخرفة، والمراكب الفاخرة، والخُدَّام، ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ عظيمة ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ أي: إن أموالهم لم يستعينوا بها إلا على الإضلال في سبيلك، فيضلون ويضلون.

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: أتلفها عليهم: إما بالهلاك، وإما بجعلها حجارة، غير مُنتفع بها، ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قسّها ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

قال ذلك ، غضبًا عليهم ، حيث تجرؤوا على محارم الله ، وأفسدوا عباد الله ، وصدُّوا عن سبيله ، ولكمال معرفته بربه بأن الله سيُعاقبهم على ما فعلوا ، بإغلاق باب الإيمان عليهم .

[٨٩] : ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ هذا دليل على أن موسى ، كان يدعو ، وهارون يُؤمِّن على دعائه ، وأن الذي يُؤمِّن ، يكون شريكا للدَّاعي في ذلك الدُّعاء .

﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ على دينكما ، واستمرا على دعوتكما ، ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي : لا تتبعان سبيل الجُهَّال الضُّلَّال ، المُنحرفين عن الصراط المستقيم ، المُتَّبِعين لطرق الجحيم ، فأمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلاً ، وأخبره أنهم يتَّبعون ، وأرسل فرعون في المدائن حاشرين يقولون : ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي : موسى وقومه : ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ .

فجمع جنوده ، قاصيهم ودانيهم ، فأتبعهم بجنوده ، بغيًا وعدوًا أي : خروجهم باغين على موسى وقومه ، ومُعتدين في الأرض ، وإذا اشتد البغي ، واستحكم الذنب ، فانتظر العُقوبة .

[٩٠] : ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ وذلك أن الله أوحى إلى موسى ، لما وصل البحر ، أن يضربه بعصاه ، فضربه ، فانفلق اثنى عشر طريقًا ، وسلكه بنو إسرائيل ، وساق فرعون وجنوده خلفه داخلين .

فلما استكمل موسى وقومه خارجين من البحر ، وفرعون وجنوده داخلين فيه ، أمر الله البحر فالتطم على فرعون وجنوده ، فأغرقهم ، وبنو إسرائيل ينظرون .

حتى إذا أدرك فرعون الغرق ، وجزم بهلاكه ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ وهو الله الإله الحق الذي لا إله إلا هو ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي : المُنقادين لدين الله ، ولما جاء به موسى .

[٩١] : قال الله تعالى - مُبيِّنًا أن هذا الإيمان في هذه الحالة غير نافع له- : ﴿آلْآنَ﴾ تُؤمِن ، وتقر برسول الله ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ أي : بارزت بالمعاصي ، والكفر والتكذيب ﴿وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فلا ينفعك الإيمان كما جرت عادة الله ، أن الكُفَّار إذا وصلوا إلى هذه الحالة الاضطرارية أنه لا ينفعهم إيمانهم ، لأن إيمانهم ، صار إيمانًا مشاهدًا كإيمان من ورد القيامة ، والذي ينفع ، إنما هو الإيمان بالغيب .

[٩٢] : ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾

قال المُفسِّرون : إن بني إسرائيل لما في قلوبهم من الرعب العظيم ، من فرعون ، كأنهم لم يصدقوا بإغراقه ، وشكوا في ذلك ، فأمر الله البحر أن يلقيه على نجوة مرتفعة ببدنه ، ليكون لهم عبرة وآية .

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ فلذلك تمر عليهم وتتكرَّر فلا ينتفعون بها ، لعدم إقبالهم عليها .

وأما من له عقل وقلب حاضر ، فإنه يرى من آيات الله ما هو أكبر دليل على صحة ما أخبرت به الرسل .

[٩٣] : ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي : أنزلهم الله وأسكنهم في مساكن آل فرعون ، وأورثهم أرضهم وديارهم .

﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المطاعم والمشارب وغيرهما ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في الحق ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ الموجب لاجتماعهم وائتلافهم ، ولكن بغى بعضهم على بعض ، وصار لكثير منهم أهوية وأغراض تُخالِف الحق ، فحصل بينهم من الاختلاف شيء كثير .

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بحُكمِهِ العدل الناشئ عن علمه التام، وقُدرته الشاملة، وهذا هو الداء، الذي يعرض لأهل الدين الصحيح.

وهو: أن الشيطان إذا أعجزوه أن يُطيعوه في ترك الدين بالكُلية، سعى في التحريش بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء، فحصل من الاختلاف ما هو موجب ذلك، ثم حصل من تضليل بعضهم لبعض، وعداوة بعضهم لبعض، ما هو قُرَّة عين اللعين.

وإلا فإذا كان ربهم واحدًا، ورسولهم واحدًا، ودينهم واحدًا، ومصالحهم العامة مُتَّفِقة، فلأي شيء يختلفون اختلافًا يُفرّق شملهم، ويُشتِّت أمرهم، ويحل رابطتهم ونظامهم، فيفوت من مصالحهم الدينية والدنيوية ما يفوت، ويموت من دينهم، بسبب ذلك ما يموت؟.

فنسألك اللهم، لطفًا بعبادك المؤمنين، يجمع شملهم ويرأب صدعهم، ويرد قاصيهم على دانيهم، يا ذا الجلال والإكرام.

[ ٩٤: ٩٥ - ١٠ ]: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

يقول تعالى لنبيّه محمد ﷺ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ هل هو صحيح أم غير صحيح؟.

﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: اسأل أهل الكُتُب المُنْصِفين، والعلماء الراسخين، فإنهم سيقرُّون لك بصدق ما أخبرت به، وموافقته لما معهم، فإن قيل: إن كثيرًا من أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم كذَّبوا رسول الله وعاندوه، وردُّوا عليه دعوته.

والله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بهم، وجعل شهادتهم حُجّة لما جاء به، وبرهانًا على صدقه، فكيف يكون ذلك؟.

فالجواب عن هذا، من عِدَّة أوجه: **منها**: أن الشهادة إذا أضيفت إلى طائفة، أو أهل مذهب، أو بلد ونحوهم، فإنها إنما تتناول العُدُول الصادقين منهم، وأما من عداهم، فلو كانوا أكثر من غيرهم فلا عبرة فيهم، لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين، كـ «عبد الله بن سلام» وأصحابه وكثير ممن أسلم في وقت النبي ﷺ، وخلفائه، ومن بعده، و «كعب الأحبار» وغيرهما.

**ومنها**: أن شهادة أهل الكتاب للرسول ﷺ مبنية على كتابهم التوراة الذي ينتسبون إليه.

فإذا كان موجودًا في التوراة، ما يوافق القرآن ويُصدِّقه، ويشهد له بالصحة، فلو اتفقوا من أولهم لآخرهم على إنكار ذلك، لم يقدح بما جاء به الرسول.

**ومنها**: أن الله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه، وأظهر ذلك وأعلنه على رءوس الأشهاد.

ومن المعلوم أن كثيرًا منهم من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول محمد ﷺ، فلو كان عندهم ما

يرد ما ذكره الله ، لأبدوه وأظهروه وبينوه ، فلما لم يكن شيء من ذلك ، كان عدم رد المعادي ، وإقرار المستجيب من أدل الأدلة على صحة هذا القرآن وصدقه .

**ومنها** : أنه ليس أكثر أهل الكتاب ، رد دعوة الرسول ، بل أكثرهم استجاب لها ، وانقاد طوعًا واختيارًا ، فإن الرسول بعث وأكثر أهل الأرض المُتديِّنين أهل كتاب .

فلم يمكث دينه مُدَّة غير كثيرة ، حتى انقاد للإسلام أكثر أهل الشام ، ومصر ، والعراق ، وما جاورها من البلدان التي هي مَقَر دين أهل الكتاب ، ولم يبق إلا أهل الرياسات الذين آثروا رياساتهم على الحق ، ومن تبعهم من العوام الجهلة ، ومن تدَّين بدينهم اسمًا لا معنى ، كالإفرنج الذين حقيقة أمرهم أنهم دهرية مُنحلُّون عن جميع أديان الرسل ، وإنما انتسبوا للدين المسيحي ، ترويجًا لمُلْكِهم ، وتمويهًا لباطلهم ، كما يعرف ذلك من عرف أحوالهم البيِّنة الظاهرة .

وقوله : ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ﴾ أي : الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه ولهذا قال : ﴿مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ كقوله تعالى : ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [ سُورة الأعراف ٢ ] .

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وحاصل هذا أن الله نهى عن شيئين : الشك في هذا القرآن والامتراء فيه .

وأشد من ذلك ، التكذيب به ، وهو آيات الله البيِّنات التي لا تقبل التكذيب بوجه ، ورتَّب على هذا الخسار ، وهو عدم الربح أصلًا ، وذلك بفوات الثواب في الدنيا والآخرة ، وحُصُول العقاب في الدنيا والآخرة ، والنهي عن الشيء أمر بضده ، فيكون أمرًا بالتصديق التام بالقرآن ، وطمأنينة القلب إليه ، والإقبال عليه ، علمًا وعملًا . فبذلك يكون العبد من الرابحين الذين أدركوا أجل المطالب ، وأفضل الرغائب ، وأتم المناقب ، وانتفى عنهم الخسار .

[ ٩٦ : ٩٧ - ١٠ ] : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾

يقول تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي : إنهم من الضالين الغاوين أهل النار ، لا بد أن يصيروا إلى ما قدره الله وقضاه ، فلا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ، فلا تزيدهم الآيات إلا طغيانا ، وغيا إلى غيهم .

وما ظلمهم الله ، ولكن ظلموا أنفسهم بردِّهم للحق ، لما جاءهم أول مرة ، فعاقبهم الله ، بأن طبع على قلوبهم وأسماعهم ، وأبصارهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، الذي وعدوا به .

فحينئذ يعلمون حق اليقين ، أن ما هم عليه هو الضلال ، وأن ما جاءتهم به الرسل هو الحق . ولكن في وقت لا يجدي عليهم إيمانهم شيئًا ، فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ، ولا هم يستعتبون ، وأما الآيات فإنها تنفع من له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

[٩٨ - ١٠] : ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾

يقول تعالى : ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ من قُرى المُكذِّبين ﴿ءَامَنَتْ﴾ حين رأت العذاب ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ أي : لم يكن منهم أحد انتفع بإيمانه ، حين رأى العذاب ، كما قال تعالى عن فرعون ما تقدَّم قريبًا ، لما قال : ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [ سورة ٩٠] ، فقيل له ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [ سورة ٩١] .

وكما قال تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ [ سورة غافر ٨٤ - ٨٥] .

وقال تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ﴾ [ سورة ٩٩ - ١٠٠] .

والحكمة في هذا ظاهرة ، فإن الإيمان الاضطراري ، ليس بإيمان حقيقة ، ولو صُرِفَ عنه العذاب والأمر الذي اضطره إلى الإيمان ، لرجع إلى الكفران .

وقوله : ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾ بعدما رأوا العذاب ، ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ فهم مُستثنون من العموم السابق .

ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة ، لم تصل إلينا ، ولم تدركها أفهامنا .

قال الله تعالى : ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قوله : ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ولعل الحكمة في ذلك ، أن غيرهم من المُهلكين ، لو ردُّوا لعادوا لما نُهوا عنه .

وأما قوم يونس ، فإن الله علم أن إيمانهم سيستمر ، بل قد استمر فعلا وثبتوا عليه والله أعلم .

[ ٩٩ : ١٠٠ - ١٠] : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ .

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ بأن يلهمهم الإيمان ، ويوزع قلوبهم للتقوى ، فقدرته صالحة لذلك ، ولكنه اقتضت حكمته أن كان بعضهم مؤمنين ، وبعضهم كافرين .

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي : لا تقدر على ذلك ، وليس في إمكانك ، ولا قُدرة لغير الله على شيء من ذلك .

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي : بإرادته ومشيئته ، وإذنه القدري الشرعي ، فمن كان من الخلق قابلاً لذلك ، يزكو عنده الإيمان ، وفَّقه وهداه .

﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي : الشر والضلال ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ عن الله أوامره ونواهيه ، ولا يلقوا بالا لنصائحه ومواعظه .

[ ١٠١ : ١٠٣ - ١٠] : ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

يدعو تعالى عباده إلى النظر لما في السماوات والأرض ، والمراد بذلك : نظر الفكر والاعتبار والتَّأمُّل ، لما فيها ، وما تحتوي عليه ، والاستبصار ، فإن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ، وعبرًا لقوم يوقنون ، تدل على أن الله وحده ، المعبود المحمود ، ذو الجلال والإكرام ، والأسماء والصفات العظام .

﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم لا ينتفعون بالآيات لإعراضهم وعنادهم .

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي : فهل ينتظر هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله ، بعد وضوحها ، ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي : من الهلاك والعقاب ، فإنهم صنعوا كصنيعهم وسُنَّة الله جارية في الأوَّلين والآخرين .

﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ فستعلمون من تكون له العاقبة الحسنة ، والنجاة في الدنيا والآخرة ، وليست إلا للرسل وأتباعهم .

ولهذا قال : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من مكاره الدنيا والآخرة ، وشدائدهما .

﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أوجبناه على أنفسنا ﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا من دفعه عن المؤمنين ، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا فإنه – بحسب ما مع العبد من الإيمان – تحصل له النجاة من المكاره .

[ ١٠٤ : ١٠٦ – ١٠ ] : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

يقول تعالى لنبيِّه محمد ﷺ ، سيِّد المرسلين ، وإمام المُتَّقين وخير الموقنين : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾ أي : في ريب واشتباه ، فإني لست في شك منه ، بل لدي العلم اليقيني أنه الحق ، وأن ما تدعون من دون الله باطل ، ولي على ذلك ، الأدلة الواضحة ، والبراهين الساطعة .

ولهذا قال : ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأنداد ، والأصنام وغيرها ، لأنها لا تخلق ولا ترزق ، ولا تُدبِّر شيئًا من الأمور ، وإنما هي مخلوقة مُسخَّرة ، ليس فيها ما يقتضي عبادتها .

﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ أي : هو الله الذي خلقكم ، وهو الذي يميتكم ، ثم يبعثكم ، ليجازيكم بأعمالكم ، فهو الذي يستحق أن يعبد ، ويصلى له ويخضع ويسجد .

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي : أخلص أعمالك الظاهرة والباطنة لله ، وأقم جميع شرائع الدين حنيفًا ، أي : مُقبِلًا على الله ، مُعرِضًا عما سواه ، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لا في حالهم ، ولا تكن معهم .

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ وهذا وصف لكل مخلوق ، أنه لا ينفع ولا يضر ، وإنما النافع الضار ، هو الله تعالى .

﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ بأن دعوت من دون الله ، ما لا ينفعك ولا يضرك ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي : الضارين أنفسهم بإهلاكها ، وهذا الظلم هو الشرك كما قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فإذا كان خير الخلق ، لو دعا مع الله غيره ، لكان من الظالمين المشركين فكيف بغيره ؟ !! .

[١٠٧ - ١٠] : ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ .

هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المُستحق للعبادة ، فإنه النافع الضار ، المعطي المانع ، الذي إذا مس بضر ، كفقر ومرض ، ونحوها ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ لأن الخلق ، لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء ، لم ينفعوا إلا بما كتبه الله ، ولو اجتمعوا على أن يضروا أحدا ، لم يقدروا على شيء من ضرره ، إذا لم يرده الله ، ولهذا قال : ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ أي : لا يقدر أحد من الخلق ، أن يرد فضله وإحسانه ، كما قال تعالى : ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ * فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [ سُورة فاطر ٢] .

﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي : يختص برحمته من شاء من خلقه ، والله ذو الفضل العظيم ، ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لجميع الزلّات ، الذي يُوفِّق عبده لأسباب مغفرته ، ثم إذا فعلها العبد ، غفر الله ذنوبه ، كبارها ، وصغارها .

﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء ، ووصل جوده إلى جميع الموجودات ، بحيث لا تستغني عن إحسانه ، طرفة عين ، فإذا عرف العبد بالدليل القاطع ، أن الله ، هو المنفرد بالنعم ، وكشف النقم ، وإعطاء الحسنات ، وكشف السيئات والكربات ، وأن أحدًا من الخلق ، ليس بيده من هذا شيء إلا ما أجراه الله على يده ، جزم بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل .

ولهذا - لما بيّن الدليل الواضح قال بعده :-

[ ١٠٨: ١٠٩ - ١٠] : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَٰكِمِينَ﴾ .

أي : ﴿قُلْ﴾ يا أيُّها الرسول ، لما تبيَّن البرهان ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي : الخبر الصادق المؤيَّد بالبراهين ، الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه ، وهو واصل إليكم من ربكم الذي من أعظم تربيته لكم ، أن أنزل إليكم هذا القرآن الذي فيه تبيان لكل شيء ، وفيه من أنواع الأحكام والمطالب الإلهية والأخلاق المرضية ، ما فيه أعظم تربية لكم ، وإحسان منه إليكم ، فقد تبين الرشد من الغي ، ولم يبق لأحد شبهة .

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ بهدى الله بأن علم الحق وتفهمه ، وآثره على غيره فلِنَفْسِهِ والله تعالى غني عن عباده ، وإنما ثمرة أعمالهم راجعة إليهم .

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الهدى بأن أعرض عن العلم بالحق ، أو عن العمل به ، ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ولا يضر الله شيئًا ، فلا يضر إلا نفسه .

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ فأحفظ أعمالكم وأحاسبكم عليها ، وإنما أنا لكم نذير مبين ، والله عليكم وكيل . فانظروا لأنفسكم ، ما دمتم في مدة الإمهال .

﴿وَاتَّبِعْ﴾ أيُّها الرسول ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ علمًا ، وعملًا ، وحالًا ، ودعوة إليه ، ﴿وَاصْبِرْ﴾ على ذلك ، فإن هذا أعلى أنواع الصبر ، وإن عاقبته حميدة ، فلا تكسل ، ولا تضجر ، بل دُمْ على ذلك ، واثبت ، ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ بينك وبين من كذبك ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فإن حكمه ، مُشتمِل على العدل التام ، والقسط الذي يحمد عليه .

وقد امتثل ﷺ أمر ربه ، وثبت على الصراط المستقيم ، حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان ، ونصره على أعدائه بالسيف والسنان ، بعد ما نصره الله عليهم ، بالحُجّة والبُرهان ، فلله الحمد ، والثناء الحسن ، كما ينبغي لجلاله ، وعظمته ، وكماله وسعة إحسانه .

**تم تفسير سورة يونس**

**والحمد لله رب العالمين .**

## ( ١١ ) تفسير سورة هود ، عليه الصلاة والسلام

### وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[ ١ : ٤ - ١١ ] : ﴿الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ① أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ② وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ③ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

يقول تعالى : هذا ﴿كِتَابٌ﴾ عظيم ، ونزل كريم ، ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ أي : أتقنت وأحسنت ، صادقة أخبارها ، عادلة أوامرها ونواهيها ، فصيحة ألفاظه بهية معانيه ، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أي : مُيّزت وبُيّنت بيانا في أعلى أنواع البيان ، ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها ، لا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته ، ﴿خَبِيرٍ﴾ مُطَّلع على الظواهر والبواطن .

فإذا كان إحكامه وتفصيله من عند الله الحكيم الخبير ، فلا تسأل بعد هذا ، عن عظمته وجلالته واشتماله على كمال الحكمة ، وسعة الرحمة . وإنما أنزل الله كتابه لـ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي : لأجل إخلاص الدين كله لله ، وأن لا يشرك به أحد من خلقه .

﴿إِنَّنِي لَكُم﴾ أيُّها الناس ﴿مِّنْهُ﴾ أي : من الله ربكم ﴿نَذِيرٌ﴾ لمن تجرأ على المعاصي بعقاب الدنيا والآخرة ، ﴿وَبَشِيرٌ﴾ للمطيعين لله بثواب الدنيا والآخرة .

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ عن ما صدر منكم من الذنوب ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلون من أعماركم ، بالرجوع إليه ، بالإنابة والرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه .

ثم ذكر ما يترتّب على الاستغفار والتوبة فقال : ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ أي : يعطيكم من رزقه ، ما

تتمتعون به وتنتفعون .

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي : إلى وقت وفاتكم ﴿وَيُؤْتِ﴾ منكم ﴿كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ أي : يعطي أهل الإحسان والبر من فضله وبرّه ، ما هو جزاء لإحسانهم ، من حصول ما يحبون ، ودفع ما يكرهون .

﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن ما دعوتكم إليه ، بل أعرضتم عنه ، وربما كذبتم به ﴿فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ وهو يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأوّلين والآخرين ، فيجازيهم بأعمالهم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

وفي قوله : ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ كالدليل على إحياء الله الموتى ، فإنه قدير على كل شيء ، ومن جملة الأشياء إحياء الموتى ، وقد أخبر بذلك وهو أصدق القائلين ، فيجب وقوع ذلك عقلا ونقلا .

[٥ - ١١] : ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

يُخبر تعالى عن جهل المشركين ، وشدّة ضلالهم ، أنهم ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ أي : يميلونها ﴿لِيَسْتَخْفُوا۟﴾ من الله ، فتقع صدورهم حاجبة لعلم الله بأحوالهم ، وبصره لهيئاتهم .

قال تعالى - مُبيّنا خطأهم في هذا الظن - ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي : يتغطّون بها ، يعلمهم في تلك الحال ، التي هي من أخفى الأشياء .

بل ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من الأقوال والأفعال ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ﴾ منها ، بل ما هو أبلغ من ذلك ، وهو : ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي : بما فيها من الإرادات ، والوساوس ، والأفكار ، التي لم ينطقوا بها ، سرًّا ولا جهرا ، فكيف تخفى عليه حالكم ، إذا ثنيتم صدوركم لتستخفوا منه .

ويحتمل أن المعنى في هذا أن الله يذكر إعراض المُكذّبين للرسول الغافلين عن دعوته ، أنهم - من شدة إعراضهم - يُثنون صدورهم ، أي : يَحْدَودِبُونَ حين يرون الرسول ﷺ لئلا يراهم ويسمعهم دعوته ، ويعظهم بما ينفعهم ، فهل فوق هذا الإعراض شيء ؟ »

ثم توعّدهم بعلمه تعالى بجميع أحوالهم ، وأنهم لا يخفون عليه ، وسيجازيهم بصنيعهم .

[٦ - ١١] : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾

أي : جميع ما دبَّ على وجه الأرض ، من آدمي ، أو حيوان بري أو بحري ، فالله تعالى قد تكفّل بأرزاقهم وأقواتهم ، فرزقها على الله .

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ﴾ أي : يعلم مُستقر هذه الدواب ، وهو : المكان الذي تقيم فيه وتستقر فيه ، وتأوي إليه ، ومستودعها : المكان الذي تنتقل إليه في ذهابها ومجيئها ، وعوارض أحوالها .

﴿كُلٌّ﴾ من تفاصيل أحوالها ﴿فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي : في اللوح المحفوظ المحتوي على جميع الحوادث الواقعة ، والتي تقع في السماوات والأرض . الجميع قد أحاط بها علم الله ، وجرى بها قلمه ، ونفذت فيها مشيئته ، ووسعها رزقه ، فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها ، وأحاط

علما بذواتها، وصفاتها.

[ ١١: ٧ - ٨ ]: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

يخبر تعالى أنه ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ﴿وَ﴾ حين خلق السماوات والأرض ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ فوق السماء السابعة.

فبعد أن خلق السماوات والأرض استوى عليه، يُدبِّر الأمور، ويُصرِّفها كيف شاء من الأحكام القدرية، والأحكام الشرعية. ولهذا قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: ليمتحنكم، إذ خلق لكم ما في السماوات والأرض بأمره ونهيه، فينظر أيكم أحسن عملا.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «أخلصه وأصوبه»، قيل يا أبا علي: «ما أخلصه وأصوبه»؟.

فقال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا، لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يُقبل، حتى يكون خالصا صوابا.

والخالص: أن يكون لوجه الله، والصواب: أن يكون مُتَّبِعا فيه الشرع والسُّنَّة، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سُورة الذَّاريات ٥٦].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾ [سُورة الطَّلاق ١٢]، فالله تعالى خلق الخلق لعبادته ومعرفته بأسمائه وصفاته، وأمرهم بذلك، فمن انقاد، وأدى ما أمر به، فهو من المفلحين، ومن أعرض عن ذلك، فأولئك هم الخاسرون، ولا بد أن يجمعهم في دار يجازيهم فيها على ما أمرهم به ونهاهم.

ولهذا ذكر الله تكذيب المشركين بالجزاء، فقال: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

أي: ولئن قلت لهؤلاء وأخبرتهم بالبعث بعد الموت، لم يُصدِّقوك، بل كذَّبوك أشد التكذيب، وقدحوا فيما جئت به، وقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ألا وهو الحق المُبين.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ أي: إلى وقت مُقدَّر فتباطأوه، لقالوا من جهلهم وظلمهم ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ ومضمون هذا تكذيبهم به، فإنهم يستدلُّون بعدم وقوعه بهم عاجلا على كذب الرسول المُخبر بوقوع العذاب، فما أبعد هذا الاستدلال.

﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ العذاب ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ فيتمكَّنون من النظر في أمرهم.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: نزل ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من العذاب، حيث تهاونوا به، حتى جزموا بكذب من جاء به.

[ ١١: ٩ - ١٠ ]: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾

وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

يُخبر تعالى عن طبيعة الإنسان ، أنه جاهل ظالم بأن الله إذا أذاقه منه رحمة كالصحة والرزق ، والأولاد ، ونحو ذلك ، ثم نزعها منه ، فإنه يستسلم لليأس ، وينقاد للقنوط ، فلا يرجو ثواب الله ، ولا يخطر بباله أن الله سيردها أو مثلها ، أو خيرا منها عليه .

وأنه إذا أذاقه رحمة من بعد ضراء مسّته ، أنه يفرح ويبطر ، ويظن أنه سيدوم له ذلك الخير ، ويقول : ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي : فرح بما أوتي مما يوافق هوى نفسه ، فخور بنعم الله على عباد الله ، وذلك يحمله على الأشر والبطر والإعجاب بالنفس ، والتكبر على الخلق ، واحتقارهم وازدرائهم ، وأي عيب أشد من هذا ؟ .

وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو ، إلا من وفقه الله وأخرجه من هذا الخلق الذميم إلى ضده ، وهم الذين صبروا أنفسهم عند الضراء فلم ييأسوا ، وعند السراء فلم يبطروا ، وعملوا الصالحات من واجبات ومستحبات .

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ، يزول بها عنهم كل محذور ، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو : الفوز بجنّات النعيم ، التي فيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين .

[ ١٢ : ١٤ – ١١ ] : ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ .

يقول تعالى – مُسليًا لنبيّه محمد ﷺ ، عن تكذيب المُكذّبين– : ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ أي : لا ينبغي هذا لمثلك ، أن قولهم يؤثر فيك ، ويصدك عما أنت عليه ، فتترك بعض ما يوحى إليك ، ويضيق صدرك لتعنتهم بقولهم : ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ فإن هذا القول ناشئ من تعَنُّت ، وظلم ، وعناد ، وضلال ، وجهل بمواقع الحجج والأدلّة ، فامض على أمرك ، ولا تصدك هذه الأقوال الركيكة التي لا تصدر إلا من سفيه ولا يضق لذلك صدرك .

فهل أوردوا عليك حُجّة لا تستطيع حلها ؟ ، أم قدحوا ببعض ما جئت به قدحا يُؤثّر فيه وينقص قدره ، فيضيق صدرك لذلك ؟ ! .

أم عليك حسابهم ، ومطالب بهدايتهم جبرا ؟ ، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ فهو الوكيل عليهم ، يحفظ أعمالهم ، ويجازيهم بها أتم الجزاء .

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي : افترى محمد هذا القرآن ؟ .

فأجابهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن

﴿كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنه قد افتراه، فإنه لا فرق بينكم وبينه في الفصاحة والبلاغة، وأنتم الأعداء حقًّا، الحريصون بغاية ما يُمكنكم على إبطال دعوته، فإن كنتم صادقين، فأتوا بعشر سور مثله مُفتريات.

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ على شيء من ذلكم ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ من عند الله لقيام الدليل والمُقْتَضَي، وانتفاء المُعارِض.

﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: واعلموا أنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أي: هو وحده المستحق للألوهية والعبادة، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: مُنقادون لألوهيته، مُستسلِمون لعُبوديَّته، وفي هذه الآيات إرشاد إلى أنه لا ينبغي للداعي إلى الله أن يصده اعتراض المعترضين، ولا قدح القادحين.

خصوصا إذا كان القدح لا مُستند له، ولا يقدح فيما دعا إليه، وأنه لا يضيق صدره، بل يطمئن بذلك، ماضيا على أمره، مُقبلا على شأنه، وأنه لا يجب إجابة اقتراحات المقترحين للأدلة التي يختارونها، بل يكفي إقامة الدليل السالم عن المُعارِض، على جميع المسائل والمطالب.

وفيها أن هذا القرآن، مُعْجِز بنفسه، لا يقدر أحد من البشر أن يأتي بمثله، ولا بعشر سور من مثله، بل ولا بسورة من مثله، لأن الأعداء البُلغاء الفُصحاء، تحدَّاهم الله بذلك، فلم يُعارضوه، لعلمهم أنهم لا قدرة فيهم على ذلك.

وفيها: أن مما يطلب فيه العلم، ولا يكفي غلبة الظن، علم القرآن، وعلم التوحيد، لقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾

[١٥: ١٦ - ١١]: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

يقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: كل إرادته مقصورة على الحياة الدنيا، وعلى زينتها من النساء والبنين، والقناطير المُقنْطَرة، من الذهب، والفضة، والخيل المُسوَّمة، والأنعام والحرث، قد صرف رغبته وسعيه وعمله في هذه الأشياء، ولم يجعل لدار القرار من إرادته شيئا، فهذا لا يكون إلا كافرا، لأنه لو كان مؤمنا، لكان ما معه من الإيمان يمنعه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا، بل نفس إيمانه وما تيسَّر له من الأعمال أثر من آثار إرادته الدار الآخرة.

ولكن هذا الشقي، الذي كأنَّه خُلِق للدنيا وحدها ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ أي: نعطيهم ما قسم لهم في أم الكتاب من ثواب الدنيا.

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أي: لا ينقصون شيئا مما قُدِّرَ لهم، ولكن هذا منتهى نعيمهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ خالدين فيها أبدا، لا يُفتَّر عنهم العذاب، وقد حُرِموا جزيل الثواب.

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ أي: في الدنيا، أي: بطل واضمحل ما عملوه مما يكيدون به الحق وأهله، وما عملوه من أعمال الخير التي لا أساس لها، ولا وجود لشرطها، وهو الإيمان.

[١٧ - ١١] : ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

يذكر تعالى حال رسوله محمد ﷺ ومن قام مقامه من ورثته القائمين بدينه ، وحججه الموقنين بذلك ، وأنهم لا يوصف بهم غيرهم ولا يكون أحد مثلهم ، فقال : ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ بالوحي الذي أنزل الله فيه المسائل المهمّة ، ودلائلها الظاهرة ، فتيقَّن تلك البيّنة .

﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أي : يتلو هذه البيّنة والبرهان برهان آخر ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ وهو شاهد الفطرة المُستقيمة ، والعقل الصحيح ، حين شهد حقيقة ما أوحاه الله وشرعه ، وعلم بعقله حسنه ، فازداد بذلك إيمانا إلى إيمانه .

﴿وَ﴾ ثم شاهد ثالث وهو ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ التوراة التي جعلها الله ﴿إِمَامًا﴾ للناس ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم ، يشهد لهذا القرآن بالصدق ، ويوافقه فيما جاء به من الحق .

أي : أفمن كان بهذا الوصف قد تواردت عليه شواهد الإيمان ، وقامت لديه أدلة اليقين ، كمن هو في الظلمات والجهالات ، ليس بخارج منها ؟ ! .

لا يستوون عند الله ، ولا عند عباد الله ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي : الذين وفّقوا لقيام الأدلّة عندهم ، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن حقيقة ، فيُثمر لهم إيمانهم كل خير في الدنيا والآخرة .

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي : القرآن ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي : سائر طوائف أهل الأرض ، المُتحزّبة على رد الحق ، ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ لا بد من وروده إليها ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي : في أدنى شك ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إما جهلا منهم وضلالا ، وإما ظلما وعنادا وبغيا ، وإلا فمن كان قصده حسنا وفهمه مستقيما ، فلا بد أن يُؤمن به ، لأنه يرى ما يدعوه إلى الإيمان من كل وجه .

[١٨ : ٢٢ - ١١] : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ .

يخبر تعالى أنه لا أحد ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ويدخل في هذا كل من كذب على الله ، بنسبة الشريك له ، أو وصفه بما لا يليق بجلاله ، أو الإخبار عنه ، بما لم يقل ، أو ادعاء النُبوّة ، أو غير ذلك من الكذب على الله ، فهؤلاء أعظم الناس ظلما ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ليجازيهم بظلمهم ، فعندما يحكم عليهم بالعقاب الشديد ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ أي : الذين شهدوا عليهم بافترائهم وكذبهم : ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي : لعنة لا تنقطع ، لأن ظلمهم صار وصفا لهم مُلازما ، لا يقبل التخفيف .

ثم وصف ظلمهم فقال : ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فصدوا بأنفسهم عن سبيل الله ، وهي سبيل

الرسل ، التي دعوا الناس إليها ، وصدوا غيرهم عنها ، فصاروا أئمَّة يدعون إلى النار .

﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أي : سبيل الله ﴿عِوَجًا﴾ أي : يجتهدون في ميلها ، وتشيينها ، وتهجينها ، لتصير عند الناس غير مستقيمة ، فيُحسِّنون الباطل ويُقبِّحون الحق ، قبَّحهم الله ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي : ليسوا فائتين الله ، لأنهم تحت قبضته وفي سُلطانه .

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ فيدفعون عنهم المكروه ، أو يحصلون لهم ما ينفعهم ، بل تقطَّعت بهم الأسباب ، ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي : يُغلَّظ ويزداد ، لأنهم ضلُّوا بأنفسهم وأضلُّوا غيرهم .

﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ أي : من بغضهم للحق ونفورهم عنه ، ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا آيات الله سماعا ينتفعون به ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [ سُورة المُدَّثِر ٤٩ – ٥١] ، ﴿وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ أي : ينظرون نظر عبرة وتفكر ، فيما ينفعهم ، وإنما هم كالصم البكم الذين لا يعقلون .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث فوَّتوها أعظم الثواب ، واستحقُّوا أشد العذاب ، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي : اضمحل دينهم الذي يدعون إليه ويُحسنونه ، ولم تغن عنهم آلهتهم التي يعبدون من دون الله لما جاء أمر ربك .

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي : حقًّا وصدقا ﴿أَنَّهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ حصر الخسار فيهم ، بل جعل لهم منه أشده ، لشدة حسرتهم وحرمانهم وما يُعانون من المشقَّة والعذاب ، نستجير بالله من حالهم .

ولما ذكر حال الأشقياء ، ذكر أوصاف السعداء وما لهم عند الله من الثواب ، فقال :

[ ٢٣ : ٢٤ – ١١] : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بقلوبهم ، أي : صدَّقوا واعترفوا, لما أمر الله بالإيمان به ، من أصول الدين وقواعده ، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المشتملة على أعمال القلوب والجوارح ، وأقوال اللسان ، ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي : خضعوا له ، واستكانوا لعظمته ، وذلُّوا لسلطانه ، وأنابوا إليه بمحبَّته ، وخوفه ، ورجائه ، والتضرع إليه .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين جمعوا تلك الصفات ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لأنهم لم يتركوا من الخير مطلبا ، إلا أدركوه ، ولا خيرا ، إلا سبقوا إليه .

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ أي : فريق الأشقياء ، وفريق السعداء ، ﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ﴾ هؤلاء الأشقياء ، ﴿وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ مثل السعداء .

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ لا يستوون مثلا ، بل بينهما من الفرق ما لا يأتي عليه الوصف ، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الأعمال ، التي تنفعكم ، فتفعلونها ، والأعمال التي تضركم ، فتتركونها .

[ ٢٥ : ٤٩ – ١١] : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ

ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ (٢٨) وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣١) قَالُوا يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٤٢) قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٤) وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾

أي : ولقد أرسلنا رسولنا نوحا أوّل المرسلين إلى قومه يدعوهم إلى الله وينهاهم عن الشرك فقال لهم : ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي : بيّنت لكم ما أنذرتكم به ، بيانا زال به الإشكال .

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي : أخلصوا العبادة لله وحده ، واتركوا كل ما يعبد من دون الله . ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ إن لم تقوموا بتوحيد الله وتطيعوني .

[٢٧] ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي : الأشراف والرؤساء ، رادين لدعوة نوح عليه السلام ، كما جرت العادة لأمثالهم ، أنهم أول من ردّ دعوة المُرسلين .

﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ وهذا مانع بزعمهم عن اتباعه ، مع أنه في نفس الأمر هو الصواب ، الذي لا ينبغي غيره ، لأن البشر يتمكن البشر ، أن يتلقُّوا عنه ، ويراجعوه في كل أمر ، بخلاف الملائكة .

﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أي : ما نرى اتَّبعك منا إلا الأراذل والسَّفَلة ، بزعمهم ، وهم في الحقيقة الأشراف ، وأهل العقول ، الذين انقادوا للحق ولم يكونوا كالأراذل ، الذين يقال لهم الملأ ، الذين اتَّبعوا كل شيطان مريد ، واتَّخذوا آلهة من الحجر والشجر ، يتقرَّبون إليها ويسجدون لها ، فهل ترى أرذل من هؤلاء وأخس ؟ .

وقولهم : ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ أي : إنما اتَّبعوك من غير تفكُّر ورَوِيَّة ، بل بمُجرَّد ما دعوتهم اتَّبعوك ، يعنون بذلك ، أنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم ، ولم يعلموا أن الحق المُبين تدعو إليه بداهة العقول ، وبمُجرَّد ما يصل إلى أولي الألباب ، يعرفونه ويتحقَّقونه ، لا كالأمور الخفية ، التي تحتاج إلى تأمُّل ، وفكر طويل .

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي : لستم أفضل منا فننقاد لكم ، ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ وكذَبوا في قولهم هذا ، فإنهم رأوا من الآيات التي جعلها الله مؤيِّدة لنوح ، ما يوجب لهم الجزم التام على صدقه .

ولهذا ﴿قَالَ﴾ لهم نوح مُجاوبا ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي : على يقين وجزم ، يعني ، وهو الرسول الكامل القدوة ، الذي ينقاد له أولو الألباب ، ويضمحل في جنب عقله ، عقول الفحول من الرجال, وهو الصادق حقًّا ، فإذا قال : إني على بيِّنة من ربي ، فحسبك بهذا القول ، شهادة له وتصديقا .

﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ أي : أوحى إلي وأرسلني ، ومنَّ علي بالهداية ، ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي : خفيت عليكم ، وبها تثاقلتم .

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي : أنُكرهكم على ما تحقَّقناه ، وشككتم أنتم فيه ؟ ، ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ حتى حرصتم على رد ما جئت به ، ليس ذلك ضارنا ، وليس بقادح من يقيننا فيه ، ولا قولكم وافتراؤكم علينا ، صادا لنا عما كنا عليه .

وإنما غايته أن يكون صادا لكم أنتم ، وموجبا لعدم انقيادكم للحق الذي تزعمون أنه باطل ، فإذا وصلت الحال إلى هذه الغاية ، فلا نقدر على إكراهكم ، على ما أمر الله ، ولا إلزامكم ، ما نفرتم عنه ، ولهذا قال : ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي : على دعوتي إياكم ﴿مَا لَا﴾ فتستثقلون المَغْرَم .

﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ وكأنهم طلبوا منه طرد المؤمنين الضعفاء ، فقال لهم : ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي : ما ينبغي لي ، ولا يليق بي ذلك ، بل أتلقَّاهم بالرُّحْبِ والإكرام ، والإعزاز والإعظام ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ فمُثيبهم على إيمانهم وتقواهم بجنَّات النَّعيم .

﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ حيث تأمرونني ، بطرد أولياء الله, وإبعادهم عني ، وحيث ردَّدتم الحق ، لأنهم أتباعه ، وحيث استدللتم على بُطلان الحق بقولكم إني بشر مثلكم وإنه ليس لنا عليكم من فضل .

﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ أي : من يمنعني من عذابه ، فإن طردهم موجب للعذاب والنَّكال ، الذي لا يمنعه من دون الله مانع .

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما هو الأنفع لكم والأصلح ، وتُدبِّرون الأمور .

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ أي : غايتي أني رسول الله

إليكم ، أبشركم ، وأنذركم ، وأما ما عدا ذلك ، فليس بيدي من الأمر شيء ، فليست خزائن الله عندي ، أدبِّرها أنا ، وأُعطي من أشاء ، وأحرم من أشاء ، ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ فأخبركم بسرائركم وبواطنكم ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ والمعنى : أني لا أدعي رُتْبة فوق رُتْبتي ، ولا منزلة سوى المنزلة ، التي أنزلني الله بها ، ولا أحكم على الناس بظني .

﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾ أي : ضعفاء المؤمنين ، الذين يحتقرهم الملأ الذين كفروا ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ فإن كانوا صادقين في إيمانهم ، فلهم الخير الكثير ، وإن كانوا غير ذلك ، فحسابهم على الله .

﴿إِنِّيٓ إِذٗا﴾ أي : إن قلت لكم شيئا مما تقدم ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذا تأييس منه ، عليه الصلاة والسلام لقومه ، أن ينبذ فقراء المؤمنين, أو يمقتهم ، وتقنيع لقومه ، بالطرق المُقْنِعة للمُنْصِف .

فلما رأوه ، لا ينكف عما كان عليه من دعوتهم ، ولم يدركوا منه مطلوبهم ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فما أجهلهم وأضلهم ، حيث قالوا هذه المقالة ، لنبيِّهم الناصح .

فهلا قالوا : إن كانوا صادقين : يا نوح قد نصحتنا ، وأشفقت علينا, ودعوتنا إلى أمر ، لم يتبيَّن لنا ، فنريد منك أن تُبيِّنه لنا لننقاد لك ، وإلا فأنت مشكور في نُصحك . لكان هذا الجواب المُنْصِف ، الذي قد دُعِي إلى أمر خفي عليه ، ولكنَّهم في قولهم كاذبون ، وعلى نبيِّهم مُتجرِّئون ، ولم يردُّوا ما قاله بأدنى شُبهة ، فضلا عن أن يردُّوه بحُجَّة .

ولهذا عدلوا – من جهلهم وظلمهم – إلى الاستعجال بالعذاب ، وتعجيز الله ، ولهذا أجابهم نوح عليه السلام بقوله : ﴿إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ أي : إن اقتضت مشيئته وحكمته ، أن ينزله بكم ، فعل ذلك . ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ لله ، وأنا ليس بيدي من الأمر شيء .

﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾ أي : إن إرادة الله غالبة ، فإنه إذا أراد أن يغويكم ، لردكم الحق ، فلو حرصت غاية مجهودي ، ونصحت لكم أتم النُّصح – وهو قد فعل عليه السلام – فليس ذلك بنافع لكم شيئا ، ﴿هُوَ رَبُّكُمۡ﴾ يفعل بكم ما يشاء ، ويحكم فيكم بما يريد ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم .

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ هذا الضمير مُحتمِل أن يعود إلى نوح ، كما كان السياق في قصته مع قومه ، وأن المعنى : أن قومه يقولون : افترى على الله كذبا ، وكذب بالوحي الذي يزعم أنه من الله ، وأن الله أمره أن يقول : ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾ أي : كل عليه وزره ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ [ سُورة الأنعام ١٦٤] .

ويُحتمل أن يكون عائدا إلى النبيِّ محمد ﷺ ، وتكون هذه الآية مُعترضة في أثناء قصة نوح وقومه ، لأنها من الأمور التي لا يعلمها إلا الأنبياء ، فلما شرع الله في قصِّها على رسوله ، وكانت من جملة الآيات الدالَّة على صدقه ورسالته ، ذكر تكذيب قومه له مع البيان التام فقال : ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ أي : هذا القرآن

اختلقه محمد من تلقاء نفسه ، أي : فهذا من أعجب الأقوال وأبطلها ، فإنهم يعلمون أنه لم يقرأ ولم يكتب ، ولم يرحل عنهم لدراسة على أهل الكتاب ، فجاء بهذا الكتاب الذي تحدَّاهم أن يأتوا بسورة من مثله .

فإذا زعموا – مع هذا – أنه افتراه ، عُلِمَ أنهم مُعانِدون ، ولم يبق فائدة في حجاجهم ، بل اللائق في هذه الحال ، الإعراض عنهم ، ولهذا قال : ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ أي : ذنبي وكذبي ، ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أي : فلم تستلجون في تكذيبي .

وقوله : ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ أي : قد قسوا ، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي : فلا تحزن ، ولا تُبال بهم, وبأفعالهم ، فإن الله قد مقتهم ، وأحق عليهم عذابه الذي لا يُرد .

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أي : بحفظنا ، ومرأى منا, وعلى مرضاتنا ، ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ﴾ أي : لا تُراجعني في إهلاكهم ، ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ أي : قد حق عليهم القول ، ونفذ فيهم القدر .

فامتثل أمر ربه ، وجعل يصنع الفلك ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ ورأوا ما يصنع ﴿سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا﴾ الآن ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ نحن أم أنتم ، وقد علموا ذلك ، حين حل بهم العقاب .

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي قدرنا بوقت نزول العذاب بهم ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي : أنزل الله السماء بالماء بالمُنْهَمِر ، وفجَّر الأرض كلها عيونا حتى التَّنانير التي هي محل النار في العادة ، وأبعد ما يكون عن الماء ، تفجرَّت فالتقى الماء على أمر ، قد قُدِر .

﴿قُلْنَا﴾ لنوح : ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي : من كل صنف من أصناف المخلوقات ، ذكر وأنثى ، لتبقى مادة سائر الأجناس وأما بقية الأصناف الزائدة عن الزوجين ، فلأن السفينة لا تطيق حملها ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ ممن كان كافرا ، كابنه الذي غرق .

﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ .

﴿وَقَالَ﴾ نوح لمن أمره الله أن يحملهم : ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ﴾ أي : تجري على اسم الله ، وترسو على اسم الله ، وتجري بتسخيره وأمره .

﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث غفر لنا ورحمنا ، ونجانا من القوم الظالمين .

ثم وصف جريانها كأنا نشاهدها فقال : ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾ أي : بنوح ، ومن ركب معه ﴿فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ والله حافظها وحافظ أهلها ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ لما ركب ، ليركب معه ﴿وَكَانَ﴾ ابنه ﴿فِى مَعْزِلٍ﴾ عنهم ، حين ركبوا ، أي : مبتعدا وأراد منه ، أن يقرب ليركب ، فقال له : ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيصيبك ما يصيبهم .

فـ ﴿قَالَ﴾ ابنه ، مُكذِّبا لأبيه أنه لا ينجو إلا من ركب معه السفينة ، ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ﴾ أي : سأرتقي جبلا ، أمتنع به من الماء ، فـ ﴿قَالَ﴾ نوح : ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ﴾ فلا يعصم أحدا ، جبل ولا غيره ، ولو تسبَّب بغاية ما يمكنه من الأسباب ، لما نجا إن لم ينجه الله ،

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ﴾ الابن ﴿مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ .

فلما أغرقهم الله ونجى نوحا ومن معه ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ الذي خرج منك ، والذي نزل إليك ، أي : ابلعي الماء الذي على وجهك ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ فامتثلتا لأمر الله ، فابتلعت الأرض ماءها، وأقلعت السماء ، فنضب الماء من الأرض ، ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ بهلاك المُكذِّبين ونجاة المؤمنين .

﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ السفينة ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ أي : أرست على ذلك الجبل المعروف في أرض الموصل .

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي : أُتبِعوا بعد هلاكهم لعنة وبُعدا، وسُحقا لا يزال معهم .

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ أي : وقد قلت لي : ف ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ ولن تُخلِف ما وعدتني به .

لعله عليه الصلاة والسلام ، حملته الشفقة ، وأن الله وعده بنجاة أهله ، ظن أن الوعد لعمومهم ، من آمن ، ومن لم يؤمن ، فلذلك دعا ربه بذلك الدعاء ، ومع هذا ففوَّض الأمر لحكمة الله البالغة .

ف ﴿قَالَ﴾ الله له : ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذين وعدتك بإنجائهم ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ أي : هذا الدعاء الذي دعوت به ، لنجاة كافر، لا يؤمن بالله ولا رسوله .

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي : ما لا تعلم عاقبته ،ومآله ، وهل يكون خيرا ، أو غير خير .

﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي : أني أعظك وعظا تكون به من الكاملين ، وتنجو به من صفات الجاهلين .

فحينئذ ندم نوح عليه السلام ندامة شديدة ، على ما صدر منه، و ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

فبالمغفرة والرحمة ينجو العبد من أن يكون من الخاسرين ، ودل هذا على أن نوحا عليه السلام لم يكن عنده علم ، بأن سؤاله لربه ، في نجاة ابنه مُحرَّم ، داخل في قوله ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ بل تعارض عنده الأمران ، وظن دخوله في قوله : ﴿وَأَهْلَكَ﴾ ، وبعد ذلك تبيَّن له أنه داخل في المنهي عن الدعاء لهم ، والمُراجعة فيهم .

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ من الآدميين وغيرهم من الأزواج التي حملها معه ، فبارك الله في الجميع ، حتى ملأوا أقطار الأرض ونواحيها .

﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي : هذا الإنجاء ، ليس بمانع لنا من أن من كفر بعد ذلك ، أحللنا به العقاب ، وإن مُتِّعوا قليلا ، فسيؤخذون بعد ذلك .

قال الله لنبيِّه محمد ﷺ بعد ما قصَّ عليه هذه القصة المبسوطة ، التي لا يعلمها إلا من منَّ عليه برسالته .

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ فيقولوا : إنه كان يعلمها .

فاحمد الله ، واشكره ، واصبر على ما أنت عليه ، من الدين القويم ، والصراط المستقيم ، والدعوة إلى الله ﴿إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتّقون الشرك وسائر المعاصي ، فستكون لك العاقبة على قومك ، كما كانت لنوح على قومه .

[ ٥٠ : ٦٠ - ١١ ] : ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ .

أي : ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ عَادٍ﴾ وهم القبيلة المعروفة في الأحقاف, من أرض اليمن ، ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿هُودًا﴾ ليتمكّنوا من الأخذ عنه والعلم بصدقه .

ف ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ أي : أمرهم بعبادة الله وحده ، ونهاهم عما هم عليه ، من عبادة غير الله ، وأخبرهم أنهم قد افتروا على الله الكذب في عبادتهم لغيره, وتجويزهم لذلك ، ووضح لهم وجوب عبادة الله ، وفساد عبادة ما سواه .

ثم ذكر عدم المانع لهم من الانقياد فقال ﴿يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ﴾ أي : غرامة من أموالكم ، على ما دعوتكم إليه ، فتقولوا : هذا يريد أن يأخذ أموالنا ، وإنما أدعوكم وأعلمكم مجّانا ، ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما أدعوكم إليه ، وأنه موجب لقبوله ، منتف المانع عن رده .

﴿وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ عما مضى منكم ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلونه ، بالتوبة النصوح ، والإنابة إلى الله تعالى ، فإنكم إذا فعلتم ذلك ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ بكثرة الأمطار التي تخصب بها الأرض ، ويكثر خيرها .

﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ فإنهم كانوا من أقوى الناس ، ولهذا قالوا : ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ﴾ ؟[ سُورة فُصّلت ١٥] ، فوعدهم أنهم إن آمنوا ، زادهم قوّة إلى قوّتهم .

﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟﴾ عنه ، أي : عن ربكم ﴿مُجْرِمِينَ﴾ أي : مستكبرين عن عبادته ، مُتجرّئين على محارمه .

ف ﴿قَالُوا۟﴾ رادين لقوله : ﴿يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ إن كان قصدهم بالبيّنة البيّنة التي يقترحونها ، فهذه غير لازمة للحق ، بل اللازم أن يأتي النبي بآية تدل على صحة ما جاء به ، وإن كان قصدهم أنه لم يأتهم ببينة ، تشهد لما قاله بالصحة ، فقد كذبوا في ذلك ، فإنه ما جاء نبي لقومه ، إلا وبعث الله على يديه ، من

الآيات ما يؤمن على مثله البشر .

ولو لم يكن له آية ، إلا دعوته إياهم لإخلاص الدين لله ، وحده لا شريك له ، والأمر بكل عمل صالح ، وخلق جميل ، والنهي عن كل خلق ذميم من الشرك بالله ، والفواحش ، والظلم ، وأنواع المُنكرات ، مع ما هو مشتمل عليه هود عليه السلام من الصفات ، التي لا تكون إلا لخيار الخلق وأصدقهم ، لكفى بها آيات وأدلَّة على صدقه .

بل أهل العقول ، وأولو الألباب ، يرون أن هذه الآية ، أكبر من مُجرَّد الخوارق ، التي يراها بعض الناس ، هي المعجزات فقط .

ومن آياته ، وبيِّناته الدالَّة على صدقه ، أنه شخص واحد ، ليس له أنصار ولا أعوان ، وهو يصرخ في قومه ، ويناديهم ، ويعجزهم ، ويقول لهم : ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾

﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ وهم الأعداء الذين لهم السطوة والغلبة ، ويريدون إطفاء ما معه من النور ، بأي طريق كان ، وهو غير مكترث منهم ، ولا مبال بهم ، وهم عاجزون لا يقدرون أن ينالوه بشيء من السوء ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون .

وقولهم : ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ أي : لا نترك عبادة آلهتنا لمُجرَّد قولك ، الذي ما أقمت عليه بيِّنة بزعمهم ، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا تأييس منهم لنبيِّهم ، هود عليه السلام في إيمانهم ، وأنهم لا يزالون في كفرهم يعمهون .

﴿إِن نَّقُولُ﴾ فيك ﴿إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ﴾ أي : أصابتك بخبال وجنون ، فصرت تهذي بما لا يعقل . فسبحان من طبع على قلوب الظالمين ، كيف جعلوا أصدق الخلق الذي جاء بأحق الحق ، بهذه المرتبة ، التي يستحي العاقل من حكايتها عنهم لولا أن الله حكاها عنهم .

ولهذا بيَّن هود ، عليه الصلاة والسلام ، أنه واثق غاية الوثوق ، أنه لا يصيبه منهم ، ولا من آلهتهم أذى ، فقال : ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أي : اطلبوا لي الضرر كلكم ، بكل طريق تتمكنون بها مني ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي : لا تمهلوني .

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي : اعتمدت في أمري كله على الله ﴿رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾ أي : هو خالق الجميع ، ومُدبِّرنا وإيَّاكم ، وهو الذي ربَّانا .

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ فلا تتحرَّك ولا تسكن إلا بإذنه ، فلو اجتمعتم جميعا على الإيقاع بي ، والله لم يسلطكم علي ، لم تقدروا على ذلك ، فإن سلطكم ، فلحكمة أرادها .

فـ ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي : على عدل ، وقسط ، وحكمة ، وحمد في قضائه وقدره ، في شرعه وأمره ، وفي جزائه وثوابه ، وعقابه ، لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم ، التي يحمد ، ويثنى عليه بها .

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عما دعوتكم إليه ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمۚ﴾ فلم يبق عليَّ تبعة من شأنكم . ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يقومون بعبادته ، ولا يشركون به شيئا ، ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ﴾ فإن

ضرركم ، إنما يعود عليكم ، فالله لا تضره معصية العاصين . ولا تنفعه طاعة المطيعين ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [ سورة الجاثية ١٥] ، ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ ] .

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي : عذابنا بإرسال الريح العقيم ، التي ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾

﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي : عظيم شديد ، أحله الله بعاد ، فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم .

﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ﴾ الذين أوقع الله بهم ما أوقع ، بظلم منهم لأنهم ﴿جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ ولهذا قالوا لهود : ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ فتبيَّن بهذا أنهم مُتيقِّنون لدعوته ، وإنما عاندوا وجحدوا ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ لأن من عصى رسولا ، فقد عصى جميع المرسلين ، لأن دعوتهم واحدة .

﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾ أي : مُتسلِّط على عباد الله بالجبروت ، ﴿عَنِيدٍ﴾ أي : مُعانِد لآيات الله ، فعصوا كل ناصح ومشفق عليهم ، واتبعوا كل غاش لهم ، يريد إهلاكهم لا جرم أهلكهم الله .

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ فكل وقت وجيل ، إلا ولأنبائهم القبيحة ، وأخبارهم الشنيعة ، ذكر يذكرون به ، وذم يلحقهم ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لهم أيضا لعنة ، ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ﴾ أي : جحدوا من خلقهم ورزقهم ورباهم . ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ أي : أبعدهم الله عن كل خير وقربهم من كل شر .

[ ٦١ : ٦٨ - ١١ ] : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ .

أي : ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ وهم : عاد الثانية ، المعروفون ، الذين يسكنون الحجر ، ووادي القرى ، ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿صَٰلِحًا﴾ عبد الله ورسوله ﷺ ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، فـ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي : وحدوه ، وأخلصوا له الدين ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ لا من أهل السماء ، ولا من أهل الأرض .

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي : خلقكم فيها ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي : استخلفكم فيها ، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة ، ومكنكم في الأرض ، تبنون ، وتغرسون ، وتزرعون ، وتحرثون ما شئتم ، وتنتفعون بمنافعها ، وتستغلون مصالحها ، فكما أنه لا شريك له في جميع ذلك ، فلا تشركوا به في عبادته .

﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ مما صدر منكم ، من الكفر ، والشرك ، والمعاصي، وأقلعوا عنها ، ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾

أي : ارجعوا إليه بالتوبة النصوح ، والإنابة ، ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ أي : قريب ممن دعاه دعاء مسألة ، أو دعاء عبادة ، يجيبه بإعطائه سؤله ، وقبول عبادته ، وإثابته عليها ، أجل الثواب ، واعلم أن قربه تعالى نوعان : عام ، وخاص ، فالقرب العام : قربه بعلمه ، من جميع الخلق ، وهو المذكور في قوله تعالى : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ سُورة ق ١٦ ] .

والقرب الخاص : قربه من عابديه ، وسائليه ، ومحبيه ، وهو المذكور في قوله تعالى ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب...﴾ [ سُورة العلق ١٩ ] .

وفي هذه الآية ، وفي قوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ [ سُورة البقرة ١٨٦ ] ، وهذا النوع قرب يقتضي إلطافه تعالى ، وإجابته لدعواتهم ، وتحقيقه لمراداتهم ، ولهذا يقرن باسمه « القريب » اسمه « المجيب » .

فلما أمرهم نبيهم صالح ﷺ ، ورغَّبهم في الإخلاص لله وحده, ردُّوا عليه دعوته ، وقابلوه أشنع المُقابلة .

﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ أي : قد كنا نرجوك ونؤمّل فيك العقل والنفع ، وهذا شهادة منهم ، لنبيِّهم صالح ، أنه ما زال معروفا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، وأنه من خيار قومه .

ولكنه ، لما جاءهم بهذا الأمر ، الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة, قالوا هذه المقالة ، التي مضمونها ، أنك قد كنت كاملا ، والآن أخلفت ظنَّنا فيك ، وصرت بحالة لا يُرجى منك خير .

وذنبه ، ما قالوه عنه ، وهو قولهم : ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ...﴾ وبزعمهم أن هذا من أعظم القدح في صالح ، كيف قدح في عقولهم ، وعقول آبائهم الضالين ، وكيف ينهاهم عن عبادة ، من لا ينفع ولا يضر ، ولا يغني شيئا من الأحجار ، والأشجار ونحوها .

وأمرهم بإخلاص الدين لله ربهم ، الذي لم تزل نعمه عليهم تترى, وإحسانه عليهم دائما ينزل ، الذي ما بهم من نعمة ، إلا منه ، ولا يدفع عنهم السيئات إلا هو .

﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي : ما زلنا شاكين فيما دعوتنا إليه ، شكًّا مؤثرا في قلوبنا الريب ، وبزعمهم أنهم لو علموا صحّة ما دعاهم إليه ، لاتَّبعوه ، وهم كَذَبَة في ذلك ، ولهذا بيَّن كذبهم في قوله : ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي : برهان ويقين مني ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ أي : منَّ علي برسالته ووحيه ، أي : أفأتابعكم على ما أنتم عليه ، وما تدعونني إليه ؟ .

﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي : غير خسار وتباب ، وضرر .

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ لها شرب من البئر يوما ، ثم يشربون كلهم من ضرعها ، ولهم شرب يوم معلوم .

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ أي : ليس عليكم من مؤنتها وعلفها شيء ، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ أي : بعقر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ﴾ لهم صالح : ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ بل لا بد من وقوعه .

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بوقوع العذاب ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي : نجيناهم من العذاب والخزي والفضيحة .

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ ومن قوّته وعزّته ، أن أهلك الأُمم الطاغية ، ونجّى الرسل وأتباعهم .

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ العظيمة فقطعت قلوبهم ، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي : خامدين لا حراك لهم .

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ أي : كأنهم لما جاءهم العذاب ما تمتّعوا في ديارهم ، ولا أنسوا بها ولا تنعموا بها يوما من الدهر ، قد فارقهم النعيم ، وتناولهم العذاب السَّرْمَدي ، الذي ينقطع ، الذي كأنه لم يزل .

﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ أي : جحدوه بعد أن جاءتهم الآية المُبْصِرة ، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ فما أشقاهم وأذلّهم ، نستجير بالله من عذاب الدنيا وخزيها .

[ ١١ – ٨٣ : ٦٩ ] : ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ .

أي : ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ﴾ من الملائكة الكرام ، رسولنا ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ الخليل ﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ أي : بالبشارة بالولد ، حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط ، وأمرهم أن يمروا على إبراهيم ، فيبشروه بإسحاق ، فلما دخلوا عليه ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أي : سلّموا عليه ، وردّ عليهم السلام .

ففي هذا مشروعية السلام ، وأنه لم يزل من مِلَّة إبراهيم عليه السلام ، وأن السلام قبل الكلام ، وأنه ينبغي أن يكون الرد ، أبلغ من الابتداء ، لأن سلامهم بالجملة الفعلية ، الدالّة على التجدُّد ، ورده بالجملة الاسمية ، الدالة على الثبوت والاستمرار ، وبينهما فرق كبير كما هو معلوم في علم العربية .

﴿فَمَا لَبِثَ﴾ إبراهيم لما دخلوا عليه ﴿أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ...﴾ أي : بادر لبيته ، فاستحضر لأضيافه عجلا مشويا على الرَّضْف سمينا ، فقرَّبه إليهم فقال : ألا تأكلون ؟ .

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ أي : إلى تلك الضيافة ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وظن أنهم أتوه بشرٍّ ومكروه ، وذلك قبل أن يعرف أمرهم .

فـ ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي : إنَّا رسل الله, أرسلنا الله إلى إهلاك قوم لوط .

وامرأة إبراهيم ﴿قَآئِمَةٌ﴾ تخدم أضيافه ﴿فَضَحِكَتْ﴾ حين سمعت بحالهم ، وما أرسلوا به ، تعجُّبا .

﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ فتعجَّبت من ذلك .

و ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ فهذان مانعان من وجود الولد ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ .

﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ فإن أمره لا عجب فيه ، لنفوذ مشيئته التامَّة في كل شيء ، فلا يستغرب على قدرته شيء ، وخصوصا فيما يُدبِّره ويُمضيه ، لأهل هذا البيت المبارك .

﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي : لا تزال رحمته وإحسانه وبركاته ، وهي : الزيادة من خيره وإحسانه ، وحلول الخير الإلهي على العبد ﴿عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ أي : حميد الصفات ، لأن صفاته صفات كمال ، حميد الأفعال لأن أفعاله إحسان ، وجود ، وبر ، وحكمة ، وعدل ، وقسط .

مجيد ، والمجد : هو عظمة الصفات وسعتها ، فله صفات الكمال ، وله من كل صفة كمال أكملها وأتمها وأعمها .

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ الذي أصابه من خيفة أضيافه ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالولد ، التفت حينئذ ، إلى مُجادَلة الرُّسل في إهلاك قوم لوط ، وقال لهم : ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ [ سورة العنكبوت ٣٢] .

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ أي : ذو خلق حسن وسعة صدر ، وعدم غضب ، عند جهل الجاهلين ، ﴿أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ أي : مُتضرِّع إلى الله في جميع الأوقات ، ﴿مُنِيبٌ﴾ أي : رجَّاع إلى الله بمعرفته ومحبَّته ، والإقبال عليه, والإعراض عمن سواه ، فلذلك كان يُجادل عمن حتَّم الله بهلاكهم .

فقيل له : ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ الجدال ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بهلاكهم ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ فلا فائدة في جدالك .

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا﴾ أي : الملائكة الذين صدروا من إبراهيم لما أتوا ﴿لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ﴾ أي : شق عليه مجيئهم ، ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي: شديد حرج ، لأنه علم أن قومه لا يتركونهم ، لأنهم في صور شباب ، جُرْد ، مُرْد، في غاية الكمال والجمال ، ولهذا وقع ما خطر بباله .

فـ ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي : يسرعون ويبادرون ، يريدون أضيافه بالفاحشة ، التي كانوا يعملونها ، ولهذا قال : ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي : الفاحشة التي ما سبقهم عليها أحد من العالمين .

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ من أضيافي ، وهذا كما عرض لسليمان ﷺ ، على

المرأتين أن يشق الولد المُختَصم فيه, لاستخراج الحق ولعلمه أن بناته ممتنع منالهن ، ولا حق لهم فيهن . والمقصود الأعظم ، دفع هذه الفاحشة الكبرى .

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أي : إما أن تراعوا تقوى الله, وإما أن تراعوني في ضيفي ، ولا تُخزون عندهم .

﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ فينهاكم ، ويزجركم ، وهذا دليل على مروجهم وانحلالهم ، من الخير والمروءة .

فـ﴿قَالُوا﴾ له : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أي : لا نريد إلا الرجال ، ولا لنا رغبة في النساء .

فاشتد قلق لوط عليه الصلاة والسلام ، و﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ كقبيلة مانعة ، لمنعتكم .

وهذا بحسب الأسباب المحسوسة ، وإلا فإنه يأوي إلى أقوى الأركان وهو الله ، الذي لا يقوم لقوته أحد ، ولهذا لما بلغ الأمر منتهاه واشتد الكرب ، ﴿قَالُوا﴾ له : ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ أي : أخبروه بحالهم ليطمئن قلبه ، ﴿لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ بسوء .

ثم قال جبريل بجناحه ، فطمس أعينهم ، فانطلقوا يتوعَّدون لوطا بمجيء الصبح ، وأمر الملائكة لوطا ، أن يسري بأهله ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي : بجانب منه قبل الفجر بكثير ، ليتمكّنوا من البُعد عن قريتهم .

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي : بادروا بالخروج ، وليكُن همكم النجاة ولا تلتفتوا إلى ما وراءكم .

﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا﴾ من العذاب ﴿مَا أَصَابَهُمْ﴾ لأنها تُشارك قومها في الإثم ، فتدلهم على أضياف لوط ، إذا نزل به أضياف .

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ فكأن لوطا ، استعجل ذلك ، فقيل له : ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بنزول العذاب ، وإحلاله فيهم ﴿جَعَلْنَا﴾ ديارهم ﴿عَالِيَهَا سَافِلَهَا ...﴾ أي : قلبناها عليهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي : من حجارة النار الشديدة الحرارة ﴿مَّنضُودٍ﴾ أي . مُتتابعة ، تتبع من شذ عن القرية .

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ أي : مُعلّمة ، عليها علامة العذاب والغضب ، ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يشابهون لفعل قوم لوط ﴿بِبَعِيدٍ﴾ فليحذر العباد ، أن يفعلوا كفعلهم ، لئلا يصيبهم ما أصابهم .

[ ٨٤ : ٩٥ - ١١ ] : ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا

ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ .

أي : ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ القبيلة المعروفة ، الذين يسكنون مدين في أدنى « فلسطين » ، ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿شُعَيْبًاۚ﴾ لأنهم يعرفونه ، وليتمكنوا من الأخذ عنه .

فـ ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ﴾ أي : أخلصوا له العبادة ، فإنهم كانوا يشركون به ، وكانوا - مع شركهم - يبخسون المكيال والميزان ، ولهذا نهاهم عن ذلك فقال : ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۖ﴾ بل أوفوا الكيل والميزان بالقسط .

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ أي : بنعمة كثيرة ، وصحة ، وكثرة أموال وبنين, فاشكروا الله على ما أعطاكم ، ولا تكفروا بنعمة الله ، فيزيلها عنكم .

﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ أي : عذابا يُحيط بكم, ولا يُبقي منكم باقية .

﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ﴾ أي : بالعدل الذي ترضون أن تُعْطَوه ، ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي : لا تنقصوا من أشياء الناس ، فتسرقوها بأخذها ، بنقص المكيال والميزان .

﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فإن الاستمرار على المعاصي ، يفسد الأديان ، والعقائد ، والدين ، والدنيا ، ويهلك الحرث والنسل .

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي : يكفيكم ما أبقى الله لكم من الخير ، وما هو لكم ، فلا تطمعوا في أمر لكم عنه غنية ، وهو ضار لكم جدا .

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فاعملوا بمقتضى الإيمان ، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي : لست بحافظ لأعمالكم ، ووكيل عليها ، وإنما الذي يحفظها الله تعالى ، وأما أنا ، فأبلغكم ما أرسلت به .

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ أي : قالوا ذلك على وجه التَّهكُّم بنبيِّهم ، والاستبعاد لإجابتهم له .

ومعنى كلامهم : أنه لا موجب لنهيك لنا ، إلا أنك تُصلِّي لله, وتتعبَّد له ، أفإن كنت كذلك ، أفيوجب لنا أن نترك ما يعبد آباؤنا ، لقول ليس عليه دليل إلا أنه موافق لك ، فكيف نتَّبعك ، ونترك آباءنا الأقدمين أولي العقول والألباب ؟ ! .

وكذلك لا يوجب قولك لنا : ﴿أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا﴾ ما قلت لنا ، من وفاء الكيل ، والميزان ، وأداء

الحقوق الواجبة فيها ، بل لا نزال نفعل فيها ما شئنا ، لأنها أموالنا ، فليس لك فيها تصرف .

ولهذا قالوا في تهكمهم : ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ أي : أئنك أنت الذي ، الحلم والوقار ، لك خُلُق ، والرشد لك سجيّة ، فلا يصدر عنك إلا رشد ، ولا تأمر إلا برُشد ، ولا تنهى إلا عن غي ، أي : ليس الأمر كذلك .

وقصدهم أنه موصوف بعكس هذين الوصفين : بالسَّفه والغواية ، أي : أن المعنى : كيف تكون أنت الحليم الرشيد ، وآباؤنا هم السفهاء الغاوون ؟ !! .

وهذا القول الذي أخرجوه بصيغة التهكُّم ، وأن الأمر بعكسه, ليس كما ظنُّوه ، بل الأمر كما قالوه ، إن صلاته تأمره أن ينهاهم ، عما كان يعبد آباؤهم الضالون ، وأن يفعلوا في أموالهم ما يشاءون ، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وأي فحشاء ومنكر ، أكبر من عبادة غير الله ، ومن منع حقوق عباد الله ، أو سرقتها بالمكاييل والموازين ، وهو عليه الصلاة والسلام الحليم الرشيد .

﴿قَالَ﴾ لهم شعيب : ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ أي : يقين وطُمأنينة ، في صحّة ما جئت به ، ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ أي : أعطاني الله من أصناف المال ما أعطاني .

﴿وَ﴾ أنا لا ﴿أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ فلست أريد أن أنهاكم عن البَخْس ، في المكيال ، والميزان ، وأفعله أنا ، وحتى تتطرّق إليّ التهمة في ذلك ، بل ما أنهاكم عن أمر إلا وأنا أول مُبتدر لتركه .

﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ أي : ليس لي من المقاصد إلا أن تصلح أحوالكم ، وتستقيم منافعكم ، وليس لي من المقاصد الخاصة لي وحدي ، شيء بحسب استطاعتي .

ولما كان هذا فيه نوع تزكية للنفس ، دفع هذا بقوله : ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ أي : وما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير ، والانفكاك عن الشر إلا بالله تعالى ، لا بحولي ولا بقوّتي .

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ أي : اعتمدت في أموري ، ووثقت في كفايته ، ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ في أداء ما أمرني به من أنواع العبادات ، وفي هذا التقرب إليه بسائر أفعال الخيرات .

وبهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد ، وهما الاستعانة بربّه ، والإنابة إليه ، كما قال تعالى : ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ وقال : ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ﴾ أي : لا تحملنكم مُخالفتي ومُشاقتي ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ من العُقوبات ﴿مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ لا في الدار ولا في الزمان .

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ عما اقترفتم من الذنوب ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ فيما يستقبل من أعماركم ، بالتوبة النصوح ، والإنابة إليه بطاعته ، وترك مخالفته .

﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ لمن تاب وأناب ، يرحمه فيغفر له ، ويتقبل توبته ويحبه ، ومعنى الودود ، من أسمائه تعالى ، أنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه ، فهو « فعول » بمعنى « فاعل » وبمعنى « مفعول » .

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي : تضجروا من نصائحه ومواعظه لهم ، فقالوا : ﴿مَا نَفۡقَهُ

﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ وذلك لبغضهم لما يقول, ونفرتهم عنه .

﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أي : في نفسك ، لست من الكبار والرؤساء بل من المُستضعَفين .

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي : جماعتك وقبيلتك ﴿لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي : ليس لك قدر في صدورنا ، ولا احترام في أنفسنا ، وإنما احترمنا قبيلتك ، بتركنا إيَّاك .

فـ ﴿قَالَ﴾ لهم مترقِّقا لهم : ﴿يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي : كيف تراعوني لأجل رهطي ، ولا تراعوني لله ، فصار رهطي أعز عليكم من الله .

﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي : نبذتم أمر الله ، وراء ظهوركم ، ولم تُبالوا به ، ولا خفتم منه .

﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ لا يخفى عليه من أعمالكم مثقال ذرَّة في الأرض ولا في السماء ، فسيجازيكم على ما عملتم أتم الجزاء .

﴿وَ﴾ لما أعيوه وعجز عنهم قال : ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي : على حالتكم ودينكم .

﴿إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ويحل عليه عذاب مُقيم أنا أم أنتم ، وقد علموا ذلك حين وقع عليهم العذاب ، ﴿وَٱرْتَقِبُوٓا۟﴾ ما يحل بي ﴿إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ ما يحل بكم .

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بإهلاك قوم شعيب ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ لا تسمع لهم صوتا ، ولا ترى منهم حركة .

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ أي : كأنهم ما أقاموا في ديارهم ، ولا تنعَّموا فيها حين أتاهم العذاب .

﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ إذ أهلكها الله وأخزاها ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ أي : قد اشتركت هاتان القبيلتان في السحق والبعد والهلاك .

وشعيب عليه السلام كان يُسمَّى خطيب الأنبياء ، لحُسن مراجعته لقومه ، وفي قصته من الفوائد والعبر ، شيء كثير .

**منها** : أن الكفار ، كما يُعاقبون ، ويُخاطبون ، بأصل الإسلام, فكذلك بشرائعه وفروعه ، لأن شعيبا دعا قومه إلى التوحيد ، وإلى إيفاء المكيال والميزان ، وجعل الوعيد ، مُرتَّبا على مجموع ذلك .

**ومنها** : أن نقص المكاييل والموازين ، من كبائر الذنوب, وتخشى العقوبة العاجلة ، على من تعاطى ذلك ، وأن ذلك من سرقة أموال الناس ، وإذا كان سرقتهم في المكاييل والموازين ، موجبة للوعيد ، فسرقتهم - على وجه القهر والغلبة - من باب أولى وأحرى .

**ومنها** : أن الجزاء من جنس العمل ، فمن بخس أموال الناس ، يريد زيادة ماله ، عوقب بنقيض ذلك, وكان سببا لزوال الخير الذي عنده من الرزق لقوله : ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ أي : فلا تسببوا إلى زواله بفعلكم .

**ومنها** : أن على العبد أن يقنع بما آتاه الله ، ويقنع بالحلال عن الحرام وبالمكاسب المباحة عن المكاسب المُحرَّمة ، وأن ذلك خير له لقوله : ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ففي ذلك ، من البركة ، وزيادة الرزق ما ليس في التكالب على الأسباب المُحرَّمة من المَحْقِ ، وضد البركة .

**ومنها** : أن ذلك ، من لوازم الإيمان وآثاره ، فإنه رتَّب العمل به, على وجود الإيمان ، فدل على أنه إذا لم يوجد العمل ، فالإيمان ناقص أو معدوم .

**ومنها** : أن الصلاة ، لم تزل مشروعة للأنبياء المُتقدِّمين ، وأنها من أفضل الأعمال ، حتى إنه مُتقرِّر عند الكُفَّار فضلها ، وتقديمها على سائر الأعمال, وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهي ميزان للإيمان وشرائعه ، فبإقامتها تكمل أحوال العبد ، وبعدم إقامتها ، تختل أحواله الدينية .

**ومنها** : أن المال الذي يرزقه الله الإنسان – وإن كان الله قد خوله إياه – فليس له أن يصنع فيه ما يشاء ، فإنه أمانة عنده ، عليه أن يقيم حق الله فيه بأداء ما فيه من الحقوق ، والامتناع من المكاسب التي حرمها الله ورسوله ، لا كما يزعمه الكفار ، ومن أشبههم ، أن أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاءون ويختارون ، سواء وافق حكم الله ، أو خالفه .

**ومنها** : أن من تكملة دعوة الداعي وتمامها أن يكون أول مُبادِر لما يأمر غيره به ، وأول مُنْتَهٍ عما ينهى غيره عنه ، كما قال شعيب عليه السلام : ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ ولقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [ سُورة الصَّف ٢ – ٣] .

**ومنها** : أن وظيفة الرسل وسُنَّتهم ومِلَّتهم ، إرادة الإصلاح بحسب القدرة والإمكان ، فيأتون بتحصيل المصالح وتكميلها ، أو بتحصيل ما يقدر عليه منها ، وبدفع المفاسد وتقليلها ، ويراعون المصالح العامة على المصالح الخاصة .

وحقيقة المصلحة ، هي التي تصلح بها أحوال العباد ، وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية .

**ومنها** : أن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح ، لم يكن ملوما ولا مذموما في عدم فعله ، ما لا يقدر عليه ، فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه ، وفي غيره ، ما يقدر عليه .

**ومنها** : أن العبد ينبغي له أن لا يتَّكِل على نفسه طرفة عين ، بل لا يزال مستعينا بربِّه ، متوكِّلا عليه ، سائلا له التوفيق ، وإذا حصل له شيء من التوفيق ، فلينسبه لموليه ومُسْدِيه ، ولا يعجب بنفسه لقوله : ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ .

**ومنها** : الترهيب بأخذات الأمم ، وما جرى عليهم ، وأنه ينبغي أن تذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر .

كما أنه ينبغي ذكر ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب والحث على التقوى .

**ومنها** : أن التائب من الذنب كما يسمح له عن ذنبه ، ويعفى عنه فإن الله تعالى يحبه ويوده ، ولا عبرة بقول من يقول : « إن التائب إذا تاب ، فحسبه أن يغفر له, ويعود عليه العفو ، وأما عود الود والحب فإنه لا يعود » ؛ فإن الله قال : ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ .

**ومنها** : أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة ، قد يعلمون بعضها, وقد لا يعلمون شيئا منها ، وربما دفع عنهم ، بسبب قبيلتهم ، أو أهل وطنهم الكفار ، كما دفع الله عن شعيب رجم قومه بسبب رهطه ، وأن

هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين ، لا بأس بالسعي فيها ، بل ربما تعين ذلك ، لأن الإصلاح مطلوب على حسب القُدرة والإمكان .

فعلى هذا لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفار ، وعملوا على جعل الولاية جمهورية يتمكَّن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدنيوية ، لكان أولى ، من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم الدينية والدنيوية ، وتحرص على إبادتها ، وجعلهم عمَلَةً وخَدَمًا لهم .

نعم إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين ، وهم الحكام ، فهو المتعين ، ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة ، فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا مُقدَّمة ، والله أعلم .

[ ٩٦ : ١٠١ - ١١ ] : وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾

يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ بن عمران ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالَّة على صدق ما جاء به ، كالعصا ، واليد ونحوهما ، من الآيات التي أجراها الله على يدي موسى عليه السلام .

﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي : حُجَّة ظاهرة بيِّنة ، ظهرت ظهور الشمس .

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي : أشراف قومه لأنهم المُتَّبَعون ، وغيرهم تبع لهم ، فلم ينقادوا لما مع موسى من الآيات ، التي أراهم إيَّاها ، كما تقدَّم بسطها في سورة الأعراف ، ولكنهم ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ بل هو ضال غاو ، لا يأمر إلا بما هو ضرر محض ، لا جرم - لما اتبعه قومه - أرداهم وأهلكهم .

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ﴾ أي : في الدنيا ﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي : يلعنهم الله وملائكته, والناس أجمعون في الدنيا والآخرة .

﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ أي: بئس ما اجتمع لهم ، وترادف عليهم, من عذاب الله ، ولعنة الدنيا والآخرة .

ولما ذكر قصص هؤلاء الأمم مع رسلهم ، قال الله تعالى لرسوله : ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ لتنذر به ، ويكون آية على رسالتك ، وموعظة وذكرى للمؤمنين .

﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾ لم يتلف ، بل بقي من آثار ديارهم ، ما يدل عليهم ، ﴿و﴾ منها ﴿وَحَصِيدٌ﴾ قد تهدَّمت مساكنهم ، واضمحلت منازلهم ، فلم يبق لها أثر .

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بأخذهم بأنواع العُقوبات ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالشرك والكفر ، والعناد .

﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وهكذا كل من التجأ إلى غير الله ، لم ينفعه ذلك عند نزول الشدائد .

﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أي: خسار ودمار، بالضد مما خطر ببالهم.

[١٠٢ - ١١]: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

أي: يقصمهم بالعذاب ويبيدهم، ولا ينفعهم، ما كانوا يدّعون, من دون الله من شيء.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور، من أخذه للظالمين، بأنواع العقوبات، ﴿لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ أي: لعبرة ودليلا على أن أهل الظلم والإجرام، لهم العقوبة الدنيوية، والعقوبة الأُخروية، ثم انتقل من هذا، إلى وصف الآخرة فقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: جمعوا لأجل ذلك اليوم، للمجازاة، وليظهر لهم من عظمة الله وسلطانه وعدله العظيم، ما به يعرفونه حق المعرفة.

﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي: يشهده الله وملائكته، وجميع المخلوقين.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ أي: إتيان يوم القيامة ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ إذا انقضى أجل الدنيا وما قدر الله فيها من الخلق، فحينئذ ينقلهم إلى الدار الأخرى، ويجري عليهم أحكامه الجزائية، كما أجرى عليهم في الدنيا, أحكامه الشرعية.

﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ ذلك اليوم، ويجتمع الخلق ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ﴾ حتى الأنبياء، والملائكة الكرام، لا يشفعون إلا بإذنه، ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي: الخلق ﴿شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ فالأشقياء، هم الذين كفروا بالله، وكذّبوا رسله، وعصوا أمره، والسعداء، هم: المؤمنون المُتّقون.

وأما جزاؤهم ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾ أي: حصلت لهم الشقاوة، والخزي والفضيحة، ﴿فَفِى ٱلنَّارِ﴾ منغمسون في عذابها، مُشتدٍ عليهم عقابها، ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ من شدّة ما هم فيه ﴿زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ وهو أشنع الأصوات وأقبحها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في النار، التي هذا عذابها ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ﴾ أي: خالدين فيها أبدا، إلا المدة التي شاء الله، أن لا يكونوا فيها، وذلك قبل دخولها، كما قاله جمهور المُفسّرين، فالاستثناء على هذا، راجع إلى ما قبل دخولها، فهم خالدون فيها جميع الأزمان، سوى الزمن الذي قبل الدخول فيها.

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ فكل ما أراد فعله واقتضته حكمته فعله، تبارك وتعالى، لا يردُّه أحد عن مُراده.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟﴾ أي: حصلت لهم السعادة، والفلاح، والفوز ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ ثم أكد ذلك بقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي: ما أعطاهم الله من النعيم المُقيم، واللذة العالية، فإنه دائم مُستمر، غير منقطع بوقت من الأوقات، نسأل الله الكريم من فضله.

[١٠٩ - ١١]: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾.

يقول الله تعالى، لرسوله محمد ﷺ: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ﴾ المشركون، أي: لا تشك في حالهم، وأن ما هم عليه باطل, فليس لهم عليه دليل شرعي ولا عقلي، وإنما دليلهم وشبهتهم، أنهم

﴿مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ﴾

ومن المعلوم أن هذا ، ليس بشبهة ، فضلا عن أن يكون دليلا ، لأن أقوال ما عدا الأنبياء ، يحتج لها لا يحتج بها ، خصوصا أمثال هؤلاء الضالين ، الذين كثر خطأهم وفساد أقوالهم, في أصول الدين ، فإن أقوالهم ، وإن اتّفقوا عليها ، فإنها خطأ وضلال .

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾ أي : لا بد أن ينالهم نصيبهم من الدنيا ، مما كتب لهم ، وإن كثر ذلك النصيب ، أو راق في عينك, فإنه لا يدل على صلاح حالهم ، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ، ومن لا يحب ، ولا يعطي الإيمان والدين الصحيح ، إلا من يحب . والحاصل أنه لا يغتر باتفاق الضالين ، على قول الضالين من آبائهم الأقدمين ، ولا على ما خولهم الله ، وآتاهم من الدنيا .

[ ١١٠ : ١١٣ – ١١ ] : ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ۝١١٠ وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝١١١ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝١١٢ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ .

يُخبر تعالى ، أنه آتى موسى الكتاب ، الذي هو التوراة ، الموجب للاتفاق على أوامره ونواهيه ، والاجتماع ، ولكن ، مع هذا ، فإن المُنتسبين إليه ، اختلفوا فيه اختلافا ، أضر بعقائدهم ، وبجامعتهم الدينية .

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخيرهم ، وعدم معاجلتهم بالعذاب ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ بإحلال العقوبة بالظالم ، ولكنه تعالى ، اقتضت حكمته ، أن أخر القضاء بينهم إلى يوم القيامة ، وبقوا في شك منه مريب .

وإذا كانت هذه حالهم ، مع كتابهم ، فمع القرآن الذي أوحاه الله إليك ، غير مُستغْرَب ، من طائفة اليهود ، أن لا يؤمنوا به ، وأن يكونوا في شك منه مريب .

﴿وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾ أي : لا بد أن الله يقضي بينهم يوم القيامة ، بحكمه العدل ، فيُجازي كُلًّا بما يستحقه .

﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ من خير وشر ﴿خَبِيرٞ﴾ فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم ، دقيقها وجليلها .

ثم لما أخبر بعدم استقامتهم ، التي أوجبت اختلافهم وافتراقهم, أمر نبيّه محمدا ﷺ ومن معه ، من المؤمنين ، أن يستقيموا كما أمروا ، فيسلكوا ما شرعه الله من الشرائع ، ويعتقدوا ما أخبر الله به من العقائد الصحيحة ، ولا يزيغوا عن ذلك يمنة ولا يسرة ، ويدوموا على ذلك ، ولا يطغوا بأن يتجاوزوا ما حده الله لهم من الاستقامة .

وقوله : ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ أي : لا يخفى عليه من أعمالكم شيء, وسيجازيكم عليها ، ففيه ترغيب لسلوك الاستقامة ، وترهيب من ضدها ، ولهذا حذَّرهم عن الميل إلى من تعدَّى الاستقامة فقال : ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ﴾ أي : لا تميلوا ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ فإنكم إذا مِلْتُم إليهم ، ووافقتموهم على ظلمهم ، أو رضيتم ما هم عليه من الظلم ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ إن فعلتم ذلك ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾

يمنعونكم من عذاب الله ، ولا يحصلون لكم شيئا ، من ثواب الله .

﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي : لا يدفع عنكم العذاب إذا مسّكم .

ففي هذه الآية : التحذير من الركون إلى كل ظالم ، والمراد بالركون ، الميل والانضمام إليه بظلمه وموافقته على ذلك ، والرضا بما هو عليه من الظلم .

وإذا كان هذا الوعيد في الركون إلى الظلمة ، فكيف حال الظلمة بأنفسهم ؟!! نسأل الله العافية من الظلم .

[ ١١٤ : ١١٥ - ١١ ] : ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ .

يأمر تعالى بإقامة الصلاة كاملة ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ أي : أوله وآخره ، ويدخل في هذا ، صلاة الفجر ، وصلاتا الظهر والعصر ، ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ ويدخل في ذلك ، صلاة المغرب والعشاء ، ويتناول ذلك قيام الليل ، فإنها مما تُزلِف العبد ، وتُقرّبه إلى الله تعالى .

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي : فهذه الصلوات الخمس ، وما ألحق بها من التطوعات من أكبر الحسنات ، وهي : مع أنها حسنات تُقرّب إلى الله ، وتوجب الثواب ، فإنها تذهب السيئات وتمحوها ، والمراد بذلك : الصغائر ، كما قيدتها الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ مثل قوله : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مُكفرّات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر »(١٢٣) ، بل كما قيّدتها الآية التي في سورة النساء ، وهي قوله تعالى : ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [ سورة النساء ٣١ ] .

ذلك لعل الإشارة ، لكل ما تقدم ، من لزوم الاستقامة على الصراط المستقيم ، وعدم مجاوزته وتعديه ، وعدم الركون إلى الذين ظلموا ، والأمر بإقامة الصلاة ، وبيان أن الحسنات يذهبن السيئات ، الجميع ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ يفهمون بها ما أمرهم الله به ، ونهاهم عنه ، ويمتثلون لتلك الأوامر الحسنة المُثمِرة للخيرات ، الدافعة للشرور والسيئات ، ولكن تلك الأمور ، تحتاج إلى مجاهدة النفس ، والصبر عليها ، ولهذا قال : ﴿وَٱصْبِرْ﴾ أي : احبس نفسك على طاعة الله ، وعن معصيته ، وإلزامها لذلك ، واستمر ولا تضجر .

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بل يتقبّل الله عنهم أحسن الذي عملوا ، ويجزيهم أجرهم ، بأحسن ما كانوا يعملون ، وفي هذا ترغيب عظيم ، للزوم الصبر ، بتشويق النفس الضعيفة إلى ثواب الله ، كُلّما وَنَت وفَتَرت .

[١١٦ - ١١] : ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ .

---

(١٢٣) * أخرجه مُسلم في صحيحه : ( كتاب الطّهارة / باب : الصّلوات الخمس ، والجُمعة إلى الجُمعة ورمضان إلى رمضان مُكفِّرات لما بينهن ما اجتُنبت الكبائر /ح ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ) .
من حديث أبي هريرة .

لما ذكر تعالى ، إهلاك الأُمم المُكذِّبة للرسل ، وأن أكثرهم مُنحرِفون ، حتى أهل الكتب الإلهية ، وذلك كله يقضي على الأديان بالذهاب والاضمحلال ، ذكر أنه لولا أنه جعل في القرون الماضية بقايا ، من أهل الخير يدعون إلى الهدى ، وينهون عن الفساد والردى ، فحصل من نفعهم ما بقيت به الأديان ، ولكنهم قليلون جدا .

وغاية الأمر ، أنهم نجوا ، باتباعهم المرسلين ، وقيامهم بما قاموا به من دينهم ، وبكون حجة الله أجراها على أيديهم ، ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حيّ عن بيّنة .

﴿و﴾ لكن ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ أي : اتَّبعوا ما هم فيه من النعيم والترف ، ولم يبغوا به بدلا .

﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ أي : ظالمين ، باتباعهم ما أُترِفُوا فيه ، فلذلك حق عليهم العقاب ، واستأصلهم العذاب .

وفي هذا حثٌّ لهذه الأمة ، أن يكون فيهم بقايا مُصلِحون ، لما أفسد الناس ، قائمون بدين الله ، يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، ويبصرونهم من العمى .

وهذه الحالة أعلى حالة يرغب فيها الراغبون ، وصاحبها يكون إماما في الدين ، إذا جعل عمله خالصا لرب العالمين .

[١١٧ - ١١] : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ .

أي : وما كان الله ليهلك أهل القرى بظلم منه لهم ، والحال أنهم مُصلِحون, أي : مُقيمون على الصلاح ، مُستمِرُّون عليه ، فما كان الله ليهلكهم ، إلا إذا ظلموا ، وقامت عليهم حُجّة الله ، ويُحتمَل أن المعنى : وما كان ربك ليهلك القرى بظلمهم السابق ، إذا رجعوا وأصلحوا عملهم ، فإن الله يعفو عنهم ، ويمحو ما تقدَّم من ظلمهم .

[١١٨ : ١١٩ - ١١] : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ .

يُخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس كلهم أُمّة واحدة على الدين الإسلامي ، فإن مشيئته غير قاصرة ، ولا يمتنع عليه شيء ، ولكنه اقتضت حكمته ، أن لا يزالوا مختلفين ، مُخالِفين للصراط المستقيم, مُتَّبِعين للسُّبُل المُوصِّلة إلى النار ، كل يرى الحق ، فيما قاله ، والضلال في قول غيره .

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ فهداهم إلى العلم بالحق والعمل به ، والاتفاق عليه ، فهؤلاء سبقت لهم ، سابقة السعادة ، وتداركتهم العناية الربانية والتوفيق الإلهي ، وأما من عداهم ، فهم مَخْذُولون موكولون إلى أنفسهم .

وقوله : ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي : اقتضت حكمته ، أنه خلقهم ، ليكون منهم السعداء والأشقياء ، والمُتَّفِقون والمُختلِفون ، والفريق الذين هدى الله, والفريق الذين حقَّت عليهم الضلالة ، ليتبيَّن للعباد ، عدله وحكمته ، وليظهر ما كمن في الطباع البشرية من الخير والشر ، ولتقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء .

﴿و﴾ لأنه ﴿تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فلا بد أن يُيسَّر للنار أهلا ، يعملون بأعمالها الموصِّلة إليها .

[ ١٢٠ : ١٢٣ - ١١ ] : ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

لما ذكر في هذه السورة من أخبار الأنبياء ، ما ذكر ، ذكر الحكمة في ذكر ذلك ، فقال : ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي : قلبك ليطمئن ويثبت ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، فإن النفوس تأنس بالاقتداء ، وتنشط على الأعمال ، وتريد المنافسة لغيرها, ويتأيَّد الحق بذكر شواهده ، وكثرة من قام به .

﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ﴾ السورة ﴿الْحَقُّ﴾ اليقين ، فلا شك فيه بوجه من الوجوه ، فالعلم بذلك من العلم بالحق الذي هو أكبر فضائل النفوس .

﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي : يتعظون به ، فيرتدعون عن الأُمور المكروهة ، ويتذكَّرون الأُمور المحبوبة لله فيفعلونها .

وأما من ليس من أهل الإيمان ، فلا تنفعهم المواعظ ، وأنواع التذكير ، ولهذا قال : ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بعد ما قامت عليهم الآيات ، ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي : حالتكم التي أنتم عليها ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ على ما كُنَّا عليه .

﴿وَانْتَظِرُوا﴾ ما يحل بنا ﴿إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ ما يحل بكم .

وقد فصَّل الله بين الفريقين ، وأرى عباده ، نصره لعباده المؤمنين, وقمعه لأعداء الله المكذِّبين .

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي : ما غاب فيهما من الخفايا ، والأمور الغيبية .

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ من الأعمال والعمال ، فيميز الخبيث من الطيب ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أي : قم بعبادته ، وهي جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه ، وتوكَّل على الله في ذلك .

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الخير والشر ، بل قد أحاط علمه بذلك ، وجرى به قلمه ، وسيجري عليه حكمه ، وجزاؤه .

تمَّ تفسير سُورة هُود ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وسلم .

[ وكان الفراغ من نسخه في يوم السبت في ٢١ من شهر ربيع الآخر ١٣٤٧ ]

❊ ❊ ❊

المُجلَّد الرابع من :

# « تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان »

لجامعه الفقير إلى اللَّه :
عبد الرَّحمن بن ناصر بن عبد اللَّه بن سعدي
غفر اللَّه له ولوالديه وللمُسلمين، آمين



## تفسير سورة يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام

### وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

[ ١٢ : ١ - ٣ ] : ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾

يُخبر تعالى أن آيات القرآن هي ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي : البيِّن ، الواضحة ألفاظه ومعانيه .

ومن بيانه وإيضاحه : أنه أنزله باللسان العربي ، أشرف الألسنة ، وأبينها ، المُبيِّن لكل ما يحتاجه الناس من الحقائق النافعة وكل هذا الإيضاح والتبيين ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي : لتعقلوا حدوده وأصوله وفروعه ، وأوامره ونواهيه .

فإذا عقلتم ذلك بإيقانكم واتَّصفت قلوبكم بمعرفتها ، أثمر ذلك عمل الجوارح والانقياد إليه ، و ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي : تزداد عقولكم بتكرُّر المعاني الشريفة العالية على أذهانكم ، فتُنتقلون من حال إلى أحوال أعلى منها وأكمل .

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ وذلك لصدقها وسلاسة عبارتها ورونق معانيها ، ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي : بما اشتمل عليه هذا القرآن الذي أوحيناه إليك ، وفضلناك به على سائر الأنبياء ، وذاك محض مِنَّة من الله وإحسان .

﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ أي : ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان قبل أن يوحي الله إليك ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا .

ولما مدح ما اشتمل عليه هذا القرآن من القصص ، وأنها أحسن القصص على الإطلاق ، فلا يوجد من القصص في شيء من الكتب مثل هذا القرآن ، ذكر قصه يوسف ، وأبيه وإخوته ، القصة العجيبة الحسنة فقال :

[ ١٢ : ٤ - ٦ ] : ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

واعلم أن الله ذكر أنه يقُص على رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب ، ثم ذكر هذه القصة وبسطها ، وذكر ما جرى فيها ، فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة ، فمن أراد أن يكملها أو يحسنها بما يذكر في الإسرائيليات التي لا يعرف لها سند ولا ناقل وأغلبها كذب ، فهو مُستدرِك على الله ، ومُكمِّل لشيء يزعم أنه ناقص ، وحسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبحا ، فإن تضاعيف هذه السورة قد ملئت في كثير من التفاسير ،

من الأكاذيب والأمور الشنيعة المناقضة لما قصّه الله تعالى بشيء كثير.

فعلى العبد أن يفهم عن الله ما قصّه، ويدع ما سوى ذلك مما ليس عن النبي ﷺ ينقل.

فقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ فكانت هذه الرؤيا مُقدّمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام من الارتفاع في الدنيا والآخرة.

وهكذا إذا أراد الله أمرا من الأمور العِظام قدّم بين يديه مُقدّمة، توطئة له، وتسهيلا لأمره، واستعدادا لما يرد على العبد من المشاق، لُطفا بعبده، وإحسانا إليه، فأوّلها يعقوب بأن الشمس: أمه، والقمر: أبوه، والكواكب: إخوته، وأنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له، ويسجدون له إكراما وإعظاما، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدمه من اجتباء الله له، واصطفائه له، وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل، والتمكين في الأرض.

وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب، الذين سجدوا له وصاروا تبعا له فيها، ولهذا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: يصطفيك ويختارك بما يَمُنُّ به عليك من الأوصاف الجليلة والمناقب الجميلة.

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: من تعبير الرؤيا، وبيان ما تئول إليه الأحاديث الصادقة، كالكتب السماوية ونحوها، ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ في الدنيا والآخرة، بأن يؤتيك في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ حيث أنعم الله عليهما، بنعم عظيمة واسعة، دينية، ودنيوية.

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: علمه محيط بالأشياء، وبما احتوت عليه ضمائر العباد من البر وغيره، فيعطي كلا ما تقتضيه حكمته وحمده، فإنه حكيم يضع الأشياء مواضعها، ويُنْزلها منازلها.

ولما بان تعبيرها ليوسف، قال له أبوه: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ أي: حسدا من عند أنفسهم، أن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ لا يفتر عنه ليلا ولا نهارا، ولا سرًّا ولا جهارا، فالبعد عن الأسباب التي يتسلّط بها على العبد أولى، فامتثل يوسف أمر أبيه، ولم يُخبر إخوته بذلك، بل كتمها عنهم.

[ ٧: ٩ - ١٢ ]: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾.

يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ﴾ أي: عِبر وأدلّة على كثير من المطالب الحسنة، ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال، فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المُعرِضون فلا ينتفعون بالآيات، ولا في القصص والبيّنات.

﴿إِذْ قَالُوا۟﴾ فيما بينهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين، أي: شقيقه، وإلا فكلهم إخوة. ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة، فكيف يُفضّلهما علينا بالمحبّة والشفقة، ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

أي : لفي خطأ بيّن ، حيث فضّلهما علينا من غير موجب نراه ، ولا أمر نشاهده .

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي : غيّبوه عن أبيه في أرض بعيدة لا يتمكّن من رؤيته فيها ، فإنكم إذا فعلتم أحد هذين الأمرين ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أي : يتفرّغ لكم ، ويُقبل عليكم بالشفقة والمحبّة ، فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف شُغلا لا يتفرّغ لكم ، ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي : من بعد هذا الصنيع ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ أي : تتوبون إلى الله ، وتستغفرون من بعد ذنبكم .

فقدّموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم تسهيلا لفعله ، وإزالة لشناعته ، وتنشيطا من بعضهم لبعض .

[ ١٠ - ١٢ ] : ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ .

أي : ﴿قَالَ قَآئِلٌ﴾ من إخوة يوسف الذين أرادوا قتله أو تبعيده : ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ فإن قتله أعظم إثما وأشنع ، والمقصود يحصل بتبعيده عن أبيه من غير قتل ، ولكن توصّلوا إلى تبعيده بأن تلقوه ﴿فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ وتتوعّدوه على أنه لا يخبر بشأنكم ، بل على أنه عبد مملوك آبق منكم ، لأجل أن ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ الذين يريدون مكانا بعيدا ، فيحتفظون فيه .

وهذا القائل أحسنهم رأيا في يوسف ، وأبرهم وأتقاهم في هذه القضية ، فإن بعض الشر أهون من بعض ، والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل ، .فلما اتّفقوا على هذا الرأي .

[ ١١ : ١٤ - ١٢ ] : ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ .

أي : قال إخوة يوسف ، متوصّلين إلى مقصدهم لأبيهم : ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ أي : لأي شيء يدخلك الخوف منّا على يوسف ، من غير سبب ولا موجب ؟ ، ﴿و﴾الحال ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ أي : مُشفِقون عليه ، نود له ما نود لأنفسنا ، وهذا يدل على أن يعقوب عليه السلام لا يترك يوسف يذهب مع إخوته للبريّة ونحوها .

فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة من عدم إرساله معهم ، ذكروا له من مصلحة يوسف وأُنسه الذي يُحبه أبوه له ، ما يقتضي أن يسمح بإرساله معهم ، فقالوا : ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ أي : يتنزّه في البرّيّة ويستأنس ، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي : سنراعيه ، ونحفظه من أذى يريده .

فأجابهم بقوله : ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ أي : مُجرّد ذهابكم به يحزنني ويشق علي ، لأنني لا أقدر على فراقه ، ولو مُدّة يسيرة ، فهذا مانع من إرساله ﴿و﴾ مانع ثان ، وهو أني ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ أي : في حال غفلتكم عنه ، لأنه صغير لا يمتنع من الذئب .

﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي : جماعة ، حريصون على حفظه ، ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ أي : لا خير فينا ولا نفع يُرجى منّا إن أكله الذئب وغلبنا عليه .

فلمّا مهّدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله ، وعدم الموانع ، سمح حينئذ بإرساله معهم لأجل أنسه .

[ ١٥ : ١٨ - ١٢ ] : ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ .

أي : لمّا ذهب إخوة يوسف بيوسف بعد ما أذن له أبوه ، وعزموا على أن يجعلوه في غَيَابَةِ الجُبِّ ، كما قال قائلهم السابق ذكره ، وكانوا قادرين على ما أجمعوا عليه ، فنفّذوا فيه قدرتهم ، وألقوه في الجُبّ ، ثم إن الله لطف به بأن أوحى إليه وهو في تلك الحال الحرجة ، ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي : سيكون منك مُعاتبة لهم ، وإخبار عن أمرهم هذا ، وهم لا يشعرون بذلك الأمر ، ففيه بشارة له ، بأنه سينجو مما وقع فيه ، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته على وجه العز والتمكين له في الأرض .

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾ ليكون إتيانهم مُتأخّرا عن عادتهم ، وبكاؤهم دليلا لهم ، وقرينة على صدقهم ، فقالوا - مُتعذّرين بعُذر كاذب - ﴿يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ إما على الأقدام ، أو بالرمي والنِّضال ، ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ توفيرا له وراحة ، ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ في حال غيبتنا عنه في استباقنا ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ أي : تعذرنا بهذا العذر ، والظاهر أنك لا تصدّقنا لما في قلبك من الحزن على يوسف ، والرِّقّة الشديدة عليه .

ولكن عدم تصديقك إيّانا ، لا يمنعنا أن نعتذر بالعُذر الحقيقي ، وكل هذا ، تأكيد لعذرهم ، ﴿وَ﴾ مما أكّدوا به قولهم ، أنهم ﴿جَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ زعموا أنه دم يوسف حين أكله الذئب ، فلم يُصدّقهم أبوهم بذلك ، و ﴿قَالَ﴾ : ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي : زيَّنت لكم أنفسكم أمرا قبيحا في التفريق بيني وبينه ، لأنه رأى من القرائن والأحوال ومن رؤيا يوسف التي قصّها عليه ما دلّه على ما قال .

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي : أما أنا فوظيفتي سأحرص على القيام بها ، وهي أني أصبر على هذه المحنة صبرا جميلا سالما من السخط والتّشكّي إلى الخلق ، وأستعين الله على ذلك ، لا على حولي وقوّتي ، فوعد من نفسه هذا الأمر وشكى إلى خالقه في قوله : ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لأن الشكوى إلى الخالق لا تُنافي الصبر الجميل ، لأن النبي إذا وعد وفى .

[ ١٩ : ٢٠ - ١٢ ] : ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ .

أي : مكث يوسف في الجب ما مكث ، حتى ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي : قافلة تريد مصر ، ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ أي : فَرَطهم ومُقدّمهم ، الذي يعُسّ لهم المياه ، ويسْبرَها ويستعد لهم بتهيئة الحياض ونحو ذلك ، ﴿فَأَدْلَىٰ﴾ ذلك الوارد ﴿دَلْوَهُۥ﴾ فتعلّق فيه يوسف عليه السلام وخرج ، ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ أي : استبشر وقال : هذا غلام نفيس ، ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ وكان إخوته قريبا منه ، فاشتراه السيارة منهم ، ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ أي : قليل جدا ، فسّره بقوله : ﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ .

لأنه لم يكن لهم قصد إلا تغييبه وإبعاده عن أبيه ، ولم يكن لهم قصد في أخذ ثمنه ، والمعنى في هذا : أن السيارة لما وجدوه ، عزموا أن يُسِرُّوا أمره ، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم ، حتى جاءهم إخوته فزعموا أنه عبد أبق منهم ، فاشتروه منهم بذلك الثمن ، واستوثقوا منهم فيه لئلا يهرب ، والله أعلم .

[ ٢١ - ١٢ ] : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

أي : لما ذهب به السيارة إلى مصر وباعوه بها ، فاشتراه عزيز مصر ، فلما اشتراه ، أعجب به ، ووصَّى عليه امرأته وقال : ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أي : إما أن ينفعنا كنفع العبيد بأنواع الخدم ، وإما أن نستمتع فيه استمتاعنا بأولادنا ، ولعل ذلك أنه لم يكن لهما ولد ، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي : كما يسَّرنا له أن يشتريه عزيز مصر ، ويكرمه هذا الإكرام ، جعلنا هذا مُقدِّمة لتمكينه في الأرض من هذا الطريق .

﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ إذا بقي لا شُغل له ولا همَّ له سوى العلم صار ذلك من أسباب تعلُّمه علما كثيرا ، من علم الأحكام ، وعلم التعبير ، وغير ذلك ، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ أي : أمره تعالى نافذ ، لا يُبطله مُبْطِل ، ولا يغلبه مُغالِب ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك يجري منهم ويصدر ما يصدر ، في مُغالبة أحكام الله القدرية ، وهُم أعجز وأضعف من ذلك .

[ ٢٢ - ١٢ ] : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ .

أي : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ يوسف ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي : كمال قوَّته المعنوية والحسية ، وصلح لأن يتحمل الأحمال الثقيلة ، من النُّبوة والرسالة ، ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي : جعلناه نبيًّا رسولا ، وعالما ربَّانيًّا ، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة الخالق ببذل الجهد والنصح فيها ، وإلى عباد الله ببذل النفع والإحسان إليهم ، نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم علما نافعا .

ودل هذا ، على أن يوسف وفَّى مقام الإحسان ، فأعطاه الله الحُكم بين الناس والعلم الكثير والنبوة .

[ ٢٣ : ٢٩ - ١٢ ] : ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ .

هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته ، وصبره عليها أعظم أجرا ، لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة ، لوقوع الفعل ، فقدَّم محبَّة الله عليها ، وأما محنته بإخوته ، فصبره صبر اضطرار ،

بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها ، طائعا أو كارها ، وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام بقي مُكرّما في بيت العزيز ، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك ، أن ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ أي : هو غلامها ، وتحت تدبيرها ، والمسكن واحد ، يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد ، ولا إحساس بشر .

﴿وَ﴾ زادت المصيبة ، بأن ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ وصار المحل خاليا ، وهما آمنان من دخول أحد عليهما ، بسبب تغليق الأبواب ، وقد دعته إلى نفسها ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ أي : افعل الأمر المكروه وأقبل إليَّ ، ومع هذا فهو غريب ، لا يحتشم مثله ما يحتَشِمه إذا كان في وطنه وبين معارفه ، وهو أسير تحت يدها ، وهي سيدته ، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك ، وهو شاب عَزَب ، وقد توعَّدته ، إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن ، أو العذاب الأليم .

فصبر عن معصية الله ، مع وجود الداعي القوي فيه ، لأنه قد هم فيها هما تركه لله ، وقدَّم مُراد الله على مُراد النفس الأمارة بالسوء ، ورأى من برهان ربه – وهو ما معه من العلم والإيمان ، الموجب لترك كل ما حرم الله – ما أوجب له البعد والانكفاف ، عن هذه المعصية الكبيرة ، و ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ أي : أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح ، لأنه مما يسخط الله ويبعد منه ، ولأنه خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي .

فلا يليق بي أن أُقابله في أهله بأقبح مُقابلة ، وهذا من أعظم الظلم ، والظالم لا يفلح ، والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله ، ومُراعاة حق سيده الذي أكرمه ، وصيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلح من تعاطاه ، وكذلك ما مَنَّ الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه ، يقتضي منه امتثال الأوامر ، واجتناب الزَّواجِر ، والجامع لذلك كله أن الله صرف عنه السوء والفحشاء ، لأنه من عباده المُخْلِصين له في عباداتهم ، الذين أخلصهم الله واختارهم ، واختصَّهم لنفسه ، وأسْدَى عليهم من النِّعم ، وصرف عنهم من المكاره ما كانوا به من خيار خلقه .

ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المُراودة الشديدة ، ذهب ليهرب عنها ويُبادر إلى الخروج من الباب ليتخلَّص ، ويهرب من الفتنة ، فبادرت إليه ، وتعلَّقت بثوبه ، فشقَّت قميصه ، فلما وصلا إلى الباب في تلك الحال ، ألفيا سيدها ، أي : زوجها لدى الباب ، فرأى أمرا شقَّ عليه ، فبادرت إلى الكذب ، أن المُراودة قد كانت من يوسف ، وقالت : ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾ ولم تقل : « من فعل بأهلك سوءا » ، تبرئة لها وتبرئة له أيضا من الفعل .

وإنما النزاع عند الإرادة والمُراودة ﴿إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي : أو يُعذَّب عذابا أليما .

فبرَّأ نفسه مما رمته به ، وقال : ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ فحينئذ احتملت الحال صدق كل واحد منهما ولم يعلم أيُّهما .

ولكن الله تعالى جعل للحق والصدق علامات وأمارات تدل عليه ، قد يعلمها العباد وقد لا يعلمونها ، فمنَّ الله في هذه القضية بمعرفة الصادق منهما ، تبرئة لنبيِّه وصفيه يوسف ﷺ ، فانبعث شاهد من أهل بيتها ، يشهد بقرينة مَنْ وجِدَت معه ، فهو الصادق ، فقال : ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ

﴿مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ لأن ذلك يدل على أنه هو المُقْبِل عليها ، المُراود لها المُعالِج ، وأنها أرادت أن تدفعه عنها ، فشقَّت قميصه من هذا الجانب .

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لأن ذلك يدل على هروبه منها ، وأنها هي التي طلبته فشقَّت قميصه من هذا الجانب .

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ﴾ عرف بذلك صدق يوسف وبراءته ، وأنها هي الكاذبة .

فقال لها سيِّدها : ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ وهل أعظم من هذا الكيد ، الذي برَّأت به نفسها مما أرادت وفعلت ، ورمت به نبي الله يوسف ﷺ ، ثم إن سيدها لما تحقق الأمر ، قال ليوسف : ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ﴾ أي : اترك الكلام فيه وتناسه ولا تذكره لأحد ، طلبا للسَّتر على أهله ، ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي﴾ أيَّتها المرأة ﴿لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ فأمر يوسف بالإعراض ، وهي بالاستغفار والتوبة .

[ ٣٠ - ٣٥ : ١٢ ] : ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ .

يعني : أن الخبر اشتهر وشاع في البلد ، وتحدَّث به النِّسوة فجعلن يلُمنها ، ويقُلن : ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾ أي : هذا أمر مُستقبح ، هي امرأة كبيرة القدر ، وزوجها كبير القدر ، ومع هذا لم تزل تراود فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسه ، ومع هذا فإن حبه قد بلغ من قلبها مبلغا عظيما .

﴿قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾ أي : وصل حبه إلى شَغَافِ قلبها ، وهو باطنه وسُوَيْداؤه ، وهذا أعظم ما يكون من الحب ، ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ حيث وجدت منها هذه الحالة التي لا تنبغي منها ، وهي حالة تَحُطُّ قدرها وتضعه عند الناس ، وكان هذا القول منهن مكرا ، ليس المقصود به مُجرَّد اللوم لها والقدح فيها ، وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذي فتنت به امرأة العزيز لتحنق امرأة العزيز ، وتُريهُنَّ إيَّاه ليعْذُرْنَها ، ولهذا سمَّاه مكرا ، فقال : ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ﴾ تدعوهن إلى منزلها للضيافة .

﴿وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾ أي : محلا مُهيَّأ بأنواع الفُرُش والوسائد ، وما يقصد بذلك من المآكل اللذيذة ، وكان في جملة ما أتت به وأحضرته في تلك الضيافة ، طعام يحتاج إلى سكين ، إما أُتْرُج أو غيره ، ﴿وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا﴾ ليقطعن فيها ذلك الطعام ﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف : ﴿ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ﴾ في حالة جماله وبهائه .

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أي : أعظمنه في صدورهن ، ورأين منظرا فائقا لم يُشاهدن مثله ، ﴿وَقَطَّعْنَ﴾ من الدَّهش ﴿أَيْدِيَهُنَّ﴾ بتلك السكاكين اللاتي معهن ، ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي : تنزيها لله ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ وذلك أن يوسف أعطي من الجمال الفائق والنور والبهاء ، ما كان به آية للناظرين ، وعبرة للمتأملين .

فلما تقرَّر عندهن جمال يوسف الظاهر ، وأعجبهن غاية ، وظهر منهن من العذر لامرأة العزيز ، شيء كثير – أرادت أن تُريهُنَّ جماله الباطن بالعفَّة التامة فقالت مُعلِنة لذلك ومُبيِّنة لحبه الشديد غير مُبالية ، ولأن اللوم انقطع عنها من النِّسوة : ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي : امتنع وهي مُقيمة على مراودته ، لم تزدها مرور الأوقات إلا قلقا ومحبَّة وشوقا لوصاله وتَوْقا .

ولهذا قالت له بحضرتهن : ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ لتلجئه بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه ، فعند ذلك اعتصم يوسف بربِّه ، واستعان به على كيدهن و ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ وهذا يدل على أن النِّسوة ، جعلن يُشِرْنَ على يوسف في مُطاوعة سيِّدته ، وجعلن يكدنه في ذلك .

فاستحبَّ السجن والعذاب الدنيوي على لذَّة حاضرة توجب العذاب الشديد ، ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي : أمل إليهن ، فإني ضعيف عاجز ، إن لم تدفع عني السوء ، ﴿وَأَكُن﴾ إن صبوت إليهن ﴿مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فإن هذا جهل ، لأنه آثر لذَّة قليلة مُنغِّصة ، على لذَّات مُتتابعات وشهوات مُتنوِّعات في جنات النعيم ، ومن آثر هذا على هذا ، فمن أجهل منه ؟ ، فإن العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين وأعظم اللذَّتين ، ويُؤثِر ما كان محمود العاقبة .

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ حين دعاه ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ فلم تزل تراوده وتستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل ، حتى أيسها ، وصرف الله عنه كيدها ، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعاء الداعي ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنيَّته الصالحة ، وبنيته الضعيفة المقتضية لإمداده بمعونته ولطفه .

فهذا ما نجَّى الله به يوسف من هذه الفتنة المُلمَّة والمحنة الشديدة ، .وأما أسياده فإنه لما اشتهر الخبر وبان ، وصار الناس فيها بين عاذر ولائم وقادح ﴿بَدَا لَهُم﴾ أي : ظهر لهم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على براءته ، ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي : لينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس ، فإن الشيء إذا شاع لم يزل يذكر ويشاع مع وجود أسبابه ، فإذا عُدِمت أسبابه نسي ، فرأوا أن هذا مصلحة لهم ، فأدخلوه في السجن .

[ ٣٦ : ٤٠ – ١٢ ] : ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ

أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

أي : ﴿وَ﴾ لما دخل يوسف السجن ، كان في جُملة من ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ﴾ أي : شابان ، فرأى كل واحد منهما رؤيا ، فقصّـسها على يوسف ليُعبِّرها ، فـ ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا﴾ وذلك الخبز ﴿تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ﴾ أي : بتفسيره ، وما يؤول إليه أمرهما ، وقولهما : ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي : من أهل الإحسان إلى الخلق ، فأحسن إلينا في تعبيرك لرؤيانا ، كما أحسنت إلى غيرنا ، فتوسَّلا ليوسف بإحسانه .

فـ ﴿قَالَ﴾ لهما مُجيبا لطلبتهما : ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ﴾ أي : فلتطمئن قلوبكما ، فإني سأبادر إلى تعبير رؤياكما ، فلا يأتيكما غداؤكما ، أو عشاؤكما ، أول ما يجيء إليكما ، إلا نبَّأتُكما بتأويله قبل أن يأتيكما .

ولعل يوسف عليه الصلاة والسلام قصد أن يدعوهما إلى الإيمان في هذه الحال التي بدت حاجتهما إليه ، ليكون أنجع لدعوته ، وأقبل لهما .

ثم قال : ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ التعبير الذي سأُعبِّره لكما ﴿مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓۚ﴾ أي : هذا من علم الله علمنيه وأحسن إليَّ به ، وذلك ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ والترك كما يكون للداخل في شيء ثم ينتقل عنه ، يكون لمن لم يدخل فيه أصلاً .

فلا يُقال : إن يوسف كان من قبل ، على غير مِلَّة إبراهيم .

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ﴾ ثم فسَّر تلك المِلَّة بقوله : ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾ أي : ما ينبغي ولا يليق بنا ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ﴾ بل نُفرد الله بالتوحيد ، ونُخلِص له الدين والعبادة .

﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي : هذا من أفضل مِنَنه وإحسانه وفضله علينا ، وعلى من هداه الله كما هدانا ، فإنه لا أفضل من مِنَّة الله على العباد بالإسلام والدين القويم ، فمَن قبله وانقاد له فهو حظه ، وقد حصل له أكبر النعم وأجل الفضائل .

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فلذلك تأتيهم المِنَّة والإحسان ، فلا يقبلونها ولا يقومون لله بحقِّه ، وفي هذا من الترغيب للطريق التي هو عليها ما لا يخفى ، فإن الفتيين لما تقرَّر عنده أنهما رأياه بعين التعظيم والإجلال -وأنه مُحسِن مُعلِّم- ذكر لهما أن هذه الحالة التي أنا عليها ، كلها من فضل الله وإحسانه ، حيث منَّ عليَّ بترك الشرك وباتِّباع مِلَّة آبائه ، فبهذا وصلت إلى ما رأيتما ، فينبغي لكما أن تسلكا ما سلكت .

ثم صرَّح لهما بالدعوة ، فقال : ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أي : أرباب عاجزة ضعيفة لا تنفع ولا تضر ، ولا تعطي ولا تمنع ، وهي مُتفرِّقة ما بين أشجار وأحجار وملائكة وأموات ، وغير ذلك من أنواع المعبودات التي يتَّخذها المشركون ، أتلك ﴿خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ﴾ الذي له صفات الكمال ، ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله فلا شريك له في شيء من ذلك .

﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ الذي انقادت الأشياء لقهره وسُلطانه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا

﴿هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ [سورة هود ٥٦] ، ومن المعلوم أن من هذا شأنه ووصفه خير من الآلهة المُتفرّقة التي هي مُجرّد أسماء ، لا كمال لها ولا أفعال لديها .

ولهذا قال : ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي : كسوتموها أسماء ، سميتموها آلهة ، وهي لا شيء ، ولا فيها من صفات الألوهية شيء ، ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾ بل أنزل الله السلطان بالنهي عن عبادتها وبيان بطلانها ، وإذا لم ينزل الله بها سلطانا ، لم يكن طريق ولا وسيلة ولا دليل لها .

لأن الحُكم لله وحده ، فهو الذي يأمر وينهى ، ويشرع الشرائع ، ويسن الأحكام ، وهو الذي أمركم ﴿أن لا تَعْبُدُوا إلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي : المستقيم الموصّل إلى كل خير ، وما سواه من الأديان ، فإنها غير مستقيمة ، بل معوجّة توصّل إلى كل شر .

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقائق الأشياء ، وإلا فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له ، وبين الشرك به ، أظهر الأشياء وأبينها .

ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك ، حصل منهم ما حصل من الشرك ، فيوسف عليه السلام دعا صاحبي السجن لعبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له ، فيحتمل أنهما استجابا وانقادا ، فتمت عليهما النعمة ، ويحتمل أنهما لم يزالا على شركهما ، فقامت عليهما – بذلك – الحُجّة ، ثم إنه عليه السلام شرع يعبر رؤياهما ، بعد ما وعدهما ذلك ، فقال :

[٤١] ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمرا ، فإنه يخرج من السجن ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ﴾ أي : يسقي سيده الذي كان يخدمه خمرا ، وذلك مستلزم لخروجه من السجن ، ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾ وهو : الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه ، ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ﴾ فإنه عبَّر عن الخبز الذي تأكله الطير ، بلحم رأسه وشحمه ، وما فيه من المخ ، وأنه لا يُقْبَر ويُسْتَر عن الطيور ، بل يُصْلَب ويُجْعَل في محل ، تتمكّن الطيور من أكله ، ثم أخبرهما بأن هذا التأويل الذي تأوّله لهما ، أنه لا بد من وقوعه فقال : ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي : تسألان عن تعبيره وتفسيره .

[٤٢] ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ .

أي : ﴿وَقَالَ﴾ يوسف عليه السلام : ﴿لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ وهو : الذي رأى أنه يعصر خمرا : ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ أي : اذكر له شأني وقصّتي ، لعله يرقُّ لي ، فيخرجني مما أنا فيه ، ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ أي : فأنسى الشيطان ذلك الناجي ذكر الله تعالى ، وذكر ما يقرب إليه ، ومن جملة ذلك نسيانه ذكر يوسف الذي يستحق أن يجازى بأتم الإحسان ، وذلك ليتم الله أمره وقضاءه .

﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ والبضع من الثلاث إلى التّسع ، ولهذا قيل : إنه لبث سبع سنين ، ولما أراد الله أن يتم أمره ، ويأذن بإخراج يوسف من السجن ، قدر لذلك سببا لإخراج يوسف وارتفاع شأنه وإعلاء قدره ، وهو رؤيا الملك .

[٤٣ : ٤٩ – ١٢] : ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ .

لما أراد الله تعالى أن يُخرج يوسف من السجن ، أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة ، الذي تأويلها يتناول جميع الأُمَّة ، ليكون تأويلها على يد يوسف ، فيظهر من فضله ، ويُبيِّن من علمه ما يكون له رفعة في الدارين ، ومن التقادير المناسبة أن الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها ، لارتباط مصالحها به .

وذلك أنه رأى رؤيا هالته ، فجمع لها علماء قومه وذوي الرأي منهم وقال : ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ﴾ أي : سبع من البقرات ﴿عِجَافٌ﴾ وهذا من العجب ، أن السبع العجاف الهزيلات اللاتي سقطت قوتهن ، يأكلن السبع السمان التي كُنَّ نهاية في القوَّة .

﴿وَ﴾ رأيت ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ يأكلهن سبع سنبلات ﴿يَابِسَٰتٍ﴾ ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ لأن تعبير الجميع واحد ، وتأويله شيء واحد . ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ فتحيَّروا ، ولم يعرفوا لها وجها .

و﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي أحلام لا حاصل لها ، ولا لها تأويل .

وهذا جزم منهم بما لا يعلمون ، وتعذُّر منهم ، بما ليس بعُذر ثم قالوا : ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ أي : لا نُعبِّر إلا الرؤيا ، وأما الأحلام التي هي من الشيطان ، أو من حديث النفس ، فإنا لا نُعبِّرها .

فجمعوا بين الجهل والجزم ، بأنها أضغاث أحلام ، والإعجاب بالنفس ، بحيث إنهم لم يقولوا : لا نعلم تأويلها ، وهذا من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين والحِجا ، وهذا أيضا من لُطف الله بيوسف عليه السلام ، فإنه لو عبَّرها ابتداء – قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم ، فيعجزوا عنها – لم يكن لها ذلك الموقع ، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجواب ، وكان الملك مُهتمًّا لها غاية ، فعبَّرها يوسف– وقعت عندهم موقعا عظيما ، وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة بالعلم ، بعد أن سألهم فلم يعلموا . ثم سأل آدم ، فعلَّمهم أسماء كل شيء ، فحصل بذلك زيادة فضله ، وكما يظهر فضل أفضل خلقه محمد ﷺ في القيامة ، أن يلهم الله الخلق أن يتشفعوا بآدم ، ثم بنوح ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى عليهم السلام ، فيعتذرون عنها ، ثم يأتون محمدا ﷺ فيقول : « أنا لها أنا لها » فيشفع في جميع الخلق ، وينال ذلك المقام المحمود ، الذي يغبطه به الأولون والآخرون .(١٢٤)

---

(١٢٤) * مُتَّفقٌ عليه . من حديث أنس بن مالك .

فسبحان من خفيت ألطافه ، ودقَّت في إيصاله البر والإحسان ، إلى خواص أصفيائه وأوليائه .

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي : من الفتيين ، وهو : الذي رأى أنه يعصر خمرا ، وهو الذي أوصاه يوسف أن يذكره عند ربه ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي : وتذكر يوسف ، وما جرى له في تعبيره لرؤياهما ، وما وصاه به ، وعلم أنه كفيل بتعبير هذه الرؤيا بعد مُدَّة من السنين فقال : ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ إلى يوسف لأسأله عنها .

فأرسلوه ، فجاء إليه ، ولم يُعنِّفه يوسف على نسيانه ، بل استمع ما يسأله عنه ، وأجابه عن ذلك فقال : ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أي : كثير الصدق في أقواله وأفعاله ، ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فإنهم مُتشوِّقون لتعبيرها ، وقد أهمتهم .

فعبَّر يوسف ، السبع البقرات السمان والسبع السنبلات الخضر ، بأنهن سبع سنين مخصبات ، والسبع البقرات العجاف ، والسبع السنبلات اليابسات ، بأنهن سنين مجدبَات ، ولعل وجه ذلك - والله أعلم - أن الخصب والجدب لما كان الحرث مبنيًا عليه ، وأنه إذا حصل الخصب قويت الزروع والحروث ، وحَسُنَ منظرها ، وكثرت غلالها ، والجدب بالعكس من ذلك . وكانت البقر هي التي تحرث عليها الأرض ، وتسقى عليها الحروث في الغالب ، والسنبلات هي أعظم الأقوات وأفضلها ، عبَّرها بذلك ، لوجود المُناسبة ، فجمع لهم في تأويلها بين التعبير والإشارة لما يفعلونه ، ويستعدُّون به من التدبير في سِني الخصب ، إلى سِني الجدب فقال : ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي : مُتتابعات .

﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ من تلك الزروع ﴿فَذَرُوهُ﴾ أي : اتركوه ﴿فِى سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ لأنه أبقى له وأبعد من الالتفات إليه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي : دبِّروا أيضا أكلكم في هذه السنين الخصبة ، وليكن قليلا ، ليكثر ما تدَّخِرون ويعظم نفعه ووقعه .

﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي : بعد تلك السنين السبع المخصِبات ، ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي : مجدبات جدا ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي : يأكلن جميع ما ادخرتموه ولو كان كثيرا ، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أي : تمنعونه من التقديم لهن .

﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي : بعد السبع الشداد ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي : فيه تكثُر الأمطار والسيول ، وتكثُر الغلَّات ، وتزيد على أقواتهم ، حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه زيادة على أكلهم ، ولعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب ، مع أنه غير مُصرَّح به في رؤيا الملك ، لأنه فهم من التقدير بالسبع الشداد ، أن العام الذي يليها يزول به شدتها ، .ومن المعلوم أنه لا يزول الجدب المستمر سبع سنين متواليات ، إلا بعام مخصب جدا ، وإلا لما كان للتقدير فائدة ، فلما رجع الرسول إلى الملك والناس ، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا ، عجبوا من ذلك ، وفرحوا بها أشد الفرح .

= أخرجه البُخاري في صحيحه : ( كتاب التَّوحيد / باب : كلام الرَّب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء / ح ٧٥١٠) . ومُسلم في صحيحه : ( كتاب الإيمان / باب : أدنى أهل الجنَّة منزلة فيها / ح ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٦) .

[ ٥٠ : ٥٧ – ١٢ ] : ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ لمن عنده ﴿ائْتُونِي بِهِ﴾ أي : بيوسف عليه السلام ، بأن يُخرجوه من السجن ويُحضروه إليه ، فلما جاء يوسف الرسول وأمره بالحضور عند الملك ، امتنع عن المبادرة إلى الخروج ، حتى تتبين براءته التامة ، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام .

فـ ﴿قَالَ﴾ للرسول : ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ يعني به الملك . ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي : اسأله ما شأنهن وقصتهن ، فإن أمرهن ظاهر مُتَّضِح ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ .

فأحضرهن الملك ، وقال : ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أي : شأنكن ﴿إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ فهل رأيتن منه ما يريب ؟ ، فبرَّأنه و ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ أي : لا قليل ولا كثير ، فحينئذ زال السبب الذي تنبني عليه التُّهمة ، ولم يبق إلا ما عند امرأة العزيز ، فـ ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أي : تمحَّض وتبيَّن ، بعد ما كنا ندخل معه من السوء والتهمة ، ما أوجب له السجن ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في أقواله وبراءته .

﴿ذَلِكَ﴾ الإقرار ، الذي أقررت [ أني راودت يوسف ] ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ يحتمل أن مرادها بذلك زوجها أي : ليعلم أني حين أقررت أني راودت يوسف ، أني لم أخنه بالغيب ، أي : لم يجر منِّي إلا مُجرَّد المُراودة ، ولم أُفسِد عليه فراشه ، ويُحتمَل أن المُراد بذلك ليعلم يوسف حين أقررت أني أنا الذي راودته ، وأنه صادق أني لم أخنه في حال غيبته عني . ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ فإن كل خائن ، لا بد أن تعود خيانته ومكره على نفسه ، ولا بد أن يتبيَّن أمره .

ثم لما كان في هذا الكلام نوع تزكية لنفسها ، وأنه لم يجر منها ذنب في شأن يوسف ، استدركت فقالت : ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ أي : من المراودة والهمِّ ، والحرص الشديد ، والكيد في ذلك ، ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ أي : لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء ، أي : الفاحشة ، وسائر الذنوب ، فإنها مركب الشيطان ، ومنها يدخل على الإنسان ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ فنجَّاه من نفسه الأمارة ، حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربها ، منقادة لداعي الهدى ، متعاصية عن داعي الردى ، فذلك ليس من النفس ، بل من فضل الله ورحمته بعبده .

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي : هو غفور لمن تجرأ على الذنوب والمعاصي ، إذا تاب وأناب ، ﴿رَحِيمٌ﴾ بقبول توبته ، وتوفيقه للأعمال الصالحة ، . وهذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز ، لا من قول

يوسف ، فإن السياق في كلامها ، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر .

فلما تحقَّق الملك والناس براءة يوسف التامة ، أرسل إليه الملك وقال : ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ أي : أجعله خصيصة لي ومُقرَّبا لديَّ فأتوه به مُكرَّما مُحترما ، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أعجبه كلامه ، وزاد موقعه عنده فقال له : ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا﴾ أي : عندنا ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي : مُتمكِّن ، أمين على الأسرار ، فـ ﴿قَالَ﴾ يوسف طلبا للمصلحة العامة : ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي : على خزائن جبايات الأرض وغلالها ، وكيلا حافظا مُدبِّرا .

﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أي : حفيظ للذي أتولاه ، فلا يضيع منه شيء في غير محله ، وضابط للداخل والخارج ، عليم بكيفية التدبير والإعطاء والمنع ، والتصرف في جميع أنواع التصرفات ، وليس ذلك حرصا من يوسف على الولاية ، وإنما هو رغبة منه في النفع العام ، وقد عرف من نفسه من الكفاءة والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه .

فلذلك طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض ، فجعله الملك على خزائن الأرض وولاه إيَّاها .

قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي : بهذه الأسباب والمُقدِّمات المذكورة ، ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ في عيش رغد ، ونعمة واسعة ، وجاه عريض ، ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ أي : هذا من رحمة الله بيوسف التي أصابه بها وقدرها له ، وليست مقصورة على نعمة الدنيا .

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ويوسف عليه السلام من سادات المحسنين ، فله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، ولهذا قال : ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ من أجر الدنيا ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ أي : لمن جمع بين التقوى والإيمان ، فبالتقوى تترك الأمور المُحرَّمة من كبائر الذنوب وصغائرها ، وبالإيمان التام يحصل تصديق القلب ، بما أمر الله بالتصديق به ، وتتبعه أعمال القلوب وأعمال الجوارح ، من الواجبات والمُستحبَّات .

[ ١٢ : ٥٨ - ٦٨ ] : ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٦٢ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٦٣ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٦٤ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ۝٦٥ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ۝٦٦ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝٦٧ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا

عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

أي : لما تولى يوسف عليه السلام خزائن الأرض ، دبَّرها أحسن تدبير ، فزرع في أرض مصر جميعها في السنين الخصبة ، زروعا هائلة ، واتَّخذ لها المحلات الكبار ، وجَبَا من الأطعمة شيئا كثيرا وحفظه ، وضبطه ضبطا تاما ، فلما دخلت السُّنون المُجْدِبة ، وسرى الجدب ، حتى وصل إلى فلسطين ، التي يقيم فيها يعقوب وبنوه ، فأرسل يعقوب بنيه لأجل المِيْرَة إلى مصر .

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي : لم يعرفوه .

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي : كال لهم كما كان يكيل لغيرهم ، وكان من تدبيره الحسن أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حمل بعير ، وكان قد سألهم عن حالهم ، فأخبروه أن لهم أخا عند أبيه ، وهو بنيامين .

فـ ﴿قَالَ﴾ لهم : ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ ثم رغَّبهم في الإتيان به فقال : ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ في الضيافة والإكرام .

ثم رهَّبهم بعدم الإتيان به ، فقال : ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ وذلك لعلمه باضطرارهم إلى الإتيان إليه ، وأن ذلك يحملهم على الإتيان به .

فـ ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ دل هذا على أن يعقوب عليه السلام كان مُولعا به لا يصبر عنه ، وكان يتسلى به بعد يوسف ، فلذلك احتاج إلى مراودة في بعثه معهم ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ لما أمرتنا به .

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾ الذين في خدمته : ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ أي : الثمن الذي اشتروا به من المِيْرَة . ﴿فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ أي : بضاعتهم إذا رأوها بعد ذلك في رحالهم ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لأجل التحرُّج من أخذها على ما قيل ، والظاهر أنه أراد أن يُرغِّبهم في إحسانه إليهم بالكيل لهم كيلا وافيا ، ثم إعادة بضاعتهم إليهم على وجه لا يُحسُّون بها ، ولا يشعرون لما يأتي ، فإن الإحسان يوجب للإنسان تمام الوفاء للمحسن .

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ أي : إن لم ترسل معنا أخانا ، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ أي : ليكون ذلك سببا لكيلنا ، ثم التزموا له بحفظه ، فقالوا : ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يعرض له ما يكره .

﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب عليه السلام : ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ أي : تقدَّم منكم التزام ، أكثر من هذا في حفظ يوسف ، ومع هذا لم تفوا بما عقدتم من التأكيد ، فلا أثق بالتزامكم وحفظكم ، وإنما أثق بالله تعالى .

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي : يعلم حالي ، وأرجو أن يرحمني ، فيحفظه ويرده علي ، وكأنه في هذا الكلام قد لان لإرساله معهم .

ثم إنهم ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ هذا دليل على أنه قد كان معلوما عندهم أن يوسف قد ردَّها عليهم بالقصد ، وأنه أراد أن يُملِّكهم إيَّاها . فـ ﴿قَالُوا۟﴾ لأبيهم – ترغيبا في إرسال أخيهم معهم – : ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾ أي : أي شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل ، حيث وفَّى لنا الكيل ،

ورد علينا بضاعتنا على الوجه الحسن، المتضمن للإخلاص ومكارم الأخلاق؟.

﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: إذا ذهبنا بأخينا صار سببا لكيله لنا، فمرنا أهلنا، وأتينا لهم، بما هم مضطرون إليه من القوت، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ﴾ بإرساله معنا، فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير، ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي: سهل لا ينالك ضرر، لأن المُدَّة لا تطول، والمصلحة قد تبيَّنت.

فـ ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: عهدا ثقيلا، وتحلفون بالله ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ﴾ أي: إلا أن يأتيكم أمر لا قِبَل لكم به، ولا تقدرون دفعه، ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ على ما قال وأراد ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: تكفينا شهادته علينا وحفظه وكفالته.

ثم لما أرسله معهم وصَّاهم، إذا هم قدموا مصر، أن ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ﴾ وذلك أنه خاف عليهم العين، لكثرتهم وبهاء منظرهم، لكونهم أبناء رجل واحد، وهذا سبب.

﴿وَ﴾ إلا فـ ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ﴾ فالمُقدَّر لا بد أن يكون، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ﴾ أي: القضاء قضاؤه، والأمر أمره، فما قضاه وحكم به لا بد أن يقع، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ﴾ أي: اعتمدت على الله، لا على ما وصيتكم به من السبب، ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فإن بالتوكُّل يحصل كل مطلوب، ويندفع كل مرهوب.

﴿وَلَمَّا﴾ ذهبوا و﴿دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ﴾ ذلك الفعل ﴿يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ﴾ وهو موجب الشفقة والمحبّة للأولاد، فحصل له في ذلك نوع طمأنينة، وقضاء لما في خاطره.

وليس هذا قصورا في علمه، فإنه من الرسل الكرام والعلماء الربّانيين، ولهذا قال عنه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ﴾ أي: لصاحب علم عظيم ﴿لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي: لتعليمنا إيّاه، لا بحوله وقوته أدركه، بل بفضل الله وتعليمه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عواقب الأمور ودقائق الأشياء وكذلك أهل العلم منهم، يخفى عليهم من العلم وأحكامه ولوازمه شيء كثير.

[ ٦٩: ٧٩ - ١٢ ]: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ

بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ .

أي : لما دخل إخوة يوسف على يوسف ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ﴾ أي : شقيقه وهو « بنيامين » الذي أمرهم بالإتيان به ، وضمه إليه ، واختصَّه من بين إخوته ، وأخبره بحقيقة الحال ، و ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي : لا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فإن العاقبة خير لنا ، ثم خبره بما يريد أن يصنع ويتحيَّل لبقائه عنده إلى أن ينتهي الأمر .

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي : كال لكل واحد من إخوته ، ومن جملتهم أخوه هذا . ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ وهو : الإناء الذي يشرب به ، ويكال فيه ﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ﴾ أوعوا متاعهم ، فلما انطلقوا ذاهبين ، ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ ولعل هذا المؤذِّن ، لم يعلم بحقيقة الحال .

﴿قَالُوا۟﴾ أي : إخوة يوسف ﴿وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم﴾ لإبعاد التُّهمة ، فإن السارق ليس له همٌّ إلا البعد والانطلاق عمن سرق منه ، لتسلم له سرقته ، وهؤلاء جاءوا مُقبلين إليهم ، ليس لهم همٌّ إلا إزالة التُّهمة التي رُموا بها عنهم ، فقالوا في هذه الحال : ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ ولم يقولوا : « ما الذي سرقنا » لجزمهم بأنهم براء من السرقة .

﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أي : أجرة له على وجدانه ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ أي : كفيل ، وهذا يقوله المؤذِّن المُتفقِّد .

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بجميع أنواع المعاصي ، ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض ، وإنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين ، لأنهم عرفوا أنهم سَبَروا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم وورعهم ، وأن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهموهم ، وهذا أبلغ في نفي التُّهمة ، من أن لو قالوا : « تالله لم نُفسد في الأرض ولم نسرق » .

﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ أي : جزاء هذا الفعل ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ بأن كان معكم ؟ .

﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ﴾ أي : الموجود في رَحْله ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ بأن يتملَّكه صاحب السرقة ، وكان هذا في دينهم أن السارق إذا ثبتت عليه السرقة كان مِلْكا لصاحب المال المسروق ، ولهذا قالوا : ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

﴿فَبَدَأَ﴾ المُفَتِّش ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ وذلك لتزول الريبة التي يُظَن أنها فُعِلَت بالقصد ، فلما لم يجد في أوعيتهم شيئا ﴿ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ ولم يقل « وجدها ، أو سرقها أخوه » مُراعاة للحقيقة الواقعة .

فحينئذ تم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده ، على وجه لا يشعر به إخوته ، قال تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ﴾ أي : يسَّرنا له هذا الكيد ، الذي توصَّل به إلى أمر غير مذموم ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ لأنه ليس من دينه أن يتملَّك السارق ، وإنما له عندهم ، جزاء آخر ، فلو رُدَّت الحُكُومة إلى دين المَلِك ، لم يتمكَّن يوسف من إبقاء أخيه عنده ، ولكنه جعل الحكم منهم ، ليتم له ما أراد .

قال تعالى : ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ بالعلم النافع ، ومعرفة الطرق الموصِّلة إلى مقصدها ، كما رفعنا درجات يوسف ، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فكل عالم ، فوقه من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة .

فلما رأى إخوة يوسف ما رأوا ﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ﴾ هذا الأخ ، فليس هذا غريبا منه . ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ يعنون : يوسف عليه السلام ، ومقصودهم تبرئة أنفسهم وأن هذا وأخاه قد يصدر منهما ما يصدر من السرقة ، وهما ليسا شقيقين لنا .

وفي هذا من الغض عليهما ما فيه ، ولهذا : أسرها يوسف في نفسه ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أي : لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون ، بل كظم الغيظ ، وأسرَّ الأمر في نفسه . و ﴿قَالَ﴾ في نفسه ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ حيث ذممتمونا بما أنتم على أشر منه ، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ منا ، من وصفنا بالسرقة ، يعلم الله أنا براء منها ، ثم سَلَكوا معه مسلك التَّمَلُّق ، لعله يسمح لهم بأخيهم .

فـ ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ أي : وإنه لا يصبر عنه ، وسيشق عليه فراقه ، ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فأحسن إلينا وإلى أبينا بذلك .

فـ ﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ أي : هذا ظُلمٌ منَّا ، لو أخذنا البريء بذنب من وجدنا متاعنا عنده ، ولم يقل « من سرق » كل هذا تحرُّز من الكذب ، ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ أي : إن أخذنا غير من وجدَ في رَحْلِه ﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾ حيث وضعنا العقوبة في غير موضعها .

[ ١٢ - ٨٣: ٨٠ ] : ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ .

أي : فلما استيأس إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ أي : اجتمعوا وحدهم ، ليس معهم غيرهم ، وجعلوا يتناجون فيما بينهم ، فـ ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في حفظه ، وأنكم تأتون به إلا أن يحاط بكم ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ ، فاجتمع عليكم الأمران ، تفريطكم في يوسف السابق ، وعدم إتيانكم بأخيه باللاحق ، فليس لي وجه أواجه به أبي ، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي : سأقيم في هذه الأرض ولا أزال بها ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ أي : يقدر لي المجيء وحدي ، أو مع أخي ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ .

ثم وصَّاهم بما يقولون لأبيهم ، فقال : ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ أي : وأخذ بسرقته ، ولم يحصل لنا أن نأتيك به ، مع ما بذلنا من الجهد في ذلك . والحال أنا ما شهدنا بشيء لم نعلمه ، وإنما شهدنا بما علمنا ، لأننا رأينا الصُّوَاع استخرج من رحله ، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ أي : لو كنا نعلم الغيب لما حرصنا وبذلنا المجهود في ذهابه معنا ، ولما أعطيناك عهودنا ومواثيقنا ، فلم نظن أن

الأمر سيبلغ ما بلغ .

﴿وَسْئَلِ﴾ إن شككت في قولنا ﴿الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ فقد اطلعوا على ما أخبرناك به ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ لم نكذب ولم نُغيّر ولم نُبدِّل ، بل هذا الواقع .

فلما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بهذا الخبر ، اشتد حزنه وتضاعف كَمَده ، واتَّهمهم أيضا في هذه القضية ، كما اتَّهمهم في الأولى ، و ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي : ألجأ في ذلك إلى الصبر الجميل ، الذي لا يصحبه تسخُّط ولا جزع ، ولا شكوى للخلق ، ثم لجأ إلى حصول الفرج لما رأى أن الأمر اشتد ، والكربة انتهت فقال : ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أي : يوسف و « بنيامين » وأخوهم الكبير الذي أقام في مصر .

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ الذي يعلم حالي ، واحتياجي إلى تفريجه ومنّته ، واضطراري إلى إحسانه ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي جعل لكل شيء قدرا ، ولكل أمر منتهى ، بحسب ما اقتضته حكمته الربَّانيَّة .

[ ٨٤: ٨٦ - ١٢ ] : ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

أي : وتولى يعقوب عليه الصلاة والسلام عن أولاده بعد ما أخبروه هذا الخبر ، واشتد به الأسف والأسى ، وابيضَّت عيناه من الحزن الذي في قلبه ، والكَمَد الذي أوجب له كثرة البكاء ، حيث ابيضَّت عيناه من ذلك .

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي : مُمتلئ القلب من الحزن الشديد ، ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ أي : ظهر منه ما كَمُنَ من الهم القديم والشوق المُقيم ، وذكَّرته هذه المُصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى ، المُصيبة الأولى .

فقال له أولاده مُتعجِّبين من حاله : ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي : لا تزال تذكر يوسف في جميع أحوالك . ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي : فانيا لا حَرَاك فيك ولا قُدرة على الكلام ، ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أي : لا تترك ذكره مع قُدرتك على ذكره أبدا .

﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي﴾ أي : ما أبث من الكلام ﴿وَحُزْنِي﴾ الذي في قلبي ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وحده ، لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق ، فقولوا ما شئتم ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنه سيردهم علي ويقر عيني بالاجتماع بهم .

[ ٨٧: ٨٨ - ١٢ ] : ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ .

أي : قال يعقوب عليه السلام لبنيه : ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي : احرصوا واجتهدوا على التفتيش عنهما ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ فإن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه ، والإياس : يوجب له التثاقُل والتباطؤ ، وأولى ما رجا العباد ، فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه ، ﴿إِنَّهُ لَا

يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ فإنهم لكفرهم يستبعدون رحمته ، ورحمته بعيدة منهم ، فلا تتشبّهوا بالكافرين .

ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله وروحه ، فذهبوا ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ أي : على يوسف ﴿قَالُوا۟﴾ متضرعين إليه : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ أي : قد اضطررنا نحن وأهلنا ﴿وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ أي : مدفوعة مرغوب عنها لقلّتها ، وعدم وقوعها الموقع ، ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ أي : مع عدم وفاء العرض ، وتصدّق علينا بالزيادة عن الواجب . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ بثواب الدنيا والآخرة .

فلما انتهى الأمر ، وبلغ أشده ، رقّ لهم يوسف رقّة شديدة ، وعرّفهم بنفسه ، وعاتبهم .

[ ٨٩: ٩٢ – ١٢] : ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ .

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أما يوسف فظاهر فعلهم فيه ، وأما أخوه ، فلعله والله أعلم قولهم : ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أو أن الحادث الذي فرّق بينه وبين أبيه ، هم السبب فيه ، والأصل الموجب له . ﴿إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ﴾ وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم ، أو توبيخ لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين ، مع أنه لا ينبغي ولا يليق منهم .

فعرفوا أن الذي خاطبهم هو يوسف ، فقالوا : ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ بالإيمان والتقوى والتمكين في الدنيا ، وذلك بسبب الصبر والتقوى ، ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أي : يتّقي فعل ما حرم الله ، ويصبر على الآلام والمصائب ، وعلى الأوامر بامتثالها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فإن هذا من الإحسان ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي : فضلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، وأسأنا إليك غاية الإساءة ، وحرصنا على إيصال الأذى إليك ، والتبعيد لك عن أبيك ، فآثرك الله تعالى ومكّنك مما تريد ﴿وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ﴾ وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف .

فـ ﴿قَالَ﴾ لهم يوسف عليه السلام ، كرما وجودا : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي : لا أثرّب عليكم ولا ألومكم ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فسمح لهم سماحا تاما ، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق ، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة ، وهذا نهاية الإحسان ، الذي لا يتأتّى إلا من خواص الخلق وخيار المُصطفين .

[ ٩٣: ٩٨ – ١٢] : ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ

أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي : قال يوسف عليه السلام لإخوته : ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ لأن كل داء يداوى بضده ، فهذا القميص - لما كان فيه أثر ريح يوسف ، الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم - أراد أن يشمه ، فترجع إليه روحه ، وتتراجع إليه نفسه ، ويرجع إليه بصره ، ولله في ذلك حِكَمٌ وأسرار ، لا يطَّلع عليها العِباد ، وقد اطَّلع يوسف من ذلك على هذا الأمر .

﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي : أولادكم وعشيرتكم وتوابعكم كلهم ، ليحصل تمام اللقاء ، ويزول عنكم نكد المعيشة ، وضنك الرزق .

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ عن أرض مصر مقبلة إلى أرض فلسطين ، شمَّ يعقوب ريح القميص ، فقال : ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي : تسخرون مني ، وتزعمون أن هذا الكلام ، صدر مني من غير شعور ، لأنه رأى منهم من التعجب من حاله ما أوجب له هذا القول .

فوقع ما ظنه بهم فقالوا : ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ أي : لا تزال تائها في بحر الحبّ لا تدري ما تقول .

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ بقُرب الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيهم ، ﴿أَلْقَىٰهُ﴾ أي : القميص ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ﴾ أي : رجع على حاله الأولى بصيرا ، بعد أن ابيضَّت عيناه من الحزن ، فقال لمن حضره من أولاده وأهله الذين كانوا يُفنِّدون رأيه ، ويتعجَّبون منه منتصرا عليهم ، مُتبجِّحا بنعمة الله عليه : ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ حيث كنت مُترجِّيا للقاء يوسف ، مُترقِّبا لزوال الهم والغم والحزن .

فأقرُّوا بذنبهم ونَجَعوا بذلك و ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ حيث فعلنا معك ما فعلنا .

ف ﴿قَالَ﴾ مُجيبا لطلبتهم ، ومُسرعا لإجابتهم : ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي : ورجائي به أن يغفر لكم ويرحمكم ، ويتغمَّدكم برحمته ، وقد قيل : إنه أخر الاستغفار لهم إلى وقت السَّحَر الفاضل ، ليكون أتمّ للاستغفار ، وأقرب للإجابة .

[ ٩٩: ١٠٠ - ١٢ ] : ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي : ﴿فَلَمَّا﴾ تجهز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون ، وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسُكْناها ، فلما وصلوا إليه ، و ﴿دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أي : ضمهما إليه ، واختصَّهما بقُربه ، وأبدى لهما من البر والإكرام والتبجيل والإعظام شيئا عظيما ، ﴿وَقَالَ﴾ لجميع أهله :

﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ من جميع المكاره والمخاوف ، فدخلوا في هذه الحال السارة ، وزال عنهم النَّصب ونكد المعيشة ، وحصل السرور والبهجة .

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي : على سرير المُلك ، ومجلس العزيز ، ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ أي : أبوه ، وأمه وإخوته ، سُجُودا على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام ، ﴿وَقَالَ﴾ لما رأى هذه الحال ، ورأى سجودهم له : ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ حين رأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين ، فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ فلم يجعلها أضغاث أحلام .

﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ إحسانا جسيما ﴿إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ وهذا من لُطفه وحُسن خطابه عليه السلام ، حيث ذكر حاله في السجن ، ولم يذكر حاله في الجب ، لتمام عفوه عن إخوته ، وأنه لا يذكر ذلك الذنب ، وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله إلي .

فلم يقل : جاء بكم من الجوع والنصب ، ولا قال : « أحسن بكم » بل قال ﴿أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ جعل الإحسان عائدا إليه ، فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده ، ويهب لهم من لدنه رحمة إنه هو الوهاب . ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ فلم يقل : « نزغ الشيطان إخوتي » بل كأن الذنب والجهل ، صدر من الطرفين ، فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره ، وجمعنا بعد تلك الفُرقة الشاقة .

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ يُوصِل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر ، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها ، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها ، وسرائر العباد وضمائرهم ، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في وضعه الأشياء مواضعها ، وسوقه الأمور إلى أوقاتها المُقدَّرة لها .

[١٠١ – ١٢] : ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ .

لما أتم الله ليوسف ما أتم من التمكين في الأرض والمُلك ، وأقرَّ عينه بأبويه وإخوته ، وبعد العلم العظيم الذي أعطاه الله إيَّاه ، قال مُقرًّا بنعمة الله شاكرا لها داعيا بالثبات على الإسلام : ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ وذلك أنه كان على خزائن الأرض وتدبيرها ووزيرا كبيرا للمَلِك ﴿وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ أي : من تأويل أحاديث الكُتُب المُنزَّلة وتأويل الرؤيا وغير ذلك من العلم ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾ ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ أي : أدم عليَّ الإسلام وثبتني عليه حتى توفاني عليه ، ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت ، ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار .

[١٠٢ – ١٢] : ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾

لما قصَّ الله هذه القصة على محمد ﷺ قال الله له : ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإنباء الذي أخبرناك به ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ الذي لولا إيحاؤنا إليك لما وصل إليك هذا الخبر الجليل ، فإنك لم تكن حاضرا لديهم ﴿إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ﴾ أي : إخوة يوسف ﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ به حين تعاقدوا على التفريق بينه وبين أبيه ، في حالة لا يطَّلِع عليها إلا الله تعالى ، ولا يُمكِن أحدا أن يصل إلى علمها ، إلا بتعليم الله له إيَّاها .

كما قال تعالى لما قصَّ قصة موسى وما جرى له ، ذكر الحال التي لا سبيل للخلق إلى علمها إلا بوحيه ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [ سورة القصص ٤٤ ] الآيات ، فهذا أدل دليل على أن ما جاء به رسول الله حقًّا .

[ ١٠٣ : ١٠٧ – ١٢ ] : ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

يقول تعالى لنبيِّه محمد ﷺ : ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ على إيمانهم ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ فإن مداركهم ومقاصدهم قد أصبحت فاسدة ، فلا ينفعهم حرص الناصحين عليهم ولو عدمت الموانع ، بأن كانوا يعلمونهم ويدعونهم إلى ما فيه الخير لهم ، ودفع الشر عنهم ، من غير أجر ولا عوض ، ولو أقاموا لهم من الشواهد والآيات الدالات على صدقهم ما أقاموا . ولهذا قال : ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يتذكَّرون به ما ينفعهم ليفعلوه ، وما يضرهم ليتركوه .

﴿وَكَأَيِّن﴾ أي : وكم ﴿مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ دالَّة لهم على توحيد الله ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ .

ومع هذا إن وجد منهم بعض الإيمان فلا ﴿يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ فهم وإن أقروا برُبوبيَّة الله تعالى ، وأنه الخالق الرازق المُدبِّر لجميع الأمور ، فإنهم يشركون في ألوهية الله وتوحيده ، فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الحال لم يبق عليهم إلا أن يحل بهم العذاب ، ويُفجأهم العقاب وهم آمنون ، ولهذا قال : ﴿أَفَأَمِنُوٓا۟﴾ أي : الفاعلون لتلك الأفعال ، المُعرِضون عن آيات الله ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي : عذاب يغشاهم ويعمهم ويستأصلهم ، ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي : فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي : فإنهم قد استوجبوا لذلك ، فليتوبوا إلى الله ، ويتركوا ما يكون سببا في عقابهم .

[ ١٠٨ : ١٠٩ – ١٢ ] : ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ .

يقول تعالى لنبيِّه محمد ﷺ : ﴿قُلْ﴾ للناس ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ أي : طريقي التي أدعو إليها ، وهي السبيل الموصِّلة إلى الله وإلى دار كرامته ، المُتضمِّنة للعلم بالحق والعمل به وإيثاره ، وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له ، ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ أي : أحثُّ الخلق والعباد إلى الوصول إلى ربهم ، وأرغِّبهم في ذلك وأرهِّبهم مما يبعدهم عنه .

ومع هذا فأنا ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ من ديني ، أي : على علم ويقين من غير شك ولا امْتِراء ولا مِرْيَة . ﴿وَ﴾ كذلك ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ يدعو إلى الله كما أدعو على بصيرة من أمره . ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ عما نسب إليه مما لا يليق بجلاله ، أو ينافي كماله .

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ في جميع أموري، بل أعبد الله مخلصا له الدين.

ثم قال تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ أي: لم نرسل ملائكة ولا غيرهم من أصناف الخلق، فلأي شيء يستغرب قومك رسالتك، ويزعمون أنه ليس لك عليهم فضل، فلك فيمن قبلك من المرسلين أسوة حسنة ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ أي: لا من البادية، بل من أهل القرى الذين هم أكمل عقولا، وأصح آراء، وليتبيَّن أمرهم ويتضَّح شأنهم.

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إذا لم يُصدِّقوا لقولك، ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ كيف أهلكهم الله بتكذيبهم، فاحذروا أن تقيموا على ما أقاموا عليه، فيصيبكم ما أصابهم، ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: الجنة وما فيها من النعيم المُقيم، ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ﴾ الله في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن نعيم الدنيا منغص منكد، منقطع، ونعيم الآخرة تام كامل، لا يفنى أبدا، بل هو على الدوام في تزايد وتواصل، ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ [سورة هود ١٠٨]، ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي: أفلا تكون لكم عقول تؤثِر الذي هو خير على الأدنى.

[١١٠: ١١١ - ١٢]: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

يخبر تعالى: أنه يرسل الرسل الكرام، فيكذبهم القوم المجرمون اللئام، وأن الله تعالى يمهلهم ليرجعوا إلى الحق، ولا يزال الله يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل.

حتى إن الرسل - على كمال يقينهم، وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده - ربما أنه يخطر بقلوبهم نوع من الإياس، ونوع من ضعف العلم والتصديق، فإذا بلغ الأمر هذه الحال ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ﴾ وهم الرسل وأتباعهم، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: ولا يرد عذابنا، عمن اجترم، وتجرأ على الله ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾.

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ﴾ أي: قصص الأنبياء والرسل مع قومهم، ﴿عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ أي: يعتبرون بها، أهل الخير وأهل الشر، وأن من فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة، ويعتبرون بها أيضا، ما لله من صفات الكمال والحكمة العظيمة، وأنه الله الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ﴾ أي: ما كان هذا القرآن الذي قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص من الأحاديث المفتراة المختلقة، ﴿وَلَٰكِن﴾ كان ﴿تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ من الكتب السابقة، يوافقها ويشهد لها بالصحة، ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، ومن الأدلة والبراهين.

﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ فإنهم - بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإيثاره - يحصل لهم الهدى، وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والآجل تحصل لهم الرحمة.

**« فصل »**

في ذكر شيء من العبر والفوائد التي اشتملت عليها هذه القصة العظيمة التي قال الله في أولها ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾، وقال : ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ وقال في آخرها : ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ غير ما تقدَّم في مطاويها من الفوائد .

**فمن ذلك** ، أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأبينها ، لما فيها من أنواع التنقلات ، من حال إلى حال ، ومن محنة إلى محنة ، ومن محنة إلى منحة ومِنَّة ، ومن ذل إلى عز ، ومن رقٍّ إلى مُلْك ، ومن فُرقة وشَتات إلى اجتماع وائتلاف ، ومن حزن إلى سرور ، ومن رخاء إلى جدب ، ومن جدب إلى رخاء ، ومن ضيق إلى سعة ، ومن إنكار إلى إقرار ، فتبارك من قصَّها فأحسنها ، ووضحها وبيَّنها .

**ومنها** : أن فيها أصلا لتعبير الرؤيا ، وأن علم التعبير من العلوم المُهمَّة التي يعطيها الله من يشاء من عباده ، وإن أغلب ما تُبْنى عليه المُناسبة والمُشابهة في الاسم والصفة ، فإن رؤيا يوسف التي رأى أن الشمس والقمر ، وأحد عشر كوكبا له ساجدين ، وجه المناسبة فيها : أن هذه الأنوار هي زينة السماء وجمالها ، وبها منافعها ، فكذلك الأنبياء والعلماء ، زينة للأرض وجمال ، وبهم يُهْتَدى في الظلمات كما يُهْتَدى بهذه الأنوار ، ولأن الأصل أبوه وأمه ، وإخوته هم الفرع ، فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نورا وجرما ، لما هو فرع عنه . فلذلك كانت الشمس أمه ، والقمر أباه ، والكواكب إخوته .

ومن المُناسبة أن الشمس لفظ مؤنث ، فلذلك كانت أمه ، والقمر والكوا كب مُذكَّرات ، فكانت لأبيه وإخوته ، ومن المناسبة أن الساجد مُعظِّم مُحْتَرِم للمسجود له ، والمسجود له مُعظَّم مُحْتَرَم ، فلذلك دل ذلك على أن يوسف يكون مُعظَّما مُحْتَرَمًا عند أبويه وإخوته .

ومن لازم ذلك أن يكون مُجتبى مُفضَّلا في العِلم والفضائل الموجبة لذلك ، ولذلك قال له أبوه : ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ ومن المناسبة في رؤيا الفتيين ، أنه أوَّل رؤيا ، الذي رأى أنه يعصر خمرا ، أن الذي يعصر في العادة ، يكون خادما لغيره ، والعصر يقصد لغيره ، فلذلك أوَّله بما يؤول إليه ، أنه يسقي ربه ، وذلك مُتضمِّن لخروجه من السجن .

وأوَّل الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خُبْزا تأكل الطير منه ، بأن جلدة رأسه ولحمه ، وما في ذلك من المخ ، أنه هو الذي يحمله ، وأنه سيبرز للطيور ، بمحل تتمكَّن من الأكل من رأسه ، فرأى من حاله أنه سيُقتل ويُصلَب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه ، وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل .

وأوَّل رؤيا المَلِك للبقرات والسُّنْبُلات ، بالسنين المخصبة ، والسنين المجدبة ، ووجه المناسبة أن المَلِك به ترتبط أحوال الرعيَّة ومصالحها ، وبصلاحه تصلح ، وبفساده تفسد ، وكذلك السُّنون بها صلاح أحوال الرعيَّة ، واستقامة أمر المعاش أو عدمه .

وأما البقر فإنها تحرث الأرض عليها ، ويستقى عليها الماء ، وإذا أخصبت السَّنَة سَمُنَت ، وإذا أجدبت صارت عِجافا ، وكذلك السنابل في الخصب ، تكثر وتخضر ، وفي الجدب تقل وتيبس وهي أفضل غلال الأرض .

**ومنها** : ما فيها من الأدلَّة على صحَّة نُبوَّة محمد ﷺ حيث قصَّ على قومه هذه القصَّة الطويلة ، وهو لم يقرأ كتب الأوَّلين ولا دارس أحدا ، يراه قومه بين أظهرهم صباحا ومساء ، وهو أمِّيٌّ لا يَخُط ولا يقرأ ، وهي موافقة لما في الكُتُب السابقة ، وما كان لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون .

**ومنها** : أنه ينبغي البعد عن أسباب الشر ، وكتمان ما تخشى مضرَّته ، لقول يعقوب ليوسف ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾.

**ومنها** : أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره لقوله : ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾.

**ومنها** : أن نعمة الله على العبد ، نعمة على من يتعلَّق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه ، وأنه رُبَّما شملتهم ، وحصل لهم ما حصل له بسببه ، كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ولما تمت النعمة على يوسف ، حصل لآل يعقوب من العز والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف .

**ومنها** : أن العدل مطلوب في كل الأمور ، لا في مُعاملة السلطان رعيته ولا فيما دونه ، حتى في مُعاملة الوالد لأولاده ، في المحبَّة والإيثار وغيره ، وأن في الإخلال بذلك يختل عليه الأمر ، وتفسد الأحوال ، ولهذا ، لما قدم يعقوب يوسف في المحبة وآثره على إخوته ، جرى منهم ما جرى على أنفسهم ، وعلى أبيهم وأخيهم .

**ومنها** : الحذر من شؤم الذنوب ، وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوبا مُتعدِّدة ، ولا يتم لفاعله إلا بعِدَّة جرائم ، فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه ، احتالوا لذلك بأنواع من الحيل ، وكَذَبوا عِدَّة مرَّات ، وزوَّروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه ، وفي إتيانهم عشاء يبكون ، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها في تلك المُدَّة ، بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف ، وكلما صار البحث ، حصل من الإخبار بالكذب ، والافتراء ، ما حصل ، وهذا شؤم الذنب ، وآثاره التابعة والسابقة واللاحقة .

**ومنها** : أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية ، لا بنقص البداية ، فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أوَّل الأمر ، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم ، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النَّصوح ، والسماح التام من يوسف ومن أبيهم ، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة ، وإذا سمح العبد عن حقه ، فالله خير الراحمين .

ولهذا – في أصح الأقوال – أنهم كانوا أنبياء لقوله تعالى : ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وذُرِّيَّتهم ، ومما يدل على ذلك أن في رؤيا يوسف ، أنه رآهم كواكب نيِّرة ، والكواكب فيها النور والهداية الذي من صفات الأنبياء ، فإن لم يكونوا أنبياء فإنهم عُلماء هُداة .

**ومنها** : ما منَّ الله به على يوسف عليه الصلاة والسلام من العلم والحلم ، ومكارم الأخلاق ، والدعوة إلى الله وإلى دينه ، وعفوه عن إخوته الخاطئين عفوا بادرهم به ، وتمم ذلك بأن لا يُثرِّب عليهم ولا يُعيِّرهم به ، ثم برُّه العظيم بأبويه ، وإحسانه لإخوته ، بل لعموم الخلق .

**ومنها** : أن بعض الشر أهون من بعض ، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما ، فإن إخوة يوسف ، لما اتَّفقوا على قتل يوسف أو إلقائه أرضا ، وقال قائل منهم : ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي

﴿غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ كان قوله أحسن منهم وأخف ، وبسببه خفَّ عن إخوته الإثم الكبير .

**ومنها** : أن الشيء إذا تداولته الأيدي وصار من جملة الأموال ، ولم يعلم أنه كان على غير وجه الشرع ، أنه لا إثم على من باشره ببيع أو شراء ، أو خدمة أو انتفاع ، أو استعمال ، فإن يوسف عليه السلام باعه إخوته بيعا حراما لا يجوز ، ثم ذهبت به السيَّارة إلى مصر فباعوه بها ، وبقي عند سيده غلاما رقيقا ، وسمَّاه الله شراء ، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المُكرَّم .

**ومنها** : الحذر من الخلوة بالنساء التي يُخشى منهن الفتنة ، والحذر أيضا من المحبَّة التي يخشى ضررها ، فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى ، بسبب توحدها بيوسف ، وحبها الشديد له ، الذي ما تركها حتى راودته تلك المُراودة ، ثم كذبت عليه ، فسُجِنَ بسببها مُدَّة طويلة .

**ومنها** : أن الهمَّ الذي همَّ به يوسف بالمرأة ثم تركه لله ، مما يُقرِّبه إلى الله زُلفى ، لأن الهمّ داع من دواعي النفس الأمَّارة بالسوء ، وهو طبيعة لأغلب الخلق ، فلما قابل بينه وبين محبَّة الله وخشيته ، غلبت محبَّة الله وخشيته داعي النفس والهوى ، فكان ممن ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [ سُورة النَّازِعات ٤٠ ] ، ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، أحدهم : « رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إني أخاف الله »[١٢٥] ، وإنما الهم الذي يُلام عليه العبد ، الهم الذي يُساكنه ، ويصير عزما ، ربما اقترن به الفعل .

**ومنها** : أن من دخل الإيمان قلبه ، وكان مُخْلِصا لله في جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه ، وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه لقوله . ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ على قراءة من قرأها بكسر اللام ، ومن قرأها بالفتح ، فإنه من إخلاص الله إيَّاه ، وهو مُتضمِّن لإخلاصه هو بنفسه ، فلما أخلص عمله لله أخلصه الله ، وخلَّصه من السوء والفحشاء .

**ومنها** : أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلا فيه فتنة وأسباب معصية ، أن يفر منه ويهرب غاية ما يُمكنه ، ليتمكَّن من التخلص من المعصية ، لأن يوسف عليه السلام -لما راودته التي هو في بيتها- فرَّ هاربا ، يطلب الباب ليتخلَّص من شرّها .

**ومنها** : أن القرائن يُعمل بها عند الاشتباه ، فلو تخاصم رجل وامرأته في شيء من أواني الدار ، فما

---

(١٢٥) * هذا جزء من حديث مُتَّفق عليه ، أخرجاه من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ : إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ ذَاتُ حَسَبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ .

أخرجه البخاري في صحيحه ( كتاب الآذان / باب : من جلس في المسجد ينتظر الصَّلاة وفضل المساجد / ح ٦٦٠ ) ، ( كتاب الزَّكاة / باب : الصَّدقة باليمين / ح ١٤٢٣ ) ، ( كتاب الرِّقاق / باب : البُكاء من خشية الله / ح ٦٤٧٩ ) ، ( كتاب الحدود / باب : فضل من ترك الفواحش / ح ٦٨٠٦ ) . وأخرجه مُسلم في صحيحه ( كتاب الزكاة / باب : فضل إخفاء الصَّدقة / ح ٩١ ) .

يصلح للرجل فإنه للرجل ، وما يصلح للمرأة فهو لها ، إذا لم يكن بيّنة ، وكذا لو تنازع نجار وحداد في آلة حرفتهما من غير بيّنة ، والعمل بالقافة في الأشباه والأثر ، من هذا الباب ، فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة ، وحكم بها في قَدِّ القميص ، واستدل بقدِّه من دُبُره على صدق يوسف وكذبها .

ومما يدل على هذه القاعدة ، أنه استدل بوجود الصُّواع في رحل أخيه على الحُكم عليه بالسرقة ، من غير بيّنة شهادة ولا إقرار ، فعلى هذا إذا وجد المسروق في يد السارق ، خصوصا إذا كان معروفا بالسرقة ، فإنه يُحكم عليه بالسرقة ، وهذا أبلغ من الشهادة ، وكذلك وجود الرجل يتقيّأ الخمر ، أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيِّد حاملا فإنه يُقام بذلك الحد ، ما لم يقم مانع منه ، ولهذا سمَّى الله هذا الحاكم شاهدا فقال : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ .

**ومنها** : ما عليه يوسف من الجمال الظاهر والباطن ، فإن جماله الظاهر ، أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب ، وللنساء اللاتي جمعتهن حين لمنها على ذلك أن قطعن أيديهن وقلن ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ، وأما جماله الباطن ، فهو العِفَّة العظيمة عن المعصية ، مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها ، وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببراءته ، ولهذا قالت امرأة العزيز : ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ وقالت بعد ذلك : ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وقالت النِّسوة : ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾

**ومنها** : أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية ، فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتُلي بين أمرين – إما فعل معصية ، وإما عقوبة دنيوية – أن يختار العقوبة الدنيوية على مواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة ، ولهذا من علامات الإيمان : أن يكره العبد أن يعود في الكفر ، بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يلقى في النار .[١٢٦]

**ومنها** : أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله ، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية ، ويتبرَّأ من حوله وقوَّته ، لقول يوسف عليه السلام : ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ .

**ومنها** : أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير ، وينهيانه عن الشر ، وأن الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس ، وإن كان معصية ضارا لصاحبه .

**ومنها** : أنه كما على العبد عُبوديّة لله في الرخاء ، فعليه عُبوديّة له في الشدة ، فـ « يوسف » عليه السلام لم يزل يدعو إلى الله ، فلما دخل السجن ، استمر على ذلك ، ودعا الفتيين إلى التوحيد ، ونهاهما عن الشرك ، ومن فطنته عليه السلام أنه لما رأى فيهما قابليّة لدعوته ، حيث ظنَّا فيه الظن الحسن وقالا له : ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ، وأتياه لأن يعبر لهما رؤياهما ، فرآهما متشوفِّين لتعبيرها عنده – رأى ذلك فرصة فانتهزها ،

---

(١٢٦) ※هذا معنى حديث مُتّفقٌ عليه . من حديث أنس : أخرجه البُخاري في صحيحه : ( كتاب الإيمان / باب : حلاوة الإيمان / ح ١٦) . ( كتاب الإيمان / باب : من كره أن يعود في الكُفر كما يكره أن يُلقى في النَّار / ح ٢١) .( كتاب الأدب / باب : الحُب في الله / ح ٦٠٤١) . وفي : ( كتاب الإكراه / باب : من اختار الضرب والقتل والهوان على الكُفر / ح ٦٩٤١) . ومُسلم في صحيحه : ( كتاب الإيمان / باب : خصال من اتَّصف بهن وجد حلاوة الإيمان / ح ٦٧، ٦٨) .

فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يُعبِّر رؤياهما ليكون أنجح لمقصوده ، وأقرب لحصول مطلوبه ، وبيَّن لهما أوَّلا ، أن الذي أوصله إلى الحال التي رأياه فيها من الكمال والعلم ، إيمانه وتوحيده ، وتركه مِلَّة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، وهذا دعاء لهما بالحال ، ثم دعاهما بالمقال ، وبين فساد الشرك وبَرْهَنَ عليه ، وحقيقة التوحيد وبَرْهَنَ عليه .

**ومنها** : أنه يبدأ بالأهم فالأهم ، وأنه إذا سُئِلَ المُفتي ، وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله ، فإن هذا علامة على نُصح المُعلِّم وفطنته ، وحسن إرشاده وتعليمه ، فإن يوسف - لما سأله الفتيان عن الرؤيا - قدم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له .

**ومنها** : أن من وقع في مكروه وشدة ، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه ، أو الإخبار بحاله ، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق ، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض ، ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج من الفتيين : ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ .

**ومنها** : أنه ينبغي ويتأكَّد على المُعلِّم استعمال الإخلاص التام في تعليمه وأن لا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع ، وأن لا يمتنع من التعليم ، أو لا ينصح فيه ، إذا لم يفعل السائل ما كلَّفه به المُعلِّم ، فإن يوسف عليه السلام قد قال ، ووصى أحد الفتيين أن يذكره عند ربه ، فلم يذكره ونسي ، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى ، وجاءه سائلا مستفتيا عن تلك الرؤيا ، فلم يُعنِّفه يوسف ، ولا وبَّخه ، لتركه ذكره بل أجابه عن سؤاله جوابا تاما من كل وجه .

**ومنها** : أنه ينبغي للمسئول أن يدل السائل على أمر ينفعه مما يتعلَّق بسؤاله ، ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه ، فإن هذا من كمال نصحه وفطنته ، وحسن إرشاده ، فإن يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا المَلِك ، بل دلَّهم - مع ذلك - على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع ، وكثرة جبايته .

**ومنها** : أنه لا يُلام الإنسان على السعي في دفع التُّهمة عن نفسه ، وطلب البراءة لها ، بل يحمد على ذلك ، كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبيَّن لهم براءته بحال النِّسوة اللاتي قطَّعن أيديهن .

**ومنها** : فضيلة العلم ، علم الأحكام والشرع ، وعلم تعبير الرؤيا ، وعلم التدبير والتربية ؛ وأنه أفضل من الصورة الظاهرة ، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف ، فإن يوسف - بسبب جماله - حصلت له تلك المحنة والسجن ، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض ، فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته .

**ومنها** : أن علم التعبير من العلوم الشرعية ، وأنه يُثاب الإنسان على تعلُّمه وتعليمه ، وأن تعبير المَرَائي داخل في الفتوى ، لقوله للفتيين : ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ وقال المَلِك : ﴿أَفْتُونِي فِى رُءْيَىَ﴾ وقال الفتى ليوسف : ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ﴾ الآيات ، فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم .

**ومنها** : أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل ، إذا كان في ذلك مصلحة ، ولم يقصد به العبد الرياء ، وسَلِمَ من الكذب ، لقول يوسف : ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾

إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ وكذلك لا تذم الولاية ، إذا كان المُتولِّي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله وحقوق عباده ، وأنه لا بأس بطلبها ، إذا كان أعظم كفاءة من غيره ، وإنما الذي يذم ، إذا لم يكن فيه كفاية ، أو كان موجودا غيره مثله ، أو أعلى منه ، أو لم يرد بها إقامة أمر الله ، فبهذه الأمور ، ينهى عن طلبها ، والتعرض لها .

**ومنها** : أن الله واسع الجود والكرم ، يجود على عبده بخير الدنيا والآخرة ، وأن خير الآخرة له سببان : الإيمان والتقوى ، وأنه خير من ثواب الدنيا وملكها ، وأن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه ، ويشوقها لثواب الله ، ولا يدعها تحزن إذا رأت أهل الدنيا ولذّاتها ، وهي غير قادرة عليها ، بل يسليها بثواب الله الأخروي ، وفضله العظيم لقوله تعالى : ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ .

**ومنها** : أن جباية الأرزاق – إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم – لا بأس بها ، لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات ، للاستعداد للسنين المجدبة ، وأن هذا غير مناقض للتوكُّل على الله ، بل يتوكَّل العبد على الله ، ويعمل بالأسباب التي تنفعه في دينه ودنياه .

**ومنها** : حُسن تدبير يوسف لما تولّى خزائن الأرض ، حتى كَثُرت عندهم الغلّات جدا حتى صار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب المِيْرَة منها ، لعلمهم بوفورها فيها ، وحتى إنه كان لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل ، لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله .

**ومنها** : مشروعية الضيافة ، وأنها من سُنن المُرسلين ، وإكرام الضيف لقول يوسف لإخوته : ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ .

**ومنها** : أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالّة عليه غير ممنوع ولا مُحرَّم ، فإن يعقوب قال لأولاده بعد ما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشد المعالجة ، ثم قال لهم بعد ما أتوه ، وزعموا أن الذئب أكله : ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ وقال لهم في الأخ الآخر : ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ ؛ ثم لما احتبسه يوسف عنده وجاء إخوته لأبيهم قال لهم : ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ فهم في الأخيرة – وإن لم يكونوا مفرطين – فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال ، من غير إثم عليه ولا حرج .

**ومنها** : أن استعمال الأسباب الدافعة للعين أوغيرها من المكاره ، أو الرافعة لها بعد نزولها ، غير ممنوع ، بل جائز ، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر ، فإن الأسباب أيضا من القضاء والقدر ، لأمر يعقوب حيث قال لبنيه : ﴿يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ .

**ومنها** : جواز استعمال المكايد التي يُتوصَّل بها إلى الحقوق ، وأن العلم بالطرق الخفية المُوصِّلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد ، وإنما الممنوع ، التحيُّل على إسقاط واجب ، أو فعل مُحرَّم .

**ومنها** : أنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره ، بأمر لا يحب أن يطلع عليه ، أن يستعمل المعاريض القوليّة والفعليّة المانعة له من الكذب ، كما فعل يوسف حيث ألقى الصُّواع في رحل أخيه ، ثم استخرجها منه ، موهما أنه سارق ، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته ، وقال بعد ذلك : ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ ولم يقل : « من سرق متاعنا » ، وكذلك لم يقل : « إنا وجدنا متاعنا عنده » بل أتى بكلام عام يصلح له ولغيره ، وليس في ذلك محذور ، وإنما فيه إيهام أنه سارق ليحصل المقصود الحاضر ،

وأنه يبقى عند أخيه وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعد ما تبيَّنت الحال .

**ومنها** : أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه ، وتحقُّقه إما بمُشاهدة أو خبر من يثق به ، وتطمئن إليه النفس لقولهم : ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ .

**ومنها** : هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب عليه السلام ، حيث قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف ، الذي لا يَقْدِر على فراقه ساعة واحدة ، ويحزنه ذلك أشد الحزن ، فحصل التفريق بينه وبينه مُدَّة طويلة ، لا تقصر عن خمس عشرة سنة ، ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه في هذه المُدَّة ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ثم ازداد به الأمر شدة ، حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف ، هذا وهو صابر لأمر الله ، مُحتسِب الأجر من الله ، قد وعد من نفسه الصبر الجميل ، ولا شك أنه وفى بما وعد به ، ولا يُنافي ذلك ، قوله : ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فإن الشكوى إلى الله لا تُنافي الصبر ، وإنما الذي يُنافيه الشكوى إلى المخلوقين .

ومنها : أن الفرج مع الكرب ؛ وأن مع العسر يسرا ، فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتد به إلى أنهى ما يكون ، ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب ومسَّهم الضر ، أذن الله حينئذ بالفرج ، فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة واضطرارا ، فتم بذلك الأجر وحصل السرور ، وعلم من ذلك أن الله يبتلي أولياءه بالشدة والرخاء ، والعسر واليسر ليمتحن صبرهم وشكرهم ، ويزداد - بذلك - إيمانهم ويقينهم وعرفانهم .

**ومنها** : جواز إخبار الإنسان بما يجد ، وما هو فيه من مرض أو فقر ونحوهما ، على غير وجه التسخُّط ، لأن إخوة يوسف قالوا : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ ولم ينكر عليهم يوسف .

**ومنها** : فضيلة التقوى والصبر ، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر ، وأن عاقبة أهلهما ، أحسن العواقب ، لقوله : ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ .

**ومنها** : أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة وفقر وسوء حال ، أن يعترف بنعمة الله عليه ، وأن لا يزال ذاكرا حاله الأولى ، ليحدث لذلك شكرا كلما ذكرها ، لقول يوسف عليه السلام : ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ .

**ومنها** : لُطف الله العظيم بيوسف ، حيث نقله في تلك الأحوال ، وأوصل إليه الشدائد والمحن ، ليوصله بها إلى أعلى الغايات ورفيع الدرجات .

**ومنها** : أنه ينبغي للعبد أن يتملَّق إلى الله دائما في تثبيت إيمانه ، ويعمل الأسباب الموجبة لذلك ، ويسأل الله حسن الخاتمة ، وتمام النعمة لقول يوسف عليه الصلاة والسلام : ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ .

فهذا ما يسر الله من الفوائد والعبر في هذه القصة المباركة ، ولا بد أن يظهر للمتدبر المتفكر غير ذلك . فنسأله تعالى علما نافعا وعملا متقبلا ، إنه جواد كريم .

**تم تفسير سورة يوسف وأبيه وإخوته عليهم الصلاة والسلام ، والحمد لله رب العالمين .**



## ( ١٣ ) تفسير سورة الرعد

### وهي مدنية ، وقيل : مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١٣ - ١] : ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

يُخبر تعالى أن هذا القرآن هو آيات الكتاب الدالَّة على كل ما يحتاج إليه العباد من أُصول الدين وفروعه ، وأن الذي أنزل إلى الرسول من ربه هو الحق المبين ، لأن أخباره صدق ، وأوامره ونواهيه عدل ، مؤيدة بالأدلة والبراهين القاطعة ، فمن أقبل عليه وعلى علمه ، كان من أهل العلم بالحق ، الذي يوجب لهم علمهم العمل بما أحب الله .

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا القرآن ، إما جهلا وإعراضا عنه وعدم اهتمام به ، وإما عنادا وظلما ، فلذلك أكثر الناس غير منتفعين به ، لعدم السبب الموجب للانتفاع .

[ ١٣ : ٢ - ٤ ] : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

يُخبر تعالى عن انفراده بالخلق والتدبير ، والعظمة والسلطان الدال على أنه وحده المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له فقال : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على عظمها واتساعها بقدرته العظيمة ، ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ﴾ أي : ليس لها عمد من تحتها ، فإنه لو كان لها عمد ، لرأيتموها ﴿ثُمَّ﴾ بعد ما خلق السماوات والأرض ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ العظيم الذي هو أعلى المخلوقات ، استواء يليق بجلاله ويناسب كماله .

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ لمصالح العباد ومصالح مواشيهم وثمارهم ، ﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر ﴿يَجْرِى﴾ بتدبير العزيز العليم ، ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ بسير منتظم ، لا يَفْتُران ولا يَنيان ، حتى يجيء الأجل المُسمَّى وهو طي الله هذا العالم ، ونقلهم إلى الدار الآخرة التي هي دار القرار ، فعند ذلك يطوي الله السماوات ويُبدِّلها ، ويُغيِّر الأرض ويُبدِّلها . فتُكوَّر الشمس والقمر ، ويُجمع بينهما فيُلقيان في النار ، ليرى من عَبَدَهُما أنهما غير أهل للعبادة ؛ فيتحسَّر بذلك أشد الحسرة وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين .

وقوله ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ هذا جمع بين الخلق والأمر ، أي : قد استوى الله العظيم على سرير المُلْك ، يُدبِّر الأمور في العالم العلوي والسفلي ، فيخلق ويرزق ، ويغني ويفقر ، ويرفع أقواما ويضع آخرين ، ويعز ويذل ، ويخفض ويرفع ، ويَقيل العثرات ، ويُفرِّج الكُرُبات ، ويُنْفِذ الأقدار في أوقاتها التي سبق

بها علمه ، وجرى بها قلمه ، ويُرسِل ملائكته الكرام لتدبير ما جعلهم على تدبيره .

ويُنزل الكُتُب الإلهيَّة على رسله ويُبيِّن ما يحتاج إليه العباد من الشرائع والأوامر والنواهي ، ويُفصِّلها غاية التفصيل ببيانها وإيضاحها وتمييزها ، ﴿لَعَلَّكُم﴾ بسبب ما أخرج لكم من الآيات الأُفقيَّة والآيات القُرآنيَّة ، ﴿بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ فإن كثرة الأدلة وبيانها ووضوحها ، من أسباب حصول اليقين في جميع الأمور الإلهية ، خصوصا في العقائد الكبار ، كالبعث والنشور والإخراج من القبور .

وأيضا فقد علم أن الله تعالى حكيم لا يخلق الخلق سُدى ، ولا يتركهم عبثا ، فكما أنه أرسل رسله وأنزل كتبه لأمر العباد ونهيهم ، فلا بد أن ينقلهم إلى دار يحل فيها جزاؤه ، فيجازي المحسنين بأحسن الجزاء ، ويجازي المسيئين بإساءتهم .

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ أي : خلقها للعباد ، ووسعها وبارك فيها ومهدها للعباد ، وأودع فيها من مصالحهم ما أودع ، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي : جبالا عظاما ، لئلا تَميد بالخلق ، فإنه لولا الجبال لمادت بأهلها ، لأنها على تيار ماء ، لا ثبوت لها ولا استقرار إلا بالجبال الرواسي ، التي جعلها الله أوتادا لها .

﴿وَ﴾ جعل فيها ﴿أَنْهَارًا﴾ تسقي الآدميين وبهائمهم وحروثهم ، فأخرج بها من الأشجار والزروع والثمار خيرا كثيرا ولهذا قال : ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي : صِنْفَين مما يحتاج إليه العباد .

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ فتظلم الآفاق فيسكن كل حيوان إلى مأواه ويستريحون من التعب والنصب في النهار ، ثم إذا قضوا مأربهم من النوم غشي النهار الليل فإذا هم مصبحون منتشرون في مصالحهم وأعمالهم في النهار .

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [ سورة القصص ٧٣] .

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ على المطالب الإلهية ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها ، وينظرون فيها نظر اعتبار دالة على أن الذي خلقها ودبرها وصرفها ، هو الله الذي لا إله إلا هو ، ولا معبود سواه ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، الرحمن الرحيم ، وأنه القادر على كل شيء ، الحكيم في كل شيء المحمود على ما خلقه وأمر به تبارك وتعالى .

ومن الآيات على كمال قدرته وبديع صنعته أن جعل ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ فيها أنواع الأشجار ﴿مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ وغير ذلك ، والنخيل التي بعضها ﴿صِنْوَانٌ﴾ أي : عدة أشجار في أصل واحد ، ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ بأن كان كل شجرة على حدتها ، والجميع ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ وأرضه واحدة ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ لونا وطعما ونفعا ولذَّة ؛ فهذه أرض طيبة تُنبت الكلأ والعشب الكثير والأشجار والزروع ، وهذه أرض تلاصقها لا تُنبت كلأ ولا تمسك ماء ، وهذه تمسك الماء ولا تُنبت الكلأ ، وهذه تُنبت الزرع والأشجار ولا تُنبت الكلأ ، وهذه الثمرة حلوة وهذه مُرَّة وهذه بين ذلك ، فهل هذا التنوع في ذاتها وطبيعتها ؟ أم ذلك تقدير العزيز الرحيم ؟ .

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي : لقوم لهم عقول تهديهم إلى ما ينفعهم ، وتقودهم إلى ما يرشدهم ويعقلون عن الله وصاياه وأوامره ونواهيه ، وأما أهل الإعراض ، وأهل البلادة فهم في ظُلُماتِهم يعمهون ، وفي غيِّهم يتردَّدون ، لا يهتدون إلى ربِّهم سبيلا ولا يعون له قيلا .

[٥ – ١٣] : ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

يُحتمل أن معنى قوله ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ من عظمة الله تعالى وكثرة أدلَّة توحيده ، فإن العجب – مع هذا– إنكار المُكذِّبين وتكذيبهم بالبعث ، وقولهم ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي : هذا بعيد في غاية الامتناع بزعمهم ، أنهم بعد ما كانوا ترابا ، أن الله يعيدهم ، فإنهم –من جهلهم– قاسوا قدرة الخالق بقدرة المخلوق .

فلما رأوا هذا ممتنعا في قدرة المخلوق ظنُّوا أنه ممتنع على قدرة الخالق ، ونسوا أن الله خلقهم أوَّل مرَّة ولم يكونوا شيئا .

ويُحتمل أن معناه : وإن تعجب من قولهم وتكذيبهم للبعث ، فإن ذلك من العجائب ، فإن الذي توضَّح له الآيات ، ويرى من الأدلَّة القاطعة على البعث ما لا يقبل الشك والريب ، ثم يُنكر ذلك فإن قوله من العجائب .

ولكن ذلك لا يُستغرب على ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ وجحدوا وحدانيَّته ، وهي أظهر الأشياء وأجلاها ، ﴿وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ﴾ المانعة لهم من الهدى ﴿فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ حيث دعوا إلى الإيمان فلم يؤمنوا ، وعرض عليهم الهدى فلم يهتدوا ، فقُلِّبت قلوبهم وأفئدتهم عقوبة على أنهم لم يؤمنوا به أوَّل مرَّة ، ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبدا .

[٦ – ١٣] : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ .

يُخبر تعالى عن جهل المُكذِّبين لرسوله المشركين به ، الذين وعظوا فلم يتَّعظوا ، وأُقيمت عليهم الأدلَّة فلم ينقادوا لها ، بل جاهروا بالإنكار ، واستدلُّوا بحلم الله الواحد القهَّار عنهم ، وعدم معاجلتهم بذنوبهم أنهم على حق ، وجعلوا يستعجلون الرسول بالعذاب ، ويقول قائلهم : ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [ سُورة الأنفال ٣٢] .

﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ أي : وقائع الله وأيامه في الأُمم المُكذِّبين ، أفلا يتفكَّرون في حالهم ويتركون جهلهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي : لا يزال خيره إليهم وإحسانه وبره وعفوه نازلا إلى العباد ، وهم لا يزال شرهم وعصيانهم إليه صاعدًا .

يعصونه فيدعوهم إلى بابه ، ويجرمون فلا يحرِمهم خيره وإحسانه ، فإن تابوا إليه فهو حبيبهم لأنه يحب التوابين ، ويحب المُتطهِّرين وإن لم يتوبوا فهو طبيبهم ، يبتليهم بالمصائب ، ليطهرهم من المعايب ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ [سُورة الزُّمر ٥٣].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ على من لم يزل مُصِرًّا على الذنوب، قد أبى التوبة والاستغفار والالتجاء إلى العزيز الغفار، فليحذر العباد عقوباته بأهل الجرائم، فإن أخذه أليم شديد.

[٧ – ١٣]: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

أي: ويقترح الكُفَّار عليك من الآيات، التي يعينونها ويقولون: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ﴾ ويجعلون هذا القول منهم، عذرا لهم في عدم الإجابة إلى الرسول، والحال أنه منذر ليس له من الأمر شيء، والله هو الذي ينزل الآيات.

وقد أيَّده بالأدلَّة البيِّنات التي لا تخفى على أولي الألباب، وبها يهتدي من قصده الحق، وأما الكافر الذي –من ظُلْمِه وجهله– يقترح على الله الآيات فهذا اقتراح منه باطل وكذب وافتراء، فإنه لو جاءته أي آية كانت لم يؤمن ولم ينقد؛ لأنه لم يمتنع من الإيمان، لعدم ما يدله على صحَّته وإنما ذلك لهوى نفسه واتِّباع شهوته ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: داع يدعوهم إلى الهُدى من الرُّسُل وأتْباعِهم، ومعهم من الأدلَّة والبراهين ما يدل على صحَّة ما معهم من الهُدى.

[٨: ١١ – ١٢]: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾.

يُخبر تعالى بعموم علمه وسعة اطلاعه وإحاطته بكل شيء فقال: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ من بني آدم وغيرهم، ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ أي: تنقص مما فيها إما أن يهلك الحمل أو يتضاءل أو يضمحل ﴿وَمَا تَزْدَادُۖ﴾ الأرحام وتكبُر الأجنَّة التي فيها، ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ لا يتقدَّم عليه ولا يتأخَّر ولا يزيد ولا ينقص إلا بما تقتضيه حكمته وعلمه؛ فإنه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ على جميع خلقه بذاته وقدرته وقهره.

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾ في علمه وسمعه وبصره، ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ﴾ أي: مستقر بمكان خفي فيه، ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي: داخل سَرَبَه في النهار والسَّرَب هو ما يختفي فيه الإنسان إما جوف بيته أو غار أو مغارة أو نحو ذلك.

﴿لَهُۥ﴾ أي: للإنسان ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ من الملائكة يتعاقَبون في الليل والنهار، ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: يحفظون بدنه وروحه من كل من يريده بسوء، ويحفظون عليه أعماله، وهم مُلازِمون له دائما، فكما أن علم الله محيط به، فالله قد أرسل هؤلاء الحفظة على العباد، بحيث لا تخفى أحوالهم ولا أعمالهم، ولا ينسى منها شيء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من النعمة والإحسان ورغد العيش ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ﴾ بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر ومن الطاعة إلى المعصية، أو من شكر نعم الله إلى البطر بها فيسلبهم الله عند ذلك إيَّاها.

وكذلك إذا غيّر العباد ما بأنفسهم من المعصية ، فانتقلوا إلى طاعة الله ، غيّر الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة ، ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾ أي : عذابا وشدة وأمرا يكرهونه ، فإن إرادته لا بد أن تنفذ فيهم ، فإنه ﴿لَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ ولا أحد يمنعهم منه ، ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ يتولّى أمورهم فيجلب لهم المحبوب ، ويدفع عنهم المكروه ، فليحذروا من الإقامة على ما يكره الله خشية أن يحل بهم من العقاب ما لا يرد عن القوم المجرمين .

[ ١٢ : ١٣ - ١٣ ] : ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ .

يقول تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي : يخاف منه الصواعق والهدم وأنواع الضرر ، على بعض الثمار ونحوها ويطمع في خيره ونفعه ، ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ بالمطر الغزير الذي به نفع العباد والبلاد .

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ وهو الصوت الذي يسمع من السّحاب المُزعِج للعباد ، فهو خاضع لربه مُسبّح بحمده ، ﴿وَ﴾ تُسبح ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي : خُشّعا لربّهم خائفين من سطوته ، ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ وهي هذه النار التي تخرج من السحاب ، ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ من عباده بحسب ما شاءه وأراده وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ أي : شديد الحول والقوّة فلا يريد شيئا إلا فعله ، ولا يتعاصى عليه شيء ولا يفوته هارب .

فإذا كان هو وحده الذي يسوق للعباد الأمطار والسُّحب التي فيها مادة أرزاقهم ، وهو الذي يُدبّر الأمور ، وتخضع له المخلوقات العظام التي يخاف منها ، وتزعج العباد وهو شديد القوة - فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له . ولهذا قال :

[ ١٤ - ١٣ ] : ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ .

أي : لله وحده ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ وهي : عبادته وحده لا شريك له ، وإخلاص دعاء العبادة ودعاء المسألة له تعالى ، أي : هو الذي ينبغي أن يُصْرَف له الدعاء ، والخوف ، والرجاء ، والحب ، والرغبة ، والرهبة ، والإنابة ؛ لأن أُلوهيّته هي الحق ، وأُلوهيّة غيره باطلة ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ من الأوثان والأنداد التي جعلوها شركاء لله ، ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم﴾ أي : لمن يدعوها ويعبدها بشيء قليل ولا كثير لا من أمور الدنيا ولا من أمور الآخرة ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ الذي لا تناله كفاه لبُعده ، ﴿لِيَبْلُغَ﴾ ببسط كفيه إلى الماء ﴿فَاهُ﴾ فإنه عطشان ومن شدَّة عطشه يتناول بيده ، ويبسطها إلى الماء الممتنع وصولها إليه ، فلا يصل إليه .

كذلك الكفّار الذين يدعون معه آلهة لا يستجيبون لهم بشيء ولا ينفعونهم في أشد الأوقات إليهم حاجة لأنهم فقراء كما أن من دعوهم فقراء ، لا يملكون مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء ، وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير .

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ لبُطلان ما يدعون من دون الله ، فبطلت عباداتهم ودعاؤهم ؛ لأن الوسيلة تبطل ببطلان غايتها ، ولما كان الله تعالى هو الملك الحق المبين ، كانت عبادته حقًّا مُتَّصِلة النفع لصاحبها في الدنيا والآخرة .

وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذي يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه من أحسن الأمثلة ؛ فإن ذلك تشبيه بأمر مُحال ، فكما أن هذا مُحال ، فالمُشَبَّه به مُحال ، والتعليق على المُحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء كما قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [ سورة الأعراف ٤٠ ] .

[١٥ - ١٣] : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ۩﴾

أي : جميع ما احتوت عليه السماوات والأرض كلها خاضعة لربِّها ، تسجد له ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ فالطوع لمن يأتي بالسجود والخضوع اختيارا كالمؤمنين ، والكره لمن يستكبر عن عبادة ربه ، وحاله وفطرته تكذبه في ذلك ، ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ أي : ويسجد له ظلال المخلوقات أول النهار وآخره وسجود كل شيء بحسب حاله كما قال تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [ سورة الإسراء ٤٤ ] .

فإذا كانت المخلوقات كلها تسجد لربِّها طوعا وكرها كان هو الإله حقًّا المعبود المحمود حقًّا وإلاهيَّة غيره باطلة ، ولهذا ذكر بُطلانها وبرهن عليه بقوله :

[١٦ - ١٣] : ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ .

أي : قل لهؤلاء المشركين به أوثانا وأندادا يحبونها كما يُحبُّون الله ، ويبذلون لها أنواع التقرُّبات والعبادات : أفتاهت عقولكم حتى اتَّخذتم من دونه أولياء تتولَّونهم بالعبادة وليسوا بأهل لذلك ؟ ، فإنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ وتتركون ولاية من هو كامل الأسماء والصفات ، المالك للأحياء والأموات ، الذي بيده الخلق والتدبير والنفع والضر ؟.

فما تستوي عبادة الله وحده ، وعبادة المشركين به ، كما لا يستوي الأعمى والبصير ، وكما لا تستوي الظلمات والنور .

فإن كان عندهم شك واشتباه ، وجعلوا له شركاء زعموا أنهم خلقوا كخلقه وفعلوا كفعله ، فأزِلْ عنهم هذا الاشتباه واللبس بالبرهان الدال على توحُّد الإله بالوحدانية ، فقل لهم : ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فإنه من المُحال أن يخلق شيء من الأشياء نفسه .

ومن المُحال أيضا أن يوجد من دون خالق ، فتعيَّن أن لها إلها خالقا لا شريك له في خلقه لأنه الواحد القهار ، فإنه لا توجد الوحدة والقهر إلا لله وحده ، فالمخلوقات وكل مخلوق فوقه مخلوق يقهره ثم فوق ذلك القاهر قاهر أعلى منه ، حتى ينتهي القهر للواحد القهَّار ، فالقهر والتوحيد مُتلازمان مُتعَيِّنان لله وحده ،

فتبيَّن بالدليل العقلي القاهر ، أن ما يُدَّعى من دون الله ليس له شيء من خلق المخلوقات وبذلك كانت عبادته باطلة .

[١٧ - ١٣] : ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ .

شبَّه تعالى الهدى الذي أنزله على رسوله لحياة القلوب والأرواح ، بالماء الذي أنزله لحياة الأشباح ، وشبَّه ما في الهدى من النفع العام الكثير الذي يضطر إليه العباد ، بما في المطر من النفع العام الضروري ، وشبَّه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها بالأودية التي تسيل فيها السّيول ، فواد كبير يسع ماء كثيرا ، كقلب كبير يسع علما كثيرا ، وواد صغير يأخذ ماء قليلا ، كقلب صغير ، يسع علما قليلا ، وهكذا .

وشبَّه ما يكون في القلوب من الشهوات والشُّبُهات عند وصول الحق إليها ، بالزبد الذي يعلو الماء ويعلو ما يوقد عليه النار من الحلية التي يُراد تخليصها وسبكها ، وأنها لا تزال فوق الماء طافية مُكدِّرة له حتى تذهب وتضمحل ، ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي والحلية الخالصة .

كذلك الشُّبُهات والشهوات لا يزال القلب يكرهها ، ويجاهدها بالبراهين الصادقة ، والإرادات الجازمة ، حتى تذهب وتضمحل ويبقى القلب خالصا صافيا ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق وإيثاره ، والرغبة فيه ، فالباطل يذهب ويمحقه الحق ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ وقال هنا : ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ ليتضّح الحق من الباطل والهدى والضلال .

[١٨ - ١٣] : ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ .

لما بيَّن تعالى الحق من الباطل ذكر أن الناس على قسمين : مُستجيب لربِّه ، فذكر ثوابه ، وغير مُستجيب فذكر عقابه فقال : ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ أي : انقادت قلوبهم للعلم والإيمان وجوارحهم للأمر والنهي ، وصاروا موافقين لربِّهم فيما يريده منهم ، فلهم ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي : الحالة الحسنة والثواب الحسن .

فلهم من الصفات أجلها ومن المناقب أفضلها ومن الثواب العاجل والآجل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ بعد ما ضرب لهم الأمثال وبيَّن لهم الحق ، لهم الحالة غير الحسنة ، فـ ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من ذهب وفضة وغيرها ، ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم وأنى لهم ذلك ؟ .

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ وهو الحساب الذي يأتي على كل ما أسلفوه من عمل سيئ وما ضيَّعوه من حقوق الله وحقوق عباده قد كتب ذلك وسطر عليهم وقالوا : ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [ سورة الكهف ٤٩] .

﴿وَ﴾ بعد هذا الحساب السيئ ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ الجامعة لكل عذاب ، من الجوع الشديد ،

والعطش الوجيع، والنار الحامية والزقوم والزمهرير، والضريع وجميع ما ذكره الله من أصناف العذاب ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: المقر والمسكن مسكنهم.

[١٩ - ٢٤: ١٣]: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

يقول تعالى: مُفرّقا بين أهل العلم والعمل وبين ضدهم: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ ففهم ذلك وعمل به، ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ لا يعلم الحق ولا يعمل به فبينهما من الفرق كما بين السماء والأرض، فحقيق بالعبد أن يتذكّر ويتفكّر أي الفريقين أحسن حالا وخير مآلا فيؤثر طريقها ويسلك خلف فريقها، ولكن ما كل أحد يتذكّر ما ينفعه ويضره.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أولو العقول الرزينة، والآراء الكاملة، الذين هم لُبّ العالم، وصفوة بني آدم، فإن سألت عن وصفهم، فلا تجد أحسن من وصف الله لهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ الذي عهده إليهم والذي عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة مُوفّرة، فالوفاء بها توفيتها حقها من التتميم لها، والنصح فيها ﴿وَ﴾ من تمام الوفاء بها أنهم ﴿لَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ أي: العهد الذي عاهدوا عليه الله، فدخل في ذلك جميع المواثيق والعهود والأيمان والنذور، التي يعقدها العباد. فلا يكون العبد من أولي الألباب الذين لهم الثواب العظيم، إلا بأدائها كاملة، وعدم نقضها وبخسها.

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ وهذا عام في كل ما أمر الله بوصله، من الإيمان به وبرسوله، ومحبّته ومحبّة رسوله، والانقياد لعبادته وحده لا شريك له، ولطاعة رسوله.

ويصلون آباءهم وأمهاتهم ببرهم بالقول والفعل وعدم عقوقهم، ويصِلون الأقارب والأرحام، بالإحسان إليهم قولا وفعلا، ويصِلون ما بينهم وبين الأزواج والأصحاب والمماليك، بأداء حقّهم كاملا موفّرا من الحقوق الدينية والدنيوية.

والسبب الذي يجعل العبد واصلا ما أمر الله به أن يوصل، خشية الله وخوف يوم الحساب، ولهذا قال: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: يخافونه، فيمنعهم خوفهم منه، ومن القدوم عليه يوم الحساب، أن يتجرؤوا على معاصي الله، أو يقصّروا في شيء مما أمر الله به خوفا من العقاب ورجاء للثواب.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على المأمورات بالامتثال، وعن المنهيّات بالانكفاف عنها والبعد منها، وعلى أقدار الله المؤلمة بعدم تسخُّطها، ولكن بشرط أن يكون ذلك الصبر ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة فإن هذا هو الصبر النافع الذي يحبس به العبد نفسه، طلبا لمرضاة ربه، ورجاء للقرب منه، والحظوة بثوابه، وهو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان، وأما الصبر المشترك الذي غايته التجلُّد ومُنتهاه الفخر، فهذا يصدر من البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فليس هو الممدوح على الحقيقة.

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بأركانها وشروطها ومكمّلاتها ظاهرا وباطنا ، ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ دخل في ذلك النفقات الواجبة كالزكوات والكفّارات والنفقات المُستحبّة وأنهم يُنفقون حيث دعت الحاجة إلى النفقة ، سرًّا وعلانية ، ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي : من أساء إليهم بقول أو فعل ، لم يُقابلوه بفعله ، بل قابلوه بالإحسان إليه ، فيُعطون من حرَمَهم ، ويعفون عمن ظلمهم ، ويصِلون من قطعهم ، ويُحسِنون إلى من أساء إليهم ، وإذا كانوا يقابلون المُسيء بالإحسان ، فما ظنُّك بغير المسيء ؟ ! .

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين وصفت صفاتهم الجليلة ومناقبهم الجميلة ﴿لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ فسَّرها بقوله : ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي : إقامة لا يزولون عنها ، ولا يبغون عنها حِوَلا ؛ لأنهم لا يرون فوقها غاية لما اشتملت عليه من النعيم والسرور ، الذي تنتهي إليه المطالب والغايات .

ومن تمام نعيمهم وقُرّة أعينهم أنهم ﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ من الذكور والإناث ﴿وَأَزْوَٰجِهِمْ﴾ أي الزوج أو الزوجة وكذلك النظراء والأشباه ، والأصحاب والأحباب ، فإنهم من أزواجهم وذريّاتهم ، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ يهنئونهم بالسلامة وكرامة الله لهم ويقولون : ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ أي : حلَّت عليكم السلامة والتحيَّة من الله وحصلت لكم ، وذلك مُتضمِّن لزوال كل مكروه ، ومُستلزم لحصول كل محبوب .

﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي : صبركم هو الذي أوصلكم إلى هذه المنازل العالية ، والجنان الغالية ، ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ .

فحقيق بمن نصح نفسه وكان لها عنده قيمة ، أن يجاهدها ، لعلها تأخذ من أوصاف أولي الألباب بنصيب ، لعلها تحظى بهذه الدار ، التي هي مُنية النفوس ، وسرور الأرواح الجامعة لجميع اللذّات والأفراح ، فلمثلها فليعمل العاملون وفيها فليتنافس المتنافسون .

[٢٥ – ١٣] : ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ .

لما ذكر حال أهل الجنة ذكر أن أهل النار بعكس ما وصفهم به ، فقال عنهم : ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي : من بعد ما أكَّده عليهم على أيدي رُسُله ، وغلَّظ عليهم ، فلم يُقابلوه بالانقياد والتسليم ، بل قابلوه بالإعراض والنقص ، ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم بالإيمان والعمل الصالح ، ولا وصلوا الأرحام ولا أدُّوا الحقوق ، بل أفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي ، والصد عن سبيل الله وابتغائها عوجا ، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي : البعد والذم من الله وملائكته وعباده المؤمنين ، ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ وهي : الجحيم بما فيها من العذاب الأليم .

[٢٦ – ١٣] : ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ .

أي : هو وحده يوسِّع الرزق ويبسطه على من يشاء ويقدره ويُضيِّقه على من يشاء ، ﴿وَفَرِحُوا۟﴾ أي : الكفار ﴿بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فرحا أوجب لهم أن يطمئنوا بها ، ويغفلوا عن الآخرة وذلك لنُقصان عقولهم ،

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ أي : شيء حقير يتمتع به قليلا ويفارق أهله وأصحابه ويعقبهم ويلا طويلا .

[ ١٣ : ٢٧ - ٢٩ ] : ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾

يُخبر تعالى أن الذين كفروا بآيات الله يتعنَّتون على رسول الله ، ويقترحون ويقولون : ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾ وبزعمهم أنها لو جاءت لآمنوا فأجابهم الله بقوله : ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ أي : طلب رضوانه ، فليست الهداية والضلال بأيديهم حتى يجعلوا ذلك متوقفا على الآيات ، ومع ذلك فهم كاذبون ، ﴿۞ وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾ [ سُورة الأنعام ١١١ ] .

ولا يلزم أن يأتي الرسول بالآية التي يعينونها ويقترحونها ، بل إذا جاءهم بآية تُبيِّن ما جاء به من الحق ، كفى ذلك وحصل المقصود ، وكان أنفع لهم من طلبهم الآيات التي يعينونها ، فإنها لو جاءتهم طبق ما اقترحوا فلم يؤمنوا بها لعاجلهم العذاب .

ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين فقال : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ أي : يزول قلقها واضطرابها ، وتحضرها أفراحها ولذاتها .

﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ أي : حقيق بها وحريٌّ أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره ، فإنه لا شيء ألذ للقلوب ولا أشهى ولا أحلى من محبَّة خالقها ، والأنس به ومعرفته ، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبَّتها له ، يكون ذكرها له ، هذا على القول بأن ذكر الله ، ذكر العبد لربِّه ، من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك .

وقيل : إن المُراد بذكر الله كتابه الذي أنزله ذكرى للمؤمنين ، فعلى هذا معنى طمأنينة القلوب بذكر الله : أنها حين تعرف معاني القرآن وأحكامه تطمئن لها ، فإنها تدل على الحق المبين المُؤيَّد بالأدلة والبراهين ، وبذلك تطمئن القلوب ، فإنها لا تطمئن القلوب إلا باليقين والعلم ، وذلك في كتاب الله ، مضمون على أتم الوجوه وأكملها ، وأما ما سواه من الكتب التي لا ترجع إليه فلا تطمئن بها ، بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة وتضاد الأحكام .

﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [ سُورة النِّساء ٨٢ ] ، وهذا إنما يعرفه من خبرَ كتاب الله وتدبَّره ، وتدبَّر غيره من أنواع العلوم ، فإنه يجد بينها وبينه فرقا عظيما .

ثم قال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي : آمنوا بقلوبهم بالله وملائكته ، وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وصدَّقوا هذا الإيمان بالأعمال الصالحة ، أعمال القلوب كمحبَّة الله وخشيته ورجائه ، وأعمال الجوارح كالصلاة ونحوها ، ﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ أي : لهم حالة طيبة ومرجع حسن .

وذلك بما ينالون من رضوان الله وكرامته في الدنيا والآخرة ، وأن لهم كمال الراحة وتمام الطمأنينة ، ومن جملة ذلك شجرة طوبى التي في الجنَّة ، التي يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها ، كما وردت بها

الأحاديث الصحيحة .[١٢٧]

[٣٠ – ١٣] : ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ .

يقول تعالى لنبيّه محمد ﷺ : ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ إلى قومك تدعوهم إلى الهُدى ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ أرسلنا فيهم رسلنا ، فلست ببدع من الرسل حتى يستنكروا رسالتك ، ولست تقول من تلقاء نفسك ، بل تتلو عليهم آيات الله التي أوحاها الله إليك ، التي تُطهِّر القلوب وتُزكِّي النفوس .

والحال أن قومك يَكْفُرون بالرحمن ، فلم يقابلوا رحمته وإحسانه -التي أعظمها أن أرسلناك إليهم رسولا وأنزلنا عليك كتابا- بالقبول والشكر بل قابلوها بالإنكار والرد ، أفلا يعتبرون بمن خلا من قبلهم من القرون المكذبة كيف أخذهم الله بذنوبهم ، ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهذا مُتضمّن للتوحيدين توحيد الأُلوهيّة وتوحيد الرّبوبيّة .

فهو ربِّي الذي ربَّاني بنعمه منذ أوجدني ، وهو إلهي الذي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أُموري ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي : أرجع في جميع عباداتي وفي حاجاتي .

[٣١ – ١٣] : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ .

يقول تعالى مُبيِّنا فضل القرآن الكريم على سائر الكتب المُنزَّلة : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ من الكتب الإلهيّة ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ عن أماكنها ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ جنانا وأنهارا ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لكان هذا القُرآن ، ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ فيأتي بالآيات التي تقتضيها حكمته ، فما بال المُكذِّبين يقترحون من الآيات ما يقترحون ؟ ، فهل لهم أو لغيرهم من الأمر شيء ؟ .

﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ فليعلموا أنه قادر على هدايتهم جميعا ولكنه لا يشاء ذلك ، بل يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ على كفرهم ، لا يعتبرون ولا يتَّعظون ، والله تعالى يوالي عليهم القوارع التي تصيبهم في ديارهم أو تحل قريبا منها ، وهم مُصِرُّون على كفرهم ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ الذي وعدهم به ، لنزول العذاب المُتَّصِل الذي لا يمكن رفعه ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ وهذا تهديد لهم وتخويف من نزول ما وعدهم الله به على كفرهم وعنادهم وظلمهم .

[٣٢ – ١٣] : ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ .

---

(١٢٧) * من ذلك ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده ( ٣ / ٧١ ) . عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : طوبى شجرة في الجنة ، مسيرة مائة عام ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها .
وحسَّنه العلامة الألباني – رحمه الله – في « صحيح الجامع » برقم ٣٩١٨.

يقول تعالى لرسوله - مُثبتا له ومُسليًا- ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فلست أوّل رسول كُذِّب وأوذي ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ برسلهم أي: أمهلتهم مُدَّة حتى ظنُّوا أنهم غير مُعذَّبين؛ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بأنواع العذاب ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ كان عقابا شديدا وعذابا أليما، فلا يغتر هؤلاء الذين كذَّبوك واستهزؤوا بك بإمهالنا، فلهم أُسوة فيمن قبلهم من الأمم، فليحذروا أن يُفْعَل بهم كما فُعِلَ بأولئك.

[١٣ - ٣٣: ٣٤]: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾.

يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ بالجزاء العاجل والآجل، بالعدل والقسط، وهو الله تبارك وتعالى كمن ليس كذلك؟.

ولهذا قال: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ وهو الله الأحد الفرد الصمد، الذي لا شريك له ولا ند ولا نظير، ﴿قُلْ﴾ لهم إن كانوا صادقين: ﴿سَمُّوهُمْ﴾ لتعلم حالهم ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإنه إذا كان عالم الغيب والشهادة وهو لا يعلم له شريكا، علم بذلك بُطلان دعوى الشريك له، وأنكم بمنزلة الذي يُعَلِّم الله أن له شريكا وهو لا يعلمه، وهذا أبطل ما يكون؛ ولهذا قال: ﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: غاية ما يمكن من دعوى الشريك له تعالى أنه بظاهر أقوالكم.

وأما في الحقيقة، فلا إله إلا الله، وليس أحد من الخلق يستحق شيئا من العبادة، ولكن ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ الذي مكروه وهو كفرهم وشركهم، وتكذيبهم لآيات الله ﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: عن الطريق المستقيمة الموصِّلة إلى الله وإلى دار كرامته، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ لأنه ليس لأحد من الأمر شيء.

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ من عذاب الدنيا لشدَّته ودوامه، ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ يقيهم من عذاب الله، فعذابه إذا وجهه إليهم لا مانع منه.

[١٣ - ٣٥]: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾.

يقول تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الذين تركوا ما نهاهم الله عنه، ولم يُقصِّروا فيما أمرهم به، أي: صفتها وحقيقتها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أنهار العسل، وأنهار الخمر، وأنهار اللبن، وأنهار الماء التي تجري في غير أُخدود، فتسقى تلك البساتين والأشجار فتحمل من جميع أنواع الثمار.

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ دائم أيضا، ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ أي: عاقبتهم ومآلهم التي إليها يصيرون، ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ فكم بين الفريقين من الفرق المُبين؟.

[١٣ - ٣٦]: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾

يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: منَّنا عليهم به وبمعرفته، ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾

فيؤمنون به ويُصدِّقونه ، ويفرحون بموافقة الكتب بعضها لبعض ، وتصديق بعضها بعضا وهذه حال من آمن من أهل الكتابين ، ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ أي : ومن طوائف الكفار المُنحرفين عن الحق ، من يُنكر بعض هذا القرآن ولا يُصدِّقه .

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ [ سورة الزُّمر ٢١ ] ، إنما أنت يا محمد منذر تدعوا إلى الله ، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ﴾ أي : بإخلاص الدين لله وحده ، ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ أي : مرجعي الذي أرجع به إليه فيجازيني بما قمت به من الدعوة إلى دينه والقيام بما أمرت به .

[٣٧ – ١٣] : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ .

أي : ولقد أنزلنا هذا القُرآن والكتاب حُكما ، عربيًّا أي : مُحكما مُتقنا ، بأوضح الألسنة وأفصح اللغات ، لئلا يقع فيه شك واشتباه ، وليوجب أن يُتَّبع وحده ، ولا يُداهن فيه ، ولا يُتَّبع ما يُضاده ويُناقضه من أهواء الذين لا يعلمون .

ولهذا توعَّد رسوله –مع أنه معصوم– ليمتن عليه بعصمته ولتكون أُمَّته أُسوته في الأحكام فقال : ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ البيِّن الذي ينهاك عن اتِّباع أهوائهم ، ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يتولَّاك فيحصل لك الأمر المحبوب ، ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يقيك من الأمر المكروه .

[ ٣٨: ٣٩ – ١٣] : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ .

أي : لست أوَّل رسول أُرسِل إلى الناس حتى يستغربوا رسالتك ، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ فلا يعيبك أعداؤك بأن يكون لك أزواج وذُرِّيَّة ، كما كان لإخوانك المُرسلين ، فلأي شيء يقدحون فيك بذلك وهم يعلمون أن الرُّسل قبلك كذلك ؛ إلا لأجل أغراضهم الفاسدة وأهوائهم ؟ وإن طلبوا منك آية اقترحوها فليس لك من الأمر شيء .

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ والله لا يأذن فيها إلا في وقتها الذي قدَّره وقضاه ، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لا يتقدَّم عليه ولا يتأخَّر عنه ، فليس استعجالهم بالآيات أو بالعذاب موجبا لأن يُقدِّم الله ما كتب أنه يُؤخَّر مع أنه تعالى فعَّال لما يُريد .

﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من الأقدار ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما يشاء منها ، وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه وكتبه قلمه فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير لأن ذلك مُحال على الله ، أن يقع في علمه نقص أو خلل ولهذا قال : ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي : اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء ، فهو أصلها ، وهي فروع له وشعب .

فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب ، كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة ، ويجعل الله لثبوتها أسبابا ولمحوها أسبابا ، لا تتعدَّى تلك الأسباب ، ما رُسِمَ في اللوح المحفوظ ، كما جعل الله البر

والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق ، وكما جعل المعاصي سببا لمحق بركة الرزق والعمر ، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سببا للسلامة ، وجعل التعرض لذلك سببا للعَطَب ، فهو الذي يُدبّر الأُمور بحسب قُدرته وإرادته ، وما يُدبِّره منها لا يُخالِف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ .

[ ٤٠ : ٤١ – ١٣ ] : ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ .

يقول تعالى لنبيّه محمد ﷺ : لا تعجل عليهم بإصابة ما يوعدون به من العذاب ، فهم إن استمروا على طغيانهم وكفرهم فلا بد أن يصيبهم ما وعِدوا به ، ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ إيَّاه في الدنيا فتقر بذلك عينك ، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل إصابتهم فليس ذلك شغلا لك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ والتبيين للخلق .

﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ فنُحاسِب الخلق على ما قاموا به ، مما عليهم ، وضيّعوه ، ونُثيبهم أو نعاقبهم .

ثم قال مُتوعِّدا للمُكذِّبين ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قيل بإهلاك المُكذِّبين واستئصال الظالمين ، وقيل : بفتح بلدان المشركين ، ونقصهم في أموالهم وأبدانهم ، وقيل غير ذلك من الأقوال .

والظاهر –والله أعلم– أن المراد بذلك أن أراضي هؤلاء المُكذِّبين جعل الله يفتحها ويجتاحها ، ويحل القوارع بأطرافها ، تنبيها لهم قبل أن يجتاحهم النقص ، ويوقع الله بهم من القوارع ما لا يرده أحد ، ولهذا قال : ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ ويدخل في هذا حكمه الشرعي والقدري والجزائي .

فهذه الأحكام التي يحكم الله فيها ، توجد في غاية الحكمة والإتقان ، لا خلل فيها ولا نقص ، بل هي مبنية على القسط والعدل والحمد ، فلا يتعقَّبها أحد ولا سبيل إلى القدح فيها ، بخلاف حكم غيره فإنه قد يوافق الصواب وقد لا يوافقه ، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي : فلا يستعجلوا بالعذاب فإن كل ما هو آت ، فهو قريب .

[ ٤٢ : ٤٣ – ١٣ ] : ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ برسلهم وبالحق الذي جاءت به الرسل ، فلم يغن عنهم مكرهم ولم يصنعوا شيئا فإنهم يحاربون الله ويبارزونه ، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي : لا يقدر أحد أن يمكر مكرا إلا بإذنه ، وتحت قضائه وقدره ،

فإذا كانوا يمكرون بدينه فإن مكرهم سيعود عليهم بالخيبة والندم ، فإن الله ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي : همومها وإراداتها وأعمالها الظاهرة والباطنة .

والمكر لا بد أن يكون من كسبها فلا يخفى على الله مكرهم ، فيمتنع أن يمكروا مكرا يضر الحق وأهله ويفيدهم شيئا ، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي : ألهم أو لرسله ؟ ومن المعلوم أن العاقبة للمُتَّقين لا

للكفر وأعماله .

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أي : يُكذِّبونك ويُكذِّبون ما أُرسلت به ، ﴿قُلْ﴾ لهم -إن طلبوا على ذلك شهيدا : ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ وشهادته بقوله وفعله وإقراره ، أما قوله فبما أوحاه الله إلى أصدق خلقه مما يُثبت به رسالته ، وأما فعله فلأن الله تعالى أيَّد رسوله ونصره نصرا خارجا عن قدرته وقدرة أصحابه وأتباعه وهذا شهادة منه له بالفعل والتأييد .

وأما إقراره ، فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسوله ، وأنه أمر الناس باتباعه ، فمن اتَّبعه فله رضوان الله وكرامته ، ومن لم يتَّبعه فله النار والسخط وحل له ماله ودمه والله يقره على ذلك ، فلو تقول عليه بعض الأقاويل لعاجله بالعقوبة .

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهذا شامل لكل علماء أهل الكتابين ، فإنهم يشهدون للرسول من آمن واتبع الحق ، صرح بتلك الشهادة التي عليه ، ومن كتم ذلك فإخبار الله عنه أن عنده شهادة أبلغ من خبره ، ولو لم يكن عنده شهادة لرد استشهاده بالبرهان ، فسكوته يدل على أن عنده شهادة مكتومة .

وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب لأنهم أهل هذا الشأن ، وكل أمر إنما يستشهد فيه أهله ومن هم أعلم به من غيرهم ، بخلاف من هو أجنبي عنه ، كالأميين من مشركي العرب وغيرهم ، فلا فائدة في استشهادهم لعدم خبرتهم ومعرفتهم والله أعلم .

**تم تفسير سورة الرعد ،**

**والحمد لله رب العالمين .**

## ( ١٤ ) تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

### وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[ ١ : ٣ - ١٤ ] : ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ .

يُخبر تعالى أنه أنزل كتابه على رسوله محمد ﷺ لنفع الخلق ، ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والأخلاق السيئة وأنواع المعاصي إلى نور العلم والإيمان والأخلاق الحسنة ، وقوله : ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي : لا يحصل منهم المراد المحبوب لله ، إلا بإرادة من الله ومعونة ، ففيه حث للعباد على الاستعانة بربِّهم .

ثم فسّر النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب فقال : ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي : الموصّل إليه وإلى دار كرامته ، المشتمل على العلم بالحق والعمل به ، وفي ذكر ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ بعد ذكر الصراط الموصل إليه إشارة إلى أن من سلكه فهو عزيز بعز الله قوي ولو لم يكن له أنصار إلا الله ، محمود في أموره ، حسن العاقبة .

وليدل ذلك على أن صراط الله من أكبر الأدلة على ما لله من صفات الكمال ، ونعوت الجلال ، وأن الذي نصبه لعباده ، عزيز السلطان ، حميد في أقواله وأفعاله وأحكامه ، وأنه مألوه معبود بالعبادات التي هي منازل الصراط المستقيم ، وأنه كما أن له ملك السماوات والأرض خلقا ورزقا وتدبيرا ، فله الحكم على عباده بأحكامه الدينية ، لأنهم مِلْكه ، ولا يليق به أن يتركهم سُدى ، فلما بيّن الدليل والبرهان توعّد من لم ينقد لذلك ، فقال : ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ لا يقدر قدره ، ولا يوصف أمره ، ثم وصفهم بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ﴾ فرضوا بها واطمأنوا ، وغفلوا عن الدار الآخرة .

﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ التي نَصَبَها لعباده وبيّنها في كتبه وعلى ألسنة رسله ، فهؤلاء قد نابذوا مولاهم بالمُعاداة والمُحاربة ، ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أي : سبيل الله ﴿عِوَجًا﴾ أي : يحرصون على تهجينها وتقبيحها ، للتنفير عنها ، ولكن يأبى الله إلا أن يُتمّ نوره ولو كره الكافرون .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين ذكر وصفهم ﴿فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ لأنهم ضلُّوا وأضلُّوا ، وشاقوا الله ورسوله وحاربوهما ، فأي ضلال أبعد من هذا ؟ .

وأما أهل الإيمان فبعكس هؤلاء يؤمنون بالله وآياته ، ويستحبون الآخرة على الدنيا ويدعون إلى سبيل الله ويحسنونها مهما أمكنهم ، ويبيّنون استقامتها .

[٤ – ١٤] : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وهذا من لُطفه بعباده أنه ما أرسل رسولا ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ما يحتاجون إليه ، ويتمكّنون من تعلُّم ما أتى به ، بخلاف ما لو كانوا على غير لسانهم ، فإنهم يحتاجون إلى أن يتعلّموا تلك اللغة التي يتكلّم بها ، ثم يفهمون عنه ، فإذا بيّن لهم الرسول ما أمروا به ، ونهوا عنه وقامت عليهم حُجّة الله ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ ممن لم ينقد للهدى ، ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ ممن اختصه برحمته .

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي -من عزّته- أنه انفرد بالهداية والإضلال ، وتقليب القلوب إلى ما شاء ، ومن حكمته أنه لا يضع هدايته ولا إضلاله إلا بالمحل اللائق به .

ويستدل بهذه الآية الكريمة على أن علوم العربية المُوصّلة إلى تبيين كلامه وكلام رسوله أمور مطلوبة محبوبة لله لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها إلا إذا كان الناس بحالة لا يحتاجون إليها ، وذلك إذا تمرّنوا على العربية ، ونشأ عليها صغيرهم وصارت طبيعة لهم فحينئذ قد اكتفوا المؤنة ، وصلحوا لأن يتلقّوا عن الله وعن رسوله ابتداء كما تلقّى عنهم الصحابة رضي الله عنهم .

[٥ : ٨ – ١٤] : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى

ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ .

يُخبر تعالى : أنه أرسل موسى بآياته العظيمة الدالة على صدق ما جاء به وصحته ، وأمره بما أمر الله به رسوله محمدا ﷺ بل وبما أمر به جميع الرسل قومهم ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي : ظلمات الجهل والكفر وفروعه ، إلى نور العلم والإيمان وتوابعه .

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ أي : بنعمه عليهم وإحسانه إليهم ، وبأيامه في الأُمم المُكذِّبين ، ووقائعه بالكافرين ، ليشكروا نعمه وليحذروا عقابه ، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي : في أيام الله على العباد ﴿لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي : صبّار في الضرّاء والعُسر والضيق ، شكور على السرّاء والنعمة .

فإنه يستدل بأيامه على كمال قدرته وعميم إحسانه ، وتمام عدله وحكمته ، ولهذا امتثل موسى عليه السلام أمر ربه ، فذكّرهم نعم الله فقال : ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي : بقلوبكم وألسنتكم . ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ﴾ أي : يولونكم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي : أشدّه وفسّر ذلك بقوله : ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ﴾ أي : يبقونهن فلا يقتلونهن ، ﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾ الإنجاء ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي : نعمة عظيمة ، أو وفي ذلكم العذاب الذي ابتليتم به من فرعون وملئه ابتلاء من الله عظيم لكم ، لينظر هل تصبرون أم لا ؟ .

وقال لهم حاثًّا على شكر نعم الله : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي : أعلم ووعد ، ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ من نعمي ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ ومن ذلك أن يزيل عنهم النعمة التي أنعم بها عليهم .

والشكر : هو اعتراف القلب بنعم الله والثناء على الله بها وصرفها في مرضاة الله تعالى ، وكفر النعمة ضد ذلك .

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فلن تضرُّوا الله شيئا ، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ فالطاعات لا تزيد في مُلْكِه والمعاصي لا تنقصه ، وهو كامل الغنى حميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، ليس له من الصفات إلا كل صفة حمد وكمال ، ولا من الأسماء إلا كل اسم حسن ، ولا من الأفعال إلا كل فعل جميل .

[ ٩ : ١٢ - ١٤ ] : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ

﴿مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾

يقول تعالى مُخوِّفا عباده ما أحلَّه بالأُمم المُكذِّبة حين جاءتهم الرسل، فكذَّبوهم، فعاقبهم بالعقاب العاجل الذي رآه الناس وسمعوه فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ﴾ وقد ذكر الله قصصهم في كتابه وبسطها، ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾ من كثرتهم وكون أخبارهم اندرست.

فهؤلاء كلهم ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالأدلَّة الدالَّة على صدق ما جاءوا به، فلم يرسل الله رسولا إلا آتاه من الآيات ما يُؤمن على مثله البشر، فحين أتتهم رُسُلهم بالبيِّنات لم ينقادوا لها بل استكبروا عنها، ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: لم يؤمنوا بما جاءوا به ولم يتفوَّهوا بشيء مما يدل على الإيمان كقوله ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ﴾ [سورة البقرة ١٩].

﴿وَقَالُوٓا۟﴾ صريحا لرسلهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي: موقع في الريبة، وقد كذَبوا في ذلك وظلموا.

ولهذا ﴿قَالَتْ﴾ لهم ﴿رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أي: فإنه أظهر الأشياء وأجلاها، فمن شك في الله ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الذي وجود الأشياء مستند إلى وجوده، لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات، حتى الأمور المحسوسة، ولهذا خاطبتهم الرسل خطاب من لا يشك فيه ولا يصلح الريب فيه ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى منافعكم ومصالحكم ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ أي: ليثيبكم على الاستجابة لدعوته بالثواب العاجل والآجل، فلم يدعكم لينتفع بعبادتكم، بل النفع عائد إليكم.

فردُّوا على رسلهم رد السفهاء الجاهلين ﴿قَالُوٓا۟﴾ لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي: فكيف تفضلوننا بالنُّبوَّة والرسالة، ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ فكيف نترك رأي الآباء وسيرتهم لرأيكم؟، وكيف نطيعكم وأنتم بشر مثلنا؟. ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحُجَّة وبيِّنة ظاهرة، ومُرادهم بيِّنة يقترحونها هم، وإلا فقد تقدَّم أن رسلهم جاءتهم بالبيِّنات.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مُجيبين عن اقتراحهم واعتراضهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: صحيح وحقيقة أنا بشر مثلكم، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ ليس في ذلك ما يدفع ما جئنا به من الحق فإن ﴿ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ﴾ فإذا مَنَّ الله علينا بوحيه ورسالته، فذلك فضله وإحسانه، وليس لأحد أن يحْجُر على الله فضله ويمنعه من تفضُّله.

فانظروا ما جئناكم به فإن كان حقًّا فاقبلوه وإن كان غير ذلك فردُّوه ولا تجعلوا حالنا حُجَّة لكم على رد ما جئناكم به، وقولكم: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ فإن هذا ليس بأيدينا وليس لنا من الأمر شيء.

﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ فهو الذي إن شاء جاءكم به، وإن شاء لم يأتكم به وهو لا يفعل إلا ما هو مُقتضى حكمته ورحمته، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾

فيعتمدون عليه في جلب مصالحهم ودفع مضارهم لعلمهم بتمام كفايته وكمال قدرته وعميم إحسانه، ويثقون به في تيسير ذلك وبحسب ما معهم من الإيمان يكون توكُّلهم.

فعُلِم بهذا وجوب التوكُّل، وأنه من لوازم الإيمان، ومن العبادات الكبار التي يحبها الله ويرضاها، لتوقف سائر العبادات عليه، ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾

أي: أي شيء يمنعنا من التوكُّل على الله والحال أننا على الحق والهُدى، ومن كان على الحق والهُدى فإن هداه يوجب له تمام التوكُّل، وكذلك ما يعلم من أن الله متكفِّل بمعونة المهتدي وكفايته، يدعو إلى ذلك، بخلاف من لم يكن على الحق والهدى، فإنه ليس ضامنا على الله، فإن حاله مناقضة لحال المتوكِّل.

وفي هذا كالإشارة من الرسل عليهم الصلاة والسلام لقومهم بآية عظيمة، وهو أن قومهم - في الغالب- لهم القهر والغلبة عليهم، فتحدَّتهم رسلهم بأنهم متوكِّلون على الله، في دفع كيدكم ومكركم، وجازمون بكفايته إيَّاهم، وقد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إتلافهم وإطفاء ما معهم من الحق، فيكون هذا كقول نوح لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [سورة يونس ٧١]الآيات.

وقول هود عليه السلام قال: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [سورة هود ٥٤ - ٥٥].

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ أي: ولنستمرَّن على دعوتكم ووعظكم وتذكيركم ولا نُبالي بما يأتينا منكم من الأذى فإنا سنوطِّن أنفسنا على ما ينالنا منكم من الأذى، احتسابا للأجر ونصحا لكم لعل الله أن يهديكم مع كثرة التذكير، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وحده لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فإن التوكُّل عليه مفتاح لكل خير.

واعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام توكُّلهم في أعلى المطالب وأشرف المراتب وهو التوكُّل على الله في إقامة دينه ونصره، وهداية عبيده، وإزالة الضلال عنهم، وهذا أكمل ما يكون من التوكُّل.

[١٣: ١٧ - ١٤] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾.

لما ذكر دعوة الرسل لقومهم ودوامهم على ذلك وعدم مللهم، ذكر منتهى ما وصلت بهم الحال مع قومهم فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ﴾ متوعِّدين لهم ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ وهذا أبلغ ما يكون من الرَّد، وليس بعد هذا فيهم مطمع، لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى بل توعَّدوهم بالإخراج من ديارهم ونسبوها إلى أنفسهم وزعموا أن الرسل لا حق لهم فيها، وهذا من أعظم الظلم، فإن الله أخرج عباده إلى الأرض، وأمرهم بعبادته، وسخَّر لهم الأرض وما عليها يستعينون بها على عبادته. فمن استعان بذلك على عبادة الله حلَّ له ذلك وخرج من التَّبِعة، ومن استعان بذلك على الكفر وأنواع

المعاصي ، لم يكن ذلك خالصا له ، ولم يحل له ، فعُلِمَ أن أعداء الرسل في الحقيقة ليس لهم شيء من الأرض التي توعَّدوا الرسل بإخراجهم منها . وإن رجعنا إلى مُجرَّد العادة فإن الرسل من جملة أهل بلادهم ، وأفراد منهم ، فلأي شيء يمنعونهم حقًّا لهم صريحا واضحا ؟ ! ، هل هذا إلا من عدم الدين والمروءة بالكُلِّيَّة ؟ .

ولهذا لما انتهى مكرهم بالرسل إلى هذه الحال ما بقي حينئذ إلا أن يمضي الله أمره ، وينصر أولياءه ، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ بأنواع العقوبات .

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ﴾ أي : العاقبة الحسنة التي جعلها الله للرُّسل ومن تبعهم جزاء ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ عليه في الدنيا وراقب الله مراقبة من يعلم أنه يراه ، ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي : ما توعَّدت به من عصاني فأوجب له ذلك الانكفاف عما يكرهه الله والمُبادرة إلى ما يحبه الله .

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ أي : الكفار أي : هم الذين طلبوا واستعجلوا فتح الله وفرقانه بين أوليائه وأعدائه فجاءهم ما استفتحوا به وإلا فالله حليم لا يُعاجِل من عصاه بالعقوبة ، ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي : خسر في الدنيا والآخرة من تجبَّر على الله وعلى الحق وعلى عباد الله واستكبر في الأرض وعاند الرسل وشاقهم .

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي : جهنم لهذا الجبار العنيد بالمرصاد ، فلا بد له من ورودها فيذاق حينئذ العذاب الشديد ، ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ في لونه وطعمه ورائحته الخبيثة ، وهو في غاية الحرارة .

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ من العطش الشديد ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ فإنه إذا قرب إلى وجهه شواه وإذا وصل إلى بطنه قطَّع ما أتى عليه من الأمعاء ، ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي : يأتيه العذاب الشديد من كل نوع من أنواع العذاب ، وكل نوع منه من شدته يبلغ إلى الموت ولكن الله قضى أن لا يموتوا كما قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [ سُورة فاطر ٣٦ - ٣٧] .

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ أي : الجبَّار العنيد ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي : قوي شديد لا يعلم وصفه وشدَّته إلا الله تعالى .

[١٨ - ١٤] : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ .

يُخبر تعالى عن أعمال الكُفَّار التي عملوها : إما أن المراد بها الأعمال التي عملوها لله ، بأنها في ذهابها وبطلانها واضمحلالها كاضمحلال الرماد ، الذي هو أدق الأشياء وأخفها ، إذا اشتدت به الريح في يوم عاصف شديد الهبوب ، فإنه لا يبقى منه شيئا ، ولا يقدر منه على شيء يذهب ويضمحل ، فكذلك أعمال الكُفَّار ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ ولا على مِثقال ذرَّة منه لأنه مبني على الكفر والتكذيب .

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ حيث بطل سعيهم واضمحل عملهم ، وإما أن المُراد بذلك أعمال الكُفَّار التي عملوها ليكيدوا بها الحق ، فإنهم يسعون ويكدحون في ذلك ومكرهم عائد عليهم ولن يضرُّوا الله ورسله وجنده وما معهم من الحق شيئا .

[ ١٩ : ٢١ - ١٤] : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ

جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾

يُنبِّه تعالى عباده بأنه ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ليعبده الخلق ويعرفوه، ويأمرهم وينهاهم وليستدلُّوا بهما وما فيهما على ما له من صفات الكمال، وليعلموا أن الذي خلق السماوات والأرض -على عظمهما وسعتهما- قادر على أن يعيدهم خلقا جديدا، ليجازيهم بإحسانهم وإساءتهم، وأن قدرته ومشيئته لا تقصر عن ذلك ولهذا قال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾

يُحتمل أن المعنى: إن يشأ يذهبكم ويأت بقوم غيركم يكونون أطوع لله منكم، ويحتمل أن المراد أنه: إن يشأ يفنيكم ثم يعيدهم بالبعث خلقا جديدا، ويدل على هذا الاحتمال ما ذكره بعده من أحوال القيامة.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: بممتنع بل هو سهل عليه جدا، ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [سورة لُقمان ٢٨]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [سورة الرُّوم ٢٧].

﴿وَبَرَزُواْ﴾ أي: الخلائق ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ حين ينفخ في الصور فيخرجون من الأجْدَاث إلى ربِّهم فيقفون في أرض مستوية قاع صَفْصَف، لا ترى فيها عوجا ولا أمْتًا، ويبرزون له لا يخفى عليه منهم خافية، فإذا برزوا صاروا يتحاجُّون، وكل يدفع عن نفسه، ويدافع ما يقدر عليه، ولكن أني لهم ذلك؟.

فيقول ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ أي: التابعون والمُقلِّدون ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ وهم: المتْبوعون الذين هم قادة في الضلال: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: في الدنيا، أمرتمونا بالضلال، وزينتموه لنا فأغويتمونا، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: ولو مِثقال ذرَّة، ﴿قَالُواْ﴾ أي: المتْبوعون والرؤساء أغويناكم كما غوينا و ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ فلا يغني أحد أحدا، ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ﴾ من العذاب ﴿أَمْ صَبَرْنَا﴾ عليه، ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: من ملجأ نلجأ إليه، ولا مهرب لنا من عذاب الله.

[٢٢: ٢٣ - ١٤]: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾.

أي: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الذي هو سبب لكل شر يقع ووقع في العالم، مُخاطبا لأهل النار ومُتبرِّئا منهم ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ ودخل أهل الجنَّة الجنَّة وأهل النَّار النَّار، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ على ألسنة رسله فلم تطيعوه، فلو أطعتموه لأدركتم الفوز العظيم، ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ الخير ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ أي: لم يحصل ولن يحصل لكم ما منيتكم به من الأماني الباطلة.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي : من حُجَّة على تأييد قولي ، ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أي : هذا نهاية ما عندي أني دعوتكم إلى مرادي وزينته لكم ، فاستجبتم لي اتِّباعا لأهوائكم وشهواتكم ، فإذا كانت الحال بهذه الصورة ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ فأنتم السبب وعليكم المدار في موجب العقاب ، ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي : بمغيثكم من الشدَّة التي أنتم بها ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ كل له قسط من العذاب .

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي : تبرأت من جعلكم لي شريكا مع الله فلست شريكا لله ولا تجب طاعتي ، ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بطاعة الشيطان ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ خالدين فيه أبدا .

وهذا من لُطف الله بعباده ،أن حذَّرهم من طاعة الشيطان وأخبر بمداخله التي يدخل منها على الإنسان ومقاصده فيه ، وأنه يقصد أن يدخله النيران ، وهنا بيَّن لنا أنه إذا دخل النار وحزبه أنه يتبرَّأ منهم هذه البراءة ، ويكفر بشركهم ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [ سُورة فاطر ١٤ ] .

واعلم أن الله ذكر في هذه الآية أنه ليس له سلطان ، وقال في آية أخرى ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [ سُورة النَّحل ١٠٠ ] ، فالسلطان الذي نفاه عنه هو سلطان الحُجَّة والدليل ، فليس له حُجَّة أصلا على ما يدعو إليه ، وإنما نهاية ذلك أن يقيم لهم من الشُّبه والتزيينات ما به يتجرَّؤون على المعاصي .

وأما السلطان الذي أثبته فهو التسلط بالإغراء على المعاصي لأوليائه يُؤزّهم إلى المعاصي أزًّا ، وهم الذين سلطوه على أنفسهم بموالاته والالتحاق بحزبه ، ولهذا ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكَّلون .

ولما ذكر عقاب الظالمين ذكر ثواب الطائعين فقال : ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي : قاموا بالدين ، قولا ، وعملا ، واعتقادا ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فيها من اللذَّات والشهوات ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي : لا بحولهم وقوَّتهم بل بحول الله وقوَّته ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي : يُحيي بعضهم بعضا بالسلام والتحيَّة والكلام الطيِّب .

[ ٢٤ : ٢٦ - ١٤ ] : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ .

يقول تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ « وهي شهادة أن لا إله إلا الله ، وفروعها ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهي النخلة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ في الأرض ﴿وَفَرْعُهَا﴾ منتشر ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وهي كثيرة النفع دائما ، ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا﴾ أي : ثمرتها ﴿كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ فكذلك شجرة الإيمان ، أصلها ثابت في قلب المؤمن ، علما واعتقادا ، وفرعها من الكلم الطيب والعمل الصالح والأخلاق المَرضيَّة ، والآداب الحسنة في السماء دائما يصعد إلى الله منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان ما ينتفع به المؤمن وينفع غيره ، ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ما أمرهم به ونهاهم عنه ،

فإن في ضرب الأمثال تقريبا للمعاني المعقولة من الأمثال المحسوسة ، ويتبيَّن المعنى الذي أراده الله غاية البيان ، ويتضَّح غاية الوضوح ، وهذا من رحمته وحسن تعليمه .

فلله أتم الحمد وأكمله وأعمه ، فهذه صفة كلمة التوحيد وثباتها ، في قلب المؤمن .

ثم ذكر ضدها وهي كلمة الكفر وفروعها فقال : ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ المأكل والمطعم وهي : شجرة الحنظل ونحوها ، ﴿اجْتُثَّتْ﴾ هذه الشجرة ﴿مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي : من ثبوت فلا عروق تمسكها ، ولا ثمرة صالحة ، تنتجها ، بل إن وجد فيها ثمرة ، فهي ثمرة خبيثة ، كذلك كلمة الكفر والمعاصي ، ليس لها ثبوت نافع في القلب ، ولا تُثمِر إلا كل قول خبيث وعمل خبيث يستضر به صاحبه ، ولا ينتفع ، فلا يصعد إلى الله منه عمل صالح ولا ينفع نفسه ، ولا ينتفع به غيره .

[ ٢٧ : ١٤ ] : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ .

يُخبر تعالى أنه يُثبِّت عباده المؤمنين ، أي : الذين قاموا بما عليهم من إيمان القلب التام ، الذي يستلزم أعمال الجوارح ويُثمرها ، فيثبِّتهم الله في الحياة الدنيا عند ورود الشبهات بالهداية إلى اليقين ، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومراداتها .

وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي والخاتمة الحسنة ، وفي القبر عند سؤال المَلَكين ، للجواب الصحيح ، إذا قيل للميِّت « من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ » هداهم للجواب الصحيح بأن يقول المؤمن : « الله ربي والإسلام ديني ومحمد نبيي »

﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ عن الصواب في الدنيا والآخرة ، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم ، وفي هذه الآية دلالة على فتنة القبر وعذابه ، ونعيمه ، كما تواترت بذلك النصوص عن النبي ﷺ في الفتنة ، وصفتها ، ونعيم القبر وعذابه .[١٢٨]

[ ٢٨ : ٣٠ – ١٤ ] : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ۝ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ .

يقول تعالى – مُبيِّنا حال المُكذِّبين لرسوله من كُفَّار قريش وما آل إليه أمرهم : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ ونعمة الله هي إرسال محمد ﷺ إليهم ، يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة ، فبدَّلوا هذه النعمة بردِّها ، والكفر بها والصد عنها بأنفسهم .

﴿و﴾ صدهم غيرهم حتى ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ وهي النار حيث تسبَّبوا لإضلالهم ، فصاروا وبالا على قومهم ، من حيث يظن نفعهم ، ومن ذلك أنهم زيَّنوا لهم الخروج يوم « بدر » ليُحاربوا الله ورسوله ، فجرى عليهم ما جرى ، وقتل كثير من كبرائهم وصناديدهم في تلك الوقعة .

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ أي : يُحيط بهم حرها من جميع جوانبهم ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ * وَجَعَلُوا لِلَّهِ

---

(١٢٨) * أورده الكتَّاني في « نظم المُتناثر من الحديث المُتواتر » ص ٨٢ وقال : (الأحاديث بذلك مُتواترة ) .اهـ

أندادًا﴾ أي: نُظراء وشُركاء ﴿لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ أي: ليضلوا العباد عن سبيل الله بسبب ما جعلوا لله من الأنداد ودعوهم إلى عبادتها، ﴿قُلْ﴾ لهم مُتوعِّدا: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ بكفركم وضلالكم قليلا، فليس ذلك بنافعكم ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أي: مآلكم ومقركم ومأواكم فيها وبئس المصير.

[٣١ - ١٤]: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾.

أي: قل لعبادي المؤمنين آمرا لهم بما فيه غاية صلاحهم وأن ينتهزوا الفرصة، قبل أن لا يُمكنهم ذلك: ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ ظاهرا وباطنا ﴿وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي: من النِّعم التي أنعمنا بها عليهم قليلا أو كثيرا ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ وهذا يشمل النفقة الواجبة كالزكاة ونفقة من تجب عليه نفقته، والمُستحبّة كالصدقات ونحوها.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ أي: لا ينفع فيه شيء ولا سبيل إلى استدراك ما فات لا بمُعاوضة بيع وشراء ولا بهبة خليل وصديق، فكل امرئ له شأن يُغنيه، فليقدم العبد لنفسه، ولينظر ما قدَّمه لغد، وليتفقَّد أعماله، ويحاسب نفسه، قبل الحساب الأكبر.

[٣٢: ٣٤ - ١٤]: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

يُخبر تعالى: أنه وحده ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ على اتِّساعهما وعِظمهما، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهو: المطر الذي ينزله الله من السحاب، ﴿فَأَخْرَجَ﴾ بذلك الماء ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ المختلفة الأنواع ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ ورزقا لأنعامكم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ أي: السُّفُن والمراكب.

﴿لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ فهو الذي يسَّر لكم صنعتها وأقدركم عليها، وحفظها على تيار الماء لتحملكم، وتحمل تجاراتكم، وأمتعتكم إلى بلد تقصدونه.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ لتسقي حروثكم وأشجاركم وتشربوا منها.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ لا يفتُران، ولا ينيان، يسعيان لمصالحكم، من حساب أزمنتكم ومصالح أبدانكم، وحيواناتكم، وزروعكم، وثماركم، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ لتسكُنوا فيه ﴿وَالنَّهَارَ﴾ مبصرا لتبتغوا من فضله.

﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي: أعطاكم من كل ما تعلَّقت به أمانيكم وحاجتكم مما تسألونه إياه بلسان الحال، أو بلسان المقال، من أنعام، وآلات، وصناعات وغير ذلك.

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ فضلا عن قيامكم بشكرها ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ أي: هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم مُتجرِّئ على المعاصي مُقصِّر في حقوق ربه كفَّار لنعم الله، لا يشكرها ولا يعترف بها إلا من هداه الله فشكر نعمه، وعرف حق ربه وقام به.

ففي هذه الآيات من أصناف نعم الله على العباد شيء عظيم ، مُجمل ومُفصَّل يدعو الله به العباد إلى القيام بشكره ، وذكره ويحثهم على ذلك ، ويرغبهم في سؤاله ودعائه ، آناء الليل والنهار ، كما أن نعمه تتكرَّر عليهم في جميع الأوقات .

[٣٥ - ١٤] : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ .

أي : ﴿وَ﴾ اذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام في هذه الحالة الجميلة ، إذ قال : ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ أي : الحرم ﴿ءَامِنًا﴾ فاستجاب الله دعاءه شرعا وقدرا ، فحرَّمه الله في الشرع ويسَّر من أسباب حُرْمته قدرا ما هو معلوم ، حتى إنه لم يرده ظالم بسوء إلا قصمه الله كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم .

ولما دعا له بالأمن دعا له ولبنيه بالأمن فقال : ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ أي : اجعلني وإيَّاهم جانبا بعيدا عن عبادتها والإلمام بها ، ثم ذكر الموجب لخوفه عليه وعلى بنيه بكثرة من افتتن وابتلي بعبادتها فقال :

[٣٦ - ١٤] : ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

أي : ضلُّوا بسببها ، ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ على ما جئت به من التوحيد والإخلاص لله رب العالمين ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ لتمام الموافقة ومن أحب قوما وتبعهم التحق بهم .

﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا من شفقة الخليل عليه الصلاة والسلام حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله والله تبارك وتعالى أرحم منه بعباده لا يُعذِّب إلَّا من تمرَّد عليه .

[٣٧ - ١٤] : ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ .

وذلك أنه أتى بـ « هاجر » أم إسماعيل وبابنها إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو في الرَّضاع ، من الشام حتى وضعهما في « مَكَّة » وهي - إذ ذاك - ليس فيها سكن ، ولا داع ولا مجيب ، فلما وضعهما دعا ربَّه بهذا الدعاء فقال - مُتضرِّعا مُتوكِّلا على ربِّه : ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ أي : لا كل ذريَّتي لأن إسحاق في الشام وباقي بنيه كذلك وإنما أسكن في « مَكَّة » إسماعيل وذُريَّته ، وقوله : ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ أي : لأن أرض « مَكَّة » لا تصلح للزراعة .

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي : اجعلهم موحِّدين مُقيمين الصلاة لأن إقامة الصلاة من أخص وأفضل العبادات الدينية فمن أقامها كان مُقيما لدينه ، ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي : تحبهم وتحب الموضع الذي هم ساكنون فيه .

فأجاب الله دعاءه فأخرج من ذُريَّة إسماعيل محمدا ﷺ حتى دعا ذُريَّته إلى الدين الإسلامي وإلى مِلَّة أبيهم إبراهيم فاستجابوا له وصاروا مُقيمي الصلاة .

وافترض الله حج هذا البيت الذي أسكن به ذُريَّة إبراهيم وجعل فيه سرًّا عجيبا جاذبا للقلوب ، فهي تَحُجُّه ولا تقضي منه وَطَرا على الدوام ، بل كلما أكثر العبد التردُّد إليه ازداد شوقه وعظم ولعه وتوقه ، وهذا

سر إضافته تعالى إلى نفسه المُقَدَّسَة .

﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ فأجاب الله دعاءه ، فصار يَجْبِي إليه ثمرات كل شيء ، فإنك ترى « مَكَّة » المُشرَّفة كل وقت والثمار فيها مُتوفِّرة والأرزاق تتوالى إليها من كُلِّ جانب .

[٣٨ – ١٤] : ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ .

أي : أنت أعلم بنا منا ، فنسألك من تدبيرك وتربيتك لنا أن تُيسِّر لنا من الأُمور التي نعلمها والتي لا نعلمها ما هو مقتضى علمك ورحمتك ، ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ومن ذلك هذا الدعاء الذي لم يقصد به الخليل إلَّا الخير وكثرة الشكر لله رب العالمين .

[٣٩ – ١٤] : ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ .

فهبتهم من أكبر النعم ، وكونهم على الكبر في حال الإياس من الأولاد نعمة أخرى ، وكونهم أنبياء صالحين أجَلُّ وأفضل ، ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي : لقريب الإجابة ممن دعاه وقد دعوته فلم يخيب رجائي ، ثم دعا لنفسه ولذُرِّيَّته ، فقال :

[ ٤٠ : ٤١ – ١٤] : ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ۝٤٠ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ .

فاستجاب الله له في ذلك كله إلَّا أن دعاءه لأبيه إنما كان عن مَوْعِدَة وعده إيَّاه ، فلما تبيَّن له أنه عدو لله تبرَّأ منه .

[ ٤٢ : ٤٣ – ١٤] : ثم قال تعالى : ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٤٢ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾ .

هذا وعيد شديد للظالمين ، وتسلية للمظلومين ، يقول تعالى : ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ حيث أمهلهم وأدرَّ عليهم الأرزاق ، وتركهم يتقلَّبون في البلاد آمنين مُطمئنين ، فليس في هذا ما يدل على حسن حالهم فإنَّ الله يُملي للظَّالم ويُمْهله ليزداد إثما ، حتى إذا أخذه لم يُفْلته[١٢٩]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [ سُورة هود ١٠٢] ، والظلم – هاهنا – يشمل الظلم فيما بين العبد وربه وظلمه لعباد الله . ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أي : لا تَطْرَف من شدَّة ما ترى من الأهوال وما أزعجها من القلاقل .

﴿مُهۡطِعِينَ﴾ أي : مُسْرِعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحُضور بين يدي الله للحساب لا امتناع لهم ولا محيص ولا ملجأ ، ﴿مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ﴾ أي : رافعيها قد غُلَّتْ أيديهم إلى الأذقان ، فارتفعت لذلك رءوسهم ، ﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾ أي : أفئدتهم فارغة من قلوبهم قد صعدت إلى

(١٢٩) * هذا المعنى موجود في حديث مُتَّفق عليه . أخرجه البُخاري في صحيحه : ( كتاب تفسير القُرآن / باب : قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [ سُورة هود ١٠٢] / ح ٤٦٨٦) .
ومُسلم في صحيحه : ( كتاب البر والصِّلة / باب : تحريم الظُّلم / ح ٦١) .

الحناجر لكنها مملوءة من كُلِّ هم وغم وحزن وقلق .

[ ٤٤ : ٤٦ - ١٤ ] : ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ .

يقول تعالى لنبيّه محمد ﷺ : ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي : صف لهم صفة تلك الحال وحذِّرهم من الأعمال الموجبة للعذاب الذي حين يأتي في شدائده وقلاقله ، ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالكفر والتكذيب وأنواع المعاصي نادمين على ما فعلوا سائلين للرجعة في غير وقتها ، ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي : رُدَّنا إلى الدنيا فإنا قد أبصرنا ، ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ والله يدعو إلى دار السلام ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ وهذا كله لأجل التخلُّص من العذاب الأليم وإلا فهم كَذَبَة في هذا الوعد ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [ سُورة الأنعام ٢٨ ] .

ولهذا يُوبَّخون ويُقال لهم : ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ عن الدنيا وانتقال إلى الآخرة ، فها قد تبيَّن حنثكم في إقسامكم ، وكَذِبكم فيما تدَّعون ، ﴿وَ﴾ ليس عملكم قاصر في الدنيا من أجل الآيات البيِّنات ، بل ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ من أنواع العقوبات ؟ وكيف أحل الله بهم العقوبات ، حين كذَّبوا بالآيات البيِّنات ، وضربنا لكم الأمثال الواضحة التي لا تدع أدنى شك في القلب إلا أزالته ، فلم تنفع فيكم تلك الآيات بل أعرضتم ودمتم على باطلكم حتى صار ما صار ، ووصلتم إلى هذا اليوم الذي لا ينفع فيه اعتذار من اعتذر بباطل .

﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟﴾ أي : المُكذِّبون للرُسُل ﴿مَكْرَهُمْ﴾ الذي وصلت إرادتهم وقدر لهم عليه ، ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي : هو محيط به علما وقدرة فإنه عاد مكرهم عليهم ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [ سُورة فاطر ٤٣ ] .

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ أي : ولقد كان مكر الكُفَّار المُكذِّبين للرُسُل بالحق وبمن جاء به - من عِظَمه - لتزول الجبال الرَّاسيات بسببه عن أماكنها ، أي : ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [ سُورة نوح ٢٢ ] لا يُقادَر قدره ولكن الله ردَّ كيدهم في نُحورهم .

ويدخل في هذا كُلُّ من مكر من المُخالفين للرُسُل لينصر باطلا ، أو يُبطل حقًّا ، والقصد أن مكرهم لم يُغن عنهم شيئا ، ولم يضرُّوا الله شيئا وإنما ضرُّوا أنفسهم .

[ ٤٧ : ٥٢ - ١٤ ] : ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ .

يقول تعالى : ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ بنجاتهم ونجاة أتباعهم وسعادتهم وإهلاك

أعدائهم وخُذلانهم في الدنيا وعقابهم في الآخرة ، فهذا لا بد من وقوعه لأنه ، وعد به الصادق قولا على ألسنة أصدق خلقه وهم الرسل ، وهذا أعلى ما يكون من الأخبار ، خصوصا وهو مُطابِق للحكمة الإلهيَّة ، والسُّنن الرَّبَّانيَّة ، وللعُقول الصحيحة ، والله تعالى لا يُعْجِزه شيء فإنه ﴿عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾

أي : إذا أراد أن ينتقم من أحد ، فإنه لا يُفَوِّته ولا يُعْجِزه ، وذلك في يوم القيامة ، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ تُبدَّل غير السماوات ، وهذا التبديل تبديل صفات ، لا تبديل ذات ، فإن الأرض يوم القيامة تُسوَّى وتُمَد كمَدِّ الأديم ويلقى ما على ظهرها من جبل ومَعْلَم ، فتصير قاعا صَفْصَفا ، لا ترى فيها عِوجا ولا أَمْتا ، وتكون السماء كالمُهْلِ ، من شِدَّة أهوال ذلك اليوم ثم يطويها الله – تعالى – بيمينه .

﴿وَبَرَزُواْ﴾ أي : الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثهم ، ونُشورهم في مَحِلٍّ لا يخفى منهم على الله شيء ، ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي : المُتَفَرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله العظيمة ، وقهره لكُلِّ العوالم فكلها تحت تصرُّفه وتدبيره ، فلا يتحرَّك منها مُتَحَرِّك ، ولا يسْكُن ساكن إلا بإذنه .

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي : الذين وصفهم الإجرام وكثرة الذنوب ، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ في ذلك اليوم ﴿مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ أي : يُسَلْسَل كل أهل عمل من المجرمين بسلاسل من نار فيُقادون إلى العذاب في أذل صورة وأشنعها وأبشعها .

﴿سَرَابِيلُهُم﴾ أي : ثيابهم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ وذلك لشدَّة اشتعال النار فيهم وحرارتها ونتن ريحها ، ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ﴾ التي هي أشرف ما في أبدانهم ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي : تحيط بها وتصلاها من كُلِّ جانب ، وغير الوجوه من باب أولى وأحرى ، وليس هذا ظلما من الله لهم وإنما هو جزاء لما قدَّموا وكسبوا ، ولهذا قال تعالى : ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ من خير وشر بالعدل والقسط الذي لا جور فيه بوجه من الوجوه .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ كقوله تعالى : ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [ سُورة الأنبياء ١] ، ويُحتمل أن معناه : سريع المُحاسَبة فيُحاسِب الخلق في ساعة واحدة ، كما يرزقهم ويُدبِّرهم بأنواع التدابير في لحظة واحدة لا يشغله شأن عن شأن وليس ذلك بعسير عليه .

فلما بيَّن البيان المُبين في هذا القُرآن قال في مدحه : ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي : يتبلَّغون به ويتزوَّدون إلى الوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات ، لما اشتمل عليه من الأُصول والفروع ، وجميع العلوم التي يحتاجها العباد .

﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ لما فيه من الترهيب من أعمال الشر وما أعد الله لأهلها من العقاب ، ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ حيث صرف فيه من الأدلة والبراهين على أُلوهيَّته ووحدانيَّته ، ما صار ذلك حق اليقين ، ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي : العُقول الكاملة ما ينفعهم فيفعلونه ، وما يضرُّهم فيتركونه ، وبذلك صاروا أولي الألباب والبصائر . إذ بالقُرآن ازدادت معارفهم وآراؤهم ، وتنورت أفكارهم لما أخذوه غضًّا طريًّا فإنه لا يدعو إلَّا إلى أعلى الأخلاق والأعمال وأفضلها ، ولا يُستدل على ذلك إلا بأقوى الأدلة وأبينها .

وهذه القاعدة إذا تدرَّب بها العبد الذَّكي لم يزل في صعود ورُقِي على الدوام في كل خصلة حميدة .

**والحمد لله رب العالمين . تم تفسير سورة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.**

# ( ١٥ ) تفسير سورة الحجر

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[ ١ : ٥ – ١٥ ] : ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ .

يقول تعالى مُعظِّما لكتابه مادحا له ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي : الآيات الدالة على أحسن المعاني وأفضل المطالب ، ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ للحقائق بأحسن لفظ وأوضحه وأدله على المقصود ، وهذا مما يوجب على الخلق الانقياد إليه ، والتسليم لحكمه وتلقيه بالقبول والفرح والسرور .

فأما من قابل هذه النعمة العظيمة بردِّها والكفر بها ، فإنه من المُكذِّبين الضالين ، الذين سيأتي عليهم وقت يتمنّون أنهم مسلمون ، أي : مُنقادون لأحكامه وذلك حين ينكشف الغطاء وتظهر أوائل الآخرة ومُقدِّمات الموت ، فإنهم في أحوال الآخرة كلها يتمنُّون أنهم مسلمون ، وقد فات وقت الإمكان ، ولكنَّهم في هذه الدنيا مُغترُّون .

فـ ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ بلذَّاتهم ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ أي : يؤمِّلون البقاء في الدنيا فيلهيهم عن الآخرة ، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أن ما هم عليه باطل وأن أعمالهم ذهبت خُسرانا عليهم ولا يغترُّوا بإمهال الله تعالى فإن هذه سُنَّته في الأُمم .

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ كانت مُستحقَّة للعذاب ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ مُقدَّر لإهلاكها .

﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ وإلا فالذنوب لا بد من وقوع أثرها وإن تأخَّر .

[ ٦ : ٩ – ١٥ ] : ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ .

أي : وقال المُكذِّبون لمحمد ﷺ استهزاء وسُخرية : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ على زعمك ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ إذ تظن أنا سنتبعك ونترك ما وجدنا عليه آباءنا لمُجرَّد قولك .

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ يشهدون لك بصحَّة ما جئت به ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فلما لم تأت بالملائكة فلست بصادق ، وهذا من أعظم الظُّلم والجهل .

أما الظلم فظاهر فإن هذا تجرُّؤ على الله وتعنُّت بتعيين الآيات التي لم يخترها وحصل المقصود والبرهان بدونها من الآيات الكثيرة الدالَّة على صحَّة ما جاء به ، وأما الجهل ، فإنهم جهلوا مصلحتهم من مضرَّتهم ،

فليس في إنزال الملائكة، خير لهم بل لا ينزل الله الملائكة إلا بالحق الذي لا إمهال على من لم يتبعه وينقد له.

﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا﴾ أي: حين تنزل الملائكة، إن لم يؤمنوا، ولن يؤمنوا بـ ﴿إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾ أي: بمهملين، فصار طلبهم لإنزال الملائكة تعجيلا لأنفسهم بالهلاك والدمار، فإن الإيمان ليس في أيديهم وإنما هو بيد الله، ﴿۞ وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾ [سورة الأنعام ١١١]، ويكفيهم من الآيات إن كانوا صادقين، هذا القرآن العظيم ولهذا قال هنا: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ أي: القرآن الذي فيه ذكرى لكل شيء من المسائل والدلائل الواضحة، وفيه يتذكَّر من أراد التذكُّر، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي: في حال إنزاله وبعد إنزاله، ففي حال إنزاله حافظون له من استراق كل شيطان رجيم، وبعد إنزاله أودعه الله في قلب رسوله، واستودعه فيها ثم في قلوب أمته، وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها والزيادة والنقص، ومعانيه من التبديل، فلا يُحرِّف مُحرِّف معنى من معانيه إلا وقيَّض الله له من يُبيِّن الحق المُبين، وهذا من أعظم آيات الله ونعمه على عباده المؤمنين، ومن حفظه أن الله يحفظ أهله من أعدائهم، ولا يسلط عليهم عدوا يجتاحهم.

[١٠: ١٣ - ١٥]: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١١ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

يقول تعالى لنبيِّه إذ كذَّبه المشركون: لم يزل هذا دأب الأُمم الخالية والقرون الماضية: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: فرقهم وجماعتهم رُسُلا.

﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ يدعوهم إلى الحق والهُدى ﴿إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ﴾ أي: ندخل التكذيب ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: الذين وصفهم الظلم والبَهْت، عاقبناهم لما اشتبهت قلوبهم بالكفر والتكذيب، تشابهت مُعاملتهم لأنبيائهم ورُسُلهم بالاستهزاء والسُّخرية وعدم الإيمان ولهذا قال: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: عادة الله فيهم بإهلاك من لم يُؤمن بآيات الله.

[١٤: ١٥ - ١٥]: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾.

أي: ولو جاءتهم كل آية عظيمة لم يُؤمنوا وكابروا ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فصاروا يعرجون فيه، ويشاهدونه عيانا بأنفسهم لقالوا من ظلمهم وعنادهم مُنكِرين لهذه الآية: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾ أي: أصابها سكر وغشاوة حتى رأينا ما لم نر، ﴿بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ أي: ليس هذا بحقيقة، بل هذا سحر، وقوم وصلت بهم الحال إلى هذا الإنكار، فإنهم لا مطمع فيهم ولا رجاء، ثم ذكر الآيات الدالات على ما جاءت به الرسل من الحق فقال:

[١٦: ٢٠ - ١٥]: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ۝١٨ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن

﴿كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ .

يقول تعالى - مُبيِّنا كمال اقتداره ورحمته بخلقه - : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ أي : نجوما كالأبراج والأعلام العظام يُهتدى بها في ظُلُمات البر والبحر ، ﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ فإنه لولا النجوم لما كان للسماء هذا المنظر البهي والهيئة العجيبة ، وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمُّل فيها والنظر في معانيها والاستدلال بها على باريها .

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ إذا استرق السمع أتبعته الشُّهُب الثَّواقِب فبقيت السماء ظاهرها مُجمَّلا بالنُّجوم النيرات وباطنها محروسا ممنوعا من الآفات .

﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ أي : في بعض الأوقات قد يسترق بعض الشياطين السمع بخفية واختلاس ، ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ أي : بين مُنير يقتله أو يَخْبِله . فرُبَّما أدركه الشهاب قبل أن يوصلها الشيطان إلى وليِّه فينقطع خبر السماء عن الأرض ، وربما ألقاها إلى وليِّه قبل أن يدركه الشهاب فيضمُّها ويكذب معها مائة كذبة ، ويستدل بتلك الكلمة التي سُمِعَت من السماء .

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أي : وسَّعْناها سِعَة يتمكَّن الآدميون والحيوانات كلها على الامتداد بأرجائها والتناول من أرزاقها والسكون في نواحيها .

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي : جبالا عظاما تحفظ الأرض بإذن الله أن تَميد وتُثبِّتها أن تزول ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أي : نافع مُتقوِّم يضطر إليه العباد والبلاد ما بين نخيل وأعناب وأصناف الأشجار وأنواع النبات .

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ من الحرث ومن الماشية ومن أنواع المكاسب والحرف . ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ أي : أنعمنا عليكم بعبيد وإماء وأنعام لنفعكم ومصالحكم وليس عليكم رزقها ، بل خوَّلكم الله إيَّاها وتكفَّل بأرزاقها .

[٢١ - ١٥] : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ .

أي : جميع الأرزاق وأصناف الأقدار لا يملكها أحد إلا الله ، فخزائنها بيده يعطي من يشاء ، ويمنع من يشاء ، بحسب حكمته ورحمته الواسعة ، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ﴾ أي : المقدر من كل شيء من مطر وغيره ، ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ فلا يزيد على ما قدره الله ولا ينقص منه .

[٢٢ - ١٥] : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ .

أي : وسخَّرنا الرياح ، رياح الرحمة تُلقِّح السحاب ، كما يُلقِّح الذَّكر الأنثى ، فينشأ عن ذلك الماء بإذن الله ، فيسقيه الله العباد ومواشيهم وأرضهم ، ويبقى في الأرض مُدَّخرا لحاجاتهم وضروراتهم ما هو مُقتضى قُدرته ورحمته ، ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ أي : لا قُدرة لكم على خَزْنِه وادِّخاره ، ولكن الله يخزنه لكم ويَسْلُكه ينابيع في الأرض رحمة بكم وإحسانا إليكم .

[٢٣ : ٢٥ - ١٥] : ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ۝٢٣ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ۝٢٤ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ .

أي : هو وحده لا شريك له الذي يُحيي الخلق من العدم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا ويميتهم لآجالهم التي قدَّرها ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ كقوله : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [ سُورة مريم ٤٠ ] ، وليس ذلك بعزيز ولا ممتنع على الله فإنه تعالى يعلم المُستقدِمين من الخلق والمُستأخِرين منهم ويعلم ما تنقص الأرض منهم وما تُفرِّق من أجزائهم ، وهو الذي قُدرته لا يُعجزها مُعجز فيُعيد عباده خلقا جديدا ويحشرهم إليه .

﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها ، ويجازي كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

[ ٢٦ : ٤٤ – ١٥ ] : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ .

يَذكُر تعالى نعمته وإحسانه على أبينا آدم عليه السلام ، وما جرى من عدوه إبليس ، وفي ضمن ذلك التحذير لنا من شرِّه وفتنته فقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أي آدم عليه السلام ﴿مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ أي : من طين قد يبس بعد ما خمر حتى صار له صلصلة وصوت ، كصوت الفخار ، والحمأ المسنون : الطين المُتغيِّر لونه وريحه من طول مكثه .

﴿وَالْجَانَّ﴾ وهو : أبو الجن أي : إبليس ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ خلق آدم ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ أي : من النار الشديدة الحرارة ، فلما أراد الله خلق آدم قال للملائكة : ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ جسدا تاما ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فامتثلوا أمر ربهم .

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ تأكيد بعد تأكيد ليدل على أنه لم يتخلَّف منهم أحد ، وذلك تعظيما لأمر الله وإكراما لآدم حيث علم ما لم يعلموا .

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ وهذه أوَّل عداوته لآدم وذُريَّته ، قال الله : ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ فاستكبر على أمر الله وأبدى العداوة لآدم وذُريَّته وأُعجِب بعُنْصُره ، وقال : أنا خير من آدم .

﴿قَالَ﴾ الله مُعاقبا له على كفره واستكباره ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي : مَطْرُود مُبعد من كل خير ، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ أي : الذم والعيب ، والبُعد عن رحمة الله ، ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ ففيها وما أشبهها

دليل على أنه سيستمر على كُفْرِه وبُعْدِه من الخير .

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾ أي : أمهلني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ وليس إجابة الله لدعائه كرامة في حقِّه وإنما ذلك امتحان وابتلاء من الله له وللعباد ليتبيَّن الصادق الذي يُطيع مولاه دون عدوِّه ممن ليس كذلك ، ولذلك حذَّرنا منه غاية التحذير ، وشرح لنا ما يُريده منَّا .

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي : أُزيِّن لهم الدنيا وأدعوهم إلى إيثارها على الأخرى ، حتى يكونوا مُنقادين لكُلِّ معصية ، ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي : أصدهم كلهم عن الصراط المستقيم ، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي : الذين أخلصتهم واجتبيتهم لإخلاصهم ، وإيمانهم وتوكلهم .

قال الله تعالى : ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي : مُعتدل موصِّل إليَّ وإلى دار كرامتي .

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ تميلهم به إلى ما تشاء من أنواع الضلالات ، بسبب عُبوديَّتهم لربِّهم وانقيادهم لأوامره أعانهم الله وعصمهم من الشيطان .

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ فرضي بولايتك وطاعتك بدلا من طاعة الرَّحمن ، ﴿مِنَ الْغَاوِينَ﴾ والغاوي : ضد الراشد فهو الذي عرف الحق وتركه ، والضال : الذي تركه من غير علم منه به .

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي : إبليس وجنوده ، ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ كل باب أسفل من الآخر ، ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ أي : من أتباع إبليس ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ بحسب أعمالهم ، قال الله تعالى : ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ .

ولما ذكر تعالى ما أعد لأعدائه أتباع إبليس من النَّكال والعذاب الشديد ذكر ما أعد لأوليائه من الفضل العظيم والنعيم المُقيم فقال :

[ ٤٥ : ٥٠ – ١٥ ] : ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾

يقول تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتَّقوا طاعة الشيطان وما يدعوهم إليه من جميع الذنوب والعصيان ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ قد احتوت على جميع الأشجار وأينعت فيها جميع الثمار اللذيذة في جميع الأوقات .

ويُقال لهم حال دخولها : ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ من الموت والنوم والنَّصَب ، واللغوب وانقطاع شيء من النعيم الذي هم فيه أو نُقصانه ومن المرض ، والحزن والهم وسائر المُكدِّرات ، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ فتبقى قلوبهم سالمة من كل دَغَل وحسد مُتصافية مُتحابَّة ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ .

دلَّ ذلك على تزاورهم واجتماعهم وحُسن أدبهم فيما بينهم في كون كل منهم مُقابلا للآخر لا مُستدبرا له مُتَّكِئين على تلك السُّرُر المُزيَّنة بالفُرُش واللؤلؤ وأنواع الجواهر .

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ لا ظاهر ولا باطن ، وذلك لأن الله ينشئهم نشأة وحياة كاملة لا تقبل شيئا من الآفات ، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ على سائر الأوقات .

ولما ذكر ما يوجب الرغبة والرهبة من مفعولات الله من الجنّة والنّار، ذكر ما يوجب ذلك من أوصافه تعالى فقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾ أي: أخبرهم خبرا جازما مؤيّدا بالأدلّة، ﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته، ومغفرته سَعَوا في الأسباب الموصّلة لهم إلى رحمته وأقلعوا عن الذنوب وتابوا منها لينالوا مغفرته.

ومع هذا فلا ينبغي أن يتمادى بهم الرجاء إلى حال الأمن والإدلال، فنبّئهم ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ أي: لا عذاب في الحقيقة إلّا عذاب الله الذي لا يُقادَر قدره ولا يبلغ كُنْهَه نعوذ به من عذابه، فإنهم إذا عرفوا أنه ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [سُورة الفجر ٢٦]، حذروا وأبعدوا عن كل سبب يوجب لهم العقاب، فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائما بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته وجُوده وإحسانه، أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه، أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع عنها.

[١٥: ٥١ - ٥٦]: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

يقول تعالى لنبيّه محمد ﷺ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: عن تلك القصة العجيبة فإن في قصّك عليهم أنباء الرسل وما جرى لهم ما يوجب لهم العبرة والاقتداء بهم، خُصوصا إبراهيم الخليل، الذي أمرنا الله أن نتّبع مِلّته، وضيفه هم الملائكة الكرام أكرمه الله بأن جعلهم أضيافه.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ أي: سلّموا عليه فردَّ عليهم ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: خائفون، لأنه لما دخلوا عليه وحسبهم ضيوفا ذهب مُسرِعا إلى بيته فأحضر لهم ضيافتهم، عجلا حَنيذا فقدَّمه إليهم، فلما رأى أيديهم لا تصل، إليه خاف منهم أن يكونوا لصوصا أو نحوهم.

فـ﴿قَالُوا۟﴾ له: ﴿لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾ وهو إسحاق عليه الصلاة والسلام، تضمَّنت هذه البشارة بأنه ذكر لا أُنثى عليم أي: كثير العلم، وفي الآية الأخرى ﴿وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [سُورة الصَّافَّات ١١٢].

فقال لهم مُتعجّبا من هذه البشارة: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بالولد ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ وصار نوع إياس منه ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أي: على أي وجه تبشّرون وقد عُدمت الأسباب؟.

﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لا شك فيه لأن الله على كل شيء قدير، وأنتم بالخصوص - يا أهل هذا البيت - رحمة الله وبركاته عليكم فلا يُستغرب فضل الله وإحسانه إليكم.

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾ الذين يستبعدون وجود الخير، بل لا تزال راجيا لفضل الله وإحسانه، وبرّه وامتنانه، فأجابهم إبراهيم بقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ الذين لا علم لهم بربِّهم، وكمال اقتداره وأما من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم، فلا سبيل إلى القنوط إليه لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق لرحمة الله شيئا كثيرا، ثم لما بشَّروه بهذه البشارة، عَرِفَ أنهم مُرْسلون لأمر مهم.

[ ٥٧ : ٧٧ – ١٥ ] : ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠) فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

أي : ﴿قَالَ﴾ الخليل عليه السلام للملائكة : ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي : ما شأنكم ولأي شيء أرسلتم ؟ .

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي : كثر فسادهم وعظم شرهم ، لنعذبهم ونعاقبهم ، ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ أي : إلا لوطا وأهله ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي : الباقين بالعذاب ، وأما لوط فسنُخرجنَّه وأهله وننجيهم منها ، فجعل إبراهيم يُجادِل الرُّسُل في إهلاكهم ويُراجعهم ، فقيل له : ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [ سورة هود ٧٦] ، فذهبوا منه .

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ﴾ لهم لوط ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي : لا أعرفكم ولا أدري من أنتم .

﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي : جئناك بعذابهم الذي كانوا يشكُّون فيه ويُكذِّبونك حين تعدهم به ، ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الذي ليس بالهزل ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما قلنا لك .

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي : في أثنائه حين تنام العيون ولا يدري أحد عن مَسْرَاك ، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي : بادروا وأسرعوا ، ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ كأن معهم دليلا يدلهم إلى أين يتوجهون ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ﴾ أي : أخبرناه خبرا لا مَثْنَوِيَّة فيه ، ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ أي : سيُصبِّحهم العذاب الذي يجتاحهم ويستأصلهم ، ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ أي : المدينة التي فيها قوم لوط ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي : يُبشِّر بعضهم بعضا بأضياف لوط وصباحة وجوههم واقتدارهم عليهم ، وذلك لقصدهم فعل الفاحشة فيهم ، فجاءوا حتى وصلوا إلى بيت لوط فجعلوا يُعالِجون لوطا على أضيافه ، ولوط يستعيذ منهم ويقول : ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ أي : راقبوا الله أوَّل ذلك وإن كان ليس فيكم خوف من الله فلا تفضحون في أضيافي ، وتنتهكوا منهم الأمر الشنيع .

فـ ﴿قَالُوا﴾ له جوابا عن قوله ولا تخزون فقط : ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أن تُضيِّفهم فنحن قد أنذرناك ، ومن أنذر فقد أعذر ، فـ ﴿قَالَ﴾ لهم لوط من شدة الأمر الذي أصابه : ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ فلم يبالوا بقوله ولهذا قال الله لرسوله محمد ﷺ ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وهذه السكرة هي سكرة محبة الفاحشة التي لا يبالون معها بعذل ولا لوم .

فلما بيّنت له الرسل حالهم ، زال عن لوط ما كان يجده من الضيق والكرب ، فامتثل أمر ربه وسرى بأهله ليلا فنجوا ، وأما أهل القرية ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ أي : وقت شروق الشمس حين كانت العقوبة عليهم أشد ، ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي : قلبنا عليهم مدينتهم ، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ تتبع فيها من شذ من البلد منهم .

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أي : المُتأمّلين المُتفكّرين ، الذين لهم فكر ورَوِيَّة وفَرَاسَة ، يفهمون بها ما أريد بذلك ، من أن من تجرأ على معاصي الله ، خصوصا هذه الفاحشة العظيمة ، وأن الله سيعاقبهم بأشنع العقوبات ، كما تجرأوا على أشنع السيئات .

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي : مدينة قوم لوط ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ للسالكين ، يعرفه كل من تردَّد في تلك الديار ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي هذه القصة من العبر : عنايته تعالى بخليله إبراهيم ، فإن لوطا عليه السلام من أتباعه ، وممن آمن به فكأنه تلميذ له ، فحين أراد الله إهلاك قوم لوط حين استحقُّوا ذلك ، أمر رسله أن يمروا على إبراهيم عليه السلام كي يُبشّروه بالولد ويُخبروه بما بُعثُوا له ، حتى إنه جادلهم عليه السلام في إهلاكهم حتى أقنعوه ، فطابت نفسه .

وكذلك لوط عليه السلام ، لما كانوا أهل وطنه ، فرُبَّما أخذته الرِّقة عليهم والرَّأفة بهم قدَّر الله من الأسباب ما به يشتد غيظه وحنقه عليهم ، حتى استبطأ إهلاكهم لما قيل له : ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [ سُورة هود ٨١] ، ومنها : أن الله تعالى إذا أراد أن يهلك قرية ازداد شرهم وطغيانهم ، فإذا انتهى أوقع بهم من العقوبات ما يستحقُّونه .

[ ١٥ - ٧٨ : ٧٩ ] : ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ۝٧٨ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ .

وهؤلاء هم قوم شعيب ، نعتهم الله وأضافهم إلى الأيكة ، وهو البستان كثير الأشجار ، ليذكر نعمته عليهم ، وأنهم ما قاموا بها بل جاءهم نبيُّهم شعيب ، فدعاهم إلى التوحيد ، وترك ظلم الناس في المكاييل والموازين ، وعاجلهم على ذلك على أشد المعالجة فاستمرُّوا على ظلمهم في حق الخالق ، وفي حق الخلق ، ولهذا وصفهم هنا بالظلم ، ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم .

﴿وَإِنَّهُمَا﴾ أي : ديار قوم لوط وأصحاب الأيكة ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي : لبطريق واضح يمر بهم المسافرون كل وقت ، فيبيّن من آثارهم ما هو مُشاهَد بالأبصار فيعتبر بذلك أولوا الألباب .

[ ١٥ - ٨٠ : ٨٤ ] : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٨٠ وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۝٨٣ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ .

يُخبر تعالى عن أهل الحِجْر ، وهم قوم صالح الذين كانوا يسكنون الحِجْر المعروف في أرض الحجاز ، أنهم كذَّبوا المُرسلين أي : كذَّبوا صالحا ، ومن كَذَّب رسولا فقد كَذَّب سائر الرُّسُل ، لاتّفاق دعوتهم ، وليس تكذيب بعضهم لشخصه بل لما جاء به من الحق الذي اشترك جميع الرُّسُل بالإتيان به ، ﴿وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا﴾ الدالَّة على صحّة ما جاءهم به صالح من الحق التي من جُملتها : تلك الناقة التي هي من آيات الله العظيمة .

﴿فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ كِبْرا وتَجبُّرا على الله ، ﴿وَكَانُوا﴾ من كثرة إنعام الله عليهم ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ من المخاوف مطمئنين في ديارهم ، فلو شكروا النعمة وصدَّقوا نبيَّهم صالحا عليه السلام لأدرَّ الله عليهم الأرزاق ، ولأكرمهم بأنواع من الثواب العاجل والآجل ، ولكنَّهم لما كذَّبوا وعقروا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم وقالوا : ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [ سُورة الأعراف ٧٧ ] .

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ فتقطَّعت قلوبهم في أجوافهم وأصبحوا في دارهم جاثِمين هَلْكَى ، مع ما يتبع ذلك من الخِزي واللعنة المُستمرة ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ لأن أمر الله إذا جاء لا يرده كثرة جنود ، ولا قوة أنصار ولا غزارة أموال .

[ ٨٥ : ٨٦ – ١٥ ] : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ .

أي : ما خلقناهما عبثا وباطلا كما يظن ذلك أعداء الله ، بل ما خلقناهما ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الذي منه أن يكونا بما فيهما دالتين على كمال خالقهما ، واقتداره ، وسعة رحمته وحكمته ، وعلمه المحيط ، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ، ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ لا ريب فيها لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ وهو الصفح الذي لا أذية فيه بل يُقابِل إساءة المُسيء بالإحسان ، وذنبه بالغُفران ، لتنال من ربِّك جزيل الأجر والثواب ، فإن كل ما هو آت فهو قريب ، وقد ظهر لي معنى أحسن مما ذكرت هنا ، وهو : أن المأمور به هو الصفح الجميل أي : الحسن الذي قد سلم من الحقد والأذيَّة القوليَّة والفعليَّة ، دون الصفح الذي ليس بجميل ، وهو الصفح في غير محلِّه ، فلا يصفح حيث اقتضى المقام العقوبة ، كعقوبة المعتدين الظالمين الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة ، وهذا هو المعنى .

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ لكُلِّ مخلوق ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل شيء ، فلا يعجزه أحد من جميع ما أحاط به علمه وجرى عليه خلقه ، وذلك سائر الموجودات .

[ ٨٧ : ٩٣ – ١٥ ] : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

يقول تعالى مُمتنًّا على رسوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ وهن – على الصحيح – السُّور السبع الطوال : « البقرة » و « آل عمران » و « النِّساء » و « المائدة » و « الأنعام » و « الأعراف » و « الأنفال » مع « التوبة » ، أو أنها فاتحة الكتاب لأنها سبع آيات ، فيكون عطف ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ على ذلك من باب عطف العام على الخاص ، لكثرة ما في المثاني من التوحيد ، وعلوم الغيب ، والأحكام الجليلة ، وتثنيتها فيها .

وعلى القول بأن « الفاتحة » هي السبع المثاني معناها : أنها سبع آيات ، تثنى في كل ركعة ، وإذا كان الله قد أعطاه القُرآن العظيم مع السبع المثاني كان قد أعطاه أفضل ما يتنافس فيه المُتنافِسون ، وأعظم ما فرح به المؤمنون ، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [ سُورة يونس ٥٨ ] ، ولذلك قال بعده : ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ أي : لا تعجب إعجابا يحملك على إشغال

فكرك بشهوات الدنيا التي تمتع بها المُترَفون ، واغترَّ بها الجاهلون ، واستغن بما آتاك الله من المثاني والقرآن العظيم ، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ فإنهم لا خير فيهم يرجى ، ولا نفع يُرتقب ، فلك في المؤمنين عنهم أحسن البدل وأفضل العوض ، ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي : ألن لهم جانبك ، وحسّن لهم خلقك ، محبَّة وإكراما وتودُّدا ، ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي : قم بما عليك من النذارة ، وأداء الرسالة والتبليغ للقريب والبعيد والعدو والصديق ، فإنك إذا فعلت ذلك فليس عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء . وقوله : ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ أي : كما أنزلنا العقوبة على المقتسمين على بطلان ما جئت به ، الساعين لصد الناس عن سبيل الله .

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ أي : أصنافا وأعضاء وأجزاء ، يصرفونه بحسب ما يهوونه ، فمنهم من يقول : سحر ومنهم من يقول : كهانة ومنهم من يقول : مُفترى إلى غير ذلك من أقوال الكفرة المُكذِّبين به ، الذين جعلوا قدحهم فيه ليصدُّوا الناس عن الهُدى .

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي : جميع من قدح فيه وعابه وحرَّفه وبدَّله ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وفي هذا أعظم ترهيب وزجر لهم عن الإقامة على ما كانوا عليه .

[ ٩٤: ٩٥ – ١٥] : ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ .

ثم أمر الله رسوله ان لا يُبالي بهم ولا بغيرهم وأن يصدع بما أمر الله ويعلن بذلك لكُلِّ أحد ، ولا يعوقنَّه عن أمره عائق ولا تصده أقوال المُتهوِّكين ، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي : لا تبال بهم واترك مُشاتمتهم ومسابتهم مُقبلا على شأنك ، ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ بك وبما جئت به وهذا وعد من الله لرسوله ، أن لا يضره المُستهزئون ، وأن يكفيه الله إيَّاهم بما شاء من أنواع العقوبة . وقد فعل تعالى فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله ﷺ وبما جاء به إلَّا أهلكه الله وقتله شر قتلة .

[ ٩٦: ٩٨ – ١٥] : ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ .

ثم ذكر وصفهم وأنهم كما يؤذونك يا رسول الله ، فإنهم أيضا يؤذون الله ويجعلون معه ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وهو ربهم وخالقهم ومُدبِّرهم ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ غب أفعالهم إذا وردوا القيامة ، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ لك من التكذيب والاستهزاء ، فنحن قادرون على استئصالهم بالعذاب ، والتعجيل لهم بما يستحقُّون ، ولكن الله يُمْهِلهم ولا يُهْمِلهم .

فأنت يا محمد ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي : أكثر من ذكر الله وتسبيحه وتحميده والصلاة فإن ذلك يوسِّع الصدر ويشرحه ويُعينك على أمورك .

[٩٩ – ١٥] : ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ .

﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ أي : الموت أي : استمر في جميع الأوقات على التقرُّب إلى الله بأنواع العبادات ، فامتثل ﷺ أمر ربه ، فلم يزل دائبا في العبادة ، حتى أتاه اليقين من ربه ﷺ تسليما كثيرا .

تم تفسير سورة الحجر

## (١٦) تفسير سورة النحل

### وهي مكيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[ ١ : ٢ - ١٦] : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ .

يقول تعالى - مُقرِّبا لما وعد به مُحقَّقا لوقوعه - ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فإنه آت ، وما هو آت ، فإنه قريب ، ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من نسبة الشريك والولد والصاحبة والكفء وغير ذلك مما نسبه إليه المشركون مما لا يليق بجلاله ، أو يُنافي كماله ، ولما نزَّه نفسه عما وصفه به أعداؤه ذكر الوحي الذي ينزله على أنبيائه ، مما يجب اتِّباعه في ذكر ما ينسب لله ، من صفات الكمال فقال : ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي : بالوحي الذي به حياة الأرواح ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ممن يعلمه صالحا ، لتحمل رسالته .

وزَبَدَة دعوة الرسل كلهم ومدارها على قوله : ﴿أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أي : على معرفة الله تعالى وتوحده في صفات العظمة التي هي صفات الألوهية وعبادته وحده لا شريك له فهي التي أنزل الله بها كتبه وأرسل رسله ، وجعل الشرائع كلها تدعو إليها ، وتحث وتجاهد من حاربها وقام بضدها ، ثم ذكر الأدلة والبراهين على ذلك فقال :

[ ٣ : ٩ - ١٦] : ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

هذه السورة تُسمَّى سورة النِّعم ، فإن الله ذكر في أولها أصول النِّعم وقواعدها ، وفي آخرها مُتمِّماتها ومُكمِّلاتها ، فأخبر أنه خلق السماوات والأرض بالحق ، ليستدل بهما العباد على عظمة خالقهما ، وما له من نُعوت الكمال ويعلموا أنه خلقهما مسكنا لعباده الذين يعبدونه ، بما يأمرهم به في الشرائع التي أنزلها على ألسنة رسله ، ولهذا نزَّه نفسه عن شرك المُشركين به فقال : ﴿تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي : تنزَّه وتعاظم عن شركهم فإنه الإله حقًّا ، الذي لا تنبغي العبادة والحب والذل إلا له تعالى ، ولما ذكر خلق السماوات والأرض ذكر خلق ما فيهما .

وبدأ بأشرف ذلك وهو الإنسان فقال : ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ لم يزل يُدبِّرها ويُرقيها ويُنمِّيها

حتى صارت بشرا تاما كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة ، قد غمره بنعمه الغزيرة ، حتى إذا استتم فَخَرَ بنفسه وأُعجِبَ بها ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ يُحتمل أن المُراد : فإذا هو خصيم لربّه ، يكفر به ، ويجادل رسله ، ويكذب بآياته .

ونسي خلقه الأوَّل وما أنعم الله عليه به ، من النِّعم فاستعان بها على معاصيه ، ويحتمل أن المعنى : أن الله أنشأ الآدمي من نُطفة ، ثم لم يزل ينقله من طور ، إلى طور حتى صار عاقلا مُتكلِّما ، ذا ذهن ورأي : يُخاصِم ويُجادِل ، فليشكر العبد ربه الذي أوصله إلى هذه الحال التي ليس في إمكانه القدرة على شيء منها .

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ أي : لأجلكم ، ولأجل منافعكم ومصالحكم ، من جملة منافعها العظيمة أن لكم ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ مما تتَّخذون من أصوافها وأوبارها ، وأشعارها ، وجلودها ، من الثياب والفُرُش والبيوت .

﴿و﴾ لكم فيها ﴿مَنَافِعُ﴾ غير ذلك ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي : في وقت راحتها وسكونها ووقت حركتها وسرحها ، وذلك أن جمالها لا يعود إليها منه شيء فإنكم أنتم الذين تتجمَّلون بها ، كما تتجمَّلون بثيابكم وأولادكم وأموالكم ، وتعجبون بذلك ، ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ من الأحمال الثقيلة ، بل وتحملكم أنتم ﴿إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ ولكن الله ذللها لكم .

فمنها ما تركبونه ، ومنها ما تحملون عليه ما تشاءون من الأثقال إلى البلدان البعيدة والأقطار الشاسعة ، ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ إذ سخَّر لكم ما تضطرون إليه وتحتاجونه ، فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه ، وعظيم سلطانه وسعة جوده وبرّه .

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ سخَّرناها لكم ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ أي : تارة تستعملونها للضرورة في الركوب وتارة لأجل الجَمَال والزينة ، ولم يذكر الأكل لأن البِغَال والحُمُر مُحرَّم أكلها ، والخيل لا تستعمل – في الغالب – للأكل ، بل يُنْهَى عن ذبحها لأجل الأكل خوفا من انقطاعها وإلا فقد ثبت في الصحيحين ، أن النبي ﷺ أذن في لحوم الخيل .(١٣٠)

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء ، التي يركبها الخلق في البر والبحر

---

(١٣٠) * مُتَّفق عليه . من حديث جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – : قال : نَهَى النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ ، وَرَخَّصَ فِي لُحُومِ الْخَيْلِ .

أخرجه البخاري في صحيحه : ( كتاب المغازي / باب : غزوة خيبر / ح ٤٢١٩ ) ، ( كتاب الذَّبائح / باب : لحوم الخيل/ ح ٥٥٢٠ ) . وفي : ( كتاب الذَّبائح / باب : لحوم الخيل/ ح ٥٥٢٤ ) .

وأخرجه مُسلم في صحيحه : ( كتاب الصَّيد / باب : في أكل لُحوم الخيل /ح ٣٦ ) .

ومن حديث أسماء بنت أبي بكر – رضي الله عنهما – : قالت : نَحَرْنَا فَرَسًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَكَلْنَاهُ .

أخرجه البُخاري في صحيحه ( كتاب الذبائح / لحوم الخيل / ح ٥٥١٩ ) . وأخرجه مُسلم في صحيحه : ( كتاب الصَّيد / باب : في أكل لُحوم الخيل / ح ٣٨ ) .

والجو ، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم ، فإنه لم يذكرها بأعيانها ، لأن الله تعالى لا يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد ، أو يعرفون نظيره ، وأما ما ليس له نظير في زمانهم فإنه لو ذكر لم يعرفوه ولم يفهموا المراد منه ، فيذكر أصلا جامعا يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون ، كما ذكر نعيم الجنّة وسمّى منه ما نعلم ونُشاهد نظيره ، كالنخل والأعناب والرمان ، وأجمل ما لا نعرف له نظيرا في قوله : ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [ سورة الرَّحمن ٥٢ ] ، فكذلك هنا ذكر ما نعرفه من المراكب كالخيل والبغال والحمير والإبل والسُّفُن ، وأجمل الباقي في قوله : ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ولما ذكر تعالى الطريق الحسي ، وأن الله قد جعل للعباد ما يقطعونه به من الإبل وغيرها ذكر الطريق المعنوي الموصِّل إليه فقال : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي : الصراط المستقيم ، الذي هو أقرب الطرق وأخصرها موصِّل إلى الله .

وأما الطريق الجائر في عقائده وأعماله وهو : كل ما خالف الصراط المستقيم فهو قاطع عن الله ، موصِّل إلى دار الشقاء ، فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم ، وضل الغاوون عنه ، وسلكوا الطرق الجائرة ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولكنه هدى بعضا كرما وفضلا ، ولم يهد آخرين ، حكمة منه وعدلا .

[ ١٠ : ١١ – ١٦ ] : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

بذلك على كمال قدرة الله الذي أنزل هذا الماء من السحاب الرقيق اللطيف ورحمته حيث جعل فيه ماء غزيرا منه يشربون وتشرب مواشيهم ويسقون منه حروثهم فتخرج لهم الثمرات الكثيرة والنِّعم الغزيرة .

[١٢ – ١٦] : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

أي : سخَّر لكم هذه الأشياء لمنافعكم وأنواع مصالحكم بحيث لا تستغنون عنها أبدا ، فبالليل تسكنون وتنامون وتستريحون ، وبالنهار تنتشرون في معايشكم ومنافع دينكم ودُنياكم ، وبالشمس والقمر من الضياء والنور والإشراق ، وإصلاح الأشجار والثمار والنبات ، وتجفيف الرُّطوبات ، وإزالة البرودة الضارة للأرض ، وللأبدان ، وغير ذلك من الضروريات والحاجيات التابعة لوجود الشمس والقمر .

وفيهما وفي النجوم من الزينة للسماء والهداية في ظلمات البر والبحر ، ومعرفة الأوقات وحساب الأزمنة ما تتنوع دلالاتها وتتصرَّف آياتها ، ولهذا جمعها في قوله ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي : لمن لهم عقول يستعملونها في التدبُّر والتفكُّر فيما هي مُهيَّأة له مُستعدَّة تعقل ما تراه وتسمعه ، لا كنظر الغافلين الذين حظهم من النظر حظ البهائم التي لا عقل لها .

[١٣ – ١٦] : ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ .

أي : فيما ذرأ الله ونشر للعباد من كل ما على وجه الأرض ، من حيوان وأشجار ونبات ، وغير ذلك ، مما تختلف ألوانه ، وتختلف منافعه ، آية على كمال قدرة الله وعميم إحسانه ، وسعة برِّه ، وأنه الذي لا تنبغي

العبادة إلا له وحده لا شريك له ، ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي : يستحضرون في ذاكرتهم ما ينفعهم من العلم النافع ، ويتأمّلون ما دعاهم الله إلى التأمل فيه حتى يتذكّروا بذلك ما هو دليل عليه .

[١٤ - ١٦] : ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

أي : هو وحده لا شريك له ﴿الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ وهيَّأه لمنافعكم المُتنوّعة . ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك والحوت الذي يصطادونه منه ، ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فتزيدكم جمالا وحسنا إلى حسنكم ، ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ﴾ أي : السفن والمراكب ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي : تمْخُر في البحر العَجّاج الهائل بمُقدّمها حتى تسلك فيه من قطر إلى آخر ، تحمل المسافرين وأرزاقهم وأمتعتهم وتجاراتهم التي يطلبون بها الأرزاق وفضل الله عليهم .

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الذي يسّر لكم هذه الأشياء وهيَّأها وتُثْنُون على الله الذي مَنَّ بها ، فلله تعالى الحمد والشكر والثناء ، حيث أعطى العباد من مصالحهم ومنافعهم فوق ما يطلبون ، وأعلى ما يتمنّون ، وآتاهم من كل ما سألوه ، لا نحصي ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه .

[١٦ : ١٥ - ١٦] : ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ .

أي : ﴿وَأَلْقَىٰ﴾ الله تعالى لأجل عباده ﴿فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ وهي : الجبال العِظام لئلا تَميد بهم وتضطرب بالخلق فيتمكّنون من حرث الأرض والبناء والسير عليها ، ومن رحمته تعالى أن جعل فيها أنهارا ، يسوقها من أرض بعيدة إلى أرض مضطرة إليها لسقيهم وسقي مواشيهم وحروثهم ، أنهارا على وجه الأرض ، وأنهارا في بطنها يستخرجونها بحفرها ، حتى يصلوا إليها فيستخرجونها بما سخّر الله لهم من الدوالي والآلات ونحوها ، ومن رحمته أن جعل في الأرض سُبُلا ، أي : طرقا توصل إلى الديار المُتنائية ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ السبيل إليها حتى إنك تجد أرضا مُشتبكة بالجبال مُسلسلة فيها وقد جعل الله فيما بينها منافذ ومسالك للسالكين .

[١٦ : ١٧ - ٢٣] : ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ .

لما ذكر تعالى ما خلقه من المخلوقات العظيمة ، وما أنعم به من النِّعم العميمة ذكر أنه لا يشبهه أحد ولا كفء له ولا ند له فقال : ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ جميع المخلوقات وهو الفعّال لما يريد ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ شيئا لا قليلا ولا كثيرا ، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعرفون أن المنفرد بالخلق أحق بالعبادة كلها ، فكما أنه واحد في خلقه وتدبيره فإنه واحد في إلهيّته وتوحيده وعبادته .

وكما أنه ليس له مُشارَك إذ أنشأكم وأنشأ غيركم ، فلا تجعلوا له أندادا في عبادته بل أخلصوا له الدين ، ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ عددا مُجرَّدا عن الشكر ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ فضلا عن كونكم تشكرونها ، فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد بعدد الأنفاس واللحظات ، من جميع أصناف النِّعم مما يعرف العباد ، ومما لا يعرفون وما يدفع عنهم من النِّقم فأكثر من أن تحصى ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يرضى منكم باليسير من الشكر مع إنعامه الكثير .

وكما أن رحمته واسعة وجوده عميم ومغفرته شاملة للعباد فعلمه محيط بهم ، ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بخلاف من عُبِدَ من دونه ، فإنهم ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ قليلا ولا كثيرا ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فكيف يخلقون شيئا مع افتقارهم في إيجادهم إلى الله تعالى ؟ .

ومع هذا ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء لا علم ، ولا غيره ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئا ، أفتُتخذ هذه آلهة من دون رب العالمين ، فتبًّا لعقول المشركين ما أضلها وأفسدها ، حيث ضلت في أظهر الأشياء فسادا ، وسووا بين الناقص من جميع الوجوه فلا أوصاف كمال ، ولا شيء من الأفعال ، وبين الكامل من جميع الوجوه الذي له كل صفة كمال وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها ، فله العلم المحيط بكل الأشياء والقدرة العامة والرحمة الواسعة التي ملأت جميع العوالم ، والحمد والمجد والكبرياء والعظمة ، التي لا يقدر أحد من الخلق أن يحيط ببعض أوصافه ، ولهذا قال : ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وهو الله الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يكن له كفوا أحد .

فأهل الإيمان والعقول أجلَّته قلوبهم وعظَّمته ، وأحبّته حُبًّا عظيما ، وصرفوا له كل ما استطاعوا من القُرُبات البدنيّة والماليّة ، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح ، وأثنوا عليه بأسمائه الحسنى وصفاته وأفعاله المقدسة ، ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ لهذا الأمر العظيم الذي لا يُنكره إلا أعظم الخلق جهلا وعنادا وهو : توحيد الله ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته .

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي : حقًّا لا بد ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من الأعمال القبيحة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ بل يبغضهم أشد البغض ، وسيُجازيهم من جنس عملهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [ سورة غافر ٦٠ ] .

[ ٢٤ : ٢٩ – ١٦ ] : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ .

يقول تعالى – مُخبرا عن شدَّة تكذيب المُشركين بآيات الله : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ أي :

إذا سألوا عن القرآن والوحي الذي هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد ، فماذا قولكم به ؟ وهل تشكرون هذه النعمة وتعترفون بها أم تكفرون وتعاندون ؟ .

فيكون جوابهم أقبح جواب وأسمجه ، فيقولون عنه : إنه ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي : كذب اختلقه محمد على الله ، وما هو إلا قصص الأوّلين التي يتناقلها الناس جيلا بعد جيل ، منها الصدق ومنها الكذب ، فقالوا هذه المقالة ، ودعوا أتباعهم إليها ، وحملوا وزرهم ووزر من انقاد لهم إلى يوم القيامة .

وقوله : ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي : من أوزار المُقلّدين الذين لا علم عندهم إلّا ما دعوهم إليه ، فيحملون إثم ما دعوهم إليه ، وأما الذين يعلمون فكلٌّ مستقلٌّ بجُرمِهِ ، لأنه عرف ما عرفوا ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي : بئس ما حملوا من الوزر المُثقِل لظهورهم ، من وزرهم ووزر من أضلوه .

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ برسلهم واحتالوا بأنواع الحيل على رد ما جاءوهم به وبنوا من مكرهم قصورا هائلة ، ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أي : جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها ، ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ فصار ما بنوه عذابا عُذِّبوا به ، ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وذلك أنهم ظنُّوا أن هذا البنيان سينفعهم ويقيهم العذاب فصار عذابهم فيما بنوه وأصَّلوه .

وهذا من أحسن الأمثال في إبطال الله مكر أعدائه ، فإنهم فكَّروا وقدَّروا فيما جاءت به الرسل لما كذَّبوهم وجعلوا لهم أصولا وقواعد من الباطل يرجعون إليها ، ويردون بها ما جاءت به الرُّسُل ، واحتالوا أيضا على إيقاع المكروه والضرر بالرُّسل ومن تبعهم ، فصار مكرهم وبالا عليهم ، فصار تدبيرهم فيه تدميرهم ، وذلك لأن مكرهم سيئ ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [ سُورة فاطر ٤٣ ] ، هذا في الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى ، ولهذا قال : ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي : يفضحهم على رءوس الخلائق ويُبيِّن لهم كذبهم وافتراءهم على الله .

﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي : تحاربون وتعادون الله وحزبه لأجلهم وتزعمون أنهم شركاء لله ، فإذا سألهم هذا السؤال لم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم ، والاعتراف بعنادهم فيقولون ﴿ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [ سُورة الأعراف ٣٧ ] ، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ أي : العُلماء الرَّبَّانيُّون ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي : يوم القيامة ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ أي : العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وفي هذا فضيلة أهل العلم ، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وأن لقولهم اعتبارا عند الله وعند خلقه ، ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة وفي القيامة فقال : ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي : تتوفاهم في هذه الحال التي كثر فيها ظلمهم وغيّهم وقد علم ما يلقى الظلمة في ذلك المقام من أنواع العذاب والخزي والإهانة .

﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ أي : استسلموا وأنكروا ما كانوا يعبدونهم من دون الله وقالوا : ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ فيقال لهم : ﴿بَلَىٰٓ﴾ كنتم تعملون السوء فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلا يفيدكم الجحود شيئا ، وهذا في بعض مواقف القيامة ينكرون ما كانوا عليه في الدنيا ظنًّا أنه ينفعهم ، فإذا شهدت عليهم جوارحهم وتبيَّن ما كانوا عليه أقرُّوا واعترفوا ، ولهذا لا يدخلون النار حتى يعترفوا بذنوبهم .

﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ كلٌّ أهل عمل يدخلون من الباب اللائق بحالهم ، ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ نار جهنم فإنها مثوى الحسرة والندم ، ومنزل الشقاء والألم ومحل الهموم والغموم ، وموضع السخط من الحي القيوم ، لا يفتَّر عنهم من عذابها ، ولا يرفع عنهم يوما من أليم عقابها ، قد أعرض عنهم الرب الرحيم ، وأذاقهم العذاب العظيم .

[ ٣٠: ٣٢ – ١٦] : ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

لما ذكر الله قيل المُكذِّبين بما أنزل الله ، ذكر ما قاله المُتَّقون ، وأنهم اعترفوا وأقرُّوا بأن ما أنزله الله نعمة عظيمة ، وخير عظيم امتن الله به على العباد ، فقبلوا تلك النعمة ، وتلقُّوها بالقبول والانقياد ، وشكروا الله عليها ، فعلموها وعملوا لها ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ في عبادة الله تعالى ، وأحسنوا إلى عباد الله فلهم ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ رزق واسع ، وعيشه هنيَّة ، وطمأنينة قلب ، وأمن وسرور .

﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ من هذه الدار وما فيها من أنواع اللذَّات والمُشتهيات ، فإن هذه نعيمها قليل محشو بالآفات منقطع ، بخلاف نعيم الآخرة ولهذا قال : ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ، ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ أي : مهما تمنَّته أنفسهم وتعلَّقت به إرادتهم حصل لهم على أكمل الوجوه وأتمها ، فلا يمكن أن يطلبوا نوعا من أنواع النعيم الذي فيه لذَّة القلوب وسرور الأرواح ، إلا وهو حاضر لديهم ، ولهذا يعطي الله أهل الجنة كل ما تمنَّوه عليه ، حتى إنه يذكرهم أشياء من النعيم لم تخطر على قلوبهم .

فتبارك الذي لا نهاية لكرمه ، ولا حد لجوده الذي ليس كمثله شيء في صفات ذاته ، وصفات أفعاله وآثار تلك النُّعوت ، وعظمة المُلْك والمَلَكوت ، ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لسخط الله وعذابه بأداء ما أوجبه عليهم من الفروض والواجبات المُتعلِّقة بالقلب والبدن واللسان من حقِّه وحق عباده ، وترك ما نهاهم الله عنه .

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مُستمرِّين على تقواهم ﴿طَيِّبِينَ﴾ أي : طاهرين مُطهَّرين من كُلِّ نقص ودنس يتطرَّق إليهم ويخل في إيمانهم ، فطابت قلوبهم بمعرفة الله ومحبَّته وألسنتهم بذكره والثناء عليه ، وجوارحهم بطاعته والإقبال عليه ، ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ أي : التحية الكاملة حاصلة لكم والسلامة من كُلِّ آفة .

وقد سلمتم من كل ما تكرهون ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الإيمان بالله والانقياد لأمره ، فإن العمل هو السبب والمادة والأصل في دخول الجنَّة والنجاة من النَّار ، وذلك العمل حصل لهم برحمة الله ومِنَّته عليهم لا بحولهم وقوَّتهم .

[ ٣٣: ٣٤ – ١٦] : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن

﴿قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ .

يقول تعالى : هل ينظر هؤلاء الذين جاءتهم الآيات فلم يؤمنوا ، وذكّروا فلم يتذكّروا ، ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بالعذاب الذي سيحل بهم فإنهم قد استحقُّوا وقوعه فيهم ، ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كذَّبوا وكَفروا ، ثم لم يؤمنوا حتى نزل بهم العذاب .

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ إذ عذبهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فإنها مخلوقة لعبادة الله ليكون مآلها إلى كرامة الله فظلموها وتركوا ما خلقت له ، وعرَّضوها للإهانة الدائمة والشقاء المُلازِم .

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي : عقوبات أعمالهم وآثارها ، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي : نزل ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فإنهم كانوا إذا أخبرتهم رسلهم بالعذاب استهزأوا به ، وسخروا ممن أخبر به فحل بهم ذلك الأمر الذي سخروا منه .

[١٦ - ٣٥] : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ .

أي : احتج المشركون على شركهم بمشيئة الله ، وأن الله لو شاء ما أشركوا ، ولا حرَّموا شيئًا من الأنعام التي أحلَّها كالبَحِيرَة والوَصِيلَة والحَام ونحوها من دونه ، وهذه حُجَّة باطلة ، فإنها لو كانت حقًّا ما عاقب الله الذين من قبلهم حيث أشركوا به ، فعاقبهم أشد العقاب ، فلو كان يحب ذلك منهم لما عذَّبهم ، وليس قصدهم بذلك إلا رد الحق الذي جاءت به الرُّسُل ، وإلا فعندهم علم أنه لا حُجَّة لهم على الله .

فإن الله أمرهم ونهاهم ومكَّنهم من القيام بما كلَّفهم وجعل لهم قوة ومشيئة تصدر عنها أفعالهم . فاحتجاجهم بالقضاء والقدر من أبطل الباطل ، هذا وكل أحد يعلم بالحس قدرة الإنسان على كل فعل يريده من غير أن ينازعه منازع ، فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسله وتكذيب الأمور العقلية والحسية ، ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي : البيِّن الظاهر الذي يصل إلى القلوب ، ولا يبقى لأحد على الله حُجَّة ، فإذا بلَّغتهم الرسل أمر ربِّهم ونهيه ، واحتجُّوا عليهم بالقدر ، فليس للرُّسل من الأمر شيء ، وإنما حسابهم على الله عز وجل .

[١٦ - ٣٦ : ٣٧] : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ .

يُخبر تعالى أن حُجَّته قامت على جميع الأُمم ، وأنه ما من أُمَّة مُتقدِّمة أو مُتأخِّرة إلَّا وبعث الله فيها رسولا ، وكلهم مُتَّفِقون على دعوة واحدة ودين واحد ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فانقسمت الأمم بحسب استجابتها لدعوة الرسل وعدمها قسمين ، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾ فاتَّبعوا المُرْسلين علما وعملا ، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ فاتَّبع سبيل الغي .

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فإنكم سترون من

ذلك العجائب ، فلا تجدون مُكذِّبا إلا كان عاقبته الهلاك .

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ وتبذل جهدك في ذلك ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ ولو فعل كل سبب لم يهده إلا الله ، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينصرونهم من عذاب الله ويقونهم بأسه .

[ ٣٨ : ٤٠ – ١٦ ] : ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ .

يُخبر تعالى عن المُشركين المُكذِّبين لرسوله أنهم ﴿أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي : حلفوا أيمانا مؤكَّدة مُغلَّظة على تكذيب الله ، وأن الله لا يبعث الأموات ، ولا يقدر على إحيائهم بعد أن كانوا ترابا ، قال تعالى مُكذِّبا لهم : ﴿بَلَىٰ﴾ سيبعثهم ويجمعهم ليوم لا ريب فيه ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ لا يخلفه ولا يُغيِّره ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومن جهلهم العظيم إنكارهم للبعث والجزاء ، ثم ذكر الحكمة في الجزاء والبعث فقال : ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من المسائل الكبار والصغار ، فيُبيِّن حقائقها ويوضِّحها .

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾ حين يرون أعمالهم حسرات عليهم ، وما نفعتهم آلهتهم التي يدعون مع الله من شيء لما جاء أمر ربك ، وحين يرون ما يعبدون حطبا لجهنَّم ، وتُكوَّر الشمس والقمر وتتناثر النجوم ، ويتَّضح لمن يعبدها أنها عبيد مُسخَّرات ، وأنهن مُفتقِرات إلى الله في جميع الحالات ، وليس ذلك على الله بصعب ، ولا شديد فإنه إذا أراد شيئا قال له : كن فيكون ، من غير منازعة ولا امتناع ، بل يكون على طبق ما أراده وشاءه .

[ ٤١ : ٤٢ – ١٦ ] : ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ .

يُخبر تعالى بفضل المؤمنين الممتحنين ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ﴾ أي : في سبيله وابتغاء مرضاته ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ بالأذيَّة والمحنة من قومهم ، الذين يفتنونهم ليردُّوهم إلى الكفر والشرك ، فتركوا الأوطان والخِلَّان ، وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن ، فذكر لهم ثوابين : ثوابا عاجلا في الدنيا من الرزق الواسع والعيش الهنيء ، الذي رأوه عيانا بعد ما هاجروا ، وانتصروا على أعدائهم ، وافتتحوا البلدان وغنموا منها الغنائم العظيمة ، فتموَّلوا وآتاهم الله في الدنيا حسنة .

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الذي وعدهم الله على لسان رسوله ﴿أَكْبَرُ﴾ من أجر الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [ سُورة التَّوبة ٢٠ – ٢١] ، وقوله : ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي : لو كان لهم علم ويقين بما عند الله من الأجر والثواب لمن آمن به وهاجر في سبيله لم يتخلَّف عن ذلك أحد .

ثم ذكر وصف أوليائه فقال : ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على أوامر الله وعن نواهيه ، وعلى أقدار الله المُؤلمة ، وعلى الأذيَّة فيه والمحن ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي : يعتمدون عليه في تنفيذ محابّه ، لا على أنفسهم .

وبذلك تنجح أمورهم وتستقيم أحوالهم ، فإن الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها ، فما فات أحدا شيء من الخير إلا لعدم صبره وبذل جهده فيما أريد منه ، أو لعدم توكُّله واعتماده على الله .

[ ١٦ - ٤٣ : ٤٤ ] : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

يقول تعالى لنبيّه محمد ﷺ : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ أي : لست ببدع من الرسل ، فلم نرسل قبلك ملائكة بل رجالا كاملين لا نساء . ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ من الشرائع والأحكام ما هو من فضله وإحسانه على العبيد من غير أن يأتوا بشيء من قبل أنفسهم ، ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ أي : الكتب السابقة ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ نبأ الأوَّلين ، وشككتم هل بعث الله رجالا ؟ ، فاسألوا أهل العلم بذلك الذين نزلت عليهم الزُّبُر والبيِّنات فعلموها وفهموها ، فإنهم كلهم قد تقرَّر عندهم أن الله ما بعث إلا رجالا يوحي إليهم من أهل القُرى ، وعُموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم ، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المُنزَّل .

فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث ، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم ، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة ، فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله ، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم ، والاتِّصاف بصفات الكمال .

وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم ، فإنهم أهل الذكر على الحقيقة ، وأولى من غيرهم بهذا الاسم ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي : القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة ، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا شامل لتبيين ألفاظه وتبيين معانيه ، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيه فيستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم وإقبالهم عليه .

[ ١٦ - ٤٥ : ٤٧ ] : ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ .

هذا تخويف من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب وأنواع المعاصي ، من أن يأخذهم بالعذاب على غرَّة وهم لا يشعرون ، إما أن يأخذهم العذاب من فوقهم ، أو من أسفل منهم بالخسف وغيره ، وإما في حال تقلُّبهم وشغلهم وعدم خُطور العذاب ببالهم ، وإما في حال تخوفهم من العذاب ، فليسوا بمُعجزين لله في حالة من هذه الأحوال ، بل هم تحت قبضته ونواصيهم بيده .

ولكنه رءوف رحيم لا يُعاجل العاصين بالعقوبة ، بل يمهلهم ويعافيهم ويرزقهم وهم يؤذونه ويؤذون أولياءه ، ومع هذا يفتح لهم أبواب التوبة ، ويدعوهم إلى الإقلاع من السيِّئات التي تضرُّهم ، ويعدهم بذلك أفضل الكرامات ، ومغفرة ما صدر منهم من الذنوب ، فليستحِ المجرم من ربه أن تكون نعم الله عليه نازلة في جميع اللحظات ومعاصيه صاعدة إلى ربه في كل الأوقات ، وليعلم أن الله يمهل ولا يهمل وأنه إذا أخذ العاصي أخذه أخذ عزيز مقتدر ، فليتب إليه ، وليرجع في جميع أموره إليه فإنه رءوف رحيم . فالبدار البدار إلى رحمته الواسعة وبرِّه العميم وسلوك الطرق الموصِّلة إلى فضل الرب الرحيم ، ألا وهي تقواه والعمل بما يحبه

ويرضاه .

[ ١٦ : ٤٨ – ٥٠ ] : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ .

يقول تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي : الشاكون في توحيد ربهم وعظمته وكماله ، ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ أي : إلى جميع مخلوقاته وكيف تتفيأ أظلتها ، ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ وعن ﴿وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ أي : كلها ساجدة لربها خاضعة لعظمته وجلاله ، ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي : ذليلون تحت التسخير والتدبير والقهر ، ما منهم أحد إلَّا وناصيته بيد الله وتدبيره عنده .

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ من الحيوانات الناطقة والصامتة ، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ الكرام خصهم بعد العموم لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم ولهذا قال : ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي : عن عبادته على كثرتهم وعظمة أخلاقهم وقوَّتهم كما قال تعالى : ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [ سورة النّساء ١٧٢] .

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ لما مدحهم بكثرة الطاعة والخضوع لله ، مدحهم بالخوف من الله الذي هو فوقهم بالذات والقهر ، وكمال الأوصاف ، فهم أذلاء تحت قهره . ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي : مهما أمرهم الله تعالى امتثلوا لأمره ، طوعا واختيارا ، وسجود المخلوقات لله تعالى قسمان : سجود اضطرار ودلالة على ما له من صفات الكمال ، وهذا عام لكل مخلوق من مؤمن وكافر وبر وفاجر وحيوان ناطق وغيره ، وسجود اختيار يختص بأوليائه وعباده المؤمنين من الملائكة وغيرهم من المخلوقات .

[ ١٦ : ٥١ – ٥٥ ] : ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ .

يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له ، ويستدل على ذلك بانفراده بالنعم والوحدانية فقال : ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي : تجعلون له شريكا في إلهيَّته ، وهو ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ مُتوحِّد في الأوصاف العظيمة مُتفرِّد بالأفعال كلها . فكما أنه الواحد في ذاته وأسمائه ونُعوته وأفعاله ، فلتوحِّدوه في عبادته ، ولهذا قال : ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ أي : خافوني وامتثلوا أمري ، واجتنبوا نهيي من غير أن تشركوا بي شيئا من المخلوقات ، فإنها كلها لله تعالى مملوكة .

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ أي : الدين والعبادة والذل في جميع الأوقات لله وحده على الخلق أن يخلصوه لله وينصبغوا بعبوديته . ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ من أهل الأرض أو أهل السماوات فإنهم لا يملكون لكم ضرا ولا نفعا ، والله المنفرد بالعطاء والإحسان ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ ظاهرة وباطنة ﴿فَمِنَ اللَّهِ﴾ لا أحد يشركه فيها ، ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ من فقر ومرض وشدة ﴿فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ أي : تضجون

بالدعاء والتضرُّع لعلمكم أنه لا يدفع الضر والشدة إلا هو ، فالذي انفرد بإعطائكم ما تحبون ، وصرف ما تكرهون ، هو الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده .

ولكن كثيرا من الناس يظلمون أنفسهم ، ويجحدون نعمة الله عليهم إذا نجاهم من الشدَّة فصاروا في حال الرخاء أشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة ، ولهذا قال : ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي : أعطيناهم حيث نجيناهم من الشدَّة ، وخلصناهم من المشقَّة ، ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ في دُنياكم قليلا ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة كفركم .

[ ٥٦ : ٦٠ - ١٦ ] : ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

يُخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم وافترائهم على الله الكذب ، وأنهم يجعلون لأصنامهم التي لا تعلم ولا تنفع ولا تضر - نصيبا مما رزقهم الله وأنعم به عليهم ، فاستعانوا برزقه على الشرك به ، وتقرَّبوا به إلى أصنام مَنْحُوتَة ، كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ [ سُورة الأنعام ١٣٦ ] الآية ، ﴿لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ ويقال : ﴿آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [ سُورة يُونس ٥٩ - ٦٠ ] ، فيُعاقبهم على ذلك أشد العقوبة .

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ حيث قالوا عن الملائكة العباد المُقرَّبين : إنهم بنات الله ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي : لأنفسهم الذكور حتى إنهم يكرهون البنات كراهة شديدة ، فكان أحدهم ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ من الغم الذي أصابه ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي : كاظم على الحزن والأسف إذا بشِّر بأنثى ، وحتى إنه يفتضح عند أبناء جنسه ويتوارى منهم من سوء ما بُشِّرَ به .

ثم يُعمِل فكره ورأيه الفاسد فيما يصنع بتلك البنت التي بُشِّر بها ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ﴾ أي : يتركها من غير قتل على إهانة وذل ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أي : يدفنها وهي حيَّة وهو الوأد الذي ذم الله به المشركين ، ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ إذ وصفوا الله بما لا يليق بجلاله من نسبة الولد إليه .

ثم لم يكفهم هذا حتى نسبوا له أردأ القسمين ، وهو الإناث اللاتي يأنفون بأنفسهم عنها ويكرهونها ، فكيف ينسبونها لله تعالى ؟ ! فبئس الحُكم حكمهم .

ولما كان هذا من أمثال السوء التي نسبها إليه أعداؤه المشركون ، قال تعالى : ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أي : المثل الناقص والعيب التام ، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ وهو كل صفة كمال وكل كمال في الوجود فالله أحق به ، من غير أن يستلزم ذلك نقصا بوجه ، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه ، وهو التعظيم والإجلال والمحبة والإنابة والمعرفة . ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر جميع الأشياء وانقادت له المخلوقات بأسرها ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها فلا يأمر ولا يفعل ، إلا ما يحمد عليه ويثنى

على كماله فيه .

[ ٦١ - ١٦ ] : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ .

لما ذكر تعالى ما افتراه الظالمون عليه ذكر كمال حلمه وصبره فقال : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ من غير زيادة ولا نقص ، ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي : لأهلك المباشرين للمعصية وغيرهم ، من أنواع الدواب والحيوانات فإن شؤم المعاصي يهلك به الحرث والنسل . ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ عن تعجيل العقوبة عليهم إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فليحذروا ما داموا في وقت الإمهال قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه .

[ ٦٢ : ٦٣ - ١٦ ] : ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

يُخبر تعالى أن المشركين ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ من البنات ، ومن الأوصاف القبيحة وهو الشرك بصرف شيء من العبادات إلى بعض المخلوقات التي هي عبيد لله ، فكما أنهم يكرهون ، ولا يرضون أن يكون عبيدهم - وهم مخلوقون من جنسهم - شركاء لهم فيما رزقهم الله فكيف يجعلون له شركاء من عبيده ؟ .

﴿وَ﴾ هم مع هذه الإساءة العظيمة ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي : أن لهم الحالة الحسنة في الدنيا والآخرة ، رد عليهم بقوله : ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ مُقدَّمون إليها ماكثون فيها غير خارجين منها أبدا .

بيَّن تعالى لرسوله ﷺ أنه ليس هو أوَّل رسول كُذِّب فقال تعالى : ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ رسلا يدعونهم إلى التوحيد ، ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فكذَّبوا الرسل ، وزعموا أن ما هم عليه ، هو الحق المنجي من كُلِّ مكروه وأن ما دعت إليه الرسل فهو بخلاف ذلك ، فلما زيَّن لهم الشيطان أعمالهم ، صار وليهم في الدنيا ، فأطاعوه واتَّبعوه وتولَّوه .

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [ سُورة الكهف ٥٠ ] ، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة حيث تولَّوا عن ولاية الرَّحمن ، ورضوا بولاية الشيطان فاستحقُّوا لذلك عذاب الهُوان .

[ ٦٥ - ١٦ ] : ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ .

عن الله مواعظه وتذكيره فيستدلوا بذلك على أنه وحده المعبود ، الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده ، لأنه المُنعم بإنزال المطر وإنبات جميع أصناف النبات ، وعلى أنه على كل شيء قدير ، وأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأموات وأن الذي نشر هذا الإحسان لذو رحمة واسعة وجود عظيم .

[ ٦٦ : ٦٧ - ١٦ ] : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا

لِلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

أي : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ التي سخَّرها الله لمنافعكم﴿لَعِبْرَةً﴾ تستدلُّون بها على كمال قُدرة الله وسِعة إحسانه حيث أسقاكم من بطونها المُشتملة على الفرث والدم ، فأخرج من بين ذلك لبنا خالصا من الكدر سائغا للشاربين للذَّته ولأنه يسقي ويغذي ، فهل هذه إلا قُدرة إلهيَّة لا أُمور طبيعية .

فأي شيء في الطبيعة يقلب العلف الذي تأكله البهيمة والشراب الذي تشربه من الماء العذب والملح لبنا خالصا سائغا للشاربين ؟ .

وجعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب منافع للعباد ، ومصالح من أنواع الرزق الحسن الذي يأكله العباد طريًّا ونضيجا وحاضرا ومُدَّخرا وطعاما وشرابا يُتَّخذ من عصيرها ونبيذها ، ومن السَّكَر الذي كان حلالا قبل ذلك ، ثم إن الله نسخ حلَّ المُسْكِرَات ، وأعاض عنها بالطيِّبات من الأنبذة ، وأنواع الأشربة اللذيذة المُباحة .

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الله كمال اقتداره حيث أخرجها من أشجار شبيهة بالحطب ، فصارت ثمرة لذيذة وفاكهة طيِّبة وعلى شمول رحمته حيث عم بها عباده ويسَّرها لهم وأنه الإله المعبود وحده حيث إنه المُنفرد بذلك .

[٦٨ : ٦٩ - ١٦] : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

في خلق هذه النَّحلة الصغيرة ، التي هداها الله هذه الهداية العجيبة ، ويسَّر لها المراعي ، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها ، وهدايته لها ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها ومراعيها ، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة . فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى ، وتمام لُطفه بعباده ، وأنه الذي لا ينبغي أن يحب غيره ويدعي سواه .

[٧٠ - ١٦] : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ .

يُخبر تعالى أنه الذي خلق العباد ونقلهم في الخلقة ، طورا بعد طور ، ثم بعد أن يستكملوا آجالهم يتوفَّاهُم ، ومنهم من يُعمِّره حتى ﴿يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أي : أخسه الذي يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة حتى العقل الذي هو جوهر الإنسان يزيد ضعفه حتى إنه ينسى ما كان يعلمه ، ويصير عقله كعقل الطفل ولهذا قال : ﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أي : قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء ومن ذلك ما ينقل به الآدمي من أطوار الخلقة ، خلقا بعد خلق كما قال تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [ سُورة الرُّوم ٥٤] .

[٧١ - ١٦] : ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا

مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ .

وهذا من أدلَّة توحيده وقُبح الشرك به ، يقول تعالى : كما أنكم مشتركون بأنكم مخلوقون مرزوقون إلَّا أنه تعالى ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ فجعل منكم أحرارا لهم مال وثروة ، ومنكم أرقَّاء لهم لا يملكون شيئا من الدنيا ، فكما أن سادتهم الذين فضَّلهم الله عليهم بالرزق ليسوا ﴿بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ ويرون هذا من الأُمور المُمتنعة ، فكذلك من أشركتم بها مع الله ، فإنها عبيد ليس لها من المُلك مِثقال ذرَّة ، فكيف تجعلونها شركاء لله تعالى ؟ ! .

هل هذا إلَّا من أعظم الظُّلم والجحود لنِعم الله ؟ ، ولهذا قال : ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ فلو أقرُّوا بالنعمة ونسبوها إلى من أولاها ، لما أشركوا به أحدا .

[٧٢ - ١٦] : ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ .

يُخبر تعالى عن مِنَّته العظيمة على عباده ، حيث جعل لهم أزواجا ليسكنوا إليها ، وجعل لهم من أزواجهم أولادا تقرُّ بهم أعينهم ويخدمونهم ، ويقضون حوائجهم ، وينتفعون بهم من وجوه كثيرة ، ورزقهم من الطيِّبات من جميع المآكل والمشارب ، والنِّعم الظاهرة التي لا يقدر العباد أن يحصوها .

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي : أيؤمنون بالباطل الذي لم يكن شيئا مذكورا ثم أوجده الله وليس له من وجوده سوى العدم فلا تخلق ولا ترزق ولا تدبر من الأمر شيئا ، وهذا عام لكل ما عبد من دون الله فإنها باطلة فكيف يتخذها المشركون من دون الله ؟ .

﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يجحدونها ويستعينون بها على معاصي الله والكفر به ، هل هذا إلَّا من أظلم الظلم وأفجر الفجور وأسفه السَّفه ؟ .

[ ٧٣: ٧٦ - ١٦] : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ .

يُخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم أنهم يعبدون من دونه آلهة اتَّخذوها شُركاء لله ، والحال أنهم لا يملكون لهم رزقا من السماوات والأرض ، فلا يُنْزلون مطرا ، ولا رزقا ولا يُنبتون من نبات الأرض شيئا ، ولا يملكون مِثقال ذرَّة في السماوات والأرض ولا يستطيعون لو أرادوا ، فإن غير المالك للشيء رُبَّما كان له قوة واقتدار على ما ينفع من يتصل به ، وهؤلاء لا يملكون ولا يقدرون .

فهذه صفة آلهتهم كيف جعلوها مع الله ، وشبهوها بمالك الأرض والسماوات الذي له الملك كله والحمد كله والقوة كلها ؟ .

ولهذا قال : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ المُتضمِّنة للتسوية بينه وبين خلقه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا

﴿تَعْلَمُونَ﴾ فعلينا أن لا نقول عليه بلا علم وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال فلهذا ضرب تعالى مثلين له ولمن يعبد من دونه ، أحدهما عبد مملوك أي : رقيق لا يملك نفسه ولا يملك من المال والدنيا شيئا ، والثاني حرٌّ غنيٌّ قد رزقه الله منه رزقا حسنا من جميع أصناف المال وهو كريم مُحِب للإحسان ، فهو ينفق منه سرًّا وجهرا ، هل يستوي هذا وذاك ؟ ! ، لا يستويان مع أنهما مخلوقان ، غير مُحَال استواؤهما .

فإذا كانا لا يستويان ، فكيف يستوي المخلوق العبد الذي ليس له مُلك ولا قُدرة ولا استطاعة ، بل هو فقير من جميع الوجوه بالرَّب الخالق المالك لجميع الممالك القادر على كُلِّ شيء ؟ .

ولهذا حمد نفسه واختص بالحمد بأنواعه فقال : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فكأنه قيل : إذا كان الأمر كذلك فلم سوَّى المشركون آلهتهم بالله ؟ قال : ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلو علموا حقيقة العلم لم يتجرَّؤوا على الشرك العظيم .

والمثل الثاني مثل ﴿رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ لا يسمع ولا ينطق و ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ لا قليل ولا كثير ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ أي : يخدمه مولاه ، ولا يستطيع هو أن يخدم نفسه فهو ناقص من كل وجه ، فهل يستوي هذا ومن كان يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ، فأقواله عدل وأفعاله مستقيمة ، فكما أنهما لا يستويان فلا يستوي من عبد من دون الله وهو لا يقدر على شيء من مصالحه ، فلولا قيام الله بها لم يستطع شيئا منها ، ولا يكون كفوا وندًّا لمن لا يقول إلَّا الحق ، ولا يفعل إلَّا ما يُحمد عليه .

[٧٧ - ١٦] : ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

أي : هو تعالى المُنفرد بغيب السماوات والأرض ، فلا يعلم الخفايا والبواطن والأسرار إلَّا هو ، ومن ذلك علم الساعة فلا يدري أحد متى تأتي إلَّا الله ، فإذا جاءت وتجلَّت لم تكن ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ من ذلك فيقوم الناس من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم وتفوت الفرص لمن يريد الإمهال ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يُستغرب على قُدرته الشاملة إحياؤه للموتى .

[٧٨ - ١٦] : ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

أي : هو المُنفرد بهذه النعم حيث ﴿أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ ولا تقدرون على شيء ثم إنه ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ﴾ خص هذه الأعضاء الثلاثة ، لشرفها وفضلها ولأنها مفتاح لكل علم ، فلا وصل للعبد علم إلَّا من أحد هذه الأبواب الثلاثة وإلَّا فسائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة هو الذي أعطاهم إيَّاها ، وجعل يُنميها فيهم شيئا فشيئا إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة اللائقة به ، وذلك لأجل أن يشكروا الله ، باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله ، فمن استعملها في غير ذلك كانت حُجَّة عليه وقابل النعمة بأقبح المُقابلة .

[٧٩ - ١٦] : ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

أي : لأنهم المنتفعون بآيات الله المُتفكِّرون فيما جعلت آية عليه ، وأما غيرهم فإن نظرهم نظر لهو وغفلة ، ووجه الآية فيها أن الله تعالى خلقها بخلقة تصلح للطيران ، ثم سخَّر لها هذا الهواء اللطيف ثم أودع فيها من قوة الحركة وما قدرت به على ذلك ، وذلك دليل على كمال حكمته وعلمه الواسع وعنايته الربانية بجميع مخلوقاته وكمال اقتداره ، تبارك الله رب العالمين .

[ ١٦ - ٨٠: ٨٣ ] : ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ .

يذكر تعالى عباده نعمه ، ويستدعي منهم شكرها والاعتراف بها فقال : ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ في الدور والقصور ونحوها تكنُّكم من الحر والبرد وتستركم أنتم وأولادكم وأمتعتكم ، وتتخذون فيها الغُرف والبيوت التي هي لأنواع منافعكم ومصالحكم وفيها حفظ لأموالكم وحرمكم وغير ذلك من الفوائد المشاهدة .

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ إما من الجلد نفسه أو مما نبت عليه ، من صوف وشعر ووبر . ﴿بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي : خفيفة الحمل تكون لكم في السفر والمنازل التي لا قصد لكم في استيطانها ، فتقيكم من الحر والبرد والمطر ، وتقي متاعكم من المطر ، ﴿وَ﴾ جعل لكم ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ أي : الأنعام ﴿وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا﴾ وهذا شامل لكُلِّ ما يُتَّخذ منها من الآنية والأوعية والفُرُش والألبسة والأجلة ، وغير ذلك .

﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي : تتمتَّعون بذلك في هذه الدنيا وتنتفعون بها ، فهذا مما سخَّر الله العباد لصنعته وعمله .

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ﴾ أي : من مخلوقاته التي لا صنعة لكم فيها ، ﴿ظِلَٰلًا﴾ وذلك كأظلة الأشجار والجبال والآكام ونحوها ، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ أي : مغارات تكنُّكم من الحر والبرد والأمطار والأعداء .

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ أي : ألبسة وثيابا ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ ولم يذكر الله البرد لأنه قد تقدَّم أن هذه السورة أولها في أصول النِّعم وآخرها في مكمِّلاتها ومُتمِّماتها ، ووقاية البرد من أُصول النِّعم فإنه من الضرورة ، وقد ذكره في أوَّلها في قوله : ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ [ سُورة النَّحل ٥ ] .

﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ أي : وثيابا تقيكم وقت البأس والحرب من السلاح ، وذلك كالدروع والزَّرْد ونحوها ، كذلك يتم نعمته عليكم حيث أسبغ عليكم من نعمه ما لا يدخل تحت الحصر ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إذا ذكرتم نعمة الله ورأيتموها غامرة لكم من كل وجه ﴿تُسْلِمُونَ﴾ لعظمته وتنقادون لأمره ، وتصرفونها في طاعة موليها ومسديها ، فكثرة النعم من الأسباب الجالبة من العباد مزيد الشكر ، والثناء بها على الله تعالى ، ولكن أبى الظالمون إلا تمرُّدا وعنادا .

ولهذا قال الله عنهم : ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الله وعن طاعته بعد ما ذُكِّروا بنعمه وآياته ، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي : ليس عليك من هدايتهم وتوفيقهم شيء بل أنت مطالب بالوعظ والتذكير والإنذار والتحذير ، فإذا أديَّت ما عليك ، فحسابهم على الله فإنهم يرون الإحسان ، ويعرفون نعمة الله ، ولكنَّهم يُنكرونها ويجحدونها ، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لا خير فيهم ، وما ينفعهم توالي الآيات ، لفساد مشاعرهم وسوء قُصُودهم وسيرون جزاء الله لكل جبَّار عنيد كفور للنِّعم مُتمرِّد على الله وعلى رسله .

[ ٨٤: ٨٧ - ١٦] : ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ .

يخبر تعالى عن حال الذين كفروا في يوم القيامة وأنه لا يقبل لهم عذر ولا يرفع عنهم العقاب وأن شركاءهم تتبرَّأ منهم ويُقرِّون على أنفسهم بالكفر والافتراء على الله فقال : ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يشهد عليهم بأعمالهم وماذا أجابوا به الداعي إلى الهدى وذلك الشهيد الذي يبعثه الله أزكى الشهداء وأعدلهم وهم الرسل الذين إذا شهدوا تم عليهم الحكم .

فـ ﴿لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار لأن اعتذارهم بعد ما علم يقينا بطلان ما هم عليه ، اعتذار كاذب لا يفيدهم شيئا ، وإن طلبوا أيضا الرجوع إلى الدنيا ليستدركوا لم يجابوا ولم يعتبوا ، بل يبادرهم العذاب الشديد الذي لا يخفف عنهم من غير إنظار ولا إمهال من حين يرونه لأنهم لا حساب عليهم لأنهم لا حسنات لهم وإنما تعد أعمالهم وتحصى ويوقفون عليها ويُقرّون بها ويفتضحون .

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ يوم القيامة وعلموا بطلانها ولم يمكنهم الإنكار .

﴿قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ﴾ ليس عندها نفع ولا شفع ، فنوَّهوا بأنفسهم ببطلانها ، وكفروا بها ، وبدت البغضاء والعداوة بينهم وبينها ، ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ أي : ردَّت عليهم شركاؤهم قولهم ، فقالت لهم : ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ حيث جعلتمونا شركاء لله ، وعبدتمونا معه فلم نأمركم بذلك ، ولا زعمنا أن فينا استحقاقا للألوهيَّة فاللوم عليكم . فحينئذ استسلموا لله ، وخضعوا لحكمه وعلموا إنهم مُستحقُّون للعذاب .

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فدخلوا النار وقد امتلأت قلوبهم من مقت أنفسهم ومن حمد ربهم وأنه لم يعاقبهم إلَّا بما كسبوا .

[٨٨ - ١٦] : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ .

حيث كفروا بأنفسهم ، وكذَّبوا بآيات الله ، وحاربوا رسله ، وصدُّوا الناس عن سبيل الله ، وصاروا دعاة إلى الضلال فاستحقُّوا مُضاعفة العذاب ، كما تضاعف جرمهم ، وكما أفسدوا في أرض الله .

[٨٩ - ١٦] : ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ

وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ .

لما ذكر فيما تقدَّم أنه يُبعث ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ ذكر ذلك أيضا هنا ، وخص منهم هذا الرسول الكريم فقال : ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي : على أُمَّتك تشهد عليهم بالخير والشر ، وهذا من كمال عدل الله تعالى أن كل رسول يشهد على أمته لأنه أعظم اطلاعا من غيره على أعمال أُمَّته ، وأعدل وأشفق من أن يشهد عليهم إلَّا بما يستحقُّون .

وهذا كقوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [ سُورة البقرة ١٤٣ ] .

وقال تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ [ سُورة النِّساء ٤١ - ٤٢ ] .

وقوله : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ في أصول الدين وفروعه ، وفي أحكام الدارين وكل ما يحتاج إليه العباد ، فهو مُبيِّن فيه أتم تبيين بألفاظ واضحة ومعان جليَّة ، حتى إنه تعالى يُثنِّي فيه الأمور الكبار التي يحتاج القلب لمرورها عليه كل وقت ، وإعادتها في كُلِّ ساعة ، ويعيدها ويبديها بألفاظ مختلفة وأدلة متنوِّعة لتستقر في القلوب فتُثمر من الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب ، وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح معاني كثيرة يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس ، واعتبر هذا بالآية التي بعد هذه الآية وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي التي لا تحصى ، فلما كان هذا القرآن تبيانا لكل شيء صار حجة الله على العباد كلهم . فانقطعت به حجة الظالمين وانتفع به المسلمون فصار هدى لهم يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم ، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة . فالهدى ما نالوه به من علم نافع وعمل صالح .

والرحمة ما ترتَّب على ذلك من ثواب الدنيا والآخرة ، كصلاح القلب وبرّه وطمأنينته ، وتمام العقل الذي لا يتم إلا بتربيته على معانيه التي هي أجل المعاني وأعلاها ، والأعمال الكريمة والأخلاق الفاضلة ، والرزق الواسع والنصر على الأعداء بالقول والفعل ونيل رضا الله تعالى وكرامته العظيمة التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلا الرب الرحيم .

[ ٩٠ - ١٦ ] : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ .

فالعدل الذي أمر الله به يشمل العدل في حقه وفي حق عباده ، فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملة موفرة بأن يؤدِّي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية والمركبة منهما في حقه وحق عباده ، ويعامل الخلق بالعدل التام ، فيؤدي كل وال ما عليه تحت ولايته سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى ، وولاية القضاء ونوَّاب الخليفة ، ونوَّاب القاضي .

والعدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه ، وعلى لسان رسوله ، وأمرهم بسلوكه ، ومن العدل في المعاملات أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المُعاوضات ، بإيفاء جميع ما عليك فلا تبخس لهم حقًّا ولا تغشهم ولا تخدعهم وتظلمهم . فالعدل واجب ، والإحسان فضيلة مستحب وذلك كنفع الناس بالمال

والبدن والعلم ، وغير ذلك من أنواع النفع حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره .

وخص الله إيتاء ذي القربى - وإن كان داخلا في العموم - لتأكُّد حقهم وتعيُّن صلتهم وبرهم ، والحرص على ذلك .

ويدخل في ذلك جميع الأقارب قريبهم وبعيدهم لكن كل ما كان أقرب كان أحق بالبر .

وقوله : ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ وهو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر كالشرك بالله والقتل بغير حق والزنا والسرقة والعُجب والكبر واحتقار الخلق وغير ذلك من الفواحش .

ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية مُتعلّق بحق الله تعالى ، وبالبغي كل عدوان على الخلق في الدماء والأموال والأعراض .

فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات لم يبق شيء إلّا دخل فيها ، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجُزئيّات ، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى فهي مما أمر الله به ، وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي فهي مما نهى الله عنه . وبها يُعْلَم حُسن ما أمر الله به وقُبْح ما نهى عنه ، وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال وترد إليها سائر الأحوال ، فتبارك من جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء ، ولهذا قال : ﴿يَعِظُكُمْ بِهِۦ﴾ أي : بما بيَّنه لكم في كتابه بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم عما فيه مضرَّتكم .

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما يعظكم به فتفهمونه وتعقلونه ، فإنكم إذا تذكرتموه وعقلتموه عملتم بمقتضاه فسعدتم سعادة لا شقاوة معها .

فلما أمر بما هو واجب في أصل الشرع أمر بوفاء ما أوجبه العبد على نفسه فقال :

[ ٩١ : ٩٢ - ١٦ ] : ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ .

وهذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه من العبادات والنذور والأيمان التي عقدها إذا كان الوفاء بها برًّا ، ويشمل أيضا ما تعاقد عليه هو وغيره كالعهود بين المتعاقدين ، وكالوعد الذي يعده العبد لغيره ويؤكده على نفسه ، فعليه في جميع ذلك الوفاء وتتميمها مع القدرة ، ولهذا نهى الله عن نقضها فقال : ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ بعقدها على اسم الله تعالى : ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المتعاقدون ﴿كَفِيلًا ۚ﴾ فلا يحل لكم أن لا تحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلا فيكون ذلك ترك تعظيم الله واستهانة به ، وقد رضي الآخر منك باليمين والتوكيد الذي جعلت الله فيه كفيلا ، فكما ائتمنك وأحسن ظنَّه فيك فلتفِ له بما قلته وأكدّته .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ يُجازي كل عامل بعمله على حسب نيّته ومقصده .

﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ في نقضكم للعهود بأسوأ الأمثال وأقبحها وأدلها على سفه مُتعاطيها ، وذلك

﴿كَٱلَّتِي﴾ تغزل غزلا قويًا فإذا استحكم وتم ما أريد منه نقضته فجعلته ﴿أَنكَٰثًا﴾ فتعبت على الغزل ثم على النقض، ولم تستفد سوى الخيبة والعناء وسفاهة العقل ونقص الرأي، فكذلك من نقض ما عاهد عليه فهو ظالم جاهل سفيه ناقص الدين والمروءة.

وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: لا تنبغي هذه الحالة منكم تعقدون الأيمان المؤكدة وتنتظرون فيها الفرص، فإذا كان العاقد لها ضعيفا غير قادر على الآخر أتمها لا لتعظيم العقد واليمين بل لعجزه، وإن كان قويًا يرى مصلحته الدنيوية في نقْضِها نَقَضَها غير مُبالٍ بعهد الله ويمينه.

كل ذلك دورانا مع أهوية النفوس، وتقديما لها على مراد الله منكم، وعلى المروءة الإنسانية، والأخلاق المرضية لأجل أن تكون أُمَّة أكثر عددا وقوّة من الأخرى.

وهذا ابتلاء من الله وامتحان يبتليكم الله به حيث قيّض من أسباب المحن ما يُمْتَحن به الصادق الوفي من الفاجر الشقي.

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيجازي كلا بما عمل، ويخزي الغادر.

[٩٣ - ١٦]: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لجمع الناس على الهُدى وجعلهم ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ ولكنه تعالى المنفرد بالهداية والإضلال، وهدايته وإضلاله من أفعاله التابعة لعلمه وحكمته، يعطي الهداية من يستحقُّها فضلا، ويمنعها من لا يستحقُّها عدلا. ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر فيجازيكم عليها أتم الجزاء وأعدله.

[٩٤ - ١٦]: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ وعهودكم ومواثيقكم تبعا لأهوائكم متى شئتم وفَّيتم بها، ومتى شئتم نقضتموها، فإنكم إذا فعلتم ذلك تزل أقدامكم بعد ثبوتها على الصراط المستقيم، ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: العذاب الذي يسوءكم ويحزنكم ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حيث ضللتم وأضللتم غيركم ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مُضاعَف.

[٩٥: ٩٧ - ١٦]: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

يُحذِّر تعالى عباده من نقض العهود والأيمان لأجل متاع الدنيا وحطامها فقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ تنالونه بالنقض وعدم الوفاء ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب العاجل والآجل لمن آثر رضاه، وأوفى بما عاهد عليه الله ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من حطام الدنيا الزائلة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

فآثروا ما يبقى على ما يفنى فإن الذي عندكم ولو كثر جدا لا بد أن ﴿يَنفَدُ﴾ ويفنى ، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ ببقائه لا يفنى ولا يزول ، فليس بعاقل من آثر الفاني الخسيس على الباقي النفيس وهذا كقوله تعالى : ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [ سورة الأعلى ١٦ - ١٧ ] ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [ سورة آل عمران ١٩٨ ] .

وفي هذا الحث والترغيب على الزهد في الدنيا . خصوصا الزهد المُتعيّن وهو الزهد فيما يكون ضررا على العبد ويوجب له الاشتغال عما أوجب الله عليه وتقديمه على حق الله فإن هذا الزهد واجب .

ومن الدواعي للزهد أن يُقابِل العبد لذّات الدنيا وشهواتها بخيرات الآخرة ، فإنه يجد من الفرق والتفاوت ما يدعوه إلى إيثار أعلى الأمرين وليس الزهد الممدوح هو الانقطاع للعبادات القاصرة كالصلاة والصيام والذكر ونحوها ، بل لا يكون العبد زاهدا زهدا صحيحا حتى يقوم بما يقدر عليه من الأوامر الشرعية الظاهرة والباطنة ، ومن الدعوة إلى الله وإلى دينه بالقول والفعل ، فالزهد الحقيقي هو الزهد فيما لا ينفع في الدين والدنيا ، والرغبة والسعي في كل ما ينفع .

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ على طاعة الله ، وعن معصيته ، وفطموا نفوسهم عن الشهوات الدنيويَّة المُضرَّة بدينهم ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا . ولهذا ذكر جزاء العاملين في الدنيا والآخرة فقال : ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فإن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها ، بل لا تسمى أعمالا صالحة إلا بالإيمان ، والإيمان مقتض لها ، فإنه التصديق الجازم المثمر لأعمال الجوارح من الواجبات والمُستحبَّات ، فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ وذلك بطمأنينة قلبه ، وسكون نفسه ، وعدم التفاته لما يُشوّش عليه قلبه ، ويرزقه الله رزقا حلالا طيبا من حيث لا يحتسب .

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من أصناف اللذّات مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فيؤتيه الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة .

[ ٩٨ : ١٠٠ - ١٦ ] : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ .

أي : فإذا أردت القراءة لكتاب الله الذي هو أشرف الكتب وأجلها وفيه صلاح القلوب والعلوم الكثيرة فإن الشيطان أحرص ما يكون على العبد عند شروعه في الأمور الفاضلة ، فيسعى في صرفه عن مقاصدها ومعانيها .

فالطريق إلى السلامة من شرّه الالتجاء إلى الله ، والاستعاذة به من شرّه ، فيقول القارئ : « أعوذ بالله من الشّيطان الرَّجيم » مُتدبّرا لمعناها ، مُعتمدا بقلبه على الله في صرفه عنه ، مُجتهدا في دفع وساوسه وأفكاره الرديئة مجتهدا ، على السبب الأقوى في دفعه ، وهو التحلّي بحلية الإيمان والتوكُّل .

فإن الشيطان ﴿لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ أي : تسلُّط ﴿عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ فيدفع الله عن المؤمنين المتوكلين عليه شر الشيطان ولا يبق له عليهم سبيل .

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ﴾ أي : تسلُّطه ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ أي : يجعلونه لهم وليًا ، وذلك بتخليهم عن ولاية الله ، ودخولهم في طاعة الشيطان ، وانضمامهم لحزبه ، فهم الذين جعلوا له ولاية على أنفسهم ، فأزَّهم إلى المعاصي أزًّا وقادهم إلى النار قَوْدًا .

[ ١٠١ : ١٠٢ – ١٦ ] : ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ .

يذكر تعالى أن المُكذِّبين بهذا القرآن يتتبَّعون ما يرونه حُجَّة لهم ، وهو أن الله تعالى هو الحاكم الحكيم ، الذي يُشرِّع الأحكام ، ويُبدِّل حكما مكان آخر لحكمته ورحمته ، فإذا رأوه كذلك قدحوا في الرسول وبما جاء به و ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ قال الله تعالى : ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهم جُهَّال لا علم لهم بربِّهم ولا بشرعه ، ومن المعلوم أن قدح الجاهل بلا علم لا عبرة به ، فإن القدح في الشيء فرع عن العلم به ، وما يشتمل عليه مما يوجب المدح أو القدح .

ولهذا ذكر تعالى حكمته في ذلك فقال : ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل الرسول المُقدَّس المُنزَّه عن كل عيب وخيانة وآفة .

﴿بِالْحَقِّ﴾ أي : نزوله بالحق وهو مشتمل على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه ، فلا سبيل لأحد أن يقدح فيه قدحا صحيحا ، لأنه إذا علم أنه الحق علم أن ما عارضه وناقضه باطل .

﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عند نزول آياته وتواردها عليهم وقتا بعد وقت ، فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئا فشيئا حتى يكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسي ، وأيضا فإنهم يعلمون أنه الحق ، وإذا شرع حكما من الأحكام ثم نسخه علموا أنه أبدله بما هو مثله أو خير منه لهم وأن نسخه هو المناسب للحكمة الربَّانيَّة والمُناسَبة العقلية .

﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي : يهديهم إلى حقائق الأشياء ويُبيِّن لهم الحق من الباطل والهُدى من الضلال ، ويُبشِّرهم أن لهم أجرا حسنا ، ماكثين فيه أبدا .

وأيضا فإنه كلما نزل شيئا فشيئا ، كان أعظم هداية وبشارة لهم مما لو أتاهم جملة واحدة وتفرَّق الفكر فيه بل ينزل الله حكما وبشارة أكثر فإذا فهموه وعقلوه وعرفوا المراد منه وترووا منه أنزل نظيره وهكذا ، ولذلك بلغ الصحابة رضي الله عنهم به مبلغا عظيما ، وتغيَّرت أخلاقهم وطبائعهم ، وانتقلوا إلى أخلاق وعوائد وأعمال فاقوا بها الأوَّلين والآخرين .

وكان أعلى وأولى لمن بعدهم أن يتربُّوا بعلومه ويتخلَّقوا بأخلاقه ، ويستضيئوا بنوره في ظلمات الغي والجهالات ويجعلوه إمامهم في جميع الحالات ، فبذلك تستقيم أمورهم الدينية والدنيوية .

[ ١٠٣ : ١٠٥ - ١٦ ] : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ .

يُخبر تعالى عن قيل المشركين المُكذِّبين لرسوله ﴿أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ﴾ هذا الكتاب الذي جاء به ﴿بَشَرٌ﴾ وذلك البشر الذي يشيرون إليه أعجمي اللسان ﴿وَهَـٰذَا﴾ القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ هل هذا القول ممكن ؟ أو له حظ من الاحتمال ؟ ولكن الكاذب يكذب ولا يُفكر فيما يؤول إليه كذبه ، فيكون في قوله من التناقض والفساد ما يوجب رده بمُجرَّد تصوره .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة دلالة صريحة على الحق المُبين فيردُّونها ولا يقبلونها ، ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ حيث جاءهم الهدى فردُّوه فعوقبوا بحرمانه وخذلان الله لهم . ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ﴾ أي : إنما يصدر افتراء الكذب من ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ كالمعاندين لرسوله من بعد ما جاءتهم البيِّنات ، ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ أي : الكذب منحصر فيهم وعليهم أولى بأن يطلق من غيرهم .

وأما محمد ﷺ المؤمن بآيات الله الخاضع لربه فمُحال أن يكذب على الله ويتقوَّل عليه ما لم يقل ، فأعداؤه رموه بالكذب الذي هو وصفهم ، فأظهر الله خزيهم وبيَّن فضائحهم ، فله تعالى الحمد .

[ ١٠٦ : ١٠٩ - ١٦ ] : ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝١٠٧ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ۝١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ .

يُخبر تعالى عن شناعة حال ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ﴾ فعمى بعد ما أبصر ورجع إلى الضلال بعد ما اهتدى ، وشرح صدره بالكفر راضيا به مطمئنا أن لهم الغضب الشديد من الرب الرحيم الذي إذا غضب لم يقم لغضبه شيء وغضب عليهم كل شيء ، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي : في غاية الشدَّة مع أنه دائم أبدا .

و ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ حيث ارتدُّوا على أدبارهم طمعا في شيء من حطام الدنيا ، ورغبة فيه وزهدا في خير الآخرة ، فلما اختاروا الكفر على الإيمان منعهم الله الهداية فلم يهدهم لأن الكفر وصفهم ، فطبع على قلوبهم فلا يدخلها خير ، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فلا ينفذ منها ما ينفعهم ويصل إلى قلوبهم . فشملتهم الغفلة وأحاط بهم الخذلان ، وحُرموا رحمة الله التي وسعت كل شيء ، وذلك أنها أتتهم فردوها ، وعرضت عليهم فلم يقبلوها .

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم يوم القيامة

وفاتهم النعيم المُقيم وحصلوا على العذاب الأليم .

وهذا بخلاف من أكره على الكفر وأجبر عليه ، وقلبه مطمئن بالإيمان ؛ راغب فيه فإنه لا حرج عليه ولا إثم ، ويجوز له النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها .

ودل ذلك على أن كلام المكره على الطلاق أو العتاق أو البيع أو الشراء أو سائر العقود أنه لا عبرة به ، ولا يترتَّب عليه حكم شرعي ، لأنه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر إذا أكره عليها فغيرها من باب أولى وأحرى .

[ ١١٠ : ١١١ – ١٦ ] : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ .

أي : ثم إن ربَّك الذي ربَّى عباده المُخْلَصين بلُطفه وإحسانه لغفور رحيم لمن هاجر في سبيله ، وخلى دياره وأمواله طلبا لمرضاة الله ، وفتن على دينه ليرجع إلى الكفر ، فثبت على الإيمان ، وتخلَّص ما معه من اليقين ، ثم جاهد أعداء الله ليدخلهم في دين الله بلسانه ويده ، وصبر على هذه العبادات الشاقة على أكثر الناس .

فهذه أكبر الأسباب التي تنال بها أعظم العطايا وأفضل المواهب ، وهي مغفرة الله للذنوب صغارها وكبارها المُتضمِّن ذلك زوال كل أمر مكروه ، ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم واستقامت أمور دينهم ودُنياهم ، فلهم الرحمة من الله في يوم القيامة حين ﴿تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ كلٌّ يقول نفسي نفسي لا يهمه سوى نفسه ، ففي ذلك اليوم يفتقر العبد إلى حصول مِثقال ذرَّة من الخير .

﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ من خير وشر ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ فلا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ .

[ ١١٢ : ١١٣ – ١٦ ] : ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ .

وهذه القرية هي « مكَّة المُشرَّفة » التي كانت آمنة مطمئنة لا يهاج فيها أحد ، وتحترمها الجاهلية الجهلاء حتى إن أحدهم يجد قاتل أبيه وأخيه ، فلا يهيجه مع شدَّة الحمية فيهم ، والنعرة العربية فحصل لها من الأمن التام ما لم يحصل لسواها وكذلك الرزق الواسع .

كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر ، ولكن يسَّر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان ، فجاءهم رسول منهم يعرفون أمانته وصدقه ، يدعوهم إلى أكمل الأمور ، وينهاهم عن الأمور السيئة ، فكذَّبوه وكفروا بنعمة الله عليهم ، فأذاقهم الله ضد ما كانوا فيه ، وألبسهم لباس الجوع الذي هو ضد الرغد ، والخوف الذي هو ضد الأمن ، وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم وعدم شكرهم ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [ سُورة النَّحل ٣٣ ] .

[ ١١٤ : ١١٨ - ١٦] : ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ .

يأمر تعالى عباده بأكل ما رزقهم الله من الحيوانات والحبوب والثمار وغيرها ، ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أي : حالة كونها مُتَّصِفة بهذين الوصفين بحيث لا تكون مما حَرَّم الله أو أثرا عن غصب ونحوه . فتمتَّعوا بما خلق الله لكم من غير إسراف ولا تَعَدٍّ .

﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ بالاعتراف بها بالقلب والثناء على الله بها وصرفها في طاعة الله . ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي إن كنتم مخلصين له العبادة ، فلا تشكروا إلَّا إيَّاه ، ولا تنسوا المُنْعِم .

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾ الأشياء المُضرَّة تنزيها لكم ، وذلك : كـ ﴿الْمَيْتَةَ﴾ ويدخل في ذلك كل ما كان موته على غير ذكاة مشروعة ، ويُستثنى من ذلك ميتة الجراد والسمك .[١٣١]

﴿وَالدَّمَ﴾ المسفوح وأما ما يبقى في العروق واللحم فلا يضر .

﴿وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ لقذارته وخُبثه وذلك شامل للحمه وشحمه وجميع أجزائه . ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ كالذي يذبح للأصنام والقبور ونحوها لأنه مقصود به الشرك .

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ إلى شيء من المُحرَّمات - بأن حملته الضرورة وخاف إن لم يأكل أن يهلك - فلا جُناح عليه إذا لم يكن باغيا أو عاديا ، أي : إذا لم يرد أكل المُحرَّم وهو غير مضطر ، ولا مُتعد الحلال إلى الحرام ، أو متجاوز لما زاد على قدر الضرورة ، فهذا الذي حرَّمه الله من المُباحات .

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ أي : لا تُحرِّموا وتُحلِّلوا من تلقاء أنفسكم ، كذبا وافتراء على الله وتقوُّلًا عليه .

﴿لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ولا بد أن يظهر الله خزيهم وإن تمتَّعوا في الدنيا فإنه ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ ومصيرهم إلى النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

---

(١٣١) * هذا معنى حديث أخرجه : ابن ماجه في سُننه : ( كتاب الصَّيد / باب : صيد الحيتان والجراد / ح ٣٢١٨، ٣٣١٤) . وأحمد في المُسند : ( ٢ / ٩٧) .

عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ ، فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ : فَالْحُوتُ وَالْجَرَادُ ، وَأَمَّا الدَّمَانِ : فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ .

والحديث لا يصح مرفوعا ، وإنما المحفوظ فيه الوقف ، قاله أبو حاتم الرازي ، وأبو زُرعة ، والدَّارقُطني ، والبيهقي .

فالله تعالى ما حرَّم علينا إلَّا الخبيثات تفضُّلا منه ، وصيانة عن كُلِّ مُستقذر .

وأما الذين هادوا فحرَّم الله عليهم طيِّبات أُحلَّت لهم بسبب ظلمهم عقوبة لهم ، كما قصَّه في سورة الأنعام في قوله : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [ سُورة الأنعام ١٤٦ ] .

[ ١١٩ – ١٦ ] : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

وهذا حضٌّ منه لعباده على التوبة ، ودعوة لهم إلى الإنابة ، فأخبر أن من عمل سوءا بجهالة بعاقبة ما تجنِّي عليه ، ولو كان مُتعمِّدا للذنب ، فإنه لا بد أن ينقص ما في قلبه من العلم وقت مُفارَقة الذنب ، فإذا تاب وأصلح بأن ترك الذنب وندم عليه وأصلح أعماله ، فإن الله يغفر له ويرحمه ويتقبَّل توبته ويُعيده إلى حالته الأولى أو أعلى منها .

[ ١٢٠ : ١٢٣ – ١٦ ] : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

يُخبر تعالى عما فَضَّل به خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وخَصَّه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة فقال : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي : إماما جامعا لخصال الخير هاديا مُهتديا ، ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ أي : مديما لطاعة ربه مُخلصا له الدين ، ﴿حَنِيفًا﴾ مقبلا على الله بالمحبَّة ، والإنابة والعُبوديَّة مُعرضا عمن سواه . ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في قوله وعمله ، وجميع أحواله لأنه إمام المُوحِّدين الحُنَفَاء .

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ أي : آتاه الله في الدنيا حسنة ، وأنعم عليه بنعم ظاهرة وباطنة ، فقام بشكرها ، فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن ﴿اجْتَبَاهُ﴾ ربه واختصَّه بخلَّته وجعله من صفوة خلقه ، وخيار عباده المُقرَّبين .

﴿وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ في علمه وعمله فعلم بالحق وآثره على غيره .

﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ رزقا واسعا ، وزوجة حسناء ، وذرِّية صالحين ، وأخلاقا مرضية ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين لهم المنازل العالية والقرب العظيم من الله تعالى .

ومن أعظم فضائله أن الله أوحى لسيد الخلق وأكملهم أن يتَّبع ملَّة إبراهيم ، ويقتدي به هو وأُمَّته .

[ ١٢٤ – ١٦ ] : ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾ أي : فرضا ﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ حين ضلُّوا عن يوم الجمعة وهم اليهود فصار اختلافهم سببا لأن يجب عليهم في السبت احترامه وتعظيمه ، وإلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة الذي هدى الله هذه الأمة إليه .

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيبيِّن لهم المُحق من المُبْطِل والمُستحق للثواب ممن استحق العقاب .

[١٢٥ - ١٦] : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ .

أي : ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم المُشتمِل على العلم النافع والعمل الصالح ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ أي : كل أحد على حسب حاله وفهمه وقوله وانقياده .

ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل والبداءة بالأهم فالأهم ، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم ، وبما يكون قبوله أتم ، وبالرفق واللين ، فإن انقاد بالحكمة ، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة ، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب .

إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها ، والنواهي من المضار وتعدادها ، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله وإهانة من لم يقم به .

وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل ، فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق ، أو كان داعيه إلى الباطل ، فيُجادِل بالتي هي أحسن ، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلا ونقلا .

ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها ، فإنه أقرب إلى حصول المقصود ، وأن لا تؤدِّي المُجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها ، ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المُغالبة ونحوها .

وقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ علم السبب الذي أدَّاه إلى الضلال ، وعلم أعماله المترتِّبة على ضلالته وسيُجازيه عليها .

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ علم أنهم يصلحون للهداية فهداهم ثم منَّ عليهم فاجتباهم .

[١٢٦ : ١٢٨ - ١٦] : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ .

يقول تعالى - مُبيحا للعدل ونادبا للفضل والإحسان - ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ من أساء إليكم بالقول والفعل ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ من غير زيادة منكم على ما أجراه معكم .

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ عن المعاقبة وعفوتم عن جرمهم ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ من الاستيفاء وما عند الله خير لكم وأحسن عاقبة كما قال تعالى : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [ سُورة الشُّورى ٤٠ ] .

ثم أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله والاستعانة بالله على ذلك وعدم الاتِّكال على النفس فقال : ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ هو الذي يعينك عليه ويُثبِّتك .

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إذا دعوتهم فلم تر منهم قبولا لدعوتك ، فإن الحزن لا يجدي عليك شيئا ، ﴿وَلَا

تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ أي : شدَّة وحرج ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ فإن مكرهم عائد إليهم وأنت من المُتَّقين المُحسنين .

والله مع المُتَّقين المُحسنين ، بعونه وتوفيقه وتسديده ، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي ، وأحسنوا في عبادة الله ، بأن عبدوا الله كأنَّهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم ، والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه . نسأل الله أن يجعلنا من المُتَّقين المُحسنين .

**تم تفسير سورة النَّحل والحمد لله .**

## ( ١٧ ) تفسير سورة بني إسرائيل

**وهي مكيَّة**

**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**

[١ - ١٧] : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .

يُنزِّه تعالى نفسه المُقدَّسة ويُعظِّمها لأن له الأفعال العظيمة والمِنَن الجسيمة التي من جملتها أن ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ ورسوله محمد ﷺ ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الذي هو أَجَلُ المساجد على الإطلاق ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ الذي هو من المساجد الفاضلة وهو محل الأنبياء .

فأسري به في ليلة واحدة إلى مسافة بعيدة جدا ورجع في ليلته ، وأراه الله من آياته ما ازداد به هُدى وبصيرة وثباتا وفرقانا ، وهذا من اعتنائه تعالى به ولطفه حيث يسَّره لليُسْرَى في جميع أموره وخوَّله نِعمًا فاق بها الأوَّلين والآخرين ، وظاهر الآية أن الإسراء كان في أوَّل الليل وأنه من نفس المسجد الحرام ، لكن ثبت في الصَّحيح أنه أُسْرِي به من بيت أم هانئ ، فعلى هذا تكون الفضيلة في المسجد الحرام لسائر الحرم ، فكله تضاعف فيه العبادة كتضاعفها في نفس المسجد ، وأن الإسراء بروحه وجسده معا وإلا لم يكن في ذلك آية كبرى ومنقبة عظيمة ، وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في الإسراء ، وذكر تفاصيل ما رأى وأنه أسري به إلى بيت المقدس ثم عرج به من هناك إلى السماوات حتى وصل إلى ما فوق السماوات العلى ورأى الجنة والنار ، والأنبياء على مراتبهم وفرض عليه الصلوات خمسين ، ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم حتى صارت خمسا بالفعل ، وخمسين بالأجر والثواب ، وحاز من المفاخر تلك الليلة هو وأمته ما لا يعلم مقداره إلا الله عزَّ وجل .[١٣٢]

---

(١٣٢) * قال الكتاني في « نظم المُتناثر » ص ١٣٢:

( حديث قصَّة الإسراء : أورد فيها السُّيوطي أيضا سبعة وعشرون نفسا ، وعدَّ الحافظ الشَّامي في معراجه الَّذين رووا قصة الإسراء فبلغوا تسعة وثلاثين ، فمجموع ذلك خمسة وأربعون صحابيا ، وتقدَّم في فتح المغيث عن الحاكم أن من جُملة ما تواتر حديث =

وذكره هنا وفي مقام الإنزال للقرآن ومقام التحدّي بصفة العُبوديّة لأنه نال هذه المقامات الكبار بتكميله لعُبوديّة ربه .

وقوله : ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ أي : بكثرة الأشجار والأنهار والخصب الدائم .

ومن بركته تفضيله على غيره من المساجد سوى المسجد الحرام ومسجد المدينة ، وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه وأن الله اختصه محلا لكثير من أنبيائه وأصفيائه .

[ ٢ : ٨ – ١٧ ] : ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ﴿٣﴾ وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ .

كثيرا ما يقرن الباري بين نبوّة محمد ﷺ ونبوّة موسى ﷺ وبين كتابيهما وشريعتيهما لأن كتابيهما أفضل الكتب وشريعتيهما أكمل الشرائع ونبوّتيهما أعلى النبوّات وأتباعهما أكثر المؤمنين ، ولهذا قال هنا : ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الذي هو التوراة ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ يهتدون به في ظلمات الجهل إلى العلم بالحق .

﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا﴾ أي : وقلنا لهم ذلك وأنزلنا إليهم الكتاب لذلك ليعبدوا الله وحده ويُنيبوا إليه ويتّخذوه وحده وكيلا ومُدبِّرا لهم في أمر دينهم ودنياهم ولا يتعلّقوا بغيره من المخلوقين الذين لا يملكون شيئا ولا ينفعونهم بشيء .

﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ﴾ أي : يا ذُريَّة من مَنَّنا عليهم وحملناهم مع نوح ، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ ففيه التنويه بالثناء على نوح عليه السلام بقيامه بشكر الله واتّصافه بذلك والحث لذُريّته أن يقتدوا به في شكره ويتابعوه عليه ، وأن يتذكروا نعمة الله عليهم إذ أبقاهم واستخلفهم في الأرض وأغرق غيرهم .

﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي : تقدّمنا وعهدنا إليهم وأخبرناهم في كتابهم أنهم لا بد أن يقع منهم إفساد في الأرض مرّتين بعمل المعاصي والبطر لنعم الله والعلو في الأرض والتكبُّر فيها وأنه إذا وقع واحدة منهما سلَّط الله عليهم الأعداء وانتقم منهم وهذا تحذير لهم وإنذار لعلهم يرجعون فيتذكّرون .

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي : أولى المرّتين اللتين يفسدون فيهما . أي : إذا وقع منهم ذلك الفساد ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ﴾ بعثا قدريّا وسلَّطنا عليكم تسليطا كونيًّا جزائيًّا ﴿عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ أي : ذوي شجاعة وعدد وعدة فنصرهم الله عليكم فقتلوكم وسَبوا أولادكم ونهبوا أموالكم ، وجاسوا خِلاَلَ دياركم

= الإسراء ، وأن إدريس في السّماء الرّابعة ، وفي شرح المواهب ما نصه : وقد تواترت الأخبار بأنّه ﷺ أسري به على البراق . وعليه فالإسراء متواتر ، وكونه على البراق ) . بتصرُّف .

فهتكوا الدور ودخلوا المسجد الحرام وأفسدوه، ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ لا بد من وقوعه لوجود سببه منهم.

واختلف المفسّرون في تعيين هؤلاء المسلّطين إلّا أنّهم اتّفقوا على أنّهم قوم كُفّار.

إما من أهل العراق أو الجزيرة أو غيرها سلّطهم الله على بني إسرائيل لما كثرت فيهم المعاصي وتركوا كثيرا من شريعتهم وطغوا في الأرض.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على هؤلاء الذين سُلّطوا عليكم فأجليتموهم من دياركم.

﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي: أكثرنا أرزاقكم وكثرناكم وقويناكم عليهم، ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ منهم وذلك بسبب إحسانكم وخضوعكم لله.

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ لأن النفع عائد إليكم حتى في الدنيا كما شاهدتم من انتصاركم على أعدائكم. ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي: فلأنفسكم يعود الضرر كما أراكم الله من تسليط الأعداء.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي: المرّة الآخرة التي تفسدون فيها في الأرض سلّطنا عليكم الأعداء.

﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ بانتصارهم عليكم وسبيكم وليدخلوا المسجد الحرام كما دخلوه أوّل مرّة، والمراد بالمسجد مسجد بيت المقدس.

﴿وَلِيُتَبِّرُوا﴾ أي: يُخرّبوا ويُدمّروا ﴿مَا عَلَوْا﴾ عليه ﴿تَتْبِيرًا﴾ فيُخرّبوا بيوتكم ومساجدكم وحروثكم.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ فيُديل لكم الكَرّة عليهم، فرحمهم وجعل لهم الدولة، وتوعّدهم على المعاصي فقال: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ إلى الإفساد في الأرض ﴿عُدْنَا﴾ إلى عقوبتكم، فعادوا لذلك فسلّط الله عليهم رسوله محمدا ﷺ فانتقم الله به منهم، فهذا جزاء الدنيا وما عند الله من النّكال أعظم وأشنع، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ يصلونها ويلازمونها لا يخرجون منها أبدا.

وفي هذه الآيات التحذير لهذه الأُمّة من العمل بالمعاصي لئلا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل، فسُنّة الله واحدة لا تُبدّل ولا تُغيّر.

ومن نظر إلى تسليط الكفرة على المسلمين والظلمة، عرف أن ذلك من أجل ذنوبهم عقوبة لهم وأنهم إذا أقاموا كتاب الله وسُنّة رسوله، مكّن لهم في الأرض ونصرهم على أعدائهم.

[ ٩: ١٠ – ١٧ ]: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

يُخبر تعالى عن شرف القُرآن وجلالته وأنه ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي: أعدل وأعلى من العقائد والأعمال والأخلاق، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره.

﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ من الواجبات والسُّنن، ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أعدّه الله لهم في دار كرامته لا يعلم وصفه إلا هو.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فالقرآن مشتمل على البشارة والنذارة وذكر

الأسباب التي تنال بها البشارة وهو الإيمان والعمل الصالح والتي تستحق بها النذارة وهو ضد ذلك .

[١١ – ١٧] : ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ .

وهذا من جهل الإنسان وعجلته حيث يدعو على نفسه وأولاده وماله بالشَّرِّ عند الغضب ويُبادر بذلك الدعاء كما يُبادر بالدعاء في الخير ، ولكن الله – بلُطفه – يستجيب له في الخير ولا يستجيب له بالشر .

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ﴾ [سورة يُونُس ١١] .

[١٢ – ١٧] : ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ﴾ أي : دالتين على كمال قُدرة الله وسعة رحمته وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له ، ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي : جعلناه مُظلِما للسكون فيه والراحة ، ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي : مضيئة ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في معايشكم وصنائعكم وتجاراتكم وأسفاركم .

﴿وَلِتَعْلَمُوا۟﴾ بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ فتبنون عليها ما تشاءون من مصالحكم .

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ أي : بيَّنا الآيات وصرفناه لتتميَّز الأشياء ويستبين الحق من الباطل كما قال تعالى : ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ [سُورة الأنعام ٣٨] .

[١٣ : ١٤ – ١٦] : ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ .

وهذا إخبار عن كمال عدله أن كل إنسان يلزمه طائره في عنقه ، أي : ما عمل من خير وشر يجعله الله مُلازِما له لا يتعدَّاه إلى غيره ، فلا يُحاسَب بعمل غيره ولا يُحاسِب غيره بعمله .

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ فيه ما عمله من الخير والشر حاضرا صغيره وكبيره ويقال له : ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ وهذا من أعظم العدل والإنصاف أن يقال للعبد : حاسب نفسك ليعرف بما عليه من الحق الموجب للعقاب .

[١٥ – ١٦] : ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ .

أي : هداية كل أحد وضلاله لنفسه لا يحمل أحد ذنب أحد ، ولا يدفع عنه مِثقال ذرَّة من الشر ، والله تعالى أعدل العادلين لا يُعَذِّب أحدا حتى تقوم عليه الحُجَّة بالرسالة ثم يُعانِد الحُجَّة . وأما من انقاد للحُجَّة أو لم تبلغه حُجَّة الله تعالى فإن الله تعالى لا يُعَذِّبه .

واستُدِلَّ بهذه الآية على أن أهل الفترات وأطفال المشركين ، لا يُعذِّبهم الله حتى يبعث إليهم رسولا لأنه مُنزَّه عن الظلم .

[١٦ : ١٧ – ١٧] : ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ۝١٦ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾

يُخبر تعالى أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة ويستأصلها بالعذاب أمر مترفيها أمرا قدريًا ففسقوا فيها واشتد طغيانهم ، ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ أي : كلمة العذاب التي لا مردَّ لها ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ .

وهؤلاء أُمم كثيرة أبادهم الله بالعذاب من بعد قوم نوح كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ممن عاقبهم الله لما كثر بغيهم واشتد كفرهم أنزل الله بهم عقابه العظيم .

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ فلا يخافوا منه ظلما وأنه يُعاقبهم على ما عملوه .

[١٨ : ٢١ - ١٧] : ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ .

يُخبر تعالى أن ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ الدنيا ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ المُنقضية الزائلة فعمل لها وسعى ، ونسي المبتدأ أو المنتهى أن الله يُعجّل له من حطامها ومتاعها ما يشاؤه ويريده مما كتب الله له في اللوح المحفوظ ولكنه متاع غير نافع ولا دائم له ، ثم يجعل له في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا﴾ أي : يُباشر عذابها ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي : في حالة الخزي والفضيحة والذم من الله ومن خلقه ، والبعد عن رحمة الله فيجمع له بين العذاب والفضيحة .

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ فرضيها وآثرها على الدنيا ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ الذي دعت إليه الكتب السماوية والآثار النبويّة فعمل بذلك على قدر إمكانه ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ أي : مقبولا منمى مُدَّخرا لهم أجرهم وثوابهم عند ربِّهم ، ومع هذا فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا فكلا يمده الله منها لأنه عطاؤه وإحسانه .

﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي : ممنوعا من أحد بل جميع الخلق راتعون بفضله وإحسانه .

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ في الدنيا بسعة الأرزاق وقلتها ، واليسر والعسر والعلم والجهل والعقل والسفه وغير ذلك من الأمور التي فضل الله العباد بعضهم على بعض بها .

﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ فلا نسبة لنعيم الدنيا ولذاتها إلى الآخرة بوجه من الوجوه .

فكم بين من هو في الغُرف العاليات واللذَّات المتنوّعات والسرور والخيرات والأفراح ممن هو يتقلب في الجحيم ويُعذَّب بالعذاب الأليم ، وقد حلَّ عليه سخط الرب الرَّحيم وكل من الدارين بين أهلها من التفاوت ما لا يمكن أحدا عده .

[٢٢ - ١٧] : ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ .

أي : لا تعتقد أن أحدا من المخلوقين يستحق شيئا من العبادة ولا تشرك بالله أحدا منهم فإن ذلك داع للذم والخُذلان ، فالله وملائكته ورسله قد نهوا عن الشرك وذموا من عمله أشد الذم ورتَّبوا عليه من الأسماء المذمومة ، والأوصاف المقبوحة ما كان به مُتعاطيه ، أشنع الخلق وصفا وأقبحهم نعتا ، وله من الخُذلان في أمر دينه ودنياه بحسب ما تركه من التعلق بربه ، فمن تعلق بغيره فهو مخذول قد وكل إلى من تعلق به ولا أحد

من الخلق ينفع أحدا إلا بإذن الله ، كما أن من جعل مع الله إلها آخر له الذم والخُذلان ، فمن وحده وأخلص دينه لله وتعلق به دون غيره فإنه محمود معان في جميع أحواله .

[ ٢٣ : ٢٤ – ١٧] : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ .

لما نهى تعالى عن الشرك به أمر بالتوحيد فقال : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ قضاء دينيًا وأمر أمرا شرعيًا ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ أحدا من أهل الأرض والسماوات الأحياء والأموات .

﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ لأنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي له كل صفة كمال ، وله من تلك الصفة أعظمها على وجه لا يشبهه أحد من خلقه ، وهو المُنعِم بالنِّعم الظاهرة والباطنة الدافع لجميع النِّقم الخالق الرازق المُدبِّر لجميع الأمور فهو المُتفرِّد بذلك كله وغيره ليس له من ذلك شيء .

ثم ذكر بعد حقِّه القيام بحق الوالدين فقال : ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي : أحسنوا إليهما بجميع وجوه الإحسان القولي والفعلي لأنهما سبب وجود العبد ولهما من المحبّة للولد والإحسان إليه والقرب ما يقتضي تأكُّد الحق ووجوب البر .

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ أي : إذا وصلا إلى هذا السن الذي تضعف فيه قواهما ويحتاجان من اللطف والإحسان ما هو معروف . ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ وهذا أدنى مراتب الأذى نبّه به على ما سواه ، والمعنى لا تؤذهما أدنى أذيّة .

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي : تزجرهما وتتكلّم لهما كلاما خشنا ، ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ بلفظ يُحبّانه وتأدّب وتلطّف بكلام لين حسن يلذ على قلوبهما وتطمئن به نفوسهما ، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان .

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي : تواضع لهما ذُلًّا لهما ورحمة واحتسابا للأجر لا لأجل الخوف منهما أو الرجاء لما لهما ، ونحو ذلك من المقاصد التي لا يؤجر عليها العبد .

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ أي : ادع لهما بالرحمة أحياء وأمواتا ، جزاء على تربيتهما إيّاك صغيرا .

وفُهِمَ من هذا أنه كُلّما ازدادت التربية ازداد الحق ، وكذلك من تولّى تربية الإنسان في دينه ودُنياه تربية صالحة غير الأبوين فإن له على من ربّاه حق التربية .

[٢٥ – ١٧] : ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾

أي : ربكم تعالى مطلع على ما أكنته سرائركم من خير وشر وهو لا ينظر إلى أعمالكم وأبدانكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وما فيها من الخير والشر .

﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ بأن تكون إرادتكم ومقاصدكم دائرة على مرضاة الله ورغبتكم فيما يُقرِّبكم إليه وليس في قلوبكم إرادات مُستقرّة لغير الله .

﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ﴾ أي : الرجّاعين إليه في جميع الأوقات ﴿غَفُورًا﴾ فمن اطّلع الله على قلبه

وعلم أنه ليس فيه إلا الإنابة إليه ومحبته ومحبة ما يُقرِّب إليه فإنه وإن جرى منه في بعض الأوقات ما هو مقتضى الطبائع البشرية فإن الله يعفو عنه ويغفر له الأمور العارضة غير المُستقرّة .

[ ٢٦ : ٣٠ – ١٧ ] : ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ من البر والإكرام الواجب والمسنون وذلك الحق يتفاوت بتفاوت الأحوال والأقارب والحاجة وعدمها والأزمنة .

﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ آته حقَّه من الزكاة ومن غيرها لتزول مسكنته ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو الغريب المنقطع به عن بلده ، فيُعطي الجميع من المال على وجه لا يضر المعطي ولا يكون زائدا على المقدار اللائق فإن ذلك تبذير قد نهى الله عنه وأخبر : ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ لأن الشيطان لا يدعو إلا إلى كل خصلة ذميمة فيدعو الإنسان إلى البخل والإمساك فإذا عصاه ، دعاه إلى الإسراف والتبذير . والله تعالى إنما يأمر بأعدل الأمور وأقسطها ويمدح عليه ، كما في قوله عن عباد الرّحمن الأبرار ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [ سُورة الفُرقان ٦٧] .

وقال هنا : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ كناية عن شدّة الإمساك والبُخل .

﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ فتنفق فيما لا ينبغي ، أو زيادة على ما ينبغي .

﴿فَتَقْعُدَ﴾ إن فعلت ذلك ﴿مَلُومًا﴾ أي : تُلام على ما فعلت ﴿مَّحْسُورًا﴾ أي : حاسر اليد فارغها فلا بقي ما في يدك من المال ولا خلفه مدح وثناء .

وهذا الأمر بإيتاء ذي القربى مع القُدرة والغنى ، فأما مع العدم أو تعسُّر النفقة الحاضرة فأمر تعالى أن يردُّوا ردًّا جميلا فقال : ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي : تعرض عن إعطائهم إلى وقت آخر ترجو فيه من الله تيسير الأمر .

﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي : لطيفا برفق ووعد بالجميل عند سنوح الفرصة واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر لينقلبوا عنك مطمئنة خواطرهم كما قال تعالى : ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ .

وهذا أيضا من لُطف الله تعالى بالعباد أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه لأن انتظار ذلك عبادة ، وكذلك وعدهم بالصدقة والمعروف عند التيسر عبادة حاضرة لأن الهم بفعل الحسنة حسنة ، ولهذا ينبغي للإنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير وينوي فعل ما لم يقدر عليه ليثاب على ذلك ولعل الله ييسر له بسبب رجائه .

ثم أخبر تعالى أنه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدره ويضيقه على من يشاء حكمة منه ، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ فيجزيهم على ما يعلمه صالحا لهم ويُدبِّرهم بلُطفه وكرمه .

[٣١ – ١٧] : ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾

وهذا من رحمته بعباده حيث كان أرحم بهم من والديهم ، فنهى الوالدين أن يقتلوا أولادهم خوفا من الفقر والإملاق وتكفَّل برزق الجميع .

وأخبر أن قتلهم كان خطأ كبيرا أي : من أعظم كبائر الذنوب لزوال الرحمة من القلب والعقوق العظيم والتجرُّؤ على قتل الأطفال الذين لم يجر منهم ذنب ولا معصية .

[٣٢ - ١٧] : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ .

والنهي عن قُربانه أبلغ من النهي عن مُجرَّد فعله لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مُقدِّماته ودواعيه فإن : « من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه » خصوصا هذا الأمر الذي في كثير من النفوس أقوى داع إليه .

ووصف الله الزنى وقبَّحه بأنه ﴿كَانَ فَٰحِشَةً﴾ أي : إثما يستفحش في الشرع والعقل والفِطَر لتضمُّنه التجري على الحرمة في حق الله وحق المرأة وحق أهلها أو زوجها وإفساد الفراش واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفاسد .

وقوله : ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي : بئس السبيل سبيل من تجرَّأ على هذا الذنب العظيم .

[٣٣ - ١٧] : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى الْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ .

وهذا شامل لكُلِّ نفس ﴿حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قتلها من صغير وكبير وذكر وأنثى وحر وعبد ومسلم وكافر له عهد .

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالنفس بالنفس والزاني المُحْصَن والتارك لدينه المُفارِق للجماعة والباغي في حال بغيه إذا لم يندفع إلا بالقتل .

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ أي : بغير حق ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ وهو أقرب عصباته وورثته إليه ﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي : حُجَّة ظاهرة على القصاص من القاتل ، وجعلنا له أيضا تسلُّطا قدريًّا على ذلك ، وذلك حين تجتمع الشروط الموجبة للقصاص كالعمد العدوان والمكافأة .

﴿فَلَا يُسْرِف﴾ الولي ﴿فِّى الْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ والإسراف مجاوزة الحد إما أن يُمثِّل بالقاتل أو يقتله بغير ما قتل به أو يقتل غير القاتل .

وفي هذه الآية دليل إلى أن الحق في القتل للولي فلا يقتص إلا بإذنه وإن عفا سقط القصاص ، وأن ولي المقتول يعينه الله على القاتل ومن أعانه حتى يتمكَّن من قتله .

[٣٤ - ١٧] : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ .

وهذا من لُطفه ورحمته تعالى باليتيم الذي فقد والده وهو صغير غير عارف بمصلحة نفسه ولا قائم بها أن أمر أولياءه بحفظه وحفظ ماله وإصلاحه وأن لا يقربوه ﴿إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ من التجارة فيه وعدم تعريضه للأخطار ، والحرص على تنميته ، وذلك ممتد إلى أن ﴿يَبْلُغَ﴾ اليتيم ﴿أَشُدَّهُۥ﴾ أي : بلوغه وعقله ورشده ، فإذا بلغ أشده زالت عنه الولاية وصار ولي نفسه ودفع إليه ماله .

كما قال تعالى : ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوٓا إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [ سورة النساء ٦ ] ، ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ الذي عاهدتم الله عليه والذي عاهدتم الخلق عليه . ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ أي : مسئولين عن الوفاء به وعدمه ، فإن وفيتم فلكم الثواب الجزيل وإن لم تفوا فعليكم الإثم العظيم .

[٣٥ – ١٧] : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ .

وهذا أمر بالعدل وإيفاء المكاييل والموازين بالقسط من غير بخس ولا نقص .

ويؤخذ من عموم المعنى النهي عن كل غش في ثمن أو مثمن أو معقود عليه والأمر بالنصح والصدق في المعاملة .

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ من عدمه ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي : أحسن عاقبة به يسلم العبد من التَّبِعات وبه تنزل البركة .

[٣٦ – ١٧] : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ .

أي : ولا تتَّبع ما ليس لك به علم ، بل تثبَّت في كل ما تقوله وتفعله ، فلا تظن ذلك يذهب لا لك ولا عليك ، ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسئول عما قاله وفعله وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته أن يعد للسؤال جوابا ، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعُبُودية الله وإخلاص الدين له وكفها عما يكرهه الله تعالى .

[٣٧ – ٣٩ – ١٧] : ﴿وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي : كِبْرا وتيها وبَطَرا مُتكبِّرا على الحق ومُتعاظِما على الخلق .

﴿إِنَّكَ﴾ في فعلك ذلك ﴿لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ في تكبُّرك بل تكون حقيرا عند الله ومُحتقَرا عند الخلق مبغوضا ممقوتا قد اكتسبت أشر الأخلاق واكتسبت أرذلها من غير إدراك لبعض ما تروم .

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ المذكور الذي نهى الله عنه فيما تقدَّم من قوله : ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ والنهي عن عقوق الوالدين وما عطف على ذلك ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ أي : كل ذلك يسوء العاملين ويضرهم والله تعالى يكرهه ويأباه .

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي بيَّناه ووضحناه من هذه الأحكام الجليلة ، ﴿مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ فإن الحكمة الأمر بمحاسن الأعمال ومكارم الأخلاق والنهي عن أراذل الأخلاق وأسوأ الأعمال .

وهذه الأعمال المذكورة في هذه الآيات من الحكمة العالية التي أوحاها رب العالمين لسيد المرسلين في أشرف الكتب ليأمر بها أفضل الأُمم فهي من الحكمة التي من أوتيها فقد أوتي خيرا كثيرا .

ثم ختمها بالنهي عن عبادة غير الله كما افتتحها بذلك فقال : ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ﴾ أي : خالدا مُخلَّدا فإنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنّة ومأواه النّار .

﴿مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي : قد لحقتك اللائمة واللعنة والذم من الله وملائكته والناس أجمعين .

[ ١٧ – ٤٠ ] : ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ .

وهذا إنكار شديد على من زعم أن الله اتّخذ من خلقه بنات فقال : ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ أي : اختار لكم الصفوة والقسم الكامل واتّخذ لنفسه من الملائكة إناثا حيث زعموا أن الملائكة بنات الله .

﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ فيه أعظم الجرأة على الله حيث نسبتم له الولد المُتضمّن لحاجته واستغناء بعض المخلوقات عنه وحكمتم له بأردأ القسمين ، وهن الإناث وهو الذي خلقكم واصطفاكم بالذكور فتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

[ ١٧ – ٤٤ : ٤١ ] : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤١ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ .

يُخبر تعالى أنه صرف لعباده في هذا القرآن أي : نوع الأحكام ووضّحها وأكثر من الأدلّة والبراهين على ما دعا إليه ، ووعظ وذكر لأجل أن يتذكروا ما ينفعهم فيسلكوه وما يضرهم فيدعوه .

ولكن أبى أكثر الناس إلا نُفورا عن آيات الله لبغضهم للحق ومحبّتهم ما كانوا عليه من الباطل حتى تعصّبوا لباطلهم ولم يُعيروا آيات الله لهم سمعا ولا ألقوا لها بالا .

ومن أعظم ما صرف فيه الآيات والأدلّة التوحيد الذي هو أصل الأصول ، فأمر به ونهى عن ضده وأقام عليه من الحجج العقلية والنقلية شيئا كثيرا بحيث من أصغى إلى بعضها لا تدع في قلبه شكا ولا ريبا .

ومن الأدلّة على ذلك هذا الدليل العقلي الذي ذكره هنا فقال : ﴿قُل﴾ للمشركين الذين يجعلون مع الله إلها آخر : ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي : على موجب زعمهم وافترائهم ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي : لاتّخذوا سبيلا إلى الله بعبادته والإنابة إليه والتقرّب وابتغاء الوسيلة ، فكيف يجعل العبد الفقير الذي يرى شدة افتقاره لعُبوديّة ربه إلها مع الله ؟ ! ، هل هذا إلّا من أظلم الظلم وأسفه السفه ؟ .

فعلى هذا المعنى تكون هذه الآية كقوله تعالى : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [ سُورة الإسراء ٥٧ ] .

وكقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۝١٧ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [ سُورة الفُرقان ١٧ – ١٨ ] .

ويحتمل أن المعنى في قوله : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي : لطلبوا السبيل وسعوا في مُغالبة الله تعالى ، فإما أن يعلوا عليه فيكون من علا وقهر هو الرب الإله ، فأما وقد علموا أنهم يقرون أن آلهتهم التي يعبدون من دون الله مقهورة مغلوبة ليس لها من الأمر شيء فلم اتّخذوها

وهي بهذه الحال ؟ ، فيكون هذا كقوله تعالى : ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ [ سُورة المؤمنون ٩١] .

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ أي : تقدَّس وتنزَّه وعلت أوصافه ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من الشرك به واتِّخاذ الأنداد معه ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ فعلا قدره وعظم وجلت كبرياؤه التي لا تقادر أن يكون معه آلهة فقد ضل من قال ذلك ضلالا مبينا وظلم ظلما كبيرا .

لقد تضاءلت لعظمته المخلوقات العظيمة وصغرت لدى كبريائه السماوات السبع ومن فيهن والأرضون السبع ومن فيهن ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ﴾ [ سُورة الزُّمر ٦٧] .

وافتقر إليه العالم العلوي والسفلي فقرا ذاتيًا لا ينفك عن أحد منهم في وقت من الأوقات .

هذا الفقر بجميع وجوهه فقر من جهة الخلق والرزق والتدبير ، وفقر من جهة الاضطرار إلى أن يكون معبودهم ومحبوبهم الذي إليه يتقرَّبون وإليه في كل حال يفزعون ، ولهذا قال : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ﴾ من حيوان ناطق وغير ناطق ومن أشجار ونبات وجامد وحي وميِّت ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ بلسان الحال ولسان المقال ، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ أي : تسبيح باقي المخلوقات التي على غير لغتكم بل يحيط بها علام الغيوب .

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ حيث لم يُعاجِل بالعقوبة من قال فيه قولا تكاد السماوات والأرض تتفطَّر منه وتخر له الجبال ولكنه أمهلهم وأنعم عليهم وعافاهم ورزقهم ودعاهم إلى بابه ليتوبوا من هذا الذنب العظيم ليعطيهم الثواب الجزيل ويغفر لهم ذنبهم ، فلولا حلمه ومغفرته لسقطت السماوات على الأرض ولما ترك على ظهرها من دابة .

[ ٤٥ : ٤٨ – ١٧] : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ .

يُخبر تعالى عن عقوبته للمُكذِّبين بالحق الذين ردُّوه وأعرضوا عنه أنه يحول بينهم وبين الإيمان فقال :

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الذي فيه الوعظ والتذكير والهدى والإيمان والخير والعلم الكثير .

﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ يسترهم عن فهمه حقيقة وعن التحقُّق بحقائقه والانقياد إلى ما يدعو إليه من الخير .

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي : أغطية وأغشية لا يفقهون معها القرآن بل يسمعونه سماعا تقوم به عليهم الحُجَّة ، ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ﴾ أي : صمما عن سماعه ، ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ داعيا لتوحيده ناهيا عن الشرك به .

﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ من شدَّة بغضهم له ومحبَّتهم لما هم عليه من الباطل ، كما قال تعالى :

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [ سورة الزُّمر ٤٥] .

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ أي : إنما منعناهم من الانتفاع عند سماع القرآن لأننا نعلم أن مقاصدهم سيئة يريدون أن يعثروا على أقل شيء ليقدحوا به ، وليس استماعهم لأجل الاسترشاد وقبول الحق وإنما هم مُتعمّدون على عدم اتباعه ، ومن كان بهذه الحالة لم يُفِده الاستماع شيئا ولهذا قال : ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ أي : متناجين ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ في مناجاتهم : ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ فإذا كانت هذه مناجاتهم الظالمة فيما بينهم وقد بنوها على أنه مسحور فهم جازمون أنهم غير معتبرين لما قال ، وأنه يهذي لا يدري ما يقول .

قال تعالى : ﴿ٱنظُرْ﴾ متعجبا ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ التي هي أضل الأمثال وأبعدها عن الصواب ﴿فَضَلُّوا۟﴾ في ذلك أو فصارت سببا لضلالهم لأنهم بنوا عليها أمرهم والمبني على فاسد أفسد منه .

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي : لا يهتدون أي اهتداء فنصيبهم الضلال المحض والظلم الصرف .

[ ٤٩ - ٥٢ : ١٧ ] : ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

يُخبر تعالى عن قول المنكرين للبعث وتكذيبهم به واستبعادهم بقولهم : ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ أي : أجسادا بالية ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي : لا يكون ذلك وهو محال بزعمهم ، فجهلوا أشد الجهل حيث كذّبوا رسل الله وجحدوا آيات الله وقاسوا قدرة خالق السماوات والأرض بقدرتهم الضعيفة العاجزة .

فلما رأوا أن هذا ممتنع عليهم لا يقدرون عليه جعلوا قدرة الله كذلك .

فسبحان من جعل خلقا من خلقه يزعمون أنهم أولو العقول والألباب مثالا في جهل أظهر الأشياء وأجلاها وأوضحها براهين وأعلاها ليرى عباده أنه ما ثم إلا توفيقه وإعانته أو الهلاك والضلال .

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ سورة آل عمران ٨] .

ولهذا أمر رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء المنكرين للبعث استبعادا : ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ﴾ أي : يعظم ﴿فِى صُدُورِكُمْ﴾ لتسلموا بذلك على زعمكم من أن تنالكم قدرة الله أو تُنفّذ فيكم مشيئته ، فإنكم غير معجزي الله في أي حالة تكونون وعلى أي وصف تتحوّلون ، وليس لكم في أنفسكم تدبير في حالة الحياة وبعد الممات .

فدعوا التدبير والتصريف لمن هو على كل شيء قدير وبكل شيء محيط .

﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ حين تقيم عليهم الحُجّة في البعث : ﴿مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فكما فطركم ولم تكونوا شيئا مذكورا فإنه سيعيدكم خلقا جديدا ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [ سورة الأنبياء ١٠٤] ، ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي : يهزونها إنكارا وتعجبا مما قلت ، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾

أي : متى وقت البعث الذي تزعمه على قولك ؟ لا إقرار منهم لأصل البعث بل ذلك سفه منهم وتعجيز ، ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ فليس في تعيين وقته فائدة ، وإنما الفائدة والمدار على تقريره والإقرار به وإثباته وإلا فكل ما هو آت فإنه قريب .

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ للبعث والنشور وينفخ في الصور ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي : تنقادون لأمره ولا تستعصون عليه ، وقوله : ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أي : هو المحمود تعالى على فعله ويجزي به العباد إذا جمعهم ليوم التناد .

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ من سرعة وقوعه وأن الذي مر عليكم من النعيم كأنه ما كان .

فهذا الذي يقول عنه المنكرون : ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾ ؟ يندمون غاية الندم عند وروده ويقال لهم : ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [ سُورة المُطفِّفين ١٧] .

[ **١٧ – ٥٥ : ٥٣** ] : ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ .

وهذا من لُطفه بعباده حيث أمرهم بأحسن الأخلاق والأعمال والأقوال الموجبة للسعادة في الدنيا والآخرة فقال :﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وهذا أمر بكل كلام يُقرِّب إلى الله من قراءة وذكر وعلم وأمر بمعروف ونهي عن منكر وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم ، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين فإنه يأمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما .

والقول الحسن داع لكُلِّ خُلُقٍ جميل وعمل صالح فإن من ملك لسانه ملك جميع أمره .

وقوله : ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي : يسعى بين العباد بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم .

فدواء هذا أن لا يطيعوه في الأقوال غير الحسنة التي يدعوهم إليها ، وأن يلينوا فيما بينهم لينقمع الشيطان الذي ينزغ بينهم فإنه عدوهم الحقيقي الذي ينبغي لهم أن يحاربوه فإنه يدعوهم ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [ سُورة فاطر ٦] .

وأما إخوانهم فإنهم وإن نزغ الشيطان فيما بينهم وسعى في العداوة فإن الحزم كل الحزم السعي في ضد عدوِّهم وأن يقمعوا أنفسهم الأمارة بالسوء التي يدخل الشيطان من قبلها فبذلك يطيعون ربَّهم ويستقيم أمرهم ويُهْدَون لرُشْدهم .

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ من أنفسكم فلذلك لا يريد لكم إلَّا ما هو الخير ولا يأمركم إلا بما فيه مصلحة لكم وقد تريدون شيئا والخير في عكسه .

﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ فيوفق من شاء لأسباب الرحمة ويخذل من شاء فيضل عنها فيستحق العذاب .

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ تُدبِّر أمرهم وتقوم بمجازاتهم وإنما الله هو الوكيل وأنت مبلغ هاد إلى صراط مستقيم .

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ من جميع أصناف الخلائق فيعطي كلا منهم ما يستحقه تقتضيه حكمته ويفضل بعضهم على بعض في جميع الخصال الحسية والمعنوية كما فضل بعض النبيين المشتركين بوحيه على بعض بالفضائل والخصائص الراجعة إلى ما من به عليهم من الأوصاف الممدوحة والأخلاق المرضية والأعمال الصالحة وكثرة الأتباع ونزول الكتب على بعضهم المشتملة على الأحكام الشرعية والعقائد المَرْضِيَّة ، كما أنزل على داود زبورا وهو الكتاب المعروف .

فإذا كان تعالى قد فضل بعضهم على بعض وآتى بعضهم كتبا فلم ينكر المُكذِّبون لمحمد ﷺ ما أنزله الله عليه وما فضله به من النُّبوَّة والكتاب .

[ ٥٦ : ٥٧ – ١٧ ] : ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ .

يقول تعالى : ﴿قُلِ﴾ للمُشرِكين بالله الذين اتَّخذوا من دونه أندادا يعبدونهم كما يعبدون الله ويدعونهم كما يدعونه ملزما لهم بتصحيح ما زعموه واعتقدوه إن كانوا صادقين : ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ آلهة من دون الله فانظروا هل ينفعونكم أو يدفعون عنكم الضر ، فإنهم لا ﴿يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ من مرض أو فقر أو شدة ونحو ذلك فلا يدفعونه بالكلية ، ﴿وَلَا﴾ يملكون أيضا تحويله من شخص إلى آخر من شدَّة إلى ما دونها .

فإذا كانوا بهذه الصفة فلأي شيء تدعونهم من دون الله ؟ ، فإنهم لا كمال لهم ولا فِعَال نافعة ، فاتِّخاذهم آلهة نقص في الدين والعقل وسفه في الرأي .

ومن العجب أن السفه عند الاعتياد والممارسة وتلقيه عن الآباء الضالين بالقبول يراه صاحبه هو الرأي : السديد والعقل المفيد .

ويرى إخلاص الدين لله الواحد الأحد الكامل المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة هو السفه والأمر المتعجب منه كما قال المشركون : ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ سُورة ص ٥ ] .

ثم أخبر أيضا أن الذين يعبدونهم من دون الله في شغل شاغل عنهم باهتمامهم بالافتقار إلى الله وابتغاء الوسيلة إليه فقال : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ من الأنبياء والصالحين والملائكة ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أي : يتنافسون في القُرب من ربِّهم ويبذلون ما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة المُقرِّبة إلى الله تعالى وإلى رحمته ، ويخافون عذابه فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب .

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي : هو الذي ينبغي شدة الحذر منه والتوقِّي من أسبابه .

وهذه الأمور الثلاثة الخوف والرجاء والمحبَّة التي وصف الله بها هؤلاء المُقرَّبين عنده هي الأصل والمادة في كل خير .

فمن تمَّت له تمَّت له أموره وإذا خلا القلب منها ترحَّلت عنه الخيرات وأحاطت به الشرور .

وعلامة المحبَّة ما ذكره الله أن يجتهد العبد في كل عمل يُقرِّبه إلى الله وينافس في قربه بإخلاص

الأعمال كلها لله والنصح فيها وإيقاعها على أكمل الوجوه المقدور عليها ، فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك فهو كاذب .

[٥٨ – ١٧] : ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾.

أي : ما من قرية من القُرى المُكذِّبة للرُسل إلَّا لا بد أن يصيبهم هلاك قبل يوم القيامة أو عذاب شديد كتاب كتبه الله وقضاء أبرمه ، لا بد من وقوعه ، فليُبادر المُكذِّبون بالإنابة إلى الله وتصديق رسله قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب ، ويحق عليهم القول .

[ ٥٩: ٦٠ – ١٧] : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾.

يذكر تعالى رحمته بعدم إنزاله الآيات التي يقترح بها المُكذِّبون ، وأنه ما منعه أن يرسلها إلا خوفا من تكذيبهم لها ، فإذا كذَّبوا بها عاجلهم العقاب وحل بهم من غير تأخير كما فعل بالأوَّلين الذين كذَّبوا بها .

ومن أعظم الآيات الآية التي أرسلها الله إلى ثمود وهي الناقة العظيمة الباهرة التي كانت تصدر عنها جميع القبيلة بأجمعها ومع ذلك كذَّبوا بها فأصابهم ما قصَّ الله علينا في كتابه ، وهؤلاء كذلك لو جاءتهم الآيات الكِبار لم يؤمنوا ، فإنه ما منعهم من الإيمان خفاء ما جاء به الرسول واشتباهه هل هو حق أو باطل ؟ ، فإنه قد جاء من البراهين الكثيرة ما دل على صحَّة ما جاء به الموجب لهداية من طلب الهداية فغيرها مثلها فلا بد أن يسلكوا بها ما سلكوا بغيرها فترك إنزالها والحالة هذه خير لهم وأنفع .

وقوله : ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ أي : لم يكن القصد بها أن تكون داعية وموجبة للإيمان الذي لا يحصل إلا بها ، بل المقصود منها التخويف والترهيب ليرتدعوا عن ما هم عليه .

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ علما وقدرة فليس لهم ملجأ يلجأون إليه ولا ملاذ يلوذون به عنه ، وهذا كاف لمن له عقل في الانكفاف عما يكرهه الله الذي أحاط بالناس .

﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً﴾ أكثر المُفسِّرين على أنها ليلة الإسراء .

﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ﴾ التي ذكرت ﴿فِي الْقُرْآنِ﴾ وهي شجرة الزَّقُّوم التي تنبت في أصل الجحيم .

والمعنى إذا كان هذان الأمران قد صارا فتنة للناس حتى استلج الكفار بكفرهم وازداد شرهم وبعض من كان إيمانه ضعيفا رجع عنه بسبب أن ما أخبرهم به من الأمور التي كانت ليلة الإسراء ومن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان خارقا للعادة .

والإخبار بوجود شجرة تنبت في أصل الجحيم أيضا من الخوارق فهذا الذي أوجب لهم التكذيب . فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوارق الجسيمة ؟ .

أليس ذلك أولى أن يزداد بسببه شرهم ؟ ! ، فلذلك رحمهم الله وصرفها عنهم ، ومن هنا تَعْلَم أن عدم التصريح في الكتاب والسُنَّة بذكر الأمور العظيمة التي حدثت في الأزمنة المُتأخِّرة أولى وأحسن لأن الأُمور

التي لم يُشاهِد الناس لها نظيرا رُبَّما لا تقبلها عقولهم لو أخبروا بها قبل وقوعها ، فيكون ذلك ريبا في قلوب بعض المؤمنين ومانعا يمنع من لم يدخل الإسلام ومُنفِّرا عنه ، بل ذكر الله ألفاظا عامَّة تتناول جميع ما يكون .

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بالآيات ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التملِّي بالشر ومحبَّته وبغض الخير وعدم الانقياد له .

[ ٦١: ٦٥ - ١٧] : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ .

يُنبِّه تبارك وتعالى عباده على شدَّة عداوة الشيطان وحرصه على إضلالهم وأنه لما خلق الله آدم استكبر عن السجود له و ﴿قَالَ﴾ مُتكبِّرا : ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ أي : من طين وبزعمه أنه خير منه لأنه خلق من نار ، وقد تقدَّم فساد هذا القياس الباطل من عِدَّة أوجه .

فلمَّا تبيَّن لإبليس تفضيل الله لآدم ﴿قَالَ﴾ مُخاطِبا لله : ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ أي : لأستأصلنهم بالإضلال ولأغوينهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ عرف الخبيث أنه لا بد أن يكون منهم من يُعاديه ويعصيه .

فقال الله له : ﴿اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ واختارك على ربِّه ووليِّه الحق ، ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ أي : مُدَّخرا لكم موفرا جزاء أعمالكم .

ثم أمره الله أن يفعل كل ما يقدر عليه من إضلالهم فقال : ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ ويدخل في هذا كل داع إلى المعصية ، ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ ويدخل فيه كل راكب وماش في معصية الله فهو من خيل الشيطان ورَجْله .

والمقصود أن الله ابتلى العباد بهذا العدو المُبين الداعي لهم إلى معصية الله بأقواله وأفعاله .

﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ وذلك شامل لكُلِّ معصية تعلَّقت بأموالهم وأولادهم من منع الزكاة والكفَّارات والحقوق الواجبة ، وعدم تأديب الأولاد وتربيتهم على الخير وترك الشر وأخذ الأموال بغير حقها أو وضعها بغير حقها أو استعمال المكاسب الرَّديَّة .

بل ذكر كثير من المُفسِّرين أنه يدخل في مُشاركة الشيطان في الأموال والأولاد ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع ، وأنه إذا لم يسم الله في ذلك شارك فيه الشيطان كما ورد فيه الحديث .

﴿وَعِدْهُمْ﴾ الوعود المُزخرفة التي لا حقيقة لها ولهذا قال : ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي : باطلا مضمحلا كأن يُزيِّن لهم المعاصي والعقائد الفاسدة ويعدهم عليها الأجر لأنهم يظنون أنهم على الحق ، وقال تعالى : ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ [ سُورة البقرة ٢٦٨] .

ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد وذكر ما يعتصم به من فتنته وهو عُبوديَّة الله والقيام بالإيمان والتوكُّل فقال : ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي : تسلُّط وإغواء بل الله يدفع عنهم -بقيامهم بعُبوديَّته- كل شر ويحفظهم من الشيطان الرجيم ويقوم بكفايتهم . ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ لمن توكَّل عليه وأدَّى ما أمر به .

[٦٦ : ٦٩ - ١٧] : ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ .

يذكر تعالى نعمته على العباد بما سخَّر لهم من الفُلْك والسفن والمراكب وألهمهم كيفية صنعتها ، وسخَّر لها البحر المُلتطِم يحملها على ظهره لينتفع العباد بها في الركوب والحمل للأمتعة والتجارة ، وهذا من رحمته بعباده فإنه لم يزل بهم رحيما رؤوفا يؤتيهم من كُلِّ ما تعلَّقت به إرادتهم ومنافعهم .

ومن رحمته الدالة على أنه وحده المعبود دون ما سواه أنهم إذا مسهم الضر في البحر فخافوا من الهلاك لتراكم الأمواج ضلَّ عنهم ما كانوا يدعون من دون الله في حال الرخاء من الأحياء والأموات ، فكأنهم لم يكونوا يدعونهم في وقت من الأوقات لعلمهم أنهم ضعفاء عاجزون عن كشف الضُّر وصرخوا بدعوة فاطر الأرض والسماوات الذي تستغيث به في شدائدها جميع المخلوقات وأخلصوا له الدعاء والتضرُّع في هذه الحال .

فلما كشف الله عنهم الضُّر ونجَّاهُم إلى البر ونسوا ما كانوا يدعون إليه من قبل وأشركوا به من لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع وأعرضوا عن الإخلاص لربِّهم ومَليكهم ، وهذا من جهل الإنسان وكفره فإن الإنسان كَفُور للنِّعم ، إلَّا من هدى الله فمَنَّ عليه بالعقل السليم واهتدى إلى الصراط المستقيم ، فإنه يعلم أن الذي يكشف الشدائد ويُنجِّي من الأهوال هو الذي يستحق أن يُفْرَد وتُخْلَص له سائر الأعمال في الشدَّة والرخاء واليُسر والعُسر .

وأما من خُذِلَ ووكِلَ إلى عقله الضعيف فإنه لم يلحظ وقت الشدَّة إلَّا مصلحته الحاضرة وإنجاءه في تلك الحال .

فلما حصلت له النجاة وزالت عنه المشقَّة ظن بجهله أنه قد أعجز الله ولم يخطر بقلبه شيء من العواقب الدنيوية فضلا عن أمور الآخرة .

ولهذا ذكرهم الله بقوله : ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي : فهو على كل شيء قدير إن شاء أنزل عليكم عذابا من أسفل منكم بالخسف أو من فوقكم بالحاصب وهو العذاب الذي يحصبهم فيصبحوا هالكين ، فلا تظنُّوا أن الهلاك لا يكون إلَّا في البحر ، وإن ظننتم ذلك فأنتم آمنون من ﴿أَن يُعِيدَكُمْ﴾ في البحر ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ أي : ريحا شديدة جدا تقصف ما

أتت عليه .

﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ أي : تبعة ومطالبة فإن الله لم يظلمكم مثقال ذرَّة .

[ ٧٠ - ١٧ ] : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ .

وهذا من كرمه عليهم وإحسانه الذي لا يُقادَر قدره حيث كرَّم بني آدم بجميع وجوه الإكرام ، فكرَّمهم بالعلم والعقل وإرسال الرُّسُل وإنزال الكتب ، وجعل منهم الأولياء والأصفياء وأنعم عليهم بالنِّعم الظاهرة والباطنة .

﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ﴾ على الرِّكاب من الإبل والبغال والحمير والمراكب البريَّة ، ﴿وَ﴾ في ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ في السُّفُن والمراكب ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من المآكل والمشارب والملابس والمَنَاكِح . فما من طيِّب تتعلَّق به حوائجهم إلَّا وقد أكرمهم الله به ويسَّره لهم غاية التيسير .

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ بما خصَّهم به من المناقب وفضَّلهم به من الفضائل التي ليست لغيرهم من أنواع المخلوقات .

أفلا يقومون بشكر من أوْلى النِّعم ودَفَعَ النِّقَم ولا تحجبهم النِّعم عن المُنْعِم فيشتغلوا بها عن عبادة ربِّهم بل رُبَّما استعانوا بها على معاصيه .

[ ٧١ : ٧٢ - ١٧ ] : ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ .

يُخبر تعالى عن حال الخلق يوم القيامة ، وأنه يدعو كل أناس ، ومعهم إمامهم وهاديهم إلى الرشد ، وهم الرُّسُل ونوَّابهم ، فتُعْرَض كل أُمَّة ، ويحضرها رسولهم الذي دعاهم ، وتعرض أعمالهم على الكتاب الذي يدعو إليه الرسول ، هل هي موافقة له أم لا ؟ ، فينقسمون بهذا قسمين : ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ لكونه اتَّبع إمامه ، الهادي إلى صراط مُستقيم ، واهتدى بكتابه ، فكثُرت حسناته ، وقلَّت سيئاته ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ قراءة سرور وبهجة ، على ما يرون فيها مما يفرحهم ويسرُّهم ، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ مما عملوه من الحسنات .

﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ﴾ الدنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾ عن الحق فلم يقبله ، ولم ينقد له ، بل اتَّبع الضلال ، ﴿فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ عن سلوك طريق الجنَّة كما لم يسلكه في الدنيا ، ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فإن الجزاء من جنس العمل ، كما تدين تدان .

وفي هذه الآية دليل على أن كُلَّ أُمَّة تُدعَى إلى دينها وكتابها ، هل عملت به أم لا ؟ ، وأنهم لا يؤاخذون بشرع نبي لم يؤمروا باتِّباعه ، وأن الله لا يُعذِّب أحدًا إلَّا بعد قيام الحُجَّة عليه ومخالفته لها .

وأن أهل الخير ، يُعطون كتبهم بأيمانهم ، ويحصل لهم من الفرح والسرور شيء عظيم ، وأن أهل الشر بعكس ذلك ، لأنهم لا يقدرون على قراءة كتبهم ، من شدَّة غمهم وحزنهم وثبورهم .

[ ٧٣: ٧٧ - ١٧] : ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ .

يذكر تعالى مِنّته على رسوله محمد ﷺ وحفظه له من أعدائه الحريصين على فتنته بكُلِّ طريق ، فقال : ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا﴾ أي : قد كادوا لك أمرًا لم يدركوه ، وتحيلوا لك ، على أن تفتري على الله غير الذي أنزلنا إليك ، فتجيء بما يوافق أهواءهم ، وتدع ما أنزل الله إليك .

﴿وَإِذًا﴾ لو فعلت ما يهوون ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي حبيبًا صفيًّا ، أعز عليهم من أحبابهم ، لما جَبَلَك الله عليه من مكارم الأخلاق ، ومحاسن الآداب ، المُحبّبة للقريب والبعيد ، والصديق والعدو .

ولكن لتعلم أنهم لم يعادوك وينابذوك العداوة ، إلَّا للحق الذي جئت به لا لذاتك ، كما قال الله تعالى ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [ سُورة الأنعام ٣٣] .

﴿وَ﴾ مع هذا فـ ﴿لَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ على الحق ، وامتننَّا عليك بعدم الإجابة لداعيهم ، ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ من كثرة المُعالجة ، ومحبتك لهدايتهم ، ﴿إِذًا﴾ لو ركنت إليهم بما يهوون ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي لأصبناك بعذاب مُضاعف ، في الحياة الدنيا والآخرة ، وذلك لكمال نعمة الله عليك ، وكمال معرفتك .

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ ينقذك مما يحل بك من العذاب ، ولكن الله تعالى عصمك من أسباب الشر ، ومن البشر فثبّتك وهداك الصراط المستقيم ، ولم تركن إليهم بوجه من الوجوه ، فله عليك أتم نعمة وأبلغ منحة .

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ أي : من بغضهم لمقامك بين أظهرهم ، قد كادوا أن يخرجوك من الأرض ، ويُجلوك منها .

ولو فعلوا ذلك ، لم يلبثوا بعدك فيها إلَّا قليلا ، حتى تحل بهم العقوبة ، كما هي سُنَّة الله التي لا تُحوَّل ولا تُبدَّل في جميع الأمم ، كل أُمَّة كذَّبت رسولها وأخرجته ، عاجلها الله بالعقوبة .

ولما مكر به الذين كفروا وأخرجوه ، لم يلبثوا إلا قليلا ، حتى أوقع الله بهم بـ « بدر » وقتل صناديدهم ، وفضَّ بيضتهم ، فله الحمد .

وفي هذه الآيات ، دليل على شدَّة افتقار العبد إلى تثبيت الله إيَّاه ، وأنه ينبغي له أن لا يزال مُتملِّقًا لربِّه ، أن يثبته على الإيمان ، ساعيا في كل سبب موصِّل إلى ذلك لأن النبي ﷺ وهو أكمل الخلق ، قال الله له : ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ فكيف بغيره ؟ .

**وفيها** : تذكير الله لرسوله مِنّته عليه ، وعصمته من الشر ، فدل ذلك على أن الله يحب من عباده أن